
سورة يس



سورة يس(١)



﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾

(يس) يصح أنْ تكون حروفاً مُقطَّعة مثل (الم) و (طه) ، ويصح أنْ تكون حروفاً مُقطّعة صادفتْ اسماً ؛ لذلك من أسمائه ﷺ : يس وطه ، ولا مانع أن يكون الاسم على حرفين ، بل على حرف واحد مثل (ن) في قوله تعالى :﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ ﴾ [القلم] وقد جُعِل علَماً على سيدنا ذى النون(٢) عليه السلام ، كذلك ؛ (ق) أصبح

---

(١) سورة يس هى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٨٣ آية ، نزلت بعد سورة الجن ، وقبل سورة الفرقان ، فهى السورة رقم ٤٠ فى ترتيب النزول ، وقد حكى القرطبى فى تفسيره (٥٦٣٥/٨) الإجماع على أنها سورة مكية ، ولكنه قال : « إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى ﴿ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ ۝١٢ ﴾ [يس] نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ » وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٦٦/٣) هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى ولكنه قال : « فيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم » .

(٢) النون : الحوت وذو النون لقب يونس بن متّى عليه السلام ، سماه الله ذا النون لأنه حبسه فى جوف الحوت الذى التقمه . [لسان العرب – مادة : نون]. أما (ن) التى فى سورة القلم فقد ورد فيها أقوال منها : أنه الحوت . ومنها أنه الدواة . انظر حكاية هذه الأقوال فى تفسير ابن كثير (٤٠٠/٤ ، ٤٠١) ، ولكن قال الأزهرى : (ن والقلم) لا يجوز فيه غير الهجاء ، ألا ترى أن كُتّاب المصحف كتبوه ن ؟ ولو أُريد به الدواة أو الحوت لكتب نون . [لسان العرب – مادة : نون]

علَماً على الجبل المعروف . إذن : هذه حروف مُقطَّعة ، يمكن أنْ تُنقل إلى العَلَمية ، ويُسمَّى بها[1] .

وكثيراً ما تحدَّثنا عن الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، وكلما مَرَّ بنا حروف مُقطَّعة لا بُدَّ أنْ نتحدث عَمَّا تحتمله من المعاني ، والذي يثبت في الذِّهْن أن الحرف له اسم ومُسمَّى ، اسم الحرف لا يعرفه إلا المتعلم ، أما مُسمَّى الحرف فيعرفه المتعلم ويعرفه الأمي ، الأمي مثلاً يعرف الفعل (أكل) ويقول : أكلتُ ، لكن لا يستطيع أنْ يتهجَّى حروفه ؛ لأنه لا يعرف إلا مُسمَّى الحروف ، أما المتعلم فيعرف اسم الحرف فيقول : ألف فتحة ، وكاف فتحة ، ولام فتحة . فكيف إذن عرف محمد ﷺ أسماء هذه الحروف ونطق بها ، وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ؟ الجواب : أنه علِّم وعُرِّف من ربه عز وجل .

والقرآن جاء معجزة يتحدَّى القوم فيما نبغوا فيه ، والعرب كانوا أهلَ فصاحة وبيان ، ويكفي أنهم كانوا يقيمون المعارض والأسواق للكلمة ، كما نقيم نحن الآن المعارض للصناعات المتميزة ، ومعروف عند العرب سوق عكاظ وسوق المربد والمجنة .. الخ .

وقد بلغ من اهتمامهم بالكلمة والأسلوب أنْ يُعلقوا القصائد

---

(١) ورد في تأويل قوله تعالى : ﴿ يسٓ ① ﴾ [يس] عدة أقوال :
- هو اسم من أسماء محمد ﷺ . قاله سعيد بن جبير . ودليله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ ﴾ [يس] بعدها .
- معناه : يا سيد البشر . قاله أبو بكر الوراق .
- معناه : يا إنسان . أراد محمداً ﷺ . قاله ابن عباس .

وهناك قول آخر ذكره القرطبي في تفسيره (٥٦٢٨/٨) بالإضافة إلى ما سبق ونقله عن الإمام مالك أن يس اسم من أسماء الله ، حتى أنه كان يكره التسمي باسم يس . قال ابن العربي : الذي يجوز التسمي به هو (ياسين) بهذا التهجي . والله أعلم .

الشهيرة عندهم على الكعبة ، وسُمِّيت هذه القصائد « المعلَّقات » ، وهي أشهر ما عُرف من الشعر الجاهلي .

وكَوْن القرآن يتحداهم هذه شهادة لهم بالتفوق ، فالضعيف لا يُتحدى بل القوى ، كما نرى الآن مثلاً فى تحطيم الرقم القياسى فى مجال من المجالات .

وتحدِّى القرآن للعرب في الفصاحة والبلاغة مثل تحدِّى سيدنا موسى للسحرة ، وتحدِّى سيدنا عيسى للأطباء ، إذن : هذه سنة متبعة فى جميع الأمم يتحداها الحق سبحانه بما نبغوا فيه . كذلك القرآن الكريم جاء بلغة العرب وحروفهم وكلماتهم التى ينطقون بها ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله ، لماذا مع أن مادة الكلام واحدة ؟

قالوا : لأن المتكلم بالقرآن هو الحق سبحانه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمَثَل - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : لو أردتَ اختبار مجموعة من عمال النسيج أيُّهم أمهر لا يصح أنْ تعطى أحدهم مثلاً حريراً ، وآخر قطناً ، وآخر صوفاً ؛ لأن المادة الخام مختلفة ، إنما تعطى الجميع مادة واحدة ، ثم تنظر فى نسيج كل منهم ، كذلك القرآن ولغة العرب ، المادة واحدة لكن المتكلم هنا العرب ، والمتكلم هنا الحق سبحانه .

وحين تتأمل حروف العربية تجدها ثمانية وعشرين حرفاً ، والحروف المقطَّعة فى القرآن أربعة عشر ، فهى إذن نصف الحروف العربية .. وللفخر الرازى[1] - رحمه الله - جدول مدهش ينظم هذه

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، قرشى النسب ، أصله من طبرستان ومولده فى الريّ (٥٤٤ هـ) (طهران الآن) وإليها نسبته ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، يقال له « ابن خطيب الريّ » أقبل الناس على كتبه فى حياته يتدارسونها ، كان يحسن الفارسية . من تصانيفه « مفاتيح الغيب » « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

الحـروف ، ويوضح أنهـا وُضـعت هكذا لحكمــة ، ووُضـعَتْ بقـدر وحساب ، هذه الحروف الأربعة عشر تقسم كما يلى :

مجموع حروف اللغـة ثمانيـة وعشرون حـرفاً ، التسـعة الأوائل بداية من الألف إلى الذال لم تأخذ الحروف المقطعة منها إلا حرفين : الألف والحاء ، وتركت منها سبعة أحرف أما التسعة أحرف الأخيرة ، وتبدأ من الفاء فقـد أخذتْ منها الحروف المقطعة سـبعة أحرف هـى : القاف والكـاف واللام والميم والنون والهـاء والياء وتركتْ منهـا الفاء والواو ، فهى إذن على عكس التسـعة الأول .

أما الحـروف العشـرة فى الوسط ، والتى تبدأ من الراء وتـنتهى بالغين ، فلها نَسَق آخر ، حيث أخـذت الحروفُ المقطعة منها الأحرف غيـر المنقوطة ، وهى الراء والسـين والصاد والطاء والعـين ، وتركت منها الزاى والشين والضاد والظاء والغين .

كذلك حـين نتأمل مثـلاً حروف الحلْق تجد الخـاء فى المجمـوعة الأولى لم تُذكر فى الحـروف المقطعة ، وذُكـرت الميم فى المجمـوعة الأخيرة .

وهكذا نرى أن هذه الحروف لم تُوضـع هكذا اعتباطاً أو كما اتفق، إنما وُضـعت بقدر ونظام له حكمـة ووراءه أسرار ، وُضـعـت بهندسة مقصودة الذات فـهى مثل سنان المفتاح ، والله سبـحانه وتعالى يفتح بهـا لمَنْ يشــاء ، ومن حكمـتـه تعـالى أنه لـم يُعْط كل أسـرار هذه الحروف لجيل من الأجيال ، إنمـا وزَّع عطاءها على مَرِّ الأزمان بحيث لا يستـقبل جيل من الأجـيال كلامَ الله بلا عطـاء ، وليظل القرآن نوراً يضىء جنبات الدنيا إلى قيام الساعة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]

هذه السين الدالة على الاستقبال نطق بها سيدنا رسول الله ﷺ وقال ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] وظهرت في عهده أسرار ، ونطق بها مَنْ بعده من الأجيال المتعاقبة ، وظهرت لها أسرار ، وسنظل ننطق بها وتتجلّى لنا أسرارها إلى قيام الساعة ، وإلى أنْ تظهر الآية الكبرى وهى القيامة . إذن : فعطاء القرآن عطاء مستمر لا ينقطع أبداً .

لذلك لما تناقشنا مع بعض المستشرقين في سان فرانسيسكو حول موضوع المخترعين والمكتشفين الذين خدموا البشرية وأسعدوها باختراعاتهم واكتشافاتهم . قال أحدهم : عجباً للمسلمين ! لماذا لا يدخل هؤلاء المكتشفون الذين أسعدوا البشرية الجنة ؟ فأوضحنا له أنهم نعم خدموا البشرية ، لكن لم يكُنِ الله فى بالهم حين اكتشفوا ما اكتشفوا ، بل كان فى بالهم الشهرة والمجد والذِّكْر بين الناس ، وقد نالوا ما يريدون فخلّدنا ذكْراهم وأقمنا لهم التماثيل .. الخ فينطبق عليهم الحديث : « عملتَ ليُقَال وقد قيل »[1]

إذن : هؤلاء العلماء الذين خدموا البشرية وأسعدوها وهم غير مؤمنين بالله ما هم إلا خَدَم سخَّرهم الله لخدمة البشر ، فهم كالشمس والقمر وغيرهما ، سخرهما الله للإنسان لفائدته ولمنفعته ، ما هم إلا جنود من جنود الله يخدمون هذا الحرف فى ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] ليظل يعطى على مَرِّ الأزمان ، وفى كل المستقبل .

هؤلاء العلماء غير المؤمنين بالله مَثَلهم كمثَل خادم عندك قُلْتَ له : احمل هذا الحجر مثلاً ، فقال لك إنه ثقيل علىَّ لا أقوى على حَمْله ، فإنْ قلت له : استعنْ بمَنْ يحمله معك ربما قال لك لا أجد ، لكن إنْ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) ، والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قُلْتَ له احمله وسوف تجد تحته كنزاً هو لك فإنه سيحمله وحده ، في هذه الحالة : أحَمله احتراماً لأمرك ؟ أم حمله طمعاً في الكنز ؟

كذلك لما تقدمتْ العلوم اكتشفوا أن الخمر تضر بالكبد ، فأقلع كثيرون عن شربها مخافة ضررها ، وبعد أنْ عرف العلة ، أمَّا المؤمن فيقلع عنها قبل أنْ يعرف هذه الحقيقة ، يقلع عنها لأن ربه عز وجل نهاه عن شربها فينتهي ثقةً منه في حكمة ربه ، واحتراماً لأمره ، ولو لم يعرف العلة .

ولأن سورة يس ، ثبت في الحديث أنها قلب القرآن[1] فيجب أن نستهل الاستعاذة والتسمية قبلها ، كما استهللناها في السُّوَر قبلها ، فالحق سبحانه الذي أنزل القرآن معجزة وكتاب هداية على سيدنا رسول الله ليصحح للمؤمنين به حركة حياتهم قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل]

وقلنا سابقاً : إن علة هذا الأمر من الأعلى أن الشيطان حينما عصى ربه في السجود لآدم ، وحدث الحوار بينه وبين ربه قال : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] يعني : حتى لا يتميز آدم وبنوه عنِّي في المعصية ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] أي : في أنْ يسلكوا طريقاً غير الطريق الذي رسمه الله لهم ، والطريق الذي رسمه الله لهم هو الصراط المستقيم الذي قال فيه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

نعم ، لأن الشيطان لا يأتي الخمارة ولا أماكن القمار والمعصية ، إنما يتعرض لأهل الطاعات ليفسد عليهم طاعتهم ، والصراط المستقيم

(١) عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » أخرجه أحمد في مسنده [٢٦/٥]

هنا هو منهج الله الذى وضعه لإسعاد البشرية ، فإبليس بدل أنْ ينتظر إلى أنْ تنفذ منهج الله فى حركة الجوارح طاعة ومعصية يأتى للأساس الذى تأخذ عنه تلك الجوارح منهج الحركة ، فإذا قرأتَ القرآن جاء ليفسد عليك القراءة .

لذلك يُعلِّمك ربك - عز وجل - الاستعاذة ، أولاً لتقطع على الشيطان هذا السبيل ؛ لأنه لن ينتظرك حتى تقرأ ، وحتى تأتى بثمرة هذه القراءة فى حركة الحياة ، بل يأتى إلى القرآن نفسه فيفسده عليك من البداية ، فإنْ أردتَ أن تنتصر عليه فاستعذ بالله منه .

وحين تستعيذ منه بالله فإنك تلجأ إلى ركن قوى ودرع واقٍ لا ينفذ إليك منه شيء من وسوسة الشيطان وهَمْزه وغَمْزه ؛ لذلك كان الشيطان واعياً حين قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهم الذين يحتمون منه فى حِمَى ربهم وخالقهم .

أما قوله تعالى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فالحق سبحانه خلق الإنسان ، وجعله سيد هذا الكون ، وسخَّر له كل شيء ، ومما سخَّر له سخر أبعاضه لإرادته ، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته ، فإنْ كان مؤمناً قال : الله واحد . وإنْ كان غير ذلك قال : الله ثالث ثلاثة ، كذلك سخَّر له العين تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم كذلك الرِّجْل ، فكل جوارحك سخَّرها الله لك إنْ أردتَ منها طاعة أطاعتْ ، وإنْ أردتَ منها معصية عصتْ ، فالإرادة هى التى تملى ما تريده ، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالقائد الأعلى للجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة فى مهمة ما ، فعلى الكتيبة أنْ تطيع أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمياء ، حتى لو كانت هذه الأوامر فى غير

صالحهم ، وليس لهم أن يعترضوا عليه حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكَوْا له ما كان من قائدهم المباشر ، كذلك طاعة الجوارح لإرادة الإنسان فى الدنيا .

أما فى الآخرة فسوف تُسْلَب منه هذه القيادة لجوارحه ، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق الأعلى سبحانه ، ففى الآخرة لا سلطانَ لأحد إلا الله :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

فإذا كنتَ تريد عملاً من الأعمال ، هذا العمل يتطلب منك أولاً طاقة عقلية فكرية تخطط له ، ثم يتطلب قوة فى الجوارح لتفعل ، مَن الذى خلق لك العقل المفكر ؟ ومَن الذى أمدَّ جوارحك بالقوة والطاقة الفاعلة ؟ أهى تأتمر لك وتفعل مطلوبك بقوة ذاتية فيك ؟ أم بتقدير الله لها ؟

إذن : عليك أنْ تُقبل على كل فعل ، فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً وعملاً بقولك بسم الله ، وحين تقولها فكأنك تقول للجوارح : أنا لا أطلب منك بقوتى ، ولكن من باطن قوة بسم الله ، فبسم الله أفعل لا بى .

بدليل أن الله تعالى إنْ أراد سلب الإنسان ذاتية الحركة وذاتية الطاقة والفكر فتُشلّ الجوارح ويُشلّ التفكير ، إذن : أَقْبل على كل أعمالك ببسم الله الذى يُعينك عليها .

ثم أنت فى الأعمال تحتاج إلى حكمة ، وإلى قدرة ، وإلى علم .. الخ ، فمَن الجامع لكل هذه الصفات ؟ إنه الله . إذن : فقُلْ بسم الله الجامع لصفات الكمال كله الممدّ خَلْقه بها ، فهو سبحان العالم الذى يمدّك بالعلم ، القادر الذى يمدك بالقدرة ، الحكيم الذى يمدّك بالحكمة ، العزيز الذى يمدّك بالعزة ، القهار الذى يمدّك بالقهر .. الخ .

ألسنا نسمع القاضى يقول عندما يجلس للحكم : باسْم الشعب يعنى : هو لا يحكم بذاته ، إنما يحكم بقوة الشعب ، كذلك المؤمن يقول : بسم الله عند كل عمل يعنى أيتها الجوارح ، أطيعينى من باطن طاعتك لله .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بقوله ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾ [الفاتحة] لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، فكان منهم المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وربما غفل الإنسان عن منهج الله فصدرتْ منه صغائر بل وكبائر ، فكيف يقبل على عمله ببسم الله ؟ وكيف يستعين به سبحانه وقد عصاه ؟

لذلك يقول له ربه عز وجل لا تستح أنْ تقول بسم الله ، لأننى رحمن رحيم ، أغفر لك وأتجاوز عمَّا كان منك ، ولن أتخلَّى عنك ، إذن : تشجَّع ولا تترك الاستعانة باسمى مهما كان منك من ذنوب ، واعتمد فى ذلك على أنِّى رحمن رحيم .

وقد رُوِى أن الأصمعى(1) سمع رجلاً يقول - وهو يطوف

(1) الأصمعى هو عبد الملك بن قُريب الباهلى أبو سعيد ، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، وُلد بالبصرة عام ١٢٢ هـ ، كان كثير التطواف فى البوادى ، أخباره كثيرة جداً ، كان أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر ، له « الأضداد » « خلق الإنسان » ، « الإبل » توفى بالبصرة عام ٢١٦ هـ عن ٩٤ عاماً [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤]

بالكعبة - اللهم إني عاصيك وأستحي أنْ أطلب منك ، لكن أطلب ممَّنْ ، وليس في الكون إلا أنت ؟ فقال له الأصمعي : يا هذا ، إن ربك قد أجابك لحُسن مسألتك له .

والحق سبحانه وتعالى حين يُعدِّد نعمه على عباده يقول ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤)﴾ [إبراهيم] نعم ، لأن عَدَّ الشيء مظنة إحصائه ، ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص جامعات ومعاهد للإحصاء لم يُقبل أحد على عَدِّ نعَم الله ؛ لأنها لا تُعَدُّ ، بل النعمة الواحدة مطمور فيها مَا لا يُحصى مَن النعم ؛ لذلك لم يقُل سبحانه : وإنْ تعدوا نعَم الله ، بل نعمة الله ، فالنعمة الواحدة مستور فيها ما لا يُدركُ من النعمَ .

ونلحظ في هذه الآية أنها وردتْ في موضعين ، لكن لكل منهما تذييل ، فواحدة : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنت أيها الإنسان المُنْعَم عليه مع ما تُقَابل به نعَم الله من الظلم وكفران النعمة ، فربُّكَ المنعم سبحانه يقابل ظلمك وكفرك لنعمه باستدامة النعم ؛ لأنه غفور ورحيم .

وللعلماء أقوال في (يس) قالوا : الياء للنداء و (س) من أسمائه ﷺ ؛ لأن عادة العرب أنْ تحذف بعض حروف الكلمة ، وتُبقى على الحرف المميز قوى الجرْس ، فمثلاً كلمة إنسان ، السين أقوى حرف فيها ؛ لذلك ورد قول النبي ﷺ : « كفى بالسيف شا »[1] والمراد : شاهداً .

---

(١) عن سلمة بن المحبِّق قال : قيل لأبي ثابت ، سعد بن عبادة ، حين نزلت آية الحدود وكان رجلاً غيوراً : أرأيت لو انك وجدت مع امرأتك رجلاً ، أي شيء كنت تصنع ؟ قال : كنت ضاربهما بالسيف . أنتظر حتى أجيء بأربعة ؟ إلى ما ذاك قد قضى حاجته وذهب . أو أقول : رأيت كذا وكذا . فتضربوني الحد ولا تقبلوا لي شهادة أبداً . قال فذكر ذلك للنبي ﷺ . فقال : « كفى بالسيف شاهداً » أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٦٠٦) وأبو داود في سننه (٤٤١٧) وتمام الحديث : « ثم قال : لا ، لا ، أخاف أن يتتابع فيها السكران والغيران » .

ومن ذلك قول الشاعر :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْـضَ هَـذَا التَّدلُّلِ وإنْ كنتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمى فأجْمِلى[1]

والمراد : فاطمة .

ونحن فى حديثنا اليـومى نختصر بعض الحـروف ، فحين ننادى مثلاً يا أحـمد ، بعضنا لا ينطق الدال ، وخاصـة فى لهـجة الدمايطة . إذن : فحَذْف بعـض الحروف وإبقاء بعضـها مما له جَـرْس قوى أمر وارد فى لغة العرب .

وقال آخرون : بل اسمه ﷺ (يس) وحُذِفت ياء النداء والخطاب لمحمد ﷺ .

الحق سبـحانه وتعالى علَّم الإنســان الأسماء كلهـا ، يعنى : علَّمه الكلمـة المطلوبة له فى التـخاطب ، وبعـد ذلك ســاعةَ يتكلم الإنســانُ ويتخاطب يتـواضع ويصطلح على أسماء أخرى ، فالإنســان مثلاً الآن يعـرف (التليفـزيون) ويتـعارف على هذا الاسم ، فـهل علَّم الله آدم اسم (التليفزيون) ؟ لا إنما اصطلح عليه الإنسان بما علَّمه الله .

فالمـعنى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَـاءَ كُلَّهَا (٣١) ﴾ [البقرة] أى : الصـالـحة لتخـاطبه الآن فى البيئـة البدائية ، وعليـه هو أنْ يُنمى لغته ، فـيضع لهذا الشىء اسم كذا ، وهذا اسم كذا .

ونحن نعرف أن الحـروف قسمان : القسم الأول : حـروف مَبْنى يعنى مهـمتهـا بناء الكلمة ، دون أن يكون لها مـعنى غير ذلك ، كـما نقول مثلاً : كتب ، فالكاف والتاء والباء حروف تُبنى منها هذه الكلمة

---

(١) هو من قصيدة لامرىء القيس من بحر الطويل عدد أبياتهـا ٧٧ بيتاً ، وهى معلقته الشهيرة التى أولها : قفا نبك من ذكرى حبـيب ومنزل . والصرم : القطع والقطيعة . ومعنى البيت : يا فاطمة دعى بعض دلالك ، وإن كنت وطنت نفسك على فراقى فأجملى فى الهجران .

دون أنْ تعطى معنى آخر زيادةً على معنى هذا الفعل الذى كوَّنته الحروف .

القسم الثانى : حروف معنى ، وهى أن يكون للحرف معنى يدل عليه بذاته كما نقول : كتبتُ . فهذه التاء الأخيرة تحمل معنى آخر غير معنى الكتابة ؛ لأنها تدل على الفاعل المتكلم فإنْ جاءت مفتوحة دلَّتْ على الفاعل المخاطب ، وإنْ جاءت مكسورة دلَّتْ على المؤنث ، وهكذا .

وقُلْنا : إن اسم الحرف قد يصادف علَماً على شيء ، فالسين مثلاً اسم لنهر معروف ، والعين حرف معجم لكن سُمِّى به أشياء كثيرة : العين الباصرة ، وعين الماء ، والعين بمعنى الجاسوس ، والعين للنفيس من المال من الذهب أو الفضة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② ﴾ [يس] هذه الواو تسمى واو القسم فما دخلتْ عليه كاليمين ، لكن هل المطالب التى يريدها المتكلم من المخاطب تأتى بالقسم أم بالدليل ؟ تأتى بالدليل ، وقد يأتى اليمين فيه الدلالة على الغرض المراد . فمثلاً يقول لك صاحبك : يا أخى أنت لم تُقدِّرنى ، لأننى مررتُ بأزمة ، فلم تقف بجانبى فتقول له : وحياة الشيك الذى كتبتُه لك يوم كذا ، وحياة الهدية التى أخذتها يوم كذا ، فتحلف له بالدليل على صدْقك .

كذلك هنا الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه ﷺ : أنت مرسل وأنا أحلف بالقرآن لأنه دليل على أنك رسول صادق .

كلمة قرآن مصدر لقرأ تقول قرأت قراءة وقرآناً ، ولا بُدَّ أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فقلنا قرآناً لنفرق بين قراءة القرآن وقراءة غَيره ، وهى أيضاً تدل على أنه كتاب مقروء ، ومرة أخرى يسميه الكتاب لأنه مكتوب ، فالقرآن إذن مقروء من الصدور ، مكتوب فى السطور.

ومرة أخرى يسميه الذِّكْر ، لأنه يُذكِّرنا بعهد الفطرة الأولى التى

قال الله فيها : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا التذكير بالعهد الأول يُعَدُّ رحمة من الله بنا ، فمن رحمة الله بنا أن يُذكِّرنا إذا نسينا أو غفلنا ، فمنذ أنْ خلق آدم وإلى الآن ، الحق - تبارك وتعالى - يُذكِّر عباده ، فكما يُلقِّن الوالد ولده حركة الحياة يُلقِّنه أولاً حركة هذا الدين ، ولا بد أنْ يستمر هذا التلقين وهذا التذكير ، وأنْ يتوالى من جيل إلى جيل ؛ لأن طبيعة الإنسان فيه غفلة وفيه نسيان ، وتحدث منه معصية .

لذلك الذين قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾[الزخرف] كاذبون فى هذا القول ؛ لأن آدم وأمته فى البداية كانوا على هُدىً ، فلماذا لم تتبعوهم ؟ إذن : أنتم اتبعتُم الآباء الضالين لا المهتدين .

كذلك حين تتأمل مسألة جمع القرآن تجد أن الذين جمعوا القرآن كانوا يتحرَّوْن فى الآية قبل تسجيلها أن تكون مكتوبة أولاً فى قرطاس أو فى الرقاع والعظام التى سُجِّل عليها القرآن أولاً ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، لماذا ؟

قالوا : لأن القرطاس لا هوى له ، فيغير ما كتب فيه ، أما الإنسان الحافظ فهو عُرْضَة للخطأ والنسيان والغفلة ، فلا بُدَّ أنْ يكون معه آخر يُذكِّره على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

والقرآن وصفه الله بالحكمة ، وهى وَضْع الشيء فى موضعه الحق ليؤدى مهمته ، وكلُّ المعانى الدينية مأخوذة من مُحسَّات قبل الدين ، فمثلاً الفَرَس يركبه الإنسان ليُوصِّله إلى مراداته ، فإنْ كان

مرادك من ركوب الفرس التنزُّه بين الحقول سار بك سَيْراً بطيئاً كسَيْر الحنطور مثلاً ، وإنْ أردتَ به قَطْع المسافة جرى بك كالريح .

لذلك جعلوا للحصان لجاماً يُوضَع في حنكه ليكبح سرعته ، ويتحكم فيه ، هذا اللجام يُسمى الحَكَمَة[1] ومنها الحِكْمَةُ التي تكبح جماح الأهواء ، كي لا تشرد وتضع المسائل في موضعها ، فالإنسان له هوىً يميل به ، وينحرف بحركته عن الجادة ، فيأتي القرآن بالحق الواضح الذي يُقوِّم هذا الميل ويُصلحه ، والقرآن في الحقيقة حكيم ، لأنه محكم من الحكيم الأعلى سبحانه ، إذن : فالقرآن كلام من الحكيم ، وهو بالنسبة للإنسان كالحَكَمة للفرس .

ولحكمة القرآن اختصَّ بأشياء ، فتناول القرآن لا يكون كتناول غيره من الكتب ، فالكتاب العادي أتناوله في أيِّ وقت وعلى أيِّ حال كنت جُنُباً أو مُحدِثاً ، أما القرآن فلا يمسُّه إلا طاهر[2] ، لأنك مع القرآن تُقبل على مقدس له خصوصية ، فإياك أنْ تتناوله وأنت غير طاهر ، كما قال الحق سبحانه[3] : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

---

(١) حكَمة اللجام : ما أحاط بحنكي الدابة ، فهي تأخذ بفم الدابة ، والحكمة : حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . وفي الحديث : « ما من آدمي إلا في رأسه حكمة » وفي رواية : في رأس كل عبد حكمة إذا همَّ بسيئة ، فإن شاء الله تعالى أن يقدعه بها قدعه .[لسان العرب - مادة : حكم]

(٢) اتفق الأئمة ولم يخالف أحد من الصحابة في ذلك على حرمة مس المصحف وحمله بالنسبة للجنب . أما المحدث حدثاً أصغر فقد ذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي وابن حزم وغيرهم إلى أنه يجوز للمحدث حدثاً أصغر مس المصحف ، وأما القراءة له بدون مس فهي جائزة اتفاقاً . [قاله الشيخ سيد سابق في فقه السنة ٤٣/١ وما بعدها] .

(٣) في هذه الآية قولان :

الأول : المطهرون هنا هم الملائكة . قاله ابن عباس وأنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . فعلى هذا القول فالآية لا تخص قراءة القرآن على وضوء أو غير وضوء .

الثاني : أي المطهرون من الجنابة والحدث . والمراد بالقرآن هنا هو المصحف . وقد أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمس القرآن إلا طاهر » .

فالحق سبحانه جعل لك هذه الضوابط النفسية لتعرف أنك مُقبل على كتاب له تميُّز عن سائر الكتب الأخرى .

كذلك للقرآن خصوصية في حروفه ، فالحروف هى التى تُكوِّن الكلمات ، فهى عبارة عن نبرات صوتية ، لكل منها منطقة فى أعضاء الكلام ، فمثلاً حروف تخرج من الجوف والصدر هى :

هَمْزٌ فَهَاءٌ ثُمَّ عَيْنٌ حَاءُ مُهْمَلَتَانِ ثُمَّ غَيْنٌ فَاءُ

فإنْ خرجنا من منطقة الجوف نجد الحروف اللسانية التى تُنطق من اللسان بداية من : (لغلوغه) ثم وسطه ثم طرفه . فالقاف مثلاً تخرج من أقصى اللسان ، والشين والجيم من وسطه ، والضاد واللام والراء من طرفه ، كذلك هناك حروف تخرج من الشَّفة ، كالفاء من باطن الشَّفة السفلى ، والباء من باطن الشفتين معاً ، كذلك الواو يشترك فى نطقها الشفتان .

ولكى نقرأ القرآن قراءة صحيحة لا بُدَّ أنْ نلتزم بهذه المخارج الصوتية ، على خلاف قراءة أيِّ كتاب آخر ، فلا يُشترط له هذا الشرط ؛ لذلك نقول : إن كمال القرآن لا يتعدى ما دام له طريقة معينة ونغمة مضبوطة ، فلا بُدَّ أن تُراعى .

فمثلاً لو أنك تتكلم فى خطبة عادية تقول : أيها السادة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، لقد استدعاني فلان لألتقي به في مكان كذا .. لو نطقتَ هذا الكلام بنغمة القرآن وطريقته لكان شيئاً غير مقبول (بايخ) أمَّا إنْ كان هذا النَّغَم فى القرآن ، فإنه يأتى جميلاً متناسقاً .

إذن : كمال القرآن لا يُتعدَّى حتى فى نطقه ؛ لأن هذا شيء مُختصٌ به وحده دون غيره من الكلام ، فإنْ عدَّيْتَ خصائص القرآن إلى غيره من الكلام جاء سخيفاً مردوداً لا يُقبل .

أذكر ونحن صغار أنهم كانوا ينصحوننا بقراءة كتب الأدب مثل

كـتب المنفلوطى مـثل « العـبـرات » أو « النظرات » لنتـعلم الأسـلوب الجمـيل فى كتـابة الإنشاء ، وبالفـعل كان أسلوبنـا يتحسَّن ويـترقّى بقراءة كـتب الأدب ، ونكتسب منها تعـبيرات جديدة ، فـإنْ جئتَ إلى حـافظ القرآن الذى جـوَّده على القـراءات العشـر أو الأربعـة عشـر ، وقرأتَ له كلمة أو مـقالاً ، فإنك تجد أسلوبه لا يتـأثر بالقرآن لماذا ؟ لأن كمال أسلوب القرآن لا يُتعدَّى .

إذن : نفهـم أن حكمة القـرآن جاءت من هذه الخـصوصـية : فى حـروفـه حكمـة ، وفى كلمـاته حكمـة ، وفى نَظْمـه ، وترتيله ، وفى أسلوبه الذى لا يُبَارى ولا يُنقَل إلى غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا هو جـواب القـسم ، الحق سـبـحـانه يرد على كـفـار مكة ، ويقـسم لهم : إنك يا مـحـمـد لمن المـرسلين ، والمـتكلم حـين يرى المـخاطب خـالى الذِّهْن عن الأمـر الذى يتـحدث فـيـه يُلقى له الكلام طبـيعـياً بدون تـأكيـد ، فإنْ كـان شاكـاً فى الكلام أو مُنكراً له أكّـد المتكلمُ كلامه بمؤكِّد يناسب الشكَّ أو الإنكار .

لذلك الحق سبـحـانه يؤكد هنا كـلامه بأكثر من مـؤكد ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[يس] فاستخدام التـأكيد بإن واللام ، وقبل ذلك القسم؛ لأن الكفـار منكرون لرسـالتـه ﷺ ، وعلى قـدْر الإنكار يكون تأكـيـد الكلام .

وتأمل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[يس] وكانت النتـيجة الإنكار ﴿ قَالُوا مَا

أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ⑮ ﴾ [يس]

لـذلك يؤكدون كـلامهم بأكثر من مؤكـد : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ⑯ ﴾ [يس]

وقلنا : إن هذه الآية جاءت دليلاً وبرهاناً في صورة اليمين ، كأن الله يقول : الذي يقرأ القرآن لا بُدَّ أنْ يؤمن بأنك يا محمد مُرسَل من الله ، لماذا ؟ لأنهم أمة كلام وتذوُّق ، وما وُجدت أمة من الأمم حتى المعاصرة تقيم مـعارض للكلمة ، أما العرب في جاهليتـهم فقد أقاموا للكلمة أسواقـاً ومعارض يتبارى فـيها الخطباء والشـعراء كل عام في المربد وعكاظ وذي المجنة[1] وغيرها .

وقد بلغ اهتمـامهم بالكلمة أن يعلقوا أروع قصـائدهم على أستار الكعـبة ، وما دام العـرب أمة كـلام ، إذن : كان عليـهم أنْ يستقـبلوا القرآن بهذه الملَكة ، وألاَّ يخفى عليـهم إعجازه ، لكنهم كذَّبوه وقالوا : سـحر وقـالوا : شعر وقالوا : افـتراء . فلما أعيتـهم الحيل ولم ينالوا من ذلك شـيئاً قـالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ㉛ ﴾ [الزخرف] يعني : القرآن لا غـبار عليه إلا أنه نزل على محـمد ، هذه آفته عندهـم ؛ لأن ملَكتهم البلاغية لا يصـح أن تقف أمام القرآن أو تُكذِّبه .

لذلك كانوا حتى وهُمْ على كـفرهم يحبون سماع القـرآن ، يتخفَّى الواحـد منهم ، ويذهب يتـسمَّع القـرآن من رسـول الله ليلاً ، وربمـا

---

(١) قـال أبو بكر الأزدي فـيمـا ذكـره المرزوقي في كـتـابه « الأزمنة والأمكنة » باب أسـواق العرب : « أسـواق العرب الكبيـرة كانت في الجـاهلية ثلاث عشـرة سوقاً ، فـأولها قيـاماً : سـوق دومة الجندل ، ثـم صحـار ، ثم دبا ، ثم الشـحر ، ثم رابيـة حـضرمـوت ، ثم ذو المجاز ، ثم نطاة خيبر ، ثم المشقر ، ثم حجر باليـمامة ، ثم منى ، ثم عكاظ ، ثم عدن ، ثم صنعاء »

تقابل الاثنان منهم عند حجرات رسول الله ، فسأل أحدهما الآخر : ماذا أتى بك إلى هنا يا فلان ، فلا يملك إلا أنْ يقول : جئتُ لزيارة خالتى المريضة ، والآخر يقول جئت لكذا وكذا !! لكن هيهات فحالُه يُغنى عن مقاله[1].

لذلك تأمل قول الشاعر فى هذه المسألة :

انْظُروهُمْ وقَدْ تَسَلَّل كُلٌّ بَعْدمَا انفَضَّ مجلِسُ السُّمَّارِ

اخْتِلاساً يَسْعَى لحجرةِ طه لِسَماعِ التنزيل فى الأسْحارِ

اعْذروهم حسنه فلَمَّا تَراءَوْا علَّلوها ببَارِدِ الأعْذَارِ

لذلك كان الواحد منهم حينما يسمع القرآن من رسول الله ويعود إلى قومه ، فيقولون : لقد رجع فلان بغير الوجه الذى ذهب به .

﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

الصراط : هو الطريق ، وله معنى آخر يوم القيامة ، هو الصراط المضروب على متْن جهنم يمرُّ عليه البَارُّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ويختلف المارُّ عليه باختلاف عمله فى الدنيا ، فواحد يمرُّ عليه كالبرق

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٣٧) طبعة دار التراث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا (وتكرر هذا ثلاث ليال متوالية) حتى إذا كانت الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، وفى القصة طول فلتراجع هناك عن رأيهم فيما سمعوه .

الخاطف ، مع أنه أحَدُّ من السيف وأدَقُّ من الشعرة ، وآخر يمرُّ عليه كأسرع جَوَاد ، وآخر يمر عليه حَبْواً ، وآخر يقع فى جهنم[1] ، والعياذ بالله .

وحين تمر على الصراط لن يكون معك عَصًا تحفظ بها توازنك كلاعب السيرك مثلاً ؛ لأن الذى يزنُ حركتك على الصراط هو القرآن الذى استمسكْتَ به فى الدنيا ، فكأن المؤمن حين يمرُّ على الصراط لا يكون توازنه من تحته إنما من أعلى ، من جهة القرآن ، فهو أشبه بالكبارى المعلَّقة التى لا يحملها شىء من تحتها ، لكنها مشدودة من أعلى بما يمسكها ويحفظ توازنها ، كذلك حال المؤمن على الصراط .

والصراط فى معناه العام هو الطريق المستقيم الذى يوصلك للغاية من أقرب مسافة وأيسرها ، لكن عبارة القرآن ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④﴾[يس] فيها إشارة إلى أن الصراط له مهمة ، هى أنْ يُوصِّلك إلى الغاية المرادة ، فالصراط فى خدمتك .

ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿عَلَىٰ هُدًى ⑤﴾ [البقرة] البعض يفهم أن الهداية تقتضى التكاليف وتقييد الحركة ، وأن فى الهداية مشقة وعنتاً ، لكن لفظ الآية يعنى خلاف ذلك ، فمعنى ﴿ عَلَىٰ هُدًى ⑤﴾ [البقرة] أنك تعتلى الهدى ، وكأنه مطية لك تُوصِّلك لغايتك المجيدة ، فهو يحملك ، لا تحمله أنت .

ووَصْف الصراط بأنه مستقيم ، لأننا تعلمنا فى الهندسة أن الخط

---

(١) أخرج أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لجهنم جسر أدق من الشعرة وأحَدّ من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم رب سلم ، فناج مُسلَّم ، ومخدوش مُسلَّم ، ومكوَّر فى النار على وجهه » أخرجه أحمد فى مسنده [٦/ ١١٠] وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/ ٣٥٩] وقال : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق » .

المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فحين تريد مثلاً الانتقال من مكان إلى مكان ، فـ (من) للابتداء ، و (إلى) للغاية التى تريدها ، وما دُمْتَ لا يعنيك إلا البداية والغاية ، فالتيسير يقتضى أنْ تسلك أقرب الطرق وأقصرها وهو الخط المستقيم ؛ لأن كل التواء فى الطريق أو منعطف يكون فى خط السير مُثلَّثاً من ضلعين، ويكون الطريق المستقيم هو الضلع الثالث .

ومعلوم أن مجموع أىِّ ضلعين فى المثلث أطول من الثالث ، إذن : يطول عليك الطريق ؛ لذلك يُحدِّثنا القرآن عن الصراط المستقيم ، وعن سواء السبيل يعنى : الجهة اليمين تساوى الجهة اليسار .

لكن ، لماذا كان طريق المؤمنين صراطاً مستقيماً ؟ لأن الله تعالى هو الذى شرعه فى منهج خَلْقه ، ولأنه مُنزَّل من الله .

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ تَنزِيلَ ۝٥ ﴾ [يس] فاعلم أنه من جهة العلو ، وإنْ كان المنزَّل فى باطن الأرض ؛ لأنه فى واقع الأمر جاء من الأعلى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فالحديد لا تنظر إلا أن مقرَّه فى الأرض ، لكن انظر إلى عُلُوِّ خالقه ؛ لذلك أعطاه الله صفتين : صفةٌ دنيوية ، وأخرى دينية .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فالبأس الشديد لأعداء الله ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فهذه للآخرة ، وفيه منافع للناس أى : فى الدنيا ؛ لذلك تجده المعدن الشائع الانتفاع به ، والأكثر قوةً وصلابةً .

وقوله تعالى ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس] ذكر سبحانه هنا صفة العزة وصفة الرحمة ؛ لأن التنزيل من أعلى منهج يقيد حركة الإنسان بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وأنت مختار تطيع أو تعصى ، فالحق الذي شرع لك هذا المنهج يريد لك الخير ؛ لأنه سبحانه لا يعود عليه شيء من طاعتك ولا تضره معصيتك .

إذن : أنت المقصود من هذه المسألة ؛ لأن الله تعالى عزيز عن خلْقه ، ورحيم بهم ، فإذا نظرتَ إلى العاصي المخالف لمنهج الله ، فالله عزيز قادر على الانتقام ، لا يقدر أحد أن يأخذك من قبضته تعالى ، وإذا نظرتَ إلى المطيع ، فالله رحيم .

وعلة الإنزال :

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ(١) ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

الإنذار : التخويف من معطب مهلك ، ويشترط أنْ يكون الإنذار قبل وقوع الشيء ليؤدي الإنذار مهمته في أنْ يردع الإنسان عنه ، فلا يقع في أسباب الهلاك ، ويستطيع أنْ يحتاط لنفسه ، وأن ينجو بها .

---

(١) في هذه الآية أمر دقيق جداً يجب الانتباه إليه ، فإن بعض المشككين في القرآن قديماً وحديثاً يقولون : كيف يقول القرآن هنا ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝٦﴾ [يس] أي أن العرب لم يُنذروا من قبل ، وهذا ما صرح به ابن كثير في تفسيره ، كيف يقول القرآن هنا هذا ، وفي آية أخرى يقول : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم] أليس إسماعيل من العرب؟

نقول : نعم ، إسماعيل رسول ونبي كما نص القرآن ، بل في آيات أخرى كثيرة صرح القرآن بأنه أوحى إلى إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۝١٦٣﴾ [النساء] ، بل نزل عليه مثل ما نزل على إبراهيم ، كما صرحت الآية ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..۝٨٤﴾ [آل عمران] وهذا يؤكد أن (ما) هنا في الآية اسم موصول ، لا نافية . والمعنى على هذا : لتنذر قوماً الذي أُنذر آباؤهم . أي (مثل الذي) أو (بالذي) . لذلك قال : فهم غافلون أي أنهم غفلوا ونسوا ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل ، فأشركوا مع الله رب البيت الذي بناه ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، وكانوا يُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق ، ولكن علتهم هي الشرك ورفضهم أن يخرج من بني هاشم رسول . والله تعالى أعلى وأعلم . [عادل أبو المعاطي]

ومعنى ﴿ مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝ ﴾ [يس] ساعة تسمع (ما) تظن أنها نافية ، كذلك قال المفسرون . قالوا : لأنهم كانوا أى : الآباء أهل غفلة ، وعلى فترة من الرسل ، فلم يكُنْ لهم رسول ينذرهم . فإنْ قُلْنا : إن رسول الله ﷺ أرسلَ نذيراً للناس كافة ، بمن فيهم من اليهود والنصارى قالوا : لا ، ليس نذيراً لنا ، فقد جاءنا نذير من قبله ، جاءنا موسى وجاءنا عيسى .

وحَلُّ هذا الإشكال أن نقول : نعم موسى عليه السلام أنذر قومه ، وعيسى عليه السلام أنذر قومه ، لكن مرَّتْ عليهم جميعاً فترات اختلفوا فيها وضلُّوا ، ولم يأْتِ لهم نذير يردُّهم عن ضلالهم ، إذن : جاءكم النذير ، لكنكم لم تستمروا على نذارته ، وها هو محمد ﷺ جاءكم نذيراً جديداً .

أو : أن (ما) هنا بمعنى اسم موصول أى : لتنذر قوماً بالذى أُنذر به آباؤهم ، كما أُنذِر آباؤهم من قبلهم . يعنى : لستَ بِدْعاً من الرسل .

وقوله : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ ﴾ [يس] الغفلة أنْ يوجد شيء كان بخاطرك ، ثم لم يتعلَّق قلبك به حتى يدخل فى مرتبة النسيان ، فلا تذكره إلا حين يأتى مَنْ ينبهك إليه ، ويُذكِّرك به ، والنسيان ليس وظيفة القلب ، إنما وظيفة العقل والذاكرة ، فلو أن القلب مُتعلِّق بالشيء ، فكلما طرأتْ عليه غفلة تعلَّق القلبُ بها يسدها ، فتظل فى الذاكرة لا تغفل عنها .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

الحق سبحانه وتعالى سطَّر أزلاً كلَّ ما يكون من مُستقبلى أىِّ دعوة دينية المؤمنين بها والكافرين ، لكنه سبحانه ترك للناس

الاختيار ، وكَوْنه تعالى يسجل ما سيحدث من الناس ، ثم يأتى الحدث منهم وفْق ما سجَّل ، هذا يعنى أن ما قاله قديماً حقٌّ .

والقرآن يقول مرة ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ ۝٧ ﴾ [يس] ، ومرة ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ۝٤٠ ﴾ [هود] ، ومرة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ ۝٨٢ ﴾ [النمل]

وكلها تدل على أن ما سبق فى علم الله من الإخبار عن مختار اختار الهدى أو الضلال مُسجَّل عنده تعالى ، وهو حق كما أخبر الله به ، ولو كان العبد غير مختار لَقُلْنا : إن الله قهره على ما أراد ، لكنه مختار .

والحق سبحانه له طلاقة القدرة وطلاقة العلم ، فلعلمه تعالى بما سيكون سجل وكتب ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد] فقد كان بوسع أبى لهب حين سمع هذه الآية أنْ ينطق بكلمة الإيمان ولو نفاقاً ، وله إذن أنْ يتهم القرآن وأنْ يُكذِّبه ، لكنه لم يفعل وظَلَّ على كفره حتى صدَق فيه إخبار الله مع أنه مختار .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..۝٨ ﴾[المجادلة] وعجيب منهم بعد أنْ فضحهم القرآن ، وأخبرهم بما يدور فى نفوسهم ألاَّ يؤمنوا به ، وألاَّ يسألوا أنفسهم مَن الذى أخبر محمداً بما فى نفوسنا ، ولو لم يكُنْ منهم هذا القول فى أنفسهم بالفعل لواجهوا محمداً ، ولقالوا : لم يحدث منا هذا .

لذلك الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ مع إخباره بمغيبات لا تقع عليها عقول البشر أنكروا رسالته ، ولكنهم أرادوا أنْ يُثبتوا له فوق الرسالة أنه إله يخبر بالشىء قبل حدوثه ، فهو ﷺ يقول لهم : أنا رسول وهم يريدونه إلهاً .

القول السابق وقع على هؤلاء ؛ لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم يكذبون ويعاندون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾[يس] لذلك يقولون : إن للملائكة تعجباً ، قالوا : وما تعجُّب الملائكة ؟ قالوا : ساعة تقع في كون الله حركةٌ يجدون خبرها عندهم في الكتاب ، فيقولون : ما أعلم ربنا وأقدره ، يعني : ما أخبر الله به ، وقع كما أخبر تماماً ، مع أن العباد لهم حرية الاختيار .

ولما حاول الفلاسفة عَرْض هذه المسألة : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾[يس] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين ترك الأمر للمكلَّف بالاختيار ؛ لأن الإنسان نفسه قَبِل أنْ يكون مختاراً لم يلزمه الله بشيء ، على خلاف السموات والأرض والجبال ، فقد رفضتْ هذا الاختيار ، واختارت أن تكون مُسخَّرة لله ، مقهورة لإرادته سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب]

إذن : الحق سبحانه خَيَّر الجميع فأبت السموات والأرض والجبال ، أما الإنسان فقد اغترَّ بعقله وذكائه وتصرفه في الأمور ، فقَبِل الاختيار ، فحكم الله عليه بأنه ظلوم وجهول ، ظلوم لأنه ظلم نفسه بتحمُّل الأمانة ، وجهول لأنه ضمن وقت التحمل ، ولم يَضمن وقت الأداء ، فالعاقل هو الذي ينظر إلى وقت أداء الأمانة ، لا إلى وقت تحمُّلها .

فلو جاءك صديق يُودع لديك مبلغاً من المال كأمانة لحين الحاجة إليه ، فمن السهل عليك أنْ تقبل هذا المبلغ وفي نيتك أداؤه عندما يطلبه صاحبه ، لكنك لا تضمن أنْ تتغير ظروفك فتحتاج إليه ، أو تتغير ذمتك ، أو غير ذلك مما يطرأ على الإنسان .

إذن : فجهل الإنسان هنا أنه أغفل وقت الأداء ، وظُلْمه لنفسه أنه جَرَّ عليها ما لا تقدر عليه ؛ لأنّ شهوات نفسه لا بُدَّ أن تُلح عليه ، ولا بُدَّ أنْ تُوقعه في المخالفة .

قالوا : إن العالم كله محكوم بأمرين : بمشهود ، وغيب ، ومن عجيب الأمر أن المشهود هو الدليل على الغيب ، يعنى خُذْ مما تراه دليلاً على ما لا تراه ؛ لذلك حين نريد أنْ نربى فى الناس الإيمانَ بالله نلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت]

وبعد أنْ تتأمل فى ملكوت الله وآياته فى كونه فتؤمن به يعطيك قضايا أخرى لا يتسع لها عقلك ، لماذا ؟ لأنه سبحانه يريد للإيمان به عنصرين : أنْ تؤمن بالمشهد ، وأن تسلم إذا آمنت بالمشهد على وجود حق ، وهو الحق واجب الوجود ، فتسمع منه سبحانه ، فإنْ أخبرك بشىء لم يتسع له عقلك فاقبله من باطن الإيمان به .

فإنْ قال لك إن الصراط مثلاً أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف فلا تنكر ، وإنْ كان عقلك لا يتسع لإدراكها ، لأن الذى قالها الله المشرع . فأنت أخذتَ من المشهد دليل الغيب وهو الله ، وأخذتَ من دليل الغيب وهو الله إيمانك بأشياء لا يعقلها عقلك ، فكأن المشهد والغيب عليهما مَدار الإيمان وغيره .

فمطلوبات التديُّن إما مطلوبات من القلب ، أو مطلوبات من

الجوارح ، أو مطلوبات من اللسان . فالقلب مطلوب منه العقيدة بأنْ يؤمن بواجب الوجود ، وأنه واحد ، وأن يؤمن بأنه لا بُدَّ أن يبلغنى منهج حياتى ؛ لأنه هو الذى خلقنى وأنا صنعته ، والصانع هو الذى يحدد قانون الصيانة لما صنع ، وقانون الصيانة لا يكون إلا بالبلاغ .

والحق سبحانه لا يكلم الخلْق واحداً واحداً ، إنما يصطفى لهذه المهمة - مهمة البلاغ عنه سبحانه - مَنْ يشاء من الملائكة ومن البشر ، فالمصطفى من الملائكة يبلغ المصطفى من البشر ، والمصطفى من البشر يبلغ بقية الناس ؛ لذلك ربَّى النبى ﷺ الأمة الإسلامية فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن كل واحد انتظر أنْ يكلمه الله مباشرة لاستغرقتْ تربية الأمة أكثر من ذلك بكثير .

إذن : البلاغ عن الله ضرورة من ضرورات وجود الله ، وإلا إذا كان الله موجوداً فأنت لا تعرف أنه سبحانه واحد ، أو أن له شريكاً ، أنت بنفسك لا تعرف هذه المسألة ، لا بُدَّ من رسول يخبرك : عن الله ، عن اسمه ، وعن صفاته ، وعن مراده منك .

لذلك الذين يعبدون الشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر أبلغ رد عليهم أنْ نقول لهم أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لمعبوده فى أمره ونَهْيه ، فنقول : ماذا قالتْ لكم الشمس ؟ بِمَ أمرتكم ؟ وعن أىِّ شىء نهتْكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ إذن : هذه آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، فهى إذن باطلة مردودة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال ، قُلْنا : لو أن طارقاً طرق علينا الباب ، لا بُدَّ أننا جميعاً سنلتقى فى فكرة واحدة ، هى أن طارقاً بالباب يريد الدخول ، إنما لا أحد منا يعرف مَنْ هو ؟ ولا لماذا

أتى ؟ ولا من أين ، أهو بشير أم نذير ؟ هذه أمور لا بد أننا سنختلف فيها .

إذن : علينا أن نقف عند الحد الذى نتفق عليه ، وهو أن طارقاً بالباب ، ونترك لهذا الطارق أن يُعبِّر هو عن نفسه ، فنقول : مَنْ أنت ؟ فيقول : أنا فلان جئت لكذا وكذا . كذلك الحق سبحانه يكفى أنْ تستدل من صُنْع الكون العجيب أن له صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، له كل صفات الكمال ، لكن مَنْ هو ؟ وما مراده منك ؟ هذه مهمة الرسول المبلِّغ عن الله .

لذلك ، فإن خيبة الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل واجب الوجود سبحانه ، بل أرادوا أنْ يتصوروا واجب الوجود ، هذا هو خطؤهم ، ولو وقفوا عند التعقُّل لكان كافياً ، ثم تقول لمن تعقلته : من أنت ؟ وماذا تريد منى ؟ ماذا أعددتَ لى إنْ أطعتُك ؟ وماذا تفعل بى إنْ عصيتُك ؟ وعندها يرسل لك رسولاً يجيبك على كل هذه الأسئلة .

هذا هو مطلوب التديُّن القلبى ، وهو الاعتقاد بوجود إله واجب الوجود ، واحد أحد ، وأنه يرسل الرسول ليبلغ عنه ، وهذا الرسول صادق فى البلاغ مُؤيَّد بمعجزة ، هذه مسألة عقلية واضحة .

وبعد أنْ آمنتَ بهذه العقلية الواضحة المشهودة يخبرك بأشياء غيبية لا دليلَ عليها ، كالإخبار مثلاً عن الجنة وصفاتها ، وأنك ستتمتع فيها وتأكل دون أن تتغوط .. إلخ هذه كلها مسائل يقف العقل أمامها ، لكن مَنْ أخبرك بها ؟ الله الذى صدقك فيما شاهدتَ ، وسبق أنْ آمنتَ به ووثقتَ بكلامه .

ثم يأتى دور مطلوبات الجوارح ، فالإله الذى آمنتَ به لا بُدَّ أنْ

تكون على اتصال دائم به سبحانه ؛ لذلك شرع لك الصلوات الخمس ، وفيها دوام الولاء لله .

لكن ، لماذا جعلها خمس صلوات ؟ قالوا : كانت خمسين لتستوعب كل الزمن يعنى : خمسين تُوزَّع على أربع وعشرين ساعة ، بمعدل صلاة كل نصف ساعة ، ومن رحمة الله بنا أنْ جعلها خمساً فى العمل ، وخمسين فى الأجر ، ومع ذلك يملّ الناس منها .

وأذكر أننا ونحن فى الحرم ، كنا نصلى الظهر مثلاً ، وسرعان ما يُؤذَّن للعصر ، فلا نتمكن من الجلوس فى الحرم والتأمل فيه ، والنكتة المشهورة فى هذا المقام أن الشيخ أحمد رحمه الله كان كثيراً ما يُذكِّر واحداً منا بالصلاة (قوم يا واد صلى) . فقال له : يا شيخ أحمد (احنا جايين نحج ، مش جايين نصلى)

إذن : نقول جُعلَتْ الصلاة خمساً لتستوعب كل اليوم والليلة ، ولتحقق استدامة الولاء لله تعالى ، ثم أنت فى الصلاة نفسها تجد هذه ركعتين ، وهذه ثلاثاً ، وهذه أربعاً دون أنْ يعى عقلُك الحكمة من العدد هنا ، ويكفى أن تقول هنا إن الله هو الذى شرعها كذلك وتقف.

ثم أنت لا تعيش فى المجتمع بمفردك ، بل مع أناس ، منهم الضعيف ، ومنهم الفقير والمحتاج ، وهؤلاء لا بُدَّ أنْ يعيشوا كما تعيش أنت ، فعليك أن تُعينهم بالزكاة أو الصدقة .

ثم شرع لك الصيام ، وهو عبادة تُعوِّدك ألاَّ تعصى الله وتُبعدك عن المخالفة ، حتى تصير الاستقامة عادةً مُتأصِّلة فيك ، والله يريد أنْ يستديم فى التكاليف حرارة العبادة ، لا إلْفَ العادة ؛ لذلك يأتى إلى ما أحلَّه لك فى شعبان ، ويمنعه عنك فى رمضان .

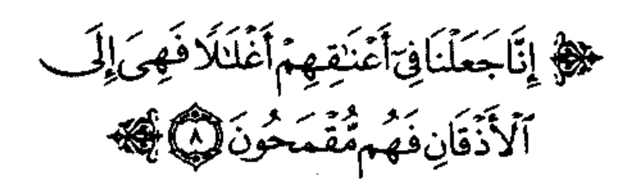
كذلك فى اللسان الذاكر الناطق بالكلمات ، هناك فى القرآن كلام تفهمه ، وكلام يقف أمامه عقلك ، ففواتح السور مثلاً كلها مما تقف فيه العقول ، والباقى مما تتفتَّح فيه العقول وتفهمه ؛ لأن هناك فرقاً بين مَنْ يُقبل على الشىء لتعقله ، ومَنْ يُقبل على الشىء بدون تعقُّل ، ولكن لأن الآمر أمر به .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قُلْنا : هَبْ أن سيداً فى بيته وعنده عمال، فقال لواحد منهم : انقل هذا الحجر من مكانه إلى مكان آخر فقال : لا أقدر وحدى ، وسوف أستعين بزميل لى ، فقال : إن تحته مالاً هو لك ، عندها سيكافح وحده لنقْل الحجر ، إذن : نقله للعلة أم للأمر ؟ للعلة ، والإيمان لا يكون كذلك ، الإيمان لا يكون لعلة ، إنما انصياعاً للأمر .

فالمعنى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ⑦ ﴾[يس] يعنى : وجب وثبت وجاء كما سجلناه عليهم ، وقوله ﴿ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ⑦ ﴾[يس] يعنى : ليس عليهم جميعاً ، وهذا كما قلنا سابقاً احتياط للواقع ، وهو دليل على أن منهم مؤمنين ، ولو رجلاً واحداً ، وهذا الاحتياط من القرآن نسميه « صيانة الاحتمال » .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⑦ ﴾[يس] إخبار يدل على حيثيات هذا الإخبار .

ثم يقول سبحانه :


﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ ﴾

يعطينا الحق سبحانه فى هـذه الآية تصويراً لحال هؤلاء الكافرين المعرضين عن اتباع الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ ﴾[يس] الأغلال : مفـردها غل ، وهو الحديدة التى تمسـك اليد وتشدّها تحت الـذقن ، وحين تشد اليـد تحت الذقن ترتفع الرأس إلى أعلى ، وبالتالى يرتفع مستوى النظر إلى أعلى ، فلا يكاد يرى الإنسانُ طريقه ، ولا يهتدى إلى موضـع قدمه .

وهذه الصورة واضحة أيضاً فى معنى كلمة ﴿ مُّقْمَحُونَ ⑧ ﴾[يس] المقمح : مـأخوذ من إبل قماح ، وقماح الإبل أنهـا حين تذهب لشرب الماء تغرف منه ، ثم ترفع رءوسـها إلى أعلى[1] .

قال بعضهم : إن هذه صورة رسمــها الحق سبحانه لمن غَلَّ يده عن الصـدقة وعن الإنفــاق ، كذلك تُغَـلُّ يده إلى عنقه يوم القـيامـة ، بحيث يؤثر هذا الغُلُّ فى مساره الذى بنى عليه حركة حياته ، والحق سبحانه يوازن دائماً بين ما فعله المـستحق للجزاء والجزاء ، فالجزاء من جنس العمل .

ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ㉞ ﴾[التوبة] هذا هو العمل ، فما الجزاء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ㉞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ㉟ ﴾ [التوبة]

هذه مواضـع ثلاثة من الإنسان : الجـبَاه ، والجُنُوب ، والظُّهور جاءت بهذا الترتيب لتطابق تماماً مـا فعله صاحب المال الذى كنز ماله وضَنَّ به على الفقيـر ، فقد كان الفـقير يأتيه فيـلوى عنه جبهته ويعطـيه جَنْبه ، ثم

---

(١) قال الجوهرى : قمح البعير قمـوحاً وقامح إذا رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب ، فهو بعير قامح . [لسان العرب - مادة : قمح] .

يدير له ظهره وينصرف عنه ، فجاء عذابهم على مقدار ما فعلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾

هل معنى هذا أن الله تعالى يساعدهم ، ويُعينهم على الكفر ؟ قالوا : نعم لأن عبدى حين أناديه فيتأبَّى علىَّ فى ندائى ، ولا يُقبل علىَّ بعبوديته لى أعينه على كفره ؛ لأننى رَبٌّ غنى عنه ، فإنْ أحب الكفر وعشقه ولم يَعُدْ هناك أمل فى هدايته أختم على قلبه ، فلا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه الكفر . لذلك مَنْ تجنَّى عليك وصَدَّ عنك فأعنْه على ذلك ، ولا تُذكِّره بنفسك .

إذن : ما كفر أحد غَصْباً عن الله ، إنما كفر بما أودع الله فيه من اختيار ، ولأنه سبحانه رَبٌّ وهو خالق العباد ، فعليه سبحانه أنْ يُعينهم ، كلاً على ما يريد ، فالذى أراد الإيمان وأحبَّه أعانه على الإيمان ، والذى أراد الكفر وعَشقه أيضاً أعانه عليه وساعده .

لذلك ختم الله على قلوب الكافرين ، وهنا يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ۝٩ ﴾ [يس] يعنى : أمامهم ﴿ سَدًّا ۝٩ ﴾ [يس] حاجزاً ومانعاً ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ۝٩ ﴾ [يس]

هذا مانع مادى خارج عن تكوين الإنسان ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ۝٩ ﴾ [يس] يعنى : جعلنا على أبصارهم غشاوة وغطاءً ، فهم مصدودون عن الحق لأشياء . أولاً : فى ذواتهم أغشينا أبصارهم فلا يرونَ ولا يهتدون ؛ لأنهم بذواتهم لم يذكروا عهد الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناس عليها .

أما الخارج عنهم ، ففي المنهج الذى لم يلتفتوا إليه ، لا فيما أمامهم ، ولا فيما وراءهم ؛ لأن هناك سدّاً يمنعهم ، فلو تذكَّروا ما ينتظرهم لارتدعوا عن غَيِّهم ، ولو تأملوا ما نزل بمَنْ سبقهم من المكذِّبين ، وما حاق بهم من عذاب الله لرجعوا .

لكن جعل الله من أمامهم سَدّاً ، فلا يعرفون ما ينتظرهم ، ومن خلفهم سَدّاً فلا يتدبرون ما حاق بأسلافهم ، ممَّنْ قال الله فيهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [1] .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قُلْتَ : الحق سبحانه جعل سَدّاً يمنعهم من الجهة الأمامية ، وسَدّاً يمنعهم من الجهة الخلفية ، فماذا لو ساروا على جنب إلى اليمين ، أو إلى اليسار ؟ قالوا : لو ساروا وتوجهوا إلى اليسار مثلاً لَصَار اليسار بالنسبة لهم أمام ، واليمين صار خلفاً ، فهم إذن مُحَاصرون بالموانع ، بحيث لا أمل لهم في الرجوع إلى منهج الحق ، وإلى الصواب .

ويصح أن يكون المعنى ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً (٩) ﴾ [يس] أى : مانعاً يمنعهم من التأمل والنظر في الأدلة العقلية المنصوبة أمامهم ليؤمنوا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً (٩) ﴾ [يس] يمنعهم ، فلم

---

(١) هذه أربعة أصناف من العذاب :
- ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هم قوم عاد . والحاصب ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض حصاها ورمالها .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]: هم قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أو صرخة أخمدت منهم الأصوات والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هو قارون ، خسف الله به وبداره الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : فرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا عن آخرهم في صبيحة واحدة .

ينتهوا إلى الفطرة الإيمانية المُودَعة فيهم .(١)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

السوائية هنا بالنسبة لهم ، لا بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لأن رسول الله عليه مجرد البلاغ ، ومادام بلَّغهم فقد انتهت مهمته ، فكأن الله يقول له : اطمئن ولا تحزن ، فإنذارك وعدمه عندهم سيَّان ، إنما بإنذارك أُقيمت عليهم الحجة ، لأنهم أقسموا في موضع سابق : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية (٣/٥٦٤) عن محمد بن كعب القرظي « أن أبا جهل قال لصناديد قريش وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً . فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكان لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه فجعل يذرُّها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : « وقد خرج عليكم ، فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب » وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور (٧/٤٣) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل .

يعنى : إنذارك يا محمد يجدى مع مَنْ يذكر الله ويخافه ، ويؤمن به ، ويؤمن بقدرته تعالى على البعث وعلى الحساب ، هذا الذى ينتفع بالإنذار ويستفيد منه على خلاف المكذِّب للأصل ، كيف يستفيد من الإنذار ؟ ومعنى ﴿ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ [يس] أى : القرآن .

والخشية : خوف ، لكن بمهابة ، فأنت تخاف الله وتهابه ، وكذلك ترجوه ، أما الخوف من غير الله فخوف بكُرْه ؛ لأنه خوف من جبروت ؛ لذلك جاءت بعد الخشية صفة الرحمة ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ ﴾ [يس] فأنت تخاف ممَّن اتصف بالعطف والحنان ، وهذا أدْعى أنْ يُحبِّبك فيمَنْ تخاف منه ويعطفك إليه ، فتكون خشيتك له ممزوجة بالهيبة والوقار ، وبالرجاء فيه ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ ﴾ [يس] حتى لا تنفر من الذى تخافه .

وهذه الخشية تكون من المؤمن ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس] يعنى : ساعةَ يكون غائباً عن الناس منفرداً ، فإنه يخشى الله ، ولا يخشى الناس ، ولا يحتاج إلى رقيب ؛ لأن رقابة البشر للبشر لا تُجدى ؛ لأنك ستجعل عليه رقيباً من جنسه ، وما جاز على المراقَب يجوز على المراقب من تدليس وغيره ، حتى حين تجعل على المراقِب تفتيشاً مفاجئاً لا تأمن التدليس .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً برجل المرور ، فالواحد منا قبل أنْ يُسمح له بقيادة سيارة لا بُدَّ أنْ يمرَّ بشروط قاسية تضمن أولاً سلامة السيارة التى يقودها ، ثم تمكّنه هو من فن القيادة ، ولا بُدَّ أنْ يجتاز الاختبارات اللازمة لذلك ، ومع هذا كله منَّا مَنْ يلتزم ، ومنَّا مَنْ لا يلتزم بالقواعد المرورية ؛ لذلك نجعل رجل المرور ليراقب وينظم حركة المرور فى الشوارع ، وعليه مَنْ يراقبه .

لكن لما وجدوا أن رجل المرور يمكن أنْ يُدلس ، فيأخذ الرخصة من مخالف ، ويتغافل عن آخر استحدثوا آلات للمراقبة مثل الرادارات، لتكون أكثر دقة ، لكن هذه الآلات مَنْ يُشغِّلها ؟ بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم .

إذن : حين يكون المراقب من جنس المراقَب ، فعملية المراقبة لا تفيد ، ولو جعلنا على كل منا رقيباً لاحتجْنا إلى جيوش من الحراس .

إذن : ماذا نفعل لنحكم هذا العالم كله ؟

محمد ﷺ جاء ولرسالته ميزات الرسالة الكاملة ، فرسالته غير محدودة بزمان ولا بمكان ، فالزمان والمكان هما اللذان يحصران الأحداث ، فهما ظرفان للحدث ، فإذا لم يكُنْ حدث موجوداً فلا زمانَ ولا مكانَ ؛ لذلك لا يصح أنْ يُقال بالنسبة لله تعالى : أين ولا متى ، لأن أيْن ومتى مخلوقتان لله .

وإذا كان الزمان والمكان يشتركان في الظرفية للحدث إلا أن المكان ظرف قارٌّ يعني : ثابت ، والزمان ظرف متغير ، فهذا وقته الصبح ، وهذا الظهر ونقول : هذا قبل كذا ، وهذا بعد كذا .

رسول الله جاء برسالة عامة في الزمان وفي المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، وجاء بمنهج لصيانة الإنسان في العالم كله مع اختلاف بيئاته وطبائعه ، وفي الأزمنة باختلاف عصورها ، فكيف تتحقق هذه الصيانة وهذه المراقبة ؟ ما دام محمد ﷺ قد جاء بمنهج ليحكم به العالم كله زماناً ومكاناً ، فلا يصح أنْ يجعل على كل فرد منه رقيباً من جنسه ، ولا حتى من الملائكة ، إنما عليه أنْ يربي في نفوس الناس خشية الله ، وأنْ يزرع في قلوبهم المهابة منه سبحانه بالغيب ،

وهذا هو الرقيب الحقيقي والرقيب الملازم الذى لا ينفكّ عنك ، ولا يفارقك لحظة .

لذلك ، المرأة التي راودها الرجل وأغراها بأنهما في فلاة لا يراهما أحد فقال لها : ما يمنعك منى ، وما يرانا غير الكواكب ؟ فقالت له : يا أبله ، وأين مُكوكب الكواكب ؟ هذه هي خشية الرحمن بالغيب .

ورُوِى أن المعتضد[1] وهو أحد ملوك دولة بنى بُوَيْه أيام الخلافة العباسية ، وكان مشهوراً بالذكاء والعدل ، وحدث أن جاء رجل إلى سوق بغداد ليبيع عِقْداً نفيساً ليحج بثمنه ، فلم يجد في السوق مشترياً لنفاسة العقد ، ومرَّ الرجل بشيخ وقور عليه علامات الصلاح فقال : هذا رجل أمين أُودع عنده هذا العقد أمانة حتى أعود من الحج ، فلما عاد من الحج سأل الشيخ عن العقد الذى تركه عنده ، فأنكره الشيخ ، وخابت كل محاولاته لاستعادة العقد .

سمعه أحد المارة فقال : يا هذا إنه رجل مخادع كذاب ، اذهب إلى المعتضد ، وسوف يعيد لك العقد بذكائه وحيلته ، ذهب الرجل إلى المعتضد وقصَّ عليه القصة فقال له : اذهب في الغد واجلس بجوار هذا الرجل ، وسوف أمرُّ عليك في موكبى فلا تَقُمْ لى وإنْ كلَّمتُك فرُدَّ وأنت جالس ، ودَعْنى أتصرف في هذه المسألة .

وفى الغد مَرَّ المعتضد في موكبه المهيب ، وحوله الحاشية

---

(١) ليس المعتضد ، وإنما هو عضد الدولة واسمه فنّاخسرو ، أبو شجاع ، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية ، ولد ٣٢٤ هـ تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، كان شيعياً ، وكان كثير العمران عظيم الهيبة ، توفى ببغداد عام ٣٧٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٥/١٥٦].

و (الهيلمان) والصولجان[1] فنظر إلى صاحب العقد وقال : يا فلان منذ متى وأنت هنا ؟ وكيف لا تخبرنى بوجودك لأقابلك وأؤدى لك حقك .

سمع الشيخ هذا الكلام فظنَّ أن الرجل من معارف الملك ومن أتباعه ، فارتعد ونادى صاحب العقْد ، وقال له : أرجوك لا تذكرنى أمام الملك بحكاية العقْد هذه ، وقام إلى العقْد فردّه إلى صاحبه ، ذهب الرجل بالعقد إلى المعتضد فتبسم ، وقال له : انتظرنى فى الغد أمام دكان هذا الشيخ .

وبالفعل جاء المعتضد ، لكنه هذه المرة كان بصحبته المشنقة ، فأمر بنَصْبها أمام دكان هذا المخادع ، وأمر به فشنقوه . ثم قال : هذا جزاء مَنْ كان إيمانه بين الناس مشهداً ، وليس إيمانه بالغيب - يعنى : بعيداً عن أعين الناس[2] .

لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وكانوا أول الناس سَعْياً للصلاة ، وكانوا أصحاب الصف الأول خلف رسول الله ، ومع ذلك كان هذا جزاءهم لماذا ؟ لأن المنافق متناقض مع نفسه ، فلسانه خلاف قلبه .

ومن معانى الغيب فى قوله تعالى :﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] أى : الغيب الذى أخبر الله به من أن هناك آخرة وبعثاً وحشراً وحساباً .

---

(١) الصولجان : العود المعوج فارسى معرّب [لسان العرب - مادة صلج] وهو رمز السلطة والجاه .

(٢) ذكر هذه القصة الإمام ابن الجوزى فى كتابه الأذكياء - الباب الحادى عشر ، وقد حدث هذا فى بغداد ، وقد كان التاجر الذى أنكر الوديعة التى عنده عطاراً ، أما الآخر فقد كان من أهل خراسان ، وكان جزاء العطار أن العقد علّق فى رقبته وصُلب على باب الدكان .

وهذه الخشية لله تكون بالغيب يعني : الإيمان بالغيب ، والله تعالى نؤمن به سبحانه وهو غيب ، والغيب كما قلنا : ما غاب عنك ولا يوجد في الكون طريق يُوصِّلك إليه ولا مقدمات ، فنحن نعرف مثلاً في حل تمارين الهندسة أو النظرية : الفرض والمعطيات والمطلوب ، فالمعطيات والمقدمات تُوصِّلك للغاية وللمطلوب .

لذلك تجد أن علم الغيب ينقسم إلى قسمين : غيب استأثر الله به ، لا يُظهر عليه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، ولم يجعل لهذا النوع من الغيب مقدمات تُوصل إليه وتدلّ عليه ، وهناك غيب له مقدمات تدلُّك عليه ، فإنِ استخدمتَ هذه المقدمات توصَّلْتَ بها اليوم إلى ما كان غيباً بالأمس ، وينبغي عليك أنْ تستدلّ بالغيب الذي صار مشهداً لك على أنْ تصدق بالغيب الذي لم تدرك غيبه ، ولا سبيل لك إليه ، ينبغي أنْ يحفزك ما ترى على أنْ تؤمن بما لم تَرَهُ .

وقلنا : إن هذا النوع من الغيب وهو الغيب الذي له مقدمات تُوصِّل إليه ، له ميلاد يظهر فيه ، فإنْ صادف هذا الميلاد بحثاً من البشر ، وكان البحث سبباً في ظهوره ، وإلا أظهره الله مصادفة ، كما جاءت أغلب الاكتشافات التي تخدم البشرية الآن مصادفة ؛ لأن ميلاد الغيب جاء وبحثُك عنه لم يجئ .

والمؤمن هو الذي يزداد إيمانه بالغيب حين يستدل بما ظهر له على ما لم يظهر ، ومن العلماء والموهوبين من الناس مَنْ يفسر لك الغيب الذي لم يأت أوانه بشيء موجود بالفعل ، ومن ذلك ما رُوى أن الروم أرسلتْ إلى أمير المؤمنين أنْ يرسل إليهم عالماً يفقههم في أمور الدين ، فأرسل إليهم الشّعْبي[1] فجعلوا يسألونه فيما يَخْفى عليهم

---

(١) ذكر ابن حمدون في « التذكرة الحمدونية » أن الرجل هو خالد بن يزيد القرشي ، وقد التقى بشمامسة ورهبان وسألوه هذه الأسئلة ، وذكر صلاح الدين الصفدي في « الوافي بالوفيات » أن الرجل هو الخليل بن أحمد الفراهيدي والسائل راهب في صومعة ، وكذلك القاضي التنوخي في « نشوار المحاضرة » . والله أعلم .

من الدين ، وكان مما عرضوه عليه أن الإنسان حين يُنعَّم في الجنة يأكل ولا يتغوَّط ، فكيف يكون ذلك ؟ فرد الشَّعْبي بما عنده من الإشراقات التنويرية التي يفتح الله بها على مَنْ يشاء . وقال لهم : أرأيتم الجنين في بطن أمه ، إنه يتغذى وينمو دون أنْ يتغوط ، ولو تغوَّط في مشيمته لاحترق ، كذلك الإنسان في الجنة يأكل ولا يتغوَّط ؛ لأنه يتغذى بطهي الله له ، فالله يعطيه بقَدَر بحيث لا يبقى شيء يتغوّطه الإنسان ، أمّا نحن فنأكل بطهينا لأنفسنا ، ولا نأكل بقدْر الحاجة ، لذلك نتغوط .

قالوا له : زعمتم أنكم تأخذون من الجنة ما تشاءون دون أنْ ينقص منها شيء ، فكيف ذلك ؟ قال : لأن الشيء ينقص بالأخذ منه حين لا يكون له مدد من الغير ، فإنْ كان له مدد لا ينقص ، والمدد في الجنة من الله ، فكيف يتأتى النقصان ؟

شيء آخر : لو جئتَ إلى المصباح فأخذتَ منه شعلة ، بل آلاف الشعلات ، أينقص من ضوء المصباح شيء ؟

وهكذا ردّ الشعبي ، وأُعجب به القوم ، وكتبوا له كتاباً يُوصله إلى أمير المؤمنين ، وكأنهم حسدوا أمير المؤمنين أن تكون مثل هذه العقلية وهذه الموهبة في خدمته ، وكان في الكتاب : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبي ، كيف يُولُّون غيره ؟

فلما ذهب الشعبي وسلَّمه الكتاب قرأه أمير المؤمنين ، وقال للشعبي : أتدري ما في الكتاب ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : اقرأ ، فقرأ الشعبيُّ العبارة : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبي كيف يُولُّون غيره ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، لأنه لم يَركَ ، ولو رآك لغيَّر رأيه .

والمتأمل في مسألة الإنذار يجد لرسول الله ﷺ إنذارين : عام للعالمين جميعاً ، وهو إنذار بلاغ من الله للجميع المؤمن والكافر ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٤)﴾ [فاطر] فالذين يؤمنون بالله ينتفعون بالإنذار ، وينتفعون بالبشارة ، والذين لا يؤمنون لا ينتفعون من ذلك بشيء .

والإنذار الآخر إنذار خاص بمَنْ خَشي الرحمن بالغيب ، وهو إنذار القبول ، وينتفع به مَنْ خشي الرحمن بالغيب ، فالذين لا يخشوْن ربهم سبق أن أُنذروا ، لكن إنذار بلاغ ، فلم ينتفعوا به ؛ لذلك لم يشملهم الإنذار الخاص .

وقوله سبحانه : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس] قلنا : إن البشارة : إخبار بالخير قبل أوانه ليحفزك إلى أسباب الخير ويُطمعك فيها ، وتلحظ هنا أن المغفرة سبقتْ الأجر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - قبل أن يُعطيك النعمة يصرف عنك العذاب أولاً ؛ لأن التخلية كما قلنا تسبق التحلية ، ثم إن المغفرة دائماً هي جزاء الإيمان بالله ، أما الأجر فجزاء العمل بمنهج الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ (٤٨)﴾ [النساء] فمَنْ آمن بالله أمِنَ العذاب وضمن المغفرة ، فإنْ أراد الأجر فعليه بالعمل الصالح .

ووصف الأجر نفسه بأنه كريم مع أن الكريم هو المعطي سبحانه ، فالمعنى أن كرم المعطي تعدَّى إلى العطية ، فصارت العطية كريمة ، وكأنها تتلهَّف على صاحبها ، كما يتلهَّف الرجل إلى العطاء ؛ لذلك قلنا : إن النعمة التي يُنعم الله بها على خَلْقه تعشق صاحبها ، وتسعى إليه وتكره مَنْ يحسده عليها ، أو يحقد عليه بسببها .

لذلك لا تذهب إلى هذا الحاسد الحاقد ، ولا يناله منها خير أبداً ،

وكأن المُنعم سبحانه يقول : ما دُمْتَ قد كرهتَ النعمة عند غيرك ، فلن تنال منها شيئاً ؛ لأنك تُخطِّئ الله في عطائه ، وتعترض على قضائه ، فكيف تأتيك نعمته ؟ لكن إنْ أحببت النعمة عند غيرك تأتكَ وتطرق هي بابك .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة من حياتنا ، أذكر منها أن رجلاً من بلدنا ميت غمر جاءني يشكو قسوة عمه الغني عليه ، وأنه رغم غنَاه بخيل عليه ، ويستعمل الأغراب ، ويتركه هو بدون عمل ، وغير ذَلك مما ذكره في شكواه ، وكان معي في هذه الجلسة أهلي ، فقالت له : يا ابني أنت دائماً تشتم عمك وتخوض في حقه ، قال : نعم لأنه لا يسأل عني .

فقلت له : أسألك سؤالاً وأستحلفك ألاَّ تكذب ، فلما رأى أنني سأحلفه على المصحف تراجع ، فقلت له : أتحب النعمة عند عمك ؟ قال : لا ، كيف أحبها ، وأنا لا أنال منها شيئاً ، قلتُ : لو أحببتَ النعمة عند عمك ، وتمنيتَ له الخير والمزيد لجاءتك النعمة تطرق بابك ، قال : إذن أرجوك يا مولانا تكلم عمي وتوصيه عليَّ .

ويبدو أن الرجل حاول فعلاً إصلاح نفسه ، فأصلح الله ما بينه وبين عمه ، فبعد صلاة الفجر جاءني يطرق الباب ، فلما دخل قال وهو يبكي : يا مولانا أحكي لك حكاية أغرب من الخيال . قلت : ما هي ؟ قال : قبل الفجر بساعة جاء مَنْ يطرق عليَّ الباب بشدة ، فقمت ففتحت الباب ، فإذا به عمي يعاتبني ويقول : كيف تتركني للأغراب ينهبون مالي وأنت (داير) على حَلِّ شعرك ، خذ المفاتيح ، ومن الصباح تفتح المحلات ، وتباشر بنفسك مصالحي .

فقلت له . نعم ، لأنك أحببتَ النعمة عند عمك وغيَّرتَ ما في

نفسك ناحيته . إذن : مَنْ أراد أن تكون نِعَم الناس كلها عنده ، فَلْيُحب النعمة عند غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] لها موضع هنا ، فالمغفرة والأجر الكريم فى الآخرة ، فناسب أنْ يُحدِّثنا الحق سبحانه عن مشهد من مشاهدها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس]

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] هذان ضميران للمتكلم على سبيل التعظيم ، فإنَّا هى نحن ، كما لو قلت : زيد زيد ، فماذا أضافتْ نحن بعد إنَّا ؟ القاعدة فى صياغة اللغة أن تمييز الشىء يأتى حين يكون هناك اشتراك ، فإنْ لم يكُنْ اشتراك فلا يأتى التمييز كما لو قُلْتَ لمن يطرق على بابك : مَنْ أنت ؟ يقول : محمد ، وأنت تعرف محمدين كثيرين . فتقول : أىُّ المحمدين أنت ؟ فيقول : محمد أحمد ، وأيضاً أنت تعرف كثيرين بهذا الاسم ، فتقول : محمد أحمد مَنْ ؟ فيقول : محمد أحمد محمود . وعندها يحصل التمييز لوجود الاشتراك فى الأولى ، وفى الثانية .

فكأن الحق سبحانه لما قال ﴿ إِنَّا ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] وليس هناك غيره قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] يعنى : كأنه قال إنَّا إنَّا يعنى : لا أحدَ سواى ، فليس فى هذه المسألة اشتراك .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلام الله تعالى عن نفسه قد يأتي بصيغة الجمع كما فى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾ [القدر]

وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [الحجر] وتلحظ أن الضمير هنا للتعظيم ، وهكذا فى كل الآيات التى تتحدث عن فعل من أفعاله تعالى ، أو عن فضل من أفضاله ، ذلك لأن كل فعل من أفعاله تعالى يحتاج إلى عدة صفات : يحتاج إلى علم ، وإلى حكمة ، وإلى قدرة .. الخ وكل هذه الصفات كامنة فى (نحن) الدالة على العظمة المتكاملة فى الأسماء الحسنى لله تعالى .

أما حين يتكلم سبحانه عن الذات الواحدة ، فيأتى بضمير المتكلم المفرد كما فى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ⑭ ﴾ [طه] ولم يَقُلْ مثلاً : إننا نحن الله ؛ لأن إننا ونحن تدل على الجمع ، والكلام هنا عن الوحدانية ، فلا بُدَّ أنْ يأتى بصيغة المفرد .

لذلك يؤكد الحق سبحانه هذه الوحدانية بعدة وسائل للتوكيد فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ ﴾ [طه] فلم يَقُلْ سبحانه : فاعبدنا وأقم الصلاة لذكرنا ، إنما ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ ﴾[طه] لأن العبادة تكون لله وحده .

ثم إن عملية البعث وإحياء الموتى لله وحده لا يشاركه فيها أحد .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ⑫ ﴾ [يس] قبل ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ⑫ ﴾ [يس] مع أن الكتابة تسبق عملية الإحياء ، الكتابة كانت فى الدنيا ، والإحياء فى الآخرة ، فلماذا ؟ أولاً : عليك أن تلاحظ أن هذا الكلام ليس كلامك ، إنما كلام الله ، فلا بُدَّ أن تُعمِل عقلك لتفهم عن الله مراده ؛ لأن أسلوب الحق - سبحانه وتعالى - يحمل من الكمالات ما يناسب كماله سبحانه ، وكلامك أنت يحمل ما يناسب كمالك .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن له تميُّزات عن كل الكتب ، وأن تناوله غير تناول أيِّ كتاب فلا بُدَّ أن يُقرأ على طهارة ، وعلى وضوء ، ولا بُدَّ أن يُراعى فى قراءته مخارج الحروف وقواعد التلاوة وآدابها .

وفاتنا أن نقول : إنه تميَّز تميُّزاً آخر ، فكما تميز فى نُطْقه تميز فى كتابته ، فمثلاً كلمة اسم تُكتب بالألف كما فى ﴿ تَبَـٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] ، وكما فى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾[الأعلى] ، لكن فى البسملة فى أوائل سور القرآن كُتبت بدون الألف هكذا بسم الله الرحمن الرحيم ، لذلك نقول عن القرآن : نكتبه بالإملاء ؟!! لا لأن كتابته توقيف .

إذن : ما الحكمة من تقديم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ (١٢) ﴾ [يس] على ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (١٢) ﴾ [يس] ؟ قالوا : لأنه ما فائدة الكتابة ؟ الكتابة للأعمال لحصر الحسنات لنثيب عليها ، ولحصر السيئات لنعاقب عليها ، فإذا لم يكُنْ هناك إحياء للموتى وحساب وجزاء ، فما فائدة الكتابة ؟ لذلك قدَّم الإحياء على كتابة الأعمال ، كما أن الإحياء أعظم من الكتابة فناسب أنْ يتقدم عليها .

ومعنى : ﴿ مَا قَدَّمُوا (١٢) ﴾ [يس] أى : من الأعمال ، والعمل قد يكون عملاً مثمراً مستمراً بعد موت صاحبه كالصدقة الجارية ، فلو حفر إنسان بئراً مثلاً يشرب منه الناس ويموت يظلّ البئر يسقى الناس ، أو ترك علماً نافعاً ، هذا كله أثر من آثار العمل الذى كُتب أولاً ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَآثَارَهُمْ (١٢) ﴾ [يس]

ومن آثار الإنسان ما سنَّه للناس وتركه يتبع من بعده ، سواء أكان حسنة أم سيئة ، فكله مكتوب مُسجَّل فى كتاب لا يترك صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأحصى آثارها من بعد صاحبها ، فلو كتب إنسان مثلاً وصية ظالمة حرمت صاحب الحق من حقِّه ، والوارث من ميراثه تحمل كل الآثار المترتبة على هذا الظلم ؛ لأنه لم يحرم الوارث المباشر فحسب ، إنما حرم أيضاً ذريته التى كانت ستستفيد من هذا الميراث ، لذلك يظل عليه وِزْرها إلى يوم القيامة .

كذلك مَنْ سَنَّ للناس قانوناً جائراً ، فعليه وِزْر القانون الجائر الذى حكم هو به ، ثم على مَنْ يحكم بهذا القانون من بعده ، ومثل مسألة القطاع العام مثلاً ، القطاع العام أقامه مَنْ أقامه ، ثم ظلَّتْ آثاره تنهب فى الناس إلى أنْ ضَجَّ منه الجميع وطالب الحكام أنفسهم بتعديله .

هذه القضية تشرح لنا حديث سيدنا رسول الله : « مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1]

أرأيتم الرجل العجوز يزرع النخلة وربما لا ينتفع بثمرها ، لكن ينتفع به مَنْ بعده ، فهذه هى آثاره من بعده يكتبها الله له ويُحصيها لحسابه .

وقال بعض العلماء فى معنى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] أى : نكتب ما قدموا من النية التى تسبق العمل ، ثم نكتب العمل نفسه ، وهو آثار هذه النية ، فحين تعقد نية الخير فى عمل ما تأخذ أجر النية ، فإذا ما عملتَ العمل تأخذ أجر العمل .

وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) من حديث جرير بن عبد الله البجلى . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كُتبت له حسنة ، ومَنْ هَمَّ بها فعملها كُتبت له عَشْراً »[1] وهذا يرشدنا إلى أهميــة عقد النيــة قبل الشروع فى العمل لـيثاب عليهـا الإنسان ، فالمؤمن لا يأتى العمل هكذا عشوائياً .

وقوله تـعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] هناك فَرْق بين الكتـابة والإحصاء ، الكتـابة أنْ تكتب الشىء ، لكن لا تضم المكتوبات إلى بعـضها ، فتـحتاج إلى مَنْ يحـصيها ويعـدُّها ، فالحق سبحانه يسجل علينا الأعمال كتابة أولاً ، ثم إحصاءً وعَدّاً ، والإحصاء والعَدُّ أيضاً فى كتاب مـسجل فيه كل شىء ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] والإمام هو ما يُـؤتَم به ، والمراد هنا اللوح المحفـوظ الذى تأخذ منه الملائكة مهمتها فى إدارة الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فـى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمـان (حديث ٢٠٦) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ آخر (٦٤٩١) عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثـير فى تفسيره (٣/٥٦٩) : « جـاء عن كثير من السلف أن هذه القـرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم ، كما نصَّ عليه قتادة وغيره وهو الذى لم يُذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : ظاهر القصة يـدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهـة المسيح ، ولو كان هؤلاء من الحـواريين لقالوا عبـارة تناسب أنهم من عند المسيح عليـه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴿١٥﴾ ﴾ [يس] .

الثانى : أن أهل أنطاكيـة آمنوا برسل المسيح إليـهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمـسيح ، ولهـذا كانت عند النصـارى إحدى المـدائن الأربعة اللاتى فـيهن بتـاركة ، وهُنَّ : الـقدس ، وأنطاكـية ، والإسكندرية ، وروميـة . فإذا تقـرر أن أنطاكيـة أول مدينة آمنت ، فـأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذَّبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم » .

أولاً : لاحظ أن هذه الآية هي التي ستفسر لنا مسألة أن يس قلب القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم ﴿١٣﴾ ﴾ [يس] نعرف أن الضرب هو إيقاع جسم على جسم بقوة بحيث يؤثر الجسم الضارب في المضروب ويؤلمه ؛ لذلك لا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، فإذا كان المضروب مثل الضارب أو أقوى منه ، فالحركة عبث لا جدوى منها .

ومن ذلك قول الرافعي[1] رحمه الله مخاطباً مَنْ يهزأ من قدر الله :

أيَا هَازئاً مِنْ صُنُوفِ القَدرِ   بنفسِكَ تعنُف لاَ بالقَدَر
وَيَا ضارباً صَخْرةً بالعَصَا   ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر[2]

وفي مادة ضرب يقولون : ضريب الشيء من ضربه يعني من شبهه وشكله ، فإنْ وقف اثنان في مسألة ما ، اذكر لهما مثلاً مطابقاً لها وقُلْ لهما : هذه مثل هذه . وأكرم مَثَلٍ في القرآن ضربه الله تعالى لبيان تنويره سبحانه للكون لا لنوره ، كما يظن البعض ، هو قوله سبحانه :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..﴿٣٥﴾ ﴾ [النور]

---

(١) هو مصطفى صادق عبد الرازق الرافعي ، عالم بالأدب شاعر ، من كبار الكتاب ، أصله من طرابلس الشام ، مولده في بهتيم بمنزل والد أمه عام ١٨٨١ م ، وتوفي بطنطا عام ١٩٣٧م عن ٥٦ عاماً ، له رسائل في الأدب والسياسة ، ديوان شعره في ثلاثة أجزاء ، وله كتاب « وحي القلم » و « المعركة » في الرد على طه حسين .

(٢) لم أقف على هذه القصيدة للرافعي ، ولكن له قصيدة من بحر البسيط عدد أبياتها عشرون بيتاً ، أولها : يا فاجع القوم ماذا ينفع الحذر .

هذا مَثَل لتنوير الله للمنوَّر ، وليس مثلاً لنور الله تعالى ؛ لأن نور الله كمال لا يُحَدُّ ، وما نحيا به من نور الدنيا إنما هو من متعلقات نوره سبحانه ، بدليل أنه في يوم القيامة لا تكون هناك شمس تنير ، ولا قمر يضيء ، إنما ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (٦٩) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) ﴾ [الإنسان]

ذلك لأننا نعيش في الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما في الآخرة فنعيش بالمسبِّب مباشرة ، في الدنيا أعطاك الله عقلاً يفكر ، وجوارح تعمل ، وأرضاً تنبت ، وماءً يروى ، هذه أسباب لله يعيش عليها الإنسان ، وربما ظنَّ أنه أصيل في الدنيا ، وربما اغترَّ بما أعطاه الله ؛ لذلك يجعل الله هذه الأسباب تتخلَّف بعض الأحيان ، وتعزّ علينا ليلفتنا إليه سبحانه ، ويقول لنا : لا تغترُّوا بالأسباب ، وتغفلوا عن المسبِّب .

لذلك حين تتخلف الأسباب فيصيب الناسَ جدبٌ وقَحْطٌ قد يطول حتى يُشرف الناسُ والدوابُّ على الهلاك يشرع لنا صلاة الاستسقاء فيهرع الناسُ إلى الله معهم دوابّهم ونساؤهم وأطفالهم ، حتى أنهم يُغيِّرون هندامهم وملابسهم ، يجأرون إلى الله طالبين مِنْه السُّقْيا .

فكأن الله تعالى خلّف أسبابه ليُذكِّرنا به سبحانه ، وليُعلمنا أن المسألة ليست (ميكانيكا) ، المسألة أسباب وراءها مُسبِّب قادر أنْ يُوقفها ، حتى جوارح الإنسان سخَّرها الله لإرادته ، حتى ربما يغتر بها الإنسان ، ويظن أنها ملْكه ورَهْن إشارته ، والحقيقة أنها هبَة من الله إنْ شاء تركها ، وإنْ شاء سلبها ، بفصل السيال الكهربي بين الجارحة والعقل ، فتشل الجارحة ولا تتحرك ، فيريد أنْ يرفع يده فلا يستطيع .

الآن نرى مثلاً أمريكا تُوزِّع المعونات على دول العالم ، وهى أكثر الدول تقدُّماً وازدهاراً ، وفجأة يأتيها مثلاً فيضانات يصل فيها الماء إلى أسطح المنازل ، كذلك اليابان مثلاً تُعَدُّ بلد زلازل بطبيعتها ، وهم يعرفون ذلك ويقولون : بلادنا مهطل الزلازل ، لذلك يتخذون كل التدابير اللازمة والاحتياطات ، ومع ذلك يأتيهم زلزال كبير مدمر كما حدث فى (سخاليد) ، فلم تُجْدِ معه كل هذه الاحتياطات والاستعدادات .

إذن : الحق سبحانه يخلف هذه المسائل حتى لا نغترَّ بالأسباب ، وننسى المسبب سبحانه ، وصدق الله حين قال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا كيف ندعوه ونلجأ إليه وحده حين تعزُّ علينا الأسباب ، فيقول سبحانه : ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ .. ۝٤٣ ﴾ [الأنعام] وكأن الله تعالى يُعلِّمنا كيف نُحنِّنه علينا حين نقول : اللهم افْرِج عنَّا ما نحن فيه .

وضَرْب المثل أسلوب من أساليب العربية لتوضيح المسائل والإقناع بها ، وأكرم مَثل ضربه الحق سبحانه لتنويره كما قلنا : لأن نورَ الله لا مثيلَ له ، فقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ۝٣٥ ﴾ [النور] أى : تنويره ﴿ كَمِشۡكَوٰةٍ ۝٣٥ ﴾ [النور] كثيرون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن المشكاة هى (الطاقة) الموجودة فى الحائط ، وهى عبارة عن نافذة مفتوحة من جهة واحدة يُسمُّونها الكوة ، وهى موجودة فى بيوت الفلاحين المبنية بالطوب اللَّبن ، وهذه الكوة تعمل على تجميع الضوء بحيث لا يتبدد هنا وهناك .

هذه المشكاة ﴿ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ

يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾ [النور] ولك أنْ تتأمل كم ميْزة في هذا النور الذي يصدر من مشْكاة تجمع الضوء ، ثم مصباح ، هذا المصباح في زجاجة تنقى ضوءه وتُصفِّيه ، بحيث لا يصدر منه دخان ؛ لأن الزجاجة تسمح بالهواء على قدر حاجة المصباح ، وهذه الزجاجة ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة مثل الكوكب الدرى . يعني : مضيئة بنفسها ، من الدُّرة .

ثم إن هذا المصباح يُوقَد بزيت من أرقى أنواع الزيوت هو زيت الزيتونة ، هذه الزيتونة لا هي شرقية فتكون حارة ، ولا هي غربية فتكون باردة ، فهي معتدلة المزاج نقية ، حتى أنَّ زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار .

فهو إذن من صفاته يكاد يضيء بذاته ؛ لذلك يختم المثل بقوله سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] كذلك يُنوِّر الله هذا الكون الواسع كما يُنوِّر هذا المصباح هذه الكُوَّة الصغيرة .

لكن ، لماذا يضرب لنا الحق سبحانه هذا المثل ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه حينما خلق الإنسان ، وجعل له حركة في الحياة احتاجت هذه الحركة إلى نور حسِّي يهدى حركته الحسية ، وإلى نور معنوى يهدى حركته المعنوية ، فالنور الحسِّيُّ نأخذه من الشمس نهاراً ، ومن القمر ليلاً ، فإنْ عَزَّ علينا النور اصطنعناه ، كُلٌّ على قدر إمكاناته ، فواحد ينير طريقه بشمعة ، وآخر بلمبة (نمرة خمسة) ، وآخر بالنيون والفلورسنت مثلاً ، فإذا ما أشرقتْ الشمس ، وجاء نور الله استغنى الناسُ عن أنوارهم الصناعية ، وأطفئوا مصابيحهم وتساووا جميعاً في نور الله ، إذا طلعتْ الشمس فكلنا في الأَخْذ بنور الله سواء .

فما دام نور الله قد ظهر ، فلا نورَ لأحد مع نور الله ، كذلك في

المعنويات ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يقول لنا : إذا جاءكم حكم الله ، فلا حكمَ لأحد مع حكم الله ، وهذا هو نور القيم الذى جاءنا فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ (٣٥) ﴾ [النور]

ولكُلِّ مَثَل مضرب يُضرب فيه ، ومناسبة يُقال فيها ، فلما رأى أحدهم شاعراً يطيل فى مدح ممدوحه قال : لا بُدَّ أنه بخيل ، فاحتاج إلى كل هذا المدح ليُحنِّنه على مادحه فيعطيه ، وقال فى ذلك[1] :

وإذَا امْرؤٌ مَدَح امْرَءاً لِنَوالِه ... وَأطَالَ فِيهِ فَقَدْ أطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لم يُقدِّر فيه بُعْد المسْتَقى ... عنْد الوُرودِ لما أطال رِشَاءَهُ[2]

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الحبل ، وهو الرِّشَاء الذى يُربط به الدلو .

ومن أمثال القرآن لتوضيح مسألة الشرك بالله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩) ﴾ [الزمر]

يعنى : حين يتعجبون من دعوتهم إلى التوحيد ، وحين يختلفون فى هذه المسألة ، اضرب لهم هذا المثل وطوِّقهم به ، يعنى : كيف تتعجَّبون من عبادة الله وحده لا شريكَ له ، وفى حياتكم العملية مِثْلُ ذلك ، فهل يستوى عندكم عبد يتنازعه أكثر من سيد وعبد لسيد واحد ؟ ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أو جورجيس ، رومى الأصل ، ولد ببغداد عام ٢٢١ هـ ونشأ بها ، مات فيها مسموماً قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه وكان سبباً لوفاته .

(٢) هذان البيتان من قصيدة لابن الرومى من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، أولها :
كل امرىء مدح امرءًا لنواله ... فأطال فيه فقد أراد هجاءه

كذلك أنتم فى عبادتكم غير الله : كيف تذهبون إلى عبادة آلهة متعددة ، وتتركون الإله الواحد الحق ، إذن : يسوق الحق سبحانه للكفار هذا المثل ليُجلِّى لهم قضية وقفتْ فيها عقولهم .

والمثَل فى أدبنا العربى له مورد ومضرب : مورد المثل هو الحادثة التى قيل فيها المثَل ، ومضرب المثل هى الحادثة المشابهة للمورد الأصلى ، فكأن المورد الأصلى للمثل يؤدى إلى حقيقة متينة ينبغى أنْ نحافظ عليها ونُكررها فى الموقف المشابه ، فمثلاً حين ترى تلميذاً يهمل دروسه طوال العام ، ويأتى قبل الامتحان ليذاكر ، لك فى هذا الموقف أن تقول (قبل الرِّماء تملأ الكنائن)[1] فهذا مثَل يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل وقوعه .

فإنْ تحدَّاك رجل مثلاً وادعى أنه أقوى منك لك أنْ تقول له : (إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً)[2]

والمثل يُقال كما جاء دون أنْ تغير فى لفظه شيئاً ، فلو أرسلتَ مثلاً رسولاً ليأتى لك بالأخبار تقول له حين يعود : (ما وراءك يا عصام)[3] كذلك إنْ كانوا مثْنى أو جمعاً ، فالمثل يلزم صيغة

---

(١) هو مثَل يضرب فى الاستعداد للنوائب قبل حلولها ، ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وكذا الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد (كتاب الجوهرة فى الأمثال) .

(٢) أى : لاقيتَ من هو أشد منك . ذكره أبو منصور الثعالبى فى كتابه « التمثيل والمحاضرة » ، وكذا الزمخشرى فى « المستقصى فى أمثال العرب » .

(٣) قال أبو عبيد : من أمثالهم فى الاستخبار قولهم : ما وراءك يا عصام ؟ يقال : إن المتكلم به هو النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير الجرمى حاجب النعمان وكان مريضاً ، فسأل النابغة عصاماً عن النعمان . ذكره أبو عبيد بن سلام فى « الأمثال » ، وقد أورد أبو هلال العسكرى فى كتابه « جمهرة الأمثال » أن عصاماً امرأة وقد كانت مرسلة من الحارث بن عمرو الكندى إلى بنت عوف الكندى ، فلما رجعت إليه قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ فوصفتها له .

المفرد المؤنث ؛ لأنه أوَّل ما قيل قيل لواحدة اسمها عصام . ونحن نحتفظ بلفظه لا نُغيره ، فلا نقول ما وراءكما ولا ما وراءكم . ويُشترط في المثَل أنْ يكون مُوجزاً يخفّ على اللسان .

ومن الأمثال قولهم (قد يضرط العير والمكواة في النار)[1] فالبعير حين يرى المكواة في النار يعرف أنه سيُكوى بها ، وهي طريقة مُتَّبعة عند العرب لعلاج مرض (العُر)[2]، فساعة يراها البعير تجري عليه بطنه ، ويحدث منه ضراط وإسهال ، وهذا مثَل يُضرب لمن يفاجئه العقاب المعَدّ له .

وهنا في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴿١٣﴾ ﴾[يس] يعني : يا محمد اضرب لمن كفر بك وكذَّبك وعاندك وآذاك مثلاً أصحاب القرية ، فالأمر لسيدنا رسول الله ، والضرب للكافرين به المعاندين له ، والمعنى : قل لهم مَثلكم مثَل أصحاب القرية .

قالوا : هي أنطاكية بلدة من لواء الأسكندرونة التابع لتركيا ، وقد أرسل إليها سيدنا عيسى ـ عليه وعلى رسولنا الصلاة والسلام ـ رسولين لهداية أهلها ، فلما ذَهَبا كذَّبهما القوم ، فعزَّزهما عيسى عليه السلام وقوّاهما بثالث ، فلم يزدادوا إلا تكذيباً وعناداً ، لكن خرج من القوم رجل سمع من الرسولين الأولين ، فآمن ، فلما سمع أن القوم

(١) ذكره عبد القادر البغدادي في « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » .

(٢) مرض « العُرّ » : قروح تخرج في مشافر الإبل وقوائمها . ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه « أدب الكاتب » قال الجاحظ في كتاب الحيوان في خطبة كتابه أن العرب كانوا إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم ، فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم .

يريدون تعذيب هؤلاء الرسل أسرع ليقف الموقف الحقّ مع الرسل ضد أهل القرية ، هذا هو المثل .

ومعنى ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[يس] أى : مُرْسلون من الله ، فما إرسال عيسى لهما إلا من باطن إرسال الله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٤﴾ ﴾[يس] أى : قوَّيْناهما به ، والمراد قوَّيْنا الحق الذى يحملانه ، فإرسال الثالث ليس تأييداً لهما بذاتهما ، إنما تأييد للحق ، بدليل أنه سبحانه لم يَقُلْ فعززناهما ، وهذه من دقة الأداء القرآني وبلاغته ، فلو جاء الحق على لسان غيرهما سنؤيده أيضاً . إذن : الاعتبار هنا ليس للأشخاص ، إنما للحق الذى جاءوا به .

وهذه المسألة لها نظير فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٥﴾ ﴾[القصص] فكأن هارون عليه السلام جاء تعزيزاً لموسى نفسه لا للحق الذى أُرسلَ به كما فى القصة السابقة ، لأن هناك فرقاً بين الحالتين ، فموسى عليه السلام هو الذى طلب من ربه أنْ يشُدَّ عضده ، واختار لذلك أخاه هارون ، فموسى المختار للرسالة يُقرُّ على نفسه ، ويطلب المساعدة والتأييد بأخيه ، فكأنه عليه السلام يحب الحقَّ ، ويريد نُصْرته ، ولو جاءت هذه النُّصْرة من غيره .

سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم ينقل خواطر نفسه ومراداته إلى المخاطب ، فإذا كان المخاطب خاليَ الذِّهْن عن الأمر ، يرسل إليه الكلام مُرْسلاً دون تأكيد ، فإذا لم يكُنْ خاليَ الذهن عن الموضوع وعنده شكٌّ أو إنكار أو تكذيب فلا بُدَّ أن تؤكد له كلامك بمؤكد يناسب استقباله للأمر ، فإنْ كان شاكّاً أكدتَ له الكلام بمؤكِّد واحد ، وإنْ كان مُنكراً جئْتَ له بأكثر من مُؤكِّد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس]

فلا بُدَّ أن الرسولين الأوَّليْن قالا للقوم : نحن مُرْسلون إليكم من قِبَل نبي الله عيسى لكن كذَّب القوم ، فلما جاء الثالث كان لا بُدَّ أنْ يَزداد الكلام تأكيداً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ ﴾[يس] فأكَّدوا الكلام هنا بأكثر من مؤكِّد ، ومع ذلك كُذِّبوا أيضاً :

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ ﴾

فلما كذَّبوا وأنكروا للمرة الثانية كان لا بُدَّ من تأكيد الكلام على هذا النحو : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ ﴾[يس] وكل كلمة من هذه العبارة فيها تأكيد ، أولاً بإنَّ ، ثم أسلوب القصر في تقديم الجار والمجرور إليكم ، ثم لام التوكيد في (لمرسلون) ، إذن : على قَدْر الإنكار يكون التأكيد ، وهؤلاء ينكرون الرسالة من عدة وجوه أولاً : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ۝١٥ ﴾ [يس] ، ثم ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ ۝١٥ ﴾[يس] ، ثم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ۝١٥ ﴾ [يس]

وقولهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ۝١٥ ﴾[يس] يعتبرون أن بشرية الرسل قَدْح في الرسالة ، لكن كيف تتحقق الرسالة إذا لم يكُنْ الرسول من البشر ؟

الحق سبحانه يناقشهم هذه المسألة في موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ۝٩٥ ﴾ [الإسراء]

هذا أول ردٍّ عليهم ، فالذين يمشون على الأرض بشر ليسوا ملائكة .

وفى موضع آخر يجارى الحق الخَلْق ، فيقول : وحتى لو جاء الرسول ملَكاً لا بُدَّ أنْ ينزل على صورة البشر ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام] وإلا كيف ترونْه ؟ وكيف تتلقَّوْن منه على صورته الملائكية .

إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم لتصحَّ الأُسْوة فيه ، وكيف تتحقق الأسوة فى الرسول الملَك ، وهو لا يعصى الله أصلاً ، والرسول مُطالب أنْ يُبلِّغ منهج الله ، وأنْ يُطبقه بنفسه ، لذلك قال سبحانه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : يُطبق هو المنهج الذى جاء به قبل أنْ يُبلِّغه للناس .

وقولهم : ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يس] دلّ على غبائهم فى الأداء ، فعجيب منهم أنْ يعترفوا لله تعالى بصفة الرحمة ، وهم لا يؤمنون به ، ومن مقتضيات هذه الرحمة أن يرسل إليهم رسولاً يدلُّهم على الخير ويدفعهم عن الشر ، إذن : يعترفون بالحيثية التى تدينهم ، ثم يزيدون على ذلك فيتهمون الرسل بالكذب : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يس]

وعندها يؤكد الرسل رسالتهم ، فيقولون : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يس] فكلمة ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [يس] حلّتْ محلّ القسم : لأنهم يُشْهدون الله على صدْق رسالتهم ، والقسم عند العرب لإثبات قضية مختلف عليها ، وما دام قال الرسل ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [يس] فالأمر إما أنْ يكون صحيحاً ، أو غير صحيح ، فإنْ كان غير صحيح فقد كذبوا على الله .

وقد أجمع العرب على أن الكذبة الفاجرة تُوجب خراب الديار - هكذا يعتقدون - وفى حديث النبى ﷺ ما يدل على أن الكذب يجعل الديار بلاقع[1]، ولما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم . أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم . أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[2] .

فالكذب مذموم منهىٌ عنه ، حتى عند غير المؤمنين بدين ؛ لذلك رأينا كفار مكة لا ينطقون بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ولو كانوا يعلمون أنها كلمة تقال ليس لها مدلول لَقَالوها ، لكنهم يعلمون مدلولها ومعناها ، يعلمون أنها تعنى أن العبادة لا تكون إلا لله ، وأن الأمر والنهى والسيادة لا تكون إلا لله .. الخ لذلك تأبَّوْا فلم يقولوها ، لأنهم لا يريدون مدلولها .

هؤلاء الكفار فى تكذيبهم للرسل يعتقدون أنهم بذلك يَغَارُونَ لله وينتقمون من الرسل الذين يكذبون عليه سبحانه ، فيقولون :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾

كأنهم يقولون للرسل : ما دُمْتم كذبتم على الله وقُلْتم ﴿ رَبُّنَا يَعۡلَمُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [يس] فى أمور نظنكم فيها كاذبين ، فقد تطيَّرنا بكم يعنى :

---

(١) بلاقع جمع بلقع ، وهى الأرض القفر التى لا شىء بها ، وقد أخرج البيهقى فى السنن الكبرى كتاب الأيمان - باب اليمين الغموس حديث رقم (١٩٦٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس شىء أُطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم ، وليس شىء أعجل عقاباً من البغى وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

(٢) أورده بهذا اللفظ المتقى الهندى فى منتخب الكنز (١/٣١٥) على هامش مسند أحمد من حديث عبد الله بن جراد وعزاه لابن عساكر . وأورد أيضاً أن أبا الدرداء سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر مَنْ إذا حدَّث كذب . وعزاه للخطيب البغدادى فى المتفق .

تشاءمنا . والتطيُّر من الطِّيَرة ، وكانت عادة معروفة عند العرب ، فكانوا حين يريد الواحد منهم عمل شيء ، يأتي إلى طير فيزجره ويُطلقه ، فيرى إلى أين يطير : فإنْ طار إلى اليمين أمضى ما ينوى عليه ، وإنْ طار إلى اليسار أمسك وتشاءم ، وقد حَرَّم الإسلامُ هذه العادة ونهى عنها .

وقولهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا(١٨)﴾[يس] أى : عما تقولونه من أنكم مُرْسَلُون بمنهج ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)﴾[يس] فجمعوا عليهم الرجم والعذاب الأليم ، والرجم غير العذاب ، الرجم رَمْيٌ بالحجارة حتى الموت ، فهو إنهاء للعذاب ؛ لأن التعذيب إيلام حي ، فمَنْ مات لا يستطيع أنْ تُعذِّبه ، لذلك قالت العرب : لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

لذلك لما ادَّعى أحد القضاة أن القرآن ليس فيه نَصٌّ على الرجم : قلنا لهم : صحيح ، ليس فى القرآن آية تنص على الرجم ، لكن أيهما أقوى فى التقنين : الكلام أم الفعل ؟ أيهما يُعَدُّ حُجة ؟ لا شكَّ أن الفعل أقوى حجة ، لأن الكلام يمكن أنْ يؤوَّل ، أمَّا الفعل فلا تأويل فيه ، وقد فعل الرسول ﷺ الرجم فى ماعز والغامدية.

إذن : الاحتجاج هنا ليس بالنصِّ القولى ، إنما بالفعل من رسول الله الذى فوَّضه الله فى أنْ يشرع ، وأمرنا بطاعة أوامره ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ [الحشر] والحق سبحانه لا يأمرنا هذا الأمر إلا إذا كان قد ترك لرسول الله أموراً يُشرعها .

وهذه من ميزاته ﷺ على غيره من الرسل ، فكل رسول ما عليه إلا أنْ يُبلِّغ الحكم كما جاءه من الله ، أما سيدنا رسول الله فأُمر أن

يُبلِّغَ عن الله ، وترك له بعض الأمور ، وفوّض أنْ يشرع فيها .

لذلك جاءت هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۝ ﴾ [الحشر]

لذلك حين نستقرىء آيات الطاعة تجد القرآن يقول مرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۝ ﴾ [المائدة]

ويقول في آية أخرى :﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۝ ﴾ [آل عمران]

ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۝ ﴾ [النساء]

فتكرار الفعل (أطيعُوا) يعني : أن الجهة مُنفكة ، فلله تعالى أمر وللرسول أمر ، يعني : أطيعوا الله في التقنين الإجمالي العام ، وأطيعوا الرسول في تفصيل ما أجمل ، ففي الزكاة مثلاً جاء الأمر العام بأداء الزكاة ، لكن لم يحدد الحق سبحانه له نصاباً ، هذا النِّصاب بيَّنه سيدنا رسول الله . إذن : لله فيها أمر ، وللرسول أمر .

أما إن جاء الأمر (وأطيعوا) واحداً وعطف رسول الله على الله ، ولم تُكرر الطاعة مع المطاع ، فاعلم أنَّ الأمر واحد قاله الله وقاله رسول الله ، فطاعة المطاع الثاني من باطن طاعة المطاع الأول ، كما في قوله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ۝ ﴾ [النساء] فلم يقُل : وأطيعوا أولي الأمر منكم ؛ لأن طاعة أولي الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، وليس لهم طاعة مستقلة منفصلة ، بل طاعتهم في ظلِّ طاعة الله وطاعة رسول الله .

إذن : الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإنْ قال قائل : نريد أنْ نسمع كلام الله في هذه المسألة نقول : نعم ، هناك كلام بالنصِّ وكلام باللازم ، والحق سبحانه حين تكلم عن الإماء في هذه المسألة قال : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۝ ﴾ [النساء]

والعذاب كما قلنا : إيلام حَيٍّ أمَّا الرجم فهو إنهاء للحياة ، وإنهاء للعـذاب ؛ لذلك بيَّن الحق سبحـانه أن النصف للعذاب ، وهذا يُخـرِج الرجم ؛ لأن الرجـم لا يُنصَّف . إذن : فـالنصف ليـس على الإطلاق وكونه يخصُّ هنا العـذاب ، فهذا يعنى أنَّ عليهن الرجم أيضـاً كاملاً ، لا يُنصَّف .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعالى فـى قصـة سليـمان علـيه السـلام والهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ (٢١) ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح وغير القتل .

وقـولهم ﴿ لَنَرْجُـمَنَّكُمْ (١٨) ﴾ [يس] الرجم قـد يُطلـق على القـول ، لنرجمنَّكم بالقول ، وقد يكون الرجم على حقيقته بشدة حتى الموت ، أو بهوادة ، فيُراد منه الإيلام .

﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾

معنى ﴿ طَائِرُكُم (١٩) ﴾ [يس] يعنى : تشـاؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ (١٩) ﴾ [يس] أى : مـلازم لكم ، والمـراد هنا الـكفـر ، والهمـزة الأولى فى ﴿ أَئِن (١٩) ﴾ [يس] للاستفهام و (إنْ) أداة شرط وجوابها محذوف تقديره : أئن ذُكِّـرتم بالله وبمنهج خـالقكم ، وبمـا يُسعـدكم فى دنيـاكم تكون النتـيجة أنـكم تهددون المـذكِّر لكم بالرجم وبالعـذاب الأليم ، بدل أنْ تتبركوا به وتُعينوه وتتبعوا ما جاءكم به .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ [يس] يعنى : مـتجاوزون لـلحدِّ ؛ لأن الأمر بيننا وبيـنكم لم يخرج عن كونه مناظرة كـلامية لم نتـعدَّ فيـها حدود البلاغ بأننا مُرْسَلون إليكم ، فكانت النتـيجة أنْ قابلتم المناظرة

الكلامية بهذا الفعل القاسي المسرف المتجاوز للحدِّ ، حيث جمعتم علينا الرجْم والعذاب الأليم .

في هذه الأثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[يس] يدل على أن الرسولين الأولين اللذين كذَّبهما القوم كان لهما أنصار مؤمنون بهما ، مُصدِّقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَميَّة الحق ، وكان منهم هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لنُصْرة الحق وإعلاء كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار[1] .

ونلحظ في هذه الآية أولاً قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبي : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصاراً (صبَّاغاً) . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام ، قال وهب : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لي ، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس . تفسير القرطبي (٨/٥٦٥٣) .

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمَّل المشاق فى سبيل نُصْرته للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغت دعوتهما أقصى المدينة .

ثم وصفه بأنه (رَجُلٌ) ولم يَقُلْ فلان ، فذكر الصفة البارزة فى تكوينه أنه رجل .

وهِمَّة الرجل هى التى تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه ، يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وطنه أهله وعياله يُعدِّى إليهم منفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل .

إذن : هِمَم الرجال هى التى تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه المنازل رجل وطنه العالم كله ؛ لأن الخَلْق كلهم عيال الله ، فمَنْ يحب الخير لهم وينثر عليهم ما ينفعهم فقد استأمنه الله على رزق العباد .

ومثَّلنا لبيان ذلك قلنا : هبْ أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وفيما لا يفيد ، والآخر يشترى بمصروفه حلوى ويُوزِّعها على إخوته الصغار ، فأيهما تُؤْثره بعد ذلك ، وأيهما تزيده ؟ كذلك اليد المناولة عن الله لخَلْق الله ، وكأن الله يقول له : أنت مأمون على نعمتى ، مأمون على خَلْقى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإنِّى امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرّ دَرَاهِمِى ... عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيل

وقوله ﴿يَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] يعنى : أن مجيئه لم يكُنْ عادياً ، إنما

مسرعاً يجرى ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)﴾ [يس] وقوله ﴿يَـٰقَوْمِ (٢٠)﴾ [يس] نداء لتحنين المنادَى ، كأنه يقول : يا أهلى ، يا عشيرتى ، يا أبنائى ، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودة والرحمة .

وقوله ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحيثية الأولى لهذا الاتباع هى أنهم مرسلون ، ثم يذكر لهم حيثية أخرى فيقول : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) ﴾ [يس] يعنى : لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم .

وكلمة ﴿مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً (٢١)﴾ [يس] لا تُقَال إلا إذا كان العمل الذى قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسَل إليهم ، فهو منطقياً يحتاج إلى أجر ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه أجره إلا الله ؛ لأن نَفْع الرسول يتعدَّى نفْع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمَنْ من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعاً يقولون هذه الكلمة ﴿ إنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ (٧٢) ﴾ [يونس] يعنى : أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار أجرى ، ولا تقدرون على تقييمه ، إنما يعطينى أجرى الذى أعمل من أجله . كل رسل الله قالوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق ، كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله فَضْلٌ عليه ، فكيف يطلب منه أجراً ؟

وقوله سبحانه ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) ﴾ [يس] حيثية ثالثة لاتباعهم ،

فهم مُرْسلُون من قِبَل مَنْ أرسله الله ، والله لا يرسل إلا مَنْ يهدى إلى صراط مستقيم يوصل إليه سبحانه . فهؤلاء المرسلون مهتدون فى أنفسهم ، وبالتالى هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلّته ، فهؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدى .

ثم يلتفت هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول للقوم : أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشّ نفسى ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ۝٢٢﴾ [يس] أى : خلقنى من العدم ، فهو أوْلى بالعبادة ، هو الذى صنعنى ، أوجدنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدم ، ولا زال يُوالى علىَّ نعمه ، إذن : ما يمنعنى أنْ أعبده وهو أوْلَى بالعبادة ، ولو لم تكُنْ عبادتى له إلا لأكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب ، لكانتْ عبادته واجبة .

وهذا ليس كلامَ رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع باشر الإيمانُ قلبه ، فأراد أنْ يزكّى إيمانه ، وأنْ يُعدّى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1]

الحق سبحانه خلق الخَلْق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالمنهج لهدايتهم ، الرسل بدورهم بلّغوا الأصحاب ، ومَنْ بلغه شيء تحمله كما يتحمله الرسول ، لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٧/١) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) ، والحميدى (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

إذن : مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ، ثم المؤمنون بهم الذين بلغتهم الدعوة ، وهذا التحمُّل ليس تفضُّلاً ، إنما تكليف من الله ، لذلك قال سبحانه : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة] ، فكما شهد الرسول أنه بلغكم ، فواجب عليكم أنْ تشهدوا على الناس أنكم بلَّغتموهم ؛ لأن المؤمنين بالرسالة امتداد للرسول .

لذلك ، رأينا هذا الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلِّفه أحد بهذا ، إنما تطوَّع به ؛ لأن طاقة الإيمان عنده دفعته إلى هذا الموقف .

ثم نراه يُطبِّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٢٢﴾﴾[يس] وهذا تلطُّف فى عرض الدعوة وأحرى أنْ تُقبل .

وقوله : ﴿وَمَا لِيَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس] كأنه يتعجب من أمر نفسه لو أنه لم يؤمن بالذى فطره ، والتعجب من النفس أصدق ألوان التعبير ، كأنه لا يمارى ولا يداهن ويقول ما فى نفسه ، كما قال سيدنا سليمان ـ عليه السلام : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل]

فالجواب ليس عند الغير ، بل عنده هو ، كأنه يقول : لا بُدَّ أن يكون الهدهد موجوداً لكنى لا أراه ، فالقاعدة أنه يستعمل الكل والكل موجود ، فالعجب عندى أنا : ما لى لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل] يعنى : إما أنْ يكون المانع من عندى أنا ، أو من عنده ، كأنه يُشكِّك فى الأول ، ثم يُدقِّق الأمر فيجده من عنده هو .

فقوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾[يس] كأن أمر الفطرة والخَلْق يقتضى أن تَعْبد الذى فَطَر ، والخروج عن هذا أمر يستدعى العجب .

لذلك فى سورة البقرة الحق سبحانه يلقننا فى مخاطبة الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] يعنى : كيف يكون ذلك منكم ، إنَّ كفركم بالله الذى خلقكم ورزقكم أمر لا يجوز بالمنطق العقلى ، فأخبرونا إذن الطريقة التى كفرتم بها .

والفَطْر : الخَلْق العجيب على غير مثال سابق ؛ لذلك يقول سبحانه عن نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة] يعنى : خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق احتذاه فى الخَلْق .

أو : أن المعنى ﴿الَّذِى فَطَرَنِى ﴿٢٢﴾﴾[يس] أى : على الإيمان به إيمان فطرة ، إذن : فإيمانه بالله إما إيمان شكر لمن خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، أو إيمان الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، واستجاب هو لمَا فى ذاته من هذه الفطرة .

وحين نتأمل مهمة هذا الرجل نجد أنه أشبه بالقلب بالنسبة لباقى أعضاء الجسم ، أى : من حيث تكوين مراحل الإيمان ، كيف ؟ الجسم عبارة عن جوارح متعددة ، لكل جارحة مهمة ووظيفة ، وحياة الجسم تتطلب مقومات الحياة من الطعام والشراب والهواء ، فيأكل الإنسان من نتاج الأرض ، ويشرب من مائها .

وبعد عملية التناول وما فيها من نِعَم الله فى أسنان تقطع ، وأضراس تطحن ، ولعاب يساعد فى عملية البلع ، وعصارات هاضمة.. الخ يتمثل الغذاء فى الجسم إلى دم يستقبله القلب فيأخذ

منه حاجته أولاً ليقوِّى نفسه على ضَخِّ الدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلٌّ عضوٍ مهمته .

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوة إيمانه ، فبعد أنْ آمن واستقر الإيمان فى قلبه أراد أنْ يُعدِّى إيمانه إلى قومه ، وأنْ يُشِعَّ عليهم من الهداية التى تشرَّب بها قلبه ، إذن : فهو يمثل قلب الرسالات ، لذلك جاء فى الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن »(١) وهذه المسألة لم تأتِ إلا فى يس ، لذلك كانت هى قلب القرآن ؛ لأنها جاءت بآخر مرحلة من مراحل الرسالات التطوعية التى تخدم الرسالة الواجبيّة .

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أخبر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أنْ يقبل كل ما جاء فى فضلها مما صَحَّ عن رسول الله ، وليس من الضرورى أن نقف على علَّة كل شىء ، لأن الإيمان كما قلنا غيب ومشهد ، والمؤمن يأخذ من صِدْق ما شاهد دليلاً على صِدْق ما غاب عنه .

إذن : لنأخذ هذه الأحاديث على العين والرأس ، حتى إن قرأتَ يس ، فلم تجد ما أخبرتْ به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، ولن تُعدم الخير على أيِّ حال ؛ لذلك رأينا بعضهم يضع الأحاديث التى تحثُّ على قراءة القرآن .

وقد ورد فى حديث أُبيٍّ أن المريض الذى تُقرأ عنده يس تأتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف ملَك ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦) من حديث معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

لا يفارقونه حتى يموت ، ثم يشهدون تغسيله ، ويشهدون تشييعه ، والصلاة عليه ودفنه[1] .

وفى رواية أخرى : مَنْ قُرئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها هو لنفسه يأتيه جبريل عليه السلام بكأس فيه ماء ، فيشربه شربةً لا يظمأ بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواض الأنبياء[2] .

هذا كله وغيره على العين والرأس ، تحقق معناه عندنا ، أو لم يتحقق .

وقوله سبحانه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾[يس] يعنى : لا تظنوا أنكم تفلتون من الله ؛ لأنكم فى قبضته ، وأنتم فى البدء كنتم منه بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإنْ لم تُقدِّروا نعمة الإيجاد فقدِّروا مغبة العَوْد .

ونلحظ فى هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة المفرد ﴿ وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢) ﴾[يس] ثم يعدل عن الإفراد إلى خطاب الجماعة والقوم المكذِّبين ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾[يس] ولم يَقُلْ : وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا : لأن الطاعة التى هى أصل العبادة إنما تأتى على مراحل ثلاث :

---

(١) قد صحت أحاديث فى فضل سورة يس ، ليس من بينها ما ذُكر هنا ، فقد أخرج الترمذى والدارمى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٧/٧) .

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قلابة موقوفاً عليه : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته كفاه ، ومن قرأها عند ميت هوِّن عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة » قال البيهقى : هكذا نُقل إلينا عن أبى قلابة وهو من كبار التابعين ، ولا يقول ذلك إن صح عنه إلا بلاغاً .

الأولى : أنْ تطيع مَنْ تجد فيه نموذجاً كمالياً يستحق أن يُطاع ، ويستحق أنْ يُحمد لكماله ، وإنْ لم يَعُدْ عليك منه شيء ، كما تنظر مثلاً إلى قصيدة رائعة معبِّرة فتعجب بقائلها وتثنى عليه ، أنت لا يعود عليك شيء منها لكنك تُقدِّر الشاعر لذاته .

الثانية : أن تطيع إنساناً وتُقدِّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً ما نرى الناس يخدمون رجلاً جباناً لا يستحق أنْ يخدم ، وما خدمه الناسُ إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أنْ تطيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف منه واتقاءَ شرِّه .

وقد حقق الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين الأولى والثانية فى قوله ﴿ وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢) ﴾[يس] فأنا أعبده لأنه بكماله يستحق أنْ يُعبد ، وأعبده لنعمه المتوالية ، أما المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذِّبين من قومه ، فقال ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾ [يس]

يعنى : تنبهوا يا قوم : إذا لم تَقدروا فى الله صفات الكمال التى يُحبُّ لأجلها ، ولم تقدروا فى الله نعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوى عليكم ، لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده ، فيزيد :

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ (٢٥) ﴾

الاستفهام فى ﴿أَأَتَّخِذُ ﴿٢٣﴾﴾ [يس] يحمل معنى التعجُّب والإنكار ، فهو يتعجب وينكر : كيف يتخذ من دون الله آلهة ، والله هو الذى خلقه ، وحين تتأمل معنى الفعل (أتخذ) تجد أن الشىء المُتَّخذ ليس أصلاً ، فمعنى اتخاذ آلهة أنها ليستْ آلهة فى الحقيقة ، وأنها لا تستحق أنْ تكون آلهة ، لكنك عمدتَ إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخاذ الولد فى قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ.. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

فالمعنى : أن الله تعالى ليس له ولد فى حقيقة الأمر ، وإنْ قلتم اتخذ الله ولداً ، فهذا يعنى أنه أتى سبحانه إلى ولد فتبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما تقول أنت اتخذت ولداً . يعنى : أتيتَ إلى ولد لم تنجبه فتبنَّيْته .

إذن : ما دامت هذه آلهة متخذة ، فالمعنى أنها ليس لها وجود أصلاً ، وكأن الرجل يُصحِّح للقوم فكرتهم عن العبادة .

وقوله سبحانه : ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ ﴿٢٣﴾﴾[يس] هذه العبارة فيها لفتة لطيفة ينبغى تأملها ؛ لأن صفة الرحمة في الرحمن تتناقض مع الضر ، فكيف جمع السياق بينهما ؟

نقول : إذا فسرتَ ما يجرى عليك به قَدَر الله على أنه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنه من رحمن ، فلا بد أن يكون لمجريه عليك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول : أحمدك ربى على كُلِّ قضائك وجميع قدرك ، حَمْدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

فكأن الحق سبحانه يقول لك : تنبه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ؛ لأن مُجريه عليك رحمن ، ففى طيَّات هذا الضر نَفْع كثير . كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُجرى له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقى الجسم ، فهذا ضرر

فى الظاهر ، وفى الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أنْ قلنا : إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أنْ تسأل عن الفاعل ، فإنْ كان عدواً سخطْتَ عليه ، وإنْ كان مُحباً تقبلْتَ ما حدث بالرضا ، وقلتَ للولد : لا بد أنَّ عمَّك مثلاً رآك تخطىء فعاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التى يُجريها عليك إلا من منطلق أنها من رحمن أرحم بك من الوالدة بولدها ، وأنت خَلْقه وصَنْعته ، وما رأينا أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعته فيحطمها ، إنما يعتنى بها ، ويُعمل فيها يد التجميل والتزيين ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفارة) وينحت فى الخشب . أتقول : إنه يضر بصنعته ؟ لا بل يُصلحها ويُزينها .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحب ، فبحقِّى عليك كُنْ لى محباً »[1] أبعد هذا التودد من الخالق للخَلْق يُجرى عليهم ما يضرهم ؟

وفى حياتنا العملية كثيراً ما نرى شواهد لهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو الأتوبيس مثلاً ، فتأخذ الميعاد التالى ، وفى الطريق تجد القطار أو الأتوبيس حدث له حادث فتصحح أنت فكرتك الأولى ، وتُحوِّل غضبك لفوات القطار إلى شكر لله الذى نجَّاك ، وكنتَ تظن غير ذلك . إذن : انظر إلى مَنْ أجرى عليك الأقدار ، ولا تنظر إلى المنفعة السطحية ؛ لأن لله تعالى حكمة فيما يُجريه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

أيضاً كثيراً ما يُخفق أحد أبنائنا مثلاً فى الامتحان وقد ذاكر واجتهد وحصَّل العلوم .. الخ لكن عَرَض له عارض من مرض أو غيره فلم يُوفَّق . النظرة السطحية للأمور تقول : إنها شر وخسارة تدعو إلى السخط والعياذ بالله ، لكن النظرة المتأنية المتأملة ترى لله تعالى حكمة فى هذا الإخفاق .

فالأب العاقل فى مثل هذه المواقف يقول لولده : يا بنى ، احمد الله فأنت دائم النجاح ، ولعلك إنْ نجحتَ هذا العام لا تَسْلَم من عيون الحاسدين ، وهذه فرصة لك لتزيد من مجموعك لتدخل الكلية التى تريدها .. الخ .

وهكذا يُوثق الوالد علاقة ولده بالله ، ويُزيد من إيمانه ورضاه بربه ، ويُبعده عن السخط وعدم الرضا بالقضاء ، وهذه مسألة ينبغى على الآباء الاهتمام بها .

إذن : اللمسة التى نريد الوقوف عندها فى هذه الآية أن الرحمن إنْ كانت تنافى عندك فعْل الضر ، فهذا عندك أنت ، إنما عند مُجريها لا تنافى ، لأنها من الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴿٢٣﴾ ﴾[يس] يعنى : شفاعة هذه الآلهة - إنْ كانت لهم شفاعة - لا تُجدى ، لأنهم شركاء لله وأنداد لله ، فكيف تُقْبل شفاعتهم عنده سبحانه ؟

وشرط فى الشفاعة أن يكون الشافع محبوباً عند المشفوع عنده ، فهذه الآلهة على فرْض أنه كان لهم شفاعة ، فهى غير مقبولة عند الله تعالى ، مع أن هذه الآلهة فى ذاتها معذورة حيث لا ذنبَ لها ، فهى ما ادَّعَتْ أنها آلهة ، إنما ادَّعى البشر ذلك .

وسبق أنْ ذكرنا أن هذه الآلهة قد تبرأت من كونها تُعبد من دون الله ، وصدق الشاعر الذى صاغ هذا المعنى ، فقال على لسان هذه الآلهة :

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أعْبَدُ لله مِنَ القَائمينَ بالأسْحَارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ تجنوه على ابْنِ مريَم والحَوارِى
تَخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دليلاً فغدَوْنَا بهمُ وَقُودَ النَّارِ
للْمُغَالِى جَزَاؤُه والمغَالَى فيه تُنْجِيه رحمةُ الغفَّارِ

وقوله سبحانه : ﴿وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾[يس] لأن الشافع حين تُرد شفاعته يمكن أن ينقذ المشفوع فيه من يد المشفوع عنده ، أما هؤلاء الآلهة فلا تُقبل شفاعتها ، ولا تستطيع أنْ تنقذ مَنْ طلب منها أنْ تشفع له .

وقد بيَّنَّا معنى الشفاعة ، وأنها من الشفع يعنى : إنسان له قضية ، ولا يستطيع وحده بأسبابه حَلَّ هذه القضية فيستعين بآخر ليساعده وينضم إليه ليُقوِّيه على حلِّها ، إذن : بعد أنْ كان مفرداً صار بالشافع شفعاً . يعنى : اثنين .

ولما أراد الحق سبحانه أن يجلى لنا هذه المسألة قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة]

وقال فى موضع آخر : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة]

تلحظ أن صدر الآيتين متفق لكن عجزهما مختلف ، فلماذا ؟ قالوا : لأن مرجع الضمير مختلف ؛ لأن عندنا هنا نَفْساً جازية ،

ونفساً مجزياً عنها ، فإنْ أعدْتَ الضمير على المجزى عنها ، فالمجزى عنه لا يشفع بنفسه ، إنما يعرض العدل أولاً ، ويطلب تقويم الضرر ليدفع فِدْيته ، فإنْ لم يقبل منه العدل بحث عَمَّنْ يشفع له ، إذن : فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنفعها شفاعة الغير .

فإنْ أعدْتَ الضمير على النفس الجازية - أى : الشافعة - فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويتحمل الفدية .

إذن : هذه الآلهة - على فَرْض أن لها شفاعة - فهى شفاعة مردودة غير مقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون إنقاذ مَنْ يلجأ إليهم من قبضة الحق سبحانه ، فهم لا يصلحون للشفاعة ، ولا للإنقاذ ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج]

وقوله : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[يس] يعنى : إنْ فعلتُ ذلك ، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهة أكون فى ضلال ﴿مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[يس] بيِّن واضح ، وقوله : ﴿لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[يس] كأن الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه .

ثم يقول هذا الرجل المؤمن : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[يس] هذا الخطاب يصح أنْ يُوجَّه إلى الرسل الذين جاء الرجل ليساندهم فى دعوتهم ويناصرهم ، فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴿٢٥﴾﴾[يس] ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[يس] أى : اسمعوا منى ما أناصركم به ، واشهدوا لى بأننى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، لم يُكلِّفنى أحد بها .

ويصح أنْ يكون هذا الخطاب مُوجَّهاً إلى القوم المكذِّبين ، فهو يقول لهم : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿٢٥﴾﴾[يس] يعني : الله ربكم رغماً عنكم ، وإنْ كنتم كافرين به سبحانه فأنا احترمت ربوبيته لكم ، وآمنتُ بها لأدخل في عظمة هذه الربوبية ﴿فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[يس] أي : اسمعوا مني هذا البلاغ لأكون قد أدَّيْتُ ما وجب عليَّ نحوكم ، وأبلغتكم ولم أخدعكم أو أغشَّكم[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

بناء الفعل (قيل) للمجهول يفيد التعميم ، فمَن الذي قال له ادخل الجنة ، ومتى قال ؟ في القرآن آية نقرؤها تجيب عن ذلك ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

فالرجل الذي وقف هذا الموقفَ الإيماني متبرعاً ، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليساند الرسل في أمر لم يُكلَّف به ، ويأتي للقوم المكذِّبين بحجج وبراهين لم يَأْت بها الرسل أنفسهم جدير بأنْ تتنزَّل عليه الملائكة ، وبأن تبشره بالجنة . أو : أن الحق سبحانه حكى عنه ما يقوله بعد أنْ يموت ويدخل الجنة ، وهذا إكبار من الله له .

---

(١) أما القول الأول : أنه خطاب للرسل ، فهو قول ابن مسعود . ذكره القرطبي في تفسيره (٨/ ٥٦٥٤) ، ونقله السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٢) ، أما القول الثاني : أنه خطاب لقومه ، فقد نقله القرطبي في تفسيره عن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فالآية يجوز فيها التأويلان .

ومن مؤهلات هذا الرجل لدخول الجنة أنه لم ينظر إلى حَظٍّ نفسه من التديُّن ، إنما نظر أيضاً إلى حَظِّ إخوانه ، فحتى بعد أنْ بُشِّر بالجنة ، أو بعد أنْ دخلها لم ينشغل بنعيمها عن قومه ، إنما قال ﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يس] يعني : ما أنا فيه من النعيم ، وما انتهى إليه أمر الإيمان والطاعة ، ليعملوا مثلي ولينالوا ما نلْت ، إنهم لو علموا لتهافتوا على الإيمان ، وأقبلوا على الطاعة أكثر من تهافتهم على الكفر والمعصية .

وقوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس] لاحظ أن المغفرة سبقتْ المكرُمة ، وهذه المسألة يسمونها التخلية والتحلية ، وسبق أنْ مثَّلْنا لها بالثوب حين تريد أنْ تكويه مثلاً : أتذهب به إلى (المكوجي) بما عليه من وسخ ؟ لا إنما تنظفه أولاً ، ثم تُزيِّنه بالكَيِّ .

كذلك الحق سبحانه وتعالى - ولله المثل الأعلى - قبل أنْ يُدخل عبده الجنة يُنقِّيه أولاً من الذنوب ، ويطهره مما علَق به ، وهذه هي التخلية ، ثم يُكرمه بالجنة ، وهذه هي التحلية ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه يمتنُّ علينا أولاً بأنْ يُزحزحنا عن النار بمغفرة الذنوب ، ثم يُكرمنا بدخول الجنة كرامةً منه وفضلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

نفهم من سياق هاتين الآيتين أن القوم المكذِّبين قتلوا هذا الرجل المتطوع ، أو أنه مات بطبيعة الحال[1] ، والمنتظر أن الله تعالى يجازيهم على تكذيبهم للرسل الثلاثة أولاً ، ثم تكذيبهم للرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنصحهم ، فماذا فعل الله بهم ؟

يقول سبحانه : إن أمر هؤلاء المكذِّبين أهون من أنْ نُنزل عليهم جُنْداً من السماء تهلكهم . ومجرد صيحة واحدة كافية لهلاكهم ، فالمعنى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ ﴿٢٨﴾﴾ [يس] أى : من بعد النصيحة والعظات والبراهين التى تطوَّع بها ﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يس] يعنى : لم نُنزل وما كان ينبغى لنا أنْ نُنزل عليهم جنداً من السماء ؛ لأن الأمر أهون من ذلك .

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٢٩﴾﴾[يس] أى : ما كانت إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[يس] كلمة ﴿خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[يس] تدل على أنهم كانوا متحمسين للكفر بهم فى أُوَار وغضب واشتعال على رسل الله أولاً ، ثم على الرجل المتطوع ثانياً ، فهُمْ فى ذلك أشبه بالنار المتأججة ، فأخمدها الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك كلمة يصح أن يقولها كل مؤمن يرى مصارع العاصين ونهاية الكافرين الذين أدركهم الموت قبل أنْ يتداركوا أنفسهم بالإيمان ، يقول :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٨) : « قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب انه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه ، وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك » . أما القرطبى فى تفسيره (٧/٥٦٥٤) فقد ذكر عدة أقوال ، منها قول ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه (أى أمعاؤه) من دبره . وألقى فى بئر الرس ، فهم أصحاب الرس .

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)﴾

هذه كلمة تحسُّر كثيراً ما نقولها تحسُّراً على فوات الخير ممن نحب له الخير ، ومعنى ﴿يَا حَسْرَةً (٣٠)﴾[يس] هذا نداء كأنك تناديها تقول : يا حسرة تعالَىْ ، فهذا أوانك . والتحسُّر هنا على العباد الذين كذَّبوا رسل الله واستهزأوا بهم ، وهذا أمر يجب أنْ يتحسَّر عليه كل مؤمن ؛ لأن الله تعالى خلقك وخلق لك قبل أنْ يستدعيك للوجود .

خلق لك مُقوِّمات حياتك المادية ، وصان مادتك بما قدَّر لك فى الأرض من أقوات ومن ضروريات وكماليات ، فهل يُعقل أنْ يُعطى كل هذا للبدن ويُترك الروح بلا عطاء ، وهى أهم من البدن ؟

لا بُدَّ إذن أنْ يكون للروح عطاء وغذاء وقيم ، بل إن القيم هى مطلوب الله من عبده ؛ لأنك ستكون عابداً لله ، مطيعاً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه ، وهذا هو المنهج الذى كلَّفك به فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك تجد أن عطاء المادة ومُقوِّمات حياة البدن مكفولة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعى الكل إلى الوجود ؛ لذلك تكفَّل بأرزاقهم ، كما تستدعى أنت مثلاً ضيفاً إلى بيتك ، فتهيىء له مطعمه ومَشْربه ومُقَامه عندك ، وكل الناس أخذوا هذا العطاء .

أما عطاء القِيَم والروح ، فبعضهم أخذه وبعضهم تركه ؛ لأن عطاء المادة سمح له بشهوة نفسه ، أما القِيَم فقيَّدتْ هذه الشهوة

وأمسكتهـا عن أشياء ، نفســه تريدها ، فلما صَدَّته القـيم عن شهوات النفس تركها وتملَّص منها .

هذا المنهج القيمى جاء من مُحِبٍّ لك حريص على مصلحتك ، كما ذكرنا فى الحـديث القدسـى عن رب العزة : (عبـدى ، أنا لك مُحبٌّ ، فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً) فأنت المنتفع بهذا المنهج ؛ لأن الله تعالى خلقك بكل صفات الكمال فيه سبـحانه ، فطاعتك لا تزيده كمالاً ، كما أن معصيتك له لا تُنقصه شيئاً من صفاته ، ولا تضره بشىء .

لذلك جعل الله من عباده الغنى والفقير ، وكان قادراً سبحانه على أنْ يجعلنا جميعاً أغنياءَ لا يحـتاج أحد منَّا إلى أحد ، والفقير لو تأمل الحكمة فى فـقره لحمـد الله ولَعلم أنه بفقره شـرْط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، فالغنى يحتاجنى قبل أنْ أحتاجه أنا ، الغَنِىّ يسـعى ويتعب ويـكابد أسبـاب الرزق والتجـارة والمكسب والخسارة ، ثم يأتى إلى بابى ليعطينى حَقَّ الله فى ماله وأنا مستريح البال .

الغنى فُرِض عليـه الحج ، وإنْ قصَّر فـيه يُعاقب ، وإنْ حَجَّ فـهو بين قبول أو رَدٍّ ، فإن لم يُقبل حجه ظلتْ الفريضة عليه . وفرْق بين مَنْ فُرِض عليه الركن ، وبين مَنْ لم يُفرض عليه أصلاً .

إذن : المتـأمل يرى أن الفقيـر أحظُّ من الغنى ، وغير المـستطيع أحظُّ من المستطيع .

وقد كنا مع بعض الإخوان ، فأردنا أنْ نصلى المغرب فى مسجد سيدنا الحسـين ، فلما قُمْنا للصلاة ، استوقفنا عم الحـاج سيد جلال وقـال : انتظروا دقـيقـتـين ، لأننى أرسلت الولد سليمـان (يفك) لى

عشــرة جنيهات ، فقــال أحد الحاضــرين : معى جنيهـات جديدة هَات العشرة جنيـهات أفكها لك ، فقال الحـاج سيد : لا ، لأن الرجل الذى أنوى أنْ أعطيه لا يـأخذ إلا الجنيه الكبـير بتـاع زمان ، ويرفض هذه العملة الجديدة .

فقلت فى نفسى : سـبحان الله ، هذا الرجل المجـذوب الذى يقعد على باب سيدنا الحسين وصفته كذا وكذا يُسخِّر أكبر رجل اقتصادى فى مصـر عم سيـد جلال ، ومـعه الوزير أحمـد طعيـمة ليـوفروا له النقود التى تعجبه .

والعجيـب أن من هؤلاء مَنْ كان يجلس على باب سيدنا الحـسين يضع رِجْلاً على رِجْل ، ويمـرُّ عليه موكب الوزير والوزراء فلا ينـتبه إليـهم ، ولا هو يلقى بالاً إلى الموكب والحـراس والدنيا من حـوله ، فمـاذا يعنى هذا ؟ يعنى أنه مشغـول بما هو أعظم من هذا كله ، وأن الله قد تجلَّى عليه بما أفقده الوعى بالدنيا وبما حوله .

لذلك رأى أحد منهم موكبـاً لأحد الوزراء فقال للآخر : والله نحن فى لذة ، لو علم بهـا هؤلاء لحـاربونا عليهـا بالسـيف ، أليس هؤلاء سادة ؟ أليسـوا أعزَّة ؟

إذن : كل مؤمن يرى مصير المكذِّبين ومصارع الكافرين فى هذه القصــة وفى أشباهها لا بُدَّ أن يقـول هذه الكلمة ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۝٣٠﴾[يس] لماذا ؟ لأن من تمام الإيمان أنْ يتحسَّر المؤمن على مَنْ لم يَذُقْ طعم الفضيلة ولذة الطاعة ، فهو مـسكين يستحق مَنْ يشفق عليه ويتحسَّر على حاله ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل ويحب الخير للإنسانية كلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

يعنى : كان يكفى هؤلاء المكذبين أن ينظروا مصير مَنْ كذَّب قبلهم ، وما حاق بهم من العذاب ، وأنهم بعد أنْ أهلكهم الله لم يرجع منهم أحد . وكلمة ﴿يروْا (٣١)﴾[يس] من الفعل رأى ، وهى تأتى : بصرية أو علمية ، تقول : رأيت المشهد ، فهذه رؤية بصرية ، وتقول : رأيت هذا الرأى يعنى علمته ، والرؤية البصرية تقصر معلوماتك على ما اتصلتْ به جارحتك ، أمّا العلمية فتعطيك ما اتصلتْ به جارحتك وجوارح الآخرين ، فالرؤية العلمية إذن أوسع من البصرية .

لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل ، وربما بعد هذه الحادثة ، إذن : لم يَرَ منها شيئاً رؤية بصرية ، ومع ذلك خاطبه ربه بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[الفيل] يعنى : ألم تعلم ، سواء أكان قومه قصُّوا عليه القصة ، أو أن الله تعالى أخبره بها .

والرؤية البصرية للأحداث أوثق وسائل الإدراك لأنه كما يقولون : ليس مع العين أين ، لكن لماذا عدل السياق عن ألم تعلم إلى ألم تر ؟ قالوا : فى هذا إشارة من الحق سبحانه لنبيه يقول له : إن إخبارى لك بقضية علمية أوثق من رؤيتك بعينك .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا (٣١)﴾[يس] تعنى أن من هؤلاء القوم مَنْ

رأى بالفعل مصارع المكذِّبين ، ومرَّ على ديارهم وهي خاوية على عروشها في أسفارهم ورحلات تجارتهم في الشتاء والصيف ، ومعنى ﴿كَمْ ﴿٣١﴾﴾[يس] تفيد الكثرة ، وأنه أمر فوق الحصر كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك وكأنك تقول له : أنا ارتضى حكمك واستأمنك أنت على الجواب ، وبذلك تحوَّل الإخبار منك إلى إقرار منه هو .

ومعنى : ﴿مِّنَ الْقُرُونِ ﴿٣١﴾﴾[يس] القرون جمع قرن ، وهو فترة من الزمن قدَّروها بمائة عام ، والقرن أيضاً يعني الجماعة أو القوم يجمعهم الشيء الواحد مهما طالتْ فترته كالدين الواحد ، أو حكم ملك من الملوك .. الخ . فمثلاً نقول : قوم نوح وقد أخذوا من الزمن مساحة ألف عام أو يزيد .

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾[يس] يحتمل أكثر من معنى حسب عَوْد الضمير في (أنهم) وفي (إليهم) فالآية تتحدث عن قرون أُهلكَتْ من قبل وتخاطب مكذِّبين معاصرين ، فإنْ عاد ضمير الغائبين في (أنهم) إلى القرون التي أهلكت . فالمعنى : أنهم لا يرجعون ، ولم نَرَ أحداً منهم رجع بعد هلاكه ، وإنْ عاد الضمير على المخاطبين الموجودين . فالمعنى : أنكم أيها المخاطبون ، لا ترجعون في نسبكم إلى هؤلاء الذين أهلكهم الله ؛ لأن الله تعالى استأصلهم بحيث لم يُبْقِ منهم أحداً ولا نسلاً .

والآية في مجملها تعني أن هلاك الكافرين والمكذبين ليس بدعاً ؛ بل هو سنة مُتَّبعة على مَرِّ الزمان ، فالقرآن يقصُّ علينا ما نزل بعاد وثمود وفرعون : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي

الأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ ﴾ [الفجر]

والله تعالى أبقى الآثار لتدلنا على صدْق ما أخبرنا به سبحانه ، وها نحن نرى أمريكا مثلاً ، وهى سيدة الحضارة الحديثة ، وصاحبة الأسبقية فى الابتكار والاختراع وغزو الفضاء ، ومع ذلك يأتون إلى مصر ليشاهدوا آثار الفراعنة التى بُنيت قبل الميلاد بآلاف السنين ، ويتعجبون رغم تقدُّمهم العلمى من كيفية بناء الأهرامات مثلاً .

هذه السُّنة ـ سُنة إهلاك الكافرين ـ نرى لها شواهد فى عصرنا الحديث ، فروسيا التى انتحرت وقتلتْ نفسها بنفسها ، انظر ماذا فعلتْ فى الشيشان ، هذه الدولة الإسلامية الصغيرة ، فى حين قصَّرنا نحن عن نُصْرتهم ، أو أن نُصْرتنا لهم لم تكُنْ على قَدْر جبروت المعتدين ؛ لذلك تدخلت السماء وردَّ الله على أعداء دينه ، وثأر منهم فى زلزال سخاليل .

وقوله تعالى فى الآية بعدها : ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ㉜ ﴾[يس] جاءت هذه الآية بعد قوله سبحانه ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ㉛ ﴾ [يس] لتوضح أن عدم الرجعة أى فى الدنيا ، وإلا لو لم يكُنْ لهم رجعة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فالموت راحة بالنسبة لهؤلاء المكذِّبين ، كما قال الفخر الرازى[1] رحمه الله ، إنما المراد : لا يرجعون فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا بُدَّ من الرجوع للحساب عن كل كبيرة وصغيرة .

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، ولد ٥٤٤ هـ فى الرى (طهران) ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٥٢ عاماً بهراة . من كتبه « مفاتيح الغيب » فى تفسير القرآن ، و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

قوله سبحانه (وإنْ) إنْ هنا بمعنى ما النافية و (لَمَّا) بمعنى إلا ، فالمعنى : وما كُلٌّ إلا جميع لدينا مُحْضرون . وقد عرفنا من دراستنا لقواعد النحو أن كل وجميع من ألفاظ التوكيد المعنوى للجمع ، ومثلهما أبصع وأكتع وأبتع ، تقول : جاء القوم أجمعون أو أبصعون أو أبتعون ، وجاء القوم كلهم . ونلحظ أن الآية جمعتْ بين لفظى التوكيد كل وجميع ، فلماذا ؟

قالوا : الجمع بينهما ضرورى هنا ، لأن لكل منهما مدلولاً ، لا تؤديه الأخرى ، فالكُلية تفيد الشمول للأفراد فى الرجوع ، فكلهم يعنى كل فرد منهم ، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سوياً ، إنما يأتى كُلٌّ بمفرده لترى الذلَّة والصَّغَار على المسرفين وعلى الكافرين الذين جعلوا من أنفسهم آلهة مطاعة . أمَّا جميع فيعنى : يأتون مجتمعين .

ومعنى ﴿مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾[يس] من الفعل حضر ، وفَرْق بين حضر وأُحْضر ، حضر، أى : طواعية بنفسه وبرغبته ، أما أُحْضِر أى : أجبر على الحضور ، وأُكْره رغم أنفه .

● ● ●

بعد أنْ ذكر الحق سبحانه مسألة البعث فى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾[يس] أراد سبحانه أنْ يذكر دليلاً على صدْق هذه القضية ؛ لأن البعث من المسائل التى ينكرها كثيرون ، وصدق القائل[1] :

زَعَمَ المُنجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

(١) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، التنوخى ، ولد عام ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان وتوفى فيها عام ٤٤٩ هـ عن ٨٦ عاماً ، شاعر وفيلسوف ، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ، وكان يُحرِّم إيلام الحيوان ، له « رسالة الغفران » ، « لزوم ما لا يلزم » وغيرهما .

إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فلَسْتُ بِخَاسِرٍ أوْ صَحَّ قوْلى فالخَسَارُ عليكُمَا[1]

وكما يقول لك الناصح : إنْ ذهبتَ فى الطريق الفلانى فاحذر وخُذْ الاحتياط ؛ لأن فيه ذئاباً وسباعاً وقطاعَ طرق ، فماذا عليك إنْ أخذتَ الحيطة ، ولم تجد شيئاً ، مما خوّفك منه ؟ كذلك اعتقادى فى البعث إنْ لم يُفدنى لا يضرنى ، واعتقادكم إنْ لم يضركم لا يُفيدكم .

وأقوى شبهة فى مسألة بَعْث الأجساد عند الفلاسفة أنهم قالوا : هَبْ أنَّ إنساناً مات ودُفن وتحلَّل جسده وزرعت على قبره شجرة تغذَّت من بقاياه ، ثم أثمرتْ وأكل من ثمارها إنسان آخر ، فوصلت إليه عناصر من الأول ، فحين يكون البعث . كيف تُبعَثُ هذه العناصر للأول ، أم للآخر ؟

وصاحب هذه الشبهة فَهِم أن العناصر حين تتكوَّن لها ذاتية فى التكوين ، ولم يفهم أن لها جنسية فى التعميم ، كيف ؟ نقول : هب أن إنساناً أصابه مرض أنقص وزنه عشرين كيلو مثلاً ، ثم هدى الله الطبيب إلى علَّته ووصف له الدواء شُفِى من مرضه وتغذَّى حتى عاد إلى وزنه الأول ، أين ذهبتْ عناصره التى نقصتْ منه ؟ وهل هى نفس العناصر التى عادتْ إليه بعد أنْ شُفى ؟

إذن : المسألة ليست خصوصية عناصر ، بل كمية عناصر ، والعظمة فى أنْ نحصى كمية عناصر كل إنسان ، فلو جمعت كمية العناصر الموجودة عندى (أكون) محمد الشعراوى ؛ لأن عناصر البشر جميعاً واحدة هى الستة عشر عنصراً المعروفة ، والتى تبدأ

---

(١) البيتان من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر الكامل ، عدد أبياتها سبعة أبيات ، وفى أولها « قال » بدلاً من « زعم » . انظر ديوانه والموسوعة الشعرية .

كمـا ذكـرنا بالأكسـوجـيـن ، ثم الكربون ، ثم النتـروجـين ، ثم الهـيدروجـين .. الخ لكن يخـتلف الأشخـاص باخـتلاف كـميـات هذه العناصـر عند كل منا ، فأنت عندك كـذا أكسـوجين ، وكـذا كربون ، وكـذا نتـروجـين ، وأنا أعلى منـك فى الأكسـجـين ، وأقلّ منك فى الكربون ، وهكذا .

والحق سـبـحـانه يُعلِّمنا أن المسـألة ليسـت ذاتيـة عناصـر ، وخصـوصية عناصـر ، إنما قيمة عناصر ، فيقـول سبحانه فى سورة (ق) : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾[ق] يعنـى : يحفظ هذه الكميات ويُحصيهـا بمقاديرها ، فإذا أراد سبحانه البعث جمع نسبة كذا ونسبة كـذا تعطى فلاناً ، ونسبة كذا إلى نسبة كـذا تعطى فـلاناً وهكذا ، ولم يقف الأمـر عند علـم هذه النِّسَب ، بل حفظها الله وسجَّلها فى كتاب حفيظ .

وفى موضـع آخـر ، يردُّ الحق سبـحانه على منكرى البـعث يقول لهم : لمـاذا تكابرون فى البـعث ، وهو إعـادة لشىء كـان مـوجـوداً بالفـعل وتفـرَّقتْ عناصـره ، والأعجب مـن ذلك أنْ أنشأته مـن غيـر موجود ، إذن : فالبعث أهون من الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٢٧﴾ [الروم] هذا إنْ جـاريناكم فى فَـهْـمكم للأمـور ، واتبعنا قوانينكم فى التفكير .

وسـبق أنْ أوضـحنا أن العـناصـر التى خلقـهـا الله فى الكون هى هى ، لم تزد شيـئاً ، ولم تنقص شـيئاً ، فـالماء مثـلاً هو نفس الماء منذ خلق اللهُ الأرض ، لكنه يدور فى دورة معـروفة ، فالإنسان مـثلاً يشرب طوال حياته كذا طن من الماء ، فهل يحتفظ بها ؟ لا بل تخرج منه فى صورة بول وخلافـه ، حتى بعد أنْ يموت يتبخَّـر ما فيه من

مائية ، وتمتصها الأرض لتبدأ دورة جديدة للماء . وهكذا عناصر الإنسان تدور هذه الدورة .

وهنا يسوق الحق سبحانه لهؤلاء المنكرين هذا الدليل :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا دليل مُشَاهد يراه الجميع ، ولا يستطيع أحد إنكاره ، فنحن نرى الأرض الميتة الجرداء القاحلة ، فإذا ما جاء المطر اخضرَّتْ ودبَّتْ فيها الحياة واهتزَّت وربَتْ ، وعلى الإنسان أنْ يأخذ مما يُشاهد دليلاً على صدْق ما غاب عن مشاهدته .

وقوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴿٣٣﴾ ﴾[يس] الآية : الشيء العجيب في بابه كما نقول : فلان آية في الكرم أو آية في الحُسْن ، وهذه الآية لهم يعني للكافرين فحسب ، لأن المؤمن لا يحتاج إلى هذه الأدلة ؛ المؤمن قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وطلب الدليل على الشيء أول دليل على وجوده ، وما أتعبتُ نفسي في البحث عن الدليل إلا لأنني مقتنع بوجود الشيء ، فطلَب الدليل هو عَيْن الدليل ، والمؤمن لا يطلب الدليل إلا ليجادل به مَنْ لا يؤمن ليلفته إلى آيات الله.

وهذه الآية إما أن تأخذها على أنها آية كونية تدل على قدرة الإله المُوجِد سبحانه ، وإمَّا أن تأخذها دليلاً على أننا إذا أنزلنا المطر على

الأرض الميتة تهتزّ وتنبت من كل زوج بهيج .

والمتأمل فى الأرض يجد أنها آية فى ذاتها ، ونعمة من أعظم نعَم الله علينا ، حتى وإنْ كانت صخراً لا تنبت ، فيكفى أنها مَقرُّنا ، فوقها نستقر ، وإليها نأوى ، فما بالك إنْ منحها الله لوناً من الحياة حين تهتزّ بالنبات وتتحول إلى اللون الأخضر البديع .

وإحياء الأرض على مراتب ، فإما أنْ يكون الإحياء بنباتات لا تغنى فى القوت مثل العُشْب والحشائش والنجيل ، ويكفى أن هذا النوع يكسو وجه الأرض جمالاً ونُضْرة ويلبد الرمل ويثبته على وجه الأرض فلا تبعثره الرياح فى أعيننا ، فهى إذن مظهر من مظاهر حياة الأرض ، ونعمة من نِعَم الله ، والمرتبة الأخرى أن تنبت الأرض النبات الذى نقتات به ، وهو قسمان : الحبوب التى تمثل الضروريات ، وهى من مقومات حياتك ، وهى أصل القوت وأهمها القمح .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أهميتها ، فقال سبحانه ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] ليلفت أنظارنا إلى أهمية القشرة التى كنا إلى وقت قريب لا نهتم بها ، ونضعها علفاً للمواشى ، ونأكل الدقيق الفاخر أو (العلامة) ، وكان هذا طعام الصفوة والأغنياء إلى أنْ تنبهنا إلى أهمية الردة ، فأصبحنا نُفضِّلها على الدقيق الفاخر ، بدليل أن الخبز المكوّن من الردة الآن أغلى من الخبز الأبيض ، ثم رأينا الذين أسرفوا على أنفسهم فى أكل الخبز الأبيض الفاخر لا يأكلون إلا الردة ، وبأمر الطبيب .

لذلك رُوِى أن سيدنا سليمان عليه السلام ، وقد أعطاه الله مُلْكاً

لا ينبغى لأحد من بعده كان لا يأكل إلا الخشكار أى : الدقيق الخشن[1] أما الدقيق (العلامة) فللخدم .

ثم الفواكه وتُعَدُّ من التَّرفيات التى نتفكَّه بها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا.. (٣٣)﴾[يس] هذه هى المرتبة الأولى ، ثم ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾[يس] وهذه هى الضروريات .

ثم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ.. (٣٤)﴾ [يس]

وخَصَّ النخيل والأعناب ؛ لأن البلح والعنب أهم الفواكه ، وأقربها من ضروريات القُوت ، فهما قوت للبعض ، وفاكهة للبعض ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله عن البلح :

طَعَامُ الفَقِير وحلْوى الغَنِىّ ... وزَادُ المسَافر والمغْتَرِب[2]

ونقف هنا عند عظمة الأداء القرآنى ؛ لأن الكلامَ كلامُ رب ، وعلينا نحن أنْ نجلى وجوه العظمة فيه ، وقد لاحظ العلماء جزاهم الله عنَّا خيراً أن القرآن لما تكلم عن الفاكهة قال ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (٣٤)﴾[يس] فذكر الشجرة فى النخيل ، وذكر الثمرة فى الأعناب ، ولم يذكر ثمرة النخيل وهى التمر ، ولم يذكر شجرة العنب وهى الكَرْم .

ولما بحث العلماء هذه المسألة وجدوا أن القرآن ذكر النخيل ؛

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب لابن منظور (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أى القشرة) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [لسان العرب - مادة : خشر] .

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقى أمير الشعراء ، من بحر المتقارب ، عدد أبياتها ٢١ بيتاً ، أولها :

أرى شجراً فى السماء احتجب ... وشق العنان بمرأى عجب

لأنها شجرة كثيرة الفوائد ، مستمرة العطاء ، لا يقتصر نفعها على ثمرها ، بل كل ما فيها نافع مفيد ، ويكفى أنْ تعرف أن النخلة لا يُرْمَى منها شيء أبداً ، ولكل جزء فيها استعمال ومهمة : الجذع والجريد والخوص ، حتى الليف يحشون به أفخم أنواع الصالونات ، أما شجرة العنب فبعد أنْ تأخذ ثمرها لا يبقى فيها إلا مجموعة من العيدان الملتوية التى لا تغنى شيئاً .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) ﴾[يس] لأن الأرض المنزرعة التى تعطينا هذا العطاء إما أنْ تُروى بالأنهار أو بالمطر ، فإذا لم يتوفر لها هذان المصدران تُرْوَى بعيون وهى المياه الجوفية التى تتسرَّب من ماء المطر فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر]

وهذه العيون مظهر من مظاهر قدرة الله ، فمنها ما نبحث عنه ونحفره ، ومنها ما ينساب بنفسه طبيعياً بقدرة الله ، وكأن ربك عز وجل يُطمئنك إلى عطائه ، فإنْ كنتَ فى أرض غير ممطرة ولستَ فى واد تجرى فيه الأنهار فاطمئن ، ففى باطن الأرض عيون تتفجَّر بالماء العَذْب الصالح للشرب ولسقْى الأرض . وقد تنبَّهنا مؤخراً إلى ضرورة زراعة الصحراء واستصلاحها ، وأعاننا على ذلك ما فيها من آبار ومياه جوفية ، ما علينا إلا أنْ نبحثَ عنها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى تفجير العيون ، فيقول سبحانه : ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾[يس] قوله تعالى ﴿ مِن ثَمَرِهِ (٣٥) ﴾[يس] قالوا : من ثمره . أى : الحبوب والبلح والعنب وغيرها ، أو من ثمر تفجير العيون ، قال البعض : ينبغى أن ننسب الثمرة إلى الأصل ، فيكون المعنى : من ثمر القدرة فى كُنْ ، وليس

المراد الثمرة القريبة .

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يخلعك من الفتنة بالأسباب ، ويلفتك إلى المسبِّب الأعلى الأول ؛ لذلك أمرنا حين يعزُّ الماء ولا تسعفنا الأسباب أن نلجأ إلى المسبِّب سبحانه بصلاة الاستسقاء ؛ لأن المسبِّب سبحانه هو المرجع النهائى لهذه المسألة ، وأنت حين تستسقى لا تستسقى بنفسك ، إنما بأضعف منك ، وإنْ كنتَ عاصياً كفوراً تستسقى بمَنْ لم يرتكب معصية .

لذلك أمرنا أنْ نأخذ معنا فى صلاة الاستسقاء النساء والأطفال والمواشى ، وكأننا نتوسل إلى الله بضعفهم وطهارتهم من المعاصى ، وكأننا نقول لربنا : يا رب إن كنا قد عصيناك ولا نستحق السُّقيا فاسْقِنَا لأجل هؤلاء .

بل وأمرنا فى الاستسقاء أن نخرج إليه ونحن مخالفون للأرْدية مغيِّرون لسَمْتها ، إظهاراً للذلة والانكسار لله سبحانه وتعالى[1] .

والآن ، بعد ما حدث من تطور فى استخدام الماء حتى صرْنَا نستقبله فى خزانات ومواسير بَعُدَتْ الصلة بين واهب الماء والمنتفع به ، فحين تنقطع المياه لا تخطر على بالك صلاة الاستسقاء ، ولا تتذكر واهب الماء ، إنما تفكر فى سبب انقطاع المياه فتسأل عن

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٢٦) وابن ماجه (١٢٦٨) والبيهقى فى سننيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « خرج نبى الله ﷺ يوماً يستسقى وصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة ، ثم خطبنا ودعا الله وحوَّل وجهه نحو القبلة رافعاً يديه ، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن » قال ابن حجر فى فتح البارى (٢/٤٩٩) : « اختلف فى حكمة هذا التحويل : فجزم المهلَّب بأنه للتفاؤل بتحويل الحال عما هى عليه . وتعقَّبه ابن العربى بأن من شرط الفأل أن لا يقصد إليه . قال : وإنما التحويل أمارة بينه وبين ربه . قيل له : حوِّل رداءك ليتحول حالك » .

المواسير وعن الموتور .. الخ . إذن : الأسباب نفسها أبعدتْنَا عن المسبِّب سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾﴾[يس] استدراك يراعى دور الإنسان وعمله ، فمن الثمار ما يُؤكَل مباشرة مثل الخوخ والبرتقال والخيار ، ومن الثمار ما يحتاج إلى علاج وإعداد ليُؤكل ، كما نفعل مثلاً فى (الكوسة) وغيرها مما يحتاج إلى إعداد ، فكأن الحق سبحانه يُقدِّر لك دورك ، ويعطيك حقك ، ويذكر لك عملك مهما كان يسيراً .

وهذه المسألة جاءت بوضوح فى قوله سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة] فربُّك عز وجل يُقدِّر عملك فى حرث الأرض وإعدادها للزراعة ، وهذا دورك فيها ، أما مسألة الإنبات فهى لله وحده ، لا دخْلَ لك فيها .

كذلك احترَم ربُّك عملك فى إيجادك شيئاً كان معدوماً وسمَّاك خالقاً ، لأنك أوجدتَ معدوماً ، وإنْ كان هذا الذى أوجدته من موجود معلوم ، فقال سبحانه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

فإذا كان ربك قد احترم خلقك لشىء كان معدوماً ، فينبغى عليك أنْ تحترم أحسنيته فى الخلْق ، فأنت خالق وربّك أحسن الخالقين ، أنت تستطيع أنْ تعالج الرمل مثلاً ، وتصنع منه كوباً ، هذا نوع من الخلْق لكن يظل الكوب كما هو ، ويثبت على الحالة التى أوجد عليها ، فلا تعطى أنت الكوب صفة الحياة ، أما خلْق الله فيعطيه اللهُ صفةَ الحياة ، فينمو ويكبر ويتناسل .. الخ .

وقوله سبحانه : ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس] جاء بعد ذكر هذه النِّعَم السابقة ، والتى تستوجب شكر الله عليها ، لكن لم يَأْتِ هُنا أمر

بالشكر ولم يَأتِ بأسلوب خبرى ، إنما جاء هكذا ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس] بصيغة الاستفهام ، وكأن الله تعالى يقول لنا : أجيبوا أنتم ، فقد استأمنتُكم على الجواب ، وقد علم سبحانه أن الجواب لا يمكن أنْ يكون إلا الإقرار بالشكر على النعمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

كلمة ﴿سُبْحَانَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] تعنى : التنزيه المطلق لواجب الوجود الأعلى عن أنْ تحكمه قوانين الموجود نفسه ؛ لذلك تُقال فى كل أمر عجيب كما فى قصة الإسراء والمعراج ، فقد استهلَّ القرآنُ سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] فالإسراء بسيدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود به إلى السماء السابعة فى جزء فى الليل يُعَدُّ أمراً عجيباً ، وينبغى ألاَّ نقيسَ هذا الفعل على قوتنا نحن ، بل على قوة الفاعل ؛ لأن الفعل يجب أنْ يُقارن بقوة فاعله قوةً وضعفاً .

وسبق أنْ قُلْنا لتوضيح هذه المسألة : إننى لو قلتُ : صعدتُ بابنى الصغير قمة افرست مثلاً ، أتقول لى : كيف صعد ولدك الصغير قمة افرست ؟

فالحق سبحانه فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] يقول لنا : لا تتعجبوا من هذه المسألة ؛ لأن محمداً لم يَقُلْ سريتُ ، إنما قال : أُسْرِى بى ، فأنا الذى أسريت به وأنا مُنَزَّه عن الزمان ،

ومُنزه عن المكان وعن القـوة ، وإذا كان كل فـعل يُقاس زمنه بـقوة فاعله فَقِسِ الزمن على الفاعل الأعلى سبحانه ، وعندها ستجد لا زمن .

وقلنا : إنك حين تذهب إلى الإسكندرية مثلاً ماشـياً تستغرق عدة أيام ، أمّا بالسيـارة فتستـغرق عدة ساعات ، وبالطـائرة عدة دقائق ، وبالصـاروخ ثوانى ، إذن : كلمـا زادت الـقوة قَـلَّ الزمن ، وعلى هذا قس الإسراء والمعراج .

لذلك تجد أن هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَ ①﴾ [الإسراء] لا تُقَال ولم تُقَل من قبل إلا لله تعالى ، مع كثرة الجبابرة فى الأرض ، ومع وجود مَن ادعى الألوهية ، ومَن قـال : أنا ربكم الأعلى ومع ذلك لم تُقَلْ إلا لله ؛ لذلك نقـول فى ذكر الله : سـبحـانك ولا تُقـال إلا لك ، لماذا ؟ لأنهـا تعنى التنزيه المطلق ، وهو لا يكون إلا لله .

وكلمـة (سبحـان) مصـدر يعنى : لله سبـحان أى تنزيه قـبل أن يوجد مَنْ ينزهه ، فهو مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجـد مَنْ يقول سبحان الله ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق أحداً ، فالصفة موجـودة فيه سبحانه قبل أن يُوجد لها مـتعلق ، كما تقول : فلان شاعـر ، أهو شاعر لأنه قال قـصيدة رائعة ، أم هو شـاعر قبل أنْ يقولهـا ؟ نعم هو شاعـر قبل أن يقـول القصـيدة ، ولولا مـوهبة الشعر عنده ما قالها .

إذن : فصـفات الكمال كلها مـوجودة لله تعالى قبل أنْ يوجـد لها متعلق ؛ لأن هذه الصفات هى التى أوجدتْ متعلقها .

وكما ذكر القـرآن كلمة المصدر (سبحان) ذكـر المشتق منها من الماضى ، فقال سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ①﴾ [الحشر]

وذكر المضارع في قوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ①﴾ [الجمعة]

إذن : الحق سبحانه مُسبَّح قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم لما خلق الخَلْق سبحتْ له كلُّ المخلوقات ، وما زالت تُسبِّح وستظل تُسبِّح ، فما دام الكون كله مُسبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة ، وسبِّح معها : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]

والتنزيه المطلق للحق سبحانه له مقامات ثلاثة :

الأول : أن تُنزِّه ذاته سبحانه عن كل الذوات .

الثاني : أنْ تُنزه صفاته سبحانه عن كل الصفات ، فأنت تُوصف بالغِنى ، لكن غِناك ليس كغِنَى الحق سبحانه ، أنت موجود والله موجود ، فهل وجودك كوجوده سبحانه ؟ ..الخ

ثم **الثالث** : أنْ تنزه فعله سبحانه أنْ يشبه الأفعال ، فإذا قيل : الله فعل كذا . إياك أن تقيس فعْله تعالى بفعلك ؛ لذلك قلنا في ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..①﴾ [الإسراء] قِسْها على قوة الفاعل سبحانه ، لا على قوتك أنت .

الحق سبحانه حينما يأتي بشيء يعلمه المخاطبون الأولون لا يغلق خزائن فضله ، إنما يترك لنا رصيداً احتياطياً لكل ما يجد بعد ذلك نتيجة التطور والتزاوج في قوله سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ㊱﴾[يس] ، فقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ㊱﴾ [يس]

فهو غير معلوم للمخاطبين أولاً ، لكن سيُعلم فيما بعد ، وأبرز آيات القرآن التي أشارت إلى هذه المسألة قوله سبحانه : ﴿وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل]

فجاء قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل] رصيداً احتياطياً لما استجدَّ بعد ذلك من وسائل النقل والمواصلات ، كالسيارات والطائرات والصواريخ .. الخ .

فإنْ قلتَ : فلماذا جاءت هذه الأشياء المستجدَّة على سبيل الإجمال ؟ نقول : لأن العقل لم يكُنْ مستعداً لأنْ يقبلها ساعة الخطاب ، وهو لم يرَ شيئاً من هذا ، لكن حين يوجد الشيء يراه صراحة ، فقال سبحانه على سبيل الإجمال ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل] لأن كل يوم سيأتى لنا بجديد وبعجائب لم نَرَهَا من قبل ، وآخر ما شاهدناهُ من ذلك الصواريخ ، ومَنْ يدريك لعلنا نرى عن قريب ما هو أعجب منها ، وعندها سنُدخل كل هذه الأشياء تحت ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل]

كذلك هنا فى قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾[يس] فنحن نعلم الأزواج فى﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ (٣٦) ﴾[يس] وشاهدناها مثلاً فى تلقيح النخيل وغيره من المزروعات ، ونعرف منها الذكر والأنثى فى النخيل وفى الجميز مثلاً ، لكن هناك مزروعات أخرى لا نعرف فيها الذكر من الأنثى ، وهذه الأنواع تُلقِّحها الرياح بقدرة الله كما قال سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢) ﴾ [الحجر]

وفى بعض المزروعات جعل الخالق سبحانه الذكورة والأنوثة فى العود الواحد ، وغالب الظن أنها فى المزروعات الضرورية للأقوات كالذرة والقمح ، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى ، إنما فى العود الواحد كعود الذرة مثلاً نجد فى أعلى العود سنبلة تحمل حبَّات لقاح الذكورة وتحتها كوز الذرة الذى تخرج منه شعيرات تمثل الأنوثة

وتتلقى حبات اللقاح التى تبعثرها الرياح من أعلى .

لذلك إذا لم تخرج هذه الشعيرات وتبرز من الكوز (يدكَّر) كما يقول الفلاحون يعنى : لا يُخرج كوزاً ، ولا تتكوَّن بداخله حبَّات الذرة ، لماذا ؟ لأنه لم يتلقَّ حبات الذكورة .

لذلك من العجائب أنك تجد حبات الذرة فى أسفل الكوز أكبر مما يليها إلى أعلى وبالتدريج ؛ لأن كل شعيرة من الشعيرات متصلة بحبة من حبات الكوز ، وتمثل هذه الشعيرة القناةَ التى تنقل اللقاح إلى الحبة ، لكن الشعيرات التى تنزل إلى أسفل الكوز تخرج منه قصيرةً متفرقة ، مما يتيح لها أن تتلقى أكبر كمية من اللقاح على خلاف الشعيرات الأعلى ، فإنها تكون طويلة متراكمة بعضها على بعض ؛ لذلك لا تأخذ كفايتها من اللقاح ، فتكون حبَّاتها أقلَّ حجماً ، إلى أنْ تضمر فى أعلى الكوز وتتلاشى .

ونحن جميعاً نشاهد صدْق قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر] حين ننظر مثلاً إلى الجبال وهى جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرَّتْ ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟

والحق سبحانه وتعالى فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] إنما يُطمئننا على امتداد النعمة وامتداد المنعَم عليه ، فبالتزاوج يبقى النوع ويتكاثر ، والزوجية موجودة فى كل شىء ، وكلمة زوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى : الشىء الواحد لكن معه مثله ، فنحن لا نقول للحذاء مثلاً زوج يعنى اليمين والشمال ، إنما نقول زوجين ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يقال له : توأم وهما توأمان .

والزوجية موجودة فى كل شىء فى الوجود ، كما قال سبحانه

فى آية أخرى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ..(٤٩) ﴾ [الذاريات]

وإذا نظرتَ إلى هذا الوجود كله بعين العلم الفاحصة المجرِّبة المدقِّقة لوجدتَ كل شىء فى الوجود زوجين لاستدامة الصنف ، بعض هذه الأشياء ندرى مسألة الزوجية فيها ، وبعضها لا ندرى به ، وما دام الزوجان يجتمعان للتكاثر فلا بُدَّ من تلقيح أحدهما بالآخر ، فما الذى يدلّنا على ميعاد هذا التكاثر ؟

قالوا : الشىء الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه فالله يعلم ميعاده ، ويجعلها تتكاثر كُلٌّ بما يناسبه ، لكن المشكلة عندك أنتَ أيها الإنسان، ولو كانت عندك مقاييس دقيقة فى الذات لعلمتَ أن هناك تغيُّرات كيماوية فى جسمك تحتاج منك إلى دِقَّة ملاحظة ، هذه التغيرات هى التى تدلُّك على ميعاد التكاثر .

والآن اخترعوا ساعة تضعها المرأة بعد الحيض ، وتلاحظ منها درجة حرارتها ، فإذا ارتفعت عن ٣٧° فهذا يعنى وجود تغيُّر كيماوى فى الجسم ، يدل على نزول البويضة ؛ لذلك نرى كثيرين من الأزواج تتأخر عندهم عملية الإنجاب ، لأن المرأة ليست لديها دقَّة الملاحظة التى تعرف منها وقت التبويض الذى يُؤدى إلى الإنجاب .

وذكر الحق سبحانه الزوجية فى ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾[يس] ولم يذكر الحيوان ، لماذا ؟ لأنه سبحانه ذكر الأعلى ، وهو الإنسان الحيوان الناطق ، فالآخر مِثْله وتابعٌ له .

ومعنى ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] أن فى الكون أشياء كثيرة

لا نعلم وجه الزوجية فيها ، وقد نعلمها مستقبلاً مع تَقدُّم العلوم التجريبية ، كما حدث مثلاً فى الكهرباء ، وعرفنا أنها سالب وموجب ، ولا نستفيد بالكهرباء إلا إذا التقى السالب بالموجب ، أما إنِ التقى سالبٌ بسالب أو موجبٌ بموجب ، فالنتيجة تكون عكسية ، والسالب والمُوجب هنا نوع من أنواع الزوجية ، كذلك الحال فى الذرَّة وغيرها مما اكتشفه العلم الحديث .

إذن : فكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] لها مدلولات وقعتْ ، أخبر الله عنها قبل أنْ نكتشفها لنعلم أن الغيب الذى يخبرنا الله به يأتى كمقدمة لغيب آخر سنعرفه فى المستقبل ، وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا : كما صدَّق الواقع ما أخبرتُ به من الغيب ، فصدِّقوا ما أخبرتكُم به من غيب الآخرة .

بعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن المكان وهو الأرض تكلَّم عن الزمان ؛ لأن الإنسان يعيش بالأحداث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن الأرض وما عليها وهى المكان ، يُحدِّثنا عن الزمان ، فقال سبحانه :

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ (٣٧)﴾[يس] يعنى : خاصة بهم ، وليست آية للكل ؛ لأن النبى ﷺ آمن بفطرته ، ولم يكن بحاجة إلى دليل ليؤمن ، كذلك المؤمن لا يبحث عن الدليل إلا ليردَّ به على مَنْ ينكر .

و﴿اللَّيْلُ (٣٧)﴾[يس] هو قسيم النهار ، فاليوم يتكوَّن من ليل

ونهار، وليس من الدقة فى المقابلات أن نقول اليوم والليل ؛ لأن اليوم يشمل الليل والنهار ، فكلاهما يوم ، لكن البعض نظر إلى قوله تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا [(١)] ⑦﴾[الحاقة] فأطلق اليوم مقابل الليل بدل النهار .

والليل ظلمة ، وفيها السكون يشبه النوم الذى تنامه بالليل ، والنوم يشبه الموت ، والليل يقابل النهار لكن لا يعانده ولا يضاده كما يظن البعض ، فالليل يقابل النهار ، وبينهما تكامل ؛ لأن لكل منهما مهمة فى الحياة ، الليل جُعل لنهدأ من حركة النهار ونستريح لنستأنف نهاراً جديداً بنشاط ، والنهار جُعل للعمل وللسعى نستغل فيه راحة الليل .

إذن : هما متعاضدان لا متعاندان ، وكل شىء له مقابل ، إياك أن تأخذه على أنه ضدّ ، بل انظر إلى أنه شىء ضرورى لا بُدَّ أنْ يكون.

لذلك الحق سبحانه يلفتنا فى الزمن إلى هذه المسألة ، فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ⑦① قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ⑦②﴾ [القصص]

إذن : لكل منهما مهمة ، ولا يُغنى أحدهما عن الآخر ، ومن دقَّة الأداء القرآنى أنْ يقول سبحانه فى الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ⑦①﴾ [القصص] وفى النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ⑦②﴾[القصص] لأن الليل ظلمة ، وأداة

---

(١) الأيام الحسوم : التِّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره . قاله الفراء . ونقله الأزهرى فى تهذيب اللغة ـ مادة : حسم . وقال الخليل بن أحمد فى كتابه العين : « حسوماً . أى : شؤماً عليهم ونحساً » .

الاستدعاء فيه الأذن ، أما النهار فضياء نبصر فيه .

إذن : لا يصح أنْ نجعل من كلٍّ متقابلين متضادين ، فالتكامل غير التضادّ ، كذلك أراد الله تعالى أنْ يَحلَّ بهذه المسألة مشكلة لا تزال العصور تتصارع فيها إلى الآن ، مشكلة التقابل بين الذكورة والأنوثة ، أو الرجل والمرأة ، والآن نسمع مَنْ ينادى بأن المرأة مثل الرجل ، كيف ولكل منهما مهمة نوعية ، إنهما متكاملان مثل تكامل الليل والنهار .

وقد أشار الحق سبحانه إلى هذا التكامل فى قوله سبحانه : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل]

ومعنى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾[الليل] يعنى : مختلف ، ولكلٍّ مهمة يؤديها فى الحياة ، فالذين ينادون الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة إنما يظلمون المرأة ؛ لأنهم يريدون للمرأة أنْ تقوم بدور الرجل فى حركة الحياة ، وبعد ذلك يتركون المرأة تقوم هى بالخصوصية التى لا يؤديها إلا هى ، إذن : هى أخذت من مهمة الرجل ، ولم يأخذ الرجل من مهمتها . إذن : الحق سبحانه يخلق المتقابلات لتتكامل لا لتتعارض ، وتتساند لا لتتعاند ، فهى مسألة موزونة بحساب .

وقوله سبحانه : ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ۝٣٧﴾[يس] السلخ كَشْط الجلد عن الشاة ، فما العلاقة بين هذه المسألة وضوء الليل والنهار ؟ قالوا : الأصل فى الشىء الظلمة ، ولا تظهر الظلمة إلا بمنير طارىء ، فالليل ظلمة ، ثم يأتى ضوء النهار فيستر هذه الظلمة ، فكأن النهار حينما يأتى يستر الظلمة كما يستر جلدَ الشاة لحمُها ، فإذا ما أراد

الحق سبحانه أنْ يأتى الظلام يخلع الضوء ، كما نسلخ جلد الشاة عن لحمها .

إذن : فالليل يأتى على طبيعته لأنه الأصل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾[يس] فالظلام عدم نور ، أما النور فإيجاد ، ويحتاج إلى آلة جديدة ، فلو تركت الليل لحاله لظلَّ مظلماً ، ولولا آلة الضوء لظلَّ ليلاً ، إذن : للضوء آلة . أما الظلام فليس له آلة حينما تعمل يأتى الظلام ، أو قُلْ الظلام أمره عدمى ، أما الضوء فأمره وجودى ، فإذا قيل : نسلخ منه النهار فقد شبه الضوء الذى يغطى الظلام بالجلد الذى يغطى لحم الشاة .

والمعنى : نذهب بهذا الغلاف الضوئى الذى يستر الليل ، فيحلّ الظلام أى : يظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه ؛ لذلك جاء الأداء القرآنى بإذا الدالة على المفاجأة ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾[يس] فكأن المسألة تلقائية لا تحتاج إلى ترتيب.

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾

الشمس هى آلة الضوء الذى نسلخه عن الليل ، ومعنى ﴿ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨) ﴾[يس] أى : لشىء ولغاية تستقر عندها ، والمتتبع لحركة الشمس يجد أن لها مطلعاً عاماً هو الشرق ، وهذا المطلع العام يُقسَّم إلى مطالع بعدد أيام السنة . إذن : فمطالع الشمس مختلفة ؛ لذلك رأينا قدماء المصريين فى معابدهم يدركون هذه الحقيقة الكونية ويحسبونها بدقة ، ويجعلون فى المعبد ٣٦٥ طاقة ، تشرق الشمس

كل يوم من واحدة منها بالترتيب ، إلى أنْ تصل إلى آخرها في آخر السنة.

وقد عرف الإنسان أن للشمس مجموعة من الكواكب تدور حولها، وسماها المجموعة الشمسية ، وهى تتكوَّن من سبعة كواكب : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ويورانوس ، وقد أغرتْ هذه السبعة بعض العلماء مثل الشيخ المراغى والشيخ محمد عبده أن يقولوا إنها السموات السبع ، لكن فى سنة ١٩٣٠ اكتشف العلماء كوكباً آخر هو بلوتو ، وبعدها بعشرين سنة اكتشفوا كوكباً آخر هو نبتون ، فصاروا تسعة كواكب فى المجموعة الشمسية ، كلها فى السماء الدنيا ، ولا صلة بينها وبين السموات السبع ، لكن حاول الشيخان تقريب المسائل الدينية للفهم .

هذه الكواكب فى المجموعة الشمسية لكل كوكب منها دورة حول نفسه ، ودورة حول الشمس ، من دورته حول نفسه ينشأ اليوم ، ومن دورته حول الشمس ينشأ العام ، والدورتان تختلفان فى السرعة ، فإذا كانت دورة الكوكب حول نفسه أسرعَ من دورته حول الشمس كان يومه أطولَ من عامه .

لذلك من الأشياء الملغزة التى تُقَال فى الجغرافيا : ما يوم أطول من عام ؟ يوم الزهرة أطول من عامها ، لأنهم لما حسبوا حركة الزهرة بالنسبة ليوم الأرض وجدوا أن عام الزهرة ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، ويومها ٢٤٤ من أيام الأرض ، ذلك لأن سرعتها حول نفسها أكبر من سرعتها فى دورتها حول الشمس .

فمعنى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴿٣٨﴾﴾[يس] أى : الشمس بمجموعتها ، وما يدور حولها من كواكب تجرى إلى نجم يسميه

علماء الفلك (الفيجا) والعرب تسميه (النسر) الواقع ، والشمس تجرى بمجموعتها بسرعة ١٢ ميلاً فى الثانية ، الشمس لها حركة والكواكب التى تدور حولها لها حركة ، وهذه أشبه ما تكون بإنسان يركب مركباً ، فكيف نحسب حركته وسرعته ؟

إنْ كان هو ساكناً فسرعته تساوى سرعة المركب ، وإذا كان يسير فى نفس اتجاه المركب ، فسرعتُه تساوى سرعته فى ذاته (زائد) سرعة المركب ، فإنْ كان يسير فى عكس اتجاه المركب فسرعته تساوى سرعة المركب (ناقص) سرعته هو .

ومعنى ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨) ﴾[يس] المستقر إما أن يكون نهاية العام ، ثم تبدأ عاماً جديداً ، وتشرق من أول مطلع لها ، أو أن المستقر آخر عمرها ونهايتها حيث تنفض وتُكوَّر وتنتهى .

لكن ، ما الذى يحرك هذه المجموعة الشمسية ؟ وكيف تجرى بهذه السرعة ؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها ، فما الطاقة التى تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار ؟ قالوا : إنها تجرى ، لأن الله خلقها على هيئة الحركة والجريان ، لذلك تجرى لا يُوقفها شىء ، وستظل جارية إلى أن يشاء الله ، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِ (٤١) ﴾ [فاطر]

وفى علم الحركة قانون اسمه قانون العطالة ، وهو أن كل متحرك يظل على حركته ، إلى أنْ تُوقفه ، وكل ساكن يظلُّ على سكونه إلى أنْ تُحركه ، وهذا القانون فسَّر لنا حركة الأقمار الصناعية ومراكب الفضاء التى تظل متحركة لفترات طويلة .

ونتساءل : ما الفترة التى تحركها طوال هذه المدة ؟ إنها

تتحرك ؛ لأنها وضعت فى مجالها على هيئة الحركة فتظل متحركة لا يُوقفها شىء لأنها فوق مجال الجاذبية . إذن : كل الذى احتاجته هذه الآلات من الطاقة هى طاقة الصاروخ الذى يحملها ، إلى أنْ يعبر بها مجالَ الجاذبية الأرضية ، أما هى فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بفضله فى هذه الحركة ، فيقول ﴿ ذَٰلِكَ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس] أى : ما سبق من حركة الليل والنهار وجريان الشمس ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس] يعنى : كل هذا الجريان وكل هذه الحركة إنما هما بتقدير الله ، وكلمة ﴿ الْعَزِيزِ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس] هنا مناسبة تماماً ، فالمعنى أنه تعالى العزيز الذى لا تغلبه القوانين ؛ لأنه سبحانه خالق القوانين .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الشمس وهى آلة الضوء ، تكلم عن القمر لأن له مهمة يؤديها حين تغيب الشمس ، وكأن القمر استعار من الشمس بعض ضوئها لينير بالليل للذين لا يعملون إلا ليلاً كالعَسَس[1] والحراس ورجال الأمن وعمال المخابز وغيرهم ، فالقمر كما تعلمون لا يضىء بنفسه ، إنما يعكس بعض ضوء الشمس ، فيأتى ضوؤه هادئاً ؛ لذلك يسمونه الضوء الحليم ، حيث يأتينا لا شعاعَ له ، ولا حرارة فيه .

---

(١) العسس : جمع عَاسّ ، وعَسَّ يعُسُّ : طاف بالليل لحراسة الناس [الزبيدى فى تاج العروس - مادة : عسس]

لذلك حين يُعدِّد لنا الحق سبحانه بعض آلائه ونعَمه ، يقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ..(٢٣) ﴾ [الروم]

فإذا كان النوم مقصوراً على الليل ، فماذا كان يفعل هؤلاء الذين تقتضى طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ، ويرتاحون وينامون بالنهار ، فهذه الآية مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى ، فإنْ كان الليل هو الأصل فى النوم والراحة لجمهرة الناس ، فلا مانع من النوم بالنهار للقلَّة القائمة على أمر النائمين بالليل .

ومعنى : ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩) ﴾[يس] يعنى : قدَّرنا سَيْره فى منازل ومسافات ، هذه المنازل نشاهدها كل شهر فى حركة القمر : التربيع الأول ، والتربيع الثانى ثم البدر ..

والقمر أسرع فى حركته من الشمس ؛ لأنه يقطع فلَكه فى شهر ، بينما تقطع الشمس فلكها فى سنة .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى المبنى على الهندسة العليا فى قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾[يس] هذه صورة توضيحية لمنازل القمر مأخوذة من البيئة العربية ، فالعرجون هو عذْق النخلة الذى يحمل الثمار ، ونسميه (السُّباطة) ، وهى مكوَّنة من عدة شماريخ رفيعة ، لكن قاعدتها عند اتصالها بجذع النخلة عريضة ومفلطحة ، هذا العذق يَيْبَس ويضمر كلما تقادم ويعوج و (يتقفع) كلما جفَّتْ منه المائية ، وهذه الصورة توضح تماماً حركة القمر حيث يضمر ويتقفع إلى أنْ يتلاشى آخر الشهر .

وإذا كان القرآن قد شبَّه القمر بالعرجون القديم ، فإن العرب تشبهه بقُلامة الظفر ، كما جاء فى قول شاعرهم الذى راح يرقب

ضوء القمر حتى يغيب فيتسلل إلى محبوبته :

وَغَابَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كنتُ أَرْقُبُهُ   مثل القُلاَمَةِ قَدْ قُدَّتْ من الظُّفُرْ[1]

ومن الحكمة أن نُشبِّه القمر العالى الذى لا ندركه بشىء دانٍ ندركه ، وأن نقول لك : هذا مثل هذا لتتضح الصورة .

ثم يقول سبحانه جامعاً بين الشمس والقمر ، وبين الليل والنهار:

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾

لا يقال : فلان لا يدرك فلاناً إلا إذا كان سابقه ، كذلك الشمس لا تدرك القمر ؛ لأنه كما قُلْنا سابقها وأسرع منها ؛ لأنه يقطع دورته فى شهر ، وتقطع الشمس دورتها فى سنة .

كذلك : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۝٤٠ ﴾[يس] الليل والنهار هما الزمن الناشىء عن حركة الشمس والقمر ، فالنهار ابن الشمس ، والليل ابن القمر ، وفى هذه الآية نَفْيَان ، نفى لأنْ تدرك الشمسُ القمرَ فضلاً عن أنْ تسبقه ، ونفى لأنْ يسبق الليلُ النهارَ ، فإذا كانت الشمس لا تدرك القمر ، فليس معنى هذا أن يسبق الليلُ ابن القمر النهارَ ابن الشمس .

إذن : إياك أنْ تقول إن الليل يسبق النهار ؛ لأن هذه آيات كونية

---

(١) ذكره ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » فى الديارات فى وصف دير عبدون ، وعزاه لابن المعتز من قصيدة أولها :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر   ودير عبدون هطال من المطر

ولفظه : « وغاب ضوء هلال » وليس « وغاب ضوء قمير » والبيت من بحر البسيط .

أرادها الخالق سبحانه . والحق سبحانه حينما يتكلم فى قضية قد تقف فيها العقول يأتى لها بالرمزية بحيث يستطيع العاقل المفكر الذى يقرأ الأساليب ويُدقِّقها أنْ يصل إلى مطلوب الله فيها ، أما مَنْ حُرِم هذا الاستعداد فيمرُّ عليها مروراً عابراً لا يصل منه إلى شىء .

ونقول فى هذه المسألة الكونية : صحيح القمر يسبق الشمس ، لكن الليل لا يسبق النهار ، وتأمل هذا العلاج بالأساليب . والحق سبحانه إذا قال : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] فإنه سبحانه لا يقول ذلك إلا إذا كان هناك معتقد بأن الليلَ يسبق النهارَ ، فأراد سبحانه أنْ يُصحِّح لهم هذا الاعتقاد ، فنفى أنْ يسبق الليل النهار ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] وهذا يعنى أن عندى قضية هى : ولا النهار يسبق الليل .

إذن : المحصلة لا الليلُ يسبق النهارَ ، ولا النهارُ يسبق الليلَ ، فالقضية التى أثبتوها أراد الله نفيها ، والقضية التى نفوْهَا تركها على حالها .

لكن ، كيف يتأتَّى لهم هذا الفهم ؟ قالوا : ظنوا أن الليل يسبق النهار ، لأن اليوم يثبت بالليل لا بالنهار ، ففى صيام رمضان مثلاً يثبت بداية اليوم من الليل ، فلما كان ذلك ظنوا أن الليلَ يسبق النهارَ ، إذن : عندهم قضية مقطوع بها ، هى أن النهار لا يسبق الليل ، وهذه لم يتعرض لها القرآن وتركها كما هى ، أما القضية المخالفة للآية الكونية فصححها لهم ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

إذن : نحن أمام لغز يقول : الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، كيف ؟ قالوا : لو أن الله تعالى خلق الأرض

مسطوحة مواجهةً للشمس لكان النهار أولاً ، ثم تغيب الشمس فيحلُّ الليل ، أما لو كانت الأرض غير مواجهة للشمس لكان الليل أولاً يعقبه النهار ، لكن الحقيقة أن الله تعالى خلق الأرض على هيئة كروية بحيث لا أسبقيةَ لليل على نهار ، ولا لنهار على ليل لأنهما وُجدا معاً في لحظة واحدة ؛ لأن الأرض مُكوَّرة ، فما واجه منها الشمسَ كان نهاراً ، وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً .

لذلك حلَّتْ لنا هذه الآية مشكلةً طال الجدال حولها هي : كروية الأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾[يس] يسبحون من السبح، وهو قَطْع المسافة على ماء لين ، فهي حركة فيها انسيابية ، ليست على أرض تدبّ عليها الأقدام ، وهذا مثال لحركة الأفلاك ، وهذه الحركة السبحية يكون كل جزء منها مُوزَّعاً على جزء من الزمن .

وهذه الحركة ليس لدينا المقاييس التي ندركها بها ، إنما نعرفها من جملة الزمن مع جملة الحركة ، فمثلاً لو وُلد لك مولود وجلستَ ترقبه وتلاحظ نموه ، فإنك لا تلاحظ هذا النمو ، ولا يكبر الولد في عين أبيه أبداً ، لماذا ؟

لأن نموه لا يأتي قفزةً واحدة يمكن ملاحظتها ، إنما يُوزَّع النمو على الزمن ، لكن إذا غِبْتَ عن ولدك عدة شهور أو سنوات فإنك تلاحظ نموه حين تعود وتراه ؛ لأنك تلاحظ مجموع النمو طوال فترة غيابك عنه .

فمعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾[يس] يعني : يسيرون سيراً انسيابياً متتابعاً يُوزَّع على الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾[يس] هى آية لنا ولهم ، لنا على سبيل الاستدلال نستدل لهم بها لنقنعهم ، ولهم هم أى : تدعوهم إلى الإيمان بالله ؛ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

ومعنى ﴿ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء . والمراد : سفينة سيدنا نوح - عليه السلام - وقد أوحى الله إليه أنْ يصنع السفينة ، ودلَّه على كيفية صناعتها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

فالسفن فى حَدِّ ذاتها من آيات الله ، ولو لم يُوحِ الله إلى نوح أن يصنع السفينة ، كيف كنا نتنقل فى الماء ، وهو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فهذه آية أجراها الله تعالى على يد سيدنا نوح ، ليعلم الناسُ جميعاً صناعة السفن ، ثم للعقول بعد ذلك أنْ تُطوِّرها وترقى بصناعتها ، كما نرى الآن السفن العملاقة على أحدث ما يكون ، حيث استبدلَ الإنسانُ قلْع المركب بآلات البخار والكهرباء ، وحَلَّ الحديد والمعادن محلَّ الخشب والمسامير .. الخ .

ومع هذا التطور ، وبعد الاستغناء عن قوة الريح فى تسيير

السفن تظلّ السفن تسير بسم الله وبقدرته ، حتى إن استخدمت البخار أو الكهرباء ؛ لأن الريح لا يعنى الهواء الذى يُسيِّر السفن فحسب ، إنما الريح تعنى القوة أياً كانت ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

ويقول سبحانه : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

ويستوقفنا فى هذه الآية قوله تعالى : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)﴾[يس] والآية تتحدث عن العرب الذين نزل القرآن مُخاطباً لهم ، والذين حُملوا فى السفينة هم آباؤهم لا ذريتهم ، فكيف ذلك ؟

قال القرآن : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ (٤١)﴾[يس] والمراد : آباؤهم ؛ لأن الذرية تُطلق أيضاً على الأب ؛ لأن الذرارى منه ، أو لأن الآباء الذين نجوا فى السفينة هم الأصل الأصيل للموجودين الذين يخاطبهم القرآن ، وكانوا هم مطمورين فى آبائهم .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن كل واحد منا إلى أنْ تقوم الساعة فيه جزىء حَىٌّ من أبيه آدم لم يطرأ عليه الموت ، ولو تتبعتَ الآباء وسلسلْتَ هذه السلسلة لقُلْتَ إننى من ميكروب حىٍّ جاء من أبى ، وأبى من ميكروب حَىٍّ جاء من أبيه ، وهكذا إلى آدم عليه السلام ، ولو كان هذا الميكروب ميتاً ما جئت .

إذن : ففى كل منَّا ذرة تكوينية من أبيه آدم لم يطرأ عليها تغيير ، وهذه الذرة هى التى تحمل الفطرة الإيمانية فى كل إنسان .

ووصف الحق سبحانه الفُلْكَ بأنه مشحون . يعنى : مملوء ؛ لأن سيدنا نوحاً لم يأخذ فيها المؤمنين ليُنجيهم من الغرق فحسب ، إنما

لِيُوفِّر لهم سُبُل العيش بعد النجاة ، وإلا فكيف يعيش الناسُ على أرض لا يوجد فيها غيرهم ، لا نبات ولا حيوان ولا طيور ؟

لذلك قال سبحانه مخاطباً نبيه نوحاً : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ⁽٤٠⁾ ﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ⁽٤٢⁾ ﴾ [يس] فمن بعد السفينة أخذها الناس نموذجاً ، وصنعوا مثله ، وطوَّروا في صناعته ، فأنشأوا السفن والمراكب والزوارق وغيرها مما يُركَب في البحر . أو : خلقنا لهم من مثله ما يُركَب في البرارى والصحراء ، ومن ذلك يُسمُّون الجمل مثلاً سفينة الصحراء .

ثم يحذرنا الحق سبحانه أنْ نغترَّ بهذه المراكب ؛ لأنها وسائل للنجاة ، لأنه سبحانه إنْ أراد الهلاك أهلك ، وكم رأينا سُفُناً عملاقة توفرت لها كل سُبُل الأمان والسلامة ، ومع ذلك ابتلعتْها الأمواج بمَنْ فيها .

وصدق الله : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ⁽٤٣⁾ ﴾[يس] فإياك حين تُرزَق بنعمة تخلصك من معطب أنْ تغرَّك النعمة فتحسب فيها الأمن والنجاة ؛ لأنك لن تفلت من قبضة الله ، ولا ينقذك أحد ، ولا ينجيك شيء إنْ أراد بك الهلاك ، وهل ترى بيدك شيئاً يُنجيك حين تهبُّ عاصفة ، أو يعلو الموج فوق سفينتك كالجبال ؟ إذن : آلاتك ووسائلك لا تُنجيك من قدرى .

ومعنى ﴿ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ⁽٤٣⁾ ﴾[يس] الصريخ هو الذى تستصرخه وتستنجد به لينقذك ، ويأخذ بيدك ، ويُخرجك من المأزق الذى أنت فيه . ومن روائع العقائد التى استشفها أهل الإشراق والتنوير أنْ

قالوا : الإنسان يصرخ ويستنجد بمَنْ هو أقرب منه : كأبيه ، أو أمه ، أو خادمه ، أو جاره .. الخ . فإذا لم يجد ؟ يقول : يا الله ، لذلك نسمع بعضهم يقول عند المأزق : يا هُوْه . والمراد يا هُوَ يعنى : يا الله ؛ لأنه لا يوجد غيره ينقذ ويُغيث .

ومن المواضع التى وردت فيها مادة صرخ قوله تعالى حكايةً عن الشيطان ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢) ﴾[إبراهيم] والمُصْرِخ : هو الذى يُزيل الصراخ يعنى : يسعفك ، ويزيل عنك الشدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾[يس] يعنى : امتنع المصرخ ، وامتنع عنهم أيضاً المنقذ الذى يتطوَّع فينقذهم ، وهذا قَطْع للأمل فى النجاة ، فإنْ أراد اللهُ الإهلاكَ فلا سبيلَ للنجاة أبداً ، إلا بإذنه تعالى ورحمته .

لذلك يقول فى الآية بعدها : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا (٤٤) ﴾[يس] رحمة تنجى من الغرق ، ومعنى ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾[يس] أن هذه النجاة ليست صكاً بالسلامة الدائمة والبقاء المستمر ، إنما هذه النجاة متاعٌ إلى حين ، إلى أنْ يحلَّ الأجلُ ويُدركك الموت ، فأنت إذنْ سلمتَ من الحمام إلى الحمام الذى لا بُدَّ منه .

وأشبه بذلك قول الفخر الرازى :

ولَوْ أنَّا إذَا متْنَا اسْترحْنَا لَكانَ المـوْتُ رَاحـةَ كُلِّ حَىّ
ولكنَّا إذَا متْنَا بُعثْنَا ونُسَأل بَعْدهَا عن كُلِّ شَىّ[1]

وكلمة الحين تعنى الفترة من الزمن بحسب ما تُقاس به ، فمثلاً فى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] الحين يعنى :

(١) هذان البيتان للإمام على بن أبى طالب من بحر الوافر ، باختلاف بسيط فبدل (استرحنا) (تُركنا) . ذكرهما المبرد فى كتابه « الفاضل فى اللغة والأدب » فى باب فضل الشعر .

يوم وليلة ، وفى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم] الحين هنا يعنى : سنة ، وفى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾[الإنسان] يعنى : مقدار مُحدَّد من الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

تعلمون أن (إذَا) أداة الشرط التى تفيد التحقيق . أما (إنْ) فتفيد الشكّ ، ومعنى ﴿ لَهُمْ ﴾ أى : للكافرين ، وجاء الفعل ﴿ قيلَ ﴾ هكذا مبنياً للمجهول ليفيد العموم ، فكأن كل مؤمن عليه أنْ يقول ، وأنْ ينصح ، وأن يأخذ بيد غيره إلى طريق الله .

والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لعباده المؤمنين : يا عبادى ، يا مَنْ آمنتم بى ، وصدَّقتم برسلى ، لا تظنوا أنِّى أرضى عنكم طالما آمنتم بى وصدَّقتم رسلى ، لكنى أحب ألاَّ تدخروا وُسْعاً لتنقذوا خَلْقى من غضبى عليهم ، حين يُصِرُّون على الكفر ويقيمون عليه .

وهذا نوع من الرجاء فى المؤمنين أنْ يأخذوا بيد الكفار ، وأن ينقذوهم من دواعى غضب الله عليهم ، وهذا المعنى داخل تحت قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

ومعنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴿٤٥﴾﴾[يس] أى : ما هو أمامكم ، وما ينتظركم من البعث والحشر والسؤال والحساب ، ثم النار ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ ﴿٤٥﴾﴾[يس] يعنى : ما سبقكم من العبر بالمكذِّبين قبلكم ، وكيف كانت عاقبتهم ونهاية كفرهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾[يس] رجاء أنْ يرحمكم الله.

إذن : فينبغى أن يكون فى بال المؤمن أنْ يمهد السبيل لرحمة الكافر ، وأنْ يحاول وُسْعه أن ينقذه ، وأنْ يعطف عليه ، لا أنْ يسلك معه مسلكَ اللدد والخصومة التى لا تجدى .

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

هذا هو اللدد والعناد بعينه ، فالآيات أمامهم واضحة ، وهم يُعرضون عنها وينصرفون عن تدبُّرها ؛ ذلك لأن الذين يكفرون بالله ويُكذِّبون رسله ، ويتأبَّوْن على منهج الله الذى جاء لصيانة خليفته فى الأرض ، هؤلاء مستفيدون من الفساد ، ومستفيدون من الإعراض عن منهج الله ، فطبيعى أنْ يَروْا فى كل رسول وفى كل مصلح أنه جاء ليقطع أرزاقهم ، ويفسد عليهم حياتهم ، فيصادمونه ويقفون فى وجهه .

وهذه الآية يفسرها قول الله فى موضع آخر : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

فإنْ قُلْتَ : ما دُمْتم حريصين على أنْ يرحم اللهُ هؤلاء الكافرين ، فلماذا لا تُلحون عليهم بالآيات الجديدة إلى أنْ يؤمنوا فيرحمهم الله ؟ نقول : مهما جئناهم بالآيات فسوف ننتهى إلى هذه النتيجة التى قررها القرآن : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾

هذا لون آخر من عنادهم وقَلْبهم للحقائق ، فإذا قال لهم الناصح ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ (٤٧) ﴾[يس] يعني : مما استخلفكم فيه لا مما عندكم ، وملّكه لكم يكون الرد ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ (٤٧) ﴾[يس] هكذا يقلب الكافر حقائق الأمور ويتبجحون بالباطل .

﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ (٤٧) ﴾[يس] يعني : لسنا بخلاء بل نحب أنْ ننفق ، وأن ننفذ مرادات الله في خَلْقه ، والله يريد أن يمنع الرزق عن هؤلاء ، فكيف نرزقهم نحن ، إننا لو أنفقنا عليهم لكنا معاندين مخالفين لمراد الله ، ولو شاء الله لأطعمهم .

ولم يقفوا بعنادهم عند هذا الحدّ ، إنما يتمادَوْنَ فيتهمون المؤمنين بالضلال المبين ﴿ إِنْ أَنتُمْ (٤٧) ﴾[يس] يعني : ما أنتم ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾[يس] سبحان الله ، لماذا ؟ لأنكم تعارضون مراد الله ، وتُطعمون مَنْ حرمه الله وتجيرون عليه .

نعم ، الحق سبحانه رب الجميع ، ويرزق الجميع ، ويطعمنا ويسقينا ، لكنه سبحانه يريد أنْ يشهد عطف عباده على عباده لتسير حركتهم في الحياة بلا غلٍّ ، وبلا حقد ، فالفقير حين ينال من خير الغنيّ لا يحقد عليه ولا يحسده ، بل يتمنى دوام النعمة عنده ، ثم إن الغِنَى والفقر عَرَض ينتقل ويزول ، والواقع يشهد بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴿٤٨﴾ ﴾[يس] أى : الوعد بالآخرة وكلمة (الوعد) تدل على البشارة بالخير ، على خلاف الوعيد وهو إنذار بالشرِّ ، فعجيب منهم أنْ ينكروا الوعد وهو فى صالحهم ، وحظهم فى الوعد لا فى الوعيد .

وهذا الاستفهام منهم على سبيل الإنكار ، فليس هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء ، والعاقل منهم الذى يعترف بالآخرة يقول كما قال صاحب الجنة ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[يس] فى قولكم بأن هناك بعثاً وحساباً ، وواضح ما فى إنكارهم للقيامة من تحدٍّ وعناد واستعجال لها . يقولون : أين هى القيامة التى تتكلم عنها ، ائت بها الآن إنْ كنتَ صادقاً ، ويظل الواحد منهم فى هذا الجدل إلى أنْ تفاجئه القيامة .

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[يس] يعنى : ربما تفاجئه القيامة وهو فى جداله هذا ، وما المانع فالأمر لا يكلفنا إلا مجرد صيحة واحدة تأخذهم وتقضى عليهم جميعاً .

وهذا إنذار لأهل الغفلة الذين غفلوا عن البعث والحشر والحساب ، وشغلتهم الدنيا فى تجارتهم وفى زراعتهم ومشاكل حياتهم ، حتى

أضاعوا الحياة فى أخذ وردٍّ وجدال وخصام إلى أنْ فاجأتهم القيامة ؛ لذلك يقول الشاعر : إياك أن تجادل فى شىء كان فى يدك فأخذه منك غيرك .

نَفْسِى التى تملكُ الأشياءَ ذَاهبَةٌ فكيفَ آسَى علَى شَىءٍ لَهَا ذَهَبَا

ومعنى ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[يس] يعنى : تفاجئهم وهم فى جدالهم وخصامهم ، ومعنى ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[يس] أى : يختصمون ، فقُلبت التاء صاداً ، وأدغمت فى الصاد للدلالة على المبالغة . والأَخْذُ يدل على الشدة ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر]

وقوله : ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴿٥٠﴾ ﴾[يس] يعنى : تفاجئهم الصيحة والقيامة ، بحيث لا يتمكن أحد أنْ يُوصى أحداً ، والوصية معروفة وهى أنْ يُوصى الإنسان أهله وأولاده بما هو مهم فى حياتهم ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله فى حجة الوداع لما أحسَّ بدُنُو الأجل أوصى المسلمين فى خطبته الجامعة للُبِّ الدين وأسسه ، كذلك مَنْ أقبل على أجله واستشعر نهايته عليه أنْ يوصى مَنْ يحرص عليه بالأشياء المهمة .

إذن : فَهُم فى هذا الموقف لا يسعفهم الوقت لكى يُوصى بعضهم بعضاً ﴿ وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[يس] حتى ولا هذه يستطيعونها . فالقيامة إذن لا ينبغى أن يستبطئها أحد ؛ لأنها تأتى بغتة ؛ لذلك أخفاها الله ، واستأثر سبحانه وحده بعلمها ليظل الإنسان على ذكرٌ لها ، ينتظرها فى كل وقت ، والقيامة بالنسبة للإنسان لا تعنى بالضرورة الآخرة ، إنما مجرد أنْ يموت فقد قامت القيامة فى حقه ، فبالموت لم يَعُدْ له عمل ، ولا توبة ، ولا استدراك لشىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] أى : البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهذه هى نفخة البعث ، وتسبقها نفخة الصَّعْق التى تُميتهم وتخمدهم ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

فإنْ قُلْتَ : النفخة واحدة ، فكيف تميت الأولى وتحيى الثانية ؟ نقول : النفخة فى الصُّور ما هى إلا علامة فقط للحدث أمَّا الفاعل على الحقيقة فهو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يميت فى الأولى ، ويحيى فى الثانية .

ومعنى ﴿ الأَجْدَاثِ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] يعنى : يُسرعون وأصل كلمة ﴿ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] من نسل الخيوط بعضها عن بعض ، نقول : الثوب (ينسل) يعنى : تخرج بعض الخيوط من أماكنها من اللُّحْمة أو السُّدَّة ، لذلك نقول : (كفف) الخياطة يعنى : امنع هذا (التنسيل) بأن تُمسك الخيوط بعضها إلى بعض ، فلا تنفلت .

فإذا ما خرجوا من الأجداث ورأوا الحقيقة التى طالما كذَّبوها

قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا (٥٢) ﴾[يس] هم الذين يقولون ويدْعُون على أنفسهم بالويل والثبور ؛ لا أحد يقول لهم : ويلكم إنما يقولونها هم لأنفسهم ، وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم .

والمعنى : يا ويلنا احضر ، فهذا أوانك ، لأن الأمر فوق ما نحتمل ، ولا نستطيع دفعه ، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم ، بل قد يضربها ويعذبها .

وعجيب منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا (٥٢) ﴾[يس] فيعترفون بأن الموت كان مجرد مَرْقد ، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة . عندها يردُّ عليهم : ﴿ هَـٰذَا ﴾ أى : ما تروْنَه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾[يس] ويجوز أنْ يكون اسم الإشارة ﴿ هَـٰذَا ﴾ إشارة إلى ﴿ مَرْقَدِنَا ﴾ فى ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَـٰذَا (٥٢) ﴾ [يس]

الحق - سبحانه وتعالى - أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريب فيه ، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التى يعيشون فيها ، فإن الله مُدَّخِر له عذاباً من نوع أشد ؛ لأن الذين قاموا بالدعوة إلى الله أول الأمر واضطهدوا وأُوذوا ، منهم من مات فى الاضطهاد قبل أنْ يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين ، وقبل أنْ يرى انتقامَ الله من أعدائه ، فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يُرِى اللهُ هؤلاء المؤمنين عاقبةَ الكافرين وما نزل بهم من العذاب .

والوعد هنا رغم أنه إنذار بالشرِّ الذى ينتظرهم ، إلا أنه فى حقهم يُسمَّى وَعْداً لا وعيداً ، لماذا ؟ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه نعمة كبرى ، كما فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّواظ من آلاء الله ؛ لأنه يُخوِّفهم بها ، ويحذرهم منها ، ولم يفاجئهم بها وهم أصحاء ، ويسمعون ويبصرون ، ويقدرون على الرجوع إلى الله والتوبة إليه ، فهم في وقت المهلة والتدارك . وكما تُحذِّر ولدك من الرسوب إنْ هو أهمل دروسه وتتوعده ، إذن : فالوعيد هنا عَيْن النعمة ؛ لذلك سُمِّي وعداً لا وعيداً.

ومعنى : ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] أي : في البلاغ عن الله ﴿ إِن كَانَتْ ﴿٥٣﴾ ﴾[يس] أي : ما كانت النفخة ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٥٣﴾ ﴾ [يس] لا تتكرر ؛ لأن الذي يُكرر الفعل البشر ، ومعنى تكراره أن الفعل الأول لم يكُنْ كافياً ولم يَفِ بالغرض منه ، أمَّا هنا فالفاعل الله عز وجل .

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[يس] إذا هنا فجائية ، فبمجرد الصيحة أُحْضِروا جميعاً رغماً عنهم ، وبدون اختيارهم ، ومُحضر اسم مفعول من أحضر . يعني : أُجبر على الحضور والمثول بين يدي الله للحساب .

وفي الآية السابقة ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[يس] فزادتْ (كل) الدالة على شمول الأفراد ، إنما قد يكون شمول الأفراد تتابعاً مجموعة تلْو الأخرى ، لكن هنا يأتون مجموعين ليرى التابع متبوعه ، والضال مَنْ أضلَّه .. الخ ؛ لذلك يسمونها الفاضحة .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه يُطمئِن أهل الإيمان والعمل الصالح ، يعني :

لا تخافوا من هَوْل القيامة ؛ لأننا لا نظلم أحداً ، والجزاء عندنا من جنس العمل ﴿ وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[يس] فهذه الآية طمأنينة لمن عمل صالحاً ، وتخويف لمن عمل سيئاً .

واليوم هنا أى : يوم القيامة ، والموازين فيه بيد الحق سبحانه ، يعنى : إنْ كنتم فى الدنيا يظلم القوىُّ الضعيفَ ، ولا تقيمون الموازينَ بالقسط ، فالميزان يوم القيامة ميزان عادل ، لا يظلم ؛ لأن الذى سيقيم هذا الميزانَ هو الحقُّ سبحانه : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن جزاء أصحاب الجنة ، فيقول :

﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿٥٥﴾ ﴾[يس] الصاحب هو المنتقَى والمختار من جنسك لتصاحبه ولا تفارقه ، فكأن الجنة أُخْرجت مخرج العقلاء الذين يُصاحِبون ويُصاحَبون ، ذلك لأن الجنة كانت فى بالهم وفى أذهانهم ، فهم متعلقون بها وهى شُغْلهم الشاغل ، فلَهُم صحبة بالجنة ، وللجنة صحبة بهم ، فكلما أقدموا على خير تذكَّروا الجنة فرغبوا فيه ، وكلما أقدموا على شر تذكروا النار فانصرفوا عنه . أو : أن الصاحب هو المالك للشىء ، فكأن الجنة مِلْك لهم ، ملكوها وحازوا مفاتيحها بما قدَّموا من العمل الصالح .

ومعنى ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فِى شُغُلٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[يس] أى :

نعيم يشغلهم عن أيِّ شيء آخر أو : في شُغُل عن معارفهم وأقاربهم الذين دخلوا النار والعياذ بالله ، كما قال سبحانه : ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا (٣٣)﴾[لقمان] فهم في نعيم يشغلهم عن كل هؤلاء ، فكأنهم لا يعرفونهم .

﴿ فَاكِهُونَ ﴾ يقال : فَاكه وفكه يعني : متلذذ ومُتنعِّم . ومنها : الفاكهة ، فهي ليست من الضروريات إنما من التفكُّه والتلذذ .

وقوله سبحانه : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾[يس] أذكر أنني لما قرأتُ هذه الآية على الإخوان ضرب واحد منهم على صدره - وكان شيخاً وقوراً - ضرب على صدره بعنف وانفعال ، وقال : (يا خرابي ، يعني فلانة هتجيلي تاني) لأنه رأى في زوجته ما يُنفِّره منها ، فتعجب أنها ستصاحبه حتى في الآخرة وفي الجنة ، فقلنا له : يا شيخ أنت تكره في زوجتك أشياء لكن لها مع الله أعمال طيبة ، تجعلها أهْلاً للجنة ، فعملها الطيب مع الله يلغي عملها السيئ معك .

وربما كنتَ أنت حَادّ المزاج ، أو طماعاً وعينُك زائغة ؛ لأن الله تعالى قال في الحياة الزوجية : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ [الروم]

فالحياة الزوجية في بدايتها سكَن ، حيث يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر ويرتاح في حضنه ، ثم إذا تغيَّرتْ الأوضاع وزَهَد أحدهما في الآخر أو ظهر منه ما يُنفِّر كانت المودة ، فإذا ما أصابهما الكِبَر والعجز فليرحم كل منهما عَجْز الآخر ، بما جعله الله بينهما من صفة الرحمة ، فالحياة الزوجية في هذه الحالة معيشة تراحم قبل كل شيء .

ثم إن هذه الزوجة التي تنقم منها بعض الصفات ، وتنفر من تصرفاتها لن تأتى فى الآخرة على هذه الصورة التى تكرهها ، إنما ستأتى على صورة جديدة كما قال سبحانه : ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران] فالله سيطهرها مما كنتَ تأخذه عليها .

ومعنى : ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[يس] أى : لا شمسَ هناك ، ولا حَرٌّ يؤذيهم ، والظل معروف ألفه المكلَّفون فى الدنيا ، وإليه يفيئون فى حَرِّ الشمس ، فهو أمر مألوف لهم ، أما فى الآخرة فهى ظلال يُمتَّعون فيها ، أو فى ظل الله كما ورد فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.. »[1]

والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير الذى له حَجَلة[2] (النموسية) أو : هى الوسادة التى يُتكأ عليها .

ومعنى ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[يس] الاتكاء حالة وهيئة للإنسان ، فهو : إمَّا قائم ، أو قاعد ، أو متكئ ، والاتكاء أمتع هذه الحالات ؛ لأن القائم قائم لعمل ، والقاعد يقعد لهَمٍّ يفكرُ فيه ، فلا هو قادر على القيام للعمل ، ولا هو قادر على الاتكاء للراحة ، فقوله سبحانه ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[يس] يعنى : تمام الراحة لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَهُمْ فِيهَا ﴿٥٧﴾ ﴾[يس] أى : فى الجنة ﴿ فَاكِهَةٌ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ».

(٢) الحجلة فى اللغة : مثل القبة . وحجلة العروس : بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرَّة والسُّتور . ويكون له أزرار كبار [لسان العرب – مادة : حجل] .

﴿٥٧﴾[يس] الفاكهة من التفكُّه والتلذذ ، وعرفنا أن الطعام يأكله الإنسان إما للاقتيات وهو الضروريات ، وإما فاكهة للتلذُّذ والتنعُّم ، وهنا يذكر الحق سبحانه الفاكهة فحسب ؛ لأننا لا نأكل فى الجنة إلا تفكُّهاً وتنعُّماً ، لا عن حاجة أو جوع .

﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[يس] أى : ما يدعون به وما يخطر ببالهم ، فيجدوه بين أيديهم . وقال بعضهم (مَا يدَّعُون) يعنى : لا يدخر الله لهم دعوة ؛ لأنه سبحانه يعطيهم قبل أنْ يدعوا[1] .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى - عن معنى كان يريده لخَلْقه فى الدنيا نتيجة للسير على منهجه وصراطه المستقيم ، فيقول سبحانه : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس] فثمرة الإسلام أنْ يُسلْموا زمامهم جميعاً إلى يد خالقهم ، وأن يكونوا إخوة عابدين لمعبود واحد ، وأن يعيشوا معاً فى أمن واطمئنان وسلام .

إذن : فالأمن والسلام هما الغاية من منهج الله ، وهما تمام النعمة ، وإلا فلو نعم الإنسانُ بكل ألوان النعيم وفقد نعمة الأمن والسلام لنغَّصَتْ عليه كل النعم ، وما هنىء بعيش ولا تمتَّع بلذة ؛ لذلك امتن الله تعالى على قريش فقال : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

السلام يكون منك حين تُقبل على آخر فتقول : السلام عليكم يعنى : أنا مقبل عليك بسلام ، فيردُّ عليك : وعليكم السلام ، والمعنى :

---

(١) أورد القرطبى فى تفسير هذه الكلمة عدة أقوال (٨/٥٦٨٢) :
- من دعا بشىء أعطيه . فمعنى يدعون : يتمنون . قاله أبو عبيدة .
- من ادعى منهم شيئاً فهو له .
- يدعون : يشتهون . قاله يحيى بن سلام .
- يسألون . قاله ابن عباس .
ثم قال القرطبى : « والمعنى متقارب » .

لا أنت تؤذينا ، ولا نحن نؤذيك ، وكُلٌّ يعطَى من السلام على قدر إمكاناته ، فإذا كان السلام من الله ، فهو السلام المطلق ، السلام الذى يحميك من كل جوانبك ، فلا ينفذ إليك شىء يضرُّك .

ومعنى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا ﴿٥٨﴾ ﴾[يس] يعنى : الله تعالى هو قائله ليس مناولةً عن طريق الملائكة مثلاً ، فيقول لهم : سلِّموا على فلان ، فالمعنى : سلام حالة كونه قَوْلاً من رب رحيم ، وليس بلاغاً عن الله من أحد ، واختار هنا لفظ الربوبية التى تقتضى أن المربِّى يحب المربَّى ، فما بالك إذا وصفتَ الربوبية بالرحمة ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس]

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن المؤمنين ، وما ينتظرهم من النعيم يُحدِّثنا عن المجرمين :

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

معنى : ﴿ وَامْتَازُوا ﴿٥٩﴾ ﴾[يس] أى : تميَّزوا أيها المجرمون عن المؤمنين ، وانحازوا بعيداً عنهم ، تجمعوا فى جانب واحد لتروْا دخول المؤمنين الجنة ، وتظلوا أنتم فى الموقف لتزداد حسرتكم .

وقد اقتضتْ حكمة الله تعالى أنْ يُميز المؤمنين والكافرين بمعنى : أن يُعرف كُلٌّ منهم ، وذلك فى غزوة الحديبية ، فلما مُنع المسلمون من دخول مكة وهم على مشارفها حَزن المسلمون حُزْناً شديداً ، حتى كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب الذى قال لرسول الله : لِمَ نقبل الدَّنيَّة فى ديننا[1] ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى حديث الحديبية الطويل ، وفيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما جرى صلح الحديبية والتأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أو ليس برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلامَ نعطى الذلة فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان ، الحديث بطوله .

وكاد المسلمون يخالفون أمر رسول الله حتى قال لزوجته السيدة أم سلمة : « هلك الناس يا أم سلمة ، أمرتُهم فلم يطيعوا » فقالت : يا رسول الله ، إنهم مكروبون . ذلك لأنهم مُنعوا من دخول الحرم وهم على مقربة منه ، وهذا أمر صعب على نفوسهم ، ثم أشارت على رسول الله وقالت : يا رسول الله امْض إلى ما أمرك الله به فافعل ، ولا تكلم أحداً ، فإنهم لو رأوك عزمتَ انصاعوا ، وفعلاً أخذ رسول الله ﷺ بمشورة السيدة أم سلمة ، وانتهت المشكلة(١) .

وقبل أنْ يعودوا إلى المدينة بيَّن الله لهم وجه الحكمة في ذلك والعلة من صلح الحديبية ، ولماذا قَبِل رسول الله شروطها . العلة أن بين كفار مكة مؤمنين يكتمون إيمانهم ، ولا يعرفهم أحد ، فلو دخل المسلمون مكة في هذا الوقت لحدثتْ مصادمات بين الجانبين ، وعندها سيُؤْذَى هؤلاء المؤمنون الذين يكتمون إيمانهم ، ولا يستطيعون الجهر به ، وسيؤخذ العاطل مع الباطل .

لذلك قال سبحانه في هذه القصة من سورة الفتح : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ، ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق ، فنزلت سورة الفتح .

ومعنى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا (٢٥)﴾[الفتح] يعني : لو تميَّز المؤمنون عن الكافرين .

أو : يكون المعنى : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)﴾[يس] امتازوا بعلامات تميزكم وتلازمكم دائماً ، بحيث لا يكون خجلكم أمامنا الآن فحسب ، إنما تكون لكم سمات تُعرَفون بها ، وهذه العلامة هي علامة الغضب وسواد الوجه والعياذ بالله . ومن ذلك قوله تعالى في المؤمنين : ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ (٢٧٣)﴾ [البقرة]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

كأن سائلاً سأل : وهل يستحق الكفار كلَّ هذا العذاب وهذا الغضب من الله تعالى ؟ فيجيب الحق سبحانه : نعم ، يستحقون ؛ لأن الله نبَّههم وحذرهم فلم يستجيبوا ، ذلك في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٦٠)﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يأخذكم على غِرَّة ، إنما نبَّهكم وبيَّن لكم مداخل الشيطان وحبائله وحيله ؛ لأن الشيطان من خيبته رمى بكل مداخله مع المؤمنين أمام الله ، فحذرنا الله منها ، وبيَّن لنا عداوته لنا ، وعداوته المسبقة مع آدم عليه السلام منذ أنْ أُمِر بالسجود فأبى .

ولم ينْتَهِ أمره عند عدم السجود ، إنما أغوى آدم ، وأراد أن ينتقم منه ومن ذريته من بعده ، بل وأقسم على ذلك أمام خالقه سبحانه ، فقال بجبروت الإغواء كما حكى القرآن : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] لكنه تذكر عبوديته الحقة للرب الأعلى ، فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

فهؤلاء لا مدخلَ لى إليهم ، والمعنى أن الخصومة ليست بينى وبينك ، إنما بينى وبين بنى آدم . وحين أقسم إبليس ، أقسم قسماً يؤكد قدرته على ما يهدد به ، فمثلاً سحرة فرعون حين أقسموا قالوا : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أمَّا إبليس فيعرف جيداً كيف يقسم ، فقال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] يعنى : باستغنائك عن خَلْقك ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر ، هذا هو الباب الذى سأدخل منه إليهم ، أمَّا من تريده أنت يارب ، فلا أستطيع أن أقترب منه .

ومعنى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس] يعنى : آمركم كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه]

يقول تعالى : ألم آمركم يا بنى آدم أنْ تحذروا مكايد الشيطان ، وأن تتنبَّهوا إلى مداخله إليكم وشباكه وخططه ، ألم يقل هو نفسه : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] إذن : كان ينبغى ما دُمْتم أخذتم المصْل الواقى أن تكون لديكم المناعة اللازمة لمواجهة هذا العدو ، خاصة وقد أسفر عن وجهه ، وأوضح خططه ، فهو لكم على الصراط المستقيم ، ومداخله من سبل الطاعة لا من سُبل المعصية ، الشيطان لا يأتى أهل الفجور وروَّاد الخمارات ، إنما يأتى أهل الطاعات ليفسدها عليهم .

وصدق الشاعر الذى قال عَمَّنْ أسرف على نفسه فى المعاصى :

وَكُنْتُ امْـرءاً مِنْ جُنْـدِ إبْلِيسَ فَارْتَـقَى

بِىَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ جُنْدِى[1]

ومعنى : ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ⁽٦٠⁾﴾ [يس] عبادته طـاعة نزغاته ووسوسته ، والعلة فى ذلك ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⁽٦٠⁾﴾[يس] يعنى : عدو بيِّن العداوة ، محيط بأساليب الكَيْد لأعدائه .

وبعد أنْ نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن عبادة الشيطان يُوجِّهنا إلى العبادة الحقة : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ⁽٦١⁾﴾ [يس] حين نتأمل هاتين الآيتين نجد أن العـلة فى النهى عن عبادة الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⁽٦٠⁾﴾ [يس] كان القياس فى الآية بعدها : وأن اعبدونى لأننى حبـيبكم كمـا جاء فى الحديث الـقدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحِبٌّ ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً ».[2]

لكن الحق سـبحـانه لم يُعلل عـبـادته سبـحانه بالـمحـبة ، إنمـا اعـبدونـى لأنى أدعوكم إلى الـصراط المسـتـقيم النافـع لكم المنظِّم لحـياتكم ، اعـبدونى لهـذا ، أما مـسألة المـحبة فـهى موجـودة وأنا أحـبكم ، فسـواء كنتُ أحبك أو لا أحـبك كـان ينبغى عليك اتبـاع هذا الصراط المستقيم ؛ لأنك المستفيد منه .

ولأهل المعرفة وقـفة عندما قرأوا :﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⁽٦⁾﴾

---

(١) هذا البيت ذكرته الموسوعة الشعرية من شعر شاعرين : أولهما : الخبز أرزى (توفى عام ٣١٧ هـ ٩٣٩ م) واسمـه نصر بن أحـمد ، بصـرى ، انتقل إلى بغـداد ، أخبـاره كثـيرة طريفة : ونص البيت عنده ضمن قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها ٤٦ .

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى بى الامر حتى صار إبليس من جندى

وقد أخذ الأمير الصنعانى (توفى ١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) هذا البيت فقال :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتمى بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

وهو من بحر الطويل من قصيدة عدد أبياتها ١٥ بيتاً .

(٢) أورده الإمام أبو حامد الغـزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) ، قال : « فى بعض الكتب (يقصد الإلهية) : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

[الفاتحة] ﴿ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ ﴾ [يس] . ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۝١٥٣ ﴾ [الأنعام]

قالوا : الصراط المستقيم هو الطريق العَدْل الذى لا اعوجاجَ فيه ، ويمثل أقربَ الطرق وأقصر مسافة بين نقطتين ، وساعةَ تسمع كلمة الطريق تعرف أن له بداية ونهاية من .. إلى ، وهنا إشارة لطيفة ينبغى أن يتنبه لها المؤمن ، هى أن الدنيا بالنسبة لك ما هى إلا طريق أنت تسير فيه ، له بداية وله نهاية ، فهى - إذن - ليستْ دارَ قرار وإقامة ، إنما دارُ عبور ومرور .

والإنسان حينما يقيم فى مكان ولا يجد به راحته يتركه إلى مكان آخر ، ولو استقام له المكان الأول ما تركه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ..۝٩٧ ﴾ [النساء]

وهذه الهجرة أيضاً تحتاج إلى طريق أهاجر فيه من .. إلى . فكأن الحق سبحانه يقول لك : أنت فى الدنيا عابر سبيل ، إلى غاية أعظم وأشرف ، فاسلُك إليها أقرب الطرق الموصِّلة إليها ، وإذا كنتَ قد عاينتَ بنفسك (مِنْ) فى الدنيا التى تعيشها ، فإن الله تعالى قد أخبرك عن (إلى) التى تسير إليها .

أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب المخلوقة لله ، والممدودة إليك فى : الأرض التى تعيش عليها ، والماء الذى تشربه ، والهواء الذى تتنفسه ، والعقل الذى تفكر به .. الخ لكن ربك الذى مدَّ لك هذه الأسباب ، يخاف عليك الغرور بالأسباب : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

لذلك يجعل هذه الأسباب تتخلف فى بعض الأحيان ، كى تتعلق أنت بالمسبِّب سبحانه ، وتظل على ذكر له سبحانه ، فتدعوه وتلجأ إليه .

ومن الناس مَنْ يحب الله دعاءهم ، ويحب أنْ يسمع أصواتهم ، فيبتليهم ليدعوه فيسمعهم ، وآخرون يكره الله نداءهم ، فيأمر الملائكة أنْ تقضي حوائجهم ، حتى لا يسمع لهم صوتاً .

ثم يحكي لنا الحق سبحانه تاريخَ الشيطان مع بني آدم ، هذا التاريخ الذي كان علينا أنْ نتذكره دائماً :

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

الجبلّ : هم القوم الأشداء الأقوياء . وحين ترى مادة (جبل) فاعلم أنها تدُلُّ على القوة والشدة والثبات والفخامة ، ومن ذلك سُمِّيَ الجبل لثباته ونقول : فلان جُبل على كذا . يعني : صفة أصيلة فيه ، ثابتة في شخصيته ، فبَيْنَ هذه الأشياء جامع اشتقاقيّ واحد ؛ لذلك نُشبِّه الرجل العاقل بالجبل ؛ لأنه ثابت لا تهزه الأحداث .

ومن ذلك قول الشاعر يرثي أحد الخلفاء ، وقد رأى الناسَ يحملونه إلى قبره [١]

● رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَسِير [٢] ●

ورَضْوى جبل معروف [٣]

---

(١) أما الشاعر فهو المتنبي أحمد بن الحسين أبو الطيب (ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ وتوفي ٣٥٤ هـ) أحد مفاخر الأدب العربي ، ادعى النبوة ، ثم رجع عن دعواه . قتله قاطع طريق اسمه فاتك بن أبي جهل الأسدي .

(٢) وتمام البيت كما ذكر في الموسوعة الشعرية :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى   رضوى على أيدي الرجال تسير

وهو من قصيدة عدد أبياتها ١٣ بيتاً من بحر الكامل .

(٣) رضوى : جبل منيع بين مكة والمدينة ، ويسمى جبل جهينة بالقرب من ينبع .

ومعنى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾[يس] : يعني : لستم أول مَنْ أضلَّه إبليس ، فقد أضلَّ قبلكم قوماً كثيرين كانوا أقوى منكم ، ولعب بهم حتى جعل منهم أداة للضلال ، فلم يقف عند حَدِّ ضلالهم هم ، إنما ضلُّوا وأضلُّوا ، حتى صاروا جُنْداً من جُنْده كما قلنا .

ويكفي في عظمة الحضارات القديمة أن الحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين - قرن الاختراعات والاكتشافات والتقدم العلمي الهائل- تقف مبهورة أمام حضارة قديمة مثل حضارة الفراعنة مثلاً ، بل وتقف عاجزة عن فهمها ، والوصول إلى أسرارها ، وكان على رأس هذه الحضارة فرعون .

فماذا فعل به الشيطان ، أغواه وأضلَّه ، حتى قال لقومه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] . وحكى عنه القرآن فقال : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

ففرعون وأمثاله من الأقوياء ما استطاعوا أنْ يواجهوا الشيطان ، وما استطاعوا النجاة من مكايده ؛ لأنه دخل إليهم من مدخل شهوات النفس ، ثم صعَّب عليهم الطاعات ، فمالوا إلى المعاصي وانصرفوا عن الطاعات .

ثم يُؤنِّب الحق سبحانه هؤلاء العاصين : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾[يس] يعني : أين كانت عقولكم حين انسقتُمْ وراءه ، بعد أن حذرناكم منه وبيَّنا لكم مداخله ، وحين يردُّك خالقك إلى العقل ، ويأمرك بإعماله فاعلم أن نتيجة إعمال العقل موافقة لمراده سبحانه منك ، فإنْ أعملتَ عقلك في كَوْن الله وآياته ، لابد أنْ تصل إلى نتيجة مرادة لله تعالى ، كذلك أنت لا تأمر مخاطبك بأنْ يُعمل عقله في شيء ، إلا إننا

كنتَ واثقاً أنَّ نتيجة هذا العمل فى صالحك ، ووفْق هواك ، ولو كنتَ تعرف أن النتيجة على خلاف ما تريد ما أعطيتَه الفرصة لإعمال عقله .

ومثَّلْنَا لذلك بالبائع الذى يبيع سلعة جيدة ، فإنه يدعوك إلى فحصها وتأمُّلها والتأكد من جودتها ، فبائع الأصواف مثلاً يعرض عليك الثوب ، ويُبيِّن لك جودته ، ويشعل الثقاب ، ويحرق لك خيطاً من خيوط النسيج ، إنه لا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته وأنك لابُدَّ مقتنع بها ، حريص على شرائها ، أما الغَاشُّ فيحاول إقناعك بكلام نظرى معظمه كذب وتدليس ، ويحاول أنْ يصرف ذهنك وفكرك فى الشىء ، لأن النتيجة لن تكون فى صالحه .

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - يقول :﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ [يس]

يعنى : لو عقلتم لَتوصلْتُم إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾

هنا أيضاً اعتبر التخويفَ من جهنم وعداً لا وعيداً ، وسبق أنْ عرفنا أن الوعد فى الخير ، والوعيد فى الشر ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إيعَادِه ... وَمُخْلِفَ المأمُولِ منْ وَعْدِه [٢]

---

(١) هو أبو العلاء المعرى ، شاعر وفيلسوف ، ولد وتوفى (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ولم يأكل اللحم ٤٥ سنة .

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر السريع عدد أبياتها ٥٠ بيتاً.

وقلْنا : سَمَّى ذلك وعداً ؛ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه يُعَدُّ خيراً ؛ لأنك تستطيع تدارك الأمر ، وتصحيح الخطأ .

وقوله سبحانه : ﴿ اصْلَوْهَا (٦٤) ﴾[يس] ادخلوها ، واصْطَلُوا بنارها ، واحترقوا بلظاها ، ﴿ الْيَوْمَ (٦٤) ﴾[يس] أى : يوم الجزاء اليوم القائم الذى نحن فيه ، أما ما قبله فقد مضى ومضتْ معه اللذات التى جاءت بكم إلى النار ، ذهبتْ اللذات وبقيتْ تبعتها ، ولم يعُد أمامكم إلا النار تحترقون فيها ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ﴾[يس] يعنى : هذه النار ليست ظُلْماً ، إنما جزاء كفركم بنعمة الله ، وهذا تقريع لهم ؛ لأنهم لم يعرفوا للحق سبحانه نعمه عليهم ، ولو عرفوا لله هذه النعمة ما كفروا بها .

لذلك حين تُحسن إلى إنسان ، فيقابل إحسانك بالإساءة يخجل أن يقابلك ، ويستطيع أنْ يتحمل منك أىَّ عقاب ، إلا أن تواجهه أنت ، لماذا ؟ لأن حياء المسىء من المحسن أشدُّ عليه من العذاب ، فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء الكفرة بنعمه : استحيوا من الله ، لأنه أنعم عليكم فكفرتم بنعمه ، ولو أن عندكم إحساساً لكان تذكيركم بكفركم أشدَّ عليكم من هذه النار التى تَصْلَوْنها .

ثم يقول سبحانه واصفاً حالهم ، والعياذ بالله : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾[يس]

قوله ﴿ الْيَوْمَ (٦٥) ﴾[يس] أى : يوم القيامة والجزاء ﴿ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥) ﴾[يس]

نضرب عليها فلا يستطيعون الكلام ، فالأفواه مَنَاط الكلام ، وقبل أن يختم الله على أفواههم فى الآخرة ختم على قلوبهم فى الدنيا ، بالأمس ختم اللهُ على القلوب فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ، واليوم ختم الله على الأفواه ومنعهم الكلام ، حتى لا يعتذرون ولا يستغفرون .

فالمقام هنا مقام حساب لا عمل ، فلا جدوى من الاستغفار ، ولا فائدة من الاعتذار ، بل انتهى أوان الكلام والمنطق ، ولم يعُد للسان دَوْر ، اليوم تُغْلَق الأفواه وتُقيَّد الألسنة لتنطق الجوارح .

وتأمل بعدها : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[يس] القياس كان يقتضي أنْ يقول الحق سبحانه ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس]

ومثلها : ونُنْطق أيديهم ونُشهد أرجلهم ، لكن السياق القرآنى هنا مختلف ، فبعد أنْ يختمَ اللهُ على أفواههم تُكلمنا أيديهم تطوعاً لا أمراً ، وتشهد أرجلهم تطوعاً لا أمراً ، فلم نقل للأيدى : تكلمى ، ولم نقل للأرجل : اشهدى .

وإنما تطوعتْ هذه الجوارح بالشهادة ، مع أنها هى نفس الجوارح التى بُوشِرت بها المعاصى والذنوب فى الدنيا ، ومع ذلك تشهد لا على نفسها ، إنما على النفس الواعية التى أخضع اللهُ لها الجوارح ، وأمرها أن تسير وِفْق مرادها ، ورهْنَ إشارتها فى الدنيا .

أما ونحن الآنَ فى الآخرة ، وقد تحررتْ الجوارحُ من تبعيتها للنفس الواعية ، وأصبحَ الملْكُ كله والتفويض كله لله تعالى ، فالآن تتكلم الجوارح بما تريد ، وتشهد بما كان أمام الرب الأعلى سبحانه .

وسبق أنْ مثَّلْنَا هذه المسألة بالكتيبة من الجيش يرسلها القائد الأعلى ، وعلى الكتيبة أن تطيع أوامر قائدها المباشر ، ولو كانت الأوامر خاطئة ، إلى أن تعود إلى الأعلى ، فتشكو له ما كان من القائد المباشر ، هكذا الجوارح يوم القيامة .

فإنْ قلتَ : فلماذا أسند التكلم للأيدى ، والشهادة للأرجل ؟ نقول:

لأن جمهرة الأعمال عادة تُسند إلى الأيدى ، حتى لو كان المشى وسيلة العمل ، وطالما أن الأيدى تتكلم ، فكأنها أصبحتْ مُدَّعية تحتاج إلى شاهد فتشهد الأرجل .

أما مسألة : كيف تنطق الأيدى ، فالذى أنطق اللسان وهو قطعة من لحم ودم قادر على أنْ يُنطِق باقى الأعضاء الأيدى أو غيرها ، وما دام الفعلُ لله تعالى فلا داعىَ للسؤال عن الكيفية ، ثم إن الأيدى بها من الأعصاب أكثر مما بأعضاء الكلام .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[يس] ولم يقُلْ : بما كانوا يعملون ، لأن هناك فرقاً بين إنسان يُقبل على المعصية لكنه لا يفرح بها ، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها ، وآخر يعتبر ارتكاب المعصية مكسباً فيفرح بها ، ويتحدث عنها ويتباهى بارتكابها .

ومن حيث التحقيق اللغوى لمادة (كسب) ، فإن هذا الفعل يأتى مجرداً (كسب) ، ويدل على الربح فى البيع والشراء ، وعلى العمل يأتى من الإنسان طبيعياً ، لا تكلُّفَ فيه ولا افتعال ، وغالباً ما يُستخدم فى الخير .

ويأتى هذا الفعل مزيداً بالهمزة والتاء (اكتسب) ، ويدل على الافتعال والتكلّف ، وتُستخدم هذه الصيغة فى الإثم ، وأوضحنا هذه المسألة فقلْنا : إن الإنسان حين يفعل الخير يأتى الفعلُ منه طبيعياً تلقائياً ، أما الشر فيتلصص له ويحتال ، ذلك لأن الخير هَيِّن ليِّن سهل مقبول ، أما الإثم فشاقٌّ مخجل .

أنت حين تجلس مثلاً بين أهلك ترى زوجتك أو بناتك أو عمتك أو خالتك .. الخ وفيهن الجميلات والحسان ، وأنت تنظر إليهن جميعاً

دون تكلُّف ودون خجل ، لأنه أمر طبيعى ، أما مع غير المحارم ومع مَنْ يحرم عليك النظر إليهن ، فإنك تسـرق النظرة وتحتال لها ، حتى لا ينكشف أمرك ، ولا يطلع أحد على نقيصتك .

فإذا جـاءت كسب مـحل اكتـسب ، فاعلـم أن صاحب المـعصـية ومرتكب الإثم قد تعـوَّد عليه وألفه ، حتى أنه يفعله كأمـر طبيعى فلا يخفـيه ولا يسـتحى منه ، بل يجـاهر به ، فَعَـدَّ الاكتـساب فى حـقه كسباً ، كما فى هذه الآية :

﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا(١) عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) ﴾

يعنى : كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شئْنا لطمسنا أعـينهم يـعنى : أغلقناها وسـوَّيـناها ، بحـيث لا يظهـر لَهـا أثر فى وجوههم ، وإذا طمـسنا على أعينهم فقـدوا البصر ، فكيف يبـصرون وهم يسابقون إلى الصراط ؟

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾

---

(١) المطمـوس والطمـيس عند أهل اللغة : الأعـمى الذى ليس فى عـينيـه شق . وفى هذه الآية تأويلات : أحدها : أن هذا فى الدنيا . قال ابن عـباس : المعنى لأعمـيناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق

ثانيـها : أى أعـميناهم فـلا يبصـرون طريقـاً إلى تصرفـهم فى منازلهم ولا غـيرها . قـال القرطبى : وهذا اختيار الطبرى .

ثالثها : أن هذا فى الآخرة . وقد رُوِى هذا عن عبد الله بن سلام . وعلى هذا يكون الصراط فى الآية يكون هو صراط يوم القيامة . راجع تفسير القرطبى (٥٦٨٧/٨)

لقائل أنْ يقول : إذا فقدوا البصر على الصراط ، فقد تكون لهم بدائل وحيل تُسعفهم ، كأن يتحسس طريقه بعصا مثلاً ، أو يجد مَنْ يأخذ بيده ويرشده ، فالحق سبحانه وتعالى يُطوِّقهم من كل نواحيهم ، ويقطع أملهم فى النجاة ، فيقول : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يس]

فالأمر لا ينتهى عند العمى والطمس على الأعين ، إنما هناك ما هو أشد ، أنْ يمسخهم فى أماكنهم ويجمدهم فيها ، فلا يستطيعون حراكاً .

والمسخ أنْ يصيروا كالمساخيط لا يتحرك ، أو مسخناهم يعنى : حوَّلنا صورهم إلى صور قبيحة ، إذلالاً وإهانة لهم .

والمعنى الأول أوجه[1] ، لأنه تعالى قال بعدها : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يس]

لأنهم تجمدوا فى أماكنهم ، فلا حركة لهم لا إلى الأمام بالمضىِّ فى الطريق الجديد الذى هم مُقبلون عليه ، ولا حتى العودة فى الطريق الذى جاءوا منه وألفُوه .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

(١) وهو قول الحسن البصرى : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتاخر . أما المسخ بمعنى تغيير الخلقة ، ومسخهم بهائم أو غير ذلك فقد قال به السدى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٧٨)

(٢) النكْس : قلب الشىء على راسه ، ونكس راسه : أماله قال أبو إسحق : معناه من أطلنا عمره نكسنا خَلْقه فصار بدل القوة ضعفاً ، وبدل الشباب هرماً ، وقال شمر : يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . [لسان العرب - مادة : نكس] قلت : علاقة معنى الكلمة بإمالة الرأس فى نحو ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة] أن العجز والهرم بسبب إطالة العمر والهرم يتسبب فى أن يمشى الإنسان منحنيا مميلاً رأسه خاضعاً براسه إلى اسفل ، وقد يكون متكبراً على الله فى حياته . والله أعلم .

الحق سبحانه قد أعذر بأنه أنذر ، وأعذر لأنه قال لهم لا تعبدوا الشيطان وبيَّن عداوته ، وقال : اعبدوني واسلكوا صراطي المستقيم ، إذن : ليس لهم عذر حين كفروا بالله وأطاعوا الشيطان وعبدوه ، لكنهم قد يعتذرون من ناحية أخرى فيقولون : يارب أنت أخذتنا ولو عشْنا لاهتدينَا وعُدْنا إلى الصراط المستقيم ، فيرد الله عليهم : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧) ﴾ [فاطر]

يعني : قد عمَّرناكم عمراً طويلاً يكفي للتذكُّر والعودة فلم تعودوا ، ثم إن التعمير يُورث الضعف والوَهَن وعدم القدرة ، فأنت في أول الحياة عندك فتوة وقوة ونشاط بدني وذهني ، لكن مع الكِبَر تضعف البنية ، وتقلُّ القوة العضلية والعقلية ، ويعود الإنسان إلى الضعف الذي بدأ به وهو طفل صغير ، وكما قال تعالى : ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠) ﴾ [النحل]

فإذا كنتم لم تعودوا ولم ترعووا في فترة القوة وسلامة العقل والتفكير ، أتعودون في فترة الهَرَم والضعف والنسيان ؟

لذلك يقول هنا الحق سبحانه : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ (٦٨) ﴾[يس] نطيل عمره ونَمُد له فيه ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (٦٨) ﴾ [يس] الانتكاس : العودة إلى الوراء ، والرجوع إلى ما كنتَ عليه أولاً ، فَطُول العمر يعود بالإنسان إلى مرحلة الطفولة الأولى ، فهو نكسة في حقه حين يصير شيخاً هرماً لا يستطيع الحراك ولا الكلام ، وتأخذ ذاكرتُه في الضعف فينسى ويخرف ، فهو كالطفل تماماً يحتاج مَنْ يحمله ويُطعمه ويُزيل عنه الأذى .. الخ ، فهل في هذه الحال عودة ؟ وهل ينفع معها تفكُّر وتدبُّر ؟

﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس] يعني : أين عقولكم في هذه المسألة ؟ والحق سبحانه يسوقها بأسلوب الاستفهام ، ولا يأتي بها على سبيل

الإخبار ليجيبوا هم ويُقِرُّوا على أنفسهم بعدم التعقُّل .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠ ﴾

نلحظ هنا نقلة في سياق هذه الآيات ، فما العلاقة التي نقلتنا من الكلام عن الآخرة وجـزاء الكافرين المجـرمين إلى الحديث عن سـيدنا رسول الله ؟

نعرف أن المقاصد الأصلية للتديُّن هي أولاً : توحيد الله ، ومعنى التوحيد لله تعالى أن تشهـد أنه واحد أحد ، ولكل من الوصفين معنى لا يؤديه الآخر ، فلكل منهـما (ماصدق) ، فمـعنى (واحد) أي : من حيث الوجود هو واحد لا فرد آخر معه .

أمَّا أحد فيعني أنه في ذاته سبحانه ليس مُكوَّناً من أجزاء ، فالإله أحَد في ذاته ، لم تجـتمع عدة أشيـاء في تكوينه ، ذاته لا ترتكن إلى شيء ، فمثلاً حين تأخـذ الشيء الواحد كالكرسي مثلاً ، الكرسي في وجوده كرسي واحد ، لكنه ليس واحـداً ، لأنه مُكوَّن من عدة أشياء ، مُكوَّن من الخـشب والمسامـير والغراء و (البـوية) .. الخ فهو واحد ليس أحداً ، أمـا الحق سبـحانه فلاَ بُدَّ أنْ يُوصفَ بالـوصفين مـعاً ، فنقول : هو سبحانه واحد أحد ؛ لأن لكل منهما معنىً .

ومسـألة الواحدية مـسـألة عمليـة عقلية ؛ لأن الله تـعالى أعلن أنه الإله الحق ، وأنه واحـد لا شريك له ، وأنه هو الخـالق وحده ، وهو الرازق ، وهو الذي يسـتحق وحده أن يُعـبدَ ، هذه دعوى لـم يَقُمْ لَها معارض ، والدعوى تثبت لصاحبـها إلى أنْ يدَّعيها آخر ، ونحن لم نَرَ أحداً ادَّعَى الخَلْق لنفسه .

فلو كان معه سبحانه إله آخر أو آلهة أخرى فأين هم ؟ لماذا لم يطالبوا بحقهم في هذه المسألة ؟ أو أنهم سكتوا عنها أو لم يَدْرُوا بها ؟ وعلى أيِّ حال من هذه الأحوال لا يصلحون لأنْ يكونوا آلهة ؛ لذلك يناقش القرآنُ هذه المسألة بكلام منطقي :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[الإسراء]

إذن : فالتوحيد هو الأساس الأصيل للدين ، لكن لا أعرف بالعقل مطلوبَ الإله مني ، لابُدَّ أن يُبعَث لي رسول يخاطبني بمطلوب ربي مني ، إذن : لا بُدَّ من رسول . وهذا هو المقصد الثاني للدين . وخطاب الحق للخَلْق طاقة كمال مطلق والبشر نقص مطلق ؛ لذلك لابُدَّ في هذا الخطاب من واسطة تستطيع التلقِّي عن هذا الكمال المطلق ، وتستطيع التبليغ إلى الأقل كمالاً ، وهكذا تتدرج المسألة ، فالله تعالى يخاطب الملائكة ، والملائكة تخاطب الرسل ، والرسل يخاطبون الناس.

فلا بُدَّ من (الرسالة) وهي المقصد الثاني للدين ، والرسول هو الواسطة بين الخالق والخَلْق ، والرسول ليس مُبلِّغاً فحسب ، إنما مُبلِّغ وأُسْوة سلوك وتطبيق ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] ولو كان الرسول ملَكاً لما تحققتْ به الأسوة ، ولا يمكن أن أُحمل على مطلوب الرسول إلا إذا كان الرسول من جنسي .

لذلك يقول تعالى موضحاً هذه القضية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[الإسراء] فيأتي الرد (قُلْ) أي رداً عليهم : ﴿ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : كيف نُنزل ملكاً لبشر ؟ لو نزل الملكُ على طبيعته النورانية ما رآه البشر ، ولابُدَّ أن يأتيهم في صورة بشرية ، ولظلَّتْ الشبهة قائمة : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⁽⁹⁾ ﴾ [الأنعام]

فلا بد - إذن - من وسائط هي أشبه ما تكون بـ (الترانس) في عالم الكهرباء ، وهو أداة تأخذ من القوى وتعطي للضعيف دون أنْ تحرقه .

العنصر الثالث للدين هو الحشر ؛ لأن الرسالة جاءتْ لتحمل المنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا المنهج من الناس مَنْ سيسير عليه فيفعل ما أمر به وينتهي عما نُهي عنه ، ومنهم مَنْ سينصرف عنه بل ويخالفه ، إذن : لابُدَّ من مَرَدٍّ يُثاب فيه المطيع ، ويُعاقَب فيه المخالف ، هذا المردُّ هو الحشر .

فالحق سبحانه تكلم عن التوحيد في قوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⁽⁶⁰⁾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ⁽⁶¹⁾ ﴾[يس] وتكلم عن الحشر في قوله سبحانه : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ⁽⁶³⁾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ⁽⁶⁴⁾ ﴾ [يس]

والآن يتكلم عن العنصر الثاني وهو الرسالة فنقول عن رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ⁽⁶⁹⁾ ﴾[يس] أي : نحن لا المجتمع ولا البيئة التي يعيش فيها ؛ لذلك كانت الأمية في رسول الله شرفاً ؛ لأنه لو لم يكُنْ أمياً لكانت ثقافته من الخلْق .

أمَّا أميته فتعني أنه أخذ ثقافته وعلمه من الله ؛ لذلك كان من شرفه ﷺ أن يكونَ أمياً ، ومن شرف أمته أنْ تكون أمية ، لأنها لو كانت أمة متعلمة لقيل إن ما حدث في الجزيرة العربية ما هو إلا قفزة حضارية ، كما قالوا : لَمَّا نصرنا الله في حرب رمضان ورأينا

بأعيننا تأييد الله لنا ، ومع ذلك قالوا : نَصْرٌ حضارى .

فالحق سبحانه يقرر هذه الحقيقة : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩) ﴾[يس] لَـكِنَّا علمناه غير الشعر ، فرسول الله مُعلَّم نعم ، لكن مُعلَّم مِنْ مَنْ ؟ من ربه ، لم يأخذ شيئاً من البشر .

وقد يُظَنُّ أن الله لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة لغوية وعلْم بالأوزان والقوافى ، ولا بُدَّ له من الحسِّ المرهف والأذن الموسيقية إلى آخر هذه الأدوات التى يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر هذه الأدوات لرسول الله كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره .

فيرد الله تعالى هذا الظن ، ويقول :﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾[يس] يعنى: لم نُعلمه الشعر لنقص فى إمكانياته ، فلو أراد أنْ يقول شعراً لَقَالَ الشعر على أحسن مَا يُقَال ، لكن لا ينبغى له ذلك ؛ لأن مهمة الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر فى الكذب وفى الشر ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن ينطلق ويُحلِّق فى الخيال ، وأن يقول الشاعر ما يحلو له أياً كانت غايته ؛ لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

وكثيراً ما نرى الشعراء أصحاب القيم والأخلاق يصعب عليهم الجمع بين مطلوب الإيمان منهم ، وما تدعوهم إليه ملَكة الشعر عندهم ، فلا يملكون إلا أنْ يحصروا أنفسهم فى شعر القيم والأخلاق والفضائل ، ويبتعدوا عن شعر الهجاء والغزل .

والشاعر المهجرى الذى عُرِف عنه التقوى والصلاح ، فحاول أنْ يجمع بين هذه التقوى والموهبة الشعرية لديه ، فقال :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عَصَيْتُكَ عَامِداً ... لأَرَاكَ أَجْمَلَ مَا تكُونُ غَفُوراً
وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كِبَارَهَا ... ضَنّاً بِعَفْوِكَ أَنْ يَكُونَ صَغِيراً

فأجاد فى الأولى ، ولم يُوفَّق فى الثانية .

وسيدنا حسان بن ثابت ، كان شاعراً مجيداً فى الجاهلية ، فلما أسلم قالوا له : لاَنَ شعرك يا أبا الحسام . فقال : الشعر نكد يَقْوى فى الشر[1] ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴾ [يس] دفع عن رسول الله الاتهام بأن طبيعته ليست شاعرية ، أو أنه غير مُرْهف الحس ، وأن أذنه غير موسيقية ، إلى آخر هذا الهراء ، وكيف يُتَّهم بهذا مَنْ علَّمه الله ، وباشرتْ أذنه الوحى ؟

أما القول بأن رسول الله ﷺ قد أنشد الشعر ، نعم أنشد رسول الله الشعر ، لكن لم ينشده مستقيماً ، بل خالف فيه حتى لا يظلَّ البيتُ على استقامة وزنه ، فلما أنشد[2] :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً   وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

قال :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً   وَيَأْتِيكَ مَنْ لَم تُزوِّد بِالأَخْبَارِ[3]

وورد أنه ﷺ قال[4] : « أصدق كلمة قالها لبيد :

---

(١) ذكر ابن قتيبة الدينورى فى « الشعر والشعراء » هذه القولة من قول الأصمعى . ثم ذكر حسان بن ثابت فقال : هذا حسان بن ثابت فَحْل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(٢) عن عائشة قيل لها : هل كان النبى ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل ويقول : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٤٨) ، وأحمد فى مسنده (١٥٦/٦) .

(٣) كان رسول الله يتمثل بهذا البيت ولا يقيم وزنه ، وهو بيت لطرفة بن العبد ، وقال أبو عبيد بن سلام فى كتاب « الأمثال » : روينا فى حديث مرفوع أنه ﷺ تمثل به فقال : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار »

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٥٦) كتاب الشعر (روايات ٢- ٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وكُلُّ نَعيمٍ زَائِلٌ لاَ مَحَالَةَ

والصواب :

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ وكُلُّ نَعيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

إذن : كان سيدنا رسول الله يكسر وزن البيْت ، حتى لا يقال إنه أنشد الشعر ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩) ﴾[يس] لكن لم يَنْهَ رسول الله عن إنشاده ، فكأن رسول الله يحتاط للأمر ، فيقول ولا أنشده أيضاً ، ليكون بعيداً عنه كلية .

هذا عن الإنشاد ، أما عن قوله الشعر بنفسه ، فيرى البعض أنه ﷺ قال شعراً مثل قوله في غزوة حنين[1] :

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب

نعم جاء هذا القول من رسول الله موافقاً لوزن شعريٍّ يسمونه الرَّجز ، فهو قول صادف وزناً شعرياً وفرْق بين نَظْم الكلام وإخضاعه للوزن والقافية ، وبين كلام يصادف وزناً دون قصد ، وإلا ففي القرآن نفسه آيات صادفت وزناً شعرياً ، فهل نقول إنها شعر ؟ واقرأ مثلاً :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢) ﴾ [آل عمران]

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٢) ﴾ [يوسف]

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

هذه وغيرها آيات صادفت وزناً شعرياً ، لكنها لا تُسمَّى شعراً ؛ لأن الشعر قول موزون مُقفًّى قصداً .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب ، وذلك أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال البراء: ولكن رسول الله لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان ابن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

الحق سبحانه حكى عن رسوله أن الكفار اتهموه فقالوا : ساحر وشاعر وقالوا : كاهن ، لكن القرآن ردَّ عليهم فى مسألة الشعر ، ونفى أن يقول الرسول شعراً : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩) ﴾[يس] ولم يَنْفِ عنه السحر ولا الكهانة ، لماذا ؟

قالوا : لأن مهمة رسول الله بلاغ القرآن عن الله ، والقرآن من جنس الأساليب الراقية ، وأقرب شىء إليه الشعر لذلك نفاه القرآن ، أما السحر فطلاسم وكلام لا معنى له ، فلم يَقُلْ : وما علمناه السحر .

ولو أن لهذه الكلمة مدلولاً لكان الرد عليها سهلاً ، فإذا كان محمد ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، إذن : تكذيبكم له وكفركم به أدَلُّ شىء على أنه ليس ساحراً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر .

وفى قولهم كاهن ردٌّ عليهم : ﴿ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ (٤٢) ﴾ [الحاقة] لأن قَوْلَ الكاهن كلام مسجوع سَجْعاً بارداً ، والقرآن خلاف هذا كله ، ثم إنكم أهل فصاحة وبيان ، وأنتم أعلم الناس بالأساليب والتمييز بينها ، فهل يخفى عليكم أنْ تفرقوا بين القرآن وغيره من الكلام وأنتم أمة كلام ، وتجعلون للكلمة أسواقاً ومعارض ؟

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى عدم قول الرسول للشعر ، فيقول سبحانه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾[يس] إن هنا بمعنى ما النافية . يعنى : ما هذا القرآن إلا تذكير لمن يعقل وقرآن مبين . أى : بيِّن واضح يُتلَى ، وقد يكون له نَغَم ألذّ فى أذن الورَع من الشعر ، لذلك بعض الناس يسمع القرآن فتأخذه نشوة وإعجاب ، ولو سألته تجده لا يعرف ما يحدث له ، لماذا ؟

قالوا : لأن الذى يتكلم الله ، والذى يسمع خلق الله ، فالله تعالى

يتكلم بالكلام الذى يؤثر ويستميل المخلوق لله الذى ما يزال على فطرته التى فطر الناس عليها ، فإنْ خرج عن هذه الفطرة لم يؤثر فيه القرآن هذا التأثير ، ذلك لأن القرآن واحد أمّا الفطرة المستقبلة فتختلف .

والحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد] فأمره الله أنْ يردّ عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (٤٤) ﴾ [فصلت]

ذلك لأن فاعلَ الشيء غير قابله ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بكوب الشاى الساخن تنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة ، لكن المستقبل لها مختلف ، كذلك حال الناس فى تلقِّى القرآن ، فمَنْ تلقى كلام الله بفطرة سليمة فهمه وتأثر به ، ومَنْ تلقى كلام الله وهو منشغل عنه أُغْلِق عليه ، فلم يفهم عن الله ولم يتأثر بكلامه .

لذلك نرى بعض الناس من غير العرب لا ينطق بكلمة عربية ، لكنه ساعة يسمع أو يقرأ كلام الله تجد له انفعالَ مواجيد ، وتدمع عيناه ، لماذا ؟ لابد أن شيئاً فى تكوينه تأثر بهذا الأسلوب .

وإذا كان الحق سبحانه أوحى إلى الجماد فانفعل لكلامه ، وأوحى إلى الحيوان ففهم عنه ، فمن باب أَوْلَى يكلم الإنسان العاقل بكلام يصادف طبيعته ويؤثر فيه ، فيتأثر وينفعل .

ثم يقول سبحانه مبيِّناً مهمة هذا الذِّكْر وهذا القرآن المبين : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا (٧٠) ﴾[يس] نعم ، سماهم أحياء وخطابك لهم دليل على أنهم أحياء ، لكن أحياء الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، إنما

هناك حياة أخرى بالعقل والفكر وبالقيم الروحية ، وهذه لا يظهر أثرها إلا بعد الموت .

والناس جميعاً يشتركون فى الحياة المادية ؛ لذلك يُسمَّى العنصر الذى يدخل على الحياة المادية لتأخذ طابع الحياة الروحية (الروح) ، فالروح روح من أمره سبحانه ، وبعد أنْ يعطيه الروح التى تحيا بها المادة يعطيه الروح التى تحيا بها القيم ، وحياة القيم قُلْنا : إنها ترتقى بك لتعطيك قيمة فى الآخرة ، وقد تعطيك فى الدنيا راحة البال واستقامة واستقراراً ، لكن تظل الحياة الحقيقية فى الآخرة .

فإذا شاء الله أعْطى الإنسانُ حياةً موصولة كما أعطى سيدنا يحيى ، فلما دعا سيدنا زكريا ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم]

فأجابه الله : ﴿يَـٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم]

إذن : بشَّره الله بالغلام ، وسمَّاه اسماً يدل على أنه سيعطيه حياة موصولة ؛ فحين تسمى ولدك ذكى مثلاً تفاؤلاً أن يكون ذكياً ، أو نبيل تفاؤلاً أن يكون نبيلاً ، لكن أتملك أنت أنْ تحقق رغبتك هذه .

لذلك قال الشاعر :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيحيَا فَلَمْ يكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ الله فِيهِ سَبِيلُ

نعم ، أنت سميتَ ، لكنك لا تهب الحياة ، وواهبُ الحياة هو الله ، فإذا سَمَّى الله يحيى فلا بُدَّ أن يحيا حياة موصولة ؛ لذلك مات سيدنا

يحيى شهيداً ، لتتصل حياته الدنيا بحياة الآخرة ، وليحقق فيه ما أراده الله .

ومعنى : ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[يس] أى : يستحق لهم العذاب ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالإنذار .

ثم يتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن بعض آياته فى الكون :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هنا نقلهم الحق سبحانه إلى مجال المادة التى لا يستطيعون إنكارها ، وقلنا : إن الرؤية فى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا ﴿٧١﴾ ﴾ [يس] يصح أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴿٧١﴾ ﴾[يس] قوله ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴿٧١﴾ ﴾[يس] ينفى المشاركة يعنى : هذه صنعتنا وخَلْقنا لم يشاركنا فيه أحد ، ولم يعاونَّا فيه أحد ، بل هو خَلْق لله وحده .

وكلمة ﴿ أَنْعَامًا ﴿٧١﴾ ﴾[يس] هى الأنعام التى ذُكرت فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وهى البقر والإبل والغنم والماعز ، وسميت أنعاماً لأنها النعمة

البارزة فى أشياء متعددة ، ننتفع بها فى حياتنا ، فنأخذ منها الصوف والوبر والجلود والألبان ، ونحمل عليها الأثقال ، وهذه كلها نعَم واضحة فى البيئة العربية .

ثم إن خلْق الأنعام فى ذاته نعمة ، وقوله سبحانه ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[يس] نعمة أخرى ؛ لأن هناك حيوانات أخرى متوحشة لا تُملك إلا بالصيد وبالقوة ، وهى قليلة النفع إذا ما قُورنت بالمستأنسة التى ينتفع بها الإنسان ، فيسوقها ويركبها ويحلبها .

ثم نعمة التذليل ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴿٧٢﴾ ﴾[يس] وإلا فإذا خلقها الله ولم يُذلِّلها ما استطاع الإنسانُ تذليلها ، ولا الاستفادة منها ، فالجمل مثلاً رغم ضخامة حجمه وقوته ، إلا أن الطفل يسوقه ويُنيخه ويركبه ، كيف ؟ لأن الله ذَلَّله وسخَّره ، أما الثعبان فمع صغَر حجمه إلا أننا نخافه ونهرب منه ؛ لأن الله لم يُذلِّله لنا ، بل البرغوث فى الفراش يشاغبك ويقلقك ، وليس لك سلطان عليه .

إذن : فخلْق هذه الأنعام فى ذاته نعمة ، وتملُّكها نعمة ، وتذليلها نعمة ، وهذه النِّعم للمؤمن والكافر على السواء ، لأنها من عطاء الربوبية . إذن : كان عليهم أن يحترموا هذه ، وأن يسألوا أنفسهم : كيف نكفر بالله وهو يوالى علينا كل هذه النِّعَم ، وليت الأمر يقف عند كفرهم هم ، إنما يتعدى ذلك حين يمنعون الرسل من نَشْر دعوتهم .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴿٧٢﴾ ﴾[يس] أى : ما يُركب من الدواب . وركُوب مثل قولنا : شاة حلُوب يعنى : تُحلب ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[يس] أى : من لبنها وهى حيَّة ، واللبن نأكل منه الجبن والزبدة .. الخ ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[يس] مشارب جمع مشرب . والمراد القِرْبة التى كانوا يشربون بها ، وتُصنع من جلود

هذه الحيوانات أو يُـراد بالمشارب ما يُشرب من ألبـانها ، واللبن وإنْ كـان يُشرب من الأنـثى إلا أن الذكر سـبب فـيه ، فلولا أنـها حـملتْ ما كان منها اللبن .

ثم تُختم هذه النِّعَم بقوله سبحانه ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾[يس] هكذا بأسلوب الاستـفهام ليجـيبوا هم ، فـالله لا يقول لهم : اشكرونى على هذه النِّعم إنما يقررهم : أهذه تسـتوجب الشكر أم لا ؟ ثم لو شكرتم فسوف تتعرضون لعطاء آخر وزيادة :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

إذن : كان يجب عليـهم أن يشكروا الله على نعَمـه ، وأن تدعوهم هذه النِّعَم إلى الإيمان بهذا الإله المنعم الذى يُوالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ولِمَ لا والإنسان حينما يكون موظفاً يتقاضى أجره كل شهر من صاحب العمل لابُـدَّ أن يُحيِّيه كل يوم ويتودد إليـه ، فالمنعم بكل هذه النعم أفلا يستحق أن يُعبد وأنْ يُشكر ؟

وليت الأمر ينتهى بهم عند حَـدٍّ عدم الشكر ، إنما يحـكى القرآن عنهم فيقول :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾

عجيبٌ أن يحكى القرآن عنهم هذا بعد أن شرح اللهُ لهم آياته التى تثبت وجـوده الأعلى ووحدانيـته الكبرى ، فـفى الآفاق حـول الإنسان آيات ، وفى نفسـه آيات ، فمَن انـصرف عن الأولى أو غـفل عنهـا ، فكيف يغفل عن الأخرى ، وهى فى نفسه وذاته التى لا تفارقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومع ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً (٧٤) ﴾[يس] أي : عبدوها من دون الله ، لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) ﴾[يس] صحيح أن الإنسان يتخذ إلهاً أعلى منه لينصره في شدته ، لكن إذا كان هذا الإله الذي ترجع إليه في الشدة هو الذي يرجع إليك ويحتاجك ؛ لتصلحه إنْ كسرتْه الريح ، أو أطاحت به العوارض ، فإن وقع تقيمه ، وإنْ كُسرت ذراعه أصلحتها ، وإنْ جاء السيل جرفه ، وألقى به في الوحل ، إذن : كيف يُتَّخذ هذا إلهاً ؟

وتعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما حطم الأصنام سأله قومه : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَـٰإِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أوقفهم نبي الله إبراهيم على كلمة الحق التي لا يستطيعون إنكارها ، وهي أنهم جمادات صمَّاء لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] لكن سرعان ما تنبهوا إلى خطورة هذا الاعتراف ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من المكابرة والعناد ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء] عندها رأى إبراهيم أنْ يجابههم بهذه الحقيقة التي يحاولون الانفلات منها ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك يرد الله عليهم : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾[يس] فهم لا ينصرون عابديهم ، إنما العابدون هم الذين ينصرونهم ، ويوم القيامة سيجمعهم الله معاً ، لا يُحشر العابد بدون المعبود لتكون المواجهة ، فلو حُشر العابد وحده لانتظر معبوده

ينصره ويدافع عنه ، إنما يُحشَر الجميع معاً ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] أى : أحضروهم معهم فى النار ، العابد والمعبود ، والمعنى أن هذه الأصنام ستكون وقوداً للنار التى يُعذَّب بها العابدون .

وبعد ذلك يعود السياق إلى رسول الله ، الذى يكابرون فيه ويعاندونه :

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطيِّب خاطره ، والتسلية لا تكون إلا من مُسلٍّ لمسلًّى ، المسلِّى هو الذى أرسل المسلَّى ، فلابد أن يجامله حتى فى الشدة ، وسنة الله فى الرسل جميعاً أن الله ما أرسل رسولاً وخذله أبداً ، وما كانت الشدة فى رحلة وموكب الرسالات إلا تصفيةً لنفوس المؤمنين ، وتمحيصاً لهم ، وتصحيحاً للعقيدة ، حتى لا يبقى إلا المؤمن الحق الذى يتحمل مسئولية الرسالة والدفاع عنها .

لذلك يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٧٦) ﴾ [يس] لا تحزن يا محمد ، والحزن : أسف النفس على عدم تحقيق ما يتمنى الإنسان وطُروء ما يفسد ، فإنْ حَزِن رسول الله وانقبضتْ نفسه ، فمَنْ يُسلِّيه ؟ ومَنْ يُخفِّف عنه ؟ يُسلِّيه الذى أرسله ؛ لأنه سبحانه يحصى عليهم كل شىء ، ويعلم ما يُسرُّون وما يعلنون .

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ [يس]

لكن ، ما الذى أسَرَّهُ هؤلاء ؟

الذين واجهوا رسول الله كانوا قسمين : قسم واجهه بشجاعة ، فأعلن بلسانه ما فى قلبه من أنه لا يؤمن به ، وهؤلاء هم الكَفَرة ، وقسم آمن بلسانه وكتم الكفر فى قلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، فمعنى ﴿مَا يُسِرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾[يس] أى : من النفاق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الكفر . أو﴿مَا يُسِرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الإيمان الحقيقى بك ، وأنك رسول وأمين وصادق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الكفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

بدليل أنهم لم يُكذِّبوا القرآن ، ولم يعترضوا عليه ، إنما اعتراضهم أنْ ينزل على محمد بالذات ، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

وبدليل أنهم كانوا يأتمنون رسول الله على ودائعهم وأماناتهم ، هذا كله دليل على إيمانهم برسول الله ، لكنهم مع ذلك أعلنوا كلمة الكفر خوفاً على السلطة الزمنية والمنزلة والسيادة والجبروت ، وقد جاء الدين الجديد ليسلبَ منهم هذا كله ، ويُوقف تسلُّطهم على الضعفاء وعلى الفقراء .

إذن : لا بُدَّ أن يصادموا رسول الله ، وأن يقفوا فى وجه دعوته ، بكل قواهم رغم إيمانهم بصدقه فى قرارة أنفسهم ؛ لذلك كانوا فى المدينة يستعدون لتنصيب ملك منهم[1] فلما دخلها رسول الله واجتمع الناس عليه انفضَّتْ مملكتهم ، وزَالتْ قبل أنْ تُولد ، ذهبت السلطة الزمنية التى كانت للكفار كما ذهبت السلطة من أيدى اليهود ، وكانوا أهلَ العلم وأهلَ المال وأهلَ القتال ، ذهب كل هذا يوم علَتْ كلمة الإسلام .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢١٦) أن قوم ابن أبى أُبيّ قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فامتلأ قلبه حقداً وعداوة ، ودخل فى الإسلام كارهاً منافقاً حاقداً .

أو : يُرادُ بما يُسرُّون وما يعلنون أن عمل الإنسان حصيلة أمرين : شيء أو حاجة تختمر في النفس تُعَدُّ سراً وعقيدة تدفعه إلى العمل فإنْ ترجمَتْ إلى عمل وبرزتْ للوجود صارتْ علانية ، وعليه يكون المعنى : نعلم ما يُسرُّون من عقائدهم الفاسدة ، وما يعلنون من فِعْل القبائح .

لكن أيمتنُّ الله بعلم الشيء دون فائدة من وراء هذا العلم ؟ المسألة لا تنتهي بمجرد العلم ، إنما لابُدَّ أنْ يترتب على هذا العلم جزاءٌ يعاقب الكافر العاصي ، ويُثيب المؤمن المطيع ، إذن : تدبَّروا أمركم ، واحذروا ما يترتب على هذا العلم من آثار ؛ لأن علم الله ليس (فنطزية) علم ومعرفة .

لذلك قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٦٥) ﴾ [يونس] البعض فهم أن كلمة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٦٥) ﴾ [يونس] هي قول الكافرين ، لكن كيف يقولها الكافر ، ليتهم قالوا إنما قالها الله تذييلاً لقوله : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٦٥) ﴾ [يونس] لماذا ؟ لأن العزة لله جميعاً .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن آياته في الآفاق في الأرض وفي الشمس والقمر والفُلْك والدواب والأنعام يتكلم سبحانه عن آياته في النفس الإنسانية ، فإذا كانت الآيات في الآفاق من حولهم لم تلفتهم إلى الله ، فهذه هي آياته في ذات أنفسهم التي لا تفارقهم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾

قوله سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يرَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس] بمعنى يعلم لأن الإنسان لم يَرَ عمليـة الخَلْق فى نفسه ، فإنْ قلتَ : فـمَن الذى أعلمه ؟ ومَن الذى عرَّفه أن الله هو الخالق ؟ قالوا : عرف الإنسانُ هذه الحقيقة ؛ لأن فى الكون كمـالاً لم يدَّعه أحدٌ من الخَـلْق ، ثم فوجئت الدنيـا برسول الله يخبر بأن الله تعالى هو الخالق ، ولم يعـارض أحد ، فهذه إذن دَعْوى ليس لهـا معارض ولا مناهض ، مع أن الإنـسان كثـيراً مـا يدَّعى ما ليس له ، لكن هذه الدعوى بالذات لا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه .

والقاعدة أن الدعوى تثبت لصاحـبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، وإلا لو أن هذه الدعـوى لم تسلم للخالق عـز وجل ، فأين الخـالق ؟ لماذا لم يعـارضها ، ولمـاذا لم يطالب بحقـه فى الخَلْق ؟ إما أنه جَـبُنَ عن المواجهة ، أو أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً .

ونلحظ على سـياق هذه الآيات أن الحق سـبحانه قـال فى الآيات السابـقة : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾[يس] وهنا قال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴿٧٧﴾﴾[يس] فخاطب الإنسـان ، ولم يخـاطب الجـمـاعــة ، قـالوا : لأن هذه الآية نزلـت فى أُبَىٍّ بن خلف[1] حين أمـسك بعظم بَالٍ ، وراح يُفتِّـته أمام رسـول الله ويقول : أتزعمُ أن ربك يحيى هذا مرةً أخرى ؟ قـال : « نعم يُحييك ، ويُدخلك

---

(١) وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها :
– نزلت فى أبىِّ بن خلف . وهو قول مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة .
– نزلت فى العاص بن وائل . وهو قول لابن عباس .
– نزلت فى عبد الله بن أبىِّ بن سلول . وهو قول لابن عباس . قـال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨١) عن القول الأخـير : « هذا منكر ، لأن الســورة مكية وعبـد الله بن أبىِّ بن سلول إنمـا كان بالـمدينة ، وعلى كـل تقدير ســواء كـانت هذه الآيات قـد نزلت فى أُبىِّ بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث » .

النار » ، أو يُراد بالإنسـان مطلق الإنسـان ، فهى لكل مُكذِّب بالبعث ممَّنْ هم على شاكلة أُبيٍّ .

وقوله سبحانه : ﴿مِن نُّطْفَةٍ ﴿٧٧﴾﴾[يس] العلم التجريبى لم يصل إلى شيء فى مسألة الخَلْق هذه إلا مؤخراً ، يحاول على استحياء كشف بعض أسرار خَلْق الإنسان مما لم نكُنْ نعرف عنها شيئاً من قبل ، والنطفة هى الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعَّالة التى تسبب الإخصاب حين تصل إلى البويضة ، وهذه النطفة تسبح فى سائل هو المني وتعيش فيه ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة]

وقد أثبت العلم التجريبى الحديث أن النطفة هى المسئولة عن تحديد الذكورة أو الأنوثة ، والبويضة ما هى إلا وعاء فقط . إذن : لا دَخْلَ للمرأة فى هذه المسألة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة] أى : من النطفة ، وقلنا : إن من العجيب أن المرأة العربية قديماً فطنَتْ إلى هذه الحقيقة التى لم يتوصَّل إليها العلم إلا حديثاً .

أما حديث النبى ﷺ فى هذه المسألة : « إذا غلب ماءُ الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا غلب ماء المرأة نزع الولد إلى أمه»[1] فهموا من هذا الحديث أن تحديد الذكورة أو الأنوثة يتوقف على الماء الذى يسبق ، لكن حين نتأمل اللفظ نفسه ، فكلمة (غلب) تدل على

---

(١) هذا الحديث جواب من رسول الله على سؤال من عبد الله بن سلام : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال ﷺ : « أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » . فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) من حديث أنس . وعند مسلم فى صحيحه (٣١١) كتاب الحيض من حديث أم سليم : « إن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه » .

الغلبة والسباق ، والسباق لا يكون إلا لعناصر تخرج من نقطة واحدة ، وتنطلق فى اتجاه واحد ، إذن : فهما غير متقابلين ، فمعنى يغلب يعنى يسبق .

وقلنا : إنهم الآن تنبهوا إلى أن البويضة حين تخرج من المرأة تُحدث تغييرا كيماوياً فى تكوين المرأة يُسبِّب ارتفاعاً فى درجة الحرارة وتغيُّراً فى المزاج وفى نبضات القلب ؛ لذلك اخترعوا ساعة تقيس هذه التغييرات ، وتعرف بها المرأة موعد نزول البويضة .

والنطفة ميكروب متنَاه فى الصِّغر ، لا يُرىَ إلا بالمجهر ، ورحم الله العقاد[1] الذى قال كلمَة موجزة تصور هذا الصِّغَر ، فقال : إن أنسال العالم كله - يعنى النطف التى كوَّنتهم - يمكن أن توضع فى نصف كُسْتبان الخياطة . فسبحان الخالق الذى يُخرِج من هذه النطفة المتناهية الصِّغر إنساناً كاملاً ، ويُنشىء منها العظام الصلبة والعضلات نصف الصلبة والرِّخْوة ، وأنشأ منها الغضاريف والأعصاب والدم السائل والمخ .. الخ .

هذا فى الجسم المادى ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الذى يفهم ، واللسان الذى ينطق ويتذوق ، والعين التى ترى ، واليد التى تبطش ، والأنف الذى يشم ، والأنامل التى تلمس ، والرِّجْل التى تسعى .

هذه كلها من النطفة ، هذا الميكروب الذى لا يُرى بالعين المجردة ، هذه النطفة التى عبَّر عنها القرآن بالماء المهين ؛ مهين لأن

---

(١) هو : عباس محمود العقاد ، إمام فى الأدب ، من المكثرين كتابة وتصنيفاً ، أصله من دمياط ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى وكان أحدهم يعمل فى « عقادة » الحرير ، فعرف بالعقاد . أمه كردية . ولد عام (١٨٨٩ م) فى أسوان . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤م عن ٧٦ عاماً ودُفن بأسوان . [الأعلام للزركلى ٣/٢٦٦]

الإنسان يتبوله ويخرج من مجرى البول ، ويُلقى فى دورات المياه مع القاذورات ، وإن أصاب ملابسك لا بُدَّ أن تُغسل . ومن هذا الماء المهين يُخْلق الإنسان ، بل ويصل إلى أعلى مراتب الطغيان والجبروت ، كيف ؟

قالوا : لأن الإنسانَ له صفات حسنة فى ذاته ، ومواهب يحب أن يظهرها ، فإنْ كان مع أحبابه أعجبه شكله الجميل أو ماله أو ذكاؤه .. الخ ، فيحاول أن يُبيِّن هذه المواهب لهم ، فإذا عُودى كانت له مواهب أخرى فى أعدائه ، ومع العدو يُجنِّد الإنسان كل مواهبه لينتصر على عدوه ، هذه مواهب فى الغضب وفى الخصومة والجدال .

لذلك قال أحدهم :

وكم مِنْ نِعْمَةٍ لله فِىَّ حَمَدْتُها ... يُجَمِّعُها فِــىَّ مَواهبُ ثلاث

أولاَهُما لِنَفْسى وثانيتهما لأحْبَابى وأصْحَابى ... وثالثهما لخصْمى

هذا كله معنى ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يعنى : بعد أنْ خلق الإنسان من هذه النطفة ومن هذا الماء المهين فوجئنا بأنه ﴿ خَصِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يعنى : عدو لدود ﴿ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يعنى : يبين عن مواهب العداء عنده إبانةً واضحة ، والإنسان لا يكون مُبيناً لغيره إلا إذا بَانَ الشيء فى نفسه هو ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فالمدرس الفاشل هو الذى لا يستطيع أن ينقل المعلومة لتلاميذه ؛ لأن المعلومة غير واضحة عنده ، ولو كانت المعلومة واضحة فى ذهنه لاستطاع أنْ ينقلها بأىِّ أسلوب .

إذن : المعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يُحسن الإبانة عَمَّا فى نفسه ؛ لذلك تقول : أبنتُ لك لأنها بانت عندى ، وأعلمتُك لأنها عُلمت عندى ، وأفهمتُك لأننى فهمتُ ، فهما إذن موهبتان ، والإنسان ترتقى مواهبه ويجند كل صفاته فى الخصومة لا يدخر شيئاً منها ، ففى الخصومة

يُظهِر ما عنده من المال أو الشجاعة أو الحيلة .. الخ .

وعجيبٌ أن هذا كله كامن في النطفة ، وعجيبٌ أيضاً أن ينقل الإنسانُ هذه الخصومةَ من ذات نفسه ، ومن خصومته لأعدائه إلى خصومة ربه وخالقه .

لذلك قال تعالى بعدها مُصوِّراً هذه الخصومة لا مع أُبَيٍّ سبب نزول الآيات ، إنما مع كل مَنْ هو على شاكلة أُبَيٍّ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾

تحدَّثنا عن ضرب المثل وقُلْنا : الضرب إيقاع جسم على جسم بعنف ، ويُشترط فيه أن يكون الضاربُ أقوى من المضروب ، وإلا كانت النتيجة عكسية ، ومن ذلك قول الرافعي[1] رحمه الله :

أيَا هَازِئاً مِنْ صُرُوفِ القَدَرِ ... بِنَفْسِكَ تَعْنُفُ لاَ بِالقَدَرْ

وَيَا ضَارِباً صَخْرَةً بِالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَرْ ؟

كذلك ضَرْب المثل هو إيجاد شيء يُوقع على شيء ، ليبين لك الأثر الحاسم الفعَّال ، فحين تشكّ مثلاً في شيء يُوضِّحه لك بمثَل لا تشك فيه ، فيُقرِّبه إلى ذهنك ، ومن ذلك قوله تعالى لما أراد أنْ

---

(١) هو : مصطفى صادق الرافعي ، عالم بالأدب شاعر ، أصله من طرابلس الشام ، ومولده في بهتيم بمنزل جده لأمه (عام ١٨٨١م) وتوفي بطنطا عام (١٩٣٧م) ، شعره نقي الديباجة في أكثره ، ونثره من الطراز الأول ، له « وحي القلم » ، « ديوان شعر » ، « تاريخ آداب العرب » .

يُوضِّح لنا بطلان الشرك ، والفرق بينه وبين التوحيد ، قال سبحانه :
﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً[1] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

نعم ، لا يستوى عبد يتنازعه عدة أسياد ، وعبد مِلْك لسيد واحد ، كذلك لا يستوى التوحيد والشرك .

فقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً (٧٨) ﴾ [يس] أى : أبىّ بن خلف ، والمثل الذى ضربه أنْ أخذ عَظْماً قد بَلِى ، وراح يُفتِّته أمام رسول الله وهو يقول : أتزعم يا محمد أن ربك سيحيى هذا ، بعد أنْ صار إلى ما ترى ؟ وإنْ كانت الآيات نزلت فى أبىٍّ ، إلا أنها لا تقتصر عليه ، إنما تشمل كل مُكذِّب بالبعث ، مُنكر لهذه القضية

ومعنى ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ (٧٨) ﴾[يس] يعنى : لو تذكَّر خَلْقه هو ، وتأمل فى ذات نفسه وجد الدليل على ما يُكذِّب به ؛ لأن الله خلقك من العدم ، فصار لك وجود ، فإذا مِتَّ بقيتْ منك هذه البقايا التى تُفتِّتها منثورة فى الأرض ، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أن الإيجاد من موجود أهون من الإيجاد من العدم ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧) ﴾ [الروم]

الحق سبحانه فى هذه الآية يخاطبنا على قَدْر عقولنا ووَفق منطقنا ، وإلاَّ فلا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، ولا سهل وأسهل ، هذا يُقال فى حق البشر فحسب .

وقوله : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾[يس] حينما ألقى هذا

(١) أى : مِلْكاً خالصاً له ، لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

السؤال على الكافرين المكذِّبين بالبعث يقولون : لا أحد يستطيع أنْ يُحيى الموتى ، لماذا ؟ لأنه يقيس المسألة على عَجْز القدرة فى البشر ، لا على طلاقة القدرة فى الخالق سبحانه .

والعجيب أن الله تعالى يُثبت للإنسان صفة الخَلْق ، فيقول : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون] والإنسان ينكر ويُكذِّب بقدرة الله فى الخَلْق ، فإذا كان ربك لم يَضِنّ عليك بأنك خالق ، فلا تضنّ عليه بأنه أحسن الخالقين .

وقلنا : إذا وجدتَ صفة لله تعالى ووصف بها البشر فلا بُدَّ أنْ تأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ⑪ ﴾ [الشورى] فلله تعالى وجه لا كالأوجه ، وله سبحانه يد لكن ليستْ كالأيدى .. وهكذا ؛ لأن الله تعالى واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله . الله موجود وأنت موجود ، لكن وجودك ليس كوجوده ، الله غنى وأنت غنى ، لكن غنَاك ليس كغنَى الله ، غنَى الله ذاتىٌّ لا ينفصل عنه سبحانه ، أما غناك فموهوب .

الله خالق وأنت خالق ، لكن فَرْقٌ بين خَلْقك وخَلْق الله ، خَلْقك من موجود وخَلْقه تعالى من عدم ، خَلْقك جامد لا حياة فيه ، وخَلْق الله فى حياة فينمو ويتغذى ويتكاثر .. الخ فأنت خالق ، لكن ربك سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : لله تعالى صفات الكمال المطلق ، يُفيض منها على خَلْقه فيعطيهم من صفاته تعالى ، لكن تظل له سبحانه طلاقة القدرة .

ومعنى ﴿ رَمِيمٌ ⑦⑧ ﴾ [يس] قديمة بالية تتفتت .

ثم يردُّ الحق سبحانه على هذا المكذِّب وأمثاله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ⑦⑨ ﴾ [يس] ومعنى ﴿ أَنشَأَهَا ﴾ يعنى : من العدم ، ولأنْ

ينشئها من موجود أولَى ، وقوله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾﴾[يس] فى الرد على هذا المكذِّب يوحى بأن هناك مرة أخرى ، وإحياءً آخر غير الأول﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[يس] أى : بالخَلْق الأول وبالخَلْق الثانى ، فالعلم بالخَلْق الأول أنْ يعطيه صفات ومواهبَ فى ذاته ، وأنْ يستعمره فى الأرض ، وأن يجعلَ له منهجاً ينظم حياته فيها .

وبهذا المنهج أرشده إلى سبيل الخير ، وحذَّره من سُبل الشر ، وأوضح له الجزاء على هذا وذاك ، وهو سبحانه عليم بالخَلْق الآخر فى الآخرة . أى : يعلم كيف يجازيه على ما قدَّم . إذن : معنى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[يس] يعنى : عليم كيف يُكلِّفه ، وعليم كيف يجازيه ، وعلى قَدْر التكليف يكون الجزاء .

الفلاسفة المسلمون أحبوا أنْ يوضحوا لنا هذا المعنى ، فقالوا : حينما أراد الله أن يخلق من العدم وقبل أنْ توجد السماء أو الأرض قال : اخرجى يا سماء كونى سماءً فكانت ، وهكذا الأرض . إذن : قادريته سبحانه هى التى فعلت ، ومقدورية الأشياء هى التى انفعلت ، فما الذى انتهى من هذين العنصرين ؟ إنهما باقيتان موجودتان : قادرية الفاعل سبحانه ، ومقدورية الأشياء .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

الحق سبحانه يسوق لهم دليلاً آخر على طلاقة قدرته ، فإن كنتم تُكذِّبون بالبعث ، فانظروا إلى هذه الآية المادية التى تشاهدونها ، فالذى يُحيى العظام التى رَمَّتْ هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً تُوقدونها ، فيشتعل العود الأخضر ، والخضرة دليل الرطوبة

والمائية ، فكيف تأتى النار من الماء ، هذه آية يرونَها فى البيئات العربية كل يوم ، ومعلوم أن الحطب هو أول وقود عرفه الإنسان واستخدمه بسلام ؛ لأنه أصْفَى وقود ، وهو صحيٌّ لا يلوث البيئة ، ولا يضر بها ، ولك أنْ تقارن بين وقود الحطب ووقود البترول مثلاً ، لتعرف الفَرْق .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا تَرقٍّ فى الدليل ، فبعد أنْ ذكر سبحانه آية جَعْل الشجر الأخضر ناراً ، يسوق الدليل الأقوى ، وهو خَلْق السموات والأرض ، السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس لنا ، نشاهده ونباشره . وحيثية هذه الآية جاءت فى آية أخرى ، حيث قال الحق سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإنْ قُلْتَ : علِّلْ لنا أن خَلْق السموات والأرض مع أنها لا تحس ولا تتكلم ولا تعلم .. الخ . أكبر من خَلْق الناس ، نقول : نعم خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ؛ لأنها منذ خلقها الله على حالها لم تتغير ، وستظل إلى قيام الساعة ، أما أنت أيها الإنسان فتموت ، تموت وأنت طفل ، بل وأنت جنين فى بطن أمك ، تموت وأنت شاب وأنت شيخ هَرِم ، وقصارى ما يمكن أن تصل إليه لو عُمرت فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأين عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وهل رأيت خادماً أطول عمراً من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً ، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى السماء والأرض كما هى شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا تخرج عن قانون التسخير فى شىء أبداً ، ومنذ أن خلق الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلَّف عن موعده ، أو امتنع عن أداء مهمته .

هذا حال الجمادات فى السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها العقلاء ؟ لو تحدَّثنا فى المادة فهى تبقى وأنتم تموتون ، وفى المعانى والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم تتعاندون وتختلفون وتتصارعون ، فأيُّكم إذن أحسن خَلْقاً وأكبر ؟

لذلك يجيب الحق سبحانه على هذا الاستفهام المنفى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم .. (٨١) ﴾ [يس]

فيقول (بلَى) أى : نعم قادر ﴿ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) ﴾[يس] وخلاَّق صيغة مبالغة من خالق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذِّب بها ، وهو سبحانه ﴿ الْعَلِيمُ (٨١) ﴾[يس] أى : بمَنْ خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مُكذِّب بالبعث ، كأن الله يقول لهم : يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله على بَعْث العظام التى رمَّتْ ، أتظنون أن الله يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم ، الله الخالق لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكلمة (كُنْ) ، بل يخلق سبحانه بمجرد مراده ، فإنْ أراد شيئاً كان ، دون أنْ يقول ، ودون أنْ يأمر ، وما كلمة (كُنْ) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا .

وسبق أنْ أوضحنا هذه العمليـة بمثال ، ولله المثل الأعلى ، قلنا : كيف تنكر أيها الإنسان قدرة الله ، وقد أفاض عليك بمثلها في ذات نفسك ، فأنت مثلاً حينما تريد أنْ تقوم من مجلسك ، ماذا تفعل ؟ هل أمرتَ العضلات أنْ تتحرك ، بل هل تعرف أصلاً ما هي العضلات التي تقيمك ، وما الأعصاب التي تتحكم في هذه العملية ؟

إنك تقوم بمجرد إرادتك للقيام وليس لك دَخْل فيها ، بدليل أن الطفل الصغير الذي لا يعرف عن تكوين جسمه شيئاً يقوم إذا أراد القيام ، فإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تنفعل لك الأشياء دون أنْ تقولَ لها انفعلي ، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا في حق ربك وخالقك ؟

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا آمر أعضائي وأقول لها : اعملي كذا وكذا ؟ نقول : الحق سبحانه يقول للشيء كُنْ لأنه سبحانه يعلم أن الأشياء ستأتمر بأمره ، ولن تخرج عن مراده ، إنما هل أنت واثق أنها ستأتمر بأمرك إنْ أمرتها ؟ إنك لا تثق بهذه المسألة بدليل أن الله تعالى حين يسلب الإنسان هذه القدرة تخرج أعضاؤه عن طاعته ، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع ، تشل الأعضاء فلا تتحرك .

إذن ، نقول : إذا كان المخلوق مجرد إرادته تسيطر على جوارحه ، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمة (كُنْ) يقولها الله ليقرِّب لنا فَهْم المسألة ، ويقولها لأن الأشياء لا تتخلف أبداً عن طاعته والانفعال لأمره ، إنما أنت إنْ قُلْتها فلن يسمعك أحد ؛ لذلك قال سبحانه موضحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾[الانشقاق] أي : حَقٌّ لها أنْ تسمع ، وأنْ تطيع .

ومعنى ﴿أَن يَقُولَ لَهُ ﴿٨٢﴾﴾[يس] أى : للشيء الذى لم يُوجد بَعْد ، فكيف إذن يخاطبه وهو ما يزال غَيْباً ، قالوا : الخالق سبحانه خلق كل الأشياء أزلاً فى عالم اسمه « عالم المثال » ، فالأشياء موجودة بالفعل ، لكن تنتظر الأمر بالظهور والخروج إلى عالم الوجود ؛ لذلك قال أحد العارفين : أمور يُبديها ولا يبتديها .

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

عرفنا فى الآية السابقة أن الحق سبحانه إذا قال كُنْ انفعلتْ له الأشياء وأطاعت ، أما إنْ قالها الإنسان فلن يستجيب له شيء ، وقلنا : إذا ورد لله تعالى وَصْفٌ يُوصف به البشر ، فعلينا أنْ نأخذه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] إذن : طبيعى أنْ تختم هذه الآيات والسورة كلها بقوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٣﴾﴾[يس] يعنى : تنزيهاً له عن أن يُشبهه أحد ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وكلمة ﴿مَلَكُوتُ ﴿٨٣﴾﴾[يس] من ملك ، وهذه المادة الميم واللام والكاف تُستخدم على معانٍ أربعة : الأول : نقول مالك ، وهو كل مَنْ ملَك شيئاً ولو كان يسيراً ، فلو كان لا يملك إلا الثوب الذى يلبسه يُسمَّى مالك . الثانى : نقول ملَك وهو الذى يملك مَنْ ملَكَ أى : يملك أنْ يتصرف فيه وفى إدارة حَركته ، الثالث : كلمة المُلْك وهى أن يترقى الملك فى أمور ظاهرة يعرفها الناس ، الرابع : كلمة الملكوت ويُراد بها الملْك المستور غير الظاهر ، وهو أقوى وأعمّ من المُلْك .

وقد يكون الشيء من عالم الملكوت ، ثم يصير إلى عالم المُلْك مثل الأشياء التى كانت غيباً واكتشفها الإنسان أو ابتكرها ، فصارت

مشهودة ، وهناك أشياء تظل دائماً فى عالم الملكوت لا نعرف شيئاً عنها إلا فى الآخرة ، وهذا النوع هو الذى يُكذِّبون به ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

نعم ، يُطلعه الله على عالم الملكوت ، لأنه لما أطلعه على عالم المُلْك وابتلاه نجح فى الابتلاء بتفوق ، نجح فى كل مراحل حياته ، نجح وهو شيخ كبير فى مسألة ذَبْح ولده إسماعيل ، نجح لما أُلْقِى فى النار ؛ لذلك صار أهلاً لأنْ يُطلعه الله على أسرار الكون ، وعلى عالم الملكوت ، كما لو أن فى أولادك ولداً صالحاً ترى فيه مخايل النجابة ، فتصطفيه بشىء تفضله به عن باقى الأولاد ، كذلك مَنْ يحسن العبودية لله تعالى يحسن الله له العطاء .

ومن ذلك ما قَصَّه علينا القرآن فى سورة الكهف من قصة العبد الصالح الذى رافقه نبى الله موسى وتعلَّم منه ، والذى قال الله فيه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف]

هذا العبد الصالح لم يكُنْ نبياً ، ولم ينزل عليه الوحى ، ومع ذلك تعلَّم منه النبى ، لماذا ؟ لأنه أخذ ما جاء به الرسول وطبَّقه على نفسه ، فلما علم الله منه أنه مأمون على مناهج الله وعلى أسراره زاده وأعطاه من علمه اللَّدُنىِّ ، وكشف له من أسرار الملكوت .

ألاَ ترى أن سيدنا موسى - عليه السلام - غضب منه حينما خرق السفينة ، وتعمد أنْ يَعيبها ، وهى لمساكين فقراء ، هذا هو عالم المُلْك الذى اطَّلع عليه العبد الصالح ، أما علمه بعالم الملكوت ففى قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] فأطلع الله العبدَ الصالح على بعض عالم الملكوت ، كما أطلع إبراهيم عليه

السلام على ملكوت السماء .

وكلمة (ملكوت) تحمل معنى المبالغة ، مثل : رحموت وجبروت ورهبوت ، فهى إذن للمبالغة فى المُلْك ، لكن نلحظ عند علماء القراءات أن أحدهم يقرأ : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة] فيقول (مَلِكِ يوم الدين) بدون صيغة المبالغة ، قالوا : لأن الكلام عن يوم الدين ، وفى هذا اليوم المُلْك كله لله وليس لأحد مُلْك ، ولا حتى الثوب الذى يرتديه .

ومن ذلك أيضاً قولنا فى الأذان الله أكبر فذكر الصفة (أكبر) دون مبالغة ، ولم يذكر الاسم (الكبير) ، فكيف يتأتَّى ذلك فى شعار الصلاة ، التى هى عماد الدين ، ونأتى بالصفة دون الاسم ؟ قالوا : لأن الأذان يأخذ الناس من أعمالهم للاستجابة لنداء ربهم ، والعمل له اعتباره فى الإسلام ؛ لأنه مهمة الإنسان فى الحياة ، وبه يتوصَّل إلى طاعة الله ؛ لذلك يُقدِّره الدين ولا يحتقره .

ومعنى (الله أكبر) أن العمل كبير ومهم ، لكن الله أكبر ونداء ربِّك أهم ، أما كبير فهى اسم من أسماء الله . ومعنى كبير أن ما دونه صغير ؛ لذلك أتى فى الأذان بالوصف لا بالاسم .

فقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ۝٨٣ ﴾ [يس] أى : ما تراه وما لا تراه من الملك ، وما خَفِى عنك ، ثم توصَّلْتَ إليه بالعلم واكتشفته ، والذى لا تراه من الملك إلى أنْ يخبر الله به أحد عباده : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۝٢٧ ﴾ [الجن].

والتحقيق أن المغيبات والأسرار المطمورة فى الكون لا يكتشفها الإنسان إنما تُكْشف له ، وقلنا : إن كل سِرٍّ فى الكون أراد الله أنْ

يُظهره له عمر وميلاد ، فإنْ صادف ميلادُه بحثَك ظهر على يديك ، وإلا أظهره الله لك مصادفة في موعده إذا لم تبحث عنه ؛ لذلك يقولون : إن سبعة وتسعين بالمائة من مكتشفات الحياة ظهرت لنا مصادفة .

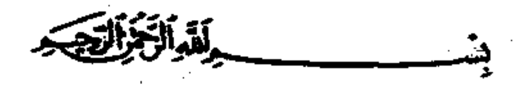
ويقول سبحانه في آية الكرسي : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فالإنسان لا يحيط إلا بعلم الشيء اليسير من علم الله ، ولا يحيط بهذا اليسير إلا بعلمه تعالى وإذنه ، حين يأذن بميلاد الشيء وظهوره .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [يس] أي : يوم القيامة ، فكونوا على ذكْر لهذه الحقيقة ، فمَنْ لم يؤمن بنعمة الخلْق ترهبه نعمة الإعادة والمَرجع ، فأنتم ما خُلقْتم عبثاً ، ولن تُتْركُوا سُدىً .




سورة الصافات





سورة الصافات[1]

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ ﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى أسلوب القسم ، الله تعالى هو المقْسِم يُقسِم على ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ ﴾[الصافات] وقد أخبر الرسول ﷺ بمراده تعالى في القسم ، فالله يريد منَّا إنْ أقسمنا ألاَّ نُقسم إلا به سبحانه ، لكن بالاستقراء رأينا أنَّ الحق سبحانه يقسم بخَلْق من خَلْقه ، فيُقسِم بالملائكة ، ويُقسِم بالحيوان ، ويُقسِم بالجبال ، ويُقسِم بالفجر .. الخ

قالوا : لأن الله تعالى يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، أمَّا أنت فلا تقسم إلا بالله ، لأن القَسَم تعظيمٌ للمقْسَم به ، وينبغي ألاَّ يكون

(١) سورة الصافات هي السورة (٣٧) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١٨٢آية ، وهي سورة مكية في قول الجميع ، كما قاله القرطبي في تفسيره (٥٦٩٩/٨) ، وقد ذكر السيوطي في الإتقان (٢٧/١) نقلاً عن ابن الضريس في « فضائل القرآن » أن سورة الصافات نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان ، وعلى هذا فتكون سورة الصافات رقم (٥٥) في ترتيب نزول القرآن الكريم .

مُعظَّماً عند المؤمن إلا الله ، ولا يصح أنْ تقول (وحياة فلان ، ورأس علان) فإنْ كنتَ حالفاً فلتحلف بالله ، كما جاء في الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله »[1]

فإذا ظهر ما يكون ظاهره قَسَماً بغير الله ، فاعلم أنه لا يُعَدُّ قَسَماً ، وخصوصاً إنْ جاء من عالم أو يقيني كأنْ يقول : (وحياة أبوك يا فلان تعمل كذا وكذا) ، هذا ليس قَسَماً ، إنما هو مساءلة. القسَم : أنْ تُقسم على شيء ، حدث أو لم يحدث ، إنما طَلَبُ الشيء يسمى مساءلة ، كذلك يقول الحق تعالى : ﴿ ..الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ① ﴾ [النساء] أي : وبالأرحام في قراءة من جر الأرحام .

والحق سبحانه يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، وأنت لا تقسم إلا بالله ؛ لأن الشيء قد يكون تافهاً في نظرك ، ولكنه عند خالقه عظيم ، وله مهمة تغفل أنت عنها ، وحين يحلف الله به إنما يُلفت نظرك إلى أهميته ودوره ، فمثلاً لما فَتَر الوحي عن سيدنا رسول الله ﷺ لم يلتفت الكفار إلى الحكمة من ذلك .

والحكمة أن الوحي كان يَثْقُل على رسول الله ، حتى يبلغ منه الجهد ، وحتى أن جبينه ليتفصَّد عرقاً[2] ، وإن نزل الوحي عليه وهو على دابة فإنها تئِنُّ وتنخُّ به[3] ؛ ذلك لأن الوحي ثقيل .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله : « ألا إن الله عزوجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

(٢) قالت عائشة رضي الله عنها : لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أي : أن عرقه كثير في يوم شديد البرد . [أخرجه البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٩٢) موصولاً من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله أُنْزل عليه ﴿ لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ وفخذه على فخذي ، فثقلت عليَّ حتى خفْت أن ترُضَّ فخذي .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [المزمل]

فجاءت فترة انقطاع الوحى رحمةً برسول الله ، وتسريةً عنه ، وتخفيفاً من معاناته ، ثم ليشتاق هو إلى الوحى يعاوده من جديد ، لم يلتفت الكفار إلى ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قَلاَه[1] يعنى : تركه وهجره وجفاه ، وواضح ما فى هذا القول من تناقض ، فعند الإيمان يُكذِّبون بمحمد ورب محمد ، وعند الجفوة يقولون : إن رب محمد قلاه ، ويعترفون أن له رباً !!

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يوضح لهم هذه المسألة ، وأنْ يُظهر غباءهم بهذا المقسَم الذى جاء مناسباً للموقف ، يحمل إشارة لطيفة إلى العلاقة بين المُقْسَم به ، والمقْسَم عليه ، فقال سبحانه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾ [الضحى]

والمعنى : أنك يا محمد أُجهدتَ بالوحى ، وكان لا بُدَّ أنْ تستريح لتشتاق نفسك إليه وتطلبه ، وحين ترتاح سيُخفِّف ذلك من معاناتك فى استقباله ، وسوف تذوق حلاوته من جديد ، ويكون عليك أيْسَرَ وأسهل ، وأتى الحق سبحانه بهذا القسم بشىء موجود مُشَاهد ، لا يختلف عليه اثنان .

فهم يعرفون ﴿ الضُّحَىٰ ۝ ﴾ [الضحى] حين تشرق الشمس ، وتنير الكون ، ويعرفون ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ ﴾[الضحى] يعنى : سكَن وهدأ ، والإشارة هنا فى أن الضحى إذا جاء ثم تلاه الليلُ بسكونه ، هل يعنى هذا أن الضحى لن يعود مرة أخرى ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) أن جندب بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . فأنزل الله تعالى :﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى] .

لا ، بل سيأتى الضحى من جديد بعد أن تكونَ قد ارتحْتَ من تعب النهار والسعى فيه ، واستعدْتَ نشاطك ليوم جديد ، ومعنى ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الضحى] أى : أن عودة الوحى ثانية ستكون أحلى من الأولى ، وأخفّ وأيسر .

إذن : الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، ليُعلمنا أن هذه الأشياء عظيمة عند خالقها ، لكن غفلنا نحن عن وجه العظمة فيها ، ويُقسِم بما يشاء من مخلوقاته ليُقرِّب لنا بواسطة المعلوم شيئاً مجهولاً .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ ﴾[الصافات] الواو تسمى واو القسم مثل : التاء والباء . نقول : والله وبالله وتالله ، وقد يُستغنى عن حروف القسم ، ويستدل عليه باللام فى جواب القسم ، كما فى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يس] وأنت لا تقسم على الشىء بداية ، وإنما تقسم إنْ أنكر المخاطب لتؤكد له الخبر ، ويأتى القسم والتأكيد على قَدْر الإنكار .

فإذا قال الحق سبحانه مثلاً :﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ ﴾ [القيامة] أو : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد] وفى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الواقعة]

وفى هذه الآيات . قَسَم بدليل أن له جواباً ، لكن لماذا نَفَاهُ القرآن ، فقال (لاَ أُقْسِمُ) قالوا : لأن نَفْى القسم هنا أشدُّ من القسم المثبت ؛ لأن القَسَم إنما جاء لتأكيد المقسَم عليه ، ومعنى (لا أقسم) أن هذا أمر واضح لا يحتاج إلى قَسَم ، القَسَم يأتى لتأكيد أمر منكر أو مشكوك فيه ، أمَّا هذا الأمر فواضح بيِّن ، ومع ذلك سأقسم لك .

ومعنى ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ ﴾ [الصافات] قالوا : الصافات صفًّا هي الملائكة تُصَفُّ ، والصَّفُّ انسجام مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصَّفُّ لا يعني مجرد الجمع ، إنما الجمع في انسجام وانضباط ، لذلك النبي ﷺ كان في استعراض الجنود في المعركة يُسوِّي الصفوف ، فلما رأى رجلاً شَذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه في بطنه ليستقيم في مكانه من الصَّف ، وكان الرجل محباً لرسول الله ، فقال : أوجعتني يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه بطني اقتصّ منها » فأقبل الرجل يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلْتُ أن أستشهد ، فأحببتُ أن يكون آخر عهدي بالحياة أنْ يمسَّ جسدي جسدك الشريف .

والصَّف دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّي الأوامر ، وهكذا تُصَفُّ الملائكة في انتظار الأوامر ، ليقوم كل منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) في القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ⑥٤ ﴾ [طه] يعني : مجتمعين مُتحدين ، وقال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ②٢ ﴾ [الفجر]

وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ ①٩ ﴾ [الملك]

صحيح ، ترى الطائر في السماء باسطاً أجنحته هكذا لا يحركها ، ومع ذلك لا يقع ، كذلك تراه يقبض أجنحته ، ويظل أيضاً ثابتاً في مكانه ، فما الذي أمسكه لا يقع ؟ أمسكه الرحمن وكأن في إمساك الطير الذي نراه ونشاهده دليلاً على صدْق الحق في

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (٤١)﴾ [فاطر]

إذن : إمساك الطير نموذج لإمساك السماء ، إلا أن هذا إمساك مؤقت ، وذاك إمساك دائم .

ويقول عن الملائكة عموماً : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات] يعني : نقف في انضباط منتظرين الأوامر ، والصف هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحد على أحد ، ويدل على الرهبة ممَّنْ أنت أمامه مصفوفاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في نعيم الجنة : ﴿وَنَمَارِقُ[1] مَصْفُوفَةٌ (١٥)﴾ [الغاشية]

بعض العلماء يرى أن الصافات لها معنى أوسع ، ويراد بها مجال نشر الدعوة والإعلام بها ، والدفاع عنها ، وحماية الاختيار في الإسلام ، وفي القتال ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف] معنى ﴿فِي سَبِيلِهِ (٤)﴾ [الصف] أي : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود في ساحة القتال ، وينبغي أن يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيان المرصوص ؛ لذلك قال تعالى : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (١٢٢)﴾ [التوبة]

---

(١) النمرقة : الوسادة الصغيرة يُستند إليها ، ويُتكأ عليها ، وجمعها نمارق . [القاموس القويم ٢/٢٨٨]

فالعالِم لا يقاتل ؛ لأن مهمته حَمْل الدعوة ، والمقاتل يموت في سبيلها ويضحي بحياته من أجلها ، وهذه التضحية هي التي تثبت صدْق الدعوة ؛ لأن الدعوة لو لم تكُنْ صادقة في نفس صاحبها لَمَا ضَحَّى من أجلها ، ثم تضحيته بروحه دليلٌ على ثقته أنه ذاهب إلى خير مما هو فيه .

وتعرفون قصة الصحابي الذي سمع كلام رسول الله عن أجر الشهيد ، وكان في فمه تمرة يمضغها ، فقال لرسول الله : أوليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلونني ؟ قال : بلى . فألقى التمرة واستبطأ أن يمضغها وأسرع إلى ساحة القتال .[1]

إذن : القتال في سبيل الله ، إما باللسان وإما بالسِّنان ، ولابد أنْ يُعلَم أن المقاتل الذي يحمل السيف لا يحمله ليُكرِه غير المؤمن على الإيمان ؛ لأنه لا إكراه في الدين ، إنما يحمله ليحمي حريته واختياره هو لهذا الدين ، بدليل أن الإسلام فتح بلاداً كثيرة ، وظلَّتْ على دينها .

والصف الواحد ليس فقط للمقاتلين في ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملي الدعوة ، فيجب على هؤلاء العلماء أن يكونوا في دعواهم صفاً واحداً لا يشقه خلاف ، فما كان في كلام الله مُحْكماً التزموا به ، وما كان متشابهاً لا يُكفِّر بعضهم بعضاً بسببه .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) وقال ابن حجر : لم أقف على اسم الرجل وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه ذكر عمير بن الحمام . ولكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر ، فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين ، والله أعلم .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾[الصافات] قالوا : هذه هي مهمة الملائكة أنْ تزجر الشياطين الذين يسترقون السمع ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن]

وكانت الشياطين قبل رسالة محمد ﷺ تصعد في السماء ، وتتسمّع الأخبار ، ويُمكِّنهم الله من بعض الأخبار والأوامر فيسمعونها ويُلْقونها إلى أوليائهم من البشر ، فيزيدون عليها أشياء باطلة ، ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، فلما كانت بعثة النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع ، وسلَّط الله عليهم الشُّهُب تنقضّ عليهم فتحرقهم .

فإنْ قلتَ : كيف ، ونحن نرى النجوم على كثرتها ، هي هي لا تنقص ، نقول : لأن النجوم منها نجوم في السماء للزينة ، ومنها نجوم للرجم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الصافات]

أما ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الصافات] قالوا : هي المُنزلات الوحي على الرسل ؛ لأنهم يتلُونه عليهم ، بعد أنْ نزلوا به من عند الله

آخرون فهموا ﴿ وَالصَّافَّاتِ ﴿١﴾ ﴾ [الصافات] على معنى آخر يتفرع عنه معَانٍ أخرى للزاجرات زجراً والتاليات ذكراً ، قالوا : معنى ﴿ وَالصَّافَّاتِ ﴿١﴾ ﴾[الصافات] أي : المؤمنين يُصفُّون للصلاة ، لأنها عماد الدين ورمز للاجتماع والوحدة ، ومن تمامها أن تكون في صفوف مستوية .

لذلك قال النبي ﷺ : « سوُّوا صفوفكم ، فإنَّ تسوية الصفوف

من إقامة الصلاة[1]» وقال : « إن الله لا ينظر إلى الصَّف الأعوج»[2] والصفوف فى الصلاة دليل على الانضباط ، وأنه لا يشذ أحد عن الآخر ، ودليل على الخضوع والوقوف فى أدب بين يدى الله . إذن : فكما تُصَفُّ الملائكة تُصَفُّون أنتم ، ولكلٍّ صلاته وعبادته .

فإذا ما سَوينَا الصفوف واستقمنا فيها لله تعالى ندخل فى الصلاة ونقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا زَجْر للشيطان ؛ لذلك قال : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② ﴾[الصافات] ومعنى ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ ﴾[الصافات] أى : ما نتلوه بعد ذلك من كلام الله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴾ [الفاتحة]

هذا هو القَسَم ، فما المُقسَم عليه؟ المقْسَم عليه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ ﴾[الصافات] وهذه العبارة مع أنها جواب لقسم ، إلا أن الله تعالى أكّدها أولاً بـ (إن) ثم أكّدهَا باللام فى (لَوَاحدٌ) ، وذلك لأنها تمثل أساس الدين وجوهر العقيدة ، فالإله الحق واحد هو المهيمن على هذا كله ، وقلنا : إن واحد غير أحد : واحد يعنى ليس له ثَانٍ مثله ، أما أحد فيعنى أنه غير مركب من أجزاء فى تكوينه ، فهو سبحانه فى ذاته أحد .

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ⑤ ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٣) كتاب الصلاة - باب تسوية الصفوف (٢٨) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا المعنى ما أخرجه أحمد فى مسنده (٩٧/٢) وأبو داود فى سننه (١٧٨/١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدى إخوانكم ، ولا تذروا فُرُجات للشيطان »

وفى آية أخرى قال : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه] وهذا الذى تحت الثرى هو الذى يحتاج منّا إلى بحث لنصل إليه ونكتشفه ونُخرجه كما قلنا من عالم الملكوت إلى عالم المُلْك .

هنا قال ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾[الصافات] ، وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج] إذن : الحق سبحانه يُبْقى لألمحية الالتقاط الذهنى من الألفاظ موضعاً ، فما دام هناك مشارق إذن لابد أنْ يقابلها مغارب ؛ لأن الشمس لا تشرق على قوم إلا وتغرب عن آخرين ، إذن : عرفناها باللزوم .

وحين نستعرض هاتين الكلمتين فى كتاب الله نجد أنهما تأتيان مرة بصيغة المفرد ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ۝٩﴾ [المزمل] ، وتأتى بصيغة المثنى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن] ، وتأتى بصيغة الجمع ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج]

ذلك لأنه إذا خاطب الإنسان الواحد فى المكان الواحد قال المشرق والمغرب ، لأن لكل مكان مشرقاً ومغرباً ، فإنْ تعدَّدتْ الأماكن تعددت المشارق والمغارب ، فنحن مثلاً فى القطر الواحد نلاحظ أن مغرب القاهرة غير مغرب الأسكندرية ، فإذا نظرنا إلى كل الأمكنة فى الكرة الأرضية علمنا أن المشارق والمغارب لا تتناهى ، ففى كل نصف ثانية مشرق ومغرب .

لذلك قلنا : من حكمة الخالق سبحانه فى دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس أنها تُوزع مقومات الحياة فى الكون كله ، فلو ظلَّتْ الشمس مواجهةً لمكان واحد لاحترق ، ولو ظلَّتْ غائبة عن مكان لَتجمَّد . ونتيجة هذه الحركة يظل الحق سبحانه معبوداً فى كل

أوان بكل عبادة ، كما سبق أن أوضحنا أنه في اللحظة الواحدة يُصلَّى الصبح عند قوم ، والظهر عند آخرين ، والعصر عند آخرين ، والمغرب والعشاء ، وهكذا على مَدار اليوم والليلة .

أما قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾ [الرحمن] قالوا : المشرقان يعني : المشرق والمغرب ، أو مشرق الصيف ومشرق الشتاء[1]

ثم يقول سبحانه :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩﴾

نعم ، حين ننظر إلى السماء ليلاً نجدها مُزْدانةً بالنجوم تتلألأ ، وفي هذه النجوم عجائب وأسرار عرفها العربي الأُميُّ ، فعرف النجم وعرف اسمه ومكانه وحركته ، واهتدى به في سيره في الصحراء ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ [النحل]

وحين تتأمل هذه النجوم في السماء ترى أن الله تعالى أراد أنْ يرحمنا من حرارة الشمس ، ويُبقي لنا آثار الضوء نهتدي به ليلاً ؛ لأن هذه النجوم إنما تستمد ضوءها من ضوء الشمس .

ثم للكواكب مهمة أخرى :﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ٧﴾[الصافات]

(١) عن ابن عباس قال : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء ، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف ، غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٩٥) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

يعنى : تحفظنا هذه الكواكب من الشياطين ؛ لأنها تنقضّ على الشياطين فتحرقها ، وهذا النوع يُسمُّونه النيازك ، أما زينة الكواكب فباقية لأنها لا دَخْل لها بهذه المسألة ، أما النجوم المخصصة للشيطان المارد ، فلا بُدَّ أنْ تتناقص .

ومعنى (المارد) أى : المتمرد على منهج ربه ، لأنه وارث لإبليس ، يقف من ذريته نفس الموقف الذى وقفه إبليس من آدم ، فإنْ قلْتَ : الله تعالى يريد أن يسود منهجه الكونَ ، ليسود السلامُ والأَمْن والطمأنينة ، فلماذا إذن يخلق الشيطان المارد ؟ نقول : ليُوَصِّل الإيمان فى النفس المؤمنة مع وجود المخالف ، وإلا فما الميزة إذا كان الجميع مؤمنين طائعين ، إذن : لابُدَّ أنْ نُصفى أهل الإيمان ، وأنْ نُمحِّصهم لنعلم أهل الثبات ، لأنهم سيحملون دعوة يظل نداؤها إلى أنْ تقومَ الساعة ، فهذه لا يحملها إلا أولو العزم .

وقوله : ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧ ﴾ [الصافات] جاءت هذه الآيات بعد أنْ أقسم الله بالزاجرات زَجْراً ، وقلنا: من معانيها أن الملائكة تزجر الشياطين عن استراق السمع فى الملأ الأعلى ، حيث كانوا يخطفون بعض الجزئيات ويُلْقونها إلى أوليائهم من الكهنة فيضيف هؤلاء إليها كثيراً من الكذب ليُضلّلوا به الخَلْق .

وقد كَثُر هذا الاستراق قبل بعثة النبى ﷺ ، فلما بُعث ﷺ منعهم الله من استراق السمع ، وسلَّط عليهم الشهب تزجرهم وتنقضّ عليهم ، كما حكى القرآن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ ﴾ [الجن] ذلك تكريماً لرسالة محمد أن يدلِّس عليها تدخُّل الشياطين بشيء يفسد على الناس عقائدهم ، فقال : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② ﴾ [الصافات]

ومن عجائب الزَّجْر أنه يأتى على معنيين . فمعنى : زَجَرْتُ إنساناً يعنى : نهيتُه عن عمل شىء ، أما زجرتُ الدابة يعنى : أحثُّها على السير ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَيَا وَيْحَنَا إلْفَيْنِ بُوعدَ بَيْنَنَا ... فَهَذا لهُ عُشٌّ وَذَلكَ فى عُشّ
فَلَمَّا الحَثّ لِلْوصَالِ صَبَابَتى[1] ... زَجَرْتُ جَوَادى أنْ يطِيرَ ولاَ يَمْشِى

وفى المعنى الآخر ، قال الشاعر :

.... لَمْ يُبْقِ فيـ ... ـنَا لِلْمودَّة مَطْرَحاً
إنِّى زَجَرْتُكَ عَنْ خَنَا[2] ... فَزَجَرْتَنِى أنْ أنْصَحَا

فالزَّجْر يأتى بمعنيين متضادين .

ومعنى ﴿لا يَسَّمَّعُونَ ⑧﴾[الصافات] فَرْق بين سَمِع وتسمَّع : سَمِع يعنى دون قَصْد منه ، إنما تسمَّع يعنى حاول وتكلَّف أنْ يسمع بصرف النظر أنه سمع شيئاً أو لم يسمع .

والمعنى : أن هؤلاء الشياطين مُنعُوا بعد بعثته ﷺ من تسمُّع الأخبار فى الملأ الأعلى ، وهم يحاولون ، لكن تزجرهم الملائكة وتنقضُّ عليهم الشُّهُب .

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧﴾[الصافات] والقذف : الرَّجْم بحيث تكون الضربة نافذة ﴿دُحُوراً ⑨﴾[الصافات] يعنى : مذمومين مطرودين ، والمدحور هو المطرود بإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨﴾[الصافات] يعنى: دائم لا يتغير ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. ﴿٥٢﴾﴾ [النحل] يعنى : دائماً ، فالدين هو هو واحد مع كل الرسل ، ووَصْف العذاب

---

(١) الصبابة : الشوق والعشق . قال ابن الأعرابى : صبَّ الرجل إذا عشق [لسان العرب - مادة صبب] .

(٢) الخنا : قبيح الكلام . والخنا : الفُحْش فى القول . [اللسان - مادة : خنا] .

هنا بأنه دائم ؛ لأنه حِيلَ بينه وبين إنفاذ مهمته في استراق السمع والتقاط الأخبار من الملأ الأعلى .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المعنى : أن بعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها ، وتوصيلها إلى أوليائهم . والخطف نوع من حيازة الملكية بدون وجه حق ، فلكُلٍّ منَّا حيازة وملكية ، ولا يُخرجه عن ملكيته إلا مَنْ يأخذها منه اعتداءً وظلماً ، ولهذا الاعتداء والظلم وسائل متعددة منها : الخطف وهو أنْ يُؤخَذ منك الشيء خَطْفاً يعني بسرعة ، لكن على مَرْأىً منك ولا تستطيع منعه ؛ لأن الشيء بعيد عن متناول يدك ، كالولد الصغير يخطف شيئاً من البائع ويجري به .

فإنْ كان صاحب الشيء قريباً واستطاع الإمساك به فنازعه المعتدي وتغلَّب عليه وأخذه فهو غَصْب ، فإنْ أخذ الشيء دون علم صاحبه فهو سرقة ، أما إنْ كان مؤتمناً على المال وأخذ منه فهو اختلاس .. هذه كلها وسائل لحيازة أموال الغير دون وجه حق .

كذلك يخطف الشيطان بعض الأخبار ويحاول الفرار بها ، لكن هيهات له ذلك ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات] يعني : كوكب ينقضُّ عليه ، ومعنى ﴿ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات] يعني : نافذ يخترق الأجواء ، حتى يصل إلى هدفه في أسرع وقت[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا يُمنع بدايةً من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْقٌ بين أنْ يُمنَع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الجني يجيء فيسترق ، فإذا سرق السمع ، فَرُمي بالشهاب قال للذي يليه : كان كذا وكذا . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٨٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر .

يستفيد منه ، إن الله يُمكِّنه من بعض الأخبار بالفعل فيسمعها ، لكن تُعاجله الزاجرات والشُّهب من كل ناحية ، فتكون حسرته أعظمَ ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقَّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾[الصافات] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، يعنى : سَلْهم ، واستفتى طلب الفتوى ؛ لأن الألف والسين والتاء تدل على الطلب ، والفتوى من الفُتوَّة ، فحين يكون الإنسان بصدد شىء ، يريد أن ينفذه ، ولا يعرف فيه طريق الحق والصواب يذهب إلى مَنْ هو أعلم منه يستفتيه . يعنى : يطلب منه الفتوى أو الفتوَّة ، والقوة الدافعة له على العمل ، فكأنه كان ضعيفاً وأراد أن يَقْوَى برأى غيره .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - استأمنهم أنْ يُفتوا ، وأنْ يجيبوا هم ؛ لأنه سبحانه واثق من أن الخصوم لن يجدوا إلا قَوْلة الحق ينطقون بها ؛ لذلك لم يأتِ سبحانه بالمراد إخباراً ، إنما أتى به إقراراً منهم وشهادة ؛ لأن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أمَّا الإقرار فلا يستطيع أحد إنكاره ؛ لذلك قالوا : الإقرار سيد الأدلة .

ومضمون السؤال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴿١١﴾ ﴾[الصافات]؟ يعنى : أهم وأعظم وأشدّ خَلْقاً من السماء والأرض ، ثم لم يَأْت بالجواب لوضوحه ، ولن يكون إلا أنَّ خَلْق السماء والأرض أشدُّ

من خَلْقهم وأعظم ؛ لذلك قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[غافر]

فإنْ أردتَ أنْ تُدلِّل على هذه المسألة فتأمل خَلْقك وخَلْق السموات والأرض ، فالسماء والأرض مع أنهما يخدمانك ، إلا أنهما أطول عمراً منك وأبقى ، فهما منذ خلقهما الله باقيان لم يزولا ، أما الإنسان فيموت وهو طفل ، ويموت وهو شاب ، ويموت وهو شيخ ، يموت ويترك التركة باقيةً تتوارثها الأجيال .

إذن : هما أشدّ وأقوى ؛ لأنهما مخلوقان خلقة دائمة ، وأقوى من ناحية أنهما محكومان باختيارهما حين قالتا : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت]

فاختارا أن تكونا مُسخَّرتين قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

وقلنا : إن هناك فَرْقاً بين قدرة النفس على تحمُّل الأمانة وقدرتها على الأداء ، فقد تتحمل الأمانة وتنوى أداءها ، لكن لا تضمن نفسك عند الأداء ، فربما تغيَّرتْ الظروف ، أو طرأ عليك ما يحول بينك وبين أدائها ؛ لذلك امتنعت السموات والأرض عن حَمْل الأمانة ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها ، فكانت مُسخَّرة . إذن : فهى أيضاً مُخيَّرة إلا أنها اختارتْ بكلمة واحدة منسحبة على الزمن كله ، أما الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ينفذ أو لا ينفذ .

ثم إن السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات وكواكب وأجرام وأفلاك تسير وفق نظام دقيق مُحكَم ، لا يشذ ولا يتخلف أبداً : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس]

أما الإنسان فيتخبط فى الحياة ، ويخالف منهج ربه ، وينحرف عن الطريق الذى رُسِمَ له . إذن : أيّهما أعظم خَلْقاً ، وأشدّ تكويناً ، وأصحّ أداءً ؟ لا يسع هؤلاء الكفار رغم كفرهم إلا أنْ يقولوا : السماوات والأرض أشدُّ وأعظم من خَلْق الإنسان .

ومثال ذلك حين سألهم الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝٨٧ ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝٣٨ ﴾ [الزمر] لأن هذه كلها حقائق لا تُنكر ، حتى من الكفار .

ثم يسوق لهم الحق سبحانه دليلاً على صِدْق هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ ﴾[الصافات] يعنى : هذا أصلهم ، فأين هم من خَلْق السموات والأرض ؟ ومعنى ﴿ لَّازِبٍ ۝١١ ﴾ [الصافات] يعنى : طين متماسك بعضه ببعض ، فهو وَسَط بين السيولة والصلابة ، يعنى : أشبه ما يكون بطين الصَّلْصَال الذى نوزعه على التلاميذ فى المدارس ، والطين تراب وُضِع عليه الماء ، فإنْ زاد الماء صار الطين لَيِّناً يسيل منْ يدك ، وإنْ قَلَّ الماء جَفَّ وتصلَّبَ .

لذلك وقف المستشرقون عند مراحل التكوين الإنسانى يعترضون : من أىِّ شىء خُلِق الإنسان ، والقرآن قال ﴿ مِّن طِينٍ ۝١٢ ﴾ [المؤمنون] و ﴿ مِّن تُرَابٍ ۝٥ ﴾ [الحج] و﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ ﴾ [الحجر] و﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ ﴾ [الرحمن].وقد غاب عنهم أن هذه مراحل

للشيء الواحد كما قلنا ، فالماء يُوضَع على التراب فيصير طيناً ، ولو تُرِك هذا الطين إلى أنْ يعطن أو يتعفن يصير حمأ مسنوناً [(١)] ، فإنْ تُرِك حتى يجفَّ يصير صلْصالاً .

الحق سبحانه يُحدِّثنا هنا عن الخَلْق الأول للإنسان ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾[الصافات] ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِق من الطين ثم خُلقت بعده حواء ، والقرآن قَصَّ علينا قصة خَلْق آدم ، لكن اكتفى في خَلْق حواء بقوله تعالى :﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

قالوا : ﴿ منها ﴾ يعني من جنس تكوينها ، فيصح أن تكون حواءُ قد خُلقت مثل آدم من الطين ، أو خُلقَتْ من ضلع من أضلاعه ، وفي كلتا الحالتين تعود إلى أصل الطين ، والله تعالى يخلق ما يشاء ، وسبق أنْ بيَّنا طلاقة القدرة في عملية خَلْق الإنسان ، وأنها استوعبت كُلَّ الصور العقلية لهذه العملية ، فالله سبحانه يخلق من لا أب ولا أم ، ويخلق من أب بلا أم ، ويخلق من أم بلا أب ، وقد يجتمع الأب والأم ولا يحدث بينهما إنجاب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إذن : خُلِق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من الطين ، وخُلقَتْ من جنسه زوجه ، ثم جاءت الذرية من آدم بعد أنْ فارق

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنساني أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٢١] .

الطينية وصار إنساناً ، فنحن وإنْ جئنا من نسل إنسان ، إلا أنه يعود في أصله إلى الطين ، فإنْ قُلْتَ : أين الطينية ، وقد تشكَّل شكلاً آخر غير الطين ، بدليل أنه إذا استحم بالماء لا يذوب كما يذوب الطين وتتفكك جزئياته .

نقول : لا بُدَّ أن يرد الإنسان الأصل أو الفرع إلى الأصل الأول وهو الطين ؛ لأن الإنسان يتوالد ويتكاثر بواسطة الحيوان المنوى فى الذكر والبويضة فى الأنثى ، فمن أين يأتى هذا وهذه ؟ من الدم ، والدم نتيجة الغذاء ، والغذاء مصدره الأرض والطين . إذن : سنؤول لا محالة إلى الطين ، لكن من الطين مرة بواسطة ، ومرة بدون واسطة .

والحق سبحانه نبَّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فنحن لم نشاهد عملية الخَلْق ، إنما أخبرنا الله بها ، فعلمنا أن الإنسان خُلِق من الطين الذى مَرَّ بهذه المراحل ، حتى نفخ الله فيه الروح ، ودبَّتْ فيه الحياة ، هذا كله لم نشاهده ، لكن شاهدنا الموت الذى ينقض الحياة ، وعلينا نحن أن نأخذ مما نشاهده دليلاً على صدق الغيب الذى أخبرنا الله به ولم نشاهده .

ونحن نعلم أن نَقْضَ الشيء يأتى على عكس بنائه ، فالذى يهدم عمارة مثلاً من عدة أدوار يبدأ بالدور الأخير ، كذلك يأتى الموت عكس الحياة ، فأول شيء ، تخرج الروح ، ومعلوم أن نَفْخَ الروح فى الإنسان هى آخر مرحلة فى مراحل الخَلْق ، فإذا ما فارقتْ الروحُ الجسدَ عاد إلى أصله ، حيث يرمّ الجسد وتمتص الأرض ما فيه من

الماء ، ثم يتحلل الباقى ويعود إلى التراب الذى جاء منه .

ثم آخر ، هو أن الإنسان الذى خُلق من الطين وقوامه الغذاء الذى يخرج من الطين ، لما حلَّل العلماء جسمَ الإنسان وجدوه مُكوَّنا من ١٦ عنصراً . أولها : الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النتروجين .. الخ . وهى نفس العناصر المكوِّنة للتربة الزراعية الخِصْبة التى تعطينا القوت ، إذن : يكون هذا دليلاً على صدْق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) ﴾ [الصافات]

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾

معنى (بَلْ) إضراب عن الكلام السابق وبداية لكلام جديد (عَجِبْتَ) بالفتح أى : يا محمد . والعَجَبُ : هو استغراب وقوع شىء على خلاف نظائره ، ومن ذلك قوله تعالى فى العقائد : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعنى : كيف يحدث منكم الكفر بعد أنْ فعلنا بكم ذلك ؟ هذا شىء مُسْتغرب ، ومسألة عجيبة . يعنى : جاءت على خلاف ما يُنتظر منكم .

لكن من أىِّ شىء عجب النبى ﷺ ؟ عجب من إنكارهم ومن كفرهم ، مع وضوح الأدلة الدامغة على صدْق قضية الإيمان . وقد سُقْنا لهم الدليل تِلْو الدليل ، ومع ذلك كذَّبوا ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً نبيه ﷺ فى موضع آخر : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ .. (٥) ﴾ [الرعد]

يعنى : وافق الله محمداً على أنْ يعجب . والمعنى : إنْ تعجب يا محمد فقولهم عَجَب . لكن عجب عند مَنْ ؟ يجوز عجب عند رسول الله ، ويجوز عجب عند الله تعالى ، إذن : هل يعجب الله تعالى كما نعجب ؟ قالوا : نعم ، بدليل أن فى هذه الآية قراءةً بالضم (بل عجبتُ)[1] بتاء المتكلم سبحانه ، وبدليل ما ورد فى الحديث الشريف : « تعجب ربك من شاب ليست له صَبْوة »[2]

لماذا ؟ لأنه خرج عن طبيعة التكوين الإنسانى ، أو قدر على نفسه وتحكم فيها ، بحيث لم يفعل ما يفعله الشباب ، فهذا شىء مستغرب منه ، ومعنى تعجب الحق سبحانه من هذا أنه يستغرب منه هذا العمل ؛ ليجازيه جزاءً مُستغرباً كذلك .

وسبق أنْ قُلْنا : إذا وُجدت صفة مشتركة بيننا وبين الحق سبحانه ، فعلينا أن نأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]

وقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك إياك أن تقول : الله خادع أو الله ماكر ؛ لأن هناك فَرْقاً بين

---

(١) قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبى ﷺ ، وهى قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال : إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء . واختارها أبو عبيد والفراء وهى مروية عن على وابن مسعود . قال الفراء : الرفع أحب إلىَّ ، لأنها عن على وعبد الله وابن عباس . والعجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد . [تفسير القرطبى ٥٧٠٨/٨] بتصرف .

(٢) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » . أخرجه أحمد فى مسنده (١٥١/٤) وابن أبى عاصم فى السنة (٢٥٠/١) . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٧٠/١٠) وعزاه لأحمد وأبى يعلى والطبرانى وقال : إسناده حسن .

أسماء الله تعالى وأفعال وصف الله بها نفسه سبحانه . فالمكر مثلاً من أفعال البشر يُراد به خداع الخصم والتخييل عليه ، لتستطيع أنت أنْ تنفذ إلى غَرَضك منه ، وهذا المكر يقابله مكْر مثله يشاكله أو أمكر منه .

والمكر مأخوذ من قولهم شجرة ممكورة ، وهي شجرة ذات عيدان ملفوفة بعضها على بعض ، بحيث لا تستطيع أنْ تميِّزها ، ولا أنْ تردَّ كل فرع فيها إلى أصله ، كذلك المكر فيه لفٌّ وحيل لتستر سيئاتك عن خَصْمك ، هذا في مكر البشر بعضهم ببعض ، لكن إنْ مكر الله بك فلن ينجيك من مكره شيء ؛ لذلك قال سبحانه :﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصافات] السخرية هي الاستهزاء من الشيء ، والمعنى أنك تعجب يا محمد من نكرانهم وتكذيبهم مع وضوح الأدلة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴿١٣﴾ ﴾[الصافات] يعني : بآيات أخرى وبراهين ترشدهم ﴿ لا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصافات] أي : يُعرضون عنها ، ولا يلتفتون إليها ، ويصرون على الإنكار ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] أي : دليلاً جديداً ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] أي : يبالغون في السخرية .

ففي الآية قبل السابقة قال : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[الصافات] وهنا ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] هذا دليل على أن من هؤلاء المكذبين أناساً ترقُّ قلوبهم لآيات الله وللأدلة الإيمانية ، وحين ترقُّ قلوبهم تخفّ لديهم نزوة الكيد لمحمد ، فيكتفون بالتكذيب دون السخرية ؛

لأن الإباء يأتى على درجات ، فواحد يأبى أنْ يفعل ما تأمره به ، وآخر يأبى أن يفعل ويسخر منك .

فهؤلاء الذين يسخرون لا يكتفون بالسخرية من رسول الله ، إنما ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] يعنى : يطلبون ممَّنْ لا يسخر لَنْ يسخر ، يعنى : يستسخرون غيرهم ، إذن : هناك فَرْق بين يسخرون ويستسخرون ، حتى لا نقول كما يقول بعض المستشرقين : هذا تكرار فى كلام الله .

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

معنى ﴿ إِنْ هَٰذَا (١٥) ﴾[الصافات] ما هذا إلا سحر ﴿ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الصافات] يعنى : واضح ، والسحر كما قلنا تخييل شىء غير واقع ، فيُخيَّل إليك أنه واقع ، فالسحر لا يغير حقيقة الشىء ، إنما يسحر الناظر إليه ، كما قال تعالى فى سحرة فرعون : ﴿ .. سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ (١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : أين السحر من دعوة محمد ﷺ ، ومن قضية الإيمان التى يدعو الناس إليها ؟ والرد على هذه الفرْية سهل وواضح : إذا كانت عند محمد القدرة على أن يسحر الناس ، فيؤمنوا بدعوته ، وسحر هؤلاء الذين آمنوا فلِمَ لم يسحركم أنتم ؟ إذن : هذا اتهام باطل لا معنى له .

ثم يعودون مرة أخرى إلى مسألة البعث ، ليسألوا عنها سؤالَ إنكار واستبعاد ، وهى أصل من أصول الدين لا يستقيم الإيمان إلا بها :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ[1] (١٨) ﴾

عجيب منهم إنكار البعث بعد ما سُقْناه إليهم من أدلة ، حتى إنْ أنكروا أدلتنا وكذَّبوا بها ، ألم يسمعوا من الأمم السابقة والرسالة التى مَضَتْ أن البعث حَقٌّ ؟ إذن : هو العناد والاستكبار عن قبول الحق .

لذلك ، فالقرآن الكريم يضرب لهم مثلاً ودليلاً على صدْق الإخبار بالبعث ، ويسوق هذه القصة من الأمم السابقة فى سورة البقرة :﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[2] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[3] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

هذه قصة واقعية ؛ لأن القرآن حكاها لنا عن الأمم السابقة ؛ لتكون دليلاً على قدرة الله على بَعْث الموتى ، وهى قصة رجل باحث

---

(١) داخرون : أذلاء صاغرون منقادون لأمر الله تعالى .[القاموس القويم ١/٢٢٢]

(٢) سنه الطعام يسنه : تغيَّر بعد مُضىّ زمن عليه .[القاموس القويم ١/٣٣٢]

(٣) أنشز الشىء : رفعه وأبرزه وأقامه . أى . نرفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمى كامل ثم نكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان . [القاموس القويم ٢/٢٦٧] .

عن الحقيقة ، جعله الله مثالاً ونموذجاً لنفسه أولاً ، ولمن جاء بعده ، فلما مَرَّ على القرية وهى على هذا الحال من الخراب استبعد أنْ تحيا بأهلها مرة أخرى ، فأماته الله ليُريه كيف يحيى الموتى .

وصدق الرجل فى قوله ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] وصدق الله فى قوله ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة] كيف ؟ لأن عظام الحمار التى تحولت إلى تراب دلَّتْ على المائة عام ، وطعامه الذى لم يتغير دَلَّ على يوم أو بعض يوم ، وهذا ليس عجيباً ، ما دام أن الفاعل هو الله عز وجل القابض الباسط ، فهو وحده القادر على أنْ يجمع بين الضِّدَّيْن ، فيقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

الم يأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب بعصاه البحر ، فصار الماء كُلُّ فرْق كالطود العظيم ، وأمره أنْ يضرب بعصاه الحجر ، فانبجست[1] منه اثنتا عشرة عَيْناً ؟ إذن : هى طلاقة القدرة .

وعجيبٌ منهم أيضاً أنْ يسألوا عن الآباء ، مع أن قضية البعث واحدة ، فقولهم ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات] دليل على تخبُّطهم ، أو ربما فهموا أن الذى سيموت حديثاً (طازة) يعنى : هو الذى سيُبعث ، أما القديم فبَعْثه غير ممكن .

ويردُّ الله عليهم (قُلْ) يعنى : قل لهم يا محمد بملءْ فيكَ (نَعَمْ) يعنى : ستُبعثون ، والنبى يقولها قَوْلة الواثق ؛ لأنه مأمور بها من قبَل الله القادر على أنْ يبعث الخَلْق ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الصافات] يعنى : ستُبْعَثون حال كونكم ﴿دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الصافات]

---

(١) انبجست : تفجرت ونبعت فى قوة . [لسان العرب - مادة : بجس].

يعنى: صاغرين أذلاء خاضعين ، جزاءَ اللَّدَد والعناد والاستكبار على قبول الحق فى الدنيا ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ (١٩) ﴾ [الصافات] أى : مسألة البعث ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٩) ﴾ [الصافات] صيحة[1] واحدة ، أو نفخة واحدة كافية لأن تُخرجهم من قبورهم ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] لا أننا سنذهب إلى كل واحد منهم ونوقظه (اصحى يا فلان) إذن : البعث الذى تكذِّبون به أمرُه يسير علينا ، ولا يُكلِّفنا شيئاً .

والصيحة فى ذاتها لا تبعث الموتى ، إنما هى مجرد إذْن للملَك ، بأن يباشر مهمته ، فهى مثل الجرس الذى يُبْدأ به العمل ، فبعد الزَّجْرة ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] هكذا مباشرة ؛ لأن إذا هنا تدل على المفاجأة ، فالأمر لن يستغرق وقتاً ، وأول ما يقومون من القبور ينظرون أى : هنا وهناك ؛ لأنهم سيروْنَ أمراً عجيباً لا عَهْدَ لهم به ، وسيُفاجئهم ما كانوا يُكذِّبون به فى الدنيا .

لذلك حكى القرآن عنهم فى آية أخرى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢) ﴾ [السجدة] وهى أول آية فى القرآن يتقدم فيها البصر على السمع ؛ لأنهم أول ما يفاجئهم منظرٌ جديد لم يَرَوْهُ من قَبْلُ ، فينظرون إليه .

---

(١) قال الحسن البصرى : هى النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر. أى : يُزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوْق . [تفسير القرطبى ٨/ ٥٧١٠].

فـإذا ما عـاينوا هذا المنظر ، قـالوا : ﴿يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصـافات] هم الذين يقولون ، وهم الذين يدْعُـون على أنفسـهم بالوَيْل والثبـور ، لا نقـولهـا نحن ويلكم ، بل يقولونها هم ﴿يَـٰوَيْلَنَا ۝٢٠﴾ [الصافات] يعنى : احضر ، فهذا أوانك ؛ لأنهم الآن تكشَّفَتْ لهم الحقائق وبَانَ كذبُهم وفسادُ تفكيرهم ، وما كـانوا فيه فى الدنيـا من اللَّدَد والعناد ، وأول ما يتبـين للإنسان فسادُ تفكيره وسوء عمله أوَّل ما يلوم يلوم نفسه ، فيدعو عليها .

وقولهم : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠﴾ [الصافات] يعنى : يوم الجزاء على الأعمال ، هذا الـجزاء الذى لم يؤمنوا به فى الدنيا ، ها هم يعـترفون به ، أو ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠﴾ [الصـافـات] يعنى : هذا هو اليـوم الذى ينفع فيه الدين ، كما تقول لولدك وهو مُقبل على الامتحان : هذا يوم المذاكرة . يعنى : اليوم الذى لا تنفعك فيه إلا مذاكرتك .

ثم يقولون : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝٢١﴾ [الصافات] ثم يعترفون ﴿الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصـافات] والفصـل لا يكون إلا فى الخصـومة ، والخصـومة هنا كانت بين الرسل وأقوامهم المكذِّبين لهم والمعاندين ، ومـثْل هذه الخـصومـة لا يُنهـيـهـا الجدل ؛ لأن المكـذبين لديهم لدَد وعناد ، وقد لا يُنهيها السيف حتى يموت الظالم دون أنْ يقتصَّ منه .

إذن : لا بُدَّ أنْ يأتى يوم للقصاص وللفـصل فى هذه الخـصومات ؛ لذلك قـال أحدهم : والله لا يمـوت ظلوم حتى ينتـقمَ الله منه ، فـقال الآخر : كيـفَ وفلان ظلم كثيـراً ولم نَرَ فيه شيـئاً ؟ قال : والله ، إن وراء هذه الدار داراً أخرى يُجَازَى فيها المـحسن بإحسانه ، والمسىء بإسـاءته .

نعم ، لا بُدَّ من هذا اليوم ، وإلا لَـكانَ الظالم أحظَّ من المظلوم .

﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ[1] وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ (٢٤) ﴾

أي : اجمعوا كل هؤلاء معاً في النار ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] إذن : المحشور ثلاثة : الذين ظلموا جزاءَ ظلمهم ، وأزواجهم ، وما كانوا يعبدونه من دون الله . قلنا : الزوج يعني المفرد ومعه مثله . فلا نقول على الرجل والمرأة زوج ، إنما زوجان ، الرجل يسمى (زوج) والمرأة تسمى (زوج) ، لا أن الزوج يعني الاثنين كما يظن البعض ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يُسمَّى توأم ، وهما معاً توأمان ؛ لذلك قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فلو أن الزوج يُطلق على الاثنين لقال : أربعة أزواج .

ومعنى كلمة ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ (٢٢) ﴾ [الصافات] أي : أزواجهم في الدنيا ، كالزوجة التي تعين زوجها على الظلم ، كامرأة أبي لهب ، التي قال الله في حقها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

---

(١) الزوج هنا بمعنى الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض ، كالرطب واليابس والذكر والأنثى . [القاموس القويم ١/٢٩١] . وقد أورد القرطبي في تفسيره [٨/٥٧١٢] عدة معان لكلمة أزواج في الآية :

- « يحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية .
- يحشر الزاني مع الزاني ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . قاله عمر بن الخطاب
- يحشر معهم نساؤهم المرافقات على الكفر . قاله مجاهد والحسن .
- يحشر معهم قرناؤهم من الشياطين ، قاله الضحاك ومقاتل بنحوه » .

وخلاصة القول في معنى (أزواجهم) : أشباههم وأمثالهم .

﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

أو يُراد بأزواجهم أشكالهم ونظائرهم وقرناءهم الذين أضلُّوهم وأغووْهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ.. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : الأصنام التى عبدوها من دون الله ، تُحشَر معهم فى النار ، ليَروْا آلهتهم التى عبدوها وتعلّقوا بها تسبقهم إلى النار ، فينقطع أملهم فى النجاة وبيان لفساد تفكيرهم ، حيث عبدوا أصناماً لا تضرُّ ولا تنفع ، وهذا توبيخ لهم ؛ لذلك يمتدُّ هذا التوبيخ بعنف فى قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] وهل القذف فى النار هُدىً ؟ والمعنى : دُلُّوهم على طريق جهنم ، يعنى : سخريةً منهم وتهكماً بهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : احبسوهم للسؤال وللحساب ، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً ، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُناقش ، قالوا : فى السؤال تبكيت النفسِ للنفس قبل أن يُبكِّتهم الله الذى كفروا به ، يعنى : ساعةَ يعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم ، ويندمون ساعةَ لا ينفعُ الندم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهذا الاستفهام أيضاً على سبيل السخرية والتهكُّم ، يعنى : ما لكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تَناصرون فى الدنيا ،

---

(١) الجيد : العنق . المسد : الحبل من الليف أو الخوص أو الشعر أو الوبر . وهو الحبل المضفور المحكم الفتْل ، قد لُوِى ليّاً شديداً . [لسان العرب – مادة : مسد] .

الاتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الاتبـاع ، وما أشبههم فى هذا المـوقـف بالمـثل القـائـل : وافق شنٌّ طبـقـه ، أو قــولنا (اتلم المتعوس على خايب الرجا) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أى : خاضـعين منقادين أذلاَّء مُهـانين ، ونحن نقول : رفع الراية البيـضاء . يعنى : لم يَعُدْ لديه شيء من القوة يدافع بها عن نفسه ، ولا حجة ولا منْطق ، إنه الآن قاعد فى ذِلَّة وصَغَار ، ينتظر أمر الله فيه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾

تأمل هذه المواجهة بين التابع والمتبوع ، بعد أنْ ظهرت خيبة الجميع وتكشَّفَتْ الحـقائق التى طالمـا أنكروها فى الدنيا وكـذَّبوا بها ، إنهم الآن يُلْقى كل منهم بالمسئولية على الآخر ، ويتساءلون فيما بينهم .

﴿ قَالُوا (٢٨) ﴾ [الصـافات] أى : الأتباع ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَـمِينِ (٢٨) ﴾ [الصـافات] اليمـين يعنى من جهـة اليمـين ، واليمين منـه اليمن والتيمن ، واليمين جهة الخير ؛ لذلك أمرنا النبى ﷺ بالتيمُّن[1] فى كل شيء ، فبهـا نُسلِّم ، وبها نأكل ونشرب ، ونتناول الأشـياء ونكتب ، لأنها مُشرَّفة مُكرَّمـة ، حتى العرب قديماً كانوا يتفاءلون بـجهة اليمين لو طار الطيرُ ناحية اليمين .

(١) أخرج البخـارى فى صحيحه (١٦٨ ، ٤٢٦ ، ٥٣٨٠) من حديث عـائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يعجبه التيمن فى تنعله وترجله وطهوره ، فى شأنه كله .

واليمين أيضاً من معانيها أنها مصدر القوة في الفعل ، وغالبية الناس يستخدمون اليمين ، وهي عندهم الأقوى ، وقد سُئلنا مرة عن الذين يعملون بالشمال : هل ننهاهم عن ذلك ؟ نقول : العمل باليمين أو اليسار ليس مجرَّد تعوُّد ، إنما هو تكوين طبيعي في الجسم ، ففي الجسم مركز يتحكم في توزيع القوة ، فبعض الناس يميل مركز القوة عندهم ناحية اليمين ، فتكون يمينه أقوى من شماله ، وبعضهم العكس ، وبعضهم يتساوى عنده مركز القوة ، فيعمل باليمين ويعمل باليسار بنفس القوة ، وهذا يُسمُّونه (الأضبط)[1] مثل سيدنا عمر رضي الله عنه .

ومن معاني اليمين أيضاً الحلف والقَسَم . وهذه المعاني كلها واردة في معنى هذه الآية ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] يعني : من جهة الخير والحق لتصرفونا عنه ، أو من ناحية البطش والقوة لتجبرونا على الفعل ، أو بالحلف يعني : تحلفون لنا أن هذا هو الطريق الصحيح ، لا طريق غيره .

ويرد المتبوعون على التابعين ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الصافات] يعني : ما أخرجناكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم بطبيعة الحال غير مؤمنين ، وبمجرد أنْ أشرنا إليكم سِرْتم خلفنا وتابعتمونا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات] والسلطان إما سلطانُ قوة يقهركم على الفعل ، وإما سلطان حجة يقنعكم بالكفر ، فليس لنا عليكم لا سلطانُ قوة وقهر ، ولا سلطان حجة وإقناع .

﴿ بَلْ كُنتُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات] بطبيعتكم ﴿ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات] أي : متجاوزين للحدِّ في الكفر وفي الضلال . وهذه تعليمة إبليس يقولها

---

(١) الأضبط : هو الذي يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . قاله أبو عبيد . وهو الذي يقال له أعسر يَسَرٌ . [لسان العرب – مادة : ضبط]

لأتباعه فى الآخرة حين يتبرأ منهم ويُلقى عليهم مسئولية كفرهم ، كما حكاه القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾

معنى ﴿ فَحَقَّ (٣١) ﴾ [الصافات] أى : وقع ووجب ﴿ عَلَيْنَا (٣١) ﴾ [الصافات] أى : جميعاً التابع والمتبوع ، الجميع وجب له العذاب ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا المعنى ورد فى القرآن بأساليب ثلاثة : ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤٠) ﴾ [هود] ، و ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ (٧) ﴾ [يس] ، و﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل]

فقد سبق منَّا أنْ أخبرنا بحدوث الشيء ، وقد تحقق بالفعل ما أخبرنا به وتحقُّقه بوَقْع يعنى : بقوة وبشدة . وقالوا : إن كلمة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل] لم تُستخدم إلا فى الشرِّ ، ما عدا مرة واحدة استُخدمت فى الخير ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ..(١٠٠) ﴾ [النساء]

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات] ولم يقولوا مُعذَّبون أو مُحرَّقون ، لأن العذاب أو الإحراق يمكن أنْ ينتهى فى وقت من الأوقات ، أما الإذاقة فهى دائمة ومستمرة ، وهذا المعنى

واضح فى قولــه تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جلوداً غَيْـرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقد اكتـشفنا مُؤخَّراً أن الجلد هو مركـز الإحساس لا المخ ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً تشعر بالألم بمجرد أن تنفذ الإبرة من منطقة الجلد ، وبعد ذلك لا تشعر بالم ، هذه الحقيقة قررها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْـرَهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] لماذا ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] فإذاقة العذاب فى نفس الجلد .

وقولهم : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصـافـات] أى : دَلَلْناكم على طريق الغواية والضلال ، والغاوى هو الذى ضلَّ طريق الخير والحق ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصـافات] والمعنى : إنْ كُـنَّا نحن ضالين غاويـن ، فلماذا نتركـكم للهداية وللإيمـان ، لا بُدَّ أنْ تشربوا مـعنا من نفس الكأس ، وهذا منطق أستـاذهم إبليس ، فلما عصى وطُرد من رحمـة الله أقسم أنْ يُضلَّ معه ذرية آدم ، ليكونوا مثله فى الضلال .

ثم يُنهى الحق سـبحانه هذه المـواجهة بين أهل البـاطل ، ويقرر هذه الحقيقة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : يوم القيامة ﴿ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات] وهذه سُنَّتنا فى أهل الضلال ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الصـافات] والمجـرم هو الذى يُكذِّب بقـضيـة الإيمان الأولى ، وهى التوحيد ؛ لذلك يصفهم الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) نضجت جلودهم : المراد احترقت . [القاموس القويم ٢/٢٧٠]

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : الكفار الذين وُصفُوا بالإجرام ﴿ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات] أىَ : يستكبرون عن قبولها والتصديق بها ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : منصرفون عن عبادتها ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات] أى : من أجله ، ومن أجل دعوته .

وعجيب من العرب وهم أمة كلام يُقدِّرون الكلمة ويتذوَّقونها ، ويجعلون لها أسواقاً ومعارض ، ويُكرِّمون الشعر والشعراء ، لدرجة أنهم علَّقوا أجود قصائدهم على أستار الكعبة ، عجيب من قوم هذا حالهم أنْ يقولوا ﴿ آلِهَتِنَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات] وهم يعلمون تماماً معنى الآلهة ومعنى العبادة ، فالإله يعنى المعبود فبأى حَقٍّ عُبِدَتْ الأصنام ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شىء نهتْكم ؟ ما المنهج الذى جاءتكم به ؟

نعم هم يعلمون أنها جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، لكن عبدوها بفطرة التديُّن فى الإنسان ، فالإنسان بطبعه مُتدين يحب أن يستند إلى قوة أعلى منه يلجأ إليها عند الشدة ، قوة تعينه على التجلُّد والتصبُّر للأحداث ، وقد وجدوا فى هذه الآلهة أنها آلهة بلا تكاليف وبلا متطلبات ، فعبدوها من دون الله .

ثم عجيبٌ منهم وهم أمة كلام ألاَّ يفرقوا بين كلام الله فى القرآن وبين الشعر ، وهم أعلم الناس به وبأوزانه وقوافيه ، فأين الشعر من كلام الله فى القرآن ؟ ثم عجيب منهم أنْ يتهموا رسولَ الله بالجنون ، وهم أعلمُ الناس به وبأخلاقه وصفاته وسيرته فيهم قبل بعثته ، وما أبعدَ الجنون عن الذى جمع محاسن الصفات وكريم الأخلاق !!

الجنون أنْ يتصرّف المجنون بجوارحه تصرُّفاً لا يمرُّ على العقل ، المجنون لا يفاضل بين الأشياء ، ولا يعرف الضَّارَّ من النافع ،

المجنون ليس له خُلُق ، لذلك يردُّ الحق عليهم ويدفع عن رسوله اتهاماتهم ، فيقول : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

لذلك يقول تعالى هنا : (بل) وهى للإضراب عن الكلام السابق ، يعنى : دَعْكَ من هذا الهُراء ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ (٣٧) ﴾ [الصافات] بالشىء الثابت الذى لا يتغير ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾ [الصافات] صدق مَنْ سبقوه من الرسل فى منهج الله .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟(١) ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾

فى الآيات السابقة قال سبحانه حكايةً عن الظالمين قولَ المتبوعين لأتباعهم : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات] وهنا يؤكد هذا المعنى ، إلا أنه يُصرِّح هنا بنوع الإذاقة ﴿ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) ﴾ [الصافات] وهذا العذاب الأليم ليس ظلماً ولا تعدياً ، إنما جزاء ما قدَّمتم : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾ [الصافات] .

وبعد الحديث عن أهل الكفر واللَّدَد وأهل الإجرام والعناد ، وبيان مصيرهم ، وما ينتظرهم من الجزاء يُتبع الحق سبحانه هذا بالحديث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا العبادة لله ، والجمع بين المتقابلين أسلوب من أساليب القرآن ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾[الانفطار] وبضدِّها تتميز الأشياء ، والشىء بعد

---

(١) حذفت النون من (ذائقون) تخفيفاً ، وأضيفتْ لما بعدها . القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧١٥) .

ذكر مقابله يتبين حُسْنه ، كما قال الشاعر[1] واصفاً محبوبته :

فَالوَجْهُ مِـثْـل الصُّبْح مُبْيضٌ   والشَّـعْر مثْـلُ الليْـل مُسود
ضِدَّانِ لَمَّا استجْمـعَا حَسُنَا   والضدُّ يُظهرُ حُسْنَهُ الضدُّ[2]

لذلك يذكر الحق سـبحانه مـا أعدَّه للمؤمـنين المخلصين ، بعـدما ذكره من جـزاء الظالمين المكذِّبين ، لينشىء الـحسرة فى نفـوسهم ، فتكون عذاباً جديداً يضاف إلى عذابهم فى النار.

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ[3] مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[4] (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ[5] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾

---

(١) هو : أبو الشيص الخـزاعى ، محمد بن على بن عبـدالله ، شاعر سريع الخـاطر رقيق الألفاظ ، ولد (١٣٠ هـ) ، من أهل الكوفة ، غلبه على الشهرة مـعاصراه صريع الغوانى وأبو نواس. هو ابن عم دعبل الخزاعى ، عَمى فى آخر عـمـره ، قتله خـادم لعقـبة فى الرقـة (توفى ١٩٦هـ) . [الموسوعة الشعرية]

(٢) البيتان من قصـيدة لأبى الشيص الخـزاعى من بحر أحذّ الكامل ، عـدد أبياتها ٦٦ بيـتاً ، ولكن لفظ البيت (منبلج) وليس (مبيض) .

(٣) مـمـا ورد فى هذا مـا ذكـره ابن القـيـم فى كـتـابه « حـادى الأرواح إلى بلاد الأفـراح » (ص٢٤٥) وعـزاه لابن أبى الدنيا من حـديث أنس أن رسول الله ﷺ قـال : « إذا دخل أهل الجنة الجنةَ فيشتـاق الإخوان بعضهم إلى بعض . قال : فيسـير سرير هذا إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعـاً ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا فى موضـع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا .

(٤) قال الزجـاج : (بكاس من معـين) أى : من خمـر تجرى كـما تجـرى العيون عـلى وجه الأرض ، والمعين : الماء الجارى الظاهر . [القرطبى فى تفسيره ٥٧١٧/٨].

(٥) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٨٧/٧) عن قتادة : (لا فـيها غول ولا هم عنها ينزفون) قال : لا تُذهب عقولهم ، ولا تصدع رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم ، عزاه لعبد الرزاق وابن =

سبق الحديث عن جزاء الكافرين ، وهنا استثناء ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الصافات] فهم مُستثنون بعيدون من هذا المصير ، وكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الصافات] جمع مخلَص بالفتح ، فهى اسم مفعول . يعنى : الذين أخلصهم الله واصطفاهم لطاعته وعبادته ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾ [الصافات] أى : فى الآخرة لأن رزق الدنيا ليس معلوماً ؛ لأنك تكدُّ وتتعب فى الدنيا ، وقد تُحرَم ثمرة هذا الكدِّ ، فالزراعة قد تبور ، والتجارة قد تخسر .

إذن : لنا رزق فى الدنيا ، لكنه غير معلوم ، أما فى الآخرة فرزْقُكَ معلوم مُخصَّص لك لا يتخلف أبداً ، ولا تحول دونه الأسباب ؛ لأنك تعيشُ فى الآخرة - كما قلنا - مع المسبِّب سبحانه .

وسبق أنْ عرّفنا الرزق وقلنا : إنه كلُّ ما يُنتفَعُ به ، حتى ما يُؤخذ من الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۝١٧٢﴾ [البقرة]

ثم ينتقل السياق إلى تفصيل ما أجمل فى كلمة (رزق) . وأهم رزق ينتفع به المرء هو القُوت الضرورى الذى به قِوَام حياته ، ثم التفكّه بما يُرفِّه هذه الحياة ، لكن الحق سبحانه هنا لم يذكر الضروريات ، إنما ذكر الترف الزائد على الضروريات ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢﴾ [الصافات] مع أنه فى مواضع أخرى ذكر الضروريات ، ثم أتبعها بالفاكهة والتَّرَفيات ، مثل قوله سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ

= أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم .

- وعن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقيء والبول . فنزَّه الله خمر الجنة عنها (لا فيها غول) لا تغول عقولهم من السُّكْر (ولا هم عنها ينزفون) لا يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها ، والقيء مستكره . عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٨) لابن أبى حاتم وابن مردويه .

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ [يس]

إذن : لماذا اقتصر الكلام هنا على الفاكهة فحسب ؟ قالوا : لأن الكلام هنا عن الآخرة ، والأكل في الآخرة لا يكون عن حاجة إلى الطعام ، إنما يكون متعة وتفكُّهاً بالأكل . أو : يكون المراد أن الله تعالى ما دام قد ضمن لك التفكُّه ، فمن باب أولَى ضمن لك القُوتَ الضرورى .

ومعنى ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) ﴾ [الصافات] أى : أنهم لا يُرْمَى لهم الأكل ليأكلوا ، كما نرمى الحشيش للبهائم مثلاً ، لا نقصد بذلك إكرامهم ، إنما يُسَاق لهم هذا الرزق ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات] لأنه رِزْقُ المحبِّ لأحبابه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) ﴾ [الصافات] يعنى : لا يكلِّفهم مشقة التزاور ، فالسُّرُرُ التى يجلسون عليها متقابلةٌ ، بحيث إنْ أردتَ أنْ تزورَ أخاً لك تجده أمامك ، دون أن تنتقل إليه ، فهذه مسألة مضمونة .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى بيَّن سبحانه الذين يطوفون بهذه الكأس ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) ﴾ [الواقعة]

الكأس يُرَاد بها الخمر أو القدح الذى يُوضَع فيه الخمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] يعنى : من شىء تراه بعينيك ، أو من عيون تجرى كما تجرى عيون الماء . ثم يصف هذه الخمر بأنها (بيضاء) والبيضاء هى أصفَى أنواع الخمر عند العرب .

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ لذيذة . إنما (لَذَّةٍ) أى :

هى فى ذاتها لذّة ، وكأن اللذة تجسدتْ فى هذه الكأس ، كما تقول : فلان عادل . فإنْ أردتَ المبالغة فى هذا الوصف قُلْتَ : فلان عَدْلٌ .

ووصف الخمر فى الآخرة بأنها ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) ﴾ [الصافات] ليُفرِّق بينها وبين خَمْر الدنيا ، لأن خمر الدنيا كما نراهم يشربونها فى الأفلام لا تُشرَب للذة ، لأنه يضع القليل منها فى الكأس ، ثم يصبُّها فى فمه صبّاً ، ويتناولها على مَضَضٍ لكراهية طعمها .

لكن طالما أن خمر الدنيا لا لذَّةَ فى تعاطيها ، فلِمَ يشربونها ؟ يشربونها للأثر الذى ينشأ منها من اختلال العقل الذى يُعَدُّ حارساً على الحركة ، وهم يريدون الانطلاق والحرية من هذا الحارس ؛ لذلك فأجودُ أنواع الخمر عندهم والعياذ بالله ، هذه التى تُغيِّبه عن وَعْيه ، وتفعل به كذا وكذا .

أما خمر الآخرة فلا يجمعها بهذه إلا اسمها فحسْب ، خمر الآخرة لذَّةٌ ، تشعر بها حين تتناولها ، وتأخذها رشفةً رشفةً على مهل لتتذوَّقَ حلاوتها ، ثم هى لا تذهب بالعقل ولا تغتاله ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى : لا تغتال العقول ، ولا تذهب بها .

﴿ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] نقول : انزف الحوض . يعنى : أفرغه من الماء بالتدريج إلى نهايته ، ونزفَ الدمُ يعنى : سَالَ من الجسم واحدة واحدة ، إلى أنْ يموتَ الإنسان .

ومن أنواع الخمر ما يُسبِّب نَزْفاً لما فى البطن ، بحيث يفرغ شاربها كل ما فى بطنه ، ويُخرِج كلَّ ما فى جَوْفه . أما خمر الآخرة فلا تُسبِّب هذا النزف .

أو : يكون المعنى ﴿ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى :

لا تُستنزف عقولهم ، ولا يَسْكَرون بسببها ، كما تُسكر خَمْر الدنيا[1] .

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا وَصْف لنساء الجنة فهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تغضّ بصرها ، فلا تنظر إلى غير زوجها ، وقلنا : إن أغلى ما يتملّكه الإنسان يمكن أنْ يهبه لغيره ، فأنت تُعيرُ صاحبك سيارتك مثلاً أو بيتك أو ثوبك .. الخ

أما المرأة فهى الشيء الوحيد الذى لا تقبل مجرد النظرة إليها ، لمَا لها من خُصُوصية ومنزلة ، كذلك تحبُّ من زوجتك ألاَّ تمتدَّ عَيْنُها إلى غيرك ، وهذه من صفات أهل الجنة فَهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] تقصر نظرها على زوجها ، وهُنَّ كما فى آية أخرى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : مأسورات محفوظات لأزواجهن .

فالحق سبحانه يحفظ حُسْن المرأة ، ويحرص على التكوين العفيف فى المجتمع ، ليأتيَ النسلُ شريفاً طاهراً ، وهذه المقاييس التى للمؤمنة فى الدنيا هى كذلك فى الآخرة ، فكأن الحق سبحانه يُطمئن الأزواج على هذه الخصوصية ، ويؤكد أن الزوجة فيها لا يشاركه فيها أحد ، ولو حتى بالنظرة .

---

(١) عن ابن عباس قال : (لا ينزفون) : لا يسكرون . ومجاهد : لا تذهب عقولهم . (أخرجه هناد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم) . وعن سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى . (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم) . أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٨) .

ومعنى ﴿ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] عين جمع عَيْناء . يعنى : واسعة العينين مع حُسْنهما ، وهذه من علامات الملاحة والحُسْن فى المرأة عند العرب ؛ لذلك من المقاييس التى وضعوها للجمال أنَّ العين تكون واسعة ، والفم ضيق ، بحيث إذا قِيسَتْ عينها بفمها ، كانت عينُها أوسع .

ومعنى (عندهم) يعنى : فى حَوْزتهم ؛ لأنها من مَتَاع الجنة ، فمَن اشتهى منهن شيئاً وجده وإلاَّ ترفَّع عنها ، لكن هى موجودة عندهم .

ثم يصفهُنَّ سبحانه بقوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات] كلمة ﴿ بَيْضٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات] جمع بيضة ، والمراد بيضة النعام[1] ؛ لأنها أكبر وأجمل فى اللون . ويقولون لمن يحمى الجمال فى قبيلته : يحمى بيضتها ؛ لذلك وصف البيض هنا بأنه ﴿ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات] مُصَان مستور لم تُمَدّ إليه يَدٌ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

سبق أن استمعنا إلى حوار دار بين الكافرين المجرمين فى النار.

وهنا يحكى لنا الحق سبحانه هذا الحوارَ بين أهل الجنة يتساءلون عن أهل الظلم ، وأهل الضلال والغواية وأهل التكذيب ، أين هم الآن ؟ وما مصيرهم ؟

---

(١) قال الحسن وابن زيد : شُبِّهن ببيض النعام ، تُكنّها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧١٩/٨)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨٩/٧) وعزاه لابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ (٥١) ﴾ [الصافات] من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أى : صاحبٌ فى الدنيا ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) ﴾ [الصافات] أى : بالبعث ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾ [الصافات] يعنى : محاسبون . وهذا السؤال منه على سبيل التكذيب والإنكار لقضية البعث والحساب .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ[1] الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾

القرآن يُصوِّر لك هذا الموقف كأنك تراه ، ويحكيه كأنك تسمعه ، فبينما أهل الجنة مشغولون فى تساؤلهم عن أهل الضلال ممَّنْ كانوا يعرفونهم فى الدنيا ، إذ نظر أحدهم فاطلع على أهل النار ، فرأى صاحبه الذى حاول أنْ يُضِلَّه ، صاحبه المكذِّب بالبعث وبالحساب .

فقال لجلسائه : انظروا هذا فلان فى النار .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أى : فى وسطها ، فلا أملَ له فى النجاة منها ، عندها تذكَّر المؤمنُ نعمةَ الله التى شملتْه وأنقذتْه من هاوية الضلال ، التى كاد أنْ يُوقعه فيها صاحبه ، فقال مخاطباً هذا القرين : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] أى : تُهلكنى معك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي.. (٥٧) ﴾ [الصافات] أى : تداركَتْنى وأنقذتنى

---

(١) سواء الشىء وسواه وسُواه : وسطه . [لسان العرب مادة : سوا] وقال ابن مسعود : أى فى وسط النار والحسك (الشوك) حواليه . [نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧٢٢/٨)] .

﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[1] ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات] أى : الذين تحضرهم الملائكة للعذاب ، وهنا تزداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويزداد شكرهم لله واعترافهم بفضله ، ولا يُنغِّص عليهم هذه الفرحةَ إلا الخوفُ من الموت وفوات هذا النعيم ، فيقولون :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

فهم إذن يخافون فواتَ هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : ألسنا سنموتُ مرة أخرى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الصافات] أى : بعد ما نحن فيه من النعيم ، أليس هناك شيء آخر نُحاسَب ونُعذَّب عليه ، كأن أمنيته أنْ يظلَّ على هذه الحال من التنعُّم ، فلا يفوته لا بموت ولا بتغيُّر الحال من النعيم إلى العذاب .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : ما نحن فيه من النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الصافات] ولا شك أن هذه غاية ينبغى أن يعمل لها كل عامل ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الصافات]

فكأن الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليُبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبةَ العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث فى اليوم الآخر ،

---

(١) المحضرين : المرغمين على الحضور ، يُحضرهم الملائكة للعذاب . [القاموس القويم - مادة : حضر] . وقال الماوردى : أحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا فى الشر . نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٣) .

لنأخذ من ذلك العبرة والعظة ، فكلُّ عمل يُؤدِّي إلى هذه العاقبة سَهْل هَيِّن ، مهما تحمَّلْنا فيه من مشاقٍّ ومتاعب ، وهو مكسب لا خسارةَ فيه .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ[1] ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا[2] كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

الآيات هنا تراوح بين ذكْر الجنة وما فيها من النعيم ، وذكْر النار وما فيها من العذاب ، فتعود مرة أخرى إلى جهنم وعذابها ووَصْف ما فيها ﴿ أَذَٰلِكَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أي : ما سبق ذكْره من نعيم الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أفضل ، فهي بمعنى أفعل التفضيل . ﴿ نُّزُلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أي : مَنْزِلاً وضيافةً .

فالنُّزُل مَا يُعَدُّ للضيف الطارىء من مسكن ، فيه مُقوِّمات الحياة من مأكل ومشرب وخلافه ، لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، والفنادق مع ما فيها الآن من سبل الراحة هي ما أعدَّه البشر للبشر ، فما أدراك بما أعدَّه ربُّ البشر ؟ لا بُدَّ أنْ تكون الضيافةُ على قدر إمكانات المضيف .

---

(١) شجرة الزقوم مشتقة من التزقم ، وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها . واختُلف فيها : هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا ؟ على قولين :
أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا اختلفوا فيها ، فقال قطرب : إنها شجرة مُرَّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .
الثاني : أنها لا تُعرف في شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزبد والتمر . [نقله القرطبي في تفسيره ٨/٥٧٢٤]

(٢) طلعها : ثمرها ، سُمِّي طَلْعاً لطلوعه .

﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) ﴾ [الصافات] وطبيعي أن نسألَ : ما هي يا ربِّ شجرةُ الزَّقُّوم ؟ فيصفُها الله لَنَا ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) ﴾ [الصافات] فتنة بمعنى : محنة وعذاب ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴾ [الصافات] أي : في وسطها .

وهذا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة ، فلا تسأل عن كيفية نُمو شجرة في وسط النار ؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل . إذن : خُذْها في إطار تنزيه الحق عن قوانين الخَلْق .

ومعنى ﴿ طَلْعُهَا (٦٥) ﴾ [الصافات] أي : ثمرها ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] لكن نحن لم نَرَ رءوس الشياطين ، لذلك وقف بعض المستشرقين الذين يحاولون الاستدراك على كلام الله ، وقف يقول :

كيف يُشبِّه اللهُ في هذه الآية مجهولاً بمجهول ، فنحن لم نَرَ شجرةَ الزقوم ، ولم نر رءوس الشياطين ، والتشبيه يأتي لتوضيح المشبّه بذكر المشبَّه به ، فما فائدة أنْ تُشبه مجهولاً بمجهول ؟

نقول : مُخ الإنسان فيه جزء للحافظة ، وجزء للذاكرة ، وجزء للتخيُّل يُسمَّى مُخَيلة ، فالإنسان يرى الأشياء ، فتسجلها الحافظة في حاشية الشعور ، ثم الذاكرة تستدعي له هذه الأشياء ، أما المخيلة فتأخذ من واقع الأشياء وتكوِّن صوراً جديدة مُتخيَّلة ، لا أصلَ لها في الواقع .

هنا أنت مع هذا التشبيه ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] مع أنك لم تَرَ رءوس الشياطين ، إلا أن خيالك سيرسم لها صورة على أبشع ما يكون ، وعندها سيتضح لك الفارق بين النُّزُل الذي أعَدَّهُ الله للمؤمنين في الجنة وهذه الشجرة التي ثمارها كرءوس الشياطين ، فالجمع بين هاتين الصورتين مقصود ، فكأن ربَّكَ عزَّ وجلَّ أراد أنْ يسوقَ لك العظَةَ في وقت الجزاء المشهود ، لا في وقت التكذيب .

وشجـرة الزقوم شـجرة خـبيثـة، مُنتنة الرائحة ، مُـرَّة الطَّعْم ، موجـودة فى منطقة تهامـة ، جعلها الله مـثلاً للشجـرة التى تنبت فى أصل الجحـيم . قالوا : هذا بمثـابة تقريع للمـعذَّبين بهذه الشـجرة ، لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث وبالحيـاة بعد الموت ، فجعل الله لهم هذه الشجـرة تنبت فى وسط جهنم وفيـها طعامـهم ، فلا طعام لهم غـير ثمرها .

والشجرة تعنى الخضرة والمائية ، ومعلوم أن المائية تنافى النار، وفى هذا إشارة إلـى طلاقة القدرة التـى كذَّبوا بها فى الـدنيا . إذن : كَـوْن هذه الشجـرة فى أصل الجـحيم ، وهـم يعـيشون على ثمـرها ويحتـاجون إليـها وهى شـاخصة أمـامهم ، هذا كله تقـريع لهم على ما كذَّبوا به .

وهذه المسـألة تُذكِّرنا بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين أُلْقِى فى النار ، فجعلها الله عليه بَرْداً وسلاماً ، وعطَّل بقدرته تعالى قانون الإحراق .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبشِّع صورة هذه الشجرة ، مع أن العرب يعرفـون شجرة بهذا الاسم ، ويعـرفون خُبْـثها ونَتْن ريحـهـا ومرارة طَعْمها ، ويعرفون طَلْعهـا البسيط ، لكن أحداً لم يَرَ الطَّلْع الذى يُشبه رءوس الشياطين .

إذن : المراد تبشيعه وإعطاء الفـرصة للتخيُّل أنْ يذهبَ فى تصوُّر بشـاعتـه كلَّ مـذهب ، فطَلْع كل شىء يكون جـمـيلاً ، بل هو أجـمل ما فى الشـجرة ، أمـا هذه فطَلْعُهـا كأنه رءوس الشيـاطين ، ولك أنْ تتصوَّر ما فيه من القُبح والدَّمَامَة والشكل المنفِّر .

ومعلوم أن العرب كانت تعتقـد أن الشيطان أقبحُ صورة ، ويقابله

الملاك أحسن وأجمل صورة ، ومن ذلك قول النِّسْوة لما رأيْنَ يوسف عليه السلام : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : رَاعَى القرآن فى هذا التشبيه معتقدات العرب ، وجاء بصورة مجهولة . نعم لكن سيتصوَّرها كلٌّ واحد بمقاييس القبح عنده ، ولو أتى بمثَل محدَّد معروف فى القُبْح ، لكَانَ على لَوْنٍ واحد ، وربما كان قبيحاً فى نظر شخص وغير قبيح فى نظر الآخر ، لكن الحق سبحانه يريد منظراً مُقبَّحاً عند الكل ، ومَنْ مِنَّا يتصوَّر الشيطانَ جميلاً ؟

لذلك قلنا : إذا جئنا برسامِى الكاريكاتير فى العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة تخيُّلية للشيطان ، فسوف يرسم كلٌّ منهم صورةً للقبح فى نظره ، ولن تجد فيها صورة مثل الأخرى . إذن : جاء تشبيه طلْع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، ليُشيعَ معانى القبح جميعاً فى النفوس ، وهذه الصورة كفيلة بأنْ تُنفِّرنا من هذه الشجرة.

وأصل الطَّلْع هو الكمُّ[1] الذى يحوى أول ثمرة للشجرة ، ويُقَال للكوز الذى يحوى ثمرة النخل وما يشبهها . فإذا خرجتْ منه الشماريخ ، وبانت استدارته وتكوينه يسمى (بلح) طالما كان أخضرَ اللون .

والبلحة لها ثلاثة أوصاف :

الأول : حجمها ، فإذا أخذتْ حجمها الطبيعى والنهائى يبدو دون لون ، فتتلوَّن إما حمراء أو صفراء ، وفى هذه المرحلة يقولون (البلح عَفَّرْ) ويسمونه (زهو) .

---

(١) الكمُّ والكُمُّ : غلاف الثمر والحب قبل أن يظهر . وهو وعاء الطلع ، وغطاء النَّوْر . فكُمُّ الطَّلعة قشرها ، ومن هذا قيل للقلنسوة كُمَّة لأنها تغطى الرأس ، ومن هذا كُمَّا القميص لأنهما يغطيان اليدين . [لسان العرب - مادة : كمم]

الثـانى : إذا استـقر اللون وكـملَتْ حُمْـرته أو صُفْـرته يُسمُّـونه (بُسْر).

الوصف الثالث : بـعد الحجم واللون يأتى القـوام : لين أو يابس بحسب البيئة ، فإنْ كانت حارة جافة ، فإنها تؤثر على البُسْر وتُجفِّفه ، فيتحول إلى تمر ، وإنْ كانت البيئة باردة رطبة صار البُسْر رطباً .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا[1] مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾

معنى : ستـضطرهم الضرورة وتُلْجئهم لهـذا المثل المكدِّر المنكِّد لهم ، حـيث لا طعامَ لهم غـيرها ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصافات] ولن يأكلوا على قَدْر الضرورة ، بل ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصافات] وعندما يملأون منها بطونهم تَزْداد النارُ فيها ، فيريدون شراباً يُطفىء هذه النار ، فيكون شرابهم الحميم ، والعياذ بالله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الصافات] الشَّوْب هو الشىء المخلوط الممزوج ، والحميم هو الماء الذى بلـغ غايةَ الحرارة . وفى موضع آخر ، سمَّاه القرآن (الغسلين)[2] هذا شرابهم والعياذ بالله ، فإذا ما أكلوا وشربوا عادوا للجحيم مرة أخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات]

ثم يُبيِّن الحق سبحـانه علَّة ذلك ، وسبب هذا المصـير المؤلم ،

---

(١) الشَّوْب : الخلْط . فالشوب فى الآية : الخلط والمزاج [لسان العرب – مادة : شوب] . قال السدى : يُشاب (يُخلط) لهم الحميم بغساق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل : يُمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم . [القرطبى فى تفسيره ٨/٥٧٢٦ ، ٥٧٢٧] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحاقة] ، والغسلين هو صديد أهل النار [التفسير الميسر] .

وأنه ليس ظلماً لهم ، إنما جزاء ما فعلوا :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾

يعنى : وجدوا آباءهم على ضلال ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ (٧٠) ﴾ [الصافات] يعنى : يتبعون طريقهم ويُقلِّدونهم ، ومعنى ﴿ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾ [الصافات] أى : يُزعجون ويسرعون كأن شيئاً يحملهم على الإسراع ؛ لأن هذا الفعل (يُهْرَعُونَ) مبنى للمجهول . أى : لمَا لم يُسَمَّ فاعله كما نقول زُكم فلان ، فالفاعل غير معروف .

ولو كان الإسراع فى اتباع الآباء منهم لقَال يَهرعون بالفتح ، إنما يُهرعون كأن شيئاً يدفعهم إلى تقليد الآباء ، ليبين لك سبحانه أن الشر أعدى ، لأنه لا تكليفَ للنفس فيه ولا حجزَ للشهوة ، لذلك يجرى الإنسان إليه ويُسرع فى طلبه .

أما الهدى والمنهج فلا يسرع إليه لأنه يُضيِّق عليه مجال الشهوات ، ويُقيِّد حركته فى إطار ما شرع الله ، إذن : هم يُقلِّدون الآباء وهم يعرفون أنهم ضالون لينفلتوا من قَيْد التكاليف الشرعية .

لذلك لما أخذ الله تعالى علينا العهد ونحن فى عالم الذر ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وقد حكى القرآن اعترافهم باتباع الآباء فى أكثر من موضع من

كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة] ويردُّ عليهم ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فكأن الحق سبحانه يقول لهم : أنتم كاذبون فى هذا الادعاء . ولو كانت القضية عامة ، فلماذا لم تتبعوا أباكم آدم عليه السلام ، وقد جاء بمنهج وسار عليه ؟ فلو اتبعه القوم لقلَّدهم مَنْ بعدهم وهكذا ، ولاستمرَّ منهج الله ، إنما حكَمتكم الشهواتُ ، وسيطرتْ عليكم الرغباتُ ، فأخرجتكم عن منهج ربكم وخالفتم . ثم أليس منكم رجل عاقل يَعِي هذا الضلال ، ويأنف أنْ يتبعه ، ويبحث عن هدى ؟

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ [الصافات] يعنى : ليس هؤلاء بدعاً فى الضلال ، فقد ضَلَّ قبلهم كثيرون ممَّنْ سبقوهم ، وهذا يعنى أن قلَّةً آمنتْ ، والكثرة ضلَّتْ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] يعنى : لم نتركهم على غفلتهم ، بل أرسلنا إليهم الرسل تنذرهم وتحذرهم .

وقلنا : إن فى ذات النفس البشرية مناعات ذاتيةً ، تعصم صاحبها من المعصية ومن الزَّلل ، حتى لو كان مُنفرداً عن الناس ، فإنْ ضعُفَتْ عنده هذه المناعة فخالف منهج الله تلومه النفس اللوَّامة الأوَّابة ، فتؤنبه حتى يتوب ويرجع ، فإنْ ألفَ المعصية وضعُفَتْ عنده

النفس اللوَّامة ، ولم يَعُد له رادع من ذات نفسه رَدَعَه المجتمعُ الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، المجتمع الناصح الذى يقيم بين أفراده قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾ [العصر]

وفَرْق بين : وصُّوا وتواصَوْا ، تواصَوْا يعنى : يُوصى بعضكم بعضاً ، ففيها تفاعل بين أفراد المجتمع ؛ لأن المجتمعَ حتى المؤمن المتدين يتفاوتُ الناسُ فيه من حيث الاستقامة وتطبيق المنهج ، ولا بُدَّ أنْ يُوجَد فى المجتمع مَنْ يضعُف فيشذّ ، أو تصيبه غفلة ، فيجد مَنْ يُردعه ، ويجد مَنْ يُذكِّره حتى يعودَ إلى الجادة .

فإذا فُقِد الرادع من المجتمع ، وعَمَّ الفساد المجتمع قلنا : تدخلتْ السماء برسول جديد ومنهج جديد .

نحن نعرف أن الرسول يأتى بشيراً ونذيراً . لكن الحق سبحانه هنا خَصَّ الإنذار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ⑦② ﴾ [الصافات] لماذا ؟ قالوا : لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وقلنا لتوضيح هذه المسألة : لو أن شخصاً يرمى لك تفاحة مثلاً ، وآخر يرميك بحجر لا شكَّ أنك ستدفع الحجرَ عن نفسك أولاً.

وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ⑦③ ﴾ [الصافات] يعنى : تأمل نتيجة الإنذار ، فرسل الله أنذروا الجميع ، لكن هل انتفع الجميعُ بالإنذار ؟ لا بل منهم مَن انتفع به ، ومنهم مَنْ أعرض عنه ، لذلك جاء الحق سبحانه بعدها بهذا الاستثناء : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ⑦④ ﴾ [الصافات] أى : الذين أخلصهم واصطفاهم لعبادته وطاعته ، وهم الذين انتفعوا بالإنذار .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن موكب الرسل إجمالاً ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ⑦② ﴾ [الصافات] أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عنهم

ببعض التفصيل ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لكن ، لماذا بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟ قالوا : لأن دعوته كانت أشبه بدعوة سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وَصَّى نُوحاً ، ووصَّى غيره من الرسل ممَّنْ هم أعلى منه ، ومع ذلك عطفهم عليه ، وجعله فى المقدمة . قالوا : لأن لنوح خصوصيةً هى فى البيئة التى كان فيها ، وفيمن آمن به ، فكان المؤمنون به هم الذين نجَوْا فى السفينة ، وهم وحدهم الموجودون فى العالم كله فى ذلك الوقت ، فكأن له عمومية رسالة بخصوص الموضوع ، ورسول الله ﷺ له عمومية رسالة ، لكن فى عموم الموضوع .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات] كلمة (نَادَانَا) تدلُّ على أنه - عليه السلام - استنفد كل وسائله فى دعوة قومه ولم تفلح ، بدليل أنه قال فى موضع آخر كما حكى القرآن : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ

عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح] وما دعا نوحٌ على قومه هذه الدعوة إلا بعد يأسٍ منهم ، وبعد أنْ وجد أن أسبابه الإيمانية المحيطة به من أتباعه غير كافية ، فلمَنْ يلجأ إذن ؟ يلجأ لله ، لأنه وحده القادر على أنْ يُخلِّصه منهم ، فيناديه : يا ربِّ أنت بعثتني فلا تتخلَّ عني ، وهذه ظاهرة فطرية لكل مستنجد مستغيث ، فأنت حين يطرأ لك خطر ، لا تستطيع دفعه بقوتك وحيلتك تستنجد بأقرب الناس إليك ، فإن لم تجد تستنجد بالبعيد ، فإنْ عَزَّ المغيثُ تقول - كما قُلْنا سابقاً - (يا هوه) يعني : يا ربِّ ليس غيرك يُغيثني .

ثم يأتي جواب هذا النداء : ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾ [الصافات] لأنه - عليه السلام - كان نِعْمَ الداعي ، فلا بُدَّ أنْ يقابل بنعم المجيبون ، ولم يقُلْ : فلنعم المجيبُ ، لأن الحق يجيبه بجنوده في الأرض مثل : الهواء والماء والملائكة .. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١)﴾ [المدثر] ونتيجة هذه الإجابة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ [الصافات]

وهنا وقف المستشرقون يقولون : كيف وقد أهلك اللهُ ولده ، أليس من أهله ؟ لكن في موضع آخر قَصَّ القرآن علينا قصة نوح عليه السلام وولده الذي شَذَّ عنه ، فغرق مع المغْرَقين ولم تُفلح توسُّلاتُ نوح : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود]

وهذا اللبس ناتج من أن الناس أغفلوا أنَّ بنوة الأنبياء ليستْ بنوة النسب ، إنما بنوة الإيمان بالله ؛ لذلك رَدَّ اللهُ على نوحٍ : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ.. (٤٦)﴾ [هود]

فالأهلية هنا أهليةُ عقيدةٍ وإيمانٍ بالله ، لا أهلية دمٍ ونسبٍ ؛ لذلك

إذا نظرتَ فى هذه الآية تجد الحق سبحانه لم يَنْفِ الذاتَ ، إنما نفى فعل الذات ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

لذلك قال النبى ﷺ : « .. لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم »[1]

وكلمة ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الصافات] المراد : الغرق ، والكرب هو : المكروه الذى لا تستطيع دفعه عن نفسك ، ولا يدفعه عنك مَنْ حولك حين تستغيثُ بهم ، فإنْ كان لك فيه حيلة للنجاة فلا يُسمَّى كَرْباً ، ووَصْف الكرب هنا بأنه عظيم ، لأنه جاء بحيث لا يملك أحدٌ دَفْعه ، فالماء ينهمر من السماء ، وتتفجَّر به الأرض ، ويغطى قِمَمَ الجبال ، فأين المفرُّ إذن ؟

ومعلوم أن الماء قِوَام حياة كل حَيٍّ ، ومن أجَلِّ نعَم الله علينا ، لكن إنْ أراد سبحانه جَعَلَ الماء نقمة وعذاباً ، وقد رأينا فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - كيف نجَّى اللهُ موسى بالماء ، وأهلك فرعونَ بنفس الماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات] أى : الذين كانوا معه فى السفينة وهم المؤمنون بدعوته ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الصافات] أى : فى الناس جميعاً من بعده يثنون عليه[2] .

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يا فاطمة ، انقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير ان لكم رحماً سأبلُّها ببلالها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٤) كتاب الإيمان .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥٧٢٩/٨) عند تفسير هذه الآية : « أى : تركنا عليه ثناء حسناً فى كل أمة ، فإنه مُحبَّبٌ إلى الجميع ، حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون ، روى معناه عن مجاهد وغيره »

فالناس جميعاً عليهم حين يسمعون سيرة هذا النبى الذى تحمَّل فى سبيل دعوته المشاقّ ، ومكث فى دعوة قومه هذا العمرَ الطويلَ ، الذى خالف أعمار الناس أن يُسلِّموا عليه ، وينبغى حين نسمع ذكْره أنْ نُسلِّم عليه ، فنقول : عليه السلام ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ (٧٩) ﴾ [الصافات] أى : اعْطه السلامة والسلام ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠)﴾ [الصافات] يعنى : هذه سُنة الله مُتَّبعة فى أنبيائه ، أنْ ينصرهم ويُبقى لهم الذكْرَ الحسن من بعدهم ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١)﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢)﴾ [الصافات] يعنى : الكافرين . وكلمة (الآخرين) إهمالٌ لهم ، واحتقارٌ لشأنهم .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] أى : أن إبراهيم – عليه السلام – كان من شيعة سيدنا نوح . يعنى : من أتباعه الذين تابعوه ، وساروا على منهجه . والشيعة هم الذين يُشايعون الإنسان على فكره فيؤمنون به ، بل ويحاولون أنْ يحملوا دعوته إلى الناس معه ، وأنْ يتحمَّلوا الأذى فى سبيل ذلك ، ومن هنا سُمِّيَتْ الشيعة المذهب المعروف الذين شايعوا الإمام علياً رضى الله عنه ، وتعلمون طبعاً الفرق بين الشيعة والشيوعية .

لكن ، لماذا بدأ الحق سبحانه هنا موكبَ الرسل بنوح – عليه السلام – ثم تبعه بإبراهيم – عليه السلام ؟

يقول سبحانه : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ [الصافات] هذه هى العلة ؛ لأن سلامة القلب هى الأساسُ فى الدين وفى العقيدة ، لأن فطرة الله التى فطر الناسَ عليها ابتداءً مبنية كلها على هيئة الصلاح والسلامة ، فإنْ طرأ على هذه الفطرة فسادٌ فمن الإنسان .

لذلك مدح سيدنا إبراهيم بسلامة القلب ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ [الصافات] وهو القلب الذى فطر عليه أولاً ظل كما هو لم يتغيَّر ، فعاش به ، وجاء به ربه فى الدنيا ، لذلك يظفر به فى الآخرة : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء]

فالسلامة الأولى التى فطره الله عليها استصحبها باستصحاب منهج الله ، فسلم فى الدنيا ، فلقىَ اللهَ بقلْبٍ سليم فى الآخرة ، وهكذا وصف اللهُ نبيَّه إبراهيمَ على أحسن ما يكونُ الوصف .

وتأمل كلمة ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ (٨٤) ﴾ [الصافات] فهى تُوحى بأن سيدنا إبراهيم لم ينتظر إلى أنْ يأتى له رسولٌ يدعوه ، إنما أقبل على الله بنفسه ، وجاء بفكره يبحث ويتأمل فى ملكوتِ السموات والأرض ، إلى أنِ اهتدى إلى الله .

لذلك لما أراد الله تعالى أنْ يُعرِّف نبيه إبراهيمَ ، وأنْ يُقدِّمه لمعشر الإيمان قال هذه البرقية الموجزة : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

تعلمون أن الحق سبحانه خلق المواهب ووزَّعها على الناس ، فكلٌّ منَّا له موهبة فى شىء ما ، ذلك ليظلَّ الناسُ مترابطين ترابطَ حاجة ، فتحتاج لى وأحتاجُ لك ، أما سيدنا إبراهيم فقد جمعَ وحازَ كلَّ

المواهب التى فى أمة كاملة ، فالمعنى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] يعنى : حاز مواهب أمة .

لذلك استحق - عليه السلام - أنْ يُريه الله ملكوتَ السموات والأرض ، فالناس جميعاً يكتفون بعالم المُلْك ، أما هو فقد تجاوز هذا العَالمَ إلى عالم الملكوت ، لماذا ؟ لأنه جرَّد نفسه عن شبهة اليقين بأحدٍ غيرِ الله ، بدليل أنه لما أُلْقِي فى النار وجاءه المَلَك يعرض عليه المساعدة : (ألكَ حاجة) ؟ فيقول سيدنا إبراهيم بما لديه من رصيد الإيمان واليقين بالله (أما إليكَ فلا)[1]. يقولها فى هذا الوقت العصيب ، وهذا الكرب المُلِمّ .

وقوله سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الصافات] وهذه تُعَدُّ من سلامة القلب ، لأنه أحبَّ شيئاً وسَعِد به ، فأراد أنْ ينقله إلى غيره وأوَّلهم الأقارب ، فهم أَوْلَى الناس بأنْ تُعدِّى لهم خيرك ؛ لذلك أول ما دعا إبراهيم دعا أباه وقومه : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الصافات]

وكلمة (لأبيه) وردتْ فى القرآن عشرَ مرات ، واحدة فقط منها لسيدنا يوسف - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] والتسع الباقيات لسيدنا إبراهيم بدايةً من سورة الأنعام إلى سورة الممتحنة ، من هذه التسع موضع واحد جمع فيه بين الاسم العَلَم والوصف ، فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وفى الثمان الباقيات جاءت كلمة (لأبيه) بدون ذكر آزر ، فكأن كلمة آزر جاءتْ فى هذا الموضع لتُشعرنا بشىء ، هو أنك إذا جمعتَ بين الوصف والعَلَم ، فلا بُدَّ أنْ يكون الوصفُ مشتركاً مع غير العَلَم ، وضربنا لذلك مثلاً قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تسألَ عن شخص ، وقابلك ولده فى الشارع تقول له : أبوك موجود ؟

لأن هذا السؤال لا ينصرف إلا إلى أبيه الحقيقى ، فإنْ قلتَ : أبوك محمد موجود ؟ فإنك لا شكَّ تقصد عمه ، لأنك ميَّزته باسمه لإزالة الاشتراك فى الأُبوّة .

إذن : آزر لم يكُن الأب الحقيقى لسيدنا إبراهيم ، إنما هو عمه ، ولا غرابةَ فى ذلك ، فالقرآن يُسمِّى العم أباً فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل أخو إسحاق ، ومع ذلك أدخله فى جملة الآباء بالنسبة لسيدنا يعقوب ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وسيدنا إبراهيم فى معرض دعوته لأبيه وقومه يسألهم هذا السؤال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) ﴾ [الشعراء] وفى موضع آخر : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) ﴾ [الصافات] و ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء]

وهنا : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) ﴾ [الصافات] وهذه كلها استفهام إنكارى ، وقُلْنا : إن الاستفهام أقوى من الإخبار ؛ لأن الإخبارَ يمكن أنْ يُكذَّب ، أمَّا الاستفهام فيجعل الخصم يُقِرّ بالقضية ، ولا يستطيع أنْ يُكذِّبها .

والإفْك هو أقبح أنواع الكذب ؛ لأن القُبْح فى الكذب على مراحل ،

كيف ؟ قالوا : ننظر فى الموضـوع الذى يكون فيه الكذب ، فإنْ كان فى الحقيـقة العُلْيَا فى الذات الإلهية ، فهـو أقبح الكذب كمَنْ يدَّعى لله شريكاً .

فإنْ كـان الكذب على البـشر فـهو بحـسب مَنْ تكذب فى حَـقه ، فمثلاً الذين اتهموا السيدة عائـشة وخاضوا فى عِرْضـها سَمَّاهُ الله إفْكاً لشناعتـه وعظَم منزلة مَنْ قيل فى حَقِّـه هذا الكذب ، فقال سبحـانه :

﴿ إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..(١١) ﴾ [النور]

ومن معانى الإفك قَلْب الشىء على وجهـه ، وقَلْب الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمـعنى : أتريدون آلهـة إفكاً وكـذباً دون الله ﴿ فَـمَـا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَـالَمِـينَ (٨٧) ﴾ [الصـافـات] أخـبـرونا مـاذا تظنون فى الله ؟ ومـا الذى لا يعجبكم فى ألوهيته سبحانه ؟ وكـيف تخدعون أنفسكم ، فتنصرفون عنه سبحانه ، وهو رَبُّ العالمين ، ومثَالُ ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار]

لذلك قال أحد العارفين : كـأن الحق سبحانه لقَّن الناسَ الجوابَ ، فالذى غَـرَّنى بالله أنه كريم . والطُّرْفة هنا أن رجـلاً رأى آخر يصلى صـلاة على عَجَل ، ينقـرها نقـراً ، فقـال له : بالله لو عليك خـمسـة قروش لواحد ، يصح أنك تعطيها له مـمسوحة ؟ فقال الرجل : والله ، لو كان كريماً سيقبلها ولا ينظر فيها .

فكأن الحق سبحانه يتعجَّب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه ، مع وضوح الدليل على بُطلان شركهم ، والشىء لا يُتعجَّب منه إلا إذا جاء على غير ما يجب أنْ يكونَ عليـه من الصِّدْق ؛ لذلك قال سبحانه

في أول البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعني : هذا أمر عجيب منكم ، ومسألة لا يقبلها العقل .

ثم بدأ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يُحقِّق قَوْلَ ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام] وسبق أنْ فرَّقْنا بين الملك والمُلْك والملكوت .

يقول سبحانه :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] هذه أولى خطوات إبراهيم إلى عالم الملكوت ، والنظرة هنا ليستْ هي النظرة الخاطفة العابرة ، إنما نظرة التأمُّل الفاحصة المتأنية ، فهي بمعنى رأى بتمعُّن واستنباط ، ومن ذلك قولنا : هذه مسألة فيها نظر . يعني : تأمُّل وتأنٍّ . والنجوم مفردها نجم ، وهو كل مضيء في السماء إضاءةً ذاتية ، لا أنْ يعكس ضوء الشمس ، وعليه فالشمسُ نَجْم من النجوم .

فقوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] دَلَّ على أنها نظرة طويلة مُتأملة مستوعبة ، لأنها استوعبتْ كوكباً وقمراً وشمساً . لذلك شرح لنا هذه النظرة في موضع آخر ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : كانت نظرةُ إبراهيمَ طويلةً متأنيةً ؛ لأنها استغرقتْ طيلة مطلع الكوكب وغيابه ، ثم مطلع القمر وغيابه ، ثم مطلع الشمس وغيابها ، فلما رأى - عليه السلام - أن هذه المرائى لا تصلح لأنْ تكونَ آلهة تُعْبد ، قال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] البعض يعدُّها كذبةً من كَذبات سيدنا إبراهيم أنه قال لقومه : إنى مريض .

إذن : أخذوا السُّقْم على أنه سُقْم الأبدان[1] والمراد هنا سُقْم القلب ، وشُغْله بما لا يستطيع الإنسانُ تحمُّله من إنكار القوم لمسألة الألوهية .. فهذه قضية تتعبه وتُؤرِّقه .

وهذا هو السُّقم الذى أراده سيدنا إبراهيم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] أى : مُجهد فكرياً من إنكار الناس لقضية الألوهية . إذن : إبراهيم عليه السلام لم يكُنْ ينظر فى النجوم ليرى دليلاً يقتنع هو به ، إنما يبحث عن دليل مادى فى الكون ينقله للناس .

لكن ، ما الذى أحوجه أنْ يقولَ للقوم : إنى سقيم ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى يوم عيد يجتمعون فيه ، فقال : إنى سقيم لكى لا يخرج

---

(١) فَهِمْ تصوروا أن قوله لهم (إني سقيم) : أى إنى مطعون أى : مصاب بالطاعون ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات] أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (إنى سقيم) قال : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون . [الدر المنثور للسيوطى ١٠٠/٧]

معهم ، وليتفرغ هو لما عزم عليه من تحطيم الأصنام ، يقول تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : انصرفوا وتركوه .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الصافات] معنى راغ : ذهب خُفيةً ، بحيث لا يراه أحد ، أو تسلَّل كمن يريد الانصراف من مجلس دون أن يشعروا به ، فيمشى خطوتين ثم يقف ، ثم يمشى ، ثم يتوارى خلف شىء وهكذا حتى يخرج ، وهذا المعنى نقوله بالعامية : فلان زوَّغ أو زاغ .

وسيدنا إبراهيم فعل ذلك وتسلل إلى آلهتهم ليحطمها ، لكن قبل أنْ يحطمها استهزأ بها ﴿ فَقَالَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الصافات] أى : للآلهة ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الصافات] فلم يُجيبوا ، فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الصافات] قالها سخريةً واستهزاءً بهم .

بعد ذلك مال عليهم ضرباً ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات] وقلنا : إن اليمين جهة القوة . كما فى قوله سبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] أى : من جهة القوة والقهر . والمعنى أن سيدنا إبراهيم أخذ يُحطمها بقوة ويُكسِّرها ، حتى أحدث التكسيرُ صوتاً عالياً سمعه القوم ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : مسرعين .

فلما رآهم ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات] الاستفهام هنا للتعجُّب وللاستنكار ، يقول لهم : كيف تعبدون إلهاً من صُنْع أيديكم تنحتونه من الصخور ، فأنتم أعلمُ الناس به ، وترونْه يقع ، فتقيمونه فى مكانه ، وينكسر فتصلحونه ، ويجرفه السيل ويمرغه فى الوحل فتنتشلونه .

إذن : كيف يُعْبد مثل هذا الإله ، وكيف تنصرفون إلى عبادته ،

وتتركون عبادة الله الإله الحق الذى خلقكم ، وخلق ما تعملون ؟

وطبعاً ليس لديهم جواب لهذا السؤال ، وليس لديهم رَدٌّ على إبراهيم إلا ردّ القوة والبطش ، فلا حجّةَ لديهم ، ولا منطقَ يدافعون به عن آلهتهم :

﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

تعلمون قصة النار التى أوقدوها ، ثم ألقوْا بنبىٍّ الله إبراهيم فى وسطها ، هذا هو الكيد الذى أرادوه بإبراهيم ، وما كان الله تعالى ليبعثَ نبياً ثم يُسْلمه ، فردَّ الله كيدهم عليهم ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق]

ومعنى ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات] أى : فى هذا المقام . وفى هذا الموقف الذى فعلوه بإبراهيم ، فليسوا الأسفلين لأنهم كفار ، إنما (أسفلين) لأنهم تعالَوْا على إبراهيم وتمكّنوا منه ، وقدروا على إلقائه فى النار فعلاً وهى مشتعلة ، وظنوا ساعتها أنهم هم العالون .

لكن سرعان ما تكشفتْ حقيقة الموقف ، وظهرتْ الآية الكبرى التى أرادها الله تعالى ؛ فلو أراد الله لَنجَا إبراهيم ، فلم يتمكّنوا من الإمساك به ، ولو أراد سبحانه لأمطرتْ السماء على النار فأطفأتها ، لكن أراد الله أنْ يُبطل حججهم ، فلو هرب إبراهيم من أيديهم لَقالوا : لو لم يهرب لأحرقناه ، ولو أمطرتْ السماء لقالوا : ظاهرة طبيعية لا دَخْلَ لنا بها .

لكن ها هو إبراهيم ، وها هى النار تشتعل ، ومع ذلك ينجو إبراهيم بعد أنْ جاء نداء الحق وكلمة الحق للخَلْق ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا

وَسَلاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

الخطاب من الله تعالى ، والأمر للنار على طبيعتها ، وبذات مواصفاتها ﴿ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً (٦٩) ﴾ [الأنبياء] لا في ذاتك ، إنما ﴿ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] فهذه خصوصية لهذه النار بالذات ، فهي في ظاهرها مشتعلة ، وفي حقيقتها ﴿ بَرْداً وَسَلاماً (٦٩) ﴾ [الأنبياء] على إبراهيم ، فهي مثل شجرة الزقوم ، تبدو لهم شجرةً خضراءَ ، وهي نار تحرقهم .

وهكذا جعلهم الله في هذا المقام ﴿ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات] أي : في الكيد الذي دبَّروه ، فهم يكيدون والله يكيدُ ، ولا بُدَّ أنْ يُؤخَذَ الكيدُ من خلال فاعله .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾

لَمَّا لم يجد إبراهيم - عليه السلام - فائدة من دعوته لقومه ، قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] والمعنى ذاهب لنصرة دينه وإلا فربُّه موجود معه ، وفي كل مكان ، أو مهاجر إلى ربي . أي : إلى مكان آخر ، حيث أجد مَنْ يسمعني ويستجيب لدعوتي ، وما دُمْتُ ذاهباً إلى ربي ﴿ سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] أي : يهديني المقام الطيب المناسب لدعوتي .

ثم يدعو إبراهيمُ ربَّه ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] أي : هَبْ لي ذريةً صالحةً مؤمنة ، ونبيٌّ الله حين يتمنى الذرية لا يتمناها لتكون ذكْرى أو عزوة أو امتداداً ينتقل إليه الميراث ، فالأنبياء يريدون الوَلد ليَحْمل رسالتهم ، وليكون نموذجاً إيمانياً يرثه في دعوته ؛ لذلك قال في قصة سيدنا زكريا : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (٦) ﴾ [مريم]

فكأن سيدنا إبراهيم عَزَّ عليه ألاَّ يتسعَ عمره ليكون جندياً من جنود منهج الله فى الأرض ، فقال : يا رب قرّ عينى بأنْ أرى ولداً لى يحمل مسئولية النبوة من بعدى .

وقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات] ولم يقل رب هَبْ لى الصالحين ، فأراد من ذريته مَنْ هو صالح من ضمن صلاح غيره ، فهو يريد الصلاحَ لذريته وللآخرين ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات] الحليم : هو الذى لا يستفزه غضب ، ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاقه ، ومن الحِلْم تَرْكُ المراء واللجاج ، ولو كان فى الحق .

لذلك جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « أنا زعيم[1] ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقاً .. »[2]

فهذا فى حاشية الجنة ، وهذا فى صميم الجنة ، لماذا ؟ لأنه يعتقد أن له رباً قيُّوماً لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، سوف يحكم بين الجميع ، وإليه تنتهى كل الخلافات ، فيقتص للمظلوم من ظالمه . والناس يميلون دائماً إلى كبير يحكم بينهم ، ونقول فى العامية (اللى له أب ميحملش هم) ، فما بالك بمَنْ له ربٌّ . لذلك من رحمة الله بنا أن يقول : يا عبادى ناموا ملء جفونكم ، لتصبحوا نشيطين لأعمالكم ، ولا تحملوا هَمَّ شىء ، لأن ربكم لا ينام .

---

(١) زعيم : كفيل . قال تعالى على لسان يوسف لإخوته : ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ [يوسف] أى : كفيل ضامن . [القاموس القويم ١/٢٨٧] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٠٠) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه » .
– رَبَض الجنة : ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التى تكون حول المدن وتحت القلاع وقيل : وسطها . [لسان العرب – مادة : ربض]

وقوله سبحانه : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات] البُشْرى بالشيء تكون قبل وجوده ، فوصفه الله بأنه سيكون حليماً وهو ما يزال غلاماً . يعني : سيجمع الوصفين معاً ؛ لأن الحِلْم عادة ما يتكوَّن لدى الرجل الواعي الذي يستطيع تقدير الأمور ، فالمَيزة هنا أنْ يتصفَ الغلامُ بالحِلْم في صغَره .

وفعلاً ظهر حِلْم هذا الغلام في أول اختبار يتعرَّض له ، حين قال له أبوه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات] تأمل ماذا قال الغلام ، وأبوه يريد أنْ يذبحه ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] هذا هو الحِلْم ، يتجلَّى منه وهو غلام .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ[1] فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ[2] (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾

---

(١) من هو الذبيح ؟ هل هو إسماعيل أم إسحاق ؟ قضية اختلف فيها الناس ، وذكر فيها القرطبي في تفسيره (٨/٥٧٣٩ - ٥٧٤١) ثلاثة أقوال . ثالثهما قول الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وقد كان أميل إلى أنه إسحاق ، أما ابن كثير في تفسيره (٤/١٤- ١٩) فقد ساق أدلة الجميع وفنَّد أدلة القائلين بأنه إسحاق ، وجزم بأن الصواب والصحيح أنه إسماعيل ، حتى بنص التوراة من أن إسماعيل أكبر من إسحاق بـ ١٢ سنة ، وأن إبراهيم أُمِر بذبح وحيده البكر . وردَّ الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . فليطلب تفصيل هذه المسألة في مظَانِّها [عادل أبو المعاطي].

(٢) تلَّه للجبين : كبَّه على وجهه . [القاموس القويم].

هنا لم يتعرض السياق لحمل السيدة هاجر ولا ولادتها لإسماعيل ، إنما انتقل مباشرة من البشارة به إلى مرحلة بلوغه السَّعْيَ مع أبيه ، فقال سبحانه بعدها : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ذلك لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلَّم ، وهو الذى يحكى .

ومن البلاغة أنْ نترك ما يُعلم من السياق ، وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ففى قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - والهدهد ، قال تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] ، ثم يختصر السياق كثيراً من الأحداث ، ويقول : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] ولم يتعرض لرحلة الهدهد ، ولا لكيفية توصيل الخطاب إلى الملكة .

كذلك هنا : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فبلوغه السَّعْى دلَّ على أن البشارة تحققتْ ، ووُلِد الغلام ، وبلغ مع أبيه السعى ، وفَرْق بين (بلغ السعى) عموماً ، وبلغ مع أبيه السعى ؛ لأن الغلام لا يُكلَّف بالعمل إلا على قَدْر طاقته فى الحركة ، وعلى قَدْر عافيته وتحمُّله ، وإسماعيل فى هذا الوقت بلغ السعى مع أبيه فحسب ؛ لأنه لن يُكلِّفه أبوه الحنون إلا بما يقدر عليه من المصالح والأمور الحياتية ، فيفعل الغلامُ ما يقدر عليه ، ويترك ما لا يقدر عليه لأبيه ، ولو كان مع شخص آخر فربما كلَّفه بما لا يستطيع .

فلما بلغ الغلامُ هذا المبلغَ ﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] والمعنى : أرى فى المنام أنه مطلوب منى أنْ أذبحكَ ، لا أنَّ الذبح تَمَّ فى المنام ، وانتهت المسألة بدليل رَدِّ إسماعيل ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وتأمَّل هنا الحلم على حقيقته ، وعظمة الرد في هذا الامتحان الصعب ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : افعل ما تريد ؛ لأن طاعته لأبيه هنا من باطن طاعته لله تعالى وامتثاله لأمر ربه ، فهو يدرك تماماً أن أباه مُتلَقٍّ الأمر من الله ، وإنْ جاء هذا الأمر في شكل رؤيا . إذن : هو يعلم رغم صغره أن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ حَقٌّ .

وسيدنا إبراهيم ينادى ولده ﴿يَـٰبُنَيَّ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] هكذا بالتصغير ، لأن بُنى تصغير ابن فلم يقل يا ابنى ، فقد أوثقه الحنان الأبوى ، وعرض عليه هذا الابتلاء ، وهو مشحون بعاطفة الحب لولده والشفقة عليه ، لأنه ما يزال صغيراً ، ومعلوم أن حنان الوالد يكون على قَدْر حاجة الولد ؛ لذلك المرأة العربية لما سُئِلَتْ : أىّ بنيك أحبُّ إليك ؟ فقالت : المريض حتى يشفى ، والغائب حتى يعود ، والصغير حتى يكبر[1] .

فقوله : ﴿يَـٰبُنَيَّ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] يعنى : أنا لا أعاملك معاملةَ النِّدِّ ، بل معاملة الصغير المحتاج إلى الحنان الأبوى ، فخذ أوامرى مصحوبة بهذه العاطفة الأبوية القلبية .

وقوله : ﴿فَانظُرْ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] يعنى : فكِّر ، وتدبَّر ﴿مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] أى : فى هذه الرؤيا ، فكأن الصغير فى هذه المسألة مطلوب منه أمران : برّك بأبيك ، وبرُّك بربِّ أبيك ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] ، فقوله ﴿افْعَلْ﴾ برّ بأبيه . وقوله ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾ برٌّ بربِّ أبيه .

---

(١) ذكره ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) ، والمبرد فى (الكامل) ، والزمخشرى فى [المستقصى فى أمثال العرب] ، والميدانى فى [مجمع الأمثال] ، من كلام هوذة بن على الحنفى لكسرى ، وفى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والراغب الأصبهانى فى (محاضرات الأدباء) أنه لغيلان بن سلمة الثقفى .

ثم يؤكد سيدنا إسماعيل رغم صغَره فهمه لهذه القضية ، وإدراكه لهذا الابتلاء ، فيقول : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] أى : على هذا البلاء ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : هما معاً استسلما لأمر الله ، وأذعنَا لحكمه ، وسلَّم كلٌّ منهما زمام حركته فى الفعل لربِّه ، فإبراهيم همَّ بالذبح ، وإسماعيل انقاد ، وقال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

والابتلاء فى حَقِّ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ابتلاءٌ مركَّب هذه المرة ، فقد ابتُلِيَ فى شبابه حين أُلْقى فى النار ، فنجح فى الابتلاء ، أما هذه المرة فالابتلاء وهو شيخ كبير ، جاءه الولد على كِبَر ، فهو أحبُّ إليه من نفسه ويُؤْمَر بقتله .

وكان بوُسْع إبراهيم أنْ يذبحه على غرَّة ، ودون أنْ يُعلمه بمسألة الذبح هذه ، ولكنه أراد أنْ يُشركه معه فى الأجر ، وألاَّ يُوغِر صدره من ناحيته ، وهو يذبحه دون دَاعٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : ألقاه على وجهه ، أو على جنبه ، قالوا : كان ذلك بمشورة الولد ، حتى لا يرى أبوه وجهه ساعةَ يذبحه ، فتأخذه الشفقة به ، فلا يذبح ، وكأن الولد يُعين والده ويساعده على إتمام الأمر ، وهكذا ظهر الاستسلام واضحاً ، فالولد مُلقىً على الأرض ، والوالد فى يده السكين ، يحاول بالفعل ذَبْح ولده ، وأىّ ولد ؟ ولده الوحيد الذى رُزِق به على كِبَر .

والابتلاء ليس بأن يموت الولد ، إنما أنْ يذبحه أبوه بيده ، لا بشخص آخر ، ويذبحه بناءً على رؤيا لا أمر صريح ؛ لذلك قلنا ابتلاء مركَّب ، لأن وجوه الابتلاء فيه متعددة ، قد اجتاز إبراهيم وولده هذا الابتلاء بنجاح ، واستحق عليه السلام أن يقول الله فى حقه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠) ﴾ [النحل]

نقول : لما وصل إبراهيم وولده إلى هذه الدرجة من الاستسلام لله ، ناداه الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الصافات] وكأن الله كان معهما يرقب هذا الانقياد من عبدين صدقًا مع الله ، فجاءهما فرج الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات]

يعنى : ارفع يدك يا إبراهيم عن ذبح ولدك الوحيد ، فما كان الأمرُ إلا بلاءً مبيناً ، أى : واضح قاس عليك أنت وولدك ، وهو مبين لأنه يُبين قوة عقيدة إبراهيم - عليه السلام - فى تَلَقِّى الأمر من الله ، وإنْ كان صعباً وقاسياً ، ثم الانصياع له والطاعة ، وكذلك كان البلاء فى حَقِّ ولده الذى خضع وامتثل .

وجاء الفداء : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] ذبح بمعنى مذبوح ، وهو الكبش الذى أنزله الله ، فداءً لإسماعيل .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

لقد استحقَّ سيدنا إبراهيم هذه المنزلة فى جميع الأمم من بعده أنْ يُسلِّموا عليه ، كلما ذُكر ، فيقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الصافات] فلو ذبح إبراهيم ولده لَصارتْ سنةً من بعده أنْ يتقرَّب الإنسان إلى الله بذبح ولده ، لكن لما صبر سيدنا إبراهيم ، واستسلم لأمر ربه جاءه الفرج من الله وعُوفى وولده من هذا البلاء ، وعُوفينا جميعاً معه من هذه المسألة ، فكلما ذُكر قلنا : عليه السلام ، لأنه حمانا من هذا الموقف الصعب .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الصافات] كذلك يعنى كما

فعلنا مع إبراهيم نجزى كل مُحسن ، والمحسن هو الذى لا يقف عند حَدِّ الواجب المطلوب منه ، إنما يتعدَّاه إلى الزيادة من جنس ما فُرِض عليه وكُلِّف به .

فالحق سبحانه فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فمَنْ زاد على ذلك فهو من الإحسان .

الله فرض علينا الحقَّ المعلوم للفقير وهو الزكاة ، فمَنْ زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان ، واقرأ فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات] يعني : زائدين عما فرض الله من جنس ما فرض الله عليهم .

ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[2] (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

والمحسن يستحق هذا الجزاء ؛ لأن الذى يتقرَّب إلى الله بأكثر مما فَرَض الله عليه دليل على أنه عَشِق التكليف والمكلِّف ، وعلم أن الله كلَّفه بأقلّ مما يستحق فزادَ .

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)﴾

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب – مادة : هجع].

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر ، وجمعه أسحار [القاموس القويم ٣٠٥/١] .

هذه العطاءات كلها نتيجة ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] لأن الابتلاء الذى وقع لسيدنا إبراهيم كان ابتلاءً مُركباً من مراحل ثلاث : فَقْد الولد الذى جاء على كِبَر ، وأنْ يقتله بيده ، ثم تاج هذه المراحل أنْ يُقتلَ ولده برؤيا منامية ؛ لذلك جاءه الجزاء على قَدْر هذه العقبات فى الابتلاء ، ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

والفداء فداء إسماعيل من الذبح فعاش إسماعيل ، ثم زاده الله فأعطاه إسحاق ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات] فهو أيضاً نبى ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود] ويعقوب أيضاً نبى . إذن : كلٌّ هذا الخير جاء ثمرة الاستسلام لله تعالى والرضا بحكمه ؛ لذلك صدق القائل(١) :

سَلِّمْ لربِّكَ حُكْمَهُ فَلِحكْمَةٍ يَقْضِى ... وَحَتَّى تَسْتَفيدَ وتَسْلَمَا
واذْكُرْ خليلَ الله فِى ذَبْحِ ابْنِهِ ... إذْ قَالَ خالقُهُ فلمَّا أسْلَمَا

ثم يمتد هذا العطاء ، فيقول سبحانه : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ (١١٣) ﴾ [الصافات]

فلما تكلَّم الحق سبحانه عن الذرية ، قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات] يعنى : الذرية فيها هذا وذاك ، الخير والشر .

هكذا عرضتْ لنا هذه الآيات قصة سيدنا إبراهيم على وجه الاختصار ، حيث لم تتعرَّض لكل الأحداث .. وينبغى هنا أنْ نذكر معركةَ الأديان فى مسألة الذبيح ، فالمسلمون يعتقدون أن الذبيح إسماعيل ، وغير المسلمين يقولون : الذبيح إسحق ، وهذا القول مردود من عدة وجوه :

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

أولاً : لو كان الذبيح إسحق لكانت مسألةُ الذبح والفداء وما يتعلق بهما من مناسك مَغْداها ومَراحها بأرض الشام ، حيث عاشَ هناك سيدنا إسحاق ، أما وهى تُفعل فى أرض الحجاز حيث وُلِدَ وعاش سيدنا إسماعيل ، فهذا دليل من الواقع على أن الذبيح إسماعيل .

ثانياً : ثم معنا دليل من حديث النبى ﷺ ، حيث قال : « أنا ابْنُ الذبيحين » أى : الذبيحين اللذين كان لهما فداء من الذبح ، وتعلمون أن الذبيح الأول هو عبد الله أبو النبى ، وقد فداه أبوه من الذبح بمائة ناقة ، أما الذبيح الثانى فإسماعيل عليه السلام الذى فَدَاه ربه بكبش .

فإنْ أنكر غيرنا هذه الأدلة لأنهم لا يؤمنون بها ، فعلينا أنْ نأتيهم بدليل من كتبهم ؛ لأن الإنسان لا يُصدِّق إلا بما يؤمن به ، فلو حلفتَ للكافر باللات والعزى فإنه لا يُصدِّقك ؛ لأنه يعلم أنك لا تؤمن باللات والعزى ، والإنسان لا يحلف إلا بما يُعظِّمه . ولو قُلْتَ له : والله لصَدَّقك .

لذلك نسوق لغير المسلمين هذا الدليل من التوراة التى يؤمنون بها ، وقد ترك الله لنا فى الكتب السابقة على القرآن مواضع تؤيد ما جاء به القرآن ، وما زالت هذه المواضع موجودة ، وكأن الله أعماهم عنها لتظلَّ دليلاً على الحقيقة التى لا يعترفون بها .

وعليهم أن يقرأوا فى الأصحاح الثالث والعشرين فى سفر التكوين (وأوحى الله إلى إبراهيم أن اصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدِّمْه قرباناً لى) ومتى كان إسحق عليه السلام وحيداً وقد وُلِد إسحق وعمر إسماعيل أربعة عشر عاماً . وفى الأصحاح الرابع والعشرين (وُلِد إسحقُ وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة) .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٢٢ ﴾

هذا موكب أولى العزم من الرسل ، فبعد أنْ حدَّثنا القرآنُ عن سيدنا إبراهيم ، يحدثنا عن سيدنا موسى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ١١٤ ﴾ [الصافات] منَّ الله على موسى وهارون منَّةَ عطاء ، بأنْ جعلهما رسولين إلى بني إسرائيل ، ومنةَ نَصْر بأنْ نصرهما على فرعون وجنوده ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ١١٥ ﴾ [الصافات] والمراد فرعون ، ووصفه الله بالكرب العظيم ، لأن فرعون لم يكُنْ رجلاً متسلطاً على الناس كملك ، إنما متسلط عليهم كإله ، وقد أراد الكيد بموسى عليه السلام ، وأراد الكيد لقومه في مصر ، حيث أخذ منهم الخدم والفعلة والسحرة .

وكلمة فرعون تُطلق على ملوك مصر القدماء ، فكل واحد منهم يسمى (فرعون) ، لكن في سورة يوسف سُمِّي حاكم مصر العزيز والملك ولم يَقُلْ فرعون ، لماذا ؟ قالوا : لأنه بعد أنْ فُكَّ حجر رشيد علمنا أن الهكسوس حينما أغاروا على مصر كانوا ملوكاً في مصر لا فراعنة ، فلما عاد الأمر إلى فرعون كان بنو إسرائيل في خدمة الفرعون بسبب وقوفهم إلى جوار المحتلين الهكسوس ، فاضطهدهم الفرعون وأعوانه .

فمعنى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : من فرعون ومن الاستعباد ، حيث خرج بهم موسى - عليه السلام - فأدركه فرعون بجنوده حتى حاصرهم عند البحر ، فكان البحر من أمامهم ، وجيش فرعون من خلفهم .

وما أشبه هذا الموقف بموقف طارق بن زياد فى فتح الأندلس ، حين قال لجنوده : إن البحر من أمامكم ، والعدو من ورائكم .

وعندها أيقن بنو إسرائيل أن فرعون سيلحق بهم ويدركهم فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] لأن شواهد الواقع تدل على ذلك ، فهم لا محالةَ مُدْركون بقوانين البشر ، لكنْ لموسى مع ربه قانونٌ آخرُ ، جعل موسى عليه السلام يقول بملء فيه (كلا) كلا لن نُدْرَكَ ، قالها بما لديه من ثقة بربه ، وبما لديه من الرصيد الإيمانى : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] وفعلاً ، جاءه الفرج لتوِّه ، وأمره ربه أنْ يضرب بعصاه البحر ، وكان ما تعلمون من القصة .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الصافات] نعم ، وأىّ غَلَبة ؟ لأن هناك فرقاً بين أنْ تغلبَ عدوك ويظل المغلوبُ حياً يُرزَق ، وبين أنْ تغلبه غلبة تُبيده من الوجود ، والذى حدث فى قصة موسى وفرعون أن الله قضى على فرعون وجنوده قضاءً مُبْرماً .

ثم ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الصافات] المستبين الذى بلغ النهاية فى البيان ، والمراد بالكتاب التوراة ، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى - التوراة فى موضع آخر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الانبياء]

وقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الصافات] أى :

المنهج القويم الموصِّل إلى الله من أقرب طريق ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الصافات] يعنى تركنا لهما الذكْر الحسن فيمَنْ يأتى منْ بعدهم ، فكلُّ مَنْ يسمع قصة موسى وهارون ومواقفهما وثباتهما فى الحق يقول سلام عليهما ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الصافات] أى : موسى وهارون .

ومعلوم أن هارون جاء بطلب من موسى لما قال لربه : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] فاستجاب الله لطلب موسى وأيَّده بأخيه هارون ، وجعلهما معاً رسولاً واحداً إلى بنى إسرائيل .

والقرآن يُبيِّن لنا هذه المسألة ، وأنهما كانا كرسول واحد فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ [1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]

فيردّ الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس] ، مع أن الداعى موسى وحده ، لكن فى الجواب قال ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس] أى : موسى وهارون ؛ لأنهما فى مجال الرسالة واحد ، لا ينفصل [2] أحدهما عن الآخر ، فدعوة موسى هى دعوة هارون .

---

(١) الطمس على الأموال : تحويلها إلى حجارة . والشد على القلب : الطبع والختم على قلوبهم فلا ينعم الله عليهم بالإيمان حتى لو أرادوا ذلك حتى يعذبوا العذاب الأليم . والمقصود بهذا الدعاء هم فرعون وملؤه الممالئون له الملتفُّون حوله الذين يحرضونه ويشجعونه وينصرونه لا عموم شعب مصر كما قال البعض خطأ ، فالله تعالى قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس] فالضمير هم عائد على فرعون وملئه . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) قاله أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والربيع بن أنس فيما نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٩) .

وقد حاول بعض العلماء أن يُقرِّبوا لنا هذه المسألة ، فقالوا : أجاب الله موسى بقوله : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩) ﴾[يونس] لأن موسى دعا ، وهارون أمَّنَ على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعين .

ثم يقول سبحانه عن موسى وهارون : ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾ [الصافات] ثم ينتقل السياق إلى نبى آخر ، هو سيدنا إلياس :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا(١) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) ﴾

كلمة (إلياس) تُكتب هكذا بالسين ، والبعض لا يكتبون السين ، إنما يكتبون اسمها فيقولون (إلياسين) فهما علَم على هذا النبى الكريم نقول : إلياس أو إلياسين اسم لمسمى واحد ، وهو غير اليَسَع عليهم جميعاً السلام .

وهذه الآيات توضح أن سيدنا إلياس جاء بقضية عقدية ، لا بمنهج تكليفى ، جاء ليُصحح القمة العقدية فى الإيمان بواجب الوجود الإله الواحد الذى يجب أنْ يُدْعى وحده ، وموكب الرسالات من لَدُنْ آدم عليه السلام إنما جاء ليصحح صلةَ المخلوق بالخالق .

لذلك أثبت له أنه الخالق الرازق ، وأنه العليم القادر الحكيم العزيز .. الخ ، فهو الذى خلقك وأنعم عليك ، لتتلقى أوامره برضاً ، وتُقبل عليها باطمئنان ، وإنْ لم تكُنْ عبادتك له جزاء ما قدَّم لك من

---

(١) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق . [تفسير ابن كثير ٤/٢٠]

النعم التى هيَّأها لك قبل أن توجد ، فلا تكُنْ عبادتك له خوفاً من عقابه حين تعود إليه .

معنى ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الصافات] ألاَ للحثِّ وللحضِّ على التقوى ، أو للعرض كما تقول : هل لك من كذا ؟ وقوله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : تعبدون صنماً اسمه بَعْلاً ﴿ وَتَذَرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات] تتركون ﴿ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات]

الحق سبحانه حين يصف نفسه بأنه تعالى (أحسن الخالقين) يعنى : أنه سبحانه لا يضنُّ على عبده بصفة الخَلْق ، فالإنسان الذى يُعمِل عقله فى الكون ، ويخترع شيئاً نافعاً لمجتمعه يُسمِّيه الله خالقاً ، لأنه أبدع شيئاً جديداً لم يكُنْ موجوداً .

فهو خالق ، والله أحسن الخالقين ، لأن الله يخلق من عدم محض ، أما أنت فتخلق من موجود ، خلق الله فيه حياةً ونمواً وحركة .. الخ ، وخَلْقُك جامد ثابت عند شيء معين ، وقد سبق أنْ بيَّنا الفرق بين الاثنين .

وتأمل هنا : الحق سبحانه ينكر عليهم أنْ يعبدوا صنماً ، ويتركوا عبادة الله لكن لم يقُلْ : وتذرون الله ، إنما ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات] فذكر الوصف المشوِّق الدال على أحقيته تعالى فى العبادة ، وكأنهم سألوا ، ومَنْ أحسن الخالقين ؟ فقال سبحانه : ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الصافات] فأنا أحسن الخالقين ، وأنا ربكم وأنا ربُّ آبائكم الأولين ، المستحق للعبادة .

فماذا كان الجواب ؟

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ (١٢٧) ﴾ [الصافات] كشأن كل الأقوام التى جاءها الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ولا بُدَّ أنْ يُكذبَ الرسل ، يُكذّبهم أهلُ الفساد والمنتفعون من الفساد ، يُكذِّبهم سادَةُ القوم وكبراؤهم ، لتظلَّ لهم سيادتهم وجبروتهم واستعبادهم للضعفاء ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾ [الصافات] أى : عندنا للحساب تحضرهم ملائكة العذاب ، والمعنى : لا تظنوا أنكم تُفْلتون من أيدينا ، لأن لكم مَعاداً ورجعة كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وقوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) ﴾ [الصافات] أى : الذين اصطفاهم لطاعته وأخلصهم لعبادته ، ثم تُختم هذه القصة الموجزة لهذا النبى الكريم بما خُتمتْ به سابقتها ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ [الصافات]

ونفهم من هذه الخاتمة أن الإحسانَ فَرْعُ الإيمان ، يعنى ما كان مُحسناً إلا لأنه كان مؤمناً أولاً .

هكذا لخَّص لنا القرآن قصة هذا النبى ، وبيَّن أنه جاء بقضية عقدية لا قضية تكليفية ، جاء ليُصحِّح للقوم الأساسَ والقاعدةَ التى تُبنى عليها الحياة ، وهذه مهمة الرسل من لدُن آدم عليه السلام ، فقد خلق اللهُ آدمَ أبا البشر خليفةً فى الأرض . ومعنى خليفة فى الأرض

أنْ يزاولَ فى الأرض مهمة عن الحق سبحانه وتعالى .

ولكى يزاول هذه المهمة أمَدَّه الله بصفات من صفاته ، وهذه الصفات موهوبة ممدودة ليست ذاتيةً فى الخليفة ، لذلك يسلبها الخالق فى أىِّ وقت ، فالله تعالى هو واجب الوجود الأعلى ، وهو المتصف بهذه الصفات بذاته ، فالله قادر ويعطيك من قدرته قدرةً ، وحكيم ويهبك من حكمته حكمةً تزاول بها الأشياء ، والله قهَّار ويعطيك قهارية تزجر بها مَنْ كان تحت تصرُّفك لتستقيم أمورهم ، ويعطيك رحمانية تحنُو بها على الضعيف والمحتاج .

إذن : فمن صفات الحقِّ واجب الوجود الأعلى أنه يعطينا من وجوده وجوداً ، بل وجودات متعددة بتعدُّد الأفراد ومتوالية الأمثال ، لكن يعطى سبحانه من الوجود الذاتى وجوداً عَرَضياً . فإنْ نظرتَ إلى الآفات التى تصيب الناسَ فى حواسِّهم أو فى جوارحهم تجدها مرادةً لله تعالى خلقاً أو توجّهاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان كما أخبر عنه خالقه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

وضربنا لذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، فلو أن الأب يعطى ولده المصروفَ كلَّ شهر تجد الولد لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر ، إنما لو أعطاه يوماً بيوم لتعرَّض له الولد كل يوم وتمحَّك فيه ، وأظهر نفسه ليأخذ مصروفه الذى تعوَّد عليه ، فتراه مثلاً يمرُّ على أبيه فى الصباح . ويقول : يا أبى أنا رايح المدرسة ، فالحاجة هى التى ألجأته لمودَّة أبيه .

إذن : يجب أنْ نُفسِّر فلسفة الحاجات التى تُعوز النتيجة ، وهذه الحاجات هى التى تُلجئك إلى ربك ، والواقع يؤيد ذلك ، وكثيراً ما نرى الإنسان لا يلجأ لربه ولا يُصلح ما بينه وبين خالقه إلا إذا اختلَّ عنده شىء ، وعزَّتْ عليه أسبابه ، فلا يجد إلا ربه فيقول : يا رب ، يا الله .

إذن نقول : الخالق يَهبُ الخليفةَ من صفاته ، لكن تظل هذه الصفات الموهوبة عَرَضيةً غير دائمة ؛ لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شَاباً وكهلاً وشيخاً ، وهذه القضية تُفسِّر لنا الحديث الشريف :

« خلق اللهُ آدمَ على صورته ، طوله ستون ذراعاً »[1]

فالهاء يجوز أن تعود على الله تعالى ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته تعالى ، لا على حقيقته ، وفَرْق بين الصورة والحقيقة ، الصورة هي التي تُؤخذ لك لقطة على هيئة معينة ، ثم تتجمد على هذه الهيئة ، إذن : هذا الخلق لا يعني أن آدم أخذ شيئاً من صفات الله على الحقيقة ، لا إنما على الصورة ، لأن الحقيقة لها دوام ، والصفات في آدم لا دوامَ لها .

ويجوز أنْ تعود الهاء على آدم ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته أي على صورة آدم ؛ لأن الله تعالى لم يخلق آدم جنيناً ، ثم وُلد ثم صار طفلاً فشاباً ، لا بل خلقه أول الأمر هكذا على هذه الهيئة المعروفة للإنسان الكامل الأعضاء والجوارح . إذن : يجوز الوجهان .

وفَرْقٌ بين مَنْ يخلق ، ومَنْ يخلق مَنْ يخلق ، ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الطفل الصغير لا يقدر مثلاً على نقل المائدة من مكانها ، أما الرجل القوى فيستطيع أنْ ينقلها له ، وهو في هذه الحالة لم يُعَدِّ قوته إلى الضعيف ليفعل بنفسه ، إنما عدَّى له أثرَ صفته

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الاستئذان - حديث ٥٨٧٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) . قال النووى فى شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خُلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفى عليها وهى طوله ستونَ ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته ، وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير » .

فحمل عنه واشتال له ، وظلَّ الطفل ضعيفاً غير قادر على الحَمْل .

لذلك نقول : إن وَجْه العظمة في خَلْق الله تعالى وفي عطائه ، أنه سبحانه يخلق من قدرته قدرةً ، ويهبك إياها ، فتقدر أنت بنفسك وتعمل بيدك ، فالخَلْق يتطوَّعون ويُعينون الضعيف ويفعلون له ، لكن يظل ضعيفاً ، أما الخالق سبحانه فيعطي الضعيف قوةً فيفعل بنفسه .

لكن تنبَّه أن هذه الصفات موهوبةٌ لك لا ذاتية فيك ؛ لأنك لستَ أصيلاً في الوجود بل أنت خليفة ، ولا بُدَّ لك أنْ تظلَّ في حضن مَن استخلفك ، وإياك أنْ تشذَّ عَمَّنْ استخلفك ، وإلا سحبَ منك مقومات هذا الاستخلاف .

وحين ترى أصحاب الابتلاءات والعاهات : هذا أعور وهذا أعرج .. الخ فاعلم أن الخالق سبحانه يريد أنْ يلفتكَ إليه ، ويُنبِّهك إلى أنك لستَ أصيلاً في الوجود إنما مُستْخلَفٌ ، وأنك شيء ما دام معك مَن استخلفك ، فإنْ تخلَّى عنك فأنت لا شيء ، وآفة الإنسان في الكون أنْ يعتبر نفسه أصيلاً ، ولو فهم دوره وحقيقة وجوده لاستقامتْ الأمور .

البعض ينظر إلى هذه العاهات على أنها تشويه للخَلْق ولا يرى فيها حكمة ، والحقيقة أنها خُلقَتْ لحكمة مرادة لله تعالى ، وما هي إلا وسيلةُ إيضاحٍ للناس كي لا تغترّ بالجوارح السليمة ، وكي تظلَّ على ذِكْر الله الخالق ، وكما قلنا الحاجة هي التي تُلجئك .

ونحن نرى مثلاً رجال المرور يعمدون إلى سيارة جديدة مُحطَّمة ، ويجعلونها في مكان بارز يراه الناسُ ليرتدع السائقون عن الرعونة في السُّرعة ، فهذه السيارة وسيلة إيضاح ونموذج جُعِل

كذلك لهدف ، وربما تعمَّدوا إعدام السيارة لما يترتَّبُ على إعدام سيارة واحدة من نجاة ملايين السيارات .

كذلك أنت أيها المعَافَى ، حين ترى أصحاب العاهات تقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به[1] ، وتلتفت إلى نعَم الله عليك التى كثيراً ما تغفل عنها ، فإنْ قُلْتَ : فما ذنبُ هذا المبتَلى أنْ يجعله اللهُ وسيلةَ إيضاحٍ لغيره ؟

نقول : لو أدركتَ ما وجده من العوَض عما فقد لتمنيتَ أن تكون مثله ، لذلك نلاحظ أن أصحاب العاهات عوَّضهم الله بخصلة أخرى تُعوِّض ما فيه من نقص ؛ لذلك نقول فى الأمثال : كل ذى عاهة جبار وقد رأيتم فاقد الذراعين (يلضم) الخيط فى الإبرة برجْليه ، والطفل المكفوف يحفظ القرآن كله وهو ابن السادسة ، أخذ الله منه البصر وأعطاه البصيرة ، إنها مواهب لا يستطيعها الأصحاء .

وسبق أنْ قلنا إن الأكتع لو ضربك بيده الكتعاء لعرفتَ أنها ضربة مميتة ، لأنها يد مستريحة لا تعمل ، ففيها من القوة ما ليس للصحيحة ، وإذا انفعل كانت كل قُوَّته فى هذه اليد .

ونحن نقول لإخواننا الذين ابتلاهم الله بفقد البصر : صناديق العلم!! لماذا ؟ لأنهم حصَّلوا من العلم ما يعجز عنه المبصرون ؛ ذلك لأن المبصر تشغله المرائى المتعددة من حوله ، أما المكفوف فلا يشغله شيء ، فبؤرة الشعور عنده دائماً خالية جاهزة للاستقبال ، ثم هو لا يستطيع أن يقرأ بنفسه ، فينتهز فرصة أن يُقرأ له ، فيُنصت

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٤٣١) ، وابن ماجه فى سننه (٣٨٩٢) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى صاحب بلاء ، فقال : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلاً إلا عوفى من ذلك البلاء كائناً ما كان ما عاش» .

جيداً ، ويعى ما يسمع بحيث لا يحتاج إلى إعادته مرة أخرى ؛ لذلك قال أحدهم[1] :

عَميتُ جَنيناً وَالذَّكَاءُ مِنَ العَمَى فَجِئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعِلْمِ مَوْئلاً
وَغَابَ ضِياءُ العَيْنِ بالقَلْبِ رَافِداً لعلمٍ إذَا مَا ضَيَّع النَاسُ حَصَّلاَ[2]

إذن : نحن حينما نرى أصحاب العاهات أو الابتلاءات ننظر إلى كمالنا نحن ، ولا ننظر إلى ما عُوِّضوا به من مواهب في جوانب أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الذى أبدع السيمْفونية العالمية المشهورة كان أصمَّ[3] !! وتيمورلنك الذى دوَّخ العالم وصاحب الفتوحات المعروف كان أعرجَ !!

والمؤمن الحق حين يرى غيره ممَّنْ ابتلاهم الله لا يتعالَى عليهم ولا يدلّ عليهم بسلامة جوارحه ، إنما يتواضع لهم ، وهو يعلم أن هذا النقص يقابله عوَض فيقول فى نفسه : يا ترى فى أىِّ الجوانب تتفوَّق علىَّ وتتميز عنى ؟ وبهذه النظرة يتساوى الجميع .

نقول : فعلى الإنسان أنْ يظلَّ دائماً على ذكْر لهذه الحقيقة أنه خليفةٌ لله فى الكون ليس أصيلاً فيه ، وما أشبهَ هذه الخلافة بالوكالة حين تُوكِّل غيرك فى شىء بعينه ، فإنِ اعتبر نفسه وكيلاً فى كل

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ، ودفن بالبصرة ، توفى عام ١٦٧ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة له ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، وهى من بحر الوافر . ولفظ الأبيات :
عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى بقلب إذا ما ضيع الناس حصَّلا

(٣) هو بتهوفن ، مؤلف موسيقى ألمانى ، له الفضل الأعظم فى تطوير الموسيقى الكلاسيكية، أول حفلة موسيقية قدمها عندما كان فى الثامنة من عمره ، بدأ يفقد سمعه فى الثلاثينات من عمره إلا أن ذلك لم يؤثر على إنتاجه الذى ازداد فى تلك الفترة وتميز بالإبداع .

شيء فسدتْ الوكالة ؛ لذلك نرى العقلاء حين يُوكِّلون غيرهم يُوكِّلون على قَدْر الحاجة والضرورة حتى لا تُستغل الوكالة ، ويطغى الوكيل على صاحب الحق الأصيل .

وصلاح الدنيا كلها واستقامة أمور الناس قائمة على هذا المبدأ ، مبدأ الاستخلاف ، فالأصل فى الإنسان أنْ يظلَّ خليفةً محتاجاً لمن استخلفه ، والعادة أن الاستغناء يُنسِيك ، والحاجة تُلجِئك وتعطفك إلى مَنِ استخلفك .

ولما خلق اللهُ آدمَ ليكون خليفةً فى الأرض ، هل أنزله فى الوجود ليباشر مهمته فى إعمار الأرض واستنباط أسرار الله فى الكون ، دون أن يُعدَّهُ لهذه المهمة ؟ كيف ونحن نأخذ مثلاً اللاعب الذى نعده لمجرد أنْ يلعَب فندربه ونعلمه ونصرف عليه ونصحح له أخطاءه ، إلى أنْ يصلَ إلى المستوى المطلوب منه ، فما بالك بمهمة إعمار الأرض ؟

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - دربَّ آدم على هذه المهمة ، فأسكنه فى بستان فيه كل ما تشتهيه النفس : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وهكذا حدَّد الخالق سبحانه لآدم كيفيةَ معيشته فى الجنة ، فأحلَّ له أنْ يأكلَ منها كما يشاء ، باستثناء شجرة واحدة . إذن : فالحلال كثير لا يُعَدُّ ولا يُحصى ، أما الحرام فمحدود ، وكذلك شأن الله تعالى فى الحياة ، فالأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما جاء به نصٌّ يحرمه وهو محصور فى أشياء بعينها .

وتأمل هنا هذا الاحتياط التشريعى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبَا (٣٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : ولا تأكلا ، فالمنهىُّ عنه مجرد قُربها ؛ لأن

قُرْبك من المحرم يُغريكَ به حتى تقع فيه ؛ لذلك تجد أسلوب القرآن في الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما في النواهي فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

لذلك لما حرّم الإسلامُ الخمرَ لم يحرم شُرْبها فحسب ، إنما حرَّم كلَّ ما يتصل بها من بيع أو شراء أو نقل أو صناعة ، أو حتى التواجد في مكان هي فيه ، لماذا ؟ لِيَسُدَّ كل الطرق المؤدية إليها المُغْرية بها .

وحين يُبين لنا الحق سبحانه الحلالَ والحرامَ والأوامر والنواهي ، فإنما يلفت أنظارنا إلى قضية مهمة ، وكأنه يقول لنا : إن استقمتَ على منهجنا وتكليفنا لك ستظلّ حياتك سليمةً بلا عورة ، خالية من المشاكل والصعاب ، فإنْ تعدَّيْتَ هذه الحدود فانتظر ظهور العورات في المجتمع ، سواء أكانت عوراتٍ اجتماعية ، أم أخلاقية ، أم اقتصادية .. الخ

وفي قصة آدم - عليه السلام - حين أكل من الشجرة رمز إلى هذه المسألة ، كيف ؟ لَمَّا استقامَ آدمُ على منْهج ربه والتزم بما أمره الله به عاش في الجنة معافَى بلا سَوْءة ، فلما خالف وأطاع وسوسة الشيطان فأكل من الشجرة التي نُهِي عنها بدتْ سوءتُه لأول مرة ، لأنه لما استقام كان يأكل بطهي ربه له وهو طهْي على قَدْر حاجة الجسم ومُقوِّمات الحياة فلا يبقى منه شيء ، يخرج فضلات من الجسم .

ولكن لما تدخلتْ الشهوة ، وأطاع الشيطان أفسد الخلطة الغذائية التي أُعدَّتْ له ، فتكوَّنت في بطنه الفضلات وأحسَّ لأول مرة بشيء غريب لَم يعهده ، وفوجيء بأنْ خُرْقاً في بدنه يخرج منه شيء قذر

كريه الرائحة .

لذلك عرف آدم أنها عورة ينبغى أنْ تُستر ، فأخذ يقطع من أوراق الشجر ليستر عورته ، ويدارى سَوْءَته ، هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا [1] يَخْصِفَانِ [2] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف]

وقد رأينا فى أثناء الحروب أن الجندى يتغذَّى على قرص صغير يؤدى مهمة الوجبة الغذائية ، لكن لا يترك فضلات فى الجسم ، ذلك لتخفَّ مؤونة التموين ، ولا يحتاج الجندى لعملية الإخراج .

إذن : فى قصة آدم والأكل من الشجرة إشارة رمزية إلى أن أحكامَ الله ما دامتْ مُنفَّذة يستقيم حال البلاد والعباد ، ولا تظهر فى المجتمع عورات ومساوىء ، لذلك حين ترى فى المجتمع عورة ظهرت فى أى ناحية : علمية ، اقتصادية ، اجتماعية ، خلقية .. الخ فاعلم أن بنداً من بنود منهج الله قد عُطِّل ، فابحث عنه ، وحاول إصلاحه بنفسك أولاً ، إنْ كان الإصلاح فى مقدورك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وآدم - عليه السلام - وقع فى هذه المخالفة بعد أن بيَّن الله له ما أحلَّ له وما حرَّم عليه ، وبيَّن له عداوة الشيطان ، وأنها عداوة

---

(١) طفقا : من أفعال الشروع ، من أخوات كان وخبرها يكون دائماً فعلاً مضارعاً غير مقترن بأنْ . كقوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (٢٢) ﴾ [الأعراف] أى : شرعا يفعلان ذلك . وأما قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ [ص] فالمضارع مقدَّر أى : فطفق يمسح مسحاً . [القاموس القويم ١/٤٠٣] .

(٢) يخصفان : أى يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت . [القاموس القويم ١/١٩٥]

مُسْبقة منذ أمره الله بالسجود فلم يسجد ، ومع ذلك سمع آدم لوسوسة الشيطان ، وكان عليه أنْ يُعمل نعمة العقل ، وأنْ يفكر فيما قاله عدوه إبليس ، حين قال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف]

يعنى : أن مَنْ يأكل من هذه الشجرة يخلد ولا يموت ، إذن : لماذا لم تأكل أنت يا إبليس منها ، ما دام الأمر كذلك ؟ ألستَ القائل لله تعالى : ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤﴾ [الأعراف] فهنا إشارة إلى وجوب التفكر فى وسوسة الشيطان وعدم الخضوع له .

إذن : ففترة وجود آدم فى الجنة كانت فترةَ التدريب على المنهج الخلافى ، فلما حدثتْ منه المخالفة وحصل منه عصيان أراد الله أنْ يُخرجه من الجنة ، وأنْ يُنزله إلى حياة الأرض ليتحرك فيها حركةَ الخليفة ، مُستصحباً للتجربة السابقة .

وكأن الله يقول له : خُذْ من الحلال ما شئتَ ، وابتعد عن الحرام واحذر الشيطان فهو عدوك ، وسيظل يوسوس لك ليُوقعك فى المخالفة كما أوقعك فى المخالفة الأولى ، فإياك أنْ تسمعَ له لأنك لو سمعتَ له وهو عدوُك سيُخرجك من حياة النعيم إلى حياة الشقاء ، كما أخرجك من جنة الالتزام بأمر والالتزام بنهى : ﴿فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝١١٧﴾ [طه] ولم يقل : فتشقيا .

والحق سبحانه وتعالى وضع لنا فى هذه الآية إشارة رمزية منذ أوَّل الخَلْق ، لتَحُلَّ لَنَا مشكلة وقضية ما زال العالم يتحدث فيها إلى الآن وسيظل ، إنها قضية خروج المرأة للعمل والمساواة بالرجل ، وأن المرأة تريد أن تثبت ذاتها .. الخ

وعجيبٌ أنْ تطالب المرأةُ بالمزيد من المسئوليات ، فهى تريد أنْ تأخذ من مهمة الرجل ، فى حين أن الرجل لن يأخذ من مهمتها شيئاً ، ولن يحمل عنها عبئاً من أعبائها ، الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يرضع . إذن : أخذتِ أنت مهمةَ الرجل مضافاً إليها مهمتك الخاصة التى لا يقوم هو بها ، وفى هذا ظلم للمرأة .

فقوله تعالى لآدم ﴿فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ [طه] دَل منذ أول الخَلْق على أن الشقاء والكدح والعمل وتحمُّل المسئولية مهمة الرجل ، وأن المرأة سيدةٌ فى بيتها مُعززة مُكرَّمة ، وهذه الصورة ظلتْ موروثة فى مجتمعاتنا بدون تضليل وبدون انطماس ، فحتى الآن حين يتقدَّم شابٌ لخطبة البنت يشترط عليه كبير العائلة يقول (أنت حتستتها ولا حتشَغلها) يعنى : أتجعلها سيدةً مَصُونةً فى بيتها ، أم أنك ستخْرِجها للعمل ؟

البعض يقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟ فهو إذن مثل الشيطان : هذا عصى وهذا عصى . نقول : عصى آدم وهو فى فترة التدريب التى لا يُؤاخَذ فيها المخطىء ، بل نُصحِّح له دون مؤاخذة ، فالتلميذ فى المدرسة يُصوِّب له المعلم خطأه باللون الأحمر دون أنْ يحاسبه عليه ، إلى أنْ يأتىَ اختبار آخر العام ، فيحاسبه على الخطأ .

فآدم حين أخطأ كان فى فترة التدريب ، وقد صَوَّب اللهُ له خَطأه ، ثم إنه لم يكُنْ نبياً فى هذه الفترة ، لأن آدم خُلق ليكون أباً للبشر جميعاً ، والبشر سَيُقَسَّمون إلى قسمين : قسم مُصْطفى وهم الرسل ، وقسم مُصْطَفًى عليه وهم المرسل إليهم .

إذن : آدم فى البداية كان يمثل القسمين ، وجاءت تجربته تمثل عصيان البشر وعصمة الأنبياء ، لذلك أخطأ فصوَّب الله له ، ثم تابَ

فتابَ الله عليه واصطفاه ، وكذلك حال البشر واقرأ : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] هذه إشارة إلى ما سيكون من البشر ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

إذن : الاجتباء والعصمة جاءت بعد التجربة الأولى ؛ لأن آدم مثَّلَ الجميع ، مثَّل عصيان البشر ، ومثَّل عصمة الأنبياء .

هذا الخليفة طرأ على وجود خُلِق له قبل أنْ يُوجد ؛ لا أن الله خلقه ، ثم نظر ماذا يريد وماذا يحتاج ، ثم خلقه سبحانه خَلْقاً يناسب قيامه بمهمته في عمارة الأرض ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

ولم يجعل الحق سبحانه العبادات الأصيلة - أي أركان الإسلام - هي كل حركة الحياة ، بل جعلها هي الشحنة التي تُعينك على حركة الحياة ؛ لذلك مَنْ قال إن الإسلام هو هذه الأركان يؤديها وحسب نقول له : لا لأن هذه الأركان بها تستمد القوة من الله لتنجح في حركة الحياة ، والإسلام أوسعُ من هذه الخمس بكثير ، بدليل قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ (٩) ﴾ [الجمعة]

إذن : ناداهم وأخذهم من شغل ومن عمل هو قمة حركة الحياة ، ألا وهو البيع ، وإن كان البيع مرتبطاً بالشراء إلا أنه أقوى ، لذلك خَصَّه بالذكر ولم يقُلْ : وذروا البيع والشراء ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه خالق الطبع الإنساني ، ويعلم أن الإنسان ثقيل عند الشراء غير حريص عليه ، لكنه حريص على البيع ويسعى إليه ؛ لذلك عندما يكلِّفك أهل البيت بشراء شيء ربما تماطل في شرائه أو تُؤجّله ، وتُسَرُّ حين تذهب فتجد المحل مغلقاً ، أما لو كنت

بائعاً فإنك تحـرص كل الحرص على أنْ تبيع ، لماذا ؟ لأن المشترى ينفق والبائع يأخذ ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه البيع لأنه ثمرة الحركة .

وبعد انتهـاء الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⁽¹⁰⁾ ﴾ [الجمعة] إذن : أخذك للصلاة من عمل ، وأعادك بعد الصلاة إلى العمل والسعى .

وحين تتأمل لفظ الحديث : « بُنِى الإسلامُ على خمس »[1] يعنى : هذه الخمس هى الدعائم التى يقوم عليها الإسلام والمبنى غير المبنى عليه ، وهل البناء الذى نسكنه مُكوَّن من الأساس والأعمدة فحسب ؟ إذن : الإسلام ليس هو الأركان الخمس ، إنما الإسلام أوسع من ذلك ، الأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربك إليها ، فتأخذ من لقائه المددَ الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثَّلْنا ذلك (بالبطارية) حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لتعمل بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة الإنسانية فَرْضاً تكليفياً لا بُدَّ لك من القيام به ، لا بُدَّ لك أنْ تقابلنى خمسَ مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنك خَلْقى وصَنْعتى ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوَّرْ صنعة تُعْرض على صانعها خمسَ مرات فى اليوم والليلة : هل يبقى فيها عطب ، هذا فى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

الصانـع إنْ كان من البـشر ، فمـا بالك في الصانـع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه .

الصانع من البـشر يُصْلح صنعـته بشيء مـادى مثل مسـمار أو قطعة غـيار مثلاً ، أمـا الخالق سبـحانه فيـصلحك دون شيء مادى ؛ ذلك لأن المهندس وصنعـته شيء مادى فيصلح بالمـادة ، أما الخالق سبـحانه فغَـيْبٌ ، فحين يـصلحك من عطب فيك يُصلحك بالغـيب فلا تشعر به ولا تراه .

إذن : نقول لا بُدَّ أنْ نفهمَ الدين على حقـيقته ، وأنْ نفهمَ أن لكل منَّا مهـمة ، فإذا تفـوَّق عليك غيرك فـاعلم أن تفوقه لصـالحك وعائد عليك ، لأنه بتفوقه يؤدى إليك خدمـة ، في حين أنه لا يستفيد منك ، فالذى يجيد عملاً لا شـكَّ أنه ينفع نفسه وينفع الآخرين ، على خلاف مَنْ لا يجيد شيئاً .

لذلك نقول في الفـلاحين (باب النجـار مخلع) ، فالنجـار تظهر مـهارته حـينما يصنع لغـيـره ؛ لأنه يتقـاضى أجراً ، إنمـا لا يجيـد الصناعة لنفسه ، إذن : حين ترى المتفوِّق عنك ، لا تحسده ولا تحقد عليـه ، بل تمَنَّ له الزيادة ، وتمَنَّ له الخـير ، فسـوف يُصيـبك شيء لا محالة من هذا الخـير ، وسيعود عليك هذا التفـوق في شكل خدمة يُقدِّمها لك .

لذلك كنا في الفـلاحـين ، لو مات لأحـدنا بقـرة أو جامـوسة يحـزن الجميع ، لدرجة أننـا رأينا مرة جماعة يَبْكُون على عجـل مـات فـتعجبنا ، الناس يبكون على الميت منهم ، لكن من الحيـوانات ؟! بعدها عرفنا أن هذا العـجل هو الذى يدير السـاقيـة ، ويحـرث الأرض التى يأكل منهـا هؤلاء الناس ، وينالهم خير هذه الأرض ، وكنا في الريف لا نشـترى الخيار ولا

الملوخية ولا البامية وغيرها كثير ، بل كان يُهْدى ولا يُبَاع.

إذن : الهبة المبذولة عند الخَلْق عائدة على كل الخَلْق ، فحين ترى مَنْ هو أكثر منك خيراً أو موهبة ، فتمَنَّ له الزيادة ، لأن خيره لا محالة سيفيض عليك ، وحين ترى مَنْ يجيد عملاً لا تجيده أنت لا تحقد عليه ، لأنك ستحتاجه ليجيد لك عملك حتى لو كنتَ تكرهه ، أو على خلاف معه تحرص عليه ليعمل لك ، فأنت تعلم مدى إجادته للعمل ، فتذهب إليه حرصاً على مصلحتك أنت ، وبذلك يتم التعادل المطلوب فى المجتمع ، وتستقيم أمور الخَلْق استقامةً مبنيةً على الحاجة .

ولو تأملتَ فى نفسك كما قال الله تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] لوجدتَ فى نفسك هذا التعادل بين الأعضاء ، فعندك مثلاً اليد اليمنى تزاول بها بعض الأعمال التى تناسبها ، واليد اليُسْرى تزاول بها أعمالاً أخرى تناسبها ، اليد اليمنى للأعمال الشريفة المكرَّمة ، أما اليسرى فهى لما دون ذلك ، وغالباً ما تكون اليمين أقوى من الشمال وأكثر حركة منها وأدقّ فى التناول .

وتأمل مثلاً حين تريد أنْ تقصَّ أظافرك ، فإنك تقصّ الشمال باليمين فيأتى القَصُّ دقيقاً مُريحاً ، على خلاف قَصِّ اليمين بالشمال ، إذن : موهبة اليمين عادتْ على الشمال ، وعدم موهبة الشمال عادت على اليمين ، وهذا يلفتنا إلى أنَّ الكمالات فى الكون كمالاتٌ مُسْتطرقة تستطرق فيه ، كاستطراق الماء .

والحق - سبحانه تعالى - حين خلق الإنسان الخليفة أعطى له تكوينات تناسب مهمته ، وأول هذه التكوينات الجوارح التى نسميها الحواس التى نُحسّ بها الأشياء ، ويُسمُّونها الحواس الخمس الظاهرة ، وقولهمَ الظاهرة احتياط لما سيجدّ من حواس يعرفها

العلم ، وفعلاً اكتشف فى الإنسان حواسّ أخرى غير هذه الخمس كالحاسة التى أعرف بها الجوع ، وكحاسة البَيْن التى أميز بها البُعْد بين شيئين ، وحاسة العضل التى أعرف بها ثقل الأشياء .

وحين تتأمل هذه الحواس الخمس المعروفة ، تجد أن التكليف الشرعى جاء على مقتضى هذا التكوين فى الحواس ، فلكُلٍّ حاسة فى الإنسان ، ولكل جارحة عَمل ، فأداء كل جارحة لمهمتها يُسمَّى (عمل) ، فالقلب يعمل بالنية ، واللسان يتكلم ، والأذن تسمع ، والأنف يشمُّ ، واليد تمس الأشياءَ ، والعين ترى ، هذا كله عمل .

ولا بُدَّ هنا أنْ نفرق بين العمل والفعل ، والفعل يقابله القول الذى هو مهمة اللسان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾ [الصف]

إذن : فالقول ، وهو مهمة اللسان أخذ قسماً وحده ، وبقية الحواس أخذتْ القسم الآخر ، فالقول للسان ، والفعل لبقية الحواس ، لماذا أخذ اللسانُ الشطر ، وبقية الحواس الشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول هو وسيلةُ نقل مطلوب الرسل منا لنفعل ، ونقل مطلوباتنا من الغير ليفعلوها .

إذن : فكل الأفعال فى خدمة القول ، ومنهج الله لا يأتينا إلا بالقول الذى يحمل الأمر للحواسّ فتعمل ، والعمل ليس بالضرورة عملاً عضلياً ، بل ربما يكون عملاً معنوياً ، كعمل القلب وهو النية كما قلنا ، والشرع هو الذى يحكم هذه الحواس ، ويُحدّد لها الإطار الذى تعمل فيه فى ضوء الحلال والحرام .

ومهمة الحواس أنْ تلتقط المدْركَات ، ثم تعرضها على العقل ، فيُصفّيها تصفيةً حقيقية ، بأنْ يقارن بينها ، ويعرف أن هذه تصلح

لكذا ، وهذه لكذا ، وبعد هذه التصفية يُسلِّمها للقلب لتصير عقيدةً فيه ، وكلمة عقيدة تعنى الشيء المعقود الذى لا يُفَكُّ ، ولا يعرض للنقاش مرة أخرى فى العقل ، فالطفل الصغير مثلاً يُغريه شكل النار الجميل ، فيحاول الإمساك بها ، فتحرقه النار ، ويُحسّ لأول مرة بالحرارة ، فتتكوَّن عنده عقيدة أو قضية عقلية أن النارَ تحرق ، فلا يقترب منها بعد ذلك ، ويظل طوال حياته يسير على هذه العقيدة أو هذا المبدأ ، ولا يحتاج لأنْ يُجرِّبه مرة أخرى .

هذه العقيدة ساعةَ تستقر فى القلب يضخها القلب مع الدم ، فتسير فى جميع البدن ، وتتخلل كل الأعضاء فتتشرَّبها ، وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « إن فى الجسد مُضْغةً ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسدُ كله ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كله ، ألا وهى القلب »[1] .

وبعد أن خلق الحق سبحانه للإنسان الجوارحَ والحواسّ خلق الغرائز ، وهى أمور لازمة لك ، ثابتة فى تكوينك ، ولا يمكن لك الاستغناء عنها ، لكن هذه الغريزة قد تُلحّ عليك فتُخرجك عن الهدف منها ، وعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل الشرع لِيكبحَ جماحها ، وليُعيدها إلى توازنها الذى خلقها الله من أجله .

يتدخل الشرع لِيُعلى الغريزة ويُهذِّبها ، لا ليكبتها ويقضى عليها ، فالأكل غريزة لاستَبقاء الحياة ويكفى فيه ما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « بحسْبِ ابْنِ آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلْبه »[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب ، ولفظه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان ولابد فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .
قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ولا ينبغى أنْ تخرجَ عن ذلك ، وتتحوَّل إلى شَرَه وتخمة . حب الاستطلاع غريزة جعلها الله لاستكشاف أسراره فى الكون ، والتأمل فى مخلوقاته ، فإنْ خرجت عن هذا الإطار وصارتْ تَجسُّساً وتتبُّعاً للعورات ، فقد خرجتْ عن مهمتها ، وهنا يتدخَّل الشرع ليُعْليها ويُعيد إليها توازنها .

وأعنف غرائز الإنسان الغريزة الجنسية ، خاصة فى سنِّ الشباب وهذه الغريزة جعلها الله لحفظ النوع واستبقاء النسل ، هذه هى المهمة التى من أجلها خُلقَتْ غريزة الجنس ، وقد حرص الشرع على استبقاء هذه الغريزة مصحوبةً بمنهج حركتها لمَنْ خلقها لتستقيمَ الأمور ، لأن النسلَ هو الثروة الأولى التى ينبغى الحفاظ عليها ليأتى النسلُ شريفاً طاهراً .

وسبق أنْ فرَّقْنا بين النسل الشرعى المحسوب على الوالدين ، والنسل غير الشرعى ، وكيف أن الأول يُقابَل بالفرحة وبالحنان والعطف والرعاية ، والآخر يُقابل بالكراهية وعدم الرغبة ، وربما فكرتْ أمه فى التخلص منه ، ولو بإلقائه فى الشارع .

من هنا حرص الدين على بناء الأسرة بناءً سليماً فيه شرف وكبرياء وعِزَّةُ نفس فى ظلِّ كلمة الله ومنهجه الذى يُؤمِّن لك سلامة نَسْلك ، فيأتى موثوقاً به تطمئن إليه ، وتعتنى به ، وتربيه أحسنَ تربية ، وهذا هو هدف الشرع .

وسبق أنْ تحدَّثنا عن الفرق بين الحلال والحرام فى هذه المسألة ، وذكرنا الحديث الشريف : « جَدَعَ الحَلاَلُ أنْفَ الغَيْرة »

إذن : فهذه الغريزة مخلوقة فى النفس البشرية لأداء مهمة ، ولكى تبقى فى إطار ما خُلقتْ له ، لكن الحاصل أن كثيرين يخرجون

بها عن هدفها ، والعجيب أنْ يظلمَ الإنسانُ الحيوانَ فى هذه المسألة ، حين يقول : هذه شهوة بهيمية ويتشدَّق بها .

وهذا القول يدل على عدم فهم لغريزة الحيوان ؛ لأن الحيوان يقف بالغريزة عند حدودها كما خلقها الله ؛ لذلك لم نَرَ بهيمة أنثى حملتْ ثم مكَّنَتْ فحْلاً منها بعد ذلك ، كذلك الفحل يشمُّها ، فيعرف أنها حامل فينصرف عنها .

أهذه شهوة بهيمية على حسب ما نقصد نحن من هذه الكلمة ؟ لا ، بل هى إنسانية .. ولك أنْ تقارن بين هذه الغريزة عند الحيوان وعند الإنسان ، وسوف ترى العجب فى خروج الإنسان بهذه الغريزة عن المراد منها .

ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ ربطَ الغريزة الجنسية والنسل بالاستمتاع ، ذلك لأن للنسل مطالب وتبعات ومسئوليات ، فلو لم تكنْ هناك متعة تُرغِّب الإنسان لَزَهد فى المسألة ، وانصرف عنها .

والحق سبحانه وتعالى يأتى للمؤمنين على منهج واحد بأمور متقابلة مثل : العزة والذِّلَّة ، فالمؤمن غير مطبوعَ على عزَّة دائمة ولا على ذلة دائمة ، إنما الموقف الذى يعيشه هو الذى يملى عليه أنْ يكونَ عزيزاً ، أو أنْ يكون ذليلاً ، فالذلّة والانكسار لإخوانه المؤمنين والعزَّة والتعالى على الكافرين الجاحدين ، كما قال تعالى فى وصف سيدنا رسول الله والمؤمنين : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

إذن : فهُمْ أشداء رحماء فى وقت واحد ، وهذا دليل على أن المؤمن لا تكيفه غرائزه إلا بمعدلات خالق الغرائز .

من التكوينات أيضاً فى خَلْق الإنسان بعد الحواس والغرائز أن الله

خلق فى الإنسان العاطفةَ ، والعاطفة شعور لا نعرف سببه ؛ لذلك تقابل شخصاً فترتاح إليه وآخر تكرهه هكذا دون سابق تعامل ، لماذا إذن تحب هذا وتكره ذاك ؟ إنها العاطفة ؛ لذلك تحب ولدك ولو كان غبياً ؛ لأنك تحبه بعاطفتك ، وتحب ابن عدوك الذكى تحبه بعقلك .. لذلك لم يجعل الحق سبحانه العاطفةَ مجالاً للتكليف .

ويبيِّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ العاطفة فى قوله لصحابته ، وفيهم سيدنا عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أمه وأبيه ونفسه » .

وقفتْ هذه الكلمة فى نفس عمر . فقال : يا رسول الله ، أنت أحب إلىَّ من أمى وأبى أو من ولدى ومالى ، لكن نفسى يا رسول الله ؟ فكرَّرها رسول الله مرة أخرى ، حتى علم عمر أنها عزيمة ، ولا بُدَّ أن رسول الله يقصد حباً غير الذى يراه عمر ، إنه يقصد الحبَّ العقلى ، عندها قال عمر : الآن يا رسول الله ، يعنى : الآن أصبحتَ أحب إلىَّ من أبى وأمى ، وأحب إلىَّ من ولدى ومالى ، وأحب إلىَّ من نفسى التى بين جَنْبَىَّ(١) .

إذن : المراد فى حب رسول الله الحب العقلى ، فلولاه ﷺ ما اهتدينا ولا بلغنا الهدى ، ولولاه لهلكنا ، فأنت تحب محمداً ﷺ كما تحب الدواء المرَّ ، لا تحبه بعاطفتك إنما بعقلك ؛ لذلك فهم سيدنا عمر أن الحب المطلوب شرعاً حبّ العقل ، وإنْ تحوَّل بعد ذلك إلى

---

(١) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : الآن ياعمر . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

عاطفة وعشق للذات ، وهذه درجة أخرى أعلى من الأولى .

والقرآن الكريم يُعلِّمنا هذا في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] يعني : لا يحملنكم البغض لقوم أنْ تظلموهم ، وألاَّ تعدلوا معهم ، إذن : البُغْض غير ممنوع ؛ لأنه مسألة عاطفية ، فأحبب مَنْ شئتَ ، وابغضْ مَنْ شئتَ ، لكن إياك أنْ يحملك الحبُّ أو البُغْض على أنّ تظلم بأنْ تجامل مَنْ تحب ، وتظلم مَنْ تكره .

ولأن العواطف بهذا الشكل ، يعني : ليس لها انضباط في الذات خرجتْ من نطاق التكاليف الشرعية ؛ لأنك لا تعرف لماذا مالتْ بك العاطفة لأنْ تحبَّ أو تكره .

وحين نتأمل الحواسَّ والغرائز والعاطفة نجد أن الحواسَّ ظاهرةٌ معروفة ؛ فالعين ترى ، والأذن تسمع .. الخ . وكذلك الغرائز ظاهرة بأثرها وأسبابها ، فحين تجوع تطلب الطعام ، وحين تريد أهلك تحنُّ إليهم ، أما العاطفة فشيء خفي غير ظاهر ، لذلك يضرب لها القرآن مثلاً ليس في الإنسان ولا حتى فيما دونه من الحيوان أو النبات إنما مثلاً في الجماد ، واقرأ قوله تعالى في عاقبة الكافرين قوم فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان]

ومعلوم أن البكاء مظهرٌ عاطفيٌّ ، فهل تبكي السماء ؟ وهل تبكي الأرض ؟ نعم تبكي وتنفعل ، وكأنها تقول لهؤلاء : اذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم ، وإلا لما نفى الله عنها البكاءَ ، ولمَ نستبعد ذلك ؟ والسماء والأرض خَلْق من خَلْق الله خاضع للتسخير ، ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : لا غرابة أنْ يفرح الجماد حين يجد مَنْ يُسبِّح معه وينسجم

مع الكون المسبِّح ، ولا غرابةَ أنْ يحزن ، وأنْ يبكى عندما يشذّ البشر عن هذه المنظومة المسبِّحة ، وعليه يمكن القول بأن السماء والأرض لم تَبْك على هلاك قوم فرعون ، وفرحتْ لهداية آسية امرأة فرعون . إذن : للسماء والأرض انفعال وعاطفة فهى تحب وتكره ، وتبكى وتفرح .

وهذا المعنى أوضحه لنا الإمام على رضى الله عنه ، حين قال[1] : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله - يبكيه لأنه حُرِم من صعود الكلم الطيب والعمل الصالح - أما موضعه فى الأرض فمُصلاَّهُ - يعنى : المكان الذى كان يُصلِّى فيه .

كانت هذه مقدمة ضرورية ندخل بها على قِصَّة سيدنا لوط فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

كانت مهمة سيدنا لوط فى دعوة قومه أشقَّ مهمة ؛ لذلك ذُكر فى القرآن سبع عشرة مرة ، بالرفع وبالجر ، وذُكر عشر مرات بالنصب ، ووَجْه المشقة فى مهمته عليه السلام أنه جَاء ليُعدِّلَ أعنفَ الغرائز فى النفس البشرية ، وهى الغريزة الجنسية .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) أن رجلاً سأل على بن أبى طالب : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء .

لَيْتَ هذه الغريزة . كانت عند القوم فى مسارها الطبيعى ، بمعنى غريزة الرجل نحو المرأة ، إنما كانت غريزة جنسية منحرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وهى علاقة الرجل بالرجل ، لذلك جاءت منهم جريمة وفعلة نكراء مبتكرة لم يسبق إليها أحدٌ غيرهم ، كما قال تعالى على لسان سيدنا لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف]

قلنا سابقاً : إن كل إنسان منَّا له فى ذاته الخاصة حرية ، فإذا انتقلتْ إلى غيره جاءتْ قيود لهذه الحرية ، إذن : فلى حرية مع نفسى، ولى حرية مع أهلى ، ولى حرية مع الناس عموماً فى الشارع، ولكلٍّ حدود والتزامات ، فالإنسان مثلاً حين يغلق على نفسه حجرته الخاصة تكون حريته أوسعَ ، حيث لا أحدَ معه يحدُّ من حريته .

فإذا خرج من حجرته الخاصة إلى الصالة مثلاً تصبح حريته مُقيَّدة بعض الشىء لوجود أهله وأولاده ، فإذا خرج إلى الشارع حيث عامة الناس قُيِّدتْ حريته أكثر ؛ لأن لكل مَنْ يتعامل معهم فى الشارع حرية ، وحريةُ الآخرين تُقيِّد حريتك ، فإذا ما ذهبتَ إلى النادى مثلاً حيث الأحبة والأصدقاء ، فإنك تذهب بهندامك الكامل وأدبك الجمّ .. الخ .

لذلك ظهر تبجُّح قوم لوط بفاحشتهم ، لدرجة أنهم كانوا يأتونها فى ناديهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : الفعل الذى لا ينبغى لكم فى الخَلْوة تفعلونه فى النادى علانيةً ، وهذه الفعْلة ممنوعة شرعاً ، حتى لو كانت فى المحلَّلة لك وهى الزوجة ؛ لأنَ إتيان الزوجة لا يكون إلا فى منبت الولد .

لذلك لما نادى البعض بحرية الرجل فى الاستمتاع بالمرأة حيثما

يشاء ، وفَهم هذه الحرية من قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ (٢٢٣) ﴾ [البقرة] نقول لهم : لقد غفلتم عن معنى الحرث هنا ، فالحرث هو الأرض المعدَّة للإنبات ، كذلك يكون إتيان الزوجة في موضع الإنبات حيث يأتي الولد ، فإنْ كان في الموضع الآخر الذي لا إنبات فيه فهو حرام . فإذا كان الإسلام يُحرِّم هذه الفِعْلة مع الزوجة ، فما بالك لو فعلها مع رجل مثله ؟

وكما حرَّم الشرع فعْلة قوم لوط ، وهو إتيان الرجل للرجل حرَّم كذلك أنْ تفعل المرأة بالمرأة ، وهو ما يُسمَّى بالسِّحاق والعياذ بالله ، وهذا التحريم بالقياس على الرجل .

إذن : فالشرع عدَّل الغرائز المنحرفة في علاقة الرجل بالرجل ، وفي علاقة المرأة بالمرأة ، وفي العلاقة الزوجية بين الزوج وزوجته، ووضع الضوابط الرادعة في هذه المسألة ، لماذا ؟ لأن هذا الانحراف سيسيء إلى النسل وإلى عمارة الكون ، والحق سبحانه يريد لخليفته في الأرض أنْ يأتي طاهراً شريفاً ، ليكون أهلاً لهذه الخلافة .

لذلك ذُكر سيدنا لوط عليه السلام سبعاً وعشرين مرة لِثقَل المهمة التي كُلِّف بها ، في حين ذكر سيدنا عيسى عليه السلام رغم أهميته في موكب الرسالات ، ورغم طبيعة خَلْقه العجيبة ، إلا أنه ذُكر خمساً وعشرين مرة .

وأنا شخصياً أخذتُ على كثيرين من الكُتَّاب والعلماء أنهم ينسبون هذه الجريمة ، وينسبون فاعلها إلى نبي الله لوط - عليه السلام - فيقولون عن الفعلة النكراء لواط ومرتكبها (لوطي) ، وهذا خطأ فادح وعيب كبير أن ننسب القبح والفاحشة لنبي الله ، الذي جاء ليحاربها ،

وليُعدِّل سلوكَ الناس فيها : قالوا : نحن نسير فى ذلك على مُقْتضى الكلام العربى فى النسب ، كما قال الناظم[1] :

وَالواَحِدَ اذْكُرْ نَاسِباً لِلْجمْعِ إنْ لم يُشَابِهْ وَاحِداً بِالوضْعِ [2]

يعنى : هم قوم لوط بالإضافة ، لكن فى اللغة مَا يُسمَّى بالنحت ، ويمكن أنْ ننحت من الكلمة ما يفيد أن القوم هم أصحاب هذه الفعلة ، بعيداً عن لوط - عليه السلام - فعيْبٌ أنْ نجعله عُنْواناً لهذه الفاحشة.

وهذه الآيات التى معنا تذكر قصة سيدنا لوط مع قومه ، فهى لقطة موجزة لآخر القصة ولنهايتها ، حيث نجَّى اللهُ المؤمنين وأهلكَ الكافرين ، وبداية قصة لوط حينما تقابل مع عمه سيدنا إبراهيم عليهما السلام ، كما قال تعالى :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت]

فهذه لقطة من القصة ، وليس تكْرَاراً لها كما يدعى البعض ، فالقَصَص فى القرآن لا يأتى سَرْداً جملة واحدة ، إنما يأتى لقطات مختلفة يذكرها فى مناسبتها .

وقد وقف السطحيون كثيراً فى مسألة عصا موسى يتهمون القرآن بالتكرار ، وهذا نتيجة قصورهم فى فَهْم كتاب الله ، فالأمر الأول بإلقاء العصا كان فى مجال الإيناس ، حيث أراد الحق سبحانه أنْ يُجرى لموسى هذه التجربة بينه وبين ربه ، بدليل سؤال الإيناس . ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] فالله يعلم ما فى يمينه ، لكن أراد

---

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية فى النحو أبو عبد الله جمال الدين ، أحد أئمة العلوم العربية ، ولد فى جيان بالأندلس عام ٦٠٠ هـ ، وانتقل إلى دمشق فتوفى بها عام ٦٧٢ هـ عن ٧٢ عاماً ، له مصنفات كثيرة فى علم العربية

(٢) هو البيت رقم ٨٧٨ فى الألفية ، وهى من بحر الرجز وعدد أبياتها ١٠٠٢ بيتاً .

سبحانه أنْ يُؤنسه ؛ لذلك أطال سيدنا موسى فى الجواب ، فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[1] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] ثم أمره الله أنْ يلقيها :﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

إذن : أراد الحق سبحانه أنْ يدرِّب موسى ، حتى إذا جاء لقاؤه مع فرعون ورأى العصا حَيَّة على الحقيقة ، كان لديه دُرْبة ولا يخاف. ثم كان الأمر بإلقاء العصا فى المرة الأخرى فى موقف آخر أمام فرعون والسحرة . إذن : هذا موقف ، وهذا موقف آخر .

وإنْ شاء سبحانه أورد القصة كاملة ، كما فى قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ربما ليتحقق لها الحبكة الفنية كما يقول نقاد الأدب ، وربما لأن العبرة والعظة لا تتم إلا بتمام القصة ؛ لأن القصة فى القرآن ليست سَرْداً لتاريخ ، ولا مجالاً للتسلية ، إنما تُسَاق للعبرة والعظة ، وتُساق لتسلية سيدنا رسول الله .

فمهمة رسول الله أمام مجابهة قومه له باللَّدد والخصومة والعناد والكفر كانت تقتضى أنْ يُثبته الله فى كل آونة ، فكلما احتاج إلى تثبيت نزلتْ عليه الآيات تحمل لقطة مناسبة من موكب الرسالات ، ثم يُسلِّى الله رسوله فيقول له : لأنك سيد الرُّسُل وخاتم الرسل ومبعوث إلى الناس كافة إلى آخر الزمان ، فلا بُدَّ أنْ تتضاعف لك المتاعبُ من قومك .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، وقلنا : إننا شاهدنا مثلاً ثورة يوليو ١٩٥٢ وما زلنا نشهد الاحتفال بذكراها كل عام ، ونستمع إلى

(١) مآرب أخرى : أى حاجات وأغراض كثيرة أخرى . [القاموس القويم ١/١٧] .

قصتها وما دار فيها ، لكن كل سنة نستدرك عليها شيئاً جديداً ، ونستخلص منها دروساً .

إذن : نقول جاء القصصُ القرآنى كل لقطة فى مناسبتها لتثبيت رسول الله كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الصافات] أى : بالقصف والرَّجْم .

كلمة (وأهله) الأهل تُطلَق على عشيرة الرجل الأقربين ، وتُطلق على الزوجة ، والحق سبحانه وتعالى أخبر هنا أنه نجَّى لوطاً وأهله أجمعين ، واستثنى منهم امرأته ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى قال :﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [العنكبوت] والغابرون جمع : غابر ويطلق الغابر على معنيين متقابلين . الغابر : يعنى الشىء الذى مضى وانتهى ، والغابر الباقى ، وقد اجتمع لامرأة لوط المعنيان معاً ، فهى من الغابرين الذين تركناهم للهلاك ، أو من الغابرين يعنى الباقين أيضاً للعذاب حتى يأتى .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بأن القصة فى القرآن لا تُساق للتسلية ، إنما تُساق للعبرة والعظة ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات] أى : على آثارهم فى سدوم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات] فى الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] نعم ، يمرون عليهم فى رحلاتهم وأسفارهم وفى تجارتهم فى رحلة الشتاء والصيف ، ويشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

كانت هذه لقطة موجزة ، وبرقية عاجلة لقصة سيدنا لوط مع قومه ومثلها تماماً قصة سيدنا يونس :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

أولاً : أثبت الحق سبحانه لسيدنا يونس - عليه السلام - أنه مُرْسَل﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات] فلنأخذ هذه الفكرة فى الاعتبار قبل الدخول فى قصته ، ولنفهم القصة فى هذا الإطار ، حتى إذا ما حدث منه شىء لا يليق برسول فى نظرك ، فاعلم أنه لا يطعن فى منزلته كرسول ، فالذى أرسله شهد له بالرسالة ولم يعزله منها ، ولم يُجرِّده من منزلته بعد ما حدث .

إذن : حين تسمع قصته لا تَقُلْ أن هذا الفعل لا يليقُ برسول ؛ لأنك لست أغيرَ على الله من الله .

وتأمل قول الله فيه ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات]معنى أبق : هرب وليس الهروب المطلق ، إنما هروب العبد من سيده ، لا هروبه من مستأجره ، ولا هروب ابنى منى ، فهذا لا يُعَدُّ أبُوقاً . فكلمة (أبق) فيها ملحظ العبودية المطلقة للسيد الأعلى ، فالله سيده وهو عبده .

لأن العبد مملوك بملك اليمين فهو بذاته ملْك لى حين آخذه أسيراً ، نعم بذاته ، لأن الله حقن بهذا الملْك دمه ، فبدل أنْ أقتله فى

الحرب أسرْتُه واستعبدته ، فهو لا يصير عبداً إلا إذا أسرْته ، وما دُمْت أسرْته وقدرْت عليه تستطيع قتله ، إذن : ملّكك اللهُ رقبته ، لأنه حمى دمه أنْ يُرَاق .

فلا داعى إذن للمقارنة بين الرقِّ والحرية ، وإنْ أردتَ المقارنة ، فقارن بين رِقٍّ وقتل ، ولو خيَّرْتَ العبد نفسه بين أن يعيش عند سيد يخدمه ، وبين القتل لاختار العبودية . إذن : العبودية هنا ليست سُبَّة فى الإسلام ، إنما هى جميل أسْداه الإسلام إلى هؤلاء العبيد .

ومحمد ﷺ ما جاء ليشرِّع للرقِّ ، ويزيد من أعداد الرقيق إنما جاء ليقضى على الرِّق ، وليجفِّف منابعه ، ورسول الله ﷺ جاء والرق موجود فى المجتمع وبكثرة ، حيث كان له ثلاثة وعشرون مصدراً يأتى الرقُّ منها ، فماذا فعل الإسلام ؟

سَدَّ كل هذه المصادر ، ولم يَبْقَ منها إلا الأسير فى حرب شرعية ، ثم أخذ يُعدِّد مصارف الرق ويفتح الأبواب لتحرير الرقيق كما رأينا فى الكفَّارات وفى التطوع بتحرير الرقاب . فإنْ لم ترتكب ذنباً يستدعى كفارةً وعتْقَ رقبة ولا حاجةَ لك فى التطوع بعتق رقبة واحتفظتَ بما لديك من الرقيق فلتكرمه .

وقد وضع لنا النبى ﷺ دستوراً نسير عليه فى معاملة الرقيق ، حين قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعنه عليه »[1] .

هكذا أمر الإسلام فى مسألة العبيد ، والإسلام أبقى على الرقِّ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل .

من الحرب المشروعة ؛ لأن لى عدواً كافراً يحاصرنى ويحاربنى ، ويأخذ أولادى أَسْرى عنده ، فلا بُدَّ من المعاملة بالمثل ، أسَرُوا منّا نأسر منهم ، فَدوْا أسْراهم نفدى أسْرانا ، أطلقوا السراح نطلق .. وهكذا ، إذن : المتأمل فى هذه المسألة يجد أن محمداً ﷺ ما جاء لِيُشرِّع للرقِّ ، إنما جاء ليُشرِّع للعتق .

وقوله تعالى فى شأن سيدنا يونس ﴿ إِذْ أَبَقَ (١٤٠) ﴾ [الصافات] ليس مأخذاً على نبى الله يونس ، لأن (أَبَقَ) تعنى أنه معترفٌ بأنه عبد لربه ، هذه اللقطة لم يأتِ لها تفصيل هنا ، إنما جاء فى سورة أخرى لنعرف أن المسألةَ ليستْ (ميكانيكا) ، المسألة مرادات حَقٍّ تأتى فى موضعها لحكمة ، ولسيدنا يونس سورة باسمه ، ولن يُذكر اسمه إلا مرة واحدة ، ثم يذكر فى غير السورة المسمَّاة باسمه كل تاريخه .

فمعنى (أَبَقَ) هرب من سيده أو ترك قومه دون إذن من ربه ، وهذه المسألة فُصِّلَتْ فى قوله تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : صاحب الحوت ، وهو سيدنا يونس ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبياء] والمغاضب غير الغاضب ، المغاضب : فيها مفاعلة ومشاركة ، فهو غاضب ، والمقابل له أيضاً غاضب ، فهى مثل شارك محمد علياً ، فهى شارك علىٌّ مُحمداً ، أما غاضب فيعنى من ناحيته هو فحسب .

لكن مُغَاضباً لمن ؟ الطرف الآخر هنا هم القوم لما كذبوه وآذوه لم يُطقْ ، فهو ليس مُغَاضباً لربه ، إنما مغاضباً لقومه وعنده أمل ، وظن فى ربه أن يسامحه فى هذا التصرف ؛ لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧) ﴾ [الانبياء] البعض[1] فهم (نقدر) من القدرة، وحاشا لله أن يظن نبى الله أن الله لن يقدر عليه ، ولن يعيده إلى قومه .

إنما معنى (نقدر) هنا أى : نُضيِّق عليه[2] ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ (٧) ﴾ [الطلاق] فهى ثقة منه فى رحمة من أرسله ، وأنه سبحانه لن يُضيِّق عليه أنْ يُنفِّس عن عواطفه حين ترك قومه دون إذن من ربه .

ومعنى (الفُلْك) السفينة (المشْحُون) المملوء ، وهذا يدلُّنا على أن للسفينة حملاً خاصاً ، لا ينبغى أنْ يزيد ، وإلاَّ تعرضت السفينةُ للغرق حسب قاعدة أرشميدس ، وبهذه القاعدة تطفو الأشياء ، وعليها قامتْ فكرة الغوَّاصات ، معنى غواصة يعنى : تغوص تحت الماء ، لأن وزنها أثقلُ من إزاحة الماء ؛ لذلك يقولون : خفْ تعوم .

وما دام أن الفلك مشحون ، والعدد أزيد من حمْل السفينة فقرر القبطان أن يُلقى بأحد الركاب لِيَخفَّ الحملُ ، فأجروا القرعة ، فخرج سهم سيدنا يونس ، فألقَوْا به فى البحر فالتقمه الحوت ، هذا معنى ﴿ فَسَاهَمَ .. (١٤١) ﴾ [الصافات] أى : دخل معهم فى القرعة ، وألقى بسهمه مع سهامهم ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] معنى ﴿ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] المدْحَض الخاسر فى الصفقة ، والمراد القرعة حيث كان من نصيبه أنْ يُلْقى هو فى البحر .

والقرعة طريقة للاختيار ، تبرىء مالك السفينة من أنْ يُتَّهم

---

(١) رواه عوف عن الحسن البصرى . وتقدير المعنى : أفظن أن لن نقدر عليه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :« فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حذفت ألفه ، وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصور إلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار » .

(٢) قاله عطاء فيما ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير .

بالتحيز أو المحاباة ، وعملية إلقاء السهام مسألة قدرية خالصة ، لا دَخْلَ فيها للهوى ، وهى دليلٌ على عدالة الحكم ؛ لذلك كثيراً ما نلجأ فى إجراء القرعة إلى طفل صغير ، يختار الأوراق الملقاة مثلاً ، لماذا ؟ لأنه لا يستطيع التمييز بينها ؛ لذلك يأتى اختياره قَدَراً مُنزَّهاً عن الهوى .

فقوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ (١٤١)﴾ [الصافات] يعنى : دخل معهم فى القرعة يعطينا لقطة اجتماعية تعفينا من الحرج والضغائن ، لأنه إذا وُجد شىء لا يتسع للطالبين له ، لا يصح أنْ يميزَ القائمُ عليه بين هؤلاء الطالبين ؛ لأن تمييزَ واحد على الآخر يُورث فى النفس شيئاً ، وإجراء القرعة اختيار قدرى لا دخْلَ لأحد فيه[1] .

وهذه المسألة لجأ إليها سيدنا رسول الله ﷺ ، حينما دخل المدينة والتفَّ الناس حوله ، كُلٌّ يريد أنْ يأخذ بزمام ناقته ﷺ ليذهب برسول الله إلى بيته ، فكيف يفعل رسول الله وهو يريد ألاَّ يكسرَ خاطر أحد منهم ؟ لقد حسم رسول الله هذا الموقف ، حين قال : « دعوها فإنها مأمورة » فأخرج نفسه من الاختيار ، وتركه لله تعالى ولقدره ، وسارتْ الناقة حتى بركتْ عند ديار بنى النجار[2] .

---

(١) يذكر القرطبى عند تفسيره لهذه الآية (٨/٥٧٦٥) أمراً هاماً وهو أنه لا يجوز الاحتجاج بهذه الآية على جواز الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر ، ويقول : « إنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه وزيادة فى إيمانه فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعازير على مقدار جنايته » ونصَّ أبو بكر الجصاص على خصوصية هذا بيونس عليه السلام فى « أحكام القرآن » (٣/٤٩٧) طبعة دار الكتب العلمية .

(٢) أورد هذه القصة ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/١١٢ ، ١١٣) أن كلاً من بنى عوف وبنى بياضة وبنى ساعدة وبنى الحارث أرادوا الأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ ، وهو يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » حتى بركت الناقة فى أرض لبنى عدى بن النجار .

قد يقول قائل : هل تنجو السفينة أو تغرق بسبب شخص واحد خَفَّ من وزنها أو زادَ عليه ؟ نقول : نعم ألم تسمع عن القشَّة التى قصمتْ ظهر البعير ، فأنت حين تُحمِّل الجمل يتحمَّل على قدر طاقته، حتى إذا زدْتَ عليه عوداً واحداً برك بحمله ، والحقيقة أن العود الواحد أو القشة لا تقصم ظهر البعير ، إنما مجموع العيدان والقشة الأخيرة هى فقط التى رجَّحتْ الوزن ووصلتْ به إلى درجة عدم التحمُّل ، كذلك الحال فى سفينة سيدنا يونس ، حيث توقف نجاتها من الغرق على إلقاء واحد من ركابها ، وهلاك واحد خير من هلاك الجميع .

ونتعلم من هذه المسألة أنه لا مانعَ حين يحل الخطر بالجماعة أنْ يدفعه عنهم أحدهم ، والقرعة هى التى تحدد هذا الواحد .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : ابتلعه الحوت ، وقد فعل عليه السلام ما يُلاَم عليه ، واللوم نوع من العتاب ، وفَرْق بين ما تُلاَم عليه وما تُعَاقب عليه ، سيدنا يونس فعل ما يُعاتَبُ عليه من ربه - عز وجل - وكأن الله يقول له : لقد تسرعتَ حين تركتَ قومك وضقْتَ بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر ، وأنْ تتحمل الأذى فى سبيل دعوتك . فاللوم ضَرْب من العتاب ، لا يصل إلى درجة العقاب ، وغالباً ما ينشأ العتاب بين الأحبة لاستبقاء المودة ، لذلك قال الشاعر :

أمّا العِتَابُ فَبالأَحِبَّة أَخْلَقُ والحبُّ يَصلُحُ بالعِتَاب وَيَصْدُقُ[1]

---

(١) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، توفى ١٩٣٢م عن ٦٦ عاماً . وهو مطلع قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل . [الموسوعة الشعرية] .

ومعلـوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظـل في صحبتك .

إذن : يشـفع لسيـدنا يونـس هنـا عـدة أشـياء أولـهـا ﴿إِذْ أَبَقَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات] يعنى : كان عبـداً لله تعالى ، ثم ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] أى : لا نُضيِّق عليه ، وهذا حُسْن ظن بالله ، ثم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات] فالله عاتبه ولامـه مجرد لَوْمٍ ، على أمر لا يصحُّ من نبى ، والعتاب دليل المحبة .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات] التسبيح يعنـى : التنـزيه المطلق لله تعالى فكوْنه من المسبحين جعله موضعاً للَّوْم والعتاب ، لا للإيذاء والعـذاب ، فلولا إيمـانه وتسـبيحـه لَظَلَّ فى بطن الحـوت إلى يوم يُبْعَثُون.

مسألة عتـاب الحق سبحانه لنبيه يونس على تركـه لقومه وتخلِّيه عنهم ، لمجرد أنهم عاندوه وكذَّبوه يُذكِّرنا بسنة الله تعالى فى رسُله ، وهى النُّصْرة والتأييد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]

لكن قد يتأخر هذا النصر ، مع أن الله قادر أنْ ينصرهم من أول وهلة ، لكنَ الحق سبحانه يريد بذلك أمرين :

أولاً : أنْ يسـتـشـرىَ الفـسـادُ ويعُمَّ ، حـتى يـضـيق الناس به فيتطلَّعون إلى الحق وإلى الخير ، ويَسعَوْنَ هم إليه .

ثانياً : ليُـمحِّص اللهُ المـؤمنين بالرسل ، ويميـز منهم أصـحاب

الثبات والقدرة على تحمُّل مشاقِّ الدعوة فيما بعد . إذن : تأخُّر النَّصْرة ليس خُذْلاناً للرسل ، ولا تخلياً عنهم ، فما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ويتخلَّى عنه .

﴿ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

نلحظ في الأَخْذ ، قال ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ (١٤٢) ﴾ [الصافات] فنسب الفعل للحوت ، لكن هنا في النجاة نسب الفعل إلى الله ، فقال ﴿ فَنَبَذْنَاهُ (١٤٥) ﴾ [الصافات] أي : ألقيناه وطرحناه ﴿ بِالْعَرَاءِ (١٤٥) ﴾ [الصافات] أي : في أرض فضاء واسعة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الصافات] يعني : مريض أو مُتْعب من الضيق الذي عاناه في بطن الحوت ، أو سقيم من التفكير فيما حدثَ من قومه ، وفيما حدث منه ، فهي تحتمل السقم المادي والمعنوي .

ثم لم يتركه ربه بهذا العراء ، بعد أنْ ألقاه الحوت في هذه الأرض الفضاء وهو مُتْعَب ، وأشبه ما يكون بالطفل بعد ولادته ، فأنبتَ اللهُ له شجرةَ اليقطين ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾ [الصافات] وهي شجرة عريضة الأوراق قالوا : هي شجرة القرع تستره وتُظلُّه وتحميه من الذباب والحشرات ؛ لأنه خرج وحوله إفرازات من بطن الحوت تعوق تنفُّس جلده ، وتعوق حالته الصحية ، وتجعله لزقَ المزاج .

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ عن شجرة اليقطين[1] ، قال : « هي شجرةَ أخي يونس »[2] .

والهاء في (عليه) تعود إلى سيدنا يونس ، وهذا يعني أن إنبات هذه الشجرة حدث بعد أنْ ألقاه الحوت في العراء ، ولم تكُنْ شجرة اليقطين موجودةً في هذا المكان من قبل .

إذن : فالتقام الحوت لسيدنا يونس - عليه السلام - كان رحمةً له من الله بدلَ أنْ يضيعَ في البحر الواسع وتتقاذفه الأمواج لا ندري أين تذهب به ، أما الحوت فله إرادة ويمكنه الاحتفاظ به وإلقاؤه على البرِّ . فنحن أمام سلسلة من رحمات الله ليونس عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] كأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن ما حدث من يونس يقدح في رسالته ، أو يجعلنا نغير رأينا فيه كرسول ، فهو مرسل إلى ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] والمائة الف هنا قد تكون كناية عن العدد الكثير ؛ لأن الألف قديماً كان منتهى ما يُعرف من العدد عند الناس .

---

(١) كل شجرة لا تقوم على ساق كالدّباء والبطيخ والحنظل ونحو ذلك ، فهي عند العرب يقطين. [قاله ابن جرير الطبري في تفسيره للآية (الجزء ٢٣)] . قال الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان . أي : أقام به فهو يفعيل . وقيل : هو اسم أعجمي . [فتح القدير للشوكاني (ج ٦) في تفسير آية الصافات ١٤٦] .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (كتاب الأطعمة) (حديث ٥٠٦٤) أن مسلماً أخرجه بلفظ : « وكان يعجبه القرع » وللنسائي : « كان يحب القرع ويقول إنها شجرة أخي يونس » قال ابن جزي : « إنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق وبرد الظل ، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب . وكان هذا من تدبير الله ولطفه».

لذلك لما أرادوا أنْ يفدوا بنت كسرى (أظن) حين وقعت فى الأسْر عرضوا على مَنْ جُعلَتْ فى سهمه من المسلمين كذا ألف فوافق ، فقال له أصحابه بعد أنْ عقد هذه الصفقة : لماذا لم تطلب أكثر من ذلك ، فهم قادرون على أنْ يفدوها بالمال الكثير ؟ قال : والله لو أعلم أن وراء الألف عدداً لَقُلْتُ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] هل الحق سبحانه لا يعرف عدد هؤلاء القوم على وجه التحديد ؟ نعم يعرفهم سبحانه وتعالى ، ولو أراد لَذكَرهم لنا تحديداً ، إنما قوله ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] ليس للدلالة على الزيادة ، إنما لتأكيد العدد السابق المائة ألف ، كما أعطيت فلاناً حقه ويزيد ، فأنت لا تتحدثُ عن الزيادة إنما تؤكد على العدد ، وأنه غَيْرُ ناقص ؛ لأن الألفَ يُطلَق أيضاً على ما يقرب الألف مثل تسعمائة وتسعة وتسعين ، إذن : فالزيادة هنا تؤكد تمام العدد .

وقوله تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] وما دام المتاعُ موقوتاً بزمن ينتهى عنده ، فهو متاع الدنيا ، ومُتعة الدنيا للمؤمن تنتهى إلى خير منها ، فلا تَقُلْ إذن : أنهى اللهُ متعةَ المؤمن ؛ لأن انقطاع متعة الدنيا يُوصِّلك بمتعة الآخرة وتمتُّعك فى الدنيا موقوت بعمرك فيها ، ومحدود بحدود إمكانياتك وقدراتك ، أما متعة الآخرة فباقية وتأتى على قدر إمكانيات المنعم سبحانه .

إذن : هذا إكرام أنْ تُنقل من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة ، فقوله ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يُعَد جميلاً من الله .

بعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ[1] لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] كلمة استفتى أى : طلب الفُتْيا ، مثل استخرج طلب الإخراج ، واستفهم طلب الفهم ، والفتية تعنى منتهى القوّة ، ومنها الفتى والفتوة . فمعنى : استفتى طلب ما يُقوِّيه فى جهة الفتوى ، فالذى لا يعرف قضيةً دينية مثلاً يسأل عنها ويستفتى يعنى : بعد أنْ كان ضعيفاً فى الدين ، يطلب أنْ يصيرَ قوياً فى أمر دينه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وفى أهل الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف]

يعنى : لم يكونوا شيوخاً ، وعجيبٌ أنْ يأتى الإيمانُ مع فتوة الشباب وعنفوانه ، وهو مَظنَّة الشهوات والرغبات ؛ لذلك ورد فى الحديث : « عَجِبَ ربُّكَ من شاب ليستْ له صَبْوة[2] »[3]

---

(١) الإفك : الكذب . وأفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . وأفاك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب . [القاموس القويم ١/٢٢] .

(٢) الصبوة : جَهْلَة الفتوة واللهو من الغزل . ومنه التَّصابى . يقال : تصابى وصبا يصبو صَبْوةً . أى : مال إلى الجهل والفتوة . فالصبوة : الميل إلى الهوى . [لسان العرب - مادة : صبا] .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٤/١٥١) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » .

والحق سبحانه بيَّن لنا في مقاييس المجتمعات أنها لا تخلو عن اثني عشر نوعاً ، ستٌّ منها في المحبوبية ، وستٌّ في المبغضين والعياذ بالله ، المحبوبون منهم المحبوب والأشدّ حباً ، والمبغضون كذلك منهم المبغَض والأشدّ بُغْضاً .

يقول تعالى في الحديث القدسي : « أحب ثلاثاً وحُبى لثلاث أشدّ : أحبُّ الشيخ الطائع ، وحُبِّي للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغني الكريم وحُبى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الفقير المتواضع وحُبى للغني المتواضع أشدّ »

هؤلاء الستة المحبوبون ، وتستطيع أنت أنْ تأتي بالمقابل لهؤلاء ، وهم المبغوضون والعياذ بالله .

إذن : الشاب الطائع أكثر محبةً عند الله ؛ لأن عنده دواعيَ الشهوة ومبرراتها وعنفوانها ، ومع ذلك تغلَّب عليها وسلك طريق الطاعة على خلاف الشيخ الذي ذهبتْ شهوته وقلَّتْ دواعيها عنده ، كذلك الحال في الغني الكريم وفي الفقير المتواضع .

هؤلاء الثلاثة يُمثِّلون قمة الرقي في المجتمعات ، وقمة الخلافة في الأرض ، وتصوَّر مجتمعاً شبابه طائعون ، وفقراؤه كرماء ، وأغنياؤه متواضعون . تحت هذا درجةً مجتمع شيوخه طائعون ، وأغنياؤه كرماء متواضعون ودون هؤلاء المبغضون ، والعياذ بالله .

فالمعنى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] يعني : اطلب منهم الفتوى التي تُقوِّيك في أمرك الجدلي ؛ لذلك نقول للمفتي الذي يقصده الناس للفتوى

الناس يريدون أنْ تُقوِّيهم برأيك ، فلا تذهب بهم ناحية المياسير ؛ لأنك بذلك تشجعهم على المياسير ، فأنت إذن لا تُقويهم إنما تضعفهم ، بل أعطهم الحكم الصحيح فهو القوة الحقيقية .

لكن ، لماذا يطلب الحق سبحانه من النبى أنْ يستفتيَ القَوْمَ ؟ قالوا : لأن القضية حين تكون معلومة الحكم عند المتكلم يقول : أنا لا أقضى فيها ، إنما خَصْمى هو الذى يقضى ، لماذا ؟ لأنك واثق أنه إذا أدار المسألة فى ذهنه لن يجدَ إلا أن يقولَ ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : أنا راضٍ حكمك ، ألم أقفْ بجانبك يوم كذا وكذا ؟ هكذا على سبيل السؤال لأنك واثق من الجواب .

أما لو جاء الكلام منك خبراً ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ؛ لذلك ناقش الحق هذه القضية بهذا الاستفهام ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾ [الصافات] هذا استفهام يحمل معنى الإنكار والتعجب ، يعنى : كيف تقولون ذلك ؛ لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله ثم نسبوا لله سبحانه الولد .

لذلك يرد القرآن عليهم ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾ [الصافات] كيف ؟ مَن الذى خلق ؟ إنه الله خالق الذكر وخالق الأنثى ، فكيف تختارون لأنفسكم الجنسَ الأفضل وهم الذكور ، وتجعلوا لله تعالى البنات ؟

كيف وأنتم إذا بُشِّر أحدكم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سُوء ما بُشِّر به ، ثم يفكر : ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ[1] أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩) ﴾ [النحل]

(١) الهُون : الخزى والذل والضعف . قال الفراء : الهون فى لغة قريش الهوان . [لسان العرب – مادة : هون] .

كلمة ﴿ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩) ﴾ [النحل] يعني : حياً ؛ لأن عاطفة الأبوة لا تتحمل أنْ يرى الوالدُ ولده وهو يموت ، أو أنْ يخنقه بيده ؛ لذلك يتخلص منه بدفنه في التراب حتى لا يراه .

وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] يعني : أتجعلون لله مَنْ يُربَّى في النعمة والزينة ، وهم البنات ، وتجعلون لأنفسكم البنين القادرين على العمل والسعي وتحمُّل المشاق ، لذلك حكم سبحانه على هذه المسألة بأنها قِسْمة ظالمة جائرة .

فقال سبحانه : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] تأمل كلمة (ضيزى) ، والله لو كان في غير القرآن لكانَ ثقيلاً غيرَ مستساغ ، لكنه يأتي في سياقه من كلام الله طبيعياً سلسبيلاً ، لماذا ؟ لأنه وُضِع في مكانه ليعبر عن هذه القسمة الجائرة العجيبة ، التي لا يعبر عنها إلا هذا اللفظ العجيب بما يحمله من جَرْس يرنّ في الأذن .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) ﴾ [الصافات]

إذن : أنتم مخطئون ، بل جهلة أغبياء في قضيتين : الأولى : أنكم جعلتم الملائكة إناثاً ، والأخرى : أنكم أخذتم الذكور لأنفسكم وتركتم لله البنات ، فمَنْ قال لكم إن الملائكة بنات ، فكلمة بنت وولد منشؤها الزوجية والتناسل ، والملائكة لا يتزوجون ولا يتناسلون ، ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة .

ثم إن الذى يحكم على الملائكة بأنهم إناثٌ لا بُدَّ أنْ يكون قد شهد خَلْقهم ، والله يقول : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال فى سورة الكهف : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] الحق سبحانه يخبرنا بهذه الحقيقة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : معاونين ومساعدين فى عملية الخَلْق ، فهو يفضح هؤلاء الذين سيأتون ويتحدّثون فى مسألة الخلق كأنهم رأوْهَا ، فيقولون : الملائكة إناث . ويقولون : الإنسان أصله قرد إلى آخر هذه الادعاءات.

الحق يُحذِّرنا منهم ليعطينا المناعة اللازمة لمواجهتهم ، ويكفى أنْ نعلم أنّ هذه مسألة غيبية لا علْمَ لهم بها ، إلا ما أخبرنا به الخالق سبحانه ، ومع ذلك ترك لنا فى الكون ما يُبيِّن صدْقه فيما لم نشهد .

والحق سبحانه ينقض هذه الأباطيل بقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات] . فكل جنس من الأجناس قائم بذاته ، وليس هناك شىء متطور عن شىء آخر . كذلك قال سبحانه :﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس]

أما الملائكة فَلَهُمْ طبيعة خاصة لا تصلح للزوجية ؛ لأنهم لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامونَ .. الخ وإنْ كانت هذه مسألة مخالفة للعقل ، فخُذْها هى الأخرى ضمن الأشياء المخالفة للعقل ، والتى يختبر بها إيمانك بالمغيَّبات التى أخبرك بها ربُّكَ ، وهذه المغيَّبات التى أخبرك الله بها رصيدها أنك آمنتَ بالقائل المخْبِر بها .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى فيقول :﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] إذن : فجُرأتهم على الله لم تَنْتَه عند حدٍّ وصفهم الملائكة بأنهم إناث ، ولا عند نسبتهم البنات لله تعالى ، بل وصلتْ جُرْأتهم إلى ذات الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات]

وكأن الحق سبحانه يُفسح للمكابر ويُرخِي له العنان حتى يقول كلمة تكشف كذبه ، وتفضح ادعاءه ، وتُظهر أن المكابر في أمر الدين أحمقُ غبيٌّ ، لأنهم قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (١١٦) ﴾ [البقرة] والآن يقولون (وَلَدَ اَللهُ) وفَرْق كبير بين القولين : (وَلَدَ اللهُ) نسبوا لله الولد مباشرة إنما (اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً) يعني : لم يلد إنما تبنَّى ولداً ، فالأصل أنه ليس له ولد ، لذلك اتخذ ولداً . وقد ردَّ الله على قولهم (وَلَدَ اللهُ) فقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وردَّ على قولهم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (١١٦) ﴾ [البقرة] فقال : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً (٣) ﴾ [الجن]

ولنبحث نحن مسألة اتخاذ الولد من خلال واقعنا : لماذا نسعى للولد ونطلبه ؟ لماذا نحزن حين يمتنع الإنجاب ونقلق حين يتأخر الولد ؟ قالوا : لأن الولد ذِكْرى وامتداد لأبيه ؛ لذلك يفرح الرجل بابنه ويفرح أكثر بحفيده ؛ لأنه بالولد ضمن ذكْراه جيلاً ، وبالحفيد ضمن ذكْراه جيلين ، عجيب أمْرُنا مع الدنيا ، كيف نتمحك فيها ونتشبَّث بها ولو بالذكرى ، وإذا لم تَدُمْ لك الدنيا فما انتفاعُك بدُنْيا غيرك ؟

ولما تحدَّثَ شوقي - رحمه الله - في هذه المسألة لما جاءه حفيد وفرح به قال :

فَاضْمَنْ لنفْسِكَ بَعْدَ مَوتِكَ ذِكْرهَا فَالذِّكْرُ للإنْسَانِ عُمر ثَانِ

ولا شَكَّ أن شوقي لا يعني بالذكْر الولد ، إنما يعني العمل الصالح والأثر الطيب الذي يُخلِّد ذكْرى صاحبه ، إذن : تحتاج الولد لأنك ستموت وسيحمل ولدُك اسمَك وذِكْرَاك ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، وقد كان عبد المطلب لا يعيش له أولاد فنذرَ لله إذا رزقه أولاداً أنْ يذْبح واحداً منهم تقرُّباً لله تعالى ، فالإنسان يحتاج الأولاد ليكونوا عِزْوةً كما يقولون ، وآخر يقول إذا متُّ ، مَنْ يأخذ فيَّ العزاء ؟ سبحان الله إذن ضمنتَ أنك ستُعزَى وولدك من بعدك سيُعزَّى . إذن المسألة فانٍ في فانٍ .

نعم ، لهذه الأسباب نحتاج نحن الولد ونسعى إليه ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، فبماذا ينفعه الولد ولم يتخذه ، وله سبحانه مُلْك السموات والأرض ؟

لذلك يردُّ الحق عليهم : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر] لو أراد سبحانه لاختار ما يشاء ، فهو الذي يقول ، وهو الذي يختار لا أنتم ؛ لذلك كان رسول الله مؤدباً في عبوديته مع ربه ، فقال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : إنْ كان للرحمن ولد أخبر هو سبحانه به ، فأنا أول المؤمنين بوجوده .

وفي موضع آخر ، قال في الردِّ عليهم : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً ، ولا ينبغي له ذلك ،

ولا يناسبه أبداً ، لأن معنى الوالدية أو المولودية مفقود فى حقِّه تعالى ، لأنه باقٍ لا يموت ، فيحتاج إلى مَنْ يحمل ذكْراه ، وهو الغنى عن خَلْقه ، وله مُلْك السموات والأرض ، والعباد كلهم صَنْعته وعياله ، فلا يحتاج إلى عِزْوة كما تحتاجون .

وقال سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] يعنى : لم يكُنْ له صاحبة . يعنى : زوجة حتى يكونَ له منها ولد . إذن : هذا كله إفْكٌ وافتراء على الله ؛ لذلك وصفهم الله بالإفْك ، ثم بالكذب المؤكَّد فى ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الصافات]

لكن ، لماذا هذا الإفْك وهذا الكذب ؟ قالوا : ليحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الزمنية التى كانت لهم قبل الإسلام ، السلطة الزمنية التى جعلتْ لهم الزعامة والرياسة والجاه ، ومعلوم أن اليهودَ فى المدينة كانت لهم مكانتهم المالية والعلمية والحربية ، وكانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يعرفون أنه سيسلب منهم هذه السلطة .

وسمَّى الله كذبهم إفكاً ؛ لأن الإفك هو الكذب المتعمَّد ، وافتراء الكذب المتعمد إنما كان إفكاً لأنه يقلب الحقائق ، ومن ذلك سُمِّيتْ المؤتفكة ، وهى القرية التى قلبها الله بأهلها ، فجعل عاليها سافلها .

والكذب المتعمَّد قَلْبٌ للحقيقة ؛ لأن الإنسان إذا قال قضية ، هذه القضية تُسمَّى نسبة كلامية ، فإنْ سبقها نسبة وجودية تُطابق الكلام فالكلام صدْق ، وإنْ كانت النسبة لكلام لا واقع له فهى كذب ، والكذب على درجات ، أعلاها وأشدها الافتراء على الله تعالى فى قضية واضحة ، وفى أصل من أصول العقيدة ، فليس الكذب هنا فى أمر هيِّن ، عدة جنيهات مثلاً ، بل الكذب هنا فى القمة العقدية .

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات] فنسبوا لله تعالى الولد مباشرة ، وليس مجرد اتخاذ الولد .

لذلك يحكم الله عليهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] لكن هذا أسلوب خبرى ، والخبر من الله تعالى صادقٌ لا شكَّ ، لكنه فى العقل قضية تحتمل الصدق والكذب ، لذلك يُطوِّقهم الله بأسلوب آخر لا يجدون منه منفذاً ، يثبت كلامهم فى أذهان قارئيه أو سامعيه ، يُطوِّقهم بهذا الإقرار ، فيقول سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾

الهمزة فى ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] همزة الاستفهام لأن الفعل ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] مبدوء بهمزة وصل ، فلما دخلتْ عليه همزة الاستفهام حُذفَتْ همزة الوصل ، وأثبتت الهمزة التى جاءتْ لمعنى الاستفهام ، فأصله : أاصطفى . وهذا الاستفهام للتعجُّب والإنكار ؛ لأن الحق سبحانه هو خالق البنين والبنات ، فكيف يصطفى لنفسه سبحانه الجنسَ الأدنى ، وهو خالق الجنسين ؟

إذن : هذا كلام لا يُقبل حتى فى ميزان العقل فالمسألة واضحة ؛ لذلك يأتى بهذين الاستفهامين للتعجُّب من قولهم ، فيقول : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾ [الصافات] يعنى بعقولكم فالأمر واضح ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه يستفهم منهم ، حتى يأتى الحكم منهم هم على سبيل الإقرار ولا يكون إخباراً ، والإقرار سيد الأدلة ، أما الخبر فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فى العقل .

هذا دليل عقلى يبطل هذا الادعاء ، إلا أن الدليل العقلى قد تختلف

فيه العقول ، لذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الدليل النقلى ، فلعلَّ عندهم كتاباً يدرسون فى هذه المسألة :

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) ﴾

بعد أنْ أبطلَ اللهُ ادعاءهم بالدليل العقلى يبطله بالدليل النقلى ، فكلمة ﴿ سُلْطَانٌ (١٥٦) ﴾ [الصافات] إما سلطان حجة تقنع ، أو سلطان قهر وإجبار ، الفرق بينهما أن سلطان الحجة يقنع المقابل فيفعل طائعاً ، أما سلطان القهر فيجبره فيفعل كارهاً . والمعنى : ليس لديك سلطان حُجَّة ولا قَهْر.

ومثل ذلك قوله تعالى حكايةً عن إبليس يوم القيامة :﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا قوة عندى أقهركم بها على طاعتى ، ولا حجة أقنعكم بها ، بل كنتم أنتم على (تشويرة) يعنى : على استعداد للضلال وللمعصية .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ (١٥٦) ﴾ [الصافات] بيِّن واضح .

وقوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) ﴾ [الصافات] يعنى : إنْ كان لكم سلطان فأتُوا بكتابكم ، أى : الذى نزل عليكم من الله يخبركم بهذا .

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا[1] وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) ﴾

---

(١) أكثر أهل التفسير أن الجنَّة ههنا الملائكة . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم الجنة لأنهم لا يُرَوْنَ . وقال أبو مالك : إنما قيل لهم جنَّة ، لأنهم خُزَّان على الجنان ، والملائكة كلهم جنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٧٤) .

كلمة (الجِنة) بالكسر وكذلك الجنة بالفتح ومنها الجن ومجنون كلها مادة (جَنَّ) وتفيد الاكتنان والستر و (الجنة) هنا هم الملائكة سُمُّوا بذلك لأنهم مستورون عنّا فلا نراهم ، وكذلك الجنة لأنها تستر مَنْ يسير فيها بكثرة أشجارها ، أو تستر مَنْ فيها بتوفير كل احتياجاته ، فلا يحتاج أنْ يخرج منها ، وكذلك المجنون لأنه غاب عقلُه واستتر .

والمعنى أنهم جعلوا بين الله تعالى وبين الملائكة نَسَباً حين قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات] يعني : علمتْ الملائكة أن هؤلاء المشركين بالله مُحضَرون للعذاب ، ومُحضَر اسم مفعول يعني : أُجبر على الحضور .

ثم يردُّ الله عليهم مُنزِّهاً نفسه سبحانه عن مشابهة الخَلْق : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الصافات] فكلمة (سبحان الله) نراها دائماً في كل شيء ، يخرج الذات إلى مشابهة الخَلْق ، والسبحانية لله أي : التنزيه لله موجود وثابت لله تعالى قبل أنْ يُوجد المنزِّه .

فكلمة (سُبْحانَ) تعني : التنزيه المطلق لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزهه ، فلما خلق الله الخَلْق سبَّحه ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحشر] وقال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾ [التغابن] أي : ما يزال مُسبِّحاً في الحال والاستقبال إلى قيام الساعة .

وما دامت هذه السُّبْحانية ثابتةٌ لله تعالى قبل الخَلْق وبعده ودائمة في الماضي والحاضر والمستقبل ، فإياك يا أشرف الخَلْق وأكرمه ومَنْ جعل الخَلْق كله من أجله ألاَّ تكون مُسبِّحاً أو تشذَّ عن هذه المنظومة المسبحة ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى] فمعنى

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) ﴾ [الصافات] يعنى : تنزَّه الحقُّ سبحانه عن قَوْل هؤلاء المشركين وكذبهم ، وتعالى سبحانه أنْ يكونَ بينه وبين الجِنَّة نسبٌ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾

مناسبة قوله تعالى هنا ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾ [الصافات] استثناء من قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات] فاستثنى اللهُ عباده المخلصين أنْ يدخلوا مع هؤلاء المحضرين للعذاب . وقوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) ﴾ [الصافات] أى : من دون الله ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) ﴾ [الصافات] يعنى : أنتم وما تعبدون من دون الله لا تفتنوا خَلْقى علىَّ . يعنى : لا تُفْسدوا الخَلْق على الله تعالى ، يُقَالُ : فتن فلان على فلان زوجته . يعنى : أفسدها عليه ، والمعنى : أنتم لا تستطيعون أنْ تفسدوا بينى وبين ملائكتى .

وكيف والملائكة أنفسهم ما خُلقوا إلا لعبادتى وحبى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾ [الانبياء] كيف تفسدونهم وهم بريئون منكم ومن عبادتكم لهم ، بل ويلعنونكم . إذن: كيف تفسدونهم على الله ؟

والحق سبحانه في موضع آخر يردُّ عليهم :﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ..(٥٧) ﴾ [الإسراء] يعنى : هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة التى تُقرِّبهم إليه .

وفى موضع آخر قال :﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

إذن : ما أنتم بفاتنى هؤلاء المعبودين على ربهم ؛ لأنهم أخلصوا لله العبادة ويتنافسون فى التقرُّب إليه.

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات] أى : إلا مَنْ يرضى بالعبودية من البشر فمصيره النار ؛ لذلك لما أراد سبحانه أنْ يُبكِّتَ الذين عبدوا الحجارة قال : انظروا فلن تُعذَّبوا فى النار إلا بالحجارة لتَرَوْا معبودكم معكم ومثلكم فى النار . فإنْ قُلْت : وما ذنبُ هذه الأحجار التى عُبدت من دون الله ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾

إذن : هذه الحجارة حين يُحمَىَ عليها ليُعذَّب بها هؤلاء المشركون لا لأن لها ذنباً تُعاقَبُ عليه ، إنما لها مقام معلوم ، والتزام بتنفيذ أمر الله فى المخالف : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات]

يعنى : قَدْر ومرتبة ، فالملائكة درجات ومراتب ، لا يحقد الأدنى على الأعلى ولا يزدرى الأعلى الأدنى ؛ لأن المقام المعلوم الذى جعلهم الله فيه قدر لله تعالى ، وهم يحترمون قدر الله فى خَلْق الله ، وهذا درس ينبغى أنْ نتعلَّمه ، وأنْ يُراعى كل منَّا قدر الآخرين ومنزلتهم ، فأنا حين أحترم الأعلى منى إنما أحترم قدر الله الذى جعله أعلى منى ، وإنْ كان دونى فى يوم ما ، وقُلْنا إن العالم ليس مسألة (ميكانيكا) إنما خَلْق بقدر وبحكمة مرادة لله .

فكيف نكون بنات الله ؟ وكيف نُعبَد من دون الله ونحن مُسخَّرون لعبادته سبحانه ونحن جنود مصفوفون فى انتظار أوامره تعالى

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) ﴾ [الصافات] أي : نقف صفوفاً منتظمة ، والصف دليل الانتظام وعنوان الالتزام والانضباط ؛ لذلك ورد في الحديث : « إن الله لا ينظر إلى الصَّفِّ الأعوج »[1] لماذا ؟ لأنكم بين يدي الله سبحانه فأروا الله منكم ما يدل على المساواة والالتزام والترابط .

وفي الحرب كذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف] وهذا التشبيه له دلالته ، لأن البنيان المرصوص يعني أن اللبنة فيه ليس لها إرادة في الخروج عن الأخرى ؛ لأنها محكومة بالبناء الذي وُضعتْ فيه ؛ لذلك لما استعرض رسول الله ﷺ الصفوفَ في إحدى الغزوات رأى جندياً شَذَّ عن صَفِّه ، فأشار إليه بعصاه أنْ يستويْ بمثله ، وأن ينضبط في صفِّه .

ثم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾ [الصافات] يعني كيف نرضى أنْ نُعبدَ من دون الله ، ونحن ما خُلقْنا إلا لتسبيحه تعالى :

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾

قولهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا (١٦٨) ﴾ [الصافات] أي : كتاباً ووَحْياً مُنزلاً ﴿ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) ﴾ [الصافات] كالذي أُنزل على الرسل السابقين ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات] وعجيبٌ منهم أنْ يبرروا شركهم .

---

(١) يستحب للإمام أن يأمر بتسوية الصفوف وسد الخلل قبل الدخول في الصلاة ، فعن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ كان يقبل علينا بوجهه قبل أن يُكبِّر فيقول : « تراصوا واعتدلوا » رواه البخاري ومسلم . ورويا عنه أن النبي ﷺ قال : « سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة » .

بهذه الحجة ، وقد جاءهم سيد المرسلين جميعاً ، فالرسل السابقون كانوا محدودى الرسالة زماناً ومكاناً ، وكانوا جميعاً قبل رسول الله مُكلَّفين بنقل حكم الله إلى الخَلْق ، أمَّا رسول الله : فهو الرسول الوحيد الذى فُوِّض من الله أنْ يُشرِّع للخلق ؛ لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى قيام الساعة .

إذن : كيف تريدون ذكْراً من الأولين ، ومعكم خاتم الرسل المشرِّع الذى تأتيه من الله القضية الكلية فيُبيِّنها ويشرحها ويُفصِّلها .

وقوله : ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ (١٧٠) ﴾ [الصافات] يعنى : لما جاءهم الرسول الذى يطلبونه كفروا به . إذن : المسألة مسألة لَجَج وعناد وكبرياء فى قبول الحق والانقياد له ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾ [الصافات] حَرْفا (السين) و (سوف) يدلان على الاستقبال ، لكن سوف أبعد فى الزمن من السين .

فقوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾ [الصافات] احتياط زمنى من القرآن الكريم ، فالفعل ﴿ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾ [الصافات] مضارع للحال وللاستقبال ، أما سوف فهى للمستقبل البعيد عن مستقبل السين ؛ ذلك لأن المعاصرين لنزول القرآن منهم مَنْ سيموت قبل أنْ يرى عاقبة المشركين ، وقبل أنْ يشهد ظهور الإسلام وانتصاراته .

فإنْ كان قد مات قبل أنْ يعلمَ فسوف يعلم فى الآخرة ويرى العاقبة ، هذا لغير المؤمن ، أما المؤمن فليس فى حاجة إلى هذا العلم ؛ لأنه صدق الله فيما أخبر ، ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه . لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

لذلك لما نزل قول الله تعالى - وكان المسلمون فى كَرْب وشدة وضيق قبل الفتح : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] والسين

تدل على المستقبل القريب تعجب سيدنا عمر وما أدراك ما عمر ، كان القرآن ينزل على مقتضى ما يرى ، ومع ذلك تعجَّب وقال : أيٌّ جمعٍ هذا ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا وأهلنا ، فلما جاء الفتح وانتصر المسلمون وحدث ما حدث قال[1] : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

فالمؤمن مُصدِّق بما أخبر الله به ، لأنه أمر قُضِي أزلاً في علم الله، وما دام قُضِي بالفعل في الأزل ، ولا توجد قوة معارضة تنقض ما قضى الله به ، وما دام الله تعالى لا يعتريه عجزٌ يمنعه أنْ ينفذ ما قضى فهو واقع لا محالة .

والمثال الواضح في هذه المسألة قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] تعلمون أن علماء النحو يقولون : الفعل ماض وهو ما دلَّ على حدوث فعل في زمن مضى وانتهى ، ومضارع : وهو ما يدل على الحال أو الاستقبال ، إذن : كيف نجمع بين ﴿أَتَىٰ﴾ الماضي و ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] . والنهي عن استعجاله يدل على المستقبل ، أي : أنه لم يأتِ بَعْدُ ؟

نقول : الذي يتكلم بهذا الكلام هو الله لا نحن ، والله تعالى لا يحكمه زمان ، فإذا أخبر بأمر فهو واقع لأنه لا رادَّ لما قضى أزلاً ، فأمرُ الله أتى أزلاً فلا تستعجلوه واقعاً .

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يُهزم ؟ أي : أي جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يَثِبُ في الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبي حاتم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾

معنى ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا (١٧١) ﴾ [الصافات] يعنى : قلناها قبل الكون كله ، وهذه الكلمة لها مترادفات : سبقتْ كلمتنا ووقعتْ وحقَّتْ ، سبقتْ أى : لتحديدها قبل الحدوث ، ووقعتْ ساعة الحدوث وحقَّتْ أى : هى حَقٌّ أنْ أقضى بقدرتى ، وحَقٌّ أنْ تقع على مَنْ أريد . إذن : فهى مَعَانٍ ملتقية معاً ومتكاملة .

فما هى هذه الكلمة التى سبقتْ من الله لعباده المرسلين ؟ هى قوله :﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

هاتان قضيتان : الرسل لا محالة منصورون ، والجند لا محالة غالبون ، هذه كلمة سبقتْ من الله وقضاءٌ لا يُرَدّ ، لذلك أخذ العلماء وأهل المعرفة من هذه الآيات أن للجندية شروطاً ، مَنِ استوفاها استحقَّ الغلبةَ ، ومَنْ أخلَّ بها استحق الهزيمة .

فحين ننظر فى نتيجة معركة بين مسلمين وكافرين ، فإنِ انتصر المسلمون فاعلم أنهم حققوا شروط الجندية لله ، وإنْ هُزِموا فعليهم أنْ ينظروا فى أنفسهم ويبحثوا عن أسباب الخلل ، ووجه المخالفة لقانون الجندية ؛ لأنهم لو ظلُّوا على جنديتهم لله لَتحقَّق لهم وَعْدُ الله بالغلبة .

وهذه المسألة واضحة فى معركة بدر وفى أُحُد ، ففى بدر انتصر المسلمون ؛ لأنهم لم يخالفوا قانون الجندية لله تعالى ، لكن فى أُحُد لم ينتصروا مع أن رسولَ الله بينهم ، ولا تتعجب لذلك فهذا

أمر طبيعي ، ألم يخالفوا أمر رسول الله ؟ بلى خالفوا ، فكيف لو انتصروا مع هذه المخالفة ؟ والله لو نصرهم اللهُ لَهانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولَقالُوا خالفناه في يوم كذا وانتصرنا ، إذن : النتيجة يوم أُحُد انهزم المسلمون المتخاذلون ، لكن انتصر الإسلام وعلَتْ قوانينه ومبادئه .

أما الرسل فهم واثقون من وَعْد الله لهم بالنصر ، وهذه مسألة عندهم لا تُناقَش ، والدليل على ذلك من قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ، فلما خرج من مصر ببني إسرائيل فأتبعه فرعون وجنوده ، حتى كاد أنْ يدركه عند شاطىء البحر ، وحتى قال قوم موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] .

فبماذا رَدَّ سيدنا موسى ؟ (قال كلا) هكذا بملء فيه يُكذِّب واقعاً يمكن أن يحدث بعد لحظة واحدة ، فالبحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، لكنه يقول ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] .

هذه هي الثقة في كلمة ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات] أي : الرسل .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (١٧٤) ﴾ [الصافات]

أي : اتركهم الآن في باطلهم وأعرض عنهم ، لماذا والحق سبحانه قادر على نُصْرة دينه من أول لحظة ؟ قالوا : الحق سبحانه

يريد أنْ يستشري الباطل ، وأنْ يعلو حتى يعضّ الناس فيكرهونه ويضيقون به .

وأيضاً ليتدرب أهل الحق على المحن والشدائد ويقْوَى عودهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] يعني : انظر إلى حالهم وعاقبة أمرهم ، وسوف يبصرون هم هذه العاقبة ، وما يحلُّ بهم من العذاب الذي يستعجلونه ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) ﴾ [الصافات]

كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

وهذا غباء منهم ، لأن هذا العذاب الذي يُكذّبون به ويستبعدونه واقع لا محالة ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] والساحة هي المكان الواسع أو الفناء الذي يجد الناسُ فيه مُتَنَفساً ومَنْفذاً يُروِّح عنهم ، و ﴿ نَزَلَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] يعني : حَلَّ ووقع وفاجأهم .

﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] يعني : قَبُحَ هذا الصباح ، وبئس هذا الصباح ، والصبح هو الميعاد الحق للمعركة لمفاجأة المحارب قبل أنْ يستعد ، أو يفاجئهم العذاب في وضح النهار فلا يستطيعون أنْ يستتروا من الفضيحة ، و﴿ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] القوم الذين أنذرناهم وحذرناهم .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾

قوله تعالى في الآية السابقة ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) ﴾ [الصافات] يُراد به حين الدنيا ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ (١٧٥) ﴾ [الصافات] أي : في الدنيا

﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] أي : في الدنيا وهذا الحين هو الذي قال الله فيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (٧٧) ﴾ [غافر] أي : من العقاب في الدنيا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] في الآخرة .

أما الحين هنا ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) ﴾ [الصافات] يراد به حين الآخرة ، فليس تكراراً للحين الأول ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] في الآخرة حين يُفاجئهم العذاب الذي أنكروه وكذَّبوا به ، فيقولون ساعتها : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢) ﴾ [السجدة]

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ[1] عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾

يختم الحق سبحانه السورة بالسُّبحانية التي تُثبت التنزيه لله تعالى في ذات ليست كالذوات ، وفي صفات ليست كالصفات ، وفي أفعال ليست كالأفعال ، فكل شيء له سبحانه ولخَلْقه فيه نسبة نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

فالمعنى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ (١٨٠) ﴾ [الصافات] أي : تنزَّه ربك عن كل نقص وعن كل مُشابهة ، فالخَلْق ذواتٌ ، لكن ليست كذاته سبحانه ، ولهم وجود ليس كوجوده سبحانه ، ولهم غِنىً ليس كغناهُ ، وحكمة ليست كحكمته .. الخ .

---

(١) المعنى : رب العزة التي يتعازّ بها الخَلْق فيما بينهم فهي من خَلْق الله عز وجل ، وهي هنا صفة فعل . أما في قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾ [فاطر] فهي صفة ذات . ولذلك كان من فرائد القرآن أنه قال : رب العزة . ولم يقل رب العلم أو رب القدرة أو رب السمع أو غيره من صفات ذات الله عز وجل . وقد نقل القرطبي في تفسيره (٨/ ٥٧٨٠) قول بعض العلماء : « من حلف بعزة الله ، فإن أراد عزته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة . وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه » .

ومعنى ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات] كلمة رب تفيد التربية وهى تأهيل المربى لأن ينجح فى الغاية المنوطة به المطلوبة منه ، ولكى تعده لا بُدَّ أنْ تعرف أولاً الغاية التى وُجِد من أجلها ، بعد ذلك لا بُدَّ أنْ تكون لديك حكمة تحدد له المنهج الذى يوصله إلى هذه الغاية .

إذن : مَنْ يحدد الغاية من وجود الإنسان ؟ قلنا : إن الصانع من البشر هو الذى يحدد الغاية من صنعته أولاً ، وقبل أنْ يشرع فيها فهل مخترع التليفزيون مثلاً صنعه ثم قال لنا : انظروا فى أى شىء يمكن أن يُستعمل هذا الجهاز ؟ لا بل حدَّد الهدف وحدَّد الغاية أولاً ، كذلك غايتك أيها الإنسان لا يحددها لك إلا مَنْ خلقك . فصيانة الصنعة يقوم بها الصانع ، كذلك صيانة الخَلْق لا تكون إلا بمنهج الحق .

لذلك نقول : ما فسدت الدنيا إلا حين خرج الإنسان عن هذا الإطار ، فحدَّد لنفسه الغاية ، ووضع لنفسه منهج الحياة ونحَّى صانعه ومنهج صانعه جانباً ، وقلنا : إن منهج الخالق للخَلْق مثل (الكتالوج) الذى به تُصَان الصنعة ، وبه نصلح ما فيها من عطب ، ويُشترط فى واضع المنهج أن يكون من الدقة والحكمة بحيث لا يفوته شىء ولا يستدرك عليه ، ولا نضطر إلى تعديل ما وضع ، والخالق سبحانه هو الأعلم بعباده وصنعته ، وهو الأعلم بما يصلحهم فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

وإلا فلماذا يستدعينا الخالق سبحانه إليه خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويجعل الصلوات فرضاً لازماً لا يسقط عن الإنسان بحال

من الأحوال ، لذلك شُرِعَتْ صلاة السفر وصلاة المريض ، حتى أنه إذا اشتد عليه المرض صَلَّى ولو بطرفة عينه أو بخاطر نفسه .

وسبق أنْ قلنا في هذه المسألة : إنك حين تريد مثلاً مقابلة رئيس أو مسئول كبير ، فلابُدَّ لك من موعد مسبق وموافقة وإجراءات ، بل ويحدد لك ما تقوله ، ثم هو الذي يُنهي المقابلة .. الخ أما لقاؤك مع ربك فلقاء المحب الذي يترك لحبيبه أنْ يحدد وقت المقابلة ومكانها وموضوعها ، ويترك له أنْ ينهيها متى أحبَّ ، وأنْ يبدأها متى شاء ، فإنْ أردتَ لقاء ربك فما عليك إلا أنْ تستعد له وتكبِّر : الله أكبر ، كلمة تجعلك مباشرة في حضرة ربك عز وجل .

وتصوَّر صنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيبقى فيها عطب أو فساد ؟ لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يُهْرَع إلى الصلاة ، وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها

إذن : ذكر سبحانه في الختام السبحانية ، ثم الربوبية التي تربيك وتُعدك للمهمة المرادة منك ، هذه التربية تُربِّيك لماذا ؟ تربيك للعزة ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات] والعزة أنْ تغلب ولا يغلبك أحدٌ أبداً ، وقلنا - ولله تعالى المثل الأعلى - الولد الصغير حين يسير في الشارع وحده يتجرأ عليه الآخرون ، ويتحرشون به ويضربونه ، أما إنْ سار في صحبة والده وأخذه في يده لا يجرؤ أحد على التعرُّض له ، كذلك أنت أيها المسلم كُنْ دائماً في حضن ربك ، وفي يده ، وفي معيته ، وعندها لن يجرؤ أحد عليك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

إذن : العزة التى يتصف بها الحق سبحانه ، ويفيض منها على عباده هى الغَلَبة التى لا تُقْهر ، والقدرة التى لا تحتاج إلى أحد ، وهناك عزَّة أخرى هى العزة بالإثم ، والتى قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾ [البقرة]

فالعزة هنا كبر بلا رصيد ولا سند .

ومنها أيضاً قوله تعالى حكايةً عن المنافقين :﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ (٨) ﴾ [المنافقون] نعم ، صدقوا والله ، لكن مَن الأعزُّ ومَن الأذل ؟

وقوله ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات] أى : تنزَّه سبحانه عن قولهم وعن كذبهم ﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) ﴾ [الصافات] أى : جميعاً لأنهم وإنْ كلَّفونا فى بعض الأحيان ما يشقُّ على النفس إلا أنهم أخذوا بأيدينا إلى برِّ الأمان والنجاة ، فعليهم منّا السلام كلما ذكرناهم نصلى ونُسلِّم عليهم ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات] الذى هدانا لاتباع المنهج بواسطة الرسل ، وأعاننا على هذا الاتباع ، والحمد لله على الجزاء الذى أعدَّه لنا من نعيمه وجناته فى الآخرة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

وقال العلماء روايةً عن سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أنْ يُكَالَ له بالكيل الأوفى من الأجر يوم القيامة فليختم مجلسه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات]


سُورَةُ صٓ



سورة ص[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾

سبق أنْ تكلمنا عن الحروف المقطعة في فواتح السور ، وقلنا : إن الحق سبحانه بدأ بعضها بحرف واحد مثل : (ص) و (ن) و (ق) ، وبعضها بحرفين مثل : (طس) و (حم) وبعضها بثلاثة أحرف مثل : (الم) ، وبعضها بأربعة مثل : (المص) ، وبعضها بخمسة مثل (كهيعص) و (حم عسق) .

وقلنا : إن الحروف على قسمين : حروف مبنى وحروف معنى ، حروف مبنى هى التى تتكوَّن منها الكلمة مثل : كتب فهى مبنية من الحروف : الكاف والتاء والباء ، إنما الكاف وحدها أو التاء ليس لها معنى بمفردها . أما حروف المعنى مثل تاء الفاعل فى كتبتُ لأنها دلَّتْ على الفاعل المتكلم ، وكتبتَ الفاعل المخاطب ، وكتبتِ للمؤنثة المخاطبة .

---

(١) سورة ص سورة مكية فى قول الجميع . عدد آياتها ٨٨ آية . وهى السورة رقم ٣٨ فى ترتيب المصحف الشريف . فى الجزء الثالث والعشرين من القرآن . نزلت بعد سورة القمر ، وقبل سورة الأعراف ، ولذلك فهى السورة رقم ٣٧ فى ترتيب النزول . [راجع فى هذا الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

وقلنا : إن حروف اللغـة عبارة عن ثمانيـة وعشرين حرفـاً ، جاء منها في فواتح السور أربعـة عشر حرفاً ، وأحسنُ ما قيل فـيها إنها مـادة كلمـات القـرآن ، ولَبنات بنائه ، ومع أن العـرب يعـرفـون هذه الحروف وينطقونها إلا أنهم عجزوا عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله ، مع أن هذه صنعـتهم ومـجال نبـوغهم وتفـوقهم ، نعم الحـروف هي الحروف ، والكلمات هي الكلمات ، لكـن المتكلِّم بالقرآن هو الله فلا بُدَّ أنْ يعجزوا .

وقوله تـعالى ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾[ص] دليل على الإعـجاز وحامل الإعـجاز ، فكلمة (ص) حرف من مكونات القـرآن ، والقرآن مُعجز ؛ لأن العرب عجزتْ عن الإتيان بمثله ولو آية واحدة من آياته ، وهي أمـة بيان وكلام وفـصاحـة ، وهي الأمة الوحـيدة التي جـعلتْ للكلمة معـرضاً ، وللبلاغة أسواقـاً في عكاظ ، والمربد وذي المجنة ، وقد بـلغ بـهـم تقديس الكلمـة إلى أنْ علَّقوا الجيـد منها على أســتار الكعبة .

لذلك جاءتْ معجزته ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه .

فالمعنى (ص) أي : حـرف من حروفهم[1] ﴿وَالْقُرْآنِ ①﴾ [ص] الذي عـجزوا عـنه ، والقرآن مـرة يُطلَق عليـه الكتـاب لأنه مكتـوب ، ويُطلق عليه القـرآن لأنه مقروء ، فهو مكتـوب في السطور ومقروء ، ومحفوظ في الصدور .

---

(١) حاول العلماء أن يجـتهدوا في تأويل كلمة (ص) . فقال الضـحاك : معناه صدق الله . وأنه قسم اقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقال محـمد بن كعب القرظي : هو مفتاح أسماء الله تعالـى صمد وصـانع المصنوعـات وصادق الوعـد . وقال قـتادة : هو اسم من أسـماء القرآن . [نقل القرطبي في تفـسيره (٥٧٨٤/٨) هذه الأقوال] . ثم قال : وقـيل : هو مما استأثر الله تعالى بعلمه .

ومعنى ﴿ذِى الذِّكْرِ ①﴾ [ص] أى : صاحب الذكر ، وكلمة الذكر تُطلَق على معان عدة مثل : كلمة عين تُطلق على عين الماء ، وعلى العين الباصرة ، وعلى الذهب والفضة ، وعلى الجاسوس ، وتُطلق على الوجيه من الناس ، والسياق وذكاء السامع هو الذى يُحدِّد المعنى ، فهذه المعانى بينها مشترك لفظى يجمعها ، وهذه من مميزات اللغة .

كذلك قلنا مثلاً : كلمة النجم تُطلَق على النجم فى السماء ، وتُطلَق على النبات الذى لا ساقَ له ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥﴾ [الرحمن]

ومن ذلك قول الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ ... وَيَرْعَاهُ مِنْ البَيْدَا جَوَادِى

فكلمة الذكر تطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر على كتب الرسل السابقين ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ④③﴾ [النحل]

ويُطلق الذكر على الصِّيت والسمعة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ④④﴾ [الزخرف] أى : القرآن .

وفى قوله تعالى :﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ..①⓪﴾ [الأنبياء] وما ارتفع العرب ولا علَتْ لغتهم إلا لأنها لغة القرآن .

ويُطلق الذكر أيضاً على التذكُّر ، كما فى قوله تعالى :﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ..④②﴾ [يوسف]

ويُطلق الذكر على التسبيح ، كما فى قوله تعالى :﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ (٣٧) ﴾ [النور]

ويُطلق الذكر على معنى آخر ، هو العطاء الجيد من الله ، والعمل الطيِّب من العبد .

إذن : فلفظ الذكر أشبه في القرآن بالماسة تتلألأ في يدك ، كلما قلَّبتها وجدتَ لها بريقاً . فكلٌّ هذه المعاني تدخل تحت قوله تعالى :
﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص]

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾

نعرف أن (بل) حرف يفيد الإضراب عما قبله أو نفي ما قبله وإثبات ما بعده ، فـ (بل) هنا تثبت أن الذين كفروا في عزَّة وشقَاق ، فما المنفي قبلها ؟ قبلها قوله تعالى ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] هذه معجزة محمد ﷺ، وكان من الواجب أنْ يقتنعوا بها ، وأنْ يؤمنوا بها لكنهم كفروا ، فالمعنى : بل الذين كفروا ما صدَّقوه ، بل هم في عزَّة وشقاق .

بعض العلماء يرى أن ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] قَسَمٌ جوابه جاء في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص] لا .. لا يصح أن نُقدِّر القسم ثم نبحث له عن جواب مناسب .

ومعنى : ﴿ فِي عِزَّةٍ .. (٢) ﴾ [ص] أي : عزَّة الإثم ، وهي التعالي والاستكبار عن الحق ، وهي عزة بلا رصيد ﴿ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾ [ص] من الشق ، وهو حدوث فاصل بين شيئين ، ولهذه معانٍ كثيرة في اللغة ، نقول : هذا في شق وذلك في شق . يعني : لا يلتقيان ، مثل

كلمة عدو ؛ لأن العدوَّان لا يتفقان ، وكلمة عدو أصلها في لغة العرب، ومن بيئتهم حيث توجد الوديان ، والوادى له ناحيتان ، كل واحدة تُسمَّى عُدوة .

ومنه قوله تعالى :﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ[1] الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] فعدو من العدوة . يعنى : كل واحد منا في ناحية ، ومثلها كلمة جانب ، وكلمة حد كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ[2] اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٥) ﴾ [المجادلة]

ومثلها كلمة انحرف . يعنى : هذا في حرف ، وهذا في حرف يعنى : على طرف وهذا على الطرف الآخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] فهذه كلها ألفاظ تؤدى معنى عدم الالتقاء ، كما في : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾ [ص] عزة آثمة كاذبة وشقاق يعنى : اختلاف لا التقاء فيه ، والمراد بالشِّقاق عدم اتعاظهم من سوابق الأمم مع رسلهم ؛ لذلك القرآن لا يسرد لهم تاريخاً حين يقول لهم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] إنما يُذكِّرهم بما غفلوا عنه .

وهنا يقول :

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) ﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، فكأن الحق سبحانه ترك

---

(١) العدوة : الناحية . قال الفراء : العدوة شاطىء الوادى ، الدنيا مما يلى المدينة ، والقصوى مما يلى مكة . [لسان العرب - مادة : عدا] .

(٢) حادَّه : عاداه ونازعه كانه يريد أن يغلبه ويتعدَّى حدوده . أى : ينازعون ويشاقون الله ورسوله . [القاموس القويم ١/١٤٦].

للمخاطب أنْ يتصوَّر الكمية ويُحدِّد الكمية فى كم ، وأنت لا تستخدم هذا الأسلوبَ إلا وأنت واثق من هذه الكثرة ، كما تقول لمن يجحد فضلك : كم أعطيتُك أو كم صبرتُ عليك ، يعنى : مراراً كثيرة .

والقرن قلنا : إنه الفترة أو الطائفة من الزمن يحكمها مشخِّص واحد كالنبوة أو غيرها ، كما نقول قوم نوح أو قوم هود ، وقد اصطلح على أن القرن مائة سنة ، وسُمِّيتْ قرناً لأنها متقارنة بعضها ببعض .

وفى قوله تعالى ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴿٣﴾ ﴾ [ص] احتياط جميل لأنه بعد بعثة سيدنا رسول الله ﷺ لم يهلك الله قوماً بالجملة كما حدث قبله ﷺ ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه رسوله محمداً بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

فقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴿٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : هذه مسألة سبقتْ ولن تتكرر فى أمة محمد ﷺ وهذه المسألة تجد لها نظيراً فى قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة]

لو لم يقُلْ الحق سبحانه (من قبل) لَظَنَّ سيدنا رسول الله أن قومه ربما قتلوه كما قتل الأنبياء قبله ، لكن الحق سبحانه يُطمئنُ رسوله بقوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : اطمئن ، فهذه لن تتكرر، وفى هذا تثبيت لفؤاده ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا ﴿٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : ساعة حَلَّ بهم العذاب، ونزل بهم الهلاك العام نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يسمع ليُخلِّصهم ويُغيثهم وينقذهم ، لكن ينادون مَنْ ؟ لم يحدد القرآنُ المنادى ليدل على ما هم فيه من الفزع ؛ لذلك نجد أن المناداة للفزع إلى مَنْ يخلصك مما لا تقدر عليه لها مراحل على قَدْر الخطر الذى تتعرض له ، فلو رماك أحدٌ مثلاً بحجر تنادى ذاتك وتستدعى بعضك ، فتحرك يدك مثلاً أو رِجْلك لتتفادى الأذى .

فإنْ كان الخطر فوق استطاعتك تنادى أقربَ الناس إليك أباك ، أمك ، أخاك ، جارك ، مَنْ يسير معك فى الشارع .. الخ فإذا لم تجد مغيثاً فى هؤلاء تقول يا هوه . وقلنا : إنها تعنى يا هُوَ يعنى : يا الله ليس لى سواك أناديه وألجأ إليه .

وهؤلاء لما نزل بهم الهلاك نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يستطيع أنْ ينقذهم ويغيثهم ، لكن هيهات فمَنْ يغيثهم إنْ كان ما ينزل بهم من الله ؟ إذن : نداؤهم لا جدوى منه ﴿فَنَادَواْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص] كلمة (لات) مكوَّنة من لا النافية زيدتْ عليها التاء ، لا للنفى عموماً فتنفى مرة المكين كما لو قلت : لا رجلَ فى الدار وتنفى المكان كما لو قلتَ : لا دارَ أسكنها ، فإذا زيدتْ عليها التاء نفتْ الزمن خاصة ؛ لذلك جاءتْ بعدها كلمة (حين) وهى مثل : ثَمَّ وثمَّة ، قال الشاعر[1] :

ثُمَّتَ قُمْنَا إلَى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ ... أعْرافُهُنَّ لأَيدينَا مَنَاديلُ[2]

ومعنى (مناص) يعنى : مَفرّ ومَهْرب . فالمعنى ﴿فَنَادَواْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص] يعنى : ليس الوقتُ وقتَ مفر ولا مهربَ .

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾﴾

---

(١) الشاعر هو عبدة بن يزيد الطبيب ، من تميم ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، كان أسود اللون شجاعاً شهد الفتوح وقتال الفرس من المثنى بن حارثة ، توفى عام ٢٥ هـ . له ١٨ قصيدة عدد أبياتها ١٥٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة عدد أبياتها ٨١ بيتاً من بحر البسيط أولها :

هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الهَجْرِ مَوْصولُ ... أمْ أنتَ عنها بَعيد الدَّار مشْغُولُ

العجب هو الاستغراب ، إنهم يتعجبون وأمرهم أعجب ، يتعجَّبون ﴿ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾ [ص] والعجيب حقاً أنْ يأتيهم رسولٌ من جنس آخر غير جنسهم ، لذلك قال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ ﴾ [الإسراء]

كانوا يريدون الرسول ملَكاً ، ولو جاءهم ملَكٌ لجاءهم في صورة رجل منهم ، ولو شخص لهم في صورة رجل لَظلَّتْ الشبهة قائمة ، والحق سبحانه يردُّ عليهم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ ﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾ [الانعام]

إذن : لابُدَّ أنْ يكون المرسَل من جنس المرسَل إليهم ، لأن الرسول حاملُ منهجٍ يُحققه ، الرسول أُسْوة وقُدوة لقومه ، وكيف تتحقق الأُسْوة بالملَك ؟ والله لو جاء الرسول ملَكاً لاعترضوا عليه ، ولقالوا إنه ملَك معصوم يقدر على ما لا نقدر نحن عليه ، ثم إن الملَك ليس له شهوة كشهوتنا .. الخ

إذن : العجب هو استغراب أنْ يكونَ الرسول واحداً منهم ومن جنسهم ، إن كَوْنَ الرسول من بينكم هو الحجة وبه تتم الأُسْوة ؛ لذلك حينما يمتنُّ الله على أمة محمد ﷺ يقول : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ۝١٢٨ ﴾ [التوبة] يعني : من جنسكم وليس غريباً عنكم ، فهذه ميْزة لكم ، إذن : عجبكم ليس له مكان .

والجنس هنا ليس جنسَ الإنسان فحسب ، إنما من نوعهم من العرب ، بل من أوسطهم وهم قريش وأنتم تعرفونه قبل بعثته ، وتعرفون أصله ونسبه ؛ لذلك يرد الله عليهم فيقول : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس] يعني : واضحات لا تُنكر ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

نعم لقد عاش سيدنا رسول الله ﷺ بين قومه أربعين سنة قبل بعثته ، وكانوا يعرفون عنه كل شيء ، إذن : العجب في النقيض ، وليس في الواقع الذي يتعجبون منه .

ثم يحكي الحق عنهم : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] الساحر هو الذي يُخيِّل لنا الأشياء فنراها على غير حقيقتها ، لكنه لا يغير الحقيقة ، فالسحر ليس في الشيء إنما في أعين الناس ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

لذلك هناك فرق بين السحر وبين معجزة سيدنا موسى عليه السلام ، وقد كانت من جنس يقارب السحر لأنه سيعانده سَحَرة ، ولما ألقى موسى عصاه فرآها السحرة تلقفُ ما سحروا قالوا : آمنَّا برب موسى ، وما ذلك منهم إلا لأنهم أيقنوا أن ما جاء به موسى ليس من قبيل السحر ، فَهُم يعرفون السحر جيداً ، ويعرفون ألاعيب السحرة ، وليس هذا الذي يرونَهُ منها .

إنهم يروْنَ العصا حيَّة تلقف ما يأفكون ، والساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، فيرى الحبال حبالاً ، في حين يراها الناسُ ثعابين

تسعى وتتحرك ، إذن : ما فعله موسى أمامهم ليس من السحر .

ونردّ على هؤلاء الذين يتهمون رسول الله بالسحر . ونقول : لو سلَّمنا معكم أن محمداً ساحر وسحر مَنْ آمن به ، فكيف بكم لا تزالون على كفركم ؟ لماذا لم يسحركم محمد كما سحر المؤمنين به ، وتنتهى المسألة بينكم وبينه ؟

ثم يقولون : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص] إنهم يتعجَّبون وينكرون أنْ يدعوَهم رسولُ الله إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد كانوا يعبدون آلهة عدَّة ، فحول البيت أصنام كثيرة ، ومنهم مَنْ كان يعبد الشمسَ أو القمر أو الكواكب والنجوم ، ومنهم مَنْ عبد الملائكة .. الخ .

لكن من أين أتتهم هذه الشبهة ؟ جاءتْ هذه الشبهة من استعظامهم الوجود ، فهذا الكون البديع المحكم فيه أرض بها أنهار وجبال وزروع وثمار ، وفيه سماء فيها شمس وقمر ونجوم وكواكب وأفلاك .. الخ . فهذا الكون فى نظرهم لا يقدر على خَلْقه واحد بمفرده ، لا بد أن كثيرين اشتركوا فى خَلْقه .

إذن : فعظمة الوجود هى التى جعلتهم يقولون بآلهة متعددة ، وهنا لابُدَّ أن نقولَ سبحان الله ، فالعكس هو الصحيح فى هذه المسألة ، فعظمة الخَلْق دليل على أن الخالق واحد ، ولو كان الخالق متعدداً لما جاء الخَلْق على هذا النظام والتناسق ، ولو كان الخالق متعدداً لكان الحال كما وصفه الحق سبحانه : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

فقولهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [ص] خطأ من ناحيتين :

الأولى ظنُّهم أن عظمة الصنعة دليلٌ على تعدُّد الصانع ، في حين أن عظمة الصنعة دليل على أن الصانع واحد ، الأخرى : أنكم قُلْتم بتعدد الآلهة ، والإله يعني المعبود المطاع في أوامره ونواهيه فقولوا لنا : بماذا أمرتكُم هذه الآلهة ، وعَمَّ نهتكم ؟ بل ماذا أعدَّتْ لمن أطاعها من الجزاء ، وماذا أعدَّتْ لمن عصاها ؟

إذن : قولكم آلهة كذب وهراء تقولونه بألسنتكم ما أنزل الله به من سلطان ، ولو عرفتم معنى الآلهة ومعنى العبادة وأن المعبود لابُدَّ أن يكون له منهج يسير عليه العباد ، لو عرفتُم هذا لما قُلْتم بتعدُّد الآلهة.

لذلك الحق سبحانه يضرب لهم مثلاً ، فيقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ(١) وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

يعني : هل يستوي في العبودية عبد مملوك لسيد واحد وعبد مملوك لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما متشاكسون مختلفون فيما بينهم ، كذلك لا يستوي مَنْ عبد الله وحده ومَنْ عبد آلهة متعددة .

وقولهم : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ [ص] في الآية قبلها قال تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا (٤) ﴾[ص] من الفعل عَجِبَ ومصدره عَجَباً . أما هنا فقال (عُجاب) وهذه الصيغة تدلُّ على المبالغة في العجب والاستغراب، فأصل المصدر والبِنْية موجود فيها ، والزيادة دلَّتْ على المبالغة كما

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد خلافهم . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] . والشركاء المتشاكسون : العسرون المختلفون الذين لا يتفقون ، وأراد بالشركاء الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . [لسان العرب – مادة : شكس]

نقول : طويل وطوال . ونقول : أمر غريب وغراب[1] .

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ ﴾

(الملأ) هم الذين يملأون العين مهابةً وزياً وهِنْداماً ، ويملأون صدور المجالس . والمراد : الأعيان وزعماء القوم وصناديد الكفر في قريش ، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل وأُبىّ بن خلف ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، والنضر بن الحارث ، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم أهل السيادة ، ودعوته ﷺ ستسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، فهم المضارُّون من دعوة رسول الله .

ولهذه المسألة قصة ، فهؤلاء الزعماء ذهبوا إلى أبى طالب عم رسول الله وقالوا له : لو كان ابنُ أخيك يريدُ مُلْكاً ملَّكْنَاه علينا ، وإنْ

---

(١) سبب نزول الآيات : ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » (ص٢٠٩) : قال المفسرون : لما أسلم عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش وفرح المؤمنون ، قال الوليد بن المغيرة لهلاص قريش وهم الصناديد والأشراف : امشوا إلى أبى طالب . فأتوه فقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنَّا أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إلى النبى ﷺ فدعاه فقال : يا بن أخى هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تملْ كل الميل على قومك ، قال : وماذا يسألونى ؟ قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبى ﷺ : أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها ، فقال النبى ﷺ : قولوا لا إله إلا الله . فنفروا من ذلك فقاموا فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴿٥﴾ ﴾ [ص] كيف يسع الخلْقَ كلهم إله واحد ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [ص]

كـان يريد مالاً جـمـعنا له من المـال حتى يصـيـر أغنانا .. الخ فكلَّم أبو طالب رسـول الله وقـال : يا ابن أخى ، ابْـقِ علىَّ وعلى نفـسك ، ولا تُحـمِّلنى من الأمر مَـا لا أطيق ، إن قومك جـاءونى وقالوا كـذا ، وكذا فقـال ﷺ قولته المشهورة : « والله يا عَمِّ ، لو وضـعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أتركَ هذا الأمر ما تركتهُ حتى يُظهره الله ، أو أهلكَ دونه »[1] .

فلما خاب سَعْيُهم ، وعلموا أن رسول الله لن يُهادنهم فى آلهتهم ، ولن يقبل عـروضـهم ومساومـاتهم أسرعوا إلى القوم يحـفزونهم على التمسك بـآلهتهم والصبر عـليها ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ ۝٦﴾ [ص] يعنى : إلى قومهم ﴿ أَنِ امْشُوا ۝٦﴾ [ص] يعنى : سيروا على ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ، وابْقوا على طـريقتكم وعبادتكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۝٦﴾ [ص] يعنى : على عبادتها واحذروا أنْ يُضلَّكم محمد عنها .

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص] أى : مسألة مدبرة لها ما بعدها من العواقب ، لأن الآلهة إنْ كفـرتُم بها ستغضب عليكم فيـصيبكم الجَدْب والقحط ، أو الشـىء يُرادُ بنا نحن الأعيـان ، فنذل بعد أنْ كُنَّا سـادة ، ونصير سواسية مع باقى القوم .

وقولهم : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ۝٧﴾ [ص] أى : ما سمعنا

---

(١) أخرجـه البيـهقى فى « دلائل النبـوة » (٢/١٨٧) من طريق ابن إسحاق أن أبـا طالب قال لرسـول الله ﷺ : يا ابن أخى ، إن قـومك قـد جـاءونى فـقـالوا : إنك تؤذيـهم فى ناديهم ومـسـجـدهم ، فـابق علىّ وعلى نفـسك ، ولا تحـملنى من الأمـر مـا لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك . فـقال ﷺ : يا عم ، لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، مـا تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبـه. فما كان من أبى طالب إلا أن قال : امضِ على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً ».

بأن الإله واحد ، والملة الآخرة هى أقرب الملَل إليهم ، وهى اليهودية والنصرانية ، نعم اليهودية والنصرانية نزلتْ من السماء بتوحيد الله ، لكن الذى شجّعهم على هذا القول أن اليهود قالوا : عزير ابن الله . والنصارى قالوا : المسيح ابن الله وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله فى الملة الآخرة ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ۝٧ ﴾ [ص] يعنى : ما هذا إلا كذب وافتراء ، ومعنى الاختلاق : خَلْق الشىء بلا واقع يسانده .

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ ﴾

هذه نَقْلة أخرى فى جدالهم وتكذيبهم لرسول الله ، فقبل ذلك كانوا يعترضون على بشرية الرسول ، ويطلبون أنْ يكون الرسول ملَكاً ، والآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحوَّلون إلى الذات ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

يعنى : لماذا محمد بالذات ، وفينا أناس عظماء وسادة كانوا أوْلَى منه بالرسالة ؟ وهنا قالوا : ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۝٨ ﴾ [ص] لذلك الحق سبحانه يرد عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝٣٢ ﴾[الزخرف] فجعل نبوته ﷺ رحمة بهم .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۝٣٢ ﴾ [الزخرف]

يعنى : كيف تتدخلون فى هذه المسألة الهامة ، تريدون أنْ تقسموا رحمة الله ، والله هو الذى قَسَم لكم أمور الدنيا الهيِّنة ، فجعل منكم سادة وعبيداً وأغنياء وفقراء .. الخ إنْ كان الحق سبحانه هو الذى ينظم لكم أبسطَ أمور حياتكم ، فكيف تطمعون فى أنْ تقسموا أنتم فضل الله ورحمته ؟ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام] وذلك فَضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي (٨) ﴾ [ص] الذكْر هنا يعنى القرآن ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ويطيب خاطره ، كما خاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

والمعنى : لا تحزن يا محمد . فقومك لا يُكذِّبونك أنت إنما يُكذِّبون ما جئتَ به من الذكر ، فأنت عندهم الصادق الأمين الذى لا غبارَ عليه ، يعنى المسألة ليست متعلقة بك وبشخصك أنت ، إنما متعلقة بى أنا ، فكأن الله تعالى حملها عن رسوله ليُطمئنه ويُسلِّيه ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عناد قومه له .

وقوله سبحانه : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص] هذا لون من ألوان التهديد ، يعنى : لن يظلوا على هذه الحال من السلامة والنجاة فعذابهم قادم ؛ ذلك لأن (لما) تفيد نَفْى الحدث فى الماضى مع إثبات حدوثه فى المستقبل ، تقول : فلان لم يأت يعنى فى الماضى وقد لا يأتى فى الحاضر والمستقبل ، إنما فلانَ لمَّا يأتى يعنى : لم يأت فى الماضى ، وسوف يأتى فى الحاضر أو المستقبل ، فمعنى ﴿ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص] يعنى : حتى الآن لم ينزل بهم عذاب الله ، لكن سوف ينزل لا محالة .

﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ ﴾

بعد أن نفى الحق سبحانه قدرتهم على أنْ يقسموا رحمته تعالى ينفي هنا أن تكون مفاتيح خزائن رحمته بأيديهم ، فأمْ هنا للتسوية ، والمعنى : أهُمْ يقسمون رحمة ربك ، أم عندهم خزائن رحمته ؟ لا هذا ولا ذاك ، لأن النبوة رحمة ، وخزائن الرحمة مملوكة للرحيم والله رحمن ، فليس لهم شيء من ذلك ؛ لأن الله تعالى لم يُملِّك مفاتيح خزائنه لأحد حتى أولياء الله المقربين الذين يعطيهم ومضات إشراقية غيبية ليثبت بها اليقين بالمسلك الذى سلكوه .

حتى هؤلاء لم يُملِّكهم مفاتيح خزائنه ، إنما يفتح لهم ما يشاء من فضله ، ويعطيهم ما يريدون من الكرامات ، وتظل مفاتيح خزائنه تعالى فى يده ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ۝٥٩ ﴾ [الانعام] لا يسلمها لأحد . لذلك ذُيلت الآية بهذين الاسمين من أسمائه تعالى ﴿ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ ﴾ [ص]

فالعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، فالله غالب لا يُغْلَب على أمره ، ومَنْ كانت هذه صفته كيف يأخذون منه خزائن رحمته ، وهو سبحانه : ﴿ الْوَهَّابِ ۝٩ ﴾ [ص] الذى يهب مَنْ يشاء تفضُّلاً وتكرُّماً منه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝١٠ ﴾ [ص] يعنى : إنْ كان لهم مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ۝١٠ ﴾ [ص] فليصعدوا هم إلى السماء ، وليعرجوا إليها ليتولَّوْا هم تدبير أمر الخَلْق ، والحق سبحانه يوضح هذه المسألة فى

آية أخرى : ﴿يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[1] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : بسلطان منَّا .

لذلك لما وصل الإنسان واعتلى سطح القمر قال المتفلسفون : وصلوا بسلطان العلم ، كيف والله يقول بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن] إذن : ليس السلطان المراد سلطان العلم كما يدَّعُون ، إنما سلطان من الله خالقها ، فهو سبحانه الذى يُنْفِذ مَنْ يشاء ، ويمنع من النفوذ مَنْ يشاء ، ولو لم تأتِ هذه الآيةُ لكانَ الذين ينكرون معراج رسول الله على صواب .

وقوله سبحانه : ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص] المراد كفار مكة ، وأنهم مهزومون لا محالة ، كما هُزِم مَنْ قبلهم من المكذِّبين للرسل .

ثم يُسلِّى الحق - سبحانه وتعالى - نبيه بذكْر ما كان من تكذيب السابقين لرسلهم ، يعنى : يا محمد لستَ بدعاً فى هذا الأمر ، ويبدأ بأطول الرسالات عمراً ، وهى رسالة سيدنا نوح -عليه السلام- فيقول سبحانه :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) أقطار السماوات : نواحيها . [القاموس القويم ٢/ ١٢٤]

(٢) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/ ٣٦١].

معنى : ﴿ذُو الْأَوْتَادِ ⑫﴾ [ص] صاحب الأوتاد وهى الأشياء المثبتة ، وقيل : المراد الأهرامات . أو كانت له أوتاد مثبتة عذَّب بها خصومه ، و ﴿الْأَيْكَةِ ⑬﴾ [ص] هى الحديقة مُلتفَّة الأشجار ، متشابكة الأغصان ، وأصحاب الأيكة هم قوم سيدنا شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ⑬﴾ [ص] أى : الذين تحزَّبوا على رسلهم وصادموهم وعاندوهم .

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ⑭﴾ [ص] ما أحد من هؤلاء إلا كذَّبَ رسوله ﴿فَحَقَّ ⑭﴾ [ص] أى : وجب له وحَقَّ عليه (عِقَاب) إذن : فكيف يُقدِّرون لأنفسهم أنْ يقفوا منك يا محمد هذا الموقف ولا نعاقبهم ؟ كيف يفلتون منا وقد عاقبنا مَنْ هم أقوى منهم ؟

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮﴾

أى : ما ينتظرون ، فعذابهم بالنسبة لنا أمر يسير لا يحتاج إلى علاج ، إنما هى مجرد صيحة واحدة أى : نفخة واحدة قالوا : هى النفخة الثانية التى بها يُبعث الخَلْق ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮﴾ [ص] يعنى : لا إفاقةَ لهم بعدها .

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⑯﴾

معنى ﴿قِطَّنَا ⑯﴾ [ص] أى : نصيبنا وجزاءنا ، وأصلها من القطعة كانوا يكتبون فيها الجائزة . يعنى : إنْ كنا مذنبين عَجِّل لنا العذاب الآن قبل يوم القيامة ، لكن كيف يأتيكم العذاب الآن فى الدنيا والدنيا فانية ، ينتهى العذاب بفَنَائها ، فكأن عذابهم فى الدنيا لا يكفى جزاءً لهم على كفرهم ؛ لذلك يُؤَخِّره الله لهم إلى يوم القيامة ، وهى

دار بقاء وإقامة لا نهاية لها .

والحقيقة أن الصيحة ليست هى التى ستُعذِّبهم ، إنما هى مجرد جرس إيذاناً ببدء هذا اليوم .

والحق - سبحانه وتعالى - يشرح لنا هذا الموقف منهم ويُوضِّحه فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا دليل غبائهم ، فهل يدعو عاقل بمثل هذا ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُدلِّل لنا على أن موقفهم فى العناد والتأبِّى على الرسالات ضد نفوسهم ، فبدل أنْ يقولوا فاهدنا إليه يقولون ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

لذلك الحق سبحانه يتعجب من استعجالهم العذاب : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وعجيبٌ من كفار مكة أن يقولوا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) ﴾ [ص] فهل يؤمنون بهذا اليوم ؟ إذن : لماذا ينطقون به ويعترفون بوجوده حتى يظهر فى فلتات ألسنتهم ؟ قالوا : إنه تنبُّه مواجيد الفطرة قبل أنْ يعمل العقل الماكر ، فالذى يكذب يُعمل عقله فى الكذب ، ولابُدَّ له أنْ يكون ذَكُوراً ؛ لأن الكذب ليس له واقع ثابت .

لذلك كثيراً ما يكذب الإنسانُ كذبةً اليوم ، ويكذب خلافها غداً ، فالصادق لا يتغير كلامه لأنه يحكى واقعاً ، أمَّا الكاذب فيحكى غير الواقع ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، مثل رجل كاذب يحكى ويقول : ذهبنا إلى (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ضهر !!) كيف ؟

والمحقق الماهر هو الذى يستغل هذه المسألة ليعلم صدْقَ الأقوال من كذبها ، فالصادق يحكى واقعاً ، فلو سأله المحقِّق ألف مرة لجاءتْ أقواله واحدة ، أمَّا الكاذب فيحكى خيالاً لا بُدَّ أنْ تتضارب فيه الأقوال فينكشف زَيْفه ، الواقع يُملى نفسه عليك ، أمَّا الكذب فيُمليه الإفك والتلفيق ، فلا تدرى على أىِّ صورة يكون .

فقولهم : ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] جاء منهم فَلْتة لسان كشفتْ عَمَّا يؤمنون به بين أنفسهم ، ومثلها قول المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

فجعلوا النفعية هى المقياس ، فكأن أتباع محمد حين لا ينفق عليهم سينفضُّون من حوله ؛ ذلك لأن الأمور عندهم مادية ، وكل شىء عندهم له ثمن .

وقالوا : لما فَتَر الوَحْى عن رسول الله : إنَّ ربَّ محمد قَلاَه[1] ، هكذا تسرقهم المواجيد الفطرية ، ويظهر الحق فى فَلَتات الألسنة عندما تتنبه الغريزة والفطرة ، ويغيب العقل الماكر المدبر .

أو أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] على سبيل الاستهزاء بالوعيد الذى توعَّدهم الله به ، فهم لا يؤمنون بهذا العذاب ولا يثقون فى وقوعه ، فاستعجالهم له استهزاء به ، فكأنهم قالوا : هات لنا العذاب فنحن مشتاقون لعذابك ، فلا تُؤخِّرْه إلى يوم الحساب ، وهذا التهكم لا يليق مع قولهم ﴿ رَبَّنَا ﴿١٦﴾ ﴾ [ص]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ(١) إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ(٢) وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ(٣) ﴿٢٠﴾ ﴾

الصبر : استعلاء النفس على الأحداث بمعنى ألاَّ تنال الأحداثُ من النفس ومن قوتها ، لأن الذى يُصاب بمصيبة يحتاج إلى قوة إضافية فوق قوته الطبيعية ، فلا تجعل المصيبة أو الشدة تُضعف من قوتك على تحمُّل الحدث .

وإياك أنْ تجعل المصيبة مصيبتين ، حين تضعف أمام الأحداث فيجتمع عليك المصيبة والضعف عن تحملها ، ذلك لأن المصيبة بالنسبة للمؤمن على قسمين . الأول : مصيبة للإنسان دَخْلٌ فيها كالطالب المهمل الذى يرسب فى الامتحان ، فالرسوب نتيجة إهمالك وتهاونك ، فإنْ كنت ستغضب فاغضب من نفسك ولُمها وعنِّفها ، وحاول أن تصححَ خطأها ، وتصلح فسادها ، هذه هى الرجولة التى تواجه الواقع ولا تتنصَّل من المسئولية .

---

(١) ذا الأيْد : أى صاحب القوة . [القاموس القويم ١/٤٥] قال الزجاج : كانت قوته على العبادة أتم قوة ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك أشد الصوم ، وكان يصلى نصف الليل ، وقيل : أيْده قوته على إلانة الحديد بإذن الله وتقويته إياه . [لسان العرب - مادة أيد] .

(٢) شددنا ملكه : قويْناه . [القاموس القويم ١/٣٤٤] قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة شدد : كان من تقوية ملكه أنه كان يحرس محرابه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً من الرجال . هكذا جاء .

(٣) فصل الخطاب : القول الصائب المميِّز بين الحق والباطل . [القاموس القويم ٢/٨٣] .

الثانى : صبر على حَدَث ليس للإنسان دَخْل فيه ، وهذا هو الأمر القدرى يُجريه الله عليك ، ولا يريد لك منه إلا الخير ، وإنْ كنتَ تعتقد أنت أنه شرٌّ .

لذلك قد يدعو الإنسان بما يراه خيراً له حَسْب قوانينه وفَهْمه للخير ، لكن لا يرى إجابة فيغضب ويقول : دعوتُ فلم يُستجب لى . وغفل أن ربه - عز وجل - أعلمُ بالخير أين هو ، لذلك لم يُجِبْهُ ، إذن : فإجابته لك ألاَّ يجيبك .

لذلك يُعلِّم الحق سبحانه المؤمنين الرّد على الذين كانوا يشمتون فى الأحداث تصيبهم ، فيقول : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١) ﴾ [التوبة] نعم ، كتب الله لنا لا علينا ، لأن المصيبة لا تأتى المؤمنَ إلا بالخير ، فهى إما تمحيص لنا وإما عُلُو لمرتبتنا ، وإما ليعلم غيرُ المؤمنين أن لأهل الإيمان جلادةً أمام الأحداث ، وصلابةً لا تلين .

ومن ناحية أخرى ، نجد المصيبة التى تصيب الإنسانَ إما مصيبة له فيها غريم ، أو مصيبة لا غريمَ فيها ، فالمصيبة التى لك فيها غريم اعتدى عليك مثلاً تحتاج إلى صبر أقوى وجَلَد وتحمُّل أكثر ، لأنك كلما رأيتَ غريمك حرَّك فيك كوامن النفس ودواعى الانتقام . أما المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، وهى المصيبة القدرية التى أصابتْك بقدر الله فهى أهون على النفس من الأولى لأنها من الله ، فلا تملك معها إلا أنْ تقول لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وتصبر وتحتسب ، وإلا فماذا تفعل مثلاً أمام المرض أو الموت ؟

لذلك يقول سبحانه فى المصيبة التى لك فيها غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] يعنى : تحتاج إلى عزيمة وقوة تحمُّل تعينك على الصبر ، أو تدعوك إلى المغفرة ، أما المصيبة القدرية التى لا غريمَ لك فيها ، فيقول الحق فيها : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] ولم يقُلْ هنا ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] ، فآية لقمان فى المصيبة التى لا غريم فيها ، فأتت بدون اللام ، وآية الشورى لما فيها غريم فأتت فيها اللام .

هنا الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّي نبيه محمداً ﷺ ويُخفِّف عنه ما يُلاقى من قومه ، فقولهم عن رسول الله أنه ساحر وكاذب ومجنون .. الخ كل هذا يُحزن رسول الله ويشقُّ عليه ويُؤلمه ؛ لذلك مرَّتْ بنا آياتٌ كثيرة في تسليته ﷺ ، كما فى قوله تعالى :﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الانعام]

وهنا يخاطبه ربه : ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾﴾ [ص] ثم يعطيه مثلاً من موكب الرسالات السابقة ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾﴾ [ص] لكن لماذا ذكر سيدنا داود بالذات فى هذا المقام ؟

قالوا : لأن قومَ سيدنا داود قالوا فى حقه ما هو أفظع مما قيل فى حَقِّ رسول الله ، فكفار مكة قالوا : ساحر ، وكاهن ، وكذاب . أما قوم داود فقد اتهموه فى شرفه وعفَّته وطهارته ، حين زعموا أنه بعث بأحد قادته إلى حرب خارج البلاد ؛ لأنه كان يحب زوجته ، ويريد أنْ يخلوَ له الجو وينفرد بها ، ومع ذلك صبر سيدنا داود .

والحق سبحانه يخاطب نبيه محمداً ويقول له : اصبر كما صبر داود . مع أن محمداً هو خاتم الرسل جميعاً ، فلا رسالةَ بعده وفوَّضَه الله فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وهذه خصوصية لم تسبق لأحد غيره من الرسل ، وأرسل الله معه كتاباً خالداً مهيمناً على كل الكتب السابقة ومع ذلك يقول له ربه : اصبر كما صبر داود ، وكما صبر إخوانك من الرسل ليدلَّ على أن أمة الرسالة أمة واحدة ، كل منهم يُبلِّغ عن الله رسالة مناسبة لقومه ، فالرسل جميعاً كشخص واحد .

لذلك قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾﴾ [ص]وبعد ذلك ذكر عدةَ

رسُل من موكب الرسالات ولم يقُلْ عبادنا ، كأنهم تجمعوا كلهم فى مهمة واحدة فلا تفرق بينهم ؛ لذلك يقول سبحانه :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

وقال ﷺ : « لا تفضلونى على يونس بن متى »[(١)] .

لأنكم لا تعلمون مقاييس المفاضلة ، فدعوا المفاضلة لله تعالى فهو الذى يُفضّل ، كما قال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]

وتأمَّل هذا الشرف الكبير الذى ناله سيدنا داود حين تحدَّث الحق عنه ، فقال ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ (١٧) ﴾ [ص] كذلك ناله سيدنا محمد فى استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١) ﴾ [الإسراء] فليس للإسراء حيثية ، إلا أنه ﷺ عبد أخلص العبودية لله فاستحق هذا الشرف العظيم ؛ لذلك لما جَفَتْ به الطائف واضطهدوه وشتموه جاء العزاء من الله ، فإنْ كانت الأرضُ لم تحتَفِ بك ، فسوف تحتفى بك السماء .

وقوله تعالى : ﴿ ذَا الأَيْدِ (١٧) ﴾ [ص] يعنى : صاحب القوة فى العبادة ، والإيمان يحتاج فعلاً إلى قوة تُعينك على الطاعة ، وتزجرك عن المعصية ، وتكبح جماحَ النفس حين تميل بك إلى المخالفة ، أما الطاعة فتحتاج إلى قوة لأن الطاعةَ غالباً ما تكون ثقيلة على النفس ، فتحتاج إلى قوة دافعة حافزة ؛ لذلك يقول تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

---

(١) لفظ البخارى من حديث عبد الله بن مسعود (٣٤١٢) : « لا يقولن أحدكم إنى خير من يونس بن متى » . وكذا عن ابن عباس (٣٤١٣) : « ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى » .

أما المعصية فلها لذة وجاذبية وشهوات تُلح على النفس ، فتحتاج كذلك إلى عزيمة وقوة رادعة كابحة ؛ لذلك كثيراً ما يتكرر ذكْر القوة فى كتاب الله ، فقال عن داود ﴿ذَا الأَيْدِ ﴿١٧﴾﴾ [ص] ، وقال ليحيى عليه السلام : ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿١٢﴾﴾ [مريم]

فالمؤمن لا بُدَّ أنْ يكون قوياً - قويَّ الإرادة والعزم ، لا بُدَّ له من قوة الدفع إلى الطاعات لأنه يكسل عنها ، وقوة الردع عن المعاصى لأنه يميلُ إليها ، والإنسان لا يكسل عن الطاعة ولا يرغب فى المعصية إلا حين يعزل العملَ عن الجزاء والعاقبة ، ولو استحضر الجزاء وتذكَّر العاقبة لَهانتْ عليه الطاعة وخَفَّتْ على نفسه وسَهُلَتْ ، ولَزهِدَ فى المعصية ، وفَرَّ منها فراره من الأسد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال قلنا : هَبْ أن شاباً طغتْ عليه الغريزة الجنسية ، وهى أعنف الغرائز فى الإنسان ، فقلنا له : تقضى ليلة مع فتاة جميلة لكن فى الصباح سنُدخلك هذا (الفرن) المتأجج لمدة ساعة ، فماذا يقول ؟ إذن : استحضار العقاب على المعصية عند المعصية يمنعك منها ، كذلك استحضار الثواب على الطاعة يدفعك إليها .

وهناك فى جبال الهملايا وعند قمة إفرست وجدوا ضحايا كثيرين ممَّنْ يحاولون اعتلاء هذه القمة ، فبعضهم مَات بعد ثلث المسافة ، وبعضهم بعد الثلثين وهكذا ، فما الذى حملهم على تحمُّل هذه المصاعب والمخاطر ؟ إنها شهوة الاستعلاء على هذه القمة التى تُعَدُّ أعلى قمة فى العالم ، إنه حب الشهرة وتخليد الذكْر فى دوائر المعارف ، إذن : استهانوا بالأخطار ليصلوا إلى هذه الغاية التى يتطلَّعون إليها .

فالذى يجعل الإنسان يزهد فى الطاعات ويتكاسل عنها أنه لم يستحضر الثوابَ عليها ولو استحضر ثوابها لَسهُلَتْ عليه ، كما قال الشاعر :[1] .

تَهُونُ علَيْنا فى المعَالِى نُفُوسُنَا ومَنْ يخطُب الحَسْنَاءَ لم يُغْلِهَا المَهْرُ[2]

والنبى ﷺ يشرح لنا هذه المسألة بقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » .

يعنى : ينتفى عنه وَصْفُ الإيمان فى لحظة وقوعه فى هذه المعصية ؛ لأنه غفل عن العاقبة ، وغفل عن الله ، ولو استحضر اللهَ فى ذهنه ما أقدم .

ثم يقول تعالى فى وصف سيدنا داود : ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] من الفعل آب فهو آيب وأوَّاب صيغة مبالغة على وزن فعَّال . يعنى : كثير التوبة والأوْب إلى الله ، وهذه الكلمة فيها إشارة إلى أن الإنسانَ عُرْضة للمعصية ، وأنه مهما تاب فهو مُعرَّض للعود مرة أخرى ؛ لأنه ليس معصوماً ، المهم أنْ تحدثَ لكل ذنب توبةٌ ، وألاَّ تكون مُصراً على أنْ تعودَ .

لذلك تلحظ أن من أسماء الله تعالى الغفار ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ

---

(١) هو أبو فراس الحمدانى : شاعر أمير ، ابن عم سيف الدولة ، ولد ٣٢٠ هـ وتوفى ٣٥٧ هـ عن ٣٧ عاماً . كان سيف الدولة يحبه ويستصحبه فى غزواته ، جرح فى معركة مع الروم فاسروه عدة أعوام ، حتى فداه سيف الدولة ، قتله رجال خاله سعد الدولة . له ٢٨٤ قصيدة من العصر العباسى ، عدد أبياتها ٢٧٧٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٥٤ بيتاً .

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه] ولم يقل غافر ، لماذا ؟ لأن الخَلْق فيهم غفلة ، وفيهم معصية تتكرر ، وتكرُّر المعصيه يحتاج إلى تكرُّر المغفرة ؛ لذلك من رحمة الله بنا أنه غفَّار أى : كثير المغفرة.

وقوله تعالى فى حَقِّ سيدنا داود : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] تشرح لنا فيما بَعدْ معنى ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] معنى : ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] الوقت بعد الظهر إلى المغرب ﴿ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] بعد شروق الشمس وهو وقت الضحى ، ومعلوم أن الجبال جماد ، والجماد هو أدْنى الأجناس فى الكون ، فالإنسان هو سيد هذا الكون ، وهو أعلى الأجناس ، يليه الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد .

الحق سبحانه يخبرنا أن الجماد يُسبِّح ، وأن للجماد حياةً فى حين يظن الإنسان أن جماد يعنى جامد لا حياةَ فيه ، نعم لا حياةَ فيه بمقياسك أنت ، لكن له حياة أخرى غير حياتك ، أنت تسعى وتجرى فى طول الدنيا وعرضها ، أما الجماد فثابت لا يتحرك .

لكن لكل جنس حياة تناسبه ، فأنت أيها الإنسان لك حياتان : حياة فى حال اليقظة ، وحياة أخرى فى حال النوم ، أقانونك وأنت نائم هو قانونك وأنت مستيقظ ؟ إنك ترى فى النوم الأشخاص والأشكال ، وتُميِّز بين الألوان ، وتعيش قصة طويلة وتَعى تفاصيلها ، كل هذا وأنت نائم مُغْمضَ العينين ، فبأىِّ حاسة رأيتَ ما رأيت ؟ بعد ذلك لك حياة أخرى مناسبة للموت ، وحياة أخرى مناسبة للبعث .

وإنْ أردت أنْ تستدلَّ على أن كل شىء فى الوجود له حياة

تناسبه ، فاقرأ إنْ شئتَ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] بعض العلماء قال - ليخرج من هذا المطب - التسبيح هنا يعنى تسبيح دلالة . يعنى : هذه المخلوقات تدل على خالقها ، وليس المراد تسبيح المقال ، ولو كان التسبيح المراد تسبيح دلالة كما يقول ما قال الحق بعدها : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] لأننا نفهم تسبيحَ الدلالة . إذن : لا بُدَّ أنْ لها تسبيحاً آخر ، لا نعلمه نحن .

كذلك فى قوله تعالى فى الطير : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] فليس لنا أن نبحث فى كيفية صلاة الطير ، فكل جنس يعلم كيف يصلى لله خالقه ، ألم تَرَ النملةُ جنودَ سليمانَ فتسرع لتحذر قومها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] وتأمل هذا الاحتياط فى قولها وعدالة الحكم فى ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] فهم ليسوا ظلمة ولا جبارين ، وإنْ مرُّوا عليكم سيحطمونكم من حيث لا يدرون ولا يشعرون بكم .

ألم يعلم هدهدُ سليمانَ قضيةَ التوحيد ؟ ألم يكُنْ سبباً فى هداية قوم ضلُّوا وعبدوا الشمس من دون الله حين عاد إلى سليمان ، يقول ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] .

والذى أغاظ الهدهد وأثَّر فى نفسه أنْ يراهم يسجدون للشمس من دون الله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل]

إن الهدهد يفهم القضية كاملة ، بل ويجيد في ذلك ما لا يجيده الإنسانُ العاقل .

والإنسان الذى يُدلُّ على الكون بعقله وفهمه ، ألم يُعلِّمه الغراب كيف يُوارى سَوْأة أخيه وجثته : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

إذن : فكل كَوْن له عالمه ، وله لغته ، وله صلاته لله وخشوعه ، فلا تفرض قانوناً لتسحبه على قانون آخر ، فتحيل كثيراً من الأشياء. وإنْ أردتَ سنداً لهذا من نفس القرآن فاقرأ قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢) ﴾ [الأنفال] فالهلاك نقيض الحياة . واقرأ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (٨٨) ﴾ [القصص]

إذن : حين نجمع بين الآيتين نرى أن كل شيء له حياة خاصة به ، وإنْ كنا لا ندرك نحن كُنْه هذه الحياة لكنها موجودة ، بدليل أن كل شيء هالك . والآن بدأ العلماء يُسجِّلون لغة الطير ولغة الحيوان ويتوصَّلون إلى حَلِّ شفرة هذه اللغات .

ومن العجائب التى جعلها الله لتشرح لنا قدرته تعالى فى كونه أنهم لما صنعوا الصاروخ (ديسكافرى) ، وأرادوا إطلاقه إلى الفضاء ووزنه ١١٠ أطنان ، وجدوا به عُطْلاً يمنع انطلاقه ، فلما بحثوا عن العطل وجدوا طائراً وزنه أربعة جرامات اسمه نقار الخشب نقر فى الجدار العازل لخزان الوقود فى الصاروخ اثنين وأربعين ثقباً فعطَّل الصاروخ عن الانطلاق ، وهكذا سُخِّر طائر وزنه أربعة جرامات وبنى عُشَّه على هذا الصاروخ العملاق فعطَّل حركته .

وكأن الطيورَ أرادتْ أنْ تثأر لنفسها لما رأت الإنسان يزاحمها فى عالم الطيران ؛ لذلك وجدوا أن أكبر شيء يهدد الطيران هو عالم

الطيور ، وأن جماعات منها تعترض الطائرات ، وتحوم حول المطارات وكأن هناك عداوةً بينها وبين هذه المخلوقات التى تنازعها الطيران .

لذلك فكَّر علماء الطيران فى فكرة تطرد الطيور عن المطارات ، فأخذوا فكرة أصوات الطيور التى تصدرها كإنذار لغيرها عند حدوث خطر وسجَّلوا هذه الأصوات وأذاعوها حول المطارات ، لكن الطير تنبَّه إلى هذه الخدعة ، ولم تَعُدْ تزعجه هذه الأصوات ، لذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى فقالوا : إن الطيور تخاف من الصقور ، فصنعوا لها مُجسَّمات من البلاستيك وعلَّقوها ، لكن هذه الخدعة عرفها الطير ، وسَخر منها حين وضعتْ بعض الطيور أعشاشها على أجنحة هذه الصقور .

إذن : للطير عالمه ومملكته وأسراره ، عرفنا منها شيئاً ، وغابت عنا منها أشياء .

فإذا قرأتَ عن سيدنا داود : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] فاعلم أن الجبال تسبح على الحقيقة تسبيحاً لا يعلمه إلا ربها وخالقها . والميزة هنا لسيدنا داود ليست فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال مُسبِّحة دائماً ، إنما المعجزة هنا أنها تُسبِّح معه وتردد معه نشيداً واحداً ، فالكلام فى (معه) أى تُسبِّح مع تسبيحه .

لذلك قلنا فى قولهم : سبَّح الحصى فى يد رسول الله ، قلنا : عدِّلوا العبارة ، لأن الحصى يسبح حتى فى يد أبى جهل ، فالصواب والمعجز أن نقول : سمع رسول الله تسبيحَ الحصى فى يده . هذه هى العظمة .

ومعنى ﴿بِالْعَشِيِّ .. ۝١٨﴾ [ص] العَشِيُّ : الفترة بعد الظهر إلى المغرب ﴿وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ [ص] أى : شروق الشمس ، وقد أخذ بعض الأئمة من هذه الآية دليلاً على مشروعية صلاة الضحى التى صلاها النبى ﷺ ، وبعضهم يقول عن هذه الصلاة : صلاة الإشراق[1] . لكن أىّ عشى ؟ وأىّ إشراق ؟ هذا وقت وكل مكان له عَشِىٌّ وله إشراق يخالف الآخر .

إذن : فهو وقت ممتد فى كل الوقت كما أوضحنا فى الصلاة ، فهى دائمة ممتدة لا تنقطع أبداً ، ففى مكان يُصلَّى الصبح ، وفى آخر يُصلَّى الظهر ، وفى آخر يُصلَّى العصر وهكذا . فكأن الخالق سبحانه أراد بهذه الدورة الزمنية أنْ يُعبَد سبحانه فى كل جزئيات الزمان عبادة لا تنقطع فى وقت من الأوقات .

ومن ذلك قوله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوبَ مسىء النهار ، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مسئ الليل »[2] ولا يخلو الزمن أبداً من ليل أو نهار ، إذن : فالمعنى أنه سبحانه يده مبسوطة دائماً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ [ص] معنى محشورة أى : مجتمعة حول سيدنا داود ، لأنه عليه السلام كان جميل الصوت حين يقرأ المزامير ويتغنى بها ، فكانت الطيرُ تجتمع

---

(١) روى عن ابن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ [ص] ولا أدرى ما هى . حتى حدثتنى أم هانئ . أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى . وقال : « يا أم هانئ ، هذه صلاة الإشراق » ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٨٠٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٥٠) للطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

عليه وتُردِّد معه وتُرجِّع ما يقول ، إذن : كانت منظومة إيمانية مُكوَّنة من سيدنا داود والجبال والطير ، جميعهم يرددون تسبيحاً واحداً ، وكأنهم كما قلنا : (كورس) واحد .

لذلك قالوا في ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص] أي : داود والجبال والطير ، كل منهم أواب لله خاضع له راجع إليه[1] .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] أي : قويَّناه وساندناه بالنصر والهيبة ، النصر في كل شيء ، والهيبة أقوى أسباب القوة ؛ لذلك إذا أراد اللهُ أنْ يضعف الملك نزع الهيبةَ منه من القلوب ، وحين لا يهابه الناس يتجرأون عليه .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] الحكمة : وَضْع الشيء في موضعه المناسب له ، والذي تأتي منه الثمرة المرجوة من أقصر الطرق وأيسرها ، والحق سبحانه حين يأتي بلفظ من الألفاظ يأخذ أنْسَه بما في اللغة ، فالحكمة مأخوذة من الحَكمة ، وهي اللجام الذي يُوضَع في حَنَك الجواد ، فيسهل التحكم فيه وضبط حركته كما أريد، فأرخي له ليسرع ، وأجذبه فيقف .

وقالوا : الحكمة أي النبوة وسداد الرأي في الأمور ، وقد امتاز كل من سيدنا داود وسيدنا سليمان بالذات بأنْ جمعَ اللهُ لهما المُلْكَ والنبوة ؛ لذلك رأينا المخالفين لهما (فطسانين) لا وجودَ لهم ، ولا أثر ؛ لأن الملك يطمس عُنْف المخالف .

---

(١) هذا على قول من قال إن الهاء في (له) عائدة على الله عز وجل ، أما القائلون بعودها على داود فقالوا : (أوَّابٌ) أي مطيع لداود . فتأتيه الطير وتسبح معه . وهو قول قتادة ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٣/٧) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . وانظر ابن كثير (٣٠/٤) ، والقرطبي في تفسيره (٥٨٠٢/٨)

ومعنى ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ⟨٢٠⟩ ﴾ [ص] أى : علم الفَصْل فى الخصومات ، والفصل لا يكون إلا فى متجادلين ، يأتى هذا بحجة وهذا بحجة ، وعلى الحكَمِ بينهما أنْ يفصلَ بينهما ، بأنْ يُنصفَ الحق ويبطل الباطل .

وإنْ كانت مسألة فصْل الخطاب هذه اعترض عليها ؛ لأن سيدنا سليمان فيما بعد عدّل حكماً لأبيه ، وهذه تحسب أيضاً لسيدنا داود ؛ لأن الذى عدل حكمه هو ولده ، والإنسان لا يحب لأحد أنْ يتفوّق عليه إلا ولده ؛ لذلك سُرَّ بها سيدنا داود .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟(١) ٱلْمِحْرَابَ ⟨٢١⟩ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ⟨٢٢⟩ ﴾

حين يستفهم منك بقوله ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ⟨٢١⟩ ﴾ [ص] فاعلم أنه دليلٌ على أن هذا الشيء كان يجب أنْ تعلمه ، تقول : هل أتاك كذا وكذا يعنى : أتاك ومثله قوله تعالى :﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ⟨١⟩ ﴾ [الإنسان]

المعنى : أتى على الإنسان وقت من الدهر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً إنما أتى الأسلوبُ بصيغة الاستفهام لتأتى أنت بالمراد ، فيكون إقراراً منك ، والإقرار لا يُكذَّب على خلاف الإخبار بالمراد فالإخبار يحتمل

(١) جاءت (تسوروا) هنا معبرة عن الجمع تبعاً للفظ (الخَصْم) الذى يطلق على الواحد والاثنين والجماعة .

عقلاً الصدقَ ويحتمل الكذبَ .

أو : أن هذا الأسلوب للتشويق للنبأ . والنبأ ليس هو مطلق الخبر إنما هو الخبر العظيم الذى ينبغى أنْ يُعلم لذلك يُهتم به ، فليس من قبيل النبأ أنْ تقول مثلاً : أكلتُ اليوم كذا وكذا . لذلك حين يخبرنا الحق سبحانه عن أمر القيامة يقول : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ]

وكلمة ﴿الْخَصْمِ ۝٢١﴾ [ص] تطلق على المفرد والمثنى والجمع بنوعيه تقول : هذا خصم وهذه خصم ، وهؤلاء خَصمْ .. الخ وقد تُثنَّى مع المثنى كما فى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۝١٩﴾[الحج] لذلك جاءت بعدها ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝٢١﴾ [ص] بصيغة الجمع .

ومعنى تسوروا : تسلقوا ، لأنهم لم يدخلوا من الباب ، إنما دخلوا من أعلى السور ، وهذا دليل على أن هؤلاء الخَصْم لم يأتوا من جهة الأرض ، إنما من جهة السماء ، فكانوا جماعة من الملائكة فى صورة بشر ، والمحراب : هو المكان المقدَّس الذى يجعله الإنسان لخُلْوته ومناجاته لربه ، ومن ذلك قوله تعالى فى السيدة مريم : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..۝٣٧﴾ [آل عمران] ونحن نُسميه الآن القبلة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۝٢٢﴾ [ص] الإشكال هنا كيف يفزع سيدنا داود لرؤية هؤلاء وهو فى حضرة الله وفى حضانته ، وبين يديه يصلى ويتعبَّد ويُسبِّح ؟ وكيف أن الحق سبحانه يُفزع عبده ونبيه ، وهو بين يديه ؟!!

قالوا : الفزع على قسمين : فزع يُحرِّك قلبك بالجزع ولكن قالبك سليم لم يتأثر . وفزع آخر ينضح من القلب على القالب فيتأثر حتى

تظهر عليه علامات الفزع .

وقد كان فزع سيدنا داود من النوع الثانى ، لماذا ؟ قالوا : لأن الملائكة حين رأوه على هذه الحال قالوا له ﴿لَا تَخَفْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] ولا يقولون له ذلك إلا إذا انفعلَ قالبُه انفعالاً يدلُّ على الخوف ، فهذا دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قالبه .

ونفهم أيضاً من قولهم له ﴿لَا تَخَفْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] أنهم ليسوا من رعيته ، وليسوا من البشر ؛ لأن واحداً من الرعية لا يجرؤ أنْ يقول للملك : لا تخف .

وقولهم : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] يدلُّ على اتفاقهم رغم خصومتهم ، فقد تكلَّموا جميعاً فى نَفَس واحد ، أو تكلَّموا بالترتيب ، أو تكلم واحد منهم وأمَّن الباقون ، والمُؤمِّن أحد الداعين ، فكونهم تكلموا بهذه الصورة المنظمة وأيديهم فى أيدى بعض ، فهذا يدلنا على أنه لا خلافَ بينهم ، ولا يطمع أحد منهم فى الآخر ، إذن : ما المسألة ؟ وما حقيقة مجيء هؤلاء على هذه الصورة ؟ لا بُدَّ أن لهم هدفاً آخر .

ومعنى (بغى) حاول أنْ يطغى وأنْ يظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] هذا القول منهم دلَّ على جراءتهم ، ودلَّ على أنهم من ملأ آخر غير البشر من الملائكة . ومعنى ﴿وَلَا تُشْطِطْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] يعنى : لا تبتعد عن الحق ولا تَجُرْ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] اهدنا أى جميعاً دون تمييز بين واحد وآخر ، فهم خصم لكن سواء بدل قولهم ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] دون أن يميزوا الباغى من الذى بُغِى عليه ، والصراط هو الطريق المستقيم ، وسواء الصراط يعنى وسطه ، والمعنى : دُلَّنا على

الحق أو عين الحق ، ثم أخذوا فى عرض قضيتهم :

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾

نلحظ فى كلمة (أخى) لَوْناً من التحنين ، فمع وجود الخصومة لكن هو أخى كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] وفى أعنف ألوان العداوة ، وهى الثأر يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة] يريد أنْ يُحنِّن قلب ولىِّ الدم على القاتل .

القضية : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] كلمة نعجة تطلق فى اللغة ثلاثة إطلاقات : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : اجعلها لى أكفلها أنا فعندى غنم كثيرة ، فاجعلها ترعى مع غنمى ، فيكفينا راعٍ واحدٌ بدل أنْ تكلف نفسك راعياً لها ، والمعنى أن كفالتها سهلة علىَّ لا تكلفنى شيئاً .

﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : غلبنى بالحجة والجدال ، ومعلوم أن القاضى يحكم بالحجة والبرهان ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، فلعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أُقطع له قطعةً من النار »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

فالمعنى أن أخى غلبنى بحديثه وتمكُّنه من حجته ، وأنا أشعر بالظلم ونفسى غير راضية ؛ لذلك جئتُكَ أرفع أمرى إليك لتحكم فيه ، وهكذا سمع داود - عليه السلام - دَعْوى الأول ولم يسمع الطرف الآخر ، وهذه زلة من زلات القاضى .

لذلك قال أهل المعرفة فى هذه المسألة : إذا جاءك صاحب دَعْوى وقد فُقِئت عينه فلا تحكم له حتى تسمعَ من الآخر ، فلعله قد فُقِئت عيناه .لقد بادر سيدنا داود بالحكم ، فقال :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ (٢٤) ﴾ [ص] نسب واحداً إلى الظلم ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ (٢٤) ﴾ [ص] أدخل شيئاً فى حيثية الحكم وليس من حيثية الحكم ، فهل لو لم يكُنْ له تسع وتسعون نعجة ، أكان يحلُّ له أنْ يقول لأخيه : اعطنى نعجتك ؟

إذن : هذه المسألة لا دخلَ لها فى القضية لأنه ظالم ، وإنْ لم يكن له تسعة وتسعون . إذن : سيدنا داود أولاً حكم قبل أنْ يسمع من الطرف الآخر ، ثم أدخل فى حيثية الحكم ما ليس له دَخْل فيه ، وهو قوله : ﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ (٢٤) ﴾ [ص] فربما هم حاقدون عليه أن يكون عنده تسع وتسعون .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ (٢٤) ﴾ [ص] أى : الشركاء ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٢٤) ﴾ [ص] المعنى : أن هذه القضية ليستْ قضية فذَّة ولا مفردة ، إنما هى ظاهرة كثيرة الحدوث بين الشركاء ، فكثيراً ما يبغى شريكٌ على شريكه ويظلمه مع أنهم ما تشاركوا إلا لمحبة بينهما واتفاق وتفاهم ، لكن هذا كله لا يمنع ميل الإنسان إلى أنْ يظلم ، وما أشبه هؤلاء بالمقامرين تراهم فى الظاهر أحبَّة وأصدقاء ، فى حين أن كلاً منهم حريصَ على أخْذ ما فى جيب الآخر .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى أن هذه المسألة ليستْ على إطلاقها ، إنما هناك نوع آخر من الشركاء لا يظلم ، فمَنْ هم ؟ هم الذين استثناهم الله بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٢٤) ﴾ [ص] لكنهم قليلون ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ (٢٤) ﴾ [ص] أى : أقلّ من القليل أو قليل جداً .

والنبى ﷺ يحكى عن ربه عز وجل فى الحديث القدسى : « أنَا ثَالثُ الشَّريكيْنِ مَالم يخُنْ أحدهما صاحبه ، فإنْ خان خرجتُ من بينَهما »[1] .

يعنى : إنْ تسَرَّب الظلم والخيانة إلى الشركة خرج الله تعالى منها ، فمُحقَتْ بركتها ، وحَلَّ بها الخراب والخسران .

---

(١) أخرجه أبو داود بهذا اللفظ فى سننه (٣٣٨١) كتاب البيوع . باب فى الشركة عن أبى هريرة . قال شمس الحق فى شرحه (عون العبود ٩/١٧٠) « شركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما ، وجعل خيانة الشيطان ومحقه البركة بمنزلة المال المخلوط وجعله ثالثهما » . أخرجه الدارقطنى فى سننه (كتاب البيوع - حديث ١٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى لفظ أبى حيان التيمى (حديث ١٤٠) : « يد الله على الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما » .

ثم يقول تعالى مبيناً حال سيدنا داود بعد أنْ مرَّ بهذه القضية : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] يعني : اختبرناه وابتليناه ، وظن هنا بمعنى علم وأيقن ، وكأن الحق سبحانه يُعلِّم داود علم القضاء وأصوله فامتحنه بهذه المسألة ، فكانت بالنسبة له (مطب) في أمور ثلاثة : **الأول** : أنه خاف وفزع وهو في حضرة ربه من خَلْق مثله يقبلون عليه ، وظن أنهم سيقتلونه . **الثاني** : أنه حكم للأول قبل أنْ يسمع من الآخر . **الثالث** : أنه أدخل في حكمه حيثية لا دخلَ لها في المسألة .

وكلمة ﴿ فَتَنَّاهُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أي : اختبرناه من قولهم : فتن الذهب على النار ليُخلِّصه من العناصر الخبيثة فيه .

فلما علم سيدنا داود بذلك لم يتأبَّ ، إنما استغفر ربه من كل ذلك ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أي : سقط على الأرض سقوطاً لا إرادياً ، والسقوط هنا يناسب السجود لا الركوع ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] فكلمة خر أعطتنا المعنيين يعني : خرَّ ساجداً حالة كونه راكعاً قبل أنْ يسجد ومعنى ﴿ وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] رجع إلى الله بالتوبة .

ثم تأتي النتيجة : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص] أي : ما كان منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص] قُرْبَى ومنزلة ، ويكفي أنْ تُسبِّح معه الجبال ، ويُردِّد معه الطير ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص] حُسْن مرجع ومردّ .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

كلمة ﴿ خَلِيفَةً ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] هنا إما خليفة لله فى الأرض خلافة عامة لأن الإنسان كله خليفة لكنه عليه السلام عمدة على الخليفة ، أو خليفة الأنبياء فى حَمْل رسالاتهم إلى الناس ، وما دام هو مستخلفاً فهو موظف إنْ أحسنَ الوظيفة دامتْ له ، وإنْ لم يحسن نُزِعَتْ منه .

فآفة الإنسان أنه إذا ما استجابتْ له الأشياء وطاوعتْه الأسباب يظن أنه صار أصيلاً فى الكون ، ونسى أنه مُسْتخلف غير أصيل ، إنما لو ظَلَّ على ذكْر لخلافته فى الأرض ، وأنه من الممكن أنْ يُعزلَ عن الخلافة فى أىِّ وقت لَظلَّ مؤدباً مع ربه الذى استخلفه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

وقوله تعالى ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] يعنى : ما دُمْتَ خليفة لله فى الأرض تعمرها بالأحكام وتقيم فيها الحق ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] وهذه نصيحة غالية لكل مَنْ يحكم بين الناس ، فالحق أمامك نبراس يهديك ، فضعْهُ فى موضعه أياً كان ، ولا تتبع هواك لأن الرأى يُفسده الهوى .

لذلك وقف بعض المفكرين أمام قول الله تعالى عن سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

[النجم]

قالوا : ما دام هو وَحْى يُوحَى ، فلماذا يُعدِّل الله له كما فى قوله سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

وقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [عبس]

قالوا : إن الحق سبحانه لا يعدل لرسوله ، إنما يخبر أنه لا هوى له يجعله يميل عند الحكم ، فهو ﷺ يدخل على المسألة بدون هوى ، سواء أكان الأمر من عند الله أو من المفوَّض له أنْ يشرع فيه .

والحق سبحانه حينما أراد أنْ يحدد مهمة رسوله ﷺ حدَّد مهمة كتابه بأنه كتاب مُعجز ، ويحمل أصول المنهج لا فروعه ، وأنه مهيمن على غيره من الكتب السابقة ، لأن الكتب السابقة عليه أثبتَ الله أنها بُدِّلَتْ وحُرِّفت ، فلم يأمن عليها المؤمنين بها كما قال سبحانه :
﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

ومعنى استحفظوا : طُلب منهم حفظه وحفظ منهجه ، فحفْظ الكتاب المنزَّل كان تكليفاً والتكليف عُرْضة أنْ يُطاع وأنْ يُعصَى ، وهؤلاء عَصَوْا وبدَّلوا وحرَّفوا ، كما قال الله ﴿ وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (١٣) ﴾ [المائدة] والذين لم ينسوا حرَّفوا ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ (١٣) ﴾ [المائدة] ومنهم مَنْ جاء بكلام من عند نفسه ، وأدخله في كلام الله ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران]

إذن : مثل هؤلاء لا يُؤتَمنون على حفظ كتاب الله ، وقد ثبت ذلك بهذه التجربة ، لذلك لم يجعل الحق سبحانه حفْظ القرآن إلى المؤمنين به ، إنما تكفَّل سبحانه بحفظ القرآن ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ولأن الحق سبحانه جعل لنبيه محمد هذه المنزلة أراد أنْ يُبينها ،

---

(١) الحظ : النصيب . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص] أي : صاحب نصيب عظيم من الخير . [القاموس القويم ١/١٦١] .

فقــال : « مَثَلى ومَثَل الأنبيــاء من قَبْلى كَمَــثَل رجل بنى بيتاً فــحسَّنه وأجـمله ، إلا مــوضعَ لبنة من زاوية ، فــجـعل الناس يطـوفـون به ويعجبـون له ويقولون : هَلاَّ وُضعت هذه اللبنة ؟ قــال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

والحـق سبحانــه يُبيِّن منزلة رســوله فى إكمال الأديان ، فيقول ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة] ليس هذا فــحســب ، إنما يعطـيه مــهـمة أخـرى ، هى صــيـانة هذه الأديان به وبالعلمــاء الذين يخلفــون مَنْ بعده ، لذلــك قال ســبحــانه : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

فالـرسول يشــهد أنه بلغنا ، وعلينا نحن أنْ نـمد رسالــة رسول الله ، فنشهـد أننا بلغنا الناس من بعده . لذلك يحــذرنا رسول الله ﷺ من طائفة تأتى مــمَّن لا يؤمنون بسنته يقولون : علينا بكتــاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه .

وحــين تتــتبع لفظ الــطاعة فى القــرآن تجـد أنه أتى على صــور متعددة.

فمــرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التغابن] بتكرار الأمر بالطاعة .

ومرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران] بدون تكرار لفعل الأمر .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) أخرجــه البخــارى فى صحيــحه (٣٥٣٥) ، وكـذا مسلم فى صحـيحـه (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فتكرار الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسول الله حين يكون لله أمر في القضية الإجمالية مثل الصلاة مثلاً ، ولرسول الله أمر في تفصيل كيفية الصلاة . فإنْ توارد أمر رسول الله مع أمر الله جاء الأمر واحداً بدون تكرار ، فإنْ كان الأمر خاصاً برسول الله ، ولم يردْ فيه من الله شيء قال : أطيعوا الرسول .

لذلك تلحظ العظمة في الأداء في قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩) ﴾ [النساء] ولم يقل : وأطيعوا أولي الأمر ، لماذا ؟ ليلفتنا إلى أن طاعة أولي الأمر من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله يعني ليس لهم طاعة خاصة بهم ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقوله تعالى ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦) ﴾ [ص]

أي : حكماً عاماً للناس جميعاً ليس خاصاً بك ، وهنا لا بُدَّ أنْ نذكر قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

ولهذه الآية قصة ، فقد نزلت في كل من زيد بن السمين ، وكان رجلاً أميناً مع أنه يهودي ، وفي قتادة بن النعمان وطعمة بن أبيرق، فقد كان لقتادة درْع سرقه ابن أبيرق واتهم فيه اليهودي ابن السمين ، وبعد استقصاء الأمر وجدوا الدرع عند ابن أبيرق[1] المسلم وظهرت براءة اليهودي .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٤٢٣٨) : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصاري . ذكره أبو إسحاق المستملي في الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً ، وقال أبو موسى (أظنه المديني) : « قد تُكلم في إيمان طعمة » .

وهنا أسرع الناس إلى رسول الله حتى لا يحكم على المسلم ، فتكون سبة في حق المسلمين أمام اليهود ، فتردَّد رسولُ الله في المسألة ، فأنزل الله عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ (١٠٥)﴾ [النساء] أي : الناس جميعاً اليهود والنصارى والمسلمين وفعلاً حكم رسول الله على المسلم وبرأ ساحة اليهودي ولم يُبَال أحد لا رسولُ الله ولا المسلمون بأنْ ينتصر اليهودي على المسلم ؛ لأن الحق أعزُّ من هذا ومن ذاك .

وحين رأى اليهودُ رسولَ الله يحكم لليهودي ويدين المسلم أقبلوا على الإسلام ، وأسلم منهم كثيرون على رأسهم (مخيريق)[1] الذي أعلن إسلامه ، ووهب كل ماله لرسول الله ، ثم خرج للغزو لما أعجله النفير قبل أن يصلي لله ركعة واحدة ، وقُتل (مخيريق) في هذه الغزوة شهيداً ، فقال رسول الله ﷺ عنه : « نِعْمَ مُخيريق ، دخل الجنة ولم يُصَلِّ لله ركعة » .

هذا معنى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .. (٢٦)﴾ [ص]

ومعنى ﴿خَلِيفَةً .. (٢٦)﴾ [ص] أن الله استخلفنا جميعاً في الأرض ، وجعل للمستخلفين خليفة يدبر أمرهم ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بمنهج من استخلف الكُلَّ . أو خليفة للرسل الذين سبقوه يُنبه إلى ما انطمس من مواكب الحق في الخَلْق ، والحكومة بين الناس

---

(١) هو : مخيريق النضري الإسرائيلي من بني النضر ، وقيل : من بني قينقاع . كان عالماً أسلم واستشهد بأحد . كان أوصى بأمواله للنبي ﷺ فجعلها النبي صدقة . وقال عنه ﷺ : « مخيريق سائق يهود ، وسلمان سائق فارس ، وبلال سائق الحبشة » انظر تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٧٨٤٣) .

لا تكون إلا عن اختلاف بينهم ؛ لأنهم لو لم يختلفوا ما تحاكموا ، وما لم يختلف فيه الناس فلا دَخْلَ للحاكم فيه إلا أنْ يكونوا قد اختلفوا مع الحق الأعلى ، فعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل .

وكلمة ﴿ بِالْحَقِّ .. (٢٦) ﴾ [ص] الحق يعنى : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا لله تعالى ، أما الإنسان فأموره تتغير ولا تستقر على حال ، ونحن منها أغيار ، لكن الحكم الذى يحكم حركة الإنسان ما دام من الله فهو ثابت لا يتغير ، وما دام الله تعالى قد أتمَّ النعمة وأكمل الدين ورضى الإسلام ، فلا استدراك لأحد عليه فى شىء من الأشياء ؛ لأن الاستدراك طَعْنٌ فى استقصاء الله لحكمة الحكم .

والحق يقابله الباطل ، وقد يعلو الباطل فى بعض الأحيان ، لكن يظل الحق هو الحق حتى يعلوَ فى نهاية المطاف . والحق سبحانه يترك الباطلَ يعلو فى بعض الأحيان لحكمة ، هى أن يعضَّ الباطلُ الناسَ ، ويكويهم بناره لتظهر لهم حلاوة الحق ، فإذا لَذَعهم مُرُّ الباطل فزعوا هم إلى طلب الحق .

إذن : فإنْ عَلاَ الباطل فالحق أعْلَى ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً يوضح هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

---

(١) أى : لا يُنتفع به ويُلْقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجُفاء . [القاموس القويم ١/١٢٤] . والجفاء هو : ما نفاه السيل من الحطام . والجفاء : الباطل أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

إذن : فالحق ثابت ، وبهذا الثبات نفهم أن المناهج الإلهية ما جاءت لتجعل كلمة الله هى العليا ، إنما جاءت لتجعلَ كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] فلم يعطف الثانية على الأولى ، ولم يقل : وكلمة الله هى العليا . لأن كلمة الله ليستْ جعلاً ، وإنما هى شىء ثابت ، وهى حَقٌّ أزلاً .

ثم يقول سبحانه مخاطباً سيدنا داود : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [ص] الهوى : مَيْلُ النفس إلى شىء تهواه بغَضِّ النظر عن منهج يحكمه ، والهوى يختلف باختلاف الناس ، حتى الأصدقاء الحميمون المتلازمون فى المأكل والمشرب والميول إذا ذهبوا لشراء شىء اشتروا أشياء مختلفة وألواناً متباينة .

نعم ، هناك جامعة تجمعهم هى الصداقة ، لكن الأهواء مختلفة ، فإذا كان هواى يخالف هواك ، فلا بُدَّ أنْ نرجع إلى شىء لا نختلف فيه ، فإنْ كان هذا الشىء الذى لا نختلف فيه من أعلى منّا فلا غضاضة ، الغضاضة تأتى حين تخضع لمن يساويك وتحكّمه ، وتنتهى إلى رأيه .

لذلك الحق سبحانه يحكم هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

ونحن نفهم أن اختلاف الأهواء يفسد الحياة على الأرض ، لكن كيف يفسد السماء ؟ ولماذا بدأ بفساد السموات قبل الأرض ؟

قالوا : نعم ، لأن الفساد سيتعدَّى فسادَ الأرض ، ويفسد أيضاً السماء ، بمعنى أنه سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء ، وما دام سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء وهو الحق ، وهذا فساد سابق

لفساد ما على الأرض .

لذلك لم يقولوا : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢)﴾ [الإسراء] هذا هوى ، ولو أجابهم الله فيما طلبوا لَفسدتْ فعلاً السموات والأرض ، فمن رحمة الله بالخَلْق أنْ عَصَم أهواءهم فى المناهج النظرية التى تحكم الناس فيما يختلفون فيه ، أما الشىء الذى لا يُختلف فيه فتركه لكم تربعون فيه كما تشاءون .

فإنْ قلتَ : فلماذا ترك لهم الأمور التى لا اختلاف فيها ؟ نقول : لأنهم سينتهون فيها إلى حَقٍّ واحد مجْمع عليه ، وهذا ما نراه مثلاً فى العلوم المادية التجريبية ، فهى مجال مفتوح للجميع ، الروس مثل الأمريكان ، بل نراهم يجعلون على هذه العلوم حواجز حديدية حتى لا تصل إلى غيرهم ، والبعض يتلصَّص ويسرق ما وصل إليه الآخرون .

إذن : فالشىء الذى سنتفق فيه لا تتدخَّل فيه السماء ، وهذه المسألة حكمها سيدنا رسول الله ، وأعطانا مثالاً فى نفسه ﷺ فى مسألة تأبير[1] النخل ، فلما اقترح عليهم عدم تأبير النخل فسد فى هذا العام ولم يثمر ، فقال ﷺ : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

لماذا ؟ لأنكم ستصلون بالتجربة إلى شىء واحد ، تتفقون عليه وتسرقونه من الآخرين ، أما فى الأهواء فهى مختلفة من واحد لآخر ، ويحصل منها الصدام بارداً كان أو حاراً .

---

(١) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه . والنخل لا تُؤبَّر إلا بعد ظهور ثمرتها وانشقاق طلعها وكوافرها من غضيضها . [لسان العرب ـ مادة : أبر . بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم» .

ثم يُبيِّن الحقُّ سبحانه العلَّة من النهى عن اتباع الهوى ، فيقول : ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ⦗٢٦⦘ ﴾ [ص] يعنى : لا تتبع الهوى ، لأن اتباع الهوى يُضلّك عن سبيل الله ، وقد أوضح لنا النبى ﷺ هذه المسألة حين خَطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً متعددة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. ⦗١٥٣⦘ ﴾ [الأنعام]

وتفرُّق السُّبُل ينشأ من الاختلاف مهما كان يسيراً ، (فالمللى) الواحد يُفرِّق السبل ، ولو رسمتَ خطَّيْن من مركز واحد ومال أحدهما عن الآخر (مللى) واحد لنتج عن ذلك تباعدهما بالتدريج كلما بَعُدَا عن المركز ، أرأيتَ مثلاً المحولجى الذى يقوم بتحويل مسار القطار ماذا يفعل ؟ إنه يحرك طرف القضيب الذى لا يتجاوز سمكه خمسة (مللى) متر ، فينتج عن هذه الحركة تحويل مسار القطار من الإسكندرية إلى أسوان .

وهكذا تتفرق السبل ، وينشأ عن الاختلاف اليسير اختلاف عظيم ، فالتباعد الهيِّن البسيط عند المركز ينتج عنه تباعد واسع كلما طالتَ المسافة ، وكما يكون التفرُّق فى السُّبُل المتعددة يكون التفرق كذلك فى الطريق الواحد حين يكون واسعاً يسمح بالتفرق .

فمثلاً الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية طريق واسع من اتجاهين ، ويمكنك أنْ تسير فى أحدهما بطريقة ملتوية تميل مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، فينشأ عن ذلك طول الطريق ؛ لذلك قالوا سواء السبيل يعنى : أن تجعل الجانبين على سواء .

ثم يوضح الحق سبحانه عاقبة الضلال والانحراف عن جادة الطريق ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا

نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص]

إذن : فالغفلة عن هذا اليوم ونسيان العاقبة هو سبب الوقوع في العذاب الشديد ، فلو ذكر الإنسانُ الجزاءَ على السيئة ما فعلها ، ولو ذكر ثوابَ الحسنة مَا غفل عنها ، ولا تكاسل عن أدائها .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا(١) ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) ﴾

يعنى : ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، بل خلقناهما بالحق ، لذلك تجدها ثابتة لا تتغير ، كما قال سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] ولو كان هذا الخَلْق على غير ذلك لحدثَ صدام في كل دقيقة وفي كل لحظة بين هذه الأجرام والأفلاك .

ومعنى ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٧) ﴾ [ص] أى : أنهم يظنون أنها خُلقَتْ باطلاً ، ذلك ظَنُّهم وهو مجرد ظن ، ولو جاء الخَلْق كما يظنون ما كان خَلْقاً ، لأن الخَلْق لا بُدَّ أن يكون له غاية عند الخالق قبل أنْ يخلق ، كما قلنا أن الذى اخترع الغسالة أو الثلاجة قبل أنْ يخلقها حدَّدَ لها مهمتها ، لا أنه خلقها. وقال : انظروا فيما تصلح هذه الآلة .

فالذى صنع هو الذى يحدد الغاية ، وهو الذى يضع قانون الصيانة لصناعته . لذلك نقول : إن ضلالَ العالم كله ناشىء من أنهم يريدون أنْ يقننوا بأنفسهم غاية ما صنع الله ، ويريدون أنْ يضعوا

---

(١) الباطل : هو العبث الذى لا فائدة منه ، وهو ضد الحق . ولا خير فيه . [القاموس القويم ١/ ٧٢] .

لخَلْق الله قانون صيانتـه ، وأنْ يتجاهلوا مـا وضـع الله ، لا رد الأمر إلى صاحبه كما تفعل فى أمور الدنيا ، فكل صـانع أعلم بما يُصلح صَنْعته .

ثم يأتى هذا التـهديد : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾ [ص] كثيراً ما يُهدِّد الخالق سبحانه خَلْقه بالنار ، ويتوعَّدهم بالعذاب ، والبعض يرى فى ذلك لوناً من القسوة ، والحقيقة أنها لونٌ من ألوان الرحمة لا القسوة ، فمن رحمة الله بنا أنْ يعظم الذنب ، وأنْ يُظهر العقوبة ، ومن رحمته بنا أنْ يضعَ الجزاء قبل أنْ يقع الذنْب ؛ لأنك حين تستحضر الجزاء ترتدع ولا تفعل .

إذن : التهديد والوعيد لحكمة .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه جزاءَ الكافرين فى النار أراد سبحانه أنْ يذكر المقابل ، وبضدِّها تتميز الأشياء ، أراد سبحانه أنْ يعقد لنا هذه المقارنة بين الكافرين والمؤمنين الذين استقاموا على منهج الحق ، وساروا على الصراط ، وسلِم الناسُ من أيديهم ومن ألسنتهم ، وأشاعوا الأمن وأشاعوا المحبة ، كيف إذن نسوِّيهم بالكافرين المفسدين ؟

وفى هذا إشارة من الحق سبحانه كأنه يقول لنا : إياكم أنْ تُسووا بين هؤلاء وهؤلاء ، إياكم أنْ تأخذكم بالمفسدين الظالمين رحمةٌ ؛ لأنكم إنْ رأفتم بهم فقد سوَّيتُم بينهم وبين المؤمنين .

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين ونقول لهم : نعم لقد انتقمتم من خصومكم الرأسماليين والإقطاعيين ، وفعلتم بهم الأفاعيل ، لكن ما بال الذين ماتوا منهم قبل أنْ تدركوهم وتنتقموا منهم ؟ لا شكَّ أنهم ظلموا ثم ذهبوا دون أنْ يُعاقبُوا .

إذن : كان لا بُدَّ أنْ تعترفوا بيوم آخر يُقتصّ فيه من هؤلاء الذين لم يُقتص منهم في الدنيا ، وإلاَّ سوَّيْنَا بين المحسن والمسيء .

وقال : ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ .. (٢٨) ﴾ [ص] لأن الله تعالى خلق الأرضَ على هيئة الصلاح ، فإنْ لم تُزِدْها صلاحاً يريح الناس ويسعدهم ، فلا أقلَّ من أنْ تُبقي عليها كما هي لا تفسدها ، وأوجه الإصلاح في الكون كثيرة ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء ، إما أنْ تتركه على حالٍ يستفيد منه الناسُ كما هو ، وإما أنْ تزيده حسناً ، كأن تبني حولَه سوراً يحميه ، أو تجعل عليه آلة لرفع الماء .. الخ .

أما أنْ نلقي فيه بالقاذورات فهذا هو الفساد .

وقلنا : لو دخلت بستاناً أُنُفاً أي : لم يدخلْه أحد قبلك تجده على طبيعته ، لا ترى فيه شجرة كُسرت ، ولا تشُم فيه رائحة كريهة ، رغم أن فيه حشرات وحيواناتٍ وفضلات .. إلخ لكن إنْ دخلها الإنسان ظهر فيها الخَلَل والفساد ، لماذا ؟

لأنه لا يبقى على الصلاح الذي خلق اللهُ الطبيعة عليه ؛ لأنه دخلها بغير منهج الله ، ولو دخل بمنهج الله لاستقامتْ الأمور .

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص] الفاجر هو الفاسق الذي يفسق عن القانون الذي يحميه ويحمي المجتمع كما تفسق الرطبة من قشرتها ، والحق

سبحانه قبل أنْ يحمى المجتمع من الفاسق حَمَى الفاسق من المجتمع ، والفاسق واحد ، والمجتمع كثير .

إذن : فالفرد هو المستفيد من منهج الحق وهو الرابح .

وأيضاً ، الإنسان حين تمرّ المسألة بخاصة نفسه يلتفت إلى الحق قَصْراً عنه ، لأنه لن يجد حمايةً إلا فى الحق ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لطلاب الجامعة قلنا : هَبْ أن ثلاثة من الشباب فى دور المراهقة اثنان منهم ساروا - كما نقول - على حَلِّ شعرهم . والآخر استقام على المنهج حتى أنهما كانا يسْخران منه ، ويقولان عنه : فلان هذا صللى فلان جردل .. قفل .. إلخ ما نسمع من هذه الكلمات .

وصادف أنْ كان عند أحدهما أخت ، بالله لمن يُزوِّجها ؟ لصاحبه المنحلّ ؟ أم لصاحبه الملتزم المستقيم ؟ لا شكَّ أنه يفضل الثانى ، لأنه يأمنه ويطمئن إليه ، إذن : لا بُدَّ أنْ يظلَّ الحق حقاً ، والفضيلةُ فضيلة ، ولا يمكن أنْ يستوى التَّقيُّ والفاجرُ .

ثم يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ليسليه ؛ لأن قصصَ القرآن جاء تسلية له ﷺ ، وتثبيتاً لفؤاده :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

الكتاب هو القرآن ، والمبارك هو الشيء الذى يعطى من الفائدة والخير فوق ما يُتصوَّر منه ، تقول : هذا الشيء نأخذ منه ولا ينقص ، نسميه مبروك كرجل يعيش على راتب محدود ، ومع ذلك تراه يُربِّى أولاده أحسن تربية ويعيش بين الناس عيشة الأغنياء ، فيقولون : إنه

رجل مبارك ، وأن الله يبارك فى راتبه القليل فيصير كثيراً ، لكن كيف يبارك الله فى القليل ؟

قالوا : ينزل على القليل ، القناعة أولاً فيرضى صاحبها ، ثم يسلب المصارف فلا ينفق منها إلاَّ فى المفيد ، الناس يظنون أنَّ الرزق هو المال ، ولا يدرون أن سَلْبَ المصارف لونٌ من ألوان الرزق ، وقلنا : إن الرزق رزقُ إيجابٍ بأنْ يزيد الدَّخْل ، ورزقُ سَلْب بأنْ تقلَّ المصارف .

ومثَّلْنا لذلك بالرجل يعيش من الحلال ، وحين يمرض ولده مثلاً يكفيه كوبٌ من الشاى وقرص أسبرين ، أما الذى يعيش من الحرام ويكثُر المال فى يده حين يمرض ولده لا بُدَّ أنْ يذهبَ به إلى أفضل الأطباء ، وينفق على شفائه أضعاف ما يُنفق الأول .

والقرآن مباركٌ ، وآياته مباركة من حيث الأحكام الظاهرية ، لأنه سيربى النفس على استقامة ، هذه الاستقامة لو نظرتَ إليها اقتصادياً تجد أنها لا تُكلِّفك شيئاً ، نعم الاستقامة لا تكلفك ، أمَّا الانحراف فهو الذى يُكلِّف ، لذلك قال ﷺ : « المؤمن يأكل فى معىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

نعم الكافر يأكل كثيراً ليشبع ، أما المؤمن فتكفيه لُقيمات يُقمْنَ صُلْبه ، ثم هو لا يأكل إلا إذا جاع ، وإذا جاع صار أىُّ طعام بالنسبة له لذيذاً ، ولو كان الخبز الجاف والملح ، لذلك قال العربى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما . قال النووى فى شرحه لمسلم : « فى الرواية الأخرى أنه ﷺ قال هذا بعد أن ضافه كافراً فشرب حلابَ سبع شياه ثم أسلم من الغد فشرب حلاب شاة ولم يستتم حلاب الثانية . ومقصود الحديث التقليل من الدنيا والحث على الزهد فيها والقناعة » .

الحكيم : طعـام الجائع هنيء . أما الآن فنراهم يجـهزون قـبل الطعام السَّلَطات والمشَهِّيات والمقبِّلات . لماذا ؟ ليأكل الإنسان كثيراً ، يأكل حتى التخمة ، ثم بعد ذلك يحتاج إلى المسهِّلات والمهضمات .. إلخ .

وهذا ليس من صفـات المؤمن ؛ لأن سيـدنا رسول الله وضـع لنا المنهج في ذلك ، فقال : « نحن قـوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] فهـذا المنهج يراعى الناحية الاقـتصادية ، ويوفر الخـير والسعـادة للكل : اقتصـادياً ، واجتمـاعياً ، وسـياسيـاً ، وأمنياً بدون تكلفة.

ثم إن القرآن مُبَاركٌ من ناحية أخرى ، فحين تتفاعل مع المنهج ، وحين تعشقـه يُبيِّن لك الحق سبحانه ألواناً من الأسرار يتعجَّب منها غيـرك ، ويفتح عليك فُـتُوحـات عجيـبة ، ألم يتـعجَّبْ موسـى ـ عليه السلام ـ وهو نبيّ الله من عمل العبد الصالح ، والعبد الصالح عبد الله على منهج موسى ، ومع ذلك أمر الله موسى أنْ يتـبعَ العبد الصالح ، وأن يتعـلَّم منه ، لكن يتبـعه بإخـلاص وبعشق ، فلمـا اتبعـه موسى بعـشق وإخلاص تـعلَّم منه الأعاجـيب ، وهذا المـعنى ورد في قـوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال]

الفـرقان هنا ليـس هو القرآن ، بل هو فـرقـانٌ خاصٌ لمن يتـبع الفرقان الأول وهو القرآن ، ويصل به إلى درجة التقوى ، يعطيه الحق سبحانه فرقاناً خاصاً لأنه اتبع القرآن بإخلاص وبعشق .

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والتـرمذي في سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معـد يكرب عن رسول الله : « ما مـلأ آدمي وعاء شراً من بـطن ، بحسب ابن آدم لقيـمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

ومعنى ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِه .. (٢٩)﴾ [ص] والتدبُّر هو ألاَّ ننظر إلى الوسيلة نظرةً سطحية ، إنما ننظر بتفكُّر وتمعُّن وحساب للعاقبة ، ننظر إلى الخلفيات واللوازم لنستنبط ما فى الشىء من العبَر ، لذلك لما خرقَ الخضْر السفينة اعترض موسى ؛ لأنه نظر إلى سطحية المسألة والمنطق . يقول : إن السفينة السليمة أفضل من المعيبة ، إنما للعبد الصالح مقياسٌ آخر ، فهو لا يقارن بين سفينة سليمة وأخرى مخروقة ، إنما يُقارن بين سفينة مخروقة ولا سفينة أصلاً أيهما أفضل ؟ لأن الرجل الظالم كان سيأخذ السفينة ، إنْ كانت سليمة فَخُرقها هو الذى نجَّاها من هذا الظالم ، وبقيتْ السفينةُ لأصحابها ، هذا هو علم الملكوتيات والغيبيات التى يفيض الله بها على مَنْ يشاء من عباده الذين أخلصوا له سبحانه .

وقوله : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص] أى : أصحاب العقول الواعية ، وتأمل هنا أن الحق سبحانه يُنبِّه العقول ، ويُحرِّك الفهم إلى تأمُّل آياته فى الكون ، والمقابل لك أو الذى بينك وبينه صفقة لا ينبهك إليها ، إلا لأنه واثق أنك ستُقبل عليها وإلا أخفاها ودلَّسَ عليك ، كالذى يبيع لك سلعة جيدة تراه يشرح لك مزاياها ، ويدعوك إلى اختبارها ، والتأكد من جودتها ويُنبِّه عقلك إلى ما خَفِى عنك منها .

أما صاحب السلعة الرديئة فإنه يصرف نظرك عن عيوبها ، ويشغل عقلك بأمور أخرى ، حتى لا تتنبه إلى عيوب السلعة ، فمثلاً تدخل المحل لشراء حذاء مثلاً ، فإنْ كان ضيقاً يقول لك البائع : إنه يتسع بالمشى فيه ، وإنْ كان واسعاً سبقك هو بقول : أنا أرى أنه ضيق عليك قليلاً ، المهم عنده أن (يلف) عقلك حتى تشتريه .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يدعونا إلى تأمُّل آياته وتدبُّرها

والبحث فيها ، لأنه سبحانه واثق أننا حين ننظر وحين نبحث ونتأمل سنقتنع بها ، وسنصل من خلالها إلى الحق والصواب . ومع ذلك نرى البعض يقف أمام بعض المسائل الدينية يقول : هذه مسألة فوق البحث ولا عملَ للعقل فيها ، ونقول : لكن أمرنا بالتدبُّر والتفكّر والتأمّل فى الكون ، فلا مانع أنْ نبحث .

ثم يعود بنا السياق القرآنى مرة أخرى إلى سيدنا داود ، لا ليقصَّ علينا قصته ، إنما لأنه سيكون أباً لنبى آخر ، هو سيدنا سليمان عليهما السلام :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(١) (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾

من عجائب السياق القرآنى فى ذكر داود وسليمان أنهما يشتركان فى مسألة واحدة ، فلو نظرتَ إلى أول آية ذكرت سيدنا داود تجدها فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ .. (٢٥١) ﴾ [البقرة]

وآخر ذكر له هنا فى سورة (ص) : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. (٣٠) ﴾ [ص]

كذلك أول ذكْر لسيدنا سليمان ورد فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة . وقد يراد به مطلق القيام والاصطفاف .

وآخر ذكر له في سورة (ص) في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص]

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] الوهْب : عطاءٌ بلا مقابل ، فإنْ قُلْتَ : فالإنجاب كله يُعَدُّ عطاءً بلا مقابل ، نعم لكن الخالق سبحانه يهبك ذاتاً ، ثم يزيد عليها هبة أخرى هي الصفات التي تتوفر للذات ، مثل : الملك والحكمة وغيرها ؛ لذلك الذين يطلبون الأشياء على غير مَظانِّها من الأسباب يطلبونها بالهبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص]

وقوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم]

فسيدنا زكريا حين طلب من الله الولد كان شيخاً كبيراً ، وكانت امرأته عاقراً ، فالأسباب كلها ليست مُواتية وليست صالحة للإنجاب ، لذلك طلبها على سبيل الهبة من الله ، لا بالقانون والأسباب . وإنْ كانت الأسبابُ في ذاتها هبةً إلا أنها هبة عامة ، لكن ما يلحق الذات من الصفات الخاصة تُعَدُّ هبة خاصة .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] نعرف أن نِعْم تُقَالُ للمدح ، والمدح هنا بالصفة العقدية ، وهي العبودية لله تعالى . وسبق أنْ قلنا : إن كلمة عبد وعبودية كلمة ممقوتة عند الناس ولهم الحق في مَقْتها ، لأن العبودية للبشر يأخذ فيها السيدُ خَيْر عبده ، لكن العبودية لله تعالى يأخذ العبد من خير سيده ، فهذه هي العبودية الحقة التي تُعَدُّ عزاً للعبد ورفعة .

لذلك لما تجلى الحق سبحانه على نبيه محمد ﷺ بنعمة الإسراء والمعراج ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فكأن

عبوديته لربه هى التى أوصلتْه إلى هذه المنزلة .

لذلك – ولله المثل الأعلى – الرجل صاحب الصنعة (أسطى) أو معلم وتحت يده صبيان ، يُقرِّب منهم المخلص الذى يُحسن صنعته ، ويجيد الخضوع له والطاعة والخدمة ، لذلك يختصه بمواهبه ، ولا يضنُّ عليه بخفايا الصَّنْعة ودقائقها ، ويعطيه خصوصيات لا يعطيها لغيره .

ومع أنه ـ عليه السلام ـ كان ملكاً إلا أن ربه مدحه بصفة العبودية ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ .. (٣٠) ﴾ [ص] ثم بيَّن لنا مَناط المدح بالعبودية ، فقال ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [ص] يعنى : رجَّاع إلى الله إنْ هفت نفسه هفوة أنَّبَ نفسه عليها ، ورجع إلى ربه ، ويتوب إليه ، لذلك يقول تعالى فى بيان التوبة : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧) ﴾ [النساء]

معنى ﴿ بِجَهَالَةٍ .. (١٧) ﴾ [النساء] يعنى : لم يخطط لها ولم يرتب للمعصية ، وإذا حدثتْ منه لا يفرح بها ولا يجاهر ، بل يحزن ويلوم نفسه ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

وضربنا مثلاً لهذين النوعين بطلاب العلم الذين كانوا يسافرون فى بعثات علمية إلى فرنسا ، فكان منهم المستقيم الملتزم بمنهج الله، لكن تفاجئه إحدى الفتيات المنحرفات ليلاً ، وتعرض نفسها عليه ، وتظل تغريه حتى يرتكبَ معها الفاحشة ، هذا فعلها بجهالة ودون قَصْد أو تدبير ، على خلاف الآخر الذى يسعى إلى الفاحشة ويتتبع عناوين أصحابها ، وهذا هو الذى يقصد المعصية ويسعى إليها .

وكلمة ﴿ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [ص] يعنى : كثير الأوْبة والرجوع ، فهى

صيغة مبالغة بمعنى رجَّاع إلى الحق ، فهو لم يفرح بالمعصية ، وإنما ندم عليها وتدارك خطأه وصوَّب طريقه ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) ﴾ [ص]

العشيّ : ما بعد الظهر إلى المغرب ، وعرض عليه مثل العرض العسكري الذي يستعرض فيه القائد جنوده وقواته . ومعنى ﴿ الصَّافِنَاتُ.. (٣١) ﴾ [ص] جمع صافن ، وهو الجواد العريق الأصيل ، وتستطيع أنْ تلاحظ الجواد الأصيل من وقفته ، فهو لا يقف على أربع ، إنما على ثلاث في رشاقة ، وكأنه على أهْبة الاستعداد .

ومعنى ﴿ الْجِيَادُ (٣١) ﴾ جمع : جَوَاد وهو القوى السريع ، فلما عُرِضَتْ على سيدنا سليمان الصافناتُ الجيادُ من خَيْله وقواته ، قال ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) ﴾ [ص] قالوا : الخير هنا يُرَاد به الخيل ؛ لأن النبى ﷺ قال : « الخيل مَعْقُود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة »[1] .

وقال : « خَيْر ما ربيت فرس تُمسك عِنَانه ، حتى تسمع كل صيحة تطير إليها »[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٨٧) كتاب الزكاة (رواية ٢٦) أن رسول الله قال : « الخيل فى نواصيها - أو قال : الخيل معقود فى نواصيها - الخير إلى يوم القيامة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٥٠) من حديث عروة بن الجعد .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مظانَّهُ ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة - باب فضل الجهاد والرباط (١٢٥) ، وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٩٧٧) كتاب الفتن - باب العزلة بنحوه .

لذلك لما أمرنا ربنا أنْ نستعدَّ لأعداءِ الدين والمنهج ، قال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال] أى : قوة عامة . ثم خَصَّ الخيل ، فقال : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

فلما عُرِضَتْ الخيل على سليمان قال ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] يعنى : حباً ليس للتباهى والخيلاء ، كالذين يُربُّون الخيل للمظهر ودخول السباق وذياع الصيت ، إنما أحببتها حباً صادراً عن ذكْر ربى وذكر منهج ربى ، الذى أمر بإعداد الخيل والرباط والقوة التى تستطيع أنْ تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] الفاعل هنا مستتر ، والفاعل حين يأتى مستتراً لابد أنْ يكون له مرجع كما تقول : جاءنى رجل فأكرمتهُ يعنى : أكرمتُ الرجل المذكور .

وقوله : ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] مشهود فى الشمس حين تغيب ، فالمعنى حتى توارت الشمس وغابت .

وقالوا[1] : إنه فاتته صلاة العشى لانشغاله باستعراض الخيل ، فلما فاتتْه الصلاة ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ أى : الخيل ، أرجعوها إلىَّ ﴿ فَطَفِقَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ شرع ﴿ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص]

---

(١) قاله الحسن البصرى والكلبى ومقاتل ، وقال القشيرى : قيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٨٣٧/٨] وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على رضى الله عنه قال : الصلاة التى فرَّط فيها سليمان عليه السلام صلاة العصر . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٧٧/٧] .

يعنى : يمسح على سُوق الخيل وأعناقها دلالةً على إكرامها والاهتمام بها ، وخصَّ السُّوق والأعناق من الخيل لأنها أكرمُ ما فيها ، فالأعناق بها الأعراف ، والسُّوق أداة الحَمْل والجرى ، والمعنى أنه سُرَّ منها فمسح بيده على السُّوق والأعناق .

بعض المفسرين[1] لهم رأى آخر ، قالوا : المسح هنا يُراد به أنه أراد قَتْلها وذبْحها ؛ لأنها ألْهَتْهُ عن الصلاة ، وهذا الكلام أقربُ إلى الإسرائيليات ؛ لأن الخيل لم تشغله ، بل هو الذى شغلها وشغل الدنيا كلها من حوله ، فما ذنب الخيل ؟

والعجيب أن فى الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، وكثيراً ما نراهم يتهمون أنبياءهم بما لا يليق أبداً بالأنبياء ، والعلة فى ذلك أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أنْ يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئاً من النقيصة ليبرر إسرافه هو على نفسه ، من هنا اتهموا أنبياءهم وخاضوا فى أعراضهم .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا[2] ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) فى هذا الأمر قولان :
- جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها . قاله ابن عباس . أخرجه ابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم .
- قطع سوقها وأعناقها بالسيف . قاله أُبىّ بن كعب . أخرجه الطبرانى فى الأوسط والإسماعيلى فى معجمه وابن مردويه بسند حسن .

وفى المسألة تفصيل ، انظر تفسير ابن كثير (٤/٣٤) ، والقرطبى (٨/٥٨٣٧ - ٥٨٤٠) .

(٢) أكثر المفسرين على أن هذا الجسد هو شيطان ألقى الله شبه سليمان عليه واسمه صخر بن حرب صاحب البحر . قال ابن عباس : كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٤١) . وراجع مناقشته لباقى الأقوال (٨/٥٨٤١ - ٥٨٤٥) . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٤) أن القائلين بهذا القول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم . وقد روى فى هذه القصة روايات كثيرة مطولة ، قال ابن كثير : « أرى هذه كلها من الإسرائيليات » .

الفتنة معناها الاختبار ، والفتنة فى ذاتها ليست مكروهة ، إنما المكروه أنْ تُخفق فيها وتفشل فى خوضها ، فماذا عليك لو فتناك . يعنى : اختبرناك ونجحتَ فى الاختبار ؟ وأصل الفتنة من فتنة الذهب لتنقيته ، فالذهب منه المخلوط بمواد أخرى ، ونريده ذهباً إبريزاً صافياً فماذا نفعل ؟ نصهر الذهب فى النار ليخرج منه الخبث إلى أن يصير خالصاً نقياً ، كذلك تفعل الفتنة بالناس تمحِّصهم لتبين الجيد من الردىء . وقد فتن الله سليمان كما فتن من قَبْل أباه داود - عليهما السلام - فى مسألة المحراب .

ومعنى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص] الكرسى هو العرش الذى يجلس عليه الملك ، والجسد هو قالب الكائن الحى . ويقال لهذا القالب (جسد) إذا كان خالياً من الروح ، وللمفسرين فى هذه الآية عدة أقوال :

قالوا : إن سيدنا داود كان له ولد آخر غير سليمان ، إلا أنه كان ولداً فاسداً مثل ولد نوح ، فاحتال هذا الولدُ وقام بانقلاب على سليمان ، حتى أخذ المُلْكَ منه ، وظل مَلكاً مدة طويلة ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يعيد سليمان إلى مُلْكه ألقى هذا الولد الفاسد على كرسى عرشه جسداً هامداً لا حركة فيه ، يعنى : بعد أنْ كانَ مَلكاً مُطاعاً مُسيطراً صار لا يسيطر حتى على نفسه وجوارحه . بَعد ذلك خرجتْ عليه رعيته فقتلوه ، وجاء بعده سليمان .

وقالوا : إن سيدنا سليمان كان لديه جَوَارٍ كثيرات . فقال : سأطوف الليلة على سبعين جارية ، وآت من كل واحدة بولد فارس

يركب فرسه فـى سبيل الله[1] ، يعنى : المسألة كلهـا كانت فى الخير وفى الله ، إلا أنه لم يقـدم المشيـئة ولم يقُلْ : إنْ شـاء الله ، فلم تَلدْ منهن إلا جارية واحدة ، ولـدتْ له جسداً لا حركةَ فـيه ولا تصرُّفَ ؛ لأن المـؤمن مُطالب بأنْ يقـدم مـشـيـئـة الله إذا عـزم على شىء فى المستقبل ، كما قال سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لأنك حين تقـول : سـأفعل غداً كـذا وكذا ، فقـد حكمتَ على فعل لا تملك عنصراً واحـداً من عناصره ، فأنت لا تضمن بقـاء نفسك إلى أنْ تفعل ، ولا تضمن تغيُّر الأحوال وتغيُّر الأسباب ، فحين تعلِّق فعلَك على مشـيئة الله إنمـا تحفظ كرامـتك وتبرىء نفسك من الكذب ، فـقد شئتَ ولكن الله لم يَشَأْ .

ويبـدو أن المُلْكَ أغـرى سليمـان ، فـداخله شىء من الزَّهْو ؛ لأنه متحكم فى عوالم الإنس والجن والطير والحيوان ومُطَاع من الكون كله من حوله ، لذلك لم يقُلْ إنْ شاء الله ، فجازاه الله بذلك .

وقال آخرون[2] : إن سليمـان ـ عليه السـلام ـ أنجب ولداً ، وأن

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/١٨٢) ، قال : قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى حدثنا معـشر عن المـقبرى : إن سليـمان بن داود قال : لأطـوفن الليلة بمائة امـرأة من نسائى ، فتأتى كـل امرأة منهن بفارس يجاهد فى سـبيل الله ولم يَسْتَثن ولو اسـتثنى لكان ، فطاف على مائة امرأة فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، حملت بشق إنسان .

(٢) ذكر القرطبى هذا القـول فى تفسيره (٨/٥٨٤٣) وعزاه للشعبى ، ومـحصله أنه لما وُلد ولدٌ لسليمان اجـتمعت الشياطين وقـالوا : إنْ عاش له ابن لم ننفك مما نحن فـيه من البلاء والسخرة ، فـتعالوا نقتـل ولده أو نخبله . فعلم سليمـان بذلك فأمر الريح حتى حـملته إلى السحـاب ، وغدا ابنه فـى السحاب خوفاً من مضرة الشـياطين ، فـعاقـبه الله بخـوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً .

الجن أرادتْ به سوءاً ؛ لأنها خافت أنْ يفعل بها كما يفعل سليمان ، فأرادوا قتله ، فما كان من سليمان إلا أنْ رفعه فوق السحاب يرضع من المزْن ، فكأنه ـ عليه السلام ـ أراد أنْ يفر من قدر الله .

وقالوا[1] : إن الجسد هو سليمان نفسه ؛ لأن الإنسان العادى ، جعله الله يتحكَّم فى جوارح نفسه حين يريد اللهُ ذلك ، فيقوم بمجرد أنْ يريد القيام ، ويتحرك بمجرد أنْ يريدَ الحركةَ دون أنْ يعرفَ هو نفسه ماذا يجرى فى أعضائه ومفاصله ، فكأن الله تعالى يعطى الإنسان مثلاً فى نفسه ؛ ليقرب له المسائل المتعلقة بالحق فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فإذا كنتَ أنت أيها المخلوق تفعل ما تشاء ، وتنفعل لك جوارحك وتطاوعك بمجرد الإرادة ، ودون أنْ تامرها بشيء فهل تستبعد هذا فى حقِّ الخالق سبحانه ، حين يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

إن الحق سبحانه يقول للشيء : كُنْ . أما أنت فلا تقول : كُنْ وقد أراحك الله منها ، وجعل الأعضاء تطاوعك دون أمر منك ، لأنك لو أمرتَها ما استجابتْ لك ، هى تستجيب للخالق سبحانه ، فإذا أراد الخالق سبحانه سلبك هذه القدرة ، فتريد أنْ تحرك يدك فلا تستطيع؛ لينبهك إلى أنها موهوبة لك ، ليستْ ذاتية فيك .

الحق سبحانه وهب سيدنا سليمان القدرةَ على السيطرة على جوارح ذاته ، ثم عَدَّى هذه القدرة إلى السيطرة على الآخرين من جنسه ومن غير جنسه ، وجعل له سيطرةً على الكون كله ، ينفعل له

---

(١) ذكر هذا القول القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٤٤) ولم يعزه لقائل : « قيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً . وقد يُوصف به المريض المضنى . فيقال : كالجسد الملقى » .

ويجاوبه ، يعنى : المسألةُ كانت استعلاءً فى التسلُّط والسيطرة على جنود الله .

ويبدو أن سليمان ـ عليه السلام ـ داخله شىء فى نفسه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى أن هذه القدرة ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك ، أسلبها حين أشاء ، فلا تستطيع السيطرة على جوارحك ولا السيطرة على الآخرين ، وألقاه الله فترة جسداً على كرسيه لا يقدر على شىء ، ولا يأمر بشىء .

فما دامتْ هذه النعمة موهوبةً من الله الذى أعطاك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدك ، فلا بُدَّ أنْ تظل مُتمسكاً بحبله ، لاجئاً دائماً إلى مَنْ ملَّكَكَ هذا الملْكَ .

لذلك ، يُرْوَى أنه ـ عليه السلام ـ ركب مرة البساط ، وسارتْ به الريح كما يشاء ، وفجأة مال به البساط ، وكاد أنْ يُوقعه فأمره أنْ يستوى به . فقال له البساط : أُمِرْنَا أنْ نطيعك ما أطعْتَ الله .

إذن : فتناه لأننا ملَّكناه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، لكن لا نريد له أنْ يطغى أو يتعالى ، والحق سبحانه لا يكذب كلامه ، وقد قال سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

وسليمان ـ عليه السلام ـ إنسان ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبت لنا أن الإنسان تملّك فى جوارحه ، وتملَّك فيمن حوله ، وتملَّك فى جنس آخر غير جنسه ، لكن هذا كله ليس ذاتياً فيه ، بل هو موهوب له ؛ بدليل أن الله سلبه هذا المُلْك فى لحظة ما ، وألقاه على كُرسيه جسداً لا أمرَ له ولا نهىَ ولا سلطانَ على شىء .

فلما فهم سليمان المسألة آبَ ورجع ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ ﴾[ص] يعنى :

رجع إلى ما كان عليه قبل التجربة التى مَرَّ بها .

يعنى : رجع وعاد إلى الجسد الذى فيه روح ، أو أناب ورجع إلى الله وعرف السبب فالمعنى يحتمل المعنيين : أناب فى السبب ، أو أناب فى المسبب . والجسد هو الجِرْم والهيكل الظاهرى الذى لا روحَ فيه ، والذى قال الله عنه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٢٩) ﴾ [الحجر] أى : الجسد ، ومنه قوله تعالى فى قصة السامرى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨) ﴾ [طه] يعنى : هيكل العجل وصورته الظاهرية ، لكن بدون روح .

فإنْ قُلْتَ : فهل يحدث هذا من الرسل ؟ يعنى : هل يخطىء الرسول ويُصحَّح له ؟ نعم ، العيب أنْ يصحح لك المسَاوى لك ، إنما ليس عيباً أنْ يصحح لك الأعلى ، فماذا فيها إنْ كان الذى يُصحِّح لسليمان ربه عز وجل لا أنت . إذن : من الشرف أنَّ الله يُعدِّل لسليمان ، لذلك لما عدَّلَ الحق سبحانه الحكم لنبيه محمد ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢) ﴾ [عبس] فهل استنكف رسول الله أنْ يُعدِّل له ربه ؟ لا لم يستنكف بدليل أنه ﷺ هو الذى أبلغ هذا التعديل وأخبرنا به ، وأنا لا أخبر إلا بما فيه شَرَفٌ لى .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾

هذه الآية تعطينا لقطةً من لقطات قصة سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ولسيدنا سليمان فى قَصَصه لقطات متعددة ، كل

لقطة تمثل عبرةً من العبر ، وعظة من العظات ، وموقفاً من مواقف سيدنا سليمان فى أمر دعوته . وأول لقطة فى القصة مع أبيه داود - عليه السلام - حينما حكم فى الحرث أى : الزرع ، وكان الزرع لرجل فجاءت غنم رجل آخر فأكلت الزرع ، وقد حكى لنا الحق سبحانه قصة الحكم الذى حكمه داود ، والأمر الذى انتهى إليه الحكم من استدراك على حكم داود من كلام ولده سليمان .

وصوَّبَ الله الحكمين ، وقال سبحانه : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

معنى ﴿ نَفَشَتْ فِيهِ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] يعنى : انتشرت فيه الغنم وأكلته ، فلمَّا عُرِضَ الأمر على داود قضى بأنْ يأخذَ صاحبُ الزرع الغنَم .

فلما علم سليمان بهذا الحكم ردَّه . وقال : بل نعطى الأرض لصاحب الغنم ليزرعها حتى تعود كما كانت ، ونعطى الغنم لصاحب الأرض يستفيد منها ، ثم يعود كل حَقٍّ إلى صاحبه ، فكأن الله تعالى ألهم سليمان صحة الحكم ليستدرك على أبيه داود ، فانظر كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كلمة أهل الأرض ، وبعد ذلك صوَّب الله تعالى الحكمين ، وقال ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

إذن : فاستدراك هيئة تحكم على هيئة حكمت ليس عيباً فى الأولى ، وإنما هذا فهم فَهْماً حكم بمقتضاه ، وذاك فَهم فَهْماً آخر حكم بمقتضاه ، لذلك نجد فى المحاكم الحكم الابتدائى والاستئنافى ، وبعد ذلك حكم النقض ، فهل حكم الاستئناف يطعن فى الحكم الابتدائى ، أو حكم النقض يطعن فى حكم الاستئناف ؟ لا ، لأن

الحكم الأعلى يراعى شيئاً فاتَ صاحب الحكم الأدنى ، فلا غضاضةَ في هذا .

ونحن حين نستعرض القصة نجد المفسرين لم يُظهروا لنا حجة داود في الحكم الذى قضى به ، ولا حجة سليمان في الحكم الذى قضى به ، وبالاستقراء . قلنا : الزرع قديماً لم يكُنْ في أرض محكرة مملوكة للناس ، إنما كانت الأرض على المشاع ، ففي أي مكان تبذر الحب وتسقيه السماء حتى يثمر فتأخذ ثمره دون أنْ تمتلك أرضه ، يعنى : من سبق إلى أيِّ حقل زرعه .

إذن : الملكية كانت للزرع فحسب لا للأرض ، فعلى هذا قام حكم سيدنا داود ، وما دامت الأرض ليست مملوكة لصاحب الزرع فالمسألة زرع وغنم . أما سيدنا سليمان فرأى أن الزرع يمثل كما نقول وَضْع يد على الأرض ، ووَضْع اليد يبيح الملكية ، فأبقى لصاحب الملك ملكه في الأرض ، فحكم بأنْ يأخذ صاحبُ الأرض الغنم ينتفع بها وأن يأخذ صاحب الغنم الأرض يزرعها إلى أنْ تعود كما كانت ، ثم يأخذ كل منهما ماله .

إذن : كان لكل منهما ملْحظ ، وبناءً عليه حكم لذلك ؛ فقال تعالى في حقهما : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

اللقطة الأخرى هي الفتنة التي وقعتْ لسيدنا سليمان ، وقلنا : إن الأصل في كلمة الفتنة هي صَهْر المعدن وإحراقه في النار ليخرج منه الخَبَث والشوائب ، فيصير نقياً وتزداد صلابته ، ثم أُطلقَتْ الفتنة على مطلق الامتحان الذي يُميِّز الجيد من الرديء في البشر ، فهي بمعنى الابتلاء .

ولو نظرتَ إلى الفتنة لوجدتها شائعة في خَلْق الله جميعاً ، فكل واحد من الخَلْق فاتن ومفتون ، بمعنى أن الغنى فتنة للفقير ، والفقير

فتنة وابتلاء للغنى ، فالغنى يُبتلَى بالفقير ، أيضنّ عليه بالنعمة أم يعطيه منها ؟ أيحتقره لفقره أم يحترم قدر الله فيه ؟

كذلك يبتلى الفقير بالغنى ، أيحسده لغناه ويعترض على قدر الله بالفقر ؟ أم يصبر ويتمنى الزيادة لغيره . كذلك الحال في القوى والضعيف ، وفي الصحيح والسقيم ، وفي الجاهل والمتعلم .. إلخ ، إذن : كلٌّ منّا فاتنٌ ومفتون ، المهم مَنْ يفوز ، ومن ينجح في هذا الابتلاء ؟

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] قالوا : كلمة بعض هنا ليستْ تحديداً لشخص بعينه ، إنما هي جزء من كل مُتساو ، لكن مُبْهم فيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فأيُّنا مرفوع وأيُّنا مرفوع عليه ؟ قالوا : كل منّا مرفوع في شيء ومرفوع عليه في شيء آخر ، فالناس كلهم إذن سواء ، أنت لك مجال تجيده وتبدع فيه ، فأنت مرفوع في هذا المجال ، ولك مجال آخر لا تجيده ولا تعرف فيه شيئاً ، فغيرك مرفوع عليك فيه ، لأنه يُجيد ما لا تجيده أنت .

وهذه المسألة تأتي من استطراق المواهب في الخَلْق ، لأنهم جميعاً عباد الله ، وليس منهم مَنْ هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، لذلك نثر الحق سبحانه فضله على عباده جميعاً ، ووزّع بينهم المواهب بالتساوي ؛ لأن الله تعالى لو جعل إنساناً مجمعَ خير وفضائل ما احتاجَ أحدٌ إلى أحد .

والله يريد للعباد أن تتشابك أيديهم ، وأنْ يتعاونوا في حركة

الحياة ، فالقوى يحتاج للضعيف ، والضعيف يحتاج للقوى ، العالم يحتاج للجاهل ، والجاهل يحتاج للمتعلم . وهكذا يرتبط الناس ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّل .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالباشا أو العظيم الذى يعود من عمله ، فيجد مجارى البيت مسدودة ، ويشم فى بيته رائحة كريهة ، فيسرع إلى عامل المجارى لينقذ الموقف ، وربما ركب سيارته وذهب إليه فى مكان عمله ، بل وترجاه أنْ يأتى معه ، فالعامل فى هذه الحالة مرفوع ، والباشا مرفوع عليه .

وأذكر زمان عندنا فى ميت غمر فى (بورصة) مقهى اسمها (باباه) ، العمال هناك عملوا ثورة وقالوا : لا يصح أن العامل يخدم غيره ، ولا يصح أنْ يمسح أحذية الخَلْق ، لماذا يا ناس ؟ قالوا : لأن فى ذلك مهانةً ومَذَلَّةً فقلنا لهم : إذن نمسح نحن لأنفسنا ، وفعلاً عملنا إضراباً واشترى كل منا علبة ورنيش ، وصار يمسح الحذاء لنفسه ، وبعد فترة جاء هؤلاء إلى البورصة وضَجُّوا من البطالة وقلَّة الرزق ، وراحوا يرجُونَ الناس العودة إلى ما كانوا عليه .

بعدها ناقشناهم . وقال بعض الإخوان لأحدهم : بالله أنت حين تسألنى سؤالاً وأجيبك عليه : هل آخذ منك جُعْلاً على الإجابة ؟ قال : لا ، قال : لو عرفت كم كلفنى هذا الجواب من عمرى وجدِّى واجتهادى ، ومن تعب أهلى فى تربيتى لعرفت أننى كنتُ أيامها مُسخَّراً لك كما أنك مُسخَّر لى الآن ، لكنكم نظرتُمْ لنا فى وقت راحتنا ، ونظرتم إلى أنفسكم وقت عملكم ، إذن : القسمة متساوية وكُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، والمسألة ليس فيها إهانة ولا مَذَلَّة ، بل هو التكامل فى حركة الحياة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها : ﴿أَتَصْبِرُونَ .. ۝٢٠﴾ [الفرقان]

يعنى : أتصبرون على فتنة بعضكم ببعض ، حتى الرسل فُتنوا بالكفار يؤذونهم ويضطهدونهم ، وفُتن الكفار بالرسل .

إذن : من النعم أن الله تعالى وزَّعَ المواهب في الكون كله ، ووزَّع فضله على الخَلْق ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ .. (٧١)﴾ [النحل]

نعود إلى سيدنا سليمان ونقول : ما يدرينا أن الملْك والنبوة معاً أغرت سليمان ، فوجد في نفسه شيئاً من ذلك ، فأراد الله أنْ يُصحح له خواطره في نفسه ، لأنه يريده لمهمة أعلى مما هو فيه الآن ؛ لذلك مَرَّ بهذه التجربة ، ووجد نفسه على كرسيه جسداً لا يستطيع الحركة .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان دائماً مُؤدَّباً مع ربه ومع الخلْق ، فقد قال ﷺ : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »[1] .

معنى هذا أن الأنبياء يمكن أنْ يخالطهم شيء ، وأنهم يمكن أنْ يُبْتَلُوا ، لكن ممن يكون الابتلاء من الله الذي أرسلهم ، والابتلاء يكون تصحيحاً لمسار المبتلَى ، وليس كرهاً له لا سمحَ الله . كذلك ابتلى اللهُ سيدنا سليمان ، لأنه يعده لأمر أسمى من هذا ، هو ملْك في ظاهر الملك ، إنما ربه يريد أن يُعدَّه ليعطيه شيئاً من الملكوت .

لما عاد سليمان ـ عليه السلام ـ وأناب إلى ربه ، قال ﴿رَبِّ اغْفِرْ

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه « جوامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه واستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أفِ لك به ، واستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .

لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص]

يعني : استغفر ربه مما وقع فيه من الغرور . يعني : ربِّ اغفر لي ما سبَّب أن تجعلني جسداً . وكأنه قال : يا رب ، لقد ابتليتني بالملك والنبوة ، وهذه مسألة لم تحدث لأحد من قبلي فاغتررت بها ، فهَبْ لي مُلْكاً أعظم منه لا ينبغي لأحد من بعدي وسوف أوفي هذه المرة ولن أغتر ، وكأنه يقول لربه : يا ربِّ جربني وأعطني فرصة أخرى ، فلما دعا سليمان هذا الدعاء أجابه ربه وأعطاه ما طلب .

لذلك احترم سيدنا رسول الله ﷺ دعوة أخيه سليمان ، فقد ورد في الحديث الشريف أن الشيطان عَرض لرسول الله وهو يصلي ليشغله عن صلاة ، فأمسك به رسول الله وهَمَّ أنْ يربطه في سارية المسجد يلهو به صبيان المدينة ، لكنه ﷺ تذكَّر دعاء أخيه سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي.. (٣٥)﴾ [ص] فلم يفعل تقديراً لسليمان عليه السلام[1] .

ومعنى ﴿الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص] صيغة مبالغة ، تدل على كثرة الوهب وقلنا : الهبة عطاء بلا مقابل ، والمعنى أن منْ ضمن ما تهبه يا رب الملك ، وهذا يعني أن المُلْك لا يناله أحد بمجهوده ومهارته ، إنما هو هبة من الله ، فالله هو الذي يهَبُ المُلْك ووهبه حتى للكافر الذي حَاجَّ إبرَاهيم في ربه ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد (باب ٨ حديث ٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة ، وإن الله أمكنني منه فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد ، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ثم ذكرت قول أخي سليمان : رب اغفر لي وهَبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، فرده الله خاسئاً » .

إبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾

قال سبحانه : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ .. (٣٦) ﴾ [ص] وكان تسخير الريح لسليمان أول نعمة أضيفتْ إلى ملكه لم تكُنْ موجودة من قبل ، ومعنى ﴿ رُخَاءً .. (٣٦) ﴾ [ص] أي : لينة ناعمة كالمطية التي تمشي براكبها مَشْياً هادئاً لا تزعجه ولا توقعه . إلا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة رخاء تتعارض مع قوله تعالى في نفس القصة : ﴿ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] ونقول : هي بالفعل عاصفة ، لكن في موقف آخر ؛ لأن الريح في القصة لها عدة استعمالات ، فالريح إنْ كانت تحمله للنزهة فهي رُخاء لينة ، وإنْ كانت لحمل الأشياء فهي عاصفة ، إذن : فالجهة في الوصف مُنفكَّة .

وقلنا : إن الريح إنْ جاءت هكذا مفردة فهي للعذاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] فإنْ كانت جَمْعاً فهي للخير كما في : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

ومعلوم أن الهواء هو الذي يحفظ توازن الأشياء ، بدليل أننا لو فرَّغْنَا الهواء من جهة من جهات عمارة مثلاً ، فإنها تنهار في نفس

الجهة ، لأن الهواء هو الذى يسندها ويحفظ توازنها . فإذا أراد الله تعالى أن يدمر بالريح أتى به من جهة واحدة . فكأن الحق سبحانه يقول : الريح المفروض أنه لا يأتى إلا فى العذاب والنقمة ، لكن سخرته لسليمان بحيث لا يأتى معه إلا بالخير ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص]

وقوله : ﴿حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص] حيث قصد وأنّى ذهب.

وهذا يعنى أن سليمان خاطب الريح التى لا لغةَ لها لكن فهمه الله ، فكأنه أصبح آمراً والريح مأمورة ، إذن : فهمتْ عنه الريح ، فالحق سبحانه جعل لكل جنس من الأجناس لغته التى يتخاطب بها فى بنى جنسه ، فإذا فَهَّم الله إنساناً هذه اللغة فهمها وتخاطب بها مع هذه الأجناس .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾ [النمل]

لذلك حدثونا عن التماسيح فى أعالى النيل ، وعن الانسجام والتكامل بينها وبين الطيور التى تتغذّى على الفضلات التى بين أسنان التمساح ، فالتمساح بعد تناول طعامه يخرج إلى اليابسة ثم يفتح فمه ، فيأتى الطير وينقر ما بين أسنان التمساح فيتظفها له ، فإذا أحسَّ الطير بقدوم الصياد صوّت صوتاً خاصاً يعرفه التمساح ، فيسرع إلى الماء وينجو من الصياد ، وهكذا يكون التمساح مُقوِّمَ حياة للطير ، والطير مُبقى حياة بالنسبة للتمساح ، فتأمل الجزاء الأوْفى ، كيف يوجد فى عالم الطير والحيوان ؟

ولا يصل إلى مرتبة الفهم عن الطير والحيوان إلا مَنْ أعطاه الله هذه الخصوصية ، وقد أعطى الله هذه الخصوصية لسيدنا سليمان ، ففهم لغة الطير ولغة النمل : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ

لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : فهم عنها سليمان ، وأحسَّ أن هذه نعمة اختصَّه الله بها وتستوجب الشكر ، كذلك فهم عن الهدهد وخاطبه ودار بينهما حوار ، وقصة الهدهد مع سليمان تدلنا على أن كلّ مَنْ يلي أمراً عليه أن يتابعه متابعةً ، يعرف بها الملتزم من غير الملتزم .

ولولا أن سليمان تفقَّد الطير ما عرف بغياب الهدهد . وقوله : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] كأنه تصوَّر أن الهدهد موجود ، لكن المانع عنده هو أنْ يراه ؛ لذلك قال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾ [النمل] لأنه نظر فلم يَرَهُ ، ثم جاء الهدهد وقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

والذى أثَّر فى نفسه أن تعبد هى وقومها الشمسَ من دون الله ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وهذه اللقطة من القصة تعلمنا أن الذى يلى أمراً لا يرد مَنْ وُلِّيَ عليه فى أمر يشير به ، بل ينتظر حتى يسمع منه ، ويحترم رأيه لا يصادره ، ونتعلم أيضاً أن الهدهد كان يعلم قضية التوحيد وقضية الإيمان بالله .

ثم يُعلِّمنا الهدهد أن كل إنسان عليه أنْ يحافظ على مُقوِّم حياته ، وأنْ يظل دائماً على باله إنْ أراد أنْ يعيش عيشةً كريمة ، فمُقوِّم

الحياة هو الأوْلَى قبل التخطيط ورسم الأهداف ، نفهم هذا من قول الهدهد : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

لكن لماذا خَصَّ الخبأ ، وهو المخبوء تحت الأرض ؟ قالوا : لأن غالب غذاء الهدهد مما خُبِيء في الأرض ، لذلك جعل الله له منقاراً طويلاً ينقر به الأرض ، ويُخرِج به غذاءه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) ﴾ [ص] أي : وسخَّرنا أيضاً له الشياطين ، منهم البنَّاء وهو الذي يعمل ويجهد طاقته في يابسة الأرض ويعمرها . والغواص مَنْ يجهد طاقته في البحر ليخرج نفائسه ﴿ وَآخَرِينَ .. (٣٨) ﴾ [ص] أي : من الشياطين ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) ﴾ [ص] أي : مقيدين ومكبَّلين بالسلاسل . والأصفاد جمع : صفد وهو السلسلة .

فهؤلاء مقيدون ليسوا مُطلقين كالبنَّاء والغوَّاص ، لكن لماذا قيَّد اللهُ هؤلاء ، وأطلق هؤلاء ؟ قالوا : لأن منهم الصالحين الطائعين ، ومنهم العصاة الذين تأبَّوْا على منهج الله ، ومن الممكن أنْ يتأبَّى أيضاً على رسول الله ، وهؤلاء هم الذين يُقيَّدون بالسلاسل ، فكأن الصالحين يخدمونه بتوجيه الإيمان ، وغير الصالحين يخدمونه بتوجيه القيود والسلاسل ، يعني هؤلاء بالرغبة وهؤلاء بالرهبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا .. (٣٩) ﴾ [ص] فالعطاء مناسب

---

(١) الخَبْءُ : ما خُبِيءَ . والخبء : كل ما غاب ، وهو كل شيء غائب مستور . وقيل : الخبء الذي في السماوات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات . [لسان العرب - مادة : خبأ بتصرف] .

لطلب سليمان حين طلب من الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، قال : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص] فردَّ الله عليه ﴿هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. ۝٣٩﴾ [ص] وما دمت قد وهبتك فسوف أجعلك تتصرف فيما وهبته لك لأننى أمَّنتك ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص] يعنى : أنت حر فى أنْ تعطى أو أنْ تمسكَ وتمنع .

والحق سبحانه لم يجعل لسليمان طلاقة التصرُّف ، إلا لأنه ضمن منه عدالة التصرف ، لأن سليمان حين طلب الملْك الواسع تعهَّد لله تعالى بهذه العدالة ، لذلك قالوا عنه - عليه السلام - إنه كان لا يأكل إلا خشكار الحب يعنى الردَّة أو النخالة ، ويترك الصافى للعبيد ولعامة الناس .

فكأنه لم يطلب النعمة والملْك الواسع ليتنعم هو به ، أو يتباهى ، إنما طلبه ليسخره فى خدمة الدعوة إلى الله ، ولأنه سيجابه قوةً كانت أعظمَ القُوَى فى هذا الوقت ، ويكفى أن الله تعالى وصف هذه القوة بقوله : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل] أى : بلقيس .

وهنا وفى هذه المواجهة سيظهر أثر الملْك وقيمته ، فلما أغرتْه بلقيس بالمال قال : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾ [النمل]

وهنا تظهر الحكمة فى أن سليمان حين طلب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، طلبه حتى لا يتميَّز عليه أحد ، ولا يحاول أحد أنْ يُغريه أو يرشيه ، أو يستميله بالمال ، كما حاولت بلقيس بملْكها الواسع فى اليمن السعيد فى ذلك الوقت .

والذى دَلَّ على حصافة بلقيس فى هذا الموقف أنها استشارتْ أعيان القوم وأشرافهم وذوى الرأى عندها : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي

﴿ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[1] (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) ﴾ [النمل]

أولاً : كيف عرفتْ أنه كتاب كريم ؟ قالوا : لأنها وجدته فى مخدعها دون أنْ يأتى به رسول ، أو يدخل به أحد ، ولم يمنعه حراس ، ولم يطلب استئذاناً عليها ، لذلك علمتْ أنه من جهة أعلى منها ، ولا بُدَّ أن حركة صاحب الكتاب فى الحياة أقوى من حركتها ، بدليل أن الكتاب وصلها بهذه الطريقة ، لذلك استشارت القوم ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾ [النمل]

وانتهت القصة بقولها : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

إذن : دَلّ قوله تعالى ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص] على أن عطاء الله للأنبياء ليس للتباهى والتفاخر ، إنما هو عطاء لخدم الدعوة إلى الله ؛ لذلك نرى الذين ملّكهم اللهُ بعضَ مفاتيح الغيب لم يستغلوا معرفة الغيب لصالحهم ، وربما جَرَتْ المعجزةُ على أيديهم أو على ألسنتهم ، وهم لا يدرون بها ، وتظهر منهم الكرامات وهم أنفسهم لا يعرفونها ولا يشعرون بها .

ذلك لأن سرَّ الله وهبه لهم ، لا ليتعالوْا به على الناس ، إنما ليزدادوا هم عبودية واستطراقاً فى العبودية لله تعالى ، وليكونوا نماذج لهداية الخلْق والأخذ بأيديهم إلى طريق الحق .

لذلك يُرْوى أن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ لما امتنع الغيثُ

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦١) : « تعنى بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك » .

وأجدبت الأرضُ خرج يستسقي ، وأخرج الضعفاء من الأطفال والشيوخ والنساء حتى أخرج البهائم وكأنه يقول يا رب إنْ كنتَ قد منعت عنّا المطر لذنوبنا فاسْقنَا لأجل هؤلاء ، لكن لم تمطر السماء وَهمَّ عمر بالانصراف ، وبينما هو قافل إذ وجد عبداً واقفاً بين الصخور يرفع يديه ويشخص ببصره إلى السماء ، قال عمر : فو الله ما وضع يديه حتى أمطرت السماء كأفواه القِرَب .

وعندها تعجب سيدنا عمر كيف أن السماء لم تستجبْ له واستجابتْ لهذا العبد ، وتأمل عمر وجه العبد حتى عرفه ، وذهب إلى النخَّاس ، وقال له : اعرض عليَّ عبيدك ، فظن النخَّاس أنه يريد الشراء ، فعرض عليه أفضل ما عنده من أصحاب العضلات المفتولة والقوام السليم ، لكن لم يلتفت عمر إلى واحد من هؤلاء ، فقال الرجل : والله ما عندي غير هذا العبد وهو كَلٌّ[1] على مولاه أينما توجَّه لا يأتي بخير .

فلما جاء العبد عرفه عمر ، وقال له : أهذا أنت ؟ فنظر إليه العبد ورفع بصره إلى السماء وقال : اللهم كما فضحتني بين خَلْقك فخُذْني غير مفتون ومضى لحاله . هكذا حال مَنْ تظهر منه الوَلاية والكرامة ، لا يرضى بها ولا يحب أنْ تنكشف أمام الناس ، فهو لا يريدها ويكفيه وُدُّ الله له بها .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(لَزُلفَى) يعني : قُرْبى ، ودلَّ على هذه القربى أن الله تعالى أعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وأعطاه حرية التصرف في هذا

(١) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . فهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

الملْك ، يعطى مَنْ يشاء ، ويمنع مَنْ يشاء ، وقد أعطاه الله هذا العطاء مقابل أنه علم أنه لن يصرفه في طغيان ولا في جبروت ، ولا في إدلال على الناس ، لكن سيضعه في موضعه الذي يريده الله ، فأصبح مأموناً على عطاء الله .

ومعنى ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٠ ﴾ [ص] أى : حُسْنَ مرجع ومَردّ إلى الله يوم القيامة .

ثم ينتقل بنا السياق إلى قصة نبى آخر هو سيدنا أيوب عليه السلام :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ(١) وَعَذَابٍ ۝٤١ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. ۝٤١ ﴾ [ص] أى : بالحمد والثناء ﴿ عَبْدَنَا أَيُّوبَ .. ۝٤١ ﴾ [ص] الوصف بالعبودية هنا شرف ، لأنه دلَّ على إعزاز الربوبية لمرتبة العبودية ، وقلنا : إن العبودية كلمة ممقوتة عند البشر ، لأن العبودية للبشر إهانة وتسخير ، يأخذ فيها السيد خير عبده وثمرة حركته في الحياة ، أما العبودية لله تعالى فوَصْفٌ محبوب ، وكلمة محمودة ، لأن العبد فيها يأخذ خير سيده .

لذلك لما امتنَّ الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج جعل حيثية ذلك العبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] فلما ضاقتْ به حفاوة الأرض في الطائف أراد ربه أنْ يُريَهُ حفاوة السماء به ، فالصفة التى رفعتْ محمداً إلى هذه المنزلة هى صفة إخلاصه في العبودية لربه .

---

(١) النصب : الداء والبلاء والشر. [لسان العرب ـ مادة : نصب] .

ومعنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ [ص] المسُّ : هو الالتقاء الهيِّن الخفيف ، يعنى هو دون اللمس ، قالوا : لأنه مرض مرضاً شديداً أثَّر فى إهابه ، فكان الشيطان يحوم حوله بخواطر السوء يقول له : كيف يفعل الله بك هذا وأنت رسول ، كيف يتركك هكذا دون أنْ يشفيك .

وهكذا اجتمع على سيدنا أيوب ألم الجلد وعذابه الجسدى ، وهواجس الشيطان فى خواطره النفسية ، لذلك قال : ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ [ص] ونُصْب بالضم مثل نَصَب بالفتح والنَّصَّب التعب ، فهى مثل بُخْل وبَخَل ، الاثنان بمعنى واحد .

وقالوا فى مسِّ الشيطان : إن الفعل على الحقيقة لله تعالى ، فالله هو الذى يفعل ، والشيطان بوسوسته سبب ، والله تعالى هو المسبِّب ، فمَسُّ الشيطان يعنى وسوسته التى شغلتْ خاطر سيدنا أيوب ، فكأن الحق سبحانه أراد من أيوب أنْ يتنبه إلى أن هذه الوسوسة ما كان يصح أنْ تمرَّ بخاطره .

وسيدنا أيوب لما اجتمع عليه المرض ووسوسة الشيطان ضَعُفَ فتوجَّه إلى ربه يدعوه أنْ يقطعَ عن نفسه وسوسة الشيطان ؛ لأنها تحتاج إلى مدافعة ، والمدافعة تحتاج إلى قوة ، والقوة عنده موهونة بالمرض ، ولذلك دعا الله حتى لا يزدادَ ضعفه بوسوسة الشيطان ، فلما دعا الله أجابه :

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾

فكأن الحق سبحانه يقول له : أنا لا أبتليك كراهةً فيك ، ولا مشقَّةً عليك ، إنما أريد أنْ أسمع منك أنك تكره مَنْ يجيل لك بخاطرك

شيئاً يبعدك عنى ، ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢) ﴾ [ص] يعنى : المسألة عندى سهلة يسيرة كما تقول : يا فلان الأمر هيِّن فهو تحت رجلَيْك .

والركْض هو القذف بشدة وسرعة ، تقول : ركضتُ الفرسَ . يعنى : غمزتُه برجلى هكذا من تحت ليسرع[1] ، ثم يتجاوز السياق مسألة الركض إلى النتيجة مباشرة ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص] ولم يقل : فركض فخرج الماء كذا وكذا ، إنما انطوى هذا كله ، واكتفى بالأمر (ارْكُضْ) .

والمعنى : أن فى هذا الماء مغتسلاً لك وشراباً ، لأن المرض الذى أصاب سيدنا أيوب يبدو أنه كان مرضاً جلدياً يترك على بشرته بُثوراً تشوِّه جلده . والآن نرى الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجلدية يعالجونها بالمراهم الظاهرية التى تعالج ظاهر المرض ، لكن لا تتغلغل إلى علاج سبب المرض الداخلى .

فكان من رحمة الله بسيدنا أيوب أنْ جعل شفاءه الظاهرى والباطنى في ركضة واحدة تخرج الماء ، فيغتسل منه مُغْتسلاً بارداً ، يشفى ظاهر مرضه وشراب يشفى أسباب المرض فى داخل جسمه .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن بعض نعمه على نبيه أيوب :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٤٣) ﴾

---

(١) قال الأصمعى : يقال رُكضت الدابة ولا يقال رَكَضتْ هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . [تفسير القرطبى ٥٨٥٣/٨] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ .. (٤٣) ﴾ [ص] يبدو أن بعض أهله بعدوا عنه لما أصابه المرض ، فلما شفاه الله وعاد إلى حال السلامة عادوا إليه ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ .. (٤٣) ﴾ [ص] يعني : وهبنا له مثل أهله أى : من الذرية والأتباع ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) ﴾ [ص] الذكرى هى الخاطر الذى يمرُّ بك ليصرفك إلى متعلق الذِّكْرى ؛ لأنك بصدد ما يبعدك عن سبب الذكرى .

ومضمون الذكرى هنا أنه لما صبر جاءه الفرج من الله ، فعاد جسمه مُعَافاً سليماً بعد أنْ برىء من المرض ومن أسبابه ، ثم عاد إليه أهله بزيادة مثلهم عليهم رفقاً بعواطفه . وهذا هو المراد بالرحمة فى قوله ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا .. (٤٣) ﴾ [ص] ، فهذه عطاءات متعددة جاءت ثمرة ونتيجة لصبره عليه السلام ورضائه بما قضى الله به .

إذن : الذكرى التى نذكرها فى هذه القصة أن الإنسان حين ينزل به الكرب يلجأ إلى الله ، ويفزع إليه فى كربه ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

والله يحب من عبده هذا اللجوء لذلك يبتليه ، وقد ورد أن الملائكة تقول : يا ربَّ عبدُكَ ضَجَّ من الدعاء لك ، ولم تُجِبْه ، فقال سبحانه : إن من عبادى مَنْ أحب دعاءهم ، فأنا أبتليهم لأسمع أصواتهم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾

الضغث : حزمة الحشيش أو حزمة من شماريخ البلح ، وقوله : ﴿ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص] دلَّ على أن المسألة كان فيها يمين يريد

الله تعالى لأيـوب ألاَّ يحنث فيه ، وهـذه الآية تلفتنا إلى قـصة بيَّنتـها السنة ، قالوا[1] : إن الشيطان ذهب إلى إحدى زوجـات سيدنا أيوب ، وقال لها : اطلبى من أيوب أنْ يلجأ إلىَّ وأنا أشـفيه حالاً ، بشرط أنْ يقول : إن الذى شـفانى الشيطان ، ولأنها كـانت مُسْتشـرفة لأنْ يبرأ قالت له : والله جـاءنى خاطر قال لـى كذا وكذا ، قـال : إنه الشيطان اسـتمـعت إليه وتريدين أنْ أطـيعـه ، والله الذى لا إله إلا هو لأجلدنك مائة . هذا هو اليـمين الذى أراد الله لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، فـقال له :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص]

والنبى ﷺ صنع مثل هذا حينما جاءه الرجل الأحْبَن ، أحبـن من (حَ بَ نَ) يعنى : كبـير البطن ، أو فى بطنه استسـقاء ، وقد زنى بامرأة هزيلة مـريضة ، فلما اعتـرف بجريمته خاف علـيه الرسول أنْ يموتَ لو أقـام عليه الحد ، فأمـر بأنْ يُضْربَ بحزمة من الحـشيش ، أو مائة عود من شماريخ النخل يُضرب بها مرة واحدة[2] .

ومعنى ﴿ فَاضْرِب بِّهِ .. (٤٤) ﴾ [ص] أى : من آليت على نفسك أنْ تجلده ﴿ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص] أى : فى يمينك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

---

(١) أخرجه احمد بن حنبل فى كتاب « الزهد » ، وعـبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قـال : إن إبليس قـعـد على الطريق ، فـاتخـذ تابوتاً يداوى الناس ، فـقـالت امـرأة أيوب : يا عبد الله إن ههنا مـبتلى من أمره كذا وكذا .. فـهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم . بشرط إن انا شفيته أن يقول انت شفيتنى لا اريد مـنه اجراً غُيره . فاتت أيوب فذكرت ذلك له فقال : ويحك . ذاك شـيطان لله علىَّ إن شفـانى الله تعالـى ان أجلدك مائة جلدة . فلمـا شفـاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثاً فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ فضرب بها ضربة واحدة .

(٢) عن سعيد بن سعد بن عبادة قـال : كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إمـاء الدار يخبث بها وكان مـسلماً . فرفع شأنه سـعد إلى رسول الله ﷺ فقـال : اضربوه حـده . قالوا : يا رسـول الله ، إنه أضعف من ذلك ، إن ضربـناه مائة قتلناه . قال : فخذوا لـه عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضـربة واحدة وخلوا سبيله . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٢) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٧٤) .

.. ﴿٤٤﴾ [ص] فكأن هذا التيسير جزاءٌ له على صبره وعلى رجوعه إلى ربه ، فجعل الله له شيئاً يُرضيه بأنْ خففَ عنه حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، لأنه أقسم أنْ يجلد ، فكان ينبغى عليه أنْ يُجلد على الحقيقة حتى لا يحنث ، لكن خفَّفَ الله عليه حتى لا يؤلمه فى أهله .

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

هنا أيضاً (واذكر) أى : بالحمد والثناء (عبادنا) جمع عبد وقلنا : إن العبودية ممقوتة إنْ كانت للبشر ، لكن العبودية لله عزٌّ وشرف (إبراهيم) هو أبو الأنبياء (وإسحق) وهبه الله لإبراهيم بعد أنْ أسلم الحكم لله حين أمره بذبح ولده إسماعيل (ويعقوب) هو ابن إسحاق .

وقد وقفنا على قصة هؤلاء الأنبياء فى قوله تعالى على لسان إبراهيم يقول لولده إسماعيل : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات] فلم يشأ إبراهيم أنْ يقبل على ذَبْح ولده قبل أنْ يُبيِّن له الأمر الذى صدر إليه ، ذلك لأنه أشفق عليه أنْ يأخذه على غرَّة فيمتلىء قلب الولد على أبيه حقداً ؛ لأنه لا يعرف الحكمة من قَتْل أبيه له ، ثم أراد أن يشرك ولده معه فى التسليم لله وألاّ يحرمه الأجر .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَٰإِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّءْيَا .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : استسلمتَ واستسلم ولدك ، إذن ارفع يدك ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات]

إذن : جاء إسحق وجاء من بعده يعقوب نتيجة لتسليم إبراهيم وانصياعه لأمر ربه فى ذبح إسماعيل ، فأبقى على إسماعيل ، ووهب إسحاق ويعقوب زيادةً وفضلاً من الله ؛ لأن الحق سبحانه لا يريد بالابتلاء أنْ يعذِّب الناس .

لذلك قلنا : إن لسيدنا إبراهيم فضلاً على كل مسلم ، وجميلاً فى عنق كل مؤمن ، لماذا ؟ لأن مسألة الذبح لو نُفِّذت فى إسماعيل لصارتْ ابتلاءً من الله للإنسان بأنْ يتقرَّب إلى الله بذبح ولده ، لكن سيدنا إبراهيم بإيمانه وتسليمه الأمر والحكم لله تحمل عنّا هذه المسألة ، ورفع عنا هذا الحكم ، وإلا صارتْ المسألة نُسُكاً وعبادة لازمة لكل مؤمن من بعده ، وصدق القائل[1] :

سلِّمْ لربِّك حكْمَهُ فَلحكْمَة ... يَقْضيه حَتَّى تَسْتَرِيحَ وتغْنَما

وَاذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابْنِه ... إذْ قالَ خالقُهُ فَلَمَّا أسْلَمَا

ونتعلم من هذه المسألة أن كل أمر أو حدث يُسيء الإنسان فى ظاهره ويتعبه ويعتبره الإنسان مصيبةً لا ينبغى أنْ ننظر إليه مُنفصلاً عن فاعله ، لكن يجب أنْ نأخذَ الحدث بضميمة مَنْ أحدثه ؛ لأن الحكم على الحدث يتغير بالنظر إلى الفاعل .

وأوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك ، والدم

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه وأرضاه .

يسيل من وجهه ، فإنك لا تهتم بالإصابة بقدر ما تهتم بالفاعل ، فأول سؤال تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟ ثم تنتظر أن تسمع اسم الفاعل ، فإنْ قال الولد : عمى ضربنى فإنك ستهدأ وتقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استوجبَ أنْ يضربك عمك ، لكن إنْ قال لك : فلان خاصة إنْ كان عدواً لك ، فإنك تقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : لا يمكن أنْ تحكم على الفعل بالخير أو الشر إلا بنسبته إلى فاعله ؛ لأنه بنسبة الفعل إلى فاعل تتمحض الخيرية فيه أو يتمحَّض الشرُّ فيه .

ومعنى ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) ﴾ [ص] أصحاب الأيدى وهى جمع يد ، وتُطلَق اليد على الجارحة المعروفة ، وتُطلَق على ما تأتى به الجارحة من فعل ، تقول : فلان له يد علىَّ يعنى : فضل وجميل ، ولأن أغلب الأفعال تُزَاوَلُ باليد سُمِّيَتْ النعمة التى تصل بطريق اليد باسم هذه الجارحة الفاعلة ، ومن ذلك قوْل القائل[1] :

له أياد علىَّ سابغة   أعدّ منها ولا أعددها

وفَرْق بين الحركة الفاعلة التى تقوم بالفعل ، ومعنى آخر فى الحركة الفاعلة هو ما يُوجب عليك الحركة ، مثلاً حينَ نريد البَذْل والعطاء ، فمَنْ عنده مال يبذل ويعطى بيده ، أما المعدم فلا يعطى إنما ينصح مَنْ عنده المال بأنْ يبذلَ منه .

يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة]

فالعمل هنا ليس باليد إنما باللسان ، لكن لما كانتْ اليد هى الآلة التى نباشر بها أكثر الأعمال نسبنا كلَّ خير يتعدَّى منك إلى غيرك

(١) المتنبى .

نسبناه إلى اليد ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

فإذا كان الإنسان غير واجد للمال ، وغير قادر على النصح باللسان ، فإن الله تعالى لا يحرمه أبداً من العمل الصالح في البذل ، ويكتفي منه بأنْ يفرح بمَنْ يبذل ويسعده العطاء من غيره .

ومثال ذلك : الرجل الذى سمعوه يدعو عند الكعبة يقول : اللهم إنك تعلم أنِّى عاصيك ، لكنى أحب مَنْ يطيعك . والأصمعى يسمع رجلاً عند الملتزم يدعو ويقول : يا رب أنا أعلم أنى عاصيك وأستحى وأنا عاصيك أنْ أطلب منك ، لكن لا إله إلا أنت ، فلمن أذهب ؛ فقال له : يا هذا ، إن ربك يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ومعلوم أن المؤمن يجتهد فى الدعاء خاصة عند الملتزم ، ويحاول أن يُحسن الدعاء ، ويُحسن المسألة فى هذا الموقف .

مرتبة أخرى يجعلها الله لغير الواجد حتى لا يُحْرم الأجر فى العطاء ، هى أنْ يحزن لأنه لا يجد ما يبذله ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا سبعة نفر : من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ، ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلَّى فضل الله ، ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة ، وعبد الله بن عمرو المزنى . تفسير ابن كثير (٢/٢٨١) وذكر السيوطى فى كتابه « أسباب النزول » أن ابن أبى حاتم أخرج من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزنى ، فقال : يا رسول الله احملنا . فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فولَّوْا ولهم بكاء ، وعزَّ عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. (٩٢) ﴾ [التوبة].

فالحق سبحانه لا يحرم مؤمناً أنْ يكون له موقف في البذل ، ولو كان بَذْلاً سلبياً .

ومن معاني اليد : القوة كما في قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ⑩﴾ [الفتح] فالمراد ﴿أُوْلِي الأَيْدِى.. ㊺﴾ [ص] أي : أصحاب القوة في طاعة الله .

و﴿الأَبْصَارِ ㊺﴾ [ص] أي : البصائر في العلم والدين والحكمة ، أما الأبصار بمعنى حَاسَّة البصر ، فهي موجودة في الجميع المؤمن وغير المؤمن ، إذن : المراد الأبصار التي ترى ثم تؤدي مهمة أخرى فوق البصر ، وتزيده نوراً على نور .

إذن : البصر وحده لا يكفي لأن آيات الله في الكون هي المعطيات ، كما نقول في المسألة الرياضية ، وهذه المعطيات تحتاج إلى بصيرة واعية لتصل بالمعطيات إلى المطلوب ، وهو الإيمان بمَنْ أعطى هذه المعطيات .

فالأبصار حينما تنظر في الكون ، وترى معطياته ، وترى آيات الله فيه ، ثم لا تتأثر عقلياً ولا وجدانياً بها ، ولا تلتفت إلى صانعها ومبدعها ، فلا قيمة لهذه الأبصار .

فالمعنى ﴿الأَبْصَارِ ㊺﴾ [ص] أي : أصحاب البصائر التي شغلتْ العقول والوجدان ، بما تراه من الآيات ، وعلمت أن هذا الكون لا يمكن أنْ يُنسَب إلا إلى قوة قادرة ظاهرة مسيطرة ، لا يوجد لها شريك ، وإلا لو كان له شريك لظهر أثره ، ولدافع عن حقه في هذا الملْك ، وما دام لم يظهر هذا المعارض ولم يدَّعِ أحد أنه خلق ، فالقضية تَسْلَم لمن ادعاها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وقدَّم الأيدى على الأبصار ، لأن عمل الأيدى نتيجة نهائية للبصر ، لأنك تبصر آيات الله فى كونه ، وتعرف أنه ربُّ الجميع ، وخالق الجميع ، ورازق الجميع ، فيرقّ قلبك للفقير وتعطيه ، لعلَّكَ تصبح مثله فى يوم ما فتجد من يعطيك ، ولا تحقد على واجد وأنت معدم ، لأن خير الواجد سينالك بأىِّ حال .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

ولنعتبر بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص]

أخلصناهم يعنى : أعطيناهم شيئاً خالصاً لهم ، والخالصة التى خصصناهم بها هى التى تلفتهم دائماً إلى دار الجزاء وهى الآخرة ، وبهذه الذكْرى يظل الإنسان دائماً مُسْتحضراً ثوابَ الطاعة وعقابَ المعصية ، وإذا استحضر الإنسان هذه العاقبة استقام على الطاعة وابتعد عن المعصية .

لذلك يقول ﷺ فى بيان هذه المسألة : « .. لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

لماذا نفى عنه الإيمان فى هذه اللحظة ؟ قالوا : لأنه غفل عن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عاقبة فعْله غفل عن الجزاء ، فالغفلة هى التى تكسلنا عن الطاعة ، وتُوقعنا فى المعصية ، وتُغرينا بها ، ولو استحضر الإنسانُ العقوبة على المعصية ما وقع فيها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : لو أن شاباً عنده شرهٌ جنسى . وقلنا له : سنوفر لك ما تريد ، لكن بعد أنْ تقضى ليلتك سنأخذك إلى هذا الفرن المسجور ، ونضعك فيه لمدة ساعة واحدة ، مثل هذا الشاب ما ظنكم به ؟ لا بُدَّ أنه سيفر من هذه المعصية ، ويهرب منها ، ويزهد فيها ، لماذا ؟ لأنه عاين العاقبة واستحضر الجزاء .

كذلك الطالب الذى يجتهد فى دروسه ، حتى أنه يهمل فى أكله وشربه ، لماذا يفعل ذلك ؟ لأنه استحضر لذة النجاح وشرف التفوق وعُلُوّ المنزلة بين أهله وزملائه ، وفى المقابل الطالب المهمل لا يهمل إلا لأنه غفل عن عاقبة الإهمال وذلّة الفشل يوم أنْ تظهر نتيجته .

فمعنى ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص] أى : يظل دائماً على ذكْر لها يستحضر الثواب على الطاعة ، فيقبل عليها ، ويستحضر العقاب على المَعصية فيفرّ منها .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص]

أى : الذين اصطفيناهم ، ولله تعالى فى الخَلْق اصطفاءات يصطفى من الأماكن ، ويصطفى من الأزمنة ما يشاء ، كما اصطفى من الأمكنة الكعبة وبيتَ المقدس ، واصطفى من الأزمنة شهر رمضان كذلك يصطفى من الناس رسلاً ، ويصطفى من الملائكة رسلاً .

والاصطفاء ليس تدليلاً للمصطفى ولا محاباة له ، إنما ائتمان المصطفَى على ما يريده من اصطفاه أى المصْطفى من إشاعة الخير

فى جنسه ، فاصطفاء الرسل ليس تدليلاً لهم ، إنما الاصطفاء يُحمِّلهم أعباء جسيمة فى ذواتهم وأنفسهم وفى أموالهم وأهليهم .

كذلك اصطفى رمضان لا لنعبد الله ونطيعه فى رمضان وحده ، إنما ليشيع الطاعة فى الزمان كله بأنْ تأخذ من رمضان الطاقة اللازمة للعام كله ، إذن : فاصطفاء الزمان أو المكان أو الإنسان أو الملائكة ليس تدليلاً لخَلْق على خَلْق ، إنما لإشاعة الخير فى كل الخَلْق للخَلْق .

ومعنى ﴿ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص] جمع خيِّر . والمعنى : اصطفيناهم لما فيهم من الخيرية ، التى تُؤهِّلهم لهذا الاصطفاء .

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

سيدنا إسماعيل معروف لنا جميعاً من خلال قصته مع أبيه إبراهيم ، والخلاف هنا بين العلماء فى سيدنا ذى الكفل ، لأن من الرسل مَنْ عدَّهم الله فى موكب الرسالات ، لكن لم يذكر لنا إلا أسماءهم وأوصافهم ، وذو الكفل ذُكر هنا بهذا الوصف .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص] فاليسع لا نعرف عنه إلا اسمه ، ولم يذكر القرآن مَنْ هو ، ولا متى بُعث ، ولا إلى مَنْ أرسل ، ولا المنهج الذى جاء به ، كذلك فى ذى الكفل لم يذكر عنه القرآن إلا اسمه ، ووصفه هنا بأنه من المصطفين الأخيار ، وفى سورة الأنبياء قال عنه الحق سبحانه : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء]

فوُصِف مرةً بأنه من الأخيــار ، ومرة بأنه من الصابرين ، ومرة من الصالحين ، ولهذا أدخله الله فى رحمته ، وهذه التى جعلت العلماء يختلفون فى ذى الكفل ، أهو رسـول أم غير رسـول ؟ لكن جمهور العلمـاء[1] على أنه رسـول ، بدليل أن الله تعـالى سلكه ضـمن هؤلاء الرسل .

ومما قيل فى ذى الكفل أنه فى فترة اليسع وفى رسالته أراد أن يستخلفَ على الناس رجلاً بعـده ، وأراد أنْ يرى سيرته فى الرعية ، وكيف سيتصرف هذا فى أخريات حياته ؟ وحين رأى أن قوته عجزتْ عن القيـام بأمر الدعوة . وكـان من حرصه على الدعـوة من بعده أنْ يختبر مَنْ يستخلفه وينظر ما يفعل .

فلما جلس اليسع فـى قومه قال : مَنْ يتقـبل منى بثلاث ؟ والباء عادة كما فى هذه العبارة تدخل على الثمن ، كما تقول : اشتريتُ كذا بكذا ، والمعنى : مَنْ يتكفل لى بثـلاثة أشياء وأستخـلفه على القوم ، ثم قال فى بـيان هذه الثلاث : أنْ يصــومَ النهار ، ويقـومَ الليل ، ولا يغضبَ . فقام رجل من القوم تزدريه العين وقال : أنا ، فأعاد عليه : أنت تصـوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم ، فردَّه .

وفى الغد ، جلس اليسع فى مجلسه ، وعرض على القوم مقالته ،

---

(١) يرى بعض العلمـاء أنه ليس بنبى ، وإنمـا هو رجل من الصالحـين من بنى إسرائيـل وقد رجَّح ابن كثير نبـوته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء ، فقال جل وعـلا فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبـياء] . قـال ابن كثـير فى البـداية والنهـاية (١/٢٢٧) : « فالظاهر من ذكـره فى القرآن العظيـم بالثناء عليه مقـروناً مع هؤلاء السادة الأنبـياء أنه نبى عليـه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور » .

فقـام الرجل بعينه وقال : أنا ، فـعرف اليسـع أن الرجل عنده عـزيمة وإصرار على القيام بهذه المهمة ، فاستخلفه على القوم[(١)] .

وقـد تكلم العلمـاء فى هذه الشروط الثـلاثة التى جـعلهـا سيـدنا اليسع ـ عليه السلام ـ حيثيات الاستخلاف ، قالوا : لأن الذى يصوم النهار يصوم عـما أحله الله فى غير الصوم ، والذى يصـوم عَمَّا أحله الله يصـوم من باب أَوْلَى عـمـا حرَّمـه الله ، فـضـمن بذلك بُعْـده عن المحرمات . والذى يقوم الـليل ترك راحته وترك التنعُّم ليأنس بربه ، ومَنْ كانت فيه هذه الصفة لا يتخذ الاسـتخلاف للنعمة والرفاهية إنما يتخذه للقيام بأعبائه ، وإلا لو أراد التنعُّم لَنام الليل مِلْء جفونه .

أما عدم الغـضـب فهى صفة لا بُدَّ أنْ تتـوافر فى كل مَنْ يسـوس الرعيـة ، أو يجلس فى مجلس حكـم بين الناس ، ومعلوم أن للرعـية أخلاقـاً شتى وصـفات مـتباينة ، فـلا بُدَّ لمن يتولّى أمـرهم أنْ يكون حليماً لا يغضب ؛ لأن الغضب يستـر العقل ، فلا يختار بين البدائل ، ولا يُحسن التصرف فى الحكومة .

لذلك قـالوا لـلقـاضى حـين يغـضب : ردَّ نفسـك ، يعنى : أنت لا تصلح لمنصب القـضـاء . إذن : قال ولا تغـضب لأن العقل يتـأثر بالغضب ، فـتختلف موازينه فى الحكم ، وتخـتلف كذلك ملَكات النفس فلا يصح الحكم .

---

(١) أورد السيـوطى هذا الخبـر عن ذى الكفل مع نبى الله اليسع فى الدر الـمنثور (٥/٦٦١) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (٥/٦٦٣) ، وعـزاه لعبد بن حميد وابن أبى الدنيـا فى ذم الغـضب وابن جـرير وابن المنذر وابن أبى حـاتم عن عـبـد الله بن الحـارث (٥/٦٦٣) وعزاه لابن سعيد النقاش فى كتاب القضاة عن ابن عباس .

قالوا في مسألة عدم الغضب : إن الشيطان لم يستطع التدخُّل فى صيام النهار وقيام الليل ، فأراد أنْ يدخل إليه من ناحية عدم الغضب ، فأرسل إليه ذريته ليُغضبوه فلم يغضب ذو الكفل - عليه السلام - فقال لهم : ارفعوا أيديكم عنه وسأتولى أنا هذا الأمر ، وكان ذو الكفل لا ينام إلا نومةً واحدة فى القيلولة ، هى كل ما ينام فى الليل والنهار ، وكان يأمر خادمه ألاَّ يدخل أحد عليه فى هذا الوقت ، فكان الشيطان يتحيَّن هذا الوقت ، ويطرق على ذى الكفل الباب ، ويُحدث عنده ضجة يقول : أنا رجل ظلمنى قومى وفعلوا بى كيت وكيت وأريد أنْ تنصفنى منهم .

فقال ذو الكفل : ألاَ تعلم أن هذا الوقت هو الوقت الذى أستريح فيه ، اذهب وتعالَ فى وقت أجلس فيه للحكم بينكم ، وأنا أقضي فى أمرك .

وفى اليوم التالى ، جاء الشيطان وفعل كما فعل بالأمس ، وفى اليوم الثالث وجد الباب مغلقاً فنفذ إلى ذى الكفل بطريقته الخاصة ، قالوا : دخل من كوة فى البيت فى غفلة من الحارس ، وطرق على ذى الكفل باب مخْدعه ، فلما رآه قال : كيف دخلتَ ؟ فتلعثم . قال : إذن : أنت هو . أى الشيطان قال : والله لقد احتلنا كثيراً على أنْ نغضبك فلم نفلح ، ثم تركه وانصرف[1] .

أما عن خلاف العلماء فى رسالة ذى الكفل ، فأنا أريد أنْ أُجلَّ العلماء عن الخلاف فى شيء يصح أن نلتقى فيه . قالوا : الكفل من التكفُّل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

(١) أورد السيوطى هذه القصة فى كتاب الدر المنثور (٥/٦٦١) عن مجاهد وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم .

والكفْل : هو النصير .

والذين قالوا برسالته استدلوا على ذلك بأمرين : الأول أن الله ذكره فى عداد الرسل ، الآخر : أن اليسع ـ عليه السلام ـ استخلفه . والحق سبحانه وتعالى سكت على هذا الاستخلاف ولم يُغيِّره ، وهذا إقرار للاستخلاف وموافقة عليه ، كما وافق الحق سبحانه لموسى ـ عليه السلام ـ لما طلب من ربه أن يُؤيِّده بأخيه هارون ، فقال :

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

قال آخرون : بل هو رجل متطوع بالدعوة ، فَسَد الناس فى زمانه ، ورأى أن هذا الفساد لا يصلحه إلا رجلٌ له عدالة فى الحكم ، ونزاهة فى القضاء بين الناس ، ورأى فى نفسه هذه المواهب ، فعرض على قومه أن يقوم بأمرهم ، وأنْ يسيرَ فيهم بالعدل فوافقوا عليه . إذن : ذو الكفل فى رأى هؤلاء أنه ليس رسولاً ، بل رجل متطوع بمنهج كمنهج الرسل .

﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا ﴾ أى : ما تقدم من موكب الرسل ﴿ذِكْرٌ﴾ تذكير كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

(١) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/٢٦٠] .

الأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾ [البقرة]

يعنى : هذا الذى ذكرناه من موكب الرسل ومن موقف الأمم معهم ، وكيف أنهم تحمَّلوا تفاهة القوم وقلَّة أدبهم مع أنبيائهم ، وتحمَّلوا الاجتراء باللسان وبالجوارح ، نذكر هذا لمحمد الذى يلْقى من قومه ما يلْقى من الأذى لنذكره أنه ليس بدْعاً فى الرسل ، وأن ما جرى لإخوانه المرسلين لا بُدَّ أنْ يجرى له ، وإذا كنا نقيس الابتلاء بمقدار الرسالة فنصيبُ محمد ﷺ فى هذا الإيذاء أكبر من نصيب الرسل أجمعين .

فقوله تعالى : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ..﴿٤٩﴾﴾ [ص] تسليةٌ لسيدنا رسول الله حتى يعلم أنه ليس بدْعاً فى ذلك ، وأن عظمته فى أنْ يتلقَّى سفاهة القوم ؛ لأن القومَ حين يسفهون على الرسول يدلُّ ذلك على أنهم منتفعون بالفساد الشائع فى قومهم ، وما جاء الرسول إلا ليقضى على هذا الفساد ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسولُ خَصْماً لهؤلاء ، وكلما تصدَّى لفسادهم اشتدتْ عداوتهم له ، وإيذاؤهم وسخريتهم منه ، واتهامهم له بالكذب والسحر والجنون .. إلخ .

فهذه إذن سنة الله تعالى فى كل مَنْ يتصدَّى للدعوة ويجابه الفساد فى المجتمع ، لا بُدَّ أنْ يجد مَنْ يجترىء عليه ويتهمه بالباطل ، ويحاول النَّيْل منه والتشكيك فى قصده ، هذا رَدُّ فعل طبيعى إذا وجده الداعية ينبغى أنْ يُسَرَّ به ، فهو إشارة وعلامة تدلّ على نجَاحه فى مسعاه ، وأنه نال منهم وغَاظهم .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص] أى : مرجع حسن إلى الله يوم القيامة ، فهى تتحدث عن الآخرة وما ينتظره ﷺ من الجزاء الحسن ، ففى الآية عطاءان لرسول الله :

الأولى : تسليته ﷺ في قوله : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ..㊾ ﴾ [ص] ثم ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ㊾ ﴾ [ص] كأنه تعالى يقول : هذا الذى ذكرناه ذكْر لمحمد كي نُسلِّيه ، لكن الأهمّ من ذلك ما ينتظره من الجزاء الحسن في الآخرة ، الواو هنا عطفت ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ㊾ ﴾ [ص] على ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ .. ㊾ ﴾ [ص]

والمتقون مادتها : وَقَى يعنى حال بين شيء يصيبه ، وبين نفسه ، واتقى الشيء جعل بينه وبين الشيء وقايةً تحميه . وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى القرآن نجد الحق سبحانه يأمر بالتقوى تكليفاً يكلف الإنسان أنْ يقى نفسه مما يعُود عليه بالشر ، وقد أتتْ هذه المادة بلفظ : اتقوا الله ، واتقوا ربكم ، واتقونى ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة.

وكلها تلتقى في معنى واحد ، لأن لله تعالى كما قلنا صفات جلال وصفات جمال ، فمعنى اتقوا الله: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال لله وقاية ، مثل : المنتقم الجبار القهار .. إلخ .

وهذه الصفات هى التى ترهب المخالف وتردعه ، فاتقوا صفات الجلال من الله ، لأنه سبحانه قادر أنْ يبطش بكم وليس لكم جلَد على انتقام الله أو التعرُّض لأثر هذه الصفات .

وبنفس المعنى : اتقوا النار لأنها جُنْد من جُنْد الله ، وأثر من آثار صفات الجلال .

وفى موضع واحد من القرآن وردتْ التقوى بلفظ (واتقوا) دون ذكر للمتقَى ، وكأن هذا اللفظ جاء ليدلّ على شمول التقوى أو مطلق التقوى ، فهى تعنى : اتقوا الله ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة .. إلخ .

ومعنى ﴿ لَحُسْنَ مَآبٍ ㊾ ﴾ [ص] يعنى : حُسْن مرجع ، لكن أىّ

مرجع ؟ للعلمـاء فى المرجع كلام فلسفى يقـولون : أى مرجع الروح ومردّها إلى الأجساد يوم القيامة ، وهذا كلام لا وزنَ له ؛ لأننا نفهم المـرجع والمردّ إذا لاحظنا الخَلْق الأول ، والخـالق سبـحانه قـبل أنْ يخلق الخَلْق أخذ عليهم العهد ، وهم ما يزالون فى مرحلة الذَّرِّ .

كما قال سـبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : إيمان الفطرة فى عـالم الذرّ والشهـادة لله تعالى بأنه الربُّ الخالق المُـربِّى تستدعى أن يـكون المرجع إليه سـبحانه والمـردّ إليه للحساب ، هل قـابلتم هذه الشهادة بالطاعة أم بالعصـيان ؟ فمن أدّى العهد القديم واسـتصحبه إلى العهد الجديد فـقد فاز وله حُسْن مآب ، وأما مَنْ ظلم نفـسه وخالف العـهد الذى أخذه على نفـسه فقـد خاب وخسر ، وله فى الآخرة مآب الشرِّ والسُّوء .

ولما كان حُسْن المآب كلمة عامـة مُجْملة أراد الحق سـبحانه أن يُفصِّلهـا وأنْ يوضحها لنا ، فـقال : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) ﴾ [ص] فكلمـة جـنات عـدن بدل من حُـسْن مــآب ، فكأن الحق سبـحانه حـصر حُسْن المـآب فى جنات عدن ، والجنات جـمع جنة ، وهى المكان المليء بالأشجار المتشابكة التى تستر مَنْ يسير تحتها ، أو لأنها تجنّ مَنْ يسـير فيهـا وتحبسه عن الخـروج فيها أو الحـاجة لغيـره ؛ لأن فيهـا كلّ ما يحتـاجه ، وهذا هو معنى الـجنة فى الدنيا أيضاً ، ومنه قـوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

ومثَلُ الجنة التى دخلها آدم - عليه السلام - ليتلقَّى فيها من الله التجربة التكليفية بافعل ولا تفعل ، لكن نسمع مَنْ يقول أن آدم كان فى جنة الآخرة ، وأخرجه الله منها إلى الدنيا ، وهذا لا يستقيم لأن أول إخبار من الله عن آدم لم يقُلْ أنِّى خلقته للجنة ، إنما قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

أما مسألة دخوله الجنةَ أى جنة الدنيا ، فذلك لأنك حين تريد أنْ تدرِّب شخصاً على عمل ما فإنك لا بُدَّ أنْ تتكفَّل له بالإقامة والنفقة ، وتوفر له مُقوِّمات حياته بالطريقة التى تتيح له التدريب والقيام بالمهمة التى كلف بها ، وهكذا فعل الله تعالى لآدم ، فلما نسى ما أمره الله به واتبع الشيطان تغيَّرتْ طبيعته ، ولم يَعُدْ صالحاً للإقامة فى هذه الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (٢٢)﴾ [الأعراف]

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بسوأته لأنه خالف أمر ربه ، كذلك إذا رأيتَ عورة ظهرتْ فى الأرض إلى أنْ تقوم الساعة فاعلم أنها نتيجة مخالفة لمنهج الله أو تعطيلٍ لحكم من أحكامه ، وإلا ما الذى جعل هذه الفتحة فى آدم عورة ، وهى لا تختلف عن أىِّ فتحة مثلها فى الجسم ، ما الفرق بينها وبين فتحة الفم مثلاً ؟ إذن : متى كانت عورة ؟

كانت عورة حين أصبح لها مُسْتقذرات ينفر منها طبْع الإنسان ، وكيف تكونتْ هذه المستقذرات ؟ تكوَّنت لأنه أكل على خلاف منهج ربه ، بدليل أنه لما أكل وفْق ما أمره الله لم تكُنْ له فضلات ، كان يأكل من طهى الله ، يأكل على قَدْر استبقاء الحياة .

لكن لما خالف وأكل من الشجرة تكوَّنتْ الفضلات وظهر أثرها المستقذر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] يريد أنْ يستر هذه العورة وأنْ يداريها ، لكنها أصبحتْ عادة لازمة للإنسان إلى الأبد ، سوأة لا تُستر ولا تُدفع ، إذن : صارت سوأة بالمخالفة .

لذلك نجدهم في الحروب وميادين القتال يعطون الجنود أقراصاً مغذية تفيد الجسم ، ولا تترك فضلات ، ولا تزحم المعدة .

ولو تنبَّه آدمُ لوسوسة الشيطان ما طاوعه وما أكل من الشجرة ؛ لأنه أغواهما بقوله : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] في حين أنه يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم يُبعثون ، ولو علم أن هذه الشجرة تبقيه وتُخلده لأكل هو منها ، أليس هو القائل :

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾ [ص]

إذن : كان الشيطان كذاباً ، لكن لم يتنبه آدم لكذبه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) ﴾ [طه]

لكن لماذا يقع آدم ـ عليه السلام ـ في هذا الابتلاء ؟ قالوا : لأن آدم سيكون أباً للبشر جميعاً ، وسيكون ممثلاً لصنفيْن منهم ، صنف معصوم من الخطأ وهم الأنبياء والرسل ، وصنف يخطيء وهم عامة الناس ، إذن : لا بُدَّ أنْ تتمثل في حياته هاتان الصورتان ، وقد وقع منه العصيان وهو في الجنة في فترة الاختبار التكليفي كما قلنا ، وعصيانه هذا لا ينافي عصمة الأنبياء ، لأنه لم يكُن قد نُبِّيء بعد ، لكن تاب آدم فتاب الله عليه ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]

إذن : كان الاجتباء والاختيار للنبوة بعد المحنة التى وقع فيها ، وبعد الاجتباء عصم آدم عصمة الأنبياء . وكلمة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. ﴿١٢٢﴾﴾ [طه] دلتْ على التعقيب ووجود مدة بين عصيان آدم واجتبائه.

إذن : قوله تعالى : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ .. ﴿٥٠﴾﴾ [ص] أى : فى دار الجزاء ومعنى ﴿ عَدْن ﴾ يعنى : إقامة دائمة لا تزول ولا تنتهى ، وقال (عَدْن) لأن جنات الدنيا ينتفع بها صاحبها مدة ثم تزول ، فإما أنْ تصيبها جائحة ، كما فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ[2] مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[3] ﴿٢٠﴾﴾ [القلم] وإما أن يموت هو ويتركها لغيره .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُطمئن أهل طاعته بأن الجنة التى أعدَّها لهم باقية دائمة لا تزول ، جنات إقامة دائمة خالدة ، لا يفوتك نعيمها ولا تفوته .

وقوله سبحانه : ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص] مُفتحة اسم مفعول يدل على المبالغة وكثرة تفتيح الأبواب ، فمَن الذى يفتحها ؟

---

(١) يصرمنها : يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها . والطائف هنا العذاب المحيط . [القاموس القويم ١/٤٠٩] .

(٣) كالصريم : أى أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

يجوز فتحها الخزنة ساعة يروْنَ أهل الجنة قادمين يفتحونَ لهم ويحيونهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

كما نرى مثلاً فى الفنادق الكبيرة ، يقف الحراس والحُجَّاب على الباب ، وساعةَ يأتى الزائر يفتحون له الباب ، لكن لما ارتقوا بهذه المسألة رأينا الأبواب تُفتح وحدها أتوماتيكياً بمجرد الاقتراب منها ، فإنْ دخل الزائر تُغلق أيضاً تلقائياً . فيجوز أن الأبواب تُفتح بفعل الملائكة ، أو تُفتح بمجرد إرادة أهل الجنة ، فساعةَ يريد أنْ يدخل تُفتح له دون تدخُّل من أحد .

فإذا كان البشر قد توصَّلوا إلى هذه الدرجة فى مسألة فَتْح الأبواب ، فهذا التقدُّم يؤيد ما جاء به القرآن ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

لقد رأينا هذه السُّقف وهذه المعارج ، وقد يُراد بها السلالم والأسانسيرات التى نصعد فيها الآن ، وقد نزل هذا الكلام منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان على أمة أمية مُتبدية ، لا تعرف المبانى ، إنما تسكن الخيام وبيوت الشَّعر والوَبَر .

إذن : فى القرآن لقطات تدلُّك على أن فى كتاب الله رصيداً لكل ما يجدُّ فى حياة الناس ، فإنْ تعجبتَ لشىء فى كتاب الله فاعلم أن الواقع يؤيده ، وأنكم أيها الخَلْق ستصلون فى علومكم وارتقاءاتكم إلى

(١) المعارج : المصاعد والدَّرَج . والمعراج : السُّلَّم [لسان العرب ـ مادة : عرج] . ويظهرون فى الآية : يعلون .

مثْل ما تتعجبون منه ، فإذا كنتم قدرتم أنْ تفعلوا ذلك فاسمحوا لله تَعالى أنْ يفعله من باب أوْلَى .

ثم يقول سبحانه فى وصف أهل الجنة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا .. (٥١)﴾ [ص] المتكيء هو ما بين النائم والجالس ، أو ما بين النائم والقاعد ؛ لأن هناك فَرْقاً بين قعد وجلس - وإنْ كان المعنى واحداً - لأن قعد تكون عن قيام ، كان قائماً فقعد ، أما جلس فمن الاضطجاع ، يعنى كان مضطجعاً فجلس .

والإنسان حين يكون قائماً يحمل وزنه كله على القدمين ، فإنْ تعب من القيام قعد ، وفى القعود يكون ثقل الجسم على المقعدة ، فإنْ تعب من القعود اتكأ على جنبه .. وهذا وَضْع بين الجلوس والاضطجاع على الأرض ، ويُوزع فيه ثقل الجسم فيكون أكثر راحة للإنسان .

لذلك اختاره الله لأهل الجنة ، واختارته امرأة العزيز للنسوة اللاتى استضافتهن . قال تعالى : ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ..(٣١)﴾ [يوسف] فالمتكأ دَلَّ على أن المجلس لا يُمَلُّ ، وأن الاتكاء هو الوضع الذى يأخذ فيه الإنسان راحته .

وقال تعالى فى أهل الجنة : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً فى سورة الرحمن : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ ، وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفيء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .

(٢) الرفرف : الرقيق من الديباج (الحرير) تبسط ويُجلس عليها فى المجالس .

وَعَبْقَرِيٍّ[1] حِسَانٍ (٧٦) ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً في بيان مُتكأ أهل الجنة : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف]

إذن : أهل الجنة يتكئون إما على الفرش المُبطَّنة بالإستبرق ، وهو الحرير السميك الغليظ ، وهو يشبه ما نسميه الآن (الستان) ، وإذا كانت هذه الفرش حشوها وبطانتها من إستبرق ، فما بالك بظاهرها ؟

ومعنى (رَفْرَف) هو ما نسميه الآن الكرانيش الموجود مثلاً في الستائر . ومعنى (الأرائك) مفردها أريكة ، وهي السرير الذي تُوضع عليه الحليات والستائر أشبه (بالنموسية) مثلاً . هذه هي مُتكاءات أهل الجنة .

لكن ماذا بعد أنْ يتكيء ؟ لابُدَّ لتمام النعيم من الطعام والشراب فهو لا يتكيء ويصوم ، إنما ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾ [ص] فكأن التحية التي تُقدَّم لهم هي ما تشتهيه نفوسهم . يعني : لا يقدم لهم شيئاً على غير مرادهم ، إنما حسب ما يرغبون وما يشتهون ، فالتحية ليستْ مُلزمة للجميع ؛ لأنها قد لا تصادف هَوىً في النفس ، وقدَّم الفاكهة مع أنها تفكُّهٌ ورفاهية بعد القوت الطبيعي والضروري ، قالوا : وجود الفاكهة أو التفكُّه دليل على وجود الضروريات من باب أَوْلَى .

وقوله ﴿ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾ [ص] المراد الشراب المستخرج من العنب ، وخَصَّ الفاكهة والشراب لأنها لم تكُنْ موجودة في البيئة التي نزل فيها القرآن ، فكان لها لذة عندهم ، فهم لا يعرفون في طعامهم

---

(١) عبقر : اسم موضع يزعم العرب أنه مسكن الجن ، ولذا نسبوا إليه كل شيء عجيب . وقيل: عبقر بلدة باليمن تُصنع فيها البُسط الموشَّاة وإليها يُنسب كل شيء حسن عجيب الصنعة . [القاموس القويم ٢/٥] .

إلا التمر والبُرّ والشعير ، فذكر لهم ما يشتهونه من الطعام والشراب .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ ﴾ [الواقعة]

وفي سورة البقرة يُبيِّن لهم أن فاكهة الآخرة تختلف عما يعرفونه من فاكهة الدنيا وإنْ تشابه الاثنان ، فالشكل واللون واحد ، لكن المذاق مختلف ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٥ ﴾ [البقرة]

إذن : الثمرة هي الثمرة ، تفاح مثل التفاح ، حتى أنك تقول : هذا الذى أكلتُه في الدنيا ، والحقيقة أنه مختلف تماماً لأنه مُعَدٌّ لك بطلاقة القدرة .

وفي مواضع أخرى يوضح لنا القرآن الكريم مجلسَ أهل الجنة فيحدثنا مرة عن الفُرُش والمتكأ ، فيقول : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ ﴾ [الغاشية]

النمارق جمع نمرقة ، وهى التكاية التى نتكيء عليها . والزرابى : جمع زربية ، وهى البساط المنقوش . وإذا حدَّثنا عن أدوات الشراب يقول مرة (أكواب) ومرة (أباريق) ومرة (كأس) .

هذه كلها أوعية للشراب ، لكن هناك فرقاً بين هذه الثلاثة : فالكوب هو الإناء الذى ليس له عُرْوة ولا خرطوم ، عروة يعنى يد يُمسك منها . والخرطوم هو الذى نسميه (البزبوز) الذى يُصَبُّ منه الماء ، فإنْ كان له عروة أو خرطوم سُمِّى إبريقاً ، فإنْ كان فى الكوب شرابٌ سُمِّى كأساً ، يعنى : الكأس هو الكوب إنْ كان ممتلئاً ، وإن كان فارغاً فهو كوب .

ومن عادات العرب في الكاسات أن الواحد منهم لا يشرب كلَّ ما فيها ، إنما يُبقي فيها كميةً من الشراب ، ثم يريقها على الأرض ، وفي هذا دلالة على عدم الشَّرَه وعدم الطمع ، أو دلالة على امتلاء العين والاستغناء .

وقد عَبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

وِللأرْضِ مِنْ كَأْسِ الكِرَامِ نَصِيبُ[2]

وكنا قبل أن نذهب إلى طعام أحد الإخوان حين نُدْعَى إليه نأكل أكلةً خفيفة ، أو طبقاً نسميه طبقَ الكرامة ، حتى لا نجلس على الطعام ونحن متلهفون للطعام ، فلا يليق بالكريم أنْ يُقبلَ على الطعام بشَرَهٍ ، كأنه لم يَرَ طعاماً من قبل .

ومن عادات العرب أيضاً في شرابهم أنهم لا يملئون الكأس إلى آخرها ، حتى يستطيع الشارب أنْ يُميز الشراب من الكأس التي وُضعت فيه ، وهذا يدل على صفاء الشراب أو صفاء الكأس .

لذلك قال شاعرهم :

لَوْلاَ انْتِصَافُ الكأْسِ خِلْنَا أنَّهاَ ... فِي كَفِّ سَاقِيهَا تقوم بِذَاتِها

يعني : لو مُلِئت الكأس لَـخِلْتَ أنها كأس بلا شراب ، أو شرابٌ بلا كأس .

---

(١) الشاعر هو : عبد الغني النابُلسي ، شاعر عالم بالدين والأدب متصوف ، ولد في دمشق عام ١٦٤١ م ونشأ بها ورحل إلى بغداد وفلسطين ولبنان ومصر والحجاز ، وتوفي بدمشق ١٧٣٠م عن ٨٩ عاماً ، له مصنفات كثيرة جداً منها تعطير الأنام في تعبير المنام .

(٢) تمام البيت : شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب
وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

لكن ماذا يطلب أهل الجنة بعد الاتكاء وبعد الأكل والشرب مما تشتهيه أنفسهم ، قالوا : الإنسان بعد أن تتوافر له هذه النعم يتطلع إلى حسناء يداعبها تكون له وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

معنى ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : تقصر الواحدة منهن عينيها فلا تمتد إلى غير مالكها فلا يطمع أحد أن ينظر إليها ، والطرف أو العين لها أثر ولها كلام ولغة ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف] إلى أن قال سبحانه حكاية عن يوسف : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[يوسف]

فالقصة كانت مع امرأة واحدة هى امرأة العزيز ، فكيف يقول هنا ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] و ﴿ كَيْدَهُنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] و ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] هكذا بصيغة الجمع .

إذن : لا بُدَّ أنهن ساعةَ رأيْنَهُ نظرتْ إليه كُلٌّ منهن نظرة استدل منها على أنها تهواه ، فالنظرة إذن لغة تحمل كلاماً ، وتُعبِّر عما فى نفس صاحبها ، لذلك تكلم يوسف عنهن جميعاً ، لا عن امرأة العزيز وحدها . لذلك لما أراد العزيز أنْ يستدعيه قال : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوة

اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .. ﴿٥٠﴾ [يوسف] والكلام كان فى البداية عن امرأة العزيز .

ومن النظرات التى كانت لها دلالاتٌ فى أدبنا العربى ما حُكِى عن أبى دلامة[1] لما دخل على الخليفة[2] وحوله الأعيان ، وأراد الخليفة أنْ يداعبَ أبا دلامة فقال له : يا أبا دُلاَمة ، لتهجونَّ واحداً منا أو لأقتلنَّكَ ، فوقف أبو دلامة يفكر فيما يقوله ، وجعل الحاضرون ينظرون إليه ، كُلٌّ يقول له بالنظرة لا تَهْجُنى ، ولك ما تشاء من العطاء ، فواحد يُرغِّبه وواحد يُرهِّبه .

وأخيراً ، رأى أبو دلامة أنْ يُرضِيَ الخليفة ويهجو نفسه طمعاً فيما ينتظره من عطاء هؤلاء الأعيان ، وفوجىء الجميع بأبى دلامة يقول[3] :

أَلاَ أبلغ لديْكَ أَبَا دُلاَمَةَ فَلَيْسَ مِنَ الكرام وَلاَ كَرَامَه

إِذَا لَبِسَ العِمَامَةَ كَانَ قِرْداً وَخِنْزِيراً إِذَا نَزَعَ العِمَامَه

واغتنى أبو دلامة من جراء هذه الدعابة .

فمعنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص] أى : تَغضّ طرفها

---

(١) أبو دلامة هو . زند بن الجون الأسدى ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون جسيم وسيم ، كان أبوه عبداً لرجل من أسد واعتقه ، نشأ فى الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العباس فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه أعطياتهم ، وله فى بعضهم مدائح . كان يُتهم بالزندقة لتهتكه . وأخباره كثيرة متفرقة . توفى عام ١٦١ هجرية .

(٢) هو : الخليفة المهدى العباسى ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله ، المهدى بالله ، ولد ١٢٧ هـ وتوفى ١٦٩ عن ٤٢ عاماً ، أقام فى الخلافة ١٠ سنين ، كان محمود السيرة ، حسن الخُلُق والخَلْق ، كريماً ، بانى جامع الرصافة . (الأعلام للزركلى) .

(٣) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات . وذكرهما أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، والنويرى فى « نهاية الأرب فى فنون الأدب» .

عن غير مالكها ، وهذه للخصوصية المطلوبة فى المرأة بالذات ؛ لأنك تجد الرجل مهما كان سَمْحاً كريماً يجود بكل ما يملك على مَنْ يحب إلا المرأة ، فإنه لا يطيق مجرد أنْ ينظر أحد غيره إليها ، فهذه صفة للمؤمن فى الدنيا ، وهى أيضاً صفته فى الآخرة .

لذلك نقول : إن من عجائب ما يفعله الإيمان بأهله ومن مزاياه ، أنه لا يخلع العقائد من القلوب ولا الاختيار من العقول فحسب ، بل يخلع الاتجاه من العاطفة أيضاً ، وقد رأينا ذلك فى قصة المهاجرين والأنصار ، فالإيمان خلع من القلوب الكفرَ ، وخلع من العقول حُبَّ العناد في الاختيار ، ثم خلع أقوى العواطف وهى عاطفة الرجل نحو امرأته .

ألم يَقُل الأنصاريُّ لأخيه المهاجر الذى جاء بغير أهله : انظر إلى زوجاتى ، فأيّهنَّ أعجبتْكَ أطلقها لتتزوجها أنت[١] . إلى هذه الدرجة فعل الإيمانُ بالمؤمنين الأوائل .

ومعنى ﴿ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : متساويات فى الحُسْن أو فى السنِّ بحيث لا تميز منهن واحدة عن الأخرى ، فكُلُّهن جميلات فى

(١) آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة إلى المدينة ، فكان أن آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه . وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دُلونى على السوق ، فدلوه على السوق فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه رَدْع من زعفران ، فقال رسول الله ﷺ : مهيم ؟ فقال : يا رسول الله تزوجت امرأة . قال : فما أصدقتها ؟ قال : وزن نواة من ذهب . قال : أولم ولو بشاة . قال عبد الرحمن : فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة » . أخرجه ابن سعد فى كتاب « الطبقات الكبير» (٣/١١٦ ، ١١٧) ، وكذا الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » (١/٩٢) .

سنٌّ واحدة ، وحُسْن واحد ، وقَوَام واحـد ؛ لماذا ؟ قالوا : حتى تظل الأَعْيُنُ مـقصورةً علـى ما تملك لا يطمع أحدٌ فى الأُخْـريات ولا ينظر وتزوغ عينه على مَا ليـس له ، فلو كانت النسـاء جميـعهن على درجة واحدة ، فلمَ النظر إذن ؟

أو ﴿أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص] يعنى : مـثله ومناسـبة له تتـقلب له فى الصورة التى يحبها .

وقـوله سبحـانه : ﴿هَـٰذَا .. ۝٥٣﴾ [ص] أى : ما ذكـرناه من الجنة ونعيمهـا ، هذا المذكور كله ﴿مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٥٣﴾ [ص] لكن نوعد مـمن ؟ نوعد مـمَّنْ يملك إنفاذَ ما وعـد به ، نعم لأنه سـبحـانه القادر الـعزيز الغـالب ، ليس هناك قـوة تعانده ، ولا قـوة تعارضـه فيما يريد .

فأنت تَعد الوعد وفى نيتك الوفاء به ، هذا عند التحمل ، لكن أنت لا تملك عنصـراً واحداً من عنـاصر الوفـاء بما وعـدتَ ، فيـأتى وقت الوفاء فـلا تُوفِ ؛ لأنه عَرَض لك عـارضٌ حال بينك وبين الوفـاء بما وعدتَ ، أما الحق سبحَانه فوَعْده حق ، لأن له طلاقةَ القدرة .

وقوله : ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٥٣﴾ [ص] أى : حسـاب المـتقين ؛ لأن الحساب مطلقـاً يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، فـالحساب هنا أى حساب أهل الإيمان ، كمـا قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٩﴾ [ص]

ثم يقول سـبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا .. ۝٥٤﴾ [ص] أى : الذى ذكرناه ﴿لَرِزْقُنَا مَـا لَهُ مِن نَّفَـادٍ ۝٥٤﴾ [ص] فلم يَقُلْ لرزقكم إنمـا ﴿لَرِزْقُنَا .. ۝٥٤﴾ [ص] فكأنهم هم الذين يقولون ، وهم الذين يـقرءون أن ما نحن

فيه من النعـيم باقٍ لا ينفد ، لماذا ؟ لأنهم عـاينوا صدْق الوعد ، وأن الله أدخلهم الجنة علَى الوَصْف الذى أخـبرهم به ، فعلمـوا أن وعد الله حَقٌّ ، وأن نعيمه خالد بَاقٍ لا يزول .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المـتقين الأخيار يتكلم بعدها عن الأشرار ، فـالصورة الأولى ﴿ وَإِنَّ لِلْمُـتَّقِينَ لَحُـسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾ [ص] يقابلها :

﴿ هَـٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) ﴾

قال هنا أيضاً (هذا) أى : الكلام السابق عن جـزاء المتقين فى الجنة . وفى مقابله ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) ﴾ [ص] لشرّ مصير وأسوأ منقلب ومـرجع ، والمآب هنا أيضاً كالمـآب السابق ، مآب إلى مَنْ أخذ عليـهم العهد الأول ومنحهم إيمـانَ الفطرة ، فكلُّ مولود يُولَد على الفطرة ، لكن هؤلاء لم يُوفوا بالعهـد الذى أخذوه على أنفسـهم ، إنما خالفوا ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وكمـا فَصَّلَ الحق سـبحـانه حُسْن المـآب يُفصِّل هنا أيضـاً شر المآب ، فيقول ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا .. (٥٦) ﴾ [ص] أى : يصطلون بنارها ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) ﴾ [ص] أى : ساء . والمـهاد : هو فـراش الطفل الذى يمـهد لـه لينام فيـه نَوْمـةً مـريحة ، لكن لـيس للطفل دَخْل فى إعـداده إنما يُعـدُّه له وليُّه الذى يـتولى أمـره ، كذلك هؤلاء الطاغـون لا دَخْلَ لهم فى المهد الذى سيُلقون فيه .

إذن : استخدام المهد هنا على سبيل الاستهزاء والسخرية منهم . ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص] أى : يذوقوا العذاب (حَميم) هو الشىء الحار الذى تناهتْ حرارته ، و (غَسَّاق) هو صديد أهل النار الذى يسيل منهم فى جهنم والعياذ بالله ، تقول : غسقتْ عينه أى : سال دمعها .

لكن هل ينتهى العذاب بالحميم والغساق ؟ لا ، بل لهم ألوان أخرى من العذاب ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص] آخر : يعنى عذاب آخر غير هذا ينتظرهم ﴿مِن شَكْلِهِ .. ﴿٥٨﴾﴾ [ص] من مثله ومن جنسه ومن نوعه وتكوينه ﴿أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص] أنواع وأصناف مختلفة ، وإلاَّ فأين المُهْل[1] ؟ وأين شجرة الزقوم التى طَلْعها كأنه رؤوس الشياطين ، وغيرها من ألوان العذاب الذى أعدَّه الله لهؤلاء الطاغين ؟

وبعد أن أعطانا الحق سبحانه هذه المقابلَة التوضيحية بين جزاء أهل الأخيار المتقين ، ومصير الأشرار الطاغين ، أراد سبحانه أنْ يُفرِّق بين صحبة الأخيار وصحبة الأشرار ، فصحبة الأخيار تعينك على الطاعة وتعينك على الخير ، وصحبة الأشرار تجرُّك إلى الشر وتدعوك إلى المعصية .

ففى المدارس مثلاً ، كم من تلميذ تفوق لأنه مَاشَى زميلاً له من أهل الخير أعانه على دروسه وحَثَّه على المذاكرة وخَوَّفه من سوء العاقبة آخر العام إنْ أهمل ، وفى المقابل كم من تلميذ فشل لأنه صاحبَ الأشرار الذين أغروْه بالهروب من الحصص ، وأخذوه إلى

---

(١) المهل : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلىّ والقيح ، قال تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

الشارع ، وإلى السلوك غير المستقيم .

وفى النهاية ، لا بُدَّ أنْ يحمد المتفوق زميله الذى أخذ بيده إلى الخير ، ولا بدّ أن يذم الفاشل زميله الذى أغراه وأضلّه وضيَّع عليه الفرصة .

أراد الحق سبحانه أنْ يعطينا هذه الصورة ، فقال سبحانه :

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) ﴾

هذه الآيات تصور لنا موقفاً من مواقف القيامة دار بين أهل الشر الذين تعاونوا عليه واجتمعوا من أجله ، بين الأخلاء على الشر ، وهذا الحوار عناصره ثلاثة ، هم : الملائكة خَزَنة النار ، وزعماء الكفر الذين سبقوا إلى النار ، ثم أتباعهم من الذين أضلوهم ، يقول الملائكة لزعماء الكفر : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ (٥٩) ﴾ [ص] يُنبهون أهل النار أن جماعة من أتباعكم قادمة إليكم .

ومعنى ﴿ مُّقْتَحِمٌ .. (٥٩) ﴾ [ص] يعنى : داخل النار بشدة وبسرعة ، لكن كيف يسرع الداخل وهو داخل إلى النار ؟ قالوا : لأنه لا يسير بإرادته ، إنما يُجبر على الحضور ويُدفع إلى الدخول رَغْماً عنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

والفوج هو الجماعة أو الطائفة كما نقول : فوج الحجاج ، أو فوج المسافرين .

فماذا قال زعماء الكفر الذين هم فى النار ؟ قالوا : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ

إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ ﴿٥٩﴾ [ص] يعنى : لا سعةَ ولا تحيةَ ولا تكريم ، هكذا حال الأخلاء على شرٍّ ، ففى الآخرة تنقلب هذه الخُلَّة وهذه الصداقة إلى عداء ، ويلعن كل منهم صاحبه ، المتبوع يلعن التابع ، والتابع يلعن المتبوع ، وها هم المتبوعون يقولون لأتباعهم : ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ [ص] وعلام نرحب بهم ؟ أجاءوا لينقذونا مما نحن فيه ؟ أو حتى ليخففوا عنا ؟ إنهم جاءوا للنار وللاصطلاء بحرِّها.

فردَّ الفوج المقتحم الداخل على قادته وزعمائه الذين أضلوه : ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. ﴿٦٠﴾﴾ [ص] أى : الكفر والضلال ، يعنى : أنتم غَشَشْتمونا وأضللتمونا وأخذتم بأيدينا إلى هذا المصير السيء ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾[المجادلة] الذى صرْتم وصرْنا إليه ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص]

وفى موضع آخر ، يُصوِّر القرآنُ هذا الموقفَ ، فيقول حكايةً عن الكافرين : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]

فطلبوا لهم ضعفين من العذاب ، لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم ، ثم أضلُّوا غيرهم فاستوجب كل ضلال جزاءً ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكونَ المتبوعُ أشدَّ عذاباً من تابعه ، والحق سبحانه لا يُعذِّب عبده بأكثر مما يستحق ، لكن هؤلاء يُضاعَف لهم العذابُ ضعْفين من ناحية انفكاك الجهة ، فضعْف لأنه ضلَّ فى ذاته ، وضعْف لأنه أضلَّ غيره .

ومعنى : ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. ﴿٦٠﴾﴾ [ص] أى : بالإغواء والتزيين وتحسين الضلال وتيسير سُبُله .

وفى موضع آخر فى سورة البقرة يُبيِّن الحق سبحانه أن الأخلاء

على الشر سيتبرأ كل منهم من الآخر : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[١] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة]

وما أشبه موقفهم هذا بموقف الشيطان حين يقول لأتباعه يوم القيامة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[٢] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

هذا إذن مصير الأخلاء على الشر ، تنتهى خُلَّتهم بالعداوة واللعن أما الأخلاَّء على الخير فهم أخلاء فى الدنيا أخلاء فى الآخرة ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

كلمة أخلاء جمع خليل ، والخُلَّة تعنى أنهما تحابًّا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، تحابًا حُباً تعدَّى مرحلة اللقاء والعناق إلى أن ذوَّب كلاً منهما فى الآخر ، وكأنه أحدث بينهما تداخلَ ذرات من جسم إلى جسم ، وهذا الذى عَبَّر عنه إسماعيل صبرى[٣] رحمة الله عليه حين قال :

---

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخَلْق بعد الفناء . [لسان العرب ـ مادة : كرر].

(٢) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والمصرخ : الذى يُزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

(٣) من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، درس الحقوق بفرنسا ، وتدرج فى مناصب القضاء بمصر ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، وينشره أصدقاؤه خلسة ، رفض مقابلة كرومر وقال : لن أكون رئيساً للوزارة وأخسر ضميرى . ولد ١٨٥٤ م ، وتوفى ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً .

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جُهْدَهُ خليلَيْنِ فَاضَا لَوْعةً وَعتَابَا
كَأنَّ حَبِيباً فى خـلال حَبِيبِـه تَسرَّبَ أَثْنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا[1]

لكن كـيف يكون تحـسين الضـلال ؟ وكيـف يقبل الناسُ الإغـواءَ بالباطل ؟ قـالوا : لأن أىَّ منهج من السماء لا بُدَّ أنْ يصـادمَ شهوات النفس ونزواتها ، فحين تتغلـب الشهواتُ والنزوات على الإنسان يلجأ إلى إله لا منـهجَ له ولا أوامـرَ ولا نواهىَ ، ومن هنا ضَـلَّ الناسُ ، فـعبـدوا الأصنام والجمـادات ، لأن عبـادة مثل هذه الآلهـة تُشعـرهم بالتديُّن الذى يميل إليه الإنسان بطبعه ، فهو إذن متدين .

وفى نفس الوقت ، ينفلت مـن قيـود المنهج ، لأن إلهه لا يأمـره بشىء ، ولا ينهـاه عن شىء ؛ لأن العـبادة كـما قلـنا : طاعة العـابد للمـعبود فـى أمره ونَهْيِـه ، فالذيـن عبدوا الأصنـام مثلاً أو الشـمس أو القـمر ، بمـاذا أمرتْهُم هذه الآلـهة ، وعَمَّ نَهَـتم ؟ ماذا أعـدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

إذن : فـهى آلهـة باطلة ؛ لأن المعـبـود بحق له منهج افـعل ولا تفعل ، عنده الثواب لمَن أطاع ، والعقاب لمن يعصى .

ثم يلتفت أهل النار لفتة أخرى :

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) البيتان من بحر الطويل ، وفى الموسوعة الشعرية شجيَّين بدلاً من خليلين .

﴿ وَقَالُوا (٦٢) ﴾ [ص] أى : أهل النار ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً .. (٦٢) ﴾ [ص] يعنون أصحاب محمد الذين ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾ [ص] ، كما قال الكفار لسيدنا نوح عليه السلام : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود] كذلك قال كفار مكة لأتباع محمد من العبيد أمثال بلال وخبّاب وغيرهم .

فزعماء الكفر فى النار ينظرون حولهم ، فلا يجدون هؤلاء الأشرار - معهم - فيتعجّبون ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾ [ص] أين هم ؟ فالحال أنّا لا نراهم ، ثم يعودون إلى أنفسهم فيقولون : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا .. (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : سخرنا منهم ، وقلنا : إنهم أشرار وهم ليسوا أشراراً ، فمصيرهم غير مصيرنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : هم موجودون معنا ، لكن زاغتْ أبصارنا فلا نراهم .

وكلمة (سخْرياً) من السخرية والاستهزاء ، أما سُخرياً بالضم فهى بمعنى الاستغلال والاستذلال من التسخير فى الأعمال . ومعنى ﴿ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : مالتْ عنهم ، وقولهم ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ .. (٦٢) ﴾ [ص] مثل قول سيدنا سليمان فى قصة الهدهد : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] فالمعنى أن الهدهد لا بُدَّ أنْ يكونَ موجوداً ، لكن المانع عندى فى أنْ أراه ، ثم استدرك فقال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾ [النمل]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص] ولا بدَّ أنْ يتخاصمَ أهلُ النار لأنهم إما ضَالٌّ وإما مُضِلٌّ فيُلقى كل

منهم اللومَ على الآخر ساعةَ يرى المصير الذى صاروا إليه ، ثم مَن الذى أخبرنا بهذا التخاصم ، أخبرنا به القرآن الكريم ، والقرآن لم يَقُلْ قضية وخالَفها الواقع .

ولك أنْ تلاحظ هذه الحقيقة من واقع القرآن مع المجتمع منذ بَعْث محمد ﷺ إلى عصرنا الحالى ، أأخبر الحق سبحانه بقضية ، وجاء الواقع مخالفاً لها ؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً .. ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]

فمثلاً فى بدر انتصرنا عليهم وقتلنا منهم قَتْلى وأخذنا أسْرى ، ولم يمر عام واحد حتى جاءتْ أُحُد ، وفيها سار الكفار من مكة إلى مقربة من المدينة ، وكانت المؤشرات تدل على انتصار المسلمين ، لكنهم خالفوا منهج الله فى عدم طاعتهم أمر رسولهم .

وقد كان رسول الله قد أمر الرُّماة ألاّ يتركوا أماكنهم مهما حدث.

فلما رأى الرماة تفوُّق المسلمين وشاهدوا بوادر النصر سالَ لعابهم على الأسْلاب والغنائم ، فنزلوا إليها ، وتركوا أماكنهم ، فاستغلَّ الكفارُ الفرصةَ ، والتفُّوا حول المسلمين ، وفعلاً (ماعت) المعركة وإنْ كنا لم نُهزم ، إلا أننا لم ننتصر ، مع أن الله تعالى وعد رسله بالنصر ووعد جنده بالغلبة ، فقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

ومع ذلك كان عدم النصر فى أُحُد ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن المسلمين لو انتصروا مع المخالفة لأمر الرسول لَهَان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا : خالفناه فى أُحُد وانتصرنا ، فإذا رأيتَ جندياً للإسلام يُهزم فاعلم أنه خالف التوجيه ، إما خالف توجيه الرسول ، أو خالف توجيه القائد الموكَّل من الرسول .

إذن : سنة الله فى النصر لم تتخلف ، إنما تخلفتْ الجندية لله تعالى ؛ لذلك قُلْنا فى أُحُد لم ينتصر المسلمون ، لكن انتصر الإسلام وانتصرتْ أوامره .

كذلك حذَّرنا الحق سبحانه من الغرور والزَّهْو بالقوة وكثرة العدد ، لأن النصر فى الحقيقة ليس بكثرة عددكم ، إنما النصر من الله ، وهذا الدرس أخذناه فى غزوة حنين ، فأبو بكر نفسه داخله شىء من ذلك حين رأى أعداد المسلمين مقارنةً بأعداد الكافرين ، فقال : لن نُهزم اليوم من قلَّة[1] ، فأعطاهم الله درساً لا يُنْسَى ، وكاد النصر أنْ يكون للكفار ، لكن أدركتهم رحمة الله ، وحَنَّ الله عليهم فى نهاية المعركة وحُسِمتْ لصالح الإسلام .

---

(١) قال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا .. ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٧٣) أن محمد بن إسحاق قال : حدثنى بعض أهل مكة أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة مَنْ معه من جنود الله : « لن نُغلب اليوم من قلة » وزعم بعض الناس أن رجلاً من بنى بكر قالها .

إذن : فالزَّهْو والغرور مخالف لقواعد الجندية فالنصر ليس بالعدد ولا بالعُدَّة ، إنما النصر من الله كما قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

وقال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [الأنفال]

إذن : نقول ما دام أن الله أخبرنا بتخاصم أهل النار فهو حَقٌّ واقع نؤمن بصدقه .

ثم أراد الحق سبحانه أن يعطى نبيه ﷺ حجَّة ، فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ (٦٦) ﴾

نفهم هذه الآيات فى ضوء ما حكاه القرآن فى أول السورة من تكذيب الكافرين لرسول الله ، ففى الآيات الأولى من السورة قال تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ [ص] إلى أنْ قالوا : ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص]

إذن : الآيات فى صدر السورة تبين أن هؤلاء القوم عندهم خَلَل فى قضيتين الأولى فى قضية التوحيد ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا .. (٥) ﴾ [ص] والأخرى : قضية النبوة ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

فجاءت هذه الآيات لتردَّ عليهم ولتصحح هذا الخلل ، فقال هنا :

(قل) يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ .. (٦٥)﴾ [ص] واختار هنا الإنذار مع أن الرسول ﷺ جاء بشيراً ونذيراً ، لأن الكلام هنا فى مواجهة الكافرين ، فناسبهم الإنذار ، وفى القضية الأخرى يقول سبحانه : ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾ [ص]

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾

معنى (نَبأ) هو الخبر الهام الذى وراءه حقائق لا يُكذِّبها الواقع.

وقال فى سورة (النبأ) : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] ووصف بأنه عظيم لأنه سيترتب عليه أمران يتعلقان بالدنيا والآخرة . فإنْ كنتَ أخذت حظك فى اتباع شهواتك فى الدنيا ، والدنيا لها نهاية ، فستصلَى فى الآخرة ناراً لا نهاية لها .

وكان عليك أنْ تتنبه لهذه المسألة ؛ لأن الإنسان لا بُدَّ له أنْ يحدد غايته فى الوجود ، والغاية الحقيقية هى التى ليس بعدها بَعْد ، أما الغاية التى بعدها بَعْد فليست بغاية ، بل هى مرحلة تؤدى إلى ما بعدها ، كالتلميذ ينجح فى القبول مثلاً ، فيؤدى به النجاح إلى الإعدادية ، والنجاح فى الإعدادية يؤدى به إلى الثانوية ، والثانوية إلى الجامعة .

وهكذا حتى لو أخذ الدكتوراه فإنه ينتقل إلى ما بعدها من مراحل ثم الموت ، حتى الموت ليس هو نهايةَ المطاف إنما بعده ، إما إلى

نار وإما إلى جنة ، وهذه هى الغاية التى ليس بعدها بعد ، لأنها باقية خالدة لا نهاية لها .

لذلك الحق سبحانه يُنبهنا إلى هذه الغاية (قل) يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص]

وكلمة مُعرِض يعنى : منصرف هى التى نقول عنها : فلان أعطانى عرض أكتافه يعنى : مال عنى وانصرف ، وهذه الكلمة تمثل لواقع الناس حين يُدْعَوْنَ للإنفاق ، وحين يُدْعَوْنَ لعمل الخير ، فمنهم مَنْ يُعرِض عنه ، ويكون الإعراض على مراحل : أولاً يميل عنك بوجهه ويلوى رقبته ، ثم يعطيك جنبه ، ثم يبالغ فيدير لك ظهره .

وقد صور لنا القرآن هذا المشهد ، فقال سبحانه فى وصف عاقبة الإعراض عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

هكذا يكون الجزاء من جنس العمل ، وبنفس ترتيب الإعراض فى الدنيا ، يكون الكى فى الآخرة ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

إذن : الأعضاء التى اشتركتْ فى الإعراض هى التى ستُكْوى ، وعلى قَدْر الإعراض يتسع الكَىّ .

ثم أراد الحق سبحانه أن يُدلل على أن محمداً لا يعلم الغيب ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [ص] لأنه سبحانه سبق أنْ تكلم عن تَخاصُم أهل النار ، فقال : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص] وقد أوضح سبحانه تخاصم الملأ الأعلى

من الملائكة في المبدأ ، حين قالوا للحق سبحانه : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. ﴿٣٠﴾﴾[البقرة] هذا هو خصامهم ، لا أنهم يتخاصمون كما يتخاصم البشر ؛ لأن الله قال عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]

إنما سمَّى الحوار الذي دار بينه سبحانه وبين الملائكة (تخاصم) ، فكأنهم يغارون على الله أنْ يخلق خَلْقاً آخر هم البشر يعصونه ويفسدون في الأرض ، كما أفسدتْ الجنُّ من قبل .

ثم يُبيِّن سبحانه أن محمداً لا يعلم الغيب ، إنما يخبره اللهُ به وَحْياً : ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] فالذي أعلمني بما سبق يعلمني بما هو آتٍ ، وهذا تَرقٍّ في علم الغيب .

والغيب له ستار يحجبه عنا ستار يحجب الماضي وستار يحجب المستقبل ، يحجب الماضي الزمن لأن الزمن القديم مثلاً لم يكن فيه تدوين لأحداثه ، ولو كان فيه تدوين فهو تدوين مزيف ، لأنه رأي البشر فيما حدث ، وآراء البشر لا بُدَّ أن تختلف .

كذلك يحجب المستقبل زمنَ المستقبل ، فأنت لا تعلم ما سيحدث مستقبلاً ، أما الحاضر الذي نعيشه فزمنه واحد لكن مكانه مختلف ، فحجابه المكان ، فأنت تعلم الآن ما يحدث في مكانك ، لكنك لا تعلم ما يحدث في الأماكن الأخرى .

فالمعنى أن الذي أخبرني أولاً بأن الملائكة قالت كذا وكذا هو الذي أخبرني بتخاصم أهل النار ، إذن : فهو حق .

وقال هنا أيضاً ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] أي : واضح ، لأن

الحديث ليس للمؤمنين أهل البشارة ، إنما للمخالفين فناسبهم ﴿ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ص]

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

هذا الكلام جاء من الحق - سبحانه وتعالى - للملائكة على سبيل الإخبار ، لكن فهموا هم أنه استشارة ، وأن الخالق سبحانه يستشيرهم في مسألة خَلْق الإنسان ؛ لذلك قالوا ما قالوه ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا إلى أن المسألة مبتوتٌ فيها ، وأنها قضية منتهية ؛ لأن الله أخبر بها بقوله : ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [ص] هكذا بلفظ التوكيد.

وهنا لا بُدَّ أنْ نشيرَ إلى أن البعض يحاول الاستدراك على كلام الله في مسألة خَلْق الإنسان من طين ، يقولون : إن القرآن قال مرة : من طين. ومرة : من ماء . ومرة : من حمأ مسنون . ومرة : من صلصال ، والواقع أن هذه مراحل للشيء الواحد وليست اختلاف بدايات مأخوذ منها ، فالتراب حين يوضع على الماء يصير طيناً ، فإذا تُركَ الطين حتى عطن وتغيَّرت رائحته ، فهو الحمأ المسنون ، فإذا جَفَّ وتصلَّب فهو صلْصَال كالفخار .

ولما خلق الله الإنسان خلقه من الطين ، بمعنى أنه جامع لكل عناصر التربة السوداء والصفراء والرملية .. إلخ وقد توصَّل العلماء

إلى أن هذه التربة هى الصالحة للزراعة ، لأن الطينة أو التربة إنْ كانت متماسكة تمسك الماء تحت الجذر فيمور ويذبل النبات ، وإن كانت رملية تسرب فيها الماء قبل أنْ يمتصَّه النبات .

إذن : نحتاج إلى تربة بين بين ، بحيث تمسك الماء بالقدر الذى يتيح للنبات أنْ يستفيد منه ويمتص عناصر الغذاء ، ثم يتسرَّب الباقى فلا يضر بالجذور.

كما توصل العلماء إلى أن عناصر جسم الإنسان عبارة عن ١٦ عنصراً ، تبدأ بالاكسوجين بنسبة ٦٧٪ وهى أعلى نسبة وتنتهى بالمنجنيز . وأن الطين يحتوى على نفس هذه العناصر الستة عشر ، وهذا يثبت صدْق الحق سبحانه فى خلْق الإنسان من الطين .

ومعنى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٧٢) ﴾ [ص] يعنى : صوَّرْتُ قالبه وشكله ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٧٢) ﴾ [ص] يعنى يصير مخلوقاً كاملاً تدبّ فيه الحياة ويتحرك ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] أى : خرّوا ساجدين، ليس سجودَ عبادة ، إنما سجود طاعة لصاحب الأمر بالسجود .

إذن : سجود الملائكة لم يكن لآدم ذاته ، إنما كان لله الذى خلق آدم وأمر الملائكة أنْ تسجدَ له ، ومعنى تسجد له كما تقول : أنا أسجد للقبْلة ، فالسجود ليس للقبلة ذاتها إنما ناحيتها . ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص]

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (٧٥) ﴾

المتتبع لهذه القصة يجد أن القرآن استوعبها فى سبع سور ، لكن بأسلوب مختلف فى كل منها ، فمرة قال : ﴿ أَبَىٰ .. (٣١) ﴾ [الحجر]

ومرة قال : ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ..(٣٤) ﴾ [البقرة]

المسألة الأولى التي أردنا توضيحها في هذه القصة أن الحق سبحانه لم يجعل الجنة التي خرج منها آدم إلى الأرض هي جنة المأوى ، لأنه لم يُخلق للجنة ثم خرج منها بمعصيته ، إنما خُلق آدم للخلافة في الأرض ، وفي أول بلاغ عنه من الله قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة]

إذن : هو مخلوق للأرض ، ونظراً لأنه أبو البشر جميعاً ، والبشر على صنفين : صنف معصوم هم الرسل ، وصنف غير معصوم هم عامة الناس ، فكان ولا بُدَّ أنْ يتمثّل في آدم ما ثبت للصنفين ، عصى آدم أولاً ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وعصمه الله بعدها ، إذن : لم يَعْص آدم وهو نبي ، إنما عصى قبل النبوة .

والحق - سبحانه وتعالى - لما عرض هذه المسألة وقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] لم يشأ سبحانه بعدالته ورحمته أنْ يُنزلَ آدم إلى الأرض ليعمرها بغير منهج من المناهج التي تُصلح حركةَ الحياة ، ولم يشأ أنْ يُجرِّب فيه التكليف الأول ، فصنع له قطعة من الأرض فيها كل مقومات الحياة وترفها ، وأسكنه إياها ليدربه على التوجيه والتكليف بافعل ولا تفعل .

فأباح له أنْ يأكل من كل ما في هذا البستان إلا شجرة واحدة نهاه عن مجرد الاقتراب منها ، ليمثل له الإباحة فيما أحل والحظر فيما منع ، ثم ذكَّره بعداوة الشيطان له وحذَّر منه ومن وسوسته .

لكن أغوى الشيطانُ آدمَ ، فأكل من الشجرة التي نُهِي عنها ، وحدثتْ منه المخالفة التي ترتب عليها ظهور عورته لأول مرة ، وهنا إشارة رمزية إلى أن العورات لا تظهر في المجتمع إلا بمخالفة منهج الله .

ثم نقف أيضاً عند ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] فلم يقل سبحانه : ولا تأكلا من هذه الشجرة ، بل نهى عن مجرد قربها ، لأن من حام حول الحمَى يُوشك أنْ يواقعه .

لذلك تجد الحق سبحانه حين يحدثنا عن الحدود التى أحلها الله لنا يقول : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩)﴾ [البقرة] أما فى الحدود التى حرّمها فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧)﴾ [البقرة]

ونلحظ فى الآية التى معنا قوله تعالى : ﴿ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ.. (٧٥)﴾ [ص] وفى الأعراف قال : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] فمرة بالإثبات ومرة بالنفى . والمعنى واحد ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله رَبُّ العالمين ، معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ..(٧٥)﴾ [ص] يعنى : أردتَ أنْ تسجد ، فعرض لك عارض ، أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ..(١٢)﴾ [الأعراف] يعنى : أمَنعكَ مانع فلم تسجد قهراً عنك؟

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)﴾ [ص] بيان لشرف هذا المخلوق ، ويكفى فى شرفه أن الله تعالى نسب خَلْقه إليه سبحانه مباشرة ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص] يعنى : السبب الذى دعاك إلى عدم السجود إما استكبارك أنْ تسجدَ لآدم ، أم كنتَ من العالين ؟

وقد اختلف العلماء فى معنى العالين ، بعضهم[1] قال : من الطاغين المتكبّرين الذين أعرضوا عن أحكام الله ومنهجه استكباراً ،

---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٨ / ٥٨٧١) : « أى : المتكبرين على ربك » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير سورة ص) : « أى من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون » . وقد قال الطبرى فى تفسير الآية : « أتعظمت عن السجود لآدم فتركت السجود له استكباراً عليه ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك أم كنت من العالين يقول : أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك » .

ومن ذلك قوله تعالى فى فرعون : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس] وقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] أى : عُلُوًّا على أحكام الله ، وعلى أوامر الله .

وقال آخرون : معنى العالين هم نوع من الملائكة ، والذين لم يشملهم الأمر بالسجود لآدم ، فالمأمور بالسجود هم الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق وهم المدبِّرات الذين قال اللهُ عنهم ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات] والمعقِّبات الذين قال الله فيهم ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] هؤلاء هم الذين أمروا بالسجود . أما العَالُون فهم ملائكة لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، ولا صلةَ لهم بهذا الكون ، ولا يدرون عنه شيئاً .

فالمعنى ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] أى الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، وهذا المعنى أقرب للصواب ، لأن الله تعالى قال قبلها : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] فلا نفسر العالين بعدها بمعنى المتكبرين ، لأنها تؤدى نفس المعنى الأول .

وهنا ينبغى أنْ نشيرَ إلى اختلاف[1] العلماء حول طبيعة إبليس ، حيث قال بعضهم : إنه من الملائكة . وقال آخرون : من الجن . أصحاب الرأى الأول يعتمدون على قوله تعالى :﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص] فقالوا : إذن إبليس من الملائكة لأن الأمر وُجِّه إليهم ، والدليل على ذلك أنه لما خالف وامتنع عن السجود عُوقب ، فهو إذن

(١) ذكر الطبرى فى تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف أقوال واختلافات العلماء فى طبيعة إبليس وأنه كان من قبيلة يقال لهم الجن . وآخرون قالوا : كان من خزان الجنة . وآخرون قالوا : سمى جناً لأنه استجن عن أعين بنى آدم .

داخل في الأمر ، والله سبحانه لم يأمر إلا الملائكة ، فلو لم يكُنْ من الملائكة لم يُعاقَب .

ونقول في الرد على أصحاب هذا الرأى : لا بُدَّ أنْ نُفرِّق بين الدليل بالالتزام أو الاستنباط ، وبين دليل النص ، فإذا وُجِدَ نَصٌّ فلا مجالَ لدليل الالتزام أو الاستنباط ، وقد قال الحق سبحانه في سورة الكهف : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] فكيف تُصرِّح الآية بأنه من الجن ونقول نحن : إنه من الملائكة ؟

أما لماذا آخذه الله على عدم السجود إنْ كان من الجن ؟ نقول : لأن الملائكة مقهورون على الطاعة ، فهي غريزة فيهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] أما الإنس والجن فهم مُخيَّرون بين الإيمان أو الكفر ، وبين الطاعة أو المعصية ، فإذا جاء منهم مَنْ ألزم نفسه بالطاعة بحيث لا يعصى فهو أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة مقهورون على الطاعة أما هو فطائع باختياره وهو قادر على المعصية .

إذن : أخذ هذه الأفضلية ، لأنه حمل نفسه على أن يطيع ، وقد كان إبليس في هذه المنزلة حتى قيل : إنه طاووس[1] الملائكة لأفضليته عليهم ، فلما صدر الأمر للملائكة شمله أيضاً ، لأنه إنْ كان أعلى منزلة من الملائكة وحالة الطاعة ، فكان عليه أنْ يطيعَ الأمر ، وإنْ كان أقلَّ من الملائكة ، فالأمر للأعلى يستلزم الأمر للأدنى .

ومثَّلْنا لهذه المسألة قلنا : إذا دخل رئيس الجمهورية فوقف له الوزراء ، فوقوف وكلاء الوزراء من باب أَوْلَى ، وبذلك نحسم هذا

---

(١) ذكر الطبرى في تأويل (الكهف : ٥٠) عن ابن عباس أن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض . أما الحسن البصرى فقد قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

الخلاف بعيداً عن الجدل الذي لا طائل منه .

وقوله تعالى :﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص] دليل على أنه مخلوق مختار ، كالإنسان يطيع ويعصى ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يحكى الحق سبحانه قولَ إبليس فى الردِّ على ربه عز وجل :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾

نعم ، خُلِق آدم من الطين ، وخُلِق إبليس من النار ، لكن مَنْ قال إن الطين أقلُّ من النار ، أو أن النار أعلى من الطين ، لأن المخلوق لا يأخذ منزلة وميزة بجنسه ، إنما يأخذ مَيْزته ممَّن خلقه ، إذن : ليس هناك جنس أعلى من جنس ، لأن الله خلق الجميع ، وجعل لكل منهم مهمة فى الحياة ، فهم فى الخَلْق لله سواء .

لذلك قلنا : إن الله تعالى جعل الأسبابَ للمؤمن وللكافر عطاء ربوبية ، لكن لما آمن المؤمن خَصَّه الله بعطاء آخر ، هو عطاء الألوهية فى العبادة .

فإبليس لما خالف أمر الله ، وادَّعى هذه الخيرية على آدم :

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾

الرجيم : المطرود من رحمة الله ، المحروم من كل خير ، ثم تأكد هذا المعنى فى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] إلى يوم القيامة . فردَّ إبليس بعد أنْ لعنه الله وطرده من رحمته :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول إبليس لرب العزة : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] أى : أخِّر أجلى، إذن : فهو يعلم أن لكلٍّ أجلاً محدداً لا يتجاوزه ، وقوْل إبليس لربه : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] يفضح قوله لآدم لما أراد أنْ يُغويه بالأكل من الشجرة ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] فلو كانت شجرة الخلد حقاً ، فلماذا تطلب من ربك أنْ يُؤخِّر أجلك ؟ ودلَّ ذلك أيضاً على غفلة آدم ، فلو تنبَّه إلى هذه المسألة ما أكل من الشجرة .

ونفهم أيضاً من ذلك أن إبليس نفسه (المعلم الكبير) هو الذى تولَّى غواية آدم ، ولم يترك هذه المهمة لواحد من ذريته ، لماذا ؟ قالوا : لأن آدم أصبح فى صَفِّ الملائكة ، فلا يناسبه شيطان صغير من الذرية ، إنما الكبير إبليس .

ثم يجيب الحق - سبحانه وتعالى - إبليسَ فيما طلب ، فيقول له: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [ص] المؤخَّرين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص] أى : إلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

دلَّتْ هذه الآية على أن العداوة ليست بين إبليس وربه ، إنما بين إبليس وبنى آدم ، ودلَّتْ على أن إبليس عرف كيف يُقسم حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] أى : بعزتك يا رب عن خَلْقك وغنَاك عنهم

وعن طاعتهم وإيمانهم ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فمن هذا الباب دخلتُ إليهم ، ومن هذا الباب لأغوينهم أجمعين ، فأنا لا آخذهم منك يا رب ، ومَنْ تريده منهم لا أستطيع الاقترابَ منه ، بدليل قوله بعدها : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] إذن : عزَّتك عنهم هى التى أطمعتنى فيهم .

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾

الكلام هنا لله عز وجل ﴿قَالَ فَالْحَقُّ .. (٨٤)﴾ [ص] أى : ما نصنع لك هو الحق ﴿ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)﴾ [ص] أى : أنا لا أقول إلا الحق ، ولا يُطلب منى إلا الحق لأنِّى أنا الحق ، ثم يُبيِّن سبحانه الحقَّ المراد الذى قاله الله وقضى به : ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ [ص] أى : منك ومن ذريتك ومِمَّنْ تبعك منهم ، أى : من أمة محمد أى : أمة الدعوة ، وهى من آمن أو كفر .

قالوا : أهذا حكم مُسْبق من الله تعالى على الخَلْق الذين سيجيئون بعد؟ ولو كان الأمر كذلك فالمسألة قهر وإجبار ، والحقيقة أن الله تعالى كتب عليهم هذا بعلمه بما سيكون منهم باختيارهم لا بقهره لهم على أنْ يفعلوا ، فلعلمه بما سيكون كتب ، وليس فى المسألة قهر ولا إجبار .

وقد مثَّلْنَا لهذه القضية - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : إن المعلم فى الفصل يستطيع من خلال علمه بمستوى التلاميذ أن يحدد نتائجهم فيقول : فلان سينجح وفلان سيرسب ، فلعلمه بمستواهم الدراسى حكم عليهم ، ولا دخل له فى الامتحان ولا فى تصحيحه .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

(قُلْ) أمر لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] ولو قال : ما أسألكم عليه أجراً لاستقام المعنى أيضاً ، لكن قوله : ﴿ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] من هنا دلَّتْ على أقل ما يُقَال له أجر ولو كان جنيهاً واحداً ، أو قرشاً واحداً ، فمن هنا نفت مطلق الأجر ، أما كلمة أجر فهى تعنى أجراً مُجْزياً يُعْتَدُّ به ولا تمنع وجود الأجر القليل ، كما تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال . ولو كان قرشاً واحداً .

وكَوْنُ الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : قُلْ لهم يا محمد ما أسألكم عليه من أجر ، كأنه يقول لهم : يا قوم إنَّ ما جاءكم به محمد عمل نافع لكم فى دينكم وفى دنياكم ، وكان الواجب عليكم أنْ تُعطوه أجراً عليه ، إذن : هو يستحق الأجر لكن لن يسألكم إياه لأن ما يقدمه لكم لا يستطيع بشر أنْ يُؤدّىَ حقه أو يدفع ثمنه ، فأجره لا يأخذه إلا من الله ، فهو وحده القادر على أنْ يجازيه ، وأنْ يُعوِّضه عما قدَّم.

إذن : محمد ﷺ يستحق على هداية القوم وتبليغهم منهج ربهم أجراً ، وهو غير زاهد فى هذا الأجر ، إنما يريد أنْ يُقوِّم هذا العمل بتقويم الذى أرسله بهذه الرسالة .

وهذه العبارة ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] سنة لازمة لجميع الأنبياء ، فكلهم قالوها لأقوامهم عدا سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا إلى الإيمان بالله ووحدانيته دعا أباه آزر ، ولا ينبغي له أن يطلب أجراً من أبيه ، كذلك سيدنا موسى أول ما دعا إلى الإيمان دعا فرعون الذى ربَّاه وأحسن إليه ، فكيف يقول له : أعطنى أجرى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ [ص] المتكلِّف : هو المتصنِّع الذى يُظهر شيئاً فوق قَدْره المنوط به ، ومن ذلك قول النبى ﷺ : « لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه »[1] يعنى : لا تُحمِّلوا أنفسكم فوق طاقتها ، كالذى يقترض ليقوم بواجب الضيافة ، ثم يذهب الضيف ويبقى عليه الدين وهذا يجعله يكره الضيف بعد ذلك ويتأذى أنْ ينزل به .

إذن : كُنْ على طبيعتك ، وقُمْ بواجب الضيافة على قَدْر طاقتك . ولمَ لا وقدوتك ﷺ يقول : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ [ص] لأن الأمر الذى جئتُ به لا يحتاج إلى تكلُّف إقناع لأنه أمر موافق للطبيعة .

ولك أنْ تستعرضَ أحكام الشرع ، وأنْ تنظرَ فيها ، أهى صالحة فى ذاتها أم لا ؟ الدين يقول لك : لا تكذب . فمَنْ يقول إن الخير فى الكذب ؟ الدين يقول لك لا تغش فمن يقول : إن الصلاح فى الغش ؟ الدين نهاك عن شرب الخمر فمَنْ يقول إنها تصلح ؟ ومَنْ ينكر أنها تفسد العقلَ الذى ما كُرِّم الإنسان إلا به ؟ .

إذن : كلها أحكام واضحة لا تحتاج إلى تكلُّف فى الإقناع بها ، لأنها توافق الفطرة السليمة .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (١٢/٢) قال الحافظ العراقى : أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق مُتكلَّم فيه . قال الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال (٨٠٥١) : « معروف صدوق تكلم فيه الحاكم لمجرد صحبته الحسين الكرابيسى ، وهذا تعنت زائد » . قال الخطيب البغدادى (١٥٩/٣) : « أحاديثه صحاح ورواياته مستقيمة لا أعلم له فيها ما يُستنكر » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [ص] أى : ما هو أى القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [ص] والذكر والتذكير لا ينشأ إلا من نسيان شىء سابق ونريد أنْ نُذكِّرك به ، فالقرآن ذكْر بمعنى أنْ يُذكِّرك بما نسيته من العهد الأول عهد الفطرة الذى أخذه الله عليك وأنت فى طوْر الذَّرِّ ، فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فأقر الجميع ﴿ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فقال الله تعالى : إذن احفظوا هذا العهد وتذكروا هذا الإقرار ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : الحق سبحانه لا يُكلِّفك بهذا الإقرار إنما يُذكِّرك به ، لأن التكليف أُخِذَ عليك يوم أنْ كنتَ ذرةً فى ظهر أبيك آدم ، ولم تكُنْ لك شهوة .

فقوله تعالى عن القرآن : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [ص] دلَّ على أن ما جاء به محمد ﷺ من قمة توحيد الله والإيمان به إلى فرعيات التكليف وجزئياته أمر كان فى القديم ، عرفه الجميع وأقرُّوا به ، والقرآن فقط مُذكِّر بهذا العهد الأول .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص] أى : الذين كذَّبوا القرآن سيعلمون عاقبة هذا التكذيب ، وسيعلمون أنه خبر صادق ، سيعلمون ذلك ﴿ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص] قالوا : الحين يُراد به ظهور الإسلام وانتصاره على الكفر ، بداية من معركة بدر إلى أنْ قال القائل : عجبتُ لهذا الأُمىِّ ، كيف يفتح نصف الدنيا فى نصف قرن ، نعم هذه عجيبة ولا تزال حتى الآن.

وقد شاهد هؤلاء المكذِّبون بأعينهم انتصارَ الإسلام واندحار الكفر ، وشاهدوا نقصان رقعة أرض الكفر ، وازدياد رقعة أرض

الإيمان ، كما قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (٤١) ﴾ [الرعد] ومع ذلك لم يأخذوا من فتوحات الإسلام عبرة .

وقالوا : الحين يراد به القيامة حين يدخل هؤلاء المكذبون النارَ ، عندها سيعلمون صدْق هذا الكلام الذى أخبرهم الله به فى قرآنه .

وكلمة النبأ لا تقال إلا للخبر العظيم الهام ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص]

فما بالك بنبأ الذى وصفه بأنه عظيم هو الله ؟ وعظمة الخبر تأتى بمقدار ما يُهيىء من الخير للإنسان ، فالخبر بأنك نجحت فى القبول، غير الخبر بنجاحك فى التوجيهية ، غير الخبر بأنك أصبحت وزيراً ، فعظَم الخبر بمقدار ما يحمل لك من الخير المرجو منه للإنسان .

إذن : ما بالك بالخير الذى ينتظرك بعد قيامك بالتكاليف الربانية ، إنه خير لا يسعدك فى دنياك المنقضية فحسب ، إنما يسعدك فى آخرتك الباقية الخالدة ، فعظَم هذا الخبر أنه ضَمِن لك الحياتين الدنيا والآخرة .

وأسأل الله فى آخر السورة أنْ يجعل لنا حظاً من قوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص]




سورة الزمر



سورة الزمر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم



فَرْق بين تنزيل وإنزال ونزول ، النزول هو الحدث الذى يأتى بشىء من أعلى إلى أدنى ، والإنزال يدل على أن الذى أنزل أعلى من المُنزل إليه ، أما التنزيل فيدل على النزول على فترات بحسب الأحوال .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر] يعنى : أنزلناه جملةً واحدة فى أول رسالة محمد ، ليباشر القرآنُ مهمته فى الوجود ، ثم نُزِّل بعد ذلك مُنجَّماً حَسْب الحاجة.

قال تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء]

---

(١) سورة الزمر هى السورة رقم (٣٩) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٧٥ آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ والأخرى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ . انظر القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٥/٨) وسورة الزمر تسمى أيضاً سورة الغرف لقوله تعالى فيها : ﴿ لَـٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ۝٢٠ ﴾ [الزمر]

يعنى : أنزلناه بالحق بداية ، وظلَّ على الحق لم يستطع أحد أنْ يُغيِّره أو يُفسده ؛ لأنه حقٌّ .

وهذه المادة نزل أو نزَّل أو أنزل ، تدل كلها على عُلُو المنزِّل ودُنُو المنزل إليه ، وتدل على أن شرف المنزَّل من شرف مَنْ أنزله ، وتدل أيضاً على أن مَنْ أنزل المنهج القويم للمخلوق يريد أنْ يكرمه وأنْ يعلوَ به . إذن : دَلَّ الإنزال على شرف المنزِّل وعلو مكانته ، وعلى شرف ما أُنزل وعلى شرف مَن اختاره الله ، وجعله أهلاً لأنْ يُوجه إليه هذا الخير .

ومن ذلك قوله تعالى فى أمة محمد : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]

ولما تتبعنا مادة (نزل) فى القرآن الكريم وجدناها كلها تدل على العُلو ، إلا فى عدة مواضع لم يكُن الإنزالُ فيها من العلو ، وهو قوله تعالى فى سورة الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] فالحديد لا ينزل من عُلو إنمَا يُستخرج من الأرض ، فلماذا قال الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] ؟

قالوا : نعم الحديد من الأرض ، لكن مَنْ جعله فيها ؟ الخالق سبحانه ، إذن : فهو أيضاً إنزال أى : جعل له فى الأرض ، فلا تنظر إلى جهة الإنزال ، إنما إلى مَنْ أنزل .

ثم إن إنزال الحديد تتميمٌ لرسالات الرسل لهداية الخلق إلى منهج السماء ، لأن الله تعالى قال بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] فمن الحديد سنصنع السيوف والرماح وعُدَّة الحرب .

كذلك في : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . ۝٦ ﴾ [الزمر]
وقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۝٢٦ ﴾ [الأعراف]

وفي مسألة الإنزال هذه نلحظ لفتة جميلة في أسلوب القرآن الكريم ، في استخدام حرف الجر المتعلق بالفعل أنزل ، وكيف أنه يأتي مناسباً للمعنى المراد من الإنزال ، ففي خطاب النبي ﷺ يقول له ربُّه عز وجل : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۝٣ ﴾ [آل عمران] قال (عليك) مع أن الكتاب نزل للناس جميعاً ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۝٢٩ ﴾ [ص]

لكن رُوعي هنا المخاطب المستقبل المبلِّغ عن الله ، لكن لما يتكلم على النعم التي ينتفع الناس بها مباشرة يقول (عليكم) ثم نلحظ دقة التعبير في استخدام حرف الجر ، قال: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ۝٦ ﴾ [الزمر] وفي اللباس قال : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ ۝٢٦ ﴾ [الأعراف] قالوا : لأن اللباس الساتر للبدن يكون على الجسم يلفه ويستره ، فناسبه الحرف (على) . أما الأنعام فهي شيء مستقل منفصل عن الإنسان .

الحق سبحانه وتعالى يعطي من علو ، ولكن الذي يعطي له هو من صنعته أيضاً ، فعلو في خَلْق آدم الخليفة ، وعُلو في المنهج الذي يصونه ، حتى أن بعضهم قال : إن الإنسان خليفة لله في الأرض ، بمعنى أنه مُفَوَّض من الله بالقيام بما أراده الله ، بدليل لو كان هناك محتاج ضَنَّ الناس عليه يقول الله لهم : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۝٢٤٥ ﴾ [البقرة]

فسمَّى هذا الإعطاء للفقير قرضاً ، مع أنه سبحانه المعطي الواهب

لهذا المال ، لكن لما كان الحق سبحانه هو الخالق ، وهو الذى استدعى الإنسان للوجود وتكفَّل له برزقه ، فاعتبر المال ماله وحقه ، فإنْ بذله فهو قرض لله .

ومثَّلنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : حين تعطى ولدك مصروفه فيجعله فى حصالة مثلاً ، ومرَّتْ بك ظروف احتجتَ لما فى حصالة الولد فقلت له : سلِّفنى ما فى حصالتك لحين ميسرة ، مع أنك صاحب هذا المال .

فكأن الحق سبحانه يحترم ملكية العبد ، مع أنها من فضله ، فإنْ طلبها منه طلبها على سبيل القرض .

و(الكتاب) أى : القرآن . فمرة يقول : الكتاب . ومرة : القرآن ، دليل على أنه سيأخذ الوَصْفين معاً ، فهو كتاب بمعنى مسجل ومكتوب يعنى لا يُنكر ، وهو قرآن بمعنى مقروء ، فهو مُسجَّل فى السطور ومحفوظ فى الصدور ، وهذه ستكون حجة علينا .

وقد علمنا الدقة التى اتبعها الصَّحابة فى جمع القرآن من صدور الحفظة ، فكانوا لايكتبون آية إلا إذا قرأها اثنان من الحفظة واتفقا على صحتها ، كذلك يشهد على صحتها اثنان بعد الكتابة ، فدلَّت هذه الدقة على حيثيات قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [الحجر]

وكلمة (الكتاب) هكذا بأل التعريفية تدل على أنه الكتاب الكامل فى الكتب ، ولا تنصرف هذه الكلمة إلا إلى القرآن الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر] دل على أن التنزيل من أعلى لأدنى ، لكن لماذا قال ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر] ولم يَقُلْ : من

الرب؟ لأن هذا الكتاب جاء بمنهج للتربية ، والرب هو المتولى للخَلْق وللتربية . قالوا : لأن الربوبية عطاء يشمل الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فالرب خلق الجميع الخَلْق المادى وأمدَّ الجميع ، فالكل فى عطاء الربوبية سواء .

أما المنهج الذى نزل به الكتاب ، فهو منهج إيمانى وخُلُقى وتعبُّدى من عطاء الألوهية ، لا من عطاء الربوبية ، لذلك قال فى الكتاب: ﴿ مِنَ اللَّهِ ۝١ ﴾ [الزمر]

والله علَم على واجب الوجود ، أما الأسماء الحسنى فهى أوصاف بلغت العظمة ؛ لأنها لله تعالى وغلبتْ عليه ، فصارت أسماء قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۝١٨٠﴾ [الأعراف] والجامع لها كلها لفظ الجلالة الله ، فحين تقول الله كأنك ناديتَ الله بجميع أسمائه الحسنى ؛ لذلك أمرنا أنْ نبدأ العمل بقول باسم الله ، والعمل يحتاج إلى قوة وإلى علم وإلى حكمة وإلى عزة . . الخ .

فلو كنتَ مُقبلاً على عمل يحتاج إلى عشرين صفة مثلاً فهل تقول : باسم القوى ، باسم العليم ، باسم الحكيم . . لا لأن فى وُسْعك أن تجمع كلَّ هذه الصفات فى قولك باسم الله ؛ لأن لفظ الجلالة هى الكلمة الجامعة لكل صفات الكمال ، وتناسب كل ما يحتاجه العمل ، وكل ما يتعلق بالفعل ، مما تعرفه أنت ومما لا تعرفه .

لذلك قالوا : إياك أنْ تدعَ هذه المكلمة فى بداية العمل ، حتى لو كنتَ عاصياً فلا تَخْزَ من ربك ولا تخجل أنْ تقولها ، ولا تستبعد أنَّ الله يعاونك حتى وأنت عاصيه ، لأن ربك الذى تدعوه وتبدأ عملك باسمه رحمن رحيم ، وهو الذى أمرك أنْ تقولها .

إذن : قال سبحانه : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ۝١﴾ [الزمر] لأن الكتاب

نزّل بمنهج وقيِّم ، ولم يقل : من الرب لأن الربَّ وصفٌ خاص بالمادة وبالقالب .

وقوله : ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾ [الزمر] العزيز هو : الغنى عن الخَلْق الذى لا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم ، وجاء هذا الوصف بعد ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ①﴾ [الزمر] لمناسبة . فكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى متطوع بهذا المنهج الذى أنزلته عليكم ، أريد به سعادتكم فى الدنيا ونعيمكم فى الآخرة ، أما طاعتكم لمنهجى فلا تزيد فى ملكى شيئاً ، لأننى الغنى عنكم ، فأنا العزيز عن خَلْقى .

لذلك فى مسألة الشرك بالله قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ④⑧﴾ [النساء]

وقال فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيره تركته وشركه»[1] .

يعنى: أنا متنازل لهذا الشريك عن العمل كله ، لأنى عزيز عن خَلْقى ، لا مصلحة لى من طاعتهم ، إنما المصلحة تعود عليهم هم . إذن : فربُّك خلقك وأنزل عليك ما يصلحك ، فإن أطعْتَهُ أثابك ، لأن لله تعالى صفات ، وهذه الصفات تحتاج إلى متعلقات ، فحين تؤدى هذه المتعلقات لله يجازيكَ عليها .

إذن : قُلْ باسم الله واعلم أنه عزيز عن هذه ، وتذكَّر قوله سبحانه فى الحديث القدسى : « ياعبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) ، واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كلٌّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك من مُلكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِلَ فى البحر ، ذلك أنى جَوَادٌ ماجد واجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقولَ له : كُنْ فيكون»[1] .

فالحق سبحانه هو العزيز الذى يَغْلب ولا يُغلب ، وهو سبحانه يخلع من هذه الصفة على مَنْ يؤمن به ، فللمؤمن عزة من عزة الله ، أما غير المؤمن فيبحث عن عزة بالإثم استكباراً بلا رصيد ، ومن ذلك قول المنافقين[2] .

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . . ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

قال الله لهم : صدقتم فى هذه المقولة : ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، لكن مَن الأعز ؟ ومن الأذل ؟ ثم حكم الحق سبحانه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

إذن : أنتم الأذل ، وأنتم الذين ستخرجون من المدينة لا رسول الله ، وقد تم ذلك لرسول الله ، وقد كان .

والحق سبحانه مع أنه ﴿ الْعَزِيزِ . . ﴿١﴾ ﴾ [الزمر] الذى يغلب ولا يُغلب ، فهو سبحانه ﴿ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر] أى : الذى يضع الشىء

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه بنحوه ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وحسَّنه ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قائل هذا القول هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس المنافقين فى المدينة ، قالها فى غزوة بنى المصطلق . ذكره الواحدى فى أسباب نزول الآية ٨ من سورة المنافقين .

في موضعه . ومن هذه الحكمة أنه سبحانه لا يطبع المؤمنَ على العزة الدائمة ، ولا على الذِّلة الدائمة ، كذلك لا يطبعه على الرحمة الدائمة ، ولا على الشدة الدائمة ، بل ينفعل للأحداث الإيمانية ، كما قال سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩) ﴾ [الفتح] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾[المائدة]

ومع أن هذه طباع في النفس إلا أنها مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها ، فإنْ كان الموقف يحتاج إلى رحمة فالمؤمن رحيم ، وإنْ كان الموقف يحتاج إلى شدة . فالمؤمن شديد . إذن : هذا مظهر من مظاهر حكمة الخالق سبحانه ، فإنْ قلتَ: هذه طباع ، نعم طباع لكن مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها .

والحكمة مأخوذة من شيء حسيٍّ ، مأخوذة من الحكَمة التي تُوضع في فم الفرس ، والتي نسميها اللجام ، وهو الأداة التي بها نتحكَّم في حركة الفرس ، وفي سرعته واتجاه سَيْره ، وبها نكبح جماحه إنْ جمح .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ(١) إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

الحق هو الأمر الثابت الذى لا تأتى أغيار الزمن فتنقضه ، وما دام الحق ثابتاً لا يتغير فلا يغرنك عُلُوٌّ الباطل إنْ علا يوماً من الأيام ؛ لأن عُلُو الباطل من ثبات الحق ، فالباطل حين يعلو يعضُّ الناسَ ، ويشقى به الخَلْقُ ، ويكتوون بناره ، وعندها يتطلعون للحق ويتشوَّقون إليه .

فكأن الباطل جندى من جنود الحق ، والكفر جندى من جنود الإيمان . فالله تعالى لا يسلم الحق أبداً ، ولكن يتركه فترة حتى يعلوَ الباطلُ عليه ليبلوَ غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غار هو عليه .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ﴾ [الزمر: ٢] يعنى: ما دُمْنا قد أنزلنا إليك الكتاب بالحق فانظر ماذا فى الكتاب ، فيه منهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، فيه تكليفٌ للجوارح ، ولابُدَّ أنْ يسبق العمل بالتكليف اقتناعُ القلب بالمكلف والإيمان به .

فأنت حين تقف أمام قضية صعبة تعجز عن التفكير فيها ، أو أخذ قرار تذهب إلى مَنْ شُهد له بالحكمة أو العلم والرأى ليفكر لك ويُعينك على أمرك ، فمثل هذا الرجل تأتمنه وتسلم له زمَام أمرك ؛ لأن رأيه يصلحك .

إذن : لابُدَّ قبل العمل بافعل ولا تفعل أنْ تثقَ وتتيقن بمن كلَّفك ، وهذا هو الإيمان الذى ينبغى أنْ يسبق العملَ . لذلك نقول : لا ينفع إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان ، واقرأ قول الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]

لذلك قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ ﴾ [الزمر] فشرْطُ العبادة الإخلاص ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر معبوده ونَهيه ، وهذا التحديد لمعنى العبادة يُبطل عبادةَ كلِّ ما سوَى الله تعالى ، فالذين عبدوا غير الله من شمس أو قمر أو نجوم أو أشجار أو أحجار عبدوا آلهة - كما يزعمون - بلا منهج وبلا تكاليف .

إذن : فكلمة العبادة هنا خطأ وهى باطلة ، فماذا قالت لهم هذه الآلهة ؟ بِمَ أمرتْهُمْ وعَمَّ نَهتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدت لمن كفر بها ؟ فأول ما يُبطل عبادة غير الله أنها آلهة بلا منهج وبلا تكاليف .

أما الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۝٣ ﴾ [الزمر] فالله سبحانه نهى عن هذه الزُّلْفى ، ونهى أنْ يكون بينه وبين عباده واسطة أو وسيلة .

ثم إن الحق سبحانه أراد أنْ ينبه الخَلْقَ إلى بديع صُنْعه ، وإلى هذا الكون المكتمل ، وهذه الهندسة الدقيقة فى كل جزئياته ، وأن هذا الكون فيه كل مُقوِّمات الحياة وكل الأنواع الواهبة للخير ، فهل ادعاه أحد لنفسه ؟

هل قال أحد : إنى خلقتُ هذا الكون مع كثرة الملحدين والمنكرين لوجود الله ؟ لم يحدث أبداً شيء من هذا . إذن : الدعوة تثبت لمدعيها طالما لم يقم لها معارض ، فالله تعالى هو الخالق وحده ، وهو المستحق للعبادة وحده ، وما دونه ضلال وباطل .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۝٤٢ ﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا إليه ليناقشوه كيف أخذ الخَلْق منهم ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟

ومعنى ﴿ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ ﴾ [الزمر] يعنى : اجعل الدينَ خالصاً

لوجه الله ، وامنع الرياء لأن الذى ترائيه لا يملك لك من ثواب العمل شيئاً ، فالمرائى الذى يرائى مثلاً فى صدقته ينفع المحتاج بالصدقة ، وهو لا ينتفع بها ؛ لأن الله تركه يأخذ أجره ممَّن يرائيه ، والعبد مثلك لايملك لك شيئاً .

وفَرْق فى المعنى بين مُخْلِص بالكسر ، ومُخْلَص بالفتح : المخلَص هو مَنْ يسبق عطاء الله لَه بالإخلاص فيخلص ، أما المخلص فيصل بعطاء إخلاصه إلى عطاء الله . قلنا زمان : من الناس مَنْ يَصل بطاعة الله إلى كرامة الله يعنى : ألحَّ فى الطاعة وداوم طَرْق الباب حتى فُتِح له .

وآخر يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، يعنى : ربه يختاره للطاعة ويخطفه من الخلق أو من المعصية إلى الطاعة ، مثل كثيرين من المتصوفة ، ومثال ذلك القاضى عياض[1] رحمه الله ، فقد كان فى بداية أمره قاطعَ طريق ، وفى يوم خرج كعادته يقطع الطريق على الناس ، فسمعهم يقولون : لا تمروا من هنا فعياض على هذا الطريق، نزلت هذه الكلمات على عياض نزولَ الصاعقة ، فكيف يهابه الناس ويخافونه لهذه الدرجة ، فأخذ يُؤنِّب نفسه وعزم على التوبة ، وقال: ياربِّ تُبْ علىَّ حتى يأمنَ هؤلاء . فتاب الله عليه[2] .

---

(١) القاضى عياض هو عياض بن موسى أبو الفضل ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته ، ولد فى سبتة عام ٤٧٦ هـ وتوفى بمراكش مسموماً عام ٥٤٤ هـ عن ٦٨ عاماً ، ولى قضاء سبتة ثم غرناطة . له تصانيف عدة أشهرها : الشفا بتعريف حقوق المصطفى . الأعلام للزركلى (٥/٩٩) .

(٢) ذكره ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » فى ترجمته ، وقال : « كان فى أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] فقال : يا رب قد آن ، فرجع ، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل . وقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل وآمنهم .

فلما استقام سأله الناس الذين يعرفون حقيقته : ما جرى لك يا عياض ، يعني : كيف صِرْتَ من الأوليـاء ، بعد أن كـنتَ قاطـع طريق ؟ .

قال : والله إني لأعرف سببها ، لقد مررتُ يوماً بسوق البطيخ – أظن في بغداد – فوجدت ورقة من المصحف ملقاةً على الأرض يدوسها الناس فأخذتها ونظفتُ ما بها من الأذى ، ثم طيَّبتها بدرهم لم يكُنْ معي غيره ، ثم وضعتها في شق عال ، قال: والذى نفسى بيده لقد سمعتُ بعدها منادياً ينادى : لأطيبنَّ اسمك كما طيبتَ اسمى[1] وكانت هذه الحادثة أول عهد عياض بالولاية .

لذلك ورد أن النبى ﷺ قال : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرن طاعةً أبداً ، واعلم أن الله غفر لرجل لأنه سقى كلباً يلهث من العطش[2] ، وهذا العمل يدل على محبة طاعة الله وإلا فماذا يأخذ الرجل من الكلب ؟ أم تراه ينافقه ؟ إذن : ليس إلا حب الطاعة .

« وأخفى غضبه فى معصيته » فلا تحقرنَّ معصية أبداً ، وقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[3] .

---

(١) هذه القصة ذكرها ابن خلكان فى وفيات الأعيان والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وابن الملقن فى طبقات الأولياء ، واليافعى فى مرآة الجنان أنها حدثت مع بشر الحافى وليس القاضى عياض ، ولكن لابد أن نذكر أنه كان مصاحباً له .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب بدء الخلق – باب صفة النار) حديث (٣١٤٠) عن ابن عمر وكذا مسلم (كتاب التوبة – باب الحض على التوبة) حديث (٢٦١٩) عن أبى هريرة.

«وأخفى أسراره فى خلقه » كما أخفى أمر عياض وتاب عليه .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر] بعد أنْ خاطب الحق سبحانه نبيه بقوله : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ②﴾ [الزمر] أراد سبحانه أنْ ينبه الأذهان إلى أهمية الإخلاص لله تعالى ، فجاء بهذا الحرف الدال على الاستفتاح (ألا) .

وهذا الأسلوب يتبعه العربى فى كلامه ، لأن المتكلم أمير نفسه يتكلم فى أىِّ وقت شاء ، وهو يعى ما يقول وله خيار فيما يقول أمَّا السامع فليس له خيار فربما كان مشغولاً عن المتكلم فيفوته بعض الكلام ؛ لذلك على المتكلم أنْ ينبهه من غفلته ، وأنْ يُهيِّئه لأنْ يسمع، لاسيما إنْ كان الكلام مهماً أو نفيساً لاينبغى أن يفوتك منه شىء ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر]

ونلحظ أيضاً هنا أسلوبَ القصر فى تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ ③﴾ [الزمر] على المبتدأ الدين الخالص ، فلم يَقُلْ سبحانه الدين الخالص لله ، لأنها تحتمل أن نقول : ولغيره ، أمَّا قوله ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر] أى : له وحده ، فقصرت إخلاص الدين على الله تعالى دون غيره ، تقول: هذا المال لزيد . ولزيد هذا المال .

لكن ، لماذا لله الدين الخالص ؟ قالوا : لأن الدينَ شرعُ الله هو الذى شرعه ، وهو سبحانه الذى يُجازى عليه ، فاحذر إذن أنْ يكون عملك بمنهج الله مقصوداً به غير الله ؛ لأن غير الله لم يشرع لك ، ولا يستطيع أنْ يعطيك أجر العمل . فكأن الله تعالى يريد أنْ يُحَصِّن حركة الإنسان فى كل شىء ، بحيث تعود عليه كل حركاته بالخير ؛ لذلك دلَّهُ على الطريق الذى يؤدى به إلى الخير ، وهو طريق إخلاص العبادة لله وحده .

ثم يذكر سبحانه مقابل إخلاص العبادة لله ، فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (٣) ﴾ [الزمر] قائلين ومبررين موقفهم حين تبيَّن لهم كذبهم في عبادة ما دون الله ، وحين تقول لهم إن هذه الآلهة لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ، وحين تضيق عليهم الخناق يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣) ﴾ [الزمر]

والذى يُقرِّبك إلى الله لابُدَّ أنْ يكون مشهوداً بالتبعية لله تعالى ، وهذه الآلهة التى تعبدونها ليست مشهودة بالتبعية لله تعالى ، بل هى من صُنْعكم أنتم ومن نَحْت أيديكم ، وإذا أطاحت به الريح أقمتموه فى مكانه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه .

إذن : فعبادتكم لها باطلة ، وأنتم كاذبون فى هذه العبادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [الزمر] كلمة الحكم لله كلمة ترهب ، لأن حكمَ الله هو الحق الذى لا يُحابى أحداً ، فالمؤمن حين يسمع هذه الكلمة يطمئن ، لأنه سيأتى يوم لا يكون الحكم فيه إلا لله كما قال سبحانه : (إن الحكم إلا لله) أى : لله وحده لا لغيره ، لذلك أنت لا تقول لخصمك : أنا حكَّمت الله بينى وبينك إلا وأنت واثق أن الحق معك .

لذلك يغضب بعض الناس لو قلت لأحدهم : الله وكيل بينى وبينك . ولو كان على الحق لا يخاف شيئاً لقال وأنا رضيتُ هذه الوكالة وقبلتُ بها ، لكن كونه يغضب حين نُحكِّم الله فيما بينكما ، فهذا دليل على أنه يخاف هذا الحكم لأنه على باطل .

ثم إن حكم الله سيأتى فى وقت لا حكمَ فيه إلا لله ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ (٥٧) ﴾ [الانعام] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾ [الزمر]

نعم لا يهديه الله ، لأن الكاذب الكفَّار ليس أهلاً لعطاء الهداية ؛ لأن الله تعالى هدى الكل هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فمَنْ آمن منهم زاده هداية المعونة والتوفيق ، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك قلنا : إن رجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ينظم المرور ويرشد الناس ، فحين تسأله أين الطريق إلى الأسكندرية مثلاً يقول لك من هنا ، فتتوجه إلى حيث أرشدك ، وقبل أنْ تفارقه قلت له : جزاك الله خيراً ، لقد كدتُ أضلّ الطريق ، وأذهب من هنا ومن هنا ، لولا أن الله يسَّر لى أنْ أقابلك ، فقال لك : والله أنت رجل طيب تستحق كل خير ، لكن فى هذا الطريق منطقة خطر سأركب معك حتى أساعدك فى المرور منها .

إذن : لما أطعتَهُ فى الإرشاد الأول زادكَ بالمعونة والمساعدة ، كذلك الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يستجيب لهداية الدلالة والإرشاد فيؤمن يزيده هداية أخرى ، هى هداية التوفيق والمعونة .

والكاذب الكفَّار هو الشديد الكفر الذى لا ينتفع بإرشاد ، ولا هداية .

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾

تحدثنا هذه الآية عن نوع آخر من الشرك ، فهؤلاء لم يعبدوا الأصنام ولا الشمس ولا القمر ، إنما اتخذوا أشياء أخرى يروْنَ بينها وبين الله تعالى صلة ، كما نقول (من ريحته) ، ورأوا أن ذلك أخفّ

وأهونُ من عبادة الأصنام ، هؤلاء كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا المسيح ابن الله ، أو الملائكة بنات الله . . الخ فردَّ الله عليهم :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ④ ﴾ [الزمر]
يعني : هذه مسألة لا دَخْلَ لكم فيها ولا اختيار ، لا تختاروا أنتم لله ولداً ؛ لأن الله تعالى لو أراد ذلك - على فرض - لاختار من خَلْقه ما يشاء هو ، لا ما تختارون أنتم .

لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ⑧١ ﴾ [الزخرف] أي : من اختياره ويخبر هو به ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ⑧١ ﴾ [الزخرف] يعني : أول المصدِّقين المؤمنين به ، فهو على العين والرأس ، إنما هذا أمر لم يخبر الله به ، وإنما نفاه عن نفسه سبحانه .

وقد ورد في الحديث : « الخَلْق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »[1] إذن : فالبنوة ليست لله تعالى ، وحتى في بنوة الرسل لم يجعلها الله بنوةَ دم ، ولا بنوةَ أبدان ، إنما بنوة أديان ، وأوضح مثال على ذلك سيدنا نوح - عليه السلام - وولده .

لما أَبَى الولد وعصى أمر أبيه أيقَن الوالد أنه من الهالكين ، فدعا الله : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ④٥ ﴾ [هود] لكن عدل الله له معنى البنوة ، فقال سبحانه : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ④٦ ﴾ [هود] فسيدنا نوح ظن

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦ / حديث ٣٣١٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: « الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦ /٣٣٢) عن عبد الله بن مسعود بلفظ آخر : « الخلق عيال الله فأحب الناس إلى الله من أحسن إلى عياله » .

أن البنوة بنوة نسب ، لكن بنوة الأنبياء بنوة اتباع .

والحرف (لو) فى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ④﴾ [الزمر] حرف امتناع لامتناع ، وهو من أدوات الشرط يفيد امتناعَ وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط ، فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً لأنه لم يُرِدْ ذلك ، ولو أراده لكانَ ما يريد .

وفى موضع آخر ، يناقش الحق سبحانه أصحاب هذا الافتراء ، يقول لهم بالمنطق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ①⓪①﴾ [الأنعام] .

ثم لماذا يُتخذ الولد ؟ يتخذ الولد ليكون عزوةً لأبيه أو امتداداً له بعد موته ، والحق - تبارك وتعالى - هو الغنى العزيز عن خَلْقه ، وهو الدائم الباقى فلماذا يُتخذ الولد ؟ والذين نَسبوا لله تعالى الولدَ فى العصور المتأخرة من الديانات ، كالذين قالوا : المسيح ابن الله ، فهل كان الله تعالى منذ خلق هذا الكون بلا ولد إلى أنْ جاء عيسى فاتخذه الله ولداً .

وبعد أنْ أخذ عيسى من الوجود أظلَّ الله تعالى هكذا (غلبان مقطوع من شجرة) بلا ولد ؟ كيف يستقيم لكم هذا الادعاء ؟ إنها مسألة لا تصح أبداً فى حق الله تعالى ، فالله لا يحتاج إلى عزوة ، ولا يحتاج لمعونة الولد ، لأن الله تعالى خلق الخَلْق كله من ألفه إلى يائه ، خلقه بكامل قدرته ، وبصفات الكمال فيه ، فلم يزده الخَلْق شيئاً ولا صفة لم تكُنْ له من قبل .

لذلك يقول بعض أهل الشطح فى هذه الآية : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ④﴾ [الزمر] يقول : لو كان للرحمن ولد كنتُ أنا أَوْلَى أنْ أكونَ ولده ؛ لأننى أول العابدين .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بما يُنزِّه الله عن هذا الافتراء :

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ ④ ﴾ [الزمر] يعنى : سبِّحه ونزِّهه عن هذه المسألة ، فإنها لا تليق به سبحانه ، ونزهه أنْ يشابه شيئاً من خلقه ، حتى لو وقفت أمام مسألة لا يدركها عقلك قُلْ سبحان الله كما قال الله :
﴿ سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ㊱ ﴾ [يس]

وقال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ⑰ ﴾ [الروم]

وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ① ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه فى مثل هذه المواقف يُعلِّمنا أنْ نُنزِّه الله ، لأن العقل سيقف أمام هذه الأحداث حائراً ، لكن الحدث هنا منسوب إلى الله فلا عجبَ إذن ، لأن زمنَ الحدث يتناسب مع القوة الفاعلة تناسباً عكسياً ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا نسبتَ الفعل إلى قوة القوى تجد لا زمن .

إذن : نزِّهوا الله عن اتخاذ الولد لأنه ﴿هُوَ اللَّهُ ④﴾ [الزمر] الذى له كُلُّ صفات الكمال (الوَاحدُ) الذى ليس معه غيره (القَهَّارُ) أى : الذى لا يحتاج إلى عزْوة ، ولا يحتاج إلى مُعين .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ⑤ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ⑤ ﴾ [الزمر] أى : لم يخلقهما عبثاً إنما خلقهما بالحق ، والحق كما قلنا : هو الشىء

الثابت الذى لا يتغير ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الدخان]

بل خلقهما الله بالحق وبالحكمة وبحساب دقيق وهندسة بديعة لتؤدى مهمتها التى أرادها الخالق سبحانه ، بدليل أنها لا تزال منذ خلقها الله تؤدى مهمتها دون عَطَب فيها ، أو خلاف بين أجزائها .

وقوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر] تقول : كوَّرْتُ العمامة يعنى لَفَـفتها على رأسى ، فصارت مثل الكرة مكورة ، وفى لَفِّ العمامة تغطى اللفَّةُ اللفَّةَ التى تحتها . كذلك الليل والنهار ، جزء من الليل يغطى جزءاً من النهار فيزيد الليل ، أو جزء من النهار يغطى جزءاً من الليل فيزيد النهار .

هذا هو واقع الليل والنهار ، فهل الليل والنهار يقتسمان الأربعة والعشرين ساعةً بالتساوى ، كل منهما اثنتا عشرة ساعة ؟

لا ، بل يزيد الليل فينقص من النهار فى فصل الشتاء ، ويزيد النهار فينقص من الليل فى فصل الصيف .

هذا يدل على أن الكون ليس محكوماً بقوانين ميكانيكية جامدة كما يدَّعُون ، بل محكوم بقدرة الخالق سبحانه وحكمته .

ولو تأملتَ طول الليل في الشتاء وقِصَره فى الصيف لَوجدتَ أن أمور الكون لا تسير هكذا حسبما اتفق ، إنما لكل حركة فيها حكمة ، فحين يقصر النهار فى الشتاء يحتاج العامل لأنْ يُجهد نفسه لينهى مهمته فى هذا الوقت القصير ، فيتعب نفسه ويُجهدها .

ومن الحكمة أن نعطيه فترة أطول يستريح فيها من تعب النهار ، ولا بدّ أنْ تتناسب فترة الراحة مع فترة الجهد المبذول .

أما فى فصل الصيف فيطول النهار ويوزع العمل على هذا الوقت

الطويل ، فيؤدى الإنسان مهمته بأقلّ مجهود ، بالإضافة إلى راحته في وقت القيلولة ، فلا يحتاج إلى ليل طويل للراحة ، لذلك يأتى ليلُ الصيف قصيراً . إذن : فالخالق سبحانه يُكوِّر الليل على النهار ، ويُكوِّر النهارَ على الليل لحكمة في حركة الحياة .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : يُدخِل كلاًّ منهما في الآخر ؛ لذلك لا يتساوى الليلُ والنهار إلا في فترة قصيرة من العام تقتضيها الحركةُ بينهما .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى (يُكوِّر) أن الأرض كروية ، لأن الليل والنهارَ ظاهرةٌ تحدث على سطح الأرض ، وقد أثبتَ العلم هذه الحقيقةَ بالصور التى التقطوها للأرض من الفضاء ، وصدق الله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر]

الأجل : هو يوم القيامة ، فالحق سبحانه يُطمئن الناسَ أن الشمسَ والقمر آيتان لله تعالى باقيتان خالدتان بقاءَ الدنيا وخلودها ، إلى أنْ ينتهيا معها ، ومع ذلك فكل منهما قائم بذاته بقدرة خالقه ، لا يحتاج إلى وقود ، ولا يحتاج إلى صيانة ، ولا قطعة غيار .. الخ .

﴿ أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر] قلنا : (ألا) استفتاحية تفيد تنبيه السامع لما بعدها ، فكأن الله تعالى يقول لقد خلقتُ لكم هذا الكونَ المحكمَ البديع ، ووفرتُ لكم مقومات حياتكم ، وأنا الغنى عنكم ، العزيز الذى يغلب ولا يُغلب ، ولا يحتاج لأحد . لكن ما مناسبة (الغفار) هنا ؟

قالوا : لأن الله تفضّل على خَلْقه بهذه الآيات الشمس والقمر والليل والنهار ، وأعطاهم مُقوِّمات حياتهم ، ومع ذلك لا ينظر إلى ذنوبهم وتقصيرهم فى حقه تعالى لأنه الغفار ، ويعفو عن كثير .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه في موضع آخر ، حين نتأمله نجد فيه عجباً ، إنه قول الله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤)﴾ [إبراهيم] ورد هذا اللفظ فى موضعين بصدر واحد وعَجُز مختلف ، فواحدة :﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والأخرى :﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

أولاً : يُلفت أنظارنا هنا فى مسألة عَدِّ نعمة الله استخدام (إن) الدالة على الشك ، لأن عَدَّ نعمة الله مسألة لن تكون ولن تحدث ؛ لأن الإقبال على عَدِّ الشىء ناتج عن إمكانية ذلك والقدرة عليه ، أما نعمة الله فمع تقدم علم الإحصاء ودخوله فى شتى المجالات ، إلا أن نعمة الله فوق مظنة العَدِّ لكثرتها ، كما أننا لا نفكر أبداً فى عَدِّ رمال الصحراء مثلاً .

فمعنى ﴿وَإِن تَعُدُّوا (٣٤)﴾ [إبراهيم] يعنى : على فرض أنكم ستُقبلون على عَدِّها ﴿لا تُحْصُوهَا (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ثانياً : كلمة (نعمة) جاءت هكذا بصيغة المفرد ، والعَدُّ لا يكون إلا للجمع الذى له أجزاء تعدّ : واحد ، اثنان ، ثلاث ، أربع .. الخ فكيف تُعَد النعمة وهى واحدة ؟ قالوا : نعم هى فى ظاهرها نعمة واحدة لكن مطمور فيها حين تتأملها نِعَم كثيرة ، فالتفاحة مثلاً ترى فى الظاهر أنها نعمة واحدة ، لكن حينَ تُحللها تجد فيها لوناً وشكلاً

وطَعْماً ومـذاقاً وعناصر مكونة ومواد غـذائية متعـددة ، كلها نِعْم من الله.

ثالثاً : حين تـتأمل عَجُـزَ الآيتين - وهو مـرادنا من الكلام - تجد فى الآية الأولى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] أى : جاحد لنعمة الله ، منكر لها ، غافل عنها ، مُقصِّر فى شكرها . فهى إذن تتـحـدث عن حال الـمنعم مع المنعَـم عليـه ، وكـيف أنه قـابل النعمة بالكفران ، ولو جازاه المنعم بما يستحق لحرمه النعمة ، لكن يأتى عَجُزُ الآية الأخرى :﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل] يعنى : يغـفر لكم جـحودكم للنعـمة ونكـرانكم للجمـيل ؛ ثم بعد المـغفـرة الرحمة .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ(١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

تبين الآيةُ طبيعة خَلْق الإنسان الذى أراده الله خليفة فى الأرض ،

(١) المقصـود بالظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظـلمة المشيمة قـاله ابن عباس وعكرمة ومـجاهد وقتادة والضـحاك . وقال أبو عـبيدة : ظلمـة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم . ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٩/٨) .

فقال : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] هو آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] أي : حواء ، ومنهما كانت الذرية وجاء التناسل.

وما دام الله تعالى خلق هذا المخلوق ليكون خليفةً يعمر الأرض فلا بُدَّ أنْ يكونوا من جنس واحد ليتم لهم الإلْف والانسجام وتجمعهم حركة الحياة .

وإلا لو كان هذا الخليفة من أجناس متعددة ، فمجموعة مثلاً من الإنس ، وأخرى من الجن ، وأخرى من الحيوان ما استقامتْ بهم الحياة ، ولا تساندتْ حركتهم . إذن : الجنس الواحد تتوفر فيه المودة والإلْف والمحبة والانسجام بين عناصره لأن لكل جنس قانونَهُ ونظامه والتقاءاته ومعاشرته ، ولو أن الإنسان خُلِق من أجناس مختلفة لتعذَّر عليه الائتلاف واتحاد الحركة والأنس في المعيشة .

وأيضاً ، فإن الخالق سبحانه خلق الإنسان من جنس واحد ليثبت التساوي في الأصل ، فلا يكون لأحد مَزيّة على أحد ، لأنه خلق من جنس أعلى ، وإنما ليكون التفاضل والمزية بمقدار توافق هذا المخلوق مع منهج الله ، وهذه القضية أوضحها النبي ﷺ في الحديث : « لا فضلَ لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى »[1] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] يعني : لا فضلَ لأحدكم على الآخر إلا بحسنه فيما يستقبل عن ربه .

---

(١) خطب رسول الله في وسط أيام التشريق فقال : « أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن اباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤١١) عمن سمع رسول الله ، وفي حلية الأولياء (٣/١٠٠) أنه جابر بن عبد الله .

وإنما تأتى الألوان والأشكال مختلفة لتناسب بيئة المعيشة ، فالبيئات الحارة مثلاً يميل أهلها إلى السواد ، والبيئات الباردة إلى البياض ، كذلك الحال فى اختلاف الألسنة بحسب البيئات أيضاً . أما الأصل فنحن جميعاً نُرَدُّ إلى آدم ، وآدم خُلِق من تراب ، وذريته خُلقَتْ من بعده بالتكاثر .

حتى فى الرسالة قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : ليس غريباً عنكم ، وليس من جنس غير جنسكم ، فلم يكُنْ من الملائكة مثلاً مع أنها أعلى درجة إلا أن الرسول الملك لا تتحقق فيه القدوة والأسوة المرادة من الرسول ، كذلك لم يأتِ فارسياً ولا رومياً يختلف لسانه عن لسانكم ، إنما جاء عربياً من أوسطكم ، ومن أعظم قبائلكم.

إذن : البشر جميعاً فى هذا الكون يعودون إلى نفس واحدة هى آدم عليه السلام ، وقد أوضح لنا الحق سبحانه كيف خلق آدم بالشكل المعروف .وقال سبحانه :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

لكن لم يذكر شيئاً عن خلق حواء ، إلا أن العلماء قالوا : خلقها الله كما خلق آدم ، وقال آخرون : بل خُلقَتْ من ضلع من أضلاع آدم ، فهى مطمورة فى خَلْق آدم ، مما يدلُّ على أن المرأة تابعة للرجل ، محجوبة فيه ، حتى فى مسألة الخَلْق .

وأصحاب هذا الرأى يعتمدون على معنى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (٦) ﴾[الزمر] منها أى : من جزء من أجزائه ، أو من جنسه ؛ لأن جعل لا تدل على اختلاف العنصر كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] . يعنى : قطعة

مِنا صارتْ السمع ، وقطعة صارتْ البصر ، وأخرى الأفئدة .

كذلك حين يتحدث القرآن عن العمل تأتى المرأة مستورة فى الرجل ، فيقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] وفى مواضع كثيرة يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. (٣٥) ﴾ [المائدة] ولم يُوجِّه الخطاب إلى النسوة مباشرةً إلا فى الأمور الخاصة بهن .

ثم يقول تعالى ، وهو يُعدِّد بعض نعَمه على خَلْقه : ﴿ وَأَنزَلَ[1] لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (٦) ﴾ [الزمر] وسبق أن قلنا فى صدر هذه السورة : إن الإنزال لا تنظر فيه إلى جهة العلو فحسب كما فى إنزال المنهج والقيم ، إنما ينظر أيضاً إلى المنزل سبحانه ، فالإنزال يكون بمعنى الإيجاد ، والأنعام من النعم الموجودة فى الأرض لكنها من عند مَنْ ؟ من عند الله فكأنه أنزلها ، والإنزال هنا ناسبه حرف الجر ﴿ لَكُم ﴾ ولم يقُلْ : عليكم لأن الأنعام شىء منفصل عن الإنسان .

وقد ورد تفصيل هذه الثمانية فى سورة الأنعام ، ومع أن نِعَم

---

(١) لفظة أنزل هنا تعنى معانى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٨/٨) :
- نسبة إلى نزول الماء الذى خُلقت منه هذه الأنعام .
- أنزل : أنشأ وجعل .
- أنزل : خلق . قاله سعيد بن جبير .
- خلق الله هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض .
- أنزل لكم : أعطاكم .
- جعل الخلق إنزالاً ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل .

وهذه الأقوال لا تتعارض بل تتكامل فى قول واحد : أن الله خلق وأنشأ هذه الأنعام عطاءً منه لعباده بأمره النازل من السماء بأن ينزل الماء لتنبت الأرض فتحيا هذه الأنعام .

الله علينا كثيرة إلا أنه خَصَّ هنا الأنعام بالذات ، لأنها الجنسُ القريب من الإنسان من حيث الخَلْق ، بعدها النبات ثم الجماد . وكلمة الزوج . البعض يظن أنها تعنى اثنين معاً ، وهذا خطأ لأن الزوج تعنى : واحد ومعه مثله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات] ومثلها كلمة توأم.

وقوله : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر] معنى ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر] بيان لأطوار الخلق التى يمر بها الجنين فى بطن أمه ، فهو يتقلب فى بطنها بين ماء مَهين ، يستقر فى الرحم نطفةً ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم يتكوَّن منها العظام ، ثم يكسو العظام لحماً ، هذه أطوار الخَلْق المرادة فى قوله تعالى : ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر]

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً[1] فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

هذه هى الأطوار التى يمرُّ بها الإنسان منذ أنْ يصلَ إلى رَحِم الأم ، وهذا يعنى أن هناك طَوْراً يسبق هذه الأطوار ، هو طَوْر التقاء عنصر الذكورة بعنصر الأنوثة ، أو التقاء الحيوان المنوى بالبويضة

---

(١) النطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد .
العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه .
المضغة : القطعة من اللحم تُمضغ لتماسكها ، ومنها مضغة مخلقة أى مصورة على هيئة طفل ، ومنها غير مخلقة أى غير مُشكَّلة أى غير تامة التصوير وتكون سقطاً .

وتلقيحها ؛ لأنه لا يصل إلى الرحم إلا بويضــة مُلقَّحة دخلها ميكروب الذكورة .

وفى سورة الحج بيَّن سبحـانه أن المضــغة منها مُـخلَّقة وغـير مُخلَّقة :﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٥ ﴾ [الحج]

فالمضـغة المخلَّقة هى الجزء الذى خُلِّقتْ منه الأعضاء والجوارح ، وغيـر المخلَّقة هى الجـزء الذى استقر فى الجـسم بدون تخليق ليظل احتياطياً للجسم ، وكأنه (ريزْرف) أو صـيدلية صيانة ، فإذا ما حدث فى الجسم عطب قـامتْ المضغـة غير المخـلَّقة بإصلاحه ، كـما نرى مثلاً فى الجروح ، فـالجرح بعد فترة يندمل وتبنى فيه أنســجته حتى تعودَ كما كانت ، من أين ؟ من المضغة غير المخلَّقة .

والعـجيب أن الجـسم حين تتـركه على طبـيعـته ولا تتـدخَّل فى الجرح بـمواد كيـماوية يلتـئم ويعود دون أنْ يـتركَ أثراً ، إنمـا حين نتدخل بأدوية ومواد كيمـاوية لا بُدَّ أنْ تؤثر على الخلايا والأنسجة ، وتترك فيها أثراً .

لذلك أثبت العلم أن فى الإنســان مخزنين للقـوت ، مخـزناً لقوته اليومى ، ومخـزناً آخر احتيـاطياً ، نأخذ منه القوت حيـن ينفد ما فى المخـزن الأول ، لأن الإنسان يأكل على قَـدْر الطاقة ثم يزيد عليـها ، فتـتحول هذه الزيادةُ إلى دهون فى الجـسم ، وحين يجـوع الإنســانُ أو يعطش يستمد قوته من الدهن الموجـود فى جسمه ، ومن العجيب أن هذه المادة الدهنية تتحول إلى أىِّ مادة يحتاجها الجسم .

ولوجود هذا المخزن رأينا الإنسانَ يصبر على الجوع شهراً ، فى حين لا يصبر على العطش أكثر من عشرة أيام ، لماذا ؟ لأنه حين يجوع ولا يجد طعاماً يستمد طعامه من المخزون الاحتياطى فى جسمه .

فقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۝٦ ﴾[الزمر] أى : الخلق الثانى ، فالخَلْق الأول خلق آدم عليه السلام من تراب ، وقد أخبرنا الله به ، لأن أحداً لم يره ، كما قال سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا [1] ۝٥١ ﴾ [الكهف]

فإذا طلع علينا مَنْ يقول إن الإنسان أصله قرد تطوَّر إلى إنسان نعلم أنه من المضلِّين الذين أخبرنا الله عنهم ، ولا بُدَّ أن نعلم كذبه ، والرد على هذا الهراء ميسور ، لأن الإنسان إنْ كان متطوراً عن قرد ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا على مَرِّ التاريخ كله لم نَرَ قرداً تطور وارتقى حتى إلى ما يقرب من الإنسان .

إذن : هذا كذب وباطل ، لأن الخالق سبحانه خلق الأجناس كلها ، وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين ، يتم التكاثر وليتم الانفصال ، قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ ﴾ [الذاريات]

وقوله سبحانه : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ۝٦ ﴾[الزمر] بيان للقرار المكين الذى يستقر فيه الإنسان فى بطن أمه ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ ﴾ [المرسلات] والمكين هو المستقرّ فى

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢ / ٢٤] . قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة عضد) : من المجاز : العضد : الناصر والمعين . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه .

المكان ، فبطن الأم مكان ، والجنين فى البطن مكين .

ولما تكلم العلماء فى معنى الظلمات الثلاث قالوا : هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وكلمة الظلمة نفهم منها عدة أمور .

أولاً : الظلمة تعنى عدم وجود النور ، وهى مرتبطة بالليل .

ثانياً : الليل دائماً رطب عن النهار ؛ لأن النهار فيه حرارةُ الشمس وحرارةُ الأنفاس الناشئة عن الحركة ، أما الأنفاس فى الليل فهادئة ، لأنها لمجرد استبقاء الحياة ، وليست ناشئة عن حركة العمل والجهد المبذول .

ثالثاً : كذلك فى الظلمة سكون ، وهدوء لا يتوفر فى النهار .

إذن : فى الظلمة عدم نور ، وفيها برودة ، وفيها سكون ، وهذه الأمور الثلاثة ضرورية لنمو الجنين ، وتكوُّن أعضائه فى بطن أمه ، لأنه فى بطن أمه خلْقٌ ضعيف غير مكتمل الأعضاء والجوارح ، لا يَقْوى على تحمُّل الحرارة ، ولا تحمُّل الضوء ، ولا تحمُّل الأصوات المزعجة ، لذلك جعل له الخالق سبحانه عوازلَ تقيه هذه الأشياء ، لذلك قال سبحانه : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ۝٦ ﴾ [الزمر]

والأقرب للصواب أن هذه الظلمات الثلاثة فى الرحم وليس منها ظلمة البطن ؛ لأن الحق سبحانه يُحدِّثنا عن القرار المكين الخاص بالجنين ، فيقول : ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۝٦ ﴾[الزمر] بيان للظرف العام الذى يقع فيه الظرف الخاص بالجنين وهو الرحم ، فالبطن ظرف كبير يحوى الرحم والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والبنكرياس .. الخ لذلك حدد الظرف الخاص بالجنين فقال بعدها : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ۝٦ ﴾ [الزمر]

إذن : الظلمات الثلاث عبارة عن عوازل وأغشية تحمى الطفل ، وكلها داخل الرحم ، وإذا كان الإنسان المكتمل الناضج تزعجه الأصوات ، وربما أتلفت طبلة أذنه مثلاً ، وتؤذيه الأضواء العالية ، حتى لا يَقْوى نظره على مواجهتها ، فهل يطيق الجنين مثل هذه الأشياء ، وهو لم تكتمل أعضاؤه بعد ؟

ومعلوم أن الطفل يُولد بجلد رقيق لا يتحمل الحرارة ، ويُولد ولم تكتمل فيه بعض الأعضاء والجوارح ، فالجهاز العصبى مثلاً لا يكتمل إلا بعد عدة سنوات ، والجهاز العقلى لا ينضج إلا بعد سنِّ البلوغ ، والعين لا تؤدى مهمتها فى الرؤية إلا بعد ثلاثة أيام .

فالجنين يحتاج إلى حماية ؛ لذلك جعله الله فى ظرف داخل ظرف داخل ظرف ، كما أنك تجعل أوراقك المهمة مثلاً فى ملف ، والملف فى الخزينة ، والخزينة فى غرفة ، فقوله ﴿ فِى ﴾ دليل على العناية بهذا المخلوق ، وتوفير ما يناسبه من الظروف المحيطة به .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ⁽٦⁾ ﴾[الزمر] كلمة ﴿ ذَٰلِكُمُ ⁽٦⁾ ﴾ [الزمر] عبارة عن اسم الإشارة (ذا) وضمير المخاطبين ، والإشارة هنا للحق - تبارك وتعالى - فلو أشرتَ لخطاب المفرد تقول : ذلك ، وللمثنى ذلكما كما فى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ⁽٣٧⁾ ﴾ [يوسف] ولجمع المذكر (ذلكُمْ) ولجمع المؤنث (ذلكُنَّ) كما فى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ⁽٣٢⁾ ﴾ [يوسف]

وجاءت هذه الإشارة إلى الحق سبحانه بعد أنْ تكلم عن بعض أسراره فى خَلْق الإنسان ، وعن الظلمات الثلاث فى رحم الأم ، وكلها فى مجال الخَلْق والتربية والتكوين الأول للإنسان ، وهذه المسألة يناسبها صفة الربوبية التى تتولى الخَلْق والتربية ، فالربُّ هو الخالق

وهو المربّى ، أما كلمة الله فهى للألوهية ، والألوهية تكليف ، لأن الله يعنى المعبود بطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، والجنين فى بطن الأم بعيد عن مسألة التكليف ، فلماذا اختار هنا وفى هذا المقام لفظ الألوهية (الله) فقال : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۝٦ ﴾ [الزمر]

ولم يقل : ذلكم ربكم الله - كما يقول بعض المستشرقين ؟

قالوا : لنفهم أنه سبحانه لا يخلقنا ولا يربينا لنكون مثل الدواب فى الكون ، إنما يخلقنا ويُربينا لهدف ولمنهج تكليفى نسير عليه ؛ ذلك ليجعلنا نأنس بكلمة الله قبل كلمة رب ، وفى هذا إشارة إلى أن الهدفَ من التكليف صلاح المجتمع وصلاحكم فيما بينكم ، فالخالق سبحانه لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا هَمَلاً وخلْقاً ضائعاً لا هدفَ له.

لذلك فى صدر سورة الرحمن يُبيِّن الحق سبحانه أن تعليمَ المنهج قبل تكوين الخَلْق ، وأن الخَلْق لا يُعَدُّ نعمة إلا إذا تَمَّ فى ظل منهج الخالق ، فصاحب الصنعة لا بُدَّ أنْ يحدد مهمتها قبل أنْ يصنعها ، قال تعالى :﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ۝٦ ﴾ [الزمر] مادة (ملك) منها المُلْك والملك والملكوت : المِلْك بالكسر هو ما تملكه ولو كان يسيراً ، والمُلْك بالضم أنْ تملكَ مَنْ يملك ، والمِلك والمُلك فى عالم المشاهدة ، أما الملكوت فهو ما لا نشاهده من مُلْك الله ، ولا يُطلع الله عليه إلا مَنْ اصطفاه من أنبيائه ورسله وأهل طاعته ممَّنْ صفَتْ فطرتهم الإيمانية وسلِمَ لهم جهاز الاستقبال عن الله ، هؤلاء يُطلعهم الله على بعض ملكوته ، لذلك لما وفَّى سيدنا إبراهيم وأذعن لأمر ربه أراه هذا الملكوت ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝٧٥ ﴾ [الأنعام]

ومثل مُلك وملكوت نقول : رحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت .

ومعنى ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. ۝٦ ﴾[الزمر] يعنى : إنْ كنتم قد شهدتم مُلْكاً واسعاً فاعلموا أنه لمن خلقكم ، ومن العجيب أنه مخلوق من أجلكم أنتم وقد خلقه الله لكم قبل أنْ يخلقكم ؛ لأن الإنسان الأول طرأ على كَوْن مُعَدٍّ لاستقباله بكل ما يلزمه من مُقوِّمات الحياة بدايةً من الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم إلى أصغر شيء فى الكون .

وقوله بعدها : ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. ۝٦ ﴾[الزمر] يعنى : أن هذا الخَلْق العجيب لله وحده ولم يَدَّعه أحد لنفسه ، وما دام أن أحداً لم يدَّع الخَلْقَ لنفسه فليس لأحد أنْ يدَّعى أنه واضع المنهج الذى يعيش به الإنسانُ فى الكون ؛ لأن الذى خلق هو الذى يضع المنهج ، والذى صنع هو الذى يضع قانون الصيانة لصنعته .

﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ ﴾ [الزمر] أى : كيف تنصرفون عن عبادة الله الخالق إلى عبادة غيره ممن ليس لهم من الخَلْق شىء ؟ كيف تنصرفون عن ربٍّ خلق وربَّى ولا يزال فلم يتركنا ولم يسلم خَلْقه لأحد غيره ، وليس عنده استعداد لأنْ يسلمه أبداً .

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ ﴾

بعد أنْ حَنَّنَ الحق سبحانه الخَلْق بذكر الربوبية التى خلقت وربتْ ، وأمرتْ ، وبذكر الألوهية التى ضمنتْ صلاح البلاد والعباد ، بيَّن سبحانه أنه الغنى عن خَلْقه ، فقال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۝٧﴾ [الزمر] يعنى : غنى عن إيمانكم ولا تنفعه طاعاتكم .

فهو سبحانه جعل التكاليف لصلاح حالكم لا لمنفعة تعود عليه سبحانه ، فأنتم خَلْقه وصَنْعته ، والصانع يريد أنْ يرى صنعته على أحسن حال ، يرى العبد المؤمن فى المجتمع المؤمن الذى تتساند حركته لا تتعاند ، وتتفق توجهاته لا تتضارب ، الخالق سبحانه لا يحب أنْ يرى خَلْقه يتصارعون ، واحد يبنى والآخر يهدم .

إذن : هذا هو الهدف من الخَلْق ومن المنهج ؛ لأن الله تعالى بصفات الكمال فيه خلق الخَلْق ، ولم يُزِدْه الخَلْق صفة واحدة لم تكُن له من قبل ، إذن : لا حاجة له إليكم . إنما أنتم صنعته ويريد لكم الخير ؛ لذلك لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبيْنَ أنْ يحملْنها وأشفقْنَ منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جَهُولاً .

وإباء السماوات والأرض والجبال ليس امتناعاً على الله ، ولا اعتراضاً إنما تسليم ؛ لأن الله خيَّرهم فاختاروا أنْ يكونوا مُسيَّرين .

لكن الإنسان قَبلها فحكم الله عليه بأنه كان ظلوماً وجهولاً ، لكن كيف يُوصَف مَن قَبِلَ كلام الله بأنه ظلوم وجهول ؟

قالوا : لأنه ظلم نفسه وجهل ما يكون منه ، لأنه مخلوق مختار له أنْ يؤمن ، وله أنْ يكفر ، وله أنْ يطيعَ وأنْ يعصى ، ولما عُرِضَتْ عليه الأمانة قبلها ؛ لأن الله هو الذى خيَّره . ووثق بنفسه وقدرته على الأداء ، لكنه جهل ما يطرأ عليه وما يَجدّ من أحداث وأهواء ، فظلم نفسه عند التحمُّل وجهل بوقت الأداء ، وأسرع فى وقت الرضا

والقبول ، وكان ينبغي عليه أنْ يحسب حسابَ الإنجاز والأداء .

وفَرْق بين التحمُّل والأداء في مسألة الأمانة ، لأن الأمانة موكولة إلى ذمة المؤتمن ، ولو كتب بها (إيصالاً) أو كان عليها شهود ما سُمِّيتْ أمانة ، والإنسان عادة يُقبل على تحمُّل الأمانة وفي نيته أداؤها ، كما لو أنك أعطيتَ صديقاً لك مبلغاً من المال يحفظه لك ، لحين عودتك من السفر مثلاً ، فتراه يرحب ويقبل لكن تعنّ له ظروف ، وتمتد يده إلى هذا المال ، وربما جئت فلم تجده ، وعندها إما ينكر أو يماطل .

إذن : ظلم نفسه ، وجهل وقت الأداء ، وجهل أنه ابنُ أغيار ، ونفسه متغيرة ، أما السموات والأرض والجبال لما خُيِّرتْ اختارت أنْ تكونَ مُسيَّرة ، لا دخْلَ لها بهذه المسألة فأخذت الأمر من قصيره .

ومعنى قوله تعالى :﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] واضح في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخل البحر ، ذلك أنِّي جَواد ماجد واجد ، عطائي كلام ، وعَذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون »[1] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] دليل على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

محبته سبحانه لخَلْقه ، فكأنه تعالى يقول : أنا غنى عنكم ، لكن لا أحب أنْ تكونوا كافرين ؛ لأننى أريد أن أباهى بكم ملائكتى الذين قالوا عنكم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وورد أن الحق سبحانه يقول لملائكته : أعلمتم أن عبيدى أطاعونى ؟ فيقولون : أطاعوك لنعمتك عليهم ، فقال : ولو سلبتُ نعمتى لأطاعونى .

لذلك يُمرضهم ويطيعونه ، ويُفقرهم ويطيعونه ، ويهزمهم ويطيعونه ، وينصرهم ويطيعونه . إذن : عبادى يطيعوننى لذاتى ؛ لأنى أستحق أنْ أُحبّ ، وأنْ أُطاع بصرف النظر عن نعمى عليهم .

لذلك يقول الحق سبحانه عتاباً للخَلْق الذين يعبدونه خوفاً من ناره ، أو طمعاً فى جنته : أو لو لم أخلق جنة وناراً أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟

وضربنا مثلاً بالرجل الذى يعمل معه خادم يخدمه مقابل مائة جنيه فى الشهر ، لكن ضاقتْ حالُ هذا الرجل وأصبحتْ لا تتسع لهذا المبلغ ، فقال لخادمه : والله أنا لم أَعُدْ قادراً على دفع هذا المبلغ ، ولا أقدر إلا على خمسين جنيهاً ، فانظر أنت فى أمرك أو ابحث لك عن فرصة عمل أخرى ، فقال الخادم : أنا موافق على الخمسين ، لكن اشتدتْ الحالُ بالرجل مرة أخرى ، حتى أنه لم يَعُدْ قادراً على دَفْع أكثر من عشرين جنيهاً ، فرضى بها خادمه ثم عشرة فرضى بها ، إلى أنْ قال له : والله حالك معى جعلك تستحق أنْ تُخدم ، ولو بلا أجر ، هكذا أَمْر الله معنا .

فالحق سبحانه لا يرضى لعباده الكفر لأنهم خَلْقه وصَنْعته ، وهو سبحانه حريص على ما يُصلحهم ، حريص على أنْ يكونوا مؤمنين لتستقيم أمورهم ، وتمتد نعَمه عليهم من الدنيا إلى الآخرة ، فكما أنعم عليهم في الدنيا بنعم موقوتة يريد أنْ يُنعم عليهم في الآخرة ونِعَم الآخرة باقية خالدة .

لذلك ورد في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعمَ خيركَ ، ومنع شكرك ، وقالت السماءُ : ياربِّ ائذن لي أنْ أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك إلى أنْ قال الحق سبحانه لهذه المخلوقات التي أظهرت غيرتها على ربها عز وجل : دَعُوني وخَلْقي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] فإن تشكروا يرضى لكم الشكر ، ويعجبه منكم ، ويحبه لكم ، ويجزيكم عليه خيراً ، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم] ، فالشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة ، فنشكر عليها فتعطينا المزيد ، وهكذا يظل الشكر دائماً والنعمة دائمة .

---

(١) أورده الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فاغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

وقوله :﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ⑦ ﴾ [الزمر] أى : لا تحمل نفسٌ مذنبةٌ ذنوبَ نفس أخرى ، يعنى : سأكون عادلاً بألاَّ أحمل أحداً ذنب غيره ، فكلٌ مُعلّقٌ من عرقوبه .

وهذه الآية وقف عندها بعض المستشرقين يقول : إنها تتعارض وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ⑬ ﴾ [العنكبوت] نعم ظاهر الآيتين التعارض ، لكن أنت لم تفهم مَناط الوزر .

فالقاعدة العامة أنه لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، أما هؤلاء فيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين ، لأن الآية هنا تتحدث عن رؤوس الضلال وقادة الكفر الذين ضلوا فى أنفسهم ، وأضلّوا غيرهم ، فالوزر الأول وِزْر ضلالهم فى أنفسهم وأوزار الآخرين الذين أضلوهم وأغووهم وزينوا لهم الضلال . إذن : فالمعنى مختلف .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ⑦ ﴾[الزمر] يعنى : إنْ كنتُ قد بدأتُ خَلْقكم بالإكرام لكم ، وقابلتم هذا الإكرام بالجحود ، ولم تؤدوا حَقّه بالإيمان بى والطاعة لمنهجى ، فاعلموا أنكم سترجعون إلىَّ ولن تفلتوا منى ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑦ ﴾ [الزمر] أى : يخبركم بما كان منكم .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦ ﴾ [الزمر] إذن : تذكروا دائماً هذه المسألة ، واحسبوا حسابها قبل فوات الأوان .

وهذه الآية تحذير من الحق سبحانه ، وبيان للعقوبة من شأنه أنْ يردع الناسَ عن الجرائم ، فلا تقع ولا تحدث العقوبة أصلاً ، وهذا من رحمة الخالق بالخَلْق ، فهو سبحانه يريد لهم الخير ، ويريد لهم أنْ ينعموا بنعمه فى الآخرة ، كما نَعِموا بنعمه فى الدنيا .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ(١) نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا(٢) لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

(الضُّر) هو ما يُخرج الإنسان عن سلامته في نفسه ، أو فيمَنْ يعول أو فيما يملك ، والإنسان حينما يصيبه الضُّر يُفقده ركيزة التعالي ، و (العنطزة) ؛ لأنه لا يسلِّم نفسه بلا ثمن ، ويعرف أنه لا أحدَ يرفع عنه ضُرَّه إلا الله ، فيتوجه إليه وحده ولا يغشُّ نفسه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بحلاق الصحة زمان ، وكان يقوم بدور الطبيب في البلدة ، فلما انتشر التعليم وتخرَّج بعض الأطباء من كلية الطب خاف صاحبنا على (أكل عيشه) ، وخاف أنْ يسحب هؤلاء البساطَ من تحت قدميه ، فراح الحلاق يُهوِّن من شأن الطبيب الجديد الذى عُيِّن في البلدة يقول : إنه لا يعرف شيئاً وو ، يريد أنْ يصرف الناسَ عنه ، لكن لما مرض ولده ماذا فعل ؟ هل غَشَّ نفسه ؟

لا بل (لفَّ) الولد بالليل ، وأخذه إلى الطبيب الذى طالما تكلم في حقه وقلَّل من قدراته أمام الناس ، أما الآن والمريض ولده فإنه

---

(١) خَوَّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

(٢) الند : المثل والنظير . وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٧] .

يعود إلى الحق ولا يخدع نفسه .

كذلك الإنسان إذا مسَّه الضر وعـزَّتْ عليه أسبابه لا يلجأ إلا إلى ربه بعد أنْ انهدَّتْ فيـه حيثية ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] وبعد أنْ سقط عنه قناع التعالي والغطرسة .

وقلنا : إن هذه القضية يستطيع كلٌّ منّا أن يلمسـها في نفسه فأنت مثلاً تعطي ولدك مصـروفه كل يوم عندما يذهب إلى المدرسة ، وفي يوم ما نسيت تعطيه المصروف ، ماذا يفـعل ؟ يتعرَّض هو لك ويحاول أنْ يمر من أمـامك وكأنه يُذكِّرك بما نسيتـه ، فيسـلم عليـك أو يقول : أنا رايح المدرسة يا بابا ، ولو أنك تعطـيه مصـروفه كل شهر ما فعل ذلك طوال التسـعة وعشرين يوماً ، نعم ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالإنسان سـاعةَ يصيبه الضر ، وهو يعلم أن الضـر لا يرفعه إلا الله ، ولا يصـرفه إلا خـالق السـموات والأرض ، فـإنه لا يتوجـه إلا إليه ، لمن تعتقد مواجيده أنه قادر على رَفْع هذا الضر ، حتى لو كان كـافراً بالله ، غـيرَ مؤمن به فـإنه إذا مـسَّه الـضر يقـول : يا رب ، والعجـيب أن الله يقبله ويغيثه ولا يرده ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢) ﴾ [النمل]

ويكفـيك أنك لم تـجـد إلا أنا ولا تقـول إلا يارب . لذلك قـال سـبحـانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ (٦٧) ﴾ [الإسـراء] يعني : إنْ دعـوتَ غـيـر الله لا يسـتطيع الوصـول ، ويضل الطريق إليك ، ولا يجيبك إلا الله .

ومعنى ﴿ مُنِيبًا إِلَيْهِ (٨) ﴾ [الزمر] راجعـاً إليه ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ (٨) ﴾ [الزمر] يعني : أعطاه ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ (٨) ﴾ [الزمر] أثار العلماءُ ضجـة ومعركة حول الاسم المـوصول (ما) هنا

وقالوا : لماذا لم يقل نسى مَنْ لأن مَنْ تدل على العاقل ، أما (مَا) فلغير العاقل ، على معنى أن (مَا) هنا تعود إلى الله تعالى .

ونقول : القرآن يسير على غير هذا ، واقرأ : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ [الكافرون] فـ (مـا) أطلقت على الله تعالى . إذن : (مـا) هنا فى معناها الصحيح ، وإنْ غابت عنكم حكمة ذلك ، نعم مَنْ للعاقل ، وما لغير العاقل ، لكن الحق سبحانه لم يصف نفسه بالعقل ؛ لأن العقل صفتك أنت ، فجاء بالصفة التى لا تمنع عدم وجود العقل ، ولو قال مَنْ لأدخل الحق سبحانه فيمن يعقل ، وهو سبحانه لم يصف نفسه بأنه عاقل ، إنما عالم وعلاَّم .

ويمكن تفادى هذا الإشكال لو وجَّهنا (ما) توجيهاً آخر ، فيكون المعنى : نسى الضر الذى كان سبباً فى رجوعه إلى الله ، لا نسى مَنْ أنقذه ، وكشف عنه ضُرَّه ، وتكون مَا بمعناها اللغوى لغير العاقل .

وقوله :﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ (٨)﴾ [الزمر] أنداد : جمع ند ، وهو الشبيه أو المثيل والنظير ، وهؤلاء الكفار رجعوا لله تعالى أنداداً مع علمهم أنه الإله الحق سبحانه ، ومع علمهم أنه ضلَّ مَنْ تدعون إلا إياه ، ليرضوا فى أنفسهم مواجيد الفطرة الإيمانية ، فالواحد منهم يريد أنْ يكون له إله يعبده ، لكن إله على هواه ، إله ليس له تكاليف ، وليس فى عبادته مشقة على النفس ، إله بلا منهج : لا افعل ، ولا لا تفعل .

وقوله ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ (٨)﴾[الزمر] البعض[1] قرأها بالفتح (ليَضل) ونقول : هو لم يفعل ذلك إلا لأنه ضَالٌّ فى نفسه ، فالأقرب بالضم (ليُضل) أى : يُضل غيره .

---

(١) قرأها بفتح الياء الدورى عن أبى عمرو ، أما رواية حفص عن عاصم فهى بضم الياء .

ثم يقــول سبـحـانه (قُلْ) أى : رُدَّ يا مــحمــد . وقُلْ : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْـرِكَ قَلِيـلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـابِ النَّارِ ⑧ ﴾ [الزمر] لكن مـا وجه الـتمـتُّع بالكفر ؟ قلنا : أن يعبدَ إلهاً بلا منهج وبلا تكاليف ، إلهاً لا يمنعه من شُـرْب الخمـر ولا يقيـد شهـوات نفـسه إلهـاً لا يأمره بالصـدق ولا بالأمانة .. الخ بل يتركه يربع فى الكون يتمتع به كما يشاء .

وقال ﴿قَلِيلاً ⑧ ﴾[الزمر] لأن التمتُّع هنا موقوت بالدنيا ومدة بقائه فيها ، وقلنا : إن الدنيا بالنسبة للإنســان هى مدة بقائه فيها لا مدتها منذ خَلْق آدم إلى قيام الساعة .

وكلمــة ﴿مِنْ أَصْحَـابِ النَّارِ ⑧ ﴾[الزمـر] الصــحـبـة هنا تدل على التعـارف والمودة الحمـيمـة بين النار وأهلها ؛ لذلك يقـول تعالى فى خطاب النار :﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ㉚ ﴾ [ق] يعنى : هاتوا أحبابى وأصحابى ، وإلىَّ بالمزيد منهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ[2] ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ⑨ ﴾

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٠) : « قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقال ابن عمر : نزلت فى عثمان بن عفان . وقال مقاتل : نزلت فى عمار بن ياسر » . وذكر السيوطى فى الدر المنثور (٧/٢١٤) عدة روايات .

(٢) قنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . والقنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

كلمة (أم) تفيد التخيير بين أمرين ، تقول هذا أم هذا ، فلا بُدّ أن يكون لها مقابل ، فما مقابل ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ .. ⑨ ﴾[الزمر] المقابل لذلك في قوله تعالى قبلها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ .. ⑧ ﴾ [الزمر]

فالمعنى أيهما أحسن من صفته إذا مسَّه الضر يضرع إلى الله ، فإذا كشف عنه الضر جعل لله أنداداً ، أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ومعنى : ﴿ قَانِتٌ .. ⑨ ﴾ [الزمر] دائم الخضوع والعبادة (آنَاءَ) جمع (إنْو) مثل حمْل وأحمال ، فكلمة (إنْو) أي : جزء من الليل ، وهي من حيث التصريف أأناو وقُلبتْ الهمزة إلى مَدٍّ والواو إلى همزة لأنها وقعتْ بعد الألف الزائدة ، فصارت (آناء) .

وقوله : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ ⑨ ﴾ [الزمر] يعني : يخاف منها ومن القهر فيها ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ⑨ ﴾ [الزمر] لأن رحمته سبقت غضبه ، لم يقل يأمن مقابل يحذر إنما ذكر أولاً ما يُخوِّف من الآخرة إنْ عصى ، والمراد يحذر النار في الآخرة ، لكن لما تكلّم عن رحمة الله جعلها مباشرة ، فقال ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ⑨ ﴾ [الزمر] ولم يقل : ويرجو الجنة .

والمؤمن حين يرجو لا يرجو عمله وسَعْيه في الدنيا ، إنما يرجو وينتظر رحمة الله ، لأنه لا ينجو بعمله ، لأن أيَّ إنسان مهما كان صالحاً حين تحاسبه حساباً دقيقاً لا بُدَّ أنْ يخرج بذنوب وإدانة .

إذن : فالكفيل فينا جميعاً والذي يسعنا رحمة الله ، كما جاء في الحديث الشريف : « لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت

يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[١] .

فإياك إذن أنْ تغترَّ بعملك ، لأن التكاليف كلها لصالحك أنت ، ولا يعود على الله منها شيء ، فحين يجازيك عليها في الآخرة فهو تفضُّل من الله ونعمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑨﴾[الزمر] بعد أن عقد الحق سبحانه مقارنة بين الإنسان إذا مسَّه ضُر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، ومَنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه .

أراد سبحانه أن يؤكد هذا المعنى ، وأنْ يبين لنا أن أصحاب العلم الحقيقى لا يستوون ، وأصحاب العلم غير الحقيقى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑨﴾[الزمر] فالذى رجع إلى الكفر بعد أنْ كشف الله عنه ضُره لم يعلم العلم الحقيقى ، لأنه لو علمه ما رجع إلى الكفر ولاستقلَّ المطلوب منه فى الدنيا إذا قارنه بما أعدَّ له من جزاء فى الآخرة .

أما الذى هو قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً ، يحذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، فقد علم العلم الحقيقى ، فالقنوت بالليل فيه مسائل كثيرة : أولاً : أنه أبعد عن الرياء والسمعة ، ثانياً : أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه ، فالعين مثلاً فى ظلمة الليل تستريح من المرائى التى تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه ؛ لأن كل مرءَى يأخذ جزءاً

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة . ومعنى تغمده الله برحمته ، أى : أدخله فيها وغمره بها .

من خواطرك ، فهذا راح وهذا جاء وهذا قال وهذا ..

أما الليل فسكونٌ لا انشغال فيه ، فالجوارح كلها خالصةٌ لوجه الله، لا تشغلها المرائى والأصوات . وهذا الجو يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدى الله .

وفى القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها ، لتقوم بين يدَىْ ربك ساجداً أو قائماً ؛ لذلك يقول الشاعر :

خَلَوْتُ إلى رَبِّى فَهِمْتُ بِقُرْبِه   وَصِرْتُ خَفِيفَ النفْسِ كَأَنِّى بِلاَ جِسْمِ
تلَوْتُ كِتابَ الله فيا نعمَ   ما عُوِّضْتُ مِنْ نعمةِ النَّوْمِ
تَمَنَّيتُ ليْلى أنْ يطُولَ لأنتهى   إلى السِّين مِنْ والنَّاسِ موصُولة باسْمِ

هذه صفة أهل القنوت الذين يقضون الليل فى مناجاة ربهم ، وهذا هو حال المرتحل فى كتاب الله الذى لا ينتهى إلى السين من والناس حتى يبدأ فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أوله ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن كله مبنى على الوصْل ، لا على الوقف .

فهل يستوى مَنْ هذا حاله مع مَنْ كفر بالله ؟ هذا علم وعمل ، وذلك لم يعلم أو علم ولم يُوظِّف علمه فيما ينفعه . ثم إن العبد حينما يعلم ويعمل بعلمه يُفيض الله عليه بالمزيد ، فيعطيه علمَ المكاشفة ، وعلمَ الفيض ، رحمةً منه سبحانه وفضلاً ، كما رأينا فى قصة العبد الصالح الذى صاحبه سيدنا موسى - عليه السلام - قال تعالى فى شأنه :

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف] كذلك الرحمة هنا فى ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر] أى : الفيوضات الخاصة التى يفيض الله بها على مَنْ ظل فى مَعيته ، ونحن نشاهد

هذا فى عـالم البـشر ، فـحيـن يكون لك صديق يـلازمك ويسيـر فى معيتك لا بُدَّ أنْ تخصَّه بفضلك وخصوصياتك ، فما بالك بمَنْ ظل فى معـية ربـه ؟ أيعطيك بلا خصـوصيـة ؟ أيُسوِّيك بمَنْ يؤدى الـفرض وحده ؟

لذلك قال سـبحانه فى الحديـث القدسى : « ما تقرب إلىَّ عـبدى بمثل مـا افترضــتُه عليه ، ولا يزال عـبدى يتقـرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحـببتُه كنتُ سمعه الذى يسـمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بـها ، ورجِلَه التى يـمشى بهـا ، ولئن سـألنى لأُعطينه »[1] .

وهكذا يدخل العـبد فــى الربانية التى تقـول للشىء كُنْ فـيكون ، وهذه من الفيوضات لمن كان لله ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، يعبده بلا رياء ولا سمـعة ، ويمنع نفسه النومَ والراحة ؛ لأنه أنِسَ بربه ، واستراح فى قربه .

فقوله تعالى ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⁽٩⁾ ﴾[الزمر] دلّ على أن هناك علمـاً اسمه علم الـمكاشفة ، يُفـيض الله به على مَنْ يشاء مـن عباده الصـالحين ، الـذين استحـقوا هذه المـنزلة ، فالعـبد الصالح صاحب موسى وعبد الله على منهج موسـى ، وليس برسول ، ومع ذلك فـاق الرسول ؛ لأن مـوسى - عليه السـلام - أوصله بربه فتقرَّب إليه ، حتى صـار من أهل المكاشفة واتصل هو بالله مباشرة ، وأطلعه الله على ما لم يُطلِع عليه نبيه موسى عليه السلام .

---

(١) أخرجـه البـخارى فى صـحيـحه (٦٥٠٢) ، وأبى نعـيم فى حلية الأوليـاء (١/ ٤) من حـديث أبى هريـرة رضى الله عنه ، أوله : « إن الله قـال : من آذى لى وليـاً فــقـد آذنتـه بالحرب . » وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة ، أوله : « من أذل لى وليا فقد استحل محاربتى » .

لذلك فى آخر قصته مـع سيدنا موسى قال : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي (٨٢)﴾ [الكهف] إذن : فمـهمة الرسل أنْ يُوصلُوا الخَلْق بالخـالق ، فإذا ما اتصلوا به كان الخط بينهما مباشراً ، وكُلٌّ بحسب قُرْبه من ربه .

وقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩)﴾ [الزمر]

أى : أصحاب العقول المفكرة التى تبحث فى المحسَّات ، وتتأمل فى الآيات ؛ لأن للإنسـان حـواسَّ تدرك ، وعـقـلاً يرجح ويخـتـار ، فيأخـذ هذه بالسمع ، وهذه بالبصر ، وهذه بالأنف ثم يعـرضها على العقل لينظرَ ما فـيها من الخير ومـا فيها من الشر ، فـإنْ كان العقل صحيحاً رجح الخير ، واختار من البدائل أجداها فائدة ، وأهمها نفعاً .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾

التقـوى أنْ تحترز من المـعاصى ، وأنْ تجعل بينك وبين صـفات الجلال من الله وقاية ، فالله جبار قـهار ذو انتقام ، فاجعل بينك وبين هذه الصفات وقاية تحميك .

وقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا (١٠)﴾[الزمر] للعقائد ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ (١٠)﴾ [الزمر] أى : فى التكاليف ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ (١٠)﴾ [الزمر] أى : حسنة فى الآخـرة ، فلم يقل : للذين أحسنوا حـسنةٌ فى هذه الدنيا ؛ لأن الكفـار يتمتـعون فى الدنيـا بحسنات كـثيـرة من المـال والجـاه والعلم .. الخ .

فإنْ فسَّرنا الحسنة على أنها النعيم ، فالنعيم الذى يكون سبباً فى صَرْف الإنسان عن ربه لا يُعَدُّ حسنة إنما سيئة ، إذن : فالحسنة المرادة هنا فى الآخرة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ⁽¹⁰⁾﴾ [الزمر] لكن ما علاقة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ..⁽¹⁰⁾﴾ [الزمر] بقوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ ⁽¹⁰⁾﴾ [الزمر]

قالوا : يعنى : إنْ صادفتَ متاعبَ فى أرضك التى تعيش فيها ، فإنَّ أرضَ الله واسعةٌ ، فالتمس حمايةَ نفسك ودينك فى أرض أخرى ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا[1] كَثِيرًا وَسَعَةً ⁽¹⁰⁰⁾﴾ [النساء]

وقال فى نفس المعنى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا.. ⁽⁹⁷⁾﴾ [النساء]

إذن : حين تضيق بك أرضك ، وحين يضيق عليك الخناق بها ، فالتمس أرضاً أخرى تأمن فيها على نفسك وعلى دينك ، وعلى تطبيق منهج الله دون معاند ، ودون معارض .

ولو تنبهنا إلى آية فى سورة الرحمن لوجدنا فيها حلاً لكل مشاكل الدنيا المعاصرة ، هى قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ⁽¹⁰⁾﴾ [الرحمن]

يعنى : جعل الأرض كل الأرض دون تحديد تحت تصرف كل الأنام دون تحديد أيضاً ، فكلُّ إنسان له فى أرض الله نصيب ، فإذا ضاق به مكان فله حَقٌّ فى مكان آخر . لكن قوانين البشر ومصالحهم غيَّرَتْ هذه الصورة ، ووضعت العقبات والعراقيل والإجراءات المعقدة

---

(1) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شرهم . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

فى طريق هذه الحرية التى كفلها الخالق سبحانه للحركة على أرضه .

لذلك وجدنا أن مشكلة العالم الاقتصادية تكمن فى وجود أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، ولو تركنا الأرض لله كما خلقها الله لعباده ، لو جعلنا الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لقضيْنَا على كل مشاكل الدنيا .

وانظر مثلاً إلى السودان جارتنا من الجنوب ، بها ملايين الأفدنة لا يُسْتفاد منها ، وعندنا فى مصر ملايين من الأيدى العاملة العاطلة ، ولولا الحدود التى قيدنا أنفسنا بها لَحلَّتْ السودانُ مشكلة الغذاء فى العالم العربى كله . بل والأدهى من ذلك والأمرّ أن نختلف على الحدود ، ونتزاحم على شبر واحد ، وتنشب الحروب والأزمات بين الدول بسبب هذه المسألة ، إنها النتيجة الطبيعية لمخالفة أمر الله وسننه فى الخلْق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩ ﴾ [الزمر] الحث على الصبر بعد قوله ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ⑩ ﴾ [الزمر] دلَّ على أنه لا بُدَّ أَنْ تُوجَد فى الحياة صعاب ومشاكل ومتاعب تحتاج إلى صبر ، والشاعر يقول :

لعمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلادٌ بأهلها   وَلَكِنَّ أَخْلاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ[1]

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نتحمل منهج الله ، وأن نقوم به لنسعد أنفسنا ، ثم نتسامى فى الإيمان ، ونحاول أن نسعد غيرنا ليحدث استطراقٌ للخير فى المجتمع ؛ لذلك قال ﷺ : « نَضَّر اللهُ

---

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل ، وعدد أبياتها ٤ أبيات ، وابن الرومى هو على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار بن برد والمتنبى ، ولد ببغداد (٢٢١ هـ) ونشأ بها ومات بها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً .

امرءاً سمع مَقالتى فوَعاهَا ، ثُمَّ أدَّاها إلــى مَنْ لم يَسْمَعْها ، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى مِنْ سَامِعٍ » .

إذن : فنقْلُ الخير إلى الغير فيه خير لك أنت ، وسوف يعود عليك نفعه ، لأنه حين تحجب علْم الخير عن الغير سيكون هذا الغير فى شَرٍّ ، وسوف يتعبك هذا الشر وينالك شىء منه ، فمن مصلحتك أنت أنْ يعمَّ الخيرُ الآخرين ، ومن مصلحتك أنْ يكون غيرك خَيِّراً ، لا يسرق ولا يَسُبّ ولا يخون ، ولا يعتدى على الآخرين ، فنقْل علم الخير إلى الغير مُفيد لناقله ، ليكفّ شرَّ ذى الشر عنه على الأقل .

والصابر هو الذى يصبر على الشدائد والمحن التى تُخرجه عن : سلامة الجوارح ، وسلامة المال ، وسلامة الأهل ، والصابر واثق بأن إيلاَمه وإيذاءه يعطيه خيراً من النعيم الذى فقده قبل الإيلام والإيذاء ، لأن الله قال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠ ﴾ [الزمر]

وإذا كانت التكاليفُ لها حساب عند الله ، فالصلاة لها حساب ، والزكاة لها حساب .. الخ أما الصبر فإن أجره بغير حساب يعنى : غير معلوم ، حتى قالوا أنه فى الجنة حين يرون منازل لم يكُنْ أهلها معروفين بالعمل الصالح ، ومع ذلك منازلهم فى الجنة عالية ، فلما سألوا عن ذلك قالوا : إنهم كانوا من أهل الصبر على البلاء وعلى الشدائد والمحن ، فنالوا هذه المنزلة بصبرهم .

والصبر عدم تشكيك فى رحمة الله ، وعدم اعتراض على حكمه وقضائه ، فمثلاً نرى بعض أهل البلاء يعرضون آفاتهم وبلواهم على المجتمع فى موسم الحج ، فبعض هؤلاء يذهب للحج وهناك يكشف بلواه أمام الناس ، ويظهر عاهته فى رِجْله أو فى يده يستجدى بها الخلق ، وكأنه يشكو الخالق لخَلْقه ، ولو أنه سَتر بلاءه ورضى به

لطرق الرزقُ بابه ، ولَسَاقه الله إليه دون جهد .

لذلك يقـول النبى ﷺ : « إذا بُليتُمْ فـاستـتروا »[١] لأن مَنْ يظهر بَلْواه للخَلْق كأنه يفضح الخالق ، كأنه يقول للناس : انظروا ماذا فعل الله بى .

وفى سير الصـحابة وسلف الأمة رأينا امرأة لا تقـبل من زوجها أن يشكو الفـقر لرســول الله ، وكانا لا يملكان إلا ثوباً واحـداً يلبـسه الرجل ، ويذهب به فى أول الصـلاة خلف رســول الله ثم يسرع بعـد الصلاة وينصرف إلى بيته لتلبسه زوجته وتصلى هى أيضاً فيه .

وقـــد لاحظ ســيــدنا رســـول الله أنه يرى هذا الـرجل فى أول الصلاة ، ولا يراه بعدها ، فتحـيَّن رسولُ الله الفراغَ من الصـلاة ، ثم التفت إليه سريعاً فوجده خـارجاً من المسجد ، فناداه وقال له : أراك أول الصــلاة ثم لا أراك بعـدها أَزُهْداً فينـا ؟ قال : لا يا رســول الله ولكن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه ، فدعا له بالخير .

فلما ذهب قالت امرأته : لقد تأخرتَ قَدْر كذا تسبيحة - هكذا كان حـساب الوقت عند هـؤلاء - فقـال لها : إن رســول الله اسـتوقـفنى وسألنــى عن أمرى ، فلم أجد بُـداً أن أقول له : إن لى امرأة بالـبيت تنتظر ردائى هذا للصــلاة ، فقالـت له : يا هذا أتشكو ربك لمحـمد ؟ هكذا كان صـبر الـصـحـابة ، صبـر لا يعـرف الجـزع ولا الشــكوى ولا الاعتراض على قضـاء الله .

---

(١) أورده العـجلونى فى كشف الخـفاء (حـديث ٢١١) بهذا اللفظ ، وقـد أخرج الحـاكم فى مستدركه (٤/٢٤٤) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قام بـعـد أن رجم الأسـلمى فقـال : « اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها فمن ألمَّ فليسـتتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صـفحتهُ نقم علـيه كتاب الله عـز وجل » وقال : هذا حديث صحـيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لذلك يقول بعض العارفين حين يرى حظ الصابرين فى الآخرة : لو علم الناسُ جزاءَ الصابرين لَتمنَّوْا أنْ يعودوا إلى الدنيا ، وتُقرض أجسادهم لينالوا هذه المنزلة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآية تكرارَ الفعل أمرت ، وهذا يدل على أننا أمام أمرين ، كل منهما مستقل عن الآخر ، فالأمر الأول ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] وهذا أمر ليقين الإيمان وليقين العبادة ، بحيث نتوجه بها خالصة لله .

والخلوص لله على مراحل ، فواحد يعبد الله لانتظار جزائه وطمعاً فى جنته ، وآخر يعبده خوفاً من ناره ، وآخر يعبده لذاته سبحانه ، ولأنه يستحق أنْ يُعبد ، وأنْ يُحبَّ لذاته .

لذلك قال سبحانه فى آخر سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] لا جنة ربه ولا جزاء ربه ، إنما يريد اللقاء ، ويريد الأُنْس بالله ، فلا تشغله النعمة ، إنما تشغله معية المنعم سبحانه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] والجنة أحد .

إذن : الأمر الأول خاصٌّ بالعقائد ، أما الأمر الآخر : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] فهو للتكاليف الإسلامية بافعل ولا تفعل ، لكن كيف يقول رسول الله ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] أليس هو أولهم بالفعل ؟ لأن أول تكليف كان له هو ساعةَ نزل عليه الوحى ، وقبل أنْ يُبلِّغه إلى أصحابه ، إذن : مرت

عليه فترة كـان هو ﷺ أول مَنْ أسلم لله ، أول مَنْ أسلم منهجه لله ، قبل أنْ يبلغ هذا المنهج ، هذا إنْ أردناها حقيقة أولية .

وأيضـاً له أولية فى تنـفيـذ الأحكام أمام النـاس بعد أنْ يبلغـهم المنهج ، حتى يعلموا أن الرسالة لم تكُنْ لتـدليل الرسل ، إنمـا كانـت لإقامة الأُسْـوة فيهم ، فإذا عمل الرسلُ أنفـسهم على منهج الله علّموا الناس جـميـعاً أن هذا المـنهج خيـر ، بدليل أنهم ألزمـوا أنفسـهم به تطبيـقاً قبل أنْ يلزمـوا النـاس ، كالذى قال : لم آمـركم أمراً أنا عنه بنَجْوة .

شىء آخـر : أن الله تعالى سلب الرســول ، وسلب أهل بيـته مـا أعطاه لعامة الـمسلمين ، فالميت يرثه أهـله ، ورسول الله لا يرثه أحد من أهله ، ولعـامـة فـقراء الـمسلـمين أن يأخـذوا من أمـوال الزكـاة والصدقة ، أما آل البيت فقد حرم عليهم الأخذ منها .

إذن : تحـمَّل رسولُ الله المـشاق فى سـبيل الرســالة ، ولم تكُنْ بالنسبـة له رفاهية ولا تدليلاً ، كـذلك تحمَّل معه أهل بيـته ، ونالهم جزء من هذه المشـاق ، ولولا أن إشراق الجزاء فى نفوســهم يعطيهم الأمل والثقة فـى الجنة ، هذه الثقة التى جعلتـهم وكأنهم ينظرون إلى أهل الجنة فى الجنة ينعَّـمون وإلى أهل النار فى النار يـعذبون ، لولا هذا ما صبروا على هذه المتاعب والمشاق .

لذلك يقول سبحانه حينما يخاطب نساء النبى :﴿يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴿٣٢﴾﴾ [الاحزاب] فلأنكُنَّ نساء النبى فلا بُدَّ أنْ تكُنَّ أول مَنْ ينفذ منهج الرسول لتتحـقق بكُنَّ القدوة ، وليعلم الناس أن الرسول ما جاء جباراً يأمرهم بما لا يأتمر به ، أو ينهاهم عما لا ينتهى عنه ،

بل هو فى التنفيذ سابقهم وإمامهم وقدوتهم هو وأهل بيته ، إذن : كان ﷺ أول المسلمين بالفعل .

وللعلماء كلام طويل فى مسألة أوَّل المسلمين ؛ لأنها وردتْ أيضاً على لسان سيدنا موسى عليه السلام ، قال ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام] أى : مسلمي زمانه ، أما رسول الله فأول المسلمين فى زمنه وفى زمن غيره ، نقول لتقريب هذه المسألة : إن الأولية هنا أولية تفوق ، والتفوق قد يكون تفوقاً إضافياً كما نقول : فلان الأول على كلية الحقوق هذا العام ، فالتفوق هنا خاص بالعام الذى نتحدث عنه ، وربما جاء فى أعوام أخرى مَنْ تفوق عليه ، وحصل على درجات أعلى منه ، وقد يكون التفوق عاماً كما لو قلنا : فلان الأول على كلية الحقوق منذ أنشئت .

إذن : قد تكون الأولية فى الزمن ، وقد تكون الأولية فى مقارنة الأزمان بعضها ببعض ، فإذا قال رسول من الرسل : أنا أول المسلمين ، فالمراد أول المسلمين فى زمانه ، وإذا قيل لمحمد ﷺ : أنا أول المسلمين فالمراد أول المسلمين من لدن آدم إلى قيام الساعة ، يعنى : أنا وإنْ تأخر زمنى إلا أننى الأول إذا أخذنا الرتبة ساعة التكليف ، ثم إن غيرى من الرسل بُعِثَ إلى زمن بعينه فى مكان بعينه ، وأنا بُعِثْتُ للناسِ كافة فى كل زمان ومكان ، ثم إننى خاتم الرسل ، فلا رسالة بعدى ولا معقبَ من الرسل على رسالتى ، هذه كلها حيثيات الأولية عند رسول الله ، وهى حيثيات ظاهرة لا تُنكَر .

لذلك نجد الأولية دائماً على لسان رسول الله كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : أول مَنْ يُصدِّق هذه المسألة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾

سبحان الله ، أيقول رسول الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزمر] فكأنه ﷺ يقول : أنا لم آخذ هذه المنزلة حكماً مطلقاً أنني نبي مُكرَّم ، بل أنا كعامة الناس إنْ عصيتُ ربي تعرضتُ للعقاب ، يعني تقديم الله لي أولاً واصطفاؤه لي لا يشفع لي إنْ حدثتْ مني معصية .

ثم يقول سبحانه على لسان رسوله ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾[الزمر] وهذه أيضاً للعقائد وليقين الإيمان ، وقد سبق قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر] وهنا ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر] فما الفرق بين (الله أعبد) و (أعبد الله) ؟

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴿١١﴾ ﴾[الزمر] جاء على الترتيب الطبيعي

للجملة : الفعل ، ثم الفاعل ، ثم المفعول . والجملة بهذا الترتيب لا تمنع من العطف على المفعول كما تقول : أطع فلاناً ، فإنها لا تمنع أن نقول وفلاناً ، أما إنْ قدَّمنا المفعول به على الفعل ، كما في قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر] فإنَّ تقديم المفعول أفاد القصر يعني : قصر العبادة على الله وحده ، كما لو قلت : إلى الله أشكو يعني : لا إلى غيره .

فالآية الأولى جاءتْ بالترتيب الطبيعي للجملة ، والأخرى جاءت بصيغة القصر ، كأنه قال : أنا لا أعبد غير الله ، وأنتم اعبدوا ما شئتم ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر]

ثم يُبيِّن سبحانه عاقبة الشرك فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر]

نفهم أن هؤلاء امشركين خسروا أنفسهم يوم القيامة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وبالشرك ، لكن كيف يخسرون أهليهم أيضاً ؟ قالوا : لأن أهليهم هم أولادهم وذريتهم ؛ وهؤلاء إما أنْ يؤمنوا ، وإما أنْ يظلوا على كفرهم مع الآباء ، فإنْ ظلُّوا على كفرهم فهم خاسرون كآبائهم ، وإنْ آمنوا فلن يكونوا مع الآباء ، وسيحرمون رؤيتهم ، لأن هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار . إذن : الخسارة ملازمة لهم في كلتا الحالتين .

وكلمة الخسارة هنا أكَّدها الحق سبحانه بالمفعول المطلق ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر] ثم وصف الخسران بأنه مبين أي :

بيِّن واضح ومحيط ؛ لأن التاجر متى يكون خاسراً ؟ إما أنْ يعود إليه رأس ماله دون زيادة ، وفى هذه الحالة يكون قد خسر جهده وتعبه فى تجارته ، وإما أنْ تتعدى الخسارة إلى رأس المال فيخسر تعبه وجهده ، ويخسر جزءاً من رأس المال ، وهذا هو الخسران المبين ، أى : المحيط بكل شىء فقوله تعالى : ﴿أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑮﴾ [الزمر] يعنى المحيط الذى أحاط بأهله وماله وتعبه وسَعْيه .

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ⑯﴾

يبين سبحانه عاقبة الكافرين ، فيقول :﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ⑯﴾ [الزمر] كلمة ظلل جمع ظلة ، وهى ما يُظِلُّ الإنسان ، ويقيه حرارة الشمس ، ففى الظل يلتمس الإنسانُ الراحةَ وطراوةَ الهواء ، أما هؤلاء فعليهم ظُلَل لا ظلة واحدة من النار ، والنار لا تكون أبداً ظلة .

إذن : هذا أسلوب تهكم بالكافرين ، وليت هذه الظلل من جهة واحدة ، إنما من فوقهم ، ومن تحتهم ، والإنسان عادة حينما يأتيه الشر من جهة ينأى إلى الجهة المقابلة ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ[1] ㊶﴾ [الأعراف]

(١) قال السيوطى فى الدر المنثور (٣/٤٥٧) : « أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قولهم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ .. ㊶﴾ [الأعراف] قال : الفرش . ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ .. ㊶﴾ [الأعراف] . قال : اللحف . وأخرج هناد وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى مثله » .

إذن : فالنار محيطة بهم لا مهربَ منها ، ولا مفرَّ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر] تأمل رحمة الله بعباده ، حتى في مقام ذكر النار والعذاب ، فالنار ليس المراد بها تعذيب الخَلْق ، إنما تخويفهم وزَجْرهم حتى لا يقفوا هذا الموقف ، ولا يتعرضوا لهذا العذاب ، وأنت لا تصنع ذلك إلا مع مَنْ تحب ، كما تُخوِّف ولدك من الرسوب ، وتبين له عاقبة الإهمال ، وما سيتعرض له من الذلة والإهانة والاحتقار ، إنْ هو فشل في دراسته .

إذن : حظه تعالى من ذكر النار أنْ يُخوِّف بها ، حتى لا يقع الخَلْق في الأسباب المؤدية إليها ، والعاقل ساعة تخوفه يخاف ، وساعة تزجره ينزجر ويرتدع ، ويُعد هذا التخويف نعمةً من أعظم نعم الله عليه .

وهذه المسألة واضحة في سورة الرحمن ، فالذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله يقولون : من المناسب للمعنى أنْ تختم الآيات التي تذكر النعم بقوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن]

كما في قوله سبحانه ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ [الرحمن] لكن ، ما النعمة التي لا ينبغي أن نكذب بها في قوله : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن]

قالوا : هذا العذاب ليس هو الواقع إنما يذكره ليرهب به يعني : إنْ حدث منكما كذا وكذا يُرْسَل عليكما شُوَاظ من نار ونحاس

فـلا تنتـصران ، وكـونه يرهب ويخوف بالعـذاب قبل أنْ يأتى حـينه فإنه يحـدث عندى مانع ووقـاية فلا أقتـرف أسبـاب هذا العذاب ، بل ألزم جانب الخوف من الله والتقوى .

لذلك قال بـعدها : ﴿ يَـٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمـر] أى : اجعلوا تخـويفى لكم رحـمة بكم لا إرهاباً لكم ، والإنـسان حـين يوازن بين المســائل ويقـارن بين حـال أهل الجنة وحـال أهـل النار لا بُدَّ أنْ يرعـوى ، وأنْ يـرجع إلى الجـادة ، وعنـدها يكون أهلاً لرحـمـة الله ومغفرته . إذن : من نعم الله علينا أنْ يُخوِّفنا ، وأنْ يُحذِّرنا الشر قبل وقوعه ، وألاَّ يأخذنا على غِرَّة ، أو يتركنا فى غفلة .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ(١) أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾

كلمة الطاغـوت مبالغة من طاغٍ ، والـطاغوت هو الظالم الذى يزيده احترام الناس لظلمه ، أو خوفـهم منه يزيده ظلماً وغطرسة ، والطاغوت

(١) الطاغوت : كـبراء الظُّلمة من شـياطين الإنس أو الأصنام ، وهو كل ما عُـبد من دون الله . وهو من الطغيان أى : تجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

لا بدّ أنْ يكون له توجيه وتعالٍ ، لذلك لا يقال للأصنام طواغيت ، لأنها لا تعلو بذاتها ، وليس لها توجيهات ، إنما يعلو بها عُبَّادها ، إذن : الطاغوت لا يكون إلا من البشر ، ولو كانوا حاكمين فقط ، وإلا فما وَجْه الطغيان في الأصنام ؟ الأصنام لا قالت ولا ظلمت .

وفي المثل الريفي يقولون : (يافرعون إيه فرعنك ؟ قال : ملقيتش حد يردني) إذن : لو وقف الناس في وجهه ، ولو ردوا ألوهيته عندما ألَّه نفسه لارتدع عن هذا .

ورحم الله أحمد الزين[1] ، ففي عهد الملك أرادوا وحدة وطنية تجمع كل الأحزاب تجتمع بالملك ليفكروا في حَلِّ مشاكل البلد ، ودَعَوا لذلك مصطفى النحاس[2]، لكنه لم يذهب ، فلما سأله أتباعه : لماذا لم تذهب لهذا الاجتماع ؟ قال : لأني سأكون فيه أقلية . يعني : لكثرة الموجودين ، فأخذ أحمد الزين هذا الموقف ، وقال فيه قصيدة أراد أنْ يغمز فيها الملك ، فقال[3]:

---

(١) أحمد الزين : شاعر مصري ، كفيف البصر ، كان يقال له « الراوية » لكثرة ما يحفظ ، ولد عام ١٩٠٠ م . تعلم في الأزهر واشتغل محامياً شرعياً ، ثم عمل موظفاً بدار الكتب نحو عشرين سنة . له « القطوف الدانية » شعراً ، و « قلائد الحكمة » رجزاً . توفي عام ١٩٤٧ م عن ٤٧ عاماً . (الأعلام ١/١٢٩) له ٨٤ قصيدة عدد أبياتها ٢٢٩٢ بيتاً .

(٢) مصطفى النحاس ، زعيم مصري ، ولد في سمنود عام ١٨٧٩ م ، وتعلم بها وبالقاهرة ، تخرج بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٠ م ، عمل بالمحاماة إلى أن عين قاضياً وانتسب إلى وفد سعد زغلول وكان من طلائع شباب الاستقلال ، واعتقل مع سعد ، تولى رئاسة الوزارة خمس مرات ، لزم بيته مكرماً بعد ثورة ١٩٥٢ حتى توفي عام ١٩٦٥ م عن ٨٦ عاماً (الأعلام للزركلي المجلد ٧) .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة لأحمد الزين من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٥١ بيتاً أولها :

كلهم في الهوى يزين دينه ألف مُفْتٍ ومالك بالمدينة

أمَّا البيتان الأخران فهما البيتان ٤٤ ، ٤٥ من القصيدة حسب الموسوعة الشعرية .

كُلُّهم بالهَوَى يُمجِّدُ دِينَهُ   أَلْف مُفْتٍ ومَالكٌ بالمدينَه
كَمْ رئيس لَوْلاَ القَوَانينُ   تَحْمِى جَهْلَهُ كانَ طَرده قَانُونهْ
ذُو جُنُونٍ وَزَادَ فِيهِ جُنُوناً   أنْ يَرىَ عَاقِلاً يُطِيعُ جُنُونَهُ

فالطاغوت ما صار طاغوتاً إلا لأن الناسَ خافوه ولم يَرُدُّوا طغيانه ، ولم يجابهوه ، بل وافقوه وداهنوه ، فاستشرى به الطغيان .

البعض يرى أن الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، لكن ينبغى أنْ نضيفَ إلى ذلك : وهو رَاضٍ بهذه العبادة ، وبناءً على هذا التعريف لا تُعَدُّ الأصنامُ طواغيتَ ، ولا يُعَدُّ عيسى - عليه السلام - طاغوتاً ، ولا يُعَدُّ أولياءُ الله طواغيتَ كما يدَّعى البعض ؛ لأن الناس فُتنَوا فيهم ، ولا ذنب لهم فى ذلك .

وقوله :﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الزمر] أى : رجعوا إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ (١٧) ﴾ [الزمر] أى : بالجنة لأنهم وقفوا فى وجه الطغيان ، وردُّوا الظلم ولم يقبلوه ، والله تعالى يريد من المجتمع المسلم أنْ يقف فى وجه كل طاغية ، وأن يُعدِّل سلوك كل منحرف ، وأنْ يقاطع أهل الفساد ويعزلهم عن المجتمع وحركة الحياة فيه .

ومثَّلنا لذلك بالفتوة الذى يحمل السلاح ويهدد الناس فى نفوسهم وفى أرزاقهم وأعراضهم ، بل ومنهم مَنْ يتحدى القانون والسلطة والنظام ، إنه ما وصل إلى هذه الدرجة إلا لأن المجتمع تخلى عن دوره فى الإصلاح والتصدى لأهل الشر .

قبل أن أبدأ لقائي في هذه الحلقة أذكر أنه وصلني كتاب اليوم من أحد الإخوان يطلب مني أولاً أن أذكر له القصيدة التي قيلت في قنوت الليل ، وأنا لا أقول مَنْ قالها ، وإنما أحيله إلى رجل حجة في هذا الباب ، هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة عميد كلية اللغة العربية سابقاً ، وحجة رابطة الأدب في مصر .

وسأل أيضاً عن اختلاف العلماء في تحديد الليل والنهار اختلافاً ينفي بعض الليل من النهار ، وينفي بعض النهار من الليل ، وأقول وبالله التوفيق : إن اختلاف الناس في الليل والنهار اختلاف بين الشرعيين والفلكيين ، فالشرعيون يروْنَ أن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، والفلكيون يقولون : إن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى شروق الشمس .

إذن : فهناك فترة مختلف عليها ، وهي من الفجر إلى الشروق ، فالذين نظروا إلى أنها ليستْ من الليل هم الشرعيون ، وذلك لأن المراد في احتياط الصوم ألاَّ يجور الإنسان على شيء من الليل ، يدخل فيه شيئاً من النهار فاحتاطوا لذلك .

ووجه الاحتياط أن الشرعي نظر إلى النور الذي يبدو عند طلوع الفجر ، ولم ينظر إلى سبب النور وهو الشمس ، فنحن نرى نوراً قبل أن تطلع الشمس .

أما الفلكي فينظر إلى وجود النور ، هذا النور يكون من علامة الليل . الشرعي قال : لا ففرْقٌ بين النور يظهر وبين المنوِّر ، لأن نور الفجر إلى الشروق نور لا نرى فيه الشمس ، وهو مرتبط بغروب الشمس وشروقها ، والليل يقال فيه : ليل ألْيَل أو ليلة لَيْلاء يعني شديدة الظلمة وهي حينما يكون القمر في المحاق ، أو يقال

ليـلة ليلاء . يعني : فيها تعب ومشقة .

وقد جعل المحبُّون من الليل مراحـاً ومَغْدى لشعرهم ، فإن كانوا مع الأحبة تمنَّـوْا أَنْ يطول الليل ، وإنْ فارقوا الأحبة تـمنَّوْا أن يقصرَ الليلُ .

ومن ذلك قول الشاعر[1]

طَـالَ لَيْلِـي ولَـمْ أَنَـمْ   وَنَفَى عَنِّي الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ[2]

وقال آخر لما اجتمع شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْـلُ طُلْ يَا نَـوْم زُلْ   يَا صُبْح قفْ لاَ تَطلُعْ

والآخر جمع الحالين معاً ، أظنه البحترى[3] حين قال :

وَدَّعَ الصَّـبْرَ مُحِـبٌّ ودَّعَـكَ   ذائعٌ مِنْ سرِّه مَا استَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ علىَ أنْ لَمْ يكُنْ   زَادَ فِي تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

يَا أخَـا البَـدْر سَـناءً وَسَـنا   حفـظ اللهُ زَمَـاناً أطلـعَكْ

---

(١) الشاعر هو بشـار بن برد العقيلي أبو معاذ ، أشـعر المولدين على الإطلاق ، ولد ٩٥ هـ ، أصله من طخارسـتان غربى نهر جيحون ، كان ضـريراً ، نشأ فى البصرة وقـدم بغداد ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فـمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ عن ٧٢ عاماً .

(٢) البيت من قصيدة له عدد أبياتها ٧ أبيات من بحر الرمل ، وهو فى الموسوعة الشعرية :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

والكرى هو النوم .

(٣) بل هو : ابن زيدون أحـمـد بن عبـد الله الأندلسي أبو الوليـد ، ولد ٣٩٤ هـ وزير كـاتب وشاعر من أهل قـرطبة ، وهناك من يلقبه بحـترى المغرب انقطع إلى ابن جـهور من ملوك الطوائف بالأندلس ، وله رسائل في استعطافه . له قصة مع ولادة بنت المستكفى . توفى ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً .

إنْ يطُـلْ بَعـدَكَ لَيْـلِي فلَكَمْ   بِتّ أشْكُو قِصرَ الليْـلِ معَـكْ[1]

والليل يقابله النهار ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

فجعل الليل مقابل النهار ، وتحلظ هنا دقَّة الأداء القرآنى ، لأن المتكلم رب والأداء أداء إلهى ، فلما تكلم عن الليل ذيَّل الكلام بقوله : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] ولما تكلم عن النهار ذيَّل الكلام بقول : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] ذلك لأن السمع وسيلة الإدراك بالليل حيث لا رؤية ، أما فى النهار فالبصر .

وقد اضطر العلماء إلى البحث فى علاقة اليوم بالليل والنهار ، فقالوا : الحق يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

فجعل سبحانه اليوم مقابل النهار ، لكن يوم الفلكيين غير هذا ، فاليوم عندهم لا يُحسب إلا من وقت إلى مثله فى القادم ، يعنى : إنْ بدأت من العصر فاليوم إلى العصر القادم . ويقولون فى التوقيت : صباحاً ومساءً ، فلو استيقظتُ مثلاً للسحور الساعة الثانية بعد منتصف الليل أقول : تسحرت الساعة الثانية صباحاً ، مع أننى ما زلتُ فى الليل ، وبالعكس أقول فى النهار : الساعة الخامسة مساءً ، مع أننى ما زلتُ فى النهار ، هذا كله من اختلاف الفلكيين والشرعيين .

---

(١) قصيدة لابن زيدون من ٤ أبيات من بحر الرمل . (الموسوعة الشعرية) .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد هو : دوام الزمان واتصاله من ليل أو نهار [تاج العروس للزبيدى] .

ولكن اليوم اختُلف في مدلوله في كثير من المواضع ، فالحق سبحانه يقول في كتابه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ③ ﴾ [المائدة] فأطلق اليوم على أىّ لحظة من لحظاته .

وقال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ⑤ ﴾ [إبراهيم] والمراد بأيام الله الأيام التى تُنسب إليها الأحداث ، سواء أكانت نعمة أو نقمة ، نقول مثلاً يوم بدر ، وكان يوم بدر نعمة للمؤمنين ونقمةً على الكافرين . وإلى هنا انتهت الإجابة على سؤال الأخ السائل ، ونعود إلى ما كنا بصدد الحديث عنه من قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. ⑰ ﴾ [الزمر]

قلنا : الطاغوت هو الذى يطغى ، ويبارك الناسُ طغيانه ، ولا يصدونه عنه ، والطاغوت جاءت هنا مُؤنَّثة بدليل ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا .. ⑰ ﴾ [الزمر] ، وفى موضع آخر جاء بصيغة المذكر فى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. ⑥⓪ ﴾ [النساء]

وكلمة الطاغوت من الكلمات التى تُطلق على : المفرد والمثنى والجمع مُذكَّراً ومُؤنَّثاً ، فنقول : هذا رجل طاغوت ، وهذه امرأة طاغوت ، وهذان طاغوت ، وهؤلاء طاغوت . وهى هنا للجمع ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا .. ⑰ ﴾ [الزمر] وهى مثل كلمة سبيل ، نقول : هذه سبيل ، وهذا سبيل .

والطاغوت – كما قلنا – لابدَّ أن تكون له توجيهات ، لذلك لا يُطلق إلا على الطاغى من البشر أو من الجن ، أما الملائكة فلم ترْضَ أنْ تُعبد من دون الله ، كذلك يُسمَّى الظالمُ طاغوتاً .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الزمر] أى : رجعوا إليه ، نفهم منها أنهم كانوا مع الله أولاً ثم انحرفوا عنه ، كيف ؟ قالوا : لأن كلَّ إنسان كان مع الله على فطرة الإيمان الأولى عندما أخذ اللهُ الميثاقَ على الخلقْ جميعاً فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] لكن منهم مَنْ ظلَّ على هذا العهد وعلى هذه الفطرة السليمة ، ومنهم مَنْ انحرف عنها ونسيها .

لذلك كثيراً ما يقول القرآن (وذكر) أى : بالعهد الأول ، فمعنى ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ (١٧) ﴾ [الزمر] يعنى : رجعوا إلى الإيمان الفطرى وإلى العهد الأول ، أو رجعوا إلى الله للجزاء يوم القيامة .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ (١٧) ﴾ [الزمر] البشرى الخبر السَّار الذى نخبر به قبل أوانه ، والبُشْرى تنقسم إلى قسمين : إزالة عطب وألم ، أو تحقيق مراد وأمل ، فالذين اجتنبوا الطاغوت فلم يعبدوها وأنابوا إلى الله تحقَّق لهم الأمران معاً ، لأنهم أولاً برئوا من النار وآلامها ، ثم تحقَّق مرادهم بدخول الجنة كما قال سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

لذلك قال بعدها : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ﴾ [الزمر] أى بهذه البشرى السارة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (١٨) ﴾ [الزمر] القول لابدَّ أنْ يكون من قائل ، فإذا استمعوا القول من قائل يتبعون أحسن ما قيل ، وأن ما قيل يكون من أحسن قائل ، وإذا نظرنا إلى أحسن قائل لا نجد إلا الحق سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بحكم فاتبعوه فقوله أحسن القول ، وأمره أنفع أمر .

والحق سبحانه لا يستفيد من أوامره لكم ، ولا تضره معصيتكم ، فأنتم إذن المنتفعون بالمنهج ، المستفيدون من تنفيذه ،

ثم أنتم خَلْق الله وصَنْعته ، ويعز عليه سبحانه أن تنحرف هذه الصنعة أو تعذَّب .

ثم يريد سبحانه من منهجه وشرعه أنْ يُديمَ عليكم عطاءه ونعمه ، وأن تكون نعمة الدنيا موصولة لكم بنعمة الآخرة ، لذلك قال عنهم في الحديث القدسي : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[1] .

أو : أحسن ما قيل يعنى الإسلام ، فالإسلام جاء والناس أصناف شتَّى : كفرة لا يؤمنون بإله ، ومشركون يؤمنون بإله معه غيره ، وأتباع ديانات كان لها كتب ورسل سابقون كاليهود والنصارى . فهؤلاء الذين عاصروا الإسلام إنْ يستمعوا يستمعوا لقول هذا وقول ذاك ، يستمعوا للكفار وللملاحدة وللمشركين ولأصحاب الكتب السابقة .

فكأن الحق سبحانه يقول : اعرضوا هذه الأقوال على عقولكم ، واختاروا أحسنها ولا تتعصبوا لقول دون أنْ تبحثوه وتقارنوه بغيره ، فإنْ فعلتم ذلك وإنْ توفرت لكم هذه الموضوعية فلن تجدوا إلا الإسلام أحسن الأقوال والأَوْلَى بالاتباع ، فهو الدين الذى جمع للناس كلَّ خير ، ونأى بهم عن كل شر .

وهو الدين الذى جاء مهيمناً على جميع الأديان قبله ، وكتابه المهيمن على كل الكتب قبله ، وجاء الإسلام ديناً عاماً فى الزمان وفى المكان ؛ لذلك هو الدين الخاتم الذى لا دينَ بعده ، ولا كتابَ

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فاغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

بعد كتابه ، ولا رسول بعد رسوله .

ودينٌ هذه صفاته لابدَّ أن يكون قد استوفى كلَّ شروط الكمال ، كما قال سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة] فالإسلام إذن أحسن الأديان ، وأحسن الأقوال ، وأحسن ما نتبعه .

ثم تستمر الآيات فى وَصْف المؤمنين الذين اجتنبوا الطاغوت أنْ يعبدوها ، والذين أنابوا إلى الله والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ (١٨) ﴾ [الزمر] هداهم يعنى دلَّهم وأرشدهم ، فلما اتبعوا دلالته وإرشاده ولم يكُنْ فى نفوسهم عناد لهذه الدلالة أعطاهم هدايةَ التوفيق والإيمان فآمنوا .

وقلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، وهداية المعونة . وبيَّنا ذلك كما سبق برجل المرور الذى تجده على مفترق الطرق يدلّ الناس ويُرشدهم ، فإن دلَّك على الطريق فأطعْتَه وشكرته على معروفه زادك ، وسار معك حتى لا تؤذيك عقبَات الطريق ؛ لأنه وجدك أهلاً لأنْ تُعان فأعانك .

كذلك الحق سبحانه يعطى عبده هداية الدلالة والإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ، فمَنْ أطاع فى الأولى أخذ الثانية ، وهى هداية المعونة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، فكأن الله تعالى يقول لعبده المؤمن : أنت آمنت بى ، وسمعتَ كلامى ، وأطعتَ فسوف أعينك على الطاعة ، وأخفف أمرها عليك ، وأُعسِّر عليك أمر المعصية .

وهذه من أعظم نعَم الله على العبد أنْ يُيسِّر له أمر الطاعة ، ويُعينه على مشقاتهَا ، وفى المقابل يقفل دونه أبواب المعصية

ودواعيها . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰﴾ [محمد]

فمعنى (زادهم هدى) يعنى : أعطاهم هداية المعونة على الإيمان .

وقوله : ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ⑱﴾ [الزمر] أى : أصحاب العقول المفكرة المعتبرة ، لأنهم نشروا أمامهم كل الأقوال ، وبحثوها وقارنوا بينها ، وأخذوا أحسنها الذى يحقق لهم السعادة والمصلحة والانسجام فى حركة الحياة بلا تعاند ، بل حركة مستقيمة متساندة تنفى من القلوب : الحقد والغل والحسد ، وتمنع الانحراف من : سرقة وغش ورشوة واغتصاب .. الخ

فمَنْ يصادم مثل هذا المنهج ؟ ومَنْ يرفضه ؟ إنه منهج مستقيم لا يملك العقل السليم إلا الإذعان له والسير على هَدْيه ، لذلك سمَّى الله هؤلاء الذين اختاروا هذا المنهج سماهم ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ ⑱﴾ [الزمر] أى أصحاب العقول ، والعقل مهمته أن يعقل الفكر فلا يشطح ، بل يعرض المسائل ويختار من البدائل ما يصلحه ، لكن آفة الرأى الهوى ، فالهوى هو الذى يصرفك عن مقول العقل إلى مقول الهوى .

قول آخر يقول : المراد بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ⑱﴾ [الزمر] أنه خاصٌ بمَنْ يستمعون أقوال الإسلام ، فيتبعون أحسن هذه الأقوال ؛ لذلك جاء بصيغة التفضيل (أحسن) فكأن فى الإسلام (قول حسن) و (أحسن) ، فهذا الرأى لا يأخذ المسألة على العموم ، إنما يجعلها خاصة بأقوال الإسلام ، وهى كلها مُتصفة بالحُسْن ، لكن منها حسن وأحسن ،

وأصحاب العقول المتأملة يختارون منها الأحسن .

ومثال ذلك : شرع الإسلامُ مثلاً القصاصَ من القاتل وشرع الدية عليه ، وشرع أيضاً العفو ، فقال سبحانه : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة] فمن أخذ بالقصاص أو الدية أخذ بالحسن ، ومَنْ تسامى إلى العفو أخذ بالأحسن .

كذلك في قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..(٢٧١)﴾ [البقرة] فإنْ أبديتَ الصدقة فأنت غير آثم ، بل هو أمر حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تخفيها .

ومثله قوله سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى]

وفي كل هذه المواضع ، نجد الحق سبحانه يُرغّب عباده في التسامح ، لكن التسامح يكون في الأمر الذي تتحمل أنت ثمنه ، ويعود عليك ضرره إنْ كان هناك ضرر ، أما إنْ عاد الضرر على المجتمع عامة فلا تسامح .

والنبي ﷺ علَّمنا هذا الدرس ، فكان ﷺ لا يغضب لنفسه قط . إنما كان يغضب إذا انتهكَ أمر الله ، إذن : تسامح في الأمر الذي يتعلق بك ، أما إنْ تعلق الأمر بعامة المسلمين فليس لأحد الحق أن يتسامح فيه .

والحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن اختيار الأحسن هو أحسن لنا نحن وأفضل ، ففي قصة الإفك ، قال تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ..(٢٢)﴾ [النور] يعني : لا تغضب لأنك غفرتَ لمن أساء

إليك ، لأن الله تعالى سيعاملك بالمثل فيغفر لك إنْ أسأتَ ، ومَنْ لا يحب أنْ يغفر الله له ؟ فما دُمْتَ تحب أنْ يُغفر لك فاغفر لصاحبك ، لكن شريطةَ ألاّ تهيج المجتمع ولا تضره .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾

كان النبي ﷺ مُحباً لأمته ، حريصاً على هدايتهم والأخْذ بأيديهم ، وكان يؤلمه أنْ يشذ واحد منهم عن منهجه أو يعانده ، والقرآن الكريم يعرض لنا هذه المسألة في أكثر من موضع ، ففى سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ⑧ ﴾ [فاطر]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله يقول له : يا محمد ، لا تحزن على هؤلاء ، لأنهم استحقوا العذاب ، وحكم الله عليهم أنهم مُعذَّبون ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. ⑲ ﴾ [الزمر] حق يعنى : ثبت من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ⑬ ﴾ [السجدة]

وما دام قد حقّ عليهم العذاب ، فلماذا تحزن ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ⑲ ﴾ [الزمر] وأحقية كلمة العذاب هنا ليست قهراً للعبد أنْ

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . [المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده] قال الفراء فى تأويل الآية : أى مخرجٌ نفسك وقاتلٌ نفسك . [لسان العرب لابن منظور] .

يفعل ، إنمـا علِم أنه سيـفعل كذا وكـذا ، فَعَلِمَ الله بما سـيكون منهم وكتـــبه عليـهم ، فالأحـقية هنـا ليست أحـقيةً كـونية أرادها الخـالق سبحانه ، إنما لأنه سبحانه علم مُسْبقاً ما يختارون .

وسبق أنْ تناولنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ ﴾ [المسد] هذا حُكْم من الله على أبى لهب أنه سيَصْلَى ناراً ذات لهب ، وقد جـاء هذا الحكم وبلَّغه رسول الله ، وسمـعه أبو لهب وهو حَيٌّ يُرزق ، أكـان محمـد ﷺ يأمن أنْ يقف أبو لهب فى مـحفل من القوم ، ويقـول : أشهـد ألا إله إلا الله ، وأن محمـداً رسول الله ، يقـولها ولو نفـاقـاً ، ويظهر أمـام الناس على أنه مـؤمن ، وفى هذه الحالة يُكذِّب كلام الله ؟

لقـد كـان أبو لهـب كـافـراً ، كمـا كـان خـالد وعمـرو وعكرمـة كافرين ، وكان بإمكانه أنْ يؤمن كما آمنوا ، لكن علم الله أنه لن يؤمن حتى بعد أن بلغه هذا المصير فى قرآن معجز يحفظه مَنْ قاله و يُتْلَى إلى يوم القيامة ، إذن : دلَّتْ هذه الآية على أن الله تعـالى علم مُسْبقاً أنه لن يؤمن ، ولم يقهره على ألاَّ يؤمن .

فالحق سبحانه يقول لرسـوله : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، لأن الله حكم عليـهم لعلمـه بمـا سيكون منـهم ، أنهم من أهل النار ، فكيف تنقذهم ، وقد حكم الله عليهم بذلك ؟

ونلحظ فى أسلوب الآية ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. ⑲ ﴾ [الزمر] أن الفعل حَقَّ لم تلحقه علامـة التأنيث ، مع أن فاعله (كلمة) مؤنثة ، قالوا : لأن المـؤنث هنا غير حقيقى ، فيـجوز فى الفعل عدم التأنيث .

والاستفهام في ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. ⁽¹⁹⁾﴾ [الزمر] يحتاج إلى خبر تقديره : أفمَنْ حَقَّ عليه كلمة العذاب ، أتريد أن تنجيه أو تحميه منه ، بأن تُلح عليه أنْ يؤمن ، أتريد أنْ تنقذه من النار ، وقد حكم الله عليه أنه من أهلها ؟

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ⁽²⁰⁾﴾

قلنا : إن من سمات الأسلوب القرآني أن يذكر المتقابلات ، فالضِّد يُظهر حُسْنه الضد ، كما في قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⁽¹³⁾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⁽¹⁴⁾﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ ذكر الحق سبحانه الكافرين الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب يذكر المقابل لهم ، وهم المتقون ﴿ لكن ﴾ استدراك على ما تقدم ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..⁽²⁰⁾﴾ [الزمر] وهذه المقابلة تهيء النفس لتفظيع المقابل الأسوأ ، وتجميل المقابل الأعلى .

والغُرَف جمع غُرْفة ، وهي المكان الخاص المقتضب من البيت ، وهي مأخوذة من غرفة الماء ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ .. ⁽²⁰⁾﴾ [الزمر] ثم وصف التي فوق بأنها ﴿ مَّبْنِيَّةٌ .. ⁽²⁰⁾﴾ [الزمر] لأن العادة في الغرفة السفلية أن يُعتنى بها في الأساس ، الذي يحمل باقي الأدوار ، فأراد أنْ يلفت أنظارنا إلى أن الغرف الفوقية هي أيضاً

مبنية مُعْتنىً بها ، لا تقل ميزةً عن الغرف السفلية ، فكل الغرف من الأدنى إلى الأعلى مميزة .

ثم تأمل الإعجاز فى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر] من تحت أيِّهما ؟ من تحت الاثنين ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : اقرأ قوله ﷺ فى وصف الجنة : « فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة] وفَرْق بين تحتها ومن تحتها ، لو قُلْنا تجرى تحتها الأنهار ، فالمعنى أن الأنهار تأتى من مكان آخر وتمرُّ بها ، فيمكن للأعلى أنْ يحجب الماء عن الأدنى .

أما ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر] فنبع الماء يجرى من تحت هذه الغرف ، فماؤها ذاتىّ فيها ، ليس لها مَدَدٌ من خارجها ، إذن : فالمياه فيها ذاتية.

فأنت تتعجب لأنك تقيس المسائل بهندستك أنت ، ولربك سبحانه هندسة أخرى ، تأتى على غير ما تتصوَّر ؛ لأن الشىء الذى لم تره العين ولم تسمعه الأذنُ ، ولم يخطر على القلب ليس فى اللغة ما يدل عليه ، فالمعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضَع لها الألفاظ الدالة عليها ، فإذا لم تُوجَد المعانى فمن أين يأتى اللفظ ؟

نحن نعرف الآن مثلاً (التليفزيون) ، ونعرف ما هو لكن قبل أن يُخْترع هل كنا نعرفه أو نعرف اسمه ؟ لذلك سبق أنْ قلنا : إن الذى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

يقـول الله غيـر موجـود - والعـياذ بالله - نقـول له : كلامك مـردود بكلامك ، لأن الله مبتـدأ وغير موجود خبر ، فـمن أين عرفتَ كلمة الله إنْ كان الله غير موجود ؟ إذن : قولك : الله غير موجود دليل على أنه موجود ، لأن المـعدوم لا لفظَ له ، فالذى لا تسـمعه الأذن ، ولا تراه العين ، ولا يخطر على البال ليس له اسم .

لذلك لمـا يصف لنـا ربنا الجنة يقـول : ﴿مَـثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِـدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] يعنى : يعطينا مثلاً لها وليست هى ، لأن لغتكم ليس بـها الألفاظ التى تعـبر عن هذه المعـانى التى فى الجنة ، ومع ذلك ساعةَ يُعطينا المثل ينفى منه ما يناقض الموجود في الدنيا ، فحين يصف خَـمْر الآخرة يقول : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات]

يعنى : لا تغتال العقـل ولا تستره كما تستره خـمر الدنيا ، ففى الإنسـان غُدة مسـئولة عن توازنه ، فحين يشـرب الخمـر تتسلط الخمر على هذه الغـدة فتفـقده توازنه وتستـر عقله ، فـيتمـايل هنا وهناك ، ويهذى بكلام لا يعرف معناه .

وليست كـذلك خمر الآخرة ، خـمر الآخرة تُعطيك اللذة والمـسرَّة دون أن تغتـال العقل ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصـافات] النَّزْف والنَّزْح بمعنى واحد ، تقول : نزحت البئـر يعنى : أخرجت ما فيه من الماء ، فـالنزف إخراج ما فى الجوف . والإنسـان فى تكوينه الصـحى السليم يؤدى جسمـه عملية نسميـها عملية الإخراج مـثل صماخ الأذن والعرق والبول ، وهذا الإخراج فيه سلامة وفيه صحة الجسم .

---

(١) قال الشوكـانى فى فتح القدير : (لا فيهـا غول) أى : لا تغتال عقولهم فـتذهب بها ، ولا يصيبـهم منها مرض ولا صداع . (ولا هم عنهـا ينزفون) أى : يسكرون فتذهـب عقولهم من السُّكْر .

لكن هناك إخراج بلا سلامة ، كالذى يأكل ثم يتقيّأ ما أكل ، وقد يتقيأ من جارحة نفسه دماً والعياذ بالله ، وقد يخرج منه البول باستمرار كمن يعانى من سلس البول مثلاً ، ومن ذلك النَّزْف ما يحدث لشارب الخمر فينزف ما فى بطنه .

كذلك فى الدنيا ماء ، وفى الآخرة ماء ، وفى الدنيا لبن ، وفى الآخرة لبن ، لكن شتّان بين ماء الآخرة وماء الدنيا ، وبين لبن الآخرة ولبن الدنيا ، يقول تعالى فى بيان ذلك :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

من عجيب أمر هذه الأنهار أنها أنهارٌ بلا شُطْآن ، فهى تجرى بما فيها من ماء أو لبن أو خمر أو عسل ، ومع ذلك لا يختلط بعضها ببعض ، وهذا أمرٌ عجيب نضعه تحت مَا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فالحق سبحانه حين يعطينا المثل للجنة ينفى عنه المضارّ الموجودة لمثله فى الدنيا ، فآفة الماء فى الدنيا أن يأسن ، يعنى : يتغير فلا يصلح بعد ذلك للشرب ، أما ماء الآخرة فغير آسن ، لأنه ماء جَارٍ فى أنهار ، وجريان الماء يحفظه أنْ يأسن ، كذلك فى اللبن ووَصْفُ العسل بأنه مُصَفّى ، لأن عسلَ الدنيا لا يخلو من الشوائب .

---

(١) أسن الماء : تغيَّر غير أنه شروب . وتغيرت ريحه . وفى التهذيب : أسن الماء هو الذى لا يشربه أحد من نتنه . وقال الجوهرى : أسن الرجل إذا دخل البئر فأصابه ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشى عليه أو دار رأسه . [لسان العرب - مادة : أسن] .

أما خمر الآخرة فهي لذّة للشاربين ، يتلذذ بها شاربها ، ويرتشفها رشفاً للذة طعمها ، أما في الدنيا والعياذ بالله فيسكبها في فمه هكذا دفعةً واحدة ، لأنها كريهة الطعم ، كريهة الرائحة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في وصف نعيم الجنة : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾ [الواقعة] وشجرة السدر شجرة معروفة عند العربي ، وكانت تُعَدّ من فاكهتهم ومن الأشياء الغالية عندهم ، لكن آفتها ما فيها من شوك يؤذي الآكل منها ، فنفي الحق سبحانه عن سدر الآخرة هذه الآفة ، وقال : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾ [الواقعة] أي : مقطوع ومنزوع الشوك لا يؤذي مَنْ يتناول ثماره .

إذن : الحق - سبحانه وتعالى - حين يقول في وصف الجنة : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾ [الزمر] لا تتعجب من كيفية بناء غرف فوقها غرف والماء يجري من تحتها ؛ لأن لله تعالى هندسة خاصة تدخل تحت ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فهي أشياء لا تدلّ عليها ألفاظ لغتنا .

لكن هناك أشياء أخرى لا اختلافَ فيها ، مثل : أباريق وأكواب وكأس ونمارق وزرابي وأرائك ، هذه من نعَم الله في الجنة وموجودة أيضاً في الدنيا لكن مع الفارق ، فهذه صَنْعة البشر للبشر ، وهذه صنعة خالق البشر للبشر .

لذلك لما ذهبنا إلى (سان فرانسسكو) ورأينا هناك فندقاً فخماً على رَبْوة عالية ، ووجدنا فيه كل وسائل الراحة والرفاهية أعجب الجميع به ، فقلت لهم : تعجبون من هذا وهو صنعة البشر للبشر ، فما بالكم بصنعة الحق للخلق ؟

وهذه المسألة تلفت أنظارنا وتُوجِّهنا إلى نعيم الآخرة ، فساعة ترى نعيم الدنيا ، وساعة ترى الشيء الجميل المبهر لا تحقد على صاحبه ولا تحسده عليه ، بل تذكر به نعيم الله الذى أعدَّه لعباده فى الآخرة ، فكأن الله تعالى بنعيم الدنيا يُرغِّبنا فى نعيم الآخرة .

وهذا الذى ذكرنا من جزاء المتقين ﴿ **وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** ⦗٢٠⦘ ﴾ [الزمر] الوعد : هو الإخبار بشىء مفرح سارّ قبل أوانه ، وكونك تخبر بالأمر السَّار قبل أوانه ، فهذا يغرى بالعمل للوصول إلى هذا الوعد ، ومقابل الوعد الوعيد وهو الإخبار بشىء مؤلم قبل أوانه ، والهدف منه التحذير حتى لا تقع فى أسبابه ، فالحق سبحانه مراده من الوعد والوعيد أن يُشوِّق الخَلْق إلى الثواب ويُحذِّرهم من العقاب ، ويُفظع الجرائم والعقوبات عليها حتى لا نقعَ فيها .

والله سبحانه لا يخلف الميعاد فوعده حَقّ ، لأنه سبحانه بيده كل أسباب الوفاء ، ولا يوجد له معارض يصرفه عن الوفاء بوعده ، لأن الذى يُخلف الوعد تعرض له أشياء تخرجه عن إمكانية الوفاء ، والإنسانَ ابن أغيار كثير التقلب ، فيطرأ عليه ما يحُول بينه وبين الوفاء بوعده ، أما الحق سبحانه فهو الحق الذى لا يتغير ، ولا يعز عليه شىء ، وهو سبحانه القادر الذى له طلاقة القدرة .

والحق سبحانه يُرينا تحقيقَ وعده فى الدنيا لنُصدق بوعده فى الآخرة فَوعَدَ الله المؤمنين فقال : ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ⦗١٧٣⦘ ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ..** ⦗٤٠⦘ ﴾ [الحج] وتحقَّق وَعْد الله للمؤمنين فانتصروا. وإن اضطهدوا أولاً ، وتحقُّق هذا الوعد يجعلنى أثق فى وعد الآخرة الذى لم يأت وقته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - لما سمع قول الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال: أىُّ جمع هذا ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه يُحقق لنا وعده الذى جاء وقته لنثق فى تحقّق الوعد الذى لم يأت وقته ، ومن ذلك قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد] يعنى : يا كفار قريش ، يا مَنْ تعاندون محمداً وتصادموه ، ألم تروْا أن رقعتكم الواسعة تتناقص ، ويأخذ الإسلام منها كل يوم جزءاً ، فالمعنى ننقص أرض الكفر ، ونزيد أرض الإسلام .. وينبغى أن نقول صدق الله فى الأولى ، ولا بُدّ أنْ يصدق فى الثانية ، أى : يوم القيامة .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه حين نَعد بشيء أن نصحبه بالمشيئة ، فنقول : إن شاء الله : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] حتى إذا تعذَّر عليك الوفاء قُلْتَ شئتُ ولكن الله لم يشأْ ، فكأن الله تعالى تحملها عن عباده ، فالعبد شاء ولكنى لم أشأ .

وهكذا يعفيك الله من الحرج ، ويحميك أن تكون كاذباً ، فالحق يتحمل عنا كما تحمّل عن رسوله فى قوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أى : قولهم : ساحر وكاهن وكذاب ومجنون ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] لأنك عندهم صادق أمين ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فجعلها سبحانه فى حقه ، وتحمَّلها عن رسوله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ(١) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما يُخبر عن خيره سواء أكان هذا الخير يتعلق بمقوِّمات الحياة في الدنيا أو بمُعدَّات النعيم في الآخرة ، يتكلم عنه على أنه إنزال ، وكلمة أنزل تدل على جهة العلو ، وأن هذا العطاء من أعلى ، وإنْ خرج من باطن الأرض كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

فالنعمة من الأعلى وليست من مُساوٍ ، وأنت في تصريف حياتك عندما تكون لديك مسألة لا تَقْوى إمكانياتك عليها ، ولا يَقْوى عقلك على التفكير فيها تذهب لمَنْ هو أعلى منك في هذا المجال ولمَنْ تثق فيه وفي فكره ، ليساعدك على حلِّها ، تفعل ذلك وأنت راضٍ ، لأنك أسلمتَ الأمر لمن تثق في قدراته .

فالحق سبحانه حينما يقول : أنزلنا . يعني : خذوا أحكامي على أنها من أعلى ، وعلى أنها الأفضل لكم ، لأنها من خالقكم الذي يعلم ما يصلحكم .

يقول تعالى هنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ

---

(١) قال الزبيدي في تاج العروس (مادة هيج) : هاج البقل : يبس واصفرّ وطال . وهاجت الأرض : يبس بقلها . وأهاجه : أيبسه .

فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ [الزمر] معنى (من السماء) أى : من جهة السماء ، وإلا فمخازن الماء فى الأرض ، فى البحار ، وهى مُعدَّة إعداداً كيماوياً بحيث تحفظ الماء فلا يتغير ولا يأسن ، ولا تعيش به الطفيليات .

لذلك نجد الماء المالح فى البحار تصونه نسبةُ الملوحة فى الماء ، ويُلقى فيه بالقاذورات والجيف ، فينفيها الموج ويبقى الماء على صلاحه ، ومن ماء البحار تتم عملية البخر التى تكوِّن السحاب والمطر الذى يسقى الإنسان والحيوان والنبات .

وماء المطر هو أنقى ما يمكن الحصول عليه من الماء ، فعملية البخر مثل عملية تقطير الماء التى نجريها فى المعامل للحصول على الماء النقى ، وتأمل كم تكلفة تقطير زجاجة ماء واحدة ، فما بالك بماء المطر الذى ينهمر من السماء ؟

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وجعل اليابسة الربع ، ذلك لتتسع مساحة البخر ويكفى المطر حاجة الأرض من الماء العذب ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين الماء الذى له عمق ، والماء الذى له سطح مُتسع ، فالبخر يعتمد على اتساع سطح الماء ، فكلما اتسع السطح زاد البخر ، ومثّلنا لذلك بكوب الماء تتركه شهراً وتعود فتجده كما هو لم ينقص منه إلا القليل ، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الغرفة ، فإنه يجفّ قبل أن تغادرها .

والحق سبحانه يريد للماء المالح أنْ يتبخر ليتخلّص من ملوحته ، ثم ينزل ماءً عَذْباً سائغاً للشاربين ، وعملية البخر هذه تتم ولا ندرى عنها شيئاً ، إنها آية من آيات الله ونعمة من أعظم نعمه علينا .

والماء حين ينزل من السماء لا ينزل على كل مكان ، إنما ينزل على الأماكن الباردة ، فبخار الماء المتجمِّع فى السحاب حينما يمر بمنطقة باردة يتكثف من جديد كما نكثِّف الماء المقطر ، فالماء الذى يأتينا فى نهر النيل أين يسقط ؟ يسقط على هضبة الحبشة وتحمله إلينا الأنهار ، ويتسرب منه جزء فى باطن الأرض ، ويجعل الله له فى الأرض مسالك .

هذا معنى ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر] يعنى : جعل له مَجارىَ خاصة ومسالك ، بحيث لا يختلط بالماء المالح ، وقد تُوجد مثلاً عَيْنٌ للماء العذب تنبع وسط الماء المالح ، ومع ذلك لا تختلط به ، وكأن الماء العَذْب يسير فى أنابيب مخصوصة أشبه ما تكون بالشرايين فى جسم الإنسان .

وقوله تعالى هنا ﴿أَلَمْ تَرَ..﴿٢١﴾﴾ [الزمر] ما دام شيء يمتنُّ الله فيه بالرؤية ، فإن كنتَ تراه فاعلم أنه كلام حقيقى ، وأنا أرى المطر ينزل من السماء ، وإنْ كنت لا تراه فصدِّق ما أخبرك الله به كما تصدق عينك فى الرؤية ، لأن إخبار الله لك أصْدَقُ من رؤية عينيك .

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل] ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل يعنى : لم يَر هذه الحادثة ، فالمعنى ألم تَرَ يعنى : ألم تعلم علْماً منى ، يفوق علم رؤياك بالعين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر] فالزرع يُزرع فى تربة واحدة ، ويُسقى بماء واحد ، ومع ذلك تأتى الثمار مختلفة فى الألوان وفى الطَّعْم وفى عناصر التكوين .

لما تكلَّم العلماء فى هذه المسألة قالوا : فى النبات خاصية تُسمَّى

خاصية الانتخاب يعنى : أن النبات يمتصّ بواسطة الجذور العناصر اللازمة له من الأرض ، لكن لو جئنا مثلاً بإناء فيه ماء ، ووضعنا فيه عدة ألوان ، ثم وضعنا فيه الأنابيب الشّعرية الضيقة التى يصعد فيها الماء إلى أعلى بهذه الخاصية ، نجد هذه الأنابيب تمتص من الماء على عمومه لا تفرق بين لون ولون .

وليس كذلك امتصاص النبات للعناصر اللازمة له من التربة ، النبات لا يمتص إلا المواد اللازمة والمناسبة لطبيعته ، فالخاصية الشعرية فى الجذور تمتصّ على هدى ، فتأخذ من التربة وتدَع ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، ومع ذلك تختلف الطعوم والأشكال والألوان والرائحة .

إذن : ليس هو الانتخاب الذى يعنيه العلماء ، إنما هو انتخاب إلهى يقوم على الطبيعة التى أودعها الله فى الحبة والبذرة الأولى للنبات ، فأنت تزرع مثلاً الفلفل الحار بجوار قصب السكر بجوار الرمان ، فتجد هذا حاراً ، وهذا حلواً ، وهذا مُزاً .

ثم ينتقل النبات إلى مرحلة أخرى ، يصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا (٢١) ﴾ [الزمر] معنى يهيج يعنى : يجف ويتحطم ، ويصير فتاتاً . يعنى : لا يستمر على خضرته ونضارته، وكأن الحق سبحانه جعل النبات عبرةً للإنسان ، فالنبات كائنٌ حَىّ كالإنسان ، وسيمر الإنسان بهذه المرحلة فيجفّ ويتفتت كالنبات .

فالله سبحانه يضرب لنا مثلاً ، حتى لا نغترّ بذواتنا حين نجد لها قوة أو نجد لها عقلاً وتفكيراً أو سُلْطة وجاهاً أو مالاً ، يقول لك ربك : انظر إلى أمك الأرض ، وإلى الزرع يخرج منها ، إلامَ يصير ؟ فأنت كذلك ، فلا تغترّ ما دُمْتَ من أهل الأغيار .

لذلك يقولون : لا تغضب ولا تحـزن إنْ تغيرتْ بك الأمور ، لأنك من أهل الأغيار ، وما دُمْتَ من أهل الأغيـار ووصلتَ إلى قمة الجبل ، فماذا تنتظر ؟ تنتـظر أنْ تستقرّ عليه ؟ كـيف وأنت من أهل الأغيار ؟ إذن : لا بدَّ أنْ تنزل ؛ لذلك إذا تمتْ النعـمة ترقَّبْ زوالهـا ، كمـا قال الشـاعر :

إذَا تَمَّ شـيء بدا نقْصُهُ   ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ(١)

فإنْ رأيت نفسك (مـزهزهة) بالعلم أو بالقوة أو بأيٍّ مظهر من مظاهر النعـيم ، فـاعلم أنك غـداً ستـصـيـر إلى كبـر وإلى ضـعف ، ستصير مثل الطفل يحبـو وتحتاج إلى مَنْ يسندك ويعاونك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۝٥ ﴾ [الحج] فافهم هذا المعنى جيداً فى أمك الأرض وفى ذاتك .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِـكَ .. ۝٢١ ﴾ [الزمـر] أى : مـا تشهـده أنت من هذا الذى ذكرنا ﴿ لَذِكْـرَىٰ .. ۝٢١ ﴾ [الزمـر] يعنى : تذكـرةً وعبـرةً ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٢١ ﴾ [الزمر] لأصحاب العقول الواعية والمتدبرة .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٢ ﴾

---

(١) البـيت من نظم على بن أبى طالب رضى الله عنه كـمـا فى الموسـوعـة الشعـرية وهو من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ١١ بيتاً ، ولفظ البيت :

إذا تم أمر بدا نقصه   توقَّ زوالاً إذا قيـل تـم

التقدير هنا ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (٢٢)﴾ [الزمر] كمن ضاق صدره عن الإسلام ، إذن : لابُدَّ أنْ نذكر هذا المقابل لأنهما لا يستويان ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ... (٢٢)﴾ [الزمر] تدل على أننا أخذنا الضيق من القسوة ، فالذى ضاق صدره عن الإسلام ضاق صدره لقسوة قلبه .

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[1] آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٩)﴾ [الزمر] والمعنى : أهذا كمَنْ لم يقنت ؟ وعليك أنت أنْ تجيب : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، كمَنْ قسا قلبُه ، وضاق صدره عن دين الله وهداية الله ؟

ومعنى ﴿ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ .. (٢٢)﴾ [الزمر] أى : جعل الضيق واسعاً ، وتقول لصاحبك : وسِّع صدرك يعنى : اجعله مُتسعاً لمناقشة كل القضايا ، ومن معانى سعة الصدر ألاَّ تشغله بالخزعبلات ، وألاَّ تزحمه بالباطل ، حتى يكون لك أُنْس به ، وعندها يطرد الباطل الحق كما قلنا فى مسألة الحيز .

فالحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، فالماء مثلاً يطرد الهواء حين تملأ زجاجة بالماء .

ومن شَرْح الصدر أن يكون لديك عدالة اختيار حين تختار بين البدائل ، عليك أن تصفى قلبك ، وأن تُخرج منه كل ما يشغله ، ثم تبحث القضايا المعروضة عليك ، فما وجدته مناسباً تُدخله قلبك ليستقر فيه حتى يصير عقيدةً راسخة لا تقبل المناقشة مرة أخرى ،

---

(١) قال الزجاج : القانت المطيع . والقانت : الذاكر لله . وقيل : القانت العابد . [تهذيب اللغة للأزهرى – مادة : قنت] . وآناء الليل : ساعاته .

لأن الله تعالى خلق لنا حواسَّ تدرك : عينٌ ترى ، وأذنٌ تسمع ، ولسان ينطق .

وبهذا الحواس نأخذ المعلومات . ثم نعرضها على العقل ليختار منها ويبحث فيها ، فما وجده صالحاً أسقطه فى القلب ، وهذه هى العقيدة التى تستقر فى القلب ، ولا تطفو لتُبحث من جديد .

لذلك احذر الران[1] الذى يترسب على القلب حتى يغلقه ، فلا يكون فيه مكان للحق ، والنبى ﷺ يشير إلى هذه المسألة فى حديث أبى ذر - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ :

« تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً - وفى رواية : عَوْذاً عَوْذاً - فأيما قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُربادا - وهذا الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭ ﴾ [المطففين] - كالكوز مُجخياً - منكوساً - لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2].

والفتن هنا هى الشُّبَه التى تعرض للناس فى الدين ، والرسول

(١) الران : الرين : الطبع . والران مثل الرين . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : رين] : الرين الصدأ الذى يعلو السيف والمرآة . والرين : كالصدأ يغشى القلب . وران الذنب على قلبه : غلب عليه وغطاه . وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسْود القلب.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) ، وأحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان .

ألفاظ الحديث : مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة . مربادا : أسود مشوبا بغبرة . كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعروة . مجخيا : مائلا . أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبَّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [انظر لسان العرب - مادة : جخى] .

ﷺ يشبهها بالحصير الذى يُنسج عوداً بجوار عود ، حتى يكون كالحصيرة التى نجلس عليها ، أو عَوْذاً يعنى : نستعيذ بالله من هذه الفتن . أو عوْداً أى مرة بعد مرة .

إذن : إنْ أردتَ بحث قضية الإيمان فاشرح صدرك أولاً ، ووسِّعه بأنْ تُخرج ما فيه من اعتقادات ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] والنور له مصادر ، إما نور مادى كالشمس والقمر والنجوم ، وهذه الأنوار التى اكتشفها الإنسان حديثاً ، أو نور معنوى وهو المقصود هنا ، نور القيم والمنهج ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. ﴾ أى : نور الهداية الذى عناه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

ففى هذه البيوت التى يُذكر فيها الله ، ويُسبَّح فيها الله ، مكان تلقِّى فيض النور من الله ، وتنزل الخيرات والرحمات ؛ لأن الآيات كانت تتكلم قبل ذلك عن نور الله ، ومثَّل تنويره سبحانه للسموات والأرض :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره ، إنما مثلاً لتنويره ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بخلقه ، والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الحائط ، والطاقة تكون محدودة

المساحة غير واسعة ، ثم هى غير نافذة ، لذلك تجمع الضوء ولا تبدده ، بحيث لا يبقى فى المشكاة مكان مظلم .

ثم إن المصباح ليس عادياً ، إنما فى زجاجة ، لأن من المصابيح ما ليس له زجاجة والذى نسميه نحن (الساروخ) وهو يخرج لهباً أسود ، لأن الهواء يداعبه من كل ناحية ، أمّا الزجاجة فهى تنقى اللهب وتصفيه ، حيث تمنع عنه الهواء إلا بمقدار الاحتراق ، فيأتى اللهب صافياً لا دخان له ، هذه هى التنقية الأولى .

ثم إن الزجاجة هى أيضاً غير عادية ، إنما صافية فى ذاتها ، كأنها ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] تعكس الضوء فى كل ناحية .

ثم إن هذا المصباح لا يُوقَد بزيت عادى ، إنما ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] فهو زيت له مواصفات خاصة على أعدل المزاج .

هكذا ومثل هذا يُنوِّر الله السموات والأرض ، فالمثال لتنوير الله لا لنور الله . وهذا هو النور الحسِّى ، وحين تكمل القراءة تجد النور المعنى فى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور] وهذا هو النور فى قوله : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه أعطاكم النور الحسىَّ الذى يعينكم على حركة الحياة ، ليرى الإنسانُ مواضع قدمه فلا يحطم الأشياء ولا تحطمه إذا ما اصطدم بها ، والنور المعنوى للقيم وللروح .

والحق سبحانه حين يُعطينا هذا المثل ، ويُرينا أن المصباح لا يدع فى المشكاة ظلمةً أبداً ، يعطينا بذلك إشارة إلى أن نوره

المعنوى كذلك لا يترك عيباً إلا أصلحه ، وأتاك نور يهديك وينجيك .

وقوله سبحانه : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر] ويل لهم لأن قسوة قلوبهم حالتْ بينهم وبين الإيمان ، فويل لهم ساعةَ يعرفون أن لهم رباً كفروا به ، وتفاجئهم هذه الحقيقة التى طالما أنكروها .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه القضية فى قوله سبحانه :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨)﴾ [إبراهيم]

والمعنى : أنهم حبطت أعمالهم وخاب سعيهم .

وقال أيضاً : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

فويل لهم ساعة يعرفون أنهم كفروا بالله وضاق صدرهم عن أن يتسع لنور الإيمان ، فالويْل لهم حاضر قبل أنْ يأتيهم العقاب .

وقوله : ﴿أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر] أى : بيِّن واضح ، والضلال هو عدم الاهتداء فى المهيع[2] الذى يسير فيه ، كالسائر مثلاً فى صحراء وضلَّ فيها الطريق ، إن ضلاله يبدأ بانحرافه عن الطريق الصحيح ولو بسنتيمترات ، لأنها لا بدّ أنْ تنتهى

---

(١) القاع والقيعة : أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية لا ارتفاع فيها ولا انهباط ، تنفرج عنها الجبال والآكام ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . وفيه يكون السراب نصف النهار . [لسان العرب - مادة : قوع] .

(٢) طريق مهيع : واضح واسع بيِّن . وبلد مهيع : واسع [اللسان : مادة هوع] .

به إلى مساحات شاسعة فى الضلال ، أرأيتم (.السيمافور) فى السكة الحديد ، وكيف يُحول القطار مثلاً لبورسعيد أو الإسماعيلية أو طنطا إنه مجرد تحويل سنٍّ القضيب عدة ملليمترات ينتج عنها أنْ يتحوَّل القطار فى سيره من مكانٍ إلى مكان آخر بعيد ، فالمعنى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر] أى: لا يهتدون إلى شىء أبداً .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ[(١)] تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الله تعالى : ما دُمتم ستتبعون الأحسن وتختارونه فأنا مُنزلٌ عليكم أحسن الحديث ، نعم هو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله وكلام الله صفته ، وهو كامل الكمال المطلق ، وقد جعله الله مُعْجزاً ، وتولى سبحانه حفظه بنفسه ولم يكل حفظه للخلق .

وفى عُرْف البشر أن الإنسان لا يحفظ إلا ما كان حجة له ولا يحفظ الحجة عليه ، أما الحق سبحانه فيحفظ القرآن وهو حجة عليه سبحانه لخلْقه ، فكل ما أتى فى القرآن ضمن الحق سبحانه حدوثه ،

---

(١) المثانى : الآيات القرآنية تُتلى وتكرَّر . وسمى القرآن مثانى لأن الأنبياء والقصص تُثنَّى فيه وتُكرر . وقيل : سمى هكذا لاقتران آية العذاب فيه بآية الرحمة والإنذار بالتبشير . [القاموس القويم ١/١١١ ، ١١٢] .

كما أخبرنا الله به لأنه هو منزله وهو حافظه .

والمراد بأحسن الحديث القرآن الكريم ، ومعنى ﴿ مُتَشَابِهًا (٢٣) ﴾ [الزمر] أي : يشبه بعضُه بعضاً في الحُسْن أو في البلاغة أو في الموضوع ، فإياك أن تقول : هذه الآية أبلغ من هذه ، لأن كل آية بليغة في موضوعها .

فلو أخذنا مثلاً التشابه في الموضوع نقرأ في قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[1] .. (٨) ﴾ [القصص]

وفي موضع آخر قال : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

فظن البعض هنا تكراراً ، لكن المتأمل في معنى الآيتين يجد أن كلَّ آية تؤدي لقطة لا تؤديها الأخرى ، فمعنى ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (٨) ﴾ [القصص] العداوة هنا من موسى لآل فرعون إنما في ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه] العداوة من جانب فرعون لموسى ، والمعركة لا يحمى وطيسها إذا كانت العداوة من جانب واحد ، لأن الجانب الآخر ربما يتساهل أو يتنازل لعدوه ، فإنْ كانت العداوة من الطرفين حميتْ المعركة .

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير الآية : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص] أي : ليصير بهم الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وللمفسرين في معنى الكلام قولان : أحدهما : ليكون لهم عدواً في دينهم وحزناً لما يصنعه بهم . والثاني : عدواً لرجالهم وحزناً على نسائهم . فقتل الرجال بالغرق ، واستعبد النساء .

وسبق أنْ قلنا : إن المستشرقين وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وقالوا : أيهما أبلغ من الأخرى ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة.

ومثل هذه الاستدراكات نتيجة عدم فَهْم أسلوب القرآن ، وعدم وجود الملكة اللغوية عندهم . ونقول لهم : كل آية بليغة في سياقها مناسبة للمعنى الذى قيلَتْ فيه ، فالآية الأولى وردتْ في الكلام عن المصيبة التى لاغريمَ لكَ فيها ، والصبر فى هذه الحالة يسيرٌ لذلك لم يُؤكّد.

فمن الطبيعى أنْ تصبر على المرض مثلاً ، لأنه لا غريم لك فيه ، أما إنْ كانت المصيبة لك فيها غريم ، فالغريم يثير غضبك ويؤجج نار الغِلِّ ، ويدعو إلى الانتقام ، فناسب ذلك التأكيد باللام فى الآية الأخرى: ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وكذلك وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله سبحانه : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء] وقالوا : ما الفرق بين الآيتين ؟ ونقول : لو نظرت إلى صدر الآية لوجدتَ أن كل عجُز يليق بصدره ، لأن القتل للأولاد كان له سببان :

الأول : الفقر ، فالعائل فقير لا يقدر على رزق نفسه ، فما بالك برزق أولاده ؟ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[1] ..

(١) الإملاق : الافتقار . أملق الرجل : فقير قد نفد ماله . وأصل الإملاق الإنفاق . يقال : أملق ما معه إملاقاً : إذا أخرجه من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لذلك . [لسان العرب – مادة : ملق] .

(١٥١) ﴾ [الانعام] لأن الفقر موجود ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الانعام] وقدَّم الآباء على الأولاد ؛ لانشغال نفوسهم برزقها أولاً .

والسبب الثانى : أن يكون عنده ما يكفيه ، إنما يخشى الفقر إن جاءه أولاد ، وفى هذه قال سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ.. (٣١) ﴾ [الإسراء] وقدَّم الأولاد على الآباء ، فنحن نرزق الأبناء الذين تخافون الفقر بسببهم قبل أنْ نرزقكم ، إذن : فكلّ آية مُذيَّلة بما يناسبها .

كذلك قُلْنا فى مسألة السمع والبصر فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وذكر هنا السمع لأنه وسيلة الالتقاء فى ظلمة الليل ، وبه يستدعى الإنسان إنْ كان نائماً .

أما فى آية النهار ، فقال سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] لأن البصر لا يكون إلا فى ضوء النهار .

ومعنى ﴿ مَّثَانِيَ.. (٢٣) ﴾ [الزمر] يعنى : مَثْنى يُقَال : مرة واثنين وثلاثة ، أو : يثنى فى الصلاة حيث نقرأ الفاتحة ثم سورة بعدها ، وفى الركعة الثانية كذلك .

وقوله : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ .. (٢٣) ﴾ [الزمر] وهذه صفة العبد الذى يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً ، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه ، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام الله وتذكَّر وعيده فيحدث عنده قشعريرة فى جلده من خشية ربه ، وهى أنْ يجفّ الجلد ويقعقع وتحدث رعشة فى البدن من خوف

العذاب ، ومن خوف غضب الله ، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التى سبقتْ غضبه ، وعفوه الذى سبق عقوبته ، فيعود إلى حالته الأولى :
﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ (٢٣) ﴾ [الزمر]

إذن : المؤمن يجمع بين الخوف والرجاء ، وقلبه بين هذين الأمرين ، فساعةَ يتذكر العقاب على المخالفة يقشعر جلده خوفاً ، وساعة يتذكر رحمة ربه يلين جلده ويهدأ قلبه ، ولمَ لا وربه قد قال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

(ذلك) وهذا هو الذى يحدث للمؤمن ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ [الزمر] وقد وقف كثيرون عند هذه الآية يقولون : ما دام أن الله هو الذى يُضل فلمَ يُعذِّب الضال ؟ ومعنى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ (٢٣) ﴾ [الزمر] يعنى : يعلم ضلاله ، ويعلم أنه لن يسمع كلامه ولن يتبع منهجه ، وقد خلقه الله تعالى مختاراً إنْ شاء آمن وإنْ شاء كفر ، إذن : فالكافر ما كفر غَصْباً عن الله ، إنما هل رضى الله منه ذلك ؟

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ [الزمر] يعنى : إياكم أنْ تستدركوا على الله بأحكام بشرية تُصنِّفها لكم عقول الذين يستنكفون أنْ يأخذوا عن الله ، فما دام الله قال فلا يصح أنْ نستدركَ عليه سبحانه ؛ لأنه لا يمكن أنْ نأتى بهدى أحسن من هُدَى الله .

ويجب على الأقل أن نفهم أن الذى يشرع شرعاً يريد أنْ يحكم به الناس لا بُدَّ أنْ يكون غير منتفع به ليكون حكمه نزيهاً وموضوعياً ؛ لأنه لو كان منتفعاً بالحكم لابدّ أن يميل قلبه إليه

ويسير هواه مع منفعته .

يعنى : مثلاً لو شرَّع العمال لاختاروا الاشتراكية ، ولو شرع الرأسماليون لاختاروا الرأسمالية ، لذلك يشترط فيمَنْ يُشرع ألاّ يكون منتفعاً بما يشرع ، وهذا الشرط لا يتحقق إلا فى الحق سبحانه .

لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يترك فى كونه قضايا حتى عند الكافرين به ، وعند غير المؤمنين بمنهجه ، قضايا تدل على أن شرع الله هو الأحسن ، فكثيراً ما وقفوا عند قضايا لم يجدوا لها حلاً فى قوانينهم ، فلجأوا إلى دين الله وإلى شرع الله ، لا لأنهم آمنوا به سبحانه ، ولكن لأن قضاياهم وأمور حياتهم لا تُحَلّ إلا بهذا المنهج .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الاستفهام فى (أفمن) مثل سابقه فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر] لذلك لا بدّ أن نقدر هنا المقابل ، فالمعنى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] أى : كمن لا يعذب ، ويمكن أنْ نرقى المسألة فنقول : كمن يُنعّم ؟ ولك أنت أنْ تحكم .

ومعنى ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] أى : العذاب الشديد السيىء ، وتأمل ﴿ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] معلوم أن الوجه أشرف أعضاء الإنسان ، وبه تتميز سمات الخلق ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

ولولا سمات الوجوه لتساوت الأبدان وتشابهت بعضها ببعض ، لذلك يهتم الإنسان بوجهه ويدافع عنه ويحميه أولاً ، ومثّلنا لذلك برجل يسير في الطريق ، فمرّت بجواره سيارة مثلاً نثرت عليه وعلى ملابسه الطين ، بالله ما أول شيء يحرص على نظافته وإزالة الأذى عنه ؟ إنه يمسح أول ما يمسح وجهه ، ثم يلتفت إلى ملابسه ، لأن الوجه هو أشرف الأعضاء وأشهرها وأكرمها ، وهو المُحَافَظ عليه قبل كل الجوارح .

إذن : ما بالك بعذاب لا يجد الإنسان ما يتقيه به إلا وجهه ؟ نعم يتقى العذاب بوجهه ، لأن يديه مغلولة ، وقدمه مُكبلة ، فلا مهربَ له ولا خلاصَ ، فلا يملك إلا أنْ يتقى العذاب ويدفعه عن نفسه بأعزّ ما يملك ، وبأشرف أعضائه وهو الوجه .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر] قوله فى العذاب (ذُوقُوا) تهكم بهم ، واختار الذوق وهو جارحة من الجوارح التى تؤدى مهمة فى جسم الإنسان مثل العين والأذن ، إنما اختار الذوق خاصة ، لأن الذوقَ هو الحاسة الملازمة للإنسان ، وبه قوام الحياة ، حيث بالتذوق ندخل الطعام والشراب ، ونتمتع به ونجد له لذة تفوق الملاذّ الأخرى .

أما العين والأذن مثلاً ، فقد ترَى أو تسمع ما لا يعجبك ، أما فى التذوق فإنك تختار ما يعجبك وتجد له لذة ، وهنا يريد الحق سبحانه أن يعمم الذوق فى الجسم كله ، فجميع البدن يذوق العذاب .

وقلنا : إن اللسان هو جارحة التذوق بمراحله وما حوله يذوق

ويُميِّز الطعوم ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقة فلا يشعر الإنسان له بأىِّ مذاق ، ولذلك رأينا صناع الدواء يُغلفون الدواء المرّ بمادة مُستساغة مقبولة ، تساعد على مرور الدواء من منطقة التذوق دون أنْ نشعر بمرارته .

وإذا نظرتَ إلى الجوارح كلها تجد أنها مُتعلقة بالغير ، فأنا أسمع غيرى وأرى غيرى ، وألمس غيرى أو بعضى ، أما الذوق فخاص بالإنسان نفسه ، فلا يذوق إنسانٌ لآخر ؛ لذلك اختار الله سبحانه هذه الجارحة فى إظهار شدة العذاب وألمه ﴿ ذُوقُوا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] وفى موضع آخر (ذُقْ) . لا رؤية ولا سماع ولا شم ولا لمس ، إنما بالذوق الذى هو خاص بصاحبه ، وكأن لكل واحد منهم مذاقاً يناسب عذابه .

وإذا كان للذوق منطقة خاصة هى اللسان بمراحله وما حوله ، فالذوق هنا أراده الله عاماً وشاملاً ، ليس فى منطقة الذوق ، ولكن الجسم كله يذوق العذاب ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] فالإذاقة هنا تعدَّت منطقة الذوق إلى الجسم كله .

وإذا ما نظرنا إلى قوله تعالى - بالاعتبار - فى القرية التى كانت آمنة مطمئنة فكفرتْ بأنْعُم الله ، قال الله فيها : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل] فكأن الإذاقة تلبسهم وتحيط بهم من كل ناحية .

والشعراء عادة حينما يبالغون فى شىء يُعدّونه من منطقة الحسِّ

له إلى كل المناطق ، وقد اعـتاد الشعراء على ذكـر القلب ، وأنه محلُّ الحب ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

وَدَاعٍ دَعَا إذْ نَحْنُ بالخِيف مِنْ مِنَى ... فَهَيَّـجَ أحْزَانَ الفُـؤاد ومَا يَـدْرى

دَعَا باسْمِ لَيْلَى غيـرها فكَأنَّماَ ... أَهَاجَ بلَيْلَى طَائِراً كانَ فِي صَدْرى[٢]

وقال الآخر[٣] :

كأنَّ القلبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بلَيْلَى العَامِرية أوْ يُرَاحُ

قطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فَبَاتتْ ... تجاذبه وقَدْ عَلَقَ الجناحُ[٤]

أما الشاعر الذى أراد المبالغة في هذه المسألة فقال[٥] :

خَطَرَاتُ ذكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مَودَّتِى ... فَأُحِسُّ مِنْها فِى الفُؤَادِ دَبِيبا

لاَ عُضْوَ لِى إلاَّ وَفِيه صَبَابَةٌ ... فكأنَّ أعْضَائى خُلِقْنَ قُلُوبَا[٦]

---

(١) الشاعر هو : محمد بن عبد الله بن نمير الثقفى النميرى . شاعر غزل ، من شعراء العصر الأموى ، مولده ومنشؤه ووفاته بالطائف . توفى عام ٩٠ هـ . له ديوان شعر مطبوع .

(٢) البيتان من قصـيدة للنميرى من بحر الطويل عدد أبياتها ٧ أبيات وفى المـوسوعة الشعرية (لوعات الفؤاد) بدل (أحزان الفؤاد) ، وقد كان يتـغزل بأخت الحجاج بن يوسف الثقفى فتهدده الحجاج ففر إلى اليمن وأقام بعدن مدة . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) الشاعر هـو : توبة بن الحمير الخـفاجى أبو حرب ، شاعـر من عشاق العرب المـعروفين ، كان يهوى ليلى الأخـيلية وخطبها فـردَّه أبوها وزوّجها غيره ، فـانطلق يقول الشعر مُشـبِّباً بها. قتله بنو عوف بن عقيل . عام ٨٥ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٤) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات . وفى الموسوعة (تعالجه) بدل (تجاذبه) . أما لفظ تجاذبه فقد ذكره الأصـفهانى فى الأغانى ، وكذلك أبو على القالى فى أماليه ، وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى .

(٥) هو : أبو المعالى ابن أبى جعفر الواعظ ، من أهل هراة ، كان له معرفة بالتفسير والأدب ، كان حسن الوعظ كثير المحفوظ . مولده سنة ٤٩٠ هـ وتوفى سنة ٥٦٠ هـ عن ٧٠ عاماً.

(٦) ذكر هذه الأبيات صلاح الدين الصفدى فى (الوافى بـالوفيات) ، وابن شاكر الكتبـى فى (فوات الوفيات) ، أما ابن خلكان فى وفيات الأعيان فقد عزا البيتين للأمير شمس المعالى أبى الحسن قابوس بن أبى طاهر .

فالحب عنده تَعدَّى مَنطقته ، حتى صار فى كل أعضائه وجوارحه ، وهكذا تتعدى الإذاقةُ منطقة الذَّوْق لتشملَ الجسم كله .

لذلك كان قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] آيةٌ من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، مع أن الإعجاز باللغة والأسلوب والفصاحة خاص بالعرب ، أما غير العربى فله إعجاز آخر يناسبه إعجاز بأن يأتى له القرآن بأقضية ، لم تكن تخطر على البال ساعةَ نزول القرآن ، ولم يعرفها العلم طوال قرون .

والآن وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً من نزول القرآن يثبت العلم الحديث أن ما أخبر به الحق سبحانه فى قرآنه هو الحق ، وأنه سبحانه هو العَالِم بما يكون فى كَوْنِ الله باختيار خَلْق الله .

قلنا : إنه لما انتهت الحرب العالمية الأولى وانهزمتْ ألمانيا جاء أحد علماء الاقتصاد بها ويسمى (شاخت) ، وأراد أن يرفع من شأن بلاده ، وأن ينهض بها بعد الهزيمة ، ولما لم يتمكن من الخدمة فى الجيش لأنه كان أعرجَ فأعمل عقله فى خدمة بلاده ، وشجّع البحث العلمى فيها إلى أن توصلوا إلى اختراع أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما يسميه الفلاسفة والمراد به الذرَّة .

فلما نجحوا فى تفتيت الذرة ، وأصبح لها أجزاء أصغر منها أخذها أعداء الإسلام فرصةً للطعن فى صدْق القرآن الكريم ، فقالوا لقد ضرب الله مثلاً لأصغر شىء بالذرة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وها هو العلم يكتشف ما هو أصغر من الذرة .

لكن سرعان ما فتح الله على أهل العلم فردُّوا عليهم وقالوا لهم : تمهلوا واقرأوا القرآن كله ، ولا تأخذوا منه ما يؤيد تهجمكم عليه ، ففى آية أخرى قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ[(١)] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ[(٢)] ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

إذن : فى القرآن احتياطٌ لهذه المسألة ، فلم يقل صغير بل أصغر من الصغير ، فمهما حدث من تفتيت ، ففى القرآن احتياط له .

ومن إعجاز القرآن لغير العرب هذه الآيات العلمية التى يكتشفونها ، فإذا بالقرآن يسبقهم إليها ، ومن ذلك مثلاً مسألة مراكز الإحساس فى الجسم ، أولاً قالوا : المخ هو مركز الإحساس . وقال آخرون : بل النخاع الشوكى ، بدليل أن الإنسان يُحِس بأشياء مع أنها لمْ تلمس جسمه ، كما لو وضعت أصبعك مثلاً مقابل عيْن إنسان ، فإنه يغلق عينه تلقائياً .

ثم لما تأملوا الإبرة أو الحقنة تُعطَى للمريض مثلاً ، فإنه لا يشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، فقالوا : إذن الجلد هو مركز الإحساس ، وهذا هو ما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

---

(١) يعزب : إذا غاب وبَعُد . وعزب عنه : ذهب . وأعزبه الله : أذهبه . [لسان العرب - مادة : عزب] .

(٢) من الإعجاز العلمى فى القرآن استخدام لفظ « ذرة » مقترناً دائماً بكلمة « مثقال » والتى يُقصد بها وزن ، وهذا التعبير القرآنى يقابله بدقة المصطلح الكيميائى « الوزن الذرى » .

الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر] مادة (كسب) فى القرآن الكريم جاءت كما قلنا على صيغتين : كسب واكتسب ، وقد بيَّن الحق سبحانه متعلق كل منهما فى قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] فكسب للخير واكتسب للشر ؛ لأن كسب على وزن فعل ، والخير يأتى من صاحبه طبيعياً لا تكلُّف فيه ولا افتعال ، أما اكتسب فعلى وزن افتعل فيها افتعال ، والافتعال لا يكون إلا فى الشر ، فالخير لا يحتاج منك إلى حيل وافتعال ، بل يأتى طبيعياً على خلاف الشر .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل يجلس مع زوجته وبناته ، وينظر إلى جمالهن نظراً طبيعياً لا يحتاط فيه لشىء ولا يخشى فيه شيئاً ، أما إنْ أراد أن ينظر إلى امرأة جميلة فى الشارع مثلاً ، فإنه يتلصص لذلك ويحتال ، هذا هو الافتعال .

لكن القرآن الكريم خالف هذه القاعدة فى مواضع ، منها هذه الآية ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر] ولم يقل تكتسبون ، فاستخدم كسب فى الشر ، وفى موضع آخر أيضاً قال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾ [البقرة]

فلماذا عَدَل القرآن عن اكتسب إلى كسب ؟ قالوا : لأن الإنسان والعياذ بالله قد يتعوَّد المعصية ويألف المخالفة حتى تصير له عادة يفعلها فعْلاً طبيعياً ويأنس بها وكأنها طاعة ، وهذا الذى نسميه (فاقد) ولأنه ألفها وتعوَّد عليها بل ويفرح بها عبَّر القرآنُ عنها بكسب التى هى للخير ، ونقل الاكتساب إلى محل الكسب .

لذلك فرَّق القرآن بين مَنْ يفتعل المعصية ويقصدها ويسعى إليها ، ومَنْ تقع عليه المعصية دون إعداد لها ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

معنى (بِجَهَالَةٍ) أى : من غير قصد لها ولا ترتيب ولا بحث عنها ، وإنْ حدث منهم السوء لا يفرحون به ، بل يألمون ويندمون ، أما النوع الآخر فيرتكب السيئات عن قصد ولا يبالى ، وربما فرح بها وجاهر بها .

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٢٦) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : من الأمم السابقة ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : عذاب الدنيا بهزيمتهم ونُصْرة الدين الذى كانوا يحاربونه ويصادمونه ، وهذه أيضاً هى التى حدثتْ للكافرين ، حيث نصر الله الإسلام ، وأظهر مبادئه وقضاياه على مبادىء الكفر ، وهذا فى حَدِّ ذاته لَوْنٌ من العذاب فى الدنيا ، فإذا ما عادوا إلى الله فى الآخرة كان لهم

عذاب آخر أشدّ وأنكى .

إذن : فهم يشبهون من سبقهم من المكذِّبين ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ كَدَأْبِ[1] .. ⦗١١⦘ ﴾ [آل عمران]

لذلك قوله تعالى : (كَذَّبَ) هنا وقوله (كَدَأب) هناك يتبين لنا قضية نفسية فى القرآن الكريم ، هى أن حفاظ القرآن يجب ألاّ يكونوا من العلماء ، خاصةً علماء اللغة والفصاحة ، لأن العالم إذا وقف فى القرآن أمام لفظ أمكنه أنْ يتصرَّف فيه ويكمل قراءته ، فيقول مثلاً : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .. ⦗٦⦘ ﴾ [الحجرات] يقول : فتثبتوا أو فتحققوا ، ويمكن أنْ يستقيم المعنى ، لكن الحق سبحانه يريد لفظاً بعينه لا يجوز أنْ نتعداه إلى غيره ، أما الذى تخصص فى حفظ القرآن ، وليست لديْه ملكَة التصرف هذه ، فإذا نسى أو وقف فى لفظ وقف (بالأربعة) يعنى : لا يمكن له التصرف فيه ، وهذا هو المطلوب فى حَفَظة كلام الله ، وهذه من عظمة القرآن .

لذلك قلنا : إن كمال القرآن لا يتعدَّى ، كيف ؟ فمثلاً لو أردنا لإنسان أنْ يُرقِّق أسلوبه ويُقوِّيه فى الأداء الإنشائى ننصحه بأنْ يقرأ كتب الأدب عند المنفلوطى والرافعى وغيرهما ، فلما يُكثر من هذه القراءات نلاحظ تحسُّناً فى أسلوبه وأدائه .

ثم إن حافظ القرآن المتمكن منه حتى لو حفظه بالعشرة وقيل له اكتب خطاباً تجده لا يستطيع أن يكتبه فصيحاً أبداً لماذا ؟ لأن كمال

---

(١) ذكر الطبرى فى تفسيره عدة أقوال منها : كسُنَّتهم وعزاه للربيع . والبعض قال : كعمل آل فرعون . منهم الضحاك . وقال ابن زيد : كفعلهم كتكذيبهم حين كذَّبوا الرسل . وقال عكرمة ومجاهد : كشأن آل فرعون .

القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، إنما بلاغة البشر تتعدى إلى البشر .

وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزمر] أى : من حيث لا يُقدِّرون ولا يحتسبون ، حيث يداهمهم من العذاب ما لم يكُنْ فى حسبانهم ، ولم يخطر لهم ببال ، كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] أى : فوجِئ به ، فوجِئ بحسبان آخر غير ما كان ينتظر ، لأنه كذَّب فى الدنيا بالبعث وبالحساب ، والآن يُفاجئه الحساب الذى كذَّب به .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الزمر] هنا نقل الإذاقة الحسية إلى الإذاقات المعنوية ، والخزى والذلة نوع من العذاب ، ولها إيلام يفوق الإيلام الحسِّىَّ ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ، إنما تؤلمه كلمة جارحة تخدش عِزَّته وكرامته .

لكن لماذا أذاقهم اللهُ الخزىَ فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ؟ أذاقهم الخزى لأنهم تكبَّروا على الحق وتجبَّروا ، وجاءوا بقَضِّهم وقضيضهم[1] فى بدر لمحاربة الإسلام ، وظنوا أنهم (العناتر) والجولة جولتهم ، المراد إذن صناديد قريش ورؤوس الكفر أمثال عتبة وشيبة والوليد وغيرهم ، جاءوا بالعدد والعُدة ، وما خرج المسلمون لقتال إنما خرجوا للعير ، ومع ذلك أعزَّ اللهُ جنده وأخزى عدوه ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر وذلّوا ، وكان الخزى لهؤلاء أنكَى من القتل .

إذن : كان لهم الخزى فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم عذاب :

---

(١) بقضهم وقضيضهم : أى بجمعهم ، لم يدَعُوا وراءهم شيئا ولا أحداً . والأصل : جاء بالقضّ والقضيض . فالقض الحصى ، والقضيض ما تكسَّر منه ودقّ . [لسان العرب – مادة : قضض] .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] نعم ، عذاب الآخرة أكبر من خزى الدنيا وأشدّ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] لأن الذين علموا هذه الحقيقة انتهوا وآمنوا ، أما هؤلاء فعاندوا وكابروا وكذَّبوا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾

حينما نتتبع لفظ (مَثَل) فى القرآن الكريم نجده مرة بصيغة (مِثْل) ، وهى تفيد تشبيه شيء بشيء مفرد كما تقول : زيد فى شجاعته مثل الأسد ، الرجل فى كرمه مثل الغيث ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] وهى تفيد تشبيه صورة مُنْتزعة أو مُكوَّنة من عدة أشياء بصورة أخرى مُكوَّنة من عدة أشياء يعنى : تشبيه حالة بحالة .

ومن المثل فى القرآن الكريم مَثَلُ الحياة الدنيا فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحياة الدنيا ليست تشبه الماء وحده ، إنما ماء نزل من السماء واختلط بتراب الأرض فأخرج النبات لكن سرعان ما يهيج ثم يصفر ثم يجف ويتفتت ، حتى يصير هشيماً تذروه الرياح ، كذلك حياة

الإنسان فى الدنيا ، تزهو لك الحياة ثم تنتهى بالموت ، هذه صورة تمثيلية مُكوَّنة من عدة أمور تشبه عدة أمور أخرى ، وما دامت الدنيا على هذه الصورة فاحذروها ، ولا تركنوا إليها ولا تغترُّوا بها .

ومن الصور التمثيلية فى القرآن أيضاً قوله تعالى فى الذين حُمِّلوا التوراة ، ثم لم يستفيدوا منها : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] .. (٥) ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء ليسوا كالحمار وحده ، بل كالحمار الذى يحمل الكتب ، ولكنه لا يفهمها ، والحمار ليست مهمته أنْ يفهم إنما مهمته أنْ يحمل ، أما هؤلاء فمهمتهم أنْ يحملوا وأنْ يفهموا ما حملوه ، وبذلك تميّز الحمار عنهم .

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

---

(١) السِّفر : الكتاب الذى يسفر عن الحقائق . وقيل : الكتاب الكبير ، لأنه يبين الشىء ويوضحه . والسفر : جزء من أجزاء التوراة والجمع أسفار . والمعنى : أعلم الله تعالى أن اليهود مثلهم فى تركهم استعمال التوراة وما فيها كمثل الحمار يُحمل عليه الكتب ، وهو لا يعرف ما فيها ولا يعيها . [تاج العروس – للزبيدى] .

(٢) الشطء : فرخ الزرع والنخل . وقيل : هو ورق الزرع . وقال الزجاج : أخرج شطأه : أخرج نباته . [لسان العرب – مادة : شطأ] .

تأمل هذا المثل ، تجد الحق سبحانه مثَّل محمداً وصحبه فى التوراة بمثَّل معنوى عبادى ، لأن اليهود تغلب عليهم الماديات ، وجاء بمثل مادى فى الإنجيل لأن الإنجيل ليس فيه إلا روحانيات ، فلما طغتْ المادية على اليهود ذكر لهم المثل المعنوى ، ولما طغتْ الروحانيات على النصارى جاء لهم بمثَل مادى ، فكان ولابدّ أنْ يجىء الإسلام وسطاً يراوح بين الماديات والروحانيات .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا .. (٢٧) ﴾ [الزمر] الضرب قلنا : هو إيقاع شىء فوق شىء بقوة وشدة ليحدث فيه أثراً ، ومن ذلك الضرب فى الأرض أى : حرثها والاعتناء بها لتعطيك من خيرها ، وضَرْب المثل يكون لأنه فى ظاهره غريب ، فنقول لك : لا تستغربه فهو مثل كذا وكذا فيتضح المقال ويزول الاستغراب ، والمثَل يشبه المختلف فيه بالمتفق عليه . كما فى المثل السابق ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ومادة مثل فى القرآن الكريم وردتْ إحدى وأربعين مرة بلفظ مثل ، واثنتين وعشرين مرة بلفظ مَثلاً ، وثلاث مرات بلفظ مثلهم .

ومن طريف الصور التمثيلية قَوْلُ الشاعر يصف رجلاً أحدب ، ويُصوِّره لك كأنك تراه بالفعل :

قَصُرَتْ أخادعهُ وغَاصَ قَذَالهُ ... فكأنَّهُ مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنَّمَا صُفعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً ... فَأحسَّ ثانيةً لَهَا فَتجمَّعَا[1]

(١) ذكر هذين البيتين عبد الرحيم العباسى فى « معاهد التنصيص » . وشهاب الدين الخفاجى فى « ريحانة الألبا » من شعر عبد الله بن النطاح وأسماه العماد الأصفهانى فى « خريدة القصر » [أبو محمد عبد الله بن الطباخ الكاتب] . وفيه : وكأنه قد ذاق أول صفعة .

وقوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] يفيد العموم ، يعنى : لوّنا لهم الأمثال لنُبين لهم قواعد الدين بما يشاهدونه من الماديات ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [الزمر] يعنى : يتأملون هذه الأمثال ، ويضعون كل مثَل مقابل مثاله ، وليأخذوا من المشاهد دليلاً على ما غاب ، ومن المتفق عليه دليلاً على المختلف فيه .

وقوله سبحانه : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] أى : أن هذه الأمثال جاءت قرآناً عربياً مبيناً واضحاً لا عوجَ فيه ، وهو كتاب يُقرأ ويكتب وتتكرر تلاوته فى العبادة ، وهو محفوظ لا يناله تحريف أو تبديل والذى يحفظه قائله سبحانه ، إذن : فهذه الأمثال باقية ببقاء القرآن خالدة بخلوده ستظل أمامكم تفيدون منها ، كلما عرضتْ لكم قضايا الحياة وجدتم الحلّ لها .

وقوله : ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] ليس مائلاً إلى جهة من الجهات ، بل هو مستقيم ، لأنه التشريع الحقّ من الله الذى لا يُحابى أحداً ولا يجامل أحداً حتى رسله ، واقرأ قوله سبحانه لنبيه وخيْر رسله محمد ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء]

وفى سورة الكهف وصف القرآن بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا .. (٢) ﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾ [الزمر] أى : يتقون صفات الجلال من الله تعالى ومُتعلقاتها من التعذيب بأىٍّ لون من ألوان العذاب .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا(١) لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا مَثَل ضربه الله لبيان قضية التوحيد ، ويوضح من خلاله الفرق بين عبد لسيد واحد ، وعبد لعدة أسياد ، وهذه صورة مكوّنة من عدة عناصر ، فالرجل مملوك لشركاء ، وليْتهم متفقون على شيء ، إنما متشاكسون مختلفون ، كل منهم يأمر بشيء ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإنْ أطاع سيداً عصى الآخر .

إذن : كيف يبدد نفسه ؟ وكيف له أن يستريح فهو دائماً فى حيرة من أمره ؟ أما الآخر ، فعبدٌ لسيد واحد ، أمره واحد ، وهو مرتبط بسيده ، قاصرٌ خدمته عليه .

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] ويترك الحق سبحانه لك أنْ تجيب أنت على هذا التساؤل ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] لا نملك إلا أنْ نقول : لا يستويان أبداً ، ونُقر نحن بهذه الحقيقة ، وهذا هو مقصد القرآن أنْ نُقر نحن بها ، لا أن تُلقى إلينا كخبر من الله تعالى ، وهذا الذى نحكم به يقوله كلُّ عاقل ، ولا يردّه أحد .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره للآية : ﴿ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم ، يقال : رجل شكس شرس إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس لا يرضى بالإنصاف . ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] قرأ أهل مكة والبصرة (سالماً) بالألف أى : خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه .

فالعبد المملوك لسيِّد واحد ، كمَنْ آمن بالله تعالى وأخلص له العبادة وحده سبحانه ، والعبد المملوك لشركاء متشاكسين مثال للعبد الذى أشرك مع الله فى العبادة ، وعليك أنت أنْ تعتبر .

وقوله سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] أى : الحمد لله على أنْ ضرب لنا الأمثال ، وأوضح لنا الأمورَ لنأخذ المعقول المعنوى بالمُحَسِّ المادى ، فالذى يعبد الله وحده لا شريك له يعيش مرتاحَ البال ، هادىء النفس ، مطمئن القلب ، على خلاف مَنْ يعبد آلهةً متعددة ، فهو مشتَّتُ النفس ، غير مستقر البال ، إنْ أرضى سيداً أغضب الآخر ، وليس لديه القوة التى تعينه على إرضاء الجميع ، فهو أشبه بالخادم الذى يقول (أناح أقطع نفسى ؟)

فالحمد لله الذى نزَّل القرآن عربياً ، لا عوَجَ فيه ، والحمد لله الذى ضرب لنا فيه الأمثال التوضيحية التى تُقَرِّب ما تقف فيه العقول بالذى تتفق فيه العقول .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] أى : لا يعلمون هذه القضية ، لا يعلمون أن الإيمانَ بالإله الواحد الحق والعبودية الخالصة له سبحانه فيها سعادة العبد وراحته ، وأن العبوديةَ لآلهة شتى فى شقاوة العبد وتعبه .

وهم لا يعلمون هذه الحقيقة لأنهم ما وضعوا قضية الإيمان بالربوبية موضعَ البحث العقلى ، بل أخذوها هكذا بلا تأمُّل ، المهم عنده أنْ يكون لهم إله ليس له أوامر ولا نواه ، إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وما أحسنَ هذا الإله الذى تأخذه على مزاجك ، ووفقاً لهواك .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] طمأن أهل

الإيمان وأهل التوحيد ، فهم وإنْ كانوا القلة إلا أنهم موجودون ، فالخير لا يُعدم مهما كان قليلاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) ﴾ [الواقعة]

وقال في أصحاب اليمين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠) ﴾ [الواقعة] فالخير إذن في هذه الأمة .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

كان كفار مكة إذا أصاب رسول الله ﷺ سوء أو وعكة صحية ، أو نزلتْ به شدة كما حدث في أُحُد يفرحون لذلك ، فما بالك لو مات رسول الله ؟ لذلك يقرر القرآن لرسول الله ﷺ هذه الحقيقة ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر] فعلامَ يفرحون وهذه نهاية الجميع ، كما قال في موضع آخر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾ [الأنبياء]

لكن المسألة لن تنتهي عند هذا الحدّ ، إنما بعد الموت حياةٌ أخرى ، فيها حساب وجزاء ووقوف بين يدي الله تعالى ، وساعتها سيكون النبي ﷺ في أعلى مقام ، أما أنتم فسيكون موقفكم موقفَ المخالفين لله ، فماذا تقولون ؟ هذا معنى قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾ [الزمر]

ومعنى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ .. (٣٠) ﴾ [الزمر] هكذا بالتشديد . أي : ذاهب مُنْته إلى الموت فـفرْق بين ميّت بتشديد الياء وميْت بسكونها ، ميّت يعني من سيموت ويؤول إلى الموت ، ولو كان حيّاً ، لأن الله خاطب

رسوله وهو ما يزال حياً . أما ميْت فمَنْ مات بالفعل .

ومن ذلك قول الشاعر :

وكُلُّ أَنَامِ اللهِ فِي النَّاسِ مَيِّتٌ ... وَمَا امِيْتُ إِلاَّ مَنْ إِلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر] فيه تطمينٌ وتأسية لرسول الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] وهنا قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾ [الزمر]

يعني : إما أنْ ترى انتقام الله منهم في الدنيا وإلا ففي الآخرة ، إذن : من مصلحتك أنت أنْ تنتقل إلى الرفيق الأعلى لنختصر المسافة ، وترى بعينك مصارع الكافرين المعاندين ، فلا تضعف ولا تذل ؛ لأن لك مآلاً عند الله تأخذ فيه جزاءك ، ويأخذون جزاءهم .

والحق - سبحانه وتعالى - لما تكلَّم عن الموت في سورة تبارك ، قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك]

فتأمل ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] وجعل الموت أولاً مع أنه بعد الحياة ، ذلك لأن الحياة ستعطيك نوعاً من الغرور ، حين ترى جوارحك تستجيب لك ، والأسباب تستجيب لك والدنيا تعطيك فلا بُدَّ أن يدخلك الغرور ، فأراد الحق سبحانه ألاّ نستقبلَ الحياة بالغرور ، بل نستقبلها أولاً بهذه الحقيقة التي تناقض الحياة وهي الموت .

إذن : فالعاقل يفهم أنه صائر إلى الموت ، ويقضي رحلة حياته وهو على ذكْر لهذه النهاية .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر]

وستكون أول خصومة بين الأنبياء ومَنْ كفروا بهم هي مسألة البلاغ حين يشهد الرسل أنهم بلَّغوا أقوامهم رسالة الله ، فإذا بهم يتعللون ، يقولون : اعتقدناه سحراً ، اعتقدناه كذباً ، اعتقدناه تخييلاً ، لكنهم ما فطنوا إلى أن الله أكّد هذا بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فضّل الله أمةَ محمد ﷺ بأنها حملتْ رسالة رسولها ، وهذه مسألة لم تحدث مع الرسل السابقين ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] والدليل على حَمْل الأمة لهذه الرسالة أنه لم يأتِ رسول بعد رسول الله ، فكأن الله تعالى أمِن أمة محمد على رسالته ، والنبي ﷺ شهد أنه بلَّغ أمته ، وعليهم هم أنْ يشهدوا أنهم بلَّغوا الناس .

وهذا المعنى من معاني الوسطية التي قال الله فيها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

وإنْ كانت تتسع لغير ذلك فلأنها وسط في كل شيء ، فقد رأينا في غير هذه الأمة مَنْ أنكر الإله ، ومنهم مَنْ أثبت آلهة متعددة ، وكلاهما تطرف ، فجاء الإسلام وقال بعبادة إله واحد لا شريك له ، فاختار الوسطية والاعتدال وحلّ هذا النزاع .

لذلك خاطبنا ربنا بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] أي : فيكم نواحي الاعتدال ، فإذا سمعتم مَنْ يقول بالشيوعية، ومَنْ يقول بالرأسمالية ، وإذا رأيتم مَنْ يتعصّب لمذهبه فقولوا :

نحن أمة وسط تركنا للرأسمالية أن تتمَّر طموحها ، لأنه ليس الجميع لديه طموح ، وحين تتمَّر الرأسمالية طموحها لابُدَّ أنْ تخدم المجتمع ، وانظر كم من العمال يعمل ، وكم من البيوت تُفتح .

كذلك الشيوعية فرضنا لهم ما لم يدفعوا إلى غير القادر ، إذن : أخذنا ميزة هؤلاء وميزة هؤلاء ، بدليل أن النظامين اللذين سيطرا على العالم طوال مدة من الزمن بدأتْ شراستهم تقل ، فالرأسماليون أخذوا فى التخفيف من حِدة الرأسمالية ، ونظروا إلى العمال فأعطوْهم حقوقهم وميَّزوهم ، وجعلوا لهم نقابات ... إلخ ، وكذلك الشيوعية قالوا : لا بُدَّ أنْ يوجد فى المجتمع طبقة تقدر أنْ تزنَ الأمور بطموحاتها ، ويجعلوا للعمال فرصاً يعملون بها ، وأخيراً انتهت الشيوعية والحمد لله عن آخرها .

إذن : فأمة الإسلام أمة الوسطية أخذت خَيْر النظامين .

نقول : سيكون فى الآخرة الاختصام الأول بين الأنبياء ومن كذَّب بهم ، واختصام بين أئمة الكفر ومَنْ تبعهم ممَّنْ أضلوهم وأغووْهم ، بين القوم الذين أثروا فى السفهاء ، وجعلوهم تابعين لهم فى الكفر .

وقد صوَّر القرآن هذه الخصومة فى هذا الموقف ، فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء . [لسان العرب - مادة : كرر] .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا بدّ أنْ يختلفوا الآن ، ويلعنَ بعضهم بعضاً ، ويُلقى كلّ منهم التبعية على الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) ﴾ [الصافات]

هكذا يختصم التابع والمتبوع ، وتتفرّق جماعتهم ولا يتناصرون كما تناصروا على كفرهم فى الدنيا .

ويُصوِّر القرآن موقفاً آخر للكافرين ، حيث سبق قادتهم ورؤساؤهم إلى النار ، فجاء التابعون فوجدوا السادة قد سبقوهم ، يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[2] (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) ﴾ [ص]

وكوْنُ القادة يسبقون أتباعهم إلى النار يدلُّ على أنهم أعظم جُرْماً من التابعين لهم ؛ لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم وأضلُّوا غيرهم ، وفيه أيضاً قطْعٌ لأمل التابعين فى النجاة والخلاص من النار ، ومَنْ

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق . والخلالة : الصداقة والمودة . [الصحاح للجوهرى – مادة : خلل] .

(٢) الغسَّاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . وقيل : ما يسيل من دموعهم . [لسان العرب – مادة : غسق] .

يخلصهم وقد رأوا سادتهم وقادتهم قد سبقوهم إليها ؟

وفي المقابل يعرض الحق سبحانه هذا الحوار بين المؤمنين في الجنة : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أي : صاحب من أهل الكفر ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(١) (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات]

يعني : نظر من السور فإذا بقرينه في سواء الجحيم ، يعني : في وسطها . فقال : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] تهلكني معك ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٢) (٥٧) ﴾ [الصافات]

وقد يكون حواراً بلا خصام ، كما في قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ (٣٢) وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾

(١) أي : مجزيون بأعمالنا . يقال : دنته بما صنع أي جازيته . قاله ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير سورة الصافات . وقال ابن كثير في تفسيره : « قال مجاهد والسدي : لمحاسبون . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي : لمجزيون بأعمالنا . وكلاهما صحيح » .

(٢) أي : ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم مُحْضَر معك في العذاب ، ولكنه تفضل عليَّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده . [تفسير ابن كثير - سورة الصافات] .

الاستفهام في ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر] يحمل معنى التعجب والإنكار يعني : لا أحدَ أظلمُ من هذا الذي يكذب على الله ، فلو كذب على غير الله لكان منكراً ، فما بالك وقد كذب على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم حقائق الأشياء سرِّها وعلانيتها .

إذن : فالكذب على الله خيبة ، وإنْ كنت ولا بُدَّ ستكذب فاكذب على إنسان مثلك هو أيضاً عُرْضة لأن يكذب .

لذلك جاء لفظ ﴿أَظْلَمُ﴾ على وزن أفعل التي تدل على المبالغة ، لأن أفظعَ الظلم وأعظمه أنْ تكذب على الله ، لكن مَنْ ظلم ؟ أظلم مَنْ يكذب عليه أم ظلم نفسه ؟ بل ظلم نفسه .

ولم يقف الأمر عند هذا بل ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر] لأن التكذيب بالصدق ينقل القضايا إلى نقيضها ، والشيء الصدق هو الذي لا يُقال لقائله كذبت ، لأنه إخبارٌ بأحداث يُصدِّقها الواقع وسبق أنْ قلنا : إن النسبة الكلامية إذا وافقتْ نسبة الواقع كان الكلام صادقاً ، وإذا خالفت الواقع كان كاذباً .

ثم يستفهم الحق - سبحانه وتعالى - وهو أعلم : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر] يعني : ما ظنّ هؤلاء الذين يكذبون على الله ويُكذبون بالصدق ، ألم يعلموا هذه الحقيقة وهي أن جهنم مثوى للكافرين المكذِّبين ، لو كانت هذه الحقيقة في بالهم ما اجترأوا على الله ، إنما هم كاذبون يقولون غير الواقع ولا يؤمنون به .

وبعد ذلك ينتقل إلى خصوصية الصادق ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر] وهو محمد ﷺ الذي تلقّى عن ربه وبلّغ أمته ، وقد أكد الله تعالى صِدْق رسوله في مواضع كثيرة ، منها :﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

إذن : مسألة الكذب على الله مسألة لا يُحابى فيها أحد حتى الرسل ، لذلك جاء بلاغه ﷺ عن ربه دقيقاً ، فتراه لا يبلغ مضمون المقولات ، إنما يبلغ المقولات ذاتها ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فكان بإمكانه ﷺ أنْ يقول لقومه : الله أحد . وبذلك يكون قد بلَّغ المراد من الآية إنما قال كما جاءه من ربه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فذكر الأمر بأنْ يقول (قل) .

والعجيب أنْ يطلُعَ علينا مَنْ يقول بحذف مثل هذه الكلمة بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، ونقول : هذا ليس كلامَ بشر ، بل هو كلام الله وقرآنه ، وقد حفظه الله بنفسه وبلَّغه رسوله كما تلقَّاه عن ربه .

أرأيتَ لو أرسلتَ ابنك ليُبلِّغ عنك قضية مثلاً وقلتَ له : اذهب إلى فلان وقُلْ له كذا وكذا ، وبإمكان الولد أنْ يبلغ مضمون القضية ، لكنه حين يقول : أبى قال لى قُلْ لفلان كذا وكذا ، فهذا يعنى أنه يؤكد الكلام ويهتمّ بالرسالة كما تلقاها ، إذن : لو حُذفَتْ كلمة (قُلْ) فقد حُذفَتْ كلمة من القرآن ، لا كلمة زائدة عليه .

وقوله :﴿ وَصَدَّقَ بِهِ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : صدَّق بالصدق الذى جاء به ، صدَّق هو أولاً ولم ينتظر منا أنْ نُصدِّق نحن أو نشهد بذلك ، لقد أخذ الرسول عن ربه أنه إله واحد ولا شريكَ له فشهد بذلك أولاً

---

(١) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه . قال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب - مادة : وتن] .

وصدَّق ، كذلك الحق سبحانه لم ينتظر شهادةَ العباد بوحدانيته إنما شهد بها لنفسه أولاً ، فقال سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وبعد أنْ شهد اللهُ لنفسه بالوحدانية وجب على الرسول أيضاً أنْ يشهد بأن محمداً رسولُ الله ، إذن : جاء بالصدق وصدَّق هو به وقال هو عن نفسه : أشهد أن محمداً رسول الله . كذلك شهد الملائكة بهذه الوحدانية ، وشهد بها أولو العلم شهادةَ الحجة والدليل والبرهان .

وقالوا[1] : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] هو رسول الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] أي : الذين صدَّقوا رسول الله في أول بلاغ له عن ربه ، سواء أكان أبا بكر رضي الله عنه أم السيدة خديجة رضي الله عنها ، وقد اختلفوا في هذه المسألة : أهو أبو بكر أم خديجة ؟ وليس في المسألة خلاف . فإذا قيل : أول مَنْ آمن من الرجال نقول أبو بكر . ومن النساء : خديجة .

والواقع أن السيدة خديجة آمنتْ برسول الله وصدَّقته في أول الأمر ، وربما قبل أنْ يبلغ أبا بكر الخبر ، وتعلمون موقفها من رسول الله حين جاءه الوحي ، وأنها ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن

---

(١) اختلف المفسرون في الذي جاء بالصدق والذي صدَّق به على أقوال :

- الذي جاء بالصدق : النبي . وصدَّق به : أبو بكر . قاله علي بن أبي طالب .
- النبي . وعلي . قاله مجاهد .
- الذي جاء بالصدق : جبريل . وصدق به : محمد . قاله السدي .
- الذي جاء بالصدق : النبي . وصدق به : المؤمنون . قاله ابن زيد ومقاتل وقتادة .

راجع الأقوال كلها في تفسير القرطبي (٥٩٠١/٨) .

نوفل [١] ، فقال : إنه نبيٌّ هذه الأمة ، ولكي يؤكد لها هذه القضية قال : وإنْ يدركني يومك لأنصرنَّك نصراً مؤزّراً ، ليتني أكون حياً يوم يُخرجك قومك ، قال : أو مخرجي هم ؟ قال : ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا أوذِي ولتُخرَجُنَّ [٢] .

أما الصِّديق أبو بكر فلما أخبروه أن صاحبك يزعم أنه رسول قال : إنْ كان قال فقد صدق ، [٣] إذن : كيف صدَّق أبو بكر وهو لم يَرَ من رسول الله معجزةً تدل على رسالته ؟

قالوا : ليست المعجزة (عياقة) لا يؤمن الناس إلا بها ، إنما المعجزة جُعلَتْ لمن يكابر في التصديق ؛ لذلك جاءت معجزةُ القرآن تحدياً للكافرين والمعاندين المكذِّبين ، أما مَنْ آمن برسول الله أولاً فلا يحتاج إلى معجزة ، وأيُّ معجزة جعلتْ أبا بكر يؤمن ويُصدِّق برسول الله بهذه السرعة ؟

قالوا : لأنه لم يُجرِّب على رسول الله كذباً أبداً قبل ذلك ، فإذا كان صادقاً في أموره مع الناس أيكذب على الله ؟ إذن : أخذ أبو بكر المعجزة من تاريخه مع رسول الله ، وكذلك السيدة خديجة بدليل أنها

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد ، من قريش ، حكيم جاهلي ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني . ابن عم خديجة أم المؤمنين . توفي عام ١٢ ق هـ .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن البشير . وأورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٥٦) وفيه أن ورقة قال : « والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتُخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

هى التى شجَّعته وآزرته وقالت : والله لا يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتعين على نوائبِ الدهر [١] فمعجزة محمد لمَنْ آمن به أولاً تاريخه وسيرته بينهم .

وأنتم تعلمون حديث رسول الله ﷺ عن خزيمة [٢] الذى يقول فيه : « مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه » [٣] ونصاب الشهادة معروف ، فكيف جعل رسول الله خزيمة نِصاباً وحده فى الشهادة ؟ وبم استحق هذه المنزلة ؟

قالوا : لأنه فاز بجدارة فى قضية التصديق برسول الله حينما اقترض رسول الله مبلغاً من المال من يهودى ، ثم أدَّاه إليه فى موعده ، لكن جاء اليهودى يدَّعى أنه لم يأخذ دَيْنه من رسول الله ، وذهب إلى رسول الله أمام الناس يقول : يا محمد أو يا أبا القاسم أعْطنى دَيْنى ، فقال رسول الله : لقد أعطيتُك ، فقال : ومَنْ يشهد على ذلك ؟ فقام خزيمة وقال : يا رسول الله أشهد أنك أعطيته دَيْنه .

ولأن اليهودى كان كاذباً فى ادعائه صدَّق بشهادة خزيمة وقال

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكلَّ » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و« تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » : حادثات الأيام . انظر: شرح النووى على مسلم (٥٦١/٢) ، وفتح البارى للعسقلانى (٢٤/١) .

(٢) هو : خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ، عاش إلى خلافة على بن أبى طالب ، وشهد معه صفين فقتل فيها عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٨/٢) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠١/٤) ، من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٣٢٠/٩) : « رجاله كلهم ثقات » .

فى نفسه : لعله كان حاضراً ولم أرَه ، لأن اليهودى أخذ دَيْنه من رسول الله ولم يكُنْ أحدٌ موجوداً معهما ، عندها خنس اليهودى وانصرف ، فاستدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة لم يكُنْ معى أحد حين أعطيتُه حقه ، فكيف شهدتَ أنك رأيتنى أعطيه ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأصدقك فى خبر السماء وأكذبك فى عدة دراهم ؟ فأعجب رسول الله باستنتاج خزيمة ، ورآه اجتهاداً جميلاً ، فقال فيه : « مَنْ شَهِدَ له خُزيمةُ فحسْبُه » .

والمسألة ليست على دراهم اليهودى ، إنما لها واقعٌ آخر ، حينما أرادوا أن يجمعوا القرآن تحرَّوْا فيه أقصى درجات الدقة ، فكان الجامع لا يكتب كلمة واحدة فى المصحف الجامع إلا إذا رآها مكتوبة ، وشهد عليها شاهدان ليتأكد من صدقها فى الصدور وفى السطور ، حتى وقف أمام آية كُتبت وشهد عليها شاهد واحد فتوقف ، فلما رأى أن هذا الشاهد هو خزيمة تذكَّر قول رسول الله فيه : « مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه » فكتبها .

ومن مواقف التصديق ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج . وقالوا له : إن صاحبك يدَّعِى أنه أتى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء فى ليلة واحدة ، لم يبحث المسألة ولم يناقشها إنما صَدَّق بداية وقال : إنْ كان قال فقد صدق . فميزان الصدق عنده مجرد أنْ يقول رسول الله .

وقوله :﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : الذين أخذوها من قصيرها كما يقولون ، وجعلوا بينهم وبين صفات الجلال من الله وقاية .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله :﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر] أي : متوفر لهم كلّ ما يشاءون ، لكن عند مَنْ ؟ ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر] حين تكون لا عندية إلا لله وحده ، هذه العندية هي معنى قوله تعالى :﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

فالعندية تكون للناس في الدنيا ، فهذا موظف عند هذا ، وهذا خادم عند هذا ، أما في الآخرة فالعندية لله وحده ، وفي هذه العندية ينال المؤمن ما اشتهاه في الدنيا ولم يحصل عليه في الآخرة يقول الله ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر] ولم يقُلْ لهم ما يشاءون ، بل ما يشاءون عندي أنا . أي : بلا أسباب ، لأن الأسباب كانت في الدنيا ، وما تريده بالأسباب قد لا يتحقق لك ، وإنْ كان في يدك لأن الله يزاول سلطانه بواسطة خلفائه في الأرض ، فيجعل هذا سبباً في رزق هذا ، وهذا يعين هذا ، والأسباب قد تتخلف أما في الآخرة فلا أسبابَ ، بل هو عطاء الله المباشر بلا سبب .

وفي سيرة أكابر الرسل أحداثٌ توضح لنا هذه العندية لله تعالى ، فسيدنا إبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – أول ما دعا دعا عمه آزر ، وجادله في مسألة الأصنام ، فلما رآه مُصراً على عناده

قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ .. (٤٧) ﴾ [مريم]

كلمة السلام هنا ليست سلام الأمن والطمأنينة ، ولا سلامَ التحية ، إنما سلام الموادعة لأنهما مختلفان فى الرأى ، ولن يثمر الجدل مع العناد والمكابرة ، فطول الجدال لن يُزيد المسألة إلا تعقيداً وعداوة ، ومن الأفضل فى مثل هذا الموقف أن ينسحب منه صاحب الحقِّ حتى لا تشتعل نارُ الخلافات أكثر من ذلك ، كما تقول لصاحبك فى مثل هذا الموقف : يا عم سلام عليكم لتنهى الموقف ، فالسلام عليكم هنا تعنى أننى لو لم أترك هذا المكان لن يحدث سلام . وقد يكون سلامٌ من البشر لا يقدرون على أدائه .

لذلك ، فإن السلام الحق من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

الشاهد هنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - شاء أن يستغفر لعمه ، فلم يُجَبْ إلى ذلك ، شاء فى الدنيا لكن الله لم يشأ ، كذلك سيدنا رسول الله ﷺ شاء أنْ يستغفر لعمه أبى طالب بعد أنْ دعاه فلم يستجب ، وأصرَّ على دين آبائه ، فلما استغفر له رسولُ الله أنزل الله عليه :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ .. (١١٣) ﴾ [التوبة]

فقد شاء محمد ﷺ أن يستغفر لعمه ، لكن لم يُعْط ذلك ، لأن هذه المشيئة منه فى الدنيا ليستْ عند الله ، أما مشيئته عند الله فى الآخرة فمستجابة متحققة ، هذا معنى ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣٤) ﴾ [الزمر]

فإنْ كانت للمؤمن مشيئات لا تتحقق فى الدنيا فهى مُدخَّرة له فى الآخرة عند ربه ، هذه المشيئات التى لا تتحقق يسترها شىء

واحد أن أكرم المشيئة أنْ تشاء من الله أنْ ينصر دينه ، وقد تحققت هذه المشيئة .

إذن : فالمشيئة التى لا تتحقق هى التى تعود على نفسك ، أما المشيئة التى تطابق الإيمان بمنهج الله فهى لا بُدَّ متحققة كما تحققت مثلاً فى بدر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد منا حين نكون مؤمنين به ومُصدِّقين لرسوله ألاَّ تكون لنا مشيئة فى غير ديننا ؛ لأن المشيئة فى غير الدين يمكن أن تكون فى أيدى الناس فلا يحققوها لك ، وربما مات المؤمن قبل أنْ يرى مشيئته بنصر دين الله فيدخر له ذلك فى الآخرة .

إذن : المهم عنده أن تكونَ المشيئة خاصة بنصر دين الله على مَنْ يكذبه ويخالفه ، وهذه المشيئة متحققة بدليل : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) ﴾ [الزمر] صحيح هناك عمل ، وهناك فضل ، وتشريع الجزاء على العمل من الفضل ؛ لأن ربنا حينما يثيبنى على شىء يعود علىَّ بالنفع يُعد هذا الجزاء زيادة ، والأصل أن يقول لى : لقد أخذتَ جزاءك منفعةٌ بالعمل الذى عملته ؛ لأن خالقك أعطاك كل الأسباب ، أعطاك الجوارح التى تعمل بها ، وأعطاك الأرض والمال والهواء والماء والطعام ، فإنْ أثابك على العمل كان من فضله .

والمحسن درجةٌ أعلى من المؤمن ، فالمؤمن يأخذ ما فرضه الله عليه ويُنفِّذه دون زيادة ، أما المحسن فهو الذى يؤدى ما فرض الله

عليـه ويزيد عليـه من جنس ما فـرض الله ، فمـثـلاً يصلى الصلوات الخمس ثم يزيد عليـها ما شاء من النوافل من صلاة الليل ، كـما قال سبحانه فى المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١) (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يقل هنا (حق مـعلوم) لأن الحق المـعلوم هو الزكاة ، أمـا فى هذا المـقام فـالعبـد يُزكِّى مـاله ، ثم يزيد على ذلك ما شـاء من التطوع والصدقـات ، وهذه الزيادات ما طلبها منك ربك ، إنمـا تؤديها محبةً وتقرباً إليه سبحانه .

إذن : كلمة الإحسـان عند الله فيها نفس مـعنى الإحسان للناس . تقول : أحسنت إلى فـلان حين تعطيه أكثر من حقـه . وحين يجازى اللهُ المحـسنَ إنما يعطيه جـزاءَ إحسانه ، فإذا كـان العبد يحـسن فالله أَوْلَى وأكرم .

والحق سبحـانه أعطانا المثَل الحسِّى للإحـسان فى الأرض ، وما تُخرجه من ثمـراتها فأنت تضـع فيهـا حبة القمح مثـلاً ، فتعطيك فى المقابـل سبعمائة حـبة ، فإذا كان هذا هو عطاء الأرض المـخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سـبحانه ؟ فالمعنى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣٤) ﴾ [الزمر] لمـاذا ؟ لأنهم كـانوا محـسنين ، وهذا جـزاء الإحسـان .

وقوله :﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا (٣٥) ﴾ [الزمر] هذا أيضاً

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتـهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجـع] . والسَّحَر : آخر الليل قبـيل الصبح والجمع أسـحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [اللسـان - مادة : سحر] .

من العطاء الخاص بدرجة الإحسان ، فكلمة أسوأ تدلّ على المبالغة وأقل منها السيئة ، فعندنا سيئة وأسوأ منها ، ولا شكَّ أن السيئة تنصرف إلى الصغائر ، والأسوأ تنصرف إلى الكبائر ، فكأن الذى دخل فى مقام الإحسان ضمن أن مقام الإحسان يكون له مثل مقاصَّة تُسقط عنه ذنوبه ، ليست الصغائر فحسب إنما الكبائر أيضاً ؛ لأن الذى يُكفّر الأسوأ يُكفِّر السيئة من باب أَوْلَى ، هذا لأنك أدخلتَ نفسك فى مقام لم يُطلب منك لمجرد المحبة لمن كلفك .

بل هناك عطاء أعظم من ذلك ، هو أن المسألة لا تنتهى عند تكفير الذنوب والسيئات ، إنما تُبدَّل إلى حسنات ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان]

فتأمّل درجات العطاء من الله ، والربح فى التجارة معه سبحانه .

وبنفس الإكرام والتفضل يجازى اللهُ المحسنين على حسناتهم ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزمر] فكما غفر لهم الأسوأ يجازيهم أحسن الذى كانوا يعملون ، أىْ : بأحسن من عملهم .

هذا العطاء من الله ، وهذا التكرم والتفضل منه على عباده شجَّع الشارد من دعوة الإيمان وحثَّه على العودة إلى حظيرة الإيمان ، فليس هناك ما يحول بينه وبين ربه ، وليس فى الطريق حجر عَثْرة مهما كَثُرت الذنوب ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

والحق سبحانه حينما شَرَع التوبة للعاصين المذنبين شرعها لينقذهم من شراسة المعصية ، فلو قلنا للعاصى : ليس لك توبة ماذا يفعل (يفقد) كما نقول : فلان ده فاقد . يعنى : يئس من الإصلاح فتمادى فى الفساد وبالغ فى الضلال ، والحق سبحانه لا يريد لعباده

ذلك ، ففتح لهم بابَ التوبة ليعطفهم إلى دين الله ، فلا يزداد الانحرافُ فى المجتمع ، ولا تستشرى فيه المعصيةُ .

بعد أن أخبر رسول الله القومَ بهذا المنهج الإلهى فى الجزاء قال المعاندون لرسول الله : نخاف عليك يا محمد أنْ تمسَّك آلهتنا بسوء وقد أغضبتها ، سبحان الله يقولون هذا وهم يعلمون أنها حجارة لا تضر ولا تنفع ، ولما مسَّهم الضر ما وجدوا غير الله يلجئون إليه ؛ ولذلك نزل قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يعنى : يا محمد ، لا تهتم بهذا الهراء فالله حَسْبك وكافيك ، والذى يدل على ذلك أن رسول الله كان يحرسه القوم من المؤمنين مخافة أن يناله المشركون بسوء ، ففوجئوا فى يوم أن رسول الله يسرحهم ويُنهى هذه الحراسة ويصرفها .

ولو لم يكُنْ رسول الله واثقاً أن الذى أمره بصرف الحراس كفيلٌ بحفظه وحمايته لما فعل ذلك فى نفسه ؛ لذلك رأينا المرأة الدنماركية وهى تقرأ فى سيرته ﷺ ، أنه أعظم العظماء الذين تركوا بصمة واضحة فى التاريخ ، وقلبوا ميزان الدنيا ، فلما جاءت عند هذه الحادثة وقرأت ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] وقرأت :﴿ وَاللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] قالت : والله ما فعل محمد ذلك إلا وهو واثقٌ من حماية ربه له ، ولو خدع الناسَ جميعاً ما خدع نفسه ، وآمنتْ بسبب هذه المسألة .

قوله سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦) ﴾ [الزمر] يحلو للبعض أن يقول المعنى : أليس الله كافياً عبده ، ويعتبرون الباء زائدة ، وهذا غير صحيح ، فليس فى كلام الله تعالى حرف زائد ، فالهمزة هنا استفهام إنكارى ، والإنكار يفيد النفى ، بعدها ليس للنفى ونفى النفى إثبات .

يعنى : ننكر أن الله ليس بكاف عبده ، وما دُمْنا ننكر أن الله ليس بكافٍ عبده ، فالنتيجة أن الله تعالىٍ كافٍ عبده .

والحق سبحانه وتعالى : له اسم هو الله ، وله صفات هى التى عرفناها بالأسماء الحسنى ، ومن أسمائه الحسنى الكافى ، فالمعنى إذن : أليس الله موصوفاً بكاف عبده ، فكيف إذن نقول : إن الباء زائدة ؟

إن القول بزيادة الباء هنا يناقضُ بلاغةَ القرآن ، ولا يصح أن نقول : إن فى القرآن حرفاً زائداً ، البعض يتأدّبون مع كلام الله ويقولون : بل هو حرف صلة ، وآخرون يقولون : حرف لربط الوجود ، ولسنا فى حاجة إلى كل هذه التأويلات .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة ، فلو قلنا مثلاً : ما عندى مال ، (ما) هنا تنفى وجود المال الذى يُعتد به ، ولا تمنع أنْ يكون معى جنيه أو جنيهان مثلاً ، لكن لو قلتَ : ما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال ولا حتى مليم واحد إذن : حرف الجر هنا ليس زائداً فى الكلام ، إنما تأسيسى فى لمعنى .

أما الذين قالوا بزيادة الباء فى ﴿ بِكَافٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] فقد اعتبروا (ليس) من أخوات كان التى ترفع الاسم وتنصب الخبر ، فلفظ الجلالة اسمها مرفوع وكباف خبرها ، فالتقدير : أليس الله كافياً عبده ، وهذا ينافى جلال القرآن وبلاغته .

وقوله : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : دعهم يقولون ما يقولون فقد أضلهم الله فمَنْ يهديهم ؟ ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] هذا هو المقابل إذا هدانا الله الطريق ، فلن يُضلنا أحد ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : أليس اللهُ موصوفاً بالعزّة ، فالباء هنا كسابقتها .

والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وما دام هو سبحانه غالباً لا يغلب فاحذروا انتقامه لأنه ﴿ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] فمهما صنعتم بالفكر الفاسد والتبييت والائتمار فلن تغلبوه .

وعجيبٌ من الكفار أنْ يُخوِّفوا رسول الله بالأصنام ، وهم يعلمون حقيقتها وقولهم فيها : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] كلام باطل لغة ، لأن العبادة طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وأى أمر أو نَهْى للأصنام ؟ إذن : هذا الكلام منهم هراء وباطل . لذلك سيدنا خالد بن الوليد لما ألانَ اللهُ قلبه للإسلام أراد رسول الله ﷺ أنْ يبعثه ليهدم العُزَّى ، فلما ذهب إليها خالد وأمسك بفأسه ليكسرها قال لها[1] :

يا عُزّى كُفْرانَك لاَ سُبْحَانَك ... إنِّى رأيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكْ

---

(١) أورده المرزوقى فى كتابه « الأزمنة والأمكنة » – الباب الستون . وكذلك ابن الكلبى فى كتاب « الأصنام » ، والجاحظ فى كتاب « الحيوان » فى فصل نار الاحتيال .

ولو كانتْ هذه آلهةً لخوَّفته ومنعتْ نفسها .

وقف بعضُ المستشرقين عند هذه الآية ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ، وقالوا الأصنام : اللات والعُزَّى ومناة كلها أسماء مؤنثة ، فكيف يقول القرآن (بالذين) وهى للمذكر ولم يَقُلْ باللاتى ؟ ونقول : هناك فَرْقٌ بين اسم للصنم ومُسمَّاه ، يعنى : اسمه صنم . وهذا الصنم سُمِّىَ باللاَّت أو العُزَّى ، فمن حيث هو صنم يكون الجمع مذكراً ، ومن حيث المسمَّى مؤنثاً ، فالذين للاسم أى : للأصنام ، واللاتى للمسمَّى .

ونقف هنا عند هذه المقابلة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] الضَّالُّ هو الذى لا يهتدى لغايته ، كالذى ضَلَّ الطريق لا يدرى أين يتجه ، هذا ضَالٌّ عن غير قصد للضلال لأنه لا يعرف .

وجاءت ضَالّ بمعنى متردد حائر ، فى قوله تعالى مُخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى] لأن النبى رأى أمته تفعل أشياء لا تعجبه ، وهو ما يزال لا يعرف الصواب الذى ينبغى فعْله ، أى : لا يعرف الحقيقة ، لا أنه يعرف ومنصرف عنها ، وفَرْقٌ بين الحالتين . إذن : الضلال هنا غير مقصود .

ويأتى الضلال بمعنى النسيان ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

ومن الضلال أنْ ننسى العهد الفطرى القديم الذى أخذه الله علينا فى قوله سبحانه :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

ومقابل الضلال الهداية ، وهى أيضاً تأتى بمعَانٍ متعددة ، لكن الذين يتوركون على كلام الله ، ويريدون أنْ يعترضوا عليه يأخذونها على معنى واحد ، يديرونه على كل موضوعاتها ، لكن هذا لا يصح .

فالهداية تُطلَق على الدلالة المطلقة ، يعنى : يدلك وأنت حُرٌّ تطيعه أو تعرض عنه . وضربنا مثلاً لذلك برجل المرور الذى يُرشدك ويدلّك على الطريق ، بعدها أنت حر تسلك أو لا تسلك ، فإنْ سلكتَ الطريق الذى دلّك عليه وشكرته على معروفه ، وقلت له : كثر الله خيرك لولاك لَضللتُ الطريق ، فإنه ينظر إليك نظرة أخرى ، ويراك أهلاً للمزيد من الخير . فيقول لك : والله أنتِ رجل طيب ، وسوف أسير معك حتى تمرّ من هذه المنطقة لأن فيها أخطاراً ، وهذه تُسمَّى المعونة ، فالذى يؤمن بمَنْ هدى ودلَّ أهلٌ لأنْ يُعان ، وأنْ يُوفق للمزيد من الهداية .

وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] يعنى : زادهم بمعونتهم وتخفيف مشاقّ الطاعة عليهم ، وصَرْف أسباب الشر عنهم . إذن : فالأُولَى : هداية دلالة مطلقة . والثانية : هداية إعانة وتوفيق .

وهاتان الهدايتان أوضحهما الحق سبحانه فى خطابه لنبيه ﷺ ، فقال فى الأولى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] وقال فى الأخرى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [القصص] فكيف يثبت الهدايةَ لرسول الله فى آية وينفيها فى آية أخرى ، والحديث واحد ، والفاعل واحد ؟

قالوا : لأن الجهة مُنفكة فالهداية المنفية غير الهداية المثبتة ، فالحق يقول لنبيه محمد : أنت مُبلِّغ ومُرشد ودَالٌّ فحسب ، لستَ

واضعَ مناهجَ وليست لك قدرة على أنْ ترغم الناس أنْ يؤمنوا ، إنما عليك أن تبلغ لأن بلاغك هو هداية الله للناس ، لكن ليستْ مهمتك أن تُدخِل الإيمانَ فى القلوب .

ومثلها قوله تعالى فى آية واحدة : ﴿ .. وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

هكذا أثبت لهم العلم ونفاه عنهم فى نفس الآية ، لماذا ؟ لأن الجهة مُنفكَّة ، فالعلم المنفىّ غير العلم المثبت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾ [الزمر] يضلل الله يعنى : ينسبه للضلال يقول : هذا ضال . يعنى : خارج عن الطريق الذى رسمته له ، هذا الذى حكم الله بأنه ضَالٌّ لا يمكن أنْ يصفه صاحب عقل بأنه مُهْتد . لأنه حين يعرض مطلوب الله منه وما يفعله يصل بالعقل الفطرى إلَّى أنه ضال ، ليس بمهتد .

فالحق سبحانه مثلاً قال لنا : اصدقوا فى حديثكم . ونهانا عن الكذب ، فماذا يقول العاقل حين يقارن بين الصدق والكذب ؟ لابد أنْ يقول : الصدق هداية ، والكذب ضلال لا يستطيع أنْ يقول غير ذلك ، خاصة إذا جعل الأمر فى نفسه هو : أتحب أنْ يصدُقَ الناسُ معك ، أم أنْ يكذبوا عليك ؟

إذن : فمَنْ يُضلل الله ويحكم بأنه ضَالٌّ بعد أنْ بيَّن له الطريق لا يقدر أحد أنْ يصفه بالهدى ، لأن هداية الله أمرٌ تتفق فيه كل العقول الفطرية ، خصوصاً إذا مسَّك أنت عاقبة هذا الضلال واكتويتَ بناره .

لذلك تجد الكذاب يحب الصادق ، والشرير يحب الخيِّر الشريف وضربنا مثلاً لذلك بثلاثة من الشباب بالمراهقين الذين يسيرون فى الحياة على (حَلِّ شعرهم) ، ويسلكون الطريق البطال ، واحد منهم تاب الله عليه واعتزلهم ، فراحوا يسخرون منه ويصفونه بالجردل

والقفل .. الخ . ثم أراد واحد منهما أنْ يزوج أخته ، لمن يُزوجها لزميله الذي يوافقه على الشر والفساد ، أم للآخر الذى تاب واعتزل شرهم ؟ إذن : قد يُغريك الباطل ، لكن لا بُدَّ فى النهاية أنْ يغلب الحق ، وأنْ يظهر ويعلو ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] فاصبر على طريقه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُسفِّه أحلامهم فى أنْ يعبدوا أصناماً ، وأراد سبحانه أنْ يقيم عليهم الدليل والحجة على بطلان هذه العبادة ، وأنْ يكون هذا الدليلُ إقراراً منهم لا خبراً منه سبحانه ، وقلنا : إن إثبات الحكم إما أن يكون خبراً منك ، أو إقراراً من المقابل . والإقرار - كما قلنا - سيد الأدلة ، وأنت لا تترك للمخاطب أنْ يحكم هو إلا إذا كنت واثقاً أنه سيقول ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : ألم أُحْسن إليك يوم كذا وكذا ؟ لا تقولها إلا وأنت واثقٌ أنه لا يستطيع أنْ ينكر .

لذلك فالحق سبحانه يسألهم هنا عن عمدة الكون فى الخَلْق أو الظرف الأعلى الذى يحوى المخلوقات كلها وهو السموات والأرض ، فالإنسان خُلق له الكون قبل أنْ يُخلق ، فطرأ على أرض فيها زرع ونبات وماء وهواء وتربة صالحة ، وطرأ على سماء فيها الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] لا بدّ أنْ يقولوا الله ، والله وحده لأنهم أداروا فكرهم فلم يجدوا أحداً ادعى هذا الخَلْق ، ولم يأت ببال أحد من الكافرين أو المعاندين أو المنكرين لوجود الله لم يأت على باله أنْ يدّعى هذا الادعاء .

ولو تتبعنا خَلْق الإنسان من لَدُنْ آدم عليه السلام ومَنْ جاء من ذريته نجده طرأ على هذا الكون بسمائه وأرضه ، فلو سألناه : أأنت خلقت السماء والأرض ؟ لا يستطيع أنْ يقول : أنا خلقتهما .

فاسألهم أنت يا محمد هذا السؤال : ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ (٣٨) ﴾ [الزمر] ولابدّ أنْ يقولوا (الله) لأنه ما مرّت فترة على موجود ليس فى وجوده أرض وسماء ، حتى يُقال إنه أوجدها لما جاء ، بل الجميع طارئ على هذا الكون .

ومثلها تماماً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] لأن أول مخلوق خُلِق وأُوجد لا يستطيع أحد أنْ يقول له : أنا خلقتك ، ولا يقدر هو أنْ يقول خلقتُ نفسى .

وقولهم فى الجواب هنا (الله) يلفتنا إلى مسألة أخرى ، فالله لفظ دائر على ألسنتهم ويفهمون مدلوله وإلا ما نطقوا به ، ذلك لأن المعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضع لها الألفاظ التى تدلّ عليها ، ومَثَّلْنا لذلك (بالتليفزيون) مثلاً ، فقبل أنْ يوجد ما كنّا نعرف هذا الاسم ، لكن لما وُجِد وضعنا له الاسم ، إذن : كلمة الله كيف دخلتْ لغة الناس ؟

إذن : فلفظ الجلالة الله له مدلوله ، وهو الحق سبحانه موجود قبل أنْ يُوجد هذا اللفظ . لذلك نقول لمن ينكر وجودَ الله تعالى : كلامك متناقض ، فقولْك الله غير موجود لا يستقيم ، لأن الله مبتدأ

محكومٌ عليه وغير موجود خبر محكوم به ، فكيف تقول إنه غير موجود ، والمعنى يُوجد قبل لفظه ؟

وكلمة الله ما وُجدَتْ فى لغة إلا لأنه سبحانه موجود ، موجود قبل الاسم ونحن ما عرفنا الاسم إلا لما أخبرنا به صاحبه ؛ لأن عمل العقل فى الإيمان أنْ يدلَّك على أن وراء هذا الكون خالقاً أوجده ، لكن ما هذه القوة ؟ وماذا تريد من الخَلْق ؟ هذه ليستْ مهمة العقل ، فالعقل لا يصل إليها ، إنما نعرفها بالبلاغ عن هذا الخالق .

تذكرون أننا مثَّلنا هذه المسألة قلنا : نحن مثلاً جالسون فى منزل ثم دقَّ جرس الباب ، ساعة سمعنا الجرس اتفقنا جميعاً على أن أحداً بالباب ، لأن كل حدث لا بُدَّ أنّ له محدثاً ، لكن مَنْ هو ؟ ماذا يريد ؟ لا نعرف إلا إذا أخبرنا هو بماهيته وقال : أنا فلان ، وأريد كذا وكذا .

إذن : فالعقل بالنسبة للوجود الأعلى لا يدرك مُشخَّصات الوجود الأعلى ، إنما فقط يؤمن بوجوده ويستدل عليه ، وهو سبحانه يخبرنا باسمه وصفاته ومنهجه ومطلوباته ، فالبلاغ لا بُدَّ أنْ يكون من صاحب الشأن .

ومن خيبة الفلاسفة فى البحث أنهم أرادوا أنْ يُدخلوا العقل لا فى المعقول فقط ، إنما فى تصور المعقول ، والتصور ليس مهمتهم لأنك لا تستطيع أنْ تتصوَّر شكلَ هذا المعقول ، أنت تعقل الموجود فقط ثم تترك للوجود أنْ يتكلم عن نفسه .

لذلك (نقفشهم) حينما يقولون فى العلوم : علوم مادية وعلوم وراء المادة ، وهى التى يسمونها (الميتافيزيقا) ، ومَنْ أعلمك أن وراء المادة شيئاً يُبحث عنه ؟ والقضية أنه لا يوجد شىء إلا بشىء إلى أن

نعرف هذا الشيء ، فإن لم يستدرك عليه شيء آخر يثبت له .

فالحق سبحانه قال وأخبر أنه هو الذى خلق هذا الخَلْق ، فهذا الوجود لا يوجد إلا إذا أوجده واجد وأنا الذى أوجدته ، ولم يَقُم لهذه الدَّعْوى معارض إذن : تثبت الدعوى لصاحبها إلى أنْ يُوجدَ معارض .

لذلك سبق أنْ قلنا : إن كلمة الكفر هى نفسها دليلُ الإيمان ، لأن الكفر معناه الستر ، ولا يستر إلا موجود ، فكأن الكفر طارئ على الإيمان ، كأن الأصل فى الفطرة السليمة الإيمان ، ثم طرأ عليه الكفر ليستره .

وبعد أنْ قالوا (الله) وأقروا الحجة الأولى فى أنه سبحانه خالق السموات والأرض قال لهم ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٣٨)﴾ [الزمر] يعنى : أخبرونى فأمَّنهم أنْ يقولوا هم وأنْ يخبروا عن الذين يدعونهم من دون الله أى الأصنام ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ.. (٣٨)﴾ [الزمر] الجواب لا يكون إلا بالنفى ، لأن الأصنام أولاً لا تسمع ضراعة مَنْ يتضرع لها ، ولا يدركون مطلوبه ، فكيف يجيبونه فى كشف الضر عنه ؟

وفى المقابل : ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ (٣٨)﴾ [الزمر] الجواب أيضاً بالنفى ، إذن : ثبت النفع لله بإقرارهم ، وثبت البطلان لآلهتهم ، لكن إنْ تلجلجوا بعد ذلك فلم يجيبوك لأن الجواب سيلزمهم الحجة فَقُلْ : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ .. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : فى إيجاد النافع فى خَلْق السموات والأرض ، وحَسْبى الله فى دفع الضر عنى ، فهو يكفينى .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦)﴾ [الزمر] كافيه يعنى : يعطيه النعمة نعمة الوجود أولاً ، ثم نعمة امتداد هذا الوجود واستبقاء الحياة ، ثم نعمة استبقاء النوع ، وبعد

ذلك يرفع عنه الضر إنْ أصابه ونزل به ، والإنسان إذا مسَّه الضر في نفسه لا يتجه إلى إله باطل أبداً ، لأنه لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، لذلك قال سبحانه :﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر] هنا أسلوب قَصْر ، يقصر التوكل على الله وحده ، وهذا هو التوكل الحقيقى ؛ لأن المتوكل على شيء يجعل لقوته رصيداً إذا ذهبتْ هذه القوة ، لذلك فالعاقل هو الذى يتوكل على مَنْ يغيثه ويُعينه وإذا احتاج إليه وجده ، وقلنا : خاب مَنْ توكل على مثله لأنك تتوكل عليه ، وتأمل عنده قضاء حاجاتك ، وبعد أيام تقرأ نَعْيه فى الجرائد ، لذلك يُعلمنا ربنا سبحانه كيف نتوكل ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان]

وفرْق بين التوكل والتواكل ؛ لأن يد الله مُدَّتْ قديماً بالأسباب للخَلْق ، أسباب استبقاء الحياة بالطعام والشراب ، وأسباب استبقاء النوع بالتزاوج .

الحق سبحانه حينما ضمن لنا هذه الأسباب جعل لنا دوراً فيها ، فالأرض مثلاً أمامك ، والشمس تشرق عليها ، والهواء يهبُّ عليها ، والمطر يسقيها ، وعليك أنت أنْ تستغلَّ هذه الأسباب بأنْ تحرثَ الأرضَ وتبذر البذور وترعاها لتعطيك الأرض من خيراتها ، ولا تنتظر أنْ تجلس فى بيتك والأسباب تأتيك بالطعام تضعه على مائدتك ؛ لأن ربك خلقك وخلق لك الجوارح ، وجعلها تنفعل لإرادتك فيدُكَ يمكن أن تضرب بها ، ويمكن أن تمسح بها على رأس يتيم ، لسانك يمكن أنْ تنطق به كلمة التوحيد ، ويمكن أنْ تنطق به ما ينافيها .

لكن تذكَّر أن جوارحك خاضعة لمرادك فى الدنيا فقط ، أما فى الآخرة فلا ولاية لك عليها ، لأنها ستكون فى ولاية خالقها ، يوم

يقول سبحانه : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦) ﴾ [غافر] وعندها تتحرر جوارحك من ولايتك وتشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

هذه الأسباب وهذه الجوارح التي خلقها الله لك ما خلقها لتعطلها أنت ، فإنْ كان العمل في إمكانك وطلبته من غيرك ، فهذا هو التواكل ، أنْ تهمل أسباب الله وتغفل عن هذه المملكة التي جعلها الله تدين لك وتطاوعك ، وتأتمر بأمرك لمجرد الإرادة ، هذه عزة متَّعكَ الله بها في ذاتك ، فكيف تذلّ نفسك بالتوكل على مثلك ؟ وكيف ترد يد الله الممدودة إليك ؟

فإنْ أخذتَ بالأسباب ، وأعملتَ عقلك وجوارحك فيما أعطاه اللهُ لك فأنت متوكل ، وحقيقة التوكل أنْ تعمل بالجوارح وتتوكل على الله بالقلب ، وتوقَّع أنْ يصيبك الابتلاء فتعمل وتأخذ بالأسباب ولا تعطيك، كالذي يزرع الأرض وتأتي جائحة فتقضي على المحصول مثلاً .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾

هنا تأمل هذا النداء : ﴿ يَٰقَوْمِ (٣٩) ﴾ [الزمر] فبعد عنادهم وإصرارهم على باطلهم وعدم قبولهم للحجج والبراهين ما يزال الحق سبحانه يتحنَّن إليهم ، فيأمر رسوله ﷺ أنْ يناديهم بهذا النداء الحبيب : (يا قوم) يعني : أنا لستُ غريباً عنكم ، وأنتم أهلي وعشيرتي التي أعيشُ بينها .

لما دعاهم رسول الله فلم يستجيبوا ولم تفلح معهم الحجج والبراهين التي تثبت بطلان عبادتهم للأصنام ، أمره ربه أنْ يقول

لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. (٣٩) ﴾ [الزمر] معنى : اعملوا على مكانتكم كما تقول لمن لم يستجب لك : اعمل ما بدا لك . أو (أعلى ما فى خيلك اركبه) .

فالمعنى : اعملوا على مكانتكم . يعنى : خذوا كلَّ إمكانياتكم ضدى . لماذا ؟ لأنه متوكل على ربِّه وهو كافيه ، فهو لا يقولها مجازفةً ولا استكباراً ، إنما يقولها برصيد من قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦) ﴾ [الزمر]

وكلمة ﴿ مَكَانَتِكُمْ (٣٩) ﴾ [الزمر] عندنا مكان ومكانة ، المكان هو : الحيز الذى يشغله الشىء . والمكين هو : الذى يشغل المكان ، فالكوب مثلاً مكان والماء فيه مكين ، فأنت ذاتك لك مكان تشغله حتى لو اضطهدك أحدٌ فأخرجك منه لا بُدَّ أنْ يذهب بك إلى مكان آخر .

فإذا اتسع بك هذا المكان وصارتْ لك سلطة على مكان أوسع منه لك فيه سلطان وأمر ونهى فهذه مكانة ، فيقال لمن اتَّسع جاهه وسلطانه : له مكانة . فالتاء الزائدة هنا يسمونها تاء المبالغة . كما نقول فى المبالغة فى العلم عالم وعلاَّم وعلاَّمة . فكلمة علاَّمة هى قمة العلم وتُقال لمن بلغ فى مجاله مبلغاً بحيث لا يخفى عليه منه شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا وصف الحق نفسه سبحانه بعلاَّم ، ولم يُوصَف بعلامة ؟ نقول : لأن علم الله تعالى لا تفاوتَ فيه ، ليس فيه جزئى وكلى ، فلا يُوصف الحق سبحانه بهذه الصفة .

ومن المكانة قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [يوسف] أى : لم نجعل له مكاناً ، إنما جعلنا له مكانة وسلطاناً واسعاً ينقله هنا وهناك حيث يشاء ، والإنسان يكون له مكان فتأتى قوة تُمكِّنه فى

المكان ، كما في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، وقد يكون له المكان فتأتي قوة فتُزيله عنه كما أخذني ورماني في زنزانة.

سبق أنْ قلنا : إن في اللغة همزة تسمى همزة الإزالة ، إذا دخلتْ على فعل تزيله ، كما تقول : أعجم الكلام ، يعني : أزال عُجْمته وأبان معناه ، ومن ذلك قول رسول الله في مناجاته لربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[1] يعني : إن كان حصل مني شيء يغضبك فأنا أُزيل عتابك عليَّ حتى أبلغ رضاك عني . ونقول : عتب فلانٌ على فلان فأعتبه يعني : أزال عتابه بأنْ يعتذر له أو يصالحه ، لأن العتب لوْم على شيء ما كان يصح بين المحبين ؛ ومن ذلك قوله تعالى في الكلمة التي معنا (المكانة) : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ [الأنفال]

فمعنى (أمكن منهم) يعني : أزال مكانهم ، ونقول فلان تمكن من فلان . يعني : قدر عليه وأزاله عن مكانه أو مكانته .

إذن : فكلمة المكانة هي ما لك عليه سلطانٌ وولاية تُعينك على مرادك ، فالمكان إذا بالغتَ فيه فهو مكانة والتاء للمبالغة ، وتأتي أيضاً للجاه ينبسط على ما لا يدخل في ملْكك تصرفاً ، وإنما يدخل في ملكك مهابة ؛ لذلك لما قُتل مالك[2] قالوا : مالك كان يحمي مواقع السحاب . يعني : أينما تمرّ السَحابة وتمطر فمطرها يحميه مالك ، بحيث لا يعتدي عليه أحد ، وما كان هذا إلا لمكانته في القوم فحمى مواقع السحاب في غير بلاده .

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية في كلامه عن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها ، فتسافهوا عليه وأدموا قدميه ، فلما أوى إلى أحد البساتين رفع يديه وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إلى آخر الدعاء .

(٢) ورد هذا الخبر في العقد الفريد لابن عبد ربه ، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ، ونهاية الأرب للنويري . وعندهم جميعاً أنه كليب بن ربيعة .

وقوله : ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : أنتم اعملوا على مكانتكم واستطاعتكم فى العناد والاضطهاد والإيذاء ، فأنا عامل على مكانتى من الدعوة والنُّصْح لكم والحرص على هدايتكم ، فهذه رسالتى ولن أتخلّى عنها ، وسوف أبالغ فى نَشْرها وأتحمل اضطهادكم لى ولأصحابى ، ولن يُثنينى شىء عن مرادى .

وقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] المعلوم هنا : ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزمر] أى فى الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى الآخرة ، وتأمل هنا كلمة سوف التى تدل على الاستقبال ، فلم يَقُلْ حالاً الآن ، لأن الإسلام بدأ غريباً وانتشر أول ما انتشر بين الضعفاء والعبيد الذين اضطهدوا وماتوا وأوذُوا وأُخْرجوا من ديارهم وأموالهم فى سبيل دعوة الحق .

فأراد الحق سبحانه أن يُمحِّصَ أهل الإيمان الذين يحملون هذه الدعوة ، وأنْ يُميز منهم ضعافَ العقيدة ، وينفى عنهم أهل الخور والنفاق الذين لا يصلحون لحمل هذه الرسالة ، لذلك كان الوحى كل فترة ينزل على رسول الله بأمر عزيز ، وكلما نزل أمر من هذه الأمور نفى بعضهم حتى لم يَبْقَ حول رسول الله إلا صِحَاح الإيمان أقوياء العقيدة .

وفى هذه الآية تهديدٌ من رسول الله للقوم المكذِّبين بأحداث سوف تأتى ، هذا التهديد دليلٌ على ثقته ﷺ بأن مَنْ أوحى إليه بهذا التهديد قادرٌ على أنْ يُبرزه كما أخبر به ، وإلا لما قاله رسول الله ، لأن الزمن سيكشف صدق هذا التهديد أو عدم صدقه .

كذلك الأمر فى الوعد يخبر به رسول الله قبل أوانه ، واقرأ هذا الوعد مثلاً : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] هذا وَعْد من

الله للمؤمنين جاء فى أشد وأحلك الظروف وهم مضطهدون لا يستطيعون حمايةَ أنفسهم ، لذلك لما نزلتْ هذه الآية قال عمر رضى الله عنه : أىّ جمع هذا ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما رآها فى بدر قال : صدق ربى وصدق رسوله ، وهذا الوعد لا يطعن فى الدعوة إنما يريد أنْ يؤكدها . إذن : صدْق فى الوعد ، وصدق فى الوعيد .

وقلنا : إن صدق الرسول فى أمور تتعلق بأمته شىء ، وصدقه فيما يتعلق بذاته شىء آخر ، صدقه فيما يتعلق بذاته آكد ، وذكرنا قصة المرأة التى أسلمتْ حينما قرأتْ تفسير قوله تعالى لرسوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] فلما أعطاه ربه الأمان وأنه لن يُغتال من جانب الناس صرف ﷺ حُراسه ولم يُبْق عليهم مع هذا الوعد [1] ، فوقفتْ هذه المرأة وقفةً عقلية وقالت : لو أنه خدع الناس جميعاً ما خدع نفسه ، إذن : هذه ثقة من رسول الله بوعد الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الزمر] ولم يقل ترون أو تنظرون ؛ لأن العلم أوسع وأعمّ من النظر ، فالأحداث التى ستأتى ربما تكون بعيدة من مَرْآهم تَحدث فى أماكن أخرى يراها البعض ولا يراها البعض ، أما العلم فينقل إليك ما تقع عليه جوارحك ، وما تقع عليه جوارح الآخرين .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره للآية ٦٧ من سورة المائدة من حديث عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] . قالت : فأخرج النبى ﷺ راسه من القبة ، فقال : « أيها الناس انصرفوا ، فإن الله قد عصمنى » . [حديث رقم ٩٦٦١] .

إذن : بالعلم تأخذ علم الغير ، أنت حينما ترى وتعقل تهتدى إلى الحكم بتصوّر العقل ، وبالعلم تستفيد بما عقله الآخرون . إذن : فالعلم أوسع دائرةً من معطيات العقل والجوارح .

وقوله : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزمر] كلمة مقيم جاءت لترد على كلام سبق أنْ قالوه هم ، لأن الحروب عندهم كانت تستمر طويلاً حتى أربعين سنة ، وتكون بينهم سجالاً يوم لك ويوم عليك ، فربما ظنوا العذاب كذلك فترة وتنتهى ، فأراد أنْ يؤكد لهم أن العذاب إذا حلَّ بهم فليس فيه سجال كسجال الحرب ، إنما هو مقيم دائم .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى مرة يتحدث عن ذاته سبحانه بضمير الجمع (إنَّا) ومرة بالمفرد (إنى) أو (إننى) ، فإنْ كان الكلام فى قضية التوحيد جاء بالضمير المفرد كما فى قوله سبحانه لسيدنا موسى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] لأنه يريد أنْ يقرر قضية التوحيد ، ويؤكد سبحانه أنه إله واحد لا شريك له . فإنْ كان الكلام عن أمر لله فيه عمل و لخلفائه فى الأرض عمل يأتى بالجمع كما هنا ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر]

وتأملوا حرف الجر فى (عليك) وفى (للناس) فلحروف الجر فى اللغة معَانٍ واسعة ، كلمة (عليك) تدلُّ على أننى أحملك المسئولية أمَّا اللَّام فى (للناس) فتدلّ على النفع لهم ، كما نقول

فى الحسابات: له ، عليه ، فله تعطى نَفْعاً وعليه تعطى تبعات .

فكأن الحق سبحانه يقول : يا قوم يا مَنْ تسمعون لدعوة محمد اعلموا أنها لصالحكم وتعود عليكم بالنفع والغنيمة ، فقد أنزلنا عليه حملاً ثقيلاً سيتعبه فى ذاته وفى أهله ، وسيُعرِّضه للسخرية والإيذاء والتآمر .. الخ .

فالكتاب نزل عليك يا محمد بتبعاته ومسئولياته ، فتحمله وكُنْ من أولى العزم من الرسل الذين سبقوك ، مع أنهم أخذوا حيِّزاً محدوداً فى الزمان وفى المكان ، أما أنت فأخذتَ حيِّزاً غير محدود ، لا فى الزمان ولا فى المكان ، فحين تتحمّل المشاق فى سبيل دعوتك ، فاعلم أنك ستتحمل من الشدائد على قدر عموم رسالتك .

إذن : فدعوة الإسلام خيرها لكم ومتاعبها يتحملها رسول الله ، هذا معنى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى صالحهم .

وحين نُوسع الحروف ونقف على معانيها نأخذ مثلاً قوله تعالى فى أول سورة البقرة : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون على الهدى ، و (على) تفيد الاستعلاء وكأنه مطيّة تحملهم وتريحهم لا تتعبهم وتُوصِّلهم إلى غايتهم ، هكذا جاء الهدى ليريح الناس ويحملهم إلى أشرف الغايات ، فالزموه لأنه ما جاء ليُحملكم ما لا تطيقون ، إنما جاء ليخدمكم .

وقوله سبحانه : ﴿ بِالْحَقِّ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق يعنى وضع الشىء فى موضعه ، فإذا زحزحتهُ عن موضعه فأنا الطارىء عليه ، والحق لا بُدَّ أنْ يعود إلى

موضعه مرة أخرى ، وإنما هى ابتلاءات واختبارات لنُمحِّص جنود الحق لتكون عندهم الأهلية لأنْ يحملوا الدعوة إلى أنْ تقوم الساعة .

والحق سبحانه يعلمنا : إنْ رأيتَ الباطل علا وارتفع فخُذْ لك واقعة ، وخُذْ لك عبرةً من الأشياء المحسَّة التى تقع تحت بصرك فى أصل الحياة وهو الماء ، فالماء ينزل من السماء على قمم الجبال فيأخذ معه إلى الوديان القش والحصى والزبد ، فتتكون طبقة من الريم تعلو الماء وهى حقيرة لا قيمةَ لها حتى إذا ما هبَّتْ الرياح أزاحتْ هذا الزبد هنا وهناك وبقيتْ صفحة الماء نظيفة ناصعة ، هكذا يكون علو الباطل عُلواً مؤقتاً ، وسرعان ما يعود الحق إلى نصابه .

والحق سبحانه ما سمح للباطل بأنْ يعلوَ إلا يظهر للناس ميزة الحق ، فحين يُعضّ الناسُ بالباطل ، وحين يؤلمهم يضجون منه ويشتاقون للحق ، فكأن الباطل جندٌ من جنود الحق .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] أى : لصالحها ، لأن المشرع سبحانه حين شرع لنا وبعث لنا الرسل وأنزل الكتب ما انتفع من ذلك بشىء ، وهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لأنه بصفات الكمال المطلق أوجدك ، بل وأوجد لك قبل أنْ يستدعيك للوجود ، فبصفة الكمال فيه خلق ، فهو سبحانه خالق قبل أنْ يخلق شيئاً ، كما تقول : فلان شاعر ، يعنى : شاعر قبل أنْ تسمع منه شعراً ، لأنه ما قال الشعر إلا لأنه شاعر .

إذن : الحق سبحانه لا ينتفع من عبادة الناس بشىء ، والفائدة كلها تعود عليهم هم ، لأنهم صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على ما يرام وعلى خير حالٍ من بدايتها إلى نهايتها إليه سبحانه .

وما دام الشرع والمنهج جاء لصالح البشر ، فمَن اهتدى فالهداية تعود إليه ، ومَنْ ضَلَّ فضلاله عليه ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] وتأمل هنا أيْضاً معنى حرف الجر في ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] وحرف الجر (عليها) ، فنَفْع الهداية لك ، وضرر المعصية عليك .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] أي : ما أنت يا محمد عليهم بوكيل ، والوكيل هو مَنْ يكون حُرَّ التصرف فيمن وكل عنهم ، بحيث يستطيع أنْ يجبرهم ، وأن يحملهم على ما يريد هو .

والحق سبحانه وتعالى ما أراد لنبيه ﷺ ذلك كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق] إنما أراد له أنْ يكون داعياً بالحسنى ، بحيث يأتي إليه الناس بالحب طواعيةً ، ولو شاء لجعلهم كالملائكة وطبعهم على الطاعة .

لذلك الكون الذي رضي أنْ يأتمر بأمر الله بدون اختيار له في شيء كان حكيماً واعياً ؛ لأن المتحمل قد يضمن نفسه ساعة التحمل ، لكن لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، والفارق بين مسلك الناس في الأمور أنهم يختلفون في إدراك المسئولية ساعة التحمل وساعة الأداء ، وكل فساد بين الناس في التعامل إنما منشؤه هذه المسألة .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالأمانة أودعها عندك لحين عودتي مثلاً من السفر فتقبلها عندك ، وحين أعود لا أجدها ، فقد يطرأ عليك من الظروف ما يجعلك تتصرَّف فيها ، وهنا تظهر حكمة الجمادات التي أبتْ أنْ تتحمل الأمانة ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ﴾ [الزمر] فيه تسليةٌ لسيدنا رسول الله ﷺ فكأنّ ربه يقول له : لا تُتعب نفسك ، ولا تُحملها فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ ، فإنْ نالك شيء من أذاهم فاعلم أنه لا يُنقص من مكانتك عندهم ، فأنت عندهم الصادق الأمين ، وهم يعلمون أنك على الحق ، ومنزلتك عندهم كبيرة ، ورأيهم فيك من أحسن الآراء ، فلا تحزن لقولهم فيك : شاعر وساحر ومجنون : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فكأنَّ الحق سبحانه جعل المسألة عنده سبحانه وأعفى منها رسول الله ، فأنت يا محمد لا غبارَ عليك ، وما كذبك المكذِّبون الظالمون إلا لأنهم جحدوا بآياتي .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

سبق أنْ قلنا : إن أحداً لم يشهد عملية الخَلْق لأن الخالق سبحانه لم يستعنْ بأحد كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : كيفية الخَلْق لا يعرفها أحدٌ ، ولولا أن الخالق أخبرنا بها لَظلَّتْ غيباً ، فإنْ أردتَ أنْ تعرف كيفية الخَلْق فخُذْها من خبر مَنْ خلق ، وإن ادَّعَى أحد معرفتها من غير هذا الطريق ، فاعلم أنه من

المضلين الذين أخبَر الله عنهم ، وسمَّاهم مضلين قبل أن يُوجدوا ، وأيٌّ ضلال أعظم من القول بأن الإنسان فى أصله قرد وتطوَّر ؟

فكأن الحق سبحانه يعطى لخَلْقه المناعة التى تحميهم من هجمات أهل الضلال ، فيخبرهم بأمرهم أولاً ويُحذِّرهم منهم ، يعنى : تنبَّهوا فسوف يخرج عليكم أناس فى ثوب علماء أو فلاسفة يقول خُلِق الإنسان كذا وكذا فلا تُصدِّقوهم لأنهم ما شهدوا عملية الخَلْق .

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح قضية عقدية للعقول فيها عمل ، لكن قد تقف العقول فى أشياء منها يكمل ما تقف فيه العقول بالسماع ، السماع ممَّنْ ؟ ممن اعتقدتَ به بعقلك ، إذن : ليس بالضرورة أن يقتنع عقلك بكل شىء إنما يترك لك مسائلَ لا تقتنع بها إلا لأنها خبر ممَّنْ اقتنعت به .

لذلك قلنا فى أول سورة (يس) : إن المسائل كلها عقائد وأمور لسانية وأمور أحكام ، كل منها تأخذ العمل العقلى والعمل الغيبى ، لكن العمل الغيبى دليله من العمل العقلى .

الحق سبحانه وتعالى حينما أخبرنا عن قصة الخلق قال : إن الإنسان خُلقَ من تراب اختلط بالماء فصار طيناً ، ثم صار هذا الطين حمأ مسنوناً ، ثم صار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الحق سبحانه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة وتحرك .

هذه أطوار الخَلْق التى أخبرنا بها الخالق سبحانه ونحن لم نرها ، لكن أوجد فى مُحسَّاتنا وفى مُدركاتنا ما يؤدى الصدق بهذه المراحل ، وعلينا نحن أنْ نأخذ مما نشاهده دليلاً على صدق ما غاب عنَّا . كيف ؟

الخالق سبحانه كما خلق الحياة خلق الموت ، ولما أخبرنا بهما جعل الموت أولاً فقال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ (٢) ﴾ [الملك]

وقدَّم الموت حتى لا نستقبل الحياةَ ببطر وغرور ، إنما نستقبلها ونحن نعلم أننا صائرون إلى الموت ، منتهون إليه . ويجب أنْ نعلم أن الدنيا بالنسبة للإنسان ليست هى بطولها من لدن آدم حتى قيام الساعة ، إنما الدنيا بالنسبة لك هى مقدار مُكْثك فيها ، وحتى هذا العمر مظنون وليس مضموناً ، فمن الناس مَنْ يولد ويموت بعد لحظة ، وآخر بعد شهور ، وآخر بعد سنين .

لذلك قال أحد الصالحين : وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته ، وعلمتُ أنى لا أخلو من نظر الله طرفةَ عَين فاستحييت أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، فهكذا ينبغى أن يكون أسلوبك فى الحياة ، فأنت فيها ضيف لستَ أصيلاً .

لذلك قال أهل المعرفة : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك - الذى يُواليك بالنعم كل يوم - واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه طرفةَ عين ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن ملكه وسلطانه .. هذه أصول يجب أنْ نسير عليها ، ومبدأ نلتزم به . والموت كما قلنا نقيض الحياة ، فإذا لم نكُنْ قد شاهدنا مراحل الخَلْق فقد شاهدنا بالتأكيد مراحل الموت ، فخُذْ من هذا دليلاً على هذا .

تعلمون أن نقضَ أيٍّ بناء يكون على عكس بنائه ، فلو أردنا مثلاً هدم عمارة من عشرة أدوار ، فإننا نبدأ بهدم الدور العاشر وننتهى بالدور الأول ، على عكس البناء ، كذلك الموت يبدأ بخروج الروح ، وهى آخر شىء فى عملية الخَلْق ، ثم يتصلب الجسد ، فيكون أشبهَ

بالصلصال ، ثم يرمّ وتتغير رائحته مثل الحمأ المسنون ثم يتحلل ويعود إلى الطين والتراب .

إذن : إنْ كانت عملية الخَلْق غيباً عنا كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١) ﴾ [الكهف] فعملية الموت شاهدناها .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢) ﴾ [الزمر] الأنفس جمع النفس ، والنفس هي مجموع التقاء مادة الجسد بالروح ، بحيث تنشأ منهما الأغيار الموجودة في الجوارح ، فالمادة وحدها لا تُسمَّى نفساً ، والروح وحدها لا تُسمَّى نفساً .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ (٤٢) ﴾ [الزمر] أي : يقبضها إليه سبحانه . وتوفِّي الأنفس له ظاهرتان : النوم والموت ، ففي النوم يسلب الإنسان الوعي والتمييز ، وتبقى فيه الروح لإدارة حركة الحياة فيه واستبقائها ، فإذا استيقظ من نومه عاد إليه وَعْيه وعقله وتمييزه ، أما في الموت فالله يتوفَّى الكل : الوعي ، والتمييز ، والأصل ، وهو الروح والجسد ، فالجسم في النوم لا يزاول شيئاً حتى المخ الذي يجب أنْ يظل عاملاً لا يعمل في النائم إلا كلّ سبع ثوان .

ولذلك لما تتوقف حركة الجسم تنخفض فيه درجة الحرارة ويحتاج إلى تدفئة ، لذلك ننصح النائم بأنْ يتغطى لأن الحركة مفقودة ، وينبغي أن نحفظ للجسم حرارته ، البعض يظن أن الغطاء هو الذي يُدفيء النائم ، لكن العكس هو الصحيح فحرارة الجسم هي التي تُدفيء الغطاء ، وعمل الغطاء أنْ يحفظ لك حرارة الجسم حتى لا تتبدد ، بدليل أنك تذهب إلى فراشك فتجده بارداً ، وحين تستيقظ من نومك تجده دافئاً

وقلنا : إن الإنسان يمرُّ بحالات : يقظة ، نوم ، موت ، بعث . ولكل مرحلة من هذه المراحل قانونٌ خاص ، فإياك أنْ تخلط قانوناً بقانون ، فمثلاً الإنسان منا وهو نائم يفقد الوعى والتمييز ، ومع ذلك يصبح فيذكر رُؤْيا رآها فيها أشكال وأشخاص وألوان يستطيع التمييز بينها وكأنها يقظة ، فبأىِّ شىء أدرك هذه المدركات وميَّز بين الألوان وعينه مغمضة ؟

قالوا : لأن للنائم أدوات ووعياً غير التى له فى اليقظة ، فيرى لكن ليس بالعين . إذن : فى حالة الموت يكون له وعى آخر ، البعض يتعجب وربما ينكر أنْ يضم القبرُ الواحد جسدين أحدهما يُنعَّم والآخر يُعذَّب ، فلماذا لا تنكر مثل هذا فى النوم مثلاً ، فأنت تنام مع غيرك فى فراش واحد يرى هو أنه فى رحلة ممتعة فيها مَا لَذَّ وطابَ ، وترى أنت أنك فيه تُضرب أو تمر بحادث مؤلم ، لا هو يدرى بك ولا أنت تدرى به .

وقوله : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] أى : لا تعود إلى الجسم ﴿ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى حالة النوم يعود إليك الوعى والتمييز ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] إلى الأجل المعلوم الذى قدَّره الله لك فى اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] ساعة تجد الذى يخبرك بشىء ينبه فيك أدوات التمييز بين المقولات التى هى العقل والفكر والذكر والتدبر ، فثقْ بأنه ناصح لك لا يغشك ولا يُدلِّس عليك ، لأن الذى يريد غشَّك يأخذك على عجلة و (يكلفتك) ، حتى لا تدرى وجه الصواب ولا يعطيك الفرصة للبحث وتأمل الشىء .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ببائع القماش إنْ كان صادقاً يعلم جودة

بضاعته ، فإنه يختيرها لك فيأخذ (فتلة) من الصوف مثلاً ويحرقها أمامك ، لترى بنفسك أنه صوف مائة بالمائة ، أما الآخر فيحاول أنْ يلف ويدور ويخدعك بحيله حتى لا تكتشف فساد بضاعته ، فالأول واثق من جودة البضاعة ، وأنك مهما فعلت بها فسوف تصل إلى مراده .

فساعةَ يقول الحق سبحانه (أفلا تعقلون) ، (أفلا تتذكرون) ، (أفلا تتفكرون) فاعلم أنه يهيج عندك أدوات البحث والتأمل والاختيار بين البدائل ، ولا يصنع ذلك معك إلا وهو واثق أنك لو استعملتَ هذ الأدوات فلن تصل إلا إلى مراده منك .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر] استفهام إنكارى . يعنى : ما كان يصح أنْ يتخذوا من دون الله شفعاء ، فالحق ينكر عليهم بعد أن استمعوا إلى كل هذه الحجج والبراهين ، ثم يتخذون من دون الله شفعاء ، ولماذا الشفعاء من دون الله ؟ قالوا : لأن الذى يعبد غير الله يُرجِّى نفسه بأنه مُتدين ، والتديّن طبيعة فى النفس البشرية من أخْذ الله عليها العهد فى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

لذلك جاء الرسل مُذكِّرين أى : يُذكِّرونا بهذا العهد الأول الذى غفلنا عنه واقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه وتعالى ينكر عليهم أنْ يتخذوا الشفعاء من دون الله ، ويدعوهم أن يرتجعوا عن هذا الأمر المؤسف ، لأن اتخاذ الشفعاء من دون الله أمر فيه تناقض لأنهم شفعاء عند مَنْ ؟ عند الله ، كما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] إذن : اتخذوا الشفعاء ليشفعوا لهم عند الله ، فلماذا لا يتجهون إلى الله مباشرة دون واسطة ؟

ثم إن الشفاعة لا تُقبل إلا بشروطها ، وليس كل مَنْ أحبَّ أن يشفع تُقبل شفاعته ، فالشفاعة ليستْ بمرادك ، بل يُشترط فى الشفاعة أنْ يأذن الله للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى عن المشفوع له ، وأنْ يكون من أهل التوحيد ، إذن : هذه الشفاعة التى يرجونها شفاعة باطلة و لا تُقبل عند الله .

لكن لماذا لا يتوجَّهون إلى الله بالعبادة دون واسطة ؟ قالوا : لأن للحق سبحانه وتعالى فى عبادته تكاليف قد تشقّ على النفس ، وللمنهج قيود افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهم يريدون تديناً بلا تكاليف ، وآلهة بلا منهج وبلا أوامر ، صحيح أنهم يعبدون الأصنام على هواهم . لكن إنْ حزبهم أمر وضاقتْ عليهم السبل فى أنفسهم لجئوا إلى الله الإله الحق ، إذن : أوبُوا إلى الله قبل ألاَّ ينفع المآب .

وكلمة الشفاعة منها الشفع والوتر ، الشفع أنْ تضم وتراً إلى

وتر ، فيصيران شفعاً . يعنى : زوجاً . وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند آيتين من كتاب الله فى مسألة الشفاعة ، وحاولوا أنْ يثيروا حولهما شبهة عدم بلاغة القرآن ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وقالوا : أى الآيتين أبلغ من الأخرى ؟ فإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة ، ثم ما الحكمة من التقديم والتأخير فى الآيتين ، والمعنى واحد ؟

وهذا كله من هؤلاء نتيجة عدم فَهْم اللغة ، وعدم وجود الملَكة التى تتذوَّق وتفهم عن الله .

ونقول : أنتم أهملتم صدر الآية ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ (٤٨) ﴾ [البقرة] فعندنا نفسان : نفس جازية أو شافعة ، ونفس مجزيٌّ عنها أو مشفوع لها ، فأيّهما الشافعة وأيهما المشفوع لها ، إنْ أردتَ النفس المشفوع لها فالمشفوع لها تقدم العدل أولاً فلا يُقبل منها فتستشفع بمَنْ يشفع لها .

وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣) ﴾ [البقرة] فإنْ أردتَ النفس الشافعة ، فالشافع يتقدم بشفاعته أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته قدَّم العدل ، يقول : فلان هذا كم تطلب منه وأنا أدفع عنه . إذن : الآيتان بليغتان كُلٌّ حَسْب المعنى المراد منها .

استُهلَّتْ هذه الآية ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ .. (٤٣) ﴾ [الزمر]

بـ (أَمْ) ، وهى تقيد عطف ما بعدها على ما قبلها ، كأننا قلنا : أكان ذلك أم اتخذوا ؟ والكلام السابق هو قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢)﴾[الزمر] فإذا كنتم قد وُدعتم بقوة حياتكم وقدرتكم على الحركة والأسباب والتحوّل فاعلموا أن الله يعطى لكم نموذجاً للموت ينتظركم من خلال النوم الذى تباشرونه .

هذا الموت وأنتم فى يقظة شىء ، وحين تنامون شىء آخر ، فالذى يقدر على سَلْب الحياة من التميّز والوعى والحركة مع الخارج (أى مع الغير) قادر على أنْ يسلبها جميعاً ؛ لأن النوم يسلب منك الحركة والتميز مع الغير ، وإنْ بقيتْ لك الحركة فى ذاتك كحركة القلب والرئتين والأمعاء .. الخ فإذا كان الله قد قدر على هذه الجزئية فيك ، فهو سبحانه يقدر على الأخرى وهى الموت .

فالمعنى : أَأَمنتُم ذلك ؟ وإنْ لم تأمنوه وسوف تموتون وتلقوا الله ، فلماذا تتخذون الشفعاء ؟ وما الذى طمأنكم لذلك ؟ وما رصيدكم فى اتخاذكم الشفعاء ؟ يعنى : أحصل ذلك أم اتخذتم شفعاء ؟

قلنا : الشفيع من الشَّفْع ، وهى أنْ تضم شيئاً إلى شىء ، فيصير زوجاً بعد أنْ كان وحده ، والله سبحانه يريد أنْ يُنهى هذه المسألة ، وأنْ يُبيِّن لهم بطلانها ، فقال لهم : إن الذين تدعُون من دون الله لا يملكون أنْ يشفعوا وإنْ ملكوا الشفاعة كما تَدْعُون الملائكة ، وكالذين يدعون عيسى أو العُزَيْر فهم لا يرضون بها ولا يشفعون لكم .

وإنْ كانوا من الجمادات فهم أقرب منكم إلى الله وأعلم منكم بأصول الشفاعة ، فهى لابُدَّ أنْ تتأبى عليكم وتكرهكم ، وإنْ كنتم تملكونها وتنتفعون بها ؛ لأن هذه الجمادات مُنسجمة مع الكون مُسبِّحة لخالقها فلا تقبل إلا مُسَبحاً ، وما انقادتْ لكم هذه الجمادات

إلا لأن الله سخَّرها لكم ، وجعل لكم إرادة تسيطرون بها عليها بمراد الله وأمره كما سيطرتم على جوارحكم ، سيطرتم على اللسان فقلتم به كلمة الكفر ، وسيطرتم على الأيدى ، فبطشتُم بها وظلمتم .. الخ .

فهؤلاء جميعاً لا يرضَوْنَ أنْ يشفعوا لكم لأنكم مخالفون لهم فى المنهج ؛ لذلك يكرهونكم فكيف يشفعون لكم ، لذلك قال تعالى :﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان]

فأثبت للسماء وللأرض بكاءً ، فإنْ كانت لا تبكى على هؤلاء المخالفين فهى ولا شكَّ تبكى على المناقضين لهؤلاء المتفقين معها فى العقيدة والمنهج ، إذن : فالسماء والأرض وغيرهما من الجمادات لها تمييز وإلا ما بكتْ على أهل الطاعة ولم تَبْكِ على أهل المعصية .

حتى نحن فى التعبير الأدبى نقول : فلان نَبَتْ به الأرض يعنى : كرهتْ إقامته عليها ، لماذا ؟ لأنه متمرد على الله مخالفٌ لمنهجه وهى مُسخَّرة مُسبِّحة ؛ لذلك إنْ مات لا تبكى عليه . بل لسان حالها يقول له : أراحنا الله منك ، أراح الله منك البلاد والعباد .

وقد فسَّر لنا الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة حين قال : إذا مات المؤمنُ بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب . أى : المكان الذى يُرفَع فيه عمله الصالح ، كما قال سبحانه ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) ﴾ [فاطر] وأما موضعه فى الأرض فمُصلاَّه .(١)

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلًى فى الأرض ومصعد عمله من السماء وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان]

إذن : الذى جعلهم يتكلون ولا يخافون من الموت أنهم اتخذوا الشفعاء ، وظنوا أنهم يدافعون عنهم ، لكن (نقبهم على شونة) لأن الشفاعة ليستْ بمراد الشافع إنما بمراد المشفوع عنده ، وهو سبحانه الذى يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له . لكن هل يحتاج مَنْ رضى الله عنه إلى شفاعة ؟

قالوا : الإنسان قد تكون نواحى الخير فيه قليلةً ، لكن يتوفر لهذا القليل شرطُ الإخلاص فينميه ويُثمِّره ويجبر الله عنده هذا النقص بأنْ يأذن لأحد المحبوبين عنده أن يشفع له .. وهذه الشفاعة ما شرعها الحق سبحانه إلا ليقبلها ويلطف بها .

لذلك قالوا : إياك أنْ تحتقرَ عملاً صالحاً مهما كان يسيراً ، فمَنْ يدريك لعله يكون سبباً فى نجاتك .

وورد فى الحديث : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرنَّ طاعة ما فقد غفر الله لرجل سَقَى كلباً يلهث من شدة العطش ، وسقاه بجهد واحتيال حين لم يجد شيئاً يخرج به الماء فخلع خُفَّه وسقى به الكلب[1] . ولو سقى هذا الرجل إنساناً لقُلْنا إنه سقاه لعلة ، أو له عنده جميل ، إنما سقى كلباً . وهذا يدل على أن العمل فيه إخلاص ، لأنه لا ينتفع من الكلب بشىء ، إنما تأصل السقاء فى نفسه ، فهو يحبه بصرف النظر عن المسْقى ، فالرجل طُبع على الخير ولا يعنيه لمن يُقدم هذا الخير .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠/٤٣٨) (حديث رقم ٦٠٠٩)، وكذا مسلم فى صحيحه كتاب السلام باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٤١) حديث (١٥٣/٢٢٤٤) .

الثانية : « وأخفى غضبه فى معصيته » فقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض [1] . فكما أنك لا تحقر طاعة قد يكون فيها نجاتك ، كذلك لا تحقر معصية فقد يكون فيها هلاكك .

الثالثة : « وأخفى أسراره فى خلقه » ؛ فلا تحقرنّ خلقاً ما .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر] أى : هؤلاء الشفعاء ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر] يعنى : كيف تطلبون شفاعتهم ، وهم على هذا الوصف ؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر] لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه ، يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له ، فالشفاعة كلها لله وحده ، لأن ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر] ؛ فالمتكبّر المتأبّى على منهجى سيرجع إليّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

كلمة (اشْمأزَّتْ) يعنى : نفرتْ . والإنسان حينما يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز يعنى : يظهر على سحنته الامتعاض ، ثم تحدث منه نفرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشىء ، كذلك حال

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٤٥٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦١٩) كتاب البر والصلة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظ مسلم « دخلت امرأة النار من جراء هرة لها ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض ، حتى ماتت هزلاً » .

هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم ، وانقبضوا عن توحيد الله ، لكن لماذا ؟

قالوا : لأنك ذكَّرته بمَنْ يثق تمام الثقة أنه يملك ضُره ونفعه ، وإلا لو لم تكُنْ لديه هذه الثقة ما أثَّر ذكر الله في نفسه ، إذن : اشمأزتْ قلوبهم لأنهم خافوا من شيء ، وساعةَ سمعوا ذكر الله تذكَّروا جلاله وقدرته وعظمته ، وتذكَّروا أنهم مُقبلون عليه واقفون بين يديه ، ولم يعملوا لهذا الموقف .

وكلمة ﴿وَحْدَهُ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] تدل على مَيْلهم إلى الشركاء ، فالمعنى : لو ذُكر الشركاء ما اشمأزتْ قلوبهم . واشمئزاز القلوب أمر غيبي ينضح على الوجه بالانفعال ، فيبدو على الوجه أنه منقبض انقباضاً مؤلماً ، والآية لم تذكر لماذا اشمأزت قلوبهم مما يدل على أن القلبَ هو المحرك الذي يعطي الجوارحَ الانفعال بواقع الأشياء عليها ، فمثلاً تقابل شخصاً فتجد نفسك مبتهجاً ، وآخر تقابله فتجد نفسك مُهتماً أو منقبضاً عنه ، فمن أين هذه الانفعالات ؟ من القلب .

وقوله : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ..﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] أي : الشركاء ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] أي : يفرحون ، لماذا ؟ لأنهم يظنون أنهم يشفعون لهم ، لكنهم خائبون في هذه ، وخائبون في هذه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ[1] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(١) فطر الخلق : خلقهم وبدأهم . والفطرة : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها . أي : أنا ابتدأتُ حفرها . [لسان العرب – مادة : فطر]

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن ذكر الوعد لأهل الخير ، والوعيد لأهل الشر ، واستوفى الأمرين مع الجماعتين ، قال لرسوله بعد أنْ بلغت الوعد والوعيد : ليس لك إلا أنْ تلتجىء إلى الله ، فهو سبحانه وحده الذى يحكم بينك وبين هؤلاء ، لأنك استنفدتَ معهم كل أوجه الدعوة الحسنة والبلاغ الجميل ، وما داموا مُصرِّين فدَعْهُم إلى أنْ يحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة .

ولا تحزن يا محمد ، لأن الله لا يحكم إلا بالحق ، وثقْ أنه الذى اختارك للرسالة ، وأنه ناصرك ومُظْهر دينك ، وسوف ترى هذه النُّصْرة فى الدنيا قبل الآخرة ، وفعلاً رآها الرسول قبل موته .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يروْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : ننقص أرض الكفر ونقصان أرض الكفر زيادةٌ فى أرض الإيمان ، وهذه آية رأوْهَا بأعينهم ﴿أَوَلَمْ يروْا (٤١)﴾ [الرعد] فكان عليهم أنْ يأخذوا من ذلك عبرة ، وأنْ ينتهوا عن عنادهم ، ويعلموا أن الله ناصرُ دينه ومُتم أمره ، فكلّ يوم يمرّ كانت أرض الإيمان تزداد ، وأرض الكفر تنقص ، ومحمد يأتيه الموالى والفقراء والمساكين ، ثم أتاه بعد ذلك الكبراء والصناديد والأعيان[1] .

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله ﷺ ، ويُعلِّمنا كيف ندعوه ، فقال : (قُلْ) أى : يا محمد (اللهُمَّ) يقول سيدنا سعيد بن المسيِّب[2] : لا أجد فى القرآن آية أرْجَى لداعى من قوله سبحانه :

(١) هذا القول هو الذى عليه جمهور المفسرين . قال ابن عباس : أولم يروا أنَّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢٠) عدة أقوال منها : نقصان أهلها وبركتها – نقصان الأنفس والثمرات وخراب الارض – الموت – موت العلماء والفقهاء وأهل الخير منها . ثم قال : القول الأول أوْلَى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

(٢) الذى فى تفسير القرطبى (٨/٥٩١٠) أن هذا القول لسعيد بن جبير ، ونصه : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٤٦)﴾ [الزمر] وما علمه الله أن يدعو إلا لسبقه فى القدر أنْ يجيب . إذن : الحق سبحانه لم يترك رسوله يدعوه بلفظ من عنده إنما علَّمه بمَ يدعو ، فلا بُدَّ أنْ يُكتبَ له القبول ، كما لو أن شخصاً أعطاك المفتاح ، هذا يعنى أنه يقبلك أنْ تدخل المكان .

وهنا يجب أن نقف على روعة الأداء البيانى وعظمة الدعاء والنداء فى (اللَّهُمَّ) وهى عبارة عن لفظ الجلالة (الله) أُلحقتْ به ميم مُشدَّدة للدعاء والنداء ، ونحن نعرف أن النداء طلبُ إقبال المخاطب على المتكلم ، وللنداء حروف معروفة حسب قرب المنادى أو بُعْده من المنادَى ، فنقول فى نداء القريب : أمحمد . وفى نداء البعيد : يا محمد والأبعد : أيا محمد .. الخ .

إذن : فحرف النداء نفسه يحدد موقع المدعو ، فهل يجوز استخدام هذه الحروف فى نداء الحق سبحانه فنقول مثلاً : يا الله ؟ إنه من الأدب فى نداء الحق سبحانه ألاَّ نناديه سبحانه كما ننادى غيره لأنه سبحانه أقربُ إلينا من حبل الوريد ، فلا يصح أنْ نقول : يا الله أو أيا الله ، فهذه مراتب للبُعْد والله قريب .

لذلك لا تجد القرآن يستخدم هذه الحروف أبداً فى ندائه سبحانه ، إنما استخدم اللهم للدعاء ، وعلَّمنا أنْ ندعوه بها ، وقد ألحق بها الميم المشدَّدة بدلاً من حروف النداء قبل الاسم المنادى ، فالميم عوَضٌ عن حرف النداء المحذوف فدلَّتْ الميم المشددة على النداء ، وعلى ذِلَّة الطلب منك .

وحين نستقرئ القرآن الكريم نجد أن كلمة الله وردت بالرفع ٩٨٥ مرة ليس فيها دعاء إلا باللهم فى خمسة مواضع هى : هذه الآية التى

معنا ، ثم قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ..(٢٦) ﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) ﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

أما فى نداء الربوبية فنقول : يارب ، وفَرْقٌ بين نداء لفظ الجلالة (الله) وبين نداء لفظ الربوبية (رب) ، فالألوهية تكليف أما الربوبية فعطاءٌ ومنعم ، فما دام الربُّ معطى نعمة . فنقول فى ندائه : يارب لأن الربوبية إيجادٌ من عدم وإمداد من عُدْم وتربية ، إذن : أنت المستفيد فى عطاء الربوبية ، أما الألوهية فتكليف بافعل ولا تفعل .

وكلمة ﴿ فَاطِرَ..(٤٦) ﴾ [الزمر] أى : خالق ومُبدع ومُوجد الوجود من العدم على غير مثال سابق يعنى : أمر ابتكارى جديد فإنْ كان الإيجاد على مثال سابق يعنى محاكاة فلا يسمى (فاطر) .

وقوله ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٦) ﴾ [الزمر] اختار السماوات والأرض ، لأنها الكائن الذى لا يغيب عن الإنسان ، فالأرض تُقلُّه والسماء تظله فهو لا ينفكّ عنهما لحظة من حياته ، وهناك نِعَم أخرى قد تغيب عن الإنسان فى وقت كالماء مثلاً .

﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.. (٤٦) ﴾ [الزمر] يمتنُّ الحق سبحانه بعلم

الغيب ، فكيف يمتنُّ بعلم الشهادة ، وهى معلومة للناس مُشَاهدة ؟

قالوا : لأن الله غيْبٌ ، وقد نفهم أن هذا الغيبَ كالغيب بالنسبة لك، فأنت تشاهد مَنْ معك فى البيت ، لكن لا تشاهد مَنْ هو خارج البيت ، فهو بالنسبة لك غَيْبٌ ، لكن الحق سبحانه يعلم الغيب ويعلم المشَاهد ما غاب عنكم والمشهود لكم ولغيركم .

وقوله :﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) ﴾ [الزمر] هذا هو المرجع النهائى فى الخلاف بين الحق والباطل ، يوم الفتح الذى كان ينتظره هؤلاء ويستعجلونه ، بل ويستهزئون به كما قال سبحانه حكايةً عنهم :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقولوا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾ [السجدة] فيردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة] يعنى : لو جاءكم هذا اليوم فلن ترجعوا بعده مرة أخرى لتجدوا إيماناً ولا توبة .

ونلحظ هنا أن القرآن استعمل كلمة (عباد) للدلالة على الفريقين : المؤمنين ، والكافرين ، والغالب أن تستخدم كلمة العباد فى الطائعين الملتزمين بالمنهج كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

فهل يُقال للكافرين والعاصين أيضاً عباد ؟

قالوا : نعم : لأن الإنسان له وضعان بالنسبة لربه تعالى : وَضْع له فيه اختيار ، وهى قوة الاختيار التى خلقها الله فى الإنسان بحيث يفعل ما يشاء ، حتى إنه يفعل ما لا يريده منه ربه سبحانه . هناك

وَضْع آخر ليس له فيه اختيار ، وهي الأمور القهرية التي لا اختيارَ للعبد فيها .

فالإنسان مثلاً قد يتمرد على منهج ربه ، وقد يخالفه ويشذ عنه ، فنقول له : ما دُمت قد ألفتَ التمرد فتمرد على كل شيء ، تمرد على المرض تمرد على الموت .. إنه لا يستطيع ، لأنها أمور قهرية لا اختيار له فيها . إذن : فهو في هذا الوضع محكوم بالعبودية قهراً ، فهو لا يخرج عن عبوديته لله حتى لو كان كافراً ، وحين نقول للكافرين (عباد) فلأنهم في شق من تصرفاتهم لا يتأبَّوْنَ فيه على الله ، بل هم فيه مقهورون .

لذلك قال تعالى عنهم في الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

هذا خطاب للمضلِّين فسمَّى الضالين عباداً ، لماذا ؟ لأن الكلام هنا في الآخرة حيث يستوي الجميع ، فالكل هناك طائع صالح مؤمن ، كلهم في الآخرة عباد وعبيد . أما في الدنيا فكلهم عبيد وبعضهم عباد .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

تذكرون أننا قلنا في الحديث عن الشفاعة أن المذْنب يُعرض على ربه عز وجل أن يدفع الفدية ليغفر له فلا يُقبل منه عدل ، فيأتي بمَنْ يشفع له فتُردّ شفاعته ، فلنفرض أن عنده الدنيا بحذافيرها يملكها ويقدمها عدلاً لسيئاته ، بل أكثر من ذلك ، عنده ما في الأرض جميعاً

﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ ٤٧﴾ [الزمر] مع أن هذه الحالة لم تحدث لأحد ، لكن على فرض أنها حدثت وقدَّم العاصى ذلك كله ليفتدى نفسه من عذاب يوم القيامة فلن يُتقبل منه .

وقوله سبحانه :﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٤٧﴾ [الزمر] يدل على أن الإنسان قبل أن يُؤمِّنَ لنفسه النعيم يريد أنْ ينجوَ من العذاب فهذا هو الأهم ؛ لذلك الرجل المغرور صاحب الجنتين فى سورة الكهف لما اغترَّ بعمله وظنَّه صالحاً قال :﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ٣٦﴾ [الكهف] يعنى : سيعطينى أفضلَ مما كان عندى ، وهذا غرور والعياذ بالله .

لذلك تجد الغنى حين يُصيبه مرض شديد والعياذ بالله يقول : خذوا كلَّ ما أملك وأعيدوا إلىَّ عافيتى ، يريد أن يتخلص مما هو فيه من المرض أولاً ، كذلك حال أهل المعاصى فى الآخرة .

ومعنى ﴿مِن سُوءِ الْعَذَابِ ٤٧﴾ [الزمر] أى : من العذاب السيء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٤٧﴾ [الزمر] ثم يُفاجئهم ما لم يكُنْ فى حُسْبانهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزمر] بدا يعنى : ظهر لهم ؛ لأن الإنسان مهما تخيل فى الدنيا فلن يتسع تخيُّله لما يأتى الله به فى الآخرة .

لذلك سيدنا محمد بن المنكدر [(١)] قال : لقد خوَّفتْنى هذه الآية لأننى أخشى حين أموت أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب [(٢)] ذلك لأن

---

(١) هو أبو عبد الله القرشي التيمي المدني محمد بن المنكدر بن عبد الله ، كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون ، حافظ سيد القراء ، مُجمع على ثقته وتقدمه فى العلم والعمل ، توفى سنة ١٣٠ هـ (تذكرة الحفاظ ١/١٢٧، ١٢٨)

(٢) ذكر هذا الخبر القرطبى فى تفسيره (٥٩١١/٨) أن محمد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزمر] فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . وذكره أيضاً الذهبى فى تذكرة الحفاظ (١/١٢٧) .

الإنسان كثيراً ما يفعل سيئات دون أن يشعر بها ، أو دون أنْ يعلمَ أنها سيئات ، أو قد يفعلها وينساها ، وهذه التي قال الله فيها ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۝ ﴾ [المجادلة]

وقد يُزيِّن لك الشيطانُ السوءَ فتراه حسناً وما هو بحسن ، كل هذا ستُفاجأ به في الآخرة .

وأول ما يفاجئ الكافرين يوم القيامة أنهم لن يجدوا الآلهة التي عبدوها من دون الله ولن تشفع لهم ، حتى سادتُهم وقادتهم الذين أضلوهم سيتبرأون منهم : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝ ﴾ [البقرة]

بل إن السادة المضلين سيسبقون الأتباع إلى النار كما حكاه القرآن : ﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝ ﴾ [ص]

ولو دخل التابع قبل سيده لتعلَّق فكره به وظنَّ أنه سيأتيه ويُخلِّصه ، لكنه سيدخل فيجده قد سبقه ، وعندها تنقطع منهم الآمال ، وتكتمل الحسرة والندامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ ﴾

قوله ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أي : ظهر لهم وبَانَ لهم (سَيِّئَاتُ) هل الذي يظهر لهم في الآخرة السيئات ، أم عقوبة السيئات ؟ قالوا :

الذى يرونَه في الآخرة هو عقوبة السيئات ، لكن قال ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٤٨)﴾ [الزمر] لأن الجزاء من جنس العمل ، فالعقوبة هى أيضاً سيئات ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لأن معنى السيئة هو الأمر الذى يسوء ، فكما أساء هو فى العمل فى الدنيا نُسيئه فى الآخرة .

وكلمة ﴿ مَا كَسَبُوا (٤٨) ﴾ [الزمر] سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقُلْنا : إن القرآن يستخدم كسب فى الخير واكتسب فى الشر ؛ لأن الخير يأتى من الإنسان طبيعياً لا تكلُّفَ فيه ولا احتيال ، فيأتى على وزن (فعل) . أما الشر فيحتاج من فاعله إلى تكلّف وستْر واحتيال ، فعبَّر عنه بما يدل على الافتعال وهو (افتعل) أو اكتسب .

ومثّلْنا لذلك بالإنسان حين ينظر إلى أهل بيته أو محارمه وفيهن الجميلات مثلاً ، فهو ينظر نظرةً طبيعية لا يسترها ، ولا يخاف فيها شيئاً ، أما إنْ أراد أنْ ينظر إلى امرأة أجنبية عنه فإنه يُخفى هذه النظرة ، ويحتال لذلك بكل وسيلة .

إذن : لماذا استخدم القرآن هنا لفظ كسب فى مجال السيئات ، وهى كما أوضحنا اكتساب ؟ ومثله قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. (٨١)﴾ [البقرة]

قالوا : استخدم القرآنُ كسب فى السيئات لأن صاحبَ السيئة قد يتعوَّد عليها حتى تصبح طبْعاً فيه وعادة ودُرْبة ، بل وتصبح بالنسبة له مهارة تصل إلى حَدِّ التباهى بها والعياذ بالله ، وهؤلاء يفعلون السيئة دون تكلّف ودون ستْر ، فهى فى حقه كسبٌ لا اكتساب ، ومثال ذلك المجرمون الذين اعتادوا الجريمة وتمرَّسوا بها ، فهى

بالنسبة لهم عملية طبيعية ، وساعة يعمل السيئة يعدّها مكسباً له .

وقوله : ﴿وَحَاقَ بِهِم (٤٨)﴾ [الزمر] أى : نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾ [الزمر] هذا المعنى أوضحه الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

نعم .. كثيراً ما نرى ونسمع استهزاء أهل الباطل من أهل الحق وسخريتهم منهم وتندّرهم عليهم ، ويصل الأمر إلى أنْ يتهموهم بأنهم على ضلال ، سبحان الله ؟ لكن عزاء أهل الحق أن هذا الاستهزاء فى الدنيا الفانية ، وإنْ صبروا عليه كان لهم الأجر ، وسوف يُرد هذا الاستهزاء وهذه السخرية فى الآخرة الباقية ، حيث يسخر أهل الحق من أهل الباطل ويضحكون منهم ، بل ويخاطبهم الحق سبحانه ليطيب خاطرهم : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾[المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نُجازيهم بما يستحقون ؟

قالوا : استهزاء الشرير بالخيِّر ، وسخريته منه ثأر من طيبته لشريرته ، لأنه لا يستطيع ولا يقدر أنْ يكون مثله فيسخر منه ويستهزئ به لعله ينصرف عمَّا هو فيه من الخير ويذهب إلى الشر ، لكن العاقل يفهم هذه المسألة ويعلم أن هذا الاستهزاء غيظ وحقد وحسد فيصبر عليه وهو يعلم أنَّ له بكل سخرية وبكل استهزاء منزلةً عند الله ، وله على ذلك عوَض .

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ[1] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

رأينا المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى وقالوا : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زُلْفى .. إذا ما طرأ لهم طارئ أو جَدَّ في حياتهم شيء فوق طاقة أسبابهم لا يلجئون إلى الأصنام ، ولا إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله ، إنما يلجئون إلى الله ويضرعون إليه سبحانه ليكشف عنهم ما هم فيه ، وليرفع عنهم البلاء ، لماذا ؟

لأن هذه هي الفطرة السليمة التي فطر اللهُ الناسَ عليها ، والعهد الذي أخذه الله علينا جميعاً ونحن في عالم الذرّ حين قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] والإنسان لا يخدع نفسه ولا يسلمها ، فإذا أحاط به شر لا تنهض الأسباب لدفعه قال : يا رب وعندها ينسى كبرياءه ، وينسى عناده ، وينسى تكذيبه للرسل ولا يجد إلا ربه وخالقه وإلهه الحق .

وصدق الله :﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه مستفضلاً عليه بغير عوَض . [القاموس القويم ١/٢١٤] . وخوَّلك الله مالاً . أي : ملَّكك . وخوَّله المال : أعطاه إياه . وقيل : أعطاه إياه تفضّلاً . [لسان العرب - مادة : خول] .

نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

ونلحظ أيضاً أن الإنسان حينما يقع فى كرب لا يقدر على دفعه بنفسه ينادى مَنْ حوله ، فإذا لم يُجِبْه أحدٌ يقول يا هوه ، ومعناها : يا هو يا مَنْ ليس هناك غيره ، والمراد الله سبحانه وتعالى .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] أى : أعطيناه ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : إنْ أعطيناه نعمة بعد هذا الضر الذى مسَّه سرعان ما ينسى ويعود إلى صلَفه وغروره الحياتى ، لأنه يخاف أن مسألة رفع الضر عنه تُقربه من ربه الذى دعاه ، وأن هذا الجميل الذى ساقه إليه ربُّه يعيده إلى الجادة وإلى الاستقامة .

فالاستقامة تكاليف ومسئولية هو يكرهها ، ولا يريد أنْ يُقيِّد نفسه بها ، لأن التكليف معناه مَنْع النفس عن شهواتها ، وحملها على الطاعات فهو يخاف أن تأسره هذه المسألة ، أو تقيد حريته فى الشهوات ، لذلك قال الحق سبحانه عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] لها وجهان : إما على علم من الله أنِّى أستحق هذا الخير وإلا ما أعطانى - هذا إنْ كان يعتقد أن الله هو الذى يعطى - أو على علم منى ، لأن عندى دقَّة فى التعامل ويقظة ، وعندى تجربة ودراية بالأمور ودراسة للنتائج .

وهنا يصحح له ربه ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : هذه النعمة فتنة من الله ، فلا هى لعلم الله أنك تستحق ، ولا هى نتيجة لعلمك ومهارتك ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : ابتلاء واختبار . كما قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] نبلو

بالشر لنرى مَنْ يصبر ، ونبلو بالخير لنرى مَنْ يشكر ومَنْ يطغى .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ۝٢٠ ﴾ [الفرقان]

يعني : كلٌّ بعض منا فتنة للبعض الآخر ، فالغنى فتنةٌ للفقير ، والقويُّ فتنة للضعيف ، والعكس صحيح ليختبر الحق سبحانه خَلْقه : مَنْ يصبر ومَنْ يجزع ، مَنْ يشكر ومَنْ يكفر ، مَنْ يرضى ومَنْ ينقم.

إذن : ينبغي على الإنسان أنْ يقوم في حركة حياته ما أقامه الله ، فكل ما يُجْريه عليه خير ، فإذا رأيتَ نعمة عند غيرك وليست عندك فاعلم أن الله ما فضّل هذا عليك ، وأنت بصبرك على ما قُدِّر لك وعدم حقدك على أخيك تستطيع أنْ تكون أفضل منه .

وتختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ ﴾ [الزمر] أي : هذه الحقائق التي ذُكرتْ لا يعلمها الكثيرون ، وهذا يعني أن القلة تعلم .

ثم يوضح الحق سبحانه أن هذه المسألة ليستْ كلمة نظرية ، إنما هي حقيقة لها واقعٌ في تاريخ السابقين ، فيقول : ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠ ﴾ [الزمر] نعم قالها قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۝٧٨ ﴾ [القصص]

ونقول : ما دمتَ قد أوتيته على علم ، سواء علم من الله أنك أهلٌ لهذا الخير أو علم عندك ومهارة في العمل والتناول ، فها هي النعمة بين يديك ، وما عليك إلا أنْ تحفظها ، وحفْظ الشيء الموجود بين يديك أيسَرُ من إيجاده من العدم ، فهل تستطيع ؟

والمعنى أنني لا أقول لكم كلاماً نظرياً ، بل هو واقع يؤيده التاريخ ، فقد قالها قارون واغترَّ بها ، ثم خسفنا به وبداره الأرض.

وهنا نشأتْ قضية : إذا كنتَ قد أوتيته على علم فاحفظه أيضاً على علم ، لكنْ ما دام الأمر قد تخلَّى عنك في الحفظ وهو يسير ، فأنت في الإيجاد أشدّ تخلياً .

نعم ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزمر] لأن الله خسف بقارون وبداره أيضاً ، فلم تذهب النعمة والثروة فحسب ، بل طال الانتقام حتى الأرض والمكان الذي يعيش عليه ويبيت فيه ويستريح عليه .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر] أي : السابقون الذين قالوا هذه الكلمة من قبل ، أصابهم ونزل بهم ما كسبوا من السيئات ، يعني : هم فعلوه بأنفسهم ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر] أي : المعاصرين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر]

والمعجز هو الذي يعمل عملاً يتحداك به ، وتعجز أنت عن الإتيان بمثله ؛ لذلك نسمي آية صدق الرسل في البلاغ عن الله معجزةً ، لأنها أعجزتْ المكابر المكذِّب ، أما الذي آمن بمجرد البلاغ وصدَّق به فلا يحتاج إلى معجزة ، والمعجزة يُشترط لها أن تكون مقرونة بالتحدي ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تتحدَّاه وتخبره أنك ستعمل عملاً لا يقدر هو عليه فإنك بذلك تشحن مواهبه ليستعدَّ للمواجهة ، وعندها تستطيع أن

تقيم عليه الحجة ، أما إنْ فاجأته بالتحدى فله أنْ يقول لك : والله لو فكرت في المسألة ، أو لو كانت في بالى لفعلتُ . إذن : معجز يعنى يصيب الغير بالعجز عن مجاراته .

وقلنا فى المعجزة : إنها ينبغى أن تكون من جنس ما نبغ فيه القومُ ، ومناسبة للعصر الذى نتحدى فيه ، لأنك لو تحديتَ قوماً بشيء لا علمَ لهم به ولا دُرْبة لكان لهم أنْ يقولوا : لو كنا نعلم هذا لفعلناه ، وإلا لما كان للتحدى موضع .

وقد أعطانا القرآن الكريم نموذجاً للتحدى حينما تحدّى العرب وهم أهْلُ اللغة وأرباب الفصاحة والبيان ، تحدَّاهم أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين نتأمل هذا التحدى نجده يتدرج تنازلياً ، وكلما تنازل فى تحدّيه يعلو فى إعجازه ، لأنه أول ما تحدَّاهم تحدَّاهم بمثل هذا القرآن ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة من مثله .

ليس هذا وفقط ، إنما يُخرِج التحدى من الإنس إلى الجن ؛ لأن العرب وإنْ كانوا أمة كلام وفصاحة إلا أنهم نسبوا للجن قدرةً أعلى على الفصاحة والبلاغة ، بدليل أنهم إذا نبغ منهم شاعر وأجاد قالوا : إن الجن يُوحى إليه بهذه المعانى ، واعتقدوا أن هذا الجن يسكن وادى عبقر [1] كما يقولون .

لذلك أخرج القرآن التحدِّى من دائرة الإنس إلى دائرة الجن ، فقال سبحانه :﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معينا ومساعداً .

(١) قال ابن الأثير : عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئا فائقا غريبا مما يصعب عمله ويدق أو شيئا عظيما فى نفسه نسبوه إليها فقالوا : عبقرى . ثم اتسع فيه حتى سمى به السيد والكبير . [نقله ابن منظور فى لسان العرب - مادة عبقر] .

لذلك كانت معجزة سيدنا موسى عليه السلام نوعاً من السحر ، لأن قومه نبغوا فيه ، وكانت معجزة سيدنا عيسى أنْ يبرئ الأكمه[1] والأبرص بإذن الله ، لأن قومه نبغوا فى الطب .

وكلمة ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى الهرب والإفلات من العقوبة ، لأنهم فعلوا أشياء تستحق العقوبة ، فإذا أخذناهم للعقاب فلن يُعجزونا . يعنى : لن يفلتوا منا ؛ لأن المسألة بالنسبة لنا قد يكون غريمك فى يدك وفى نفس مكانك ، وقد يهرب منك إلى مكان آخر ، لكن بالنسبة للحق سبحانه فهو فى كل مكان ، وإلا فدلَّنى على مكان ليس فيه الله سبحانه وتعالى ، إذن : كيف الهرب ؟ وإلى أين ؟! فإنْ تواجدتم معه فلن يعجز عنكم ، وإنْ هربتم فلن يعجز عن الإتيان بكم .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لأن قارون اغترَّ بماله وجاهه ، وما كان فيه من غنى وزَهْوة فى قومه ، حتى قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فأراد الحق سبحانه أنْ يُصحح له المسألة ولمَنْ كان على شاكلته ، فقال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزمر] يبسط يعنى : يُوسِّع على مَنْ يشاء ، ويقدر يعنى : يُضيق على مَنْ يشاء ويقبض ، وكما نقول : يعطى مَنْ لا حيلةَ له ليتعجب مَنْ له حيلة.

---

(١) الأكمه : مَنْ وُلد أعمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . [القاموس القويم ٢/١٧٥] . أما البرص فهو مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة .[القاموس القويم ١/٦٤] .

إذن : المسألة في الرزق والعطاء ليست شطارة ومهارة في تناول الأشياء ، إنما هي قدر قدَّره الرازق سبحانه .

وقد ورد في الحديث القدسي قوله تعالى : « يا ابن آدم .. خلقتُك للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب ، فإنْ أنت رضيتَ بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندي محموداً ، وإنْ لم ترْضَ بما قسمتُه لك فوعزّتي وجلالي لأُسلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحوش في البرية ، ثم لا يكونَ لك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندي مذموماً »[1]

فالرزق قسمه الرازق سبحانه ، ولا يُشترط له مهارة ولا رجاحة عقل وحُسْن تفكير ، لذلك قال أبو العتاهية[2] :

يُرزَقُ الأحْمَقُ رزْقاً واسعاً وتَرى ذَا اللُّبِّ محرُوماً نكد[3]

والحق سبحانه وتعالى يرزق الإنسان من حيث لا يحتسب ، لذلك يُحكى أن رجلاً راعياً وهو يسير في الطريق إذ عثرتَ رجْله بحجر ، فوجد عنده بئراً فجعل يتحسَّس ما في البئر ، فوجد شَيئاً له صوت (شخشخة) كصوت الذهب والفضة ، فبحث عنه فوجدها غرارة[4]

(١) ما وجدته في نحو هذا ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٤) من حديث عرفجة بن أسعد أن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه ، فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرْضَ لم يبارك له .

(٢) هو : إسماعيل بن القاسم أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية ، شاعر مكثر سريع الخاطر ، في شعره إبداع ، كان ينظم المئة والخمسين بيتاً في يوم ، ولد عام ١٣٠ هـ في عين التمر قرب الكوفة ونشأ في الكوفة وسكن بغداد ، يُعد من مقدمي المولدين من طبقة بشار وأبي نواس. توفي ببغداد عام ٢١١هـ عن ٨١ عاماً [الأعلام للزركلي ١/٣٢١] .

(٣) البيت لأبي العتاهية من قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الرمل ، أولها :

ما رأيت العيش يصفو لأحد دون كد وعناء ونكد
كن لما قدمته مغتنماً لا تؤخر عمل اليوم لغد

[الموسوعة الشعرية]

(٤) الغرارة : بكسر الغين الظرف (كجوال) مثلاً يُحمل فيه التبن وما أشبهه . قاله أبو حيان التوحيدي في (البصائر والذخائر) .

مملوءة بالذهب والفضة فأخذ منها ما يملأ جيوبه وما يستطيع حمله ، وترك الباقي في مكان يعلمه ليعود إليه حين الحاجة .

وبعد فترة نفد ما معه من المال ، فجاء إلى نفس المكان ليأخذ من هذا المال فوجد شخصاً آخر قد سبقه إليه وأخذ ما تبقّى منه ، فلما رآه يحمله على ظهره نظر إليه . فقال الرجل : رزقنى الله ما ظننته أنه لك ، لكن هو لى .

لكن نلحظ في مسألة الرزق أن الناس يُخطئون حين يظنون ويُحجِّمون الرزق فى المال وحده ، فالرزق عندهم هو الغنَى وكثرة المال ، لكن الصواب أن نقول : الرزق هو كل شيء يُنتفع به وتستفيد منه ، وعليه فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والأمانة رزق ، والصحة رزق .. الخ .

لذلك ينبغى على الغنى الذى رُزق المال الوفير أنْ يسأل نفسه حين يرى فقيراً : يا ترَى ما رزق هذا الفقير ؟ وبم تميَّز عنى ؟ ربما كان رزقه فى عقله أو فى أدبه أو فى حلمه أو فى سمعته الطيبة بين الناس أو فى عافيته .

وسبق أنْ قلنا : إن مجموع المواهب عند أىِّ إنسان تساوى مجموع المواهب عند الآخر ، فهذا عنده المال بنسبة عشرة على عشرة ، لكنه حُرِم نعمة الولد بنسبة صفر على عشرة وهكذا ؛ لأن الخَلْق جميعاً عيال الله ، ولا يوجد منهم مَنْ هو ابن الله أو بينه وبين الله نسب .

إذن : علام يوجد التمييز بين واحد وآخر ؟ نقول : الرزق يحتاج إلى جهات متعددة ؛ لذلك يوزع الرازق سبحانه الأسباب فلا تستقيم الحياة إنْ كان الناس جميعاً أغنياء ، أو كان الناسُ جميعاً عقلاء أو

علمـاء ؛ لأن العـقل الواحد مـثـلاً يحتـاج إلى أكـثـر من جارحـة من الجوارح تخدم تفكيره ، فـالمهندس مثلاً حين يرسم تصميـماً لعمارة سكنيـة ، هو مـهندس واحـد لكن يحـتاج إلى كم عـامل لتنفـيـذ هذا العمل ، ولخـدمة هذه الفكرة الهندسية ، فـالعامل البسيط الذى يـحفر الأرض لوضْع الأسـاس عنده من المـواهب مـا ليس عند المـهندس ، وهكذا تُوزَّع المواهب وتُوزَّع الأرزاق .

والرزق قـد يكـون بزيادة الدخل ، وقـد يكون سلبـاً بـنقص المنصرف ، فنجد مثلاً رجلاً راتبه الشهرى مائة جنيه ويتعجب الناس كـيف يعيش بهـذا المبلـغ ، ونسوا أن المـهم فى الرزق أن يكون من الحلال ، فـالله يبارك فى القليل منه ، حتى يحلّ مـحل الكثير ، فتـجد هذا الرجل مـثلاً إذا مرض ولده يكفـيه قـرص أسبريـن والأم تعد له كوب شاى ويُشفى الولد بإذن الله .

بينما نجد آخر يحصل على أضـعاف هذا المبلغ ، لكنه لا يتحرَّى الحلال فى كـسبه ، فـإذا مرض ولده ذهب به إلى الطبـيب ، وأجرى التحـاليل وأوهم نفسـه أن المرض خطيـر ، حتى يصـرف على الولد مبالغ كبيرة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ أصـاب مالاً من مهاوش[1] أذهبه الله فى نهابر[2] »[3] .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك .[لسان العرب - مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [اللسان - مادة : نهبر] .

(٣) أورده العـجلونى فى كشف الخـفاء (٢/٣١٣) وعـزاه للقـضاعى عن أبى سلمـة الحمـصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

إذن : رزق الإيجاب أنْ يزيد المورد ، ورزق السلب أنْ يقلَّ المنصرف ، لذلك نلحظ مثلاً موظفاً من أصحاب الرواتب العالية وزميله له راتب متواضع يذهبان إلى السوق ، الأول يشترى الرومى أو السمك الكيلو بعشرة جنيهات ، أما الآخر فيشترى السمك العادى الكيلو مثلاً بأربعة جنيهات ، ذهب كل منهما إلى بيته وأكل كل منهما سمكاً ، لكن الأول صرف أضعاف أضعاف الآخر ، وربما النتيجة واحدة ، وكل منهما راضٍ بما أخذ وبما أكل ، هذا نسميه رزق السلب .

والمؤمن ينبغى له دائماً أنْ يضع مسألة الاقتصاد فى النفقات فى باله ، وأنْ يعلم أن رزق السلب أوسع من رزق الإيجاب ، لأن رزق السلب منع ألماً ، أمَّا رزق الإيجاب فقد يأتى بالألم .

وقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٥٢) ﴾ [الزمر]

أى : يؤمنون بالرازق الذى سمَّى نفسه الباسط ، وسمى نفسه القابض ، وما دام الحق سبحانه سمَّى نفسه الباسط وسمى نفسه القابض فلا بدَّ أنْ يكون لكل صفة متعلق ، ولا بدَّ أنْ يوجد فى الخَلْق مَنْ يبسط الله له الرزقَ ، ومَنْ يقبض عنه ويُضيِّق عليه ، وهذا وذاك بحكمته تعالى وقدره سبحانه .

فمَنْ وسَّع الله له رزقه ، وبسط له عليه أنْ يشكر ، ومن قُدِر عليه رزقه وضُيِّق عليه يجب أنْ يصبر وأنْ يرضى ، وأنْ يسير فى حركة حياته على قدر رزقه ، ولا يفتح على نفسه أبواب المسألة ، فمَنْ رضى بقدره أعطاه الله على قدره سبحانه ؛ لذلك تجد عظماء العالم وأصحاب الكلمة والصِّيت لو نظرت إليهم فى أوليات حياتهم لوجدتهم رَضُوا بقدر الله فيهم وعاشوا فى مستوى دخولهم ، فتحقق فيهم قوله : « مَنْ رضى بقَدَرى أعطيته على قَدْرى » .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾

الإسراف هو تجاوز الحدّ ، نقول : فلان مسرف يعنى : يتجاوز الحدَّ فى الإنفاق بما لا يتناسب مع دخله ، وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم ولم يقل : أسرفوا لأنفسهم . إنما أسرفوا عليها . مما يدلّ على أن هذا الإسراف يجر عليهم الوبال ، فهو إسراف فى المعاصى والذنوب والعياذ بالله .

قلنا : الإسراف تجاوز الحدّ ، الحد إنْ كان بعد أمر فلا تتجاوزه ، وإنْ كان بعد نهي فلا تقربه مجرد القرب منه ؛ لذلك يقول تعالى فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ۝٢٢٩ ﴾ [البقرة] يعني : قفْ عندها . أما فى النواهى فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ۝١٨٧ ﴾ [البقرة] لأن قربك من الشيء يغريك به . وكما ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ حام حول الحمَى يوشك أنْ يُواقعه »[2] .

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات .. منها :
- قال ابن عباس : نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ؟ فأنزل الله هذه الآية .
- وقال ابن عمر : نزلت فى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا ففتنوا ، وكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً ، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذّبوا به ، فنزلت هذه الآيات .
- وعن ابن عباس وعطاء : نزلت فى وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ، فأتى وحشى إلى النبى فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

لذلك حينما نهى الحق سبحانه سيدنا آدم عن الأكل من الشجرة لم يقل له : لا تأكل منها ، إنما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ⁽¹⁹⁾﴾ [الأعراف]

لذلك تجد أن لفظ الاجتناب أقوى من لفظ التحريم وأشدّ ، وعجيبٌ أنْ نسمع من الذين يسرفون على أنفسهم يقولون : لم يردْ لفظ يحرم الخمر في كتاب الله ، نقول : كيف وقد ورد ما هو أشدّ من التحريم وهو الاجتناب في قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ[1] وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⁽⁹⁰⁾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ⁽⁹¹⁾﴾ [المائدة]

لأن معنى (فَاجْتَنِبُوهُ) يعني : ابتعدوا عنها بالكلية فجانبوا مجلسها ، وجانبوا شاربها ، وجانبوا بائعها ، وجانبوا ناقلها .. الخ فهذا أبلغ في التحريم من قولنا لا تشرب الخمر ، بدليل أن القرآن استخدم لفظ الاجتناب في قمة الإيمان العقدي ، فقال سبحانه : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ⁽³⁰⁾﴾ [الحج]

فإذا تناولنا الإسراف في الإنفاق نجد أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تسير حركة الحياة في المجتمع الإيماني حركةً متوازنة متساوية تتوسط في الأمور ، بمعنى أنك تعرف دخلك ورزقك الذي يسوقه الله إليك ، والله لا يريد منك أنْ تقبض هذا الرزق وتمسكه فلا تنفق منه ، ولا يريد منك أن تنفقه كله أو تسرف فيه بل يريد

---

(١) الانصاب جمع نُصب وهو ما ينصب ليعبد من دون الله أو ليذبح عنده الذبائح تقرباً إليه أو إلى الأصنام [القاموس القويم ٢/٢٦٧] والأزلام جمع زلم وهو قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرم شرعاً . [القاموس القويم١/٢٨٩] .

الوسطية ، كما بيَّن سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] فالإسراف والتقتير كلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، فمَن اتخذ سبيلاً غير سبيل الوسط أضرَّ بنفسه وبالمجتمع ، لأنه إنْ أمسك المال قلَّتْ قوة الشراء وقوة البيع فى الأسواق ، ويترتب على ذلك ركود فى الحركة التجارية والصناعية وبوار للسلع وكساد فى السوق .

وإنْ أسرف وبذَّر فأنفق كل دَخْله لم يجد شيئاً يدخره لينمى به حياته ويُحسِّن من مستواه ويرتقى بحياته ، وعندها يلوم نفسه لأنه يرى غيره يرتقى ويُرفِّه حياته وهو لا يستطيع .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه في قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا[1] ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

والمعنى : ملوماً حين تمسك وتضنّ ، محسوراً حين تسرف وتبذر ، لأنه سيجد أهل الوسطية يعيشون عيشة السعداء ، لا لومَ ولا حسرة . والعاقل هو الذى يُخضع مصرفه لدخله ، لا أنْ يُخضع دخله لمصرفه ، لأنك حين تخضع دَخلك لمصرفك فلابدَّ أنْ تمتدَّ يدك للاقتراض من الناس ، وهذا سيتعبك ويشقّ عليك ، وسوف تُعييك الحيل ، ويقبض الناس عنك نفوسهم ، وتهون فى أعينهم حتى تعيشَ بسبب ذلك فى كرب .

إذن : نقول : الإسراف تجاوز الحدّ فيما يعود عليك بالشر والضرر ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر] أما

(١) المحسور : هو الحسير والحسران إذا اشتدت ندامته على أمر فاته . والحسرة : أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذى لا منفعة فيه . [لسان العرب - مادة : حسر].

الإسرافُ الذى يعود عليك بالخير فهو إسراف لك لا عليك كالذى يدفع زكاة مـاله عشرة بالمائة بدلاً مـن ٢,٥ بالمائة ، لأنه أيقن أن هذا هو الباقى له والمدَّخر عند الله ، فواحد يعـمل لأمر دنياه فحسب ، وواحد يعمل للدنيا وللآخرة .

لذلك لما سُئل الإمـام على رضى الله عنه : يا إمام أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخـرة ؟ قال : ليس عندى جواب هذا السؤال ، إنمـا جوابه عندك أنت ، قال : كـيف ؟ قال : إذا دخل عليك اثنان : واحد بهدية ، والآخر يريد صدقة أو معونة ، فانظر إلى أيِّهما تبشّ ، وبأيهـما ترحب ، فـإنْ رحبتَ بصـاحب الهدية فـأنت من أهل الدنيا ، لأنك تحب مَنْ يعـمر لك دنياك ، وإنْ كانت الأخـرى فأنت من أهل الآخرة ، لأنك تحب مَنْ يعمر لك آخرتك .

وتعرفون قصة الشاة التى أهديتْ لسيدنا رسـول الله ﷺ فتصدقت بها السيدة عائشة ولم تبْق منها إلا كـتفها ، فلما سألها رسـول الله : « ماذا صنعت بالشـاة » ؟ قالت : كلها ذهب إلا كـتفهـا - وكان ﷺ يحب من الشاة الكتف - فقال ﷺ : « بل بقيت كلها إلا كتفها »(١)

إذن : الباقى هو مـا تصدَّقنا به ، والذاهب مـا أكلناه ، ويؤيد هذا الحديث قـوله ﷺ فى الحديث : « يا ابن آدم ، ليـس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »(٢)

ثم يفتح الحق سبحانه طاقةَ الأمل لمنْ أسرف على نفسه ، فيقول

---

(١) حديث صـحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمـذى فى سننه (٢٤٧٠) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها .

(٢) أخرجه أحمـد فى مسنده (٤/ ٢٤، ٢٦) ومسلم فى صحيحـه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

لهم : ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ (٥٣) ﴾ [الزمر] القنوط هو اليأس من رحمة الله ، لكن لماذا نيأس من رحمة الله ؟ قالوا : لأنهم أسرفوا على أنفسهم وبالغوا فى المعصية وتمادَوْا فيها ، وحين يعود المسرف ويرجع يلوم نفسه ويؤنبها وتعظم ذنوبه فى نظره ، ولا يرى نفسه أهلاً للمغفرة ولا للرحمة فيداخله اليأس والعياذ بالله .

والمتأمل يجد هذا اللوم للنفس وهذا اليأس من الرحمة هو من جهة أخرى ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن استعظامَ الذنوب وكوْن المسرف لا يرى نفسه أهْلاً للرحمة ، هذا يدل على سلامة إيمانه وعلى خوفه من ربه .

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

قال عنها ابن عباس أنها أرْجَى آية فى كتاب الله لأنها تعطى الأمل لكل مذنب مهما كانت ذنوبه . ولولا أن الله تعالى أعقبها بقوله : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] لأورثتْ الناسَ التهاون وأطمعتهم فى رحمة الله طمعاً يُنسيهم عذابه ونقمته ، فالمؤمن يتقلَّب فى حركة حياته بين الخوف والرجاء ، ولا بدَّ له منهما معاً .

نعم ربك غفور رحيم ، لكن لا بدَّ لكى تكون موضعاً لهذه الرحمة ومُتعلّقاً لهذه المغفرة ، لا بدَّ أنْ تنيب إلى الله ، وأنْ ترجع إليه رجوعاً صادقاً مخلصاً ، لأن الذى يذنب ويتوب ، ثم يذنب ويتوب كالمستهزئ بربه ، نعوذ بالله من هذا .

لما قال ابن عباس عن هذه الآية أنها أرجى آية فى كتاب الله قال أحد جلسائه : وأنا أرى أن أرجى آيةٍ فى كتاب الله هى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] وأنا أنتقد العلماء

الذين يفسرون ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ⁽٦⁾﴾ [الرعد] بمعنى : مع ظلمهم ، وهذا لا يستقيم ، ومعنى الآية بحيث نقول عنها أنها أرجى آية فى كتاب الله ، ونلاحظ هنا أن (مع) حرفان أما (على) فثلاثة حروف ، فلا بدّ أن المعنى الذى تؤديه على لا تؤديه مع ، لأنه ما دامت هنا مغفرة للذنب ، والذنب يتطلب صفة القهار والجبار والمنتقم ، لكن مغفرة الله تعلو على الذنب فتمحوه ، وهذا المعنى لا تؤديه مع[1] .

وهنا وقفة للمستشرقين الذين يحاولون النَّيْل من أسلوب القرآن ، وقد رأوْا تعارضاً بين قوله تعالى هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⁽٥٣⁾﴾ [الزمر] وبين قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ⁽٤٨⁾﴾ [النساء]

ونقول لهؤلاء : جهلكم بلغة القرآن ومعطيات الأسلوب أوقعتكم فى هذا الخطأ ، لأن الذنب يعنى ارتكاب جُرم جرَّمه الله وجعل له عقوبة ، والشرك بالله ليس ذنباً بهذا المعنى ، لأن الشرك يُخرِج صاحبه من الملة أصلاً ، وعليه فليس بين الآيتين تعارض كما تظنون .

قالوا[2] : نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..⁽٥٣⁾﴾[الزمر] نزلتْ فى شأن وحشى قاتل سيدنا حمزة فى أُحُد لما أخذت هندٌ كبد سيدنا حمزة ولاكتْها .

---

(١) ممن قال أن على هنا بمعنى مع ابنُ كثير فى تفسيره (٢/٥٠١) ، قال : « أى : أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار » وقد قاله ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/١٢٦) أن معنى على هنا المصاحبة وذكر هذا الشاهد من الآية .

(٢) قاله عبد الله بن عباس وعطاء . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) وقال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص٢٩٢) ، « ويروى أن الآيات نزلت فى وحشى قاتل حمزة» وذكر الرواية بسنده إلى ابن عباس (ص١٩٣) .

ونقول : لقد قُتل حمـزة فى أُحُد ولم يُسلم وحشى بعدها ، إنما أسلم بعد فـترة طويلة ، لذلك قـال الذين يريدون أنْ يُوفِّقـوا بين الأقوال : لعل وحشياً لما قتل حـمزة وتذكر مكانته فى الإسـلام ، وأنه أسد الله قنطَ من رحـمـة الله ، وهذا القنوط قـد يدعوه إلى المـزيد من الشـر والفجور ، وقـابله أحد الصالحين وقـال له : لا تقنط من رحمة الله ، فقد قال الله تعالى :﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

لمـا سمع وحـشىٌّ هذا الكلام أسلم ، فمـا منعه مـن الإسلام إلا الخوفُ مـما فعل ، فـإذا كان أمر المـغفرة على هذا النحـو فلماذا لم يسلم ، وقـد ضمن لـه ربه المغـفرة ؟ إذن : الآيـة سابقـة على هذه القصة ، ولم تنزل فى شـأنه خاصة إنما نزلتْ قبلـه ، لكنها قيلتْ له وقُرئت عليه ، فكانت سبباً فى إسلامه .

وكلمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُـورُ الرَّحِـيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] قـصرت المـغفـرة والرحـمة عليـه سـبحـانه وتعـالى ، لأن كل ذنب من الذنوب حَقٌّ لله تعالى ، وما دام الذنب حـقاً من حقوق الله فـهو وحده الذى يملك أن يغفره وأن يرحم صـاحبه ، وله سبحـانه أنْ يُؤاخذ ويعاقب ، لأن له سبحانه طلاقة القدرة ، وليس معه سبحانه إله آخر يعترض عليه .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي[1] كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

نلحظ هنا في تذييل هذه الآية أنه لم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم فهو المناسب للمغفرة إنما قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] فقوله (العزيز الحكيم) دلَّ على أن عيسى عليه السلام يرى أنهم يجب أن يجازوا في هذه الفرية ، ولكن الحق سبحانه له طلاقة القدرة في أنْ يغفر أو يُعذب ، ولو كان له سبحانه شريك في هذه المسألة ما قال ذلك ، إنما هو سبحانه عزيز حكيم لا يُعقِّب أحدٌ على ما تصرَّف فيه ، فهو سبحانه الذي يغفر لهم لا لأنه غفور رحيم ، إنما هم يستحقون العقوبة ، وإذا غفر الله لهم فلأنه عزيز حكيم .

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾

الإنابة : هي التوبة والرجوع إلى ساحة الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريكَ له . والإسلام : أنْ تنفذ مطلوبَ الله منك في الأمر والنهي بافعل ولا تفعل .

لكن هل تعني الإنابة أنهم كانوا مع الله ثم انصرفوا عنه إلى

---

(١) يأتي التوفي بمعنى الإماتة وقبض الروح مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ (٩٧) ﴾ [النساء] ، ويأتي بمعنى يجعلكم تنامون بالليل نوماً يشبه الموت في العجز عن الحركة وعن الوعي مثل قوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (٦٠) ﴾ [الأنعام] .

الكفر ، فيطلب منهم العودة والرجوع إلى ساحة الإيمان مرة أخرى ؟ نقول : لا بل معنى الإنابة هنا الرجوع إلى العهد الأول الذى أخذه الله على عباده وهم فى عالم الذر ، وهم فى ظهر آدم عليه السلام ، هذا العهد الذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فالمعنى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ (٥٤) ﴾ [الزمر] ارجعوا إلى إيمانكم به الإيمانَ الفطرى الذى أخذ عليكم العهد به . هذا الإيمان الفطرى هو الذى يصحب الإنسان فيستيقظ ضميره بعد المعصية فيتوب أو بعد الكفر فيؤمن ، هذا الإيمان الفطرى المستقر فى قرار النفس البشرية هو الذى ينبهها إنْ غفلت ، هذا الإيمان هو الذى نبَّه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، فآمنوا حينما رجعوا إلى العهد الأول والإيمان الفطرى .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾ [الزمر] ما معنى النُّصْرة هنا والكلام عن الآخرة ؟ أى : لا يتناصر أهل الباطل ولا يدافع أحدٌ منهم عن الآخر لا التابع ولا المتبوع ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

نعم ، لا يتناصرون لأن الموقف هنا موقف خصومة ولوم ، حيث يُلْقى كل منهم التبعة على الآخر ، ويتبرأ كل منهم من الآخر ؛ لذلك

قال سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) ﴾

كلمة (أحسن) أفعل تفضيل يدلّ على المبالغة ، ونفهم منه أن الأقل في الخير حسن ، نقول : هذا حسن وهذا أحسن منه . والأمر هنا باتباع الأحسن ، فمثلاً الحق سبحانه يُنزِّل من الأحكام ما يرضى النفس البشرية كى لا تمتلىء غيظاً وكرهاً للناس ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ (١٢٦) ﴾ [النحل]

يعنى : إياك أنْ تتجاوز المثلية إنْ أردتَ أن تعاقب ، فإنْ قدرتَ على هذه المثلية دون أن تتجاوزها فهذا حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تعفو كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..(١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾

[الشورى]

هذا هو الأحسن ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة التبنى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥) ﴾ [الأحزاب] تعرفون قصة تبنِّى رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ، وأن زيداً خُيِّر بين أهله وبين رسول الله فاختار البقاء مع رسول الله ، وقال : ما كنتُ لأختار على رسول

---

(١) الأخلاء جمع خليل ، وهو الصديق المخلص .[القاموس القويم١/٢٠٨] .

الله أحداً ؛ لذلك كافـأه رسـول الله ونسبه إلى نفسـه ، فقال : زيد بن محمد.(١)

فلمـا أراد الحق سبحـانه أن يحرم التـبنى وأنزل ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝٥ ﴾ [الأحزاب] أنصف سيدنا رسول الله وجعل فعله حسناً ، لكن مراد الله أحسن وفعل رسـول الله قسْـط ، واختيار الله أقسط ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۝٥ ﴾ [الأحـزاب] والحكمَـة من ﴿ ادْعُـوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝٥ ﴾ [الأحـزاب] حـتى لا تهـدروا سبب الوجـود وهو الأب ، لأن إهدار سـبب الوجـود المباشر وهو الأب يُجرِّئك أنْ تنكر سببَ الوجود الأعلى سبحانه .

أو نقول : مـعنى ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ۝٥٥ ﴾ [الزمر] أن القرآن نزل وفى القوم ديانـتان اليهودية وكتـابها التوراة ، والنصرانية وكـتابها الإنجيل ، ولما نزلتْ هذه الكتب وغيـرها كان لها أناس آمنوا بها ، وآخرون كفروا وأشركوا ، بل ومنهم ملاحدة .

فالأمر فى (وَاتَّبِـعُوا) أمر للجمـيع يعنى : يا مَنْ آمن بموسـى ، ويا مَنْ آمن بعيـسـى ، لقد كان هـذا الدين فى وقته حـسناً ، أما الآن فقد جاء الإسلام الدين الخـاتم المهيمن على كل الأديان ، وأصبح هو الأحسن الواجب عليكم اتباعه .

ومـرة يكون أفـعل التـفـضـيل يعطى للواقع ، لكـنه لا ينظر إلى المقابل وهو الأقـبح ، إنما ينظر إلى المساوى فى الصـفة بالقلة ، إلا فى شىء واحد لاحظنـاه فيمـا يتعلق بالحق سبـحانه وتعـالى . فمن أسمائه الكبير وليس من أسمائه الأكبر ، مع أنه كان المفروض حسب

---

(١) أخرج التـرمذى فى سننه (٣٨١٥) من حديث جـبلة بن حارثة أخو زيد قـال : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث مـعى أخى زيداً ، قال : هو ذا . قال : فإن انطلق معك لم أمنعه ، قـال زيد : يا رسول الله والله لا أختار عليك أحـداً . قال : فرأيت رأى أخى أفضل من رأيى . قال الترمذى : هذا الحديث حسن غريب .

القاعدة أن نقول الأكبر لأنها مبالغة من الكبير ، فلماذا إذن ؟

نقول : كلمة أكبر وردتْ على أنها صفة للحق سبحانه نسمعها كل يوم فى كل أذان وفى كل إقامة للصلاة ، والصلاة عبادة لها خصوصيتها ومنزلتها فى الدين ، فهى العبادة التى تتكرر خمس مرات كل يوم ، وهى العبادة التى لا تسقط بحال عن المؤمن ما دام فيه نفَسٌ يتردّد ، وهى العبادة التى لم تُشرع بالوحى كباقى العبادات ، إنما شُرعت بالمباشرة فى رحلة المعراج ، هذه العبادة حين ننادى لها نقول : الله أكبر ولم يقل : الله كبير .

وهنا موضع العظمة مع أن أكبر أبلغ فى المعنى من كبير ، لأن التكاليف من الحق سبحانه لا تريد منك مجرد الصلاة والصيام والحج .. الخ إنما تريد منك أنْ تؤدى كل حركة نافعة فى الحياة مُعينة للتدين ؛ لذلك قالوا فى القواعد الشرعية : ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب .

ولك أنْ تتأمل مثلاً فريضة الصلاة ، كم من الأعمال لا بدّ منها لتؤدى هذه الفريضة ؟ خُذْ مثلاً ستر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، لكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوب تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟ إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج لتاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والمحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كل هذه العملية تحتاج إلى عُدَد وماكينات وآلات وأيدٍ عاملة ، كذلك الحال فى الطعام الذى لا بدَّ لك منه لتقوى على أداء الفرائض ، كل هذه الحركة من أجلك ، تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية

التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها ، لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمة له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله ، لذلك لم يُناد الحق سبحانه المؤمن في صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع دون سائر الأعمال ، لأنه ثمرة باقى الأعمال من تجارة وزراعة وصناعة ، والإنسان أحرص على البيع منه على الشراء ، لأن البيع هو الصفقة عاجلة الربح ؛ لذلك نجد الإنسان حريصاً أن يبيع على خلاف المشترى ، فالمشترى مثلاً حين لا يجد السلعة التى يريدها يقول (بركة يا جامع) لأنه سيدفع من جيبه ، أما البائع فيأخذ ويربح .

فإذا ما انتهتْ الصلاة ردَّك ربك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [الجمعة]

إذن : لا تستهنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين ، بل هو جزء منه ، وما لا يتم الواجب الدينى إلا به فهو واجب ، والذى يعصى فى هذا مثل الذى يعصى فى هذا ، فحين نقول فى النداء للصلاة : الله أكبر تذكَّر أن غيره كبيرٌ لا يُستهان به ، لكن الذى يعطيك الطاقة أكبر من هذا الكبير ، فلا تنشغل بالكبير عن الأكبر .

والآن تتضح الحكمة من أن الله تعالى سمَّى نفسه الكبير لا

الأكبر ، فحين نقول : الله كبير هذا يعنى أن ما عداه صغير ، لكن لو قلنا أكبر فما عداه كبير .

إذن : فحين تقف في أحكامه تعالى أمام (حسن) و(أحسن) فاتبع الأحسن مما أنزل : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ..(٥٥)﴾ [الزمر]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر]

كلمة (بغتة) يعنى فجأة ، والعذاب لا يفاجئ إلا الغافلَ اللاهى الذى يعيش ، وليس فى باله هذه المسألة ، وإلا لو كان فى باله لاتقاه وتجنَّب أسبابه ، وحين يأتى لا يكون بغتة .

لكن كيف يفاجئه العذاب ؟ نقول : ما الفارق بين أن يعيش الإنسانُ فى حياته الدنيا وبين أنْ يلاقى العذاب ؟ الفارق بينهما أن يموت ، مجرد أن يموت وتخرج روحه ينتقل من سعة الدنيا إلى عذاب الآخرة إنْ كان من أهل العذاب والعياذ بالله .

ومعلوم أن خروج الروح ليس له ميعاد ولا يعلمه أحد ، لأن النفَس ربما فى أىِّ لحظة يدخل ولا يخرج ، هذه المسألة ينبغى أن تكون على بال المؤمن لا يغفل عنها أبداً .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦)﴾

هذا نموذجٌ للنفس حين تتحسَّر وتلوم نفسها ، لماذا أوصلتَ نفسك إلى هذا الموقف ، طلبنا منك أنْ تنيبَ إلى الله ، وأنْ تسلمَ له فى أحكامه ، وأن تتبع أحسن ما أُنزل إليك لترفع عن نفسك الحرج

وتُجنِّبها اللوم ، ولا تقف هذا الموقف لكنك لم تستجب .

كلمة ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ ۝٥٦﴾ [الزمر] هذا أسلوب نداء ، فأيُّ شيء ينادى العبد ؟ ينادى الحسرة والحزن والأسى يقول : يا حسرتى احضرى تعالَىْ ، فهذا أوانك ، يتحسَّر على نفسه بعد أنْ فاتته الفرصة ، ومعلوم فى النداء أنه لا ينادى إلا النافع لكن الموقف هنا موقف تحسُّر وندم ، والحسرة هنا مضافة لياء المتكلم والألف للإطلاق .

ومعنى ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ۝٥٦﴾ [الزمر] على ما قصَّرت فى حق الله وفى طاعته[1] ، والتفريط هو إهمال ما يجب أنْ يتقدم ، لأن الفرصة إنْ فاتت لا تُعوَّض ، كالتلميذ الذى يهمل دروسه ونراه يهتم مثلاً ليلة الامتحان . نقول له : يا بنى (قبل الرِّماء تُملأ الكنائن)[2] هذا مَثَلٌ يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل أوانه ، فالصياد يخرج للصيد وقد أعدَّ له أدواته ، حتى إذا ما وجد صيده بادره قبل أنْ يهرب ، لأن الغزالة مثلاً لا تنتظر الصياد حتى يملأ كنانته أو يُعدّ سهمه .

إذن : أنت تتحسَّر على نفسك وتلومها ، لأنك لم تستغل الفرصة وأهملتَ حتى فاتتك وهى لا تُعوَّض ، فليس أمامك إذن إلا التحسُّر وعضّ أصابع الندم ، فكأن الأمرين اللذين سبقا هذه الآية وهما : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ .. ۝٥٤﴾ [الزمر] ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٦) لمعنى (جنب الله) أقوالاً كثيرة ، منها :
- طاعة الله . قاله الحسن - ذكر الله . قاله الضحاك .
- ثواب الله . قاله أبو عبيدة - طلب جواره وقربه وهو الجنة . قاله الفراء .
- طريق الله الذى دعانى إليه . قاله الزجاج .

(٢) ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وقال : يضرب مثلاً فى الاستعداد للنوائب والأمور قبل حلولها . والكنائن جمع كنانة ، وهى الجعبة ، وكذا ذكره الزمخشرى فى المستقصى فى أمثال العرب .

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم .. (٥٥) ﴾ [الزمر] كان ينبغي العمل بهما ليحموا أنفسهم من أنْ يقولوا ساعةَ يرون العذاب ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .. (٥٦) ﴾ [الزمر] فرحمته تعالى ورفقه بعباده لا يحب منهم أنْ يقولوا هذه الكلمة ، فالله لا يريد لعبده أنْ يقف موقف التحسُّر ، ولا يرضى له ذلك ، فحين يقول لنا : لا تقنطوا من رحمة الله ، وأنيبوا ، وأسلموا ، وابتغوا أحسن ما أنزل إليكم يريد أن ينبه الغافل ويحذر مَنْ يفكر في الكفر ويُذكِّره بالعواقب ، وبما سيكون منه حين يرى العذاب من حسرة .

والحسرة أسف وندم على خير فات لا يمكن تداركه ، والكافر لا يتحسَّر حسرةً واحدة إنما حسرات كثيرة ملازمة له ، فكلما رأى العذاب الذي ينزل به تحسَّر ، وكلما رأى المؤمنين في نعيم تحسَّر ، وكلما تذكَّر دُنياه تحسَّر .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزمر] يعني : الأمر لم ينته عند حدِّ التفريط والتقصير في جنب الله ، إنما تعدَّاه إلى السخرية ممَّنْ يقفون في جنب الله ، فالذنب مُضاعف ، وسبق أنْ ذكرنا نموذجاً من سخرية أهل الباطل بأهل الحق ، واستهزائهم بهم في قوله تعالى من سورة المطففين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

وكثيراً ما نسمع أهل الباطل يسخرون من أهل الحق : يقولون فلان هذا صُللى ، يا عم خذنا على جناحك .. الخ لكن يكفى أهل الإيمان أن الله هو الذى سيأخذ لهم حقهم فى دار البقاء ، فإنْ سخروا منكم فى الدنيا الفانية فسوف تسخرون منهم فى الباقية الدائمة ، وإنْ ضحكوا منكم ضحكاً موقوتاً منقطعاً فسوف تضحكون منهم ضحكاً أزلياً باقياً .

وفى هذه الآية ملحظ ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزمر] حين نتتبع كلمة النفس فى القرآن الكريم نجد أنها تأتى دائماً مؤنثة ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ (٥٣) ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس]

أما هنا فغلَّب التذكير ، فقال حكاية عن النفس : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزمر] ولم يقل الساخرات ، لماذا ؟ قالوا : النفس مؤنثة ، فإن أُريد بها الإنسان تُذكَّر .

وبعد أن حذرنا الحق سبحانه من موقف التحسُّر والندامة فى الآخرة يحذرنا من شىء آخر تتعرض له النفس حين ترى العذاب ، فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ (٥٧) ﴾ [الزمر] أى : النفس ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ

هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى الدنيا ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] وهذا عجيب ، عجيبٌ أنْ تكذب حتى فى الآخرة ، لأن معنى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] أنه سبحانه لم يهدك وهذا كذب .

يقول الإنسان مدافعاً عن نفسه : إن عدم وجودى فى صَفِّ المتقين أن الله لم يهدنى ، هذه كذبة لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك إلى طريق الخير وبيَّن لك الحلال والحرام ، لكنك لم تتبع هَدْيه ولم تَسِر على منهجه ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : عودة ورجعة إلى الدنيا مرة أخرى .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المؤمنون] هذه كلها أمانى كاذبة فلا تُصدِّقوهم ، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه وكما كذبوا فى الأولى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] كذبوا فى ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر]

والكذب قد يُتصوَّر من الإنسان فى الدنيا ، لكن عجيبٌ أنْ يكذب فى الآخرة ، وهو بين يدَىْ ربه عز وجل ، لذلك سيقول الحق بعدها : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر]

والظاهر أن الكذب (علق) معهم وتعوَّدوا عليه حتى أخذوه معهم فى الآخرة .

ثم يردُّ الحق على هذا الكذب فيقول سبحانه :

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كلمة (بلَى) حرف جواب لا يأتى إلا بعد نفى ، فيفيد إثباتَ

المعنى المنفى قبله ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] فيأتى الجواب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] يعنى : لا ، أنت ربنا ، والقاعدة أن نفى النفى إثبات ، ومثله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين] على مَنْ يسمعها أن يقول : بلى يا رب ، يعنى : لا .. أنت أحكم الحاكمين .

إذن : فأين النفى السابق على قوله هنا ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر] قالوا : كَوْنه نفى الهداية فى قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴿٥٧﴾ ﴾[الزمر] لذلك جاء الجواب (بلى) يعنى : لا بل هديناك ﴿ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر] والآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الداعى إلى التأمل والتفكر للعقل وللبصيرة .

والآيات كما ذكرنا على ثلاثة أنواع : آيات كونية تدل على قدرة المكوِّن سبحانه كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم]

وهذه الآيات الكونية التى تلفتنا إلى المكوِّن الأعلى هى الوسيلة الأولى للإيمان بالله ، لذلك كلما استنبط العلماء فى الكون شيئاً جديداً أو اكتشفوا جديداً وجدنا له أصلاً فى كتاب الله ، قالها الحق سبحانه منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه الآيات الكونية يُظهرها الحق سبحانه حتى على أيدى الكافرين به ، لذلك حذَّرنا أنْ يتدخل علماء الشرع والفقهاء فى علوم الدنيا والكونيات*؛ لأن الكونيات لها علماء اختصُّوا بها ، وسوف يخدم هؤلاء الدين وقضية الإيمان بالله ، وسيُظهرون لكم الأسانيد والأدلة على وجوب الإيمان بالله صاحب هذا الكون ومُكوِّنه .

إذن : فهؤلاء العلماء يتعبون ويفكرون ويبحثون في الكونيات لخدمة المؤمن بالله وخدمة الدين ، فهم – وإن كانوا كافرين بالله – جند من جنود الحق ، وصدق الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

والعجيب أنهم سيُحرمون الأجر على هذا الجهد المبذول ، لأنهم فعلوا ذلك وتوصَّلوا إلى ما توصَّلوا إليه ، وليس في بالهم الحق سبحانه ، إنما في بالهم خدمة الإنسانية ، فليأخذوا أجورهم من الإنسانية ، وفعلاً كرَّمتهم الإنسانية وصنعت لهم التماثيل ، واحتفلت بهم ؛ لذلك ليس لهم نصيب في الآخرة .

وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

يعني : فوجيء بأن للكون إلهاً خالقاً ، فوجيء بالحساب والجزاء، وهذه أمور لم تكُنْ على باله في الدنيا .

النوع الثاني من الآيات هي المعجزات التي تصاحب الرسالات ، لتدلَّ على صدق الرسول في البلاغ عن ربه ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) الآفاق : جمع أفق . وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض في رأى العين ، ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء فيقال هو واسع الافق . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

(٢) القيعة : الأرض الواسعة السهلة المطمئنة المستوية الحرة التي لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، لا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . [لسان العرب – مادة : قوع] .

أما النوع الأخير فهى الآيات القرآنية التى تحمل أحكام الدين ، والتى قال الله فيها هنا : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ (٥٩) ﴾ [الزمر] استكبر يعنى : طلب أنْ يكون كبيراً ، يعنى : لم يتكبر فحسب ، إنما طلب ذلك وسعى إليه لكنه لم يُجبْ لذلك ؛ لأن الذى يستكبر لابدَّ أن يكون فى غنىً عمَّنْ استكبر عليه ، وإذا كنتَ فى مُلْك الله وتحت سلطانه وتأكل من رزقه وتعيش فى خيره ، فكيف تتكبر عليه ؟

ثم إن المتكبر ينبغى أن يتكبر بشىء ذاتى فيه لا يسلب منه ؛ لذلك الذين يتكبرون فى الدنيا إنما ينازعون الله صفته ؛ لأنهم يتكبّرون بلا رصيد ، ومَنْ من الخلق عنده ذاتية لا تُسلب منه ، لذلك نرى مَنْ يتكبر بعزٍّ يُذله الله ، ومَنْ يتكبر بغنىً يُفقره الله ، ومَنْ يتكبر بصحته وعافيته يُمرضه الله .

إذن : التكبّر الحق أنْ تتكبر بشىء تملكه لا يُسلب منك ، وشرٌّ المتكبرين مَنْ يتكبر على ربه وخالقه والقادر على أن يسلب منه كل شىء ، أما الذى يتكبر على الخلق فغافلٌ عن عظمة ربه وكبريائه ؛ لأنه لو عرف عظمة ربه وكبرياءه لاستحى أنْ يتكبر وأنْ ينازع الله صفة من صفاته .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾

قوله سبحانه :﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ (٦٠) ﴾ [الزمر] أى : فى

قولهم : ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧)﴾ [الزمر] وفى غيرها ؛ لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك حين بعث لك الرسل مُؤيَّدةً بالمعجزات ، وأنزل لك الكتب وبيَّن لك الحلال والحرام ، وكذبوا فى غير ذلك كالذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ (١٨١)﴾ [آل عمران] وكالذين قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (٦٤)﴾ [المائدة] ومثلهم الذين ادعوا أن مع الله آلهة أخرى .

كل هؤلاء كذبوا على الله ؛ لذلك يأتون يوم القيامة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ (٦٠)﴾ [الزمر] نعم مسودة لأنهم الآن يواجهون الحق الذى كذبوا عليه ، فلابُدَّ أنْ تكون وجوههم مُسْودة عليها غبرة [1] ترهقها قترة[2] مما فعلوه .

وهذا ليس ذماً للسواد فى ذاته ، لأن السواد خَلْق من خَلْق الله لا يُذَمُّ فى ذاته ، فقد ترى الرجل أبيض اللون ، لكن تعلوه قتامة وقتر ، فتجد وجهه مظلماً والعياذ بالله ، وهذا أثر المعاصى والذنوب على الوجه فى الدنيا قبل الآخرة .

وترى العبد الزنجى كأن وجهه زبيبة ، لكن يعلوه ضياء وإشراق، وتجد على وجهه علامات الصلاح ، وكأن وجهه يتلألأ نوراً ولا تزهد أبداً فى النظر إليه ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

إذن : الوصف لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، والسواد والبياض هنا

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب . قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب - مادة : قتر] قال ابن عباس : ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس] أى : يغشاها سواد الوجوه . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٧٤).

ليس هو السواد كما نعرفه في الدنيا فهي عملية نسبية ، وكنت أرى بعض الصالحين وكأن في وجهه كشافاً يُضيء ، وتبدو الفرحة على وجهه وكأن نورَ اليقين وبشاشة الإيمان تعدَّتْ داخله ونضحَتْ على وجهه نوراً ونضارة ، وهو صاحب بَشْرة سوداء مثل الأبنوس .

ومثل هذا نجده في قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ⟨١٩⟩﴾ [لقمان] فهل يُذَمّ صوت الحمير إنْ صدر منها ؟ لا لأن الخالق خلقه على هذه الصورة ، وعُلو صوت الحمار لحكمة لأنه قد يختفي مثلاً وراء جبل أو تَلٍّ عالٍ ، فلا يهتدي إليه صاحبه إلا من خلال صوته ، لكن يُذمُّ عُلو الصوت في الإنسان ، فهو أنكر الأصوات إنْ صدر منه ما يشبه صوت الحمار .

كذلك في : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] ⟨٥⟩﴾ [الجمعة] فليس هذا ذماً للحمار ، لأن الحمار في الحمل يؤدي مهمة وهي الحمل فحسْب ، فهو يحمل حمله دون تبرُّم ودون اعتراض ، لكن يُذمُّ الإنسان إنْ تشبَّه بالحمار فارتضى لنفسه أنْ يحمل فقط دون أنْ يعي ما يحمله ، ودون أنْ يفهم ، وأنْ يُطبق ما علم .

وقوله :﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[2] لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ⟨٦٠⟩﴾ [الزمر] هذا استفهام منفي نجيب عليه فنقول : بلى يا رب ، يعني : لا بل لهم مثوى في جهنم ، والمعنى : ماذا يظنون ؟ أيظنون أنه لا محلَّ لهم

(١) الأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير . وسفرت الكتاب : كتبته والسافر : الكاتب ، وجمعه سفرة أي كتبة . والسِّفر عند أهل الكتاب : جزء من التوراة أو من الكتب المقدسة . [القاموس القويم ١/٣١٥]

(٢) ثوى بالمكان : حله وأقام فيه واستقر به . والثاوي : المقيم مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ⟨٤٥⟩﴾ [القصص] أي : مقيماً .

فيهـا ولا مكان ، إن مكانهم جاهز ومُعَدٌّ بأسمـائهم ينتظرهم ويشتاق إليهم ، فليس فى جهنم أزمة مساكن كما قلنا .

فالحق سبحانه خلق أزلاً الخلق ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى الجنة على اعتبـار أن الخلق جميعاً سيـؤمنون بالله ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى النار على اعتـبار أن الخلْق سيكفـرون ، فإذا ما دخل أهل الجـنة الجنةَ ، ودخـل أهلُ النار الـنارَ وُزِّعَتْ أمـاكن أهـل النار المعدة لهمَ لو آمنوا على أهل الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف]

ومعنى (مَثْوَى) أى : مكان إيواء وإقامة دائمة ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر]

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذا هو المـقابل ، فالكافـرون مثـواهم وإقامـتهم فى جـهنم ، أما المـؤمنون فينـجيـهم ربهم ﴿ بِمَفَـازَتِهِمْ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزمر] أى : بفوزهم ونَيْلهم لمرادهم . ونعـيم الآخرة يُنال بشكلين : إمـا أنْ يدخل المؤمنُ الجنةَ بدايةً ، وإمـا أنْ يكون من أهل الـنار لكن تتـداركه رحـمـة الله فيُزحزح عنها إلى الجنة .

كمـا قال سبـحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمـران] نعم فـاز الفوز الأكـبر ؛ لذلك يسـمون الصـحارى مفازةً مع أنها مُهلكة ينقطع فيها السائر ، لكن سمَّوْهَا مفازة تيمناً أن ينجو سـالكها ، وكمـا يسمون اللـديغ من الثعبـان أو الحية يسـمونه السليم ، أملاً فى أنْ يَسْلَم من لدغتها .

وإذا ما نجاهم الله وكتب لهم الفوز فقد سلموا من مجرد مَسِّ العذاب ﴿ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزمر] لأن كل المشاهد التى يرونها تفرحهم ، ولا شىء يُحزنهم أبداً ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء]

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه وعده ووعيده وبيَّن عاقبة الكافرين وعاقبة المؤمنين عاد إلى قضية عقدية أخرى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر] وكأنه يقول : ما الذى صرفهم عن أنْ يؤمنوا بالله الإله الحق ، وهو سبحانه خالق كل شىء ؟

بعضهم أخذ هذه الآية ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر] ونسب كل الأفعال إلى الله ، فالله فى نظرهم خالق كل شىء ، خالق الإيمان وخالق الكفر ، وخالق الطاعة وخالق المعصية ، وبالتالى قالوا : فلم يعذب صاحبها ؟

نقول : هناك مَنْ يتعصب لقدرة الحق فيقول : كل شىء بقدرته تعالى ، وهناك مَنْ يتعصب للعدالة فيقول : إن الإنسان هو الذى يفعل وهو الذى يسعى لنفسه ، لذلك يُثاب على الطاعة ويُعاقب على المعصية . وهذا خلاف ما كان ينبغى أنْ يُوجد بين علماء ؛ لأن الطاعة أو المعصية فعلٌ ، والفعل ما هو ؟

الفعل أداء جارحة من الجسم لمهمتها ، فالعين ترى ، لكن الخالق سبحانه وضع للرؤية قانوناً ، وجعل لها حدوداً ، فالعين ترى ما أُحلَّ

لها وتغضّ عما حُرِّم عليها ، كذلك الأذن واليد والرِّجْل واللسان ... الخ فإن وافقتَ في الفعل أمر الشرع فهو طاعة ، وإنْ خالفتَ أمر الشرع فهي معصية .

فمثلاً الرجل الذي يرفع يده ويضرب غيره ، بالله هل هو الذي جعل جارحته تفعل أم أنه وجَّه الجارحة لما تصلح له ؟ إنه مجرد مُوجِّه للجارحة ، وإلا فهو لم يخلق فيها الفعل ، بدليل أنه لا يعرف العضلات التي تحركتْ فيه ، والأعصاب التي شاركتْ في هذه الضربة .

إذن : نقول إن الفعل شيء ، وتوجيه الجارحة إلى الفعل شيء آخر ، فالفعل كله مخلوق لله ، فهو سبحانه الذي أقدر الأيدي أنْ تضرب ، وهو الذي أقدرها أنْ تمتد بالخير للآخرين ، الخالق سبحانه هو الذي أقدر لسان المؤمن أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأقدر لسان الكافر أن ينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله ، العين في استطاعتك أنْ تنظر بها إلى الحلال ، وفي استطاعتك أن تنظر بها إلى الحرام .

إذن : أقدر الله كلَّ جارحة على المهمة التي تؤديها ، فإنْ كانت هذه المهمة موافقة للشرع فهي طاعة ، وإنْ كانت غير موافقة له فهي معصية . وعليه نقول : إن الله تعالى هو خالق الفعل على الحقيقة . إذن : ما فعل العبد في المعصية حتى يُعاقب عليها ؟ وما فعلُه في الطاعة حتى يُثابَ عليها ؟

إن فعل العبد ودوره هنا هو توجيه الطاقة التي خلقها الله فيه ، هذه الطاقة التي جعلها الله صالحة لأنْ تفعل الشيء وضده ، فالقدرة

على الفعل ليستْ من عندك ، إنما من عند الله ، وعليك أنت توجيه الطاقة الفاعلة .

فمَنْ نظر إلى الفعل فالفعل كله لله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] ومَنْ نظر إلى التوجيه والاختيار فهو للعبد ؛ لذلك نقول : إن العاصى لم يعْصِ غصْباً عن الله ، والكافر لم يكفر بعيداً عن علم الله وإرادته ، لأن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس جميعاً أمة واحدة على الطاعة والإيمان ، لكن ترك لهم الاختيار وتوجيه الأفعال ليرى سبحانه - وهو أعلم بعباده - مَنْ يأتيه طواعية وباختياره .

لذلك تأمل قوله سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فمن الخطأ أن نقول : إن الإنسان وحده هو المخيَّر ، إنما الكون كله مُخيَّر أمام الحق سبحانه ، لكن الفرق بين اختيار السماوات والأرض واختيار الإنسان أن السماوات والأرض لما خُيِّرت اختارت أنْ تتنازل عن مرادها لمراد خالقها سبحانه ، فهى اختارتْ بالفعل ، اختارت ألاَّ تكون مختارة ، وأن تكون مقهورة لمراد ربها ، أما الإنسان فقَبِلَ الأمانة واختار أن يكون مختاراً أمام خيارات متعددة .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين تحمُّل الأمانة وأداء الأمانة ، وأن العبد قد يضمن نفسه عند التحمل ، لكن لا يضمن نفسه عند الأداء ، فهى إذن أمر ثقيل ، لذلك وصف الحق سبحانه الإنسان فى تحمله وتعرُّضه للأمانة بأنه ظلوم وجهول .

إذن : إياك أن تدخل فى متاهة فتفهم قوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] على غير وجهه ، فتقول : خالق كفر الكافر

وعصيان العاصى ، فلماذا يعذبهم ؟ لأن الكافر هو الذى اختار الكفر ووجَّه طاقة الله لغير ما أراد الله ، والعاصى كذلك وجَّه طاقة الله إلى خلاف ما أمر به الله .

وهناك مَنْ يقول فى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر] أن الكلية هنا إضافية ، كما فى قوله تعالى فى قصة بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] يعنى : لم تُؤْتَ بكل شىء فمن هنا للتبعيض ، والمعنى : أنهم يريدون أنْ يُخرِجوا فعل العباد من هذه المسألة ، وهذا لا يجوز .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر] خبر أخبر به الحق سبحانه يحتمل ويحتمل ، لكن أدلة صدْق هذا الخبر نشأتْ حتى من الكافرين بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

إذن : فالظرف والمكان والمكين من خَلْق الله ، والله قد أخبر هذا الخبر وبلَّغه رسول الله ، وفى القوم مَنْ جحدوا الله وأنكروه وادَّعوْا له شركاء ، ومع ذلك لم ينقض أحدٌ هذه الدعوى ولم يقُلْ أحد : إنى خالق هذا الكون . والدعوى تَسْلم لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، ومعلوم أن الإنسان يدَّعى ما ليس له ، فلو كان له شىء من الخَلْق ما سكت عنه .

ثم إن الإنسان طرأ على هذا الكون ، فوجده كما هو الآن بسمائه

---

(١) أى : أنها أوتيت من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن . أما عرشها فكان عظيماً مزخرفاً بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء . [ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٦٠] .

وأرضه ، فكيف يدَّعي أنه خالقه وهو أقدم منه ، بل وخَلْقه أعظم من خلقه ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فإذا ما جاءنا رسول نعلم صدقه يخبرنا بأن لهذا الكون خالقاً صفته كذا وكذا كان يجب علينا أنْ نرهف له الآذان لنسمع حَلَّ هذا اللغز ، ومثَّلْنَا لذلك برجل انقطع في صحراء مُهلكة حتى شارف على الموت وفجأة وجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ماذا يفعل قبل أن تمتدَّ يده إلى الطعام ؟ إنه لابدَّ أنْ يسأل نفسه : من أين جاءت هذه المائدة ؟

إذن : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] خبر عليه دليل من الوجود ، ودليل من المعاندين للخالق سبحانه ، والحقيقة أنهم لا يعاندون الحقَّ من أجل مسألة الخلق ، إنما يعاندونه اعتراضاً على شرعه وأحكامه ، لأن هذه الأحكام ستقيد نفوسهم فلا تنطلق في شهواتها ، والإيمان له تبعات ووراءه حساب وعقاب وجزاء ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام ؟

عبدوها لأنها آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف ، فهي تُرضي فطرة التديُّن عندهم بأن يكون له معبود يعبده ، وما أجملَ أن يكون هذا المعبود لا أمرَ له ولا نهيَ ولا تكاليف . إذن : قولهم :﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] (٣) ﴾[الزمر] لفظ العبادة هنا لفظ خاطئ ، لأن معنى العبادة : طاعة العابد لأمر معبوده ونَهْيه ، وهذه الأصنام ليس لها أمر ولا نهي .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) ﴾[الزمر] الوكيل : هو الذي تُوكله أنت في العمل الذي لا تقدر عليه كما في قصة سيدنا موسى

(١) الزلفى : القربة والدرجة والمنزلة ، وأزلف الشيء : قرَّبه [لسان العرب - مادة زلف] .

– عليه السلام – لما قال له قومه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء] وهم ساعتها على حقٍّ ، لأن البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، فكل الدلائل تؤيد قولهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء]

لكن لموسى عليه السلام نظرة أخرى وشأن آخر ، إنه موصولٌ بربه معتمد عليه ومتوكل عليه ، يعلم علم اليقين أن الله وكيله فيما يعجز هو عنه ؛ لذلك ردَّ عليهم وقال (كلا) لم يقلها من عندياته ، إنما قالها برصيد من إيمانه بربه وثقته بنصره ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى في التوكل عليه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. ﴿٦٢﴾﴾ [النمل]

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ[1] مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء] فالله وكيل لعباده جميعاً حتى الكافر منهم ؛ لذلك ترى مَنْ كفر بالله حين لا تسعفه أسبابه ، أو تضيق عليه أموره ، يقول : يا رب لأنه لا يخدع نفسه ولا يغش نفسه .

فكما صدق الحق سبحانه في الإخبار بأنه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر] صدق في الإخبار بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر] ألا ترى الزرع مثلاً يزرعه الفلاح ويرعاه ، فتراه نَضِراً جميلاً لكن قبل الحصاد تجتاحه جائحة[2] أو تحل به آفة فتهلكه ، بالله من عند مَنْ هذه الآفة ؟ من عند خصومك وأعدائك ؟ ! لا .. بل هي من عند الله .

---

(١) ضل الشيء : خفي وغاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص] أي : غاب عنهم ما عبدوه . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

(٢) الجوح : الاستئصال من الاجتياح . والجائحة : الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة . والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله . [لسان العرب – مادة : جوح]

ومـا دام أن الله تعـالى هو خـالق كل شيء وهو وكـيل على كل شيء ، فلا بدَّ أن يكون له مُلْك السماوات والأرض ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

القرآن عربى نزل بلغات العرب الـمتداولة ساعة نزوله ، ومع ذلك ففى القرآن كلماتٌ وألفاظ فارسية أو حبشية أو رومية[2] وهذه الألفاظ لا تخرجه عن كونه عربياً ، لأنهـا دخلتْ لغة العرب قبل نزول القرآن واستعملها العربى وعرفها ، وصارت جزءاً من لغته .

ومن هذه الكلمـات (مقاليـد) فلله ﴿ مَقَالِيدُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] وهى جمع مـقلاد على وزن مفـتاح ، أو جمع مـقليد ، وفى لغة أخرى يقولون أقاليد جـمع إقليد . ومعناها التملُّك والتصرف والحفظ والصيانة ، فلله تعـالى مُلْك السمـاوات والأرض ، وله مُطلق التصرف فى أمورهما ، وله سبحانه حفظهما وتدبير شئونهما .

وهذه هى القـيومية التى لله تعالى ليظل كل شيء من خَـلْقه فى مـهمـته ، فـالحق سبحـانه خلق من عدم ، وأمـدَّ من عُدم ، وشـرع الشـرائع ، وسَنَّ القـوانين ، ثم لـم يتـرك الخَلْق هكذا يسـيـر بهـذه القوانين كـما يدَّعى البعض ، إنمـا هو سبحـانه قائم على خلقه قـيُّوم

---

(١) مقاليد : جمع مفرده مقليد مقلاد ، إقليد . قـال ابن عباس وغيره : المقاليد المفاتيح . وقال السدى : خزائن السماوات والأرض . وقال غـيره : خزائن السماوات المطر وخزائن الأرض النبات .[نقله القرطبى فى تفسيره ٨/٥٩٢٠] .

(٢) عقد السيوطى فى كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» فـصلاً عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب (ص ١٠٥-١٢٠) . ومن أمـثلة الألفـاظ الفـارسـيـة : أباريق - جـهنم - دينار . ومن أمـثلة الحبشى : سينين ، شطر ، الطاغوت ، وما جاء من الرومية : القسط ، القسطاس ، طفقا .

عليهم ، لا يغفل عنهم لحظة واحدة ، واقرأ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا (١) إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

ولو أن الكون يسير بالقوانين التى خلقها الله فيه - كما يقول الفلاسفة - لكانت الأمور تستقر على شىء واحد لا يتغير ، بمعنى أنْ يظلَّ الصحيحُ صحيحاً ، ويظلَّ العزيز عزيزاً ، والغنىُّ غنياً .. الخ لكن الأمر غير ذلك ، لأن لله فى خَلْقه قيومية وتصرُّفاً .

وقد سأل سيدنا عثمان - رضى الله عنه - سيدنا رسول الله ﷺ عن مقاليد السماوات والأرض ، فقال : « يا ابن عفان ، ما سألنى أحدٌ قبلك عنها ، مقاليد السماوات والأرض هى : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله العظيم ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يُحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . تلك مقاليد السماوات والأرض »(٢)

هكذا فسَّر رسول الله كلمة مقاليد السماوات والأرض بأنها كلمات ذِكْر ، كأن الكون كله قائم بهذه الكلمات العقائدية .

فكلمة لا إله إلا الله تعنى أن الله واحدٌ لا شريكَ له ، فإذا قضى أمراً لا يعارضه معارضٌ ، ولا يعترض عليه معترض ، إنْ أعطى لا أحدَ يمنع

---

(١) إن : هنا بمعنى ما نافية . أى : ما أمسكهما .

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (٤/٢٣١) ترجمة مخلد أبو الهذيل (١٨٢٥) وقال : فى إسناده نظر لا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه ، وذكره الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١/١٩٢) وذكر الاختلاف فى وضعه وإن اتفق على نكارته . قال ابن حجر : عندى أنه منكر من جميع طرقه ، وأما الجزم بكونه موضوعاً فأتوقف عنه إذ لم أر فى رواته من وُصف بالكذب انتهى .

عطاءه ، وإنْ منع فلا مُعطي لما منع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣) ﴾ [الحج] بل ما هو أيسر من عملية الخَلْق ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ (٧٣) ﴾ [الحج] وهل تستطيع أنْ تسترد من الذبابة ما أخذته من العسل مثلاً إنْ وقعتْ عليه ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

لذلك هذه الكلمة (لا إله إلا الله) قالها الحق سبحانه أولاً وشهد بها لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وهذه الشهادة تعنى أنه لا يتأبى على الله شيء من الخَلْق أبداً ؛ لذلك يقول للشيء : كن فيكون . ثم شهدتْ بذلك الملائكة شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد بها أولو العلم شهادة استدلال ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران] فكلمة لا إله إلا الله مقلاد من المقاليد التى لله تعالى .

كذلك كلمة (الله أكبر) من مقاليد السموات والأرض ، وسبق أنْ بيَّنا أن كلمة الله أكبر هى شعارنا فى النداء للصلاة ، مع أن أكبر ليس من أسمائه تعالى إنما من أسمائه تعالى الكبير ، فلماذا لم يستخدم الاسم واستخدم فى النداء للصلاة الصفة (أكبر) .

قلنا : إنها أفعل تفضيل من كبير ؛ لأن ربك حين يستدعيك للصلاة يُخرجك من عمل الدنيا ، هذا العمل ليس أمراً هيِّناً ولا تافهاً إنما هو عظيم وكبير ، لأن به تقوم أمور الدنيا ، وبه تستعين على أمور الدين ، فهو وإن كان كبيراً فالله أكبر ، فاترك العمل إلى الصلاة ، أما الاسم الكبير لأن ما سواه صغير .

وكلمة (سبحان والله وبحمده) من مقاليد السماوات والأرض ، لأنك ستتعرض لأمور هى فوق إدراكك ولا يقدر عليها إلا الله ، فإياك

أنْ تقف أمامها لتقول : كيف ؟ إنما حين يُنسب الفعل إلى الله فقُلْ سبحان الله ، وهذه المسألة أوضحناها في قصة الإسراء ؛ لذلك بدأت بهذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ① ﴾ [الإسراء]

ولا غرابة في ذلك ، لأن الفعل نُسب إلى الله ولم يقُلْ محمد ﷺ : « سريتُ إنما قال : أُسْرِى بى »[1] ومعلوم أن الفعل يتناسب وفاعله قوةً وزمناً ، فإذا كان الفاعل هو الله فلا زمنَ يُذكر .

ومثّلنا لذلك قلنا : لو أنك تريد السفر إلى الإسكندرية مثلاً تركب حماراً أو جواداً أو سيارة أو طائرة أو صاروخاً ، هل سيكون الزمنُ نفس الزمن ؟ لا لأن الزمن يتناسب مع قوة الوسيلة ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا كان الفاعل في الإسراء هو قوة القوى وهو الله ، فلا شكَّ أن الفعل لا يحتاج إلى زمن .

حين تتأمل الدم يجرى في الشرايين لابدَّ أنْ يكون على درجة معينة من السيولة ليجرى ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلَّط وتجمد في مجاريه ، وقد تسد الشرايين فيموت الإنسان ، لكن إذا سال الدمُ خارجَ الجسم يتجلَّط ، أما في العروق فيظل على سيولته .

تأمل حرارة الجسم تجد الحرارة الطبيعية ٣٧° سواء أكنتَ تعيش في بلاد الإسكيمو أو بجوار خط الاستواء حرارتك ثابتة عند ٣٧° ،

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت في الحجر . فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه » أخرجه أحمد في مسنده [٣/٣٧٧] والبخارى في صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) ، فوصف لهم رسول الله بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه ، وهذا لا يُعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل .

ومع ذلك ففي جسم الإنسان أعضاء تختلف في حرارتها وهي في الجسم الواحد ، فالعين مثلاً حرارتها الطبيعية تسع درجات ، والكبد أربعون درجة ، ولو طغتْ حرارة الجسم على حرارة العين لفقد الإنسان بصره .

ومن المعروف أن من خصائص الحرارة أو البرودة خاصية الاستطراق ، فكيف لا تُستطرق الحرارة والبرودة داخلَ الجسم الإنساني ؟ هذه كلها أمور يجب أن نقول فيها : سبحان الله صاحب هذه القدرة ومُبدعها .

إذن : قُلْ دائماً سبحان الله في كل أمر مُستغرب ؛ لذلك علَّمنا القرآن هذه الكلمة في كل فعل لا يقدر عليه إلا الله . قال سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ ۝١﴾ [الإسراء] وقال :﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس]

وكلمة (سبحان الله) ينبغي أنْ تُقرن بحمده سبحانه ، فكأنك تحمد الله أنه مُنزَّه عن مماثلة الخَلْق أو مشابهة الخَلْق ، الحمد لله أنه لا مثيل له ولا نظيرَ له ولا ندَّ له ، لأن هذا التنزيه تعود ثماره عليك أنت أيها المؤمن .

وكلمة (أستغفر الله العظيم) من مقاليد السماوات والأرض ، فإنْ غفلتَ عني فمن مقاليدي أنْ أغفر لك إن استغفرت حتى لا أحرمك من التوبة والإنابة إليَّ ومغفرة الدنيا مَحْوٌ للذنب ، فهي مظهر من مظاهر رحمته تعالى بنا ؛ لأن العبد إن أغلقنا في وجهه باب التوبة استشرى في العصيان ، وتمادى في الاعتداء على الآخرين .

إذن : فمشروعية التوبة رحمتْ البشر من شرور البشر .

وكلمة « لا حول ولا قوة إلا بالله » هي أيضاً من مقاليد السماوات والأرض ، فإذا أقبلت على شيء : فإياك أن تظن أنك تقبل عليه بحولك وقوتك ، إنما لا حولَ ولا قوةَ لك إلا بالله ، لأنه سبحانه هو الذي يستطيع أن يسلب منك الحول ، وأنْ يسلب منك القوة .

أما تفكرتَ في يدك .. كيف تحركها كيفما تشاء في يُسْر وسلاسة ، وهي تنقاد لك وتطاوعك ، وأنت لا تعرف حتى العضلات والأعصاب التي تشارك في هذه الحركة ولا تدرى بها ؟

إنها قدرة الله فيك ، فإذا أراد سبحانه أن يسلب منك هذه القوة منع السيال الكهربي القادم من المخ إلى هذا العضو فتحاول رفعه فلا تستطيع . إذن : اجعل هذه المسألة دائماً في بالك كلما أقبلتَ على عمل ، واعلم أنه لا يتم لك بقوتك إنما بقوة الله .

وكلمة « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » من مقاليد السماوات والأرض ، فهو سبحانه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، كما قلنا في دعاء رمضان : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، لكن ذاك في ذاك فقفْ أيها العقل عند منتهاك .

ومعنى : الظاهر أي الظاهر في مُلْك الله مما يقع تحت إدراك البصر ، والباطن : أي الخفيّ في ملكوت الله الذي لا تراه ، فلله تعالى مُلْك ظاهر وملكوت غير ظاهر لا يُطْلع عليه إلا مَنْ شاء من عباده في الوقت الذي يريده سبحانه .

وكلمة « بيده الخير » هي أيضاً من المقاليد ، وبعض العلماء[1] قالوا : بيده الخير والشر ونظروا إلى قوله تعالى :﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

---

(١) قال ابن عباس فيما ذكره ابن الجوزي في (زاد المسير) في تفسير آية ٢٦ آل عمران ، قال : بيدك الخير والشر فاكتفى بأحدهما ، لأنه المرغوب فيه .

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فلما جمعتْ الآية بين الشيء ونقيضه جرَّأتهم أنْ يقولوا بيده الخير والشر وهذا لا يجوز ، نعم رسول الله ﷺ قال « بيده الخير » تأدباً مع الله ولم ينسب الشر لله ، ونحن كذلك لا ننسب الشر إلى الله تعالى ، لذلك أنا منذ عام ١٩٢٨ وأنا معترض على قولنا في الدعاء : « واكفنا شر ما قضيت »[1] وقلت : لابد أنْ يُعدَّل هذا الدعاء ، ثم هدانا الحق سبحانه لحلها فقلنا : إن شر ما قضيتَ ألاَّ ترضى بالقضاء .

ولو تأملنا لفظ « بيده الخير » وفي الآية ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ (٢٦) ﴾ [آل عمران] نجد أن الخير هنا مطلق بمعنى أن كل أفعال الحق سبحانه خير ، ولا يأتي الشر إلا من الخلْق ، واقرأ :﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩) ﴾ [النساء]

فإنْ قلتَ : كيف نجمع بين مثل هذه الآية وبيْن قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨) ﴾ [النساء] نقول : سبق أنْ أوضحنا حلَّ هذه الفزورة وقلنا : نعم كُلٌّ من عند الله بمعنى أن الله تعالى هو خالق الفعل بمعنى خالق القوة والطاقة التي تفعل ، لكن أنت توجه هذه الطاقة إما إلى الخير وإما إلى الشر ، وعليه نقول : الخير من الله والشر منّا نحن .

وقوله : « يحيي ويميت » أيضاً من المقاليد والموت والحياة هما أول ظاهرة في وجود الإنسان ، والخالق سبحانه خلق الحياة وخلق الموت ، ولما حدثنا عن ذلك قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه (٢/٦٣) حديث (١٤٢٥) باب القنوت في الوتر ، وأحمد في مسنده (١/١٩٩ ، ٢٠٠) من حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [الملك]

فذكر الموت أولاً حتى لا نستقبل الحياة بغرور البقاء ، بل نستقبلها وفي الأذهان أننا سننتهى إلى الموت فنعمل لهذه النهاية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الروم] يعنى : يفعل ما تعجز أنت عن فعله ، وله سبحانه القدرة المطلقة فلا يعجزه شيء ، ولا يستعصى عليه شيء ، لذلك حين تطلب من ربك الرزق اطلب أنْ يرزقك من حيث لا تحتسب ، لأن الله تعالى أسباباً للرزق لا تعرفها أنت ، لذلك قال أهل المعرفة : الأسباب ستر ليد الله في العطاء .

إذن : فقوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٦٣) ﴾ [الزمر] أى : بقدرته الخالقة وبقيوميته الدائمة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ (٦٣) ﴾ [الزمر] سواء أكانت آيات كونية أو معجزات رسل ، أو آيات الكتاب حاملة الأحكام ، ومعنى كفروا بها أى : استعلوا على تنفيذها ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) ﴾ [الزمر] يعنى : صفقتهم خاسرة ، وتجارتهم بائرة ، لأنهم آثروا الشهوة العاجلة على النعيم الدائم الذى لا يفوتك ولا تفوته.

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) ﴾

تذكرون ما كان من أمر كفار مكة لما عاندوا رسول الله وصادموه وتألَّبُوا على دين الله ، ومع ذلك انتشر الإسلام وزاد

(١) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٦١) فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه .

أتباعه ، فحاول الكفار مهادنة رسول الله فقالوا له : يا محمد تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، فردَّ الله عليهم (قُلْ) يا محمد رداً عليهم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر] والاستفهام هنا للتعجب والإنكار ، أتريدون مني وأنا رسول الله وأمينه على وَحْيه ورسالته أنْ أعبد غيره ، وكلمة (تأمرونِّى) ورد فيها عدة قراءات[2] : تأمرونِّى بتشديد النون وتأمرونني ، والنون هنا للوقاية يعني : تقى الفعل من الكسر ، وتأمرونى بياء واحدة .

وكلمة (أعبدُ) أصلها أن أعبد فلما حُذفَتْ (أنْ) جاء الفعل على طبيعته بالرفع ، وهذه الكلمة دلَّتْ على أن عبادة الأصنام أو عبادة غير الله باطلة أصلاً فى العقل ، لأن العبادة كما ذكرنا طاعة العابد للمعبود ، والأصنام لا منهجَ لها نطيعها أو نعصيها .

لذلك وصف عابديها بالجهل ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر] ولابد أن نفرق بين الجاهل والأمى : الأميّ أفضل من الجاهل ، لأنه خالى الذِّهْن ليست عنده قضية يتمسك بها ، لذلك يسهل عليك إقناعه ، أما الجاهل فليس خالى الذهن بل لديه قضية خاطئة مخالفة للواقع وهو متمسك بها ؛ لذلك يحتاج إلى جهد مضاعف ، أولاً لتُخرج من عنده

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١﴾ [الكافرون] .

(٢) وردت عدت قراءات ، منها :

– تأمرونيَ : بنون واحدة مخففة وفتح الياء ، قراءة نافع

– تأمرونَنى : بنونين مخففتين على الأصل . قراءة ابن عامر

– تأمرونِّى : بنون واحدة مشددة على الإدغام . الباقون واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنها وقعت فى مصحف عثمان بنون واحدة . [تفسير القرطبى ٥٩٢٢/٨]

القضية الخاطئة ، ثم تدخل عليه القضية الصحيحة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۝٤﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تكلمنا فى مسألة الحيز وأن الحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، لذلك نلاحظ مثلاً حين نملأ القُلَّة بالماء تخرج فقاعات الهواء أولاً قبل أن يدخل الماء ، كذلك القضية الفاسدة فى قلب الجاهل لا بدَّ أنْ تخرج أولاً حتى يقبل الصواب ، وكلما وافقتْ القضية هواه كان خروجها أصعب ، ومن هنا كان الجاهل أشقَّ على المعلم من الأمى .

ومسألة الحيز هذه قضية فطرية ينتهى إليها الفيلسوف والطفل وراعى الشاة ، ألا ترى الطفل الصغير يجلس مثلاً بجوار والده فإنْ أراد أخوه أنْ يجلس مكانه قام له وأجلسه ، لماذا ؟ لأنه يعرف هذه القضية ، وأن المكان الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد .

إذن : وصف الكفار بالجهل لأنهم مؤمنون بقضية خاطئة متمسكون بها ، ومن الصعب زحزحتهم عنها وهى قضية الشرك بالله ، وأىُّ جهل بعد عبادة الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ ﴾

هذه الآية تبين علة الاستفهام والتعجب فى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤ ﴾ [الزمر] يعنى : كيف تأمروننى بذلك ، وأنا

الرسول المؤتَمن على الدين والوحي ، وقد أوحى الله إليَّ وإلى الذين من قبلي ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] هذه علَّة تجهيلهم في قولهم لرسول الله : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة .

ومعنى ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] أي : الرسل السابقين ، لأن كل واحد منهم قُوبِل بهذه القضية ، لكن هل يُعقل من الرسل أنْ يشركوا بالله ؟ قالوا : هذا فَرْض ، يعني : لو فرضنا ذلك فسيكون هذا جزاءهم ، فهي أشبه بقولهم : (إياك أعني واسمعي يا جارة) فإذا كان هذا الوعيد مُوجَّهاً إلى الرسل فهو مُوجَّه من باب أَوْلَى إلى العامة .

قال بعض العلماء في هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] أنت تتكلم هنا عن عصمة الرسل ، لكن هذه العصمة بقدر الله ، وقدر الله لا يملكه أحد ، ألم يَقُلْ رسولٌ من الرسل : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ..﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

فالمعنى أنه أعطى للقدرة طلاقة أنْ تفعل ما تريده ، وإنْ كان هذا لا يحدث .

ومضمون الوحي إليك وإلى الذين من قبلك : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] لكن الآية جعلت الموحَى إليهم في جانب ، ورسول الله ﷺ في جانب ، فخصَّ اللهُ رسوله بالخطاب في ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] والخطاب لرسول الله دلَّ على أنه مُوجَّه أيضاً إلى الرسل السابقين .

ومعنى ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] يفسد ويضيع بلا جدوى ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر] نعرف في التجارة أن الخسارة

هى أنْ يقلَّ رأس المال ذاته ، فالتـاجر حين لا يربح زيادة على رأس المال لا يُسمَّى خاسراً ما دام سلِم له رأس ماله .

كـذلك المـؤمن ، رأس مـاله فى تجـارتـه مع الله إيمـانه وعـمله الصـالح ، فربُّك خلقك مـن عَدَم وأمـدَّك من عُدم ، وأرسل لك رسـلاً وأنزل لك كتباً ، فـجعل لك بذلك صفقة رابحة معـه سبحانه ، وعليك أنت أيها المـؤمن أنْ تستغلَّ هـذه الفرصة لتـربح مع الله ، لأن العمل الذى تعمله فى الدنيا عملٌ موقوت بحياتك وعمرك فى الدنيا .

أما الجزاء على العـمل ففى الآخرة وهى غير مـوقوتة ، بل دائمة باقية ، وهنا تكمن مَيْزة التجارة مع الله ؛ لذلك قال سـبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ (٦٦) ﴾

كلمة (بل) حـرف يفيد الإضراب عن الكلام السـابق وإثبات ما بعـدها ، يعنى : اعرض عن دعـوتهم لك أنْ تعبـد آلهتـهم ، وإياك أنْ تميلَ إليهم ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ (٦٦) ﴾ [الزمر] وليؤكد عبادة الله وحده جاء بهذا الأسلوب (بل الله فاعـبد) وقدَّم المفعـول به على الفعل ، وهذا يُسـمَّى أسلوبَ قـصر . يعنى : قـصـر العـبادة على الله وحـده دون سواه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

فتقديم الضمير المنفصل العـائد على الحق سبحانه على الفعل نعبد يعنى : نعبدك أنت فقط لا نعبد غيرك ، أما لو قُلْنا : نعبدك تحتمل ونعبد غيـرك . وقوله : ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّـاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر] الشـاكرين الله على الهداية والتوفيق ، لأنْ تعبده وحده وتشكره على ما تقدم لك من النعم ، وما هذه النعم إلا (عربون) للنعيم الدائم الذى ينتظرك .

ومن عجائب لطفه تعالى بنا أنْ شرع لنا من الأحكام افعل ولا تفعل ما فيه الخير لنا فى دنيانا ، ثم يُثيبنا عليه فى الآخرة إنْ أطعنا ويُخوِّفنا بالعذاب إنْ عصينا ، فهو سبحانه لطيف بنا حريص على نجاتنا ، مع أنه سبحانه لا ينتفع من ذلك بشىء ، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

واقرأ الحديث القدسى عند رب العزة سبحانه : « يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر »[1]

فاعلم أيها العبد أن ربك يحبك ويريد لك الفوز والنجاة فأنت عبده وأنت صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على أحسن حال .

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ[2] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/١٩٩٤) كتاب البر والصلة (حديث ٢٥٧٧) باب تحريم الظلم من حديث أبى ذر رضى الله عنه . والمخيط : هو الإبرة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات .

(٢) القبضة ملء اليد مضمومة الأصابع ، ولكنها فى حق الله سبحانه وتعالى معناها أن الأرض فى حوزته وتحت سيطرته كالشىء المقبوض عليه باليد الواحدة وفى ذلك ما يدل على صغر العالم وضآلته بجانب قدرة الله وعظمته (القاموس القويم ٢/٩٧) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٤) « عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته » ، وهو ما ذهب إليه هنا فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

معنى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : ما قدروه وما عظَّموه التعظيم المناسب له سبحانه ، يعنى : ما عرفوا لله قيمته ، ولذلك أشركوا به ، والشرك فى حَدِّ ذاته يعنى عدم تقدير الله حَقَّ قدره . وقد فعلوا ذلك والحال أن ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] إذن : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أغفلتم عن هذه الحقيقة ؟ إنكم سوف ترونَ عاقبة فعلكم فى الآخرة .

ومعنى ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] نقول : هذا الأمر فى يدى يعنى : أنا مُتمكِّن منه تمكُّناً بحيث لا يفلت منِّى ، وليس من الضرورى بالنسبة لله تعالى أن يكون فى المسألة قبضة أو يد ، فهنا كناية عن القوة والتمكُّن ، كما نقول مثلاً قبضنا على المجرم يعنى : أصبح فى حوزتنا ولم يَعُدْ مطلق السراح فى الحياة يفعل ما يشاء .

وسبق أنْ قلنا : إذا ذُكر للحق سبحانه وصفٌ له مثيل فى عباده فخُذْه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] ومن ذلك صفة السمع والبصر واليد والعلم .. الخ .

وكلمة ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : أرضنا التى نعيش عليها وأمثالها من الأراضين لأن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] هذا كله فى مجموعتنا الشمسية ، فما بالك بباقى المجموعات والمجرَّات التى تحوى الملايين مثل أرضنا : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى]

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يطويها

بقدرته تعالى ، واليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء وهى مصدر القوة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] أى من جهة القوة ، وفى موضع آخر قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

لكن أىّ أرض نعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] ؟ قالوا : هى أرض غير الأرض التى نعرفها ، لأن الأرض ستُبدل فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] لأن أرض الدنيا أرضُ أسباب ، نعيش عليها ونأكل من ثمرها ونزاول فيها حياتنا ، أما فى الآخرة فالحياة فيها بالمسبِّب سبحانه .

أرض الآخرة لا زرعَ فيها ولا حرثَ ولا حصادَ ، إنما تأكل وتشرب بمجرد إرادة الأكل أو الشرب ، فما يخطر على بالك تجده بين يديْكَ لا بأسباب ، إنما بقدرة المسبِّب سبحانه ، كذلك السماء فى الدنيا سماء أسباب ينزل منها المطر وتشرق فيها الشمس ، ويُنوِّرها القمر ، أما فى الآخرة فلا شىء من ذلك لا مطرَ ولا شمسَ ولا قمر ، إنما تُنوِّر الأرض بنور ربها .

وقوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] أمر بأن نقول سبحان الله ، وأنْ نُنزِّهه تعالى عن مشابهة خَلْقه فى مسألة القبضة وفى طَيِّ السماء ، لأنه ليس كالطَّيِّ الذى نعرفه نحن ، إنما ينبغى أن نأخذ هذه الصفات فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] فنزه الله عما يقوله المشركون .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ[1] ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن العقائد وذكر الوعد للطائعين والوعيد للعاصين ، أراد سبحانه أنْ يُحدِّثنا عن الآخرة وهى دار الجزاء على الأعمال فى الدنيا ، والدنيا فيها أموات وفيها أحياء ، ولن تقوم الساعة إلا إذا مات الجميع ليتحقق البعث ، وإلاَّ فكيف يكون البعث فى حَقِّ مَنْ لم يَمُتْ ؟ لذلك يُحدِّثنا الحق سبحانه هنا عن النفْخ فى الصور ، هذه النفخة التى تُميت كل مَنْ هو حَيٌّ .

الفعل (نُفخ) جاء بصيغة الفعل المبنى للمجهول ، الذى لم يُسَمَّ فاعله ، لكن السُّنة هى التى بيَّنت الفاعل وأنه إسرافيل ، و (الصُّور) بوق مثل القربة ينفخ فيه إسرافيلُ النفخةَ الأولى التى تُميت كلَّ الأحياء ، لأن القيامة ستقوم وعلى الأرض أحياء لابد أنْ يموتوا ،

---

(١) اختُلف فى المستثنى ، مَنْ هم ؟ على أقوال أوردها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٥) :
- هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعاً من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى ، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبى .
- هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ . ذكره الثعلبى والنحاس من حديث ابن إسحاق عن يزيد الرقاشى عن أنس . وقال القرطبى : حديث أبى هريرة فى الشهداء أصح .
- هم : رضوان والحور ومالك خازن النار والزبانية ، قاله الضحاك .
- عقارب أهل النار وحيَّاتها .
- هو الله الواحد القهار وما يدع أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . قاله الحسن .
- يموت من فى السماوات والأرض إلا مَنْ سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا .

ليكون لهم بعث كالذين ماتوا من لدن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت]

لكن : هل النفخة الأولى هى التى تُميت ؟ أو النفخة الثانية هى التى تحيى الموتى ؟

نقول : النفخة ذاتها لا تحيى ولا تميت ، إنما هى إيذانٌ لمن بيده الأمر أنْ يبدأ عمله ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] كلمة صعق تأتى بمعنيين .

صعق بمعنى هلك كما فى قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] يعنى : يهلكون .

وتأتى صعق بمعنى أغمى عليه وفقد الوعى ، كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام حين تجلَّى ربُّه للجبل ، فلما دعا موسى ربه قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] وليس المعنى هنا أننى لا أرى ، إنما أنا أرى لكنك فى تكوينك الحالى لا تستطيع أنْ ترانى ، إذن : قد يتغيَّر الحال على صورة يمكنك فيها أنْ ترانى .

وإذا كان البشر قد توصَّلوا لطرق وأساليب وأسباب تُمكِّن من رؤية ما لم تقدر على رؤيته ، فرأينا النظارة والنظارة المعظمة والتليسكوبات .. الخ . إذن : فالحق سبحانه من باب أوْلَى قادر على أنْ يجعلك ترى ما لم تكُنْ تراه من قبل .

ثم يقول سبحانه فى تمام هذه القصة : ﴿ وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] الحق سبحانه يريد أنْ

يؤكد لموسى عليه السلام هذه القضية لا بالقول إنما بالفعل ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى : إذا كنت صُعِقْتَ - يعنى : فقدتَ الوعى - من رؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف بك إذا رأيتَ المتجلِّى سبحانه ؟

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ (٦٨) ﴾ [الزمر] أى : شاء ألاَّ يُصعق ، وهذه المشيئة مؤقتة لأن من لم يَمُتْ فى هذه النفخة الأولى لابدَّ وأنْ يموت فيما بعد ، وآخر مَنْ يموت هو ملك الموت حيث يقول له الحق سبحانه : مُتْ يا ملكَ الموت فيموت . بعدها يصير الخلود بلا انتهاء .

قالوا : الذين استثناهم الله من هذه النفخة هم الملائكة الموكَّلون جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، وقد أخبرنا النبى ﷺ أن موسى عليه السلام فيمَنْ استثنى من هذه الصعقة ، فقد ورد فى الحديث [(١)] أن الصَّعْقة حدثتْ وحصل للناس غَشْية ، وكان رسول الله أول مَنْ أفاق منها فوجد أخاه موسى عليهما السلام ممسكاً بالعرش ، ورسول الله ﷺ لم يدْر أصُعِق موسى فيمن صُعِق وأفاق قبلى ، أم لم يُصعق .

وما دام أنه أفاق فوجد موسى بجوار العرش إذن هو لم يُصعق ، ويدخل فى هؤلاء الذين استثناهم الله فى قوله ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ (٦٨) ﴾ [الزمر] أو أنه صُعِق لكنه أفاق من الصَّعْق قبل غيره ، وهنا قال العلماء : لماذا لم يُصعق سيدنا موسى ؟ أو لماذا قَصُرَتْ مدة

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيرونى على موسى . فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله عزوجل » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥١٧) كتاب الرقاق .

صَعْقته عن مدة الآخرين ؟ قالوا : لأنه عليه السلام سبق أنْ صُعِقَ فى الدنيا لما تجلَّى ربُّه للجبل ، فشاء الله أنْ تُحتسبَ له هذه الصعقة ، وأنْ تُخفَّفَ عنه صَعْقةُ القيامة .

وقوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ (٦٨)﴾ [الزمر] أى : نفخة البعث ، فالنفخة الأولى أماتت مَنْ لم يكُنْ قد مات ، والنفخة الثانية هى البعث والخروج من القبور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ[1] إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾ [يس] هذا تصوير لهيئة الصعقة ، وكيفية الخروج من القبور ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر]

وكلمة (ينسلون) دلَّتْ على تفرُّق بعد اجتماع ، كما نقول للقماش (نسَّل) يعنى : بعد أنْ كانت خيوطه مُتضَامّة متماسكة تفككتْ ، وهذا تصوير دقيق وتعبير بليغ يُصوِّر الحالة التى كانت تُوجد فى القبور حين يلتقى الأموات فى باطن الأرض ، لأن الناس فى الدنيا وهم فى سَعة الحياة دائماً ما يتخاصمون ويتشاجرون وتكثر بينهم العداوات والمنافسات .

وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا المعنى فقال :

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ[3]

فإذا ما ماتوا وضمتهم الأرض امتصَّتْ ما كان بينهم

(١) الأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر . [لسان العرب – مادة : جدث] .

(٢) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان ، شاعر وفيلسوف ولد (٣٦٣هـ) ومات (٤٤٩هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً . قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يحرم إيلام الحيوان وأكل اللحم ، له : (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من ١٦ بيتاً من بحر الخفيف ، أولها :
غير مُجد فى ملتى واعتقادى نوْحُ باكٍ ولا ترنم شادِ .

من أحقـاد وعداوات ، فخلصت عناصرهم خُلُوصاً مكَّنهم من اللقاء والاجتماع ، فيقولون : ما ألذَّ العناق قبل دقَّات الفراق .

وكأنهم يفرحون بهذا الاجتماع وبهذا العناق لأنه يُعوِّضهم ما كان بينهم من شقاق في الدنيا ، فإذا ما جاءتْ النفخة الثانية تفكَّك هذا الاجتماع وتفرَّق ، هذا معنى ﴿يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس] أي : كُلٌّ على حدة بمفرده وشخصه كما (ينسَلّ) الخيط من مكانه في النسيج ؛ ذلك لأن الجزاء أمر شخصي وكُلٌّ مُرْتهن بعمله .

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر] أي : ينتظرون ما يقع بهم ، أو ينظرون ما حولهم من أهوال تشخَصُ لها الأبصار ، كما قال تعالى في آية أخرى حكايةً عنهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ۝١٢﴾ [السجدة] قالوا : هذه هي الآية الوحيدة التي تقدم فيها البصر على السمع ، لماذا ؟ لأن الموقف هنا في الآخرة حين يُبعث الناس من القبور ، وحين تحيط بهم الأهوال والكروب من كل ناحية ، وهذه الحالة تسبق فيها الأبصار الأسماع فيبصرون قبل أنْ يسمعوا .

وبنفخة البعث تبدأ أهوال القيامة ويشتد الكرب على الكافرين فيرتعدون ، فإذا ما صَدَق اللهُ وعده ووعيده في قيام الساعة بأول مراحلها عندها يعلمون صدق ما كذبوه وكفروا به ، هؤلاء الذين طالما كذَّبوا بالبعث وقالوا : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات]

إذن : صدق الله في البعث وفي إحياء الموتى ، وسيصدق سبحانه فيما يتلو ذلك من حساب وجزاء ، والويل لكم أيها الكافرون المكذِّبون .

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[1] وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه الآية تنقلنا إلى عالم آخر ، إلى الآخرة حيث تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، كنا فى الدنيا نعيش على الأرض بنور الشمس نقول : أشرقت الشمس أما وقد انتقلنا إلى الآخرة فالأرض هى نفسها تشرق ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] وكأن النور شىء ذاتى فيها ، فليس هناك شمس تشرق عليها إنما هى التى تشرق بذاتها .

ولم لا ؟ وأنت الآن فى عالم فيه ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وقال تعالى : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإنسان] لأن الدنيا كانت بالأسباب ، فالشمس تشرق لتنير الأرض بالنهار والقمر بالليل ، أما فى الآخرة فلا نعيش بالأسباب ، إنما بالمسبِّب سبحانه حيث كل شىء فيها يكون بلا علاج ، فلسنا - إذن - فى حاجة إلى زراعة الأرض ،

---

(١) وردت عدة أقوال فى معنى قوله تعالى : ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٨/٨) :
- بعدل ربها . قاله الحسن وغيره .
- بحكم ربها . قاله الضحاك .
- قال القرطبى : « المعنى واحد . أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور .. وقد ضلَّ قوم ها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس وهو متعالٍ عن مشابهة المحسوسات . بل هو مُنوِّر السماوات والأرض ، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً .

ولا إلى الشمس تنير النهار ، ولا إلى القمر ينير الليل .

وكما تُبدَّل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، كذلك أنتم تُبدَّلون على هيئة أخرى تناسب الآخرة ، فستأكلون ولا تتغوطون ، وتعيشون ولا تهرمون .

وحين تشرق الأرضُ بنور ربها تراها مشرقةً دون أنْ ترى مصدر هذا الإشراق ، وهذا ما رأينا شيئاً منه في الدنيا ، ففي طرق الإضاءة الحديثة توضع الأنوار في أماكن تخفى مصدر الضوء فيأتى النور غير مباشر فلا يؤذي العين ، كما يأتيك ضوء الشمس فينير لك الغرفة في حين لا ترى شعاع الشمس المباشر .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً لتنويره للسماء والأرض ، وذلك في سورة النور ، حيث قال سبحانه : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ** .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] أي : مُنوِّرهما ، ولما أراد سبحانه أن يعطينا مثلاً لذلك أتىٰ بمثل من المشاهد لنا المرئي الذي ندركه فقال : ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] أي: كيفية تنويره وأثر نوره سبحانه حتى لا نظن أن هذا المثل يوضح لنا نور الله ، لا بل يوضح كيفية تنويره لخلقه وإلا فنوره تعالى لا نعرفه ولا ندرك كُنْهه .

والمشكاة هي الطاقة غير النافذة في الجدار يسمونها كُوَّة ، وتوجد حتى الآن في المباني القديمة القطرية ، وهذه المشكاة هي التي يوضع فيها المصباح ، وليست هي المصباح كما يظن السطحيون ويستعملونها بهذا المعنى . وميزة المشكاة أنها غير نافذة ومحدودة المساحة ، بحيث تجمع ضوء المصباح فلا يتبدد إنما يتركز لتنوير الحجرة التي توجد فيها هذه المشكاة .

ثم يصف المصباح بأنه ليس مصباحاً عادياً إنما ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ .. (٣٥)﴾ [النور] والزجاجة تنقي ضوء المصباح وتمنع عنه الهواء الزائد فلا يحدث دخان يُكدِّر صَفْو ونقاء الضوء .

ثم إن هذه الزجاجة هي أيضاً غير عادية إنما ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥)﴾ [النور] والكوكب الدرى هو الذى يضيء بنفسه ، وهذا يعنى أن ضوء هذا المصباح مضاعف .

ثم إن الزيت الذى يُوقد به المصباح ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت مأخوذ من شجرة معتدلة المزاج ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

البعض يعترض على هذا المثل ويقول : كيف يضرب الله مثلاً لنوره بمشكاة فيها مصباح ؟ قلنا : إن المثَل هنا ليس مثلاً لنور الله إنما هو مثَل لتنويره للكون ، وقد عبَّر الشاعر أبو تمام[1] عن هذا المعنى فى قوله مادحاً :

إِقْدَامِ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ[2]

فاعترض عليه أحد جلساء الممدوح . وقال له : كيف تُسوِّى

---

(١) أبو تمام : هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسورية عام ١٨٨ هـ ، رحل إلى مصر ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام يحفظ ٤١ ألف أرجوزة غير القصائد . في شعره قوة وجزالة . له كتب : فحول الشعراء ، ديوان الحماسة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) ذكر الصولى هذه الأبيات فى كتابه « أخبار أبى تمام » فصل أخباره مع أحمد بن المعتصم ، وكان ينشده هذه القصيدة حتى إذا وصل إلى هذا البيت قال له الكندى وكان حاضراً وأراد الطعن عليه : الأمير فوق من وصفت . فأطرق قليلاً ثم زاد فى القصيدة بيتين لم يكونا فيها وهما الآتيان بعد .

الأمير بأجلاف العرب ، الأمير فوق مَنْ وصفت ، فردَّ أبو تمام بعد أنْ أطرق هنيهة :

لاَ تُنكروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثلاً شَــرُوداً فِى النَّـدَى وَالبَاسِ
فَاللهُ قَـدْ ضَـربَ الأقَــلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ المشْكَاة وَالنِّبرَاسِ[1]

هكذا يُنوِّر الله للخَلْق النور الحسىَّ الذى يصون مادتهم ، ويحفظ سلامة حركتهم فى الحياة ، لأن الإنسان إنْ سار على غير هدى اصطدم بالأشياء من حوله ، والصدام يعنى أن يحطم القوىُّ الضعيفَ ، لذلك نحرص على وجود ضوء خافت (وناسة) مثلاً بالليل لتحمى حركتنا من الصدام .

فإذا كان الخالق سبحانه جعل لنا النور الحسىَّ لحماية مادتنا من أن تحطم أو تتحطم ، فلا بدَّ أنْ يجعل لنا نوراً معنوياً يحمى فينا القيم ، فلا نحطم بظلم ، ولا نحطم باضطهاد ، وهذا هو نور الوحى والشرع الذى تحيا به القلوب ، وينظم حركتنا المعنوية فى رحلة الحياة .

وكما بيَّن لنا الحق سبحانه النور الحسِّى بيَّن لنا النور المعنوى فقال خذوه من بيوت الله ، فقال تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

---

(١) الأبيات من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٢٤ بيتاً فى مدح الخليفة المعتصم . الندى : الكرم . الباس : القوة والشدة فى الحرب . المشكاة : الكوة . النبراس : المصباح والسراج . وهو تأكيد لما قبله يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور] .

﴿ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

إذن : خُذ النور المعنوى من بيوت الله ففيها تلتقى بالله تعالى ، فهذا اللقاء يضفى عليك نوراً من نور الله يملأ قلبك ويهدى جوارحك ويصلحك ، وبيَّن سبحانه أن نور القيم أعلى من نور المادة ، بدليل أن الإنسان حين يكون مكفوف البصر يمكنه أن يمشى وأنْ يزاول أعماله فى الدنيا ، أما فاقد النور المعنوى ، أو أعمى البصيرة كما يقولون فلا يمكن أبداً أنْ يُوفَّق فى حركته للصواب ؛ لذلك قال تعالى فى ختام آية : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٣٥) ﴾ [النور] قال : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور]

وبعد أنْ أشرقت الأرضُ بنور ربها ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩) ﴾ [الزمر] وفى موضع آخر جاء تفصيل وشرح ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩) ﴾ [الكهف]

هكذا فصَّل الحق سبحانه ما أجمل فى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩) ﴾ [الزمر] ومعلوم أن آيات القرآن الكريم تفسر بعضها بعضاً ، والكتاب هنا كتاب خاص بكل إنسان على حدة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) طائره : الطائر : الحظ من الخير أو من الشر ، قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ .. (١٣) ﴾ [الإسراء] . أى : نصيبه من الخير والشر فى كتاب حسناته وسيئاته . [القاموس القويم ١/٤١٣] .

وهذا الكتاب الذي يُحصي عليك أعمالك كتاب صدق ، لأن كاتبه مَلَك موكَّل بك ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار] وقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

فهذا الكتاب ليس في علم الله فحسب ؛ لأن علم الله كلامٌ من عنده ، إنما هذا كتاب بمعنى أنه مكتوب مقروء يقرؤه صاحبه ويطلع عليه ، فيرى فيه عمله الصالح والطالح ؛ لذلك ساعةَ يراه المجرمون يرتعدون خوفاً لأنه أحصى عليهم إجرامهم ، ولم يترك منه كبيرة ولا صغيرة ، عندها لا يملكون إلا أنْ يدعوا على أنفسهم بالويل والثبور .

وبعد أنْ يأخذ كلٌّ كتابه يأتي الله بالرسل ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ .. (٦٩) ﴾ [الزمر] ليشهد كل نبي أنه بلَّغ أمته ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩) ﴾ [المائدة]

وبعد أن يشهد الرسل يشهد الشهداء وهم مَنْ حملوا العلم بعد الرسل ، كما ورد : « يحمل هذا العلمَ من كل خلف عُدُوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[1] .

فهؤلاء العلماء أيضاً يشهدون أنهم بلَّغوا غيرهم ؛ لذلك امتازت أمة محمد ﷺ بعلمائها ، لأنهم امتدادٌ لرسالته ﷺ ، لذلك فخيريتنا على الأمم بهذه المسألة .

ويشهد أيضاً الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ، وهؤلاء

---

(١) أخرجه البزار في مسنده ، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي (١/٨٦) حديث (١٤٣) قال البزار : خالد بن عمرو منكر الحديث قد حدَّث بأحاديث لم يتابع عليها وهذا منها . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١٤٠) وقال : فيه خالد بن عمرو القرشي كذَّبه يحي بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الكذب . وهو من حديث أبي هريرة وابن عمر . وقد أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/٩) في التقدمة من حديث أبي أمامة .

يشـــهدون أيضـــاً[1] لمكانتـهم عنـد الله ، هذه المكانة التـى نالوها بالشهادة، ويكفى أن الـشهيد يدخل المعـركة وهو يعرف أنه إنْ هُزم سيقتل ، فهـو يتقدم إما للنصر وإما للشهادة ، فـهو يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً ، ولولا أنه واثق كل الثقة بما وعده الله من الجزاء ما خرج .

لذلك قال تعالـى عن الشـهداء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وعجيبٌ أنْ نسمع مَنْ يقول على سبيل الإنكار : يعنى لو أخرجنا الشهيد من قبره سنجده حـياً ؟ نقول : اقرأ الآية وتدبَّر معناها ، فالله يقول : ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩) ﴾ [آل عمـران] لا عندك أنت ، بدليل أنه جـاء بعـدها بمـادة الطلب للحـيـاة فقـال : (يُرْزَقُـونَ) ذلك لأن الشهـيد لما ضـحَّى بحياته ضـمن له ربه حياة أخـرى أفضل وأعظم وأبقى مما كـان فيها فى الدنيا ؛ لذلك قـال الشـاعر[2] فى حق سيدنا حمزة سيد الشـهداء :

أَحْمَـزَةَ عَـمَّ المصْطَفَى أنتَ سَـيِّدٌ   عَلَى شُهَدَاء الأَرْضِ أجمعهم طُرًّا

(١) قـول الشيخ رحـمـه الله هنا (أيضاً) يدل علـى ثاقب نظره وعظيم علمـه الذى لا يحتـاج لشهادة ، فإن من المفسرين عند تأويل كلمة (الشهداء) اقتصروا على قولهم إنهم الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد ، كابن كثير فى تفسيره (٤/ ٦٤) ، ومن المفسرين من ذكر عـدة أقوال مثل الـقرطبى فى تفسـيره (٥٩٢٨/٨) الذى ذكر فـيهـا ثلاثة أقوال وكأنها متضادة متعارضة :
– هـم الذين شــهدوا على الأمم من أمـة محـمـد ، قال تـعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .
– هـم الذين استشـهدوا فى سبيل الله فيشـهدون يوم القيامة لمن ذبَّ عن دين الله . قاله السدى .
– هـم الحفظة الذين يشـهدون على الناس بأعمالهم .
أمـا الشيخ الشـعراوى فـذهب إلى أن كل هؤلاء يشـــهـدون فـالأقوال مـتعـاضـدة وليـست متعارضة . [عادل أبو المعاطى]
(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

وحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادةِ عِصْمَةٌ مِنَ المَوْتِ ، موصول الحياة إلى الأخرى

المعنى : أنك قدمتَ حياتك وضحيت بها فعُصِمْتَ من الموت ، لأنك بعد أنْ متَّ صِرْتَ حياً فوصلتَ حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهبتَ الحياة فوُصلتْ الحياة .

والشهادة على العبد يوم القيامة لا تنتهى عند هذا الحد ، فبعد أنْ شهدت عليه الملائكة بالكتاب الذى سطّروه ، وشهد عليه الأنبياء والشهداء تنقل الشهادة إلى ذاتك أنت ، فهذا تدرّج فى الشهادة من الملائكة وهم من جنس غير جنسك ، إلى الأنبياء والشهداء وهم من جنسك ، إلى جوارحك وهى قطعة منك : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾

[فصلت]

لكن كيف تشهد الأعضاء والجوارح على صاحبها وكانت فى الدنيا هى أداة الفعل ، فاللسان هو الذى قال ، واليد هى التى بطشتْ ، والرِّجْل هى التى سعتْ .. إلخ ؟ قالوا : لأن الله تعالى خلق لعبده الجوارح وسخرها لمراده ، وأمرها أنْ تطيعه فيما يريد ، فاللسان مُسخَّر لخدمة صاحبه إنْ أراد أن يقول لا إله إلا الله قالها . وإنْ أراد أنْ ينطق بكلمة الكفر نطق بها ، وهكذا بقية الجوارح .

إذن : طالما الإنسان فى الدنيا فالولاية على الجوارح لمراد الإنسان المخيَّر ، والجوارح تابعة لمراده ، فإذا ما بُعثنا وعُرضنا على الخالق سبحانه انحلَّتْ هذه الإرادة وسُلبت فلا إرادةَ لأحد إلا لله ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] وعندها تتحرر الأعضاء وتقف موقف الشاهد الصدق .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) ﴾ [الزمر] أى : قضى اللهُ بين الناس وأهل المشهد وحكم بين الخلائق ، والذى يقضى هو الله . إذن : فهو قضاء بالحق لا يُظلم فيه أحدٌ ، فليس لأحد فى هذا اليوم إرادة ، وليس لأحد حكم ولا هوى ، إنما الأمر كله لله إنْ شاء اقتصَّ للمظلوم من الظالم ، وإنْ شاء أرضى المظلوم وعفا عن الظالم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾ [الزمر] أى : يجازيها بما عملت إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر .

وهذه الآية وقف عندها المستشرقون يتهمون سياقها بعدم التناسق ، فالتناسق فى نظرهم أن نقول : ووُفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يعملون . وهم يقولون ذلك لأنهم لا يدركون الفرق بين الفعل والعمل ، فالفعل مقابل القول ، فاللسان وحده له مهمة القول وباقى الجوارح تفعل ، العين ترى ، والأذن تسمع ، واليد تبطش ، والرِّجْل تسعى .. إلخ.

كل جارحة لها مهمة وهذه كلها أفعال ، أما العمل فيشمل القول والفعل ، كل منهما يُسمَّى عملاً ، لذلك يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

لكن لماذا خصَّ اللسان بالشطر وباقى الجوارح بالشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول يتم به البلاغ والتبليغ ، فاستحق أنْ يكون عمدة الجوارح .

فما نتيجة هذه التوفية للأعمال ؟ نتيجة توفية الأعمال أن تنال كل نفس ما تستحقه على عملها فى الدنيا ، لذلك بعد أنْ تتم التوفية ويتم الحساب يُساق أهل الإيمان إلى الجنة ، ويُساق أهل الكفر إلى النار :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا[1] حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

نلحظ هنا أن الفعل (وَسِيقَ) جاء مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق] فمَن هو السائق ؟ قالوا : هم الملائكة يسوقون أهل النار إلى جهنم والعياذ بالله ، والسائق هو الذى يحثّ المسوق على الإسراع ، كراكب الدابة الذى ينهرها ويحثُّها لتسرع به ، كذلك تفعل الملائكة بالمجرمين وتحثهم إلى جهنم ليسرعوا إليها .

وهذا يدل على أن الملائكة مغتاظون منهم ، كارهون لهم ،

---

(١) خزنة جهنم : حراس النار من الملائكة الغلاظ الشداد . [القاموس القويم ١/١٩٢]

متضايقون من أعمالهم فى الدنيا ، لذلك يزجُّون بهم إلى جزائهم العادل فى جهنم ، بلا هوادة وبلا رحمة ، أرأيتم رجال الشرطة حينما يمسكون بالمجرم ماذا يفعلون به ؟ إنهم يضربونه ويُعذبونه ويهينونه لأنه عضو فاسد فى المجتمع يريد الجميع التخلص منه ، ومعلوم أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والقرآن يصور هذا الموقف في آية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] يعنى : يزجرونهم إليها ويدفعونهم فيها رغماً عنهم .

ومعنى (زُمَراً) يعنى : جماعات ، فكل أصحاب مخالفة لمنهج الله معاً فى جماعة ، فالتاركون للصلاة جماعة ، والتاركون للزكاة جماعة ، والآكلون للربا جماعة وهكذا الظلمة والمرتشون والسارقون والزناة والمختلسون يجمع الله كل واحد منهم مع صاحبه ، فيُحشرون معاً يتقدمهم كبيرهم .

والفتوة فيهم كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. (٧١) ﴾ [الإسراء] وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا[1] (٦٩) ﴾ [مريم]

وقال في حق فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

وكَوْن كبراء الضلال وقادة الكفر يتقدمون أتباعهم يدل ذلك على قطع أمل الآخرين فى النجاة ، فلو دخل التابع فلم يجد متبوعه لتعلق قلبه به ، وظن أنه سيأتى ويُخلصه ، لكن الحال أنه سيدخل فيجد

---

(١) عتياً : أى تمرداً واستكباراً . عتا : استكبر وجاوز الحد فى القسوة والشدة والطغيان . [القاموس القويم ٢/٦] .

أستاذه وقدوته فى الضلال قد سبقه إلى جهنم .

حتى إذا ما وصلوا إلى أبواب جهنم فتح لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..(٧١)﴾ [الزمر] لأن باب الغضب (مش مفندق) بل مغلق يُفتح للضرورة ، على خلاف باب الرحمة فهو مفتوح دائماً ، وهذا من رحمة الله ، لأن رحمة الله سبقتْ غضبه[1] .

وهذه النهاية التى انتهى إليها أهل النار كُتبتْ عليهم ، وعلمها الحق سبحانه من بداية الحياة ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ[2] وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[3] (١٠٨)﴾ [هود]

أولاً : لا بدَّ لفهم هذه الآية أن تعرف أولاً معنى الخلود : الخلود هو المكث الطويل ، وهذا المكث سُمِّى خلوداً لأن له بداية وليس له نهاية ، والكلام هنا عن الذين سُعدوا وهم أهل الجنة ، والذين شقوا وهم أهل النار ، لكن الحق سبحانه استثنى من هؤلاء ومن هؤلاء ، والذين استثناهم الله ستنقص مدة خلودهم ، كيف ؟

الكافر بعد أنْ حُوسب وسيق إلى جهنم تُفتح له ويظل خالداً فيها

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

(٢) الزفير : إدخال النفس والشهيق إخراجه . قال الزجاج : الزفر من شدة الأنين وقبيحه . والشهيق : الأنين الشديد المرتفع جداً . [لسان العرب – مادة : زفر] .

(٣) الجذ : القطع . والانجذاذ : الانقطاع . قال أبو عبيد : غير مجذوذ . أى : غير مقطوع . [لسان العرب – مادة : جذذ] .

خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية ، كذلك المؤمن الذى تداركته رحمة ربه بعد أنْ يُحاسب يُساق إلى الجنة فيظل فيها خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية .

أما الاستثناء فللمؤمن العاصى الذى لم يَتُبْ عن معاصيه أو تاب ولم تُقبل توبته ، هذا لابدَّ أن يأخذ جزاء هذه المعاصى ، وأنْ تناله لفحة من لفحات النار والعياذ بالله ، هذا فى البداية ، فيدخل النار ما يشاء الله له ثم يُخرجه إلى الجنة وبذلك تكون فترة خلوده فى الجنة نقصتْ عن إخوانه المؤمنين ، والنقص هنا من البداية ، كذلك نقص خلود فى النار عن أهل النار الخالدين فيها .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] أى : خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] هذا الاستفهام ألزمهم الحجة وأفحمهم ، فربهم عز وجل لم يأخذهم على غِرَّة ، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (مِنكُمْ) من جنسكم ومن أوسطكم والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

ومع هؤلاء الرسل حجج وبراهين ووَعْد ووعيد ، لذلك لم يستطيعوا الإنكار ﴿ قَالُوا بَلَىٰ .. (٧١) ﴾ [الزمر] يعنى : حدث هذا ، فأقرّوا على أنفسهم بإسقاط الحجة ، وأن الله بعث لهم الرسل الذين أنذروهم هذا اليوم .

إذن : الإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم من تمام رحمة الله بالخلق ، والإنذارات التى سبقت فى الحياة بما سيكون بعدها من تمام رحمة الله بالخلق ، أرأيتَ حين تُبصِّر ولدك بعاقبة الإهمال وتُخوِّفه من الرسوب آخر العام ، فإنك تعينه على المذاكرة والاجتهاد حتى

لا يلاقى هذه العاقبة ، وحتى لا يفاجأ بشىء غفل عنه .

لذلك وقف المستشرقون عند سورة الرحمن وقالوا : قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ⦗١٤⦘ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ ⦗١٥⦘ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗١٦⦘ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ⦗١٧⦘ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗١٨⦘ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⦗١٩⦘ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ⦗٢٠⦘ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗٢١⦘ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ⦗٢٢⦘ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗٢٣⦘ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[2] ⦗٢٤⦘ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗٢٥⦘ ﴾ [الرحمن] قالوا : نعم هذه نعَم يناسبها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗٢٥⦘ ﴾ [الرحمن] لكن أىّ نعمة فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[3] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ⦗٣٥⦘ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗٣٦⦘ ﴾ [الرحمن]

نعم الإنذار بالشر قبل أن يقع والتحذير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نعم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ⦗٧١⦘ ﴾ [الزمر] يعنى : وجبتْ لهم رغم الإنذار والتبصير ، والكلمة التى حقَّتْ هى قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ⦗١٣⦘ ﴾ [السجدة] فماذا تنتظرون بعد ذلك ؟ والعجيب أننا باختياراتنا الخائبة نساعد القدر ويمهد القدر لقدر .

---

(١) المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) الأعلام : الجبال . مفرده علم . فمن نعم الله تلك السفن الضخمة المنشأة تجرى فى البحر كأنها الجبال .

(٣) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان .

والكلمة قولٌ مفرد لا يؤدى إلا معنىً فى ذاته ، إنما لا يؤدى معنى إسنادياً ، فكلمة السماء مثلاً لا تؤدى معنىً وحدها يحسنُ السكوت عليه ، لكن حين تقول : السماء صافية تعطى معنى مفهوماً يحْسن السكوت عليه ، قالوا : لكن قد تفيد الكلمة الواحدة ، فلو قلت : مَنْ عندك ؟ تقول : زيد . فأفادت : زيد عندى . ولولا تقدير كلمة عندى ما أفادتْ ، فالكلمة - إذن - لا تؤدى معنىً يحسن السكوت عليه إلا بضميمة غيرها .

وقد بيَّن علماء النحو ذلك حين قسَّموا الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وكل منها تُسمَّى كلمة ، والفرق بينها أن الاسم يعطى فى ذاته معنىً مستقلاً بالفهم ، والفعل يعطى معنىً فى ذاته ، لكنه مرتبط بزمن أو الزمن جزء منه ، تقول : أكل أى فى الماضى . يأكل فى المضارع . وكُلْ فى المستقبل ، أما الحرف فهو لا يعطى معنى مستقلاً بالفهم ، إنما لا بدَّ له من ضميمة تبين معناه .

وتطلق الكلمة ويُراد بها الكلام تقول : ألقيت كلمة فى الحفل والمراد خطبة ، وقد استخدم القرآنُ الكلمة بهذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] والمراد بالكلمة قوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وكذلك هنا : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ [الزمر] الكلمة هى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾

كلمة (بئْسَ) للذم والمذموم ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾ [الزمر] أي : إقامتهم ونهايتهم ، ووصفهم بالمتكبرين خاصة لأنهم ما وصلوا إلى هذه النهاية إلا بتكبرهم ، تكبرهم على مَنْ ؟ على ربهم وخالقهم ، وعجيب من العبد أن يتكبر أول ما يتكبر على خالقه سبحانه الذى خلقه من عدم وأمده من عُدم .

ونلحظ فى هذه الآية مظهراً من مظاهر رحمته تعالى حتى بالكافرين ، وكأن الحق سبحانه يفتح لهم باب الأمل فى النجاة ، ويلمح لهم بإمكانية التوبة ، ومهما كان منهم فالباب مفتوح ، نفهم ذلك من قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٢)﴾ [الزمر] ولم يقُلْ هنا أبداً كما قال مثلاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

ولما أحصى العلماء لفظ الأبدية بالنسبة للكافرين وجدوه فى آيتين (هما الأحزاب ٦٥ - الجن ٢٣) ، إذن : ذكر كلمة أبداً فى بعض الآيات وتركها فى البعض الآخر ، وفى هذا إطماع لمن لم يصل إلى الحقيقة التى تنجيه ربما تدارك الأمر وأنقذ نفسه وعاد إلى الجادة ، أما حين يتكلم الحق سبحانه عن الجنة فتجد كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٢٣)﴾ [الجن] غالباً مقرونة بالأبدية .

ونلحظ أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٧٢)﴾ [الزمر] ولم يقل : ادخلوا جهنم . فما الفرق بين التعبيرين ؟ قال تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٧٢)﴾ [الزمر] لأن العذاب يبادرهم ويسرع إليهم بمجرد أنْ يدخلوها فهو يستقبلهم على بابها .

بعد ذلك ينتقل السياق إلى المقابل ، إلى أهل الجنة ، لكن لماذا بدأ بأهل النار فقال : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ..(٧١)﴾

[الزمــر] قــالــوا : بدأ بهم لأنــهم هم المنـكرون المكـذِّبون بالبــعث والحســاب ، فبدأ بهــم تعجيـلات بعقابهم ومـساءتهم ، أمـا المتقــون فهم مُصدِّقون بهذا اليوم مؤمنون به ، وبما سيكون فيه من حساب وجزاء ، ثم إن الختام بالوعد والبشارة فيه استبشارٌ وحُسْن ختام .

يقول تعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هنا أيضاً ساقتهم المـلائكة مع الفارق بين سَوْق الكافرين وسَوْق المتقين ، فالكـافرون ساقتهم الملائكة ليعجلوا لهم العـذاب سَوْقاً فيه زجر وقسوة ، أما المتقون فيُساقون سَوْق المحب لحبيبه ليعجلوا لهم النعيم .

وقوله (زمـراً) يعنى : جماعات كل جـماعة على حدَة ، فــهؤلاء الزهاد وهؤلاء العلمــاء وهؤلاء المـجــاهدون وهؤلاء الأمناء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] هناك قــال (فُتــحَتْ) وهنا (وَفُتحَتْ) قالوا فى أهل النار (فُتحَتْ) هى جواب الشرط ، أما هنا (وَفُـتـحَتْ) ليســتْ جواباً للشــرط ، بل جـواب الشــرط فى النعـيم المذكور بعدها ، لأن فتح الأبواب ليس هو الغاية ، إنما الغاية ما يتبع ذلك من النعيم .

فالواو هنا عاطفة وجملة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] معطوفة

على ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر] ذلك لأن المؤمنين ما كانوا يشكّون في هذا اليوم ، أما الكفّار فيشكونَ فيه لذلك جعل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا.. (٧١)﴾ [الزمر] جواباً للشرط قبلها .

أما في المتقين فجواب الشرط أسمى من مجرد فتح الأبواب لهم ، ففتحت هذه مداخل الرحمة التي سيذكرها بعد ، ويذكر مكوناتها ، وكيف أنها تتدرج بدايةً من تحية الملائكة لهم : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ .. (٧٣)﴾ [الزمر] لأنكم طهرتم أنفسكم من دنس المعاصي والشركِ ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] إلى آخر السورة ، حيث يرونَ الملائكة حافّين من حول العرش ، وهذا هو جواب الشرط الذي يليق بهم .

جماعة أخرى من العلماء[1] قالوا : إن جواب الشرط هو (وفتحت) والواو هذه واو الثمانية ، فما المراد بواو الثمانية ؟ قالوا : كان منتهى العدد عند العرب سبعة ، فإذا جاء شيء بعد السبعة يعدُّونه كلاماً جديداً فيعطفونه بالواو ، ومن ذلك قوله تعالى في أهل الكهف : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .. (٢٢)﴾ [الكهف] فقبل الثامن يذكر الواو .

---

(١) قاله أبو بكر بن عياش فيما نقله القرطبي في تفسيره (٥٩٣١/٨) ثم قال : وقد استدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية ، وذكروا حديث عمر بن الخطاب قال قال رسول الله « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » خرجه مسلم وغيره ، وقد خرَّج الترمذي حديث عمر هذا وقال فيه : « فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة » بزيادة من وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك في كتاب « التذكرة » وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ[1] الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ [التوبة] فكلمة الناهون هى الثامنة لذلك سُبقت بالواو .

وقال بعضهم : إن من ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم]

نعم كلمة (أبكاراً) هنا هى الثامنة ، لكن الواو جاءت هنا للفصل بين الاثنين ، فالثيبات لا يكنَّ أبداً أبكاراً . إذن : فهذه الآية لا يُحتجّ بها فى هذا الموضوع ، إنما يُحتج بآية الكهف وآية التحريم ، على أن العدد سبعة هو منتهى العدد عند العرب ، وكذلك العدد ألف .

لذلك لما وقعتْ ابنة كسرى فى الأسْر وذهبتْ لتفدى نفسها ، فقالوا لمن أخذها فى حصته : كم تطلب فيها ؟ قال : ألف دينار ، فقالوا له : إنها بنت كسرى . يعنى : كان بإمكانك أن تزيد على ذلك فقال : والله لو كنتُ أعلم أن وراء الألف عدداً لقُلْته .

ونحن لا نرى هذا الرأى ، فكلمة (وَفُتِحَتْ) ليستْ هى جواب الشرط هنا ، لأن جواب الشرط بالنسبة للمتقين أسمى من فتح الأبواب لهم وأسمى من قَوْل الملائكة لهم ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٧٣) ﴾ [الزمر] وأسمى من ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر] لأن الحق

---

(١) السائحون : المنقطعون للعبادة لأنهم متجهون إلى الله . والعابدات السائحات فسرت بالصائمات والمهاجرات أو هى من السياحة لله والفرار إليه والمجاهدة ليلاً ونهاراً فى سبيل الوصول إلى كامل محبته وعظيم رضاه بالعبادة الخالصة وبالطاعة الدائمة . [القاموس القويم ١/٣٣٩] .

سبحانه سيقول بعد ذلك : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧٥) ﴾ [الزمر] فذكر العرش هنا والملائكة تطوف به مُسبِّحة بحمد ربهم فيه إشارة إلى منتهى النعيم الذى سيلاقيه المتقون ، حيث يرونَ الحق سبحانه الذى استوى على هذا العرش ، هذه هى الغاية التى يناسب أن تكون جواباً للشرط السابق .

لكن لماذا أخفى اللهُ جوابَ الشرط هكذا ؟ قالوا : لأنه لو قالها أى : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] لو قالها الآن لكانت قد سمعت ، إنما أراد سبحانه أن تكون مفاجأة على أنها مما لا يخطر على قلب بشر ، يعنى : لا تأتى على البال .

فمثلاً فى فاكهة الجنة يأتى لى بالفاكهة التى أعرفها كالتفاح والمانجو مثلاً نحن نعرفها فى الدنيا ، لأنه لو أتى بفاكهة جديدة لم نعرفها فى الدنيا لَقُلْنا : لو كانت فى الدنيا لكانت مثل هذا شكلاً وطعماً ، لذلك تأتى الفاكهة مما نعرفه فى الدنيا ، لكن بمواصفات أخرى يتحقق فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

إذن : التفاضل يأتى من كَوْنها فى الجنة ، ثم لو جاءت لى الفاكهة فى الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف لو جاءت للمرة الثانية ؟ لا بد أننى سأكون قد رأيتها من قبل وخطرتْ على بالى ، فحين أرى المانجو مثلاً أقول : أنا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أكلتُها قبل ذلك . قالوا : لا بل ستكون على هيئة أخرى ، ولون آخر ، وطعم آخر غير الذى أكلتُه فى المرة الأولى ، وهكذا يتحقق فى نعيم الجنة ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قولهم : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر] أهو حَمْد على صدق الله فى الوعد ، أم لأنكم بتوفيق الله صدقتم الله فيما وعدكم به ؟ المعنى : الحمد لله الذى جعلنا أهلاً لأنْ يصدق وعده فينا لأننا صدَّقنا به ، وإلا فَوعْد الله صادق صادق .

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر] الإرث هنا له معنىً غير معناه الذى نعرفه بأنْ يرث شخصٌ غيره بعد موته .. فالميراث هنا فى الجنة كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وبيانُ ذلك كما قلنا أن الحق سبحانه قضى أزلاً أنْ يخلق خلقاً ، وأن يترك لهم الاختيار فى أشياء ، ويجبرهم فى أشياء أخرى ليظلوا عبيداً له سبحانه رغم انوفهم من ناحية وعبيداً فيما يختارون من ناحية .

فإنْ آثروا جانب الله تعالى وآثروا مراده على ما وكل فيهم من الاختيار فازوا بمنزلة العبودية لله ، وكانوا وقتها أفضل من الملائكة لأن الملائكة جُبلوا على الطاعة أمّا الإنسان فأعطى الاختيار يُطيع أو يعصى ، فإنْ أطاع فله أنْ يزهوَ حتى على الملائكة .

لذلك كان إبليسُ قبل أنْ يعصى يزهو على الملائكة ، وكان يُسمَّى طاووس الملائكة لأنه مخلوق مختار ، ومع ذلك أطاع كما أطاعتْ الملائكة فأصبح له ميْزة عليهم إلى أنْ زلَّ الزلة الأخيرة فأُبعِد وطُرِد من رحمة الله .

نقول : لما خلق الله الخلْق مختارين ، لهم أنْ يطيعوا ، ولهم أنْ يعصوا أعدَّ لهم دار الجزاء في الجنة على اعتبار أنهم جميعاً سيطيعون ، فلكل واحد منهم منزلة في الجنة ، كذلك أعدَّ لهم في النار أماكن تسعهم جميعاً لو عصوا ، فحين يذهب أهل النار إلى النار تخلو أماكنهم في الجنة فأين تذهب ؟ يأخذها أهل الجنة أو يرثونها كما قال القرآن .

وقوله تعالى : ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

نقول : تبوأ المكان يعني : نزل به ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ (٥٦)﴾ [يوسف] فالمعنى : ننزل ونسكن ، لكن المسألة ليست بالقوة ، كل يذهب حيث يشاء ، وليس فيها تعدياً على حقوق الآخرين ، فالمعنى : نسكن ما نشاء ، كل في جنته وما خصص له لا في جنة غيره ، وهذا دليل على أن الجنة الخاصة به

واسعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر] نعم للمدح يعنى : أجر كبير نالوه بأعمالهم الصالحة .

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾

قوله تعالى : ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ .. (٧٥)﴾ [الزمر] يعنى : يطوفون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ..(٧٥)﴾ [الزمر] فليس لهم عمل إلا التسبيح بحمد ربهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ..(٧٥)﴾ [الزمر] أى : قضى الله بينهم ، بين مَنْ ؟ بين الملائكة لأنهم أقسام : منهم العالون ، وهم المهيمون فى الحق سبحانه ، وهم لا يدرون شيئاً عن دنيانا ولا عن آدم وذريته .

ومنهم المسخرون لخدمة الإنسان وهم الملائكة الحافظون ، الذين قال الله عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] وهؤلاء الذين أمرهم الله بالسجود لآدم لا كل الملائكة ، فكأن هذا السجود دليلُ خضوع وطاعة لهذا المخلوق الذى ستكونون فى خدمته .ومنْ الملائكة الكرام الكاتبون : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار]

فمعنى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ .. (٧٥)﴾ [الزمر] يعنى : أخذ كلٌّ منهم منزلته والجزاء الذى يستحقه .

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ [الزمر] مَن القائل ؟ قالوا[١] : قالها المؤمنون من البشر ، وقالوا[٢] : قالها جميع الخلائق ، وقالوا : قالها الحق سبحانه ، فهى ثناء من الله تعالى على ذاته سبحانه ، كما شهد سبحانه لنفسه بأنه ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه حمد نفسه على أنه رب العالمين ، لذلك قال النبى ﷺ فى الحديث : « ..... لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[٣] فهذا ثناء من الله على الله ، اللهم اجعلنا دائماً من القائلين الحمد لله رب العالمين .

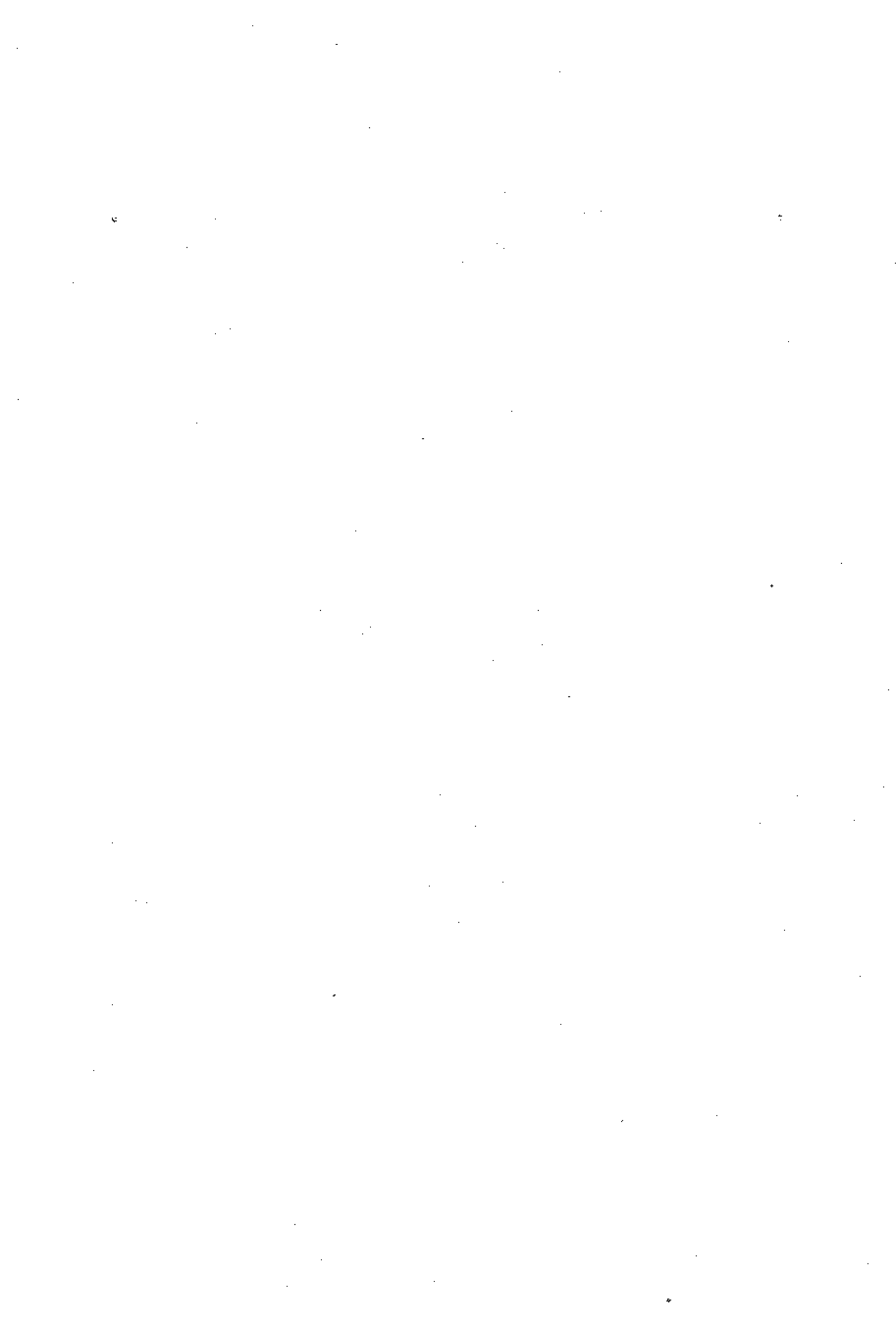
---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٣/٨) : « أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقيل : من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه » .

(٢) قاله ابن كثير فى تفسيره (٦٩/٤) : « أى : نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد » .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) وكذلك مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .


سُورَةُ غَافِرٍ



سورة غافر(١)



هذه السورة بداية (الحواميم) أى : السور المفتتحة بقوله تعالى (حم) نقول فى الجمع (الحواميم) وهذا الجمع على غير القاعدة ، فالأصح أن نقول (آل حم) و (حم) من الحروف المقطعة التى ترد فى أوائل السور ، وسبق أنْ تكلمنا عليها فى أكثر من موضع ، والحقيقة أننا نحوم حول معانيها مما يتيسر لنا فهمه واستنباطه منها ، والجميع فى النهاية يقول : الله أعلم بمراده لأن معانيها فوق الإحاطة .

قلنا : إن الحرف له اسم وله مُسمَّى ، نقول : ألف للحرف (أ)

---

(١) سورة غافر وتسمى سورة المؤمن نسبة إلى مؤمن آل فرعون فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] . وتسمى أيضاً سورة الطوْل لقوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : ذى الغنى والسعة والإنعام . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . وعن الحسن إلا قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] لأن الصلوات نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٥٦﴾﴾ [غافر] والتى بعدها . عدد آياتها ٨٥ آية وترتيبها فى المصحف الشريف (٤٠) وهى السورة (٥٩) فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الزمر كما هى فى المصحف وبعد سورة السجدة . [راجع تفسير القرطبى ٨/٥٩٣٥] . و[الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

وباء للحرف (ب) هذا اسم الحرف ، أما المسمَّى لو قلت مثلاً (كتب) أنا لا أنطقها كاف تاء باء ، فهذه أسماء الحروف إنما أنطقها كتب وهذا هو المسمى : مُسمّى الكاف كَ ، ومسمّى التاء تَ ، ومسمّى الباء بَ ، إذن : نحن فى كلامنا ننطق بمسمّى الحروف .

لكن فى (حم) ننطق باسم الحرف فنقول : ح م ولو نطقنا المسمّى لَقُلْنا حمٌ . ومن هنا تأتى أهمية السماع فى قراءة القرآن . فبالسماع تُقرأ فى أول البقرة (الم) هكذا ألف لام ميم ، فى حين تُقرأ نفس الحروف فى سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] ولولا السماع ما كُنا نعرف هذا النطق .

بعض العلماء أخذوا يحومون حول معانى هذه الحروف فى أوائل السور فقالوا : القرآن معجز لأمة العرب ولما نبغ العرب فى البيان والفصاحة جاءتْ المعجزة من جنس ما نبغوا فيه ليكون الإعجاز فى محله ، وإلا فليس هناك أمة من الأمم جعلتْ للكلمة أسواقاً ومعارض كما فعل العرب فى عكاظ والمربد وذى المجاز[1] وغيرها . وكان تحدِّى القرآن لهم عين الشهادة بتفوقهم فى هذا الميدان ، وأنهم حجة فيه .

لكن من أين أتى إعجاز القرآن ؟ وبِمَ تميز عن كلام العرب والحروف هى الحروف والكلمات هى الكلمات ؟

قالوا : حروف اللغة منها حروف مَبْنى أى : تُبنى الكلمة وهذه الحروف ليس لها معنى فى ذاتها ، وحروف معنى وهى حروف لها

---

(١) عكاظ : سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها بالمفاخرة بالأنساب والآباء والجاه . وهى بقرب مكة كان العرب يجتمعون بها كل سنة فيقيمون شهراً . ذو المجاز : موضع بمنى كانت به سوق فى الجاهلية . [راجع لسان العرب - مادة : عكظ ، جوز] .

معنى وحدها ، فمثلاً الكاف حرف مبنى لأنه يدخل فى بناء كلمة كتب ، ولو أخذ الكاف من كتب ما كان لها معنى وحدها ، أما الكاف فى الجندى كالأسد فهى حرف معنى أفاد وحده معنى التشبيه ، ولم يدخل فى بناء كلمة الأسد ، كذلك الباء حرف مبنى فى كتب وحرف معنى فى (بالله) لأنه أفاد معنى القسم .

ومن هذه الحروف تتكوَّن الكلمات ، ومن الكلمات تتكوَّن الجمل والعبارات ، والعبارات تكوِّن الأسلوب والأداء المتميز الجذاب الذى يستميل الأذن ويؤثر فى النفس ، ومن هنا تأتى بلاغة الكلام وفصاحته حين يكون موافقاً لقواعد اللغة ، فإذا كانت الحروف العربية والكلمات هى هى فى القرآن ، فبمَ تميَّز عن كلام العرب ؟ قالوا : تميَّز بنسيجه الخاص ، وأن الذى تكلم به هو الله سبحانه .

وسبق أن قلنا : إننا إذا أردنا أن نختبر جماعة من النساجين فى جودة النسج ورقته لا يصح أنْ نعطى أحدهم خيوط الصوف والآخر القطن والآخر الحرير ، لأن المادة الخام مختلفة فلا نستطيع تمييز الأجود ، بل لابد أن تكون المادة واحدة ليتم التمييز .

فمعنى ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ ﴾ [غافر] أو ﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الدخان] أو ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ۝٢ ﴾ [البقرة] أى : من هذه الحروف تكوَّن القرآن وأعطى سر الإعجاز والتحدى ، لأن الله تعالى هو الذى نطق به وبلَّغه رسوله ﷺ ، وهو رسول أمى لا يعرف القراءة أو الكتابة .

لذلك نطق بالقرآن كما أوحى إليه لم يُغيِّر فيه حرفاً واحداً ؛ لذلك كانت الأمية عيباً وقُبْحاً إلا فى رسول الله كانت شرفاً وميزة ، وكأنه يقول بأميته : أنا لم أتعلم من أحد شيئاً ، وكل ثقافتى من ربى .

كذلك كانت الأمة كلها أمة أمية مُتبدِّية لا تعرف الحضارة ولا يحكمها قانون عام ، ولو كانت أمةُ العرب حينها أمةً متحضرة لقالوا عن الإسلام أنه وَثْبة حضارية ، لكن جاء الإسلام فى جزيرة العرب وهم أمة بدوية ليس لها قانون ولا دستور حكمها إلا قانون القبيلة وعصبيتها ، الحاكم فيها شيخ القبيلة ، بيوتهم على ظهر جمالهم أنَّى وجدوا الكلأ نزلوا وضربوا خيامهم ، وأنَّى وجدوا الماء حلوا بجواره ، فهم غير مرتبطين بوطن ولا مكان .

ناهيك عمَّا كان بينهم من صراع قبلى وحروب تنشب على أيسر الأسباب ، وتعرفون مثلاً حرب داحس والغبراء التى استمرت بينهم أربعين سنة ؛ لذلك لما أراد رسول الله أن يكون للدولة الوليدة جيش ما فتح مدرسة لتعليم فنون القتال والحرب لأنه فى أمة تجيد هذه الفنون إجادةً تامة ، والعربى بطبعه مستعدّ للحرب كلما سمع هَيْعة(١) طار إليها .

إذن : فكيف لمثل هذه الأمة أن تقود العالم كله أن تفتح بلاد الدنيا ، وهى بهذا الوصف ؟

فكأن الله تعالى أراد أنْ يعدهم للسياحة فى الأرض بهدى الله لخلق الله فلم يرتبطوا بشىء ، ثم بعث فيهم رسولَ الله فجعل من العبيد سادة ، ومن رعاة الشاة قادة ومنارات للأمم كلها . إذن : كانت الأمة العربية مُعدَّة لساناً وأمية وبدوية لأنْ تقودَ العالم المتحضر ليعرف الجميع أن ما جاء به محمد ليس من عند البشر ، إنما من عند الله .

---

(١) الهيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . والهيعة : الصوت الشديد . [لسان العرب - مادة : هيع] ومنه حديث رسول الله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة ، وأحمد فى مسنده (٤٤٣/٢) عن أبى هريرة بغير هذا اللفظ .

نعود إلى مسألة الحروف المقطعة ، فنقول : قد تأتى هذه الحروف على حرف واحد مثل (ق ، ص) وعلى حرفين مثل (طس ، حم) وعلى ثلاثة أحرف مثل (طسم ، الم) وعلى أربعة أحرف مثل : (المص ، المر) وعلى خمسة أحرف مثل : (كهيعص) إذن : ليس لها نسق واحد .

وحين نتأمل مجموع هذه الحروف نجده أربعة عشر حرفاً يعنى نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، وكونه يأتى بالنصف بالذات يعنى أنها مسألة مقصودة لم تأتِ هكذا كما اتفق ، ودليل أن هذه الحروف الأربعة عشر تصرفتْ تصرفاً يوحى بأن لها ملحظاً وحكمة ولم تأتِ اعتباطاً ، فهذه الحروف الثمانية والعشرون منها تسعة حروف من أول ألف باء إلى حرف الذال لم يأخذ منها فى الحروف المقطعة إلا حرفين هما الألف والحاء وترك الباقين . وهى سبعة أحرف .

ثم تأمل التسعة الأحرف الأخيرة تجد أن الحق سبحانه أخذ منها سبعة أحرف وترك حرفين على عكس الأولى فأخذ منها : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وترك الفاء والواو . هذه ثمانية عشر حرفاً ، يبقى العشرة الأحرف فى الوسط ، وتبدأ من الراء إلى الغين .

ونلحظ فى هذه الأحرف أنه أخذ الحروف غير المنقوطة وترك الحروف المنقوطة ، أخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

إذن : هذا النظام فى الحروف المقطعة دلَّ على أنها ليست على

نسق واحد ، وأن لها حكمة مقصودة ولم تأت هكذا اعتباطاً ، وعلينا نحن أن نستنبط هذه الحِكَم ونفهم هذه الدلالاتَ كلّ حسب ما تيسّر له ، وما زلنا (نفتش) في هذه الحروف لعلنا نصل .

لكن كونك تبحث عن الحكمة فهذا اجتهاد محمود ، والا أنْ تريح عقلك وتأخذها من الله كما هي كما تأخذ المفتاح مثلاً ممن صنع الطبلة ، فلا يعنيك أن يكون بسنّة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة، المهم أن يفتح لك ، ويكونَ سرّ المفتاح مع مَنْ صنعه .

لكن للعقل أنْ يأنس بأشياء ، كيف ؟

قالوا : الحق سبحانه وتعالى يريد في بيته ثلاثة أمور : عقائد ، وأحكام ، ومادة تؤدي هذه العقائد والأحكام وهي كلامه في القرآن ، وكلٌّ من هذه الثلاثة فيه غيب وفيه مشهد .

فالعقائد وأولها الإيمان بالله وهو غَيْب لكن يمكنك الوصول إليه والاستدلال عليه بالمشاهد من مخلوقاته وعظيم صنعته وهندسته في الكون المرئي ، لأن هذا الكون البديع لم يدَّع أحدٌ خَلْقه ولم ينسبه لنفسه . إذن : هو لله وحده ، إذن نصدق هذا الغيب بالمشاهد ، أما الغيب الذي ليس له مشهد كالصفات التي للحق سبحانه فنأخذها مما نسمع من كلامه سبحانه .

كذلك الفرائض والأحكام فيها مشهد وفيها غيب ، فالصلاة والزكاة والحج والصيام كلها مشهد ، وفيها غيب لا نعرف حكمته حتى الآن ، فالصلاة فيها استطراق عبودية ، والصيام فيه استدامة التكليف ، والزكاة لاستطراق المال في المجتمع ، والحج لإعلان الولاء للبيت الذي هو بيت الله ، هذه أمور تستطيع أنْ تعرفها بالعقل ، لكن

ما الحكمة مثلاً من جَعْل الصبح ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، هذه لا نعرفها .

إذن : مع كل غيب مشهد ، ومع كل مشهد غيب ، كذلك كلام الله تعالى فيه غيب وفيه مشهد ، أما المشهد فهو الكلام الذى نعرفه ونقرؤه ونسمعه ونكتبه ونعرف معناه وتفسيره ، وفيه غيب كما فى (الم ، ن ، ق ، ص) .

فكل غَيْب محروسٌ بمشهد يساعدنا على الإيمان بالغيب ؛ لأن المسائل كلها لو كانت مشهداً ما كان للإيمان مجال ، فنحن الآن أنا وأنتم نجلس مجلسَ علم فى مسجد الشيخ سليمان ، فهل هذا المشهد لنا محل إيمان ، لا بل مشهد . أما الإيمان فمحلّه الغيب ، لذلك قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة]

لكن هذا الغيب لابدَّ أنْ تكون له شواهد من المشاهدة ومقدمة تؤدى إليه ، أرأيتَ مثلاً لرحلة الإسراء والمعراج ؟ هذا غيب لم يَرَهُ أحد غير سيدنا رسول الله ، رحلة الإسراء كانت رحلة أرضية ، ورحلة المعراج كانت رحلة سماوية ، الناس شاهدتْ ما على الأرض من معالم لكن لم تشاهد ما فى السماء .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله أن يقدم لهم دليلاً على صدقه وصف لهم معالم رآها على الأرض فوصف لهم بيت المقدس[1] ،

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦٣/٢) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ فقال : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب . قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ قال : فذهبت أنعت فما زلت حتى التبس علىَّ بعض النعت . قال : فجىء بالمسجد حتى وُضع دون دار عقيل قال : فنعتُّه وأنا أنظر إليه . فقالوا : أما النعت فقد والله أصاب . وأخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٩/١) .

والقبيلة التى رآها مسافرة ومتى ستصل ، وأن بها جملاً صفته كذا وكذا ، فهذه رحلة أرضية من الممكن أنْ يُقام عليها دليل .

وبصدقه ﷺ فيما أخبر من مشاهدات أرضية صارتْ هذه الرحلة مشهداً ووسيلة لتصديق المشهديات المخالفة للقوانين ، فإنْ أخبر أنه صعد إلى السماء فصدَّقوه وخذوا من صدقه فى المشاهَد دليلاً على صدقه فيما غاب ؛ لأن كلَّ غيب كما قلنا محروس بمشهد .

ثم يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

مادة نزل وردتْ فى القرآن بصيغ عدة : أنزلنا ، نزَّلنا ، تنزيل نزل . وكلها تعطى معنى العلو للذى نُزِّل ، وصفة العلو تدل على أن المنزَّل ليس من صُنْع البشر ، وتدل على عظمة المنزِّل ومنزلته ، حتى إنْ كان من جهة الأرض لا من جهة السماء ، كما قال تعالى فى الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الحديد يُستخرج من الأرض لا ينزل من السماء ، فالمعنى : أنزلناه على أنه هبة العالى للأدنى ، ولا بدَّ أن يكون الأعلى أعظم من الأدنى . ونقول ذلك حتى فى الأحكام والقوانين حين نريد أنْ نشرع ونُقنِّن القوانين .

لا تتركوا قوانين الأعلى وتأخذوا بقوانين الأدنى ، لأن المقنِّن الأعلى سبحانه غير المقنِّن من البشر ، فمهما بلغ من العلم والحكمة فلن يخلو من هوى ولن يتنزَّه عن غرض ، فإنْ كان من الأغنياء يُقنِّن للرأسمالية ، وإنْ كان فقيراً قنَّن للشيوعية .

لذلك يُشترط فيمن يُقنِّن ألاَّ يكون له هوىً ، وألاَّ يكون منتفعاً بما يقنن ، وأنْ يكون مـحيطاً بالأمـور كلهـا بحيث لا يسـتدرك عليـه ولا ينسى جزئية من جزئيات الموضوع ، وهذه الشروط كلها لا تتوفر إلا في الحق سـبحـانه ، لذلك لا يجـوز لنا أن نترك قـانون الله وشرعـه ونتحاكم إلى قانون البشر .

لذلك تعرَّض الإسلامُ لحملات ضارية وانتقادات من غير المسلمين كـان آخـرهـا الضـجـة التي أثاروهـا في الفـاتيكان عـلى الطلاق في الإسلام ، لأنهم قننوا لأنفسهم بعدم الطلاق ، لكن الطلاق في الإسلام مَنْ شرعه ؟ الله لا البشر .

إذن : فهـو الصواب وغـيره خطأ ، لأنك لا تسـتطيع أبداً أنْ تديمَ عـلاقة بين زوجـين يكره كل منهـما الآخـر وهو مأمـون عليهـا وهي مأمونة عليه ؟ كيف تحكم عليَّ أن أعيش مع امرأة لا تثير غرائزي .

إذن : شُرِع الطـلاق في الإسلام لحكمـة ، لأن المشـرِّع سبحـانه أعلم بطبائـع الخَلْق ، ومرتْ الأيام وألجأتهم أقـضيـة الحياة ومـشاكل المجتمع لأنْ يُشرعوا هم أيـضاً الطلاق ، ما أباحوه لأن الإسلام أباحه ولا محـبةً في دين الله ولا إيماناً بشـرع الله ، إنما أباحوه لأن الحـياة فرضتْ عليهم قضايا لا تُحلُّ إلا بالطلاق .

وهذه المسألة هي التي أجبنا بها حين سُئلنا في سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ㉝ ﴾ [التوبة]

يقولون : مرَّ على الإســلام أربعة عشر قـرناً من الزمان وما يزال أغلب الناس غيـر مسلمين ، والإسلام ليس هو الدين الغـالب بل مُهدَّد

ومُـحارَب . قلنـا : لو تأملتم معـنى الآية لعرفـتم أن إظهـار الدين لا يعنى أن يـؤمن كل الناس ، إنمـا يظهـر على غـيـره من الشـرائع والقـوانين ويضطر غـيـر المـسلمين لأنْ يأخـذوا بالإسـلام فى حَلِّ قضاياهم ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة] دليلٌ على وجود الـكفار والمشـركين مع وجود الإسـلام .

وكلمـة (الكتَاب) أى : القـرآن ، سماه الله كـتاباً لأنه مـكتوب ، وقرآناً لأنه مـقروء ، أو هو كتاب إيذانـاً بأنْ يكتب ، وهو قرآن إيذاناً بأن يُقـرأ ، والقـراءة إمـا من السطور وإمـا من الصـدور الحـافظة ، وسمَّـاه وحيـاً لأنه أُوحِى به إلى نبيه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم] إذن : لكل تسمية ملحظ .

ولمـا أرادوا جـمع القـرآن اشـترطوا أن تـتوافق فـيـه الصـدور والسطور ، فمـا كتبـوا آية واحدة إلا إذا وجدوها مكتـوبة فى الرقاع وشهـد شاهدان بصحـتها ، ورحم الله سـيدنا الشيخ مـحمد عـبد الله دراز[1] الذى قرن بين هذه المسألة وقوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر] فهذا الكتاب مُنزَّل من عند الله المـتصف بصـفات الـكمال المطلق ، وله سـبحـانه طلاقة قدرة وطلاقـة حكمة وطلاقة رحمة وطلاقة رحـمانية ، وما دام الكتاب جاء ممَّنْ هذه صفاته فـلا يمكن أنْ يستدرك عليه ، وما دام لا

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متـأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر . له كتب منها : الدين - دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى ٢٤٦/٦] .

يستدرك عليه فصدِّقوا الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ③ ﴾ [المائدة]

لذلك نعجب من الذين ينادون الآن بعصرنة الإسلام ، ونقول لهم : بدل أنْ تُعصرنوا الإسلام ديِّنوا العصر .

وصفة (العَزِيز) أي : الغالب الذى لا يُغلب ، وما دام أن هذا الكتاب نزَّله عزيز لا يُغلب ، فلا بدَّ لهذا الكتاب أنْ يعلو وأن يُنشر وأنْ يسمعه الناس لا يغلبه أحد ، لأن مُنزله عزيز ، ولأن الله تعالى ما كان ليبعث به رسولاً ويتركه أو يخذله ، فمهما عاندوا ومهما تكبروا وجحدوا سيغلب هذا القرآن ، ولن يُغلبَ أبداً فى أىِّ مجال من المجالات .

وكأن الحق سبحانه يقول للكفار وعبدة الأصنام : خذوا لكم عبرة مِن واقع الأشياء حولكم ، فمحمد وأتباعه بعد أنْ كانوا مُحاصرين مضطهدين أصبحوا فى ازدياد يوماً بعد يوم ، وأرض الإسلام أصبحتْ فى ازدياد وزيادة أرض الإسلام نقصٌ من أرض الكفر : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ㊶ ﴾ [الرعد]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ⑮ ﴾ [الحج]

يعنى : مَنْ كان يشك فى نصر الله وتأييده فليبحث له عن مسلك آخر وليأت بحبل يُعلِّقه فى السماء ويجعل رقبته فيه ثم ليقطع ،

فلينظر هل يُذهب هذا غيظه ؟ وقد قال الله تعالى في بيان سنته في نصرة رسله وعباده الصالحين : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فالحق سبحانه ما كان ليكبت دينه ، ولا يخذل رسله ، أو يتخلى عن نُصْرة أوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] تعنى : أن عزته سبحانه ليست (فتونة) بلا رصيد ، إنما هى عزة بعلم ، وعزة بحكمة ، وعزة برحمانية ورحيمية ، فله سبحانه كل صفات الكمال المطلق .

ثم يقول سبحانه :

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ (١) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (٣) ﴾

يريد الحق سبحانه ألاَّ ينفصل خَلْقه عنه مهما كثرتْ ذنوبهم وغلبتهم شهواتهم ، يريد سبحانه أنْ يعطفهم إليه ويجمعهم فى ساحته ، لذلك فتح لهم باب التوبة والمغفرة وبسط لهم يَدَ العفو والتسامح ، ثم لوَّح لهم بعصا العقاب حتى لا يغتروا ، وهذا المنهج يعود نفعه على الكون كله وعلى الفرد خاصة ؛ لأن صاحب الذنب لو

(١) الطول : الفضل والغنى والقدرة . [القاموس القويم ١/٤١١] والطَّوْل مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدة إنعامه . [تفسير القرطبي ٨/٥٩٣٩] .

علم أن ذنبه لن يُغفر لتمادى فيه وأكثر وعربد فى الكون وأفسد ، وساعتها سيشقى به المجتمع وخاصة أهل الإيمان .

لذلك كانت هذه الآية من أرْجَى الآيات فى القرآن الكريم كما قال سبحانه فى أواخر سورة الزمر : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وقلنا : إن هذه الآيات وأمثالها لا تتعارض وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] لأن الكفر ليس ذنباً ، لأن الذنب أنْ تخالف أمراً مأموراً به أو منهياً عنه من المشرِّع الأعلى سبحانه ، أما الشرك بالله فهو خروج عن الإيمان أصلاً فلا يُقال له مذنب .

والحق سبحانه كثيراً ما يذكر عباده بمغفرته وقبوله للتوبة حتى لا ييأس أحدٌ من رحمته تعالى ، فقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] لم يقلها الحق سبحانه إلا وهناك مَنْ أسرف على نفسه ويَئس من رحمة ربه ، لأنه بالغ فى الذنوب حتى ظن أنها لن تُغفر .

من هؤلاء وحشىّ قاتل سيدنا حمزة ، لأنه بعد أن قتله أحسَّ بذنبه وعظَم جُرْمه ، وأيقن أنه هالك لن يغفر الله له ، لذلك البعض يقول إنه ذهب لرسول الله يسأله فى هذه المسألة وكذا وكذا ، لكن الواقع أنه كان فى مكة والآية نزلت فى المدينة لكن نُقلت إليه فلما سمعها آمن وأسلم .

ويُروى[1] أن وحشياً قابل النبى ﷺ فقال له ﷺ : ما كنتُ أود أنْ أراك لولا أنك جئت مستجيراً وربى يقول : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ .. ﴿٦﴾﴾ [التوبة]

فقال : وأنا مستجير بك حتى أسمع كلام الله ، فقرأ عليه رسول الله : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]

فقال : لكن الله يقول : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] وأنا لا أضمن أنى أعمل عملا صالحاً ، فقرأ عليه رسول الله هذه الآية : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. ﴿٣﴾﴾ [غافر]

ومن هؤلاء الذين أصابهم اليأس من رحمة الله عياش بن أبى ربيعة ، فيُروى أن سيدنا عمر رضى الله عنه لما أراد أن يهاجر اتفق

---

(١) روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى ﷺ قال فقال : يا محمد اتيتك مستجيراً فاجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت احب ان اراك على غير جوار فاما إذ اتيتنى مستجيراً فانت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى اشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] إلى آخر الآية فتلاها عليه ، فقال : ارى شرطاً فلعلى لا اعمل صالحاً ، انا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء] فدعا به فتلاها عليه . قال : فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى اسمع كلام الله . فنزلت ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر] فقال : نعم الآن لا ارى شرطاً ، فاسلم . أورده القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) .

مع عياش[1] وهشام بن العاص بن وائل السهمى [2] على أن يهاجروا معاً وأن يجتمعوا عند بئر غفار ، فإذا حُبس واحد منهم انتظروه ، فلما جاء الموعد لم يأتِ عياش حيث حبسه أهله عن الهجرة ثم فتنوه ففُتن ولم يهاجر مع صاحبيه ، فحصل له يأس من رحمة الله [3] .

فلما نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] تذكر عمر صاحبه عياشاً الذى فُتن وتذكر أنه التقى معه على الإيمان فى يوم ما ، وأنه كان ينوى الهجرة إلا أن أهله فتنوه فرقَّ له قلبه وبعث إليه بهذه الآية ليطمئن ويعود إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : الذى سلف ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : عن المعصية التى استقبلها ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] لحكمة يقرن الحق سبحانه بين المغفرة والعقاب حتى لا يتواكل الناس وحتى لا يغتروا برحمة الله ، فالدين يقوم على الخوف والرجاء ، وهما كالجناحين للطائر لابدَّ منهما معاً ﴿ذِى الطَّوْلِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] كما تقول يعنى (إيده طايلة) يفعل ما يشاء ، فالله ذو الطوْل

---

(١) اسمه عمرو ويلقب ذا الرمحين وهو ابن عم خالد بن الوليد . كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة وحبسوه وكان النبى ﷺ يدعو له فى القنوت . مات سنة ١٥ هـ بالشام فى خلافة عمر وقيل استشهد باليمامة وقيل باليرموك . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/٤٧] .

(٢) كان هشام بن العاص يكنى أبا العاص فكنّاه النبى ﷺ أبا مطيع . كان قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة . ذكره أصحاب السير فيمن استشهد بأجنادين . وذكر الواقدى أن هشاماً كان رجلاً صالحاً فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص فألقى المغفر عن وجهه وجعل يتقدم فى نحر العدو ويصيح : يا معشر المسلمين إلىَّ إلىَّ أنا هشام بن العاص أمن الجنة تفرون ؟ حتى قتل . [راجع الإصابة ٦/٢٨٦] .

(٣) ذكر ابن حجر العسقلانى هذا الخبر فى الإصابة (٦/٢٨٦) وقال : أخرج ابن السكن بسند صحيح عن عمر . وذكره .

أى صاحب الفضل والإنعام يعطى ويتفضَّل بما يشاء على مَنْ يشاء لا يردّ عطاءه أحدٌ ، لذلك ورد في الدعاء : « لا معطى لما منعْت ، ولا مانع لما أعطيت » .

فإذا قال الحق سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ﴾ [غافر] فهمنا من كلمة تنزيل عُلو المنزل والواسطة المنزل إليه والمنزل إليهم ليكون منهجاً لحركة حياتهم ، وهذا العلو إنما نشأ لأن المنزل كتابٌ من الله واجب الوجود الذى له الكمال المطلق فى قولنا لا إله إلا الله والله أكبر من كل شىء التى فسرناها فى قوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۝ ﴾ [الزمر]

فلا إله إلا الله مقلاد ، والله أكبر مقلاد ، وسبحان الله مقلاد ، وبحمده مقلاد ، ونستغفر الله مقلاد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مقلاد ، وهو الأول مقلاد ، وهو الآخر مقلاد ، وهو الظاهر مقلاد ، وهو الباطن مقلاد ، بيده الخير مقلاد ، وهو على كل شىء قدير مقلاد . ولن تجد شيئاً فى كَوْن الله يخرج عن هذه المقاليد أبداً ، وكل شىء فيها إنما هو بيد الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ۝ ﴾ [الأنعام]

وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه ، فقال ﴿ الْعَزِيزِ ۝ ﴾ [غافر] أى : عن خَلْقه . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه إشارة إلى أنه إذا أنزل اللهُ كتاباً على رسول فلن يوجد مَنْ يقف أمام هذا الكتاب لأنه غالبٌ لا يُغلب ، وقوله ﴿ الْعَلِيمِ ۝ ﴾ [غافر] أى : يضع الأشياء فى أماكنها بما يعلم أنها تؤدى مهمتها بصلاحها .

وبعد ذلك طمأن خَلْقه الذين أسرفوا على أنفسهم فى بعض الأشياء ، فذكر التخلية فى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ۝ ﴾ [غافر]

ولكنه سبحانه مع غفرانه للذنب وقبوله للتوب ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ ﴾ [غافر] فجمع فى هذه الآية صفات جلاله كلها وصفات جماله كلها .

ونفهم من (لا إله إلا هو) أنه لا استدراك لأحد على شيء من قوله ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ ﴾ [غافر] فلا مرجع ولا مردَّ إلا إليه.

ثم يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ④ ﴾

الرسول ﷺ جاء رسولاً من عند الله بما يُخرج الجاهلية إلى مقام العلم عن الله ، وبذلك تتطهر حركة حياتهم من كل ما يعطى فى الكون ذبذبة أو كلّ ما يعطى فى الكون تعانداً حتى يصير الكون كله متسانداً متعاضداً ، بحيث لا يبنى واحد ويهدم الآخر ، فيقول سبحانه : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ④ ﴾ [غافر].

الجدل : إبرام الشيء إبراماً حقيقياً بحيث يستحيل أنْ ينقض ، وهذه المسألة مثل عملية فَتْل الحبال عندنا فى الفلاحين ، حيث يأخذ الرجل شعيرات التيل المعروف ويظل يبرم فيها ، إلى أنْ تتداخل الشعيرات وتتماسك وتتداخل ، لذلك نرى الحبل قوياً متيناً .

وسُمِّى المراءُ بين الناس جدلاً ، لأن كل واحد من الطرفين يريد أن يُحكِّم منطقه وحجته ليغلب الآخر ، فكلٌّ منهم يجادل لحساب نفسه ، صاحب الحق يجادل لإظهار حقه ، وصاحب الباطل يجادل ليُحقَّ باطله . أى : يُظهره فى صورة الحق .

لكن هل الجدل مذموم فى ذاته ؟ لا ، لأن الجدل بحسب الغاية منه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فدلَّ ذلك على أن فى الجدل ما هو حسن وأحسن ، والجدل الحسن هو الذى يسعى لإيجاد الحجة على أن الحق حق والباطل باطل[1] ، فإنْ كان العكس فهو جدل باطل مذموم .

لذلك نفهم من قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤﴾ ﴾ [غافر] أن هذا هو الجدل الباطل لأن الجدل يكون عنها لا فيها ، يجادل عنها أى : يدافع عنها ليثبت صدقها ويُظهر الحق الذى جاءتْ به ، أما يجادل فى الآيات . أى : يحاول التشكيك فيها وتكذيبها .

وقلنا : إن آيات الله على ثلاثة أنواع ، وهذه هى التى يحدث فيها الجدل : الآيات الكونية التى تشهد بوجود الخالق الأعلى سبحانه ، والآيات البينات المعجزة التى تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، والآيات القرآنية التى تحمل الأحكام .

فالآيات الكونية التى تثبت قدرة الله الخالق الأعلى سبحانه هى التى نشاهدها فى الأرض وفى السماء ، فى الشمس والقمر والنجوم والماء والهواء .. الخ وهذه الآيات أوجدها الخالق سبحانه على هيئة الصلاح ، وعلى قانون ثابت لا يتخلف ، ولا دَخْلَ للإنسان فى حركتها .

وسبق أنْ قلنا : إن الفساد فى الكون يطرأ من تدخل الإنسان وامتداد يده إلى مخلوقات الله بغير قانون الله الذى خلق ، ولو تدخَّل الإنسان فى الأشياء بقانون الخالق ما رأينا هذا الفساد الذى يعمّ الكون الآن ؛ لذلك يوضح لنا الحق سبحانه هذه القضية ، فيقول :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٩) : « أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشاكلها ومقادحة أهل العلم فى استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله » .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]

والمعنى : أن الحق سبحانه خلق الأرض على هيئة الصلاح ، فإياكم أنْ تفسدوها ؛ لذلك يرجع الحق سبحانه الفساد الحادث فى الأرض إلى الناس ، فيقول : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]

نعم ، لوَّثنا المياه وألقينا فيها النفايات والمخلَّفات فماتت الأسماك وظهرت الأمراض ، أفسدنا الهواء وأفسدنا التربة الزراعية .. الخ ذلك لأننا تدخَّلنا فى مخلوقات الله بغير قانون الله ، وبغير منهج الله الذى وضعه لصلاح الكون .

لكن أىّ هذه الآيات الثلاث يجادل فيها الكافرون ؟ بالطبع هم لا يجادلون فى الآيات الكونية ولا يتعرضون لها ، لأنهم أولاً ينتفعون بها ويرونَ فيها نظاماً دقيقاً محكماً لا يشذّ ولا يتخلف ، فلا مجالَ إذن للجدل فيها . إنما يجادلون فى الآيات الأخرى فى آية المعجزة ، وفى آيات الكتاب حاملة الأحكام فيُشككون فيها .

أما المعجزة فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : اعتراضهم هنا ليس على القرآن فى ذاته إنما فى مَنْ أنزل عليه ، فالقرآن فى نظرهم لا غبارَ عليه لولا أنه نزل على محمد ، لكن كفرهم يُوقعهم فى التناقض فيقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ

---

(١) اختلف فى تحديد هذا الرجل الذى كان يريدون نزول الوحى عليه . فقيل : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى ، وقيل : عتبة ابن ربيعة . وقيل : حبيب بن عمرو الثقفى . أما القريتان فهما مكة والطائف . قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٧/٤) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

عندكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان المفترض بالعقل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه ، فهذا دليل على شكِّهم في القرآن وعدم تصديقهم لما جاء به ؛ لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦) ﴾ [فصلت]

وتأمل هنا النهي عن مجرد السماع للقرآن ، لماذا ؟ لأنهم عرب ولهم فطرة لغوية وخبرة بالأداء والبيان ، فلو استمعوا للقرآن لابدَّ أنْ يتأثروا به ، وكل من استمع القرآن بقلب خَالٍ من ضده لابد أنْ يقتنع به ، وإلا فلماذا كان نهيهم عن مجرد السماع ؟

لذلك لا يكتفون بالنهي عن السماع بل يُشوِّشون عليه حتى لا يتمكن السامع من السماع ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦) ﴾ [فصلت] هذا دليلٌ على أن القرآن لو تُرك ليصل إلى الآذان لابدَّ أنْ ينفذ إلى القلوب فيعمرها ويلفتها إلى الحق إنْ كان الذهن خالياً من الباطل ، فإنْ كان القلب مشغولاً بعقيدة مخالفة لا يتأثر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وقال فيمَنْ يؤثر فيه سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) ﴾ [التوبة]

فإنْ قلتَ : كيف يكون للشيء الواحد أثران متضادان ؟ نقول : لأن القابل للفعل مختلف ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالنفخ في الأيدي للتدفئة في البرد ، والنفخ في كوب الشاي الساخن ليبرد ، فالنفَس واحد لكن القابل للنفَس مختلف ، ولا شكَّ أن حرارة النفَس

أقلُّ من حرارة كوب الشاى ، لكنها أشدُّ من الحرارة فى الأيدى وقت الشتاء ، كذلك يختلف أثر القرآن بالنسبة للسامع .

لذلك ينبغى عند سماع القرآن ألاَّ توجد حُجب تحجبه عن القلب ، والحق سبحانه وتعالى يمنع لغط الجماهير فى الجدل البيانى ، ففى الضوضاء تختلط الأصوات وتتداخل ، وتُستر عيوب الشخص فى الآخرين ، وهذا يحدث مثلاً فى المظاهرات فلا نستطيع أن نسند الصوت إلى صاحبه ، وهذه المسألة توضح لنا الحكمة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : ما الميزة فى علم الجهر والجميع يعلمه ، فلماذا يمتنّ الله بعلمه ؟ نقول : قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] دلَّ على أن الجهر أيضاً من الجماعة بمعنى : ويعلم ما تجهرون ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم كلَّ صوت ويعلم صاحبه ، ويميز الأصوات ويردها إلى أصحابها ، وهذه العملية فى ذاتها أصعب من علم الكتمان .

ومن جدالهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه ساحر وكاهن ، وقولهم عنه شاعر .. الخ وهذه أقوال باطلة مردودة على أصحابها والرد عليها يسير ، فلو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أيضاً كما سحرهم ؟

إذن : بقاؤكم على حالتكم هذه دليلٌ على كذبكم فى هذا الاتهام ، أما كاهن فما جربتم عليه قبل ذلك شيئاً من الكهانة ، ولا سمعتم منه كلاماً كالذى يقوله الكهان .

والأعجب من ذلك أنْ يتهموا رسولَ الله بأنه شاعر ، وأن ما يقوله شعر ، وهم أمة الشعر وفرسان هذا الميدان ، وهم أدرى الناس

به ، ومَنْ كان عنده أدنى دراية باللغة يستطيع أنْ يُفرِّق بين الشعر والنثر وأن يتذوَّق كلاً منهما ويشعر به إذا انتقل مثلاً من الشعر إلى النثر ، أو من النثر إلى الشعر .

فحين تقرأ مثلاً : هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه الجفوة غمرة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدى أنْ أبطأ سيبه أو أخطأ غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مَشياً أحفلها ، ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

فإنْ يكُنْ الفعْلُ الذِى سَاءَ وَاحِداً فَأفْعَالُه اللاَّئِى سُرِرْنَ أُلُوفُ[1]

لابدَّ إذن أن تفرق ههنا بين الشعر والنثر ، فكيف بهم وهم أمة البلاغة والفصاحة ، الأمة التى جعلت للحكمة أسواقاً ومعارض ، ومع ذلك لا يفرِّقون بين الشعر والقرآن .

القرآن ليس شعراً ، بل هو نسيج فريدٌ وحده ، واقرأ مثلاً : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

هكذا كلام نَثْر كله لا تشعر فيه بشيء من الشعر ، ومع ذلك لو

---

(١) البيت لابن نباتة المصرى ، وهو محمد بن محمد أبو بكر جمال الدين ، أصله من ميا فارقين ومولده ووفاته في القاهرة ، ولد ٦٨٦ هـ وتوفى ٧٦٨ هـ كان صاحب سر السلطان الناصر حسن . له ديوان شعر . والبيت من قصيدة من بيتين من بحر الطويل [الموسوعة الشعرية] .

(٢) أكبرت الشيء أى : استعظمته . أكبرنه : أعظمنه . [لسان العرب – مادة : كبر] قال في القاموس القويم للقرآن الكريم (٢ / ١٥٠) : « أكبر الشيء : عدَّه كبيراً أو عظم تأثره به فرآه كبيراً » .

أخذت مثلاً : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف] لوجدتها على وزن من أوزان الشعر ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر] لو حوَّلتها إلى تفعيلات تعطيك بحراً من بحور الشعر ، لكن لا تشعر أبداً أنك انتقلتَ من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ، ذلك لأن القرآن كما قلنا نسيج وحده .

لذلك قلنا : إن كماله لا يتعدى إلى غيره ، فالفقيه الحافظ للقرآن تجده يجيد القراءات السبع ، ومع ذلك لا يجيد كتابة خطاب ، ونحن ننصح الطلاب بقراءة كتب الأدب مثل كتب المنفلوطى أو العقاد مثلاً ليستقيم أسلوبهم ويتمكنوا من الكتابة والتعبير السليم ؛ ذلك لأن القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، أما كتب الأدب فتتعدَّى إلى الأسلوب وتحسنه ، القرآن يظل كماله فى ذاته .

وكان من جدالهم فى آيات الله أنْ قالوا عن رسول الله : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] وحددوا شخصاً بعينه[1] ، لكن ردَّ عليهم القرآن بما يعنى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

ثم قالوا : مجنون ، وعجيب منهم أن يتهموا رسول الله بالجنون وهم يعلمون أدبه وخلقه قبل بعثته ، وصاحب الخلق الكريم لا يكون أبداً مجنوناً ، لكن هذه كلها شبهات المفلسين الذين لا يجدون حجة تقدح فى رسالة محمد ، فماذا يقولون غير هذا التخبّط الأعمى ؟ هذا جدل فى شخص رسول الله ، وكانوا يقولون : ابن أبى كبشة ، لكن

---

(١) كان رسول الله يُعلم قيناً (حداداً) بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٦) .

هيهات أنْ تنال هذه الافتراءات من شخص رسول الله .

ثم يجادلون فى أحكام الله ، فيقول مثلاً : لم يحرم الله الميتة ؟ وكيف أن التى ماتت وحدها يعنى أماتها الله مُحرَّمة ، والتى تميتها أنت - أى : بالذبح - مُحلَّلة ؟ يعنى فى نظرهم أن الموت واحد ، فلماذا تحرم هذه وتحلّ هذه ؟

وهم يعترضون على آيات الأحكام لأنها تأتى عامة لا تفرق بين السادة والعبيد ، فالحكم واحد للجميع وهم قد ألفوا السيادة .

وقوله : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٤)﴾ [غافر] أى : ستروا واجب الوجود الأعلى الذى خلقهم وخلق الكون كله من حولهم ، بدليل إقرارهم هم بذلك فى الآيات الكونية : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فهم وإنْ كانوا يؤمنون بهذه الآيات الكونية إلا أنهم كفروا بخالقها سبحانه ، وستروا الواجب الأعلى الذى ينظم حركة الحياة لخَلْقه جميعاً بحيث تتساند حركة الحياة ولا تتعاند لتظل عمارة الكون التى أرادها الخالق سبحانه .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة كفروا فى ذاتها دليل الإيمان ، لأن الكفر يعنى الستر والستر يقتضى مستوراً ، فالمستور إذن وُجد أولاً قبل الساتر ، وما دام ستروا بالكفر وجودَ الله ، فالأصل أنه موجود .

وقوله : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)﴾ [غافر] أى : لا يخدعنَّك أن لهم فى البلاد سيادة وتمكيناً وعلواً ومهابة ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض لهم فى تقلّبهم من مكان لمكان ، وفى أسفارهم فى رحلة الشتاء والصيف .

ولو أنهم عرفوا حقيقة هذه المكانة ، ومَنْ الذى بوّأهم هذه المنزلة

ما وقفوا منك يا محمد هذا الموقف ، لقد أخذوا هذه المهابة ونالوا هذه المنزلة لجوارهم لبيت الله ، والله هو الذى أرسلك إليهم ، فكان عليهم أنْ يؤمنوا بك وأنْ يُصدقوك .

وكلمة (تَقَلُّبهم) تدل على حركتهم وانتقالهم من مكان لآخر ، وتدل على قوة الأبدان ؛ لذلك كانت كل قبائل العرب تهابهم ، جاءت هذه المنزلة لقريش من موسم الحج ، حيث تأتى إليهم كل القبائل من جزيرة العرب فتكون فى حماية قريش فى الموسم ، ومن هنا أمنوا فى تنقلاتهم وكان عليهم أنْ يراعوا هذه النعمة ، لكنهم جحدوا بها فصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

كيف ذلك ؟ اقرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[1] مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

تعرفون قصة أبرهة لما جاء ليهدم الكعبة ليصرف الناسَ عن بيت الله ويبنى كعبة أخرى فى صنعاء يحجّ الناس إليها ، وتعرفون ما كان مِن أمر هذا الجيش ، وكيف ردّه الله بقدرته حتى قيل إن الفيل الضخم الذى كان يتقدم الجيش توقف عن السير نحو الكعبة ، فى حين يسير فى أيِّ اتجاه آخر وأن أحدهم اقترب من الفيل وقال له : ابرك محمود وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام[2] . فانصرفوا بعد أنْ أمطرهم الله

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٥٠) أن نفيل بن حبيب اقترب من الفيل حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك الفيل مكانه .

بحجارة من سجيل ، وهزمهم بقدرته تعالى . المهم ماذا قال سبحانه بعد هذه السورة مباشرة ؟

قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ ﴾ [قريش] فكأن في بقاء الكعبة بقاءً لسيادة قريش ، وبقاءً لأمنها وسلامتها بين القبائل العربية ، فأبقى الله لهم بذلك أنْ يألفوا رحلة الشتاء والصيف .

إذن : العلة من ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل] جاءت في ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش]

وإلا لكانَ لك أن تتعجب من أول السورة : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] وتسأل عن العلة ، فإنْ فصلتَ العلة هنا عن المعلول ، فجاء كل في سورة إلا أنهما في نسَق واحدَ ، وسبق أن أوضحنا أن سور القرآن كله قائمة على الوصل فتقرأ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش]

فإنْ قلتَ : لماذا لم تأت في سورة واحدة ؟ لماذا جاءت العلة في سورة والمعلول في سورة أخرى ؟ قالوا : الفصل بين الشيء وسببه ليكون الشيء له حكم ، والسبب له حكم .

إذن : جعلهم كعصف مأكول لئلا تزولَ الكعبة ولو زالت الكعبة لزالتْ سيادة قريش ومهابتها ، فأبقى الله لهم السيادة والمهابة ليتنقلوا بين الشمال والجنوب لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، وسوف يترتب على ذلك قوام حياتهم فيطعمهم من جوع ، ويُؤمّنهم من خوف ، يُطعمهم بالتجارة وحركة البيع والشراء ، ويُؤمنهم بألاَّ يتعرض لهم أحدٌ بسوء .

ثم يوضح علة ذلك فيقول : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] فهم يتقلبون فى نعمة الله ، وكان عليهم ألاَّ يكفروها .

فقوله تعالى : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)﴾ [غافر] لأن الله تعالى لم يهملهم إنما فقط يمهلهم . فإنْ قلتَ : فما حكمة الإمهال ؟ يعنى : ما دام أن الله تعالى لم يهملهم ، فلماذا لم يأخذهم من البداية ؟

قالوا : لأن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ خاتم الرسل وجعل دينه خاتم الأديان ومهيمناً على الزمان والمكان ، فلا نبيَّ بعده وللرسول مدة ينتهى فيها دوره فى الحياة ، وينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ثم يحمل رسالته من بعده جنود الحق الذين محَّصتهم الشدائد .

لذلك قلنا : إن صناديد الكفر الذين عذَّبوا المسلمين الأوائل واضطهدوهم كانوا فيما بعد من جنود الإسلام ، لماذا ؟ لأن هذا الاضطهاد وهذا التعذيب هو الذى محَّص المسلمين وأبعد ضعاف الهمة وضعاف الإيمان الذين فتنهم التعذيب ، وأرهبهم الاضطهاد حتى لم يَبْقَ فى ساحة الإيمان إلاَّ الأقوياء الجديرون بحمل هذه الرسالة وتحمُّل تبعاتها ، لأنها رسالة خالدة باقية فى الزمان والمكان كله .

فالحق سبحانه ما أهمل الكفار إنما أمهلهم لمهمة ، هى أنهم سيساهمون فى تربية هذا الجيل الذى سيحمل دعوة الله : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب]

هؤلاء هم الجيل المحمدى الذى حمل راية الإسلام ، وساح بها

في كل الأنحاء لا ينتظر على ذلك أجراً مُقدماً إنما ينتظر الأجر من الله في الآخرة .

وهذا هو الفرق بين دعوة الحق ودعوة الباطل ، فأهل الحق لا ينتظرون أجراً مقدماً ، أما أهل الباطل فيأخذون أجرهم قبل البدء في العمل ، لذلك كل رسل الله قالوا هذه الكلمة : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾ [الشعراء]

نعم أجرهم على الله لأنه غالٍ لا يقدر عليه إلا الله ، فلا أحد يستطيع أنْ يجازي الرسولَ على رسالته في هداية قومه ولو أعطاه مال الدنيا كلها .

والتقلُّب في البلاد أي : التنقُّل من مكان لمكان فيها لا يتم إلا بعدة أشياء أهمها : سلامة الأبدان لتحمُّل مشقة السفر ، ثم الأمن من خوف الطريق ، ثم وجود كفايات له في المنازل التي ينزل فيها في طريقه ، لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) ﴾ [النحل]

يعني : في أوْج قوتهم وتمكّنهم من الحركة والتنقل يأخذهم الله بالعذاب ، هذا لون من الأخذ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ .. (٤٧) ﴾ [النحل] أي : يخيفهم أولاً ويفزعهم قبل أنْ يأخذهم وهذا لون آخر ، كالذين نزلت بهم الصاعقة فأفزعتهم قبل أنْ يحلّ بهم عذاب الله ، هذان لونان من أخْذ الله للكافرين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ(١) وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ ﴾

المعنى : أنهم ليسوا بدعاً في الوجود ، كما أنك لستَ بدعاً في الرسل ، فقد سبقك إخوانك من الرسل فكُذِّبوا كما كُذِّبك قومك ، لكن ماذا كانت نتيجة التكذيب ؟ أبعث الله رسولاً وتركه وأسلمه ؟ كلا والله بل سُنَّة الله في رسله أنْ ينصرهم وأنْ يخذل أعداء دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣ ﴾ [الصافات]

وهذا ليس كلاماً نظرياً نُسليك به يا محمد ، إنما له واقع وله نظائر تؤيده في موكب الرسالات ، كما قال سبحانه عن المكذِّبين : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت] أي : ريحاً ترميهم بالحجارة المحمية ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت] وهم قوم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت] كما خُسف بقارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت] كما فعل بقوم نوح وبقوم فرعون .

---

(١) ليأخذوه : أي ليحبسوه ويعذبوه . وقال قتادة والسدي : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤ ﴾ [الحج] [تفسير القرطبي ٥٩٤٠/٨] .

فسُنة الله فى الرسالات أنْ ينصر رسله وأنْ يهزم عدوه ، لذلك قلنا : إذا رأيتَ الأمة الإسلامية تنهزم فى معركة ، فاعلم أنه اختل فيها شرط الجندية لله ، ولو بقيتْ على شرط الله فى الجندية ما انهزمتْ أبداً .

فقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. ⑤ ﴾ [غافر] أى : قبل قومك الذين كذبوك (قوم نوح) وهذه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، فليس التكذيب للرسالات شيئاً جديداً ، واختار قوم نوح بالذات لأن رسالة نوح عليه السلام كانت أطولَ رسالة ، حيث لبث فى دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كل هذا العمر الطويل وهم يجادلون رسول الله نوحاً ويكذبونه ويعاندونه ، لذلك يئس من صلاحهم ودعا عليهم : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ㉖ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ㉗ ﴾ [نوح]

أما القلة التى آمنتْ معه فقد دعا لهم حيث بدأ بنفسه : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ .. ㉘ ﴾ [نوح] ثم ﴿ وَلِوَالِدَيَّ .. ㉘ ﴾ [نوح] لأنهما سببُ وجودى ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا .. ㉘ ﴾ [نوح] وهم ما لهم صلة به ، ثم لعامة المؤمنين والمؤمنات ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ㉘ ﴾ [نوح]

إذن : ذكر تكذيب قوم نوح بالذات لأنه العمدة فى هذه المسألة وهو الأوضح والأعنف ، ولا تخفى عليكم المواقف التى تعرَّض لها نوح عليه السلام من تكذيب قومه وإيذائهم له واستهزائهم به ، وهو

---

(١) الديَّار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما فيها أحد . قال نوح فى دعائه : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ㉖ ﴾ [نوح] أى : لا تذر أحداً منهم حياً [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

يصنع السفينة[1] .

وقوله : ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ .. ۝٥ ﴾ [غافر] المراد عاد قوم هود عليه السلام وثمود قوم صالح عليه السلام ، وهذا ليس كلاماً نظرياً بل هو واقع يرونَهُ ويمرون بهذه الديار الخربة : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨ ﴾ [الصافات]

إنهم يمرون فى أسفارهم بالأحقاف وبمدائن صالح ، وعندنا فى مصر آثار الفراعنة كلها تشهد بصدق الله فى هذا البلاغ ، وها هى أكثر دول العالم تقدماً الآن وحضارة تقف عاجزة أمام حضارة الفراعنة ، وكيف أنهم وصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم منذ أكثر من سبعة آلاف عام ، ومع ذلك فاتتهم هذه الحضارة لأنهم لم يصلوا إلى الحد الذى يصونها لهم .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر]

يعنى : القضية لم تنته عند عاد وثمود وقوم فرعون ، بل هى عامة فى كل مكذِّب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر]

والأحزاب : هم الذين يتحزَّبون ويجتمعون على مبدأ واحد ، والمراد هنا الذين يتحزَّبون ضد الدعوة وضد الهداية ويُسمونهم لذلك حزب

---

(١) يقول تعالى فى هذا : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ۝٣٨ ﴾ [هود] فكانوا يقولون له : أأصبحت نجاراً ؟ ولأى شىء تصنع سفينة فى أرض ليس بها ماء أتمشى على اليابسة ؟ ونحو هذا من عبارات الاستهزاء به والسخرية منه .

الشيطان ويقابله حزب الله ، وهم الذين يؤيدون الرسل وينصرون دعوة الحق .

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. ۝٥ ﴾ [غافر] أى : ليقتلوه ، وهذه المسألة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ .. ۝٣٠ ﴾ [الأنفال] أى : يحبسوك أو يقيدوك فلا تتحرك هنا وهناك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [الأنفال]

والكلام هنا أنهم هَمُّوا بذلك لكن لم يفعلوه ولم يقدروا عليه ، فكلمة (هموا) تعنى تَوجُّهٌ وهَمٌّ مراد لم يحدث على الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى فى الطائفتين فى غزوة أحد : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا .. ۝١٢٢ ﴾ [آل عمران] لكن لم يحدث الفشل ، فالهَمُّ شغْلُ القلب بفعل الشيء ، لكن لا يحدث الفعل . لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. ۝٧٤ ﴾ [التوبة]

إلا الهم الذى كان من سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن المسألة هنا تتعلق بعصمة نبى كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. ۝٢٤ ﴾ [يوسف] البعض يُحمِّل هذه الآية معانى لا تليق بعصمة نبى الله يوسف ، يقول : كيف يَهِمّ بها وهو نبى ؟

قلنا : الهم تعلُّق الخاطر بالفعل أو تعلّق استجابة الجارحة للفعل ، لكن ينفعل أو لا ينفعل هذا هو المهم ، والآية فيها هَمَّان ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. ۝٢٤ ﴾ [يوسف] ثم سكوت ، ثم ﴿ وَهَمَّ بِهَا .. ۝٢٤ ﴾ [يوسف] لاحظ أن همَّها هى لم تَنَلْ منه شيئاً لذلك قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۝٣٢ ﴾[يوسف]

هذا دليل على أن همّها هى لم يأتِ بنتيجة ، فكيف لا يأتى الهَمّ

معها بشىء مع عصيانها ، ثم يأتى الهَمّ بشىء مع يوسف ؟ إذن : همتْ به ولم يحدث شىء وهى المريدة ، كذلك وهَمَّ بها ولم يحدث شىء لأنه لا يريد .

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى استخدام نون التوكيد الثقيلة فى ﴿ لَيُسْجَنَنَّ .. (٣٢) ﴾ [يوسف] ونون التوكيد الخفيفة فى ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف] لأن السجن أمر فى يدها وبأمرها يُسجن يوسف ، فاستخدم نون التوكيد الثقيلة الدالة على التمكُّن من الفعل ، أما أنْ يكون من الصاغرين فهذا أمر ليس بيدها فلربما سجنته وعطف عليه الحراس وأكرموه ، فاستخدم هنا نون التوكيد الخفيفة لعدم تمكُّنها من هذا الفعل .

والجواب الذى نحسم به مسألة الهم فى هذه القصة ونوضح به براءة سيدنا يوسف مما يقوله عنه المفترون نقول : ولقد همت به ، نعم أأدتْ هذا الهم أم لم تُؤده ؟ لم تُؤدِّه بدليل قولها ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ .. (٣٢) ﴾ [يوسف] ﴿ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] نعم هَمَّ ولم يفعل بنفس الدليل السابق ، فلماذا تحرصون على إلصاق التهمة بنبى الله وهمّه كهمّها لم يأتِ بشىء .

ثم إن الهَمَّ منه هنا أمر طبيعى لأنه استعداد الطبيعة للوقوع فى هذا الفعل ، يعنى : هو أمر ممكن بالنسبة له عليه السلام ، فطبيعته صالحة لأنْ يفعل وإلا لقُلْنا إنه حَصُور ليس له فى هذا الأمر ، لا بل هو صالح له قادر عليه ، فما الذى منعه إذن ؟ نقول : منعه ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

أى : فى أن هذا حرام . كما تقول : أزورك لولا أن فلاناً عندك ، فالمعنى أننى لم أَزُرْكَ ، إذن : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..

﴿ ٢٤ ﴾ [يوسف] يعنى : هَمَّ ولم يفعل فالحكم هنا براءة ليوسف عليه السلام حتى من الهَمِّ .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. ٥ ﴾ [غافر] حدث ذلك لكنهم لم يفعلوا ولم يأخذوه ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. ٥ ﴾ [غافر] أى : يزيلوا ويهزموا الحقَّ بالباطل ، فماذا كانت النتيجة ؟ ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ .. ٥ ﴾ [غافر] أى : أهلكتُهم بالفعل لا بالهَمِّ كما فعلوا هم ، وهذا ما يليق بالقدرة العليا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ ﴾ [غافر] يعنى : هل عرفنا ؟ هل قدرنا على عقابهم ؟

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ٣٢ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ٣٣ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦ ﴾ [المطففين]

يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم على أفعالهم وإجرامهم ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أن ينبه أهل الإيمان ، وأن يطمئنهم إلى عدله سبحانه ، فلن يفلت هؤلاء من العقاب ، ولا شكَّ أن عقاب أهل الإجرام وأهل الكفر يريح أهل الإيمان .

وتأمل هنا أيضاً دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ.. ٥ ﴾ [غافر] ولم يقُلْ برسولها قياساً على أن الأمة مفرد مؤنث ، إنما قال ﴿ بِرَسُولِهِمْ .. ٥ ﴾ [غافر] فأضاف الرسول إلى جمع المذكر ، ذلك لأن المواجهة بين الإسلام والكفر كانت بالرجال ولم تكُنْ المرأة طرفاً فى هذه المواجهات بدليل أنهم لما بيَّتوا لرسول الله ليلة الهجرة كانوا جميعاً من الرجال ولم يكُنْ بينهم امرأة

واحدة ، كذلك الحال فى ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. (٥) ﴾ [غافر] فهذه أمور لا دخْلَ للمرأة فيها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦) ﴾

(حقَّتْ) أى : وجبتْ وثبتت ولم يأت واقع لينقضها ، لماذا ؟ لأن الذى قالها يعلم ما يكون بعدها ، وخاصة إذا كان الذين يعملون لهم اختيار فى أنْ يعملوا أو لا يعملوا .

فالله تعالى قالها وحكم بها عليهم وهم فى بحبوحة الدنيا وفى زمن الاختيار ، ومع ذلك لم يخالفوها ، وهنا موضع العظمة فى كلام الله ، العظمة أنْ أتحداك فى أمر لك فيه اختيار ، ومع ذلك لا تخرج عما حكمت عليك به .

ومثل هذا قلناه فى قوله تعالى في شأن أبى لهب وزوجته : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا [1] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

فالحق سبحانه وتعالى حكم عليهما بالكفر ، وأن مصيرهما النار مع أن الإيمان والكفر أمر وكَلَ اللهُ اختياره للعبد بدليل أن أمثال أبى لهب من كفار مكة أسلموا مثل : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة وغيرهم ، وكان فى إمكان أبى لهب بعد أن نزلت هذه السورة أنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يقولها ولو نفاقاً ، لكن لم يحدث

(١) جيدها : عنقها . والمسد : حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو من أى شيء كان . [لسان العرب - مادة مسد] .

وصدق فيه قول الله تعالى .

وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه في قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فقلبه يُحدِّثه بالشيء إنما العظمة الإلهية تحوله عنه .

لذلك قال تعالى لأم موسى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص] فالقياس العقلى لا يقبل هذا الحل وأى عاقل يقول : إن المرأة إذا خافت على وليدها تلقيه فى البحر ؟ لكن هنا أم موسى لم تسمع لصوت العقل ولا تأثرتْ بعاطفتها نحو وليدها ، إنما سمعت لقول ربها ، سمعت لهذا الوارد الأعلى الذى لا يعارضه أىُّ وارد شيطاني أسفل فلم تتردد أبداً فى أنْ تلقى بوليدها فى البحر ، لأن الله تعالى حَالَ بينها وبين عاطفة قلبها .

كذلك الحال فى قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فقد أخبر الكهنة فرعون أن زوال مُلْكه سيكون على يد غلام من بنى إسرائيل ، فماذا فعل فرعون - لتعلموا كيف كانت عقلية الذين ادَّعَوْا الألوهية ، وكيف أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه ، ماذا فعل فرعون ؟ راح يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، وهو لا يعلم أن الله يدَّخر له هذا الغلام فيأتيه ويطرق بابه وهو فى مهده على الهيئة التى تعرفونها ، ومع ذلك يطمئن إليه ويتخذه ولداً له ، وتقول زوجته ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص] فيأخذه ويُربِّيه فى بيته ، هذا معنى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾ [غافر] ما حقتْ عليهم بقهر وجبروت ، إنما حقَّتْ عليهم باختيار منهم ، والحق سبحانه وتعالى بعلمه الأزلى علم

اختـيارهم ، فـحكم عليهم بسـابق علمه فيـهم ، ولا يمكن أنْ يأتى واقعٌ يخالف هذا الحكم لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

وسبق أنْ أوضحنا أن الكلمـة تُطلق على اللفظ المفرد ، وتُطلق على الكلام ومن ذلك قـوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَـائِلُهَـا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] وقـوله سبـحانه في الذين قـالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ [يونس] قال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] ونحن نسمى الخطبة الطويلة كلمة .

فـالكلمة التى حـقّتْ ووجبتْ وثبـتتْ ليسَت مطلق كلمة ، إنمـا هى ﴿ كَلِمَـةُ رَبِّكَ .. (٦) ﴾ [غـافـر] وكلـمـة الله لابـدَّ أنْ تـحـقَ ولابـدَّ أنْ تثـبت ، ومـا كـان الله تـعـالى ليـقـول كلمـة ، ثم يأتى واقع الأحـداث ويكذبها ، والكلـمة التــى حـقّتْ على الذين كفروا هى ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾ [غافر]

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾

هؤلاء هم الملائكة الذين خلقهم الله لتسبيحه سبحانه ، فلا عملَ لهم غير تسـبيح الله وهم حملة العرش ومَنْ حـوله . والتسبيح كـما قلنا من المقاليد ، ومعنى ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر] أى : يُنزهونه سبحانه عن مشابهة خَلْقه فى الأسماء والأفعال والصفات .

لذلك قلنا : إذا اشترك الحق سبحانه مع خَلْقه في شيء فلا بدَّ أنْ نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فلله فعل ولك فعل ، لكن لا تَقسْ فعلك بفعل ربك سبحانه ، و هذه المسألة أوضحناها في شرح أول سورة الإسراء ، فلما كان الحدث مُستغرباً بدأ الله تعالى السورة بالتسبيح ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] قالها بداية حتى لا نقيس فعل الله على فعل البشر ولا قدرة الله بقدرة البشر ، فلله تعالى فعل ولك فعل ، لكن فعل الله ليس كفعلك ، فإياك أنْ تقول المسافة والزمن .

وكلمة (سبحان الله) تعني تنزيه الله تعالى عن كل ما يشبه البشر ، لذلك قالوا : كلُّ ما يخطر ببالك فالله خلاف ذلك ، وهذا التنزيه ليس طارئاً بوجود مَنْ ينزه الله إنما هو أزليّ قبل أنْ يخلق الله مَنْ ينزهه ، فهو سبحانه مُنزَّه في ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ ينزهه .

لذلك لما وُجدَتْ السماء والأرض قال : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] أي : سبَّحوا الله ساعة خُلقوا فقالوا : سبحان الله الخالق العظيم ، ولا يزالون يُسبِّحون ، كما قال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة] فالتسبيح موصول دائم ، فإذا كان الكون كله سبَّح لله ولا يزال يُسبِّح ، والكون مخلوق لك أيها الإنسان فأنت أوْلَى بالتسبيح منه ، لذلك قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

وتسبيح الله تنزيه له سبحانه في أفعاله وفي صفاته ، فحين تتأمل مثلاً مسألة الخلق تجد خَلْق الإنسان من طين ، فهل يمكنك أنْ تأخذ قطعة من الطين فتُسويها على هيئة إنسان ثم تنفخ فيها أنت الروح ؟ هذه العملية لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

لذلك سيدنا عيسى عليه السلام لما أراد الله أنْ يجعل له آية ومعجزة فى مسألة الخَلْق قال : ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران] فقال فى نفخ الروح ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران] لأنه بذاته لا يستطيع هذه العملية ، إنما كونى أُصوِّر تمثالاً على هيئة إنسان أو طائر فهذه مسألة سهلة .

إذن : كان عليك أيها الإنسان الذى كرَّمه الله ، كان عليك أن تسبح ، لأن الكون والجماد الذى خلقه الله لك سبَّح وما يزال .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ.. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] هم الملائكة حملة العرش . إذن : العرش محمول ، وهؤلاء الملائكة حتى عددهم فيه إعجاز ، فالحق سبحانه أخبر أنهم ثمانية ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة]

فلماذا لم يجعلهم أربعة فيكون كما تعوّدنا فى أىِّ بناء له أربعة أركان ، ولماذا لم يكونوا خمسة مثلاً . إذن : لابدَّ أن فى هذا العدد بالذات حكمة وإعجازاً .

وهذا الإعجاز العددى واضح أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا[1] تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر] فلماذا تسعة عشر بالذات ؟ لماذا لم يجعلهم عشرين مثلاً ، هذا دليل على أن وراء هذا العدد حكمة ، وقد أخبر الله تعالى أن هذا العدد فتنة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر]

---

(١) عليها : أى على النار ، فهم خزنة جهنم . وهم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألف خريف . ذكره القرطبى فى التذكرة (ص ٤٥٥) وقد أخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ : كم عدد خزنة جهنم ؟ فأهوى رسول الله بكلتا كفيه إلى الأرض مرة عشرة ومرة تسعة قبض فيها الإبهام . قالوا : نعم .

والإيمان يقتضى التصديق بما أخبر به الحق سبحانه وألاَّ تناقش مثل هذه المسائل ، المهم قال أو لم يَقُل ، حدث الشيء أو لم يحدث ، لذلك سيدنا أبو بكر لما أخبروه أن صاحبك يدَّعى أنه رسول ، ماذا قال ؟ قال : ألا وقد قالها ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق ولم يبحث فى المسألة ، كذلك نحن فى كل أمر يقف فيه العقل ، ما دام قد جاءنا فيه خبرٌ من عند الله فعلينا أنْ نقبله ونؤمن به ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وكوْن عقلك يستوعب هذا الخبر أو لا يستوعبه فهذا موضوع آخر ، لأن هناك فرقاً بين الوجود وكيفية الوجود ، فقد يوجد الشيء لكنك لا تعرف كيف وُجِد .

تأمل فى قصة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

تجد السطحيين فى الفهم عن الله يتهمون القرآن فى هذه المسألة بالتعارض ، كيف ؟ يقولون : معنى (بلى) يعنى آمنت والإيمان يقتضى اطمئنان القلب إلى العقيدة ، فلماذا يقول بعدها : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] ؟

ونقول له : أنت معذور ، لأنك لم تفهم معنى السؤال ، ولو فهمتَ معناه ما اتهمتَ القرآن ، هل قال إبراهيم لربه : أتحيى الموتى أم قال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فهو إذن لم يسأل عن إمكانية الفعل ولم يشُكّ فى قدرة الله ، ولكنه يسأل عن الكيفية ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] إذن : فإحياء الموتى أمر سابق يسأل إبراهيم عن كيفيته ، فلو قلت لك : كيف بنيتَ هذا البيت ؟ فهذا يعنى أن البيت قائم بالفعل .

إذن : فقوله (بَلَى) يعنى : آمنت يا رب أنك تحيى الموتى ، وطلب

الاطمئنان بعد ذلك للكيفية والسؤال عن الكيفية أمر ضرورى فى مسألة الخَلْق وكيفية الإيجاد لأنها عملية لا تتأتى كلاماً ، لأن فعْل الله تعالى ليس علاجاً كفعل البشر .

فلو قلت لك : كيف بنيت هذا البيت ؟ تقول : حفرتُ الأساس وأحضرتُ الحديد والأسمنت وفعلتُ كذا وكذا ، فلان صمم ، وفلان نفّذ ، وفلان بنى ، وفلان (غفق) .. إلخ فأعطيك كيفية الفعل بحيث تستطيع تطبيقها إنْ أردت ولا تجد فيها اختلافاً ، لكن إنْ أردنا أنْ نُبين كيفية الإحياء ، فكيف نبنيها ؟

إنها مسألة لا تتأتى بالكلام ، ولا بدّ من إجراء العملية بالفعل ، وتأمل أن الله تعالى أراد أنْ يُجريها إبراهيم بنفسه ، وألاَّ تجرى له إنما يمارسها بنفسه . وفَرْقٌ بين أنْ تُعدِّى قدرتك لغيرك فتنفعل له ، وأنْ تُعدِّى قدرتك لغيرك فتجعله يفعل بنفسه ، فمثلاً قد تعجز عن حمل شيء فأحمله عنك وهذا أمر طبيعى ، لكن العظمة فى أن أجعلك تقدر أنت بنفسك على حمله .

وهذا ما فعله الحق سبحانه مع نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] أى : ضُمهن إليك واعرف أوصافهن ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] يعنى : اذبحهن وفرِّقْ أجزاءهن على الجبال ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إذن : هو الذى يذبح ، وهو الذى يُقطِّع الأجزاء ، وهو الذى يُفرِّقها ، وهو الذى ينادى عليها بنفسه فتتجمع بقدرة الله ويأتينَ سَعْياً كما كُنَّ من قبل ، فإذا كنت أقدرت ما لا يقدر على القدرة ألا أقدر أنا عليها ؟

والعرش هو سمة استتباب المُلْك والسيطرة على الحكم والاستيلاء

عليه ، وليس من الضرورى أنْ يقعد علىَ العرش بالفعل ، لذلك لما تكلم الهدهد عن ملكة سبأ قال : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] لأن الملك لا يقعد على العرش إلا عندما تستقر له الأمور ، وتدين له البلاد ، فإنْ كانت هناك منطقة معترضة أو مشاغبة للملك تفرغ لها حتى تدين له ، وعندها يستقر له الملْك .

ولما تكلم الحق سبحانه عن استوائه على العرش قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢) ﴾ [فصلت]

إذن : فاستواؤه سبحانه على العرش جاء بعد أن انتهى من الخلْق وتَمَّ له كل شيء من أمور الملك والسيطرة الكاملة .

فقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .. (٧) ﴾ [غافر] هم الملائكة الثمانية حملة العرش . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.. (٧) ﴾ [غافر] وهؤلاء نوع آخر من الملائكة ، وهم الكروبيون الذين لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، وليس فى بالهم هذا الكون كله ، ولا يدرون عنه شيئاً ، فقط ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر]

لكن هؤلاء الكروبيين الذين يحيطون بالعرش ويُسبِّحون الله ولا عملَ لهم غير ذلك ، هل يروْنَ الله سبحانه وهو على العرش ؟ قال علماؤنا رحمهم الله : أنهم رغم منزلتهم هذه إلا أنهم لا يروْنَ الله تعالى ، وأظهر

هذه الأقوال قول الفخر الرازى[1] رحمه الله ، فلما تكلم في هذه الآية ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] استأنس برأى صاحب الكشاف[2] الذى سبقه وقال : إن معنى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] أنهم لا يرونه سبحانه لأن المشهديات ليس فيها إيمان ، الإيمان للغيبيات ، فلو أنهم شهدوا الله وهو على العرش ما قال فى حقهم ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] ثم قال الفخر الرازى : ولو لم يكُنْ للإمام صاحب الكشاف إلا هذه لكفتْهُ طيلة حياته[3] ، هذا مع ما بين الإمامين من خلاف فى الرأى .

إذن : لا نفهم من مكانة هؤلاء الملائكة وقربهم من ذى الجلال سبحانه أنهم يرونَه ، لا بل هو سبحانه بالنسبة لهم غيب لا يرونه ، يؤكد هذا قوله سبحانه ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ⑦ ﴾ [غافر] فأنت الآن فى هذا

---

(١) هو : محمد بن عمر فخر الدين الرازى . مولده فى الرى (طهران حالياً) عام ٥٤٤ هـ إمام مفسر يقال له ابن خطيب الرى . له « مفاتيح الغيب » فى التفسير و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » وغيرها كثير له شعر بالعربية والفارسية ، وكان واعظاً بارعاً باللغتين . توفى بهراة عام ٦٠٦ هـ عن ٦٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

(٢) صاحب الكشاف فى التفسير هو الزمخشرى محمود بن عمر جار الله أبو القاسم ولد فى زمخشر من قرى خوارزم عام ٤٦٧ هـ . سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله . من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى بالجرجانية (خوارزم) عام ٥٣٨ هـ . من كتبه « أساس البلاغة » كان معتزلى المذهب مجاهراً شديد الإنكار على المتصوفة . الأعلام (جزء ٧) .

(٣) نص كلام الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى قوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ هى التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش من حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من فى الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء فى أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا وأنه منزه عن صفات الأجرام » . وقد أثنى الفخر الرازى على هذا فى تفسيره للآية فى « مفاتيح الغيب » وقال : « قد أحسن فيه صاحب الكشاف جداً .. فلو لم يحصل فى كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً » .

المجلس لا تقول مثلاً : آمنتُ بأن الشيخ الشعراوى جالس وحوله مُحبُّوه ويتكلم فى كذا وكذا ، لأن ما نحن فيه الآن مشهد لا دخْلَ للإيمان فيه ، الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى وهذه ميزة الإيمان ، لذلك كثيراً ما يتكرر قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ③﴾ [البقرة]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قلنا : هَبْ أننى أخاف من اللصوص فأخذت مالى الذى أخاف عليه وذهبتُ إلى مكان بعيد فى الحديقة مثلاً ووضعت المال وفوقه حجر ثقيل ، ولما احتجتُ لهذا المال ناديتُ العامل : يا فلان ارفع هذا الحجر ، فقال : لا أستطيع وحدى فهو ثقيل ، فقلت له : تدرى ماذا تحت هذا الحجر ؟ تحته المال الذى سأعطيك منه راتبك ، عندها يتقدم إلى الحجر ويرفعه ، إذن : المهم ليس إطاعة الأمر الذى عُلِم منفعته ، إنما إطاعة الأمر وهو غيب عنك .

ومعنى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. ⑦﴾ [غافر] أى : تسبيحاً مقروناً بالحمد ، لأن التسبيح ثناءٌ على الله ، أمَا الحمد فشكرٌ لله على نعمه التى سبقتْ ، ومن أجلِّ النعم أنه سبحانه لا يشبهه شىء ولو وجد له شبيه لحدثَ تعارض فى الكون : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ⑨①﴾ [المؤمنون] فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستحق للحمد .

ثم بعد ذلك ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ⑦﴾ [غافر] أى : أن هؤلاء الملائكة من ضمن مهمتهم أنهم يستغفرون للمؤمنين ، كما حكى عنهم القرآن يقولون : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦﴾ [غافر] .

هذا من دعاء الملائكة للذين آمنوا ، والدعاء عادة بـ (ربنا) محذوف الياء التى للنداء فلم يقُلْ : يا ربنا لأن النداء بالياءْ يدل على بُعْد

المنادَى ، أما الأبعد فيُنادى بأيا ، والقريب يُنادى بالهمزة مثل : أمحمد .

أما الحق سبحانه وتعالى فهو من القرب بحيث لا نستخدم فى ندائه أىَّ حرف من حروف النداء ، لأنه أقربُ لعبده من حبل الوريد ، لذلك نناديه سبحانه مباشرة (ربنا) ، ولك أنْ تستقرئ القرآن كله فلن تجد فى ندائه سبحانه حرفاً من أحرف النداء .

حتى الكفار لما نادوا الحق سبحانه قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] ومعلوم أن الميم فى آخر لفظ الجلالة هنا عِوَضٌ عن ياء النداء ، فلم يقولوا : يا الله إنما قالوا : اللهم .

ثم يتابع الحق سبحانه ذكر دعاء الملائكة للذين آمنوا ، فيقول :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ[1] الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) ﴾

معنى ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٨) ﴾ [غافر] أى : إقامة دائمة .

وتأمل ثمرة الإيمان بالله ، ثمرة لا إله إلا الله ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، فالملائكة فى أعلى عليين يذكرونك وينشغلون بك أيها المؤمن ، ويدعون لك لأنك آمنتَ بالله ، وهذه تسلية لسيدنا رسول الله

---

(١) عدن بالمكان : أقام به واستوطنه . وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٨) ﴾ أى : جنات إقامة دائمة واستقرار ثابت . [القاموس القويم ٢/ ١١] .

ولأمته الذين تحمَّلوا مشاقّ الدعوة ومَنْ تبعهم إلى يوم الدين .

فيا محمد إن كان كفار مكة قد وقفوا منك ومن أتباعك هذا الموقف المعاند فلا تحزن ، ويكفيك وأمتك أنْ تستغفر لك الملائكة ، وأيّ ملائكة ؟ حملة العرش والذين يحيطون به .

وحين تقرأ هذا الدعاء من الملائكة تجد فيه إشارات ووقفات تستحق التأمل أولها أنك أيها المؤمن مذكورٌ بين حملة العرش ، وأنت موضع اهتمامهم مع دُنُوِّ منزلتك وعُلُوِّ منزلتهم ، هؤلاء الملائكة لا عملَ لهم إلا أن يسبحوا بحمد ربهم ويستغفروا للذين آمنوا .

وتأمل في دعائهم مسألة التخلية ثم التحلية يقولون : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ ﴾ [غافر] هذه هى التخلية أولاً من المؤلم ، ثم تأتي التَّحلية بالنعمة التى تسرّ ، وذلك فى ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ۝ ﴾ [غافر] لأن التخلية والنجاة من العذاب أوْلى من التنعم ، والقاعدة أن دفع الضرر مقدم على جلْب النفع ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

ثم إن دعاءهم لم يخص المؤمنين فحسب ، إنما يشمل العائلة كلها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. ۝ ﴾ [غافر] فذكروا الشجرة كلها ، لأن الآباء يُسرُّون بوجودهم مع الأبناء فلم يقطع عليهم هذه النعمة .

وفي موضع آخر ذكر حيثيات هذه النعمة ، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. ۝ ﴾ [الطور] إذن : المقصود هنا الإيمان ، والإلحاق دلَّ على أن أحدهما كامل والآخر أقل ، وإلا لو كانوا متساوين فى العمل لأخذ كل منهم (بفتحة ذراعيه) .

ومعنى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] لا يقصد بها أنْ نأخذ المتوسط الحسابي يعني : ما عمله الآباء وما عمله الأبناء ويقسم على الاثنين ، لا ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] يعني : ما نقصنا شيئاً من أجورهم ، فالإلحاق تفضُّل من الحق سبحانه لقُرَّة عيون الآباء بالأبناء لكن بشرط الإيمان ، لماذا ؟ لأنهم لو لم يكونوا مؤمنين لكره الآباءُ معيَّتهم ومصاحبتهم .

فإنْ قلت : إذن يكون للإنسان ما لم يَسْعَ به . يعني : يأخذ ثمرة عمل الغير ، نقول : لا لأنه آمن والإيمان من عمله ، صحيح ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

لكن لا تنظر لسعيه هو ، إنما وسع الدائرة وانظر لمن جعله يسعى هذا السَّعْي الطيب ، إنها التربية الصالحة ، لذلك ورد في الحديث الشريف « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، منها : أو ولد صالح يدعو له »[1] فكلمة (صالح) هذه من عمل مَنْ ؟ من عمل الآباء .

إذن : حين نعطي الأب ثواب الدعاء الصالح من الابن إنما نعطيه حقه وثمرة عمله وسَعْيه في هذا الابن ، والأب إذا كان صالحاً تحرَّى أنْ ينفق على ولده من حلٍّ ، وحين يتحرى ذلك ربما يضيق عليه في النفقة ، لأن بعض الأغنياء الذين لا يتحرَّوْن الحلال في الكسب ينفقون على أولادهم ببذخ وإسراف في الملبس والمأكل والسيارات الفارهة .. إلخ لأنهم جمعوا هذه الأموال من مهاوش[2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٧٢) والترمذي في سننه (١٣٧٦) وأبو داود في سننه (٢٨٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » .

(٢) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب – مادة هوش] .
وقد أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقي السبكي : لا يصح .

والرجل الصالح ينأى بنفسه وأولاده عن الحرام ، لذلك ربما يشقى الصالح بالصلاح فى الدنيا ويصبر على هذا الشقاء وهذا الحرمان ، وهذا كله من عمله .

لذلك كانوا كثيراً ما يناقشوننا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

يقصدون كيف ينتفع الإنسان بعمل غيره ؟ وقلنا لبيان ذلك مثلاً : إننا نُؤْمر بالصلاة على الميت ، هذه الصلاة تفيده أم لا ؟ إنْ كانت لا تفيده فهى إذن عبث ، وإنْ كانت تفيده فهل استفاد بعمل غيره ؟

نعم يستفيد الميت بدعاء الحى له فى صلاة الجنازة ، لكن هذا الدعاء فى حَدٍّ ذاته يُعتبر من عمل الميت . لأنه ثمرة إيمانه بالله ، ولولا أنه مؤمن ما صلَّينا عليه ، فأنت حين تصلى صلاة الجنازة لا تصلى على مطلق ميت ، إنما على ميت آمن بربه عز وجل ، والإيمان من عمله ، وبالتالى صلاتك عليه أيضاً من عمله .

أو نقول فى قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] أى : ليس للإنسان حَقٌّ ، فهى منعت العدل ولم تمنع الفضل من الله ، وفَرْق بين العدل والفضل ، فالعامل عندك مثلاً أجره خمسون وهذا الاتفاق بينكما لا يمنع أن تعطيه سبعين مثلاً .

ثم تُذيل الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) ﴾ [غافر] ولم يَقُلْ مثلاً : إنك أنت الغفور الرحيم لتناسب الدعاء المذكور فى الآية .

وهذه مثل قوله تعالى فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة] ثم

يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فلم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم ، لماذا ؟ لأنهم استحقوا العذاب ، إنما لو غفرت لهم لا يجرؤ أحد على نَقْض هذه المغفرة لأنه لا معقِّبَ لحكمه سبحانه ولا رادَّ لفضله ، فعزتك يا رب وحكمتك هى التى جعلتْك تغفر لهم مع أنهم يستحقون العذاب .

إذن : فالمغفرة لم تأت من ناحية أنك أنت الغفور الرحيم ، إنما من ناحية أنك أنت العزيز الحكيم . والعزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ولا يُعَارض .

لذلك قلنا : إن إبليس كان ناصحاً حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] والمعنى : فبعزتك عن خلْقك وغناك عنهم ، مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، بهذه العزة لأغوينهم ، إنما لو أردتهم جميعاً مؤمنين ما تعرضتُ لهم ولا جرؤتُ على إغوائهم ، بدليل أنه استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطانَ لى عليهم ولا قدرةَ لى على إغوائهم ، إذن : المسألة ليست بين إبليس وربه عز وجل ، إنما هى بين إبليس وبنى آدم .

ثم يقول الحق سبحانه من دعاء الملائكة للمؤمنين :

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

قوله سبحانه (وَقِهِمُ) فعل أمر أو دعاء هنا من الفعل وَقَى أى : يا ربِّ جنِّبهم المعاصى ، ويصح أنْ نقول : قِهِم السيئات . يعنى :

جنَّبهم عقوبةَ المعاصى ، أو جنَّبهم المعاصى ذاتها ، وعين الرحمة أنْ يجنبك الله المعاصى والسيئات ، لذلك قال : ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ .. ⑨ ﴾ [غافر]

وهذه مثل قوله تعالى فى شأن القرآن الكريم : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ⑧٢ ﴾ [الإسراء] فالشفاء يكون للداء الموجود بالفعل فى النفس الإنسانية ، فالقرآن يعالج مثلاً داءات الشُّح والجُبْن والكذب .. إلخ ، أما الرحمة فهى ألا يأتى الداء أصلاً ، ولا شكَّ أنْ تجنُّب الداء بدايةً أفضلُ من معالجته كما يقولون : الوقاية خير من العلاج .

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑨ ﴾ [غافر] نعم ، وأىُّ فوز أعظم من أنْ يُجنِّبك الله السيئات فلا تقع فيها ؟ كلمة الفوز تعنى الفلاح والنجاح ، ووُصف بأنه عظيم لأنك قد تفوز فى الدنيا بالمال أو بالمنصب أو بالأولاد ، هذا فوز لكن الفوز العظيم فى الآخرة لأنه فوز بَاقٍ ودائم ، أما فوز الدنيا فمآله أن ينتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑩ ﴾

لو تتبعنا هذه المسألة من أولها نجد أن الحق سبحانه دعا الخلق بواسطة رسله ومنهجه إليهم ، فمنهم مَن استجاب فآمن ، ومنهم مَنْ كفر ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑩ ﴾ [غافر] وهؤلاء الذين لم يستجيبوا لداعى الحق أرادوا ألاَّ يرتبطوا بمنهج الله فى افعل ولا تفعل

وألاَّ يُضيِّقوا على أنفسهم بالالتزام بالمنهج ، وأنْ يسيروا في الدنيا على هواهم ، هذا الذي دعاه إلى أنْ يكفر .

فحين يعاين العذاب في الآخرة يندم ساعةَ لا ينفع الندم ، ويكره نفسه أشد الكره ، لأنها لم تتبع منهج الإيمان .

هذا معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⟨١٠⟩ ﴾ [غافر] والمقت أشد البغض . أراد الحق سبحانه أن يقول لهم : إنْ كنتم كرهتم أنفسكم أشد الكره لأنها لم تؤمن بمحمد وبمنهج الحق الذي جاء به ، فاعلموا أن مقْتَ الله لكم لكفركم به أشدّ وأعظم من مقتكم لأنفسكم ، إنكم مقتّم أنفسكم لأنها حرمتكم الخير وجلبتْ لكم الشر حين كفرتْ بالله .

والحق سبحانه يمقتكم لأنكم أبعدتم أنفسكم عن مجال الخير منه وخرجتم من حضنه ودائرة رحمته ، لأنه سبحانه يغضب أشدّ الغضب حين يخرج عبده عن ساحته ويحرم نفسه من خيره ، وهذا يعني أنَّ ربك يحبك ويحب لك الخير ويريدك في جنبه وفي معيته ويَغار عليك حين تشرد أو تشذ عن منهجه ، فأنت عبده وصنعته .

فكأن مقته سبحانه للكافر رحمةٌ به وغيرة عليه . لذلك قال سبحانه في الحديث القدسي : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[1]

إذن : الحق سبحانه أثبت أولاً بُغْضهم لأنفسهم ، ثم بيَّن لهم بُغْضه سبحانه للكافر أشدّ من هذا .

---

(١) أورده أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات ».

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾

لنفهم معنى ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر] لابدَّ أن نعرف ما هو الموت أولاً ، الموت هو إذهاب الحياة بعد أنْ كانت موجودة ، فما دام سيكون الموت فهو دليل على الحياة قبله ، والموت أيضاً يعنى عدم الحياة مطلقاً ، يعنى : عدم لم تسبقه حياة مطلقاً .

لذلك قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] وهذا استفهام للتعجب يعنى : قولوا لنا كيف يتأتَّى منكم الكفر ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : كنتم عدماً فوهبكم الحياة ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : يُذهب الحياة الموجودة ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : فى الآخرة .

إذن : فالموت مرتان والحياة مرتان كذلك ، والخلاف فى هذه المسألة : أيكون الموت بعد حياة ؟ أم يكفى أن يكون عدمٌ تأتى بعده الحياة ؟ نقول : الموت هو العدم المطلق ، سواء كان قبله حياة أم لم تكن قبله حياة ؟ وأنت مثلاً ترى البعوضة صغيرة ، والفيل ضخماً كبيراً فتقول : سبحان مَنْ صغَّر البعوضة وكبّر الفيل ، أكانت البعوضة كبيرة ثم صغّرها الله أم خُلقت هكذا ؟ إذن : الموت ليس من الضرورى أن يسبقه حياة ، فيكفى أنه لم تكُنْ فيه حياة ، بعد ذلك أحيانا الله واستوفينا الأجل فى الدنيا ثم يأتى الموت .

إذن : الآية جمعت بين المعنيين : الموت المطلق أو العدم الذى لم تسبقه حياة ، والموت بمعنى نَقْض الحياة الموجودة بالفعل ، فقال

سبحانه : ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر]

بعضهم [١] يرى أن الموت الأول هو إذهاب الحياة بعد انقضاء الأجل ، ثم يحيا فى القبر للسؤال ثم يموت فى القبر ثم يُبعث يوم القيامة ، والأول [٢] الذى اخترناه أليق .

وقوله سبحانه : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر] الاستفهام فى ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر] استفهام للتمنى لكن هيهات ، فلو رُدُّوا لَعَادوا لما كانوا عليه ، فلا فائدةَ من تكرار هذه التجربة ، والحق سبحانه بيَّن هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

ولو رُدُّوا لعادوا بطباع الشر فيهم وكفروا ، والخروج أى من المأزق الذى نحن فيه ومن العذاب الذى نعاينه ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر] من طريق للخروج وللنجاة .

هذا الذى ذكرناه خاصٌّ بحياة القوالب وموتها ، أما حياة القلوب والأرواح فلها طريق آخر ، ذكره الحق سبحانه فى قوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

لا شكَّ أنه سبحانه يخاطبهم وهم أحياء الحياة المادية إذن : هناك حياة أخرى يدعوهم إليها ، إنها حياةُ المعنويات التى لا يأتى

---

(١) هذا القول قاله السدى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٤٥) قال القرطبى : « إنما صار إلى هذا لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على النطفة ، واستدل العلماء بهذا فى إثبات سؤال القبر » .

(٢) القول الأول الذى يقصده الشيخ الشعراوى هو أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ثم أحياهم ، ثم أماتهم الموتة التى لابد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان . وهذا هو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك . انظر تفسير القرطبى (٨/٥٩٤٥) .

بعدها موت وهي الحياة فى الجنة .

إذن : عندنا حياة للمادة بها تحيا وتتحرك وتأكل وتشرب وتنشط ، وهناك حياة أخرى معنوية بها تدخل الجنة حيث نعيمٌ بلا فَوْت ، وحياة بلا موت . الحياة المادية لها روح تناسبها وهى حياة تنتهى بالموت ، أما حياة القيم والمعنويات فلا بدَّ لها من روح عُلْوية تأتي بالالتزام بالمنهج فى : افعل ولا تفعل ، لذلك يسميها الله روحاً : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢) ﴾ [الشورى] وسمَّى مَنْ يحملها روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

وكل من الحياتين لها ما يناسبها من البقاء ، فالأولى موقوتة بالأجل ، والأخرى ممتدة باقية ؛ لذلك قلنا فى الشهيد الذى جاد بنفسه وأنهى حياته فى سبيل منهجه أن الله يُجازيه على ذلك بأنْ يعصمه من الموت بعد ذلك .

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن العقائد وأيَّدها بالمعجزات ، كان من الواجب أن نستقبل أحكامه تعالى فيها بالرضا والقبول ، فلم يكلفنا سبحانه بحكم افعل ولا تفعل إلا بعد أنْ قدَّم حيثيات الإيمان الأعلى بالإله الأعلى ، وآمن مَنْ آمن به وكفر مَنْ كفر رغم كل مصالحنا فى تنظيم حركة الحياة بمنهج الله .

فإذا حكم علينا بحكم فيجب أن نطيعه ، وإذا استقر فى أذهانكم شيء يخالف ذلك فإنَّ واقعكم يؤيد أنكم لم تؤمنوا بقلوبكم ﴿ ذَٰلِكُم

(١٢) ﴾ [غافر] أى : ما يحدث منكم من مواجهة الدعوة ومصادمتها ووقوفكم هذا الموقف المعادى ناشىء من ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ (١٢) ﴾ [غافر] أى : كفرتم به .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

أى : ظهر عليه الامتعاض والضيق لما سمعوا كلمة الله ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون معنى الإيمان وما يترتب عليه من تكليف بمنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، يعلمون أن هذا المنهج يقيد شهواتهم فينهاهم عن أشياء مُحبَّبة إليهم ويدعوهم إلى أشياء أخرى ثقيلة على نفوسهم ، لذلك إذا ذكَّرتهم بالله وبمنهج الإيمان امتعضوا فى حين إذا ذكر غيره سبحانه من آلهتهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر] ويفرحون ، لماذا ؟

لأن هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ليس لها مطلوب ولا تكاليف بافعل ولا تفعل . إذن : أنتم مع هذه العبادة متروكون على هواكم ، وعلى سيئات نفوسكم ، هذا معنى الاستبشار ومعنى ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا (١٢) ﴾ [غافر]

لكن بقيتْ حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب عن أذهانكم : ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾ [غافر] فافرحوا بآلهتكم المزعومة كما تشاؤون ، فأنا سأحكمكم بقدرى قهراً عنكم فأمرضكم كما أحب ، وأميتكم متى أشاء وأُفقركم وأغنيكم .. الخ فلن تخرجوا أبداً بشىء عن ملكى إلاَّ فيما جعلتُ لكم فيه اختياراً .

فأنتم مختارون فى الإيمان والكفر فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء

فليكفر ، مَنْ شاء فليطع ومن شاء فليعص ولن تنفعنى طاعتكم ، ولن تضرنى معاصيكم ، ومهما تمردتم فى الأمور التى لكم فيها اختيار فإنَّ مردكم إلىَّ ومنتهاكم عندى .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر] الذى لا يمكن أبداً لأحد أنْ يتمرد على قدره ، فإن كنتم ألفتم التمرد فى الإيمان وفى الطاعة فأرُونى كيف تتمرَّدون على الله فيما لا اختيارَ لكم فيه .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثيات العلو والكبرياء له سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

الآيات جمع آية وقلنا : إنها على أنواع ثلاثة : آيات كونية تدل على القدرة العالية والحكمة الفائقة للإله الحق صاحب العلو والكبرياء ، وآيات المعجزات التى يمنحها سبحانه لتثبيت الرسل والإيمان بصدق بلاغهم عن الله ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أحكام الله .

يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] أى : الكونية لتؤمنوا بالإله الأعلى ويُريكم المعجزات على أيدى الرسل ، ثم يُنزِّل لكم آيات الأحكام التى تحمى أديانكم وعقائدكم ، لأننى كما حميت أبدانكم بما أنزلتُ من ماء السماء وما نشأ عنه من رزق لكم تقتاتون به وتعيشون عليه ، فكذلك خذوا منى الشىء الآخر الذى جعلتُه لقوام أديانكم ، وهو الأحكام التى تحمى عقيدتكم فى الحركة الحُكْمية بافعل ولا تفعل .

فقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] يُراعى الأمرين معاً بحيث لا تهمل أحدهما على حساب الآخر .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] أى : يرجع إلى الله ويخلع عن نفسه كبرياء الجحود بذلك الإله ، وينفض عن نفسه غبار الغفلة حتى يرجع إلى إيمان الفطرة التى أرادها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] وكانت الإجابة أن قال الجميع (بلَى) أى : أنت ربنا الحق .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

الدعاء : هو إظهار الذلة والخضوع لله تعالى ، لماذا ؟ لأن من الناس مَنْ تمرَّد على الله وتكبَّر على الطاعة ، وتعالى على أنْ يظهر لله الخضوع فحين يرى منكم الذلةَ والخضوع لله ويرى الإخلاص فى العبادة يعلم أن هذا التمرد ليس طَبْعاً فى الإنسان ، بل هو طبْع هواه بدليل أن من الناس مَنْ ذلَّ وخضع ، ومن الناس مَنْ يدعو ربه ويخلص له ويطيعه .

إذن : ليس التمردُ خاصية لازمة للإنسان بل هو خاصية فى المتمرد فقط ، إنما الإنسان حينما يكون على طبيعته وفطرته لابد له أنْ يلجأ إلى الله ويستعين به ، لذلك ادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون منكم هذا الدعاء .

وقلنا فى فضل الدعاء أنه « مخ العبادة »[1] ، والدعاء ما هو إلا ذلة عابد لعزة معبود ، مجرد إظهار الذلة بصرف النظر عما يترتب على الدعاء ، وإلا فالحق سبحانه أعطاك قبل أنْ تدعوه ، وخلق لك قبل أن توجد ، لذلك ليس من اللازم أن يستجيب الله لكل مَنْ يدعوه ، وكأنه سبحانه يقول لنا : تنبَّهوا إلى أن منكم مَنْ يدعو فلا أستجيب له ، وأنا حين لا أستجيب له أمنحه العطاء الأعلى لأنه قد يدعو بالشر دعاءه بالخير ، ويطلب الشىء وهو لا يعرف أن فيه هلاكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بالأم التى تدعو على ولدها حين الغضب تقول (إلهى أشرب نارك) ، فما موقف هذه الأم لو أن الله استجاب لها ؟

إذن : الحق سبحانه علم أنها حمقاء فى دعائها ، وأنها دَعَتْ بشَرٍّ تظنه خيراً فصوَّب لها الدعاء ؛ لذلك قلنا فى الثناء عليه سبحانه : سبحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعين بألاَّ تجيب ، وبذلك حميتنا من الضر ، فكَمْ يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟

وفى هذه الآية ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [غافر] حَثٌّ لنا على كيد الكافرين وإغاظتهم بإظهار الذلة لله والخضوع له سبحانه ، فهذه المسألة تكيدهم ، لأنها تظهر لهم عزَّ الربوبية والكبرياء لله تعالى الذى كفروا به ، وتعالَوْا على طاعته ، وتكبَّروا عليه سبحانه ، لذلك داوموا على الدعاء أمامهم وأروهُمْ من أنفسكم منتهى الذلة لله .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (حديث ٣٣٧١) من حديث أنس رفعه لرسول الله . قال الترمذى : غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، وقد أخرجه مسلم وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد عن النعمان بن بشير بلفظ « الدعاء هو العبادة » انظر كشف الخفاء للعجلونى (١/ ٤٨٥) .

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ[1] ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ[2] مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

كلمة (رَفيع) على وزن (فـعيل) من الفعل رفع ، وهذا الوزن يأتي بمـعنى فاعل مثـل (رحيم) مبـالغة من راحم ، وتأتي بمـعنى مفعول مثل قتيل يعني مـقتول ، كذلك كلمة (رفيع) يصـح أنْ تكون بمعنى رافع . أي : أنه سبحانه رافع لغيره ، كما يرفع سبحانه بعض الخلق على بعض .

ويصح أنْ تكون (رفـيع) بمعنى مـفعول أي مـرتفع في ذاته ، والرافع لا يرفع غيره إلا إذا كان مرتفـعاً في ذاته ، فرفيع هنا بمعنى مرتفع عن كل شيء ، كما نقول : الله أكبر والله أعلى وأجلّ .

فـالله تعالى مـرتفع الوجـود لأن وجـوده أزليٌّ لا عن عدم ، أمـا وجودنا نـحن فعن عـدم ، ووجوده سبـحانه إلى دوام ووجـودنا إلى عدم ، وهو موجود سبحـانه بذاته ووجودنا نحن به سبحانه ، إذن : فهو سبحانه أحسن مرتفع في الوجود ، نعم .

والله سبـحانه مـرتفع في قيـوميتـه ، فنحن نعمل ونتـعب وننام

---

(١) قال ابن عباس والكلبي وسـعيد بن جبير : رفيع السماوات السـبع وقال يحيى بن سلام : هو رفعة درجة أوليائه في الجنة . [القرطبي في تفسيره ٨/٥٩٤٧] .

(٢) الروح : الوحي أو أمر النبـوة ، قال أبو العـباس : سُمِّي روحـاً لأنه حياة من مـوت الكفر فصار بحياته للناس كالروح الذي يحيا به جسد الإنسان . [لسان العرب – مادة : روح] .

لنرتاح ، أما هو سبحانه فلا يُتعبه عمل ولا ينام ليستريح ، لذلك قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : ناموا أنتم ملْءَ جفونكم لأنى لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، يريد أنْ نطمئن ونحن فى معيته سبحانه .

وبهذه القيومية يرفع الله مَنْ يشاء ، وبطلاقة قدرته سبحانه يُبقى مَنْ يشـاء في الرفعـة ويُنزل مَنْ يشـاء إلى الضَّعَـة ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ (١٥) ﴾ [غافر] لأن الرفع يقتضى منزلة أعلى من منزلة ، وهذه هى الدرجات أى : ما بين كل منزلة وأخرى ، والدرجات لا تكون إلا فى العُلُو ، أما النزول إلى أسفل فتسمى مراحله دركات .

والحق سبحانه يرفع من خَلْقه ما يشاء على ما يشاء ، كما رفع من الزمان رمضان على غيره من الشهور ، ورفع من المكان البيتَ الحرام وبيت المقدس ، ورفع من الملائكة كما فى قوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات]

ورفع من الرسل أُولِى العزم منهم ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ (٢٥٣) ﴾[البقرة] ويرفع من عامة الخَلْق كما قال سبحانه : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١) ﴾ [المجادلة] وكما رفع الله سبحانه أُولِى العلم كذلك رفع أصحاب الحركة فى الحياة الذين ما أُوتوا علماً ، إنما عندهم حركة تنفذ هذا العلم وتُطبِّقه وتحقق مطلوبه فى الحياة ، فالعلم يحتاج فى تنفيذه ليد

عاملة كأصحاب الحِرَف والعمال والصُّناع ، لذلك قال سبحانه :
﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : عندنا رفعةٌ للزمان ، ورفعة للمكان ، ورفعة للملائكة ، ورفعة للأنبياء ، ورفعة للمؤمنين ، ورفعة لأُولى العلم ، وأخيراً رفعة للخلائق فى الأرض ، وتأمل العدالة الإلهية فى رفعة الخلائف بعضهم على بعض .

فالحق سبحانه لم يقُلْ لنا أىَّ بعض مرفوع وأىَّ بعض مرفوع عليه ، ليبين لنا أن كل بعض مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، إذن : لا يرفع الغنى على الفقير ، ولا الجميل على القبيح ، ولا الذكى على الغبى ، إنما يُرفع كلٌّ بحسْب عمله ، كما ورد فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

فكل الخَلْق غير ما تقدم ممَّنْ رفعهُ الله مرفوعٌ فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالنجار الذى يصنع لى المكتب مرفوع علىَّ فى هذا العمل ومُفضَّل علىَّ فيه ، لأنه يعرف هذه الصَّنعة ويتقنها وأنا لا أعرفها .

فإذا ما جاء هذا العامل يسألنى فى مسألة كنت أنا مرفوعاً عليه فيها ، لأننى أعرفها وهو لا يعرفها ، وقلنا : إن الحق سبحانه أراد لحركة الحياة بين الخلق أنْ تُبْنى على الحاجة لا على التفضل ، فكُلٌّ منا يحتاج الآخر ولا تكتمل حركةُ حياته إلا به .

ولو قامتْ حركة الحياة على التفضّل لتعطلتْ أكثر المصالح ولما استقامتْ الحياة ، وتصور أننا جميعاً تخرَّجنا فى الجامعة وصرْنا علماء ، مَنْ سيؤدى لنا الأعمال الأخرى ؟ مَن يكنس الشارع ؟ ومَنْ

يعمل في المجارى ؟ ومن يبيع فى الأسواق ؟ .. الخ وهذا هو مقصود الشاعر [1] الذى قال :

النَّاس للنَّاسِ من بَدْوٍ وَحَاضرَةٍ بَعْضٌ لبَعْضٍ وإنْ لَمْ يَعْلَمُوا خَدَمُ [2]

فليس منا مَنْ هو مُسخَّر فقط ، بل كل منا مُسخَّر في شيء ومُسخَّر له في شيء آخر ؛ لذلك يقول تعالى وهو يُعلِّمنا هذا الدرس : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات]

لذلك لا تنظر إلى عمل على أنه أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ، والأفضل هو الذى يتقن عمله أكثر ، فالعامل الذى يتقن عمله فى الأدنى أفضل من العامل الذى لا يتقن عمله فى العمل الأعلى [3] .

لذلك قال الإمام على كرَّم الله وجه : (قيمة كل امرئ ما يُحسنه) [4] فمَنْ أراد من العلو الأفضلية فليتقن عمله مهما كان هذا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف . ولد عام ٣٦٣ هـ وتوفى ٤٤٩ هـ فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم ٤٥ عاماً ويلبس خشن الثياب ، له (لزوم ما لا يلزم) ، وسقط الزند . [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر البسيط عدد آياتها ٥ أبيات ونصه فى الموسوعة :

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

(٣) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١/٢٨٥) : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه » وفى لفظ عملاً بالتنكير . وقال : رواه أبو يعلى والعسكرى عن عائشة رفعه ورواه العسكرى أيضاً بلفظ « أن يحكمه » ، وصنيع الأئمة يقتضى ترجيحها (أى هذه الروايات وغيرها) .

(٤) أخرج ابن الشجرى فى كتابه « الأمالى الشجرية » بسنده أن على بن أبى طالب قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها فى كتابه ، ذكر منها : قلت : قدر - أو قال - قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فأنزل الله تعالى فى قصة طالوت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

العمل حقيراً - أى : فى نظر البعض منا - فليس فى الإسلام عمل حقير ، إنما هناك عامل حقير ، وهو المتهاون الذى لا يجيد ولا يتقن ما فى يده ولا يخلص فيه .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً من فرنسا ومن مناقشات مجلس الشعب الفرنسى ، وقد كانوا يعرضون علينا بعض المواقف الحاسمة فى هذه المناقشات ، منها أن نقيب العمال كان كثير المطالب لصالح العمال ، وكان يسرف فى ذلك ، لكن كان الوزير المسئول عن تنفيذ هذه المطالب تحكمه ميزانية وأرقام وحسابات .

ومرَّت الأيام وصار نقيب العمال هذا وزيراً للعمل ، ووقف نقيب العمال الجديد يقول له : لا أطلب منك إلا ما كنت تطلبه أنت من سابقك ، فقال : لكن تحكمنى ميزانيات وحسابات ، فأراد أن يثير عاطفته نحو العمال ، أو أراد أنْ يحرجه فقال له : لا تنْسَ أنك كنتَ فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فأخذها الوزير بصدر رَحْب وروح رياضية وردَّ عليه : نعم نعم لكننى كنتُ أجيدها . إذن : العظمة ليست فى العمل إنما فى إجادته .

لذلك نقول : لو علم العامل المخلص فى عمله والمتقن له عن غيب من صاحب العمل يعنى يتقنه ويجيده لله ، لو علم هذا العامل ما أدَّاه لمواجيد الإيمان بالله لافتخر بهذا العمل على العلماء . قالوا : كيف ذلك ؟ وماذا يؤدى العامل لمواجيد الإيمان ؟ نقول : لأن كل مَنْ يرى عمله المتقن يقول : الله ، فكأن العمل المتقن يُشيع كلمة الجمال فى الكون ، ويؤدى إلى ذكر الله ، وفى هذا من الثواب ما لا يَخْفى على أحد .

وقوله تعالى :﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] يعنى : الذى يملك كوناً

استقر له بدون شغب عليه ، وهو المستقر فى كمال قدرته وألوهيته ، والملك لا يُتاح له الجلوس والاستواء على عرشه إلا بعد أن يستتبَّ له الأمر مع الفارق بين جلوسه سبحانه واستوائه على عرشه وبين جلوس ملوك الدنيا على عروشهم ، فنحن نؤمن بهذا الجلوس دون تكييف أو تشبيه ، وما دام وجوده تعالى ليس كوجودنا فكذلك جلوسه ليس كجلوسنا ، وقلنا : إننا نأخذ هذه المسائل فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

والحق سبحانه وتعالى استتبَّ له الأمر فى الكون دون منازع ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت]

ولأنه سبحانه رفيع الدرجات ، وهو سبحانه ذو العرش أراد سبحانه أنْ يضفى من رفعته على المؤمنين به ، وأن يرفعهم على غيرهم ، وألاَّ يتركهم هَمَلاً وهمجاً بدون منهج ، لذلك أنزل عليهم رُوحاً منه سبحانه :

﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر]

فما كان سبحانه ليستعبد الخَلْق ثم يتركهم ، إنما أنزل لهم انمنهج الذى يحكم حركتهم فى الحياة بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا هو قانون الصيانة الذى يضمن للبشر الصلاح والرِّفْعة وعُلُوَّ المنزلة ، وجعل هذا المنهج اختياراً ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، مَنْ شاء أطاع ومَنْ شاء عصى ، ليرى المؤمن أثر رفعة الله له فى الآخرة حين يُدخِله الجنةَ دار النعيم الباقى ، حيث لا فَوْتَ للنعمة ، ولا مَوْتَ للوجود .

وهذا المنهج جاءنا فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ ، ينظم حركة حياتنا حتى تتكامل الحركات ولا تتصادم ، فحين ترى شرع الله يقيد حركتك فى شىء ، فاعلم أنه قيَّد حركات الملايين من أجلك ، فحين ينهاك عن السرقة مثلاً يُقيِّد حركتك وأنت فرد ويمنع يدك أنْ تمتد لما لا تملك ، وفى المقابل قيَّد ملايين الأيدى حتى لا تمتد إلى مالك أنت ، حين أمرك بغضِّ البصر وحفظ المحارم أمر الخَلْق جميعهم أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك .. الخ فتأمل مَنِ المستفيد من تطبيق هذا المنهج ؟

وقوله : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ⁽١٥⁾ ﴾ [غافر] الروح لها معَانٍ عدَّة . فالذى يتبادر إلى الذِّهْن أنها هى الروح التي تدبّ فى المادة فتمنحها الحياة والحركة ، وهذه هى الروح التى ألقاها الخالق سبحانه فى آدم فتحرَّك وأدت كل الجوارح وظائفها بعد أنْ كانت طيناً .

ثم أراد سبحانه أنْ يحرس حركة المادة حتى لا تنطلق فى شهواتها ، فأنزل روحاً أخرى من عنده سبحانه هى المنهج القيمى فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ⁽٢٤⁾ ﴾ [الأنفال]

كيف يُحييهم وهم أحياء مخاطبين بهذا الكلام ؟ نعم هم أحياء حياةَ المادة بالروح التى دبَّتْ فى أجسامهم فتحركوا بها ، إنما المراد هنا حياة أرقى من حياة المادة هى حياة القيم التى تُرقِّى حركة الإنسان وتجعلها دائماً فى الخير لنفسه ولمن حَوْله ، وكما أن حياة المادة لها روح كذلك حياة القيم لها روح .

لذلك سمَّى القرآنَ روحاً ، وسمَّى الذى نزل به من الملائكة رُوحاً، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ⁽٥٢⁾ ﴾ [الشورى]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ⁽١٩٣⁾ ﴾ [الشعراء]

هذه هى حياة القيم والمثُل الرفيعة ، الحياة التى تُؤهلك لحياة أخرى باقية لا تفنى ، ولك أنْ توازن بين حياة تُؤهِّلك للدنيا الفانية وحياة تؤهلك للآخرة الباقية ، لابدَّ أنك ستجد الروح الثانية أعظم وأفضل من الأولى .

ويكفى فى التفريق بينهما أن الروح الأولى ، وهى روح المادة تسرى فى المؤمن والكافر ، وبهذه الروح يأتى كفر الكافر ومعصية العاصى ، أمَّا روح المنهج والقيم فلا تكون إلا للمؤمن ، ولا تُحرِّكه إلا فى الخير حركةً سويّة تُسعده وتسعد مَنْ حوله فى الدنيا قبل الآخرة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] ومعنى (الحيوان) يعنى : الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا ينتهى نعيمها ولا يدركها فناء ، وإنْ كان نعيم البشر فى الدنيا على قَدْر حركتهم وإمكاناتهم فنعيمهم فى الآخرة على قدر المنعم سبحانه .

ثم أنت تعيش فى الدنيا عُرْضة للموت يهددك فى كل لحظة ، وربما يهجم عليك بغتة فليس له وقتٌ ولا سنٌّ معين ، وليس له سبب يرتبط به ، فمنا مَنْ يموت بعد عام ، ومنا مَنْ يموت بعد مائة عام ، ومنا مَنْ يموت وهو فى بطن أمه ، الموت لا يفرق بين كبير أو صغير ، ولا بين مريض أو سليم . لذلك أبهمه الله ، لماذا ؟ لنظلَّ دائماً ذاكرين له منتظرين هجمته ، فكأن الإبهام هنا هو عَيْن البيانَ .

لذلك الحق سبحانه ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾ [الملك]

تأمل ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ [الملك] فبدأ بالموت وقدَّمه على الحياة ، وكأنه سبحانه يقول لنا : لا تستقبلوا الحياة إلا وفى أذهانكم الموت ، لماذا ؟ لأن ذكر الموت يمنع الغرور بالدنيا والركون إليها ويضبط سلوك الإنسان ، فلا يتحرك إلا فى الخير لأنه دائماً يعمل حسابَ العواقب التى تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ⑮ ﴾ [غافر] يعنى : على مَنْ يختاره ويصطفيه لهذه المنزلة ، وهذا مثل قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ⑰ ﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ⑫⑬ ﴾ [الأنعام]

ثم يوضح الحق سبحانه العلة من قوله : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ⑮ ﴾ [غافر] لماذا ؟ ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ⑮ ﴾ [غافر] يعنى : إياك أنْ تفهم أن المسألة تنتهى بنهاية الحياة الدنيا ، ويفلت أهل المعاصى بمعاصيهم وأهل الظلم بظلمهم لا ، إنما هناك مرجع ومردٌّ إلى هذا الإله الذى كفرت به أو الذى عصيته وتجرأت على محارمه ، تذكّر هذه الحقيقة مهما نفرت عنه بالكفر أو نَبَا جانبك عن جانب ربك ، فأنت مردود إليه رغماً عنك ، موقوفٌ بين يديه ، لا مهربَ لك منه أبداً ، ولا مفرَّ .

وقلنا : إن الإنذار يعنى التخويف من شرٍّ قبل أوانه لتستعدَّ له بأنْ تتجنب دواعى ما يخيف لتسلم منها ، ولا معنى للإنذار ساعة وقوع الحدث ، لابدَّ أنْ يكون قبل الحدوث بفترة كافية تمكننى من أن أتدارك الأمر وأعمل حسابى .

وقوله ﴿ يَوْمَ التَّلاقِ ⑮ ﴾ [غافر] أى : التلاقِى ، والتلاقى لا ينشأ إلا عن تباعد كان موجوداً بين شيئين ، فبين أىِّ الأشياء يكون هذا

التلاقى ؟ قالوا : التلاقى هنا والمراد يوم القيامة سيكون فى عدة صور ، ففى الآخرة سترى الملائكة الذين آمنتَ بهم فى الدنيا إيماناً غيبياً وتلتقى بهم مشهداً .

وفى الآخرة سترى رحمك وأسرتك الكبيرة من لَدُنْ أبيك آدم حتى آخر ولد له فى الدنيا ، ستلتقى بهم جميعاً ، وسترى هذا الرحم الذى قطعته فى الدنيا ، ستتمثل لك هذه الشجرة الكبيرة متشابكة الأغصان متداخلة الفروع ، وعندها ستقول : كيف قطعتُ هذه الرحم؟ وكيف جفوتُ هذه القربات لسبب وبدون سبب ، لذلك يقول النبى ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[1] .

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا الرحمن ، وهذه الرحم اشتققتُ لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلْتُه ، ومَنْ قطعها قطعتُه »[2] .

وسيدنا معاوية بن أبى سفيان[3] رضى الله عنه دخل عليه حاجبه فى يوم من الأيام وقال : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يقول أنه أخوك ، فقال له : ألاَ تعرف إخوتى ؟ قال : هكذا يقول الرجل ، قال أدْخِلْه ، فلما دخل على معاوية قال له : أىّ إخوتى أنت ؟ قال : أنا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه : « الناس بنو آدم وآدم من تراب » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ - ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث حسن صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن ابن عوف .

(٣) معاوية بن أبى سفيان هو : صخر بن حرب بن أمية ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام وأحد دهاة العرب ولد بمكة قبل الهجرة بعشرين عاماً وأسلم يوم فتح مكة توفى عام ٦٠ هجرية عن ٨٠ عاماً ، بلغت فتوحه المحيط الأطلنطى وهو أول مسلم ركب البحر لغزو الروم ، [الأعلام للزركلى المجلد ٧] .

أخوك من آدم ، فضحك معاوية ، وقال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكُونَنَّ أول مَنْ وصلها ، ثم قرَّبه وأعطاه ما يريد[1] .

ومن التلاقي الذي سيكون في الآخرة أنْ يلتقي المظلومُ بظالمه ، والخصمُ بمخصومه ، نعم وعند الله تجتمع الخصومُ ، وعلى العاقل أن يحسب لهذا اللقاء ألف حساب ، ومَنْ تدبَّر العواقب نجا .

ومن التلاقي في الآخرة أنْ يلتقي الإنسان بصحيفة أعماله التي أحصتْ عليه كل صغيرة وكبيرة ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة]

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران]

يوم يقول لك ربك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ثم يرتفع التلاقي إلى قمته ، فيلتقي المؤمنون بربهم عز وجل حين يتجلَّى عليهم سبحانه فيرونَه ، وتكون هذه أعظم النعم تفضلاً من الله وكرماً واقرأ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[2] ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[3] ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة]

وإذا كانت رؤية الحق سبحانه هي أعظم النعم للمؤمنين فهي أشدّ

---

(١) ذكر نور الدين اليوسي (١١٠٢ هـ) في كتابه (المحاضرات في الأدب واللغة) إن إنساناً دخل على معاوية فقال له : أسألك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما رفدتني (أي أعطيتني) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا ، قال : أنت من قريش ؟ قال : لا قال : أنت من العرب ؟ قال : لا ، قال : أي رحم بيني وبينك ؟ قال : رحم آدم . فقال معاوية : رحم مجفوة لأكونن أول من وصلها ، فأعطاه . وذكره الأبشيهي في كتابه (المستطرف في كل فن مستظرف) وعزاه لأبي علي القالي في كتابه الأمالي .

(٢) وجوه يومئذ باسرة . أي : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٣) فاقرة : داهية تكسر الظهر . قاله الليث فيما نقله ابن منظور عنه في [لسان العرب - مادة : فقر] ، وقال أبو إسحاق : المعنى : توقن أن يفعل بها داهية من العذاب .

ألوان العذاب للكافرين لأنهم سيُحرمون منها ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين] يومها ستشتد حسرتهم وأسفهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وجد الله الذى كفر به فى الدنيا ، ووجد العاقبة التى طالما حذَّرناه منها وذكّرناه بها .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (١٦) ﴾ [غافر] أى : فى هذا اليوم يوم التلاقى يأتون بارزين علانية بعد أنْ كانوا مُستترين بسيئاتهم في الدنيا ، اليوم يُفتضح أمرهم ويُكشف سترهم ﴿ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (١٦) ﴾ [غافر] الجميع فى ساحة واحدة : الملوك والسُّوقة ، السادة والعبيد ، الرؤساء والمرؤوسون ، الجميع فى مقام العبودية .

لذلك سينادى الحق سبحانه :﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦) ﴾ [غافر] يقولها الحق سبحانه لأنه تعالى كان يُملِّك بعضنا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مُلْك إلا لله وحده ، لذلك يجيب على هذا السؤال المؤمن والكافر ، الجميع يقولون ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] نعم لأنه لا إله غيره ولا ملك سواه .

ومعنى﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦) ﴾ [غافر] أن المُلْك لله اليوم وقبل اليوم ، فهذه الحقيقة التى أنكرها الكفار فى الدنيا اعترف بها المؤمنون الذين رضوا بالله رباً ، يُؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزع المُلْك

(١) القيعة والقاع : أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، وقيل : هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات . [الزبيدى فى تاج العروس من جواهر القاموس . مادة : قوع] .

ممَّنْ يشاء ، ويُعز مَنْ يشاء ويُذلُّ مَنْ يشاء .

فكلمة ﴿ الْيَوْمَ ﴾ مُوجَّهة هنا إلى الكافرين الذين أنكروا هذه الحقيقة في دنياهم ، لكنهم اعترفوا بها في الآخرة فأقرّوا ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) ﴾

﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ تُجْزَىٰ ﴾ تُحاسب ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (١٧) ﴾ [غافر] قلنا : إن كسب تأتي للخير واكتسب للشر ، وعلماء اللغة يقولون : إن كل زيادة في بنية الكلمة لابدَّ أن يقابلها زيادة في المعنى ، لذلك كسب غير اكتسب . كسب على وزن فعل أيْ يأتي الفعل منك طبيعياً لا تكلّف فيه ، إنما اكتسب يعني افتعل ففيه افتعال ومحاولة .

فالخير لا يحتاج منك إلى تعب ، على خلاف الشر فيحتاج إلى تعب ومشقة وتلصُّص ، يقول تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل الذي يجلس بين أهله وفيهم جميلات زوجته وبناته وخالاته وعماته .. الخ فينظر إلى هذا الجمال دون تكلُّف ولا تحرّج ، أمّا في غير المحارم فإنه يختلس النظرة وينفعل لها ويحاول ألاَّ يراه أحد .

كذلك نلحظ هذه المسألة في المرأة تحمل من حلال والأخرى من الحرام ، وكيف أن الأولى تُدلّ بحملها وتتباهى به ، أما الأخرى

فتحاول جاهدة أنْ تُخفيه وأنْ تتخلص منه ، ففرحة الأولى وحسرة الأخرى هو الفرق بين الحلال والحرام .

كذلك الإنسان إذا أخذ شيئاً من بيته يأخذه علانية بلا تكلّف وبلا تخطيط ، إنما إنْ أراد أنْ يسرق من بيوت الآخرين فإنه يحتال لذلك ويخطط له ، إذن : نقول الحلال لا يُتعب صاحبه إنما الحرام هو الذى يتعب الدنيا كلها .

أما فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة] فقد استعملت كسب هنا فى الشر ، فلماذا ؟ قالوا : هذا حين تصير السيئةُ عند صاحبها إلْفاً وعادة يفعلها بلا تكلُّف وبلا مشقة على نفسه وكأنها حسنة ، فلما تعوَّد عليها صارتْ فى حقه كسْباً لا اكتساباً ، وهذا الذى نسميه (الفاقد) أى : الذى تجرّأ على الحرام وألِفَ المعصية حتى صارتْ له عادة .

ومثل ذلك فى النظر فى قوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ[1] الأَعْيُنِ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر] إذن : هناك خائنة أعين ، وهناك أمينة أعين ، أمينة أعين حين تنظر إلى الحلال ، وخائنة أعين حين تنظر إلى المحرم .

حتى فى الناحية الاقتصادية التى تحكم الشعوب وبها يُقاس تقدُّم الأمم ورُقيها نقول : الحلال لا يكلِّف إنما الذى يكلف الحرام - هذا من الناحية الاقتصادية - لأن الأصل فى الحلال ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف] وفى الحديث الشريف : « نحن قوم لا نأكل

---

(١) يعلم خائنة الأعين : قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة ، وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ، وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، وقد علم الله منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. [تفسير القرطبى ٥٩٥١/٨] .

حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] .

ولو عِشْنا على هذه الأصول لكفَانا القليل ، ولك أنْ تجرب نفسك فلا تأكل إلا على جوع ، وساعتها ستجد اللقمة لذيذة ولو كانت بملح، فكأن استقامتك على دين الله تُريحك وتسترك ولا تتعبك فى حركة الحياة ، ولا تحتاج منك لمزيد من العمل ولمزيد من المال .

كذلك إذا أكلنا لا نشبع ، وأنتم ترونَ الذى يأكل حتى التخمة وحتى يحتاج إلى مهضم ، فشقَّ على نفسه وكلفها فى الطعام وفى تصريف الطعام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ⟨١٧⟩ ﴾ [غافر] نعم لأن الحاكم فى هذا اليوم هو الله العدل المطلق ، وكأن الحق سبحانه يقول : الظلم عندكم أنتم أيها البشر ، فقد أمهلناكم فى الدنيا تربعون فيها بالظلم . يظلم القوى الضعيف ، ويظلم الغنى الفقير ، ويظلم الحاكم المحكومين إنما اليوم ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ⟨١٧⟩ ﴾ [غافر] لقد وصل بكم الظلم فى الدنيا إلى غايته حين أشركتم بالله .

لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⟨١٣⟩ ﴾ [لقمان] نعم ظلم بيِّنٌ واضح ؛ لأن الظلم معناه أنْ تأخذ حقَّ الغير لك ، أو تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغير صاحبه ، وهذا هو ما حدث منكم حين أشركتم بالله فأخذتم منه سبحانه الألوهية ، وجعلتموها للأصنام .

الظلم يأتى من عدة وجوه . فمن الظلم أنْ تعمل خيراً ولا تجزى

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

به خيراً ، ومن الظلم أنْ تعمل الحسنة تستحق عليها عشرة فيعطيك خمسة ، ومن الظلم أن تعمل السيئة ولا تُحاسب عليها ، ومن الظلم ألاَّ تعمل سيئة وتُحاسب عليها .

إذن : كل اختلال فى موازين الملكية والنفعية من العمل تُعَد ظلماً ؛ لذلك قال تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنى حرمتُ الظلم على نفسى فلا تظالموا »[1] .

كان هذا فى الدنيا ، أما فى القيامة فأنتم أمام الحاكم العادل وفى رحاب العدل المطلق الذى لا يُحابى أحداً على حساب أحد ، وليس له ولد ولا صاحبة فيميل عن الحق لأجلهما .

لذلك قلنا : إن الجن كانوا أصدق استقبالاً منا حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[2] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③ ﴾ [الجن] لأن معظم الفساد يأتى من هذين : الصاحبة والولد .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⑰ ﴾ [غافر] إشارة إلى طلاقة قدرته تعالى فى الفصل بين الناس وفى مجازاتهم على أعمالهم ، وكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن موقف الحساب يشقّ علينا ، أو أنه سيأخذ وقتاً طويلاً ، لا فعندنا حسابات أخرى ليس عندنا جلسة تطول ولا جلسة تتأجل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⑰ ﴾ [غافر] لأن الله تعالى فعلَ فعْله بكُنْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/١٦٠) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظه : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

(٢) قوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ③ ﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

لا يفعل بعلاج كما تفعلون ، والدليل على ذلك أن فى دنيا الناس آلاف وملايين القضاة يحكمون بين الناس بالحق فى آلاف وملايين البلاد في وقت واحد فى بلاد مختلفة ومحاكم مختلفة ، والحق الذى يحكمون به ليس حقاً يتنقّل بين القضاة من قاض لآخر ، إنما هو موهبة ذابتْ فى نفوسهم جميعاً وصبغة صبغتْ أحكامهم جميعاً .

فإذا كان المخلوق لله وهو الحق يمكنه أنْ يستولى على نفوس القضاة فى مختلف الأرض فى وقت واحد ، فالذى خلق هذا الحق أوْلَى بأنْ يحكم بين الخلائق فى وقت واحد .

لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة : كيف يُحاسب الناس فى وقت واحد على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلنا : الإنذار هو الإخبار والتحذير من الشر قبل وقوعه و (الآزفة) من أزف الشيء يعنى : دنا وقرب ، والمراد بيوم الآزفة الموت لأنه يأتى بغتة ، لا يعلم أحد موعده ، أو هو يوم القيامة[2] ، وهو أيضاً قريب لأن الله تعالى يقول فيه : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل] فجاء بالفعل الماضى (أتى) للدلالة على تحقق وقرب وقوعه ، لأن كل آت قريب .

---

(١) ذكر ابن عبد البر القرطبى فى كتابه « بهجة المجالس » : « قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم ؟ قال : كما قسَّم بينهم أرزاقهم » .

(٢) تفسير الآزفة بأنه يوم القيامة ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٥) والقرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٥٠) .

في هذا اليـوم يوم الآزفة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ.. ﴿١٨﴾﴾ [غافر] تخيل أن القلب انخلع من مكانه فـي الصدر ، وخرج من حيِّزه حتى وصل الحناجر حتـى كتم الأنفاس من شدة الهول والبؤس والشقـاء والضيق ، كما قـال سبحانه في مـوضـع آخر : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ[1] وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿كَاظِمِينَ.. ﴿١٨﴾﴾ [غافر] الكظم أنْ تحاول كتم الشيء في داخلك بحيث لا يخرج ، ومنه كَظْم القرْبة إذا انخرقت حتى لا يتسرب منهـا الماء بأنْ تربط مكان الخُـرْق وتُحكم رباطه ، ومنه كَظْم الغـيظ حتى تتحكم في غيظك وتكتمه في نفسك ولا تُنْفذه ، كما قال تعالى :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران] فهذا ترقٍّ في مراتب العـمل الصالح ، أولهـا كظم الغيظ ، وأحسن منـه التخلص من الغيظ بالعفو ، وأحسن منه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر] هذا ساعة يجمع الله الظالمين معاً في جـهنم والعياذ بالله ، هؤلاء اجتمعوا في الدنيـا على معصـية الله ، وسـاروا فيهـا على هواهم ، والآن في الآخرة يفـرّ بعضهم من بعض ويهـرب المتبـوع من تابعه ، كمـا قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس]

كذلك لا يجدون شـفيعاً يشـفع لهم ولا يدافع عنهم ، وقد أوضح

---

(١) زاغ البـصر : اضطرب ولم يحـقق ما يرى ، أو انحـرف عن القصـد فلم ير شـيئاً . وقد وصف الله فزع بعـض النـاس في المدينـة حـين أحـاطـت بهم الأعداء في غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]

الحق سبحانه أن هؤلاء الشفعاء ورؤساء القوم وأئمة الكفر سيسبقون أتباعهم إلى جهنم ، فإذا دخلوا وجدوهم قد سبقوهم إليها ، فيكون ذلك أقطع لأملهم في النجاة وأشدّ لحسرتهم ، لذلك قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

ومعنى (الحميم) أي : الصديق الحميم ، وهو الذي يخلص لك ويحميك حين يُراد بك الضر ويقف بجانبك وقت الشدة ، الظالم في الآخرة لا يجد هذا الصديق ولا يجد مَنْ يشفع له ، فأصدقاؤهم فرُّوا منهم لأنهم اجتمعوا في الدنيا على المعصية .

والله يقول : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف] أي : يوم القيامة حيث يتبرأ كل منهم من صاحبه ويلقي عليه باللائمة ويكرهه ﴿ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر] حتى إنْ قام للظالم شفيع يشفع له لا يطاع ، لأن الشفاعة في الآخرة لها شروط : أنْ يأذن اللهُ للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى الله عن المشفوع له ، والله لا يأذن في الشفاعة لظالم ولا يرضى عنه .

لذلك لا تُقبل مثل هذه الشفاعة ، ولا يُطاع صاحبها لأنه يطلب من الله الذي يملك العذاب أنْ يطيعه وأنْ يعفو عن المشفوع له ، فكيف ينقلب الحق سبحانه مطيعاً لعبده ؟

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] والخلة : الصداقة . قال الزجاج : الخليل المحب الذي ليس في محبته خلل . [لسان العرب - مادة : خلل] من هنا جاء إعجاز الآية المتحدثة عن شدة يوم القيامة التي تجعل الصديق المخلص المحب الذي ليست في محبته خلل لصاحبه إلا أنه يوم القيامة لن يتخلى وينشغل عن خليله فحسب ، بل سيكون له عدواً .

يعنى : اعلموا أن علْمَ الله شامل ولا يخفى عليه شىء مهما دَقَّ ، فإنْ عمَّيتم على خلق الله فى الدنيا واختلستُم النظرات فيما لا يحل لكم فاعلموا أنكم لا تخفَوْنَ على الله ، ولو أيقن المؤمن بشمول علم الله وبنظره إليه ما كانت له خائنة أعين .

لذلك رأينا القاضى وهو يحكم بين الناس ويتحرَّى العدل فى حكمه وجد بحاسة الحق عنده أنَّ الشهود يشهدون زوراً ، لكن ماذا يفعل وهم متفقون فى أقوالهم جميعاً مهما حاورهم وقلَّب لهم المواقف ليكشف زيفهم وباطلهم وجدهم على لسان واحد ؟ ذلك لأن المحامى مثلاً حفَّظهم الجواب ، فماذا يفعل ؟ غضب وانفعل للحق الذى يحكم به وقال كلمة هزَّتْ الشهود جميعاً ، وجعلتهم ينطقون بالحق قال لهم : والله لو عميتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء . كلمة أنطقه الله بها ، فأعادتْ إليهم رشدهم وهزَّتهم من الأعماق ، فرجعوا إلى الحق .

وقوله : ﴿ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر] يعنى : علم سبحانه مكنونات الصدور وخباياها ، وهذه لا يعلمها إلا الله .

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

معنى : ﴿ يَقْضِى .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر] أى : يحكم بالحق ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِه ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر] أى : الأصنام وغيرها مما عبدوه من دون الله ﴿ لا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر] لا يحكمون بشىء ، فليس لهم مركز فى القضاء أبداً ولا حتى فى الظلم ، ليس لهم أهلية لأنْ يقضوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر]. السميع لكل قول

خارج عن منهجه ، العليم بكل فعل يخرج عن منهجه المشاهد لكل شيء .

فالحق سبحانه وتعالى يكون هو الشاهد وهو القاضي والحاكم وهو المنفذ ، فإذا كانت السلطات عندكم متعددة في الدنيا ، فالسلطة في الآخرة لله وحده لا شريكَ له .

بعد ذلك يقول سبحانه : ما بال هؤلاء الكفار الذين يعاندون الدعوة ويصادمون الرسول الذي أرسله الله لهم رحمة ، ألم ينظروا في تاريخ سابقيهم من الأمم التي كذَّبت وما جرى لهم من العقوبة ، وما حَلَّ بهم من هلاك يرونَ هم آثاره .

لقد سجَّل الحق سبحانه على نفسه ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

نعلم أن الإنسان يحفظ السند الذي له ولا يحفظ الذي عليه ، أما الحق سبحانه فحفظ وسجَّل هذا الوعد عليه سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] فالحق سبحانه ضمن لرسله النصرة والتأييد ، وما كان سبحانه وتعالى ليقول كلمة ويأتي واقع الحياة ليكذِّبها . إذن : فنُصرة الرسل سُنة من سُنَن الله في كونه ، يقول سبحانه :

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ﴾

يعنى : ألم يقفوا موقف المشاهد لآثار الأمم المكذِّبة وهم يمرون بهم فى رحلة الشتاء والصيف ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات] ألم تروا مدائن صالح[1] وقرى عاد وثمود وغيرهم ممَّنْ كذَّب الرسل ؟

إن آثارهم تدل على أَخْذ الله لهم ، وعلى العقاب الذى نزل بهم فخذوا منهم عبرةً ، واعلموا أن مصيركم كمصيرهم ، ولن تُعجزوا الله فى ذلك ، لأن هذه الأمم التى أخذها الله كانت أشدَّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، أأنتم أشد من إرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد .. أين هم الآن ؟ هل استطاعوا رغم حضارتهم حماية هذه الحضارة ؟ إن قوتهم وحضاراتهم لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً ، ونزل بهم عذاب الله فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ولم يمهلهم .

لذلك قال سبحانه لرسوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر] يعنى : إذا لم تَرَ ما نعدهم من العذاب فى الدنيا ومتَّ قبلهم فسوف ترى عذابهم فى الآخرة . كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]

والحق سبحانه يريد من سَيْرنا فى الأرض أمرين : سياحة فى الأرض للاعتبار وأَخْذ العظة ، وسياحة للانتفاع والاستثمار ، إذن : فالسياحة فى الأرض والسير فيها مطلوب إيمانى ، لذلك قال تعالى

---

(١) مدائن صالح : هو اسم أطلق على الحجر التى هى ديار ثمود ، وهو ما جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر] وهى تقع شمال المدينة المنورة على مساحة ٢٥ كيلومتراً تتكون من تكتلات جبلية متباينة الحجم مع قصور منحوتة بدقة هندسية يصل عددها إلى ٨٠ . والبعض يرجع هذه المنطقة للأنباط والداديين وليس إلى الثموديين .

في سياحة الاعتبار : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ (٢١)﴾ [غافر] وقال فى سياحة الاستثمار : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

إذن : لا مانع أن تجمع فى سَيْرك فى أرض الله بين سياحة الاعتبار وسياحة الاستثمار والانتفاع ، فلا تحرم نفسك من نظرة الاعتبار فى خَلْق الله الجديد عليك ، ولا تُلهكَ التجارة والاستثمار عن الاعتبار .

وهنا ملحظ فى قوله تعالى : ﴿فِي الأَرْضِ ..(٢١)﴾ [غافر] هذا الملحظ أخذناه من العلم الحديث أخيراً ، فقد كان العلماء يفسرون ﴿فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [غافر] على الأرض أى : الأرض والتربة التى نمشى عليها ، إلى أن عرفنا مؤخراً أن الأرض تشمل غلافها الجوى ، فهذا الهواء الذى فوق الأرض هو العنصر الأساسى والضرورى لاستمرار الحياة عليها ، وبدونه لا تكون على الأرض حياة ، لأن الإنسان لا يستغنى عنه بمقدار شهيق أو زفير ، وعليه فنحن نسير فى الأرض كما جاء نصّ القرآن الذى سبق العلم الحديث إلى هذه الحقيقة .

وحين تسير فى أرض الله للاعتبار بمخلوقات الله ترى ألواناً شتى لم تَرَها من قبل من الناس والأماكن والمزروعات والنعم التى لا تُحصى ، وتعلم أن الخالق سبحانه يعطى لكل مكان ما يناسبه ، ولكل بيئة ما يصلح لها من الغذاء ، لذلك تجد بعض المزروعات تجود فى أماكن دون أخرى ، فبيئة يكثر فيها الموز مثلاً ، وأخرى يكثر فيها البطاطس ، وأخرى القمح .

لذلك قال البعض : إن كثرة الأمراض وتعدّيها من بيئة لأخرى منشؤه أن الناس يعيشون على غير أقوات بيئتهم ، فسكان البيئات الحارة يستوردون أقوات البيئات الباردة والعكس ، ومن هذا الخلط نشأتْ الأمراض .

وقوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ .. (٢١) ﴾ [غافر] أي : عاقبة تكذيبهم الرسل ووقوفهم أمام الدعوة ليُطفئوا نور الله بأفواههم ، فأخذهم الله ولم تمنعهم منه قوتهم ولا آثارهم في الأرض ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ﴾ [غافر] يعني : لم يقهم من الله وَاق ، ولم يدافع عنهم مدافع ، ولم تُغْنِ عنهم حضاراتهم ، لأنهم حينَ أقاموا هذه الحضارات لم يجعلوا لها قانوناً يصونها .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه لأخْذهم أخْذ عزيز مقتدر :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٢) ﴾ [غافر] بالآيات الواضحات وبالمعجزات الباهرات الدالة على صدق الرسول ، والآيات التي عجزوا هم عن مثلها رغم أنها كانت مما نبغوا فيه ، وقد كانت هذه الآياتُ كافيةً لأنْ يؤمنوا بالله وبرسول الله إليهم الذي جاء لهدايتهم ، لكنهم كفروا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ .. (٢٢) ﴾ [غافر] وكلمة (أخذهم) تدل على التناول بقوة ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾ [غافر]

ولا شكَّ أن الأَخْذ يتناسب وقوة الآخذ . فأَخْذة الطفل غير أخْذة الشاب غير أَخْذة الفتوة ، فما بالك إنْ كان الآخذ هو الله القوي شديد العقاب ، إذا كان الله سبحانه هو الآخذ فلا قوة لمأخوذ على المكابرة أو الامتناع .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] هذه هى القوة العليا ، فالعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو القادر على كل شىء ، والذى لا يعجزه شىء .

ثم يقصُّ الحق سبحانه بعض قصص الرسل ممَّنْ كُذِّبوا وأوذُوا ، وهنا يقص علينا طرفاً من قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) ﴾

الحق سبحانه يذكر هنا قصة سيدنا موسى عليه السلام لأنها امتازت على قصص الرسل السابقين له ، من حيث إنهم جاءوا ليشفوا الناس من بعض الأمراض العقدية ، ويخرجوهم من جاهلية افعل ولا تفعل ، ويعيدوهم إلى الجادة ، أمَّا سيدنا موسى فقد جاء ليجابه رجلاً ادعى الألوهية وتكبَّر وتجبَّر فكانت مهمته أصعب ، لذلك كان أكثر الرسل قصصاً فى القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا .. (٢٣) ﴾ [غافر] المراد الآيات الواضحات التسع التى أُوتيها موسى عليه السلام ، تأييداً له وبرهاناً على صدْق رسالته وأولها العصا ، وللعصا فى قصة سيدنا موسى تاريخ

ومواقف ، فبها ضرب البحر فصار كل فرْق كالطود[1] العظيم بها انفلق البحر وتجمد الماء ، وبنفس العصا ضرب الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، إذن : المسألة ليست فى الماء والجبل ، إنما معجزة خالق الماء وخالق الجبل الذى يقول للشىء : كُنْ فيكون .

لذلك وقف المستشرقون عند قصة سيدنا موسى ، ورأوا أنها أخذتْ النصيب الأوفر بين موكب الرسالات وفصَّلها القرآن تفصيلاً ظنوه تكراراً معاداً ، خاصة فى مسألة العصا ، حيث ذُكرت فى ثلاثة مواقف ، هى فى الحقيقة ليست تكراراً إنما هى لقطات مختلفة لحدث متجمع ، فأول ما أعطى الله موسى العصا معجزةً سأله عنها : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[3] أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾ [طه]

وقلنا : إن موسى لم يرد على قدر السؤال لأن الذى يسأله ربه فأراد أنْ يطيل أمَد الحديث مع ربه عز وجل ، فلم يَقُلْ عصا أو عصاى . فلما أحسَّ أنه أطال أجمل وقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾ [طه]

الموقف الثانى الذى ذُكرت فيه العصا لما أراد الحق سبحانه أن يدرب موسى على استخدامها ، وأنْ يجربها هو بنفسه ليكون على استعداد ودُرْبة حينما يواجه مُدَّعى الألوهية فرعون فقال له : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] والانطياد : الذهاب فى الهواء صعداً . ومنه المنطاد الذى يرتفع فى السماء ، والجبل أيضاً يرتفع فى السماء .

(٢) أهش بها على غنمى : قال الفراء : أى أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه . أما الليث فقال : هو جذب الغصن من الشجر إليك . والقول ما قاله الفراء لا ما قاله الليث . [لسان العرب - مادة : هشش] .

(٣) مآرب أخرى : أى أغراض وحاجات كثيرة أخرى كاتقاء ضر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١/١٧] .

سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

هذا هو المطلوب من إجراء هذه التجربة أمام موسى ، أن يخاف منها ، وأنْ يراها على حقيقتها وهى حية ، ولو أنها ظلتْ على حالتها عصا ما خاف منها موسى ، ولما قال له ربه ﴿ وَلَا تَخَفْ .. (٢١) ﴾[طه]

ثم كان الموقف الأخير للعصا حين التقى موسى بسحرة فرعون وفى حضرته حين جابه سِحْرهم بعصاه التى ألقاها فراحتْ تلقف ما صنعوا ، وعن هذا الموقف قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه]

إذن : ليس فى ذكر عصا موسى تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة وحالات عدَّة للشىء الواحد .

وقوله ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾ [غافر] السلطان هو الحجة الواضحة ، والسلطان هو القوة ، إما قوة البرهان والحجة ، وإما قوة القهر والغلبة ، كما ورد فى حوار الشيطان يوم القيامة : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن لى سلطان حجة تقنعكم ، ولا سلطان قهر وقوة ترهبكم وتجبركم على المعصية ، بل كنتم على (تشويرة) مجرد أن

(١) أوجس : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة . وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ١/ ٣٢١] .

دعوتكم استجبتم ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] نقول : صرخ فلان فأصرخته يعني : أزلتُ أسباب صراخه .

وقوله : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ .. (٢٤)﴾ [غافر] نعم كان فرعون هو رأس الفتنة ومُدَّعي الألوهية ، لكن ذكر معه هامان لأنه كان وزيره ومساعده ، وقارون لأنه كان صاحبَ خزانته ، فكان الثلاثة شركاء ، لذلك اشتركوا أيضاً في اتهام موسى ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ [غافر]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا .. (٢٥)﴾ [غافر] أي : بالآيات ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٢٥)﴾ [غافر] مسألة قَتْل الأبناء جاءت من فرعون مرتين : الأولى : أيام كان موسى طفلاً ، وعلم فرعون من المنجِّمين أن زوال مُلْكه سيكون على يد أحد أبناء بني إسرائيل ، فأخذ يقتل الأبناء الصغار مخافةَ هذا الولد الذي سيُولد ويزول مُلْكه على يديه .

والعجيب أن نرى هنا غباء فرعون وتغفيله في قتل أبناء بني إسرائيل وحرصه على ألاَّ يفلت منهم أحدٌ ، حتى أن رجاله كانوا يدخلون البيوت يبحثون فيها عن الأطفال الصغار .

وقد أظهر هذا الموقف غباءه من ناحيتين ، أولاً : أنه يقتل الأبناء الصغار مع أن النبوءة تقول : إن زوال مُلْكه سيكون على يد واحد منهم ، ثم يأتيه غلام بهذه الطريقة المريبة : صندوق في البحر بداخله غلام صغير جاءه إلى باب بيته ، فيطمئن إليه ويأخذه ويُربِّيه على عينه ويغفل عما يُراد به .

وهذا الموقف يوضحه قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء .

وقوله : ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [غافر] أى : اقتلوا الأبناء الذكور ، لأنهم مصدر الخوف ، ومنهم يكون التمرد ، ومنهم مَنْ يزول مُلْك فرعون على يديه ، أمَّا النساء فاتركوهن أحياء للخدمة وللإذلال .

وهذا يفسر لنا : لماذا كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم ، لكى يكُنَّ معهم فى مصير واحد ، فإنِ انتصروا عادوا سالمين ، وإنْ قُتِلوا قُتِلوا جميعاً حتى لا يبقى النساء بعدهم للأَسْر والسَّبى والإذلال .

﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلالٍ (٢٥) ﴾ [غافر] نعم كان هذا كيداً من فرعون وأعوانه ، لكن هل أنفذ كيده ببنى إسرائيل ؟ لا بل ردَّ الله كيده عليه وباء بالضلال والخسران .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) ﴾

قول فرعون ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦) ﴾ [غافر] يعنى : اتركونى أقتله (سيبونى عليه) دَلَّ على وجود تيار من القوم يمنع فرعون من قَتْل موسى ، وإلا لما قال (ذَرُونى) فمَنْ هؤلاء ؟ ربما كانوا من أتباع

---

(١) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . [تفسير ابن كثير ٢٩٨/٢] .

فرعون المؤمنين بصدق موسى ، وبما جاء به ، فأحبُّوا أنْ يدافعوا عنه بطريقة لا تثير شكَّ فرعون ، فاحتالوا عليه .

وهذا دليل على أن أصحاب الخير يجوز لهم أنْ يحتالوا على أهل الشر لنصرة الخير وأن الله يعينهم . جاء هؤلاء وقالوا لفرعون : إنْ قتلتَ موسى سيقول الناس أنه على حق ، وأنك لم تقدر على رَدِّ حجته فقتلته لتستريح منه ، وعندها سيقفون ضدك .

ومن هؤلاء المدافعين عن موسى الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون ، والذى دافع عن موسى دفاعاً قوياً وقدَّم الحجج ، فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [غافر]

وتأمل هنا سُخْرية فرعون واستهزائه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. (٢٦) ﴾ [غافر] أى : ربه الذى يدعو إليه ليناديه كى ينقذه ولو لم يكُنْ مستهزئاً لقال : وليدْع ربَّنا ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر] سبحان الله انظر كيف يحاول أهل الباطل قَلْب الحقائق ، ففرعون يخاف من موسى أنْ يُبدِّل دين قومه ودينهم هو الإيمان بفرعون إلهاً لهم يعبدونه من دون الله .

﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر] ينشأ الفساد من أين ؟ من وجود فريقين فى المجتمع : فريق يؤمن بفرعون إلهاً ، وفريق يؤمن بموسى وربه الحق ، فالرعية كلها فى شقاق ونزاع ، وأصحاب مراكز القوى المستفيدون من ألوهية فرعون لن يسكتوا ، ولا شكَّ أن هذه فتنة ستُحدثُ فساداً فى نظره .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾

هنا يؤكد موسى على ربوبية الحق سبحانه بعد أنْ هدده فرعون بالقتل ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] ثم استهزأ بربه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] لذلك جاء ردّ موسى (إِنِّى) وفيها تأكيد واستحضار لعبوديته أمام عزِّ الربوبية التي يستهزىء بها فرعون ، فلما يقُلْ مثلاً : أعوذ بالله من فعلك ، إنما أكد أن الله ربه بل ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ أيضاً .

ومعنى ﴿ عُذْتُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر] أى : لجأتُ إليه وهو القادر على نُصْرتى وحمايتى ، فقوله ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر] يبين لنا منزلة الاستعاذة بالله ، فالإنسان حين يستعيذ بالله من شيء لا يَقْوَى عليه فقد أفاض وأنصف ، لأنه سلط على مَنْ آذاه وليستْ له قدرة على أنْ يردَّه ، سلَّط عليه مَنْ يقدر على أنْ يفعل .

لذلك قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل]

لماذا ؟ لأنك حين تقرأ القرآن تنفعل به ، وتكون معه فى حضرة الله يكلمك وأنت تسمع ، وحين تنفعل بالقرآن وتتدبر معانيه تحدث عندك إشراقات ومواجيد ترقى بك ، وهذا كله يغيظ الشيطان فيسارع إليك ليصرفك عن القراءة ، كما يحدث لنا كثيراً فى الصلاة مثلاً ، ويشكو الكثيرون منا من الانشغال فى الصلاة بسبب وسوسة الشيطان .

لكن لا عجبَ في ذلك إذا تأملنا قوله تعالى يحكى لنا موقف الشيطان منا : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] نعم ، وأيّ صراط أقوم من الصلاة وقراءة القرآن ، لذلك قلنا : إن الشيطان ليس في حاجة لأنْ يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليفسد عليك صلاتك ويشغلك عن منهج الهداية ، لذلك أمرك الله بالاستعاذة منه ليكون لك حصناً ووقاية .

هنا يقول موسى عليه السلام : إنى أعوذ بالله منك يا فرعون وهو أقوى منك وقادر على حمايتى من كيدك ، فهو (ربى) أى : الذى خلقنى وربَّانى وأنا مسئول منه ، فهو أوجدنى بقدرته ويصوننى بقيوميته ، ألاَ ترى أن كلَّ صانع يحفظ صنعته ، ويجعل لها ضماناً للصيانة ؟

أليس الخالق سبحانه أوْلى بأنْ يضمن لى حياتى التى خلقها ؟ بلى بشرط أنْ تقولها : (عُذْتُ بِرَبِّى) .

وكان يكفى أنْ يقول (إنِّى عُذْتُ بِرَبِّى) فلماذا قال (وَرَبِّكُمْ) ؟ قالوا : ليؤكد على ربوبية ربه عز وجل ، ويؤكد سعادته بهذه الربوبية ، فهو ربى وربُّ الآخرين وربكم جميعاً ليقولوها معه : إنَّا عُذْنا بربنا من فرعون وعمله ، وكأنه يريد أن يستجمع قُوىَ الخير والإيمان ويُقوِّى جانبه بالجماعة المؤمنة ، ليكون الدعاء أدْعَى للقبول وأوْلى .

هذه المسألة تفسر لنا أهمية الجماعة وروح الجماعة فى الإسلام ، إننا مثلاً فى الصلاة نقرأ بفاتحة الكتاب ، نقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة] هكذا بالجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : إياك أعبد وإياك

أستعين . لأن دعاء الجماعة أقوى ، الجماعة تُدخلك فى زمرة الصالحين ، فإذا لم تكُنْ صالحاً فجاور الصالحين لعله ينالك ما ينالهم من الثواب والقبول . لذلك احذر أنْ تحتقر أهل التقوى وأهل الصلاح ، فلعلَّك تُؤخذ فى محضِ الفضل معهم .

إذن : دعاء الجماعة أَوْلَى بالقبول من دعاء الفرد ، لذلك كانت صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة[1] ، أنت ترى التاجر مثلاً يبيع السلعة فيها المعطوبة وفيها السليمة ، فإذا ناقشته وقلتَ له لا آخذ المعطوبة مثلاً يقول لك : هذه صفقة واحدة المعطوبة فى السليمة ، كذلك نحن فى صلاة الجماعة ندارى المعطوبة فى السليمة أملاً فى أنْ تُقبل الصفقة كلها .

فمن أىِّ شىء استعاذ سيدنا موسى ؟ ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾ [غافر] هكذا بصيغة الجمع وبالوصف ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ .. (٢٧) ﴾ [غافر] ولم يصرح باسم خصمه فرعون صاحب القضية ومُدَّعى الألوهية ومهدده بالقتل ، فلماذا ؟

قالوا : لم يُذكَر فرعون فى هذا المقام لأمرين :

الأول : حتى لا يجعل فرعون فى مقابل الله لو قال : إنى عُذْتُ بربى من فرعون ، ثم إن فرعون لم يكُنْ وحده ، بل كان معه آخرون على شاكلته ، فأراد أنْ يجمعهم بكلمة تشمل كل متكبر .

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٠) .

الأمر الآخر : أن سيدنا موسى هنا يراعى حقَّ التربية ويحفظ لفرعون هذا الجميل فلم يصرح باسمه ، ويكفى أنه داخلٌ ضمن هذا الوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر]

لذلك نجد القرآن الكريم جعل التربية شقيقة الولادة ، يعنى الابن فى الدم مثل الابن فى التربية ، فقال سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان] ثم خصَّ الأم بالحيثية ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا[1] عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لماذا يذكر القرآنُ هذه الحيثية للأم ؟

قالوا : لأن هذه الحيثية لا يدركها الولد وهو طفل ، فى حين يدرك بعد ذلك فضلَ والده فذكَّره الله بفضل أمه لأنه لم يشهده ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فعلَّة الدعاء هنا التربية ، سواء أكانت للأم التى ولدت ، أم للأم التى ربَّتْ ، فمن ربَّى غير ولده كان أهلاً لأنْ يدعى له هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] يعنى : اجتمعتْ فيه خَصْلتان من خصال الشر ، فهو متكبر يعنى قاسى القلب ، وقسوة القلب لا تردعه عن القهر والجبروت ، ثم هو لا يؤمن بالحساب فلا يخاف من القصاص ، ولا يعمل حساباً للعواقب ، ومثل هذا لا أملَ فى إصلاحه .

---

(١) الوهن : الضعف . أى : ضعفاً على ضعف ، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل . [القاموس القويم ٢/٣٦٢] .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) ﴾[1]

لما لجأ موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فقال : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى .. (٢٧) ﴾ [غافر] استجاب الله له وأعاذه ، لا برسول ولا ملك ولا بأحد من أتباعه المؤمنين ، إنما برجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون قام مدافعاً عن موسى ، وهذا أوضح فى الحجة وأبلغ .

لكن لماذا ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. (٢٨) ﴾ [غافر] ما دام مؤمناً ؟ قالوا : كانوا يغلفون إيمانهم ويسترونه لأنه ليس لديهم القوة التى يَدْفعون بها الطغيان ، فالإيمان فى النفس حتى يجد الفرصة فيظهر ويجاهر ، وها هو يظهر على لسان هذا الرجل المؤمن الذى يعلن أمام فرعون وجبروته أنه مؤمن ، ويدعو بدعوة هى أشبه بدعوة الرسل ، ويخبر بمنهج كأنه رسول .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٧٧/٤) : « المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً (أى مصرياً) من أهل فرعون . قال السدى : كان ابن عم فرعون ويقال : إنه الذى نجا مع موسى عليه السلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم » .

وكلمة ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] لها فى الإسلام ملحظ وتاريخ ، ومعنى كَتْم الإيمان أن الإيمان يحاول أنْ يبرز فى تصرفات الرجل لكنه يكتم إيمانه ، فهو حريص على أنْ يجعل إيمانه سراً بينه وبين ربه فقط ليستطيع أن يقول كلمة الحق ويجهر بها أمام القوم وهو غير مؤمن حتى لا يُؤذَى .

إذن : فالإيمان عمل وجدانى له نضح على جميع جوارح النفس الإنسانية ، فالمؤمن تجده متواضعاً منكسراً يستجيب للحق ويخضع له ، المؤمن عطوف كريم حليم رحيم ، تلحظ إيمانه من تصرفاته ، ولكنه يحاول أن يكتم هذا حتى يقف الموقف الذى يمكنه من الجهر بالإسلام جهراً قوياً عنيفاً .

لذلك يقولون : إن الإيمان عملية قلبية وهو سرٌ بين العبد وربه ، ثم له أمر ظاهرى بين المؤمن والناس ، وقد يلتحم الأمران السر والجهر بينه وبين ربه ، وبينه وبين الناس ، فقد يكون مؤمناً بينه وبين الله أما بينه وبين الناس فهو مؤمن أو غير مؤمن ، لأن العملية الإيمانية يُبدى فيها فوق ما يظهر إيمانه ، والرسول ﷺ شرع هذا ، كيف ؟

قالوا : فى غزوة الأحزاب حين اجتمعتْ قريش وغطفان(١) واليهود ، حيث استدرج اليهود كلاً من قريش وغطفان ليحاربوا معهم محمداً ليثأروا منه ﷺ بعد مسألة بنى قينقاع(٢) لما آذاهم رسول الله .

---

(١) غطفان : قبيلة ضخمة تنتمى إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان إلى عدنان ، شكلت فى العهد الجاهلى والإسلامى كتلة مهمة ضمن القبائل القيسية التى بسطت سيطرتها على البوادى العربية ، انتقل الكثير من القبائل الغطفانية إلى مصر ويتركزون فى ليبيا ومنهم فى فلسطين فى جبال نابلس وكذلك العراق (ويكيبيديا) .

(٢) كان بنو قينقاع أول يهود ينقضون ما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحاربوا رسول الله بين بدر وأحد ، فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ﷺ . (دلائل النبوة ٣/١٧٤) ثم كانت غزوة بنى النضير وكانت قبل أحد فقد رفضوا معاهدة رسول الله ﷺ فقاتلهم حتى نزلوا أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من الأمتعة وأبواب بيوتهم وخشبها . [دلائل النبوة ٣/١٧٩] .

فلما ذهب حيى[١] ومعه سلام بن مشكم[٢] إلى مكة ليستثيروا قريشاً وغطفان على رسول الله ، قال لهم : يجب أن نقف جميعاً يداً واحدة في مواجهة محمد ، لأننا إنْ تركناه سيستذلنا ويستذلكم ، فلا بُدَّ أنْ تنجدونا بقوتكم ، لكن قريشاً يعلمون أن اليهود أهلُ كتاب ، فقالوا لهم : نريد أنْ نسألكم أولاً : أمحمد على حق أم نحن ؟

وهم يعلمون موقف اليهود من قبل من رسول الله ، وأنهم كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويقولون : سيأتي نبيّ أظلَّ زمانه سنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[٣] . المهم أنهم قالوا لهم : إنكم على حق ومحمد على باطل . وفعلاً اتحدوا في محاربة رسول الله ﷺ ، هذه الحرب التي قال الله فيها عن المؤمنين : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

---

(١) هو : حُيي بن أخطب النضرى ، جاهلي من الأشداء العتاة ، كان يُنعت بسيد الحاضر والبادى ، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه .. توفي عام ٥ هجرية - ٦٢٦ م . الأعلام للزركلي ٢/٢٩٢ .

(٢) سلام بن مشكم القرظي : شاعر يهودى ، يكنى أبا غنم ، كان سيد بني النضير في زمانه وكان صاحب كنزهم ، كان ممن يقول أن عزير ابن الله . وكانت امرأته زينب بنت الحارث اليهودية هي التي حاولت سمّ رسول الله .

(٣) يقول تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة] أخرج أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/٥٢) عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه . فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ، وقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد وإنّا أهل الشرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم : ما هو بالذى كنا نذكر لكم ما جاءنا بشيء نعرفه ، فأنزل الله الآية .

وسُميت هذه الغزوة غزوة الأحزاب أو الخندق ، ويأتى جند من جنود الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ويذهب إلى رسول الله ﷺ ويقول له : يا رسول الله لقد أُشْرب قلبى الإيمان ولا يعلم أحدٌ بإيمانى وأنا أشهد أنك رسول الله ، واسم هذا الرجل نُعيم بن مسعود الأشجعى[1] فقال له رسول الله : « أنت رجل واحد وما غناؤك لى ، لكن اكتم إيمانك وخذِّل عنا »[2] .

هذه أول مسألة فى قضية كتم الإيمان ، إذن : فَكتْم الإيمان جائز وله مهمة . فقال الرجل : لكن يا رسول الله سأضطر لأنْ أقول غير الحقيقة - أكذب يعنى - قال : (افعل ما تحب) .

فما كان من نُعيم بن مسعود إلا أن ذهب إلى قريش وغطفان وقال لهم : أنتم تعلمون وُدِّى لكم ومحبتى إياكم وقد جئتكم بنصيحة لأبرىء ذمتى من الوفاء لكم . إن اليهود ندموا على معاداة محمد وهم يريدون أنْ يتراجعوا ولن يتراجعوا إلا بشىء تكون لهم يد يطمئنون إلى معاهدة محمد .

فإذا أردتم أنْ تناجزوا[3] محمداً مع هؤلاء وتضمنوا عدم خيانتهم

---

(١) هو : نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى ، صحابى من ذوى العقل الراجح ، قدم على رسول الله سراً أيام الخندق واجتماع الأحزاب وكتم إسلامه ، فالقى الفتنة بين قبائل قريظة وغطفان وقريش سكن المدينة ومات فى خلافة عثمان . وقيل : قُتل يوم الجمل قبل قدوم على إلى البصرة . توفى نحو ٣٠ هجرية . الأعلام للزركلى (٨/٤١) .

(٢) أورده الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » أن رسول الله ﷺ قال له : خذِّل عنا فإن الحرب خدعة . وأخرجه الطبرى فى تهذيب الآثار (٤/١٧٥) وأبو نعيم الأصبهانى فى معرفة الصحابة (حديث ٥٧٩٧) .

(٣) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

فسوف يطلبون منكم سبعين رجلاً رهينة من قريش وغطفان مخافةَ أنكم إذا اشتدتْ الحرب وحميَتْ تتركوهم وترجعوا إلى بلادكم ويظلُّون هم في مواجهة محمد ويكونون هم أعداءه .

ثم ذهب إلى اليهود فقال لهم : أنتم تعلمون مودتى لكم ومحبتى إياكم ، وإن هؤلاء القوم يعنى قريشاً وغطفان ليسوا من بلدكم ولهم مكانتهم فى بلادهم ، ولهم أموالهم وأهلوهم ، فإن استشعروا شيئاً فرُّوا وتركوكم فى مواجهة محمد ، فلتأخذوا منهم سبعين رجلاً رهينة حتى تضمنوهم .

فلما جاء أبو سفيان وقال : لقد طال بنا الموقف وتعب الخُفّ والحافر وطالت المدة ، فيا معشر يهود هيا لننجز مهمتنا ، قالوا : هذا يوم السبت ولا نقاتل فيه ، ونحن لا نقاتل الرجل إلا أن نضمن أنكم معنا إلى نهاية المعركة فأعطونا سبعين رجلاً منكم رَهْناً .

عندها علم أبو سفيان أن كلام نعيم صحيح ، فقال : ليس لنا إلا أن نعود إلى بلادنا ، ثم قال : يا قوم لينظرْ كل واحد منكم مَنْ عن يمينه ومَنْ عن شماله لأننا سنقول كلاماً مهماً .

وكان النبى ﷺ قد أرسل إليهم سيدنا حذيفة ، فكان بين صفوفهم فبادر مَنْ عن يمينه وسأله : مَنْ أنت ؟ ومنْ عن شماله وسأله : مَنْ أنت ؟ وكانت فطنةٌ ولباقة منه حتى لا يسأله أحد ولا ينكشف أمره[1] .

بعد ذلك قال أبو سفيان : لم يَعُدْ أمامنا إلا الرحيل حتى لا نقع فى مخالب اليهود فهيا ، وضرب راحلته فقامت وهى معقولة فانقطع العقال .

---

(١) أورده السهيلى فى كتابه « الروض الأنُف » (٣/٤٣٣) ، فى قصة الأحزاب وتجمعهم لغزو المدينة .

الشاهد هنا أن نعيم بن مسعود كتم إيمانه عن القوم ليتمكن من القول الذي قاله ، وإنْ كان غير الواقع ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن استأذن فيه رسول الله ، وهذا دليلٌ على أن كتم الإيمان جائز وأن له مُهمة .

كذلك سيدنا العباس رضي الله عنه لا شكَّ أنه كان قد آمن برسول الله ، لأنه ساعة أخذ العهد[1] لرسول الله وكان لم يعلن إسلامه بعد ، ذهب وقال : هذا محمد في مَنَعة من قومه ، فإنْ شئتم أنْ تأخذوه فعاهدوه على كذا وعلى كذا وإلا فاتركوه ، فكيف يأخذ العهد لرسول الله وهو ما يزال على دين قريش ؟

إذن : لابدَّ أنه كان يكتم إيمانه حتى لا تجرؤ قريش على إيذاء رسول الله الإيذاء البالغ إكراماً لعمه العباس . فهذه مهمة كتم الإيمان ، لذلك يقول تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [النحل]

وفي غزوة خيبر كان في اليهود رجل اسمه الحجاج بن علاط السُّلَمي[2] جاء في هذه الغزوة وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد شرح الله صدري للإسلام وأشهد ألا إله إلا الله وأنك

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٤٦) من حديث كعب بن مالك من حديث طويل أنه لما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا فلما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلُّل القطا ، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة ، فأتانا رسول الله ﷺ وعمه العباس ليس معه غيره ، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه فكان أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وهو في منعة من قومه وبلاده قد منعناه ممن هو على مثل رأينا فيه ، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم ، وإن تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه في قومه فإنه في منعة من عشيرته وقومه .

(٢) هو : الحجاج بن علاط بن خالد بن ثويرة ، له صحبة . السلمي ثم الفهري يكنى أبو كلاب ، قدم على النبي ﷺ وهو بخيبر فأسلم وسكن المدينة واختط بها داراً ومسجداً الإصابة في معرفة الصحابة (١/٢١٢) .

رسول الله ، وأنا ذاهبٌ الآن إلى مكة لأموال لى هناك وأمانات أستردها ؟ وسوف يسألوننى فاسمح لى أنْ أقول[1] قال له (قُلْ ما تشاء) .

وذهب الحجاج إلى قريش فقالوا : لابدَّ أن عند هذا الخبر ، وسألوه : هل ذهب القاطع إلى خيبر ؟ يقصدون رسول الله لأنهم كانوا يتهمونه بقطع الأهل والعشيرة بعد بعثته ﷺ فقال : نعم وهُزِم هناك هزيمةً منكرة وقُتل أصحابه ، وسيأخذه اليهود أسيراً ويأتون به إليكم ليصنعوا معكم يداً تظل عليكم لهم طوال العمر ، وقد جئتكم لآخذ أموالى التى عند الناس حتى أذهب إلى السَّبْى قبل أنْ تُباع فأشترى منه ، فأخذوا يساعدونه فى جمع أمواله ويُيسِّرون له مهمته .

بلغتْ هذه المقالة العباس فذهب إليه وقال له : يا حجاج ماذا تقول ؟ قال : هو ما سمعت ، قال : أو حَقٌّ ذلك ؟ قال : أفتكتُم علىَّ ؟ قال : والذى نفسى بيده أكتم عليك ، قال : أمهلنى حتى يخلو موضعى من الناس ، فجلس مُدة ثم ذهب إليه فقال : والله الخبر الذى بلغك عنى لم يحدث منه شىء ، بل تركتُ محمداً منتصراً فى خيبر وعروساً على صفية بنت حيى بن أخطب ، ولكنى احتلتُ لآخذ أموالى من هؤلاء ، فاكتُمْ أمرى واستر علىَّ ثلاثة أيام حتى أُعجز القوم وأفرّ ثم أشِعْ ذلك ما شئتَ .

وبعد ثلاثة أيام تطيَّب العباس بالطِّيب وأمسك عصاه ثم طاف بالبيت فلقيه واحد منهم وقال : والله لهذا هو التجلُّد يا أبا الفضل . يقصد بذلك المصيبة التى وقعت لابن أخيه ، فقال العباس للرجل :

---

(١) أى : أن يقول ما يستطيع به أن يخدع المشركين إلى أن يأخذ ماله الذى عند امرأته . فأذن له رسول الله .

والذى حلفتَ به ما هو تجلّد ولكنه حقيقة الأمر ، لأن صاحبكم أخبركم بخلاف الواقع وابن أخى انتصر على أعدائه وهو عروسٌ على بنت حُيى بن أخطب فى خيبر ، قال : أو يكون ذلك ؟ قال : هكذا ، قال : أفلتنا الخبيث فأوْلَى له[1] .

نقول : كتم هؤلاء إيمانهم ليتمكنوا من نُصْرة الدين وليكونوا جنداً من جنوده ، وللإسلام جنديات مختلفة : جندية العلانية ، وجندية الكتمان ، وجندية التجسس على الأعداء .

بعض المفسرين[2] قال : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] أى : من آل فرعون ، وهذا غير صحيح بدليل أنه سيقول ويخبر بهذا الإيمان ويُفصله كأنه رسول ، ولو كان الكتمان من آل فرعون لَقَال : يكتم إيمانه آل فرعون لأن الفعل (كتم) يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء]

لكن ماذا قال الرجل المؤمن ؟

قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] تأمل جرأة الحق من هذا المؤمن ، فهو يجهر بهذا الاستفهام الإنكارى ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] يجهر به أمام فرعون . ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] أى : بسبب قوله ربى الله فلا جريرةَ له غير هذا ، يقولها الرجل المؤمن علانية أمام فرعون ، وما أدراك ما فرعون ، إنه الوحيد

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده من مسند أنس بن مالك ، والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/١٥١) وعبد الرزاق فى مصنفه (حديث ٩٧٧١) (٥/٤٦٦) وابن سعد فى الطبقات الكبرى (٢/١٠٨) .

(٢) ما ذهب إليه ابن كثير فى هذا الأمر أنه قال (٤/٧٧) : « قد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] » .

الذى ادعى الألوهية وقال لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي (٣٨)﴾ [القصص] فلا شكَّ أن كلمة الرجل المؤمن تغيظه وتهدم أركان ألوهيته المدَّعاة .

وقوله : ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ (٢٨)﴾ [غافر] أى : بالآيات الواضحات فكيف يُقتل ؟ ولنفرض أنه كذاب فلا يضيركم كذبه ، لأنه كذب على الله وسوف يتحمل عاقبة هذا الكذب ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ (٢٨)﴾ [غافر] يعنى : وإنْ كان صادقاً لم تُحرموا خيره وأصابكم بعض هذا الخير . إذن : لماذا تقتلونه ؟ فالاحتياط ألاَّ يُقتل .

لكن ، هل معنى ذلك أن نترك كلَّ ملحد يقول ما يحلو له ويخوض فى أمور الدين ولا نمنعه اعتماداً على ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ (٢٨)﴾ [غافر] قالوا : لا بل يجب أنْ نُقدِّر هنا جملة : امنعوه أن يقول لكن لا تقتلوه . كثيراً ما نسمع عن الزنادقة الذين يخوضون فى دين الله الآن ، فماذا نفعل ؟ أنتركهم ونقول : عليهم كذبهم ؟

لا إنما يجب أنْ نتصدَّى لهم ونمنعهم من هذا الهراء ، ونأخذ على أيديهم حتى لا يُحدثوا ما يضر بدين الله . كذلك قال الرجل المؤمن من آل فرعون يدافع عن سيدنا موسى عليه السلام كأنه يريد أنْ يستبقى حجة الحق لعله تُوجَد آذان فيما بعد تنصره .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)﴾ [غافر] هذا الكلام يُعَد تعريضاً وطَعْناً فى فرعون ، فالحق سبحانه لا يترك أحداً يكذب عليه دون أنْ يفضح كذبه ، لماذا ؟ لأن سَتْر هذا الكذب يُعتبر تدليساً فى منهج السماء ، وحاشا لله تعالى ذلك ، لذلك نرى كلَّما ادَّعى أحدٌ النبوةَ افتُضِح أمره

وعلم الناس كذبه ، لأنه لا يصح أنْ يدَّعي كذابٌ النبوة ، ولا يظهر الله للناس كذبه ، وهذا مُتضمَّنٌ في قوله تعالى وفي وعده : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١) ﴾ [غافر]

وفي قوله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ(١) فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) ﴾

قوله : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩) ﴾ [غافر] هذا كلام الرجل المؤمن ينصح قومه . نعم لهم المُلْك أي : مُلْك فرعون وجبروته وسطوته وادعاؤه للألوهية .. إلخ و﴿ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ (٢٩) ﴾ [غافر] يعني : منتصرين وعالين على غيركم ، لكن احذروا فهذا حال موقوت لا يدوم لكم فهو مُقيَّد ﴿ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩) ﴾ [غافر] وكأنه يقول لهم : احذروا أنْ يضيع هذا الملْك من أيديكم .

فربما كان هذا الرجل - أي موسى عليه السلام - صادقاً فيجمع حوله الأتباع والأنصار ، ويقضي على هذا الملك ، فاستبقوا إذن ولو الضلال الذي أنتم عليه ولا تدخلوا معه في صدام لا تعلمون عاقبته ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا (٢٩) ﴾ [غافر] لا أحدَ ، لأن بأسَ الله وانتقامه في تأييد رسله بأسٌ لا يُرَدّ ولابدَّ أنْ يدمر المخالف

---

(١) ظاهرين : أي عالين ذوي مكانة ورفعة . [القاموس القويم ١/٤٢٠] فلان ظاهر على فلان أي غالب عليه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أي : غالبين عالين . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

فاحذروا ، هكذا يتحدث الرجل المؤمن بمنطق الإيمان الراسخ فى نفسه ويصدق قومه لا يغشهم .

وهنا لا بُدَّ أنْ ينتفضَ فرعون ، وأنْ يحاول القبض على زمام الأمور لصالحه : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر] لاحظ منطق التسلط فى ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ (٢٩)﴾ [غافر] ومنطق التزييف فى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]

لكن هذا من فرعون لم يمنع الرجل المؤمن أنْ يستمر فى دعوته ولم يصدَّه أنْ ينصح قومه :

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ(١) قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾

هنا يستمر الرجل المؤمن فى نُصْحه لقومه ، فكلمة فرعون لم تُخفهُ ولم تصدَّه عن دعوته ، فيقول : ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠)﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم ظاهرين الآن فى الأرض ولكم الغلبة ، فلستم أظهر ممن سبقوكم فى موكب الرسالات من أول نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر]

وقد أرانا الله العجب فيمن كذَّب الرسل ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأب والدأب : العادة والشأن . فقوله تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١)﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . [القاموس القويم ١ / ٢١٩] .

مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ[2] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [3] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : عليكم أنْ تأخذوا ممن سبقوكم فى التكذيب عبرة ، خاصة وأنتم تشاهدون آثارهم فى الأرض التى تدل على أنهم كانوا أقوى منكم وآثاراً فى الأرض ، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم ، ولم تمنعهم آثارهم من بأس الله حين نزل بهم ، وما أبقى الله على هذه الآثار إلا لتكون عبرة لمن بعدهم ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

ولو انطمستْ آثارهم لم تكُنْ هناك حجة واقع ، فبقاء الآثار إلى الآن تبين لنا أن الذين صنعوا هذه الحضارات وتركوا هذه الآثار لم يستطيعوا أنْ يحموا حضاراتهم ، وكانوا أكثر منكم قوة وآثاراً فى الأرض وعمروها أكثر منكم ، فما دام قد حدث هذا فى الواقع وأنتم تشاهدونه فخذوه قولاً من الرسول وواقعاً أمامكم فى الكون .

ونلاحظ هنا أن كلمة (يَوْم) جاءت مفردة و (الأحزاب) جمع فلماذا لم يَقُل مثلاً (أيام الأحزاب) ، والحزب هم الجماعة المناهضون للرسول المكذبون له ، فحزب مناهض لنوح ، وحزب مناهض لهود ، وآخر لصالح .. الخ .

---

(١) الحاصب : ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه وهم قوم عاد . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

(٢) الصيحة : عذاب يصحبه صوت شديد يخمد أصوات المعذَّبين ويشلهم عن الحركة . [القاموس القويم ١/٣٨٦] قال ابن كثير فى تفسيره : « هم قوم ثمود » .

(٣) المقصود بمن أُغرقوا : هم فرعون وجنوده وملؤه ، الذين أغرقوا فى البحر بعد انطباقه عليهم .

إذن : فالأيام هنا متعددة ، ومع ذلك قال : ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [غافر] فوحَّد اليوم وجمع الأحزاب ، لماذا ؟ لأن العملية كأنها حدثٌ واحد مُتحد فى الجميع ، وإنْ تعددتْ الأحزاب بتعدُّد الرسل فهو يوم الأحزاب لا أيام الأحزاب ، لأننا لو قلنا : أيام الأحزاب لكان لهذا يوم بسبب ، ولهذا يوم بسبب آخر وهكذا ، لكنه سبب واحد فى جميع الحالات ، ألا وهو التكذيب فى مقام العقيدة ، وفى مقام تشريع الحق سبحانه للخلق .

ثم بعد ذلك يُفصل ما أجملته كلمة الأحزاب : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر] يعنى : لم يأخذهم هذه الأَخْذة ظلماً لهم ، وكلمة (للعِبَاد) يعنى : كيف يظلمهم وهم عباده وصنعته ، إنما أخذهم جزاءَ أفعالهم وتكذيبهم لرسلهم ليكونوا عبرة واقعية فى الكون يعتبر بها كل مَنْ يعارض منهج الحق .

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[1] ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

---

(١) التناد (بكسر الدال) بمعنى المناداة . ومنه الأمثلة التى سيوردها فضيلة الشيخ من آيات نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار ، وكذلك نداء أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ، وكذلك مناداة أصحاب الأعراف .

وقد ورد فى هذه الكلمة قراءتان أخريان :

« التنادى » بإثبات الياء فى الوصل والوقف على الأصل . وهى قراءة الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد .

أما القراءة الأخرى فهى « التنادّ » بتشديد الدال . قال أبو جعفر النحاس : القراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هاربين ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه .

يوم الأحزاب كان فى الدنيا ، أما يوم التناد فـيوم القيامة ، فكأنه حـذَّرهم بيـوم الأحزاب من المـصـائب التى تأتيـهم فى دنيـاهم ، ثم حذرهم بيوم الجزاء يوم القيامة فقال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [غافر] والتناد تفـاعل يعني : تناديني وأناديك ، والتنادى يوم القيـامة سيكون مـن وجوه عدة ، يقـول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء] وهذا أول نداء ، يقول : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى .. الخ أو أن ينادى بعضهم بعضاً .

وقد ذكـر الحق سبحانه صـوراً متعددة من هذه النداءات ، فـقال سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأعراف] وأصحاب الأعـراف جماعة اسـتوت حسناتهم وسيـئاتهم ولم يدخلوا الجنة ، ومع ذلك يشمتون في الكفار .

أو : أن التناد ليس من مناداة بعضنا لبـعض ، إنما هو من الفعل (ندَّ) يعني : بعُد وشرد ، يعني : يوم التناد يوم تشرد مني وأشرد منك ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس] والمـراد : يفر منهم وهم كـذلك يفرون منه ، فكلٌّ يهرب من الآخر لانشغاله بنفسه .

لكن ماذا يقصد الرجل المؤمن بذلك ؟ قالوا : يريد أن يقول لهم : إنْ كنتم تظاهرون بعضاً على الباطل فى الدنيا فـاعلموا أنكم ستفرون من بعض فى الآخرة ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر]

وتأمل هنا حبكة الأداء القرآني ، فحينما يأتي بلفظ يحمل معنيين أو يجمع بين معنيين يأتي بما يدل على كل منهما ، فهنا مثلاً قال ﴿يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢)﴾ [غافر] بمعنى المناداة . وقال : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (٣٣)﴾ [غافر] بمعنى الفرار ، فجمع بين المعنيين في كلمة (التناد)

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر مخلوقات علوية ، والشجر أرضي وبينهما كلمة (النجم) ولها معنيان : الأول : المتبادر إلى الذِّهْن هو النجم العالي في السماء من جنس الشمس والقمر ، والآخر (النجم) بمعنى : العُشْب الذي لا ساقَ له ، وهو جنس الشجر .

وقوله : ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ [غافر] (منْ عَاصِم) يعني : لا أحد يستطيع أن يمنعكم من الله ، ولا يدفع عنكم بأساً إنْ نزل بكم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ [غافر] يعني : من يحكم الله بضلاله لا يهديه أحد ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى سيعينه ويُمكنه من الضلال .

لذلك قلنا : إذا أحبَّ العبدُ شيئاً قال الله لعبده : أحببته يا عبدي سأبليك به ، كمن مات له عزيز مثلاً فحزن عليه حزناً شديداً وبالغ فيه واستمرأ الحزن ، فيقول الله له : أحببتَ الحزن وعشقته ، سوف أزيدك منه ، كلما تقادم جددته لك .

لذلك قال أهل المعرفة : أغلقوا أبواب الحزن بمسامير الرضا ، لأنكم إنْ ألفتم الحزن وعشقتموه أدامه الله عليكم ، لأنه سبحانه ربكم والمتولي لأموركم ، ويعطي كلاً منكم بُغْيته ، حتى الكافر الذي أحب الكفر وعده الله أنْ يعينه عليه ، لذلك يختم على قلبه بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

ثم يستمر الرجل المؤمن من آل فرعون في نصحه لقومه فيقول[1] :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ﴾

لما جاء يوسف عليه السلام لم يكُنْ في زمنه فرعونٌ على مصر ، إنما كان هناك ملك هو العزيز ، لذلك لما تقرأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام لا تجد ذكراً لفرعون أبداً كما في قصة سيدنا موسى ، ولما عرفنا أحداث التاريخ المتعاقبة واستطعنا أن نُرجع الأحداث إلى أزمانها عرفنا أن يوسف كان في فترة ملوك الرعاة (الهكسوس) ، وهؤلاء بعد أنْ دخلوا مصر قضوا على حكم الفراعنة وألغوا الفرعونية وجعلوا أنفسهم ملوكاً ، لذلك يقول في القصة ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ (٤٣) ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ فرعون .

ولما عادتْ الفرعونيةُ مرة أخرى أخذوا يضطهدون بني إسرائيل لأنهم كانوا يناصرون الملك ويؤيدونه .

قوله ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ (٣٤) ﴾ [غافر] أي : الآيات الواضحات الدالة على صدقه في البلاغ عن الله ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ (٣٤) ﴾ [غافر]

(١) ذهب القرطبي في تفسيره (٥٩٦١/٨) إلى أن هذا القول من كلام موسى عليه السلام لقومه . ولكنه قال : « وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء » .

أى : تشكُّون فى صدق رسالته[1] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : مات ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] قالوا : ذلك لأنهم ينكرون الرسالة ، فهم فى أنفسهم منافقون ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : متجاوز للحد ﴿ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] شاكٌ فى الرسالة مُكذِّب لها .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهل هناك جدل فى الله وله سلطان يؤيد ؟ قالوا : نعم الجدل المقصود جدلٌ فى الله . يعنى : فى أمر الله للإثبات ، وجدل من المقابل لنفيه . وقلنا : إن الآيات تأتى على معانٍ ثلاثة : آيات كونية تدل على طلاقة قدرة الخالق سبحانه ، وآيات لإثبات صدْق الرسل فى البلاغ عن الله وهى المعجزات وآيات القرآن التى تحمل الأحكام . ففى أىِّ هذه الأنواع كانوا يجادلون ؟

أولاً : جادلوا فى آيات المعجزات وقالوا عنها سحر ، والرد على هذا الادعاء سهل ، إذ نقول لهم : الذى سحر الناس فآمنوا به ، لماذا لم يسحركم أنتم أيضاً لتؤمنوا به وعندها تنتهى المسألة ؟

كذلك جادلوا فى آيات الأحكام ، لماذا ؟ لأن كل حكم يُنزله الله

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٩) لفتة فى مسألة أن المصريين ظلوا فى شك مما جاءهم به يوسف عليه السلام ، فقال : « كان يوسف رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوى » .

على عباده يمنع طغيان جيل فى جيل أو فرد فى فرد ، وهذا ينافى مصلحة أهل التسلط والكبرياء فى الأرض ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾[القصص]

أما الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه كالشمس والقمر والنجوم وغيرها فليست مجالاً للجدل ، لذلك لم يجادلوا فيها .

ومعنى ﴿ كَبُرَ مَقْتًا (٣٥) ﴾ [غافر] أى : أن هذا الجدل فى آيات الله بغير حَقٍّ جدلٌ ممقوت يبغضه الله بغضاً كبيراً ، ويبغضه الذين آمنوا الذين يحرصون على دين الله وتقوية دواعى الإيمان به فى النفوس .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ[1] اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ [غافر] معنى ﴿يَطْبَع ﴾ أى : يختم على قلبه . والمتكبر : هو الذى يفتعل الكبر ويدعيه وليس عنده مبرراته ، فهو يتكبر بلا رصيد عنده للكبر . لذلك ورد الحديث القدسى الذى يوضح هذه المسألة ، ويقسم المجتمع الإيمانى إلى اثنى عشر قسماً ، ست منها فى المحبوبية : منها ثلاثة للمحبوبية العليا ، وثلاثة للمحبوبية الأقل . وستٌ أيضاً للمبغضين منها ثلاثة للمبغضين ، وثلاثة للمبغضين أقلّ ، فانظر فى أيِّها يكون المتكبر .

قال تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحبى لثلاث أشدّ : أحب الفقير المتواضع وحبى للغنى المتواضع أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحبى للفقير الكريم أشدّ . وأبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشدّ : أبغض الغنى المتكبر وبغضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ

---

(١) الطبع فى أصل اللغة : الختم وهو التأثير فى الطين ونحوه . وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف وغيره . قال أبو إسحاق النحوى : معنى طبع فى اللغة وختم واحد ، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن لا يدخله شىء . [لسان العرب – مادة : طبع] .

العاصى أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ »[1]

ففى ضوء هذا الحديث نتعلم أن المجتمع الإيمانى ينبغى أن يكون غنيه متواضعاً ، وفقيره كريماً ، وشبابه طائعاً . هذه صورة أرقى المجتمعات وأعلاها يأتى بعده فى المرتبة مجتمع : فقيره متواضع ، وغنيه كريم ، وشيخه طائع .

إذن : قلنا إن المتكبر مَنْ يتكبّر وليس عنده مبررات الكبر ، فماذا لو كان عنده مبررات الكبر ؟ نقول : إنْ كان عنده مبررات الكبر فإنه ينقصه أنه يتكبر بشىء غير ذاتى فيه ومن الممكن أنْ يُسلب منه ، كمن يتكبر بعافيته فقد يسلبها الله منه لأنها عَرَضٌ زائل عنك ، ثم إن المتكبر حينما يرى مَنْ هو أكبر منه يتضاءل فى كبريائه ، ولو أنه رأى ببصيرته كبرياء ربه لما تكبّر .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (٣٦) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) ﴾

---

(١) أورد أبو الليث السمرقندى نحو هذا فى كتابه « تنبيه الغافلين » الباب ١٩ فى الحسد والنهى عنه (ورقة ٥٨ مخطوط الأزهرية ٣٠٧٠٧١) أورده بلفظ يقال بصيغة التمريض وهى صيغة تضعيف ، ولم يذكر له راوياً أو سنداً ولفظه : « إن الله يبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد ، يبغض الفاسق وبغضه للشيخ الفاسق أشد ، ويبغض البخلاء وبغضه للغنى البخيل أشد ، ويبغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد . ويحب ثلاثة نفر وحبه لثلاثة منهم أشد ، يحب المتقين وحبه للشاب التقى أشد ، ويحب الأسخياء وحبه للفقير السخى أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد » .

(٢) الصرح : القصر العالى ، قال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. (٤٤) ﴾ [النمل] [القاموس القويم ١/٣٧٣] والصرح أيضاً وهو المقصود من أمر فرعون لهامانَ ببناء صرح : بيت واحد يُبنى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء . [لسان العرب - مادة : صرح].

يأمر فرعونُ وزيره ومعاونه هامان أنْ يبنى له بناءً شامخاً يصعد عليه ، لعلَّه يرى هذا الإله الذى يدعو موسى إلى عبادته ، كأن الصَّرْح سيُوصلّه لرؤية الإله ، والله الإله الذى تراه من صرح لا يصح أنْ يكون إلهاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر] أى : ضلال وخُسْران ، فلن يظل كذلك ، ولكن سيعلو ويعلو إلى أنْ يفضحَ اللهُ أمره يوم الغرق .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾

هذا قوْل الرجل المؤمن من آل فرعون يعظ قومه وكأنه نبيّ ، فإنْ قُلْتَ : وماذا أسكته عن فرعون حتى وصل بضلاله إلى أنْ يدَّعى الألوهية ؟ قالوا : هذه من ضمن قولنا إن للحق صَوْلة لكن لها وقتها المناسب ، وساعةَ ينطق الحق على لسان هذا المؤمن فكأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك لم يعارضه أحدٌ لأن وارد الرحمن لا يُعارَض إنما يُعارض وارد البشر .

لذلك لما قال الحق سبحانه :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[1] وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] لم تعارض هذا الرأى ، ومَنْ يقول للمرأة : إنْ خافت على وليدها ألقيه

(١) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحاً شديد الملوحة ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، والمقصود هنا هو نهر النيل بمصر، وقد خطَّأ ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) الليث فى قوله : اليم البحر الذى لا يدرك قعره ولا شطَّاه ، فإن الله قال : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ.. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] فجعل له ساحلاً أى : شاطئاً .

فى اليم ؟ والله لو قالها أحدٌ غير الحق سبحانه لَعُورضت لكن قبلتها أم موسى ولم تعترض ، لأن وارد الرحمن لا يُعارض ولا يُناقَش ، وإلا لكانَ لها أنْ تقول : أأنجيه من موت مظنون إلى موت مُحقَّق ؟

إذن : لا عجبَ أنْ يقول الرجل المؤمن هذا الكلام على مَرْأىً ومَسْمع من فرعون ، ومع ذلك لم يعارضه .

﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) ﴾

[غافر] هذه تلفتنا إلى أن الإنسان فى أحداث الحياة معه لابدَّ له أن يخدم غاية ، ويُشترط فى الغاية التى تخدم ألاَّ يكون بعدها غاية أخرى ، فإنْ كان بعدها غايةٌ أخرى فليستْ بغاية ، بل هى مرحلة مُوصِّلة للغاية ، مثل الولد تعلمه ليأخذ الإعدادية مثلاً ، فهل الإعدادية غاية ؟ لا إنما هى مرحلة مُوصِّلة إلى مرحلة أخرى هى الثانوية ، كذلك الثانوية مرحلة مُوصِّلة إلى ما بعدها . فالشىء ما دام له بَعْد فليس بغاية ، الغاية هى التى ليس لها بَعْد ، لذلك يقول لهم الرجل المؤمن : إن الدنيا كلها بما فيها متاع مجرد متاع ليست غاية ، إنما الغاية الحقيقية هى الآخرة .

والنظرة المتأملة ترى أن الإنسان له عمر مظنون فى الكون غير مُحدَّد أبهمه الله ، وجاء هذا الإبهام عين البيان وأرفع درجاته ، لأنه سبحانه حين أبهمه فى الزمان وفى المكان جعلنا نتوقعه وننتظره فى كل لحظة وفى أىِّ مكان ، لذلك قالوا[1] : الموت سهمٌ أُرسِل إليك وهو فى الطريق إليك بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك .

---

(١) من أقوال عبد الله بن المعتز ، عزاه إليه أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز » : « الموت سهم مرسل إليك ، عمرك بقدر سفره إليك » ، وكذلك الحصرى القيروانى فى كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب »

وحين تتأمل الكون من حولك تجد الخالق سبحانه خلق لك كوناً منسجماً يخدمك ، شمس وقمر ونجوم وهواء وماء ونبات .. الخ فانظر يا مَنْ خُلقت له هذه الأكوان كيف تفنى أنت وتبقى هى ، تموت أنت والشمس كما هى والقمر والنجوم والهواء والماء ، لم يتغير فى كون الله شىء ، حتى الماء الذى نظنه ينقص هو فى الكون كما هو منذ خلقه الله لا يزيد ولا ينقص .

فالماء الذى أخذته من الكون فى حياتك خرج منك مرة أخرى فى صورة عرق وفضلات ، حتى النسبة التى تبقى فينا بعد الموت تخرج وتمتصّها الأرض ، كذلك الماء فى الوردة مثلاً وفى كل الكائنات ، إذن : فالكون كله كذلك عبارة عن تغيُّرات فى مُتحد .

لكن أيُعقل أن يكون الخادمُ أطولَ عمراً من المخدوم ، أموت وتبقى الشمس التى تخدمنى والتى خُلقت من أجلى ؟ نعم لتعلم أنَّ خادمك أطول عمراً منك فى الدنيا مع أَنك المكرَّم المخدوم ، إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب هذا التكريم ، عمراً يبقى بعد فناء هذه المخلوقات حيث تنتهى الشمس والقمر والنجوم .. وأبقى أنا ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

ولا بدَّ للمؤمن أن يقول بهذا اليوم ، وأنْ يؤمن به ليكون هو المكرَّم حقاً وهو الأطول عمراً . حتى الموت نفسه يموت وتبقى أنت فى الآخرة خالداً لا تفوتك النعمة ولا يدركك الموت .

لذلك يريد منا الحق سبحانه أن ننظر إلى هذه الغاية ، لا أن ننظر تحت أقدامنا ، ونعيش فقط للحظة التى نحن فيها ، فالغاية الحقيقية لكل مؤمن هى الآخرة لأنها ليس لها بَعْد ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ

لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] والحيوان مبالغة من الحياة . أى : الحياة الحقيقية .

وهنا يقول الرجل المؤمن : ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) ﴾ [غافر] أى : المستقر التى لا عدولَ عنها ، ولا سُكْنى غيرها ، ولا بُدَّ أن نعمل لها :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

نعم ما دامت الآخرة هى دار القرار والمستقر فلابدّ من الرجوع إلىّ والوقوف بين يدىَّ أجازى كُلاً بعمله ، وأنا لستُ جباراً عليكم إنما أنا رحيم بكم أجازى السيئة بمثلها ، أو أغفر وأضاعف الحسنة أضعافاً كثيرة .

والوقفة هنا عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ (٤٠) ﴾ [غافر] فهذا الشرط لا يمنع غير المؤمنين من فعل الخير والعمل الصالح ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

والكافر حين يفعل الخير يأخذ حظه منه فى الدنيا ، ولا نصيبَ له فى ثواب الآخرة ، يأخذه فى الدنيا شهرةً وصيتاً وسُمعة طيبة على ألسنة الناس ، يأخذه فى صورة تكريم واحتفال ، ألاَ تراهم يقيمون لهم التماثيل ويُخلِّدون ذكراهم .. الخ .

إذن : أخذوا حظهم فى الدنيا ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

تأمل ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ..(٣٩) ﴾ [النور] يعنى : فوجىء به لأنه لم يكُنْ في باله في الدنيا وما عمل من أجله قطّ ، ومعلومٌ أن الإنسان يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

وقد سُئلْنا في هذه المسألة في سان فرانسيسكو : أيضيع أجر الكافر الذي عمل الخير في الدنيا ؟ قلت : أعملَ للخير لله أم للإنسانية ورُقيِّها ؟ قالوا : عمل للإنسانية ورُقيِّها وخدمتها ، قلت : فليأخذ أجره منها وقد أخذه شهرةً وصيتاً وتخليداً ، قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لذلك نقول : إن الكافرين الذين عملوا لرقى المجتمع وتقدمه نحن ننتفع بأعمالهم ومخترعاتهم ومكتشفاتهم ، بل ونطوعها لخدمة الإيمان والدعوة إلى الله ، فهذا المسجِّل وهذا الميكرفون وغيرها ثمرة جهدهم ، لكن لا حَظَّ لهم في ثوابه ، لذلك نقول : إن هؤلاء خُدَّام حَرْف واحد من حروف القرآن ، ما هو ؟ هو السين في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهم يتعبون ويعيشون حياة قاسية في تقشُّف ليتفرغوا للبحث والدراسة للوصول إلى سرٍّ من أسرار الله في كونه ، وفي النهاية ينتفع الناس بأعمالهم ، ويُحْرمون هم ثواب هذا العمل .

وقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير في الجو هنا وهناك ، وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] أي : جعلنا كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يعتد به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢٩٧/٢] .

[غافر] الرزق كل ما ينتفع به الإنسان ، وليس مجرد المال كما يظن البعض ، فالعافية رزق ، والسلامة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، كلُّ ما تنتفع به رزقٌ لك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] كلمة حساب تعني : أنك تحسب للشيء حساباً على قدره .

أما في الآخرة فالرزق فيها بغير حساب ، أي : بغير حساب من أحد لأن المعطي الرازق هو الله ، والله حين يعطيك لا يعطيك على قدر عملك ، إنما يعطيك على قدره هو سبحانه .

وحين يأتيك الخير غير المظنون تقول : لم أكُنْ أعمل له حساباً ، فمعنى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] يعني : طلاقة قدرة في العطاء ، قدرة تعطي للمعطي بلا حساب مُسبَّب منه ، وبلا حساب على قدرك ، فالمسألة إذن واسعة .

قالوا : ومن غير الحساب في الجنة أنك تأكل ولا تتغوط[1] ، كيف ؟ لأنك تأكل بطهي الله لك ، وما دُمْت تأكل بطهي الله الخالق فلا بدَّ أنْ يعطيك الغذاء على قدر مقومات الحياة دون زيادة ، فمن أين تأتي الفضلات إذن ؟ ولماذا ننكر هذه المسألة أو حتى نتعجب منها ونحن نراها في الدنيا رغم إمكاناتنا المحدودة ؟

ألا تراهم في الحروب مثلاً يعطون الجنود حبوباً خاصة تحلُّ محلَّ الغذاء تعطيهم الطاقة اللازمة دون زيادة ، ولا تترك في الجسم

---

(١) عن زيد بن أرقم قال : « جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : نعم ، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة . قال : فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى . قال : تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بدنه ، أخرجه أحمد في مسنده والنسائي في سننه بإسناد صحيح على شرط الصحيح . [انظر : حادي الأرواح لابن القيم ص ١٧٧] .

فـضلات للتـغوط ؟ فـإذا كـان المخلوق فـعل هذا فـما بالك بالخـالق سبحانه ؟

وقد تأكـل فى الجنة بغيـر حاجة لـلطعام ، تأكل لمـجرد التـمتع بالأكل ، وقد لا تحتاج إلى الطعام أصلاً ؛ لذلك قالوا : أفضل درجات الجنة وأحسن نعيمها فى عليين لأنهـا مرتبة ليس فيها شىء من مُتَع الحياة إلا أنْ ترى ربك عز وجل وكفى بهـا نعمة ، فأنت فى حضرته تعالى لا تحتاج أصلاً إلى هذه المتع .

لذلك لمـا ذهـب الشَّـعبى[1] إلى ملك الروم وسـأله الـملك : أنتم تدّعون أنكم فى الجنة تأكلون ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ قال : وما العجب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه كيف يتغذَّى وينمو ، فـهـل يتـغـوَّط فى بطنهـا ، إنه لا يتـغـوط ولو تغوَّط لاحـتـرق فى مشيمته ، كذلك المؤمن فى الجنة .

فـقـال الملك : وتدَّعُـون أنكم تأكلـون من الطعـام فى الجنة فـلا ينقص ، وكل شىء تأخذ منه لا بـدَّ أنْ ينقص . قال : نعم ينقص إذا لم يكُنْ له مدد يكمل نقصه ، هات لى شمعة فأتى له بشمعة فأشعلها ثم قـال للمـوجـودين فى المـجلس : ليـأتِ كل واحد منـكم بشمـعـة ويشعلها مـن هذه فأشعلوا جميـعاً شموعهم ، فـقال لهم : أنقص من ضـوء الشـمـعـة شىء ؟ كـذلك عطـاء الله لأهـل الجنـة لا ينفـد ولا ينقص.

---

(١) هو : عامـر بن شراحيل الشـعـبى الحميرى أبو عـمرو ، راوية من التابعين يضـرب المثل بحـفظه ، ولد عام ١٩ هجـرية ونشأ ومـات فجـاة بالكوفة عـام ١٠٣ هـ عن ٨٣ عـاماً ، اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، وكان ضئيلاً نحيفاً ، ولد لسبعة أشهر . من رجال الحديث الثقات . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

ومن عجائب الجنة أن فيها أنهاراً ، نهراً من لبن ، ونهراً من عسل ، ونهراً من خمر ، ونهراً من ماء ، وهذه الأنهار ليس لها شطوط ولا حواجز ، بل هى متداخلة ومع ذلك لا تختلط ، ويجب أن نؤمن بذلك ولا ننكره ، بل لا نعجب له لأن رسول الله أخبرنا « أن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فلِمَ العجب إذن ؟

لذلك حين يصفها لنا الحق سبحانه يخبرنا أنه لا يصف لنا الجنة ذاتها ، إنما يعطينا مثالاً لها ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..(١٥) ﴾ [محمد]

ثم إن الحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل للجنة ليقربها لأفهامنا لا بدَّ أنْ ينقى هذا المثل من شوائبه عندنا فى الدنيا ، تأمل : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥) ﴾ [محمد]

فماء الجنة غير آسن لا يتغير كماء الدنيا ، ولبن الجنة لا يتغير طعمه كما يتغير لبن الدنيا ، وخمر الآخرة لذة ولا يذهب بالعقل ، أما خمر الدنيا فكَرِية ويذهب بالعقل ، وعسل الآخرة مُصفّى من الشوائب على خلاف عسل الدنيا .

ثم يقول مؤمن آل فرعون ، فيما يذكره لنا الحق سبحانه فى قرآنه :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا كلام الرجل المؤمن من آل فرعون ، كأنه كلام الأنبياء ، وإني حتى الآن لم أهْتد إلى سبب يقنعني كيف سكت فرعون على هذا الكلام ، ولا أستطيع إلا أن أقول : إن الله سبحانه قادر على أنْ يجمع بين الشيء ونقيضه ، فالمؤمن يجهر بهذا الكلام الإيماني لكن الحق سبحانه يُدخله في أذن فرعون غير ذلك ، وإلا لما سكت عنه وتركه يتكلم بهذا المنطق الإيماني الذي يهدم ألوهية فرعون المدَّعاة ، أو كما قلنا أن وارد الرحمن لا يُعارض .

وقوله ﴿مَا لِي ﴿٤١﴾﴾ [غافر] يستفهم عن شيء في نفسه : كيف أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعونني إلى النار ؟ أي : إلى ما يؤدي إلى النجاة وما يؤدي إلى النار ، قالوا : لأن الخير لا يكون خيراً إلا إذا أحببته لسواك ، لذلك قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

ثم يوضح معنى ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاة وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر] فيقول : ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر] فأنتم تحثونني على الكفر بالله والشرك به ، وأنا أحثكم على الإيمان به .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذي نفسي بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾

كلمة (لاَ جَرَمَ) أى : لا شك ولا محالة ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : إلى عبادته من دون الله ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : دعوة مستجابة لأنهم لا يسمعون الدعاء ولو سمعوا ما استجابوا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : مرجعنا ومصيرنا ونهاية المطاف بنا ﴿إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : المستحقُّون لها الجديرون بها كأنهم أصحابها .

ومعنى ﴿الْمُسْرِفِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : المتجاوزين للحدِّ فى الكفر والطغيان ، وأشدهم المسرف على نفسه الذى تجاوز الحدَّ الذى ينبغى أنْ يقفَ عنده ، وهذا الحد إما أنْ يكونَ فى المأمورات أو فى المنهيات .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة] أى : فى المأمورات ، ويقول فى المنهيات : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]

ففى الأوامر احرص على ألاَّ تتعدَّاها وفى النواهى لا يقول لك : لا تفعلها بل لا تقربها ، لا تقترب منها ولا من الأسباب المؤدية إليها لأنه مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1] ، ولا بدَّ للمؤمن أن يحترم

---

(١) قطعة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

هذا الاحتياط من ربه ، لأنه سبحانه خالقه ، وأعلم به من نفسه .

والرجل المؤمن حينما يُذيل موعظته للقوم بقوله ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] كأنه يريد أنْ يُعرِّض بفرعون الذى بلغ القمة فى الإسراف على نفسه ، لأن قضية الإسراف فى الدين أنك قد لا تسمع لنداء الحق وتلغى أوامره وتعرض عن نواهيه ، قد تلغى الإيمان بالله كلية ، لكن هذا الطاغية زاد على هذا كله حيث ادَّعى هو الألوهية ، وقال لقومه : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات] وأىُّ إسراف بعد هذا ؟

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم تكذبوننى الآن وأنا أريد أنْ أُخرجكم ممَّا تعودتم عليه من عبوديتكم لفرعون فسوف تذكرون ما أقوله لكم من النصح ؛ والمراد تذكرونه فى الدنيا أو تذكرونه فى الآخرة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر] أى : أردّ أمرى إليه سبحانه فهو وليِّى .

وكأنه استشعر أن هذا الكلام الذى قاله سيُغضب فرعون ، ولا بدَّ أنه سيُبيِّت له لينتقم منه دون مجابهة أو مواجهة حتى لا يُؤلب عليه القوم ، فقال ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر]

يعنى : إنْ كنتَ قد بُليتَ بأمر نتيجة ما أفضت فيه من شرح منهج الله والدفاع عن نبيه موسى والاستماع إلى المنهج الحق والسير عليه ، فأرجو أنْ يعطينى من العمل ما ينفعنى فى الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر] فكانت نتيجة تفويض أمره لله :

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ[(١)] بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥)﴾ [غافر] يعنى : لم يحدث له مكروه ، وهنا أمر يدعو للعجب ، لأن هذا الرجل يقف أمام مَنْ ؟ أمام فرعون ومع ذلك لم يُصِبْه مكروه ولم تضره محاولات فرعون للانتقام منه . لكن ولِمَ العجب ؟ الوقاية من الله ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥)﴾ [غافر] لأن الفعل لا يُترك لذاته ولا يُؤخذ لذاته ، إنما الفعل بمقارنة فاعله ، لا بدَّ من مصاحبة الفعل للفاعل ، فالفعل قد يكون واحداً لكن يختلف الحكم فيه سعادةً به أو شقاءً بالنظر إلى الفاعل .

قلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك والدم يسيل من وجهه ، ما أول سؤال تبادره به ؟ مَنْ فعلَ بك هذا ؟ إذن : فأنت لم تنشغل بالدم الذى يسيل منه بقدر انشغالك بمَنْ فعل هذا . فلو قال لك : عمى فلان ضربنى تهدأ وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فضربك ، لكن إنْ قال لك : ابن فلان ضربنى تقول : نعم لأنه يكرهنا وكذا وكذا . وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

---

(١) حاق به العذاب أى نزل به وأصابه وأحاط به من كل جانب ، فلا يمكنه الفرار منه . [القاموس القويم ١/١٨١] مع زيادات .

إذن : فكل فعل لا يُحكم عليه لذاته إنما بضميمة فاعله ، ومعرفتك للفاعل هي التي يترتب عليها ردُّ الفعل منك .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا الإشكال في قضية الإسراء والمعراج ، وفسَّرتْ لنا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فما دام أن الذي أسرى هو الله فلا عجبَ إذن ، فالفعل يتناسب وفاعله ، ونزه الله عن الزمان والمكان وعن كل ما يشبه الخَلْق . ولو قال : محمد سَرَى لكان لنا كلام وجدال ، أمّا وقد أسرى اللهُ به فلا عجبَ في ذلك . كما لو قلت : صعدتُ بابني الرضيع قمة الهملايا ، أيقول قائل : كيف صعد الرضيعُ قمة الهملايا ؟

كذلك الحال هنا ، وحين تكون الوقاية من الله فأيُّ قوة إذن وأيُّ طاغية أو جبار يستطيع أنْ يُؤذيك ، والله واقيك منه . وقد جاءت هذه الوقاية إجابةً ورداً لتفويض الأمر لله تعالى ، فالرجل المؤمن قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فجاء الرد فوراً ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وهذه الآية وقف عندها الإمام جعفر الصادق[1] واستنبط منها بعض اللطائف والحكَم حين قال :

عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] لأنِّي سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن بن بنت رسول الله الهاشمي القرشي ، أبو عبدالله الملقب بالصادق ، كان من أجلاء التابعين ولد عام ٨٠ هـ وتوفي بالمدينة عام ١٤٨ هـ أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، كان جريئاً مع خلفاء بني العباس . [الأعلام للزركلي ٢/١٢٦] :

وعجبتُ لمن مُكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ (٤٤) ﴾ [غافر] فإنّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ولم يفزع إلى قوله تعالى ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩) ﴾ [الكهف] فإنّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ (٤٠) ﴾ [الكهف]

وعجبتُ لمن اغتمَّ - والاغتمام انقباضُ الصدر وضيق النَّفَس دون أنْ تعرف له سبباً - ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] فإنّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ[1] وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] يعنى : ليست خاصة به وحده .

هذه من دقائق كتاب الله ولطائفه ، ومَنْ أخذها وِرْداً له لا يمر به شيء من هذا ، ونجَّاه الله منه ووقاه من الخوف ومن المكر ومن الفقر ومن الغَمِّ .

ثم إن استجابة الحق سبحانه لعبده المؤمن لم تقف عند حَدِّ الوقاية من عدوه ، إنما تعدَّتْ إلى العدو نفسه حيث انقلب الحال ودارتْ الدائرة عليه تأمل : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] أى : نزل بهم وحَلَّ بهم سوء العذاب ، والمراد عذاب الدنيا قبل الآخرة ، لأن الإنسان له فى حياته ثلاث مراحل : الحياة الدنيا التى نعيشها الآن ، ثم حياة البرزخ بعد أن يموت إلى أنْ يُبعثَ يوم القيامة ، ثم حياته بعد البعث .

---

(١) أى : استجبنا ليونس عليه السلام وهو ذو النون صاحب الحوت . فالضمير فى (له) يعود على يونس ، فاستجاب له ربه ونجَّاه من الغم الذى كان فيه بابتلاع الحوت له .

فقوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر] أى : نزل بهم قبل الحساب وقبل الآخرة ، أما قوله : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] فالعرض على النار إذن ليس فى الآخرة لأنه قال بعدها : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر]

عندنا عَرْضٌ ودخول ، العرض على النار قبل دخولها ، فهو إما فى الدنيا أو فى البرزخ ، وما داموا لم يُعرَضُوا على النار فى الدنيا فلم يَبْقَ إلا حياةُ البرزخ يُعرَضُون فيها على النار إلى قيام الساعة ، وهذا ما نسميه عذاب القبر ، ثم يأتى دخولهم النارَ بعد البعث والحساب .

وهكذا جمع الله على المسرفين عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى البرزخ ، وعذاباً أشدّ وأنكَى فى الآخرة .

وكلمة ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] تثبت أيضاً عذابَ القبر ، ففيه عذابٌ شديدٌ لكن عذابَ الآخرة أشدّ ، عافانا الله وإياكم من العذاب .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ(١) فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) يتحاجون : يتجادلون ويتخاصمون فى النار ، كُلٌّ يلقى باللائمة على الآخر ويحاول تبرئة نفسه ويُحمل الآخر الوزر والذنب فيما وصلوا إليه من مصير مؤلم .

معنى : ﴿يَتَحَاجُّونَ (٤٧)﴾ [غافر] أى : يُحاج بعضهم بعضاً فى النار ، ويُلقى كلٌّ منهم التبعة على الآخر ، يقول (الضُّعَفَاءُ) أى : الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا (٤٧)﴾ [غافر] أى : الزعماء والرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا (٤٧)﴾ [غافر] يعنى : تابعين لكم نفعل كما تفعلون ، كنا نسير خلفكم ونقتدى بكم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧)﴾ [غافر] يعنى : هل أنتم مدافعون عنا أو دافعون عنا عذاب النار ، أو هل تحملون عنا ذنوبنا ؟

والقرآن يعطينا صوراً عدة للمحاجَّة وللجدال يوم القيامة ، نقاش بين المؤمنين والكافرين ، بين الأقوياء المتبوعين والضعفاء التابعين ، قال تعالى : ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)﴾[النساء]

ثم يردّ المتبوعون : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر] ومادام الله قد حكم بين العباد فقد قُضى الأمر ، ولا رادَّ لقضاء الله ، ولا ناقضَ لحكمه ، وكيف يدافعون عنهم وقد سبقوهم إلى النار ، اقرأ قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ[(1)] مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾ [مريم]

وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

---

(١) نزع الشىء : جذبه واقتلعه . [القاموس القويم ٢/٢٥٩] قال ابن كثير فى تفسيره (١٣١/٣) : « عن ابن مسعود قال : يُحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً . وقال قتادة : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر » .

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ (٩٨)﴾ [هود] يعنى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار حتى يقطع عنهم الأمل فى النجاة ، ولو تقدَّموا هم لَقالُوا : سيأتى زعيمنا ويُخلِّصنا مما نحن فيه ، فكيف وقد سبقهم إليها ، ففى هذا تيئيسٌ لهم وقَطْعٌ لآمالهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠)﴾

نفهم من قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾ [غافر] كأنهم أقروا بأنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لأنْ ينادوا الله أو يدعوه . لذلك نادوا الملائكة ، فردَّ الملائكة عليهم : ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ (٥٠)﴾ [غافر] أى : بالحجج والبراهين الدالة على صدق الرسل ﴿قَالُوا بَلَىٰ (٥٠)﴾ [غافر] أى : جاءتنا الرسل بالبينات ، فأقروا على أنفسهم .

﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠)﴾ [غافر] أى : دعاؤهم هباء لا يُجدى ولا ينفعهم - ولا يَخْفى ما فى الآية من التبكيت والتقريع للكافرين والاستهزاء بهم .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

هذا وعد منه سبحانه أنْ ينصر رسله وأنْ ينصر الذين آمنوا، كما قال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾** ﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيت قوماً نسبوا إلى الإسلام وانهزموا ، فاعلم أنه قد اختلَّتْ فيهم شروط النصرة ، وما داموا قد اختلت فيهم شروط النصرة فلابدَّ أن يلقوا جزاء ذلك فى الدنيا ، لأنها سنة الله لا تتبدل .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾** ﴾ [غافر] جاءت بعد أن قام الرجل المؤمن من آل فرعون يؤيد موسى عليه السلام ، ويدعو بدعوته ، ويجهر بمنطق الحق أمام فرعون ، والمعنى : إنَّا لننصر رسلنا بأيِّ وسيلة من الوسائل ، لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً بمنهج جديد يهدى به الضالين ثم يُسلمه .

لكن الحق سبحانه قد يترك أمر الدعوة فى أولها تُضطهد وتُعاند من الخلق ليمحص أهل الدعوة وحتى لا يثبت من حملتها إلا الأقوياء الصناديد ، لأنهم هم الذين سيحملون هذه المهمة على أكتافهم يسيحون بها فى الكون كله ، فلا غرابةَ أنْ يُمحَّصُوا ، وأنْ يختبر إيمانهم ومدى ثباتهم على المبدأ .

رأينا هذا فى المـؤمنين الأوائل الذين حملوا راية الإسلام مع رسول الله ، فهاجروا إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

أبداً ، والفتنة معناها عَرْض الناس على محَن وشدائد لا يثبت أمامها إلا أقوياءُ العقيدة الواثقون فى الله وفى نصرة الحق ، والمؤمن الحق هو الذى يرى أن ما بشر به من الوعد والوعيد فى الآخرة أمر واضح لا شكَّ فيه ، لأن الإنسان دائماً لا يخدع نفسه وإنْ خدع الآخرين .

لذلك لما سأل رسول الله ﷺ سيدنا حذيفة[١] : « كيف أصبحتَ يا حذيفة » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً . ولما كانت كلمة (حقاً) هنا كلمة كبيرة المعنى سأله رسول الله : « وما حقيقة إيمانك » ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها[٢] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له : « عرفتَ فالزم »[٣]

ومعنى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾ [غافر] أى : ينصرهم فى الدنيا بأن يغلب حقهم على باطل خصومهم ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِمَّا

---

(١) هو : حذيفة بن حسل اليمان بن جابر العبسى صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر رسول الله فى المنافقين ، توفى بالمدائن عام ٣٦ هـ ، له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثا [الاعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس المتماسك . ومنه قول رسول الله : « لنا الوبر ولكم المدر » عنى به المدن أو الحضر ، لأن مبانيها إنما تُبنى بالمدر أما البدو فمساكنهم الأخبية والخيام

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الانصارى وليس حذيفة ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، انظر « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٢٤٣) .

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] إذن : فهناك نُصْرة فى الدنيا ونصرة فى الآخرة .

ثم يبين سبحانه أن ما يحدث فى الآخرة عليه شهود متعددون يشهدون عليكم فى الآخرة ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر] والأشهاد جمع شهود ، فالشهود يومئذ كثيرون ، تشهد الرسل والأنبياء : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة]

والمؤمنون يشهدون أنهم بلَّغوا مَنْ بعدهم : ﴿ هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (٧٨) ﴾ [الحج] وتشهد الأبعاض والأعضاء على صاحبها .

وكذلك يشهد علينا الحفظة ، ويشهد الشهداء الذين قاتلوا فقُتلوا ، لأن الإنسان قد يُدلس فى حياته الدنيا لينعم عيشه لكنه لا يخدع نفسه أبداً بعد أنْ يموت ، فهو حريص أن يذهب به الموت إلى خير مما ترك ، ولذلك يجازيه الله .

فلو تطوع إنسان لكى يجاهد فى سبيل الله وهو يعلم أنه سيموت فى سبيل الله يقول الله له : أنت متَّ فى الدنيا من أجلى فلا بدَّ أن تكون حياً عندى ؛ لذلك قلنا فى فلسفة الشهادة لما تكلمنا عن سيدنا حمزة[1] أن الشهادة جعلتْ لك من الموت عصمة ، كيف ؟ لأنك حين تختار الموت على الحياة وتستشهد تصير حياً عند الله ، فوصلتَ

---

(١) هو : حمزة بن عبد المطلب ، عم رسول الله ، ولد عام ٥٤ ق هـ ، وتوفى فى غزوة أحد شهيداً عام ٣ هجرية عن ٥٧ عاماً . هاجر إلى المدينة وحضر بدراً وأحداً . [الأعلام ٢/٢٧٨] .

حياتك الأولى بحياتك عند الله بحياة البعث ، فكأنك لم تَمُتْ .

أحَمْزَة عَمّ المصْطَفَى انتَ سَيِّدٌ   عَلَى شُهَداءِ الأرْضِ أجْمَعِهم طُرّا
وَحَسْبُكَ منْ تلْكَ الشَّهادة عصْمَةٌ   منَ الموْتِ في وَصْلِ الحياتَيْنِ بالأُخْرَى

فمَنْ ضحَّى بحياته لله فكأنه قدَّمها تحيةً لربه وإعلاءً لمنهجه ، فبماذا يُحييك الله ؟ يحييك بأنْ يعصمك بعدها من الموت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ (٥٢) ﴾ [غافر] يعني : إن اعتذروا لا يُقبل منهم عذر ، وفي موضع آخر قال : ﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات] كأنها مواقف متعددة ، مرة يعتذرون حين قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧) ﴾ [فاطر] ومرة لا يُؤْذَن لهم في الاعتذار ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) ﴾ [غافر]

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن موكب رسالة سيدنا موسى عليه السلام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤) ﴾

(الهُدَى) يعنى : الدلالة على الطريق الموصِّلة إلى الغاية النافعة ، كما قال تعالى في أول البقرة : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾ [البقرة] فالدين لم يأت ليكلفكم أو يشقّ عليكم ، إنما جاء الدينُ رحمةً بكم وليكون مركبَ النجاة والهداية الذى تركبونه فيحملكم ويُوصِّلكم إلى الغاية النافعة لكم ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

الْكِتَابَ (٥٣) ﴾ [غافر] أي : التوراة والإنجيل والزبور .

كل هذه الكتب ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر] معنى (ذِكْرى) أي : تذكرةٌ لأن الإنسان إذا استمر على طبيعته الأصيلة بدون تأثر بعوامل الفساد تظل مناعة العهد[1] القديم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] موجودة عنده تحميه ، لكنه قد ينسى هذا العهد وينحرف عن الجادة ، والإنسان من طبيعته النسيان ؛ لذلك تأتي الرسل للتذكرة بهذا العهد الأول . ومعنى ﴿ الأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر] أي : العقول المفكرة المتأملة .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾

كلمة ﴿ فَاصْبِرْ (٥٥) ﴾ [غافر] دليل على أنه ﷺ خُوطب بها في مواطن شدَّة ، هذه المواطن قال الله فيها : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (٥٥) ﴾ [غافر] الوعد هو : الإخبار بالخير قبل أوانه ، ووعد الله حق . يعني : متحقق لأن الوعد أنْ تعدَ إنساناً وتُبشِّره بالخير والنعيم والسعادة ، فهل تقدر وتضمن أن تفيَ بوعدك ؟ لا فربما تموت قبل أنْ يأتي أوانه ، أو تضعف قدرتك التي

(١) هو العهد الأول الذي أخذه الله على ذرية بني آدم ، وقال عنه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فأشهدهم على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على هذا وجبلهم عليه .

تفعل بها فلا تستطيع ، أما إذا جاء الوعد من القيوم القادر الذى لا يُعارَض ، وهو سبحانه بَاقٍ لا يزول ، فهو إذن وعد حَقٌّ لابدَّ أنْ يتحقق .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ألاَّ نجزم بوعد ، ولا تقوله بصورة القطع لأنك من الأغيار ، يقول تعالى : ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤)﴾ [الكهف]

فتعليق الوفاء على المشيئة يعفيك من الاتهام بالكذب لو لم تفعل فلو قلت أفعل كذا وكذا غداً ، هل تملك أسباب الوفاء ؟ هل تملك الزمن أو تضمن القوة الفاعلة ؟ أبداً لا تضمن بقاء شيء من هذه الأسباب ، إذن فَقُلْ : إنْ شاء الله ونزِّه نفسك عن الكذب لو لم تفعل .

وقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] يعنى : اطلب المغفرة ، وكلمة ﴿لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] هل تعنى أن الرسول فعل ذنباً ؟ قالوا : رسول الله ﷺ بشر يُوحَى إليه ، وله رأى ببشريته فى الأمور التى لم يأتِ فيها حكم من الله ، حتى إنْ كان رأيُه صواباً فرأى الحق سبحانه أصوب .

لذلك يصوب له ربه ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] فمن أىِّ شيء يستغفر رسول الله ؟ يستغفر الله من استبطاء النصر فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ (٢١٤)﴾ [البقرة] فالنصر آت ، فلم استبطاؤه ؟

لذلك وردتْ فى القرآن آيات تثبت أن الرسول ﷺ فعل شيئاً يُعاتَب عليه ، والحق سبحانه صحَّح له وصوَّب له فعله ، لكن كيف جاء هذا العتاب ؟ تأمل قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

﴿ ٤٣ ﴾ [التوبة] فقبل أن يعاتبه قدَّم العفو عنه[1] .

لكن لماذا أذن الرسول لهؤلاء ؟ قالوا : إن الذى شغل رسول الله فى هذه المسألة أنه قال فى نفسه أن الذى يطلب الإذن منى فى ألاَّ يقاتل إما صادق العذر فلا مانع من الإذن له ، وإما كاذب العذر وهذا لا خيرَ فيه ، وعدمه أفضل من وجوده بين الصفوف ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً[2] وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴿ ٤٧ ﴾ ﴾ [التوبة]

ثم إن هذا العتاب لرسول الله ﷺ : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴿ ٤٣ ﴾ ﴾ [التوبة] لم نعلمه إلا من رسول الله نفسه ، ولولا إخباره به ما علمناه ، فهو ﷺ لا يستنكف أنْ يعاتبه ربه ، وأنْ يُصوِّب له اختياره .

وقد أوضحنا هذه النقطة فى مسألة التبنى التى كانت بين سيدنا رسول الله وزيد بن حارثة ، وكيف أن الحق سبحانه لما أراد إبطالَ عادة التبنى جعل نبيه محمداً ﷺ وزيد بن حارثة نموذجاً لهذا الحكم الجديد .

فزيد كان عبداً عند خديجة ووهبته لرسول الله ، ولما علم أهله بوجوده بمكة عند رسول الله جاءوا واستأذنوا فيه رسول الله ، فما كان من رسول الله إلا أنْ خيَّره بين البقاء معه أو الذهاب مع أهله ، فاختار زيدٌ البقاءَ مع رسول الله ، فأراد ﷺ أنْ يكرم زيداً لموقفه منه

---

(١) ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة . وكذا قال مورق العجلى وغيره . [تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠] قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله (أى فى التخلف عن الجهاد) فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . أى : أنهم فى كل الحالات لن يخرجوا مع رسول الله ، لذلك كان عتاب الله لنبيه محمد فى الإذن لهم ، بل انتظر حتى يتبين لك الصادق من الكاذب

(٢) خبالاً : نقصاناً وخسارة وهلاكاً ، وخبله : أفسد عقله . [القاموس القويم ١/١٨٦] .

وحُبه للبقاء فى صحبته فتبنّاه ونسبه إليه ، فصار زيد من يومها يُعرف بزيد بن محمد .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، وأنْ يُحرِّم التبنى فأنزل : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ (٥) ﴾. [الأحزاب]

فمعنى ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥) ﴾ [الأحزاب] أن ما فعله رسول الله قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، فهل هذا التصويب يُغضب رسول الله ؟ أبداً بدليل أنه ﷺ هو الذى أخبرنا به ولو كتمه رسول الله ما عرفناه .

كذلك فى قوله تعالى فى أسرى بدر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ[1] فِي الأَرْضِ (٦٧) ﴾ [الأنفال] لما اختلفوا[2] فى أخذ الفداء من الأسرى ، وعاتب الله رسوله بهذه الآية ، لكن هل تغير الحكم بعد ذلك ؟ لا بل ظل كما هو وقال تعالى : ﴿ لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) ﴾ [الأنفال]

---

(١) يثخن فى الأرض : يحارب فيهزم أعداءه ويُعجزهم عن القتال وعن المقارمة . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) كان هذا الأمر فى يوم بدر ، قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال ابن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه . فسكت رسول الله فلم يرد عليهم شيئاً ثم قال فدخل غرفته ثم خرج عليهم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ... ثم قال : أنتم عالة فلا ينفكنَّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق ، فأنزل الله الآية يعتب عليه ﷺ أنه أخذ بالفداء .

فكان لرسول الله ﷺ أن ينكر هذه المسألة ، خاصة وأن الحكم كما هو لم يتغير ، إذن : نحن لم نعلم معتبة الله على رسوله إلا من الرسول نفسه ، والمتأمل في عتاب الحق سبحانه لرسوله يجد أنه إما عتاب لمصلحته هو ﷺ ، أو عتاب لأنه جانبَ الصواب الذي حكم به الحق سبحانه ، كما في هذه المسألة التي ذكرناها .

أما العتاب لمصلحته ﷺ فمثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[1] تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ① ﴾ [التحريم] وهذا كما تعاتب ولدك على كثرة سهره في المذاكرة وإجهاده لنفسه ، كذلك الحق سبحانه يعاتب رسوله أنه ضيَّق على نفسه وشقَّ عليها طلباً لمرضاة أزواجه .

كذلك عاتبه في مسألة الأعمى[2] فقال : ﴿ عَبَسَ[3] وَتَوَلَّىٰ ① أن

(١) قال السيوطي في أسباب النزول (ص٢٨٠) : « أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ① ﴾ [التحريم] وله شاهد في الصحيحين » .

(٢) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (يعرف بابن أم مكتوم) صحابي شجاع ، كان ضريراً ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، كان يؤذن لرسول الله في المدينة مع بلال ، حضر حرب القادسية ، ومعه راية سوداء فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هجرية . [الأعلام للزركلي ٥/٨٣] .

(٣) عبس الرجل : قطَّب وجهه لضيق صدره من شيء يكرهه . والرجل العبوس : الدائم التقطيب . [القاموس القويم ٢/٤] . وسبب نزول السورة فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أنه بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا=

جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ[1] ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأنه ﷺ شقَّ على نفسه حين ترك هذا الأعمى وانصرف عنه لأنه مؤمن ، وذهب إلى صناديد الكفر يدعوهم ، ورأى أنهم أوْلَى بالدعوة منه .

بعض العلماء[2] أخذوا من قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ۝٥٥﴾ [غافر] دليلاً على عدم عصمة الأنبياء ، وقالوا آخرون : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد ورد أنه ﷺ قال في دعائه : « اللهم

= فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرىء النبي ﷺ آية من القرآن وقال : يا رسول الله علِّمني مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله فأمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤﴾ [عبس] فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله ﷺ وكلّمه وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء ؟ » .

(١) لعله يزكَّى : أي لعله يحصل له زكاة وطهارة في نفسه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ..۝٥٥﴾ [غافر] عدة أقوال :

– استغفر لذنب أمتك . حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

– استغفر لذنب نفسك . على من يُجوِّز الصغائر على الأنبياء .

– من قال لا تجوز الصغائر على الأنبياء قال : هذا تعبّد للنبي عليه السلام بالدعاء .

– استغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة .

[القرطبي في تفسيره ٨/ ٥٩٧٤]

إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »[1] .

والبعض له في الآية ملحظ آخر قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر] لا تدل على وقوع الذنب منه بالفعل ، والمعنى : إنْ فعلتَ ذنباً . أي في المستقبل استغفر ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب] فهل معنى هذا أنه ﷺ لم يكُنْ يتقي الله ؟ لا بل هو أمر ابتدائي بالتقوى .

ولا يعني أنه ﷺ خالف منهجه فأمره الله بتقواه ، كما نرى نحن الآن مخالفاً لمنهج الله فنقول له : يا فلان اتق الله ، يعني : استقم على منهجه ، واترك المخالفة ، واجعل بينك وبين الله وقاية .

لذلك قال : الأمر في : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر] أمر تعبُّدي ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران] الأمر هنا أمر تعبُّدي لأننا نقول آتنا ، وهو سبحانه قد وعد رسله بذلك ، فهو أمر متحقق واقع .

ثم نقول للذين يقولون بوقوع الذنب من الرسل : هل خلعهم الله من الرسالة لأنهم ارتكبوا الذنب ؟ أم تركهم رسلاً ؟ بل تركهم وأبقى على رسالاتهم ، إذن : ما قولك أنت إذا كان ما فعله الرسولُ لا ينافي رسالته ، وهو مرضيٌّ عند مَنْ خالفه وأذنب في حقه ؟

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .

وقوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥)﴾ [غافر] العشى : الوقت من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار ، والإبكار من الفجر إلى الضحى ، فالمعنى : كُنْ دائماً مُسبِّحاً بحمد ربك .

وإذا كان الأمر هنا للرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين الذين اشتركوا معه فى العشىِّ والإبكار ، فهو من ناحية أخرى أمرٌ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان لعموم رسالته ﷺ .

إذن : فالعشىُّ والإبكار هنا شائع فى الزمان كله والمكان كله ، فكلٌّ له عشىٌّ وإبكار يناسب زمانه ومكانه ، وهذا يعنى أنْ يظلَّ تسبيحُ الله شائعاً فى الزمان والمكان مستمراً لا ينقطع أبداً ، هذا إذا نظرنا إلى اختلاف الأوقات من مكان لمكان .

لذلك قلنا : إن رَبْط التكاليف والعبادات بدورة الهلال يُراد بها استدامة دورة العبادة لله تعالى ، فلو كانت مرتبطة بالشمس كانت تتحد الأوقات عند الناس ، إنما بحساب الهلال ترى أن هذا يصلى الصبح ، فى نفس الوقت الذى يصلى فيه آخرُ الظهر ، وآخرُ العصرَ ، وآخر المغرب ، وهكذا ، إذن : فالحق سبحانه معبود فى كلِّ وقت بكل وقت .

ومعنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٥٥)﴾ [غافر] يعنى : تسبيحاً موصولاً بالحمد ، لأن التسبيحَ تنزيهٌ لله تعالى ، وما دام الحق مُنزَّهاً عن كل النقائص فثمرة هذا التنزيه عائدة عليك أنت ، أنت المستفيد من كوْن ربك الذى آمنت به واحداً مُنزَّهاً عن النقائص .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) ﴾

الجدل : هو المراء والأخذ والردّ ، مأخوذ من جَدْل الحبل وفَتْله ، والفتْل عملية تتماسك فيها الخيوط ، وتتداخل بعضها فى بعض بعد أنْ كانت هشَّة متفرقة ، فالجَدْل يحمل معنى التقوية ، تقوية الرأى بالرأى .

والجدل منه جدل بنَّاء يهدف للوصول إلى الحق ، وجدل مراء لا فائدةَ منه ، جدل الحق جدل بسلطان يعنى : حجة وبرهان ، وجدل المراء بالباطل . يعنى : بدون سلطان ولا حجة ، والسلطان إما أن يكون سلطانَ قهر يحملك ويُرغمك ويقهرك على الشىء ، وإما سلطان حجة وإقناع ، سلطان القهر يجعلك تفعل وأنت كاره مُجبر ، وسلطان الإقناع والحجة يجعلك تفعل وأنت راضٍ مقتنع .

لذلك قال عدو الله إبليس : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن عندى سلطان قهر أقهركم به على المعصية ، ولا سلطان حُجة وإقناع أقنعكم به .

لذلك قلنا فى آية السجود لآدم أن الحق سبحانه قال مرة ﴿ مَا

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] وفى موضع آخر قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الاعراف] فواحدة بالإثبات والأخرى بالنفى ، كيف ؟ يعنى : هل جئتَ لتسجد فجاءت قوةٌ منعتك من السجود ؟ أم قوةٌ أقنعتك بعدم السجود فلم تسجد وأنت راضٍ مُقتنع بذلك ؟

ومعنى ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] قلنا : إنها على ثلاثة أقسام :

آيات كونية لإثبات الوجود الأعلى وقدرته وبديع صنعه ، ومن هذه الآيات الكونية الشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء .. الخ .

الثانية : هى المعجزات التى يجعلها الله للرسل لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

والثالثة : هى آيات القرآن الكريم التى تحمل أحكام الله إلى الناس ، وتحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

ففى أىِّ هذه الأنواع يجادلون ؟ قالوا : يجادلون فى المعجزات ، وفى آيات الأحكام ، أما الآيات الكونية فليستْ مجالاً للجدل .

وقوله :﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] هل يعنى هذا أن هناك جدلاً فى آيات الله بسلطان ؟ قالوا : بل المعنى أنه ممتنع أى : ليس فى آيات الله جدل ، المسألة ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] هذا هو السبب ، ومصدر الجدل فى آيات الله ، كِبْر فى صدورهم يمنعهم من قبول الحق ، ويمنعهم أنْ ينقادوا لرجل منهم ربما ظنوا أنهم أفضل منه .

لذلك فى بعض الآيات يوضح الحق سبحانه أنهم يؤمنون بالقرآن ، لكن اعتراضهم هو على رسول الله كشخص جاء بالرسالة ، وهو واحد من عامة القوم ليس بأعظمهم ولا أغناهم ، يقول تعالى يحكي على لسان الكفار : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر ينكرون الجميع ويقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] وكان المنطق أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وهذا القول منهم دليلٌ على أنهم كارهون للدين جملة ، لأن قلوبهم مشغولةٌ بقضية مخالفة هى شركهم بالله وعبادتهم الأصنام ، هذه العبادة التى شبُّوا عليها وتوارثوها ، وإذا شُغل الإنسان بالباطل لا يمكن أن يهدى للحق إلا إذا أخرجتَ القضية الباطلة من قلبه أولاً ، عندها يسمح للحق أنْ يدخل .

لذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن مسألة العقائد لا تُنَاقش فى جمهرة الناس ، إنما تتأملها بينك وبين نفسك ، وإنْ كان لا بدَّ من المشاركة ، فواحد فقط ، لماذا ؟ لأنك حين تجلس بمفردك أو مع شخص واحد معك يثمر النقاش ولا تتسع دائرة الخلاف ، فيكون أدْعَى للوصول إلى الصواب ، وإذا انهزم واحدٌ منكما فلن ينهزم أمام جمهرة الناس ، وساعتها لن يكابر ولن يعاند وسيعود إلى الحق ويرجع إليه دون حرج .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ

وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] (٤٦) ﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا مسائل العقيدة جماهيرياً ؛ لأن الجماهير لا ضابط لها ، وتفكيرها الجماعى يؤدى إلى الخَلْط والغوغائية ، فكُنْ بمفردك حتى لا يداخلك هَوَىً فتميل معه .

والكبر فى قوله تعالى :﴿ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ (٥٦) ﴾ [غافر] إنْ بمعنى ما فى صدورهم إلا كِبْر . يعنى : تَعَالٍ على الحق الذى يأتى به الرسول ، هذا الكبر أو التكبر هو الذى منعهم من الاستماع للرسول ، وجعلهم يتعالوْنَ عليه ، ذلك لأنهم كانوا فى مجتمعهم سادةً ، واستماعهم لرسول الله وطاعتهم له سيجعلهم مسُودين لمن يسمعون منه ويطيعونه .

ومعلوم أن قريشاً كان لها السيادة على كافة العرب ، هذه السيادة جعلتهم متمكنين من رحلاتهم التجارية بالشتاء والصيف ، ويتنقلون بها دون أنْ يتعرَّض لهم أحد ، لماذا ؟

لأن قبائل العرب جميعها تأتى إلى قريش فى مكة موسم الحج ، ويكونون فى ضيافة قريش ورعايتها وفى باطنها ، فالبيت الحرام وحجه هو الذى أعطى قريشاً هذه المكانة وهذه المهابة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وقال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) الجِنَّة : الجنون . وتجنن عليه وتجانن وتجانّ : أرى من نفسه أنه مجنون . قاله الأزهرى فى الصحاح مادة جن .

والدليل على ذلك أنهم لما رأوا في الأصنام آلهةً لا أوامرَ لها ولا تكاليفَ رَضُوا بها وعبدوها من دون الله ، ومع ذلك لما أرادوا مكاناً يكرمون به هذه الآلهة لم يجدوا إلا الكعبة يضعون أصنامهم حولها ، إذن : فالكعبة لها قداسة عندهم رغم كفرهم بالله .

هذا هو الكِبْر الذى منعهم من قبول الحق ، وهذا الكبر وصفه الله بقوله ﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] يعني : ليس عندهم دواعي الكبر ، فهو كِبْر كاذب لأن الذى يتكبَّر ينبغي أن يتكبر بشيء ذاتي فيه لا بشيء عارض ربما يُسلب منه ، فهو كبر كاذب كمَنْ يتكبّر بقوته وعافيته أو بماله أو بسلطانه .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] لأن الاستعاذة بالله تعني أن شيئاً جاء فوق أسبابك المادية فلا تقفْ أمامه مكتوفَ الأيدي ، إنما توجَّه إلى ربك الذى أرسلك وقُلْ له : إن هذا الأمر أعجزني وفاقَ طاقتي فاحمله عني ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

فإذا عزَّتْ الأسباب فتوجَّه إلى المسبِّب ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] هذان من صفات الكمال المطلق لله تعالى السمع والبصر ؛ لأن كل حركات جوارح الإنسان عملٌ ، فاللسان له عمل ، واليد لها عمل ، والرِّجْل لها عمل .

وهذا العمل ينقسم إلى قسمين : إما قول وإما فعل ، القول أخذ وحده شطر العمل وهو عمل اللسان ، وباقي الجوارح عملها يُسمى (فعل) .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ

(٢) ﴾ [الصف] فذكر القول والفعل ، وكله يُسمَّى عملاً ، فالسمع لما يُقال ، والبصر لما يُفعل ، فالحق سبحانه يُبيِّن لرسوله ﷺ منزلة الاستعاذة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٥٦)﴾ [غافر] لأنه سميع لكل ما يُقال ، بصير بكلِّ ما يُفعل .

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾

اللام فى (لَخَلْقُ) تدل على القسم ، وكأن الحق سبحانه يقول : وعزَّتى وجلالى لخلْق السموات والأرض أكبر من خلْق الناس ، كيف ؟ قالوا : لأن الناس فى الدنيا أعمارهم متفاوتة : واحد عمره لحظة ، وواحد عمره ساعة ، وواحد عمره مائة عام إلى عمر نوح عليه السلام ، فأين عمرى من عمر الشمس مع أنها خُلقتْ لخدمتى ، أيكون الخادم أطولَ عمراً من المخدوم ؟

إذن : لا بدَّ أن لك عمراً آخر باقياً بعد ذهاب الشمس وغيرها من المخلوقات التى تخدمك ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة . قالوا : العمر له طول لا يعلمه إلا الله وله عَرْض قد يفوق الطول ، وكذلك جعل له حجماً وعمقاً ، فالله الذى حدد العمر زمناً من الممكن أنْ الإنسان يأخذ عمره طولاً ، لكن يمكنه أن يزيد فى عرضه فيكون العرض هو البُعد الأطول ، بمعنى أن يوسع دائرة نشاطه لينفع نفسه وينفع مجتمعه ويبقى له ذكرى طيبة بعد موته ، فكأنه أضاف بنشاطه إلى عمره أعماراً .

لذلك نقول : إن أوطان الناس تتحدد على قدر هممهم ، فواحد وطنه نفسه يريد كل شيء له وهو ليس لأحد ، وهذا هو الأنانى ،

وواحد وطنه أسرته ، وآخر وطنه قبيلته ، وآخر وطنه بلده ، وواحد وطنه العالم كله ، فكلما ازدادت الهمّة اتسعتْ دائرة الوطن وزادتْ رقعته .

وحين نقول : إن الشمس أطولُ عمراً منى نلاحظ أنك أيها الإنسان كائن حَىّ تأكل وتشرب ، أما الشمس فجماد لا تأكل ولا تشرب ، أنت لك قانونُ صيانة ويعتريك المرضُ وغيره لأنك ابنُ أغيار ، أما الشمس فليس لها شئ من هذا فليس لها قانون صيانة ولا يعتريها ما يعتريك ، وهى منذ خلقها الله تعمل دون توقّف ودون خَلَل ودون صيانة ، والآلة التى بهذا الوصف تدل على قدرة خالقها وعظمة مبدعها .

لذلك نقول : إذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه فعلاً أكبر من خَلْق الناس : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر] لكن ما معنى (لاَ يَعْلَمُونَ) الكون يقع تحت حواسّنا ، ونراه بأعيننا ، وكان ينبغى حين نرى هذا الكون بما فيه من إبداع أن نفكر فيه ، وفى عظمة خَلْقه ودقّة نظامه ، وكم هو محكم منضبط لا يتخلف أبداً .

ألسنا الآن بالعلم نستطيع أنْ نحدد وقت الكسوف مثلاً بالدقيقة والثانية ؟ وكأن الحق سبحانه جنَّد حتى غير المسلمين لإظهار صدق آياته الكونية ، وكيف أنها منضبطة انضباطاً لا يمكن لأحد أنْ يفسده، لذلك قلنا : إنك إذا رأيت خللاً أو فساداً فى الكون فاعلم أن يد الإنسان المختار تدخلتْ فيه ، والشئ الذى نتركه على طبيعته لا يمكن أنْ نرى فيه خللاً أو فساداً .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

نعم لا يستوى مَنْ يهمل آيات الله ولا يتأملها مع مَنْ يفكر فيها ويستنبط منها ويهتدى بها ، فالذى لا يتفكر فى هذه الآيات مثل الأعمى لأنه لا يتنبه لآيات الكون التى هى أكبر من خَلْق الناس ، وإذا كانت هذه الآيات الكونية أكبر فى الخَلْق وأعظم من خلق الناس ، فكيف تغفل عنها ، ومنها يمكن أن تأخذ الدليل على وجود واجب الوجود الأعلى سبحانه ، وعلى طلاقة قدرته وإبداع صنعته .

وكما أنه لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى عند الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع المسىء ، وهذا مظهر من مظاهر عَدْله سبحانه :﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ [غافر] يعنى : قليلٌ منكم مَنْ يتذكر ذلك .

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (٥٩) ﴾

يُذكِّرنا الحق سبحانه بهذه الحقيقة التى طالما تغيب عن الأذهان ، وكان يجب عليكم ألاَّ تغفلوا عنها ، لأن المسألة ليستْ مجرد علم بشىء ، إنما المسألة أبعد من ذلك ، إنه احتياط لما سيحدث ولما سيأتيكم .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : القيامة ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا (٥٩) ﴾ [غافر] لا شكَّ ، وما دام أن الساعة آتية لا شكَّ فيها فلا بدَّ أن نستعدّ لها ، فلو كنتَ قد خُلقت وتُركتَ هكذا وانفلتَّ من الله لكانَ لك أنْ تفعل ما تشاء ، لكن ماذا وأنت لك مرجع إلى ربك ومردٌّ إلى

خالقك ، وموقفٌ للحساب والجزاء ؟ إذن : لا مفر لك من أن تحمى آخرتك ، وهى الغاية العظمى التى ليس بعدها بعد .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : لا يعلمون هذه الحقائق أو يغفلون عنها ، مع أن العقل المجرد لا بدَّ أنْ يهتدى ويعتقد بوجود الساعة والحساب والجزاء ، لماذا ؟ لأنك حين تنظر إلى الكون تجد المرتبط فيه بمنهج افعل ولا تفعل ، ويسير وفْق هذا المنهج تجده مُؤدَّباً مع الكون مِنْ حوله لا يأتى منه فساد ولا تعدٍّ ، وتجد المنحلَّ الذى انفلتَ من هذا المنهج مصدرَ إزعاج وفساد للكون من حوله ، فهل يستويان فى العقل مجرد العقل ؟

هل يستوى المصلح والمفسد ؟ مَنْ عربد فى الكون وآذى خَلْق الله وأتعب الدنيا كلها ومَنْ أصلح الكون وأسعد الناس وأعانهم ؟ ثم ألسْنَا فى عملية التعليم نُجرى للتلاميذ اختبارات آخر العام ونقول : هذا ناجح ، وهذا راسب ؟ ألسنا نضع فى دنيانا قواعدَ للثواب والعقاب تقضى بمكافأة المحسن ومعاقبة المسىء ؟

إذن : فلماذا ننكر الحساب يوم القيامة يوم يُجازى كُلٌّ بما عمل ، حتى الناس الذين لا يؤمنون بالآخرة يؤمنون بمبدأ الثواب والعقاب ، وعندهم عقوبات على الجرائم ضد المجتمع لتأديب الخارجين على القانون ، فإذا كنتَ فى دنياك جعلتَ العقوبات وجرَّمت بعض الأفعال وعاقبتَ عليها لتستقيم حركة حياتك الدنيا ، فلم تنكر هذا المبدأ مع الله فى الآخرة ؟

أيُعقل أن تكون حركة الناس جميعاً فى الدنيا من أولها إلى آخرها متروكة هكذا دون حساب ، دون ثواب للمحسن وعقاب للمسىء .

والله ، لو كان الأمر كما يدَّعُون وينكرون فقد فاز المنحرفون المجرمون ، وربح المخالفون الخارجون على القانون والدين ، حيث فعلوا ما فعلوا ، وظلموا ما ظلموا ، وأفلتوا بجرائمهم ، وما خسر فى هذه الصفقة إلا المؤمنون والمستقيمون الذين ألزموا أنفسهم بمنهج دون فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [غافر]

يعنى : أن المسألة ليستْ قائمة على العقل إنما على الإيمان ، فلو تركتْ للعقل لقلنا ما قلناه الآن ، لكن أمرَ الساعة قائمٌ على الإيمان والعقيدة ، والذى يريد ألاَّ يرتبط بالإيمان وأنْ ينفلت من قيوده يريد ألاَّ يقيد حركته فى الوجود بمنهج افعل ولا تفعل ، يريد أن يكون حُراً يسير فى الحياة على هواه .

لذلك قلنا : إن الذين عبدوا الشجر والحجر عبدوها لأنها آلهة لا منهج لها ولا تكاليف ، وهذه العبادة فى معناها باطلة ، لأن العبادةَ تعنى : طاعة العابد لأمر المعبود ، فهذه الآلهة التى تزعمونها بِمَ أمرتكم ؟ وعمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها ؟

إذن : أنتم ما ارتضيتُم هذه الآلهة إلا لتسيروا فى الحياة بلا قيود ، وبلا تكاليف ، وبلا منهج وبلا ضابط لشهواتكم .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

معنى ﴿رَبُّكُمُ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] من تولى تربيتكم ، والتربية هنا تعنى الإيجاد من العدم والإمداد من عُدْم ، وما دام هو ربى فأنا مسئولٌ منه يضمن لى رزقى وعيشى فى الدنيا ، وقبل ذلك أعطانى الجوارح التى تعمل ، والأعضاء التى بها أعيش ، فهو ربى وخالقى الذى استدعانى للكون ، ووفَّر لى فيه أسبابَ الحياة .

لذلك لما أراد سبحانه أنْ يجعل نموذجاً فى الكونِ جعله بحيث يتعاطف الكونُ مع ذاته ويتكامل فى نفسه ، فجعل هذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، هذا صحيحاً وهذا مريضاً .

فالقوى حركته فى الحياة حركة كاملة قوية تزيد عن حاجته ، وقال له : ما زاد عن حاجتك اجعله للضعيف الذى لا يقدر على الحركة ، والخالق سبحانه قادر على جَعْل الناس جميعاً أقوياء ، لكن أراد أنْ يرتبط الخَلْق فى حركة الحياة ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل ؛ لأن الارتباط لا يأتى بقانون التفضُّل ، فالتفضل لا إلزامَ فيه ، والمتفضل بالشىء حُرٌّ ، يفعل أو لا يفعل .

وقوله : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] يعنى : فيما عجزتُم عن أسبابه ولن تقدروا عليه ، ولم تجدوا من بيئتكم عَوْناً عليه ، فليس لكم إلا التوجُّه إلىَّ تدعوننى ، فأستجيب ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] فأنا ربكم وخالقكم استدعيتُكم إلى الوجود ومنحتكم الأسباب والجوارح ، واستخلفتكم فى الأرض ، فليس لكم ملجأ غيرى تلجأون إليه إنْ عزَّت عليكم الأسباب .

أما إنْ كانت الأسبابُ ميسَّرة لكم ، وقام كلٌّ مكلَّف بدوره ، فلا تتركوا الأسباب وتقولوا : يا ربِّ ، عليكم بما فى أيديكم من الأسباب

أولاً ، زاولوها فإنْ ضاقتْ بكم فاذهبوا إلى المسبِّب .

لكن نلحظ فى هذه المسألة أن الله تعالى أمرنا بالدعاء ووعدنا الإجابة ، ومع ذلك منا مَنْ يدعو فلا يُستجاب له ، فلماذا ؟ قالوا : لأنك تدعو وأنت غير مُضطر ، فلو كنتَ فى حالة الاضطرار لاستُجيبَ لك . أنت تسكن فى مسكن محترم وتدعو الله أن يكون لك (فيلا) أو قصر ، فإنْ أعطاك القصر قلت : أريد عمارة تصرف على القصر ، هذا دعاء عن ترف لا عن اضطرار ، والإجابة هنا مشروطة بالمضطر.

والحق سبحانه وتعالى لا يُعفى عبداً من مسئولية استطراق النفع للعباد ، قالوا : لأن الواجد يبذل ، وغير الواجد ينصح الواجد ، فإنْ نصحت دون جدوى فلن تبرأ ذمتك حتى بعد ذلك .

ولو قرأتَ القرآن تجد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة]

متى هذا ؟ قالوا : إذا لم يكن عندك مال لا بدَّ أنْ تنصح ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة] نصحت ولم يستجب لك . قالوا : اقدر على نفسك ، كيف ؟ ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ[(١)]

---

(١) قال الواحدى فى كتابه « أسباب النزول » (ص ١٤٨) : « نزلت فى البكائين وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبى الله إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون » .

إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة] فهل أعفى أحداً ؟ لا بل حثَّ الجميع على أنْ يفعلوا : إما بذل المال ، وإما بذل المقال ، فإذا لم تستطع هذا ولا ذاك فيجب أنْ تحزن لأنك لم تشارك ، ولا يكفى هنا الألم الوجدانى ، بل لا بدَّ أنْ يصحبه انفعال عاطفى ينتج عنه بكاء ، تبكى أنك لم تجد شيئاً تنفقه فى سبيل الله .

إذن : المسألة استطراق نفعى فى الكون ، هذا الاستطراق لا يدعُ أحداً منا فى حاجة .

وبعد ذلك نقول له : أأنت فقير عَجْز أم احتراف ؟ إنْ كان فقير احتراف لا يُحسب ولا يُؤْبه له ، وإنْ كان فقير عجز فله أنْ يجلس فى بيته مُعززاً مكرَّماً ، والغنى هو الذى يذهب إليه ويعطيه حقَّه ، فالقادر إذن أصبح فى خدمة غير القادر .

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر] معنى : ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي (٦٠)﴾ [غافر] أى : عن دعائى والذلة لى ، وإظهار الحاجة إلىّ ، لذلك قال أهل المعرفة : لا يكُنْ حظك من الدعاء أنْ تُجاب ، لكن اجعل حظك من الدعاء ذلةَ محتاجٍ لمن معه الخير ، هذه هى معنى العبادة هنا ؟

لذلك تجد ربك عز وجل دائماً يُصحِّح لك خطأك فى الدعاء : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

فقد تدعو أنت لنفسك بشرٍّ تحسبه خيراً ، ومن رحمة الله بك ألاّ

يستجيب لك ، لذلك قلنا فى الثناء على الله تعالى : سبحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعين بألاَّ تستجيب ، وبذلك حميتنا من الضر ، فكم يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير .

وقلنا فى ذلك : ما حال المرأة التى نسمعها تدعو على ولدها تقول : إلهى أشرب نارك ؟ فمن رحمة الله بها ألاَّ يستجيب لها ، إذن فى المنع هنا عطاء .

لكن لماذا ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ﴾ [غافر] أى : منكسرين صاغرين أذلاء ، قالوا : لأنك لا تدعو واحداً إلا إذا كنتَ مطيعاً له ، لأن الدعاء والعبادة متساويان ، لذلك قال ﷺ : « كل أمر لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] يعنى : لا بركة فيه .

وعلمنا أن نقول : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى : أنا أبدأ عملى ببسم الله لكى تكون يد الله معى فى الفعل ، فما معنى (الرحمن الرحيم) هنا ؟

قالوا : ربما كنت عاصياً فأذكر له سبحانه صفة الرحمة ، لأنه سبحانه لا يتخلَّى عن عبده حتى لو كان عاصياً ، فهؤلاء سيدخلون النار داخرين أذلاء لأنهم استنكفوا[2] أنْ يدعوا الله واستكبروا عن عبادته ، فالنار جزاء الاستكبار .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر . أو قال : أقطع » .

(٢) استنكفوا : أى امتنعوا وأنفوا وكرهوا واستكبروا أن يدعوا الله ويعبدوه .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ[1] لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكر هنا آيتين من آياته الكونية هما آية الليل وآية النهار ، الليل نعلمه وهو من مغيب الشمس إلى شروقها ، والنهار نعلمه وهو من شروق الشمس إلى غروبها ، هذا زمن والزمن وعاء الأحداث ، وما دام الزمن وعاءَ الأحداث فلكلٍّ حدث زمنٌ يقع فيه .

فالحدث الذى يحتاج عملاً له وقت ، فحين تعمل بالنهار تتعب جوارحك وتحتاج إلى وقت للراحة ، فجعل لك الخالق سبحانه الليل تستريح فيه والنهار تعمل فيه ، تستريح بالليل لتستعيد قوتك ونشاطك للعمل فى النهار التالى ، وهكذا .

فإنْ طرأتْ عليك ظروف منعتْك من راحة الليل ، فكيف تكون بالنهار ؟ تكون متعباً لا توجد لك قوة تعالج بها شيئاً ، فكأن الله تعالى يريد أن يُعلِّمنا أن من خلقه متقابلات ، ومن حُمْق البشر أنْ جعلوها متعاديات ، وهى فى الحقيقة متكاملات .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ[2] ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

---

(١) جعل هنا بمعنى خلق . والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين . نحو قوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف] . [تفسير القرطبى ٥٩٧٨/٨] .

(٢) تجلى : ظهر ظهوراً قوياً وتبدى وتكشَّف . [القاموس القويم ١٢٦/١] وقال ابن كثير فى تفسيره (٥١٨/٤) : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾[الليل] أى : بضيائه وإشراقه .

وهذا يعنى أن لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وللذكر مهمة ، وللأنثى مهمة ، فلا تظنوا عداءً بين الليل والنهار ، ولا بَيْنَ الذكر والأنثى ، فكُلٌّ منهما مكمِّل للآخر وبينهما تساند لا تعاند كما يظن البعض .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]

وتأمل تذييل الآية هنا وهنا : ففى الليل قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص] لأن الليل تتعطل فيه حاسة البصر ، وتبقى الأذن تسمع ، وهى آلة الاستدعاء ليلاً ، أما فى النهار فقال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص] لأن البصر يكون فى النهار .

كلمة سرمد ، بعض المفسرين يرى أن الليل ليس سرمداً ، كذلك النهار بمعنى أنه ليس دائماً مضطرداً ، لكن إذا نظرنا إلى حركة الأرض وتعاقُب الليل والنهار وجدنا فيهما سرمدية ، لأن الليل حين يغادرنا يذهب إلى آخرين لا أنه سرمد وينتهى .

فهما إذن دائمان سرمديان ، لكن السرمدية المنفعية هى السرمدية بالنسبة للمكان الواحد ، فلهما سرمدية فى ذاتهما سرمدية فى كل مكان ، أمَّا سرمدية المكان الواحد فتنتهى لتبدأ فى مكان آخر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . وقال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب – مادة : سرمد] .

يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] خلفة : يعنى يخلف كلّ منهما الآخر ، فالليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، هذا الآن واضح لنا كآية كونية ، لكن ماذا عن بَدْء الخَلْق أيّهما كان أولاً وخلفه الآخر؟

قالوا : فى البدء خلقهما الله معاً فى وقت واحد ، لأن الشمس خُلقت مواجهة للأرض ، فما كان من الأرض ناحية الشمس كان نهاراً ، وما حُجِب عنها فى الناحية الأخرى كان ليلاً ، ثم دارتْ الأرض فى فلكها فتعاقب الليل والنهار ، وهذا دليل على كروية الأرض ولو كانت مسطحة ما أمكن ذلك .

والعظمة فى قوله : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر] أى : مُبصَراً فيه ، وقديماً كانوا يعتقدون أن شعاع الرؤية يخرج من العين إلى المرئى ، إلى أنْ جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم[1] وأثبت عكس ذلك ، وبيَّن أن الشعاع يأتى من الشيء المرئى إلى العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى ما فى الظلام وترى ما فى النور حتى لو كنتَ أنت فى ظلام ، لأن الشعاع ينعكس من المرئى فتراه .

وعليه فالنهار نفسه (مُبْصراً) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر] نعم الله صاحب الفضل والتفضل على الناس جميعاً ، لأنه سبحانه أعطاهم بلا حَقٍّ لهم عليه سبحانه ، فهو متفضل فى

---

(١) الحسن بن الهيثم : محمد بن الحسن بن الهيثم أبو على ، مهندس من أهل البصرة ، يلقب ببطليموس الثانى ، له تصانيف فى الهندسة ، بلغ خبره الحاكم بأمر الله الفاطمى ونقل إليه : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى حالتى زيادته ونقصه فدعاه إلى مصر ووصل إلى جنوب أسوان وأشار ببناء سد هناك ولكنه لم يستطع تنفيذه . كتبه كثيرة تزيد على السبعين منها المناظر . ولد ٣٥٤ هـ وتوفى نحو ٤٣٠ هـ . [الأعلام للزركلى ٦/٨٣] .

الإيجاد من عَدَم ، ومتفضل في الإمداد من عُدْم ، ومتفضل في التكليف ، نعم حتى في التكليف متفضل ، كيف ؟

قالوا : لأنه حين كلّفك كلّفك بشيء يعود نفعه عليك أنت ، ولا ينتفع هو منه بشيء ، ثم بعد ذلك جازاك عليه ، وجعل لك ثواباً ، فكأنه سبحانه تفضّل عليك في التكليف مرتين .

وقوله : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١)﴾ [غافر] هذا يعني أن القلة هي الشاكرة ، ويُعرف الشكر بزيادة النعم ، فالشكر وزيادة النعمة متلازمان ، وقد وعد الحق سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾ [إبراهيم]

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمُ (٦٢)﴾ [غافر] إشارة إليه سبحانه . أي : الذي فعل لكم كذا وكذا ، وتفضّل عليكم هو الله ربكم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [غافر] وهذه مسألة لم ينكرها أحد ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (٦٢)﴾ [غافر] هكذا حكم بها الحق سبحانه لنفسه بأنه لا إله إلا هو .

إذن : فأنت تؤمن بالله ، والله سبحانه آمن بذاته ، وشهد لنفسه بهذا ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو قبل أنْ يشهد بها أحد ، لذلك يطلق سبحانه كلمة كُنْ ، ويعلم أنها نافذة لأنها كلمته وليس لها معارض ، وليس هناك إله آخر يردّها أو يُعدِّلها أو يعترض عليها .

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] قالوا : شهد الله لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال .

والحق سبحانه ساعة يقول ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] يطلقها هكذا قضية عامة على إطلاقها ، نقول : إما أنْ تكون قضية صادقة أو غير ذلك - وحاشا لله - فإنْ كانت صادقة فقد ثبتت الحجة ، وإنْ كانت غير ذلك فأين خالق كل شيء ؟

أين خالق هذا الكون إذا لم يَكُنْ الله هو خالقه ؟ مَنْ هو ؟ ولماذا سكت ولم يخبر عن نفسه ؟ إنْ كان لا يدرى بوجود الله فهو إله نائم غافل لا يصلح للألوهية ، وإنْ كان يدرى بوجود الله الذى أخبر هذا الخبر ولم يعارضه فهو عاجز ، والإله لا يكون أبداً عاجزاً .

لذلك قال سبحانهُ مؤكِّداً على صحة هذه القضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : لذهبوا إلى الإله الحق ليناقشوه كيف أخذ منهم الخَلْق ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟ وهذا لم يحدث .

وقوله : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الذى يقول به العقل وتثبته الحجج والبراهين والواقع ، فالحق فى هذه القضية واضح ، وقد أطلقت هذه القضية وأخبرت بها ولم يَقُمْ لها معارض ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، ومعلوم أن القضية تثبت لصاحبها ما دام ليس لها معارضٌ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن جماعة جلسوا فى

مكان ، ولما انصرفوا وجد صاحب المكان محفظة نقود فقال لخادمه : ابحث عن صاحب هذه المحفظة ، فأخذ الخادم يتصل بهم واحداً واحداً فلم يقُلْ أحد منهم أنها لى ، ثم طرق البابَ واحدٌ منهم . وقال : والله لقد نسيتُ محفظتى هنا ، فلمن تكون إذن ؟ تكون لمن ادَّعاها إلى أنْ يظهر مُدَّعٍ آخر .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن هذا الحق الواضح البيِّن ، ومعنى يجحدون الآيات . أى : ينكرونها كبراً واستعلاءً ، فهم لا يجحدونها ولا ينكرونها لدليل عندهم ولا لمنطق يعتمدون عليه ، إنما يجحدونها لأنها آياتُ الله وهم لا يريدون الله ، ولا يريدون منهج الله .

إنهم يخافون هذا المنهج الذى يُؤدِّب حركتهم فى الحياة ويُقيد شهواتهم ، إنهم يريدون أنْ ينطلقوا فى الحياة بشراسة القوة والبطش بالناس وبشراسة الشهوات التى لا ضابط لها ، فجحود الآيات هو سبب الانصراف عن الحق ، فكأنه أمر غير طبيعى منهم .

لذلك رأينا كفار قريش تكبروا عن قبول الحق وعاندوا رسول الله ، ولم ينطقوا أبداً بلا إله إلا الله ولو مجرد النطق بها ككلمة ، لماذا ؟ لأنهم يعرفون معناها تماماً ويعلمون مطلوباتها ، ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تُقال لَقالوها ، لكنهم وهم العرب أصحاب هذه اللغة يعرفون أن معنى لا إله إلا الله : لا معبود إلا الله ، ولا سيادة ولا رأىَ إلا لله ، ولا حكم ولا خضوع إلا لله ، وكيف يقبلون بذلك وهم قد ألفوا السيادة على قبائل العرب ؟

وكلمة ﴿ يُؤْفَكُ (٦٣) ﴾ [غافر] من الإفك ، وهو الكذب وقَلْب

الحقائق ، والكذب أنْ تقول قضية مخالفة للواقع فكأنك تقلب الحقيقة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] المؤتفكة : هى القرى[1] التى قَلَبها الله رأساً على عقب ، كذلك الكذب يقلب الحقائق ، فينكر الموجود ويثبت غير الموجود .

وقوله تعالى : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الواضح كأن هذا أمر فطرى ، فبالفطرة يصل الإنسان إلى الله ، وما كان ينبغى أنْ يقف الإنسان أمام هذه القضية لأنها واضحة وعليها دليل ، وكل تعاليم العقائد كذلك أمور فطرية أولاً ، إنما ضَبَّب هذه الفطرة هوى النفوس والغفلة وأغيار الزمن .

فما جاء به الدليل والعقيدة أمور يصل إليها العقل بالفطرة والطبيعة الصافية ، بدليل أن الناس الذين لم يؤمنوا برسول فكَّروا فى هذه المسائل، وتوصَّلوا إلى وجود الخالق سبحانه لما تأملوا آياته فى كونه .

لذلك تجد مثلاً الفلاسفة الذين كانوا لا يحبون كلمة رسول ويقولون : نحن مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، قالها سقراط[2] ، لذلك

---

(١) المؤتفكة هى قرى ومدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال : ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] يعنى : من الحجارة التى ارسلها عليهم [ابن كثير فى تفسيره (٢٥٩/٤)] . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : أفك) : « الائتفاك عند أهل العربية : الانقلاب كقريات قوم لوط التى ائتفكت بأهلها أى انقلبت » .

(٢) سقراط : فيلسوف ومعلم يونانى ، ولد ٤٦٩ قبل الميلاد وعاش فى أثينا ، عُرف عنه تواضعه فى مأكله ومشربه وملبسه . وكان يعلم الناس فى الشوارع والأسواق والملاعب معتمداً على توجيه الأسئلة إلى مستمعيه ، أعدم باحتساء السم بتهمة إفساد الشباب على حكامه ، توفى عام ٣٩٩ قبل الميلاد عن ٧٠ عاماً . (موسوعة ويكيبيديا) .

ناقشه فيها تلميذه (أرسطودين)[1] وعرض عليه من المسائل والآيات كما يعرض الدين تماماً .

قال له : انظر إلى نفسك وإلى تكوينك فى ذاتك ، وتأمل ما فيك من جوارح ، لا أقول لك : انظر إلى الآيات الكونية من حولك بل إلى نفسك وجوارحك فى ذاتك ، أليس لك حواس ؟ قال : بلى ، قال : اذكرها . قال : لى عين تبصر ، وأذن تسمع ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس .. الخ .

قال : فلماذا خُلق لك عينان وأذنان ولسان واحد ، أليس وراء ذلك حكمة ؟ تأمل هذه الحواس وتأمل الحكمة من خَلْقها على هذه الصورة ، خلق لك عينين لاستيعاب المرئيات من هنا ومن هنا ، وأذنين لاستيعاب المسموعات من هنا ومن هنا .

أما اللسان فيكفى فى القيام بمهمته لسان واحد به تتكلم وتعبِّر ، وبه تتذوق المطعومات ، اللسان على صغَر حجمه تتذوَّق به الحار البارد ، والحلو والمر ، ثم إذا التذَّ به ابتلعه ، وإذا لم يلتذ به يلفظه وكأنه (كنترول) على كل ما تتناوله ، ثم إن التذوق يحفزك على الأكل ويُرغِّبك فيه ، لأن به استبقاءَ الحياة والقوة التى نُحقِّق بها مطلوب الله منَّا .

---

(١) المقصود هو أرسطوقليس الملقب والمشتهر بـ (أفلاطون) بسبب ضخامة جسمه وهو أشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق . ولد فى أثينا فى عائلة أرسطوقراطية (عاش بين ٤٢٧ قبل الميلاد - ٣٤٧ ق.م.) ارتبط بمعلمه سقراط فى العشرين من عمره . تأثر كثيراً بإعدام معلمه بحكم جائر وبُنيت فلسفته على كيفية سياسة الدولة بالفلسفة فكتب كتابه (جمهورية أفلاطون) [انظر : قاموس ناتان الفلسفى - تأليف : جيرار دوروزوى وأندريه راسيل - تعريب : أكرم أنطاكى] .

ثم ألا ترى حكمة فى قُرْب مدخل الطعام من الأنف الذى يشمُّ ، والعين التى تبصر ؟ لقد خلقه الله على هذه الصورة البديعة لتتمكن من رؤيته ، ومن شَمِّ رائحته قبل أنْ تتناوله ، أما مخارج الطعام فأين هى ؟ بعيدة عن العين ، بعيدة عن الأنف ، حتى لا تؤذيك الفضلات . نعم ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

ثم تأمل العين الواحدة تجد لها جَفْناً ينقبض ، وينفتح حسب إرادتك ، وفوق العين حاجبٌ يمنع تساقط العرق داخل العين وتحت أهداب ورموش تدفع عن العين ما يؤذيها من الغبار والأتربة ، فإذا نفذ إلى العين شيء بعد ذلك ، جاءت الدموع لتمسح العين وتُطهِّرها كما تفعل (المسَّاحة) التى تمسح زجاج السيارة .

والأنف الذى نشم به الروائح الطيبة فى الطبيعة وبه نميز الأشياء ، والآن نستخدمه ونُوظف حاسة الشم عند الكلب مثلاً للكشف عن الجرائم والمجرمين .

هذا كله كلام نظرى يقوله بالفطرة إنسانٌ صَفَتْ نفسُه ، وسلمت فطرته ، فتوصَّل إلى الحق بقليل من التأمل .

إذن : فقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] تحمل معنى التعجب من الانصراف عن الحق ، لأنه أمر لا ينبغى أن يكون وما كان يصح من أصحاب العقول أن ينصرفوا عن الحق وهو واضح .

لذلك قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ.. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] هذا استفهام تعجبىّ إنكارىّ ، يعنى : قولوا لنا كيف يتأتى منكم الكفر مع وجود هذه الآيات الواضحات الدالة على قدرة الله تعالى ؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أى : مستقراً لكم تعيشون عليها ، وكلمة (لَكُمْ) أى : لكل العباد ، وهذه يشرحها قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] هكذا على العموم ، فأىّ أرض وأى أنام ؟ لم يحدد .

إذن : فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[1] ، لكن أهذا المبدأ هو واقع حياتنا ؟ لا ، وما حلَّ الفساد بالعالم ، وما وقع الناسُ فى الأزمات وضيق العيش إلا بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ .

ففى الكون الآن أرض بلا رجال ، وفى مناطق أخرى رجال بلا أرض ، والسبب فى ذلك تلك الحواجز التى وضعها البشر تحُول بين عباد الله وأرضه .

ولك أنْ تقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]

لكن يا رب ، كيف لنا أن نهاجر وقد جعلوا على الأبواب حواجزَ

---

(١) الأنام : الخَلْق . والأنام ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب – مادة : أنم] .

وسدوداً وحدوداً وقوانينَ للدخـول ما أنزل الله بها من سلطان ؛ لذلك انظر إلى الخريطة وتأمل حدود الدول المختلفة تجدها حدوداً متداخلة وغـير منظمـة ، وفى بعض المناطق تجـد الحـدود غيـر واضحـة أو مُختلفاً عليها ، وفى بعض البلاد تجد الحدود بؤراً للخلاف والنزاعات بين الدول .

هذا إنْ دلَّ فإنمـا يدلّ على أن الأرض أرضٌ واحدة للجمـيع ، لما طرأ عليهـا الإنسان قسَّـمها وجـعل عليهـا حدوداً ، خلقهـا الله واحدة منفتحة واسعة ، حتى إذا ضـاقتْ عليك الأسبابُ فى بقعة منها فاذهب إلى أخرى وانطلق فى أرض الله ، وإذا لم يطبق هذا المبدأ الإلهى فلن تحلّ مشاكلنا ، وسوف تظلّ الأزمات تطحن الناس .

والاستقـرار فى الأرض على نوعين : استقرار للحيـاة والحركة ، واستقرار للراحة والهدوء ، فالواحد منا له بيت يعيش فيه ويأوى إليه وهو مُستقره ومكان راحته ومبيته ، لذلك نسميه بيتاً .

وله أرض يسعى فيـها ويطلب الرزق والحركة ؛ لذلك قـال سيدنا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] وقـال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا (١٢٦) ﴾ [البقرة] فـالأولى قرار للمبـيت وللراحـة ، والأخرى قـرار للحركة والسعى .

وتلحظ أن قـرار المبيت والراحة خـاصّ بك ، أما قـرار الحركـة فمـشترك مع غـيرك ، وأن الأرض ليست قـراراً لك فى حيـاتك الدنيا فحـسب ، إنما هى قـرار لك حتى بعـد موتك ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (٥٥) ﴾ [طه]

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أى : بناءً محكماً لا اختلالَ فيه ، والبناء معروف أنه يقوم على عمد تحمله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد] إما بغير عمد موجودة أصلاً ، أو يوجد عمد تحملها لكنكم لا ترونها ، فالعمد موجودة لكن لا تدركها حواسُّكم .

فالسماء محمولة بقدرة الله سبحانه ، ولم لا والأرض التى نعيش عليها ما هى إلا كُرة مُعلّقة فى الهواء ، فلِمَ لا تقع رغم ثقلها ؟

اقرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : لا أحدَ يمسكهما بعد الله .

ثم يعطينا الحق سبحانه مثلاً حسّياً يقرب لنا قدرة الله فى حمل السماء والأرض ، فيقول : خذوا من الحسِّيات التى تدركونها دليلاً على ما غاب عنكم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك]

نعم ، نحن نرى الطير فى جو السماء يقف فى الجو بلا حركة هكذا ، ومع ذلك لا يقع ، فمَنْ يمسكه ؟ يمسكه ربه عز وجل بقدرته ، كذلك يمسك السموات والأرض بقدرته .

وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] بعد أنْ تكلم سبحانه عن الأشياء الكونية الخارجة عنَّا كالليل والنهار

---

(١) صافات : باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : صفت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب - مادة : صفف] .

والســمـاء والأرض يتكلـم هنـا عن شيء في أنفسنا ، لأنـه قـال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

قوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ (٦٤) ﴾ [غافر] أى : جعل لكم شكلاً مميزاً تتميَّزون به ، ثم جعل لكم سماتٍ خاصة تتميز بها الأشخاص ليتم التعريف بحيث لا يفعل أحد فعلاً ويستتر منه في آخر .

فتمييز الأشخاص هنا مهم حتى يُنسب الفعل إلى صاحبه ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ (٦٤) ﴾ [غافر] أى : جعلها أحسن صورة بين المخلوقات ، وكان سبحانه قادراً على أنْ يُصوِّر الإنسان على أية صورة ، كأنْ يمشى على أربع مثلاً مثل الحيوانات ، لكنه كرَّمه وأحسن شكله ، وجعله يمشى معتدلاً مرفوعَ القامة .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ [الانفطار] يعنى : في أحسن صورة وأجمل شكل وأعدله .

بعد ذلك ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ (٦٤) ﴾ [غافر] ذلك لاستبقاء الحياة بالقوت ، لكنه لم يذكر هنا الزواج الذى به استبقاء النوع ، فأعطانا هنا لمحةً وترك الأخرى لموضع آخر حتى لا يخلوَ مكان من كتابه من إعجاز في خَلْقه .

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) ﴾ [غافر] يعنى : تنزَّه وتقدَّس

---

(١) الآفاق : جمع أفق وهو الناحية . وخط التقاء السماء بالأرض في رأى العين . ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء . فيقال : هو واسع الأفق . [القاموس القويم ١/٢٢] .

وجاء منه البركة ، وجاء منه الفضل ، وجاء منه الإمداد .

وكلمة (تَبَارَكَ) أخذتْ حظّها من كتاب الله[1]، نجدها للأمور المادية الحسّية ، ونجدها للمعنويات وللمنهج الذى وضعه اللهُ لاستقامة حركة الحياة ، فالله جعل لك الجسمَ المادى ، وجعل لك الروح التى يعيش بها هذا الجسم .

﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] كأن كلّ صفات الكمال الأصل فيها أنْ توجد بحياة ، فلا يمكن أنْ توجد قوة إلا بحياة ، ولا سمع إلا بحياة ، ولا بصر إلا بحياة . وكلمة (الحى) تعنى أن الله تعالى ليس من الأغيار ، فأنتم لكم وجود وحياة مرتبطة بهذا الوجود ، أما الحق سبحانه فحىٌّ بذاته ، الحىُّ صفة ذاته ، والمحيى صفة فعله ، وما دام الحىُّ صفة الذات ؛ فما بالذات لا يتخلف ، فهو حَىٌّ أى : لا يموت ، لكن صفة المحيى يقابلها صفة المميت ؛ فيُحيى هذا ويُميت هذا .

---

(١) ذكرت كلمة تبارك فى القرآن ٩ مرات : (الأعراف ٥٤) - (المؤمنون ١٤) - (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) - (غافر ٦٤) - (الزخرف ٨٥) - (الرحمن ٧٨) - (الملك ١)
قال السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ٢/١٨٨] : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ولا يُستعمل إلا لله » . ومعنى تبارك الله : تقدس وتنزه عن كل نقص ، أو كثر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

لذلك قالوا : الاسم الذى له مقابل (صفة فعل) ، والاسم الذى ليس له مقابل (صفة ذات) فقالوا فى الثناء عليه سبحانه : يا حى صفة ذاته ، ويا محيى صفة فعله ، وما بالذات لا يفوت ، وما بالفعل يحيا ويموت .

وما دام أنه سبحانه حَىٌّ ولا إله إلا هو ﴿ فَادْعُوهُ (٦٥) ﴾ [غافر] بشرط ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٦٥) ﴾ [غافر] يعنى : حين تدعوه لا يكون فى بالك غيره ، فإذا لم يكن فى بالك غيره حين تدعوه كان معك واستجاب لك .

نعم ﴿ فَادْعُوهُ (٦٥) ﴾ [غافر] لأنه قيوم يقول لك : نَمْ واسترح لأن ربك قيُّوم لا ينام ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وكأنه سبحانه (بيدلع) مَنْ آمن به ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٦٥) ﴾ [غافر] فإياك أنْ تقول : توكلت على الله وعليك ، أو توكلت على الله ثم عليك ، هذا كله كذب ، استكفِ بالله وكفى به وكيلاً .

وحين تدعوه مخلصاً له الدين فقد وضعتَ أمرك فى يد راحد ، هو الذى يملك أنْ يفعل ، لا أنْ تذبذبه فى يد مَنْ لا يستطيع ، ثم لاحظ فى الدعاء أن ربك أعطاك واستجاب لك قبل أنْ تدعو ، بل وقبل أن تعرف الدعاء ، بل وأعطاك قبل أنْ توجد أصلاً ، إذن : كل ما يريده منك هو إظهار ذل العبودية لعزِّ الربوبية .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾ [غافر] يعنى : احمدوا الله أنْ تفضَّل عليكم بكلِّ هذه النعم بداية ، أوجدكم من عدم وأمدكم من

عُدْم ، إلى أنْ ينتهى بكم المطاف فى الجنـة إنْ شاء الله ؛ لذلك ساعة ندخل الجنة نقول كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ ﴾ [يونس]

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(قل) الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر] يعنـى : المسـألة ليستْ من عندى ، إنمـا هى نَهْى مـن الله جاءنى فى آيات بينات واضحـات ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر] أى : أُسْلم قيادى وأمرى لرب العالمين سبحانه ..

نعم ، لأن الإنسان منا حتى فى دنيا الناس حينما يكون لا يحسن شيئاً ولا تسعفه أسبابه يلجأ إلى مَنْ يقضى له حاجته ويقدر عليها ، كما نذهب مـثلاً للمحامى فى رَفْع قضيـة أو نذهب للطبيب للتداوى .. الخ لأنك لا تستطيع أنْ تدافع عن نفسك أمـام القاضى ، ولا تستطيع أن تداوى مرضك ، فـإذا ما ذهبتَ إلى واحـد من هؤلاء فلا شكَّ أنك تسلم له زمـام أمرك ، وتُفـوِّضـه أنْ يفعل مـا يراه صالحـاً دون أنْ تناقشه أو تعترض عليه .

إذن : معنى ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾ [غافر] يعنى : إسلام الزمام من عاجز عن شيء لقادر على هذا الشيء ، فإذا أمرك ربك أمراً فخذ الأمر من منطلق إيمانك به ، كيف ؟ قال : مثل حالى مع الطبيب حين يصف لى الدواء المناسب لحالتى لا أناقشه فيه ، ولا أقول له : لم كتبت كذا وتركت كذا ؟ حتى حين أسأل عن الدواء أقول : والله كتبهُ لى الطبيب ، وألقى التبعة والمسئولية عليه .

فإذا كنت تُسلم أمرك وزمامك للطبيب وهو بشرٌ مثلك يخطىء ويُصيب ؛ لأنك رأيت له حكمة فوق حكمتك وعلماً ليس عندك ، كيف تفعل هذا معه ولا تفعله مع الله عز وجل ، وهو العليم الحكيم القادر ؟

إذن : ما أمرك به ربُّكَ فامتثل للأمر ونفِّذ دون نقاش أو اعتراض أو تبرُّم بما قضى عليك به . والحق سبحانه يعلمنا درس التسليم له سبحانه فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكيف أنه أسلم وجهه ، وألقى زمام أمره لربه تعالى ، حينما أمره بذبح ولده إسماعيل الذى لم يُرزق به إلا على كبر[1] وبعد يأس ، لذلك قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم]

أراد المفسرون تقريب هذا المعنى ، فقالوا : المراد الحمد لله الذى

---

(١) ذُكِر فى العهد القديم - سفر التكوين أن عمر إبراهيم عليه السلام حين ولد له إسماعيل كان ٨٦ عاماً . [تكوين أصحاح ١٦ : ١٦] وقد كان بين إسماعيل وإسحاق ٤١ عاماً ، وكان عمر إبراهيم حينها ١٠٠ عام [تكوين ٢١ : ٥] .

وهب لى على الكِبَر ، فجعلوا على بمعنى مع[1] ، وفرْقٌ بين كلمة من حرفين ، وكلمة من ثلاثة أحرف ، ولا يعدل القرآن الكريم عن الحرفين ويختار الثلاثة إلا لملحظ يحتاجه المعنى ، فما هو ؟ قالوا : معنى (مع الكبر) أى : مظنة ألاَّ ينجب ، لكن مراد الله تعالى فوق هذه المظنة ، يعنى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم] لا مع الكبر .

كذلك فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام قال : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا[2] وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴿٩﴾ ﴾ [مريم]

إذن : فمعنى ﴿ عَلَى الْكِبَرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم] أن الكبر كان يقتضى عدم الإنجاب لكن مراد الله أعلى من الكبر وفوقه . ونفهم هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد] البعض قال : يعنى مع ظلمهم ، وهذا لا يصح بل على ظلمهم كما أرادها الحق سبحانه ، لأن الظلم يقتضى العقاب ، لكن تأتى مغفرة الله وتعلو على الظلم ، وعلى قانون مجازاة الظالم بظلمه .

وقوله : ﴿ نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر]

---

(١) ذكر جمال الدين بن هشام الأنصارى تسعة معان لـ (على) منها المصاحبة كـ (مع) نحو : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة] ونحو ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد] .

(٢) عقرت المرأة : أصيبت بالعقم فهى لا تلد فهى عاقر . [القاموس القويم ٢/ ٣٠] .

نهى لأنه مُحبٌ له ، فقال له : وجِّه عبادتك لمن يقدر أنْ يفعل لك ، وهذا النصح لا يكون إلا من مُحب كما تنصح صاحبك وتدلّه على الخير ، ولولا حبك إياه ما نصحته .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر] أسلم قيادى وزمام حركتى فى الحياة لربى افعل ما أمر بفعله ، وأنتهى عما نهانى عنه ، أمر سكت عنه ولم يقل لى فيه : افعل ولا تفعل فأدخله فى مقام المباح ، ولو كان أمراً النفس العادية تنفر منه .

وحتى إنْ حكم عليك حكماً ترى فيه مشقة ظاهرية على نفسك فاعلم أنه يريد لك الخير من حيث لا تدرى ، كما قلنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وتعلمون أن سيدنا إبراهيم ابتلاه ربه بأمور كثيرة كلها مشقة : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] ولما أتمهن ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] فى شبابه ابتُلِى بالإحراق ، ولما كبر سنه ابتُلى بذبح ولده ، وهو فى حال ابنه أعزّ

---

(١) اختلف العلماء فى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم على أقوال ، منها :

- ابتلاه الله بالمناسك . ابن عباس .

- ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . [ذكرهما ابن كثير فى تفسيره ١/١٦٥] .

عليه من نفسـه ، لأن الإنسان حين يتقدم به سِـنُّه ويقبل على الآخرة والنهاية يودّ أنْ يكون له امتداد في ولده من بعده .

فـابتُلِي إذن في أول حـيـاته في ذاته بـالإحراق ، ثـم ابتُلى عند وجود الولد وبعد كِبَر السنّ بقتل الولد .

والابتلاء هنا ابتـلاء مبالغة ، فلو أنه سيـموت موتاً طبيـعياً لكان ابتلاءً ، فمـا بالك حين يقول له : اذبحه بيـديك ، عندها يكون الابتلاء أشدّ ، وهذا الابتـلاء لم يأتِ بأمر مـباشر ، إنمـا برؤيا مناميـة قابلة للتـأويل ، ومع ذلك أذعن إبراهيمُ لمجـرد الرؤيا لأنـه يعـلم أنهـا من الله .

لكن كيف أقبـل سيدنا إبراهيم على تنفيـذ هذا الأمر ؟ أأخذ ولده على غِرَّة ؟ لا بل أحب أنْ يُدخله معه في مجال الابتلاء ، وألاَّ يحرمه ثواب التـسليم مـعـه لله ، فـقـال له : ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ فِي الْمَنَامِ (١٠٢) ﴾ [الصافات] أراد أنْ يعطيه فـرصة لأنْ يقـول : كـيف تذبـحني يا أبي برؤيا منام ، فـيكون له مـجـال لأنْ يعترض لكنه لم يفعل ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وتصـوَّر لو أن سيـدنا إبراهيم أخـذ ولده دون أنْ يخبـره بشيء وألقـاه على الأرض وامسك بالسكـين ليذبحـه ، ماذا سـيكون شعـور الولد نحـو والده ؟ سيكـرهه ويكره فعله ويـغضب عليـه ، وفي هذه

الحالة لا نصيبَ له في ثواب هذا الابتلاء .

وتأمل قول إسماعيل في الرد على أبيه : ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فيُذكِّره بالآمر يعني : يا أبت افعل ما دام الأمر من أعلى منك ، وسبق أن قلنا : إن الفعل في ذاته ينبغي ألاَّ يترتب عليه فرحٌ به ولا غضبٌ منه إلى أنْ تعرف الفاعل ، فإذا عرفتَ أن ربك هو الآمر ، فقد انتهتْ المسألة وليس إلا التسليم للأمر .

وهكذا رأينا التسليم منهما معاً ، لذلك قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] هكذا بصيغة المثنى ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعني : بدأ التنفيذ والانقياد بشكل عملي قال له ربه : ارفع يدك فقد نجحتَ في الامتحان ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

هكذا رفع البلاء ولا يُرفع قضاء حتى يُرْضَى به ، رفع عن إسماعيل القتل ونزل له الفداء وعوَّضه ربه عن الفزع الذي أصابه ، فبشَّره بغلام آخر[2] ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات] يعني : كنا نريد أَخْذ إسماعيل ، فلما رضيتَ بقضائنا فيه

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، أي : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض [القاموس القويم ١/١٠١] .

(٢) بشر الله إبراهيم عليه السلام بإسحاق وكان عمر إسماعيل حينئذ ثلاثة عشر عاماً . وقال سعيد بن المسيب : بشَّر الله إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة جزاءً لطاعته وصبره . [زاد المسير لابن الجوزي – سورة الصافات] .

زدناه بآخر ، ثم جعلناهما من الأنبياء ومن ذريتهما الأنبياء ، فتأمل ماذا جرَّ لك التسليمُ بالقضاء والرضا به ؟

إذن : أنت فى التسليم لله لا تأخذ الفعل لذاته ، إنما بضميمة صاحبه ، الآمر به .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(١) ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يعود بنا مرة أخرى إلى مسألة الخلق الأول ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] معلوم أن لنا خَلْقين : خلقاً من تراب لما خلق الله آدم وحواء ، وخلقاً من النسل الذى تناسل منهما .

لاحظ أن الله تعالى قال ﴿ مِّن تُرَابٍ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] وقال ﴿ مِّن طِينٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الانعام] و ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] وقال ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] ، وهذه كلها مراحل للشيء الواحد ، فالتراب حين نضبع عليه الماء يصير طيناً ، فإذا تركناه فترة

(١) العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه . [القاموس القويم ٢/٣٢] . فالعلقة : قطعة دم منعقد غليظ .

تعطّن وتغيَّرتْ رائحته ، وهذا هو الحمأ المسنون[1] ، فإذا تركناه يجف يصير صلصالاً[2] .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. (٦٧)﴾ [غافر] لا يعنى أبانا آدم وحده ، إنما كلنا من تراب حتى مَنْ خُلقوا بالزواج والتناسل ، لماذا ؟ لأن الميكروب الذى ستنشأ منه جرثومة الرجل وبويضة المرأة إنما تأتى مما نأكله من طعام ، والطعام يُؤخذ إما من نبات أو حيوان ، والنبات والحيوان منشؤهما تراب الارض .

ولذلك رأينا فى عملية التحليل الكيماوى لعناصر الإنسان أنها هى نفسها عناصر التراب ، وهى العناصر الستة عشر المعروفة ، فكَوْنُ الإنسان خُلق من طين لها دليلٌ مادى معلوم لنا الآن ، إذن : كلنا من تراب ، وإنْ جئنا من زوجين ، لذلك قال ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[3] .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . (تاج العروس من جواهر القاموس - مادة : حمأ) وقال : « وفى كتاب المقصور والممدود لأبى على القالى : الحمأ : الطين المتغير » . والمسنون : المتغير المنتن . فكأنه تأكيد للمعنى الذى فى الحمأ .

(٢) الصلصال : الطين الجاف لم تحرقه النار . [القاموس القويم ١/٣٨١] . فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار . فالصلصال طين يابس يصلّ من يبسه أى : يُصوِّت . [لسان العرب - مادة : صلل] .

(٣) أخرج الترمذى فى سننه أن ابن عمر قال : خطب رسول الله ﷺ الناس يوم الفتح فقال : يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هيِّن على الله ، الناس بنو آدمَ وخلق الله آدم من تراب . [سنن الترمذى حديث ٣٢٧٠] .

لذلك الحق سبحانه لما تكلم عن الخَلْق قال : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾ [الكهف] لأن خَلْق السموات والأرض سابقٌ على خَلْق الإنسان ، والإنسان طارىء عليهما ، ولما خُلِق آدم لم يكُنْ له تمييز ليعرف كيف خُلق .

ثم يأتي سبحانه بكلام يدل على الإعجاز وإفحام المعاندين ، فيقول : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

يعنى : ما أخذت منهم مساعدين لى ، ولا معينين لى فى عملية الخلق ، والمضلون هم الذين يُضللون الناس ، ويقدمون لهم الباطل فى ثوب الحق ، ويُراد بالمضلين المضلين فى مسألة الخلق كمَنْ يقول لنا الآن : إن الإنسان فى أصل خَلْقه الأول كان قرداً وتطور كما قال داروين[1] .

لكن الحق سبحانه يقطع عليهم طريق الضلال ، ويقول لهم : أنتم ما شهدتم الخَلْق لتخبروا الناس به ، وأنا الخالق وحدى ولم يكُنْ معى أحدٌ غيرى خبر بما حدث ، فإذا أردتُم أنْ تعرفوا كيفية الخلق فاسمعوا منى أخبركم به ، وقد أخبرنا الله به فى آيات كثيرة فى كتابه .

فإنْ قلت : هذا كلام أخبر الله به ولم نشهده ، نقول : تأمل واقع

---

(١) داروين : عالم حيوان ، إنجليزى الجنسية اشتهر بنظرية التطور حول نشأة الإنسان ، ولد فى انجلترا فى ١٢ فبراير ١٨٠٩ م وتوفى ١٩ أبريل ١٨٨٢ م عن ٧٣ عاماً ، درس الطب واللاهوت ، له كتاب « أصل الأنواع » ، « سلالة الإنسان » ، « دودة الأرض » .

الحيـاة فإنه يدلّ على صـدق الله فيـما قال ، فـأنت لم تَرَ الخَلْق لكن رأيتَ نقـيـضه وهو المـوت ، ونَقْض الشـىء يأتـى على عكس بنائه ، فحين تبنى مثلاً بيتاً من أربعة أدوار تبدأ بالأول ، فإنْ أردتَ أنْ تهدم تهدم الرابع .

كـذلك المـوت ، يبـدأ بخـروج الروح وهـى آخـر شىء فى خَلْق الإنسـان بعد خـروج الروح يتصلَّب الـجسـد ، ثم يرمّ ويتغـيَّر مـثل الجيفة ، ثم يتبخَّر منه المـاء الموجود فيه ، ثم يتحلل الباقى إلى تراب ، فجاء الموت ليصدق ما غاب عنك فى بداية الخَلْق .

قوله : ﴿ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧) ﴾ [غافر] هذه مراحل فى الخَلْق ، ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. (٦٧) ﴾ [غافر] قالوا : هو طفل طالما هو فى مراحل النمو ، فـإذا استوى وأخذ شكله النهائى واسـتقر على صورة كـاملة فـقد وصل إلى مـرحلة البلوغ التى يستكمـل فيهـا كلَّ أجهزة الوجود ، لأنه بالبلوغ أصبح قادراً على إنجاب مثله .

يقول تـعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [النور] فالطفولة هى مرحلة النمو . ومرحلة البلوغ هى الأشد ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. (٦٧) ﴾ [غافر] أى :

---

(١) الحُلم : البلوغ مبلغ الرجال . وهو أيضاً الاحتلام وهو الإنزال حال النوم . وغلام حالم إذا بلغ الحلم ، ومنه قـول رسول الله : « غُسلُ الجمعة واجب على كل حـالم - وفى رواية : محتلم » . [جمهرة اللغة لابن دريد] .

قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] أي : تنحدرون مرة أخرى من القوة إلى الضعف وإلى الشيخوخة ، وهي مرحلة ضعف وهُزَال في الجسم .

فإذا انتهتْ مرحلة النمو والزيادة بدأتْ مرحلةُ الضعف والهزال ، في مرحلة النمو تجد أن ما يدخل له من الغذاء أكثرُ مما يخرج منه من الفضلات لذلك يزيد ، أما في مرحلة الشيخوخة فتكون الفضلاتُ أكثر ، فيحدث له النقص والهزال ، وتأخذ قوته في الانحدار وعضلاته في الضمور ، إلى أنْ يصلَ إلى المخزن الأخير في الجسم وهو العظام ، فتحدث فيها هشاشة وتتكسَّر لما يُمتص منها .

لذلك قال سيدنا زكريا : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ[1] الرَّأْسُ شَيْبًا .. (٤)﴾ [مريم] فذكر آخر مراحل الشيخوخة وهي وَهَن العظام . هذا في الناحية الجسمية المادية ، أما في الذاكرة والأشياء المعنوية فيعتريه النسيانُ ، كما قال سبحانه : ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥)﴾ [الحج] فيصل به النسيانُ كأنه لم يعلم شيئاً في حياته ، ثم نراه يحبو ويُحمل كما يُحمل الأطفال : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ

---

(١) اشتعل الرأس شيباً : معناه انتشر فيه الشيب كالنار في الحطب . [القاموس القويم ١/٣٥٠] . قال ابن منظور في اللسان [مادة : شعل] : دخل في قوله الرأس شعر الرأس واللحية لأنه كله من الرأس .

(٢) ننكسه في الخلق : أي أنه يرجع إلى حالة ضعفه جسمياً وعقلياً حينما كان طفلاً ، أو ننكس رأسه بانحناء ظهره . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس]

وقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ .. (٦٧) ﴾ [غافر] يعنى : منكم مَنْ يعاجله الموت فلا يصل إلى هذه المراحل ، ربما يموت الإنسانُ فى بطن أمه أو بعد ولادته أو فى طفولته ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى .. (٦٧) ﴾ [غافر]

فالأجل مختلف ومكتوب عند الله ، منا مَنْ عمره لحظة ، ومَنْ عمره دقائق ، ومَنْ عمره ساعات ، ومَنْ عمره أيام أو شهور ، ومن الخلْق مَنْ لا يصل إلى تمام مراحل الخلق ، فيُؤخذ وهو علقة أو مضغة ولا يستكمل الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [غافر] يعنى : افهم أن الله حين يعطيك الأشدَّ ، وتصل إلى مرحلة القوة أنها ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك وكلٌّ نعمة عندك موهوبة ليست ذاتية ، ويمكن أنْ تُسلبَ منك فى أىِّ لحظة ، وما دمت قد عرفتَ أنها موهوبة وقد تُسلَب منك فى أىِّ وقت ، فالزم أدبك مع مَنْ وهبك هذه النِّعم .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

عرفنا أن الإنسان فى خلْقه يمرُّ بمراحل عدة ، وأن عمره مظنون قد يموت فى أىِّ مرحلة من هذه المراحل ، فكيف نفهم قوله تعالى :

﴿كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر] بالنسبة لمَنْ عمره لحظة مثلاً ، أو لمَنْ يموت فى بطن أمه ؟

قالوا : كُنْ هنا تُقَال لما يوجد عليه الإنسانُ ساعتها علقة أو مضغة أو غيرهما ، كأنه يقول له : كُنْ حياً . ثم تؤخذ الحياة منه بقانونها فى أزمانها التى لا يعلمها إلا الله .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾

قلنا : يجادلون فى آيات الله ، وهى على ثلاثة أنواع : آيات كونية كالشمس والقمر . وآيات المعجزات التى تصاحب بعثة الرسل . وآيات القرآن حاملة الأحكام . ورأينا أنهم جادلوا فى المعجزات فقالوا عنها : سحر . وقالوا : شعوذة . وجادلوا فى آيات الأحكام وقالوا : إنها غير مناسبة ، أما الآيات الكونية ، فليستْ محلاً للجدال .

قوله : ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن الحق وهو واضح فأين عقولهم المفكرة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ [غافر] قال ﴿كَذَّبُوا .. ۝٧٠﴾ [غافر]

بزمن الماضى ، لكن فى الجزاء قال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ [غافر]

يعنى : فى المستقبل ، قالوا : لأن الجزاء ليس بالضرورة أن يكون فى نفس الوقت أو وهم موجودون فى سعة الحياة الدنيا ، يصح أن نؤخر لهم الجزاء فى الآخرة .

وكلمة سوف دلَّتْ على المستقبل سواء القريب فى الدنيا أو البعيد فى الأخرة ، فإذا لم يدركهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر]

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يصلنا دائماً به وَصْلاً بحيث لا يأتى غيره على بالنا ، هذا الوصل يجعلك حينما تأتى الأشياء لا تظن أنك أخذتها بذاتيتك ، إنما هى موهوبة لك ، وللواهب أن يرجع فى هبته .

ولذلك ينبهنا سبحانه فيقول : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق] ثم يقول بعدها : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾ [العلق] يعنى : تذكَّر مردّك إليه ووقوفك بين يديه .

وقوله (الكتاب) أى : الذى أنزله الله حاملاً لمنهجه ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا.. ۝٧٠﴾ [غافر] أى : على السنة رسله ، فإنْ قلت الكتاب هو ما أرسلنا به رسلنا ، نقول : لا .. هناك فرق ، فالكتاب هو المنهج ، أما الرسول فقد أُرسل يحمل المنهج ويُبلِّغه وأُسْوة

تطبيقية لذات المنهج كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾

أى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) ﴾ [غافر] متى ؟ يوم القيامة ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) ﴾ [غافر] تأمل مدى ما هم فيه من الإهانة ﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾ [غافر]

الأغلال جمع غل ، وهى قيود تُوضع فى الأيدى وتضمها إلى العنق ، والسلاسل أى : من حديد تُقَيَّد بها الأرجل ، أىّ ذلة بعد هذا ؟

ومعنى الحميم أى : الماء الذى تَنَاهى حَرُّه ، يعنى : بلغ الدرجة القصوى فى حرارته ، ثم بعد ذلك يُسْجرون فى النار يعنى تُحْمى بهم ويصيرون وقوداً لها .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) ﴾

تأمل هذا التبكيت للمشركين فى هذا الموقف العصيب : أين شركاؤكم الذين أشركتموهم مع الله ؟ ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب ، والله إنْ كانوا عبدوا أشخاصاً أمثالهم فسوف يرونْهم وقد سبقوهم إلى النار ، وإنْ كانوا عبدوا حجارة فسيرونْها أمامهم وقوداً لجهنم .

لذلك هم الذين سيقولون : ﴿ضَلُّوا عَنَّا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : لم يهتدوا إلينا ولم يعرفوا طريقنا ، ثم يرونَ أن الموقف أكبر من شركائهم فيكذبون ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] سبحان الله يكذبون حتى فى هذا الموقف ، كما سبق أنْ أقسموا بالله أنهم ما أشركوا : ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

لذلك يقول تعالى يصف هؤلاء الكذبة : ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦)﴾ [الواقعة] إذن : فهم ألفوا الكذب ، حتى إن موقف الحساب لم يردعهم عنه فيقولون : ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : ما أشركنا مع الله أحداً ، وقد يكونون صادقين فى هذا لأنهم لم يدعوا هذه الآلهة لأنهم يعرفون أنها لا تضر ولا تنفع ، وما عبدوها إلا ليُرضوا رغبة التديُّن عندهم بآلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين ونقضها والنكث فيها . وهو من الحنث الإثم . وحنث فى يمينه أى : أثم . وحنث اليمين إذا لم تبرّ . والحنث : الذنب العظيم والإثم . فهم يصرون عليه ويداومون عليه . [لسان العرب - مادة - حنث] .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر] نعم الحق لا يُضل أىّ إنسان إنما يضل مَنْ كفر ، فمَنْ كفر كيف يهديه الله ؟ سبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى قلنا : إن رجل المرور مثلاً حين تسأله عن الطريق يدلُّك ، فإنِ اعترضتَ عليه ولم تطاوعه أو سخرتَ من رأيه . وقلتَ له : أنت لا تعرف هذا المكان . تركك وتخلَّى عن إرشادك ، فإنْ أذعنتَ لرأيه وشكرته على صنيعه معك قال لك : لكن والله أمامك هناك على بُعد كذا كيلو عقبة أو تحويلة ، سأذهب معك حتى تمرّ منها ، إذن : هداه أولاً بالدلالة ، فشكره أنه هَداه فلمَّا شكره استحقّ معونته .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] وهنا ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر] أى : الذين لا يستحقون الهداية ، لذلك قلنا أن مَنْ عشق الكفر وركن إليه واختاره لنفسه ، يقول الله له : أنا ربٌّ أعطيك ما تريد ، وما دُمْت أحببتَ الكفر فسوف أُعينك عليه وأختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمانُ ، ولا يخرج منه الكفر .

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ﴾

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من العذاب بالأغلال والسلاسل

والنار ، سببه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ[1] (٧٥)﴾ [غافر]

الفرح : انبساط النفس بما يسرُّها ويُسعدها ، لكن الفرح الحقيقى أن تسعد وتسر بما يُعينها على غايتها الأصيلة ، فهناك فرح بأىِّ شىء ربما كان بالمعصية ، وفرح بحق هو أنْ تفرح بما يُعينك على غايتك ، أما الشىء الذى لا يعيننى على هذه الغاية ، بل يصادمها ، فهذه لذَّة عابرة تعقبها حسراتٌ ربما تفوق أضعاف اللذة التى حصلتْ من هذا الشىء .

واقرأ مثلاً فى الفرح الحقيقى قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (١٧٠)﴾ [آل عمران]

نعم هذا هو الفرح بحقٍّ ، بل يتعدَّى الفرح للآخرين : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾ [آل عمران] فهذا فرح يتعدَّاك إلى غيرك فرح حقيقى ، لأنه يحقق الغاية الأصيلة فى الوجود .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس] هذا فرح بالفضل

---

(١) تمرحون : أى تبطرون وتأشرون . قاله مجاهد وغيره . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العدوان . [تفسير القرطبى ٨/٥٩٨٣] .

وبالرحمة من الله لا بعملهم ، وهذا فرح مشروع .

ومن الفرح المشروع : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦)﴾ [الرعد] لأنه جاء مُصدّقاً لما معهم ومُؤيداً لمنطقهم فى الحق ، وهذا تفرح به لأنه يُعينك على الغاية الأصيلة فى الوجود .

ويقول تعالى : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فكم فرح مشروع إذن ؟ فرح الشهداء بفضل الله وبرحمته ، وفرح الذين أوتوا الكتاب برسول الله ، وفرح المؤمنين بنصرة منهج السماء على منهج الأرض .

وما عدا الفرح المشروع فرح أحمق ، ومنه قوله تعالى عن الكافرين : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١)﴾ [التوبة] يعنى : ما أصابنا من الله محسوب لنا لا علينا .

وقال : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً فى الفرح غير المشروع أو الأحمق كما قلنا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا .. (١٨٨) ﴾ [آل عمران] يفرحون بأنهم آذوا المؤمنين وسخروا منهم ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ[1] مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾ [هود]

وقال : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا[2] كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

وما دامت قد تعددت الأحزاب ، وفَرِح كُلٌّ بما عنده ، فهو فرح باطل غير مشروع .

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ

---

(١) المفازة : سميت الصحراء مفازة تفاؤلاً بالفوز فى اجتيازها والنجاة من أخطارها ، ومعنى الآية : فلا تحسبنهم بمكان فوز يفوزون فيه بالنجاة من العذاب أى : لا تحسبنهم بمنجاة منه . [القاموس القويم ٢/٩١] .

(٢) زُبُرا : جمع زُبْرة بمعنى القطعة . أى : تفرقوا فى دينهم . [لسان العرب - مادة : زبر] .

الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

إذن : عندنا فرح مشروع في أربعة مواضع ، وفي تسعة مواضع ، فرح غير محمود وغير مشروع .

هنا يقول تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [غافر] هذا دليلٌ على أن هناك فرحاً بالحق وفرحاً بغير الحق ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [غافر] المرح : هو المبالغة في الفرح والسَّيْر به في بَطَر وتفاخر وخيلاء .

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

﴿ مَثْوَى ﴾ مرجع ومستقر ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الذين تكبَّروا على الله الذي وهبهم الحياة ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ، وهؤلاء تكبَّروا على الله فلم يؤمنوا به ، وتكبَّروا على رسله فلم يُصدِّقوهم ، وتكبَّروا على منهجه فلم يعملوا به ، اختاروا هواهم وأسلموا إليه قيادهم بدل أنْ يُسلموه لله .

---

(١) ناء الحمل بالبعير إذا أثقله . وقال ابن عباس : كانت خزائنه يحملها أربعون أقوياء ، وكانت أربعمائة ألف ، يحمل كل رجل عشرة آلاف . [البحر المحيط] وقال الشوكاني في فتح القدير (٤٢١/٥) : « ناء بحمله : إذا نهض به مثقلاً . والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح . قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب . والمعنى : لتنوء بها العصبة . أي : تنهض بها ، وقال الفراء : تميلهم بثقلها » .

بعد ذلك يلتفت إلى رسوله ﷺ يقول له : ستواجه كثيراً من المتاعب تحتاج منك إلى صبر ، لأن مهمتك شاقة ، وسوف تُؤْذَى بكل لون من الإيذاء :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾

نعم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : وعده بنصرة رسله وهو حق ، لأنه تعالى قادر على إنفاذ وعده ، وبيَّنا الفرق بين وعدك ووعد الله ، وعدك أنت غير الحق لأنك لا تملك أسباب الوفاء به وتضمنها ، أما الحق سبحانه فله صفات الكمال ، ولا يمنعه شيء من تحقيق وعده .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من العذاب فى الدنيا . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. (٧٧) ﴾ [غافر] تموت قبل أن ترى فيهم آية ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : فى الآخرة حيث لا يفلتون من العذاب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾ [السجدة]

العذاب الأدنى ما يقع لهم فى الدنيا ، والعذاب الأكبر يوم القيامة ، يعنى : لا مفرَّ لهم .

ثم يُوضح سبحانه لنبيه ﷺ حقيقة الرسالة ، يقول له : اعلم يا

محمد أنك لستَ بدعاً من الرسل ، ولستَ أول مَنْ أُوذِى فى سبيل دعوته ، فكل مَنْ سبقك من إخوانك فى موكب الرسالات أُوذِى بقدر رسالته ، لذلك فأنت أشدّهم إيذاءً ، لأنك نبىٌّ آخر الزمان ، ورسالتك عامة للناس كافة فى كل زمان ومكان ، فلا بُدَّ أنْ يكون ابتلاؤك أشدَّ ممَّنْ سبقوك .

يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ(١) وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

نعم ذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ أسماء بعض الرسل ، وعددهم فى القرآن خمس وعشرون ، قال الناظم :

فِى تِلْك حجتنا منهم ثمانيةٌ من بَعْد عشر ويَبْقَى سَبْعةٌ وَهُمُو

---

(١) ذكر السيوطى فى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) فى تفسير آية غافر ٧٨ : أخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن على بن أبى طالب قال : بعث الله عبداً حبشياً نبياً ، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ ، وقال الزمخشرى فى تفسيره الكشاف : قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبى : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس .

إدْريس هُود شُعَيْب صَالح ذُو الكِفْل آدم بالمخْتَارِ قَدْ خُتموا

لكن الحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] وهذا يعني أن الذين لم يُذكروا من الرسل كثيرون .

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد] ما مناسبة هذه هنا ؟ قالوا : لأنهم كانوا يقترحون عليه الآيات ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء] يعني : لتستديم هذه الجنة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء] فماذا كان جوابه : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ

---

(١) الكِسْفة والكُسْفة من السحاب والثوب : القطعة منه . والتكسيف : التقطيع . [الصحاح للجوهري] . وقد حدث من رؤساء قريش في حوار طويل مع رسول الله ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ، وفيه أنهم قالوا له : أسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت إن ربك إنْ شاء فعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد أفما علم ربك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

كُنتُ إلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء] يعنى : ما أنا إلا رسول من الله أبلغ ما أرسلت به .

والحق سبحانه أوضح لنا حينما لا يجيبهم إلى ما طلبوا من الآيات أنهم لم يكتفوا بما عندهم ولم يقنعوا به ، فطلب الآيات بعد ذلك يُعَد طعناً فى الآية السابقة هذه واحدة ، وأيضاً هناك أناس طلبوا الآيات فأجابهم الله ، ومع ذلك كفروا بها . إذن : كَوْنى أجاريهم فى طلب الآيات عبثٌ لا فائدة منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] أى : الآيات المطلوبة .

وقوله سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر] معنى ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ .. (٧٨)﴾ [غافر] ما دام القضاء بالحق ، فقد فاز المؤمنون وخسر ﴿هُنَالِكَ .. (٧٨)﴾ [غافر] أى : فى الآخرة ﴿الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر] الكافرون أهل الباطل ، وهذه هى النهاية الطبيعية والجزاء من جنس العمل .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾

﴿ الأنْعَام ﴾ هى : الإبل والبقر والغنم والماعز وهذه لها مهمة ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] يعنى : منها ما يُركب وهو الإبل ، فلا نركب الخروف مثلاً ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] أى : اللحوم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : منافع أخرى غير الركوب والأكل ، كأن ننتفع منها بالجلود والأصواف والأوبار ، وكانوا يصنعون منها الملابس والأغطية والمفروشات والخيام ... الخ .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، ففى الركوب قال : ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] وفى الأكل قال : ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] قالوا : لأن الأكل من المباحات ، أما الركوب فمن الضروريات .

وقوله : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : أنها تُبلغكم حاجتكم فى السفر للحج مثلاً أو للتجارة وحمل الأثقال ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾ [غافر] عليها نعم لأننا نركبها ونضع عليها الأحمال .

أما ﴿عَلَى الْفُلْكِ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : السفن . فمعلوم أننا نركب فى السفينة كما قال تعالى فى سفينة سيدنا نوح عليه السلام : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا .. (٤٠)﴾ [هود] ولم يَقُلْ عليها ، كيف ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه كأنه يُعطينا المراحل التى تمر بها صناعة السفن وكيفية الاستفادة منها ، فسفينة نوح كانت أولَ سفينة فكانتْ على صورة بسيطة ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا

أن صناعة السفن ستتطور ، ويكون بها طوابق مختلفة فنركب عليها .

لذلك كنا سألناهم فى سان فرانسيسكو[1] عن السفن العملاقة هذه ، متى صُنِعت ؟ وكانوا لا يعرفون سنة بالتحديد ، فقال أحد الحضور : اعتبر أنها منذ قرن مثلاً ، قلت : نعم ، وفى القرآن الكريم إخبار بها ووصفٌ دقيق لها ، فهى متسعة من أسفل تضيق فى كل دور من الأدوار إلى أعلى ، فتراها عملاقة على صفحة الماء مثل الجبل .

فكيف يقول الحق سبحانه فى قرآنه وهو يُعدِّد نعمه علينا فى سورة الرحمن : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] يعنى : كالجبال ، ومعلوم أن محمداً ﷺ لم يركب البحر ولم يَرَ مثل هذه السفن العملاقة ، إنه دليلٌ على صدق محمد ﷺ فى البلاغ عن ربه .

ثم قولوا لى : متى صُنِعت هذه (الأسانسيرات) وهذه المصاعد الحديثة ؟ قالوا : من خمسين عاماً مثلاً ، قلت : فالحق سبحانه يقول فى القرآن الكريم : ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ

---

(١) سان فرانسيسكو مدينة أمريكية في ولاية كاليفورنيا على المحيط الهادى ، سميت بهذا الاسم فى ٣٠ يناير ١٨٤٧ م ، وهى المركز المالى والبنكى لشاطىء الولايات المتحدة الغربى ، وهى مدينة ليبرالية ويسارية أكثر من معظم مدن الولايات المتحدة . (موسوعة ويكيبيديا) .

بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

معارج يعنى : مصاعد كالتى عندكم منذ خمسين سنة ، أخبرنا الله بها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه كلها لقطات من كتاب الله ذكرها الحق سبحانه لتكون دليلاً على الإعجاز : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

يعنى ﴿ آيَاتِهِ ﴾ فى هذه المخلوقات ، وآياته فى البحر حين تركبون السفن وترونَ عوالمَ أخرى فى البحر ، وآيات هى أعظم مما ترونَهُ على البر . والآن وبعد التقدم العلمى الحاصل رأيناهم يصنعون للفُلْك نوافذ من زجاج تحت سطح الماء ، ويصنعون زوارق زجاجية تُمكِّنك من رؤية الأعماق وما فيها من بديع صُنْع الله وآياته الدالة على قدرته ، لدرجة أنك تقول : سبحان الله ، كيف يكفر الكافر بعد رؤية هذه العوالم ؟

كذلك حين تركب الإبل فى البر وتتنقل بها عَبْر المسافات ترى كثيراً من آيات الله فى كونه ، فى الجمل الذى تركبه والصحراء

---

(١) المعارج : جمع معراج ومعرج : المصعد . والمعراج : الطريق الذى تصعد فيه الملائكة . والمعراج شبه سلّم أو درجة تعرج الأرواح فيه إذا قبضت . [العين – للخليل بن أحمد الفراهيدى – مادة : عرج] .

والجبال التي تمر بها ، في كل ما حولك ترى آية ، لذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يطلب منّا السير في الأرض .

فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

فكأن السير في الأرض لاعتبارين : السير في الأرض للاعتبار (فانظروا) والسير في الأرض للتجارة والاستثمار فقال لكم : سيروا في الأرض وابتغوا الرزق والاستثمار ، لكن لا تحرموا أنفسكم لذَّة الاعتبار والتأمل في بديع خلق الله ، فقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام] ومعلوم أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وثم للترتيب والتراخي(١) .

وقوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾ [غافر] يعني : هذه الآيات التي ترونها أيها تنكرون ، وكيف تنكرونها وهي واضحة

---

(١) تحقيق هذه المسألة أن الحق سبحانه :

- استخدم (الفاء) في ٣ آيات للسير في الأرض للاعتبار كيف كان عاقبة المكذبين والمجرمين والذين من قبل ، (النحل ٣٦) (النمل ٦٩) (الروم ٤٢) ، واستخدم (ثم) في التعبير عن نفس المعنى في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ [الأنعام] .
- وأيضاً استخدم الفاء للتعبير عن المعنى الآخر وهو التأمل في بديع خلق الله ، في قوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] . ولم يستخدم (ثم) كما قال الشيخ رحمه الله هنا ، فالآية الوحيدة التي وردت فيها (ثم) خاصة بالاعتبار بما حدث للمكذِّبين كما قلنا .

الدلالة على قدرة الله ، كما قال سبحانه فى سورة الآلاء (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] كررها الحق سبحانه بعد كل نعمة من النعم ، والمراد أنها آيات لا ينبغى أن تُكذَّب ، ولا ينبغى أنْ تُنكَر .

لذلك قال النبى ﷺ لصحابته : لقد قرأتُ سورة الآلاء على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا إذا قرأتَ عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] نطقوا جميعاً : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب[(١)] .

وجاء بلفظ (أى) للمذكر مع أن (آيات) مؤنث ولم يقُلْ آية قالوا : لأنها مؤنث مجازى جاء بصيغة الجمع ، فيجوز فيه التذكير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الانعام] فقال : هذا مع أن الشمس مؤنث .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا سير كما قلنا للاعتبار ، والاعتبار هنا بمَنْ سبقهم من

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الأمم ، يُبين لهم الحق سبحانه أن مَنْ سبقكم من الأمم المكذِّبة كانوا أكثر منكم عدداً ، وأشدّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، والآثار هى ما يتركه القوم بعدهم كالأهرام بالنسبة للفراعنة ، مثلاً يبقيها اللهُ شاهدةً عليهم .

وهناك آثار أخرى لم نَرَها لأنها مطمورة ، لكن أخبرنا الله عنها كما فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] هذه آثار باقية ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

فأين أنتم أيها العرب من هذه الحضارات الذاهبة ؟ لقد كان عليكم أن تفهموا الدرس من السابقين الذين كذَّبوا الرسل وعاندوهم ، أخذهم الله وهم أقوى منكم وأشدّ ونصر رسله ومنهجه ، وأنتم دون هؤلاء ولن تُعجزوا الله ، بل إن مسألتكم أسهل .

وقوله : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [غافر] يعنى : هذه الحضارات وهذه العمارة التى تُعدُّ إعجازاً لم نصل إلى سِرِّه حتى الآن ، لم تنفع أصحابها .

ولنتكلم عن آثارهم فى مصر مثلاً ، عندنا آثار الفراعنة فى المعابد وفى الأهرام ، رأينا الألوان على الجدران كما هى وكأنها منقوشة فى العصر الحديث ، رأينا بعض الحبوب كما هى وقالوا إنها صالحة للإنبات بعد هذه الآلاف من السنين ، وتعلمون ما فى بناء

الأهرام من الأسرار التى لم نتوصل إليها حتى الآن .

كل هذا التقدم لم يستطع أصحابه حمايته ، ولم يستطيعوا الإبقاء على هذه الحضارة ، ولا حتى استطاعوا أنْ يتركوا لنا ما يُفسِّرها ، ولولا شامبليون(١) فكَّ لنا رموز حجر رشيد لما استطعنا التوصل إلى هذا التاريخ ولا معرفته .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أي : جاءتهم رسلهم بالآيات الواضحات وبالمعجزات قال : لسنا فى حاجة إلى الرسل كما قلنا أن سقراط الفيلسوف قالها على الفطرة ، نحن قوم مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، ومع ذلك حكموا عليه بالقتل .

لذلك قلنا : إنهم حكموا عليه ظلماً لأنهم لم يحتكموا فى ذلك إلى شيء منطقى ، فأنت سويّ السلوك فى ذاتك ، لكن هل منع عنك سيء السلوك ؟ فكان يجب أنْ يوجد طرف محايد يراعى ما لى وما علىّ .

---

(١) هو : جان فرانسوا شامبليون ، ولد ١٧٩٠ م وتوفى عام ١٨٣٢ م عن ٤٢ عاماً ، عالم فرنسى ، كان صبياً عمره ٨ سنوات حين جاء مع الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، قضى ثلاث سنوات فى دراسة اللغات الشرقية والقبطية على يد كبار علماء ذلك العصر ، وشغل وظيفة أستاذ كرسى الآثار المصرية فى الكوليج دى فرانس .

قوله : ﴿فَرِحُوا[1] بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. (٨٣)﴾ [غافر] هذا نوع من الفرح الذي ذكرناه ، وقلنا : إنه غير مشروع وفرح أحمق . والمراد : فرحوا بما عندهم من العلم الذي يُحاجُّون به القرآن كقولهم : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ.. (٢٤)﴾ [الجاثية] وهكذا يقول العلمانيون ، ومثل قولهم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨)﴾ [الأنعام]

فكل قضية تُعرض عليهم يريدون أنْ يعارضوها معارضةً هم مقتنعون بها رغم بطلانها ، وهذا نوع من العلم عندهم .

أو المعنى : فرحوا بما عندهم من العلم بظواهر الحياة والحضارات التي أقاموها ، فقالوا : لسنا في حاجة إلى الرسل ، لأن ما عندنا من العلوم أي المادية فيه كفاية . ونقول : أنتم نظرتم إلى سطحيات الأمور وإلى الأشياء التي تبررون بها فكركم ، فقلتم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨)﴾ [الأنعام] يعني : تتهم الله ، وهذا دليلٌ على أنك تريد ذلك .

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير الآية :

المشار إليهم قولان :

– القول الأول : أنهم الأمم المكذِّبة قاله الجمهور ، ثم في معنى الكلام قولان : أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن نُبعث ولن نحاسب ، قاله مجاهد . والثاني : فرحوا بما كان عندهم أنه علم ، قاله السدي .

– والقول الثاني : أنهم الرسل ، والمعنى : فرح الرسل لما هلك المكذبون ونجوا بما عندهم من العلم بالله إذ جاء تصديقه ، حكاه أبو سليمان وغيره .

والبعض يقول أن ﴿فَرِحُوا..(٨٣)﴾ [غافر] تعود على الرسل ، يفرحون أنْ جعلهم الله هُداة مهديين ، لكن هذا القول فيه خروج عن مقتضيات السياق في الآية ، ويتعارض مع تذييل الآية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] أي : حَلَّ بهم ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] يعني : جزاءَ استهزائهم ، ومن الاستهزاء قولهم : ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾ [الأعراف]

وقالوا : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] من هُزْء الباطل من الحق ، لماذا ؟ قالوا : لأن الباطل حين يرى حقاً يدفعه فلا بُدَّ له أنْ يفُتَّ في عَضُد مَنْ يؤمن به ، لأنه لو لم يَفُت في عضده جذبه هو إلى الحق ؛ ولذلك سمعناهم يقولون : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[1] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

والله لو لم يكونوا يعلمون حلاوة القرآن وأخْذه لمن سمعه واستيلاءه على الأسماع والقلوب ، ولولا خوفهم من أنْ يأخذ

---

(١) قال السمرقندي في بحر العلوم في تفسير الآية ٢٦ من سورة فصلت : « نزلت الآية في أبي جهل وأصحابه فإنه قال : إذا تلا محمد القرآن فارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام في وجوههم حتى تُلبِّسوا عليهم ، فذلك قوله ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] يعني : الغطوا واللغط هو الشغب والجلب » .

القرآنُ منهم سيادتهم لما قالوا هذا الكلام ، ولما حذَّروا الناس من سماعهم ، ولو كان كلاماً عادياً ما وقفوا منه هذا الموقف . إذن : فهموا أن القرآن حَقٌّ ، ومَنْ سمعه لا بدَّ أنْ يهتدى به . ومعنى سمعه يعنى : بمواجيده .

سمعنا كثيراً قصة إسلام[1] سيدنا عمر بن الخطاب ، وكان جباراً فى الجاهلية عنيداً غليظ القلب ، فماذا حدث له بعد سماع القرآن ؟ لقد سمعه أولاً من أخته فغضب ولطمها على وجهها ، فسال الدم من وجهها ، وعندها تحركت عاطفته نحو أخته ، فلما تحركت عاطفته غطتْ على لدد الخصومة عنده للإسلام ، ولما غطَّت على لدد الخصومة للإسلام وصل القرآنُ إلى قلبه بدون لدادة فأثَّر فيه فآمن .

وقد صوَّر لنا القرآنُ فى موضع آخر نموذجاً لاستهزاء أهل الباطل بأهل الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين]

---

(١) كان إسلام عمر بن الخطاب فى ذى الحجة سنة ست من بعثة رسول الله وعمره حينئذ ست وعشرون سنة فيما ذكره ابن سعد عن ابن المسيب . وقال أبو نعيم : كان إسلامه بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . قال ابن إسحاق : كان المسلمون قريباً من أربعين من رجال ونساء . [انظر : سبل الهدى والرشاد - الباب ١٧ فى إسلام عمر بن الخطاب] .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا الاستهزاء ، واللقطة الأخيرة في هذا الموقف ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألنا ربنا ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم بما يستحقون ؟

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٥) ﴾

هذه الآية تُمثِّل نفس الموقف الذى مرَّ به فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ فردَّ الله عليه ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

يعنى : لا ينفعك الآن إيمانك . إذن : هناك فترة لا يمكن الرجوع فيها من الكفر إلى الإيمان ، وهى ساعة يحيق به الموتُ ، إنما يقبل منه الإيمان وهو فى سَعَة من أمره حين يؤمن وفى مكْنته الاَّ يؤمن .

كذلك هؤلاء ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٤) ﴾ [غافر] أى : عذابنا حَلَّ بهم فى الدنيا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) ﴾

[غافر] فهل هذا وقت يُقبَل منهم فيه إيمان ؟

يقرر الحق سبحانه : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : ما كان يصح فى عُرْف العقل ، ولا فى عرف الحق أن ينفعهم هذا الإيمان ، وكيف والآن لم تعُدْ لهم حيلة فى أنْ يُصادموا منهج الله ولا قوةَ ، الآن ليؤمنوا ؟

ما كان ينبغى أبداً أنْ ينفعهم هذا الإيمان ، وهذا الإيمان بظنهم هم ، وإلا فهو إيمان باطل مردود ، ولا معنى له لانه فى غير وقته .

وهذه ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : مضتْ ﴿ فِي عِبَادِهِ .. (٨٥) ﴾ [غافر] وقد رأينا هذه السُّنة على مرِّ التاريخ ، فكما أخذ أقواماً بذنوبهم ، ولم يقبل منهم إيمانهم ساعةَ غرغرتهم ، أو ساعة نزول العذاب بهم ، كذلك أنتم ولن تتغير هذه السُّنة لأنها ثابتة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [الاحزاب] ، وستظل سُنةُ الله جاريةً على الخَلْق أجمعين .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر] وهذا هو الأمر الطبيعى والنهاية التى يستحقونها .

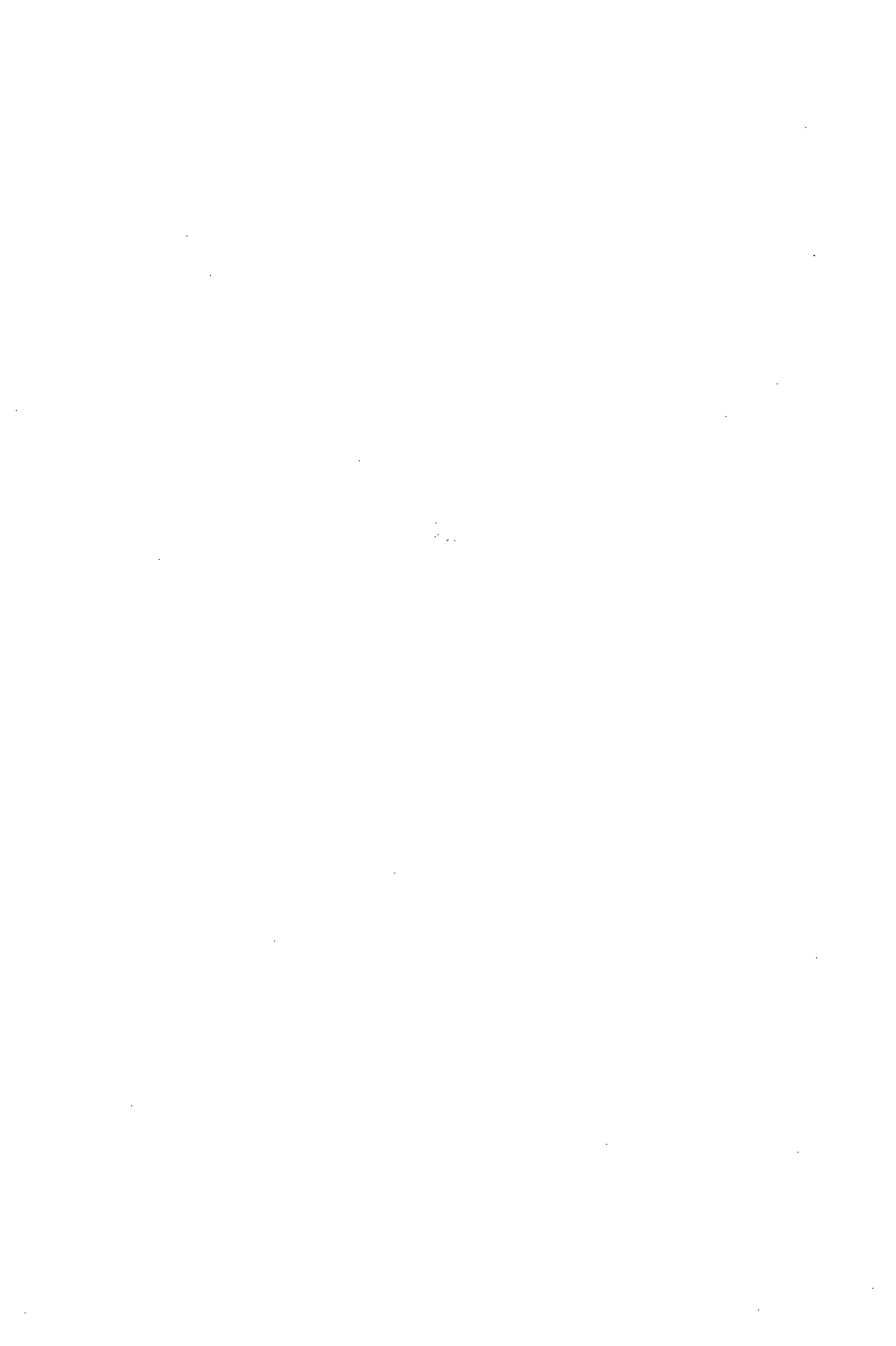
أخبار اليوم

قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

تفسير الشعراوى

المجلد الثانى والعشرون

من الآية ١ «سورة فصلت» إلى الآية ٢٢ «سورة الجاثية»



سورة فُصِّلَتْ(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ ﴾

قلنا : (حم) من الحروف المقطعة ، وقد حام العلماء حول معانى هذه الحروف وهذه المحاولات إرضاءً لشهوة البحث فى العقل ، ولكن الإيمان غير ذلك ، فالإيمان يأخذ القضية مُسلَّمة ، وما دام الله قد قالها فقد انتهت المسألة .

ولذلك سيدنا أبو بكر الصديق ساعةَ قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه فعل كذا وكذا قال : أَو قَاله رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق(2) يعنى : هذه مسألة فوق البحث ، ولا مجالَ لإعمال العقل فيها

(1) سورة فصلت هى السورة رقم (41) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة غافر ، وهى ٥٤ آية ، قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٠١) : « سورة فصلت مكية فى قول الجميع » . ومعنى فصلت : أى بينت وفُسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته .

(2) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير ؟!

لأن لها رصيداً من الصدق يجعلها فوق البحث .

ولقد ذكرنا سابقاً خلاصة القول في هذه الحروف ، وهذه الحروف هى التى يذكر الله فيها اسم الحرف ، لأن كلَّ حرف له اسم وله مُسمَّى ، فالألف مثلاً اسمه الألف ومُسمَّاه أَ - أُ - إِ . الاسم لا يَنطق به إلا المتعلم ، فالأمى لا يَعْرف الباء والتاء والثاء ، لكنه ينطق بها حين يتكلم .

إذن : ينطق الأميّ مُسمَّى الحرف ، ولا يعرف اسمه بدليل أننا حينما نُعلِّم الأولاد نقول لهم : تهجّ هذه الكلمة ، فيقول : ك ت ب . أما الأمى فينطقها كتب دون أنْ يعرفَ حروفها ولا هجاءها . اتفقنا على هذه المسألة .

اذكروا أن رسول الله ﷺ كان أُمياً ، فما الذى أفهمه أن (ح) اسمها حاء ، و (م) اسمها ميم ، بدليل أنك تقرأ فى أول سورة البقرة (الم) ألف لام ميم . أما فى أول الشرح فتقول ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] فلماذا قرأتها فى البقرة هكذا ، وفى الشرح هكذا ؟

أنت قرأت فى البقرة اسم الحرف ، أما فى الشرح فقرأتَ مُسمَّى الحرف ، وهذه لا يفرق بينها إلا متعلم ، فمَنْ علَّم محمداً هذه المسألة ، والحروف هى نفس الحروف بنفس الترتيب ؟

شىء آخر : أن الحروف المقطعة فى القرآن أخذت نصف حروف الهجاء ، حروف الهجاء معروف أنها ثمانية وعشرون حرفاً ، أخذتْ منها الحروفُ المقطعة أربعة عشر حرفاً موزَّعة توزيعاً عجيباً ، وما زال العلماء حائرين فى فهم معانيها .

ففى الحروف التسعة الأولى لم يذكر منها إلا حرفين : الألف

والحاء . وفي الحروف التسعة الأخيرة جاء منها سبعة فقط ، ولم يأتِ حرفان على عكس الأولى ، أما العشرة في الوسط فقد أخذ منها غير المنقوط وترك المنقوط ، فأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين ، إذن : هي مسألة مدروسة ليست رتابة ، إنما هي بنظام وحكمة مثل أسنان المفتاح ، فهي دقة مقصودة .

ثم ترى أنه سبحانه مرة يأتي في أول السورة بحرف واحد مثل : ص ، ق . ومرة حرفين مثل : حم ، ومرة ثلاثة مثل : الم ، ومرة أربعة مثل : المر ، وخمسة مثل حم عسق ، كهيعص . إذن : المسألة حكمة مقصودة ليستْ هكذا دون نظام ، لها مقصد ، مقصد يضع الله فيه حَدَّ الخلاف بين الحروف وباقي الكلام ، كيف ؟

قالوا : الحروف المقطعة تنطقها أسماء ، ولا بدَّ أنْ تقف فيها فلا تقول مثلاً : ألفٌ لامٌ ميمٌ هكذا بالوصل . إنما تقول : ألف وتسكت . لام وتسكت . ميم وتسكت ، مع أن القرآن كله في مُجْمله مَبنيٌّ على الوصل لا على الوقف ، تقول في سورة (الرحمن) : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ۝٦٤ ﴾ [الرحمن] هكذا بالكسر ليتم الوصل بما بعدها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ ﴾ [الرحمن]

حتى آخر كلمة في القرآن في سورة (الناس) تقول : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس] لتبدأ بعدها وتُوصلها بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]

أما الحروف المقطَّعة فجاءت مبنية على الوقف ، لذلك قال ﷺ :

« لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[١]

إذن : في الحروف المقطَّعة مقاصد وحكَم ما يزال العلماء يحاولون التوصل إلى شيء منها ، كلٌّ حسب ما فتح الله عليه منها ، أما هي فكنز باقٍ لا ينفد يعطينا منه الحق سبحانه على قدرنا .

يقولون : القرآن جاء معجزةً أسلوبية بلاغية ، وأمة العرب مشهورة بالفصاحة والبلاغة ، ومع ذلك ما استطاعوا محاكاة القرآن ولا الإتيان بمثله ، مع أن الله جاء به بلغتهم وبنفس حروفهم وتعبيراتهم ، وتحدَّاهم بهذا كله ، فلم يستطيعوا الإتيان ولو بآية واحدة من مثله .

وكأن الله يقول لهم : معكم نفس الحروف ونفس الكلمات ، فلماذا لم تنسجوا منها مثل نسجي ؟ إذن : وجه الإعجاز هنا أنه سبحانه وتعالى هو المتكلم بالقرآن ، هو الذى صاغه وتكلم به .

وأيضاً ، والمعنى الذى يجب أنْ يسودَ في هذا كله ، أن الحق سبحانه أنزل لنا عقائد وأحكاماً صدرتْ ممن اعتقدته وآمنتَ به ، وقرآن يدل على ذلك ، هذه ثلاثة : العقائد وهي الإيمان بالوجود الأعلى وواجب الوجود ، وأن له صفات الكمال المطلقة : الأول والآخر والظاهر والباطن .. الخ لأن هذه يُقام عليها دليل عقلى .

فهذا الكون البديع المحكم لا بدَّ له من خالق قادر حكيم عليم ..

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : حديث حسن صحيح .

الخ .. فالعقل يؤيد هذه العقيدة ويثبتها ، لكن ليست هذه كل العقائد ، بل هناك سمعيات لا يقوم عليها دليل عقلى لأنها غيبيات كما نقول مثلاً : فى الجنة كذا وكذا ، وصفتها كذا وكذا .

ومثلها كذلك عذاب القبر ، هذه غيبيات ، نعم لا يقوم عليها دليل من العقل ، إنما هى محمية فيما له دليل عقلى ، فما دُمتَ قد آمنتَ بهذا الإله ، ودلَّكَ العقل عليه ، فخذ ما أخبرك به دون أنْ تناقشها ، فقط تقف عند سماعها .

كذلك الأحكام مثل الصلاة ، وأنها إدامة الولاء لله تعالى ، والزكاة للاستطراق المالى والاقتصادى فى المجتمع ، كذلك الحج لبيت الله الحرام . وهكذا . فالأحكام أيضاً فيها جانب عقلى وجانب سمعى ، فالصلاة كعبادة لله ودليل ولاء للمعبود سبحانه هذا أمر عقلىٌّ ، أما كيفيتها وعدد ركعاتها فهذا أمر سمعى نأخذه كما هو ولا نناقشه ، كذلك كل العبادات .

والأحكام فيها أمر عقلى يُفهم ، وأمر سمعى يُؤخذ مُسلَّماً به ، فإنْ قلت : كيف نقف عند أمور فى الدين لا تُناقش . نقول : نعم لأن هذا الوقوف فى أمور الغيبيات هو دليلُ إيمانك بالله ، لأن الأمور العقلية يستوى فيها كل الناس .

قلنا : لو عندك مبلغ تخاف عليه السرقة مثلاً ، ووضعتَه تحت حجر فى الحديقة ، وجاء آخر الشهر وأردتَ مثلاً أن تعطى خادمك راتبه من هذا المال . تقول له : يا فلان ارفع هذا الحجر وهات ما تحته ، فيقول لك : لا أقدر على رفعه وحدى ، وسأنتظر فلاناً يرفعه معى ، تقول له : اعلم أن تحته الكيس الذى به النقود التى ستأخذ منها راتبك ، عندها يذهب ويرفع الحجر وحده .

أما إنْ قلتَ لشخص آخر : ارفع هذا الحجر فرفعه دون علة . فهل يستوى فى طاعتك هذا وهذا ؟

كذلك أمر العقائد ، فَرْق بين مَنْ يؤمن بالأمور العقلية الحسية ، ومَنْ يؤمن ويصدق حتى بالأمر الغيبى الذى تخبر به .

كذلك الحال فى العقائد وفى الأحكام وفى القرآن كُلٌّ فيه الأمر العقلى والأمر الغيبى ، وعليك أنْ تحمل الأمور الغيبية على الأمور العقلية . والقرآن الكريم - وهذا هو موضوعنا - فيه كلام عقلى يُفهم بالعقل ، وحروف لا يُفهم معناها إلا أن الله قالها ، ولذلك نقول فيها : والله أعلم بمراده .

وقوله : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت] أنا أقول أن (حم) هذه هى التى يقول الله عنها ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت] وما دامتْ تنزيلاً من الرحمن الرحيم ، فإياك أنْ تخوض فيها وتقول : ماذا تعنى ، أو أنها مبهمة .. الخ لا بل قف عندها وخُذْها على أن لله فيها مراداً هو أعلم به .

واعلم أنه سبحانه يقول بعدها : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. ۝٣﴾ [فصلت] ففى القرآن إذن الأمران : الأمر الغيبى الذى ينبغى الوقوف عنده مثل (حم) ، وهذه الغيبيات هى مجالُ اختبار الإيمان ، ثم يعطيك أيضاً الأمر العقلى المفهوم يُفصِّله لك تفصيلاً .

كلمة ﴿تَنزِيلٌ .. ۝٢﴾ [فصلت] من نزول الشىء ، والنزول يكون من مكان عَالٍ إلى مكان منخفض عنه ، أو من مكانة عليا إلى مكانة أدنى ، وهذه المادة جاءت كثيراً تدل على نزول القرآن والمنهج من أعلى ، وجاءت بكل الاشتقاقات : تنزيل ، نزل ، ننزل ، نزَّلناه ، أنزلنا ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. ۝١٠٥﴾ [الإسراء] وقال :

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ[1] فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ ﴾ [القدر]

لذلك ساعة تسمع كلمة ﴿ تَنزِيلٌ .. ② ﴾ [فصلت] تعلم أن الذى جاءك من أعلى منك منزلة حتى لو كانت مكانته عندك ، وتحت رجليك كما قال فى الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. ㉕ ﴾ [الحديد] فالحديد معلوم أنه من الأرض من حيث نشأته وتكوينه، لكنه مُنزَّل من أعلى من حيث خالقه وواهبه لك .

إذن : فكل هذه الاشتقاقات من (نزل) تدل على علو الشىء المنزَّل ، ومُنزَّل مِنْ مَنْ ؟ ﴿ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② ﴾ [فصلت] فيجب أن تتلقى هذا المُنزَّل إليك بالتسليم المطلق والقبول ، لذلك سيدنا أبو بكر لما قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه أُسرىَ به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء لم يناقش هذه المسألة عقلياً . إنما قال لهم : إنْ كان قال فقد صدق .

فجعل قَوْل رسول الله هو الأساس ، فإنْ حدث منه القول فهو صادق ، لذلك منذ هذا اليوم لُقِّب بالصدِّيق . مع أن الإسراء آية أرضية وفيه جانب عقلى ، لأن المسافة معلومة لهم ، وكيفية السفر إلى بيت المقدس معلومة زماناً ومكاناً ، ومع ذلك لم يناقش فيها . أما المعراج فهو أمر غيبىٌّ ، فكأنه جعل تصديق محمد فيما يعلمون فى الأرض وسيلةً لتصديقه فيما لا يعلمونه فى السماء .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② ﴾ [فصلت] أن التكليف الذى نزَّله الله لك لم يأتِ ليشقَّ عليك ، إنما هو

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٣١) : « أما الروح فقيل : المراد به هنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة » .

من رحمن بك واسع الرحمة ، رحمته وَسِعَتْ كل شيء المؤمن والكافر .

و (الرحيم) يعنى : دائمَ الرحمة لأن رحمته تعالى تنسحب وتدوم حتى فى الآخرة ، فإنْ رأيتَ فى التنزيل تكليفاً تظنه يشق عليك ، فلا تفهم أنه من قاسٍ عليك ، إنما هو من رحمن رحيم .

رحمن بك ، لأنه يدلُّك على ما يسعد دنياك ويسعد آخرتك ، بدليل أنه سبحانه حين يكلفنا بأمور قد تشقّ على النفس العادية لا يستفيد من هذا التكليف ، فسواء أن تكفر أو أن تؤمن ، تصلى أو لا تصلى ، لأنه سبحانه بصفة القدرة موجود ، وإنْ لم تؤمن به وإنْ لم تُصَلِّ .

فعملك إذن لا علاقة له بالله من حيث النفع ، العملية لصالحك أنت كما تقول لولدك مثلاً : إذا نجحتَ هذا العام سأشترى لك كذا وكذا .

﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾

سماه ﴿ كِتَابٌ .. ۝٣ ﴾ [فصلت] لأن الكتاب تعنى الجمع . والكتيبة جمع الجنود ، فالكتاب تجمع الكلمات إلى بعضها ، والكتاب يعنى : مجتمع فيه أشياء ، وفى القرآن اجتمع كل خير فى الدنيا والآخرة ، وهو كتاب لأنه مكتوب ومُسجَّل تستطيع أن تقرأه .

ولذلك لما أرادوا جمع القرآن وضع الجامعُ مبدأ ، وهو ألاَّ يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة بالفعل على الرِّقاع أو العظام أو غيره ، مما كانوا يكتبون عليه ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، فهو كتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وقرآن لأنه مقروء محفوظ فى الصدور .

الحق سبحانه وتعالى أراد بذلك كما قال الشيخ المرحوم محمد عبد الله دراز[١] : أنْ تُذكِّر إحداهما الأخرى ، فالمكتوب مع المقروء يتعاونان فى تسجيل كتاب الله تسجيلاً دقيقاً لا يتطرق إليه الشك .

والدليل على ذلك أن جامع القرآن وجد آية مكتوبة ، وطلب لها شاهدين فلم يجد إلا واحداً يشهد على صحتها فتوقف عن كتابتها ، وكان هذا الشاهد هو سيدنا حذيفة[٢] رضى الله عنه ، وجاء للكاتب مَنْ ذكَّره بحديث سيدنا رسول الله فى شأن خزيمة حين قال : « من شهد له خزيمة فحَسْبه »[٣] فجعل شهادة خزيمة بشهادتين ، وأخذ عنه الآية وكتبها .

ولها قصة : قالوا إن رسول الله ﷺ كان قد استدان مالاً من يهودى ، وأدَّاه لَهُ دون شاهد بينهما ، ثم جاء اليهودى مرة أخرى يطالب رسول الله بالسداد فقال له رسول الله : لقد أديتك . قال : لا ، قال : أدَّيْتُك ، قال : إذن ابغنى شاهداً ، فقام أحدُ الصحابة وقال : أنا يا رسول الله شهدتُ ذلك ، عندها سكت اليهودى لأنه كاذب .

---

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر ، له كتب منها « الدين » دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام . توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى] .

(٢) هو : خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ، حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة ، عاش إلى خلافة على ابن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها ، توفى ٣٧ هجرية . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (٢/١٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤/١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات » .

وبعد نهاية الموقف استدعى رسول الله الصحابى وقال له : كيف شهدتَ بذلك ولم يكُنْ معنا أحد ؟ فقال له : يا رسول الله ، كيف أُصدقك فى خبر السماء وأُكذِّبك فى كذا درهم ..

نعم : نقول هنا نعْمَ الاستنباط ، لذلك استحق هذه المكانة من رسول الله « من شهد له خزيمة فَحَسْبُه » .

ومعنى ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. ③ ﴾ [فصلت] يقولون فى الفعل (فُصِّلت) مبني للمجهول أو لما لم يُسَمَّ فاعله ، والمعنى هنا أن الله فصَّلها أولاً ففُصِّلت أى : صارتْ مُفصَّلة ، فلما بلَّغها رسول الله للناس أصبحت هى مُفصَّلة لأمورهم ولأحكامهم .

ومعنى ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. ③ ﴾ [فصلت] لأن القرآن مُقسَّم ومُفصَّل إلى سور ، كل سورة قائمة بذاتها ، وداخل السُّور آيات ، كل آية بذاتها ، ففى السُّوَر الطويل والقصير ، كذلك فى الآيات تجد كلمة واحدة آية ، وتجد آية من عدة أسطر ، كذلك فصَّل الكلمات من حيث مادتها ، كذلك فصَّل الحلال والحرام ، وفصَّل الطاعة والمعصية ، ألم يفصل بين الوعد والوعيد ، بين الثواب والعقاب .

لقد فَصلَ القرآن بين كل هذه المسائل ، أو فُصلت فيه كل آيات الكون إلى قيام الساعة ، لذلك قالوا : « خطبنا رسول الله خطبة بليغة ، ما ترك فيها شيئاً ، وما ترك من ورقة تسقط إلا حدَّثنا عنها إلى أنْ تقوم الساعة ، حفظها مَنْ حفظها ونسيها مَنْ نسيها »[1] .

نعم كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ③⑧ ﴾

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس ، حفظها منا من حفظها ونسيها منا من نسى ، فحمد الله فقال ما هو كائن إلى يوم القيامة ...» الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١٩/٣) .

[الأنعام] يعنى : أن الأمور التى تحدث فى الكون موجودة عندكم فى هذا الكتاب .

ولذلك لما سُئلنا فى إحدى رحلاتنا إلى أوربا من أحد المستشرقين قال : عندكم فى القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ⑨ ﴾ [الصف]

وفيه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف]

ومع ذلك وبعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام ، ما يزال اليهود والنصارى والملاحدة والمشركون موجودين ، ولم يظهر عليهم الإسلام ، فكان الرد الذى وفقنا الله إليه أن الإسلام ظهر بالفعل عليهم رغم وجودهم ، والمراد بالظهور هنا ظهور الحجة ، فالإسلام ظهر على هؤلاء بالحجة من أعدائهم .

وفرْق بين أن تظهر الحجة من مُعتقده ، وبين أن تظهر الحجة من معاند ، كيف ؟ قالوا : ستظهر فى الكون أقضية من صُنْع البشر لا يجدون لها حلاً ، إلا أن يرجعوا إلى حكم القرآن .

إذن : ظهر القرآن عليهم وعلى أفكارهم وعلى أحكامهم وعلى حضارتهم ، وإلا لما رجعوا إليه .

ومثَّلنا لذلك بقضية الطلاق فى الإسلام ، وهى من أهم القضايا التى عارضوها وانتقدوها ، وبعد ذلك اضطرّ الفاتيكان نفسه إلى إباحة الطلاق عندهم ، وهذا هو ظهور الإسلام ، لا بأنْ يكونوا مسلمين ، إنما بأنْ تظهر حجته ويشهد له منهم مَنْ لم يؤمن به .

وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٣) ﴾ [فصلت] أى : بلسان عربى وفى أمة عربية ، لكن كيف ذلك وهو رسالة عالمية لكل البشر ولكل اللغات ؟ ولماذا لم ينزل بكل اللغات ؟ قالوا : إذن لم يكُنْ هناك لغة (اسبرانتو) فالقرآن نزل على محمد فى بيئته العربية ، لأن الله تعالى يريد أن يظهر هذا الدين فى أمة أمية ، وعلى لسان رسول أُمىٍّ حتى لا يقول أحد : إن القرآن وثبة حضارية .

فالعرب كانوا أمة لا دولةَ لها تحكمها ولا نظام ولا قانون ، كانوا مجموعة من القبائل كل قبيلة لها قانونها ، كل واحد منهم (شوكته من ظهره) ومع ذلك تأتى مثل هذه الأمة وتوحد العالم كله بما فيه من دول متحضرة من فارس فى الشرق إلى الروم فى الغرب .

فمن أين أتت هذه الأمة بذلك ؟ كان عليهم أنْ يفهموا أنه قانونُ السماء جاء من أعلى ، وإلا ما كان العرب ليقوموا بهذا الدور لولا رسالة محمد ﷺ .

إذن : لا مجالَ لأنْ نقول عن الإسلام إنه وثبة حضارية ، لذلك لما أراد الحق سبحانه إعلاءَ دينه جعل محمداً ﷺ يجهر بهذا الدين فى مكة ، لماذا مكة بالذات ؟ لأن فيها قريشاً وهى موضع السيادة فى الجزيرة كلها ، وفيها الصناديد الذين لا يجرؤ أحد على مواجهتهم .

فبين هؤلاء صاح محمد بالإسلام وجهر به ، ومع ذلك لم ينصر الدين هؤلاء السادة ، إنما نصره المستضعفون والعبيد فى المدينة ، وقلنا : إن لهذه المسألة حكمة ، هى ألاَّ يظهر أحد أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد هو الذى أوجد العصبية لمحمد .

فالقرآن عربى لأنهم أمة الدعوة الذين سيحملون لواءها ويسيحون بها فى أنحاء العالم كله ، فالعرب أمة تقوم على الترحال ليس لهم بيوت ولا يسكنون الفيلات والعمارات ، إنما هى الخيمة يحملها معه أينما سار ، فوطنه إذن العالم كله وبيته على ظهر جمله ، كما أنها أمة قبلية يتعصب كُلٌّ لقبيلته ، لذلك كثرت بينهم الحروب حتى أن بعضها استمر أربعين سنة .

هذه الحروب درَّبتهم على القتال ، وزرعت فيهم الشجاعة والتضحية بالنفس فى سبيل المبدأ ، لذلك لما أراد رسول الله أنْ يُعدَّ جيشاً لم يفتح له مدرسة حربية ، إنما وجد جيلاً من الرجال جاهزاً مُعداً يعلم كل فنون الحرب ، كلما سمع أحدهم هيعة طار إليها .

هؤلاء هم الرجال الذين سيتلقوْنَ الدعوة من رسول الله ، هم الذين سينشرونها . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الكلامُ بلسانهم ، والدعوة بلغتهم ، ليستطيعوا حملها .

لذلك قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. ④﴾ [إبراهيم] نعم لأنهم هم الذين سيسمعون منه أولاً .

لكن كيف تكون عالمية الدين ؟ قالوا : حين يسمع منه قومه يؤمنون به ، ثم يحملون دعوته إلى الناس لا ألفاظاً ، لكن يحملونها منهجاً وسلوكاً وقدوةً ، ومعلوم أن المناهج لا تختلف فيها اللغات ، لذلك غزا المسلمون العالم كله ، ليس بالقرآن وآياته إنما بالسلوك وبالمبادىء التى أرساها القرآن .

إذن : نزل القرآن بلسان عربى ، لأن العرب هم المعَدُّون لهذه المهمة ، القادرون على حملها ، والسياحة بها فى العالم كله لكونهم

أمة بدوية غير متوطنة ، وأمة قتال ، وهى أمة أمية لا يمكن أن نتهمها باختلاق هذا الدين ، أو أنه وثبة حضارية .

وقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ ﴾ [فصلت] أى : يعلمون أساليب العربية ، بل ويُجوِّدون فيها ، فهم أعلى قمة الفصاحة والبلاغة ، بدليل أنك لن تجد أمة فى الأرض صنعتْ معارض للأدب وللكلمة كما صنع العرب فى عكاظ والمربد وذى المجاز والمجنة ، ففيها كانوا يعرضون إنتاجهم الأدبى ويُقيِّمونه ، وما استحسنوه منه يكرمونه بأن يضعوه على أستار الكعبة .

إذن : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ ﴾ [فصلت] العربية وينبغون فيها نبوغاً ، بحيث نزل القرآن المعجز بلسانهم . والإعجاز لا يتأتى لمن لا يجيد مجال الإعجاز ، فالذى يجهل شيئاً لا يصح أنْ تقول له : أتحداك فى هذا الشىء ، إنما يكون الإعجاز للمُجيد فى الشىء المتحدَّى به ، لأن الجاهل له أن يقول لك : والله لو كنت أعلم الشىء الفلانى لغلبتك فيه . ومن هنا تحدى الله العرب بالقرآن .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى لا يُنزل آية مع رسول من رسُله لإثبات صدقه فى الدعوة إلا من جنس ما نبغ فيه القوم ، فكانت معجزة سيدنا عيسى فى الطب ، فكان يبرئ الأكمه[1] والأبرص[2] بإذن الله ، وسيدنا موسى عليه السلام كانت معجزته العصا ، لأن قومه نبغوا فى السحر ، وجاءت معجزة محمد ﷺ فى البلاغة والبيان ، فتحدَّى القوم بالقرآن ، وبذلك يتأتّى الإعجاز .

---

(١) الأكمه : الأعمى ، سواء وُلد أعمى أو فقد بصره [القاموس القويم ٢/ ١٧٥] .

(٢) البرص : بياض يصيب الجلد يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

لذلك نسمع مَنْ يقول : إن العرب انهزموا أمام القرآن ، وهذا غير صحيح ، لأن العرب لم ينهزموا بل انتصروا أمام القرآن ، كيف ؟ لأن الله تعالى لا يتحدى إلا قوياً ، فتحدِّى الله لهم دليلٌ على أنهم قوة ، لديهم القدرة على البيان ويمتلكون ناصية اللغة .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] هذا أول شيء في التفصيل ، كما قلنا : فصَّل الحق والباطل ، والحلال والحرام ، هنا بشيراً ونذيراً ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] إعراض الكثرة يدل على أن القلة هي التي آمنتْ وهي القلة المستضعفة ، أما أكثرهم فكانوا أهل السيادة وأهل القوة الذين لم يقبلوا الدعوة الجديدة التي تسويهم بهؤلاء الضعفاء والعبيد .

لذلك سيدنا أبو بكر لما تولى الخلافة ، وجاءه جماعة من هؤلاء الصناديد ، وكان عنده جماعة من المستضعفين السابقين للإسلام أخَّر الصناديد والكبراء حتى يفرغ ممَّنْ عنده فشقَّ ذلك عليهم ، ووجدوا في أنفسهم شيئاً ، كيف يُقدِّم أبو بكر عليهم العبيد والضعفاء ، فقال الصِّدِّيق : ما بال هؤلاء ؟ كلهم ورم أنفه[1] أنْ قدَّمتُ عليه فلاناً وفلاناً ، فما بالهم إذا قدَّمهم الله عليهم يوم القيامة في الجنة ؟

لكن ما وجهة الإعراض في قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] قالوا : وجهة الإعراض أنهم يفهمون مطلوب الدين الجديد

---

(١) ورم أنفه : امتلأ من ذلك غضباً . [المبرد في الكامل في اللغة والأدب] .

بقولهم : لا إله إلا الله .

وأن السيادة لن تكون إلا لهذه الكلمة ، ولن تكون سيطرة إلا لهذه الكلمة ، وأن العباد سيكونون سواء أمامها ، إذن : كيف يقولون لا إله إلا الله ، وهم يعرفون مطلوبها ؟ لذلك لم يقولوها ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها ، لكنهم يعرفون معناها فوقفوا .

وقوله : ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ④ ﴾ [فصلت] أى : لا يسمعون سماعاً نافعاً ، وسماعاً واعياً مقبولاً ، وإلا فقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ④ ﴾ [فصلت] دلَّ على أنهم سمعوا دعوة رسول الله ، سمعوها بالآذان فقط ، ولم يستفيدوا بهذا السماع ، لذلك قال تعالى فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ⑯ ﴾ [محمد]

لذلك يختلف الناس فى تلقِّى القرآن ، فواحد يسمع وينفعل ويسجد لعظمة القرآن ، وآخر يسمع ويقول : ماذا قال !! على سبيل الاستهزاء والاستقلال . لأنه لا يسمع بأذن الاعتبار والتأمل ، لماذا ؟ لأن منافذ القلب من العقل مُضببة بالمطلوب الذى يطلبه الإيمان منهم ، فقد ألفوا السيادة ، فساعةَ يسمعون ما يعارض سيادتهم وسلطتهم الزمنية يعرضوا .

لذلك قلنا فى قصة إسلام سيدنا عمر أنه لما سمع القرآن أولاً عاند وثار ، لأن قلبه لم يكُنْ مُعداً للاستقبال السليم ، فلما لطم أخته وسال الدم منها رقَّ قلبه ولاَنَ ، وزال عنه الضباب ، فلما سمع القرآن تأثر به وانفعل به فآمن .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ(١) وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ ﴾

معنى ﴿ أَكِنَّةٍ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] يعنى : أغطية جمع كنان أى : غطاء . والغطاء يغلف الشىء بحيث لا ينفذ إليه النور ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ .. ۝٥٧ ﴾ [الكهف] فالأكنة مرة من جَعْل الله ومرة منهم ، فأيهما أسبق ؟ أجعل الله لهم أكنة أولاً ثم أصابتهم الغفلة ، أم أن إعراضهم عن دين الله هو الذى جعل الأكنة على قلوبهم ؟

وقلنا : إن الإنسان إذا ألفَ الكفر وأنس به زاده الله منه وختم على قلبه ، بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

إذن : يأتى منهم الكفر أولاً ، وبعد ذلك يختم الله على القلب ، كذلك فى مسألة الأكنة جاءتْ منهم أولاً ، فزادهم الله ، وجعل على قلوبهم الأكنة وزادهم مرضاً على مرض .

إذن : المراد بالأكنّة أى الأغطية التى تمنعهم فَهْمَ وتدبُّرَ ما يسمعون ، وما يُلقى عليهم ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] وقر يعنى : صَمَم يمنع السماع . وفى سورة البقرة قال : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ .. ۝١٨ ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن البكم ينشأ عن الصمم ، لأن الأصم الذى لا يسمع كيف يتكلم ؟ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وهى بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن شيئاً لا ينطق

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع . وقيل : هو أن يذهب السمع كله . والثقل أخف من ذلك [لسان العرب - مادة : وقر] . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢ / ٣٥٠] .

اللسان بشيء ، فاللغة ليست جنساً ، اللغة سماع ومحاكاة ، بدليل أنك تأتى بالطفل الإنجليزى مثلاً فى بيئة عربية ينطق العربية .

والأصم عنده القدرة على الكلام ، بدليل أنه ينطق ببعض الأصوات غير المفهومة كما نسمع من الأخرس مثلاً ، حتى الإنسان السَّوى الفصيح لا يستطيع أنْ يتكلم بكلمة لا يعرفها من لغته هو ، من أين يأتى بها ؟ من السماع أولاً .

ولذلك أخذنا من هذه المسألة أدلة مادية على وجود الخالق الأعلى سبحانه ، نقول : أنت كيف تتكلم ؟ يقول : أتكلم لأننى سمعتُ فى صِغَرى أبى وأمى ومَنْ حولى يتكلمون ، فقلت كما يقولون ، إذن : لا تنشأ لغة إلا بالسماع .

وكذلك الحال فى الآباء وفى الأجداد ، وارْتَقِ بهذه السلسلة إلى آدم عليه السلام وقُلْ : كيف تكلم آدم وليس قبله أحدٌ يسمع منه ؟ لا بُدَّ أنه سمع ، سمع من مَنْ ؟ سمع من الله تعالى حين علَّمه الأسماء كلها .

منافذ الخواطر التى ترد الآذان ، ومنافذ الخواطر التي تصدر من اللسان ، ولأن هؤلاء صُمٌّ لا يسمعون لم يأخذوا شيئاً ، وبالتالى لم يُخْرجوا شيئاً ، لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ .. ۝ ﴾ [فصلت] يعنى : أغطية تمنع عنهم الاستفادة ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ .. ۝ ﴾ [فصلت] يعنى : صمم ، ولم يأت هنا بذكر اللسان لماذا ؟ لأنهم لن يتكلموا فى الدين لأنهم لم يسمعوه ، فكونه لم يأت بالكلام هنا دلَّ على أنهم لن يسمعوا ولن يتكلموا ، تأمل هنا الدقة لأنه كلامُ ربٍّ .

وقولهم : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ۝ ﴾ [فصلت] أى : ستر

غليظ يحجبك ، فأنت تكون مع جليسك تُحدِّثه ويُحدِّثك ، تسمعه ويسمعك ، تراه ويراك ، تأنس به ويأنس بك .. الخ لكن إنْ كان بينك وبينه حجاب امتنع ذلك كله .

هذا الحجاب قد يكون معنوياً ، تقول : بين فلان وفلان جفوة أي : جفوة صغيرة سرعان ما تزول . لكن إنْ قلتَ : بين فلان وبين فلان جفوة ، وكررتَ ظرف المكان دلَّ ذلك على أنها جفوة كبيرة ليس من السهل إزالتها .

كذلك قالوا : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت] يعني : كثيف غليظ يستر كل شيء ، من هنا إلى هنا ، يعني : يملأ كل ما بيننا من مسافة . قالوا : لما كان سيدنا رسول الله ﷺ يكلم القوم ، ويعرض عليهم دين الله كان أبو جهل يأخذ ثوبه ويضعه على وجهه حتى لا يرى رسول الله .

وما دام أن بيننا وبينك حجاباً ، فلن نتفق وكُلٌّ منا في طريق ، وما دام أن لكل طريقه ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت] وهذه القضية أوضحها الحق سبحانه في سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون] هذه هي النتيجة الطبيعية للحجاب بينهما .

بعض الناس حين يقرأون هذه السورة يظنون بها تكراراً ، وهذا ليس تكراراً ، بل في السورة قَطْع علاقات ، وقطع العلاقات له ظرف يحكمه ، ألم تر إلى الدول تقطع إحداها علاقتها بالأخرى ، ثم تصفو الأجواء مرة أخرى ، وتعود العلاقات أحسن مما كانت ، ففرْقٌ في الدبلوماسية بين الماضي والحاضر .

لكن فى مسألة الكفر والإيمان الأمر مختلف فهما ضدان لا يلتقيان ، مهما حدث فى المستقبل . فلن تعود العلاقاتُ بينهما ، لذلك قال سبحانه : ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② ولا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③﴾ [الكافرون] أى : فى الزمن الحاضر الآن ﴿ولا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ ولا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤﴾ [الكافرون] أى : فى المستقبل ، فلا تظنوا أن العلاقات بيننا قد تتحسن وتعود بيننا علاقة ، لا .. لا التقاء بيننا .. لا فى الحاضر ولا فى المستقبل .

هذه هى قطع العلاقات ، وما دام بيننا حجاب وحاجز ، فكُلٌّ منا فى طريقه (والحَمْرة فى خيله يركبها) .

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤﴾ [فصلت] اعمل ما يروق لك ، وما يأتيك من إلهك وإسلامك ، ونحن نعمل على قدر آلهتنا وديننا وعبادتنا ، اعمل لإلهك الذى أرسلك ، ونحن نعمل لآلهتنا التى نعبدها ، أو اعمل لآخرتك ونحن نعمل لدنيانا ، فالمسألة من الرسول إصرار ، ومنهم معاداة ، إلى أنْ يستقيم الميسم[1] ، ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره .

لذلك نرى تدرُّج الإسلام وانتشاره فى بطء ، أمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، تدرج بهم إلى أنْ تقوى شوكتهم ، بدأ ضعيفاً بالضعفاء ، ثم قوى حتى دخله الأقوياء ، كان منحصراً فى مكة ثم اتسعتْ دائرته ، وكانت تزيد كل يوم بحيث تزيد أرض الإسلام وتنقص أرض الكفر .

لذلك لما رأى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص انتشار الإسلام

---

(١) أصل الميسم : المكواة أو الشىء الذى يُوسم به سمات الدواب . والميسم : أثر الجمال فى المرأة . وهو من الوسامة ، ومنه قوله تعالى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ⑯﴾ [القلم] .

على هذه الصورة قال خالد لعمرو : والله لقد استقام الميسم . يعنى : استقام أمر هذا الدين فهيا بنا نسلم[1] .

وأخذ صناديد الكفر يعودون إلى الجادة ، ويدخلون فى دين الله ، فهذا عكرمة بن أبى جهل الذى قاد المعركة فى فتح مكة يوم الخندمة[2] ثم أسلم وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً ، حتى مات فى إحدى المعارك ، وقال قبل أنْ يموت : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(قل) أى : فى الرد عليهم ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ..

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية قصة إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومبدؤها أن النجاشى أقنعه أن محمداً على الحق قائلاً له : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام ؟ قال النجاشى : نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام وكتمت أصحابى إسلامى . ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام الميسم وإن الرجل لنبى اذهب والله فاسلم فحتى متى ؟ قلت : والله ما جئت إلا لأسلم . فقدمنا المدينة على رسول الله فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها .

(٢) الخندمة : جبل منه بنيان مكة . [الأمكنة والمياه للزمخشرى] فهو أحد جبال مكة وهو المستعلى على جبل ابي قبيس من ناحية المشرق وهو جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلَّقة . [الروض المعطار فى خبر الأقطار - لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٦) ﴾ [فصلت] يعنى : لماذا تقفون منى ومن دعوتى هذا الموقف المعاند ؟ لماذا تجعلون بينى وبينكم الحُجُب ، وأنا واحد منكم عربى مثلكم تعرفون صدْقى وتاريخى قبل ذلك بين ظهرانيكم .

ومن رحمة الله بكم أنْ أرسلنى إليكم بشراً من جنسكم ، ولم يرسل إليكم ملكاً : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] ، وتعلمون سوابقه فى الصدق والأمانة والعفة . ثم لو جاءكم ملَكٌ ، أكنتم تقتدون به على ملَكيته ؟ إن الأسوة لا تكون من الملَك للبشر .

وتأمل الأدب والتواضع من رسول الله فى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت] يعنى : لا كبرياء ولا تعالٍ ، لكن فضلنى الله عنكم بأنه ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (٦) ﴾ [فصلت] ومضمون هذا الوحى ﴿ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٦) ﴾ [فصلت] وما دام يُوحى إلىَّ فأنا مُبلِّغ لا ذنبَ لى تؤاخذوننى عليه ، أنا بشر مثلكم ومن أنفسكم لا أمتاز عليكم إلا بما ميَّزنى الله به من الوحى .

لذلك نجد الحق سبحانه كثيراً ما يصحح لرسول الله ويُعدِّل له الحكم ويعاتبه ، ورسول الله هو نفسه الذى يخبرنا بذلك ، وهذا دليلٌ على أنه أمين فى البلاغ عن ربه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت] ولم يقل ربكم لأنهم

---

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وهو لاصق بالصلب من باطنه يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد ، وهو نياط القلب [لسان العرب - مادة : وتن] .

يؤمنون بوجود الله الخالق الرازق ، المشكلة عندهم فى الإله المعبود ، فالإله المعبود له أوامر ومطلوبات الإله يقتضى الطاعة فى الأمر وفى النهى ، فهم مسلمون بالربوبية مشركون فى الألوهية ، فأراد أنْ يبين لهم : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ⟨٦⟩﴾ [فصلت] ليس متعدداً ، مرة يقول ﴿إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ⟨٦⟩﴾ [فصلت] وفى سورة الإخلاص قال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ⟨١⟩﴾ [الإخلاص] واحد يعنى ليس له ثانٍ ، وأحد يعنى أحد فى ذاته غير مركَّب من أشياء فهى تنفى التجزؤ .

وقد اتخذ الكفارُ آلهةً متعددة ليُرضوا ما فى أنفسهم من عاطفة التديُّن ، وليكون لهم إله معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، لذلك قلنا : إن من الوسطية فى ديننا أنه يؤمن بإله واحد ، فى حين يوجد مَنْ يؤمن بآلهة متعددة ، ويوجد مَنْ ينكر الإله بالمرة ، فجاء الدين الإسلامى وبيَّن أن الإله واحد .

وما دام هو إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. ⟨٦⟩﴾ [فصلت] استقم يعنى : سِرْ على حدِّ الاستقامة لا تميل هنا ولا هناك . قالوا : كان رجل من طيء ، اسمه ابن بندر رأى شاباً بيته هنا ، لكن لا يذهب إليه من الطريق المعتاد المستقيم ، إنما يدور فى طرقات القرية ليذهب إلى بيته .

فعرف من ذلك أن الشاب يقصد بدورانه فى الطرقات شيئاً مريباً ، فقال له : يا هذا استقم إلى بيتك يعنى : اذهب إليه من الطريق المستقيم ، عندها عرف الشاب أن الرجل (فقسه) وعرف قصده غير الشريف فارتدع .

كذلك قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. ⟨٦⟩﴾ [فصلت] يعنى : اقصدوه من طريق الاستقامة ، وسمَّى طريقه الصراط المستقيم ، وقد

أثبت العلم أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، ثم إن الطريق المستقيم قد يكون ضيقاً يجبرك على الاستقامة عليه ، وقد يكون واسعاً يسمح بالميل يميناً ويساراً (أوتوستراد) .

فإنْ كان واسعاً فاستقم فيه أيضاً لتقصر على نفسك مسافة الوصول ، لأنك حين تميل تزيد المسافة ، لذلك قال : ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة] يعني : في وسطه دون ميل ، بحيث يكون ما على يمينك مثل ما على شمالك ، فمرة قال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة] ومرة قال ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. (٦)﴾ [فصلت] أي : بدايةً ، فإنْ أصابتكم غفلة عن المنهج واقترفتم شيئاً ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦)﴾ [فصلت] أي : اطلبوا منه المغفرة .

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧)﴾ [فصلت] لأن الاستغفار طلب مَحْو الشيء السابق ، والقاعدة الشرعية تقول : إن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة . ومثَّلْنا لذلك بواحد يريد أنْ يرمي لك تفاحة ، وواحد يريد أن يرميك بحجر فأيهما أولى ، الأَوْلَى دَفْع الحجر ، فقال ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦)﴾ [فصلت] ليتم لكم مسْح الذنوب ، ولتُنشئوا مع الله علاقة جديدة قائمة على الطاعة والاستقامة .

كلمة ﴿وَوَيْلٌ .. (٦)﴾ [فصلت] يعني : هلاك ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧)﴾ [فصلت] وهل فُرضَتْ الزكاةُ على مشرك ؟ الزكاة لم تكُنْ فُرضت حتى على المؤمنين في هذا الوقت . قالوا : المراد بالزكاة هنا تطهير المال في حالة نموه ، وكان

المشركون يفعلون ذلك بالفعل ، لكن يفعلونه من منطق الكرم والسمعة الطيبة ، ولم يكُن الله في بالهم .

لذلك حُكِي أن المطعم بن عدى[1] كان له قِدْرٌ يطعم فيه كذا وكذا ، حتى أن رسول الله ﷺ قال : « كنت أستظل من وهج الشمس بظل قِدْر المطعم بن عدى »[2].

ومثله حاتم الطائي[3] وغيرهم من كرماء العرب ، لكنه قال : ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت] لأن الإنسان عادة يحب ماله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحشر] لأن للإنسان مطالبَ كثيرة في الحياة .

كان البيع والشراء تبادلاً عينياً . يعنى : تعطينى سلعة ، وأعطيك مقابلها سلعة أخرى ، وقت لم يوجد النقد بَعْد تعطينى قمحاً ، وأعطيك تمراً مثلاً ، فكل شيء من هذه الأشياء ثمن وسلعة ، فالقمح عندك سلعة ، والتمر عندى ثمن . فكل واحد منا بائع ومُشْتَرٍ .

لذلك قال تعالى في قصة سيدنا يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن

---

(١) المطعم بن عدي بن نوفل من قريش رئيس بني نوفل في الجاهلية وقائدهم في حرب الفجَار عام ٣٢ ق. هـ ، وهو الذى أجار رسول الله بعد أن آذاه أهل الطائف ، وكان أحد الذين مزقوا الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وقد كان كافراً ، مات قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون عاماً . توفى عام ٢ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٢) ما وجدته فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان فى الهاجرة » وفى لفظ « صكة عُمَىّ » . أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/١١٧) والسهيلى فى الروض الأنف (١/ ٢٤٤) .

(٣) هو : حاتم بن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، فارس شاعر جواد جاهلى . يُضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ، مات فى عوارض جبل فى بلاد طيء عام ٤٦ هجرية . أخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب والتاريخ . [الأعلام للزركلى ٢/١٥١] .

مِصْرَ لامْرَأَتِه أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] فقال : اشتراه يعنى أخذه وقال عن الآخرين : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[1] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] يعنى : باعوه . إذن هذه مبادلة ، كل واحد منهم بائع ومشترٍ فى نفس الوقت .

﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت] أم أن هذه كلمة عامة ، فبإشراكهم لم يأخذوا حكم الله فى الزكاة ، فلم يَعُدْ فيهم خير لبيئاتهم ولا لمواطنيهم ، لأن الله تعالى يريد من الإيمان أنْ ينشر الاستطراق العبودى فى البشر ، بأن يعين القوى الضعيف ، والصحيح يعين المريض ، والغنى يعين الفقير ، والعالم يعين الجاهل .

ولكن أهم زاوية من زوايا الحياة هى زاوية استبقاء الحياة بالقوت ، والقوت يحتاج إلى المال ، لذلك الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم فى هذه المسألة عن المؤلَّفة قلوبهم ، وهم قوم نريد أنْ نُرقق قلوبهم ناحية دين الله ، ونجذبهم إليه ليُحسنوا التمعن والاختيار ، لا أن نشتريهم للدين كما يدعى البعض .

ومن الطرق إلى هذه الغاية أنْ نحسن إليهم ، لذلك جعلهم الله تعالى مصرفاً من مصارف الزكاة ، ولما جعلهم الله مصرفاً من مصارف الزكاة وأعطاهم من مال الله لانتْ قلوبهم .

وحين تُحسن إلى شخص ماذا فعلتَ به ؟ أولاً نفضت عنه البغض ، وما دُمْتَ نفضتَ عنه البغض ، فلا ينظر إليك وهو كاره لك

---

(١) الثمن البخس : القليل الناقص عن مثله . [القاموس القويم ١/٥٦] . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة : بخس] : « جاء فى التفسير أنه بيع بعشرين درهماً ، وقيل باثنين وعشرين ، أخذ كل واحد من إخوته درهمين . وقيل : بأربعين درهماً » .

ولا حاقد عليك ، وعلى الأقل يسمع منك ، وهذا ما حدث للمؤلَّفة قلوبهم .

لذلك لما انتقل رسول الله ﷺ ارتد جماعة من العرب عن دين الله، لماذا ؟ أول شيء ارتدوا من أجله فريضة الزكاة ، ومن أجلها كانت حروب الردة ، لذلك سمعنا أن سجاح(1) مدعية النبوة ومسيلمة(2) أول ما قالوا في دعواهم قالوا : نسقط عنكم الزكاة . لينالوا بذلك الرضا عن نبوتهم المزعومة ، يريدون بذلك تخفيف التكاليف التي تشق على النفس .

وبعضهم قال : نسقط عنكم نصف الصلاة ، وكل مُخفف لشرع الله باطل وفيه إيذاء ، لأنه ينزل من منهج الله إلى منهج التخفيف ، والله سبحانه حين يريد التخفيف والتيسير يأتي بالتيسير من عنده سبحانه ، ومنهج الله لا يُستدرك عليه .

وفي شرع الله أحكام كثيرة تدل على هذا التخفيف ، كصيام المريض والمسافر ، وصلاة المريض والمسافر ، وغير ذلك كثير في الشرع ، فالله المشرِّع لك هو الذي يحدد لك التخفيف ، لا أنت ، وهو سبحانه أعلم بمدى المشقة التي تحتاج إلى تخفيف الحكم .

لذلك نسمع مَنْ يقول : نريد أنْ نُجدد الإسلام ، نقول : سبحان الله ، يا قوم اتقوا الله كيف نُجدد الإسلام ؟ وكيف نستدرك على

---

(1) هي سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية من بني يربوع أم صادر ، متنبئة مشهورة ، ادعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ وكان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، فتبعها جمع من عشيرتها بينهم بعض كبار تميم ، فنزلت باليمامة فاقبل مسيلمة عليها في جماعة من قومه فتزوجها ثم انصرفت . توفيت ٥٥ هجرية . [الأعلام للزركلي] .

(2) هو مسيلمة بن ثمامة الحنفي الوائلي أبو ثمامة ، متنبيء ولد ونشأ باليمامة بوادي حنيفة في نجد ، وتلقب في الجاهلية بالرحمن وعُرف برحمان اليمامة ، سماه رسول الله بـ (مسيلمة الكذاب) ، ألَّف كلاماً مزلياً ليعارض به القرآن ، نحو قوله : إنَّا أعطيناك الوحواح . فصلِّ لربك وارتاح . إن شانئك هو العجل النطاح .

أحكام الله ؟ ونقول : يا شيخ جدِّد ما شئتَ فلن يلبس مسلم جديدك ، والعلة أن لباسَ التقوى من الخالق لا يَخْلَقُ حتى يُجدده مخلوق ، أريحوا أنفسكم .

لكن لماذا جعل الله تعالى من الناس الغنيَّ والفقير المحتاج ؟ لماذا لم يجعلهم جميعاً فى سَعَة ولا داعى للزكاة إذن ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُشيع بين خَلْقه التراحم والتوادّ ، وحين يجد الفقير الغنى لا يتكبر عليه بغناه ، بل يأتى إليه ويطرق عليه بابه ، ويعطيه حقه فى مال الله ، ساعتها يحبه ويحب له الخير والمزيد ولا يحقد عليه ، ولا يتمنى زوال النعمة من بين يديه .

إذن : حين تعطى إنما تستل الغضب والحقد من النفوس ، فتجعل مالك عُرْضة للمزيد . والحق سبحانه قادر على أنْ يجعل الناس جميعاً أغنياء ، إنما الحكمة فى أن يوجد الغنى والفقير ، وأن تتداول هذه المسألة ، فقد لا يدوم للغنى غنَاه ، ولا يدوم للفقير فقره ، فالأحوال تتقلب ، بحيث يرتبط كُل بكُلٍّ ارتباطَ محبة ومودة ، والارتباط هنا ليس ارتباطَ تفضل ، إنما ارتباط حاجة .

إننا لو تخرَّجنا جميعاً فى الجامعة ، فمَنْ يكنس الشارع ، ومَنْ يقود السيارة ، ومَنْ يصنع لنا كذا وكذا ؟ تقول : يمكن أنْ نتفق على أن يقوم كلٌّ منا بعمل فى يوم محدد .

نقول : نعم لكن يكون العمل هنا تفضُّلاً ، والتفضل لا يلزم أحداً إنما تلزمه الحاجة ، والله يريد أن ترتبط مصالح الناس بالحاجة ، ولذلك تجد الرجل يعمل العمل الشاقّ ، وربما فيه أذى ، قد لا تتحمله أنت ، وقد ترى هذا العمل حقيراً ، فما الذى حمله عليه ؟ حملته

الحاجة ، وألجأته إليه ضروريات الحياة ، وأكْل العيش ومسئولية الأسرة والأولاد ، وإلا ما أهان نفسه هكذا .

ووالله لقد شاهدنا في بيت واحد رجلاً يعمل (صرماتي) ، وأخاه يبيع العطور ، وتأمل ماذا يشم كل واحد منهما .

وكان سيدنا الشيخ موسى رضي الله عنه كثيراً ما يدعو ويقول : اللهم أفقر الصنَّاع وأغْنِ العلماء ، وكنا نغضب من هذا الدعاء ونقول له : ماذا تقول يا سيدنا ؟ كيف ذلك ؟ فيقول : والله لو افتقر العلماء لزلُّوا في الفتوى ، ولو اغتنى الصناع لما انتفعنا منهم بشيء .

نعم رأينا فعلاً العامل إنْ كان في جيبه عشرة جنيهات قعد عن العمل حتى يصرفها . إذن : لا بدَّ من الحاجة لتُقضَى مصالح الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى جعل استطراق المال في المجتمع أهمَّ قضية في الإسلام ، لذلك جعلها من أركان الإسلام ، فالحق سبحانه لم يعْفِ أحداً من أنْ يمدَّ يد الاستطراق الاقتصادي للغير ، إنْ كان واجداً يبذل ، وإنْ كان غير واجد مالاً فليجد مقالاً ينصح به مَنْ يجد .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة]

فإذا لم يكُنْ لديه المال ولا المقال الذي يُرقِّق به القلوب ، فلا أقلَّ من أنْ يفعل ذلك في ذاته : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] أي في الجهاد ﴿ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهذه هي المرحلة الثالثة : إنْ كان واجداً فليبذل ، وإنْ كان غير

واجد فليبذل المقال الذى يُرقِّق به قلوب الواجدين ، وأخيراً إذا لم يجد هذا ولا هذا يحزن فى نفسه أنه لا يجد ، فنفسه تتوق للبذل لكنه لا يجد ، ويصل به الوَجْد فى هذه المسألة إلى أنه يبكى ألماً وحزناً لشوقه إلى العطاء .

هذا كله لاستطراق المال والاقتصاد فى المجتمع الإسلامى لأنه عَصَبُ الحياة وبه تُسْتبقى الحياة ، وبه يكون القوت .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⑦﴾ [فصلت] يعنى : كفروا فى البداية حين أشركوا بالإله الواحد ، وكفروا فى النهاية بالآخرة ، كفروا فى المنبع والمصب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧﴾

ذكْر المقابل سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، فبعد أنْ ذكر المشركين ذكر بعدهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلم يترك المسألة هكذا عائمة ، بل وضع أمامك الصورتين لتقارن أنت وتحكم كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭﴾ [الانفطار]

وقال ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ⑧٢﴾ [التوبة]

ذلك لتتم المقارنة فى وقتها .

معنى ﴿مَمْنُونٍ ⑧﴾ [فصلت] أى : غير منقطع ، أو (ممنون) يعنى : لا يمتن به عليهم ، كما فى ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ③﴾ [القلم] وفيها ملحظ آخر أن الذى يعمل عملاً صالحاً ، ثم تُعجزه

أموره عن عمله يقول الله له : العجز فيك منى ، ولذلك سأعطيك أجر ما كنت تعمله أولاً ، ويظل لك أجره إلى يوم القيامة ، هذا معنى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧﴾ [فصلت]

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨﴾

انتقل السياق هنا إلى النظر فى آيات الكون ، لأنها هى الوسيلة للإيمان بالمكوِّن سبحانه ، فالكون كَوْن عجيب بديع مُتقن فى نظامه وفى هندسته ، هذا النظام مُستقر لا يتخلف ولا يطرأ عليه ما يُخرجه عن هذا الإتقان ، فإنْ أردتَ أنْ تُرقِّق قلوب الناس فذكِّرهم بالآيات الكونية الطبيعية التى لا دخْلَ للإنسان فيها .

لذلك نجد كثيراً فى القرآن : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ .. ㉜﴾ [الشورى]

وهنا يحدثنا عن الخلق الأول وبداية نشأة هذه الأرض ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ .. ⑨﴾ [فصلت] والهمزة هنا أفادتْ الاستفهام الإنكارى الذى ينكر عليهم كفرهم بالخالق سبحانه ، وكأنه يقول لهم : إن هذا العمل منكم معلوم لنا وهو لا يجوز ، فيريد سبحانه أنْ يلفتهم إلى المقابل .

ثم لم يكتفُوا بالكفر بالخالق بل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. ⑨﴾ [فصلت] يعنى : شركاء . مع أنهم يعلمون أنه سبحانه الخالق وحده ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ㊇﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ㉕﴾ [لقمان]

هكذا يعترفون بها عندما يغيب عنهم اللَّدد والعناد .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ .. (٩) ﴾ [فصلت] أي : اليوم المعروف لنا ، واليوم عندنا من الوقت إلى مثله ، ويشمل الليل والنهار لأن الله يخاطبنا بما نعرفه ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. (٩) ﴾ [فصلت] شركاء لم يخلقوا شيئاً ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) ﴾ [فصلت] أي : هذا الذي تجعلون له أنداداً هو ربُّ العالمين ، وهو ربّ العالمين بإقراركم أنتم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٢٥) ﴾ [لقمان]

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾

تكلم الحق سبحانه عن خَلْق الأرض ، وأخبر أنه خلقها في يومين ، فهل معنى هذا أن خَلْق الأرض استغرق مُدَّة يومين بيومنا نحن ؟ لا ، إياك أنْ تظنَّ أن خَلْق الأرض استغرق يومين ، أو أنه كان معالجة تحتاج إلى وقت .

فالمسألة كما تقول مثلاً : أريد أنْ أصنع الزبادي عندي في البيت ، فأقول لك : هات اللبن وضَعْ عليه المادة المعروفة لعمل الزبادي ، ثم اتركه في درجة حرارة معينة لمدة معينة ، وبعدها يصير اللبن زبادي بعد عدة ساعات مثلاً ، فهل يعني هذا أن صناعة الزبادي استغرقتْ منك عدة ساعات ؟ لا بل دقائق أعددتَ فيها المادة وتركتها تتفاعل لتصبح زبادي .

مثلاً حين تذهب للخياط ليخيط لك ثوباً ، يقول لك : تعالَ خُذْه بعد أسبوع ، فهل استغرق الثوب فى يده أسبوعاً ؟ كذلك مسألة الخَلْق هذه .

وبعد أنْ خلق اللهُ الأرض جعل فيها الرواسى ، وهى الجبال الراسية الثابتة المستقرة ، والتى بها تستقر الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ [النبأ] ولو أن الأرضَ مستقرةٌ بطبيعتها ما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : دلَّتْ الرواسى على أن الأرض تدور ، فهذا دليل على دوران الأرض .

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ۝١٠ ﴾ [فصلت] قلنا : البركة أنَّ الشىء يعطى من الخير فوق مظنَّة حجمه وفوق المنتظر منه ، كأن تجدَ الطعام مثلاً الذى تظنه يكفى خمسة يكفى لعشرة فتقول : فيه بركة .

وقوله ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ۝١٠ ﴾ [فصلت] فى أى شىء ؟ فى الأرض حيثُ ذُكرت أولاً ؟ أم فى الجبال وهى آخر مذكور ؟ قالوا ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ۝١٠ ﴾ [فصلت] أى : فى الرواسى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ۝١٠ ﴾ [فصلت] أى : فى الجبال أيضاً .

وقد أثبت الواقع ذلك ، وأثبت العلم أن الجبال هى مصدر الخير لباقى الأرض ، ومنها عناصر الخصوبة والغذاء الذى لا بدَّ منه لبقاء حياة الكائن الحى ، ومعلوم أن العناصر فى التربة تنقص وتحتاج إلى مَدَد وتجدُّد من حين لآخر .

وهذا ما يحدث فعلاً ، حين يسقط المطر على الجبال فيفتت قشرتها ، ويحمل السيل هذا الفتات ويسير به ليوزعه على الأرض

المسطحة المنزرعة ، كما فى طمى النيل زمان وقبل بناء السد العالى ، هذا الطمى من أين جاء ؟ من منابع النيل فى أعلى الجبال .

وكنا نرى ماء النيل مثل الطحينة ، ويظل كذلك إلى المصبِّ فى البحر المتوسط ، ومن هذا الطمى نشأتْ الدلتا ، فالبحر كان يمتد حتى دمياط ، والآن انظر لما بين دمياط ورأس البر مثلاً .

كذلك الحال فى الوديان حول الجبال ، حيث تؤثر عوامل التعرية فى القشرة الخارجية من الجبال ، ويجرفها السيل إلى الوديان ، فتجدد التربة وتزداد خصوبتها ، فكأن الجبال بالفعل مخازن قوت البشر ، لذلك قال عنها ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. ⓾ ﴾ [فصلت]

وتأمل أيضاً الحكمة والهندسة الكونية العالية ، فالجبل قاعدته أسفل وقمته أعلى على عكس الوادى بين الجبلين ، فرأس المثلث فيه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى ، وكلّ عام يأتى المطر ليأخذ من قمة الجبل ويعطى لقاعدة الوادى ، وكأنه تجدد واتساع للوادى يناسب الزيادة البشرية .

فالله تعالى يعطى من نعمه على قدر الزيادة التى تخيفنا الآن ، يعنى : اطمئنْ فالرزق عند الله مضمون ؛ لذلك قال بعدها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⓾ ﴾ [فصلت]

هذه المراحل : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⓾ ﴾ [فصلت] جاءت فى ﴿ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⓾ ﴾ [فصلت] هذه الأربعة أيام ﴿ سَوَاءً .. ⓾ ﴾ [فصلت] أى : أيام متساوية ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ⓾ ﴾ [فصلت] أى : الطالبين للرزق .

أو ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⓾ ﴾ [فصلت] يعنى : فى تتمة أربعة أيام

﴿سَوَاءً .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : استوت وتمتْ . وحين نضيف هذه الأربعة أيام ، إلى اليومين السابقين تعطينا ستة أيام هى مجمل خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾[الأعراف]

بعد ذلك يتكلم سبحانه عن خَلْق السموات على وجه التفصيل ، فيقول : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] عملت معارك بين العلماء ، ولما حصرنا مادة استوى فى القرآن الكريم وجدنا أنها وردتْ اثنتا عشرة مرة ، سبعة منها فى الاستواء على العرش واثنتان للسماء وللأرض ، هذه الآية التى معنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] وواحدة فى البقرة : ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. (٢٩)﴾ [البقرة]

هذه تسعة ، ويبقى ثلاثة مواضع ، واحد خاص بالوحى فى قوله تعالى عن جبريل : ﴿ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] يعنى : بلغ مداه .

وواحدة فى موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص] يعنى : بلغ سنَّ الرشد .

وواحدة فى التمثيل لهذه الأمة فى الإنجيل ، قال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

---

(١) ذو مِرّة : ذو قوة . المِرّة : القوة والشدة . [اللسان – مادة : مرر] وقاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٧] .

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ[1] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

هذه صورة أمة محمد فى التوراة ، فهم قوم أشدَّاء على الكفار رحماءُ على المؤمنين ، وهم رُكَّع سُجَّد لهم سيمة وعلامة يُعرفون بها ، وهذه كلها قِيَمٌ معنويةٌ لم يأتِ فيها شيء مادى ، ذلك لأن اليهود كانوا يؤمنون بالماديات ، حتى أنهم أرادوا أنْ يخلعوا الماديات على الخالق الأعلى ، لذلك قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

أما مثلُهم فى الإنجيل فلم يأتِ بقيم ولا روحانيات ، إنما جعله مثلاً مادياً بحتاً ، لماذا ؟ لأن المسيحية كلها مواجيدُ دينية روحية ، ليس فيها شيء من مادة الأرض ، لذلك سُئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث . فقال : لم أُرسَل مُورِّثاً .

لذلك جاء مثل أمة محمد عنده مثلاً مادياً ، فالمثل عند اليهود جاء روحانياً لأنها مفقودةٌ عند اليهود ، وجاء مادياً لأن المادية مفقودة عند النصارى ، فقال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا مثَلٌ مادى صِرْف ، فالمثل المادى مفقود فى المسيحية ، والعنصر الروحى مفقود فيما اتخذه اليهود ، فجاء الإسلام ليجمع بين العنصرين معاً فى دين واحد .

---

(١) السيما : العلامة . سيماهم فى وجوههم : أى علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم ٣٣٧/٢] .

(٢) شطء الزرع : ما خرج وتفرَّع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ٣٤٨/١] . فآزره : فقوَّاه . قال فى اللسان (مادة أزر) : أى آزر الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض .

هذه اثنتا عشرة موضعاً ذُكرتْ فيها مادة الاستواء ، وكان الخلاف بين العلماء فى المواضع السبعة التى تتكلم عن الاستواء على العرش ، وهذه المواضع السبع فى سبع سور جمعها الناظم فى قوله :

فَفِي سُورَةِ الأعْرَافِ ثمَّةَ يُونُسٌ   وَفِي الرعْدِ مَعْ طَهَ فَللعدِّ أكِّدْ
وَفِي سُورَةِ الفُرْقان ثُمةَ سَجدةٌ   كَذَا فِي الحديدِ فَافهَمُوا فَهْمَ مُؤَيِّد

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] إنْ كانت للعرش يقول : استوى على ، وإنْ كانت للسماء قال : استوى إلى ، البعض فَهِمَ استوى على أنه كاستواء المخلوق على الكرسى فوقعوا فى التشبيه والتجسيم ، أما استوى إلى السماء يعنى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته سبحانه .

ذلك لأن العرش فى الموجودات سمة التمكُّن من الحكم واستتباب الأمر للحاكم ، فالحاكم إنْ كان عليه مشاغبات لا يستقر على العرش ولا يستتب له أمر المُلْك إلا إذا دَانَ له الجميع وخضعوا .

لذلك قال فى بلقيس[1] : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] يعنى : استتبَّ لها الأمر ، فكلمة (استوى على العرش) دلتْ على أن الكون كله استجاب له وانقاد لأمره دون منازع ؛ لذلك قال هنا عن السماء والأرض ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

وللعلماء فى الاستواء عدة مقالات جمعها الناظم فى قوله :

وَلَهُمْ مَقَالاَتٌ عليْهَا أرْبَع   قَدْ حُصِّلَتْ للفَارسِ الطّعَّانْ

---

(١) بلقيس : هى ملكة سبأ ، أرسل لها النبى سليمان الهدهد برسالة يدعوها للتوحيد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون الشمس ، وهى من بنى يعفر بن سكسك من حِمْيَر ، يمانية من أهل مارب ، دفنت بتدمر . [الأعلام للزركلى ٢/٧٣] .

وَهْيَ اسْتَقرَّ وَقَدْ عَلاَ وكَذاكَ   قَدْ صَعَد الذِى هُوَ رابِعْ

فالمعنى هنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ .. (١١)﴾ [فصلت] أى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته تعالى ، واستوى على العرش يعنى : استقر له الأمر واستتبَّ ، لأن كل الوجود استجاب له وانقاد ، فلما قال للأرض وللسماء : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه لم يُقبل على قوله (كُنْ) إلا لعلمه تعالى أن شيئاً من مُلْكه لن يتخلف عن الاستجابة لأمره ؛ لذلك قال ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : فقط تسمع النداء فتستجيب فوراً ، لذلك شهد الله لذاته بذلك : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] وبشهادته سبحانه لنفسه أنه لا إله إلا هو قال لكل شيء : كُنْ فكان . وبعد ذلك شهدتْ الملائكة ، وشهد أولو العلم .

وقوله : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] أى : على هيئة الدخان الذى يسميه العلماء السَّديم[2] ، والمراد أن الكون كان على هيئة غازية ، ومن هذه المادة الغازية تكوَّنت الأرض والصخور والجبال . وبعد أنْ تكوَّنتْ السماء والأرض أمرهما الخالق سبحانه ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١)﴾ [فصلت] فكان الردّ ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

---

(١) حق الأمر : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . (حقت) : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

(٢) السديم : تجمعات مضيئة وكثيفة نسبياً . وهناك سدم متشتتة تظهر على شكل سحابات غير منتظمة أو ضباب دقيق ، وسدم كوكبية منتظمة ، وسدم مجرِّية تكون فى الغالب غازاً وغباراً . [الموسوعة الفلكية – تأليف فايجرت ، تسمرمان – الهيئة العامة للكتاب – ص ٢١٠] .

وهذا الرد دَلَّ على سرعة الاستجابة للأمر ، وعلى انقياد الكون كُلِّه لخالقه تعالى ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت] وهل نملك المخالفة ، ولماذا نأتي كارهين ؟ هذا يعطيك دليلاً على انقياد الكون لله ، لأنه ليس له هَوىً في نفسه يُغير الموقف ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

أما الإنسان فكلٌّ له هَوىً ، لذلك جاء في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعٌ لما جئتُ به »[1] وما دام سيكون هواك تبعاً لما جاء به النبي ، وأنا هواي تبعٌ لما جاء به النبي ، فالهوى إذن واحد ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت] هذا كلام السماء والأرض ، وكان القياس أنْ يقول : طائعيْن بالمثنى إنما قال ﴿ طَائِعِينَ ﴾ [فصلت] بصيغة الجمع . والسماء والأرض مؤنَّث ، فكان القياس أنْ يقول : طائعات . إذن : خالف في أمرين ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشيء يكون مفرداً لكنه تحته . فإذا نظرتَ إلى المفرد جئتَ بالمفرد ، وإذا نظرتَ إلى ما تحته جئتَ بالجمع .

قال تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات] فلم يقل : اقتتلتا بالمثنى المؤنث ، إنما ﴿ اقْتَتَلُوا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لأن أمر القتال راجعٌ إلى رؤساء كل طائفة ، هم الذين يقررون القتال أو عدم القتال ، وساعةَ القتال لا يمسك كل فريق بسيف واحد يقاتل به الفريق الآخر ، إنما يمسك كلُّ فرد بسيفه .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

فالطائفة هنا مفرد تحته جمع ، فقال في القتال ﴿ اقْتَتَلُوا .. ⁽٩⁾ ﴾ [الحجرات] لكن عند الصلح قال : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ⁽٩⁾ ﴾ [الحجرات] لأن أمر الصلح لا يكون مع أفراد الجيش ، إنما يكون مع القادة لكل طائفة الذين يُصرِّفون الأمر حرباً أو سلْماً .

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ⁽١٢⁾ ﴾

قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ .. ⁽١٢⁾ ﴾ [فصلت] أي : جعل السماء وأبدعها وخلقها ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ .. ⁽١٢⁾ ﴾ [فصلت] في مدة (يومين) حين نجمع هذين اليومين إلى الستة أيام السابقة تعطينا ثمانية أيام ، إذن : خَلْق السماء والأرض كان في ثمانية أيام ، لا في ستة كما قالت الآية .

هذا جعل بعض المستشرقين يظنون هنا مأخذاً وتناقضاً في كلام الله ، ولكن حاشا لله أن يكون في كلامه تناقض ، لأن الإجمال ستة والتفصيل ثمانية ، وحين تجد إجمالاً وتفصيلاً ، فالتفصيل حجة على الإجمال لأنها أيام متداخلة ، كيف ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسيَ ، والرواسي من الأرض ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها ، هذا كله في الأرض ، فحين يقول ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⁽١٠⁾ ﴾ [فصلت] أي : في تتمة أربعة أيام .

فمُجمل خَلْق الأرض في أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان في

الأربعة أيام . كما تقول مثلاً : سرْتُ إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى أربع ساعات ، فالساعتان الأوليان داخلتان فى الأربع .

إذن : خلق الله تعالى الأرض بما فيها من الرواسى فى أربعة أيام ، فإذا أضفنا يومين فى خلْق السماء كان المجموع ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢)﴾ [فصلت] أى : جعل فيها ودبَّر فيها أمرها . يعنى : بيَّن مهمتها وما فيها من وجوه الخير ، ومَن الرسول الذى سيكون فيها .. الخ وبيَّن مهمتها التى تقوم عليها فى هداية حركة الحياة .

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢)﴾ [فصلت] وهى الكواكب والنجوم التى تضىء فى السماء كالمصابيح ومنها الشمس والقمر ، وتجد أن نور الشمس غير نور القمر ، نور الشمس يُسمَّى ضياءً . يعنى : نور مع حرارة أما القمر فلَه نور فقط ، لذلك يُسمُّونه النور الحليم ، لأنه خَال من الحرارة ، لذلك قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وقال : ﴿سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا .. (١٢)﴾ [فصلت]

السماء الدنيا هى السماء التى نباشرها نحن ونرى فيها النجوم ، والمصباح يُقاد من ضوء الشمس حين ينعكس ، فيعطى ضوءاً هادئاً نسميه (ضوء حليم) يعنى : لا حرارة فيه .

والحق سبحانه الذى خلق الخَلْق وهو أعلم بما يُصلحه علم أن له زمنين : زمناً للكدح والحركة ، وزمناً للراحة والسكون ، فالليل للسكون ، والنهار للحركة ، ولا يمكن أنْ تتحرك حركة قوية رشيدة

إلا إذا كنتَ قد استوفيتَ أولاً نوماً هادئاً ، وإلا من لم ينم ويسترح لا يقدر على العمل فى الصباح ، لكن بعض الحركات لا تكون إلا ليلاً .

لذلك جعل لنا الخالق سبحانه ضوءاً يهدينا فى ظلمة الليل مثل الونَّاسة كما نقول ، فلا يمكن أن يتركنا فى ظلمة نتخبط فيها ، فنحطم الأضعف منا ، أو يُحطمنا الأقوى .

لذلك قال سبحانه عن النجوم : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] الحق سبحانه صنع ذلك لتصويب حركة الحياة ، لأن الله خلق الخليفة آدم ، وأمره أنْ يعمر الأرض ، يعمرها بما أعطاه الله من مادة وعقل يختار بين البدائل ، وبما أعطاه الله من جوارح تنفذ مرادات العقل ، فأراد سبحانه أن يضمن سلامة الكون مع نفسه ، هذا فى المادة .

وللنجوم مهمة أخرى فى القيم ، قبل بعثة رسول الله .

وقال تعالى : ﴿ وَحِفْظًا .. (١٢) ﴾ [فصلت] وفى موضع آخر قال : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات] فقد كان الجنُّ يتسمَّع إلى الملأ الأعلى فى السماء ، فيأخذ شيئاً من أمور الخَلْق يسمعها من الملائكة وينزل بها إلى الكهنة ، فيخبرون الناس بها على أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تصدُق هذه الأخبار فيظن الناس أنهم يعلمون الغيب ، ويأتى الكاهن بالشىء الصادق صدفة ، ومعه أشياء كثيرة كذب[1] .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل رسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكهان . فقال : ليس بشىء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشىء فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة » أخرجه البخارى فى صحيحه (الكهانة) .

كان هذا قبل بعثته ﷺ ، لكن لما جاء سيدنا رسول الله حفظ الله السماء من استراق السمع ، لذلك قال : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⁽⁹⁾ ﴾ [الجن]

لذلك رأينا أن العرب كانوا يحتكمون إلى الكهَّان ويُصدِّقونهم ، يُرْوَى أن هنداً[1] امرأة أبى سفيان كانت قد تزوجتْ قبله رجلاً اسمه الفاكه بن المغيرة[2] وكان سيداً من سادات قريش ، وبيته مفتوح للقوم يأتيه كل محتاج لشىء ، يقولون : اذهبوا إلى الفاكه ، لأن بيته كان قريباً من نادى القوم .

وفى يوم من الأيام نزلتْ هندٌ تباشر أمورَ بيتها ، فوجدتْ رجلاً نائماً فى ساحة البيت فرجعتْ ، وفى هذه اللحظة دخل الفاكه ورأى الرجل النائم فداخله الشكّ فى امرأته ، فقال لها : الزمى بيت أبيك فذهبت إلى أبيها عتبة ، وشاع عند العرب أن الفاكه اتهم امرأته بكذا وكذا .

جاء أبوها عتبة وقال للفاكه : يا فاكه لقد جُنَّتْ ابنتى ، يعنى : رُميتْ بشىء ، ولا أرى إلا أنْ نحتكم إلى الكاهن ليقضى لنا فى هذه المسألة ، فاجمع من رجالك ومن نسائك مَنْ شئتَ ، وتكون ابنتى فى وسطهم ، ونذهب إلى الكاهن ونسأله .

---

(١) هند بنت عتبة : صحابية قرشية من بنى عبد شمس أسلمت بعد فتح مكة ، زوجة أبى سفيان وأم معاوية ، أمضت أول حياتها كافرة تتآمر على قتل النبى ، وهى التى حرضت وحشياً على قتل حمزة عم رسول الله ، أسلمت فى العام الثامن من الهجرة ، توفيت عام ١٤ هجرية ، فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) الفاكه بن المغيرة : أحد الفصحاء المقدَّمين من قريش فى الجاهلية ، كان نديماً لعوف بن عبد عوف الزهرى (أبى عبد الرحمن) وهو عم خالد بن الوليد ، عَدَّه ابن حبيب فى « أشراف العميان » وقال : قُتل بالغميصاء .

كانت هند امرأة عاقلة ، فقالت : يا أبى إنك تأتى إلى بشر يخطئ ويصيب ، وربما رمانى بشىء ليس فىَّ ، فتظل سُبَّة لى وسُبَّة لك ، فقال لها : اطمئنى فأبُوك ليس أحمقَ إلى هذا الحدِّ ، ولن أعرض أمرك عليه إلا إذا أخبرنى بالخبيء الذى خبَّأته له ، وقبل أن يصلَ إلى الكاهن ، وكان يركب مُهْراً فنزل فى خلاء وصفر للمهر فأدلى المهر متاع مائه ، ففتح عتبة فتحة متاع المهر ووضع فيها حبة قمح ، ثم ركبه إلى الكاهن .

ثم قال له : لن أعرض عليك أمرى حتى تخبرنى بخبء خبأته لك . قال له الكاهن : حبة بُرٍّ فى إحليل مُهْر . قال : أعد ، قال : بُرَّة فى كمرة ، فأخبره عتبة بأمر ابنته وهى فى وسط النساء فمرَّ الكاهن يمسك برؤوس النساء واحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى هند وتوقَّف عندها ، ولم يكلم الأخريات ، وعند هند قال لها : قومى غير رسحاء[1] ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية[2]

هذ أخبار صَحَّتْ ، وهى من استراق السمع لا تدلُّ أبداً على معرفة الكاهن للغيب . فلما برئتْ هندٌ وارتفعتْ رأسها بين القوم أراد الفاكه أنْ يتمحك فيها ، يعنى : عفا الله عما سلف ، وهيا بنا إلى البيت ، فقالت له : والله لقد غرَّك مُلْك معاوية ، ولأحرصنَّ أن يكون من غيرك .. اذهبْ عنى ، وبعدها تزوجتْ أبا سفيان وولدتْ له معاوية .

أنهى الله هذه المسألة لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أنْ يسترقَ

---

(١) الرسحاء : القبيحة من النساء . [لسان العرب - مادة : رسح] .

(٢) أورد هذه القصة أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه (الأغانى) فى باب ذكر مسافر بن أبى عمرو ونسبه ، خبر طلاق هند من الفاكه . وأورده كذلك ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب ٣٦ فى الكهانة . وفيه أن الكاهن قال لهند : انهضى غير خساء ولا زانية ولتلدن ملكاً اسمه معاوية .

شيطانٌ سمعاً بعد بعثته ﷺ ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ .. ⑨ ﴾ [الجن] يعنى : قبل البعثة ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ ﴾ [الجن] وبذلك حمى الله منهجَ السماء أنْ تُدنِّسه شهوات الشياطين .

﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑫ ﴾ [فصلت] العزيز الذى لا يُغلَب ، وما دام لا يُغلَب ، فلن يستطيع شيطانٌ أن يسترق السمع ، ويأخذ شيئاً من الأخبار ، وهو سبحانه عليم بمصالح الخلق .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬ ﴾

أعرضوا ، يعنى بعد كل هذه الآيات ، وبعد أنْ أقرُّوا هم بأنه سبحانه خالقهم وخالق السموات والأرض ، خاصة وهذه مسألة لم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، فما دام أن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد فقد سلَمتْ لله وحده ، لذلك قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⑱ ﴾ [آل عمران] شهد الله لنفسه وأعلنها ، فهل اعترض أحد عليها ؟ لم يعترض أحد .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا .. ⑬ ﴾ [فصلت] بعد هذه الآيات الواضحات ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬ ﴾ [فصلت] الإنذار يكون بشىء مخيف مُروِّع قبل حدوثه ، لا بعد أن يكون حدوث المُنذَر به ليُجْدى الإنذار ونحتاط له ، فلو وقع الأمر المروّع لم يُجْدِ الإنذار به .

كذلك قلنا فى البشارة بالأمر السَّارّ قبل أوانه لنقبل عليه ، إذن : البشارة والنذارة لا بدَّ أنْ يكون كل منها قبل الحدث المبشَّر به أو المنذَر به .

فقل يا محمد للذين كذَّبوا بآياتنا : ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] أنذرتكم أى الحق سبحانه هو المنذر ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ، وما دام أنذر بشىء فلا بدّ أنْ يقع وأنْ يتحقق .

وقوله : ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً ، إنما واقع حدث بالفعل وسوابق ، كما حدث مع عاد وثمود وأنتم على علم بها وتشاهدون آثار هؤلاء .

هنا كان عتبة بن ربيعة ، وهو سيد من سادات قريش حينما أسلم سيدنا عمر وأسلم حمزة والعباس ، قال صناديد الكفر : إن أمر محمد فى اتساع ، فلا بدَّ أنْ نتدارك الأمر ونحدد موقفنا منه لنمنع هذا الاتساع ، فعلينا أن نختار واحداً منا على علم واسع باللغة والشعر ، وكاهناً يجيد أساليب الكهان ، وكذلك يكون ساحراً ، يعنى : يجيد كل ما نتهم محمداً به .

فقال عتبة : أنا أعلم الناس بكل ذلك فدَعُونى أذهب إلى محمد ، فلما ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ قال له : يا محمد أنت خير أم جدُّك هاشم ؟ أنت خير أم جدّك قصى ؟ أنت خير أم جدّك عبد المطلب ؟ هؤلاء لم يُسفِّهونا فى عبادتنا ، فهل أنت خير منهم لتأتى بدين جديد غير دين آبائنا ؟

إنْ كنتَ يا محمد تريد مالاً جمعنا لك المال ، وإنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملَّكناك علينا ونجعلك سيدنا ، وإنْ كنتَ تريد الزواج زوّجناك بأفضل نسائنا ، واسكت عن هذا الأمر الذى تدعو إليه ، وانْتَه ، عن سَبِّ آلهتنا .

فقال له رسول الله ﷺ : أتسمع ؟ قال : نعم أسمع فقرأ عليه من أول سورة فُصِّلت إلى أن وصل ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [فصلت]

وعندها قام عتبة ووضع يده على فم رسول الله ، وقال : سألتُكَ بالرحم ألاَّ تكمل ما قرأتَ [(١)] ، لماذا ؟ لأنه علم أن محمداً لا يقول شيئاً إلا وقع ، وبعدها اعتزل عتبة قومه حتى قالوا : لقد صبأ عتبة ، لقد طمع فيما عند محمد من الخير ، يعنى : افتقر إلى ما عند محمد من المال ، وسمع عتبة هذا الكلام لكنه لم يُجبْ .

وبعد ذلك قال لهم : لا والله ما صبأت ولكنى خفْتُ على قومى إنذارَ محمد بصاعقة تحلّ بهم مثل صاعقة عاد وثمود ، لأننى أعلم أن كل شىء يقوله محمد لا بد أنْ يقع ، فأنا أنجيكم من هذا بأنْ أجعله لا يكمل هذه الآية .. وظل رسول الله يقرأ السورة إلى السجدة .

الحق سبحانه وتعالى حينما يعطى كلاماً نظرياً يُؤيده بواقع ، وقريش تعلم قصة عاد وثمود ، لكن ما هى الصاعقة ؟ الصاعقة هى الشىء الذى يصعق ما تحته ، قد يكون ريحاً مدمرة ، وقد يصطحب معه ناراً محرقة ، والقرآن قال : صاعقة ، وسمَّاها صيحة وقال : ريحاً صرصراً عاتية .

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وقد ضعّف بعض الشىء عن الذيال بن حرملة عن جابر فذكر الحديث إلى قوله ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت] فامسك عتبة على فمه وناشده بالرحم أن يكف . وكذا ذكره القرطبى فى تفسير الآية ، والسمرقندى فى بحر العلوم باب ١٣ .

قوله : ﴿جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ.. ⑭﴾ [فصلت] هكذا بالجمع مع أن الكلام عن عاد وثمود ولكل منهما رسول واحد ، فلماذا جمع وقال الرسل ؟ قالوا : لأن كل رسول يأتى يُؤمر من الله أنْ يأمر قومه بأنْ يؤمنوا بالرسل السابقين ، وأنْ يؤمنوا كذلك بمَنْ يأتى من الرسل بعده ، فكأن عاداً وثمود حينما يؤمنون برسولهم يؤمنون كذلك بكل الرسل ، أو أنهم كانوا متفرقين فى المواقع ، بحيث يكون لكل موقع رسول خاص ، فتعدد الرسل بتعدّد المواقع .

وقوله ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ⑭﴾ [فصلت] هذا ملخص دعوة كل الرسل وقضية كل رسول من عند الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ⑭﴾ [فصلت] يعنى : أنتم بشر مثلنا ، وإنْ أراد الله هدايتنا لأرسل لنا رسولاً من الملائكة . وهذا دليل غبائهم ؛ لأن الرسول جاء مبلِّغَ منهج وأُسْوة سلوك ، فلو كان الرسول ملكاً ما تحققتْ فيه مسألة القدوة والأسوة ، وما استطاع أنْ يأمر قومه بما يقوم هو به ، ولَقالَ له قومه : كيف نفعل وأنت ملَك ونحن بشر ؟

فالأسْوة هنا غير موجودة أصلاً . إذن : فلا بدّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم ، حتى لو جئنا به ملَكاً كما تريدون لجاءكم فى صورة بشر ، لأنكم لا تروْنه على هيئته الملائكية ، ولا تستطيعون الاستقبال منه على هذه الهيئة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ [الأنعام] ولظلتْ الشبهة كما هى ، إذن : لا بدّ أنْ يكونَ الرسولُ رجلاً من جنس القوم .

وقولهم : ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ⑭﴾ [فصلت] تأمل ، إنهم يعترفون برسالة الرسل ، ويُقرون بذلك ، ونحن لا نريد منكم أكثر

من هذا أنْ تعترفوا بأنهم مُرْسَلُون ، وعجيب بعد ذلك أنْ يكفروا .

قالوا : ويجوز أنْ يكون المعنى ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [فصلت] أى : كما تقولون أنتم بأفواهكم ، أو أرسلتم على سبيل الاستهزاء بهم ، كما فى قوله تعالى فى المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ⦗٧⦘ ﴾ [المنافقون] وقالها فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ⦗٢٧⦘ ﴾ [الشعراء]

مجنون ؟ والله أنت المجنون ، فما دام أنه أُرسِل فلم تعاند ؟ إذن : المسألة كلها كفر وعناد ، والكفر هو الجنون بعينه ، جنون على جنون .

ثم أراد الحق سبحانه أنْ يُفصِّل القول فى أمر عاد وثمود ، فقال سبحانه :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⦗١٥⦘ ﴾

قوله عن عاد : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.. ⦗١٥⦘ ﴾ [فصلت] هل يعنى أن هناك استكباراً بالحق ؟ قالوا : نعم تستكبر فى قومك ليكونَ لهم كبير يردعهم إنْ مالوا ، لأن عادة الناس إنْ لم يكُنْ لهم كبير يُهَاب ويُرْجَع إليه اختلطتْ عندهم الأمور وماجوا فى بعض وتعدّوْا .

وهذا استكبار بحق ، لأنه يُصوِّب حركة الأفراد ، ولا بدّ أنْ يكون من كبير كما يقولون عندنا فى الريف (اللى ملوش كبير يشترى له

كبير) لماذا ؟ لتعتدلَ الأمور ، ولا تكون فوضى ، وصدق القائل[1] :

لاَ يَصلُحِ النّاسُ فوضى لا سَرَاةَ [2] لهُمْ

وَلاَ سَرَاةَ إذَا جُهَّالُهمْ سَادُوا[3]

هذا استكبار بالحق ، لأن له رصيداً يسمح له بالاستكبار ، أما الاستكبار بغير الحق فهو الاستكبار بلا رصيد وبلا داعٍ كالذى يستكبر بقوته أو سلطانه أو غير ذلك من العوارض التى تنزع من الإنسان .

﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً .. (١٥) ﴾ [فصلت] وكذبوا فى هذه أيضاً ، وظهر جهلهم لأن الله تعالى أشدّ منهم قوة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً .. (١٥) ﴾ [فصلت] قولهم : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..(١٥) ﴾ [فصلت] استفهام إنكارى يعنى : لا أحدَ أشدّ منا يأمرنا فنطيعه لأننا الأقوى .

نعم ، لكم حق فى هذه ، لكن ما قولكم فى أن الله الذى خلقكم هو أشدّ منكم قوة ، أليس ذلك دليلاً على وجوب طاعتكم له ؟ إذن : المنطق كان يقتضى أنْ تتصاغروا لمن أرسله الله إليكم ، وأنْ تطيعوه طاعةً لله الذى أرسله .

نعم لا يصح للقوىِّ أنْ يرضخ لطاعة الضعيف ، لكن نسألكم :

---

(١) الشاعر هو : أبو الأسود الدؤلى ، ظالم بن عمرو ، تابعى ، واضع علم النحو ، كان من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ، ولد عام ١ قبل الهجرة وتوفى ٦٩ هجرية ، فى صبح الأعشى أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين ، وهو فى أكثر الأقوال أول من نقط المصحف مات بالبصرة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) سراة القوم : هم أعيانهم ورؤساؤهم وأشرافهم .

(٣) البيت من قصيدة لأبى الأسود الدؤلى من بحر البسيط ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

أنتم أقوى أم الله ؟ لا بدَّ أنْ يقولوا الله لأنهم معترفون له بالخَلْق ، فلماذا عاندتموه وصادمتم رسله ؟ أنتم صحيح أقوى على بعض الخَلْق ، لكنكم ضعافٌ أمام مَنْ خلق الخَلْق .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت] الجحود هو إنكار الشيء لجاجةً وعناداً كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل] ففي حين يستيقنون بالآيات ويؤمنون بها في أنفسهم يجحدونها بظاهرهم ، فما الجزاء ؟

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ[1] لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾

وُصِفَت ريح العذاب هنا بأنها (صرصر) هكذا من مقطعين صرصر ، وهناك صِرٌّ مقطع واحد . وهي الريح الشديد المزعج الذي يهدد ويكون فيه برودة شديدة ، والبرودة من شأنها شدة الرطوبة التي تُجفف إلى درجة الإحراق .

وهذه الظاهرة يعرفها الفلاحون في فصل الشتاء عندما يشتد البرد لدرجة أنه يحرق الزرع .

وهكذا يجمع اللهُ فعلَ النار في الماء لأن الحق سبحانه لم يخلق

---

(١) النحس : الشؤم ضد اليُمن وضد السعد قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] أي : يوم شؤم وعذاب دائم . [القاموس القويم ٢/٢٥٦] .

الكون بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما خلقه بصفة القيومية التى تجمع بين الأضداد ، أرأيتم لموسى عليه السلام حينما ضرب بعصاه الماء ، فصار كل فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم ، وجمع الله بين الشيء ونقيضه فى وقت واحد ، كذلك ضرب الجبل فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، وفى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ألقاه القوم فى النار ، فجعلها عليه برداً وسلاماً ، وعطَّل فيها قانون الإحراق .

فالصّر هى الريح الشديد المزعج ، لكن يهبُّ لمرة واحدة ، فإنْ تكرر فهو صرصر ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ .. ⟨١٦⟩﴾ [فصلت] النحس : هو الشؤم ، وحينما يأتى اليوم بشيء من الشر يتشاءمون منه ، وكما قال فى موضع آخر : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. ⟨٧⟩﴾ [الحاقة] يعنى : حاسمة تستأصلهم ، وتنتهى منهم . أى : سبع ليالٍ وثمانية أيام حاسمة ، حسمتْ الجدل بين الرسل وبين المكابرين المعاندين .

وفى الشعر العربى قال الشاعر[1] :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيلَ لَيْلٌ قَرّ ... والريح يا غُلامُ رِيحٌ صِرُّ
عَلَّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إنْ جلَبْتَ ضَيْفاً فَأنتَ حُرّ[2]

﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ⟨١٦⟩﴾ [فصلت] هناك

---

(١) الشاعر هو : حاتم بن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، شاعر جاهلى فارس جواد . يُضرب المثل بجوده ، ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ، مات فى عام ٤٦ قبل الهجرة فى عوارض (جبل فى بلاد طيء) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة لحاتم الطائى من بحر الرجز عدد أبياتها بيتان . ولفظه فى الموسوعة الشعرية (يا موقد) بدل (يا غلام) ، و (عسى) بدل (عَلَّ) وعزاه ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) للأفوه الأودى . وكذلك الثعالبى فى (التمثيل والمحاضرة) .

عـذاب يـؤلم ، وعـذاب يخـزى ويهـين المـتكبـر ، ليس الغـرض منه الإيـلام ، إنمـا الإهانة والخـزى والذلة ، لأنه تكبَّـر بلا رصـيـد ذاتى عنده ، ولو عـذَّبناه عذاباً يؤلم ربـما تحـمّل الألم ، لذلك نعذبه عـذاباً يخزيه ويُرغم أنفـه ويهدم كبرياءه ، فالخـزى فى تأديب النفس أقوى من الإيلام فى الحسِّ .

ومعلوم أن من الناس مَنْ يؤذيه الاستهزاء به والسخرية منه أكثر ممـا يؤلمه الضرب الحـسى . وهذا الخزى وهذه الإهانة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] أمَّـا الآخـرة فلهـا شـأنٌ آخر فى الآخـرة أخزى ، لأن الخزى فى الدنيا له وقت ينتهى فيه .

أمَّا فى الآخـرة فخزىٌ دائم باقٍ فـهو مُعـذَّب وخزيان ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ ..(١٦)﴾ [فصلت] لأنهُ دائم مـسـتـمرٌ ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦)﴾ [فـصلت] يعنى : لن يأخـذ أحـد بأيديهم ، ولن ينجـيـهم من العذاب شىء ، فلا أملَ لهم فى النصرة ، فهم لا ينصرون ولا يردُّون .

لذلك قلنا فى الحشر : إن الحق سبحانه يحشر الناسَ جميعاً مرة واحـدة ، لا يكونون على هيئـة طابور مـثلاً ، كلٌّ ينتظر دوره ، إنمـا يُحـشرون جـمـيعـاً بعـضهـم مع بعض ، الظالم والمظلوم ، والتـابع والمتبوع ، وهو يقطع أملَ الكافرين فى النجاة ، فربما انتظروا قادتهم لينقـذوهم ؛ لذلك قـال تعالى فى شـأن فرعـون : ﴿يَقْـدُمُ قَـوْمَـهُ .. (٩٨)﴾ [هود] أى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)﴾

هنا وقفة لعلماء الكلام ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧) ﴾ [فصلت] الهُدَى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل إلى غاية خير ، نقول : دلَّه على الطريق ، وحين تدل الناس منهم مَنْ يستمع لك ويطيعك ، ومنهم مَنْ لا يستمع إليك ، فالأول تزيده هداية وإرشاداً حتى يصل إلى غايته ، والآخر تتخلى عنه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أي : اهتدوا لطريق الدلالة . زادهم هدىً . أي : بالمعونة والتوفيق للعمل الصالح وكراهية عمل الشر ، إذن : هناك هداية للدلالة ، وهداية للتوفيق والمعونة . وهل تعين إلا مَنْ أطاعك وآمن بك ؟

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً برجل المرور الذي يقف على مفترق الطرق ، وتحتاج إلى أنْ تسأله عن الطريق الذي تقصده ، يقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ شكرته على صنيعه وتوجهتَ إلى الطريق الذي دلَّك عليه زادك إرشاداً وبيَّن لك ما في الطريق من عقبات أو مصاعب . وربما صحبك حتى تمرَّ من هذه الصعاب .

فأنت سألته فدلَّكَ فاتبعْتَ دلالته وشكرته فقال : أنت أهلٌ لمعونتي وإرشادي ، أما إنْ خالفتَ رأيه وسرْتَ في طريق آخر غير طريق دلالته فلا بُدَّ أنْ يتخلى عنك ، وأنْ يدعكَ وشأنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يدل الجميع على طريق الخير ، كل الخلق دلَّهم الله ، فمَنْ أطاع في هداية الدلالة كان أهلاً للزيادة ، وأهلاً لهداية المعونة والتوفيق ، ومَنْ عصى وخالف في هداية الدلالة لم يكُنْ أهلاً لهداية المعونة .

كذلك كان شأن ثمود ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧) ﴾ [فصلت] هداية دلالة ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت] أي : استحبُّوا العمى

عن فعل الخير ، لأنهم ارتاحوا للمخالفة وأرادوا الخروج من قيود التكاليف الشرعية ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام وهم يعلمون ما هى ، وصنعوها بأيديهم ؟

عبدوها لأن فى عبادتها إرضاءً للنفس بأنْ يكون لها إله تعبده ، وما أجملَ أنْ يكون هذا الإله بلا تكاليف وبلا منهج بافعل ولا تفعل ، إذن : مشقة تكاليف الطاعة وحلاوة إتيان المعصية تأتى من التكليف ، فإن وُجدَ إله بلا تكاليف مالتْ إليه النفس وأحبته ، لأن ذلك يُرضى غريزة الفطرة الإيمانية فى الإنسان ، وهو أن كلَّ إنسان آمن بالعهد الأول فى مرحلة الذر ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فبضعة الإيمان فى كل إنسان موجودة فيه من عهد الذر ، ولكن يختلف الناسُ فى قبول التكاليف والمنهج ، فمن الناس مَنْ يرى فى المنهج قيْداً لشهواته ، فلا يرتاح إليه ويسعى إلى التديّن الخالى من التكليف كهؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى ، ومن الناس مَنْ يحب الهداية والطاعة ويرتاح إلى المنهج ويأنس به .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت] استحبَّ غير أحب . استحبَّ يعنى : تكلّف حبه ، وهذا دليل أنه شىء لا يُحبّ أصلاً وطبيعة ، لكنه تكلف حبه ليحقق مراده من الشهوة ، ولك أنْ تنظر إلى أىِّ سيئة نهاك الله عنها وهَبْهَا أنها واقعة عليك ، هل تحبها ؟ لا تحبها ، إذن : هى لا تُحَبُّ .

وفى موضع آخر ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن المؤمنين قال عنهم :

﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥) ﴾ [البقرة] وعلى تدل على الاستعلاء ، فكأنهم مستوون على الهدى ، وكأنه دابة يركبونها

توصلهم إلى غايتهم ، فالهدى لم يأت ليشق عليكم ، إنما جاء ليحملكم ويوصلكم إلى غاية الخير ، فالمؤمنون على الهدى فوقه يوصلهم ، ليس الهدى فوقهم يشق عليهم أو يكلفهم ما لا يطيقون ، فالهدى إذن خدمة لكم وفى مصلحتكم .

وحين تتتبع لفظة (على) فى القرآن الكريم تجدها لا بدَّ أنْ تعطي الحكم من باب القوة والفضل ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧ ﴾ [الإنسان] بعض المفسرين[1] قال : على حبه يعنى : مع حبه فجعل على بمعنى مع ، وهذا مخالف للصواب ؛ لأن الإنسان لا يحب الطعام إلا إذا كان جائعاً ، أما الشبعان فلا يلتفت للطعام .

فالمعنى : ويُطعمون الطعام رغم أنهم فى حاجة إليه ، فكأن الجوع يطلب أنْ تأكل لكن حبّ الخير والصدقة يعلو عندك على الجوع وحب الطعام ، لماذا ؟ لأنك قدَّرْتَ الجزاء الأوفى عليه ، وما دُمْتَ قدَّرت الجزاء الأوفى على إطعام الطعام ، فقد غلَبتَ حبك للطعام وعلوت عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] .. ⑨ ﴾ [الحشر]

كذلك في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ .. ㊴ ﴾ [إبراهيم] (على) هنا لا تعنى وهب لى مع أنّى كبير

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٤) : « قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ⑧ ﴾ [الإنسان] قيل : على حب الله تعالى ، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام . أى : ويطعمون الطعام فى محال محبتهم وشهوتهم له . قاله مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ⑰⑦ ﴾ [البقرة] .

(٢) خصاصة : فقر واحتياج . والخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . [لسان العرب - مادة : خصص] .

لا أصلح للإنجاب ، إنما المعنى : وهب لى على الكبرَ ، فكأن الكبر ضعف يقتضى عدم الإنجاب ، ولكن هبة الله وفضله علا على الضعف وعلا على الكبر كما جعل زكريا ينجب يحى عليهما السلام !!

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فكأن الظلم كان يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله علَتْ على الظلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) ﴾ [فصلت] الصاعقة قلنا : هى كلُّ ما يصعق ويدمر ، سواء كان بالريح أو النار ، أو الصيحة المدمرة ، والعذاب الهون أى : المصحوب بالإهانة والخزى ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) ﴾ [فصلت] يعنى : وقع لهم هذا بسبب ما كسبوا ، وما اقترفته أيديهم . يعنى : جزاءً وفاقاً ، لا ظلماً وعدواناً .

﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (١٨) ﴾

كثيراً ما نجد أسلوب القرآن الكريم يجمع بين الشىء ونقيضه ليبرز المعنى وبضدها تتميز الأشياء ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار] هذه مقابلة يوضح فيها كلّ معنى المعنى المقابل ، كذلك هنا بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن بعض المكذِّبين المعاندين أردف ذلك بالكلام عن المؤمنين المتقين ، وما آلوا إليه من الفوز والنجاة ، فقال سبحانه : ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) ﴾ [فصلت]

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١) ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

الحشر : يعنى جمع المختلفين ، والمختلفون كان فيهم التابع والمتبوع ، ضالِّين ومضلين ، لا بدَّ أنْ يجمعهم الله جميعاً في وقت واحد يتقدمهم الزعماء ورؤوس الكفر .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] يعنى : نأتى بالفتوات ونقدمهم إلى النار قبل الضعفاء ، وكأن الله يقول لهم : هؤلاء قادتكم يسبقونكم إلى النار ، يعنى : لا أملَ لكم في النجاة ، حتى الوحوش يجمعها الله ويجمع المختلفين منها .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [التكوير] والوحوش هى الحيوانات غير المستأنسة كالأسد والنمر وغيره ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يقول لنا : أنا الذى أذلل لك الخلق ، ولولا أننى ذللته لك ما استطعتَ أنت تذليله ، نعم ذلَّل لك الجمل رغم حجمه الكبير ، لكن لم يذلل لك الثعبان الصغير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس]

والله لولا أن الله ذلَّل لنا هذه المخلوقات ما انتفعنا منها بشىء ، لذلك نقول على غير المذلل : حيوان متوحش ، ألاَ ترى الطفل والولد

---

(١) يُوزعون : يُجمعون فى مكان واحد ويحبسون عليه ويمنعون من التفرق . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] بتصرف . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : وزع] ، أى : يُحبس أولهم على آخرهم .

الصغير يقود الجمل الكبير ويحمله ويُنيخه ويُسيِّره حيث يريد ، وأنت يزعجك البرغوث الصغير فى الفراش ويمنعك النوم ، إنها رسالة من الخالق سبحانه بأن الأمر أمرُ تذليل من الله .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [فصلت] فى الدنيا الوحوش تفر من الإنسان ، ونحن نفرٌّ من الوحوش ، أما فى القيامة فيجمع الله الجميع معاً فى موقف واحد ، كيف ؟ لأنه لم يَعُدْ لأحد منا قوة تصرُّف ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر] فلما صار الملك لله لم يَبْقَ فينا نحن المخلوقين تفاوت قوة تستضعف .

وقوله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : يُساقون ويُقادون جميعاً إلى النار من أولهم إلى آخرهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت]

الله .. السمع وظيفة الأذن ، والإبصار وظيفة العين ، والأنف للشم ، والكف للمس ، فكل جارحة من جوارح الإنسان لها مهمة فى حياته ، لكن لم يذكر الحق منها هنا إلا ثلاثة فقط : السمع ، والأبصار والجلود . ولم يذكر اليد ولا الأنف .

قالوا : لأن التكليف فى أمر الأنف نادر وقليل ، كأنْ تشمّ رائحة الخمر مثلاً ، والعياذ بالله ، أو تشم رائحة امرأة متعطرة ، إذن : فالأنف دوره محدود ، أما السمع فهو أهم الحواس ، لأنك تستقبل به الدعوة إلى الله ، والبصر هو الذى تبصر به آيات الله فى كونه وعجائبه فى خَلْقه .

أما الجلود فعامة فى السمع والبصر وفى كل الحواس ، فكأن الجلد أعمّ شيء فى الحس ، ولذلك لما بحثوا فى وظائف الأعضاء

ليعرفوا مهمة كل عضو فى الإنسان وجدوا أهمها الجلد ، لأنه وسيلة الإحساس بالألم خاصة فى الطبقة الخارجية منه ، ألاَ ترى أنك مثلاً حين تأخذ حقنة تشعر بألم الإبرة حين تدخل جسمك وتخترق الجلد ، تؤلمك بقدر نفاذها فى الجلد كأنَّ الجلد هو محلُّ الإذاقة ، وما دام هو محل الإذاقة فهو إذن مستوعب لجميع الحواس .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] إذن : فالجلد محلّ إذاقة العذاب والعياذ بالله ، وهو المستوعب لكلِّ الحواس .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾

هم يتعجبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهى منهم ، والسؤال هنا كان ينبغى أنْ يكون عن الكيفية : كيف شهدتم علينا لا عن السبب ، فالسؤال بهذه الصيغة غير وارد ليدل هذا على التضارب فى الكلام .

وكان الجواب ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] فالسؤال عن شيء والجواب عن شيء آخر ، فلو أجابوا عن السؤال : لم شهدتم علينا ؟ لقالوا : شهدنا عليكم لأننا أقوى حارس عليك فى جميع الأوقات ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] يعنى : الأمر ليس بملكنا ، نحن لم نشهد من عندنا ، إنما أنطقنا الحقُّ بالحق ، ولا حيلةَ لنا فى هذا .

ومعنى ﴿الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] أن كل شيء في الوجود له لغة خاصة به ، لغة يتكلم بها ، لغة تدل وتُفهم ، كما رأينا في قصة سيدنا سليمان لما تكلمتْ نملة وحذَّرتْ قومها ، وقالت : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل]

ودَلّ قول النملة على أن للنمل لغة يتفاهمون بها ، ودلَّ على يقظتها وعلى عدالتها في الحكم حين قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل]

كذلك حديث الهدهد في نفس القصة حين قال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل] ثم يتكلم بكلام في صُلْب العقيدة ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤)﴾ [النمل] فالهدهد ليس مجرد متكلم بلغة ، إنما فاهم لأهمّ قضايا الإيمان ومسائل التوحيد .

إذن : لكل شيء لغة ، لكن لا يعرفها إلا مَنْ علَّمه الله وأطلعه على هذه اللغة ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، لذلك قال سيدنا سليمان ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾ [النمل] ولولا أن الله علّمه ما فهم عن الهدهد .

كذلك في الجماد له لغة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨)﴾ [ص]

لذلك يقول تعالى في إجمال هذه المسألة : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

وورد أن الحصى سبَّح[1] في يد رسول الله ﷺ على أن هذه معجزة من معجزاته ﷺ ، وقلنا في تصويب هذه المسألة : أن الحصى مُسبِّح في يد رسول الله كما هو مُسبِّح في يد أبي جهل ، فالصواب والمعجز أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده ، هكذا يكون الكلام .

بعض العلماء يقول عن هذا التسبيح أنه تسبيحُ دلالة على خالقها لا تسبيحٌ على الحقيقة ، وهذا كلام مخالف لنصٍّ القرآن الكريم لأنه لو كان تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته والله يقول : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] إذن : فهو تسبيح على الحقيقة ، تسبيح بلغة لا يعلمها إلا خالقها ، أو مَنْ علَّمه الله واختصَّه بمزيد من فضله .

والعجيب في مسألة الهدهد أنه ذكر سبباً واحداً لوجوب الإيمان بالله وتوحيده تعالى ، فقال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل] فذكر الأمر الخاص به وهو إخراج خبأ الأرض ، ومعلوم أن للهدهد منقاراً طويلاً ، يُخرج به الدود من تحت سطح التربة ويتغذى عليه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت] يعني : لا تظنوا أن الله خلقكم وترككم هملاً ، إنما خلقكم لغاية ولا بدّ

---

(١) أورده الأصبهاني في دلائل النبوة (١/٤٧) فصل في تسبيح الحصى في يده . عن أبي ذر أن أبا بكر وعمر وعثمان اجتمعوا عند رسول الله في خلوة فتناول النبي سبع أو تسع حصيات فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن .

لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديه يحاسبكم على النقير[1] والقطمير[2] ، والقليل والكثير ، ويجازيكم بأعمالكم فلن تنفلتوا منه سبحانه ، ستقفون بين يديه للحساب يُعدِّد عليكم نعمه ، ويرى مَنْ شكرها ومَنْ كفرها .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعنى : لقد فاتكم شيء هام ما تنبهتم إليه ، وهو أنكم كنتم تستترون عن الخَلْق أنْ يراك أحد حال المعصية ، ونسيتم أن الله مُطَّلع عليكم يراكم ويرقب أفعالكم وما كنتم تستترون عن أنفسكم وجوارحكم ، وغاب عنكم أن الجوارح شاهدة عليكم يوم القيامة .

فاليد التى ضربتَ بها ، والرِّجْل التى سعيتَ بها ، واللسان والأذن والعين ، كل الجوارح ستأتى شاهدة عليك يوم القيامة ، هذه الجوارح التى أمرها الله أنْ تنفعل لمراداتك فى الدنيا وتطيعك فى كل ما تريد ستتحرر من هذا القيد يوم القيامة ، فلا يكون لك سلطان عليها ، ساعتها ستشهد عليك .

---

(١) النقير : نقطة غائرة فى ظهر النواة منها تنبت النخلة . ويضرب مثلاً للتعليل . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [النساء] أى : لا يعطون أحداً جزءاً ضئيلاً من النواة وهذه كناية عن شدة البخل والحرص على المال . [القاموس القويم ٢/٢٨٢] .

(٢) القطمير : القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، ويُضرب بها المثل فى القلة ، قال تعالى : ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] من شيء قليل لا قيمة له .

فإنْ أطاعتك في المعاصي في الدنيا ، لأن الله سخرها لك فقد أطاعتك وهي كارهة لفعلك بريئة منه ، أما وقد عاد الجميع إلى الله ، وصار الملْك كله لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⦗١٦⦘﴾ [غافر] فلا عجبَ إذن أنْ تشهد عليكم جوارحكم ، وأنْ تكون خصماً لكم أمام خالقها عز وجل .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بقائد الكتيبة في الجيش يأمر جنوده فيأتمرون بأمره ينفذون الأوامر حتى لو كانت خاطئة ، حتى إذا ما جاءوا إلى القائد الأعلى شكَوْا إليه تعسُّف القائد المباشر ، وقالوا : فعل بنا كذا وكذا .

كذلك جوارح الإنسان أمرها الله أنْ تطيعه حتى في المعصية ، وأنْ تنفعل لمراداته ، فجوارحك تطيعك في كل شيء تريده ، في الخير وفي الشر

وقوله : ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ⦗٢٢⦘﴾ [فصلت] الحق سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : « يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم »[1] إذا كنتَ لا تستطيع أنْ تفعل في إنسان مثلك عملاً يسوؤه على مرأى ومسمع منه عيني عينك هكذا ، فكيف تفعلها مع الله عز وجل ؟

---

(١) بالبحث في كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين حيث جاء في كتاب (حلية الأولياء) (٨/١٤٢) قال رجل لوهيب بن الورد : عظني . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء في كتاب جامع العلوم والحكم (١/٣٦) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ﴾ [فصلت] أى : أفعالكم التى فعلتموها ﴿ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : ظننتم أنه سبحانه لا يعلم ما تفعلون ﴿ أَرْدَاكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : أهلككم هذا الظن ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟(١) فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : فإنْ يصبروا على ما هم عليه ويصروا على الكفران والجدل مع الرسل ، ماذا يحدث ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] أمر من اثنين . الإنسان حين يخالف أوامر خالقه ويأتيه رسول يقول له ، لا تفعل فإنْ كفَّ فهو خير له ، وإنْ أصرَّ وتمادى فالنار مثوىً له .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] يستعتبوا يطلبون العتبى . يقال : عتب فلان على فلان . يعنى : لامه على أمر ما كان يصح أنْ يكون منه ، يقول : مثلاً أنا مرضتُ فلم تزرنى ، هذا عتاب ، فيقول : معذرة فقد كنت مشغولاً بكذا وكذا فساعة يُبيِّن له العذر فقد أعتبه يعنى أزال عتبه ، وهذا لا يكون لهم فى الآخرة

---

(١) استعتبته فأعتبنى أى : استرضيته فأرضانى . واستعتب فلان : إذا طلب أن يُعتب أى يُرضى . [لسان العرب مادة : عتب] .

فإن طلبوا العتاب لم يعتبوا .

لذلك جاء فى حديث الرسول ﷺ وهو عائد من الطائف بعد أن آذاه قومها ، قال فيما قال ﷺ وهو يناجى ربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[1] يعنى : إنْ كان بدر منى شىء يغضبك فأنا أزيله وأعترف أننى ضعيفٌ أطلب قبول العتاب .

لذلك قال الشاعر[2] :

أمَّا العتَابُ فَبالأحبَّةِ أخْلَقُ والحُبُّ يصلُح بالعتَابِ ويصْدُقُ[3]

إذن : أنت لا تعاتب إلا إذا كنتَ محباً لمن تعاتبه ، حريصاً على علاقتك به . نقول : عتبت عليه فأعتبنى يعنى : أزال عَتْبى ، أما هؤلاء فى الآخرة فلن يقبل اللهُ منهم عتاباً ولن يزيل عتبهم . والهمزة فى أعتب تسمَّى همزة الإزالة ، والإزالة تكون بالهمزة أو بالتضعيف تقول : مرَّضتُ فلاناً يعنى : أزلتُ مرضه . وقشرتُ الفاكهة يعنى : أزلتُ قشرتها .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/٤١٥) .

(٢) الشاعر هو : أحمد شوقى أمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة عام ١٩٣٢ م ، نشأ فى ظل البيت المالك بمصر ، أرسله الخديوى توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسا ، نظم شعراً فى المديح والغزل والرثاء والوصف . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت لأحمد شوقى من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً .

معنى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] يعنى : أعددنا لهم وهيّأنا لهم ﴿ قُرَنَاءَ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] أصحاباً يلازمونهم ، وأصل المقايضة فى البيع والشراء كأنْ تدفع الثمن وتأخذ السلعة ؛ لأن الله تعالى يريد للعبد أنْ يسير على طريق الخير الذى رسمه الله له ، وطريق الخير المرسوم لك من الله يريد منه أنْ يؤكد صدقك فى التوجه إليه ، فيأتى بقرناء يعترضون طريقك ويحاولون صَرْفك عنه .

فإنْ أطعتَ هؤلاء القرناء ملْتَ معهم وضللتَ طريقك الذى اختاره الله لك ، وإنْ عصيتهم فقد نجوْتَ وخابت معك حيل الشيطان الذى يُزِّين لك سواء من شياطين الإنس أو من شياطين الجن .

فكأن الشيطان ما جاء إلا ليختبر إيمان المؤمن فهو يُوسوس للجميع ، ويُزيِّن الشر للجميع ، لكن قويّ الإيمان يقف أمام هذه الوسوسة ويعرف مصدرها فلا يطيع ، أما ضعيف الإيمان فينقاد ويقع فى المخالفة ، ولولا وجود الشيطان لكان الإيمانُ رتابةً لا معارضَ لها ، لكن وُجِد المعارض ، ومع ذلك ثبت أهل الإيمان على إيمانهم .

قوله : ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] ما بين أيديهم : الموجود الحالى من الشهوات . وما خلفهم : أى : ما ينتظرهم من أمر القيامة والحساب ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) ﴾ [فصلت]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾

تميَّز العربُ قديماً بملكة عربية تتذوَّق اللغة وتجيد أساليبها وفنونها ، بدليل أنهم جعلوا للكلمة مؤتمرات وأسواقاً ، ففى حين كانت البلاد الأخرى تقيم المعارض والأسواق لترويج بضاعتهم ، لم يكُنْ عند العرب بضاعة غير الكلام والفصاحة ، فجعلوا لها سوقاً ينشد فيها أجود أشعارهم ثم يختارون أفضله ، ويُعلقونه على أستار الكعبة ، وهو أشرف مكان على الأرض ، وهذا أمر لم يحدث فى أى أمة أخرى .

لذلك اختار الحق سبحانه أمة العرب لتتلقى منهجه ، وتبلغ دعوته سبحانه إلى خَلْقه ونزل عليها القرآن لأنها الأمة الوحيدة التى تتفهم لغته وتتذوقها .

إذن : جاء القرآن على أمة لها نبوغٌ فى اللغة والبيان لتكون مجالاً للتحدى ، وحين تعجز أمام تحدِّى القرآن فعَجْز غيرها من باب أَوْلَى ، وأيضاً فلم يجعل الله لهم تقدُّماً فى شىء غير تقدمهم اللغوى والبيانى ؛ لأن مفتاح الدين ومعجزة الرسالة ستكون هى القرآن .

ولو كانت هذه الأمة أمةَ تقدُّم وحضارة فى أىِّ مجال من المجالات غير اللغة لقالوا عن الإسلام ثورة حضارية ، لا ليست أمة حضارية بل أمة أمية ورسولها أيضاً أُمِّى .

ومن هنا كانت الأمية ميْزةً وشرفاً لرسول الله ، لكنها ليستْ شرفاً فينا نحن لأنَّ أمية رسول الله تعنى أنه لم تدخل عليه معلومة من البشر ، وإنما كلّ معلوماته من الله ، فمَنْ إذن ربَّاهُ ، ومَنْ أدَّبه ، ومَنْ علَّمه ؟ الله .

فإذا كانت الأمة أُميّة ، ورسولها أمياً ، فهذا دليلٌ على أن كلَّ منافذ الخير فى هذه الأمة ليستْ من عند البشر .

وأيضاً تميزتْ هذه الأمة بأنها أمة ليس لها وطن ، فالعربى موطنه خيمته يضعها حيث وُجد الماء والعشب ويحملها على بعيره إلى أىِّ مكان آخر حين يجفّ الماء أو ينتهى الكلأ ، ليس له وطن ولا بناء يعزّ عليه أن يفارقه ، فبيته على ظهر جمله ، لذلك قال تعالى :
﴿مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. (٨٠)﴾ [النحل]

شىء آخر ، وهو الأهمّ أن العرب كانوا دائماً فى محلّ قتال ، وتظل الحربُ دائرةً بين القبائل إلى أربعين سنة ، هذه الحروب جعلتهم كلهم أهل خبرة فى فنون الحروب والقتال ؛ لذلك ساعة احتاج رسولُ الله إلى جنود لنشر دعوته لم يُدرِّب أحداً على القتال ، إنما وجد جنوداً جاهزين على أُهْبة الاستعداد للقتال ، لذلك لم يكُنْ هناك مدارس حربية ولا معسكرات للتدريب .

فإذا أخذنا ذى الاعتبار أن العربى لم يكُنْ له وطن يرتبط به ، وأنه ذو قدرة وكفاءة فى فنون القتال ، علماً أنه من السهل تكوين الجيش ، ومن اسهل إرسال جماعة هنا وجماعة هناك يحملون راية الإسلام ، وقد أرسلهم رسول الله بالفعل إلى فارس وإلى الروم وإلى الحبشة .. إلخ فسَهُلَ ذلك عليهم .

لذلك لم يكُنْ لرسول الله جيشٌ مُعَدٌّ وموقوف للقتال ، لأنه ليس فى حاجة إلى هذا الجيش ، فإنْ أراد القتال نادى فقط (حىَّ على الجهاد) فيجتمع عليه الصحابة خاصة الشباب منهم يتسابقون إلى الخروج مع رسول الله ، لدرجة أن رسول الله كان يختار منهم فيقول : هذا يخرج وهذا لا يخرج ، فكان الذى لا يقع عليه اختيار

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى المسافرة . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

رسول الله يغضب وربما بكى لأنه لم يخرج للجهاد مع رسول الله .

إذن : تميَّزَتْ هذه الأمة بعدة خصال أهَّلتْهَا لأنْ تكون محلاً لمنهج الله وتبليغ رسالته ، **أولاً** : كانت أمة بلاغة وفصاحة . **ثانياً** : كانت أمة ترحال لا توطن لهم . **الثالث** : أنهم كانوا على دراية بفنون الحرب والقتال ولم يحتاجوا إلى تدريب فى معسكرات ، بل كانوا على استعداد تام ، كلما سمعوا هَيْعة طاروا إليها ، وبذلك كانوا بطبيعتهم مُعدِّين لحَمْل هذه المهمة .

قوله تعالى حكاية عن كفار قريش : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] جاء نتيجة تمكُّن العربى من اللغة ، وتذوّقه لها ، وفَهْمه لمعانيها ، فلو تركوا القوم يستمعون لمحمد وهو يقرأ القرآن لا بدَّ أنْ يتأثروا به ، ولا بدَّ أنْ يميلوا وينجذبوا إليه ، فما الحل ؟

الحل عندهم ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] لأنهم علموا علمَ اليقين أنهم لو سمعوا لأخذهم القرآن بجمال أسلوبه ، وجلال معانيه ، وقوة أدائه ، ولو كانوا يعلمون خلافَ ذلك ما نَهَوْا قومهم عن سماعه .

ولم يقف الأمر عند النهى عن السماع ، بل وشوَّشوا عليه حين يقرأ ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] إذن وسيلة الغلبة ألاَّ تسمعوا للقرآن ، وأنْ تُشوِّشوا عليه حين يقرأ حتى لا تُعْطوا فرصة لمَنْ يسمع أن يتدبر وقولهم ﴿لَعَلَّكُمْ .. ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] يعنى : احتمال تكُون لكم الغلبة ، إنْ فعلتم ذلك فهو أمر غير مؤكد عندهم .

والدليل على ذلك أنهم آمنوا ببلاغة القرآن وإعجاز القرآن ، وآخر

المطاف لما ضاقتْ بهم الحيَل قالوا عن رسول الله ﷺ إنه مجنون وردَّ الله عليهم ، فقال لرسوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] وهل للمجنون خلق ، وخلق عظيم ؟

قالوا ذلك وهم يعلمون صدق رسول الله وأمانته وحُسْن سيرته فيهم ، فقالوا : ساحر والرد على هذا سهل ، فلو أن محمداً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم كما سحرهم ، وتنتهى المسألة ؟ وقال : شاعر وكذبوا أيضاً ، لأنهم أمة كلام وبيانٍ ، ويعلمون جيداً ما الشعر ، وما جرَّبوا على محمد شيئاً من هذا .

وفى نهاية الأمر اعترفوا بصدق القرآن وبلاغته وإعجازه ، لكن اعترضوا على أنْ ينزل على محمد بالذات ، فقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فالآفة ليستْ فى القرآن ، فالقرآن لا غبار عليه ، الآفة فى نزوله على محمد وهو فقير من عامة القوم ، ليس سيِّداً من ساداتهم من عتبة وشيبة وغيرهما ، وبذلك أقروا وشهدوا للقرآن بأنه كتاب كامل يستوعب كلَّ وجوه الخير وكمالات الخلْق اللازمة لصلاح الدنيا والآخرة ، فاعتراضهم إذن على شخص رسول الله لا على القرآن .

لكنهم لم ينتبهوا إلى أنَّ شهادتهم للقرآن وإقرارهم بإعجازه أوْلى عند رسول الله من شهادتكم له هو ؛ لأن الذين آمنوا بالله وآمنوا بوحى الله كانوا أقربَ لرسول الله ممَّنْ أنكروه .

فالرومان لم يُصدِّقوا محمداً ، لكنهم يؤمنون بكتاب ويؤمنون بوحى وبرسل ، وفارس لم يكُنْ عندها هذا الإيمان الذى عند الرومان ، فكانت قلوبُ رسول الله والمؤمنين تميل إلى الرومان ،

لأنهم أهلُ كتاب ويؤمنون بالله ؛ لأن عصبية رسول الله لربه فوق عصبيته لنفسه ، ألاَ ترى أن المسلمين حزنوا لما غُلِبَتْ الروم وفرحوا لما انتصروا بعد ذلك ؟

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لم يترك عذابَ الذنوب إلى الآخرة حتى لا يستشرى أهلُ الباطل فى باطلهم ، لكن يُعجِّل الله لأهل الباطل لوناً من العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وعذاب الآخرة أشد ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعنى ما سبق ذكره من العذاب ، والجحود هو الإنكار الشديد ، فالذين كفروا حينما وقفوا موقفهم من الإسلام ، وتبيَّن لهم كذب مَنْ دعوهم إلى الضلال وأضلوهم أصبح لهم ثأر ليس عند المؤمنين ، إنما عند الكافرين الذين أضلوهم وأبعدوهم عن الإيمان ؛ لذلك يوم القيامة يبحثون عنهم لينتقموا منهم ، وليجعلوهم تحت أقدامهم ، وتقوم معركة وجدال بين الفريقين التابعين والمتبوعين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى أكثر من موضع من القرآن يُصوِّر لنا هذه المعركة الكلامية التى تدور بين الضالِّين والمضلِّين ، وكيف أن كلَّ واحد منهما يُلْقى باللائمة على الآخر ويتنصل هو من المسئولية .

لذلك إبليس سيغلب مَن اتبعه فى الضلال ، وستكون له الحجة الأقوى ، كما قال تعالى حكايةً عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا سلطانَ حجة تقنعكم ، ولا سلطانَ قوة تُرغمكم على الفعل ، وعجيبٌ أن يقول الكافرون هنا فى موقف القيامة ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] الآن يقولون ربنا ، ويعترفون له سبحانه بالربوبية ، ومعنى ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نعذبهم نحن أولاً قبل أنْ تعذبهم أنت يا رب . وقولهم ﴿ تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : عذاب إهانة لا عذابَ إيلام .

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

ثم يقول سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قالوا : ربنا الله ، هناك لَفْظَا رب وإله . ولكل لفظ منهما مجالٌ ومعنىً : فالربُّ هو الذى يُربِّى ويخلق ويتعهَّدنا بالنعم والأفضال ، ومنه قولنا : نربيه . يعنى : نعطيه ما يُؤهله لمهمته ، فالله ربٌّ خلق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وظل يأخذنا بحنان يُوضع لبعضنا فى بعض ، إلى أنْ نقوى ويشتد ساعدنا ، ثم يكلفنا بعد ذلك تكليف الألوهية .

إذن : فعطاء الربوبية عطاء عام يعمُّ المؤمنَ والكافرَ ، والطائعَ والعاصى . فالله رَبُّ الجميع وَسِع فضله كلَّ خَلْقه ، خلقك وخلق لك مقومات حياتك قبل أنْ يخلقك ، وجعل لك عقلاً تُميِّز به وتختار بين البدائل ، فإنْ أحسنتَ التصرف بعقلك فيما أعطاك من مقومات تأخذ ثمرتها ، وإنْ لم تحسن فأنت الخاسر ، إذن : عطاء الربوبية للجميع ، والأسباب مُتاحة للجميع تعطى مَنْ يستحق العطاء حتى لو كان كافراً .

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد ﷺ عبده ورسوله . فاستقام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٢٣) .

ولذلك تجد فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] إذن : طلب الرزق فقط لمَنْ آمن ، فصحَّح اللهُ له هذه المعلومة ، وقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] لأن رزقى لكل خَلْقى ، سواء آمن أو لم يؤمن لأنه خَلْقى وصنعتى ، وأنا الذى استدعيتُه للوجود ، فعلىَّ رزقه وعلىَّ مقومات حياته ، هذا عطاء الربوبية .

وسيدنا إبراهيم طرق بابه ليلاً طارقٌ يريد أنْ يبيتَ عنده ، فسأله أولاً عن دينه ، فعلم أنه غير مؤمن ، فأغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وعاتب الله نبيه إبراهيم ، وقال له : يا إبراهيم وسعتُه فى مُلْكى ولم أقطع عنه رزقى مع كفره بى ، وأنت تريد أنْ تغير دينه فى ليلة تستضيفه فيها ؟

فأسرع سيدنا إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به وأخذه فى ضيافته فتعجب الرجل وقال : لقد جئتك فرددتنى . فقال له : لكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : أعاتبكَ ربك فى شأنى ؟ قال : نعم ، قال : فنعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أنبياءه فى أعدائه ، ثم قال : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

لذلك كثيراً ما نتعجَّب من عطاء الله الواسع لغير المؤمنين ، وأن فى أيديهم كلَّ نعيم الدنيا وزخرفها فى حين يُحرم منها المؤمن ، ولا عجبَ فى ذلك لأن هذا عطاءُ الربوبية ، وهؤلاء أحسنوا استغلالَ الأسباب فأعطتْهم ، ولو أحسنتم أنتم كذلك لأعطتكُمُ الأسباب .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ

﴿ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا .. (٣٥) ﴾ [الزخرف]

وتأمل ، ما المعارج ؟ هى المصاعد التى لم نعرفها نحن إلاَّ فى القرن العشرين ، أخبرنا القرآن بها قبل أربعة عشر قرناً ، هذه من معجزات القرآن التى ينثرها علينا من حين لآخر .

فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [فصلت] يعنى : اعترفوا له سبحانه بالربوبية ، وأقرُّوا أنه سبحانه هو الذى خلقنا وربَّانا وأعطانا وأنعم علينا ، ومن العجيب أنه لم يُكلِّفنا إلا بعد أنْ بلغنا أشدّنا ، يعنى : تركنى أربع فى الدنيا وأنعم بنعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلِّفنى بشىء ، لماذا ؟

لأنه لا يكلفك إلا بعد تمام تكوينك واكتمال قوتك ، لأنه لو كلفك قبل ذلك ثم طرأ عليك تغيير فى الخِلْقة وزيادة فى نمو بعض أعضائك لقلت له : يا رب لقد كلَّفتنى ثم حدث لى تغيير فى كذا وكذا ، ولم أعُدْ صالحاً لهذا التكليف .

ومتى تبلغ أشدّك ؟ قالوا : حين تكون صالحاً لإنجاب مثلك ، عندها يكون اكتمال الخَلْق وتمام الرجولة ، ونحن نلاحظ هذا فى الثمار ، فالثمرة الناضجة تعطى بذرة ناضجة لو وُضعَتْ فى الأرض لأنبتتْ شجرة ، خُذْ مثلاً بطيخة قبل نضوجها تجد لُبَّها أبيض وطعمها مائعاً ، لماذا ؟ لأنها لم تنضج بَعْد ولو زُرعت بذرتها لم تنبت .

فكأن الله يحرس الثمرة حتى تنضج البذرة ، وتصير صالحة لإنبات شجرة جديدة ، هذا نُسَميه استبقاء النوع ، وإلا لانقرضَ النوعُ ولو نضجتْ البطيخة وحَلاَ طعمها قبل بذرها لأكلناها وما سألنا فى مسألة البذرة والإنبات من جديد ، ولَمَا كان هناك بقاءٌ للنوع .

ولذلك إذا غفلتَ عن الثمـرة حتى استوتْ على عُـودها ولم تقطفها وقعتْ لك هى على الأرض ، وكـأنها تقول لك : خُذْنى لأنهـا ستؤدى مهـمة اللـذة فـى الطعم لك ، ومهـمة إنبات شـجرة جـديدة من نفس النوع .

والخَلْق على نوعين : خَلْق أول ، وخَلْق ثَانٍ . **الأول** : خلق أصـول الأشياء . **والثانى** : خلق فروعـاً من أصول الأشـياء ؛ لذلك السـيدة مريم لمَّا قال لها يوسف النجار بعد أنْ ظهرت عليها علامات الحمل : يا مريم ، أتوجـد شجرة بلا بذرة ؟ قـالت : نعم الشجـرة التى أنبتتْ أول بذرة . هذا هو الخَلْق الأول كـخلق آدم عليـه السـلام خُلِق أولاً ، ومنه تناسل الناس .

إذن : التكليف لا يكون إلا بعـد سنِّ البلوغ واكـتـمال الرجـولة ، والذى يُكلِّـفنا هو الله ، فـالربُّ خلق ورزق وربَّى ، والله كلَّف وأمـر بالعبـادة ، فالله هو المعبـود يعنى : مُطاع فى أمره ونَهْيـه ، وقبل أنْ يكون مُطاعاً فى أمـره ونهْيه أعطاك عـطاءَ ربوبية ، فكأنه قدَّم الخـير لك أولاً قبل أنْ يأمرك بعبادته ، فلا أقلَّ من أنْ تقدم الخير بأنْ تطيع مَنْ رباك .

ولذلك جعل منزلة خاصة لـلأبوين ، وأوصى ببرِّهما ، وحذَّر من عقوقهما ، وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله أراد أنْ يروِّضك ويعلمك أنْ تحـترم مَنْ كـان سبـباً مـباشـراً فى وجودك ، ثم بعد ذلك ينقلك إلى احترام سبب وجودك غير المباشر ، وهو الله سبـحانه ؛ لذلـك قال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما يدربنا على عرفان الحق لله تعالى ، فالله أوجد الخَلْق الأول ، والوالدان أوجدا الخلق الثانى ، وجعل احترام سبب الإيجاد الثانى وسيلةً لاحترام سبب الإيجاد الأول .

إذن : نقول الربوبية عطاء ، والألوهية تكليف ، لكنه تكليف يعطيك أولاً لأنك فى الدنيا ، وعمر الدنيا هو مقدار وجودك أنت فيها ، ولا دخْلَ لك فى عمر الدنيا من لدُن آدم حتى قيام الساعة ، لأن هذا الزمن كله لا يعنيك وهذه محكومة من الله طولاً ، هذا يعيش عشرة أعوام ، وهذا خمسين ، وهذا مائة ، فَطُول الأجل لا دخلَ لأحد فيه .

فبعد أن ذكر الحق سبحانه لنا طرفاً من الأمم المكذبة المعاندة للرسل وما آل إليه أمرهم من العذاب ، يذكر سبحانه المقابل وهم أهل الإيمان والاستقامة على الجادة ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] قلنا : العمل قول وفعل . فالقول عمل اللسان ويقابله الفعل ، وهو عمل باقى الجوارح : فالرؤية للعين ، والسمع للأذن ، واللمس لليدين ، والسعى للقدمين .. الخ وكلٌّ من القول والفعل يُسمى عملاً .

فما عمل القلب ؟ القلب من الناحية المادية هو الوعاء المسئول عن ضخ الدم ، وهو سائل الحياة إلى باقى أجزاء الجسم ، وهو وعاء الإيمان والاعتقاد ، فإذا ما عمر باليقين والإيمان أشاع ذلك فى كل ذرة من ذرات الجسم ، لذلك نقول : عمل القلب الاعتقاد ، والعقيدة هى الشىء المعقود الذى لا يُحلُّ ، الشىء الذى استقر فى القلب فلا يخرج ليناقشه العقل من جديد .

قنا : إن الفكرة تُعرض أولاً على العقل ليبحثها ويناقشها ، فإن اطمأن إليها ألقاها إلى القلب لتستقرّ فيه عقيدة راسخة ، فالقلب إذن لا يستقبل إلا عقائدَ ثابتة ، وهذه العقائد هي التي ستكون مبدأ لك في حركات حياتك .

ومن هنا نعلم أهمية دور اللسان وخطورته ، فله نصف العمل ، ولباقي الجوارح النصف الآخر ، ثم هو المعبِّر عنك المفصح عَمَّا بداخلك ، والجوارح كلها ينبغي أنْ تتفاعل مع الكون تفاعلاً إيجابياً ، فالأذن تسمع ، والعين ترى ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، فالجوارح تعطيني مادة الفكر وبها يصل المؤمن إلى آيات الله في الكون ، بها يُعرف النافع ويُعرف الضار فيأخذ منها النافع ويبتعد عن الضار ، فالأذن تسمع كل شيء ، وعليك أن توجهها لسماع الخير وتبتعد بها عن سماع الشر ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان]

والعين تنظر بها إلى بديع صُنْع الله في كونه ، وتغضُّها عن محارمه ، وها هو الكون أمامك كتاب مفتوح ، وما عليك إلا أن تقرأ ما فيه من آيات ومعجزات ، والسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأجرام ومجرَّات كلها تَسير بنظام دقيق محكم ، والأرض وما فيها من عناصر وما تنبته لنا من خيرات .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن هذه الخيرات ويمتنُّ علينا بهذه النِّعم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على زوالها ونقضها ، وكيف أنه لو شاء سبحانه لحرمنا ، بل ولحوَّل لنا هذه النعم إلى نقم والعياذ بالله ، لذلك لنا وقفة مع قوله سبحانه عن الزرع : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] نعم نحن نحرث ونروي ونباشر ، لكن الإنبات بيد مَنْ ؟ ثم يُذكِّرنا سبحانه بقدرته على نقض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة]

ثم يُحدِّثنا عن نعمة الماء ، وكيف ينقضها : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ[1] أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[2] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة]

لكن حين يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نعمة النار يتركها دون أنْ يذكر ما ينقضها : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[3] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

هكذا دون أنْ يذكر ما ينقضها كسابقها ، لماذا ؟ قالوا : لأن هذه هى النار النافعة الصحية التى لا ضررَ فيها نوقدها لننتفع بها ، وكل نار بعدها لها ضرر ، لذلك لم يقل الحق سبحانه مثلاً : لو نشاء لجعلناها رماداً ، ذلك لتظل النار باقية تُذكِّرنا بنار الآخرة .

ثم لك أنْ تلحظ عظمة الأداء القرآني ودقته فى التعبير ، فلما تكلم عن الزرع قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا (٦٥) ﴾ [الواقعة] هكذا بلام التوكيد ، لماذا ؟ ليؤكد قدرته تعالى على الذهاب بالزرع مهما كان ، والزرع للإنسان دور فيه وتدخّل ، فهو يحرث ويروى ويباشر ، إنما حين تكلم عن خَلْق الإنسان وعن الماء لم يذكر فى ذلك توكيداً ؛ ذلك لأن مسألة الخلق ومسألة نزول الماء من السماء لا دخْلَ للإنسان فيها .

---

(١) المزن : جمع مُزْنة . وهى السحابة البيضاء . قاله الجوهرى فى الصحاح ، وقال ابن الأثير : المزن وهو الغيم والسحاب .

(٢) الأجاج : الشديد الملوحة . وقيل : المرارة ، وقيل : الشديد المرارة ، قاله ابن سيده فى (المحكم والمحيط الأعظم) مادة : أجج .

(٣) تورون : تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها . قاله ابن كثير فى تفسير الآية (الواقعة ٧٢) قال السمرقندى فى (بحر العلوم) : الزند خشبة يُحَكّ بعضه على بعض فيخرج منه النار .

والآيات فى كَوْنِ الله كثيرة صنَّفها العلماء إلى ثلاثة أقسام :

آيات كونية : تثبت قدرة الخالق سبحانه كالليل والنهار والشمس والقمر ، ثم آيات معجزات : صاحبتْ رسل الله لتثبتَ صدقه فى البلاغ عن الله ، وآخرها آيات الأحكام : وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله للناس . وهذه كلها تخدم قضية اليقين والإيمان بالله .

فإذا أُشْرِبَ الإنسان العقيدة الإيمانية أعلنها بلسانه فرحاً بها . وهنا يأتى دور اللسان المعبِّر عما فى القلب والقائد لباقى الجوارح ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم إلا وتنادى الجوارحُ اللسانَ تقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإذا استقمتَ استقمنا ، وإذا اعوججتَ اعوججنا »[1]

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] دلَّ على قَوْل المؤمنين الذى رسخ الإيمانُ فى قلوبهم ، فعبَّرت عنه الألسنة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] مُوجدنا ومربِّينا الذى خلقنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، وأعطانا الأمن والأمان ، لأنه القائل : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

فالإنسان إنْ أراد حارساً استأجر له حارساً ، فكيف به إذا نام حارسه ، أما أنت أيها المؤمن ففى حراسة الله فنَمْ مطمئن القلب ، لأن حارسك لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

فالمؤمن حين يباشر كل هذا النعيم ، وحين يرى مقومات حياته فى متناول يده من طعام وشراب ، وأمن وسلام ، هواء يتنفسه

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٩٦) ، والترمذى فى سننه (٢٤٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى ولفظه : « إذا أصبح ابن آدم فإن أعضاءه تُكفِّر اللسان تقول : اتق الله فينا ، فإنك إن استقمتَ استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وأرض تعطيـه كل ما يـشتـهى ، يفـرح بعطاء الله له ولا يملك إلا أنْ يقول (رَبُّنَا اللهُ) لأنها أصبحت عقيدة ثابتة فى القلب .

وما دام ربك الله ، فـلا تحزن ولا تهـتم لأمر الدنيـا فالله ُمـتولٍّى أمرك ، إنـك ترى الولد فى حيـاة أبيه لا يحـمل هَمَّ شىء ، ولا يفكر فى غلاء الأسعار ، ولا فى توفير القوت والسلع والملابس .. الخ لأن والده مـوجـود ، فـمـا بالك إنْ كـان الله هو الذى يتـولاك ؟ والله إن المؤمن الحق ليـستحى أنْ يحمـل همَّ الرزق أو العيش ، وهو يعلم أن ربه الله .

وما دام ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فـصلت] فـلا كـرْبَ وأنت رَبٌّ . ربك سيتولاك ، ويبعد عنك كل سوء ، ويكفيك كل ما أهمك .

تذكرون قصة سيدنا موسى عليـه السلام مع فرعون ، فلما اتبعه فرعون بجنوده ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشـعراء] هكذا يقول واقع الأحداث ، فـأمامهم البحر وخلفـهم جنود فرعون ولا مفرّ ، لكن ماذا قال مـوسى ؟ قال : (كلا) يعنى : لن يدركونا ولن ينالوا منا . قالها من رصيده الإيمانى وثقته فى ربه وحمايته له ، فما كان الله ليرسل رسولاً ثم يُسلمه لعدوه .

﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] لذلك جاءه الفرج من ربه في التو : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]

تأمل هنا حـراسـة الله لأوليـائه ، وتأمل هذه المـعـجـزة ، وهذه الربوبية ، فمـا أنْ قال موسى قولته بصـدق الإيمان إلا وجاءه الردُّ ، فسلب الله من الماء خاصية السيولة وتـجمد الماء فسار على الجانبين ، كل فِـرْق كالطود العـظيم ، وفى الوسط طريق جـاف يابس عبـر منه

موسى وجنوده .

حتى إذا ما وصل الشاطىء الآخر أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ويغلق الطريق فى وجه فرعون . فأرشده ربه وصحَّح له وجهة نظره فلله تدبير آخر ، والموقف لم ينته بعد ، فقال الله لموسى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

بعد أن نجَّى الله موسى وقومه وذهب بهم إلى الصحراء جعل لنفس العصا دوراً آخر : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ..(٦٠) ﴾ [البقرة] فالعصا واحدة يضرب بها الماء فيصير جبلاً ، ويضرب بها الجبل فيتفجر بالماء ، فالأثر مختلف لأن الفاعل هو الله القادر .

فقوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] تعطينا فكرة إجمالية عن عطاء الربوبية للمادة وللقيم ، فربُّك الذى أمدك بمقومات المادة ما كان ليتركك بدون مقومات الروح والقيم ، فكما أخذتَ نعَمه فى المطعم والمشرب والمسكن فخُذْ نعمه فى التكليف ، لأنه بالتكليف يربى فيك الروح والقيم .

وهنا ينبغى أن نتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

فالله تعالى أعطاك الضرورى من اللباس وهو ما يستر عورتك ، ثم زادك الرياش وهو ترف اللباس والزينة التى يتباهى بها الإنسان ،

---

(١) رهواً : سهلاً ساكناً . [الجوهرى فى الصحاح] قال ابن سيده فى كتاب المحكم : « كل ساكن لا يتحرك : راهٍ » . وقال الزجاج : رهواً هنا : يبساً .

لذلك نقول (فلان ده متريش) .

لكن لا تنسَ أن لباس التقوى ذلك خير ، يعني : أفضل من اللباس الأول ، فلباس المادة يستر عورتك في الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك في الدنيا وينجيك في الآخرة .

إذن : فهو عطاء ممتدّ باق خالد في الآخرة . فهو إذن خير لباس لمن وعى وفهم . فربُّك بربوبيته لنا أعطانا ما يقيم مادتنا وما يسعد دنيانا ، وما كان سبحانه ليترك قلوبنا خالية من الأخلاق والقيم الروحية التي تُسعدنا في الآخرة .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾[آل عمران]

فما عند الله في الآخرة هو الباقي ، والمادة تفنى وتزول ، والدنيا كلها ما هي إلا مرحلة إعداد للآخرة الباقية ، حيث يعطيك ربك العطاء الحق ، العطاء الممتد . انظر إلى الولد الصغير نعلمه (ابتدائي وإعدادي وثانوي وجامعة) ، لماذا كل هذا التعب ؟ للثمرة المرجوة بعد ذلك ليكون عضواً بنَّاءً في حركة الحياة ، كذلك نحن في الدنيا نعمل لهدف أسْمى هو الآخرة ، حيث النعيم الباقي الذي لا يُنغصه شيء .

وتأمل هذا الإقرار من المؤمنين حين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] إقرار يجمع بين عطاء الربوبية والاعتراف به وعطاء الألوهية ،

---

(١) قال الطبري في تفسير الآية [آل عمران ١٤] : اختلف أهل التأويل في معنى المسوَّمة . فقال بعضهم : هي الراعية ، أي السائمة . وقال آخرون : الحسان ، وقال آخرون : المعلَّمة . وقال آخرون : المعدَّة للجهاد .

فالرب هو نفســه الإله المعطى هو نفسه سبـحانه المكلف ، ومَنْ قَبلَ من ربه عطاء الربوبية وأخذ نعمـه إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم لا يليق به أنْ يتـرك تكاليفـه ، خاصة وهى تكـاليف تسعد الإنـسان فى الدنيا والآخرة ، ما جاءت لتضيق عليه أو تشق عليه .

فـعطاء الربوبيـة مـوجـود أيضـاً فى عطاء الألوهيـة ، ومـعلوم أن التكاليف جاءتْ بافعل ولا تفعل ، وعليك أن تفعل فى الأمر ، وأنْ تنتهى عند النهى ، وما لم يردْ فيه نصّ فأنت فيه حُرٌّ و تفعل أو لا تفعل .

ثم يقول تعالى حكايةً عن المؤمنين بعد أنْ قالوا ربنا الله وأقروا لله تعالى بالربوبية والألوهية ، واستقـرتْ عندهم هذه العقيدة راسخة ثابتة يقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : بعد القول جاء العمل .

وتأمل هنا حـرف العـطف ثم ، فـهـو يفـيـد فى اللغـة التـرتيب والتراخى ، ولم يقلْ سبحانه فاستقـاموا لحكمة ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يعطيك فرصة لتتأمل فيها هذه العـقيدة وتبحثها وتقتنع بها ، أعطاك فرصــة لتراجع هذه العقيـدة فى نفسك لتؤمن بهـا عن رضاً ، وتعمل بها عن اقـتناع ، لتقبل عليهـا فى حب قد يصل بك إلى درجة العشق لهذه الاستقامة .

ومعنى الاسـتقامة : أخْـذ الشىء على قوامه ، وهى تتطلب سَيْراً على خط مستقيم ، الذى سمَّاه الله الصراط المستقيم ، فالله يريد منك أيهـا المـؤمن أنْ تجـعل الوسـيلة إلى الغـاية من عـمل التكليف مـثل الصراط لا تميل عنه قيد شعرة ، ولا تنحرف عن جادته .

فأنت حين تسير فى شــارع متسـع يمكن فى السير أن تذهب هنا مـرة وهنا مـرة ، نعم يـجـوز لك ذلك ، لكن لا تنْسَ أنه يطـيل عليك المسافة ويزيد المشقة .

لذلك سمَّى الله طريقه الموصِّل إلى جنته ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ ﴾ [الفاتحة] وفي موضع آخر قال ﴿ سَوَاءَ السَّبِيلِ ⑩⑧ ﴾ [البقرة] يعني : في وسطه دون انحراف .

فإذا كانت الغاية بعيدة احتاجت منك للوصول إليها إلى الإسراع في الحركة لتدرك ما تريد ، فما بالك بمن كانت غايته الجنة ؟ لا شكّ أنه يسرع إليها ولا يدخر في سبيل الوصول إليها وُسْعاً .

لذلك نقول : لا ينبغي للمؤمن أنْ يكره الموت لأنه سيُوصِّله إلى غايته ، إنما يكرهه إنْ كان عمله غير صالح ، نعم يكره أنْ يلقى الله وهو على غير الصلاح . فعند ظهور النتيجة مثلاً ترى الطالب المجتهد يُسرع إليها ، لماذا ؟ لأنه مطمئن إليها ، أما الكسول فتراه بطيئاً غير مهتم .

لذلك ربنا تبارك وتعالى يُعلِّمنا : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ⑬③ ﴾ [آل عمران]

وقال في وصف المؤمنين : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ⑨⓪ ﴾ [الأنبياء] والمعنى : إياك أنْ تشغلك دنياك ، أو تقيد حركتك إلى الآخرة ، بل سارع اجْرِ في اتجاهها ، لأنك لا تعرف كم تقطع من الطريق قبل أنْ يدركك الموت .

ومن عدالته سبحانه مع عبده أنْ أخذ لنفسه عمر العبد طولاً ، لكن ترك له بُعدين آخرين هما العرض والعمق ، كيف ؟ قالوا : عمرك من حيث الزمن طولاً لا يعلمه إلا الله ، ولا يملك نهايته إلا الله وحده ، لكن ترك لك أنْ تمد في العرض كما شئتَ ، فيمكنك أنْ تستثمر اللحظة التي تعيشها وتُوسِّع دائرة الخير فيها ، وبذلك يكون العرضُ أكبر من الطول فليستْ العبرةُ بطول العمر ، ولكن بقدر العمل الصالح فيه .

فمن الناس مَنْ يعمل في العمر القصير أعمالاً جليلة لا يعملها صاحب العمر الطويل ، لذلك لما وصف الله لنا الجنة قال :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا[1] السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

فذكر العرض ، وإذا كان عرضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟

ثم أعطاك بُعداً آخر هو العمق ، والعمق في العمر يكون للإنسان بعد موته وانقطاع عمله في الدنيا ، وذلك بأن يبقى أثر خيره من بعده ممتداً في عمق الزمان .

والحق سبحانه حين يأمرنا بالسير على الصراط المستقيم ، وحين يأمرنا بالمسارعة في الخيرات إنما يريد لنا أيسرَ السُّبل التي تُوصِّلنا إلى أشرف الغايات بأقلِّ مجهود ، ومعلوم عند علماء الهندسة أن الخطَّ المستقيم هو أقربُ طريق وأقصر مسافة بين نقطتين .

فالله لا يريد منا حركات طويلة بلا جدوى ، وفي نفس الوقت

---

(١) أخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] فأين النار ؟ قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله . قال : وكذلك النار تكون حيث شاء الله ..

قال ابن كثير في تفسيره (١/٤٠٤) : « وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله وهذا أظهر .

الثاني : أن النهار إذا تغشَّى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة في أعلى العليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله ، والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار .

يأمرنا أن نسارع ليظل لدينا النشاط اللازم للوصول . لذلك قال تعالى فى أول سورة الكهف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا .. (٢) ﴾ [الكهف]

والاستقامة التى يريدها الله لنا لها أركان بيَّنها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً »[١]

وإياك أن تظن أن الدين فى هذه الأركان الخمسة فحسب ، لا ، هذه هى القواعد والأُسُس التى يقوم عليها بناء الدين ، أما الدين تفصيلاً فيتغلغل فى كل حركة من حركات الحياة .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث الشريف : « الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قَوْل لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[٢]

فالأركان ليست هى كلّ الإسلام بل هى أسسه وقواعده ، فالشهادتان إقرار لله تعالى بالألوهية ، وإذعانٌ له سبحانه بالطاعة ، وتصديق برسوله ﷺ ، وفى الصلاة التى هى كل يوم خمس مرات إعلانٌ للولاء الدائم لله تعالى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٩) ومسلم في صحيحه (٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الزكاة تهذيبٌ للنفس وتعويدٌ لها على العطاء والمشاركة والنظر إلى الفقير ، فقير الإعاقة عن الحركة لا فقير الاحتراف ، فى الزكاة تكافلٌ فأنت اليوم قوىٌّ قادر على العطاء ، فمَنْ يدريك لعلَّك تصير إلى الضعف وعدم القدرة فتجد فى المجتمع مَنْ يمد لك يد العون .

ثم إنَّ الزكاةَ تنزع من المجتمع فتيل الحقد والحسد والغيرة ، وكيف يحسد الفقيرُ الغنى أو يحقد عليه وهو يعطيه ثمرة عرقه ويشركه فى ماله ؟ إذن : فى الزكاة تأمينٌ للفرد المؤمن أعظمَ تأمين .

لذلك قلنا فى المجتمع الإيمانى : إنك لا تعمل بقدر حاجتك ، إنما تعمل بقدر طاقتك ، فما احتجتَ إليه فخُذْه ، وما لم تحتجْ إليه وزاد عنك فتصدَّق به على غير القادر ، أنت تتصدَّق وأنت تذهب بنفسك إلى باب الفقير لتعطيه لتحفظ لأخيك ماءَ وجهه ، وتُعفيه من مذلّة السؤال ولتنال أنت هذه الدرجة .

ثم يأتى الحج ليضيفَ إلى هذه المعانى معنىً إيمانياً آخر ، فربُّكَ الذى خلقك وأعطاك وأمدَّك ومنحك القدرة والاستطاعة ألاَ يستحق منك أنْ تذهبَ إليه فى بيته الذى اختاره لنفسه ، ولو مرة واحدة فى العمر ؟

إنها زيارة ليست بإرادة الضيف وإنما بدعوة من المضيف ، لذلك حين تذهب إلى بيت ربك فى هذه الفريضة فسوف تُعرِّض نفسك لعطاء آخر ما له حدود ، ثم فى الحج منافع أخرى دينية ودنيوية لا تَخْفى على المتأمل .

أما الصوم فيعطيك بُعداً آخر للطاعة ، فأنت قبل الفجر تأكل وتشرب ، وبعد الفجر يحرمُ عليك أنْ تأكل وتشرب ، فبين الحلال والحرام هنا لحظة . وأنت حين تصوم تصوم عن شىء أحلّه الله لك

قبل الصيام ، فأنت حين تصوم تصوم عن شيء حلال أصلاً ؛ لأن الإسلام حرَّم عليك أشياء تحريماً مطلقاً كالخمر مثلاً .

فنحن والحمد لله لا نشربها ولا نفكر أبداً في شربها ، حتى صار ذلك طبعاً وعادة ، فأراد سبحانه أنْ يُخْرجنا من إلْف هذه العادة ، وأنْ يديم على عبده حلاوة التكليف من الله في شيء حلال الآن ، وبعد لحظة واحدة يكون حراماً ، فأخرجنا الحق سبحانه من إلف العادة إلى شرف العبادة .

أما الركن الدائم الذى لا يسقط عن المؤمن إلا فى حالة فقدان العقل فهو الصلاة ، فهى خمسُ صلوات فى اليوم والليلة يُراد بها دوام الحضور فى معية الله ، فهى تختلف فى دوامها عن باقى الفروض ، فالزكاة مرتبطة بالمحصول أو بدورة المال السنوية ، والصوم مرتبط بشهر واحد فى السنة هو رمضان ، والحج مرة واحدة فى العمر .

وكَوْن الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة رحمةٌ من الله بعباده ، فأنت صنعةُ الله ويستدعيك إلى حضرته تعالى خمس مرات ليُصلح ما فسد فيك ، وما بالك بصنعة تُعرَضُ على صانعها خمس مرات كل يوم وليلة ؟

وإذا كان المهندس مثلاً يصلح الآلة بقطعة سلك أو قطعة غيار ، فكذلك ربك يصلحك ، ولكن المهندس مادة يصلح بالمادة ، والله غيب يُصلحك بالغيب ، فلا تتعب نفسك فى بحث هذه المسألة ودَعْها لله ، فقط عليك أنْ تعرض نفسك عليه سبحانه فى الخمس صلوات فى أوقاتها ، وأنْ تُتمَّ لها ركوعها وسجودها وشروطها .

ولا شكَّ أنك ستلحظ هذا الإصلاح فى نفسك ، وفى روحك ، وفى مادتك ، وفى مالك ، وفى أهلك ، ستحس أن للصلاة أثراً فى حياتك

وراحة في بدنك ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقول لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[(١)] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها .

ولأهمية الصلاة في حياة المسلم جعلها رسول الله ﷺ أمَّ الاستقامة وعنواناً لها ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

وفي الحديث الشريف : « أول ما يُحاسب العبدُ عليه يوم القيامة الصلاة ، فإنْ صلُحت صلُح سائر عمله ، وإنْ فسدتْ فسد سائر عمله »[(٢)]

لذلك كان للصلاة هذه المنزلة الخاصة ، فأنت ترى الفقير لا زكاةَ عليه ولا حج ، وترى المريض لا يصوم ، على خلاف الصلاة التي تلازم المسلم في صحته ومرضه ، في غناه وفي فقره ، في سفره وفي إقامته ، فقط الجنون هو الذي يرفع عن صاحبه الصلاة .

إذن : فهي الركن الملازم لك ، ومن هنا كان للصلاة خصوصية في فرضيتها ، فكل العبادات فُرضَتْ بالوحي إلا الصلاة فقد فُرضتْ على سيدنا رسول الله بالمباشرة في رحلة الإسراء والمعراج ، وهذا يدل على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة.

(٢) هذا الحديث ورد بروايات كثيرة وبألفاظ كثيرة منها :

– عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر » الترمذي في سننه (٣٧٨) وقال : حديث حسن غريب . والنسائي في سننه (٤٦١) .

– وعن أبي هريرة أيضاً : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شيء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع يكمل ما ضيع من فريضة من تطوعه . ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلك » . أخرجه النسائي حديث (٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وابن ماجه في سننه (١٤١٥) ، وأحمد في مسنده (٩١٣٠) .

– أما اللفظ الذي أورده الشيخ فقد أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط حديث (١٩٢٩) عن أنس بن مالك . في سنده القاسم بن عثمان الراوي عن أنس . قال البخاري : له أحاديث لا يتابع عليها . وفيه إسماعيل بن عيسى ضعفه الأزدي . وهي طريق ضعيفة كما قال الألباني ، ولكنه قال بعد أن سرد جميع طرق الحديث : الحديث صحيح بمجموع طرقه .

أهميتها بين باقى العبادات .

وسبق أنْ أوضحنا أن الرئيس فى العمل قد يرسل لك ورقة أو يُحدِّثك فى التليفون فى أمر من الأمور ، لكن إنْ كان الأمر ذا أهمية وخصوصية استدعاك إلى مكتبه ليكلمك مباشرة ، وهكذا كانت الصلاة فقد أخذتْ قيمتها من هذه المباشرة حين فرضيتها .

ثم إن الصلاةَ ركنٌ يجمع باقى الأركان ففيها الشهادتان ، والشهادة التى هى قمة الإيمان والعقيدة يكفى أنْ يقولها المسلم ولو مرة واحدة ، أما فى الصلاة فيقولها عدة مرات ، وفيها صيام أبلغ من صيام رمضان فأنت فى رمضان تصوم عن الطعام والشراب والمفطرات ، أما فى الصلاة فأنت تصوم عن أكثر من ذلك ، تصوم عن الحركة وتصوم عن الكلام .

وفيها حج لأنك لا تصلى إلا إذا اتجهتَ بوجهك ناحية بيت الله الحرام وتمثَّلته أمامك ، كأنك تنظر إليه . وفى الصلاة زكاة لأنك تُضحِّى فى سبيلها بما هو أغلى من المال وهو الوقت .

لذلك بيَّن سيدنا رسول الله ﷺ أن الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة ، فقال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[1] فإذا دعاك ربك إلى الصلاة فلم تُجبْ فأنت عَاصٍ ، أرأيتَ رئيسك فى العمل إذا دعاك إلى مكتبه فلم تُلَبِّ ، ماذا يحدث ؟

ومن عظمة هذه الفريضة أنها لقاءٌ مع الله ، لك أنت أيها العبد الحرية التامة فيه وتملك كل عناصره ، فأنت تُحدد اللقاء مكانه وزمانه ، وماذا تقول فيه ، ومتى تُنهى هذا اللقاء ، فقط تسمع النداء فتذهب وتتوضأ ، ترفع يديك إلى السماء : الله أكبر . أنت إذن فى حضرة ربك ، وفى رحاب خالقك ، أنت معه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٤٦) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٧٩) كتاب إقامة الصلاة ، والترمذى فى سننه (٢٦٢١) من حديث أبى موسى الأشعرى . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

على (خط مباشر) ، ليس بينك وبينه حاجب ولا دونه حُرّاس ولا واسطة .

لذلك يقول بعض الصالحين :

حَسْبُ نَفْسِي عِـزاً بأنِّى عَبْدُ ... يَحْتَفِـى بى بِلاَ مَواعيدَ رَبُّ

هُـوَ فِى قُدْسِـهِ الأَعَزِّ ولكِـنْ ... أنا أَلْقَـى متَى وأيْـنَ أُحِـبُّ

فربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليه ، ألم يقُلْ فى الحديث القدسى الشريف : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خير منهم ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هرولةً ، ومَنْ تقرَّب منى ذراعاً تقربت منه باعاً »[1] .

إذن : فالزمام فى يدك أنت ، ونعْم الربُّ رَبٌّ يعامل عباده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسان .

ومن كرمه سبحانه أنْ يُثيبَ العبد على كل حركة خير فى دنياه ، لأن هذه الحركةَ مطلوبةٌ للإيمان ؛ لذلك يقول تعالى فى سورة (الجمعة) : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۝ ﴾ [الجمعة]

وبعد الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ۝ ﴾ [الجمعة] فأخذك من عمل وأعادك إلى عمل ، لأن العمل فى ذاته طاعة ، والمؤمن لا بدَّ أنْ يسهم فى حركة الحياة مساهمةً إيجابية بنَّاءة .

الإسلام إذن لا يقتصر على هذه الأركان الخمس ، بل يمتد إلى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كل حركـة من حركات الحيـاة ، فأنت تؤسس بيتـاً مثلاً وتقيـمه على أعمـدة ، لكن بعد ذلك تُقسـمه إلى : حجـرة نوم ، وحجـرة للسـفرة ، وحجرة للصالون ، وحجرة للمطبخ وهكذا .

والإسلام يهدف إلى سـلامة حركة الحيـاة وخُلوها من الصراع ، ومن التصـادم ، يريد أن تتسانـد حركة الجـماعة لا تتـعاند ، لا يريد واحـداً يبنى والآخـر يهـدم ، بل كلنا يبنى ولا أحـدَ يهـدم ، فـالحق سبـحانه أعطانا هذا الـكون الذى نعيش فـيه وهو على حالـة الصلاح وعلى هيئـة الجمـال والتناسق ، وأوصـانا أنْ نحافـظ عليه ، وأن نزيد فى صلاحه ، وعلى الأقل نتركه على صلاحه ولا نفسده .

وعلَّمنا حـين نصلح أنْ نصلح بحـركة مـحسوبة العـواقب ، وألاَّ ندخل فى شىء لا نعرف الـخروج منه ، وألاَّ تغرَّنا ظواهر الأشـياء ، هذه صفات العقلاء الذين يتصرفون فى الأمور بحكمة ، ويزنون الخير والشر فيقبلون على أسباب الخير وينصرفون عن أسباب الشر .

ونضرب مـثلاً فى عصـرنا الحالى بدودة القطن التى كـانت تعبث بغالب ثروة مـصر من هذا المـحصول الهـام ، إلى أن اختـرع العلماءُ مبيداً حشـرياً لها سموه الـ (D.D.T) فتسابق الناسُ إلى اسـتخدامه ، وظنوا أنه سيقضى على الدودة بلا رجـعة ، وأن المشكلة قد انتهت ، وبعد عدة سنوات أخذت الدودة حصانةً من هذا السُّم ، وأصبحت كما نقول (كـيفة) (D.D.T) وبقيتْ الدودة كـما هى ، وبقيتْ معـها آثار جانبية أصابت الماء والزرع والتربة ولوَّثتْ كل شىء فى حياتنا ، وها نحن الآن نعانى أشدَّ المعاناة بسبب المبيدات الحشرية .

لذلك الحق سـبـحانه وتعـالى يحـذرنا من رعـونة الابتكار ، ومن الاغترار بالخـير الظاهرى دون حساب للعـواقب ، فإياك أنْ تدخل فى

أمر يُعييك الخروج منه ، تأمل قول الله تعالى وهو يمتنُّ على عباده ببعض نعمه عليهم : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [النحل]

نعم ، كنا لا نعرف من وسائل النقل والركوب إلا الخيل والبغال والحمير ، ثم اخترع الإنسانُ بعد ذلك ما لم يكُنْ يعلمه من السيارات والطائرات والصواريخ ، وهذه الوسائل المستخدمة لا شكَّ أنها خدمتْ الإنسان ويسَّرَتْ عليه ، لكن مع ذلك كان لها أضرار ومعاطب لم تكُنْ في حُسْبان مَن اخترعها .

عندما ظهرت السيارات كنا نذهب بها إلى دمياط ، ولم تكُنْ الطرق مرصوفة كما هي الآن ، فكان السائق ينطلق بها بسرعة على الطريق الترابي فتثير الغبار خلفها بشدة ، غبار يؤذي الناس ويؤذي المزروعات ، فضلاً عن عادم الوقود وما يُسبِّبه من أضرار للجهاز التنفسي .

ثم كانت تُحدث كثيراً من التصادمات ، وينتج عنها قتلى ومصابون تترك في المجتمع مآسيَ ، وإذا انتهى (البنزين) منها تقف مكانها لا تتحرك ؟

فإذا ما قارنتَ هذه الوسيلة بالوسائل الطبيعية التي خلقها الله وجدنا خَلْق الله أفضل وأسْلم ، فالجمل أو الحمار يوصلك وينقل لك متاعك دون أنْ يُسبب لك هذه المعاطب ، ففضلاته سماد للتربة ، وإذا جاع لا يتوقف إنما يكمل بك المشوار ، ثم هل رأيتم مثلاً جملين اصطدم أحدهما بالآخر .

إذن : علينا قبل أنْ نخترع شيئاً أن نحسب عواقبه ، وغلبة الخير فيه على الشر ، والنفع على الضرر .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هؤلاء المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ما جزاؤهم ؟ ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا (٣٠) ﴾ [فصلت] نعم ملائكة الله في السماء هذه المخلوقات النورانية التي لا عملَ لها إلا تسبيح الله ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، فحين تنزل بالمؤمن شدةٌ أو يصيبه مكروه تتنزَّل عليه هذه الملائكة تُثبِّته فيعود إلى ما يجب أنْ يعودَ إليه من الصبر . فيقول : لا كربَ وأنت رب ، أنا لي رَبٌّ قويٌّ قادر سيُفرِّج هَمِّي ويُزيل كَرْبي .

وهذا حال المؤمن حين يحزبه أمر وتضيق به أسبابه يلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فيأتيه الإلهام من الله أنِ اصبر واحتسب ، وربما كانت المصيبة امتحاناً من الله ، أو كانت تكفيراً لذنب بدر مني فعاقبني الله به في الدنيا وعافاني منه في الآخرة ، وهذه علامة حب الله للعبد أنْ يُعجِّل له العقوبة في الدنيا ، ويغفرها له في الآخرة .

لذلك كان الكفار يفرحون حين تصيب المؤمنين مصيبة ، فعلَّم اللهُ نبيه ﷺ أنْ يقول : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١) ﴾ [التوبة] فأنتم تفرحون إنْ نزلتْ بنا مصيبة ، ونحن كذلك نفرح بها لأنها من الله ، والمصيبة للمؤمن إما يُكفِّر اللهُ بها من خطاياه ، وإما يرفعه بقدرها درجات .

وعجيبٌ أن نرى البعض إذا أصابتْه مصيبة أو نزل به ما يكره لا يعالج أسبابها ، ولا يفكر في تفاديها بعد ذلك ، إنما يلجأ إلى نسيانها ويذهب إلى شُرْب المسكر الذي يساعده على النسيان .

وهذا خطأ فادح ، فالنسيان لا يحلُّ مشكلة ، إنما يحلُّها التفكير في أسبابها ومعالجة هذه الأسباب ، فالمخدِّرات والمسْكرات تذهب

بعقلك وتُفسده في وقت أنت في أشدِّ الحاجة إليه ، حين يمرُّ الإنسانُ منا بمشكلة يحتاج إلى مزيد فكر ، فكيف تذهب بعقلك في وقت أنت في أمسِّ الحاجة إليه ؟ ألاَ ترى أنك تستعينُ بغيرك وتستشيره في حَلِّ مشاكلك حينما تضيقُ بك الأسبابُ ؟

إذن : انظر إلى المصيبة ، ما سببها إنْ كان لك دَخْلٌ فيه ، وهي نتيجة تصرُّف خاطئ منك فأنت الملُوم ، وعليك أنْ تُعدِّل من تصرفاتك وتعمل حساباً للعواقب ، وهذه أول خطوة في طريق الإصلاح ، كالطالب يذهب لمعرفة النتيجة آخر العام فيقولون له : أنت راسب فتعيده الصدمةُ إلى صوابه ، ويصيح بأعلى صوته هذه الصيحة العقلية الواعية : أنا السبب ، أنا المهمل ، أنا أستحق .

أما إنْ كانت المصيبة لا دخْلَ لك فيها كالطالب الذي ذاكر دروسه واجتهد ، لكن جاءه وقت الامتحان دَوار أو أصابه نسيان فلم يُوفَّق ، فهذا قدر الله لا بدَّ أنَّ له حكمة ، فهو شَرٌّ في طياته خير ، هو ابتلاء من الله ينبغي أنْ نرضى به ، وأنْ نتلمس له حكمة .

فنحن دائماً نحوم حولها ، وصلنا أو لم نصلْ ، قُلْ ربما كنت مغروراً فأراد الله أنْ يكسرَ فيَّ عُنْفوانَ الغرور ، ربما لو وفقت كنتُ سأحسد ، أو ربما لم آت بالمجموع المطلوب الذي كنتُ أرجوه ، وهذه كلها نماذج يُؤيِّدها واقع الحياة .

والفعل لا يُؤخذ لذاته إنما بمصاحبة الفاعل ، مَنْ هو ؟ قلنا : لو دخل عليك ولدُك يسيل دمه لا يشغلك الدمُ بقدر ما يشغلك مَن الفاعل ؟ لذلك تسأله أولاً : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك عَمِّي مثلاً ، تهدأ ثورتُك ، وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فعاقبك . أما إنْ قال لك :

فلان ، تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : نقول خُذ الفعلَ بمصاحبة فاعله ، فإنْ كان من الله فارْضَ وابحث عن حكمته ، ولا بدَّ أنك ستتوصل إليها وستحمد الله . كُنْ أمام الشدائد كالضرس ثابتاً فى مكانه يمضغ لا يعنيه حُلواً ولا مُراً ، فإنْ كان البلاء فى نفسه يتأدب ، وإنْ كان فى غيره يتعلم ، فلا بدَّ أن لله حكمة .

سمعتم قصة الرجل الصينى الذى كان يتأمل الأحداث ويرى الحكمة فيها ، قالوا : كان هذا الرجل مُحباً لتربية الخيول فكانت عنده مزرعة خيول ، وفى يوم شرد منها حصان من أجود الأنواع ، كانوا يسمونه (الطلوقة) وضَل فى المزارع ، فجاءه الناس يُواسونه . فقال لهم : وما أدراكم لعل فى هذا الخير ، ويكفى أننى لستُ سبباً فى فَقْد هذا الحصان ؟

وبعد أيام جاء الحصان يصطحب سرْباً من الخيول حتى دخل المزرعة ، فجاءه بعض الجيران يُهنئونه ، فقال لهم : وما أدراكم أن فى هذا نعمة ؟ ولم يَمْضِ وقت طويل حتى ذهب ابنه يركب هذا الحصان ، وكان مُغرماً به فأوقعه الحصان فكسر رجْله ، فجاءه الناس يُواسونه فقال لهم : لعل فى ذلك خيراً ، وفعلاً جاء المسئول عن التجنيد فوجد الشاب قد كُسرتْ رجله فتركه .

إذن : علينا أنْ نفهم أن لله فى أقداره حكَماً ، عرفها مَنْ عرفها ، وجهلها مَنْ جهلها . لذلك نقول : إياك أنْ تأخذ شيئاً بالإكراه لأنك لا تدرى أن الخير لك ، وتذكَّر دائماً : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا (٢١٦) ﴾ [البقرة] ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا (٢١٦) ﴾ [البقرة] لذلك يُعلمنا النبى ﷺ

هذا الدرس فيقول : « اطلبوا الأمور بعزة الأنفس ، فإنها تجرى بمقادير »[(١)] .

ويقول أحد العارفين فى مناجاته لله : أحمدك على كُلِّ قضائك وجميل قدرك حمدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

وهكذا يريح الإنسان نفسه ويريح الدنيا من حوله ، وهذه كلها من تنزُّلات الملائكة فى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا (٣٠) ﴾ [فصلت]

كذلك من تنزُّلات الملائكة أنها تنزل على المؤمن ساعةَ يحلُّ الموتُ بساحته فيخاف ويحزن ، لأنه سيترك نعيم الدنيا ، فتتنزل عليه الملائكة تُطمئنه وتُبشِّره بنعيم آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، لا يزول كما يزول نعيم الدنيا .

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا (٣٠) ﴾ [فصلت] يعنى : مما أنتم مُقبلون عليه من أمور الآخرة ، حتى إنْ قصَّرَتْ بكم أعمالكم فأنتم مُقبلون على ربٍّ غفور رحيم ، فلا تخافوا ولا تحزنوا ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت]

قلنا : البشارةُ الإخبارُ بخير وبما يسرُّ قبل أوانه ، ومَن الذى يُبشِّرك بالجنة ؟ والله لو إنسانٌ مثلك لكنتَ تشُكّ فى قدرته على الوفاء ، لكن إنْ كان الذى يُبشِّرك هو الله فثِقْ بما بُشِّرت به ، فالذى

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٣٩٩) بلفظ : « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بمقادير » وقال : رواه تمام وابن عساكر بسند ضعيف عن عبد الله بن بسر ، لكن يقويه ما رواه الطبرانى وأبو نعيم من حديث أبى أمامة أن روح القدس نفث فى روعى « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » ورواه البزار عن حذيفة ، وفى الباب عن جابر كذا فى تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر العسقلانى .

بشَّرك بالجنة هو وحده القادر على الوفاء ، حيث لا قوةَ تحولُ بينه وبين الوفاء بالبُشْرى .

﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يعنى : أنصاركم المقربين منكم والمؤيدين لكم فى الدنيا وفى الآخرة ، قالوا : لأن الملائكة جُبلَتْ على الطاعة ؛ لذلك عند خَلْق آدم قالوا : ﴿ أَتجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ردَّ الله عليهم ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

يعنى : خلقتُ الملائكة مجبولين على الطاعة ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] والذى أريده طائعاً لا يملك أنْ يعصى ، لكني أريد خَلْقاً آخر لا يأتُون إليَّ بالإكراه ، إنما يأتوننى طواعيةً ويُقبلون عليَّ محبة وهم يملكون أنْ يعصوا ، يأتون إليَّ بالاختيار لا بالقهر والإجبار .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً قلنا : هَبْ أنَّ لك عبدين تربط أحدهما وتشدُّه إليك بسلسلة ، والآخر حر طليق ، وتنادى عليهما فيسرعان إليك . أيهما يكون أطوَع لك من الآخر ؟

فقوله : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نأتيكم فى الشدة فننصركم ، وفى البلاء فنُصبِّركم .

لذلك ورد في الحديث الشريف أن واحداً[1] من صحابة رسول الله ﷺ جلس يقرأ القرآن وبجواره خَيْلٌ فسمع لها صياحاً وهمهمة ، ورأى منها حركة غريبة ، ورأى فوق رأسه نوراً ، فذهب إلى سيدنا رسول الله وحكى له ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « هؤلاء هم الملائكة ، جاءوا لسماع الذكر ، والله لو صبرْتَ لصافحوك »[2] .

هذا من ولاية الملائكة لنا في الدنيا ، أما في الآخرة فهم أولياء لأنهم سيكونون مندوبين عن الله في البعث وفي الحساب ، وفي استقبال أهل الجنة بالسلام كما حكى الحق سبحانه : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد] هذا سلام الملائكة ، ثم يُسلِّم الله عليهم كذلك ، كما في سورة (يس) : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) هو أسيد بن حضير . وهو أحد نقباء الأنصار ، قال عنه رسول الله ﷺ : نعم الرجل أسيد ابن حضير ، وعن أنس أن أسيداً وعباد بن بشر كانا عند النبي في ليلة مظلمة فخرجا من عنده فأضاءت عصا أحدهما فكان يمشيان بضوئهما فلما افترقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا . (سير أعلام النبلاء للذهبي ١/٢٩٩) .

(٢) قال ابن حضير : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف .. فلما أصبح حدَّث النبي فقال : اقرأ يا بن حضير .. فرفعتُ رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها . قال رسول الله : وما تدري ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم . [أخرجه البخاري في صحيحه (باب نزول السكينة والملائكة) ومسلم في صحيحه (١٣٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت]

قالوا : ما تطلبه النفس من النعيم تجده أمامك بمجرد أن يخطر على بالك ، فأيُّ رفاهية هذه ؟ لقد ذهبنا إلى دول كثيرة ودخلنا أكبر الفنادق هناك ، فكان قصارى ما وصلوا إليه أنك تضغط على زر معين يعطيك قهوة مثلاً ، وعلى زر آخر يعطيك شاياً ، فهل هناك أعظم مما أعدَّه الله لك في الجنة ؟ مجرد أنْ يخطر ببالك الشيء تجده بين يديك ، ثم إن فيها من النعيم « ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

لذلك لما أراد سبحانه أن يُصوِّر لنا الجنة لم يصفها صراحة ، إنما قال سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [محمد] مثلها ، ليستْ هيَ ، لماذا ؟ قالوا : لأن ألفاظ اللغة توضع لمَعانٍ ومُسمَّيات ، ولا بُدَّ أنْ يُوجد المعنى أولاً ثم نضع له اللفظ الدالَّ عليه ، فالمعدوم ليس له لفظ يدل عليه ، (فالتليفزيون) مثلاً قبل أنْ يخترعوه ماذا كان اسمه ؟ لم يكُنْ له اسم ، كان معدوماً .

كذلك نعيم الجنة لا توجد في اللغة ألفاظ تدل عليه الآن ، لأننا لا نعرفه ولا نعرف أسماء هذه الأشياء ، فهي أشياء لم تَرَهَا عينٌ ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فمن أين الألفاظ الدَّالة عليها ؟

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا (٣١) ﴾ [فصلت] أي : في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ (٣١) ﴾ [فصلت] المراد النفوس الإيمانية التي استقامت على طريق الله ، فليس في الجنة محرَّم ، وليس في الجنة مَنْ يشتهي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٤٦٦/٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المحرَّمات ، فالنفس تشتهى الحلال ، حتى محرَّمات الدنيا إنْ وُجدت فى الآخرة فهى شىء آخر نُزِع منه سببُ التحريم .

فالخمر فى الدنيا معروف أنها تُذهب العقلَ ، وأنه لا لذةَ فى شربها ، أمَّا خمر الآخرة فقال الله عنها : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

وأنت تشاهد فى (الأفلام) مثلاً مَنْ يشرب الخمر كيف يشربها ؟ يصبُّها فى فمه هكذا مرة واحدة ، لماذا ؟ لأن طعمها كريه يريد أنْ يُمرره من منطقة الذوق بسرعة ، أما الذى يشرب كوباً من عصير المانجو مثلاً تراه يرشفه رشفةً رشفةً نقول (يمزمز)[1] فيها ، لأن طعمها لذة ورائحتها لذة .

كذلك فى كل نعيم الجنة الذى له مثيل فى الدنيا تجد الحق سبحانه يُنقِّيه من الشوائب ويُخلِّصه من الأضرار التى نعرفها فى الدنيا ، تأمل قوله تعالى عن ماء الآخرة : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] يعنى : لا يتغير ولا يصيبه عَطَن كماء الدنيا ، وفى اللبن قال : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] وقال عن العسل : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

إذن : لا تقُلْ : خمر كخمر الدنيا ، ولا ماء كماء الدنيا ، ولا لبنَ كاللبن الذى تشربه ، لا إنما هى نعيم من نوع آخر نقَّاه الخالق سبحانه ، وصفَّاه من شوائبه .

---

(١) أصلها اللغوى : التمزُّز أىْ شرب الشراب قليلاً قليلاً . ومزَّه : مصَّه . والمزمزة : التحريك الشديد . وقد مزمزه إذا حرَّكه واقبل به وأدبر . [لسان العرب - مادة : مزز] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت] يعنى : لكم فى الجنة كل ما تتمنونه ، وكل ما تطلبونه .

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾

النُّزُل هو المكان الذى أُعدَّ للضيف ينزل فيه ، ولا بدَّ أنْ يعد هذا المكان بحيث يجد فيه الضيفَ كل ما يريد ، فهو موطن الكرم ، لذلك نسمى الفندق نُزُل ، نعم نُزُل أعدَّه البشر للبشر ، لكن الجنةَ نُزُل أعدَّه ربُّ البشر وخالقهم ، أعدَّه لهم الغفور الرحيم بهم .

لذلك قلنا : إننا لما ذهبنا إلى (سان فرانسيسكو) وجدنا هناك فنادق على درجة عالية من الرقى وجودة الخدمة ، ورأيت الإعجاب بها فى أعين زملائى فأردتُ أنْ ألفتهم لفتةً إيمانية ، فقلت لهم : تعجبون مما ترونه ، انظروا إليه نظرةَ تأمل ، فهذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّه الله ربُّ البشر للبشر ؟

وبهذه النظرة يُخرج المرء نفسه من دائرة الحقد أو الحسد أو الاعتراض ، فكلُّ نعيم تراه ، وكل جمال تقع عليه عينك ينبغى أنْ يُذكِّرك بنعيم الآخرة .

كثيراً عندما نرى مثلاً عمارة عالية أو ڤيلا جميلة نقول : من أين كل هذه الأموال ؟ ويساورنا شىء من الحقد على صاحبها ، أو نحسده على فضل الله الذى اختصَّه به ، لكن لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية أخرى لوجدنا أن الله تعالى سخَّر هذا الرجل وسخَّر ماله لخدمة المجتمع كله ، فقد أتعب نفسه فى جمع هذه الأموال ثم أخرجها ليوزعها على العمال والصُّناع وأصحاب الحرف من طوائف

المجتمع المختلفة .

فهو - إذن - يُسهم في بناء المجتمع ، ويُسهم في حركته ؛ لذلك علَّمنا ربنا تبارك وتعالى حين نرى شيئاً يعجبنا أن نقول : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩) ﴾ [الكهف]

يعني : هذا عطاء الله وفضله ، يعطيه مَنْ يشاء من عباده ، وحين تُسَرُّ بالنعمة عند غيرك ، وتحبها له تحبك النعمة ، لأن النعمة أعشقُ للمنعَم عليه من عشْقه لها ، أما إنْ كرهتَ النعمة عند الناس كرهتْكَ النعمة ، وقالت له : والله لا تحضرك نعمة كرهتَها عند غيرك .

ثم إن النعمة قدر ، وعلى المؤمن أنْ يرضى بقدر الله ، ولا يعترض عليه ، وعليه أنْ يعلم أن لكل قدر حكمة إيمانية .

وقوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] دل على أن هذا النُّزل وهذا النعيم لا يناله العبد بعمله ، إنما يناله بمغفرة الله ورحمته ، وهذا يُفسِّر لنا الحديث النبوي الشريف : « لا يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني[1] الله برحمته »[2] .

وقد تُستعمل كلمة النُّزل على سبيل الاستهزاء ، فالنزُل قد يكون في أحد الفنادق ، وقد يكون في السجن ، يقول تعالى في سورة

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدني » : يُلبسني ويتغشّاني ويسترني . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الكهف : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾ [الكهف]

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾

بعد أنْ تكلم الحق سبحانه عن الكمال الذاتي للمؤمن الذي استكمل الإيمان وأعلنها : ربي الله ، ثم استقام على طريقة ، يقول بعد أن استقبل المؤمنُ الإيمانَ وباشرتْ حلاوتُه قلبه يفيض هذا الإيمان منه إلى غيره ، وهذه مهمة من مهمات المؤمن أنْ ينقلَ الإيمان ، وأنْ ينقلَ الخير إلى الغير .

المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1] ، ويحرص على إصلاح المجتمع من حوله ، المؤمن لا يقف عند ذاته ، ولا يكون أبداً أنانياً .

والحق سبحانه يمدح منزلة الدعوة إلى الله ، ويجعلها أحسن ما يقوله الإنسان : ﴿ وَمَنْ[2] أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ (٣٣) ﴾ [فصلت]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أورد القرطبي في تفسير هذه الآية عدة أقوال في المقصود بالآية :

١ - هو رسول الله : قاله ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن البصري ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا وليُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - نزلت في المؤذنين : قالته عائشة وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد . قال ابن العربي : الأول أصح لأن الآية مكية والأذان مدني ، وإنما يدخل فيها بالمعنى ، لا بأنه كان المقصود وقت القول .

٣ - هذه الآية عامة : في كل من دعا إلى الله . قاله الحسن وقيس بن أبي حازم . قال القرطبي : هذا القول هو أحسنها . [تفسير القرطبي ٩/٦٠٢٦] .

فأشرف الأعمال للذى تشبَّع قلبه بالإيمان أنْ يعدى هذا الإيمان إلى غيره ، وأن ينقل له الصورة الإيمانية ، فالمؤمن يصنع الخير لنفسه وللناس ؛ ذلك لأن خير الناس عائد إليه أيضاً ، كما أن شرَّهم لا بدَّ أنْ يناله وأنْ يصيبه من نصيب .

إذن : منْ مصلحتك أيها المؤمن أنْ يؤمن الناسُ ، ومن مصلحتك أيها المستقيم على الجادة أنْ يستقيم الناسُ ، لذلك حمَّلَ اللهُ أمانة الدعوة إليه لكل مؤمن ، لأنه سبحانه يريد أنْ يُعدَّى الإيمان ممَّنْ ذاقه إلى مَنْ لم يَذُقْه لتتسعَ رقعة الإيمان ، ويعمَّ الخير الجميع .

وأول عناصر الدعوة إلى الله أنْ ندعوَ إلى العقيدة أولاً وإلى الإيمان بالله ، أن نقول : ربنا الله ، نُقرُّ بِها ونعلنها خالصةً بلا تردد ، ثم نلفتهم إلى آيات الله فى الكون ، إلى الآيات الكونية إنْ كانوا لا يتأملونها ، وإلى آيات المعجزات المصاحبة للرسل إنْ كانوا لا يعلمونها، ثم إلى آيات الذكر الحكيم التى تحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣) ﴾ [فصلت] الحق سبحانه أراد أنْ يُبيِّن لنا منزلة الدعوة إلى الله وفضل الداعية ، لكن لم يأت بذلك فى أسلوب خبرى يُقرر هذه المنزلة إنما جاء بهذا السؤال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣) ﴾ [فصلت] استفهام غرضه النفى ، يعنى : لا أحدَ أحسنُ من هذا الذى يدعو إلى الله ، ولا قوْلَ أحسن من قوله .

قالها الحق سبحانه فى صورة سؤال لأنه سبحانه يعلم أنه لا جوابَ لها إلا أنْ نقول : لا أحدَ أحسنُ قوْلاً ممَّنْ دعا إلى الله ، فجعلنا نحن نعلن هذه الحقيقة ونُقرُّ بِها ، والإقرار كما يقولون سيد الأدلة .

وأول داعية إلى الله هو سيدنا رسول الله ﷺ ، وكل داعية من

بعده يأخذ من معينه ﷺ ويسير على خُطاه ، ولما كان ﷺ هو آخر الأنبياء فقد ترك لأمته هذه الرسالة ، رسالة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فخيْر رسول الله لم ينقطع ، بل ممتد في أمته من بعده ، وكلٌّ داعية بعده إنما يأخذ مقاماً من مقامه ﷺ .

ومن رحمة الله بهذه الأمة أنْ جعل لها رادعاً من نفسها ، جعل فيها فئةً باقية على الحق تُقوِّم المعْوج ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وسوف تظل هذه الفئة إلى يوم القيامة ، لذلك جاء في حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[1]

لذلك قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه خاصية اختصَّ الله بها أمة محمد لأنه خاتمُ الرسل ؛ لذلك لن يعم الشرُّ هذه الأمة ، ولن يطمَّ فيها الفساد ، ففيها حصانة من ذاتها . لقد كانت الأمم السابقة يستشرى فيها الفساد حتى يعمَّها ، فلا يكون فيها آمر بمعروف ولا نَاه عن منكر ، وعندها كان لا بدَّ من إرسال رسول جديد ، يعيد الناس إلى الطريق المستقيم .

أما أمة محمد فلن يأتي فيها رسول جديد ، لذلك جعل الله فيها هذه الحصانة ، وجعلها خليفة لرسول الله في الدعوة إلى الله ، وجعلها أمينة على هذه الدعوة ، لذلك يقول النبي ﷺ : « الخيرُ فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضي الله عنه . وأخرجه البخاري في صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم في صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٢) قال ابن حجر العسقلاني : لا أعرفه . ولكن معناه صحيح . ذكره القاري في « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطي في « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلوني في كشف الخفاء (٤٧٦/١) .

وقد بيَّن الله تعالى أن الرسول سيشهد أنه بلَّغ أمته هذه الدعوة ، وهذه الأمة ستشهد أنها بلَّغتْ دعوة رسولها إلى كلِّ الأمم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فشهادتنا على الأمم دليلٌ على أن الخير بَاقٍ فينا ولن ينقطع أبداً .

وقد حثَّنا رسولنا ﷺ على حمل هذه الأمانة ورغَّبنا فيها حين قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2] .

والدعوة إلى الله مجال واسع يكون بالقول وبالفعل وبالقدوة الحسنة ، يكون ببيان العقائد والعبادات والأحكام للناس بأسلوب شيق ممتع جذاب ، لا يُنفِّر الناس ، ولا يذهب بهم إلى يأس أو قنوط من رحمة الله .

الدعوة إلى الله فَنٌّ ، اقرأ قوله تعالى يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

أين دعاتنا من قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

لا بدَّ أنْ نعلم أنَّ الدعوة إلى الله ليستْ مهمة علماء الدين

---

(١) النضرة : النعمة والعيش والغنى ، ونضَّر الله وجهه : وهو حُسْن الوجه والبريق . وقال الحسن المؤدب : ليس هذا من الحُسْن فى الوجه إنما معناه حسَّن الله وجهه فى خُلقه أى جاهه وقدره . [لسان العرب - مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

المختصين فحسب ، إنما مهمة كل مسلم فى كل زمان وفى كل مكان ، كُلٌّ فى مجال عمله يستطيع أنْ يكون داعيةً ، نعم داعية بفعله والتزامه وتفانيه وإخلاصه .

لقد أجمع علماء الأمة على أن الإسلام ما انتشر بحدِّ السيف ، وما انتشر بالقوة بقدر ما انتشر بسيرة المسلمين الطيبة ، وما تحلَّوْا به من تسامح وحُبٍّ للآخرين ، ولنا فيهم قدوة .

الدعوة إلى الله مهمة كل مسلم ذاق حلاوة الإيمان ولذة التكاليف وأحبَّ للناس ما يحب لنفسه من الخير فينقله إليهم . والحق سبحانه ساعة يُكلِّفنا بالخير لا يترك أحداً ولا يحرم أحداً أنْ يكونَ له نصيبٌ من هذا الخير ، ومن ذلك الآن نجد مثلاً المشكلة الاقتصادية والحرب على الاقتصاد وعلى الرغيف وعلى المياه ، كيف تُحلُّ هذه المشكلات فى المنظور الإسلامى ؟

الحق سبحانه وتعالى دائماً يُحنِّن الواجد على المعدم ، وبعد أنْ فرض الزكاة فى مال الأغنياء للفقراء ترك الباب مفتوحاً لأريحية الغنى وحبه للعطاء ، فجعل الصدقة نفلاً وزيادة لمن ذاقَ حلاوة التكليف .

لذلك قال تعالى مرة : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] والمراد بالحق المعلوم الزكاة المفروضة ، وقال فى الذاريات : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] هكذا بإطلاق الكلمة ، والمراد الزيادة على الزكاة المفروضة ، وهذه نوافل مَنْ فعلها أخذ ثوابها ، ومَنْ تركها فلا شىء عليه .

قال تعالى فى سورة الذاريات وهو يُبيِّن لنا سبحانه منزلة

الإحسان : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] ولم يقل مؤمنين ، فما هي درجة الإحسان ؟ قالوا : المحسن هو الذي يلزم نفسه بأمر لم يُفرض عليه لكن من جنس ما فرض الله عليه ، إذن : فدرجة الإحسان أعلى من درجة الإيمان ، فالفرض في الصلاة خمس صلوات ، المحسن يُؤديها ويزيد عليها ، وإن كان مقدار الزكاة الواجبة في المال ٢,٥٪ يخرجها ٥٪ وهكذا في كل أبواب الخير .

وفي آيات سورة الذاريات تفصيلٌ لهذه الزيادة التي يتطوع بها أهل الإحسان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) ﴾ [الذاريات] وهل فرض الله عليك قيام الليل حتى أنك لا تهجع منه إلا قليلاً ؟ لا بل لك أنْ تصلي العشاء وتنام حتى الفجر .

أما المحسن فله مع الليل شأنٌ آخر ، إنه ذاقَ حلاوة السهر لله والقيام لله ، وشعر بالفيوضات تتنزَّل عليه ، ورحمة الله تغشاه ، فعشق العبادةَ ووجد فيها لذته وراحته ، كذلك ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ[2] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل هنا حق معلوم ، لأن الحق المعلوم هو الزكاة ، أما الحق المطلق هنا فيراد به الصدقة وهي متروكة لاختلاف حب الناس ودرجاتهم وأريحيتهم في العطاء .

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب – مادة : هجع] وأتيت فلاناً بعد هجعة . أي : بعد نومة خفيفة من أول الليل .

(٢) الأسحار : جمع سَحَر : أي قبيل الصبح آخر الليل . قال الزمخشري : إنما سُمِّي السَّحَر استعارة لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار فهو متنفس الصبح . ومن المجاز : « السَّحَر البياض يعلو السواد » . [تاج العروس للزبيدي – باب : سحر] .

وإذا أحبَّ المؤمنُ الطاعة آثرها على أى شىء آخر ، لذلك لو أجريتَ إحصاء للحجاج لوجدتَ أن العوَّادين ثلاثة أضعاف البادئين ، وما ذلك إلا لعشق الناس لهذه الفريضة .

لذلك جعل الله فى العباد استطراقاً إحسانياً ، كلٌّ حسب مرتبته فيه ، والقرآن الكريم يعطينا صورة للمؤمن المحبِّ للبذل مع أنه لا يجد شيئاً ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾

[التوبة]

تبين هذه الآيات أن الله تعالى أشاع الخير بين كل الناس ، فالواجد عليه أنْ يعطى ، وغير الواجد يكفيه أنْ ينصح الواجد وأنْ يحثه على العطاء ، فإذا لم يستطع لا هذا ولا ذاك يكفيه أنْ يكون محباً فى نفسه للعطاء يشتاق إليه ، بل ويبكى أنْ فاتته الفرصة . وهؤلاء صدقتهم هذا الشوق وهذا البكاء . وهكذا لم يحرم الخالق سبحانه أحداً من خيره ، ولم يغلق الباب فى وجه أحد .

هناك قضية تتعلق بالدعوة إلى الله ، هى أن الإنسان منَّا قد يكون عاصياً لربه فى ناحية ما ، فهل يمنعه هذا العصيان أنْ يكون داعية إلى الله ؟ قالوا : ينبغى ألاَّ تمنعك المعصية عن الدعوة ، فلعلَّ الذى

---

(١) قال القرطبى : « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرِّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣١٥٣/٤) .

تدعوه يفعل ما لم تفعله أنت ، ولعل هذه عملية جَبْر لما فيك من نقص .

يُحكَى أن رجلاً كان يطوف بالبيت ، فسمع آخرَ يقول : اللهم إنك تعلم أنّي عاصيك ولكنّي أحب مَنْ يطيعك ، فاجعل اللهم حُبِّي لمن أطاعك شافعاً في معصيتي .

قالوا : حتى الذي يتكاسل عن الصلاة لا يمنعه ذلك من أن يدعو غيره إلى الصلاة ، لأنها خير يشيعه في الناس لن يُحرَم أجره ، فكل مَنْ أشاع خيراً له (عمولة) عند الله ، وهكذا لا يخلو مخلوق من أنْ يصيبه فضل الله الواسع ، ولا يخلو مخلوق من خصلةِ خيرٍ لذاته أو لغيره ، وهذه الإشاعة للخير في ذاتها دعوة إلى الله .

وقوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٣٣) ﴾ [فصلت] يعني : دعا إلى الله بالقول ثم بالفعل ، ودائماً ما يقرن القرآن بين القول والعمل ، وعرفنا أن قدوةَ الفعل أعظمُ أثراً في النفوس من قدوة الكلام ، وليس من الصواب أنْ تدعو الناس إلى شيء وأنت عنه بنجوى ، يقول تعالى :
﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه في سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

والتواصي تفاعل بين الناس ، بحيث يوصي كلٌّ منهم الآخر ، فالطائع يوصي العاصي ، وكلٌّ واحد منا مُوصٍ في موقف ، ومُوصَىً في موقف آخر ، لأن الانفعال النفسي بطاعة أو بمعصية لا يدوم ،

فساعة تنفعل نفسُك للطاعة أوْصِ مَنْ يعصى ، وساعة تنفعل نفسك للمعصية ستجد مَنْ يوصيك وهكذا ، لأن النفس ليس لها سيال دائم ، وكلٌّ منا يَجْبر ما عند صاحبه ، هذا معنى (وتواصوا) أى : فيما بينكم ﴿ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

الحق سبحانه يقسم (والعصر) يعنى : والزمن المعدود ، يقسم على ماذا ؟ ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ ﴾ [العصر] يعنى : جنس الإنسان كُلُّه فى خُسْر وضياع وضلال لا يستثنى من ذلك ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

كأن الحق سبحانه يقول لنا : استقرئوا الزمن وتأملوا التاريخ ، انظروا إلى الحضارات الغابرة من قديم الزمان ، أين هى ؟ ماذا بقى منها ؟ حضارة الفراعنة فى مصر وما وصلتْ إليه من تقدم فى علوم لم نتوصَّل إلى أسرارها حتى الآن مع أننا فى عصر التقدم العلمى ، حتى الأمريكان عجزوا أن يصلوا إلى أسرارها .

ومع ذلك بادتْ وذهبتْ كلُّ هذه العلوم ، لأن أصحابها لم يجعلوا لها صيانة تحميها وتضمن لها البقاء ، وكان طغيانُ القوم سببَ هلاكهم ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[1] ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر]

بل هناك حضارات أعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب لا نعرف عنها شيئاً ، حتى القرآن لما أخبر عنها أعطانا

---

(١) الأوتاد : جمع وتد . وهو ما ثُبِّت فى الحائط أو الأرض من الخشب ، وأوتاد فرعون أنه كانت له حبال وأوتاد يُلعب له بها . [لسان العرب – مادة : وتد] .

صورة مجملة عبرتْ عن هذه العظمة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ[١] ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ ﴾ [الفجر]

نعم هذه حضارات كانت في يوم من الأيام ملءَ السمع والبصر ، لكنها لم تملك أسباب البقاء مع هذا التقدم الذى عاشت فيه ، ويكفى أن الله قال عنها ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ ﴾ [الفجر] ، فكيف كانت إذن ؟

وصدق شوقى حين قال :

وَالعِلْمُ إنْ لَمْ تكْتنفْهُ شمَائِلُ تُعليهِ كَانَ مَطيَّةَ الإخْفَاقِ[٢]

إذن : العمل حين تأخذه من الباقى يبقى ، وحين تأخذه من الفانى يفنى .

والذى يبقى هو القيَم ، فكما أخذنا عطاء الله فى المادة ينبغى أن نأخذ عطاءه فى القيم ، فهى الصيانة التى ستُبقى الأعمال وتجعلها خالدة وتجعل لها معنى وقيمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [فصلت] هذا إعلانٌ يعلنه المسلم ويفخر به ، وسام على صدره ، أنا مسلم ، وإسلامى هو المنطلق الذى من خلاله تكون حركتى فى الحياة ، وهذه

---

(١) قال جمهور المفسرين : إرم مدينة لعاد عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن . وقال محمد ابن كعب : هى الإسكندرية . وقال ابن المسيب : هى دمشق . [الروض المعطار فى خبر الأقطار – لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٢) البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقى ، من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ٤٦ بيتاً ، وهو الـ (١٣) فيها . وحافظ ولد عام ١٨٧١ بديروط ، نشأ بالقاهرة يتيماً ، نظم الشعر فى أثناء الدراسة ، تخرج من المدرسة الحربية ، أحيل للاستيداع ، اشتغل محرراً بالأهرام ولقب بشاعر النيل ، توفى ١٩٣٢ م (الموسوعة الشعرية) .

فى حَدِّ ذاتها دعوةٌ إلى الله ونشرٌ لدين الله وإعلاءٌ لكلمة الله حين لا تنشغل بنفسك إنما تنشغل بدينك .

فإنْ أنجزتَ عملاً تنسبه إلى دين الله ، تقول : لأن الله أمرنى ، فترفع دينَ الله عند الناس ولا تهتم بذاتك الفاعلة ، وحين ترفع دين الله ثِقْ أنه رافعك معه .

إذن : فمن صفات المؤمن أنْ ينسبَ خيره وصلاحه لدينه وإسلامه .

لذلك نقف كثيراً عند قول قارون لما أعطاه الله المال والجاه والسلطان ، فقال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨)﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دمتَ أُوتيته على علم عندك فاحفظه بعلمك ، وكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص] فحين تصل إلى ابتكار أو اختراع أو صلاح فى الكون فاجعله من منطلق الدين والمنهج ، انسبه إلى دينك .

وتذكَّر الحديث الشريف : « ومَنْ كانت الآخرة همَّه جمع اللهُ عليه شمله ، وجعل غِنَاه فى قلبه ، وأتتْه الدنيا وهى راغمة »[1] .

لذلك أتعجَّب حينما أسمع أسماء رنَّانة لنَواد وجمعيات خيرية يقوم عليها الأعيان ووجهاء القوم وسيدات المجتمع ، صحيح نراهم يُقدمون المساعدات ويفعلون الكثير من الخير ووجوه البر ، لكن حين تسألهم عن المنطلق الذى يعملون من خلاله تسمع مصطلحات أخرى مثل (الماسونية) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك بلفظ « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » .

ولما عـرفوا أن أصلها يهودى قـالوا (الروتارى) ، أنا أفعل هذا لأنى روتارى ، سـبحان الله قل : لأننـى مسلم ، لأن إسلامـى أمرنى بذلك ، لماذا لا ترفـع نفسك بِرفعـة دينك ، ولماذا تُفـوِّت على نفسك ثواب هذا الخير فى الآخرة .

قلنا : إن العمل إما أن يكون لله ، وإمـا أن يكون للناس ، العمل لله شـرطه الإخـلاص وجـزاؤك على الله فى الآخـرة ، أمـا الـعـمل للناس فيعطيك منزلة عندهم ووجاهة ورفعة ، هذا جزاؤك وقد أخذته فى الدنيا فلا حظَّ لك فى ثواب الآخرة ، فالإنسان يطلب أجره ممَّنْ عمل له .

لذلك ما سُئلْنَا عن علماء خدموا البـشرية باختراعاتهم وإنجازاتهم وابتكاراتهم : هل لهم نصيب فى الآخرة ؟ نقول : لا ليس لهم نصيب لأنهم فعلوا للناس وللبشرية ولتقدم المجـتمع ، وأخذوا أجورهم صيتاً وسُمْعة وشهرة وتخليداً لذكراهم .. إلخ .

أما الله فلم يكن أبداً على بالهم حين فـعلوا هذه الأشياء ، واقرأوا قوله تعـالى فى شأن هؤلاء : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وفى موضـع آخـر قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

هكذا أعمال الكافرين فى الآخرة كالسراب تحـسبه شيئاً ، فإذا ما ذهبتَ إليه لم تجده ، وليْتَ أمـرهم ينتهى عند هذا الحد إنما تفـاجئهم

---

(١) الهـباء : هو الذرات التى تراها فـى المخـروط الضوئى حـين ينفـذ إلى حجـرتك ولا تراها بالعين المجردة لدقتها .

الحقيقة التى طالما أنكروها فى الدنيا ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] نعم الله الذى أنكره أو كفر به يُوقفه ويحاسبه : أنت فعلتَ ليقال وقد قيل فلا أجرَ لك عندى ، ويبقى لك جزاء كفرك وعنادك .

إذن : نقول : ساعة تعلن أنك تعمل وتبتكر من منطلق إسلامك . ساعة تقول عملت لأننى مسلم ، تُعلى شأن الإسلام وتلفت غير المسلمين إلى جمال هذا الدين ، وأنت فى ذلك داعية إلى الله ، أنت على نهج نبيك محمد ﷺ ، فإنْ قابلتْكَ بعضُ الصعاب فاصبر ، لأن رسولك أُوذِى فى سبيل دعوته فصبر .

فالذى يحمل أمانة الدعوة ويعلنها : أنا مسلم ، وإسلامى هو الضابط لكل حركاتى فى الحياة ويصيبه سوءٌ يعلم أنه أخذ طرفاً من ميراث النبوة ، فما من نبى إلا أوذى وكان له أعداء ، فلا بدَّ لحَمَلة هذه المسئولية أنْ يكون لهم أعداء ، وأنْ يُشتموا وأن تُكال لهم التهم ، هذا أمر طبيعى فى مسيرة الدعوة إلى الله .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

هذا يعنى أن الداعية الذى يَسْلَم من هذا الإيذاء ينقص حظُّه من ميراث النبوة ، وحظه من تركة النبى ﷺ ، إذن : اصبر ، وهل تابعُ محمدٍ خيرٌ من محمد حتى يَسْلَم من الأذى ؟

فإذا لم يكُنْ لك أعداء فى طريق الدعوة فاعلم أنك لستَ على الطريق الذى رسمه لك صاحبُ الدعوة ، وعليك أنْ تراجع نفسك .

الكلام هنا عن الدعوة إلى الله بحقٍّ وتجرُّد وإخلاص ، وعن الكلمة تُقال فى سبيل الله لا فى سبيل جاه أو سلطان أو منصب من متاع الدنيا الزائل ، الدعوة إلى الله لا تكون أبداً قنطرة .

لذلك نقول : ما الذى يحمى الدعاة إلى الله الآن ، وها نحن نقول بأعلى صوت ونكتب فى كل وسائل الإعلام ، والله هو الحامى ، والحمد لله لم نُؤخذ ولم نُسْجن ، ولم يتعرض لنا أحد ، كثير من علماء الدين يعلنون كلمة الحق مجردة من الهوى والمصلحة ، وساعة يعطى لهم الحاكم أذنه يُسمعونه من الكلام ما يرعشه ، ومع ذلك نسمع عن اضطهاد رجال الدين .

ونقول : إذا اضطهد رجل الدين فلا بُدَّ أنه استعمل وسائل محرمةً فى الدعوة إلى الله ، كهؤلاء الذين يميلون إلى حَلِّ المشاكل بالقتل والدماء ، أنت على خلاف مثلاً مع وزير من الوزراء تضربه بالنار ؟ هل هذا هو الحل ؟ وما ذنب الحراس الذين تُهدر دماؤهم وتُيتَّم أطفالهم ؟

أنت صاحب كلمة ، قُلْ ما شئتَ وأصلح بالكلمة الطيبة ، أسمعهم ما يكرهون ، وسبق أنْ قلنا لهم ما لم يستطع أحدٌ أنْ يقوله عندهم ، لأن الشجاعة الإيمانية فى الدعوة إلى الله ليستْ كلمة حَقٍّ تُقَال على سلطان ، إنما كلمة حق تقال عند سلطان جائر ، نعم عنده فى حضوره .

وهذا تطبيق عملى لقول رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] .

نحن لا نتاجر بالكلمة ، إنما نواجه بها كل حاكم ظالم ، نقول له : نحن لا نكرهك ولا نطمع فيما فى يدك من الحكم ، بل نحن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه ، وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

نحبك ونريد أنْ نعينك على مهمتك ، فقط نريد منك أنْ تحكمنا بالإسلام ، أريد أنْ أُحكَم بالإسلام ، لا أن أَحْكُمَ بالإسلام .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن مهمة الدعوة إلى الله ، وأنها ميراث الأنبياء وتركة رسول الله لنا من بعده ، يُعلِّمنا هنا فناً من فنون الدعوة ودرساً من دروسها ، ألاَ وهو مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ.. ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

نعم لا أحدَ يُسوِّى بين الحسنة والسيئة والعقل يؤيد ذلك ، تعالَ إلى اللص الذى يسرق أموال الناس ، ويسرق ثمرة عرقهم وقُلْ له : أتحب أنْ يسرق الناسُ منك ؟ يقول : لا ، نقول : إذن لا تحب لهم ما لا تحبه لنفسك ، يقول لك : أنت تقيد حريتى وأنا حُرٌّ .

نقول له : لا تنسَ أن الله قيَّد حريتك فى سرقة الآخرين وأنت فرد واحد ، وقيَّد حركة الدنيا كلها فى أنْ تسرق منك ، فمَن المستفيد ؟ كذلك فى كل أمور الشرع التى حرَّم الله فيها أنْ تعتدى علَى الآخرين حرَّم عليهم جميعاً الاعتداء عليك ، قال لك : لا تنظر إلى ما حرَّم الله عليك بشهوة . وأمر الناس جميعاً أن لا ينظروا إلى محارمك .

والنبى ﷺ يعطينا نموذجاً فى حكمة الدعوة ، حين جاءه شاب صادقُ الإيمان ، لكن عنده أمر ومسألة لا يستطيع الإقلاع عنها ، وهى شهوة النظر وشهوة الميل إلى النساء ، فجاء وقال لرسول الله

ﷺ : يا رسول الله ، إئذن لى بالزنا .

وتأمل هنا حكمته ﷺ ، قال للشاب دون أنْ ينهره أو يقسو عليه ، إنما تبسَّم فى وجهه وطمأنه أنه أمام داء له دواء ، طالما أنه صادق الإيمان يواجه النبيَّ بدائه ، لم يغُشّ رسول الله ولم يغُشّ نفسه .

لذلك وصف له رسول الله ﷺ الدواء الذى اجتثَّ هذا الداء من جذوره ، وقام الشاب من عند رسول الله وأشدَّ ما يكرهه الزنا .

قال له رسول الله : « يا هذا أتحب ذلك لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لأختك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لزوجتك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لابنتك ؟ قال : لا يا رسول الله ...

وما زال الرسول يذكر له النساء من أهله حتى ذكر العمة والخالة ، وحتى قال الشاب : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداكَ ، فقال رسول الله : كذلك الناسُ يا أخا العرب لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم .... »[1] .

عندها قال الشاب : والله ما هممتُ بشىء أنظر إليه إلا تذكرتُ أمى وأختى وزوجتى وبنتى .

إذن : الدين يحتاج فى الدعوة إليه إلى لِين وحكمة وموعظة حسنة حتى يُقبل منك ما تقول ، لأن الذى تنصَحه بأمر من أمور الدين وهو على غير دينك ، أو على دينك لكنه ألِفَ المعصية وثقُلَتْ

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قُرْب النبى ﷺ أن يتناولوه فقال النبى : دعوه . ثم قال له : أتحب أن يُفعل هذا بأختك ؟ قال : لا . قال : فابنتك ؟ قال : لا ، فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا . فقال النبى : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٣٩٧/٢) وعزاه لابن جرير الطبرى .

عليه الطاعة ، ينبغى عليك أنْ تُخرجه مما ألفَ بأسلوب لا يكرهه ، حتى لا تجمع عليه المعاناة حين تخلعه مما يحب ، وقسوة الأسلوب وفظاظته ، يكفى أن تُخرجه مما أحب بما لا يكره ، وبذلك تمنع عنه شراسة الجدل وثورة العناد والمكابرة .

وكذلك فى المعاملة ، عليك أنْ تواجه السيئة بالحسنة ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [فصلت] يعني : رُدَّ باللين وبالحسنى ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] العداوة المدمرة هى التى تكون بين اثنين عدوين ، كل منهما عدو للآخر ، وفى هذه الحالة يستشرى العداء ويستحكم ، ولا نصل فيه إلى حَلٍّ ، فمتى تنكسر حدَّة العداوة ؟

تنكسر حدَّتها حينما تكون من جانب واحد ، جانب عدو وجانب متسامح لا يرد السيئة بالسيئة ، إنما يعفو ويصفح ، وفى هذه الحالة تهدأ نفسُ العدو ، ولا يجد مجالاً لعداوته ، وهذه أولى خطوات الإصلاح أنْ تأخذ عدوك فى جانبك ، لذلك يقولون : لا تكافئ مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه .

وبهذه الطريقة ينقلب العدو إلى ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] يعنى : صديق قريب مُحب مخلص كيف ؟ لا تقل كيف ، بقدرة الله خالق هذه النفوس وهذه القلوب ومُقلِّبها .

جاء رجل يشكو قسوةَ أحد الأقارب ، فقلنا له : يا شيخ اصبر عليه وقابله بالتى هى أحسن ، وتودَّدْ إليه عَلَّ الله يصلح ما بينكما ، بعدها جاء وقال : دفعتُ بالتى هى أحسن فلم يزدد إلا قسوةً وصار أشدَّ مما كان ، قلت له : إذن راجع نفسك لأن كلام الله قضية مُسلَّمة ، وابحث عن السبب عندك ، فلعلك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ،

والحقيقة أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ، أو أنك أردتَ أنْ تُجرِّب مع الله ، والله تعالى لا يُجرَّب ، التجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ مع الله لصدَقَ الله معك .

وما أجمل قول الشاعر[1] فى هذا المعنى :

يا مَنْ تُضايقه الفِعَالُ مِنَ التى ومِنَ الذى

ادْفَعْ فَدَيتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذِى

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

أى : هذه الخصلة وهذه المنزلة منزلة الدفع بالتى هى أحسن ، هذه الخصلة لا ينالها ولا يتحلَّى بها إلا الذين صبروا على الأذى ، ولا يصل إليها إلا ذو حظ عظيم . يعنى : نصيب وافر من العطاء ، لماذا ؟ لأنه كبتَ نفسه وأمسكها عن الردِّ بالمثل ، فلما كبتَ نفسه من أجل الله جعل اللهُ عاقبته خيراً ، وأجزل له العطاء .

ونلحظ هنا على الأداء القرآنى تكرار عبارة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت] فلم يقُلْ الحق سبحانه : وما يُلقاها إلا الذين صبروا وذو حظ عظيم .. قالوا : تكررت العبارة لأن التلقى مختلف ، هذا تلقى صبر ، وهذا تلقى جزاء . وكثيراً ما يقف المستشرقون وأهل البصر بالقرآن أمام مواطن التكرار فى كتاب الله باحثين عن الحكمة منه ، لأن كتاب الله محكم ، ليس فيه حرف زيادة أو عبث .

ومن هذه المواطن وقفوا عند التكرار فى قصة سيدنا يوسف لَمَّا قال لأبيه سيدنا يعقوب عليهما السلام : ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

---

(١) من قول الشيخ يرحمه الله .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] قالوا : ما فائدة تكرار الفعل (رأى) هنا ؟ نقول : يعنى ساعة رأى الشمس والقمر رآهم ساجدين ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا رآهم أولاً غير ساجدين ثم رآهم يسجدون أمامه .

إذن : فالرؤيا الأولى رأى أحد عشر كوكباً ورأى الشمس والقمر فى غير هيئة السجود ، ثم رأى الشمس والقمر له ساجدين ، وهذا المعنى لا يكون إلا بتكرار الفعل .

كذلك هنا ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت] صبروا على الإيذاء ، وصبروا على ضبط النفس ، وصبروا على مغالبة الشيطان الذى يُوسوس لهم بالانتقام ويُزيِّن لهم الردَّ بالمثل . وكانت عاقبة الصبر الجزاء والحظ الوافر .

وينبغى ألاَّ نغفل دور الشيطان فى هذه القضية ، فمهمته أن يلهب نار العداوة بين الناس ، وأن يشعل الفتن ليلهيهم بها عن مطلوبات الله فسوف يوسوس لك : لماذا تتسامح وقد أُسِيء إليك ، لماذا تقبل الذل ؟ أهو أفضل منك ؟

لأن إبليس منذ أُمِر بالسجود لآدم فأبَى ، وكانت النتيجة أنْ صار ملعوناً مطروداً من رحمة الله منذ هذا الموقف ، والعداء مُستحكم بينه وبين ذرية آدم ، ولن يتركهم حتى يُوردهم نفس مورده .

لذلك أقسم : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : يا رب أنا لستُ متمرداً عليك إنما على ذرية آدم ، فالذى تريده طائعاً لا يمكن لى أنْ أغويه ، فليس لى سلطانٌ على المخلصين منهم .

ومن خيبة إبليس أنه أفشى سره ، وأعلن عن وسائله فى غواية

بني آدم ، ومعلوم أن الذى يصنع مكيدة أو مؤامرة يحتفظ لنفسه بالتفاصيل ، أمَّا إبليس فأعلن عنها ، فأعطانا الله الاحتياط .

قال تعالى حكايةً عن إبليس : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] أقعد لهم على الصراط . يعنى : على طريق الاستقامة وفعل الخير لأشغلهم عنه وأفسده عليهم . ولذلك قلنا : إن الشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد .

وفى موضع آخر قال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (١) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه لم يتركنا نهباً لهذا العدو الذى يتربص بنا ، إنما أعطانا الحصانة التى نتحصَّن بها منه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت] ذكِّره بالله القوى ، فإنْ كنتَ أنتَ ضعيفاً أمامه فاستعنْ عليه بالإله القوى ، وساعةَ يراك فى جنب الله لا يجرؤ أبداً عليك ، لأنك داخل فى هؤلاء الذين استثناهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وانتبه أنه لن يأتيك إلا على الصراط المستقيم ليفسده عليك ، يأتيك فى صلاتك ويُذكِّرك بما لم يكُنْ لك على بال ، وبأهم الأمور

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم . وهو الكلام الذى يغرى بين الناس . ونَزْغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [اللسان - مادة : نزغ] .

عندك فى الدنيا ، المهم عنده أنْ يفسد عليك الآخرة بأى ثمن .

فإذا وجدتَ فى نفسك شيئاً من نَزْغه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قُلْها فى كل حال يأتيك فيه إبليس وأنت تصلى ، وأنت تقرأ القرآن ، وأنت فى أىّ عبادة من العبادات .

لك أنْ تقول هذه الكلمة وهى لا تُخرجك من عبادتك على أىٍّ حال ، وعندما تداوم على هذه الكلمة سييأس منك ويبتعد عنك ، ويعرف أنك صلْبٌ قوىٌّ تستمد قوتك من الله ، عندها سينصرف عنك ، ولم لا وأنت تعرف ألاعيبه وتكشف حيله ؟

لكن الخيبة أن كثيرين منا ينساقون وراء الشيطان ، ويُسْلمون له قيادهم ، وما يفعله الشيطان مع هؤلاء أنه يعطيهم أول الخيط ويتركهم هم (يكرُّون) الباقى دون جهد منه ودون عناء ، وهؤلاء هم الذين استزلّهم الشيطان وأخضع رقابهم ، فهم يسيرون فى ركْبه دون تفكير أو تأمُّل .

هَبْ أن لصاً جاء يحوم حول بيتك . فقلت : إحم . تريد أن تُسمعه ويعرف أنك يقظ ، لا بدَّ أنه ينصرف ، وقد يعتبر أنها مصادفة فيعاود مرة أخرى فتقول : إحم ، إذن : ليست مصادفة بل أنت له بالمرصاد فأنت متيقظ ، لذلك ينصرف عنك بلا رجعة ، كذلك الشيطان .

قلنا : من غباء إبليس وغفلته أنْ يعلن لنا عن خططه فى غواية بنى آدم ويعلن عن أساليبه ، والغباء يكون أعظم لمن عرف هذه الخطط وهذه الأساليب ، وانساقَ وراءها ولم يأخذ الحيْطة .

وحين نتأمل قول إبليس : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] تلحظ أنه ترك جهتين لم يذكر أنه يأتى منهما : جهة أعلى وجهة أسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأن العُلو جهة التوجه إلى الله ، جهة عزِّ الربوبية ، وجهة الأسفل تمثل ذُلَّ العبودية ساعة تسجد لله ذلاً وخضوعاً له سبحانه ، فهاتان الجهتان لا يأتى منهما الشيطان .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت] الذى لا يغيب عن سَمْعه شىء ، فإنْ وسوس لك الشيطان بكلام سمعه وعلمه .

بعد أن بيَّن لنا القرآن هذا البيان ، يعود ليلفتنا ثانياً إلى بعض آيات الله فى الكون ، فبهذه الآيات نستدل على وجود الخالق سبحانه وعلى قدرته تعالى ، حيث لو جاءت هذه الآياتُ على أيدى علماء كافرين بالله إلا أننا ننتفع بها ، والله مساكين هؤلاء العلماء ينفعون البشرية كلها ولا ينفعون أنفسهم ، لأنهم - كما قلنا - لا ينطلقون فى اختراعاتهم وابتكاراتهم من منطلق الإيمان بالإله تبارك وتعالى ، فهم كالمطايا ينتفع الناس بخيرهم ، ولا ينالهم من ذلك شىء ، اللهم إلا متاع الدنيا الزائل .

وأقرب آيات الله للإنسان نفسه لو تأملها ، مثلاً درجة الحرارة الطبيعية للجسم ٣٧° تجدها ثابتة فيمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وفيمن يعيش عند القطب الشمالى ، وأنتم تعرفون نظرية الاستطراق الحرارى ، لكن قدرة الله تحتفظ للجسم بهذه الدرجة بصرف النظر عن الجو المحيط به .

ثم فى داخل الجسم ذاته تجد حرارة الأعضاء مختلفة ، فالعين لا

تزيد درجة حرارتها عن ٩° ، والكبد لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° ، وهما فى جسم واحد وغلاف واحد ، ومع ذلك لا يحدث استطراق للحرارة ، وهذه آية ومعجزة لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

تأمل الدم سائل الحياة الذى يجرى بداخلك لا بدَّ له من درجة سيولة معينة داخل الجسم ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلط وحدث شلل للجزء الذى تحدث به الجلطة والعياذ بالله ، وإنْ زادتْ سيولته أدَّى إلى نزيف ، فمَنْ يحفظ له هذه الدرجة من السيولة ؟ الله !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] (من) هنا تفيد التبعيض يعنى : هذه بعضُ آياته تعالى فى الكون ، وإلا فآيات الله فى كونه كثيرة لا تتناهى ، والآية هى الشىء العجيب فى تكوينه وخَلْقه الدالّ على قدرة الله وحكمته وبديع صُنْعه .

﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] آيتان من آيات الله الكونية ، والليل والنهار يكونان معاً اليوم الذى نعرفه ، وهو من الوقت إلى مثله ، قال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة]

هذه الآيات الكونية المذكورة هنا ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] أخذتْ حظّاً واسعاً فى موكب الرسالات وفى العقائد ،

ففى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو يبحث عن الحق والحقيقة لما نظر فى الكون من حوله ، فرأى كوكباً قال : ﴿ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ[1] قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا[2] قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالشمس والقمر مرتبطان بالليل والنهار لهما مدخل فى العقيدة ، هذا المدخل فى العقيدة ينتقل من قسم العقيدة وهى الإيمان بالإله الواحد إلى شىء آخر ، هذا الشىء جُعل دليلاً إيمانياً على أمر شكَّ العربُ فيه لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ ، إذن : كانت هذه الآيات الكونية مدخلاً أولاً للعقيدة والإيمان بالله ، ثم كانت دليلاً على عدم انقطاع الوحى عن سيدنا رسول الله ﷺ .

تعلمون قصة نزول الوحى على سيدنا رسول الله لأول مرة فى غار حراء ، وأنه ﷺ كان يعانى ويتعب من لقاء الملَك لاختلاف الطبيعة الملائكية عن الطبيعة البشرية ، وأنه ﷺ كان يذهب إلى أهله يقول مرة : زمِّلونى زمِّلونى ، ومرة : دثِّرونى دثِّرونى لما كان يحدث فى طبيعته ﷺ من تغيير ، لذلك كان الوحى فى بدايته ثقيلاً على رسول الله ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) ﴾ [المزمل]

---

(١) أفل الكوكب وأفلت الشمس : غابت . وأفل الشىء : ذهب . [المحيط فى اللغة للصاحب ابن عباد . مادة : أفل] .

(٢) بزغ القمر والشمس : طلعتْ . والبزوغ : ابتداء الطلوع . فبزوغ القمر : طلوعه منتشر الضوء . [تاج العروس للزبيدى - مادة : بزغ] .

وروى الصحابة أنه ﷺ كان يتفصَّد[١] جبينه عرقاً لما ينزل عليه الملَك ، والصحابى الذى كان يجلس بجوار رسول الله ﷺ يسند فَخذَه عليه ، كان يجد ثِقَلاً لا يطيقه حينما ينزل الوحى على رسول الله[٢] .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ هذه المعاناة ، فانقطع الوحى لمدة ستة أشهر ، ليستريح رسول الله وتذهب عنه متاعب التلقِّى الأولى ، وليشتاق إلى لقاء الملَك من جديد ، وإلى كلام الله الذى انقطع عنه ، ولا شكَّ أن هذا الشوق سيعطيه طاقةً لتحمُّل أمر الوحى والدعوة بعد ذلك .

رأى كفار مكة فى انقطاع الوحى عن رسول الله مأخذاً ، فقالوا : إن ربَّ محمد قلاه[٣] يعنى : تركه وهجره ، وهم لا يعلمون أن فتور الوحى ليس هَجْراً ، إنما هو وداع الحبيب لحبيبه إلى لقاء آخر أعظم وأطول ، ولذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[٤] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

هذا هو موضع الشاهد ، أن الحق سبحانه أقسم لهم بالضحى

---

(١) يتفصد عرقاً : يسيل عرقه . قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه - كتاب الصلاة ، باب ما يُذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (فتح البارى ١/٤٧٨) .

(٣) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(٤) سجا : سكن ودام . وقال الفراء : إذا أظلم وركد فى طوله . وليلة ساجية : إذا كانت ساكنة البرد والريح والسحاب غير مظلمة . [لسان العرب - مادة : سجا] .

وهو النهـــار ، وبالليل إذا حَلَّ بظلامـــه ، وجـعل من هاتيـن الآيتـين الكونيـتين دليلاً على أن الـوحى ما انقطع ، إنمـا أراد الله لرسوله أن يرتاح من تعبه ، وأنْ يعاود نشاطه لتلقِّى الوحى من جديد ، كما أنكم تتعبون فى النهار وترتاحون فى الليل .

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] ومعروف أن الضـحى للشمس والليل للقمر ، إذن : فـفترة فتور الوحى عن رسول الله يُراد بها التخفـيف عنه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح]

والمراد : نشرح صدرك لنزول القرآن عليك فتشتاق إليه ، ويكون عندك طاقـة لاسـتـقـبـاله ، فكأن القـرآن أخـذهم من الآيات الكونيـة المحسوسة إلى المعـنويات ، وجعل ما يرونه دليلاً على ما ينكرونه ، يعنى : إذا كنتم فى حركة حياتكم اليومية تحتاجون لليل تسكنون فيه وترتاحون من عناء النهـار ، فكذلك رسول الله يحتاج إلى هذه الـفترة ليرتاح فيها من عناء وثِقَل الوحى فى بدايتـه ، ليجدد نشاطه ويشتاق إلى لقاء الملك من جديد .

لذلك قال تـعـالى بعــدها ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى] فمعاودة الوحى سـتكون أعظمَ من الأولى وخير منها ، لأن المعاودة ستكون أطولَ وأقوى .

وكمـا دخلتْ هذه الآيات الكونيـة التى هى الليل والنهار والـشمس والقمـر فى العقيدة فـى قصة سيـدنا إبراهيم وفى الوحى المنزَّل على سيـدنا رسـول الله ، كـذلك دخلتْ فى حَلِّ بعض الإشكالات فى قـضايا اجتماعية اهتم الإسلام بها ، وهى قضية المساواة بين الرجل والمرأة .

وهذه قضية كَثُر الجدل فيهـا ، وأخذها المغرضون ذريعة للهجوم على الإســلام ، مع أن الإسـلام أعظـم دين أنصف المــرأة وأعطاها حقوقها ، وألزم المجتمع باحترامها ، الإسلام ينظر إلى الرجل والمرأة على أنهما نوعان من جنس واحد يعنى : هما فى الأصل شىء واحد .

إذن : لا بدَّ أنْ يكون بينهما قدر مشترك ولما انقسما إلى قسمين ذكر وأنثى ، صار بينهما قدر غير مشــترك ، وصار لكل منهما مهمته فى حركة الحياة ، ولكى يوضح لنا السـياق القرآنى هذه المسألة قال تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] فكما أن الليل والنهـار متكاملان متعاونان غير متعاندين ، وكمـا أن لكل منهما مهمته فى الحياة ، هذا للعـمل وهذا للراحـة ، فكذلك حـال الرجل والمـرأة ، عنصـران لشىء واحد ، وهما يتكامـلان ويتعاونان لا يتعاندان كالليل والنهـار ، فحين تنظرون إلى الرجل والمرأة لا تنظروا إليهما على أنهما نوعان مختلفان فى الجنس قد يكون بينهما تعـاند ، لأنهما من جنس واحد ، والجنس الواحد لا يُصادم بعضه بعضـاً ، الجنس الواحد رسالتُه واحدة ، الكلّ يتعاون فى حـملها كُلٌّ بما يناسبه وبمـا خلقه الله له ، وبما أعطاه من قدرات وإمكانيات .

وهذه قضـية اخـتلفوا فيـها ، خـاصة الملاحـدة الذين نظروا إلى الجنس ، ولم ينظروا إلى ما تحته من الذكر والأنثى ، فرغم الاختلاف بين النوعين إلا أنهم أرادوا أن يكون لهما مهمة واحدة لا اختلاف بين الذكر والأنثى .

لذلك الحق سبحانه يعطينا هذا المـثل التوضيحى : الليل والنهار ،

وهل مهمة الليل كمهمة النهار ؟ لكلٍّ مهمته وطبيعته ، ومَنْ يعاند هذه الطبيعة يتعب في حركة حياته . كذلك جُعل الرجلُ للعمل وللقوة والسعي ، وجُعلَتْ المرأة للعاطفة واستقبال الأبناء وتربيتهم ، خاصة وطفولة الإنسان هي أطول طفولة في الكائنات ، والإشراف عليها مهمة المرأة ولا يجيدها الرجل .

فالحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل يعلِّمنا أن نرد ما اختلفنا فيه إلى ما اتفقنا عليه ، فكما أننا لا نختلف في مهمة الليل ومهمة النهار ، كذلك ينبغي ألاَّ نختلف في مهمة الرجل والمرأة ، وألاَّ نُردد كلمة المساواة هكذا دون فَهْم لطبيعة كُلٍّ من الرجل والمرأة ودور كلٍّ منهما الذي خلقه الله له .

وفي موضع آخر يعلمنا الحق سبحانه هذه الحكمة من خلق الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

وبعد ذلك ، جعل سبحانه وتعالى للزمن مدخلاً آخر غير الليل والنهار ، وهو فترات الزمن : الساعات والدقائق والثواني ، وبها يتم ضبط الزمن ، والساعة التي تضبط لك الوقت لا تؤدي هذه المهمة إلا إذا كانت هي نفسها منضبطة تماماً ، لذلك جعل الله تعالى للشمس وللقمر مهمة أخرى هي مهمة ضبط الوقت ، لذلك جعلهما منضبطتين في حركتهما بإحكام .

يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] يعني : بحساب دقيق محكم لا يختلف أبداً ولا يدخله فساد ، ومن حركة

الشمس والقمر نحسب الوقت خاصة الأمور الدينية التى لا نستطيع أنْ نضبطها إلا بهذه الحركة .

قال تعالى : ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ۝٥﴾ [يونس] فمن حركة الشمس أعرف الليل والنهار ، ومن حركة القمر أعرف بدايات الشهور ونهاياتها .

إذن : من حركة الشمس والقمر والليل والنهار أستطيع أن أضبط حركة التكليف فى الصلاة بأوقاتها المختلفة ، هذه الأوقات التى تضمن دوام إعلان الولاء لله تعالى فى كل وقت وفى كل مكان نتيجةً لاختلاف المشارق والمغارب على مدار اليوم الكامل .

لذلك قال تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.. ۝٢٨﴾ [الشعراء]
وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. ۝٤٠﴾ [المعارج]
وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن]

نعم ، هى مشارق متعددة ومغارب متعددة ، لأن كلَّ مكان له مشرق وله مغرب ، وكل مشرق فى مكان مغرب فى مكان آخر وهكذا ، ألاَ ترونَ فى الصيام مثلاً أننا نفطر فى القاهرة قبل الإسكندرية بخمس دقائق ، لماذا ؟ لأن مشرق القاهرة غير مشرق الإسكندرية ، ومغرب القاهرة غير مغرب الإسكندرية ، لذلك نسمع المذيع يقول : مع مراعاة فروق التوقيت ، أى : الفروق الزمنية بين مكان ومكان .

إذن : المتأمل فى حركة الشمس يجدها فى لحظة لها شروق ولها غروب ، وعليه فذكْر الله فى الصلاة وفى الأذان يسيح فى الزمن كله بلا انقطاع ، لذلك يقول أهل التصوف : يا زمن وفيك كُلُّ الزمن ، فأنت حين تصلى الفجر ، هناك غيرك يصلى الظهر ، وغيره يصلى العصر ، وغيره يصلى المغرب ، وغيره يصلى العشاء فى الوقت

نفسه وفى اللحظة نفسها ، فتجد الحق سبحانه معبوداً فى كل وقت بكل أنواع العبادة .

وإنْ أردتَ الدقة أكثر فاجعل هذه المسألة مرتبطةً بعقرب الثوانى فى ساعتك لا عقرب الدقائق ولا الساعات ، ففى كل ثانية لله مؤذن يُؤذِّن : الله أكبر . وغيره يقول : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وغيره فى نفس اللحظة يقول : أشهد أن محمداً رسول الله وهكذا . فكأن شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله دائمة بدوام الزمن لا تنقطع من الوجود أبداً .

ثم يعطينا الحق سبحانه ملحظاً آخر للشمس والقمر ؛ لأنهما من أعظم المخلوقات ، وعُرِف عنهما الثبات والدقة والعظمة فى الخَلْق ، حتى أن بعض الناس عبد الشمس أو القمر ، فأراد الحق سبحانه أن يلفت الخلق إلى عظمة الخالق الذى هو أَوْلَى بالعبادة من مخلوقاته .

فجعل الشمس والقمر يعتريهما تغيير هو الكسوف والخسوف ، فمهما كانتْ الشمس ، ومهما كان القمر هما مخلوقان متغيران ، والمتغير لا يكون معبوداً أبداً ؛ لذلك قال سبحانه فى الآية التى معنا :

﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

الحق سبحانه فى أول الآية قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.. (٣٧) ﴾ [فصلت] والآية هى الشىء العجيب فى الخَلْق البديع فى نظامه وإحكامه ، وهذا الخَلْق العظيم ينبغى أنْ يُعظّم بتعظيم الله له ، لكنْ لا يجوز أنْ يتعدَّى هذا التعظيم إلى حَدِّ العبادة ، وإلى حَدِّ السجود للمخلوق مهما كان عظيماً ، لأنه مخلوق مُتغيِّر ، والإله لا يتغير من أجل العباد ، لكن العبادَ يتغيرون من أجل الله .

وهذه المسألة تُفسِّر لنا قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، فلم يكن سجودَ عبادة ، إنما كان امتثالاً لأمر الله لهم بالسجود لآدم ، لكن لماذا أسجد اللهُ الملائكة لآدم ؟

قالوا : لأن آدم سينزل إلى الأرض ، وستكون له حركة إعمار فيها ، وستكون الملائكة فى عَوْنه تساعده على أداء مهمته فى الأرض ، الملائكة الموكلون بأمور الناس وهم المدبِّرات أمراً ، وكما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فالملائكة الذين أُمروا بالسجود ليس هم كلّ الملائكة ، إنما الذين لهم علاقة بالإنسان ، فكأن الحق سبحانه يُعرِّفهم على هذا المخلوق الجديد ، الذى سيكونون فى خدمته ، فاسجدوا له سجودَ خضوع وامتثال ، ليعلموا أنهم فى خدمته يُدبِّرون له الأمور .

لذلك ورد فى الحديث الشريف(١) « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » يعنى : على هيئة ورديات دائمة لا تنقطع .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (٣/١٣٩) طبعة دار القلم بيروت : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

ومن الملائكة نوعٌ آخر لا دَخْلَ له بالإنسـان ، ولا علاقةَ له به ، بل لا يدرون عن عالمنا هذا شـيئاً ، وهم العَالُون الذين قـال الله فيهم في الحديث عن إبليس : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

إذن : إذا كان السابقون عظموا الشمس والقمر حتى سجدوا لهما ، فاعلموا أن خالقهـما أَوْلَى بالسجود : ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت] يعنى : إن كنتم تأتمرون بأمره .

ملحظ آخـر نأخذه من الشـمس يُوقفنا على شيء غـريب لم نكُنْ نعـرفه من قـبل ، ففي سـورة الكهف يحكي لنا القـرآن سيـاحة ذي القرنين ، فيقول سبحانه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. (٨٦)﴾ [الكهف]

أي : مغرب الشمس في مـرأى العين ، لأنك لو وصلتَ إلى العين الحمئة فسوف تجد الشمس ما زالتْ بعيدة ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف] ذلك لأنه رجل مُمكَّن في الأرض ، له منزلة وسلطان .

والمُمكَّن في الأرض مهمته أنْ يقيم فـيها موازين العدالة ومعايير الصواب والعقاب ، لأن حركـة الناس في الدنيا لا تستقيم إلا إذا أُثيب المحسن وعُوقب المسيء .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ [الكهف]

ثم تكلم عن مطلع الشمس ، فقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : ليس بينهم وبينها حجاب يسترها ، ولم يذكر لنا شيئاً بعد مطلع الشمس كما ذكر الدرس السابق عند مغرب الشمس ، حيث كان له عمل ودور مع مَنْ أحسن ومن أساء ، أما فى مطلع الشمس فقال : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] وسكت ، فكأن الهدف أنْ نعرف أن ذا القرنين وصل إلى مكان ، نهاره طويل لا شيء يحجب الشمس فيه .

وبعد أن اكتشف العلماءُ خطوطَ الطول وخطوط العرض عرفنا أن بعض الأماكن عند القطبين يطول النهار حتى يصل إلى ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وهذه لقطة من إعجاز القرآن العلمى .

فإنْ قلتَ : فكيف يفعل مَنْ يعيش فى هذه الأماكن ؟ كيف يصلى وكيف يصوم ؟ نقول : يُقدِّر لليوم العادى مقداره ، ولليل مقداره فيقسم الوقت إلى ليل ونهار كالمعتاد ، وكذلك مَنْ كان ليله ثلاثة أشهر أو ستة أشهر .

ملحظ أخير يتعلق بصياغة الآية وما فيها من دقة بيانية ، فالحق سبحانه بدأ بآية الليل ثم النهار ، وبدأ بالشمس ثم القمر ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] وكانت المناسبة تقتضى أنْ يقول : والقمر ليناسب الليل ، والشمس لتناسب النهار .

لكن لصياغة القرآن حكمة ودقة بيانية ، فالحق سبحانه يبدأ بالأهم فى حركة الحياة ، فالليل جُعل للراحة والنهار للعمل ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ لإعمار الأرض ، وللسعى فى مناكبها ، ولا إعمارَ إلا بحركة ، والحركة تحتاج إلى زمنين : زمن للراحة ، وزمن للعمل .

فقدَّم الليل وقت الراحة لأنك لا تنتج ولا تكدّ إلا إذا أخذتَ حظك من الراحة أولاً ، فكأن الراحة أولاً هى أصلٌ يأتى بعدها العمل ، وإلا فالمتعَب المكدود لا ينتج ولا ينجز ، كذلك قدَّم الشمس على القمر ، لأنها الأعظم والأهم ، ومنها تستمد كل النجوم والكواكب نورها .

وما دُمْنا بصدد الحديث عن الليل والنهار ، فلا بدَّ أن يواجهنا هذا السؤال : أيهما أوَّلٌ فى الخَلْق ؟ البعض يقول : الليل أولاً . بدليل أننا نثبت مثلاً دخولَ رمضان بليله لا بنهاره ، فحين نرى الهلال نقول : غداً رمضان ، والذين يعتقدون أن الليل وُجد أولاً لابدَّ أن لديهم قضية أخرى هى أن النهار غير سابق لليل .

الحق سبحانه يُنهى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ**[1] **يَسْبَحُونَ** (٤٠) ﴾ [يس]

وننتهى بذلك إلى حقيقة كونية أثبتها الحق سبحانه هى : لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار ، لأنهما كما بيَّنَّا وُجدا فى بداية الخَلْق معاً ، فى وقت واحد ، ثم دار كل منهما مع الآخر .

---

(١) الفَلَك : مدار النجوم . والجمع أفلاك . وأهل النجوم يقولون : الفلك سبعة أطواق دون السماء قد رُكِّبت فيها النجوم السبعة ، فى كل طوق منها نجم وبعضها أرفع من بعض يدور فيها بإذن الله [اللسان - مادة : فلك] .

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ[1] يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أى : عن طاعة الله في أمره ونَهْيه في الآية قبلها ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ، والاستكبار هنا يدلُّ على عدم الإيمان بالله الآمر الناهى ، لأنهم سجدوا للشمس وسجدوا للقمر سجودَ عبادة ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر المعبود ، والشمس والقمر ليس لهما أوامر ولا نَوَاه ، فعبادتهما باطلة ، وتدل على غباء مَنْ عبدها وعلى كذبه فى هذه العبادة ، لأنها مخلوقات لا أمرَ لها ولا نهى ولا تكاليفَ ، لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

لذلك قلنا : إن كلمة العبادة هنا كذب وباطلة (فنطزية) يعنى : المهم يكون لهم معبودٌ يُرضى عنده رغبته فى التدين ، وما أسهلَ أنْ يتخذَ الإنسانُ معبوداً لا تكاليفَ له .

لذلك لما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] قلنا : كلمة نعبدهم هنا كذب ، بدليل أنكم إذا نزل بكم الضر لا تلجئون إلى الشمس ولا إلى القمر ، إنما تلجئون إلى الله : ﴿ وَإِذَا

---

(١) قال الرازى فى تفسير هذه الآية (فصلت ٣٨) : تمسك المشبهة بقول ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (٣٨) ﴾ [فصلت] فى إثبات المكان والجهة لله تعالى ، والجواب : أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا . ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا . ويدل عليه قوله « انا عند ظن عبدى بى » « وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى فى مقعد صدق » .

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ.. (٣٣) ﴾[الروم]

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) ﴾ [فصلت]

المعنى : أن الحق سبحانه مُستغْنٍ عن طاعة هؤلاء المستكبرين وعن عبادهم ، فله سبحانه ملائكة مُكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا عملَ لهم سوَى التسبيح ، وهم لا يسأمون ولا يملّون ولا يتعبون .

قالوا فى العندية هنا ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أنها عندية مكانة ، لا عندية مكان ، عندية تكريم وشرف ، كما قال سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر]

فهؤلاء الملائكة ليسوا عند الله فى مكان واحد ، ولا هم قاعدون معه سبحانه ، إنما هى مثلنا تماماً لا يروْنَ الله سبحانه ، ويؤمنون به مثلنا بالغيب ، والله بالنسبة لهم غَيْبٌ ، وبعض التفسيرات وأنا أشجعها تميل إلى أن الله تعالى ليس له مكان لأنه فى كل مكان ، فكل مكان عند الله .

ولذلك اقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ

(٨٥) ﴾ [الواقعة] البعض يقول : العندية هنا عندية علم ، ولو كانت كذلك لم يقُلْ ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ [الواقعة] فما دام قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ [الواقعة] فهى عِنْدية حقيقية شائعة فى كل مكان .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

ما يزال السياق القرآنى يأخذنا إلى الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ .. (٣٩) ﴾ [فصلت] من هنا قلنا للتبعيض . يعنى : هذه بعض آيات الله (آياته) أى : الكونية الدالة على قدرته تعالى ، وهى الشىء العجيب الدالّ على بديع الصنعة ﴿ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً .. (٣٩) ﴾ [فصلت] أى : ساكنة مستقرة لا شىء عليها من زرع مثلاً ، لأن الأرض خُلقت لتكون تربة للنبات ، وكأنَّ الأرض التى لا زرعَ عليها أرضٌ حزينةٌ خاشعة ساكتة ساكنة لأنها لم تنبت ، وربما شابهت فى ذلك المرأة التى لا تنجب .

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩) ﴾ [فصلت] اهتزَّتْ : تحركت (وَرَبَتْ) زادت وانتفشتْ ، ترونَ حبة الفول النابت مثلاً تكون جافة جامدة ، فإذا بللتها بالماء زادتْ فى الحجم وانتفشَتْ ، والمراد : اهتزتْ وتحركت بما يخرج منها من نبات .

﴿ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا .. (٣٩) ﴾ [فصلت] أى : أحيا هذه الأرض الساكنة بالنبات وحوَّلها إلى هذا البساط الأخضر النضر ﴿ لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ .. (٣٩) ﴾ [فصلت] إذن : خُذْ من هذه الآية الحسيَّة المشاهدة

لك دليلاً علَى صدْق ما غاب عنك وأخبرك الله به من أمر إحياء الموتى ، فيا مَنْ تكذِّب بالبَعث وإحياء الموتى ، أما لك عبرةٌ فى إحياء الأرض القَفْر الجدباء بالنبات .

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : قدرة الله فيها طلاقة ، لأنه سبحانه لا يعجزه شىء ، والذى خلق الخَلْق الأول من عدم أقدرُ على إعادته ؛ لأن بعث الميت يبعث شيئاً موجوداً وهذا أهون لو قلنا تجاوزاً فى حَقِّ الله تعالى هيِّن وأهون ، لكى نفهم نحن ، يقول تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]

الحق سبحانه وتعالى أخبرنا عن كيفية خَلْق الإنسان والذى يعرف كيفية البناء يعرف منها كيفية الهدم ، وقلنا : إنها عكس البناء ، فما بُنِى أولاً يُهدم آخراً ، وآخر شىء فى البناء أول شىء فى الهدم وهنا الروح .

ولا بدَّ أن نذكر هنا أن الحق سبحانه حذَّرنا من المضلين الذين يضلون الناس فى مسألة الخَلْق . فقال : لا تُصدِّقوا مَنْ يخبركم بشىء فى هذا الموضوع لأنه لم يشهد عملية الخَلْق : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : فكأن الذين قالوا إن الإنسان أصله قرد جنودٌ لهذه الآية

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . ومنه قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

ودليل على صدقها ، فالحق سبحانه يعلم ذلك ويتنبأ لنا به ، وها هو يحدث فلا تُصدِّقوهم ، إنهم كاذبون بدليل أن الإنسان عاش على هذه الأرض آلاف السنين لم يَرَ إنساناً تحوَّل إلى قرد ، ولا قرداً تحوَّل إلى إنسان .

ولقد توصَّل العلم الحديث إلى صدق القرآن في مسألة خَلْق الإنسان من طين الأرض ، حيث وجدوا أن عناصر تكوين الإنسان هي نفس عناصر تكوين الأرض ، وهي ستة عشر عنصراً ، وحين يموت الإنسان تتحلَّل هذه العناصر وتذوب في الأرض ، فأجزاؤه موجودة يعلمها الله ويُحصيها وهو وحده القادر على إعادتها .

واقرأ : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، لكنها سهلة هيِّنة على الخالق سبحانه ، فهو عز وجل يعلم كم نقص منك من عناصر ومقدار هذه العناصر ونحن بنو البشر نختلف في أشكالنا وألواننا ، لكن المادة واحدة هي الستة عشر عنصراً في الكل ، لكن الأجزاء تختلف ، ونسبة هذه العناصر تختلف من إنسان لآخر ، ولذلك تختلف شخصياتنا .

فقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ④﴾ [ق] يعني : كم أخذتْ منك من الأكسوجين ، وكم أخذت من الكربون ، وكم أخذت من الحديد .. وهكذا فهي إذن مقادير معلومة في علم الله سبحانه وفي هذا الكتاب الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بكل دقَّة ، وحفيظ فعيل يعني : صيغة مبالغة من الحفظ . فلا تُكذِّب بالبعث ، وخُذْ مما ترى دليلاً على صِدْق ما أخبرك ربُّك به من الغيبيات .

قلنا : لو أن إنساناً يزنُ مائة كيلو مثلاً ثم مرض ، فنزل وزنه إلى ستين ، فكم فقد من وزنه ؟ فقد أربعين ، أين هي ؟ نزلتْ

فضلات إلى الأرض ، نعم ، ثم ذهب إلى الطبيب فعالجه وشفاه الله وبدأ يأكل حتى عاد إلى وزنه الأول .

هل أخذ نفس العناصر ذاتها التى فقدها ؟ لا بل أخذ مثلها ، مثل المريض مثلاً بنقص الحديد فيعطيه الطبيب دواء غنياً بالحديد حتى تعتدل عنده نسبة الحديد فى الدم ، إذن : أخذ نفس العناصر التى فقدها من عنصر الحديد ، لكن ليستْ هى هى التى فقدها من قبل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ .. (٤٠) ﴾ [فصلت] : أى : يميلون بآيات الله عن الحق والاستقامة إلى باطل يرونَهُ هم حقاً ، أو يُحرِّفون الآيات تبعاً لأهوائهم ؛ لأن آيات الله لها معانٍ ، فهم يُلحدون فيها . يعنى : يُخفونها ويُظهرون لها معانىَ أخرى باطلة ، كما نلحد نحن الميت فى باطن الأرض ، بعد أنْ كان يسيرُ عليها ، فالمعنى يُخْفُون حقائقها ليُرضُوا كفرهم وهواهم .

ومن الإلحاد فى آيات الله ما وقع فيه البعض من التشبيه أو التمثيل فى أسماء الله وصفاته ، فحين يقفون عند صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر يُشبِّهون ، فالله له سمع ليس كسمعنا ، وله يد ليست كأيدينا ، وله بصر ليس كبصرنا ، إذن : لا بدَّ أنْ نأخذ هذه الصفات فى إطار عام للآيات الكلية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

ومنه قولهم عن المعجزة سِحْر فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مع فرعون وفَرْق بينَ السحر والمعجزة ، المعجزة حقيقة والسحر تخييل بعيد عن الحقيقة ، صحيح أن معجزة موسى عليه السلام كانت من جنس السحر لأنه المجال الذى نبغ فيه قومه لكنها لم تكُنْ سحراً .

فالحبال التي رماها سحرة فرعون رآها موسى ثعابينَ تسعى ، أما السَّحَرة أنفسهم فيرونَها حبالاً ، فالسحر يُخيل لك الشيء أنه غيره مع أنه ليس كذلك في الحقيقة إنه مجرد خيال ، لذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] تخييل لا حقيقة .

لكن لما ألقى موسى عصاه ، ماذا حدث ؟ تحولتْ إلي حية حقيقية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] ولا يمكن أنْ يخاف موسى من عصاه وهى عصاً لا بدّ أنها انقلبتْ إلى حية بالفعل وهو يراها كذلك ، وبدليل أيضاً أن سحرة فرعون وكانوا كثرةً ، ولهم تمرُّس بأساليب السحر ويستطيعون التمييز بين السحر والحقيقة ، رأيناهم يرفعون راية التسليم لموسى ويؤمنون معه ، لماذا ؟

لأنهم رأوا معجزة هم أَخْبَرُ الناس بها ، وأنها ليست سحْراً من جنس سحرهم ، ولا تخييل كما يفعلون هم ، ولو كَان فعْل موسى تخييلاً ما قال الله له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة ، وقال فى قصة إبراهيم مع الملائكة : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ٢/ ٣٢١] .

وكما قالوا فى موسى - عليه السلام - أنه ساحر قالوها فى سيدنا محمد ﷺ ، والردّ عليها كما أوضحنا بسيط ، نقول لهم : لو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى المسألة ؟

ومن إلحادهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه مجنون مع أنهم ما جرَّبوا عليه شيئاً من ذلك ، وعُرف بينهم بالصادق الأمين ، واتصف فيهم بكريم الأخلاق ، وصاحب الخلق لا يكون أبداً مجنوناً ، وقد ردّ الله عليهم ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم]

ومن إلحادهم فى القرآن أنهم قالوا عنه إنه شعر ، وعجيبٌ منهم ذلك لأنهم أعرفُ الناس بأساليب الشعراء وتعبيرات الشعراء ، هم يعرفون أن القرآن مُعْجز ، وأنه من عند الله ، وأن أسلوبه لا يُضاهَى ، وأنه فريدٌ من نوعه ومع ذلك يكذبون ، وهذا هو الإلحاد .

ومعلوم أنَّ من عظمة القرآن الكريم أنه ليس له أسلوبٌ يُحتَذى ، وأن له مذاقاً خاصاً ، وتقرأ الحديث النبوى تجد له مذاقاً آخر ، وتقرأ الحديث القدسى تجد له مذاقاً آخر ، فمَنْ يجمع كلّ هذه الأساليب بهذا التميز ، وكل منها يفيض عليك بفيض غير الآخر ، وقد ردّ الله عليهم هذا الإلحاد فقال : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة]

ومن إلحادهم أنْ يُغيروا فى الأشياء المطلوبة منهم ، وأنْ يُحرِّفوا الكلمات ، يقول تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا[1] يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ .. ۝٤٦﴾ [النساء]

---

(١) الهَوْد : التوبة والرجوع إلى الحق . هُدْنَا : معناه تبنا إليك ورجعنا وقربنا من المغفرة . هذا هو الأصل اللغوى للكلمة . والتهويد أن يصير الإنسان يهودياً . [لسان العرب - مادة : هود] .

فكانوا يقولون (راعنا) يلوون بها ألسنتهم يعنى : من الرعونة ، لذلك نهى الله المؤمنين أن يقولوها ، فقال سبحانه في سورة البقرة :
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة]

ومن ذلك إلحادهم فى السلام على رسول الله ﷺ ، فبدلَ أنْ يقولوا : السلام عليكم قالوا : السام عليكم .

إذن : فوُجُوه إلحادهم فى آيات الله كثيرة ، وقد أخبر اللهُ عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، والذى لم ينسوه حرَّفوه ، والذى لم يُحرِّفوه كتموه ، وليْتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل وصلتْ جُرأتهم على الله أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولون : هذا من عند الله ، وما هو من عند الله ، وهذا كله ألوان مختلفة لإلحادهم .

لذلك الحق سبحانه يخبر هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] نعم لا يخفوْنَ عن علم الله ، فعدم الخفاء شىء لازم ، لكن المراد أنْ نخبرهم بجريمتهم حتى نعاقبهم عليها ، لأن الجريمة شىء والعقوبة عليها شىء آخر ، فالحق يُعرِّفهم بجريمتهم حتى يكون للعقوبة موضعٌ ، كما يقول أهل القانون : لا تجريمَ إلا بنصٍّ . فكأن الحق سبحانه لا يأخذهم على غِرَّةٍ ، ولا يتركهم فى عَمَىً ، إنما يُوضح لهم قبل أنْ يُؤاخذهم .

﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] هذا سؤال معلوم الإجابة عنه ، والحق يسألنا وهو يعلم أن الجواب سيكون كما يريد سبحانه ، فكأن الحق سبحانه يقول لنا من خلال هذا السؤال : احرصوا على أوامر الله نفِّذوها ، وإياكم والنواهى فاجتنبوها ، فهذا هو سبيل الأمن والنجاة من النار ، وهل يستوى مَنْ

يُلْقَى فى النار ومَنْ يأتى آمناً سالماً ؟

وما دام أن هذا السؤال جاء بعد الكلام عن الإلحاد فى آيات الله فيكون المعنى : الذين يلحدون فى آيات الله لهم النار يُلْقَوْنَ فيها يوم القيامة ، والذين لا يُلحدون فى آيات الله يأتون آمنين .

ومن الغباء أن الإنسان يُلحد في آيات الله لينالَ بذلك سلطةً زمنية أو مكانة مؤقتة ، مآلُها إلى زوال مُحقق ، ثم يلاقى بعد ذلك مصيراً مؤلماً فى نار خالدة لا نهايةَ لها .

تعالَ إلى أعظم الناس نعيماً فى الحياة ، أخذ منها الغنَى والقوة والسلطان والمهابة والعز كله ، واسأله هل يُنغِّص شىء هذه النعمة ؟ سيقول لك : أخاف ألاَّ تدوم ، نعم يُنغصها على أصحابها عدم دوامها ، فإما أنْ تتركهم النعمة وهم أحياء يُرزقون ، وإما أنْ يتركوها هم بالموت .

لذلك يخبرنا سيدنا رسول الله ﷺ عن حال هؤلاء المنعَّمين فى الدنيا من أهل الكفر كيف هم فى الآخرة ؟ يقول الرسول : « أن الواحد منهم يُغمس غمسةً واحدة فى النار - والعياذ بالله - ثم تسأله الملائكة : هل رأيتَ فى الدنيا نعيماً قط ، يقول : لا والله ما رأيتُ فيها نعيماً قط ! »[١] .

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيُقال : اغمسوه فى النار غمسة فيُغمس فيها ثم يقال له : أى فلان هل أصابك نعيم قط ؟ فيقول : لا ما أصابنى نعيم قط . ويؤتى بأشد المؤمنين ضراً وبلاء فيقال : اغمسوه غمسة فى الجنة فيغمس فيها غمسة فيقال له : أى فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء فيقول : ما أصابنى قط ضر ولا بلاء » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (حديث ٤٣١٢) .

فمَنْ إذن يترك نعمةً باقية خالدة لنعمة مُنغصة زائلة فانية ، ثم أنت تتنعَّم فى الدنيا على قدر إمكاناتك وقدراتك ، وفى الآخرة تتنعم على قَدْر قدرة الله وكرمه وعطائه فى جنة فيها ما لا عَيْنٌ رأيت ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وما دُمْنا أمام أمرين لا يستويان ، ووجه الصواب فيهما واضح ، وما دُمْنا قد بيَّنا لكم هذا البيان فأنتم أحرارٌ اختاروا لأنفسكم ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] والأمر هنا للتهديد وللتحذير ، يعنى : اعملوا ما شئتم فالله يراكم ، والله مُطلع على أعمالكم ، وقادر على أنْ يُجازيكم عليها جزاءً وفاقاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ[1] لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

الكفر هنا بمعنى الستر أى : ستر الإيمان بواجب الوجود ، لأن الستر يقتضى مستوراً ، فما هو المستور فى عملية الكفر ؟ الكفر يستر مقابله ، يستر الإيمان ، فكأن الإيمان أمرٌ فطْرى وهو الأصل والكفر طارئ عليه ليستره ، وكأن الكفرَ بهذا المعنى جُنْد من جنود الإيمان ودليلٌ عليه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٠٣٢/٩) : « الذكر هاهنا القرآن فى قول الجميع ، لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام » .

وكلمة ﴿ بِالذِّكْرِ .. (٤١) ﴾ [فصلت] هنا بمعنى القرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر أيضاً على الكتب السابقة على القرآن : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] ويُطلق الذكر ويُراد به الصِّيت والمنزلة . ﴿ وَإِنَّهُ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف] وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

ويُطلق الذكر على تسبيح الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ .. (٩١) ﴾ [المائدة]

ويُطلق الذكر على ذكر الله بالطاعة ، وذكر الله للعبد بالفيوضات والمغفرة : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) ﴾ [فصلت] كلمة عزيز لها معانٍ منها العزيز أى : النادر الثمين . والعزيز : الغالب الذى لا يُغلب . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾ [آل عمران] فالقرآن غالبٌ يعلو ولا يُعْلَى عليه ، يأخذ بالقلوب ويستولى عليها ، بدليل قولهم[1] : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

---

(١) أى : كفار مكة . قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٢١] .

ذلك لأن الذى يسمع كلام القرآن ، لا بُدَّ أن ينبهر به شريطة أنْ يستقبله بقلب صافٍ ووجدان غير جامد ، فإنْ صادف حُسْنَ الاستقبال كان له هذا الأثر الذى رأيناه فى قصة إسلام سيدنا عمر رضى الله عنه ، وكان من ألدِّ خصوم الإسلام إلى اللحظة التى علم فيها بإسلام أخته وزوجها[1] ، فجاء إليها ولطمها حتى سَالَ الدَّمُ من وجهها ، فكان هذا الدمُ سبباً فى رِقَّة قلبه رِقَّةً غلبتْ جهله ، فلما سمع القرآنَ منها سمعه هذه المرة بقلب ومواجيد وعاطفة صافية فتأثر به وأسلم .

إذن : فالقرآن عزيز غالب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المُنبتَّ [2] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[3] .

وقال : « ولن يُشَادَّ الدِّين أحدٌ إلا غَلَبه »[4] .

فإذا أردتَ أنْ تختار بين أمرين أو توازن بينهما ينبغى أن تكون

---

(١) هو : خبَّاب بن الأرت بن جندلة بن سعد ، من تميم ، أبو يحى التميمى من نجباء السابقين ، شهد بدراً والمشاهد . قيل : مات فى خلافة عمر وصلى عليه عمر . بل مات بالكوفة عام ٣٧ هجرية وصلى عليه علي ، وقيل : عاش ثلاثاً وسبعين سنة . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٣] .

(٢) المنبت : الذى انقطع فى سفره أى أصاب دابته الإعياء والتعب وبلغ بها مبلغاً كبيراً ، فلا هو أراح دابته لتصل به إلى حيث يشاء ، ولا هو وصل إلى المكان الذى يريده .

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/١٨) من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وأخرجه البيهقى أيضاً فى شعب الإيمان (٣٧٢٨) من حديث عائشة ، (٣٧٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين يُسْر ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » ، وكذا النسائى فى سننه (حديث ٤٩٤٨) .

خالىَ الذِّهْن تماماً وتُخرِج ما فى قلبك من هَوىً لأيِّهما ، ثم تُوازن بينهما ، فما ارتحتَ له فامْضِ فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.. ④ ﴾ [الأحزاب]

إذن : هو قلب واحد ، إنْ عُمر بالشر كيف يستقبل الخير ؟ لابد أنْ تُخرِج الشر أولاً لأن الشر سيطرد الخير .

يقول تعالى عن تلقِّى المنافقين والكافرين للقرآن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ⑯ ﴾ [محمد] يعنى : كأنهم لم يتأثروا به ولم يفهموه ، أى : كِبْراً وعناداً ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ هُوَ .. ④④ ﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ④④ ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن أثره مختلف باختلاف المتلقى ، فهو هدى وشفاء لأهل الإيمان ، وعَمىً لأهل الكفر والنفاق .

إذن : الحق سبحانه يريد منَّا عدالة الاختيار وعدالة البحث والموازنة بين الأمرين ، فإنْ توفَّرتْ هذه العدالة فالقرآن غالبٌ لا محالةَ ، القرآن لا يزاحمه ولا ينافسه شىء إذا استُقبل الاستقبالَ السليم ، حتى فى الأمور التى يقف فيها العقل تجد الوجدان يصدقها .

لذلك قلنا : إن واردَ الرحمن لا يطارده واردُ الشيطان ، وهل عارضت أم موسى وارد الرحمن لما قال لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. ⑦ ﴾ [القصص] العقل لا

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها أو صُمَّت وقراً . فالوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

يقبل هذا ، لكن يقبله الوجدان الصافى ، والذين سمعوا القرآن فلم يتأثروا به ولم يثمر فى أنفسهم ثمرته ، إنما استمعوه وهم مشغولون بضده .

فنحن إذن فى حاجة إلى عدالة الاختيار ثم حماية الاختيار ، لذلك نقول فى الرد على مَنْ يدَّعى أن الإسلام نُشر بحدِّ السيف ، هذا غير صحيح ، فالسيف فى تاريخ الإسلام ما جاء ليفرض عقيدة ، إنما جاء لحماية الاختيار ، وحماية حرية الدين فى الإعلان عن نفسه ، وحرية العقيدة أمر كفله الإسلامُ بدليل أنه ترك فى بلاد الإسلام ناساً على كفرهم وعلى ديانتهم ، وقال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ولأن الإسلام انطلق من حرية الاعتقاد وجعل الدين اختياراً حكَمَ على المرتد بالقتل[1] ، والعجيب أن أعداء الإسلام يأخذون هذه المسألة مطعناً فى دين الله ، ويقولون : إن الإسلام يحارب حرية الاعتقاد ويُجبر الناس على اعتناقه .

وهذا اتهام باطل ، فالمتأمل يجد أنَّ الإسلام يعلن هذا الحكم لمن لم يؤمن بَعْد ، يقول له : انتبه قبل أنْ تدخلَ الإسلام ، ولاحظ أنك

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٩٤ ، ٦٤١١) وأبو داود فى سننه (٣٧٨٧) والترمذى فى سننه (١٣٧٨) وقال : صحيح حسن والعمل على هذا عند أهل العلم فى المرتد . وكذا النسائى فى سننه (٣٩٩١ ، ٣٩٩٢ ، ٣٩٩٣ ، ٣٩٩٤ ، ٣٩٩٥) وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٥٢٦) ، وكذا أحمد فى مسنده (١٧٧٥ ، ٢٤٢٠ ، ٢٤٢١ ، ٢٨١٣ ، ٢١٠٠٧) ، فهذا الحديث حديث صحيح .
وقول الجمهور على أن المرتد يُستتاب ثلاثة أيام لعله يتوب فإن لم يتب يقتل ، وذهب على إلى أنه يستتاب شهراً . أى : أن لكل مرتد حالته التى يتم فيها تقدير وضعه .

تُقتل لو ارتددتَ عنه ، وهذه عقبة في طريق الإسلام تُمحِّص أهله بحيث لا يُقبل عليه إلا مَنْ اقتنع به واستقرَّ الإسلام في قلبه بلا منازع ، فالحكم بقتل المرتد يحمي إقبالك على الاختيار ويُنبهك ، فإما أنْ تنصرف ، وإما أنْ تعرف أنه الحق فتؤمن به .

وقوله تعالى : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢) ﴾ [فصلت] يعني : لا يأتيه الباطل من أيِّ جهة ؛ لذلك حاول المستشرقون أنْ يتلمسوا في القرآن مأخذاً .. وهيهات لهم ذلك .. فوقفوا مثلاً عند قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

ورأوا أن في الموضعين تكراراً فقالوا : إذا كان القرآن بليغاً فأيُّ الآيتين أبلغ ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى غير بليغة ، وهؤلاء يفتقدون الملكة التي تساعدهم على فَهْم كلام الله واستقبال هَدْيه ، ولو نظروا إلى السياق لوجدوا أنَّ الآيتين مختلفتان موضوعاً ، فليس فيهما تكرار وكُلٌّ منهما بليغة في التعبير عن موضوعها .

فقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فكأن الفقر موجودٌ عنده ، فهو مشغول أولاً برزق نفسه قبل أنْ يُشغَل برزق أولاده ، لذلك ذُيلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] أما في الأخرى فقال ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] يعني : الفقر غير موجود لكن يخشاه حين يأتيه الولد ، فطمأنه الله أن الولد سيأتي ومعه رزقه ،

---

(١) الإملاق : الفقر . وأملق : افتقر بعد غنىً كأنه أملق ماله وأذهبه . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

فقال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء] إذن : فكلُّ آية بليغة في موضعها .

كذلك وقفوا عند قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة] وفي الآية الأخرى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

النظرة المتعجلة لا ترى فرْقاً بين الآيتين ، لكن المتأمل وصاحب الملكَة اللغوية يلحظ الفَرْق ، فالآيتان تتحدثان عن نفسيْن : نفس جازية ، ونفس مجزى عنها . النفس المجزيّ عنها تعترف بذنبها وتقول : خذوا العدل واتركوني ، فنقول لها : لا ، فتذهب إلى مَنْ هو أكبر منها ليشفع لها . إذن : عُرِضَ العدل أولاً ، فلما لم ينفعها عُرِضَتْ الشفاعة .

أما النفس الجازية وهي الشفيع ، أول ما يقف بين يدي الله تعالى يقول : يا رب أنا أشفع في فلان ، فإذا لم تقبل شفاعتي فيه فخُذ العدل مني ، إذن : فكُلُّ آية بليغة في موضعها ، لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين لا يفهمون عن الله ولا يحسنون التلقي ، ومع ذلك يتهمون كلام الله ؟! يقولون : ربكم قال كذا وكذا ، نعم هو ربنا والحمد لله ، وكنا نحب أنْ يكون ربكم أيضاً .

ومن الآيات التي وقفوا عندها أيضاً قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] يقولون : أين ظهور الإسلام على الدين كله وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان ما يزال في العالم يهود وملاحدة ومسيحيون وغير ذلك من

الديانات . وهذا القول أيضاً يدل على عدم فـهمهم لآداء القرآن الكريم ومعانيه .

ومـعنى ﴿ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٩) ﴾ [الصف] لا تعنى أن يصبح النـاسُ جميـعاً مسلمـين ، لأن معنى الظهـور هنا ظهور حـجة يعني : يعلن حجـته القوية ، وبعد ذلـك لهم الحرية يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذا موضوع آخر .

ولو كنتَ تقـرأ القرآن ببـصـيرة لعـرفتَ أن ظهور الإســلام على الأديان الأخرى سيكون مع بقاء الشرك والكفر بدليل لفظ الآية ، فمرة قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف] ومرة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] .

إذن : فهـما مـوجودان مع الإسـلام ، ويكفى فى ظهـور الإسلام على الأديان الأخرى أنهم يُضطرون للأخْذ بقضاياه وأحكامه وهم غير مسلمـين ، وتُلجئـهم ظروفهم الحـياتية فـلا يجدون حـلاً لها إلا فى الإسلام ، وهذه هى العظمة فى الظهور .

تعلمون أن الفـاتيكان كانت تعـارض مسألة الطلاق التى جـاء بها الإسلام ، لكن مع مـرور الوقت وكثرة المـشاكل عندهم اضطروا إلى العمل به كحلٍّ لقضاياهم ، أخذوا حكم الإسلام وهم غير مسلمين .

إذن : صدق الله : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] هذه الآيات وغيرها تدلنا على سـلامة كلام الله وخُلُوِّه من الباطل ومن الاختلاف ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢) ﴾ [فصلت] لأن الباطل لا يأتى إلا إذا كان المـتكلم غير مُحقٍّ ، والذى يتكلم بالقرآن مَنْ ؟ الله .

لذلك قال بعدها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت] وحكيم وحميد فعيل من صيغ المبالغة من الحكمة والحمد ، الحكمة تقتضى وضع الشىء فى موضعه المناسب ، والحمد يعنى أنه تعالى يُحمد على : كل أفعاله ، وكُلِّ قضائه ، وكل قدره ، فالحمد لله موصول أوله بآخره .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾[الفاتحة] أن من رحمته تعالى بنا أنْ علَّمنا صيغة حمده على نعمائه ، فجاء بها بصيغة المبتدأ والخبر (الحمد لله) لأنه سبحانه لو لم يضع لعباده صيغة الثناء عليه سبحانه لاختلف فيها العباد ، وتفاوت فيها الناس ، ولكان للأديب البليغ ثناءٌ لا يقدر عليه الأُمِّى وراعى الغنم .

لو كان الأمر فى هذه المسألة متروكاً لقدرات الناس لم يكُنْ هناك تكافؤ فرص فى حمد الله ، إذن : من رحمته سبحانه بنا أنْ قال لنا ارفعوا أيديكم عن الصيغة وأنا أضعها لكم ليستوى فى حمدى والثناء علىَّ جميع خَلْقى ، فالكل يقول كلمة واحدة (الحمد لله) فقط ، ولا أريد منكم أكثر من ذلك .

لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول فى الثناء على الله : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »[1] فالذى تعلَّم هذه الصيغة (الحمد لله) وهُدى لأن يقولها ينبغى أنْ يَحمد الله عليها ذاتها ، يحمد الله أنْ علَّمه كيفَ يحمده ، وهكذا يظل الحمد من العبد لله تعالى موصولاً ، ويظل العبد حامداً لربه حمداً لا نهاية له .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

وكلمة ﴿ تَنزِيلٌ (٤٢) ﴾ [فصلت] ساعة تسمعها تشعر أنه مُنزَّل من أعلى ، حتى وإنْ كان المنزَّل من مادة الأرض ، كما في قوله سبحانه في سورة الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان في الأرض لكنه مُنزل من عُلو القدرة الخالقة لخدمة العباد في الأرض .

ثم يُعزِّي الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يلاقي من عَنَتِ وعناد المشركين ، فيقول تعالى :

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد ﷺ : يا محمد أنت سيد الرسل ، والرسل أُوذُوا ، فلو كان الإيذاء على قَدْر المنزلة لكان إيذاء قومك لك أضعاف إيذاء الرسل السابقين ، وما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فلستَ بدعاً في الرسل .

والذي قيل للرُّسُل من قبلك : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وأنت يا محمد واحد منهم ، فأبشر بنصر الله لك ولجندك ولمن تابعك .

ويصح أيضاً أنْ يكون المعنى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] أي : من أعدائك والمعاندين لك ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] أي : من أعدائهم والمعاندين لهم . يعني : لا تحزن فهذه سنة الله في أهل الدعوات وحَمَلة الرسالات ، وأنت واحد منهم فلا تُتعبْ نفسك ، ولا تُحمِّل نفسك في سبيل دعوتك ما لا تطيق .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما ذاق حلاوة الإيمان بالله أحبه الناس جميعاً ، وكانت عنده غيرة على ربه ، يريد أن يسلم الناسُ جميعاً لا يفلت منهم أحد ، ولا يشذ منهم عن الإيمان بالله أحد ، لذلك كان يجهد نفسه وكثيراً ما عاتبه ربه على ذلك عتاب المحبِّ لحبيبه ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وبيَّن له ﷺ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يقصُّ على سيدنا رسول الله قصص الأنبياء السابقين تسليةً لرسول الله وتخفيفاً عنه ، فسيدنا نوح - عليه السلام - عمّر فى قومه يدعوهم إلى الله ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل .

وحكى القرآن عنه قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[2] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح]

قوله : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴿٧﴾ ﴾ [نوح] مبالغة فى الإعراض وسدِّ الآذان عن السماع ، فالذى يُوضع فى الأذن الأنملة لا الأصبع ، وأكثر من ذلك ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [نوح] يعنى :

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] . قال الفراء : باخع نفسك أى مُخْرج نفسك وقاتلها . [لسان العرب - مادة : بخع] .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها واستتروا كناية عن شدة نفورهم وإعراضهم عن رسولهم . [القاموس القويم ٢/٥٤] .

غطُّوا بها وجوههم ، وبذلك سَدُّوا كل منافذ الإدراك والتلقى كأنهم لا يريدون سماعه ولا حتى رؤيته . إذن : اصبر يا محمد فلستَ جديداً فى الإيذاء ولا فى الإعراض والعناد .

وقوله سبحانه :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ [فصلت] تأمل هذا الكلام الذى نُسمِّيه (كلام سياسى) ويسميه العلماء (ترغيب وترهيب) ، فالحق سبحانه وتعالى يراعى أحوال هؤلاء المعاندين لرسوله ﷺ ، ويخاطبهم بما يناسب كلَّ الاحتمالات ، فمَنْ عاد منهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فبابُ التوبة مفتوح والله غفور رحيم ، ومَنْ أصرَّ وتمادى فى عناده فالله ذو عقاب أليم .

وتلحظ هنا أن المغفرة سبقت العقاب ، بل إن الحق سبحانه يَعد مَنْ يؤمن ويَحسُنُ إيمانه أنْ يُكفِّر عنه ذنوبه ، وأن يزيده بأنْ يُبدِّل سيئاته حسنات تفضّلاً منه وكرماً ، وكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده ويُحنِّنهم إليه ، وهو الغنى عنهم .

وتاريخ الإسلام حافلٌ بهؤلاء الذين صادموا الإسلام ودعوته وعاندوا رسول الله والمؤمنين معه ، وكانوا ألدَّ الأعداء ، ثم صاروا بعد ذلك حملة لوائه ، وقدَّموا نفوسهم رخيصة فى سبيله ولو أغلق الباب فى وجوههم ما دخلوا فى دين الله ، وأنتم تعرفون قصة إسلام عمر وحمزة وعكرمة بن أبى جهل وخالد وعمرو وغيرهم ممَّنْ كانوا صناديد فى الكفر .

حتى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أخذوا دين الله على أنه دينٌ لا سلطة زمنية أنصفهم القرآن ، فقال فيهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ

إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً (٧٥)﴾ [آل عمران]

وبعد ذلك يأتى القرآن ويحكم على أُناس أنهم لن يؤمنوا ولن يهتدوا ، وهم فى سَعَة الدنيا وفى وقت الاختيار ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومع ذلك ظلُّوا على كفرهم ولم يؤمنوا حتى نفاقاً ، ولو رغبةٌ منهم فى تكذيب القرآن لم يحدث .

ومن هؤلاء أبو لهب عم النبى ﷺ ، وكان يمشى وراء رسول الله ويقول للناس : إنه كذاب ، فحكم الله عليه بأنه سيموت على كفره ، وأن مصيره النار والعياذ بالله ، وفيه نزلتْ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه السورة ، وكان بوُسْعه أن يقف أمام نادى القوم وتجمُّعهم ، ويقول بأعلى صوته : أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولو كذباً ، لكنه لم يفعل لأن الله تعالى حكم عليه أنه لن يقولها أبداً .

فالله تعالى ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ (٤٣)﴾ [فصلت] لكل كافر ولكلُ مُكذِّب ولكل معاند ، رجع إلى الجادة وتاب وأناب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾ [فصلت] لمن أصرَّ على كفره وتمادى فى عناده ومصادمته لدعوة الحق .

ولا يخفى أن الجمع بين المعنى وضده فى موضع واحد سمةٌ من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن الضدَّ يُظهره الضد ، وبضدِّها تتميَّز الأشياء ، وربك يخبرك ويترك لك أنْ تختار لنفسك دواعى المغفرة أو دواعى العقاب .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : القرآن وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ (أعْجَمياً) أى : بلغة الأعاجم وهم غير العرب كالإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات غير العربية .

﴿ لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (٤٤) ﴾ [فصلت] يعنى : جاءتْ بالعربية ؛ ذلك لأن التوراة نزلتْ بالعبرية وهى لغة سيدنا موسى - عليه السلام - وأصله ، فقال بعضهم : لولا كان القرآن باللغة العبرية مثل التوراة ، لكن النبى محمداً عربىُّ الأصل واللغة فنزل عليه القرآن بلغته ولغة قومه .

فالحق سبحانه يُبيِّن أن القرآن لو نزل أعجمياً لطلبوا وتمنوا أنْ يكون عربياً ، لكن بصرف النظر عن اللغة التى نزل بها هو فى ذاته هُدىً وشفاء ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : الذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم ، فهم لا يسمعون السماع النافع المثمر ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (٤٤) ﴾ [فصلت] يعنى : ظلمة وشبهات يتخبَّطون فيها .

إذن : فالقرآن واحد لكن النتيجة مختلفة ، لأن استقبال القرآن يختلف باختلاف نية المستقبل ، فالذى يسمعه بأذن واعية وقلب صَاف غير مشغول بنقيضه يجده هُدىً ، ويجده شفاءً ، والذى يسمعه باستكبار وقلب غير مُهيىء للإيمان يجده عَمىً ، والأعمى يتخبط

لا يدرى أين يتجه .

فهذا يقرأ القرآن أو يسمعه فلا يفهمه ولا يتأثر به ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ أوضحنا نظرية الفاعل والقابل ، فالفاعل يقوم بالفعل والقابل يتأثر به ، ففَرْق بين الفلاَّح الذى يضرب الأرض بفأسه وبين مَنْ يضرب بها صخرة مثلاً ، الأرض تنفعل للفأس وتتأثر بها وتثمر وتنتج ، أما الصخرة فلا تقبل ولا تتأثر .

إذن : لا تحكم على الشيء إلا إذا حدث هذا التفاعل بين الفاعل والقابل ، تذكرون أننا ضربنا مثلاً فى هذه المسألة بكوب الشاى الساخن ننفخ فيه ليبرد ، وتنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة لكن الأثر مختلفٌ لاختلاف القابل .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت] لأنهم سمعوا فلم يتأثروا به ، شبَّههم الله بمَنْ ينادَى من بعيد فلا يَسْمع .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾

القرآن هنا يقصّ على رسول الله ﷺ طرفاً من قصة سيدنا موسى – عليه السلام – ، وهذا من ضمن ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾[فصلت] وموسى من الرسل الذين تحملوا العنت والعناد وأتعبه قومه ، فقصَّته هنا تسلية لرسول الله ﴿ وَلَقَدْ

آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت] أى : التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت] أى : كانت مجالاً لاختلافهم ، فمنهم مَنْ حرَّفها ، ومنهم مَنْ نسى بعضها ، ومنهم مَنْ كتب الكتاب من عنده . وقال : هذا من عند الله .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت] أى : سبقتْ كلمة الله وحكمه بنهاية عذاب الاستئصال الذى يأخذ المكذِّبين جملة ، كما رأينا فى عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط ، أما هذه الأمة فلن يأخذها الله بمثل هذا فى الدنيا ، بل يُؤخِّر لها الجزاء إلى يوم القيامة .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت] أى : فى الدنيا كما فعل بالأمم السابقة مِمَّنْ كذَّب الرسل (وإنهم) أى : قومك يا محمد ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت] يعنى : تردد يأخذهم إلى القلق والريبة .

والشكُّ نسبة من النِّسب السِّت المعروفة التى تعترى الأحداث :
أولها : العلم وهو أن يكون عندك قضية واقعة وأنت مقتنع بها وتستطيع أنْ تقدم عليها الدليل .

ثم **التقليد** : وهو أن يكون لديك قضية واقعة يعنى مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها ، لكن لا تستطيع أنْ تُقدم الدليل عليها ، مثل الطفل الصغير نُلقِّنه مثلاً أن الله واحد فيؤمن بها لثقته فى والده الذى يلقنه ، لأنه يعلم أن والده يريد له الخير ولا يُعلِّمه إلا الصواب ، لكن الوالد لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن الله واحد .

ثم **الجهل** : وهو أن يكون عندك قضية غير مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها . لذلك قلنا فى هذه المسألة : إن الجاهل أشقُّ على مُعلِّمه من الأُمىِّ ؛ لأن الجاهل عنده قضية باطلة كاذبة وهو مؤمن بها فيحتاج منك مجهوداً مرتين : مرة لتخرجه من جهله ، ومرة لتقنعه

بالصواب . أما الأمى فهو خالى الذهن ليس عنده قضية ما يدافع عنها ، لذلك تراه طيِّعاً يقبل ما يُلْقَى إليه دون أنْ يجادل .

ثم بعد ذلك **الشك** ، وهو أن يكون لديك قضية واقعة لكن يقينك بها مُساوٍ لشكِّك فيها ، فأنت غير متأكد منها ، ثم إنْ كان الثبوت والتأكيد أوضحَ فهو الظن ، وإنْ كان الشكُّ أوضحَ من اليقين فهو الوهم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لم يصلوا إلى درجة العلم ، ولا درجة التقليد ، ولا درجة الجهل .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق سبحانه يقرر هنا حقيقة واقعية ، يريد سبحانه للعباد أن يؤمنوا بها ، حتى يرسخ فى أذهانهم أن كلاً منهم يعمل لصالح نفسه ، وأن إيمان المؤمنين لا يعود على الله تعالى بشىء ، ولا يزيده سبحانه صفة لم تكُنْ له .

كذلك لا تضره معصية العاصين ، ولا جحد الجاحدين ، ولا إنكار المنكرين ، لأنه سبحانه مُسْتوف كلَّ صفات الجلال والجمال والكمال قبل أنْ يخلق هذا الخَلْق ، فالله تعالى ليس فى حاجة أبداً إلى طاعة الطائعين ولا إيمان المؤمنين ، بل العباد هم المستفيدون من أعمالهم الصالحة .

وما أمور التكاليف الشرعية إلا حرصاً من الله تعالى على خَلْقه ، ورحمةً من الصانع بصَنْعته ، فكُلُّ صانع يريد لصنعته الصلاح ،

ويرْبأ بها عن الفساد وأسباب الهلكة .

وتذكرون الحديث القُدسيّ : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخِلَ البحر ذلك أنى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقول له : كُنْ فيكون »[1] .

إذن : أنتم أحرار ، يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، فكلٌّ مُجازَى بعمله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] هو المستفيد ، وليس لى من عمله شىء ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] أى : على نفسه تحسب إساءته ، هذه قضية يقررها ربك عز وجل ، ولك أن تختار لنفسك ، وأنْ تُوردها المورد الذى يُسعدها لا الذى يُشقيها .

ومن العجيب أن الإنسان بعد أنْ عرف هذه الحقيقة يورد نفسه موارد الهلاك ، لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه ظلوم وجهول[2] .

والحق سبحانه حين ينذرنا بالعقوبة ، وحين يشددها ليس من

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قال تعالى فى سورة الأحزاب ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] . قال ابن عباس : الأمانة الطاعة . وقال : الأمانة الفرائض . وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٢) بعد سرد هذه الأقوال : « كل هذه الأقوال لا تنافى بينها بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه لنفسه إلا من وفق الله ».

حظه أنْ يُوقع هذه العقوبة بالعباد ، إنما أراد سبحانه أنْ يصرفنا نحن عن أسبابها ويُخوِّفنا منها حتى لا نقع فيها ، الله تعالى مُنزَّه عن الظلم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت]

إنه يُخوِّفك حمايةً لك ، بالله حين يقول لنا : مَنْ قتل يُقتل ، أيريد أنْ يقتل الناس ، أم يريد أنْ يحقن الدماء ويحفظها ؟ ومَنْ يقدم على القتل وهو يعرف أن مَنْ قتل يُقتل ؟

لذلك تجد القرآن فى مسألة القوة العسكرية يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

العجيب أن أعداء الإسلام يأخذون من هذه الآية دليلاً على أن الإسلام يؤيد الإرهاب لأنه ذكر كلمة (تُرْهِبُونَ) وهذا فَهْم خاطئ لأسلوب القرآن ، لأن معنى إعداد القوة التى ترهب أننى لا أريد المعركة ولا أريد المواجهة ، فحين يعرف عدوى أنِّى مستعد يخاف ولا يُقدِم على القتال .

نسمعهم فى المسائل العسكرية يقولون : توازن القوى ، هذا التوازن هو الذى يحفظ السلام فى المجتمع الدولى كله ، وأيام كان فى العالم قوتان متكافئتان هى روسيا وأمريكا كان هناك استقرارٌ عسكرىٌّ ، فكلٌّ منهما تخشى الأخرى حتى كانوا يقولون على الحروب بينهما (الحرب الباردة) لكن لما تفككتْ قوة روسيا أصبح لأمريكا الغَلَبة ، فهى القوة الوحيدة الآن ، ونراها تعمل ما تريد دون رادع من قوة أخرى .

إذن : نقول : الحق سبحانه وتعالى حين يأمرنا بإعداد القوة

العسكرية لا يعنى أنه سبحانه يدفعنا إلى ساحة القتال ، إنما يعنى حفظ السلام بيننا وبين غيرنا ، ومعلوم أنك لا تُقدم أبداً على مهاجمة مَنْ هو أقوى منك ، فالآية تريد السلام ، لا تريد الإرهاب كما يدَّعُون .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] كلمة (ظَلاَّم) على وزن فعَّال ، وهى صيغة مبالغة من ظالم مثل : قاتل وقتَّال ، والآية حينما تنفى صيغة المبالغة لا يقتضى ذلك نَفْىَ الأصل وهو ظالم ، فالوصف الأقلّ موجود ، لأنك لو قلت فى الإثبات فلان علاَّم دلَّ ذلك على أنه عالم من باب أَوْلَى ، لكن فى النفى لو قلت : فلان ليس بعلاَّم ، فلا يمنع أنْ يكون عالماً .

إذن : فهل يعنى نَفْى المبالغة ظلاَّم إثبات ظالم - تعالى الله عن الظلم - قالوا : لا ، لأن لفظ الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] ولم يقل للعبد ، فصيغة المبالغة جاءت من تكرار الفعل . يعنى : ظلم عبداً واحداً يعنى ظالم ، فإنْ ظلم الكل فلا بدَّ أن عنده قوة كبيرة تُحوله إلى ظلاَّم .

فنَفْى ظلاَّم بهذا المعنى نَفْىٌ لظالم أيضاً ، ثم مَنْ يريد أن يظلم يظلم على قدر قوته ، فعلى فَرْض أن الحق سبحانه وتعالى يظلم فهو ظلاَّم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

الحق سبحانه وتعالى حين ينفى صفة الظلم عن نفسه تعالى بعد قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (٤٦)﴾ [فصلت] كأنه يقول سبحانه : أنا حكَم عَدْلٌ بينكم وبين أنفسكم ، أجزى كل نفس بما عملت وبما سعَتْ دون ظلم ، فأنا أحكم لكم وعليكم ، فأنتم لستُمْ خصوماً لى .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا[1] وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) ﴾

قوله تعالى : (إِلَيْهِ) أى : إليه سبحانه وتعالى ﴿ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ (٤٧) ﴾ [فصلت] الساعة هى القيامة وعِلْمها يعنى وقتها ، وهذه من الأمور التى استأثر الله تعالى بعلمها ، ولم يُطلع عليها أحداً من خلقه ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ[2] عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

وفى إخفاء وقت الساعة حكم عظيمة ، أهمها ألاَّ يتكل الناسُ وألاَّ يتمادى أهل الباطل وأهل النزوات والشهوات فى شهواتهم ، بل يستعد الجميع لها ، ويبادر الجميع بالأعمال الصالحة لأن أحداً لا يضمن ميعاد موته وخروجه من دنيا العمل إلى دار الحساب وقلنا : إنه مَنْ مات قامتْ قيامته[3] .

---

(١) الأكمام : جمع كِم . وهو الغلاف الذى يغطى الزهرة والحب والثمرة . [القاموس القويم ٢/١٧٤] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

لذلك قلنا : إن الموقوتات العبادية لها زمنٌ من كذا إلى كذا ، فالظهر مثلاً من استواء الشمس إلى ظل المثلين ، والذى يصلى فى كل هذه المدة أدَّى الفرض ، لكن يفضل المبادرة لماذا ؟ لأنك لا تضمن عمرك إلى آخر الوقت ، فربما أتتْك منيّتك بعد لحظة من دخول الوقت فتكون قد أثمتَ .

لذلك لما سُئِلَ سيدنا رسول الله عن خير الأعمال قال : « الصلاة لوقتها »(١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء] كذلك فى الحج ترى الرجل مُوسراً وقادراً على تكاليف الحج ، لكنه لا يحج تسأله يقول لك : إنْ عشتُ لعام كذا وبعد كذا وكذا أحج ، سبحان الله هل ضمنتَ عمرك أنْ تعيش إلى هذا الوقت ؟

فالحق سبحانه لحكمة أبهمَ وقت قيام الساعة ، وأبهم وقت الموت ، واستأثر سبحانه بعلمها ، والقيامة حَقٌّ والموت حَقٌّ وسَهْم أُرسِلَ إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره ووصوله إليك .

قالوا : وإبهام علم الساعة والأجل هو عَيْن البيان ، فإشاعته فى الوقت كله تجعلك مُستعداً له تتوقعه وتنتظره فى كل لحظة ، لذلك قال تعالى فى سورة تبارك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾ [الملك]

فقدَّم الموت فى الخلق على الحياة مع أن الحياة كائنة أولاً ، قدَّم الموت ليكون دائماً فى الذِّهْن وعلى البال ، قدَّم الموت لتستقبل الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

على حذر ولا تغتر بها ، تستقبل الحياة بمصاحبة نقيضها الموت ، لتنتظره فى أىِّ لحظة .

ومن رحمة الله بعباده أنْ جعل للقيامة علامات يُستدل بها على قُرْبها ، علامات صغرى وعلامات كبرى ليُخوِّف الناس ، ويُوقظهم من غفلتهم عن الآخرة .

وقوله ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا (٤٧) ﴾ [فصلت] الأكمام : جمع كِمّ . وهو القشرة الخضراء التى تغلف الثمرة ، ثم تنفلق قليلاً قليلاً لتخرج الثمرة منها ، كما ترى مثلاً الوردة قبل أنْ تتفتح تجدها داخل غلاف أخضر مغلق عليها كأنها مُغمضة ، ثم تتفتح وتخرج من هذا الغلاف .

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (٤٧) ﴾ [فصلت] هذه كلها من الأمور التى تغيب عن علم الناس لكنها لا تغيب عن علم الله ، كلمة ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ (٤٧) ﴾ [فصلت] الحمل معروف ، وهو التقاء البويضة الأنثوية بالحيوان المنوى للذكر ، ومن هذا الالتقاء يحدث الحمل ، وهو هِبَةٌ من الله على أية حال .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ [الشورى]

فكأن العُقْمَ نفسه هبةٌ لمن تدبَّر وبحث عن الحكمة ، حين تنظر إلى الولد الذى قتل أباه أو قتل أمه ، والولد الذى جلب العار لأهله حتى تمنَّوا أن الموت يُريحهم منه ، حين تنظر فى عقوق الأبناء تعرف أن العقمَ نعمة وهِبَةٌ من الله تستوجب الشكر كما تستوجبه نعمة الولد .

ثم تجد السياق القرآنى يُقدِّم الأنثى ، لأنها كانت مكروهة عند العرب قديماً وغير مرغوب فيها ؛ لذلك جعل الله منزلة خاصة لمن يُربى البنات ويحسن إليهن ، ولمن يحترم قدر الله فى إنجاب البنات ، وكأن هاتفاً من الله يناديه : عبدى ما دُمْتَ قد قبلتَ هبتى ونعمتى ، وعزَّتى وجلالى لآتينَّكَ لكل بنت منهن بزوج يحقق لك آمالك فيها ، ويكون أبرَّ لك من أبنائك .

وفى مسألة الإنجاب هذه رأينا عجائب تؤكد قدرة الله تعالى وطلاقة هذه القدرة ، رأينا زوجيْنِ لم يُرزَقا الإنجاب فافترقَا ، ثم تزوَّج الرجل بأخرى فأنجب منها وتزوجتْ المرأة بآخر وأنجبتْ منه ، فكأن الإنجاب كان ممتنعاً بين هذين بالذات .

ثم حين تتأمل القسمة العقلية لمسألة الخَلْق هذه ، تجد أن قدرة الله تعالى قد استوعبتْها بصورها الأربعة ، فالإنجاب الطبيعى يأتى من ذكر وأنثى ، لكن قدرة الله جاءتْ بآدم بلا زوج ولا زوجة ، وجاءتْ بحواء من أب بلا أم ، وجاءت بعيسى من أم بلا أب ، وقد يتوفر الأب والأم ولا يحدث الإنجاب ، هذه كلها صور تؤكد طلاقة القدرة الإلهية فى مسألة الخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي (٤٧) ﴾ [فصلت] هو سبحانه الذى يقول (شُرَكَائِي) أى : فى زعمكم ، لأنه قال فى موضع آخر ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ﴾ [الأنعام] فأجابوا – والكلام هنا يحكى موقفاً من مواقف القيامة ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ (٤٧) ﴾ [فصلت] يعنى : أخبرناك وأعلمناك ، والأذن هى وسيلة السمع ، وإليها يصل الكلام ، ويحصل العلم فكأن الأذن هى أول وسائل العلم .

لذلك قال تعالى عن الأرض : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾

[الانشقاق] يعني : استمعتْ للأوامر ، ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ (٤٧) ﴾ [فصلت] أخبرناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) ﴾ [فصلت] لا أحد منا يشهد أن لك شركاء ، فالحق سبحانه قال ﴿ شُرَكَائِي ﴾ ولم ينفِ الشركاءَ لينفُوهم هم .

فبعد فوات الأوان يُقرُّونَ بأن الله تعالى ليس له شريكٌ ، وكأن كلمة الشريك هذه لم تَرِدْ يوماً على لسان واحد منهم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾

معنى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ غاب وانصرف عنهم فهو غير موجود معهم ﴿ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ (٤٨) ﴾ [فصلت] من أوليائهم الذين أشركوهم مع الله ﴿ وَظَنُّوا ﴾ هنا بمعنى أيقنوا وتأكدوا ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾ [فصلت] ما لهم من مفرٍّ ولا مهرب يُنجيهم من العذاب ، فهو ينظر هنا وهناك ، فلا يجد ملْجئاً ولا منْجى ، فالمصيبة طَامّة لا نجاةَ منها ؛ لذلك حتى نحن في العامية نقول : (فلان حايس) يعني : حائر لا يجد مكاناً يهرب إليه .

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا يَسْأَمُ ﴾ لا يملّ ﴿ الإِنسَانُ ﴾ المراد الكافر ﴿ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ من طلب الخير لنفسه ، الخير في ماله في أولاده ، في صحته وعافيته ، ترى الرجل يقول : يا رب شقة أسكن فيها ، فإنْ أعطاه الله الشقة قال : يا رب (ڤيلا) صغيرة فإنْ أعطاه

الله قال : يا رب عمارة تصرف على (الڤيلا) .

فالإنسان جُبِلَ على حب الخير وعلى الطمع (ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب)[١] ، وقليل من الناس مَنْ يأخذ الأمور على قدرها .

سيدنا داود عليه وعلى نبينا السلام أعطاه اللهُ من الخيرات الكثير ومع ذلك جلس في يوم من الأيام على سطح بيته فوجد سِرْباً من جراد من ذهب فثنَى ثوبه وأخذ يجمع فيه الجراد ، فتجلَّى الله له وقال : يا داود أَلَمْ أُغْنِكَ ؟ قال : بلى يارب لكن لا غِنَى لى عن فضلك[٢] .

فإذا كان هذا حال نبى الله داود ، فما بال المؤمن العادى ؟ وما بال غير المؤمنين ، أمثال مَنْ نزلت فيهم هذه الآية ، ومن قال الله فيه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] أو : ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : فالإنسان هنا يعنى الكافر[٣] ، لأن الحق سبحانه أراد

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٦٤٣٨) كتاب الرقاق ، وأبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء (١/٣٣٧) من حديث عبد الله بن الزبير أنه قال على المنبر بمكة فى خطبته : يا أيها الناس إن النبى ﷺ كان يقول : « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحب إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً ، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

(٢) ما وجدته فى هذا يخص أيوب عليه السلام ، أخرج الإمام الرافعى فى كتابه « التدوين فى اخبار قزوين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكن لا غنى بى عن بركتك» .

(٣) قاله السدى . وقيل : المقصود به الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية ابن خلف . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٠٣٩] وانظر زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير الآية .

للمؤمن أنْ يكون قَنُوعاً ، هذه القناعة التي علَّمنا إياها رسول الله ﷺ حين قال للصحابي الجليل عمه العباس بن عبد المطلب : « قليل يكفيك خير من كثير يطغيك »(١) .

وفي حديث آخر قال ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »(٢) وقال : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه»(٣) .

وفي الحديث القدسي : «مَنْ رضي بقَدَرى أعطيته على قَدْرى»(٤) .

الرسول ﷺ يُعلِّمنا هنا طرق الوقاية من أمراض كثيرة ، ويُعطينا الحلول الشافية لاقتصاديات الشعوب ، قديماً كان الأطباء لا يروْنَ علاقة بين ضيق التنفس والمعدة ، يقولون : التنفس في الرئتين ، والطعام في المعدة ، والآن تأكدوا أن العلاقة بينهما وطيدة ، فإذا امتلأتْ المعدة بالطعام ضغطتْ على الحجاب الحاجز وضيَّقتْ على الرئة وأرهقتْ القلب .

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٤٧٨/٥) حديث (٢٤٩٤) عن عبد الله بن بسر المازني قال قال رسول الله لعمه العباس : « يا عم قليل يضنيك خير من كثير يطغيك » . أي : قليل يتعبك . وأخرج البيهقي في دلائل النبوة (٣٧٥/٥) عن أبي أمامة الباهلي قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » في حديث طويل .

(٢) هو قول مشهور على الألسنة ولكن لم تثبت نسبته للرسول ﷺ وإن كان معناه صحيحاً .

(٣) عن المقدام بن معد يكرب قال النبي ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة في سننه (٣٣٤٩) .

(٤) أورد أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) (٣٤٤/٤) في الرضا بقضاء الله وقدره أحاديث منها : « من رضي من الله تعالى بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل » ، « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه » . أما ما أورده الشيخ رحمه الله فلم تثبت نسبته لرسول الله ﷺ ولا هو في شيء من الكتب المعتبرة . [عادل أبو المعاطي] .

لذلك وجدوا تصحيح هذه المعلومة في حديث سيدنا رسول الله الذى يُعلِّمنا فيه كيفية الجمع بين مُقوِّمات الحياة المختلفة من طعام وماء وهواء ، وألاَّ يكون المؤمن نَهِماً « ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه »[(١)] .

قلنا : إنك إذا عُدْتَ من عملك جائعاً لا تنتظر الطعام حتى ينضج وربما تجد أمامك بقايا طعام سابق ، كسْرة خبز وعود جرجير وجبنة ، فتأكل وتجد لهذا الطعام البسيط طعماً ولذة ، لماذا ؟ لأنك أكلتَ وأنت جائع ، والجوع يجعلك تقبل أىَّ شيء وتستسيغه .

لذلك قال الرجل العربى صاحب الفطرة السليمة : نِعْم الإدامُ الجوع[(٢)] ، وقال : طعام الجائع هَنِيء ، وفراش المتعَب وطيء يعنى مريح ، نعم تجد المتعَب ينام ملء عينيه ، ولو نام على الحصى والحصير ، وغير المتعب يتقلَّب فى فراشه مُؤرقاً ، حتى لو نام على الحرير . إذن : نقول تأملوا الإسلام ، ففيه حَلٌّ لمشكلاتنا الاقتصادية وأزماتنا المتتالية .

الإسلام يُعلِّمنى أنْ أقنع بما فى يدى ، وألاَّ أتطلع إلى ما هو فوق إمكاناتى ، لأن الذى ينظر إلى ما هو فوق إمكاناته ، كالذى يشرب من ماء البحر ، كلما شرب ازداد عطشاً .

---

(١) هو حديث المقدام بن معد يكرب ، سبقت الإشارة إليه ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

(٢) ذكر الأصمعى عن عثمان الشحام عن أبى رجاء العطاردى قال : لما بلغنا أن النبى ﷺ قد أخذ فى القتل هربنا فاشتوينا فخذ أرنب دفيناً ، وألقينا عليها جمالنا فلا أنسى تلك الأكلة . وكان الأصمعى إذا حُدِّث بهذا الحديث قال : نعم الإدام الجوع ، ونعم شعار المسلمين التخفيف . أورده الجاحظ فى (البخلاء ١/ ٧٦) .

ثم يكمل الحق سبحانه الصورة : ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ[1] فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [فصلت] إنْ أصابه الشر (فَيَئُوسٌ) هذه صيغة مبالغة من اليأس والعياذ بالله ، واليائس هو مَن انقطع أمله ورجاؤه ، واليأس صفة الوجدان ، أما (قَنُوطٌ) فهى أيضاً صيغة مبالغة من قانط ، وهذه صفة الأبدان ، قالوا : لأن القنوط أثر اليأس الذى يظهر على الأبدان وعلى الوجه خاصة ، فتراه مُغبراً مُكشراً مقشعراً والعياذ بالله من حال هؤلاء . أما المؤمن فتعلو وجهه سيما الصلاح ونور الإيمان تجده هاشاً باشاً مُنشرحَ الصدر مُبتسماً مُستبشراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً[2] مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله : ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] هذا من حقى ، أستحقه بعملى ومجهودى ، يعنى : ينكر أن هذا من الله ، وهذا القول قاله قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دُمتَ قد أوتيته على علم عندك فاحفظه بعلم عندك ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ

(١) الشر هنا بمعنى الفقر والمرض . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٣٩] وقال ابن كثير (١٠٤/٤) : البلاء والفقر .

(٢) الرحمة هنا : العافية والرخاء والغنَى . قاله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٣٩) ولذلك جاء مقابلاً لها الضراء . قال القرطبى : الضراء : الضر والسقم وشدة الفقر .

الأَرْضَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص]

وصدق الله حين قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

ثـم يتمـادى فى غـروره فيـقـول ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴿٥٠﴾ ﴾ [فـصلت] يعنى فى الآخـرة . والمـعنى : على فـرض أن هناك بعـثـاً وحساباً ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] الجزاء الأحسن ، فكما أعطانى فى الدنيا سيعطينى أحسن منه فى الآخرة .

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴿٥٠﴾ ﴾ [فـصلت] إذن : تنبـيه المـسـيء إلى إساءته وتعـريفه إياها أول مـراحل العذاب ، نقـول له : عملتَ كذا وكذا ونُحصى عليه سيئاته تمـهيداً لمحاسبته عليها ، وهو يعلم أنه لا رجعةَ ليصلحَ ما بينه وبين ربه .

لذلك حكى القرآن عنهم ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فردَّ الله عليه ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقال :﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] عذاب شديد ، والعذاب يُوصف بأوصـاف كثيرة ، فـمرة يقول ﴿ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الملك] يؤلم و ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة] فيه إهانة وإذلال ، فمن المعذبين مَنْ يناسبه ويناسب جريمته ويناسب طبيعته العذاب المؤلم ، ومنهم مَنْ يؤثر فيه العذاب المهين الذى يكسر عنفوان كبريائه ، حتى وإنْ لم يكُنْ مؤلماً .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ[1] أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وأَعْرَضَ ونَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت] يعني : انصرف عن المنعم سبحانه ، لأنه أخذ حاجته ونال بُغْيته ، وهذه الصفة كثيراً ما نجدها في البشر ، فالرجل يلجأ إليك في قضية من القضايا أو مشكلة من المشكلات ، ويقف ببابك صباحاً ومساءً ، فإذا قضيتَ حاجته ربما ينسى حتى أنْ يقول لك شكراً .

ولقد أجاد الشاعر[2] الذي صوَّر لنا هذه المسألة ، فقال :

يَسيُر ذَوُو الحَاجَات خَلْفَكَ خُشَّعاً ... فَإنْ أدْركُوهَا خَلَّفُوكَ وَهَرْوَلُوا

وَأَفْضلُهم مَنْ إنْ ذُكِرْتَ بِسَيِّء ... توقَّفْ لاَ يَنْفِي وَلاَ يَتقَوَّلُ

فَلا تَدعِ المعروف مهْما تَنكَّروا ... فَإنَّ ثَوَابَ الله أرْضَى وَأجْزَلُ

وتذكَّر دائماً أن الذين ينكرون يدك عليهم هم أربح الناس لك ، لأن الذي سيتولى الردَّ على جميلك هو الله عز وجل ، وعطاء الله على قَدْر الله ، وعطاء الناس على قَدْر الناس .

لذلك رأينا سيدنا نوحاً عليه السلام يقول لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴿٥١﴾ ﴾ [هود] المعنى : أن العمل الذي أقوم به كان ينبغي أن تعطوني عليه أجراً ، إنما أنا لا أريد أجري منكم ، بل من

---

(١) كلمة الإنسان هنا فسرها القرطبي (٩/ ٦٠٤٠) بأنه الكافر الذي أعرض عن الإسلام فتجده يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء . ولكن قد تجد مثل هذه الصفة عند بعض من أسلم ولكن لم يتحقق قلبه بشكر نعمة الله ، حينها يكون الكفر كفر نعمة لا يُخرج من الملة ، لا كفر جحود . [عادل أبو المعاطي] .

(٢) من قول الشيخ يرحمه الله .

ربى ، فهو القادر على أن يعطينى الجزاء ، ويُقدِّر علمى .

ونلحظ فى سياق هذه الآية التدرج فى عملية الإعراض ﴿ أَعْرَضَ ﴾ يعنى : انصرف بوجهه ، ثم ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ يعنى استدار بظهره ، إذن : أعرض بوجهه ثم بجنبه ثم بظهره ، وهذا الترتيب تجده نفسه فى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

قالوا : نزلت فيمَنْ ردَّ السائل المحتاج فأعرض عنه أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، فكأن الجزاء من جنس العمل ، وبقدر الكنز يكون الكَىّ ، والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾ [فصلت] مسَّه مجرد مَسٍّ ﴿ فَذُو دُعَاءٍ (٥١)﴾ [فصلت] يعنى هو صاحب دعاء ﴿عَرِيضٍ﴾ مستمر[1] ونلحظ أنه لم يقُل دعاء طويل ، الشىء له طول وله عرض ، والطول أكبر من العرض ، لكن القرآن يستخدم العرض للدلالة على كبَر الشىء كما فى قوله تعالى فى وصف الجنة : ﴿عَرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ (١٣٣)﴾ [آل عمران] فإذا كان عَرْضها السموات والأرض وهى أوسع ما نراه ، فما بالك بطولها ؟

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة عرض) : عريض أى كثير ، فوضع العريض موضع الكثير لأن كل واحد منهما مقدار . ومثله قاله القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٠٤٠) . وقال ابن عباس : (ذو دعاء عريض) أى : ذو تضرع واستغاثة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ أى : قل لهم يا محمد ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ، واحكموا أنتم ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [فصلت] أى : كفرتم بالمنعم ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لا أحدَ أضلُّ ممن زرع الشقاق والخلاف بين النعمة والمنعم ، فأخذ النعمة وكفر بالمنعم ، فمن هنا استفهامية أفادت التعجب والإنكار ، فالنعمة تقتضى شكر المنعم وحمده .

والحق سبحانه في آيات أخرى يعرض علينا نعمه عرضاً كريماً رحيماً ، ويمتن علينا بها فيقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] كلمة ﴿ إِنْ ﴾ أفادتْ الشك لأن الإنسان لا يقبل على عدِّ شيء إلا إذا كان مظنة العد والإحصاء والحصر ، فعلى فرض إنْ حدث وأقبلتم على عَدِّ نعمة الله فلن تحصوها ، وسماها نعمة بالإفراد ولم يقُلْ نعم لأنك حين تتأمل النعمة الواحدة تجد فى طياتها نِعَماً كثيرة .

وهذه الآية وردت في موضعين ، لكن تذييل كل منهما مختلف عن الأخرى فواحدة : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

لأن عناصر الإنعام ثلاثة : نعمة ومُنعِم ومُنعَم عليه ، فمن ناحية النعمة فهى كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، ومن ناحية المنعم فهو

سبحانه غفور رحيم ، ومن ناحية المنعَم عليه فظلوم كفار .

فكأن ربَّك عز وجل يقول لك : يا عبدى لا تيأس من رحمتى ، ولا تزهد فى دعائى مهما كنتَ ظلوماً كفاراً ، لأن ربك غفور رحيم .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ(١) وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ(٢) ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلنا : إن السين فى ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ تفيد الاستقبال ، لذلك ستظل هذه الكلمة لها موضع إلى يوم القيامة ستظل صادقة فى كل زمان ﴿ آيَاتِنَا ﴾ أى : الآيات الكونية الدالة على قدرة الله وبديع صُنْعه ﴿ فِى الآفَاقِ ﴾ جمع أفق وهو متسع امتداد نظرك إلى أن تنطبق السماء على الأرض .

والآفاق هنا تعنى السماء والأرض ، ومنه قولنا فلان أُفقه واسع إذا كان بعيد النظر فى المسائل المعنوية ، وبقدر ما تتسع البصائر تتسع الرؤية .

---

(١) الآفاق جمع أفق . وله عدة معانٍ :

– الآفاق : الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم والأقطار وسائر الأديان . ﴿ وفى أنفسهم ﴾ أى فتح مكة . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤١) : هذا اختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى .

– الآفاق : وقائع الله فى الأمم . (وفى أنفسهم) يوم بدر . قاله قتادة والضحاك .

– الآفاق : أقطار السماوات والأرض من شمس وقمر وغيرهما . (وفى أنفسهم) فى خلق الإنسان من لطيف الصنعة وبديع الحكمة . قاله عطاء وابن زيد .

(٢) الضمير فى (أنه) فيه أربعة أوجه ذكرها القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤٢) :

– أنه القرآن .

– أنه الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه .

– أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق .

– أن محمداً هو الرسول الحق .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يعنى : فى المستقبل هل تعنى أن الله تعالى لم يُرهم آياته من الماضى ؟ لا بل أراهم آيات كثيرة ، لكنهم غفلوا عنها وأغمضوا أعينهم عنها ، غفلوا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : هذه سنة الله فى عباده المرسلين ، وهذا وعد من الله بنصرتهم وغلبهم ، والحق سبحانه لا شريكَ له ولا مناوىء يخالف هذا الوعد .

وقد علَّمتنا هذه الآية أصول الجندية ، وأن للنصر شروطاً فمَنْ توفرت فيه شروط الجندية استحق النصرة ، ومَنْ خالف شروط الجندية فلا بدَّ أن تتحقق فيه سنة الله ؛ لذلك قلنا : إذا رأيتَ المسلمين قد خسروا معركة ما فاعلم أنهم خالفوا هذه الشروط ، وساعة يُهزَمون لا يقال هُزِم الإسلام لا ، إنما هُزِم المسلمون الذين خالفوا أمر القائد وخالفوا شروط النصر ، لا بدَّ أن تكون الهزيمة لتعلمهم وتُربِّيهم على الطاعة لأمر القائد ، لأنهم لو انتصروا مع المخالفة للجندية لهَانَ عليهم أمر القائد بعد ذلك .

هذا الدرس تعلمناه فى أحُد يوم خالف الرماةُ أمر رسول الله بالبقاء فى أماكنهم العالية مهما كانت نتيجة المعركة[1] ، لكنهم نظروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشام ٣/١٠) وأورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعهم للفوز بالغنائم فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلاً » .

إلى متاع الدنيا الزائل وأغرتهم الغنائم لما رأوا بشائر النصر ، فنزلوا وتركوا أماكنهم ، فما كان من خالد بن الوليد إلا أن التفَّ وطوَّق جيش المسلمين من الخلف وحدثت الهزيمة أو على الأقل لم يكتمل الانتصار . فهل يجوز إذن أن نقول هُزِم الإسلام ؟

إذن : ينبغي أنْ نُصحِّح فهمنا لهذه المسألة ، فقد يُهزَم جيش المسلمين وفيه رسول الله لأنه لم يأخذ بأسباب النصر ، وحينها لا نقول هُزِم الإسلام ، بل خالف المسلمون فاستحقوا الهزيمة ، ابحثوا إذن في أسباب الهزيمة وفي أسباب التخلف ، فتِّشوا عن عيوبكم وعن مخالفتكم لمنهج الله فهي السبب ، والتاريخ شاهد بذلك .

فيوم حنين قالوا[1] : لن نُهزم اليوم من قلة ، ومَنْ قالها ؟ قالها أبو بكر نفسه لما رأى المسلمين يبلغ العشرة آلاف مقاتل ، فلما داخلهم شيء من الغرور بالعدد أدَّبهم الله وأعطاهم درساً ، فهُزموا أول الأمر ، لكن أدركتهم رحمة ربهم فأعاد إليهم معنوياتهم وكتب لهم النصر في النهاية .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [التوبة]

فمقدمات الهزيمة التي رآها المسلمون في هذه الحرب كانت نوعاً

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٥/١٢٣) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نُغلب من قلة ، وكانوا اثني عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] وأورده السيوطي في أسباب النزول (ص ١٣٨) .

من التربية ليست كُرْهاً من الله لعباده على حَدِّ قول الشاعر[١] :

فَقَسَا لِيَزْدجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرحَمُ[٢]

إذن : نقول إن وعد الله بالنصر لا يتخلف ، وإنما تخلف المسلمون عن أنْ يكونوا أهلاً لتحقيق الوعد ، وأنْ يكونوا على مستوى النصر الذى وعدهم الله به .

لكن لماذا يعاند المشركون كلّ هذا العناد ويغمضون أعينهم عن آيات الله وهي واضحات ؟ يعاندون لأنهم سادة ولهم سلطة زمنية ، وجاء الإسلام ليسلبهم هذه السيادة ويُنهى هذه السلطة الزمنية ، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضلَ لعربي على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى .[٣]

فسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى كلهم فى الإسلام سادة وفى الصفوف الأولى ، لذلك قال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت »[٤] .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، ولد بحوران بسورية عام (١٨٨ هـ) نزل مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد وقدَّمه على شعراء عصره ، فى شعره قوة وجزالة : له كتب : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة . توفى بالموصل عام (٢٣١ هـ) عن ٤٢ عاماً . الموسوعة الشعرية .

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٦٠ بيتاً ، ولفظه فى الموسوعة :
فقسا لتزدجروا ومن يَكُ حازماً فليَقْسُ احياناً وحيناً يرحم

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٤١١) عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/١٠٠) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله فى وسط أيام التشريق فقال : يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

(٤) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السمر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

فالنسب للإسلام والقرابة لدين الله ، ففى الوقت الذى جعل فيه سلمان واحداً من أهل البيت كان أبو لهب كافراً مطروداً من رحمة الله !!

وقد تعلَّمنا هذا الدرس من قصة سيدنا نوح مع ابنه ، وكم كان نوح عليه السلام حريصاً على نجاة هذا الابن ، وكم دعا الله له ، لكن الحق سبحانه يعلمه هذا الدرس ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا والأهلية ليست للنسب والدم ، إنما للدين وللمنهج وللعقيدة ، بنوة عمل صالح واتباع .

فالجماعة الذين صادموا الإسلام وحاربوه كانوا يدافعون عن سيادتهم ومكانتهم فى الجزيرة العربية ؛ لذلك تكتَّلوا واتحدوا ضد رسول الله ومَن اتبعه من المؤمنين ، ورأينا ذلك فى الحصار الذى ضربوه على رسول الله فى الشِّعْب ، وكيف أنهم أغلقوا عليهم كل المنافذ ، وقطعوا دونهم كل سُبُل العيش حتى اضطروا لأكل الميتة وورق الشجر .(١)

ثم حاولوا أن يقتلوا رسول الله أكثر من مرة ، وآذوه أشد الإيذاء فى نفسه وفى أهله وفى صحابته ، لكن هيهات لهم أن ينالوا من رسول الله ، وهو بعين الله وفى حفظه وكلاءته ، وكأن الحق سبحانه أراد أن يقول لهم : إياكم أنْ تفهموا أن محاولاتكم هذه ستعوق أمر الدعوة فى الجزيرة العربية ، إن أمر الدعوة سينتشر

---

(١) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣١٥) وذكر ما بلغوا فيه من الجهد الشديد « حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشِّعب من الجوع » .

لا فى الجـزيرة وحدها ، إنمـا فى كل آفاق الدنيـا ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت]

وكانت دعوة الإسلام مؤهلة لهذا الانتشار من عدة جوانب .

أهمهـا : أن العرب أمـة حروب وقـتال بطبيـعتـها لا تحـتاج إلى تدريب ، لذلك لمـا أراد رسول الله أنْ يحارب لـم ينشـىء كلية حـربية ولا درَّب أحداً عـلى فنون القتـال ، بل وجد قـوماً جـاهزين للقتـال ، خبراء بفنونه وأساليبه ، كان الواحد منهم كلما سمع هيعة[1] طار إليها ، ذلك لأن القبـائل العربية كمـا تعلمون كانوا فى قـتال مستـمر ، ومن الحروب بينهم ما استمر أربعين سنة .[2]

ثانيـاً : كان العـرب أهل ترحال وتنقل ، لا يعـرفون التـوطن ولا الاستقـرار ، فبيت العربى على ظهر جـمله يضربه أينما حَلَّ وحيـثما وُجد الماء والكلأ ، فعدم تعلّق العربى بموطن جعله مستعداً لأنْ يسيح بالإسـلام فى كل آفاق الدنيا وكل أرجاء العالم .

ولم تكُنْ مصادفةً أن يكون النبى ﷺ أميـاً فى أُمّة أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يـكُنْ لها ثقافة ولا حضـارة . وهذه الصفات كلها وإنْ كانت عيوباً فـى الأمم الأخرى إلا أنها فى أمة الإسلام وفى نبى الإسلام شـرفٌ وميْزة ، ولو كان الـعرب أمة علوم وثقافـة وأمة حضارة ورُقىٍّ لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية .

هذه أمور ثلاثة مـهدت لنصـرة الإسلام ولانتشـاره فى كل آفاق

---

(١) الهيعة : صـوت الصارخ للفزع . وقيل : هى الصوت الذى تفزع منه وتـخافه من عدو . ومنه قوله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » .

(٢) ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كـتابه (الديباج) قال : « حرب ابنى بغيض عبس وذبيان فى مجرى داحس وغبراء كانت بينهم نحواً من أربعين سنة » ، وكان ذلك بسبب سباق خيل عُقد على داحس والغبراء نظير رهان مائة بعير . [قاله ابن عبد ربه فى العقد الفريد] .

الأرض ، وكأن الله تعالى يقول للكافرين ولمن صادم دين الله وعاند رسوله وغفل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] سنريهم آيات أخرى لن تغفلوا عنها فى نصرة الإسلام وسياحته فى آفاق الأرض شرقاً وغرباً .

لذلك يأتى لنا بصورة تُضحكنا عليهم وتغيظهم ، حيث يقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [الحج]

يعنى : يربط نفسه بحبل إلى السماء ، ثم يقطع هذا الحبل لينزل مثل المشنوق ، ثم ينظر هل يُذهِب غيظه أم لا ، والمعنى أنه سينتهى ويموت وغيظه لن ينتهى .

وانظر إلى الإسلام فى بداية أمره كيف بدأ وقام بالضعفاء والعبيد ، تلاهم الكبار والسادة ، ولما ذهب الرسول ﷺ ليدعو أهل الطائف فلاقى منهم ما لاقى من الإيذاء والاستهزاء ، ولم يجد أحداً يحميه أو ينزل بجواره إلا المطعم بن عدى[1] وهو كافر ، لكن سخّره الله تعالى لحماية رسوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] كذلك فى رحلة الهجرة اتخذ عبد الله بن أريقط[2] دليلاً على الطريق ، وكان أيضاً كافراً .

---

(١) المطعم بن عدى ، كان من حلفاء قريش وساداتهم ، وهو الذى أجار رسول الله حين رجع من الطائف ، وهو الذى أطلق سعد بن عبادة من أيدى قريش بعدما تعلقوا به فى قدومه معتمراً . [نسب قريش لمصعب الزبيرى] وهو الذى قام إلى صحيفة قريش التى قاطعوا فيها بنى هاشم وحصروهم فى الشِّعب ليمزقها . [النويرى فى نهاية الأرب فى فنون الأدب] .

(٢) هو دليل رسول الله وأبى بكر لما هاجرا إلى المدينة وكان على دين قومه ولم أر من ذكره فى الصحابة إلا الذهبى فى التجريد وقد جزم عبد الغنى المقدسى فى السيرة بأنه لم يعرف له إسلاماً وتبعه النووى فى تهذيب الأسماء . [الإصابة فى معرفة الصحابة ٢/١٠٠] .

ثم يقول لهم : انظروا إلى أرض الإسلام وأرض الكفر ، فالإسلام بدأ وانطلق من أم القرى وما حولها ، وهو الآن يغزو الأرض كلها من المشرق إلى المغرب ، فأرض الإسلام تزداد اتساعاً ، وأرض الكفر تزداد تناقصاً : ﴿ أَوَلَمْ يروْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (٤١) ﴾ [الرعد] أو لم يأخذوا من ذلك عبرة ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (٤١) ﴾ [الرعد]

فهل بعد ذلك شك في نُصْرة الله لدينه ؟ ألم تغزُ هذه الأمة الأمية أعظم حضارتين على وجه الأرض آنذاك ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ، وفى وقت واحد وزمن متقارب ، حتى أن هؤلاء كان عندهم طرق للحرب وفنون لا يعرفها العرب ولا يجيدونها ، ومع ذلك انتصروا عليهم .

رووا أنهم كانوا يستخدمون الأفيال فى الحروب ، ولم يكُنْ العرب يعرفون شيئاً عنها ، لكن ألهم الله تعالى سيدنا سعد بن أبى وقاص إلى حيلة يتغلب بها على الفيل ، واهتدى إلى أن خرطوم الفيل نقطة ضعف فيه ، فصنع لذلك سيوفاً خاصة يضرب بها خراطيم الأفيال فتسقط .[1]

ثم يدخل الإسلام هذه البلاد شرقاً وغرباً فى نصف قرن من الزمان ، ويجد له هناك أنصاراً ومحبين ، منهم مَنْ دخل الإسلام طواعية اقتناعاً ، ومنهم مَنْ وجد فى الإسلام ضالته حيث عدالة الإسلام وسماحته فى مقابل جَوْر الحكام هناك وكثرة المظالم والفساد .

---

(١) ذكر الجاحظ فى كتابه الحيوان فى كلامه عن خرطوم الفيل : « قال زهرة بن جؤية يوم القادسية : أما لهذه الدابة مقتل ؟ قالوا : بلى خرطومه فشد عليهم حتى خالطهم ودنا من الفيل ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه فضرب خرطومه فبرك وأدبر القوم» .

هذه كلها آيات نفهمها من قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] فالفتح الإسلامي الذي عَمَّ العالم كله آية من الآيات ، هذا الانتشار الواسع للإسلام لم تستطيعوا أن تصدوه ، لأن الله وعد به عباده المؤمنين ووعد به رسله ، والحق سبحانه لما وعد الرسل بالنصرة لم يعدهم سراً إنما في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة ويُجهر به ، قرآن تكفَّل الله بحفظه وصيانته ، والعادة أنك تحفظ ما لك لا ما عليك ، أما الحق سبحانه فيحفظ وعده الذي تكفل به لأنه واثق أنه واقع لا محالة .

ومن المعاني التي نفهمها من الاستقبال في ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] أن المسلمين كانوا في بداية الأمر مضطهدين غير مأمورين بقتال ، وربما مات بعضهم قبل أن يتحقق وعد الله بالنصر ، فلما قرأوا : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] علموا أن النصر قادم حتى ولو ماتوا قبل أنْ يروا فرحته .

وتعلمون أن الله لم يأمر المسلمين بالقتال إلا بعد أنْ تمكَّن الإيمان من نفوسهم ، واستقرتْ العقيدة في قلوبهم ، حتى أن بعضهم يقول لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلونني ؟ فيقول له رسول الله : بلى فيلقي الرجل تمرة كان يمضغها ويبادر بنفسه إلى ساحة القتال ، ويُعجِّل المسير إلى الشهادة لما استقر في نفسه من عقيدة علَّمته أنه ذاهب إلى أفضل مما هو فيه ومُقبلٌ على جنة عَرْضُها السموات والأرض .[1]

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (حديث ٤٠٤٦) من حديث جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيتَ إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قُتل . وكذا أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٩٩) .

وسوف تظل هذه السين الاستقبالية ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ باقية تمدنا بعطاء لا ينتهى حتى قيام الساعة التى ستكون هى الآية الكبرى سنريهم آيات في كل زمان ، آيات فى صالح هذا الدين ونُصْرة أهله فى كل الآفاق .

وقوله تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] يعنى : آيات فى الأنفس ، فى الأشخاص ، فى لحمك ودمك وروحك ، فى أعضائك وأجزائك ، فى كل شىء فيك آية لو تدبرت .

الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان من طين ، وأخبرنا بكيفية الخلق ومراحله ، ومحمد ﷺ لم يكُنْ عالماً من علماء التشريح ولا يعرف علم الأجنة إنما علّمه ربه الأعلى ، وجاء العلم الحديث ليثبت صدق ما أخبر به فى مسألة خلق الإنسان من طين ، وأن نسله من سلالة من ماء مهين ، وأنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ، ثم كسى العظام لحماً .

وها هو العلم يكشف لنا كل يوم عن جديد فى أنفسنا وعن عجائب لم نكُنْ نعرفها فى أنفسنا من قبل ، إنك حين تقرأ آخر ما توصلتْ إليه العلوم فى جسم الإنسان تعلم أنك فى ذاتك عالمٌ عجيب وبناء محكم دقيق ، وصدق القائل[1] :

وَتحسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العَالَم الأكْبَرُ[2]

وسبق أنْ تحدثنا عن بعض عجائب الخَلْق وقلنا مثلاً : أن حرارة

---

(١) هو : عبد اللطيف بن على فتح الله ، أديب من أهل بيروت ، تولى القضاء والإفتاء . يعرف بـ (المفتى فتح الله) له نظم جيد فى ديوان مطبوع ومقامات ومجموعة شعرية بخطه القاها فى صباه سنة ١٢٠٠ هـ . توفى عام ١٢٦٠ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ٦ أبيات .

الجسم العادية ٣٧° تجدها حرارة مَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وحرارة مَنْ يعيش عند القطبين ، ومع ذلك لا يحدث استطراق حرارى داخل الجسم ، فتجد كل عضو من الأعضاء يحتفظ لنفسه بالحرارة التى تناسبه ، فالكبد درجة حرارته ٤٠° والعين لا تزيد عن ٩° ، وهما فى جسم واحد ، ولا يحدث بينهما استطراق حرارى .

تأمل الدم سائل الحياة فى الجسم كله وكيف يحتفظ لنفسه بدرجة من السيولة لو زاد عنها يحدث نزيف ، ولو قلَّتْ تحدث جلطة وشلل والعياذ بالله .

تأمل الكليتين وما فيهما من أسرار وقدرة وإبداع ، فالكلية لو حدث لها فشل عن أداء وظيفتها تقوم الأخرى بمهمتها ، ويكفى الجسم أن يعيش بكلية واحدة لو فُقدت الأخرى ، لذلك قلنا بتحريم نقل الكلية من شخص لآخر ؛ لأن الخالق سبحانه جعل لنا كليتين ، كل كلية منهما فيها مليون خلية مستعدة للعمل لا يعمل منها سوى مائة ألف فقط ، فإن توقفت هذه المائة تبعتها المائة الثانية وهكذا .

فكيف إذن يحدث الفشل الكلوى ؟ قالوا : يحدث من أن المائة ألف أدَّتْ مهمتها ثم توقفتْ ولم تتنبه المائة ألف الثانية لكى تقوم بمهمتها ، فحين نأخذ من شخص كليته ونعطيها لشخص آخر نقول : هذا إجرام وانتحار ، لأن الكلية الباقية لو توقفتْ لا بدَّ أن يموت الإنسان .

ومن العجائب وآيات الخَلْق سبحانه فى الإنسان آية الجلد وما فيه من أسرار ، فهمناها من قوله تعالى فى الحديث عن عذاب الكافرين : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۝٥٦ ﴾ [النساء]

تعلمنا من هذه الآية أن الجلد هو موضع الإحساس ، فلو حُرِق

لا يحدث الإحساس ؛ لذلك الحق سبحانه يُجدد لهم جلودهم ليذوقوا العذاب وليستمر الإيلام ، والعالم لم يعرف هذه المسألة إلا بعد الحرب العالمية ، فقد توصل الألمان إلى أن الجلد هو آلة الإحساس فى الجسم ، بدليل أنك حين تأخذ مثلاً حقنة لا تؤلمك إلا بمقدار نفاذ الإبرة من طبقة الجلد بعدها لا تشعر بالألم ، فالقرآن سبق العالم كله إلى هذه الآية .

ومن آيات الله فى الأنفس أنك تجد بداخل الجسم صيدلية طبيعية تعالج ما يحدث فى الجسم من خلل ، هذه الصيدلية أخذناها من قوله تعالى : ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج] فالمخلَّقة : هى التى تكوَّن منها الجسم بأعضائه وجوارحه المشاهدة ، وغير المخلقة الموجودة داخل الجسم كاحتياط له تكمل ما نقص منه وتعالج ما مرض فيه ، لذلك رأينا أحدث علاج للجروح والدمامل مثلاً أنْ تتركها لمقاومة الجسم الطبيعية حيث تلتئم دون تدخل بمواد كيماوية تضر وتترك أثراً فى الجلد .

تأمل أىّ عضو من أعضائك ، وأىَّ جهاز من أجهزة جسمك ، تأمل كيفية بناء هذا الإنسان على هذه الهيئة المعتدلة المستقيمة ، وكيف يسير معتدلاً مرتفع الهامة ، تأمل كَفَّ يدك وما فيه من أصابع وما فيه من تناسق وتناسب وانسيابية .

انظر إلى جهازك الهضمى أو التنفسى ، انظر إلى قلب هذه العضلة التى لا تزيد عن قبضة اليد الواحدة ، كيف أنها تعمل دون توقف منذ الميلاد وحتى الوفاة ، كلها آيات وعجائب وأسرار دالة على قدرة الخالق وبديع صنعته سبحانه فى الأنفس .

ويظل عطاء هذه الكلمة ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ممتداً فى الزمان كله وكل

يوم نشاهد جديداً وآية وعجيبة من عجائب الخلق في الآفاق وفي الأنفس ، ولما تستقرئ القرآن تجده قد استوعب في هذه المسألة الماضي والحاضر والمستقبل ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤١)﴾ [الرعد] وقال في المستقبل ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣)﴾ [فصلت]

باقي في الاستقبال سوف وهي للمستقبل البعيد ، قالوا : هي لأمور الآخرة كما في قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود]

وفَرْق بين استقبال الفعل من الله تعالى واستقباله من البشر ، نحن نقول : ماضي ومضارع ومستقبل . أما بالنسبة للحق سبحانه فيستوي عنده الزمن كله ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (١)﴾ [النحل] والمراد هنا القيامة .

لذلك وقف المستشرقون عند هذه الآية يتهمون القرآن بالتناقض ﴿أَتَىٰ﴾ تدل على الماضي و﴿لا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تدل على المستقبل ، لكن يجب أنْ علم أن المتكلم هنا هو الله عز وجل الذي يملك الزمن كله ، فحين يقول (أتى) يقولها برصيد قدرته ووحدانيته ، حيث لا يوجد له معارض يمنع حدوث الفعل ، فالقيامة لأنها حَقٌّ واقع لا محالة عبَّر عنه بالماضي كأنه أتى بالفعل .

قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ دلَّتْ على أن هذه الآيات مُوزَّعة على الزمن ، بحيث يجد كل جيل في القرآن عطاءً جديداً ، فنحن الآن نعرف من آيات الله في الكون وفي الأنفس ما لم يكُنْ يعرفها أحد على زمن رسول الله مع أنها موجودة وأخبر الله بها في القرآن .

سألتُ مرة بعض إخواننا المختصين بالنواحي الاقتصادية في

العالم قُلْت لهـم : متى عرف الإنسـانُ (الأسانسيـر) ؟ قالوا : سنة كذا يعنى فى القرن العشرين ، قلت : فاقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف] والمعارج أى : ما نعرفه الآن بـ (الأسانسير) .

كذلك البواخر والسفن العـملاقة المكوَّنة من طوابق ، والتى تظهر فى البحار وكأنها مدينة متحركة لم تكُنْ بهذه الصورة على عهد النبى ﷺ ، وقد أخبر الله بها فى سورة الرحمن : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[1] ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] إذن : الحـق سبـحـانه خلق وعلم ما سيحدث لخلقه فى المستقبل .

فـإنْ قلتَ : فلمـاذا لم تظهر هـذه الآيات فى زمن النبى ﷺ وفى زمن صحابتـه ؟ قالوا : لو ظهرت هذه الآيات الكونية مـعاصرة لزمن النبى وصـحـابته لأفـرغ القـرآن مـعـجزاته وآياته فـى قرن واحـد ، واسـتقـبلت القـرون التـالية القـرآن بدون عطاء جـديد ، وبدون آيات تبهرهم وتدلهم على قدرة الخالق سبحانه .

فالله تعالى أراد أنْ يظلَّ استقبال الأجـيال للقرآن استقبالاً جديداً ، بحيث يكون لكل جيل نصيب من عطاء القرآن ليثبت لنا أن الذى أنزل القرآن قديـماً أخبر فيـه بما يحدث فى المسـتقبل ، وأنه سبـحانه إله واحد ليس معه شريك يردُّ عليه ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] أى : يتضح

---

(١) الأعلام : الجبال . مفـردها علم . والعلم : الجبل الطويل (أى المرتفع) وقد يكون الطويل فى طوله . [انظر لسان العرب – مادة : علم] .

لهم أن القرآن حق وأن الله حق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وضده الباطل ، والباطل متغير زاهق ، الحق أبلج ، والباطل لجلج .

الله تعالى يُصوِّر لنا الحق والباطل فى مثال مادى مشاهد ، فيقول سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (١٧) ﴾ [الرعد]

فالله تعالى هو الحق ، ما يقوله حق ، ومن الناس مَنْ يعرف وجه الحق فيه ، ومنهم مَنْ يرتاب وتَخْفى عليه الآيات لفترة ثم تصل بهم الأحداث إلى أنْ يعرفوا أنه الحقُّ من الله الحق ، فعلاً ووجوداً .

وقد ينتصر الباطل ويعلو فى فترة من الفترات ، لكن لا بُدَّ أن تكون الجولة الأخيرة للحق ؛ لذلك قالوا : دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والمؤمن الواعى الواثق بنصر الله لا يبالى لانتصار الباطل فهو موقوت ، وينتظر اللحظة التى يعلو فيها الحق ويزهق فيها الباطل .

المؤمن يعلم أن الباطل حين يعلو يكون جندياً من جنود الحق ، فالباطل يُظهر الحق لمن لا يعرفه ، والضد يظهر حُسْنه الضد ، ولولا أن الناس شَقُوا بالباطل وعضَّتهم الأحداث ما عرفوا الحق وما اشتاقوا إليه .

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) فيذهب جُفاء : أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . [تفسير ابن كثير ٢/٥٠٨] .

لذلك لما تتأمل النسق القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] تعلم أن الحق ثابت ، وأنه الأصل الذى عليه قامت أمور الخَلْق كلها ، فكلمة الذين كفروا قد تعلو لكن ينتهى بها الأمر إلى أنْ تكون هى السفلى ، جعلها الله سفلى فهى جَعْل من الله .

أما ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] تجد (كلمة) هنا مبتدأ ، فهى فى أصلها عليا ، ليست جَعْلاً كالأولى ، يعنى لم تكُنْ أبداً سفلى ، ثم جعلها الله عُلْيا بل هى بطبيعتها عليا . إذن : نقول : إن الباطل يعلو ليعض الناس بأحداثه فيتنبهوا للحق .

ثم يقول سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] بلى كفى به سبحانه شاهداً ومطلعاً لا تَخْفَى عليه خافية ، كأن الحق سبحانه يقول لهم ما كان يصح منكم أنْ تنتظروا الآيات لتُصدِّقوا الرسول ، بل كان عليكم أنْ تصدقوه بمجرد أن يقول لأن الله شهيد عليه ، والله سبحانه ليس له معارض يعارضه ويرد حكمه .

لذلك قلنا : لماذا أصبح الصِّدِّيق صدِّيقاً ؟ لأنه لما قيل له إن صاحبك يدَّعى أنه نبى لم يزدْ على أن قال لتوِّه : إنْ كان قال فقد صدق ، هكذا دون أن يناقش المسألة ، كذلك لما بلغه خبر الإسراء والمعراج قال نفس قولته الأولى ، ولم ينتظر حتى ينزل القرآن ، فيخبرهم بذلك وبعدها يُصدِّق .

فالقرآن إنما ينزل يقنع الكافر المعاند أو الشّاكّ المرتاب ، والصِّدِّيق رضى الله عنه كان فى أعلى درجات اليقين والإيمان ، وكَفَاه تاريخ محمد سيرته فيما مضى ، فأخذ من صدْقه فى الماضى دليلاً على صدْقه فى الحاضر .

كلمة ﴿ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت] هنا تحمل معنى الشاهد الذى يثبت الحق ، والقاضى الذى يحكم فيه ، والمنفذ الذى ينفذ الأحكام .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ (٥٤) ﴾

كلمة ﴿ أَلا ﴾ أداة استفتاح لكلام جديد ، فالمتكلم يريد ألاَّ يفاجئ المخاطب فينبهه لكى ينتبه إليه ولا يفوته شىء من كلامه ، وكأنه يقول له : استعد واسمع ما أقوله لك فهو كلام مهم .

والكلام المهم هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ (٥٤) ﴾ [فصلت] أى : الكفار فى شكٍّ من البعث بعد الموت يظنون أن المسألة خلقهم الله فى الدنيا وانتهتْ المسألة ، فهم يشكُّون فى أن هناك رجعة ، ويرتابون فى الحساب والجزاء ، ولا يعملون حساباً لهذا اليوم ، لماذا ؟

لأنهم لم يعملوا مقدمة لهذا اللقاء لذلك يتغافلون عنه ، يُمنِّى الواحد نفسه أن هذا الكلام كذب ، وليس هناك بعْث ولا حساب ولا جزاء ، ومَنْ يعترف منهم بهذا اللقاء يملؤه الغرور ، فيقول ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ (٥٠) ﴾ [فصلت] وقال آخر : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

إذن : فهم فى (مرْيَة) من هذا اليوم أى شك وارتياب وتردد ، والمرْية أيضاً من المراء ، وهو الجدال بالباطل والعناد والمكابرة على قبول الحق والانصياع له ؛ لذلك قالوا : الجدل هو النقاش الموصِّل إلى شىء بين طرفين ، إلى نتيجة ، أما المراء فهو جدل ينتصر فيه كل طرف لنفسه ، ولا يعنيه الوصول إلى الحق .

والله تبارك وتعالى يُعلِّمنا كيفية الاختلاف ، وكيفية النقاش ،

وأصول الجدل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ] ما هى يا رب ؟ ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا بحثاً جماعياً جماهيرياً ، بل مَثْنى وفرادى ، لأن حكم الجماهير غير منضبط ، فكل طرف فيه يريد أن ينتصر لرأيه ، ولا يقبل أن يُهزَم أمام الجمع فيتمادى فى الباطل .

وسبق أن قلنا : إن هتاف الجماهير تتوه فيه الأصوات وتختلط فلا تتميز ، ومثَّلنا لذلك بقول شوقى فى كيلوباترا لما انهزمتْ فى أكتيوم[1] :

اسْمع الشَّعْبَ ديُون ... كيْفَ يُوحُونَ إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافــا ... بحيَاتىْ قَاتـليْـه
أثَّـر البُهتَانُ فيـه ... وَانطَلى الزُّور عليْـه
يَالَـهُ من بَبْـغَاءَ ... عَقلُه فـى أُذُنيْـه

والأمر المخزى هنا أنهم فى مرية ، لم يقل من الجنة وإنما ﴿ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ (٥٤) ﴾ [فصلت] فهذا هو الكسوف الكبير والخجل والخزى ، كما قالوا : موقف يتساقط فيه لحم الوجه خجلاً من الحق سبحانه ، وقد عادوا إليه هذا العَوْد المؤسف ، وجدوا أنفسهم أمام الحق سبحانه وقد كفروا به فى الدنيا وجحدوه وأنكروه ، ثم تفاجئهم هذه الحقيقة ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

والله لو قال فى مرية من نعيم ربهم لكانت مقبولة ، والناس تتفاوت مراتبهم ودرجاتهم فى العمل الصالح ، فمنهم مَنْ يعمل خوفاً

---

(١) هى معركة حدثت فى شهر سبتمبر من عام ٣١ قبل الميلاد وانتصر فيها أوكتافيين وريث يوليوس قيصر . [ويكيبيديا] .

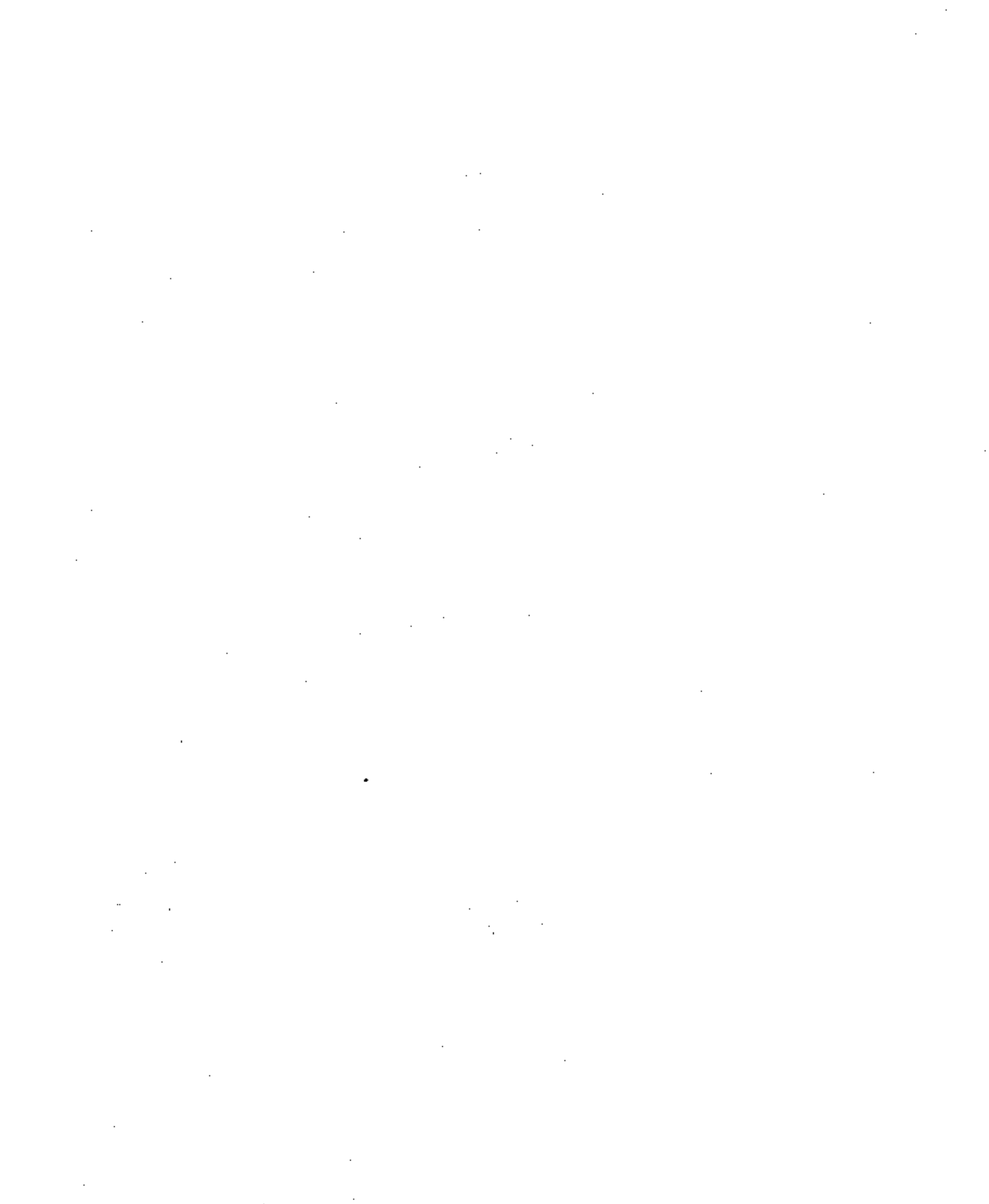
من النار ، ومنهم مَنْ يعمل طمعاً في الجنة ، ومنهم مَنْ يعمل حباً في الله الذي كلَّفه وإرضاءً له سبحانه ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، إنما يعمل لذات الله .

لذلك ورد أن السيدة رابعة العدوية[1] قالت في مناجاتها لله تعالى : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك خوفاً من نارك فاحرقني بها ، إنما أحبك لأنكَ تستحق الحب ، واقرأ قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف] والجنة أحد .

وقوله سبحانه : ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤)﴾ [فصلت] تقرير لحقيقة أخرى بدأت أيضاً بـ ﴿ أَلا ﴾ الاستفتاحية . والمعنى أنه سبحانه يحيط علمه بكل شيء إحاطةً تامة لا يفلت أحدٌ منها ، ولا يغيب عنها مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض ، والمحيط هو الدائرة التي تلفُّ الشيء من كل جوانبه .

---

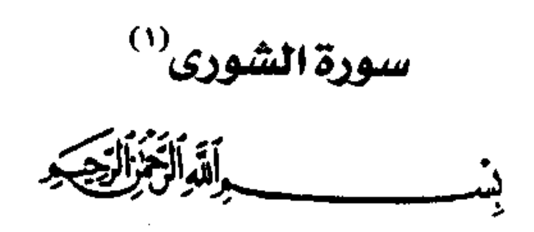
(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير ، البصرية ، صالحة مشهورة مولدها بالبصرة ، لها أخبار في العبادة والنسك ، ولها شعْر ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هجرية وقيل : ١٨٥ هجرية . الأعلام للزركلي (٣/١٠) .



سُورَةُ الشُّورَى



سورة الشورى[1]



﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾

هذه الحروف من الحروف المقطَّعة التى تقع فى بدايات بعض سور القرآن الكريم ، وقد سبق الحديث عنها فى أكثر من موضع ، ولكنا نُذكِّر بأن القرآن كله مبنىّ على الوصل ، الوصل فى آياته ، والوصل فى سُوره ، والوصل فى آخره بأوله .

فأنت تقرأ : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس] هكذا بالكسر لتصلها ببسم الله الرحمن الرحيم فى الفاتحة . أما الحروف المقطعة فهى مبنية على الوَقْف ، بحيث يُقرأ كلّ حرف على حِدَة تقول هنا (حا ميم عين سين قاف) .

وأنت تقرأ فى أول البقرة (ألف لام ميم) وتقرأ نفس الحروف

---

(١) سورة الشورى هى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بعد سورة فصلت . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا اربع آيات منها انزلت بالمدينة هى قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. ۝٢٣ ﴾ [الشورى] إلى قوله : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ [الشورى]

في أول سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح] لتعلم أن القرآن ليس كأىٍّ كتاب آخر ، وأن قراءته تعتمد أولاً على السماع ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩ ﴾ [القيامة]

إذن : حين تتدبر القرآن تجد للقراءة بالوصل حكمة ، وللقراءة بالوقف حكمة ، ومعلوم أن الحرف هو اللبنة الأولى في بناء الكلمة وبالتالى العبارة ، وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ أهمية الوقف على هذه الحروف ، فقال : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(١)] .

وحروف اللغة قسمان : حروف مبنى وهى اللبنات التي تدخل فى بناء الكلمات والعبارات ، فكلمة كتب تكوَّنت من الكاف والتاء والباء ، وهذه الحروف لا تعطى معنىً إلا إذا تركبت مع بعضها لتكوِّن الكلمات . والأخرى حروف معنى مثل كاف التشبيه فى الجندى كالأسد ، فالكاف هنا أفادت معنى التشبيه ، وهذه الحروف لا تعطى معنىً إلا إذا رُكِّبتْ مع غيرها من الكلمات .

واللغة عامة ظاهرة اجتماعية ، وهى ألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، وبها يتفاهمون ، واللغة كما قال العلماء بنت المحاكاة ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، فالولد الذى ينشأ فى مجتمع عربى يتكلم العربية ، ولو كان فى مجتمع إنجليزى لتكلَّم الإنجليزية .

إذن : ليست اللغة جنساً ولا دماً ، بل ظاهرة اجتماعية تعتمد على

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

السماع ، حتى فى داخل اللغـة الواحدة قد تسمع الكلمة لأول مرة فلا تفـهمها ولا تعرف معناها ، مع أن ألفاظها عربية لكنها لم تمرّ بسمعك من قبل .

يُرْوى أن أبا علقمة[1] النحوى كان مُغـرماً بالفصحى ، ولا ينطق إلا بهـا ، فكان يأتى بألفاظ غـريبة حـتى شَقَّ ذلك على خادمـه الذى كان لا يفهم كـثيراً من هذه الألفاظ ، وفى إحدى الليالى اسـتيقظ من نومه وسأل الخادم : يا غلام أصقعتْ العتاريف[2] ؟ لم يفهم الغلام إلا أنه ردَّ فى ضيق وقال له : زِقْ فَيْلم فتعجَّب أبو علقمة وقال له : وما زِقْ فَيْلم ؟ قال الغلام : وما صقـعت العتاريف ؟ قال : أردتُ أصاحتْ الديكَة ؟ قال : وأنا أردتُ لم تَصِحْ ؟

ومن نوادر اللغـة أن أحدهم ذهب إلى الطبـيب ، فقال له الـطبيب وكـان اسمـه أعـين : ما بـك ؟ قال : أكلت من لحـوم هذه الجـوازئ فطسأت منها طسأة أصابنى منها وجع من الوابلة إلى دأية العنق ولم يزل يَنْمى حتى خـالط الخِلْب وألمَتْ منه الشراسيف ، فقـال الطبيب : أعِدْ علىَّ فـوالله ما فهمـتُ منك شيئاً ، فـأعاد كالأولى ، فـردَّ الطبيب وقال له : خُذْ حرقفاً وسلقفاً وسـرقفاً وزهزقه وزقزقه بماء روث ثم اشربه ، فـقال الرجل : أعِـدْ علىَّ فوالله ما فـهمتُ منك شـيئاً . فـقال

---

(١) وردت هذه القصة فى كتاب (معجم الأدباء) لياقـوت الحموى نقلاً عن أبى بكر محمد بن خلف بن المـرزبان فى كـتاب الثـقـلاء . وأبو علقـمة النحـوى وهو النمـيـرى قال ياقـوت الحموى : أراه من أهل واسط .

(٢) العتاريف : عُتْرف . أى الديك . [تاج العروس مـادة : عترف] واصقعت : أى: اصاحت . وسمى الخطيب مصقعاً لرفع صوته فى التبليغ .

الطبيب : لعن الله أقلّنا إفهاماً لصاحبه .[1]

إذن : نقول إن اللغة بنت المحاكاة ، فهى تعتمد أولاً على السماع ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فالولد الصغير يتعلم الكلام من أسرته وممن حوله ، أما الأخرس فإنه لا يتكلم لأنه لم يسمع ؛ لذلك قال تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] فالبكَم لا يأتى إلا بعد الصَّمم ، ولو سلسلنا مسألة تعلُّم الكلام هذه سنصل بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، فكُلٌّ منا تعلم الكلام من أبيه وأمه وممن حوله ، أما آدم عليه السلام فعلَّمه ربه ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴿٣١﴾﴾ [البقرة] يعنى أسماء الأشياء ، فالله سبحانه هو المعلم الأول .

وفى الحروف المقطعة هذه ملحظ هام ، فهى تُعلِّمنا الإيمان بالغيب ، كيف ؟ الحق سبحانه وتعالى له فى خَلْقه غيب ومشهد ، وقد جعل سبحانه للغيب مشهداً يدل عليه ، ففى مجال العقائد مثلاً أنا معتقد أن لهذا الكون إلهاً خالقاً ، وهذه العقيدة يمكن أنْ أدلِّل عليها بالآيات الكونية الموجودة المشاهدة .

لكن يأتى فى العقيدة أيضاً مسائل غيبية ليس لها دليلٌ من المشهد المُحَسِّ ، مثل الإيمان بالملائكة وهى غيب ، وما دام هناك تكاليف وطاعة ومعصية فلا بدَّ أنْ توجد جنة ونار ، وقبلها مرحلة القبر وما فيه من نعيم أو عذاب ، كل هذه أمور سمعية لا يُقام عليها دليل عقلى ، إنما

(١) هذا الخبر أيضاً لأبى علقمة النحوى ذكره ابن الجوزى فى أخبار الحمقى والمغفلين فصل فى عدم مخاطبة العوام بالإعراب . والجوازم أى : الإبل أى أكل من لحم جمل . فطسات : أى اتخمت بالطعام من الدسم ؛ فأصابه رجع من الوابلة وهى رأس عظم الخفذ إلى العنق والظهر ولم يزل الألم يزيد حَتى خالط الخِلب وهو حجاب بين القلب والكبد فتألمت منه أطراف الأضالع .

نؤمن بها لأن الإله الذى آمنا به أخبرنا بوجودها ونحن نثق فى خبره .

إذن : كل إيمان عقدى مُشَاهد يأخذ بجانبه إيماناً غيبياً ، والإيمان بالغيب هو الأهم لأنه المحكّ فى مسألة الإيمان ، وهو الدليل على قوة العقيدة ، لأن الإيمان بالمشهد يستوى فيه الجميع .

قلنا : هَبْ أن عندك خادماً وقلتَ له : يا فلان ارفع هذا الحجر فى الحديقة مثلاً فيقول لك : إنه ثقيل لا أقدر على رفعه تقول له : إنَّ تحته كيس النقود الذى سأعطيك منه راتبك فيسرع إليه ويرفعه ، هذا آمن بالغيب أم بالمشهد ؟ آمن بالمشهد . لم يثق بك وإنما بكيس النقود .

إذن : المحك الحقيقى للإيمان هو الغيب ، لذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝٣ ﴾ [البقرة] لأن المحسّ والمشَاهد الكل يعرفه ويؤمن به ،

كذلك الحال فى كلام ربِّ العالمين وفى قرآنه الكريم كلام وحروف لها معنى ، وحروف أخرى ليس لها معنى واضح نعرفه ونفهم تفسيره ، وهذه هى الحروف المُقطَّعة نؤمن بها ونُصدِّق بها على أنها من الغيب .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحروف المقطعة فى بدايات السور أخذت نصف حروف المعجم يعنى أربعة عشر حرفاً ، والمتأمل فى هذه الحروف يجد لها نظاماً ورتابة لم تُؤخذ هكذا كيفما اتفق ، فلو قسَّمنا حروف الهجاء إلى تسعة حروف فى أولها وتسعة فى آخرها ويتبقى عشرة فى الوسط نجد الحروف المقطعة أخذت فقط حرفين من المجموعة الأولى هما الألف والحا وترك سبعة ، وأخذت سبعة من المجموعة الأخيرة وتركت اثنين ، وأخذت من الوسط الحروف غير المنقوطة وتركت المنقوط ، إذن : لها موازين ولها حكمة .

ونحن نحاول ونفكر في معاني هذه الحروف ، ويحوم العقل حول هذه المعاني قد يبلغ بعضها ، وقد يقف عاجزاً يقول : الله أعلم بمراده ، وكُلٌّ عالم يحاول فَهْم هذه الحروف أو استجلاء الحكمة منها مجتهد ومُثَاب ، أصاب أو جانبه الصواب .

المهم أن الحق سبحانه يريد منا أن نؤمن بهذه الحروف ، وأن نقبلها كما هي ، عرفنا معانيها أو لم نعرف ، فهي أشبه بأسنان المفتاح الذي يعنيك منها أنْ تفتح لك دُون أنْ تعرف لها نظاماً ، ويكفي أن صاحبها يعرف أسرارها ، وأنها تؤدي لك مهمتها على ما هي .

فصحيح أننا نحوم حول هذه المعاني وقد نصل إلى شيء منها ، لكن يظل للقرآن إعجازه ، وتظل هذه الحروف محتفظة بعطاء متجدد لا ينفد . والقرآن لما تحدَّى العرب وأعجزهم ، البعض فهم من ذلك أنه تقليل من شأن العرب ، لكن هذا التحدي يعني براعتهم في هذا المجال وتمكّنهم منه وإلا ما تحداهم القرآن ، إذن : تحدِّي القرآن لهم شرف لهم وإعلاء لشأنهم ، ويكفي أن الله جعلهم المقياس في هذه المسألة .

والقرآن حين تحدَّى العرب لم يأت بكلمات جديدة ولا بحروف جديدة ، فهي نفس الحروف ونفس الخامات التي تتكوَّن منها لغتهم ، ومع ذلك ظل كلام الحق سبحانه هو المعجز ، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله ، فوجه الإعجاز هنا أن القرآن كلام الله ، الله هو الذي يتكلم ، فكلامه مُعْجز لأنه سبحانه يضفي عليه من قدرته ، وكلامك أنت أيها العبد غير معجز لأن فيه شيئاً من عجزك .

وسورة الشورى من سُوَر الحواميم[1] . يعنى : السور التى بدأتْ بقوله تعالى (حم) وقد رأينا أن هذه الحروف جاءت بحرف واحد مثل (ن) و (ق) و (ص) . وجاءت بحرفين مثل (طس) . وجاءت على ثلاثة أحرف مثل (الم) و (طسم) وجاءت على أربعة أحرف مثل (المر) و (المص) . وعلى خمسة أحرف مثل (حم عسق)[2] و(كهيعص) وهذه الحروف لا تُعرف معانيها ، ونؤمن أنها من الغيب الذى يجب علينا التسليم به ، وأن نقول فى تفسيرها : الله أعلم بمراده .

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ﴾

الكاف فى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ حرف معنى يفيد التشبيه و ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الحروف المقطعة السابقة ، يعنى بمثل هذه الحروف ﴿ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ۝٣ ﴾ [الشورى] فهذه الحروف من وحى الله إلى نبيه محمد ، وما يأتى بعدها أيضاً من وحى الله .

والوحى : هو إعلام بخفاء من المتكلم للسامع ، فلو جاءك ضيف

---

(١) الحواميم هى السور التى تبدأ بقوله (حم) وهى سبع سور : غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف . وصفها على بن أبى طالب : عرائس القرآن . وقال ابن عباس : لباب القرآن . وقال ابن مسعود : الحواميم ديباج القرآن . [انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه (قولهم فى حملة القرآن)] .

(٢) نقل القرطبى فى تفسيره (٦٠٤٣/٩) أن الحسين بن الفضل سئل : لم قطع « حم » من « عسق » ولم تُقطع (كهيعص) ؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سور أولها « حم » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكأن « حم » مبتدأ و « عسق » خبره .

وتريد أن تخبر خادمك بأمر دون أنْ يُحسَّ به الضيف ، فإنك تنظر إلى الخادم أو تهمس إليه بطريقة ما يفهم منها ما تريد ، فكأنك أوحيتَ إليه بهذا الأمر .

والوحي يقتضي : مُوحياً ، ومُوحَىً إليه ، ومُوحىً به ، وقد أخبرنا الحق سبحانه أنه يوحي لمن يشاء من مخلوقاته ، يوحي إلى الملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

ويوحي للرسل : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (١٦٣) ﴾ [النساء]

ويوحي إلى الصالحين من عباده ، كما أوحى إلى الحواريين ، وكما أوحى إلى أم موسى ، وأوحى للنمل ، وأوحى إلى الأرض وهي جماد : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

كذلك أخبرنا الحق سبحانه أن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعضهم ، ومثلهم شياطين الإنس ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام] أي : من الإنس وقال : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُورًا (١١٢) ﴾ [الأنعام] والوصف العام لكلمة الوحي أنه بخفاء ، هذا في المعنى العام لكلمة الوحي ، وهو يكون بالخير ويكون بالشر .

أما الوحي الشرعي المقصود هنا فالذي يكون من الله تعالى لرسوله ﷺ بواسطة الملَك جبريل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَمَا

---

(١) زخرف القول غروراً . أي : القول المرقَّش بالخداع وبالكذب الذي يوحي بالغرور لمن يسمعه . [القاموس القويم ١/٢٨٥] وقال ابن الأعرابي فيما نقله عنه ابن منظور في لسان العرب (مادة : زخرف) : أي حسن القول بترقيش الكذب .

كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

إذن : الوحي الشرعي : إعلام من الله لمن اختاره من الرسل بإحدى هذه الوسائل : أن يرسل إليه مَلَكاً أو عن طريق الإلهام ، وسبق أنْ أوضحنا أن وارد الرحمن لا يصطدم بوارد الشيطان ، لأن وارد الرحمن أقوى لا ينازعه شيء .

ففي قصة أم موسى ، قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (٧) ﴾ [القصص] الوحي هنا بمعنى ألهمها ، أو نفث في روعها ، أو مرَّر بخاطرها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (٧) ﴾ [القصص] هذا أمر العقل لا يقبله ، لكنه لما كان من الله لم يعارضه اختيار آخر وأذعنتْ له أم موسى ونفَّذته على الفور .

لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يعلِّم صحابة رسول الله أمور دينهم أنزل إليهم جبريل في صورة رجل ، وأخذ يسأل رسول الله عن الإيمان وعن الإسلام وعن الإحسان وكان يسأل ويصدق ؛ لذلك تعجب منه الصحابة : كيف يسأل ويصدق ، ولما انتهى الدرس قال رسول الله ﷺ : « إنه جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم »[1]

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويُصدِّقه قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... » . الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ومسلم في صحيحه (٨) .

وتبين هذه الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ﴾ [الشورى] أن الموحى هو الله عز وجل ولم تقل مثلاً ربك ، فاختارت لفظ الألوهية لماذا ؟ الله هو المعبود بحقٍّ ، والمعبود يعنى له منهج وله تكاليف فيها أوامر وفيها نواه ، فعطاء الألوهية كما قلنا عطاء تكليف ، أما عطاء الربوبية فتربيةٌ ورعاية ومنح دون مقابل .

فالحق سبحانه وتعالى في العطائيْن لا يعود عليه من العباد شيء ولا ينتفع منهم بشيء ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وما جعل التكليف والمنهج إلا لإسعاد العباد وسلامة المجتمع .

كأن الله يقول لنا : أريدكم سعداء في مجتمع نظيف طاهر يقوم على المحبة والسلام ، ويخلو من الغل والحسد والنفاق ، مجتمع يقول وينبه على الفضيلة ويخلو من الرذيلة ، ذلكم لأنكم عبادى وصنعتى ، وكل صانع يريد لصنعته الصلاح ، ويربأ بها عن الفساد .

لذلك قلنا : إن الرجل العاقل لا يحقد على مَنْ هو أعلى منه فى ناحية من النواحى ولا يحسده ، وإذا اصطدم بظالم لا يدعو عليه إنما يدعو له ، وإذا رأى فساداً أصلحه ، وإذا رأى غير المسلمين تمنى لو كانوا مسلمين ، لماذا ؟ لأنه سيسعد بإصلاح هؤلاء ، وسيجنى ثمار صلاحهم واستقامتهم ، وسيعود عليه خيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ﴾ [الشورى] إشارة إلى أن الموحِى بهذا الوحى والمنزِل لهذا الكتاب ولهذا المنهج (الله) أى : صاحب التكاليف والآمر بها .

الله : علَم على واجب الوجود ، بعضهم قال : هو مشتق من أله من العبادة ، ومألوه يعنى معبود ، وبعضهم قال : الله علَم على

الذات ، لا تجد فيه إلا صفة العَلَمية على واجب الوجود ، وهذا العلم موصوف بكل صفات الكمال ، فهو القوى العزيز الجبار المتكبر الرحيم الحكيم الغفور الوهاب القهار . هذه من أسماء الحق سبحانه وهى صفات كمال لاسم الله ، لذلك قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (١١٠) ﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يُعلِّمنا كيف ندعوه في شتى أمورنا ، فمَنْ أراد العلم يدعو العليم ، ومَنْ أراد القوة يقول يا قوى قوِّنى ، ومَنْ أراد الحكمة يقول : يا حكيم ألهمنى الحكمة ، ومَنْ أراد سعة الرزق قال : يا باسط ابْسُطْ لى الرزق ، فإذا أراد كلّ هذه الصفات قال : يا الله . فهو الاسم الجامع لكل صفات الكمال .

وهو سبحانه فى تكاليفه لكم ﴿ العزيز ﴾ يعنى : غالب لا يغلب ، وله صفات العزة والجبروت والغنى والاستغناء عن الخلق .

ثم هو سبحانه ﴿ الحكيم ﴾ يعنى : حين كلّف كلّف بقدر وبحكمة . ذلك لأن القرآن به تكاليف قد يراها البعض شاقة ، لكن إذا أخذنا هذه التكاليف بمصاحبة ثمرتها والثواب عليها نجدها سهلة يسيرة لأنها تُدِر عليك نفعاً تهون أمامه كل المشاق .

ألاَ تراك تتعب فى الدنيا ثم تجنى من الثمار على قدر تعبك ، ألاَ ترى أن نفاسة النتيجة على مقدار الكدِّ ؟ أنت فى الدنيا مثلاً تزرع الفجل تجده فجلاً ، وتستطيع أنْ تأكل منه بعد عدة أيام ، وتزرع مثلاً الخيار وتأكل منه بعد أربعين يوماً والأرز مثلاً بعد عدة شهور ، وتزرع المانجو فلا تعطيك إلا بعد عدة سنوات .

إذن : إذا كلّفك الله بشىء فيه مشقة ، فاعلم أن الثمرة على قدرها ،

واعلم أن الذى أوحى إلى النبى بهذا التكليف عزيز حكيم ، فإنْ كان شاقاً فى نظرك فمُكلِّفك به غنىٌّ عنك وعن طاعتك لا يستفيد منه بشىء بل أنت المستفيد ، وهو حكيم يعنى كلَّفك بما يؤدى إلى سلامة حركتك فى المجتمع .

وهذه العزة لله تعالى فهمها إبليس حين قال : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) ﴾ [ص] يعنى : بغناك عنهم ، وترك الاختيار لهم ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** (٢٩) ﴾ [الكهف] وإلا فالذى تريده وتستخلصه لك لا أستطيع أنْ أقترب منه : ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٤٠) ﴾ [الحجر]

إذن : المعركة ليست بين الحق سبحانه وبين إبليس ، إنما بينه وبين بنى آدم ، وهى معركة ممتدة منذ مسألة الأمر بالسجود لآدم وإلى قيام الساعة ، وقد ظهر غباء إبليس فى الحوار الذى دار بينه وبين الحق سبحانه ، ثم بينه وبين سيدنا آدم ، ففى قوله : ﴿ **لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** (١٦) ﴾ [الأعراف] كشف عن خططه وطريق إغوائه لبنى آدم ، وأنه سيأتيهم فى أماكن الطاعات ليفسدها عليهم .

لكن الحق سبحانه وتعالى علَّمنا كيفية التعامل مع هذا العدو ، وعلَّمنا كيف نرده ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ**[1] **مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] يعنى الجأ إلى الله ، وذكِّره بالله لأنه خنَّاس إذا ذكر الله خنس ، وهذه وصفة إياك أن تغفل عنها .

وظهر أيضاً غباؤه وتغفيله فى قوله لآدم وحواء وهما فى الجنة : ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ**

---

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] فلو كان يعلم أنها شجرة الخلد لأكل منها من باب أوْلى ، ولم يسأل الله أنْ يُنظره إلى يوم يبعثون ، وهذه غفل عنها آدم أيضاً ، وقد قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ؛ ولذا لا نعتب على من نَسِي؛ فإن المُوَصِّيْن بنو سَهْوان .

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④ ﴾

أى : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً لا يتصرف فيه الخليفة ، هذه منطقة حرام أنْ يتصرَّف أحد فى مُلْك هو لله تعالى وحده ، إنما يتصرف الخليفة فيما دون ذلك من الأحداث .

وحين نستقرىء هذه الآية وأمثالها فى القرآن نجد الحق سبحانه يقول مرة : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] ويقول مرة ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٢) ﴾ [النحل] ذلك لأن الخلق متفاوت ، فهناك خلْق موجود فى السماء وفى الأرض وهم الملائكة ، وهناك خلق للسماء فقط ، هم الملائكة العالون وهناك خلْق للأرض فقط هم : الجن والإنس .

فحين يقول : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] يذكر الجنسين ، وحين يقول : ﴿ وَلَـهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٢) ﴾ [النحل] يذكر الجنس المشترك بينهما .

نفهم من ذلك أن الكون الذى نعيش فيه ليس ملْكاً لأحد على الحقيقة ، فالملكية لله تعالى وإنْ ملَّك بعضاً شيئاً فهو موقوت ، ومن باطن ملكه تعالى حتى لا يغترَّ أصحابُ الأملاك بأملاكهم ، أنت

مجرد خليفة لستَ مالكاً ، هذه الأرض عبارة عن ملعب نحن جميعاً فقط نلعب فيه ولا يملكه منا أحد ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢٠) ﴾ [المائدة]

وقالوا : اللام للملك كما فى : القلم لزيد . وللاختصاص كما لو قلتَ : الحبل للفرس ، فالفرس لا يملك الحبل إنما يملكه صاحب الفرس ، فالحبل يخص الفرس .

وفى قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] تفيد المعنيين ، فهى للملك وللاختصاص أو القصر بتقديم الخبر الجار والمجرور له ، فالملك هنا لله وحده لا يشاركه فى ملكه أحد ، تقول : لزيد القلم يعنى خاص به ومقصور عليه ، أما (القلم لزيد) يمكن أن تقول : ولعمرو .

والهاء ضمير الغائب فى (له) تعود على الحق سبحانه ، والغيبة هنا هى عين الظهور والحضور ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب لا يُدرَك بالحواس ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الانعام]

فمن عظمته أنه غيب ، كما نقول : الحق هذه الكلمة التى يدعيها الجميع أنه على الحق ، وكذلك العدل .. هذه معانٍ نتحدث عنها لكن لا نعرف ما هى ؟ ما شكلها ؟ فلو كنا لاندرك مجرد المعانى العالية ، فكيف نطمع فى إدراك ذات الحق سبحانه ؟

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٤٩) ﴾ [الشورى] إذن : فالله يملك السموات والأرض ، وهى ظرف فيه أشياء هى أيضاً ملك لله ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ (٤) ﴾

[الشورى] وما فى السماء أثمن من السماء ، وما فى الأرض أثمن من الأرض ، والعادة أن المظروف أنفسُ من الظرف الذى يحتويه .

فكل ما فى السموات وما فى الأرض مِلْكٌ لله ومُسخَّر لخدمة خليفته فى أرضه ، فالحق سبحانه خلق لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك كَوْناً جاهزاً لاستقبالك فيه مُقوِّمات حياتك ، هذا قلنا : إنه عطاء الربوبية .

فربك ربَّاك بالمنهج الذى أنزله من السماء على يد الرسل ، وحفظ لك أسباب الحياة واستبقاء الحياة بماء ينزل من السماء ، وأرض تنبت لك مختلفَ الأطعمة والقوت ، وجعل لك الأنهار ، وجعل لك الهواء .

وبهذه العناصر الثلاث يتم لك استبقاء الحياة وقلنا : من رحمته تعالى بخَلْقه أنْ جعل حاجتك للطعام ، غير حاجتك للشراب ، غير حاجتك للتنفس ، فالإنسان يصبر على الطعام مثلاً شهراً ، ويصبر على الماء عدة أيام ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

لذلك ملَّك الله الطعام لبعض البشر ، فإنْ منعه عنك تعيش على المخزون فى جسمك ، إلى أنْ تحتال عليه بأىٍّ وسيلة ، وملَّك الماء قليلاً ، لأن الصبر عليه أقل من الصبر على الطعام ، أما الهواء فلم يُملكه لأحد ، تصور لو غضب عليك صاحب الهواء ، والله لمتَّ قبل أنْ تنال رضاه .

وبعد ذلك أعطاك ترف الحياة وما تتحلى به وتتزيَّن ، لذلك قال عن البحر : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل] وقال :

﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] فالضرورى فى اللباس ما يستر العورة ثم يأتى الرياش ، وهو ما يكون للزينة .

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] لأن لباس الدنيا يستر عورتك وتحميك فى الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك فى الدنيا وفى الآخرة ، ويعطيك حياة أخرى أبقى وأدوم .

هذا كله من ملك الله الذى فى الأرض ، فإنْ نظرتَ إلى أعلى تجد الهواء وهو نعمة فى طياتها نِعَم كثيرة ، فالهواء عنصر هام فى بقاء الحياة للكائنات الحية ، وهو المادة الموصّلة التى ينتقل بها الصوت والصورة التى نراها فى (التليفزيون) مثلاً .

ثم تأمل فى السماء من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومجرات ، كلها آيات كونية مِلْكٌ لله تعالى لا يتصرف فيها غيره سبحانه .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [الشورى] العلى لا تعنى أنه عَالٍ فى المكان فقط ، إنما العلى يعنى المتعالى عن كل شىء فى الوجود ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ أيضاً لا تعنى ضخامة الحجم ، إنما العظيم بقيوميته وقدرته وصفات كماله .

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الشورى] أى : تقترب

وتوشك ﴿يَتَفَطَّرْنَ ⑤﴾ [الشورى] يتشققن إما هيبةً لله ومن عظمته سبحانه ، كما ورد في الحديث الشريف : « أطتْ السماء وحُقَّ لها أن تئط »[1] وإما تشققت غضباً من الذين قالوا اتخذ الله ولداً .

﴿مِن فَوْقِهِنَّ .. ⑤﴾ [الشورى] يجوز من فوق ملائكة الملأ الأعلى ، حيث هيبة الملائكة من الله ، وتعظيمهم له سبحانه ، أو من فوق الأرض حيث البشر أصحاب الذنوب والذين قالوا اتخذ الله ولداً ، لأن الحق سبحانه ردَّ عليهم : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ⑧⑨﴾ [مريم] أى : عجيباً وغريباً لا يقبله العقل ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ⑨⓪﴾ [مريم]

فالولد إنما يُطلب إما للمعونة فى وقت الضعف والشيخوخة ، وإما لبقاء الذكْر . وهذه أمور لا تجوز ، ولا تنبغي للحق سبحانه لأنه غَني عنها ، لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ⑨②﴾ [مريم] أى : أن الحق سبحانه لو أراد أن يتخذ ولداً لفعل ، حيث لا يمنعه من ذلك مانع ، إنما جلال الله وعظمته وقيوميته تعالى لا ينبغى لها ذلك ، لا يجوز ولا يصح أنْ يكون له ولد ، ونَفْى الانبغاء يدل على الكمال .

ومثال ذلك قوله تعالى فى شأن نبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ⑥⑨﴾ [يس] عندما اتهمه الكفار بأنه شاعر ، والمعنى : أنه لا يقول الشعر ليس لأنه عاجز عن قوله ، بل عنده أدوات الشعر ويستطيعه ، لكنه لا ينبغي أنْ يقوله ولا يصح ، لأن الله يُعده لأمر أعظم من شعركم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث ٢٠٥٣٩) والترمذى فى سننه (٢٢٣٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٢/٧) وعبد الرزاق فى مصنفه (٤٤٠/٩ – حديث ١٧٩٣٤) وتمامه : « ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله » .

فقوله سبحانه ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم] تأكيد أنه تعالى لو أراد له ولداً لفعل ، لكن هذا أمر لا ينبغي في حقه تعالى لأنه مُنزَّه عنه ، لذلك قال في موضع آخر : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] يعني : على فرض إن اتخذ ولداً فسأكون أول المؤمنين به .

وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ[1] بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] الملائكة من الغيبيات ، والسماء والأرض من الحسيات ، فالحسيات غاضبة تكاد تتشقق من هذا القول ، أما الملائكة فيسبحون بحمد ربهم ويُنزِّهونه عن اتخاذ الولد ، وجاء التسبيح قبل التحميد ، التسبيح يعني نفى المماثلة لأيِّ كائن مَنْ كان ، أما التحميد فيجب لله تعالى على نعمه ومنحه ، فالتسبيح أوْلَى من التحميد ومُقدَّم عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] فهم لا يستغفرون لأنفسهم ، بل يستغفرون لمن فى الأرض ، وهذا يعنى أنهم بلا ذنوب ، ولو كان لهم ذنوب لاستغفروا لأنفسهم من باب أوْلَى . والاستغفار هنا عام لكل مَنْ فى الأرض بما فيهم الكفار .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿٧﴾﴾ [غافر] أما هنا فقال : ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] فشمل الجميع ، والاستغفار لغير المؤمنين طلب المغفرة لهم وطلب الهداية ، وأنْ يلهمهم الله الإيمان به .

أما الحديث الشريف الذى ورد فيه : « ما من يوم تطلع فيه

---

(١) يسبحون : أى ينزهونه عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله . وعن على رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجُّب مما يرون من تعرضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٤٦] .

الشمس إلا وينادى مُنَاد من قِبَل الله تعالى يقول : اللهم أعْطِ منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً »[١]

قالوا : الدعاء بالتلف للممسك هنا لا يتعارض مع استغفار الملائكة لمن فى الأرض ، لأن المنفق يستغنى عن ماله وينفقه فى سبيل الله ، فحبه لله تعالى أعظم من حبه للمال ، أما الممسك فيحب ماله ويبخل به ، وحين يدعو عليه الملَك بالتلف فإنما ليُخلصه من مال صرفه عن الله ، فتلَفُ هذا المال نعمة أو مصيبة يُثَاب عليها .

إذن : هو دعاء بالخير فى كلتا الحالتين .

﴿ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الشورى] قلنا : إن ألا أداة استفتاح وتنبيه ، لأن المتكلم حُرٌّ يتكلم متى شاء ، أما السامع فليس حراً فى السماع ، وقد يغفل عن سماع بعض الكلام ، لذلك ينبغى للمتكلم أنْ ينبه السامع وأن يُخرجه من غفلته ، لا سيما إنْ كان الكلام مهماً يحرص على أنْ يسمعه السامع دون أنْ يفوته منه شىء ، لذلك يقول (ألا) فى البداية يعنى : انتبه واسمع منى .

ومن ذلك قول الشاعر الجاهلى[٢] :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبحينَا وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدرِينَا[٣]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق ، وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك . بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

(٢) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود من بنى تغلب ، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى ، ولد فى شمالى جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمَّر طويلاً . مات فى الجزيرة الفراتية عام ٣٩ قبل الهجرة . أشهر شعره معلقته التى مطلعها البيت الذى ذكره الشيخ هنا .

(٣) البيت من قصيدة من المعلقات وهو مطلع القصيدة من بحر الوافر عدد أبياتها ١٢٥ بيتاً .

وتذييل الآية : ﴿ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الشورى] يناسب مسألة استغفار الملائكة لمن في الأرض ويقول لك : انتبه فالذى تستغفره غفور ورحيم ، غفور يغفر الذنب ويمحو آثاره ورحيم : يعنى يرحمك بعده من الوقوع فى ذنب آخر .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) ﴾

معنى ﴿ مِن دُونِهِ (٦) ﴾ [الشورى] أى من دون الله ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ يوالونهم ويعبدونهم من دون الله ، كالذين عبدوا الشمس والقمر أو الشياطين أو الملائكة ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ (٦) ﴾ [الشورى] يعنى : رقيب يعلم ما فعلوا ، ويحصى عليهم ما قالوا ، ويحاسبهم على هذا ويجازيهم بما يستحقون ، لأنه تعالى إليه المرجع وإليه المصير .

وما دام الأمر كذلك فلا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك أسفاً عليهم ، فليس عليك هداهم ، إنما عليك البلاغ ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) ﴾ [الشورى] وكيل : فعيل بمعنى مفعول ، وما أنت عليهم بموكول أنْ يؤمنوا ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ومعلوم أن صيغة فعيل تأتى بمعنى فاعل مثل رحيم بمعنى راحم ، وبمعنى مفعول مثل قتيل بمعنى مقتول .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾

قوله تعالى (كذلك) أى : كهذا الوحى الذى سبق ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۝٧﴾ [الشورى] سُمى قرآناً لأنه مقروء ، وسُمِّى الكتاب لأنه مكتوب مُسطر فى كتاب ، ووصف بأنه عربى لأنه بحروف وبلسان عربى مبين ، وعربى منسوب إلى العرب ، وقلنا : إن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأنها بنت المحاكاة ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان .

وليست اللغة جنساً ولا دماً ، بدليل أن الولد العربى لو عاش فى بيئة أجنبية يتكلم نفس لغتها ، لأن اللغة تقليد ومحاكاة تعتمد على التلقِّى والتقليد ، حتى فى لغتك التى تتكلم بها يطرأ عليك اللفظ فلا تعرف معناه ، لماذا ؟ لأنك لم تسمعه من قبل .

لذلك نقول : إن التلقين فى اللغة دليل على صدق الحق سبحانه فيما قال : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۝٣١﴾ [البقرة] فالله تعالى هو أول معلم للبشر ، وإلا فمَنْ علَّم آدم الأسماء والحروف والكلمات ؟

بعض المستشرقين وقف عند هذه الآية ، وقال : كيف يكون القرآن عربياً وفيه كلمات كثيرة من غير العربية ، فيه من لغة الرومان ومن لغة الفرس والحبشة ؟ ونقول : معنى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۝٧﴾ [الشورى] أى : نزل بكلمات دارتْ على ألسنة العرب وتُدُوولَتْ بينهم قبل نزول القرآن ، فصارت من لغتهم ، ثم كم هى هذه الكلمات بالنسبة لكلمات القرآن ؟

إذن : فالقرآن عربى ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۝٤﴾ [إبراهيم] يعنى : يتلقون عنه ويفهمون منه ، وإلا ما تم البلاغ عن الله .

فإنْ قلتَ : كيف ذلك ومحمد ﷺ مُرسَلٌ للناس كافة فى كل مكان ،

وفى كل زمان ؟ نقـول : هذه مهمـة أمة محـمد من بعـده ، أنْ تتعلم هذه اللغات ، وأن تحمل إليها دين الله فى أىّ مكان ، لأن محمداً خاتم الرسل وآخر الأنبيـاء ، فلا بدَّ أن تحمل الأمة من بعده هذه المـهمة ، وأنْ تسيح بها فى أنحاء العالم .

فـالقرآن نزل بالعـربيـة لأنه سبـحانه اخـتـار العرب لحـمل هذه الرسالة ، وسبق فى موضع قريب أن تكلمنا عن اختيار العرب بالذات لهذه المـهمة ، والحكمة من كَوْن رسول الله أمياً فى أمـة أمية ، وإذا كان القـرآن معجزاً للعـرب بلفظه وأسلوبه ، فهو مـعجز لغيـر العرب بمعناه ، ومـعجز بآياته الكونيـة التى تظهر للناس وتبهـرهم من حين لآخر .

تصوَّروا لو أن محمداً كان متعلـماً فى أمة متعلمة ذات حضـارة ، ماذا كانوا يقولون ، مع كثـرة الكفرة والمعاندين والملحدين ، والله لو كان الأمر كـذلك لقالوا : إن الإسلام قفزة حضـارية كالتى حدثتْ فى كثير من الأمم .

إذن : نقـول : الأمـيـة عـيـب فى كل أمي إلا فى رسـول الله فـهى شـرف ، لماذا ؟ لأنهـا تعنى أنه تلقى كل علومـه وكل ثقـافـاته مـن أعلى ، فهى شرف لارتقاء مصدرها إلى الحق سبحانه .

والعجيب أن من أعداء الإسلام مَنْ يقول بأن محمداً كان متعلماً ، وهو الذى كتب القرآن من عنده سبحان الله ، أأنتم متـعصبون لمحمد أكثر من أتباعه ؟ والقرآن صريح فى الرد عليهم : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]

وبعد هذه الأمية جاء محمد ﷺ بمنهج أخضع له حضـارات العالم ، ودانتْ له أعظم حضـارتين فى هذا الزمن ، حضـارة فارس فى الشرق

وحضارة الروم فى الغرب ، أخضعها له لا بالقوة إنما بأساليبه ومعانيه الراقية التى تنظم حركة الحياة والمجتمع كله ، وتنظفه من كل القاذورات والسلبيات التى كانت منتشرة بين هؤلاء .

وقوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۝٧ ﴾ [الشورى] الإنذار هو الإخبار بشرٍّ قبل أوانه والتخويف به قبل موعده ، والحكمة أننى حين أخوفك من الأمر قبل حدوثه أعطيك فرصة لتتجنبه .

﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ۝٧ ﴾ [الشورى] هى مكة ، فهى أم القرى ، أو أصل القرى ، لأن بها أول بيت وُضع للناس ، وآدم من الناس فالبيت إذن وُضع قبل آدم لذلك فالقول الذى قال بأن الملائكة هى التى وضعتْ هذا البيت قول صحيح .

والمراد بمن حولها : ما حول مكة من قرى وقبائل وتجمُّعات عربية ، ولأن مكة هى أم القرى وأصلها ، أخذت قريش مكان الصدارة بين قبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وكانت قريش لها شرف خدمة البيت فهم سدنته القائمون على أمره تأتيهم كل القبائل فى موسم الحج ، فتوفر لهم الأمن والحماية والمؤنة ، لذلك كانت قوافل قريش التجارية تحظى بالاهتمام والحماية فى كل أنحاء الجزيرة فى رحلتَى الشتاء والصيف .

إذن : فالبيت هو الذى منح قريشاً هذه المهابة وهذه المنزلة ، يقول تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ[(1)] رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

---

(١) قال أبو عبيد : ألفت الشيء وآلفته بمعنى لزمته . والإيلاف : من يؤلفون أى يهيئون ويجهزون . قال ابن الأعرابى : كان هاشم يؤلف إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن . [لسان العرب - مادة : ألف] .

(٤)﴾ [قريش] فسيادة قريش من سيادة البيت ومن جوارهم له وقيامهم على خدمة حجاجه ، ولو انهدم البيت لزالتْ مهابة قريش ، وفقدت هذه المكانة .

وقوله تعالى : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ (٧)﴾ [الشورى] أى : تخوفهم من هذا اليوم وهو يوم القيامة والجمع فى هذا اليوم يكون من عدة وجوه : أولاً : البعث حيث يجمع بين الجسم والروح ، ويجمع الملائكة فى الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع .

ونلحظ على هذا التعبير القرآنى ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ (٧)﴾ [الشورى] أنه سكت ولم يذكر مفعول الفعل (تنذر) وهو يتعدَّى إلى مفعولين كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] فذكر المخوف منه على العموم ولم يذكر مفعول أنذر لماذا ؟ لأنه سيأتى لها شرح آخر ، ففى قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ..(١٨)﴾ [غافر] أى : أنذر الكافرين وهذا مفعول أول ، ويوم الجمع مفعول ثان .

وقوله : ﴿لا رَيْبَ (٧)﴾ [الشورى] لا شك ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾ [الشورى] فما دام هناك تكليف فلا بدَّ أن توجد الطاعة ، وأنْ توجد المعصية ، الطائع يُثاب والعاصى يُعاقب ، وهذه سنة حتى عند البشر فى أمور حياتهم ، بدليل أنهم جعلوا لها قانوناً للثواب والعقاب ، كذلك فى يوم الجَمْع الذى لا ريبَ فيه سيكون الناس على قسمين : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

فى اللغة أسلوب يُسمَّى أسلوب (الاحتباك) أى : الأمر المحبوك ، وهو أن يحذف من الشيء ما يدل عليه غيره على التقابل ، ومن ذلك

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ (١٣) ﴾ [آل عمران] يعنى : أمر عجيب ﴿ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (١٣) ﴾ [آل عمران] يعنى فى حرب ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٣) ﴾ [آل عمران] وهى الفئة المؤمنة ﴿ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ (١٣) ﴾ [آل عمران] أى : تقاتل فى سبيل الشيطان .

تأمل هذا النسق القرآنى تجده حذف الوصف (مؤمنة) لأنه دلَّ عليها قوله ﴿ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٣) ﴾ [آل عمران] وفى الأخرى ذكر الوصف (كافرة) وحذف المقابل أى تقاتل فى سبيل الشيطان ، فحذف من إحديهما ما دلتْ عليه الأخرى بالتقابل ، وهذا يُسمى الاحتباك .

وقوله تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى] تفريق بعد الجمع فى قوله : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ (٧) ﴾ [الشورى] والتفريق بعد الجمع أسلوب آخر من أساليب القرآن ، وهناك الجمع والتفريق والتقسيم .

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (١٠٥) ﴾ [هود] هذا جمع ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود] هذا تفريق ، ثم يقسم ويُفصِّل القول فى كل فريق : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[1] (١٠٨) ﴾ [هود]

لكن لماذا هذا التفريق ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾

---

(١) جذ الشيء : قطعه أو كسره أو فتته . والمجذوذ : المقطوع قال تعالى : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود] أى : دائم غير مقطوع . [القاموس القويم ١/ ١١٩] .

[الشورى] قالوا : لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق وخيَّرهم حين عرض عليهم الأمانة ، وهي أمانة التكليف في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

يعني : تركنا لهم حرية الاختيار لحمل الأمانة فأشفقتْ كل المخلوقات من حملها ، فاختارت أنْ تكون مُسيَّرة يتصرف فيها ربها كيف شاء إلا الإنسان والجن ، فقد اختار حمل الأمانة .

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أي : لنفسه ﴿ جَهُولاً ﴾ بالعواقب ، لأنك قد تضمن نفسك ساعة التحمل ، لكنك لا تضمن ساعة الأداء ، فقد تحُول ظروفك بينك وبين أداء الأمانة ، فلأن الإنسانَ اختار حملَ الأمانة واختار الاختيار كان لا بدَّ أنْ يسأل عن أمانته ، وأنْ يحاسب عليها ، أحفظَ أم ضيَّع ، وكان لا بدَّ له من دار جزاء وحساب ، ففريق في الجنة وفريق في السعير .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) ﴾

يعني : لا تتعجب من أمر الله ، فله المشيئة المطلقة في خَلْقه ، ولو كانت مشيئته مشيئة قَهْر ما استطاع أحدٌ الخروجَ عليها ، ولكانَ الناسُ جميعاً مؤمنين ، لكن فَرْقٌ بين الإيمان عن قهر وإجبار ، والإيمان عن حب واختيار .

الحق سبحانه لا يريد منا القوالب الجامدة ، إنما يريد القلوب المحبَّة ، يريدها طواعية مختارة ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل

الأعلى برجل عنده عبدان أحدهما حُر طليق ، والآخر مربوط إلى سيده بحبل ، فحين ينادى السيد يأتيانه ويجيبان نداءه ، فأيهما أطوَعُ وأيهما مُحِبٌّ ؟

الحق سبحانه وتعالى حين عرض الأمانة على الخَلْق كله وخيَّرهم أثبت الجانبين القهر والقدرة وأثبت المحبة ، أثبت القدرة والقهر فى أنْ جعل خَلْقاً من خَلْقه هو السموات والأرض وكل الكائنات عدا الإنس والجن تأتى طائعةً مؤمنةً ، وتتنازل عن اختيارها لاختيار ربها وخالقها . ثم أثبت الحب فى اختيار الإنس والجن ، لأنهم آمنوا حباً وكانوا يقدرون على الكفر .

﴿ وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] وهم المؤمنون يُدخَلون الجنة بفضل الله وبرحمته لا بأعمالهم ، فالأعمال سبب فى دخول الجنة . وفى المقابل ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : سيدخلون النار ، لأن الفريق الذى دخل الجنة دخلها بفضل الله ورحمته ، وهؤلاء ظالمون ، والظلم جزاؤه النار .

﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : قريب يُواليهم ويدفع عنهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] ينصرهم ولو من بعيد ، يراهم مغلوبين ، فيحنّ عليهم وينصرهم .

ثم يبيِّن الحق سبحانه علَّةَ ذلك ، وأنهم أعرضوا عن عبادة الله الواحد الأحد ، واتخذوا من دونه أولياء فاستحقوا هذا الخذلان :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

بعد أنْ قرر الحق سبحانه أن الظالمين ما لهم من ولى ولا نصير يسوق هذا السؤال : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۝٩ ﴾ [الشورى] هل لهم أولياء لا نعلمهم ، فالاستفهام هنا للنفى والإنكار ، وما داموا ليس لهم أولياء فلماذا لم يتخذونى ولياً لهم ، أو يكون المعنى : بل اتخذوا من دونه أولياء ، وعليهم أن يتفكروا فى ذلك ، وأنْ يراجعوا أنفسهم .

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ۝٩ ﴾ [الشورى] الولى الحق لمَنْ أراد ولياً وناصراً ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ ﴾ [الشورى] جاء هنا بصفتين لا يستطيعهما أحد من أوليائهم إحياء الموتى والقدرة ، وهذه الصفات الخاصة به سبحانه نجدها فى القرآن دائماً مقرونةً بضمير الفصل للتأكيد على أنها لله وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال : ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ ﴾ [الشورى]

وقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ ﴾ [النجم] فهذه أفعالٌ لا يقدر عليها إلا الله وحده ، فمعنى أضحك وأبكى أوجد فيك غريزة الضحك وغريزة البكاء ، بدليل أنها موجودة فى كل بنى آدم وفى كل الجنسيات ، الضحك واحد عند العرب ، وعند الهندى ، وعند الروسى ومثله البكاء فهى إذن غريزة ، وكذلك مسألة الحياة والموت هى لله وحده لا يقدر عليها أحدٌ سواه .

وفى قصة سيدنا إبراهيم يقول وهو يُعدِّد نعمَ الله عليه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ ﴾ [الشعراء]

ففى الأمور التى فيها شبهة فعْل لغير الله يأتى بضمير الفصل (هو) لتأكيد أن الفعل لله وحده كما فى ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ ﴾ [الشعراء] لأن الهداية قد تأتى على يد أحد من البشر ، وفى ﴿ يُطْعِمُنِي

وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ [الشعراء] فالأب مثلاً قد يظن فيه أنه الذى يُطعمنى ويَسْقين ، كذلك فى ﴿ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الطبيب قد يظن البعض أن بيده الشفاء ، أما فى الأفعال التى لا شبهة لتدخّل أحد فيها فيأتى بها دون توكيد لأنها خالصة لله تعالى دون منازع ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

وإحياء الموتى يُراد به البعث فى الآخرة ، وقد رأينا مثالاً له فى الدنيا كقصة العُزَير[1] التى حكاها القرآن : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

ذلك لأن الشعور بالزمن يأتى من الأحداث ، فحين تنعدم الأحداث ينعدم الشعور بالزمن ، لذلك لما مات عُزير مائة عام قال لما أحياه الله : لبثتُ يوماً أو بعض يوم ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبتَ له صدقه فى يوم أو بعض يوم بنظره إلى طعامه الذى كان معه حيث وجده كما هو لم يتغير ولم يتلف ، وأن يثبت صدق الحق سبحانه فى المائة عام ، فقال له : انظر إلى حمارك وكيف صار عظاماً بالية ، وهذا لا يحدث إلا فى مائة عام .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الشورى] دلتْ

---

(١) كان عزير عبداً صالحاً حكيماً ويقول ابن كثير فى قصص الأنبياء : « المشهور أن عزيراً من أنبياء بنى إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل فأتاهم بالتوراة من غير كتاب فادعوا أنه ابن الله » .

على طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه القدرة مُشَاهدة فى آياته الكونية فى السموات وفى الأرض وفى الأنفس ، كلها تشهد لله بالقدرة المطلقة .

نعم ، الله على كل شىء قدير وقد أرانا نماذجَ من إحياء الموتى فى الدنيا لنأخذ منها دليلاً على صدقه تعالى فى إحياء الموتى فى الآخرة ، مرت بنا قصة إحياء العزير الذى أماته الله مائة عام .

نموذج آخر فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [البقرة]

ومن عظمة الحق سبحانه وقدرته على كل شىء أنْ يُعدى إلى خلقه شيئاً من قدرته ، فيجعل مثلاً سيدنا إبراهيم قادراً على إحياء الموتى بإذن الله ، القوى من البشر مثلاً حين يرى ضعيفاً يعينه ويعدى إليه أثر قوته فيحمل له متاعه ويظل الضعيف ضعيفاً .

أما الحق سبحانه فإنه حين يُعدِّى قوته إلى عبده يجعله يفعل بنفسه وينقل إليه شيئاً من قدرته ومن صفاته تعالى فتصير القوة فيك ذاتية . تعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما أراد أنْ يرى عملية إحياء الموتى بنفسه فطلب من ربه ذلك : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

يعنى : يا رب أنا مؤمن ومصدِّق لكن أريد الاطمئنان ، أريد الترقى إلى مرتبة أعلى فى الإيمان ، بعض المستشرقين يقولون فى التعليق على هذه الآية : هل الإيمان غير اطمئنان القلب ؟ وما دام طلب اطمئنان القلب فالإيمان إذن ناقص .

نقول : سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقُلْ : رب هل تحيى

الموتى أم لا ؟ لقد قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فهو مؤمن بإحياء الله للموتى ومُصدِّق بقدرة الله على ذلك ويريد أن يعرف الكيفية ، فالاطمئنان للكيفية لا لإثبات الصفة لله تعالى ، كما لو قلتُ لك : كيف بنيتَ هذا المسجد ، هل أنا أشكّ في بنائه ؟ لا فهو موجود بالفعل لكن أريد أن أعرف الكيفية .

لذلك الحق سبحانه ردَّ على نبيه إبراهيم رداً منطقياً ، فكيفية إحياء الموتى لا تُعرف بالكلام إنما بالفعل والممارسة ، فجعله يمارس هذا الفعل بنفسه ويزاول عملية إحياء الموتى ويعاينها ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ [1] إِلَيْكَ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] يعني : تأكد منهن ومن علاماتهن ثم اذبحهن ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] إذن : أنت الفاعل بنفسك ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه .

إذن : ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٩) ﴾ [الشورى] يعني : عملية مقصورة عليه سبحانه ، حتى وإنْ عداها لمن يشاء من عباده فهو صاحبها ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) ﴾ [الشورى] تجد بعض المخلوقات لها قدرة كما في بعض البشر مثلاً ، أو بعض الملائكة التي اتخذوها من دون الله ، لكنها قدرة محدودة فإنْ قدرتْ الملائكة مثلاً على فعل شيء عجزتْ عن أشياء ، أما الحق سبحانه فقدرته مطلقة لا يعجزها شيء ، قدرة كاملة على كل شيء .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) ﴾

---

(١) فصرهن إليك : أي : قطعهن وضمهنَّ إليك . [القاموس القويم ١/٣٨٦] .

الاختلاف هو عدم التقاء الآراء فى قضية ما ، وينقسم الجمع إلى فريقين أو أكثر ، كُلٌّ يؤيد رأيه ويعارض رأى الآخر ، ويقابله الوفاق والآراء تختلف إما فى نقاش جاد مُثمر يُراد منه الوصول للحقيقة ، وإما جدل ولجاجة لا فائدةَ منها ومراءٌ بالباطل .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ماذا نفعل حين نختلف ، أنْ نردَّ الأمر والحكم لله ، لذلك لما اختلفوا مثلاً فى الروح وسألوا عنها رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

كذلك علَّمنا الحق سبحانه أدبَ الخلاف وألاَّ نتعجل فى الحكم ، وأن نبحثه بموضوعية ، فقد يكون المختلفون متفقين فى واقع الأمر وهم لا يعلمون وجه هذا الاتفاق ، ففى غزوة الأحزاب بعد أن عادت قريش إلى مكة ، واليهود إلى أماكنهم أخبر الحق سبحانه نبيه ﷺ أن اليهود هم سبب هذه الحرب ، وأصل هذه البلوى ، فاذهب إليهم ولا تخلع لباس الحرب ، فذهب رسول الله إلى جيشه العائد من الحرب وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

يريد الحرب ، فعاد الصحابة وتوجَّهوا إلى بنى قريظة ، فدخل عليهم وقت المغرب وهم فى الطريق فاختلفوا فى صلاة العصر ، فريق يقول يجب أن نصليها الآن قبل فوات وقتها ، وفريق يقول : لا بل نصليها فى بنى قريظة كما أمر رسول الله .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم فى صحيحه - كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألا يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » وفى لفظ « العصر » .

إذن : رأى تعصَّب للزمـان ، ورأى تعصَّب للمكان ، فـمَنْ تعصَّب للزمان صلى في الطريق ومن تعـصَّب للمكان صلى في بنى قريظة ، حتى إذا ما الـتقوْا برسول الله عرضــوا عليه هذا الخلاف ، فـأقرَّ كلاً منهم على رأيه ، ولم يعارض هذا ولا ذاك.

إذن : كان اختلافاً شكلياً ، وهم لا يدرون أنهم جميعاً على الحق ، وأنهم في وفاق ، إذن : حين نخـتلف علينا أنْ نردَّ الأمر إلى الله وإلى رسول الله ، وأنْ نكون مـوضوعـيين دون تعصُّب ، هـذا في الخلاف بين المؤمنين .

كذلك إنْ كان الخلاف مع أهل الكتـاب اليهود أو النصارى ، رُدُّوا خلافكم معهم إلى الله ، لأن عندهم كتـباً سماوية : التوراة والإنجيل ، وفيها تصديق بمحمد خاتم الرسل ، وفـيها بشارة به ، وفيها صفاته وعـلاماتـه ، بدليل أن منهم مَنْ آمن بعـد بعـثـة رسول الله ، فـرُدوا خلافكم معهم إلى الله لتقطعوا عليهم طريق اللجج والعناد والخصومة .

ومعنى ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ⦗١٠⦘ ﴾ [الشورى] وأيضاً إلى رسول الله لأنه نائب عن الله في الأحـكام ، وقـد أعطاه الله حَقَّ التـشــريع بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ⦗٧⦘ ﴾ [الحشر] وهذه مَيزة لم ينلْها أحـدٌ من الرسل قبل رسول الله ، حيث كان عليهم البلاغ فقط ، أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد فوّضه ربه في التشـريع . لذلك لما قـال أحد المـجادلين : ما الدليل عـلى أن الصبح ركعتـان ، والظهر أربع ، والمغرب ثلاث ؟ قال : الـدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ⦗٧⦘ ﴾ [الحشر]

وكوْنك تحكِّم الحق سـبحانه في مـسألة خلافـية وتعرضــها على قول الله وقول رسول الله ، هذه الرجعة تُنهي الخلاف وتُنهي المراء ،

ولا غضاضةَ على أحد أنْ يحتكم إلى قوة أعلى تلتقي عليها القلوب في صفاء ورضا بحكمه تعالى ، الأ تَرى أن الحكم عليك إنْ جاء من بشر مثلك ربما لا تقبله حتى لو كان صواباً ، أما حين يكون الحكم لله فلا غضاضةَ ولا حرج .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۝١٠ ﴾ [الشورى] ﴿ ذَٰلكم ﴾ اسم إشارة للتعظيم ، فـ ﴿ ذا ﴾ إشارة ، واللام للبُعْد ، والكاف للخطاب ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ تقولها وأنت فخور بها ، مُعتز بالانتساب إليه سبحانه ، وكأنه شيء عالٍ فوق كل تصوُّر ، والرب قلنا : هو الذى يتولَّى التربية والعطاء ، ومنه الفضل والإنعام ، وعليه أتوكل في كل أمرى ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ ﴾ [الشورى] أرجع وأعود في الآخرة للحساب والجزاء .

وحين أقول ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ۝١٠ ﴾ [الشورى] فأنا معتز بالربوبية التي تُربي وتعطي ، ومعتز بالألوهية التي تكلف ، لأن التكليف من تمام التربية ، ومقتضى تربيتي أن تكون دنياى سعيدة ، لكن الدنيا موقوتة ومنتهية ، فالتربية الحقة إذن أنْ أربيك لشيء أبقى وأدوم وهي الآخرة التي لا ينقطع نعيمها ولا أغادرها بموت ولا تغادرني بفناء .

البعض يقول : التربية هنا للمادة ، نقول : للمادة وللقيم والروح أيضاً ، لذلك يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۝٢٤ ﴾ [الأنفال] ما معنى (يحييكم) هنا ألم يخاطبهم وهم أحياء يسمعون ؟ إذن : المراد حياة أخرى غير حياة المادة ، المراد حياة القيم والروح ، الحياة الخالدة التي لا تفوتك ولا تفوتها .

لذلك يُسمَّى المنهج الذى يمنحك هذه الحياة روحاً قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] نعم روحاً ، تعطيك الحياة الأبدية أما الروح الأولى فتعطيك فقط الحياة الدنيا ، ويُسمى كذلك الملك الذى ينزل بالمنهج روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

إذن : نفهم أن الحياة المطلوبة ليستْ هى الحياة الدنيا ، إنما الدنيا وسيلة وأداة مُوصِّلة إلى غاية أفضل منها ، ولكى أصل إلى هذه الغاية ينبغى علىَّ أنْ أستقيم على منهج مَنْ سيعطينى هذه الحياة .

إذن ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] جمعت بين لفظ الألوهية والعبادة والتكليف وبين لفظ الربوبية التى تُربِّى وتعطى وتمنح .

وتأمل أداء القرآن فى مسألة التوكل (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أهل اللغة يسمون هذا الأسلوبَ أسلوبَ قصر بتقديم الجار والمَجرور (عليْه) مُقدَّم على الفعل (توكَّلْتُ) وهذا يفيد القصر والحصر ، فتوكّلى على الله لا على سواه على الله فحسب ، أما لو قلت : توكلت على الله يجوز أنْ تزيد عليها : وعلى فلان . فأسلوب القصر يقصر التوكل على الله وحده .

قالوا : والتوكل على الله رصيدُ مَن فقد الأسباب وخرج من حَوْله وقوته إلى قوة ربه وخالقه ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شىء أسباباً ، فإذا عزَّتْ الأسباب نلجأ إلى المسبِّب سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

والمضطر هو الذى استنفد كل الأسباب المتاحة ، وعندها لا يُسلِم نفسه للأحداث ولا ييأس ، إنما يقول : إن لى رباً فوق الأسباب ،

فهو خالقها ومُسبِّبها ولن يتخلى عنى حين ألجأ إليه .

وسبق أن ذكرنا لكم قصة سيدنا موسى عليه السلام لما أدركه فرعون وجنوده وحاصروهم عند شاطئ البحر ، حتى قال أصحاب موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فواقع الأحداث أن البحر أمامهم والعدو خلفهم ولا مفرّ ، لكن لموسى مع ربه حسابات أخرى ، فقال ردّاً عليهم : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

وهذا هو التوكل الذى يعتمد على الثقة بالله ، توكل المضطر الذى عزَّتْ عليه أسبابه ، ولم يَبْقَ له إلا أنْ يلجأ إلى الله ، لذلك جاء الجواب من الحق سبحانه معجزةً خالدة باهرة : ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا[1] ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء]

كذلك فى ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور على الفعل يعنى : أرجع إليه وحده لا إلى أحد سواه . وتلحظ على الأسلوب هنا أن التوكل جاء بصيغة الماضى ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] أما الإنابة فجاءت بصيغة المضارع ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] هذه الدقة فى التعبير ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

فطبيعى أن تجد هذه الحبكة والدقة اللغوية ، ذلك لأن التوكل

---

(١) ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الشعراء] أى قرَّبنا من موسى وقومه هناك الآخرين وهم فرعون وقومه ليطمعوا فى إدراكهم فيدخلوا البحر مثلهم ليغرقوا . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

عقيدة راسخة من أول الأمر وقبل أنْ تتكلم فى التوكل ، فهو ناشئ أولاً وموجود ، أما الإنابة إليه والرجوع فيكون وقت الحدث فى المستقبل حينما نرجع إليه سبحانه .

ثم يتحدث عن حيثية أخرى من حيثيات قدرته تعالى وأنه هو الولى الحق :

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾

وقال تعالى فى أول سورة فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١) ﴾ [فاطر] الفاطر هو الخالق الذى يخلق الشىء على غير مثال سابق ، ولا نموذج يُحتذى ، كما يحدث مثلاً فى عالم الصناعة الآن ، فهناك دول متقدمة صناعياً فتأتى دول أقلّ منها تأخذ صناعاتها وتُقلِّدها وتصنع على مثالها ، صحيح تُطوِّر فيها وتُجدِّد وتضيف لكن للدولة الأولى السَّبْق فى النموذج الأول .

فمعنى ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١١) ﴾ [الشورى] خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿ جَعَلَ لَكُم (١١) ﴾ [الشورى] دلتْ على أن كل الأشياء مخلوقة لخدمة بنى آدم هذا الخليفة الذى استخلفه الله فى الكون ؛ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[1] .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنىً وأسدُّ فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ⁽١١⁾ ﴾ [الشورى] يراد بالأزواج هنا الذكورة والأنوثة ، كما في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ⁽٣٦⁾ ﴾ [يس]

وهذه حقيقة أثبتها العلم الحديث أن الزوجية موجودة في كل شيء حتى في الجمادات ، فَهِمْنَاهَا في الموجب والسالب في الكهرباء ، ورأيناها في ذرات المادة ، قديماً كانوا يعرفونها في الأحياء في الإنسان والحيوان والنبات ، وبالتقدم العلمي وجدناها في كل شيء خلقه الله .

وهذا دليل صِدْق قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ⁽٣٦⁾ ﴾ [يس]

ومن عجائب الخلق في هذه المسألة أنْ ترى نباتاً يحمل خصائص الذكورة وآخر للأنوثة ، ويتم التلقيح بينهما عن طريق الهواء أو الفراشات مثلاً ، وفي نبات آخر تجد فيه خصائص الذكورة والأنوثة معاً في شجرة واحدة ، فشجرة الجميز مثلاً منها ذكر وأنثى والنخل كذلك ، أما شجرة المانجو فهي واحدة تُلقِّح نفسها ، ومثلها سنبلة القمح وعود الذرة ، فهذه كلها تُلقِّح نفسها ، لأن فيها عناصرَ للذكورة وأخرى للأنوثة في نفس النبات .

ومعنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ⁽١١⁾ ﴾ [الشورى] يعني : من نفس النوع ومن نفس جنسكم ، والطبيعة تجذب كلاً من النوعين الذكر والأنثى إلى الآخر فيحدث تعايش بينهما ينشأ عنه غريزة هي غريزة الجنس ، وهذه يصاحبها متعة . ومن التقاء الذكر والأنثى يحدث

النسل ، فالإنسـان أخذها للنسل وللمتـعة معـاً ، أما الحيوان فـأخذها للنسل فـقط ، فتـرى الذكر منجـذباً إلى الأنثى حـتى يحدث الحـمل ، بعدها لا يقربها .

أما الإنـسان فغـير ذلك ، الإنسـان أخذها مـتعـة وبعد ذلك يتـهم الحيوان ويقول : شـهوة بهيـمية ، هى فى الواقع شـهوة إنسانية ، فَلِمَ نظلم البهائم ؟

ومن نعمه تعالى على خَلْقـه أنْ جعل الأزواج من جنس واحد ليتم التوافق والانسـجام بين النوعـين ويحدث التناسل وبقـاء النوع ؛ لذلك امـتنَّ الحق سبـحانه على أمـة مـحمـد ﷺ بأن جعل لهم رسـولاً من أنفسـهم يحمل إليهم منهج الله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

نفـهم من ذلك حـرص الإسلام عـلى الحيـاة الأسـرية ، وأن هذه الحياة ينبغى أن يسودها الوُدّ والوفاق والأُنْس ، وأنْ تُبنى على المحبة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١) ﴾ [الروم]

والأزواج جمع زوج ، وزوج لا تعنى الاثنين كما يفهم البعض ، إنما تعنى (فَرْدا) معه مثله ، كذلك كلمة توأم .

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا (١١) ﴾ [الشورى] سـبق فى سورة الأنعـام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ

---

(١) العنت : المشقة . وقال أبو إسحاق : العنت فى اللغة المشقة الشديدة . ومعنى (عزيز عليه ما عنتم) أى : شديد عليه ما وقعتم فيه من المشقة . [لسان العرب - مادة : عنت] .

الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

إذن : ما دام قال لنا ثمانية أزواج ، ثم عدّد أربعة فكلٌّ نوع مكوّن من زوجين زوج وزوج ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (١١)﴾ [الشورى] أى : فى الجعل ويذرؤكم يعنى يكثركم ، نلحظ أنه تعالى لم يقُلْ يذرأكم به يعنى : يُكثركم بالجعل ، إنما ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (١١)﴾ [الشورى] وفيه تأتى بمعنى بسببه .

كما فى الحديث الشريف « دخلتْ امرأةٌ النارَ فى هرَّة حبستْها »[1] يعنى : بسبب هرة ونقول مثلاً لما واحد فتوة يعمل جريمة نقول (أهو راح فيها) يعنى : بسببها .

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] له مناسبته هنا ، فلما تكلم الحق سبحانه عن الأزواج فى كل شىء أراد سبحانه أن يُنزِّه ذاته تعالى عن هذه المسألة ، فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] ولنفى المماثلة نقول : ليس مثله شىء ، أما هنا فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

إذن : جعل لنفسه مثلاً ، لأن العرب تنطق بالمثل وتريد به الإنسان نفسه ، فإذا حدث من شخص أمرٌ ما يقولون له : مثلك لا يفعل هذا ، يعنى : أنت لا يصح أنْ تفعله ، لأن مثلك لا يفعله ، مثلك

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر فى الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

لا يجبُنُ عند الحرب ، لكن لماذا لا يقولون أنت لا تجبن عند الحرب وأتى بالمثل ؟

تأمَّل هنا المرحلية اللغوية ، حين تقول : زيد مثل الأسد هذا يعنى أنه دون الأسد ، فأنت شبَّهته بالأعلى فى الصفة . إذن : المثل أقلّ من الأصل ، ولو فُرض أن الحق له مثل لا نقول : إن الله له مثل لأن مثله أدنى منه . إذن : لا مثْلَ له ، وهذا معنى قول الشاعر[1] :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلَكَ أَعْنِى بِهِ ... سِوَاكَ يَا فَرْداً بِلاَ مُشْبِهِ[2]

إذن : الأسلوب هنا فى نفى المثلية أن يقول ليس مثله شىء ، إنما أراد سبحانه أن يؤكد هذه المسألة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ (١١)﴾ [الشورى] يعنى : لو كان هناك مثل لله لا يكون له شبه ، فكيف بالله تعالى ؟ وكلمة ﴿شَىْءٌ (١١)﴾ [الشورى] تطلق على جنس الأجناس يعنى : كل ما يُقال له شىء فكل ما يُطلق عليه شىء ليس كمثله .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى] أتى هنا بصفتين شركة بين الحق سبحانه وبين خَلْقه ، فأنت تسمع والله يسمع ، وأنت تبصر والله يبصر ، لكن ينبغى أن نأخذ هذه الصفات لله تعالى فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ (١١)﴾ [الشورى] فليس السمع كالسمع وليس

---

(١) هو أبو الطيب المتنبى أحمد بن الحسين ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ /٩١٥ م) شاعر حكيم ، نشأ بالشام ثم تنقل فى البادية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، وأسر وسُجن حتى تاب ورجع ، مدح سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب ، قُتل ببغداد عام (٣٥٤هـ/٩٦٥م) عن ٥١ عاماً .

(٢) البيت من قصيدة للمتنبى من بحر السريع ، عدد أبياتها ٣٥ بيتاً ، وهذا هو الأخير فيها .

البصر كالبصر . معنى ﴿ السَّمِيعُ (١١) ﴾ [الشورى] أى : للأصوات ﴿ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] للمرئيات .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ [المائدة] فالسمع نفسه عمل ، والقول عمل والبصر عمل ، وسبق أن أوضحنا أن العمل قول وفعل ، والقوْلُ خاصٌّ باللسان ، والفعل يشمل عمل كل الجوارح عدا اللسان ، وبذلك يكون اللسانُ وحده قد أخذ شطر العمل ، لأن القول به البلاغ ، وبه إعلان الإيمان ، وبه يُعبِّر المرء عن نفسه .

وهذه الآية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] تُعلِّمنا كيف نُنزِّه الله تعالى عن كل شبيه أو نظير أو مثيل ، وتُعلِّمنا أن نأخذ كل وصف مشترك بين الحق وبين الخَلْق فى هذا الإطار الإيمانى .

ولِمَ لا ونحن حتى فى صفات البشر نتفاوت ، وفى إمكانياتنا نتفاوت ، فتجد مثلاً (شيخ الغفر) له بيت و (مصطبة) لاستقبال الضيوف ، وشيخ البلد والعمدة كل واحد له بيت وله مصطبة أو حجرة جلوس على قدره ، أما المأمور مثلاً فهو أعلى من هؤلاء جميعاً ، وعنده ما ليس عندهم ، هذا تفاوت بين البشر ، فما بالك بالصفات المشتركة بيننا وبين ربنا عز وجل ؟

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾

أولاً : لاحظ هنا أسلوب القصر فى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢) ﴾ [الشورى] بتقديم الجار والمجرور ، فمقاليد السموات والأرض له وحده ومِلْكه وحده ، ومقصورة عليه سبحانه لا يشاركه فيها أحد .

كلمة ﴿ مَقَالِيدُ (١٢) ﴾ [الشورى] جمع مقلاد وهو المفتاح ؛ لذلك قال تعالى فى موضع آخر ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ..

(٥٩)﴾ [الأنعام] فله سبحانه مفاتيح الخير فى السموات وفى الأرض ، ومعنى مفاتيح أنها تغلق على شىء نافع ومفيد .

والغيب خزينة من هذه الخزائن المغلقة ، فحين يعطى الله مفتاحها لأحد ويُطلعه على شىء من الغيب يُجريه على لسانه مكرمة وفضلاً منه تعالى عليه ، ولا يعنى هذا أنه أصبح عالماً للغيب ويفتح مكتبَ علم الغيب ، بل يأخذ حاجته التى أكرمه الله بها ويعطى المفتاح لصاحبه ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. (٥٩)﴾ [الأنعام] فمَنْ يدَّعى علم الغيب لا يعرف كيف يتأدب مع الله .

ونحن نستخدم هذه الكلمة (مَقَاليد) فى لغتنا العامة الآن فنقول : فلان بيده مقاليد الحكم أو مقاليد الأمور فى الشركة أو المصنع ، يعنى : هو المسئول الذى يملك القرار وبيده مفاتيح العمل وأسراره .

وقوله تعالى : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (١٢)﴾ [الشورى] أى : هنا بمفتاح ومقلاد من هذه المقاليد هو مفتاح الرزق ، يبسطه سبحانه لمن يشاء ويُوسعه ويُيسِّره ، وأيضاً يقبضه ويُضيقه على مَنْ يشاء من عباده ، والمقاليد على الأرزاق تشرح لنا قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] يعنى : بسط الرزق أو يقبضه بعلم وبقدر وبحكمة .

لا تظن أن الأرزاق توزع هكذا كما اتفق لا ، لأن الموزِّع لها عليم بخَلْقه وخبير بأسرارهم وخفاياهم ، حكيم يضع الشىء فى موضعه ، لذلك لا تتعجب حينما ترى الغنى المترف الذى يملك الملايين وجاره لا يجد قوت يومه ، لا تتعجب حينما ترى مثلاً أصحاب المحلات

التجارية ، هذا يبيع ويشترى وعنده رزق وفير وبجواره محل مثله لا يدخله أحد ، لا تتعجب لأن وراء هذا وذاك حكمة عرفها مَنْ عرفها وجهلها مَنْ جهلها .

ويكفى أنْ تقرأ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] وهنا ذيَّل الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾ [الشورى] يعلم مَنْ يعطى ومن يمنع ، ولذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ وهو يجلى لنا هذه الحِكَم ، يقول : قال الله عزوجل فى الحديث القدسى : « إن من عبادى مَنْ إذا أغنيته لَفسد حاله ، ومنهم مَنْ إذا أفقرتُه لصلح حاله »[1] .

والحق سبحانه يقول : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

ففَقْر الفقير لحكمة ، والغنَى عند الغنى لحكمة ، فلا تعترض وتأمل فربما كان المال عندك أداة سطو وبطش وتعدٍّ وطغيان ، وربما دعاك المال إلى العصيان أو ولَّد عندك نزوعاً للشر ، فحين يمنعك الله هذه الأداة فإنما منعك ليرحمك بالفقر ، فالغنَى لا يناسبك ، وصلاحك فى الفقر ، وفى شىء من الرضا بما قَسَمَه الله لك ، وألاَّ تمدّ عينيك إلى مَنْ هو أعلى منك فى متاع الدنيا وزخرفها .

كثيراً ما نرى أولاد الأغنياء فاسدين بسبب كثرة المال فى أيديهم ،

---

(١) أخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (ص ١٢١ - مصر) والبغوى فى شرح السنة (١٤٢/١) وابو بكر الكلاباذى فى مفتاح المعانى (١٩٠) . واورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢٥٦/٤) وقال : ضعيف جداً . واوله : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث بطوله .

فى حين تجد ابن الفقير مُعَافى من هذا ، وربما يكون أحسنَ حالاً من ابن الغنى ، وفى واقعنا نماذج كثيرة من ذلك .

والمؤمن مُطَالب أن يعيش فى حدود إمكانياته المادية ، والذى يتعب الناس الآن أنك تجد الواحد منا يفرض لنفسه مستوى معيشة معين قبل أن يفرض لنفسه دخلاً يوازى هذا المستوى الذى اختاره لنفسه ، فلما يحدث العجز يُضطر للحرام للغش وللسرقة وللرشوة وغيرها من وسائل الكسب الحرام ليغطى نفقات معيشته .

قال تعالى ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** (٧) ﴾ [الطلاق]

المؤمن يدخل السوق فيجد فيه ما لذَّ وطاب ، الرومى واللحوم والأسماك والفاكهة ، وقد تشتاق نفسه إليها لكن يتحلَّى بالرضا ويَقْنع بما فى مقدوره ، فيشترى كيلو فول أخضر ونصف كيلو جبنة ، ويذهب ليأكل فى وسط أولاده فيجد لهذه الأكلة البسيطة طعماً ولذة ربما لا يجدها الغنى .

أما إن امتدتْ عينه إلى فوق مستواه فتراه يشترى بالدَّيْن ويأكل كما يأكل الأغنياء ، بل ربما أسرف على نفسه ودخل فى منطقة التبذير ، ثم بعد أيام يأتى مَنْ يطرق بابه يطالبه بدَيْنه فيجد من مذلة المطالبة أضعاف ما وجد من لذة الطعام .

لذلك الحق سبحانه يخاطب ابن آدم : « يا ابن آدم ، خلقتُكَ للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب - ولا يعنى هنا تعب الجوارح إنما تعب الفكر والهَمّ وشغل البال - فإنْ رضيتَ بما قسمتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تقنع بما

قسمتُه لك فوعزتى وجلالى لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحش فى البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندى مذموماً . يابن آدم خلقتُ السموات والأرض ولم أعْىَ بخلقهن أيُعيينى رغيفٌ أسوقه إليك ، يابن آدم لا تطلب منى رزق غَد كما لا أطالبك بعمل غد ، يابن آدم أنا لك مُحِبٌّ فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[١] .

وحين يرضى الفقير بما قسمه الله له ، ولم يتطلع إلى أعلى من مستواه يقول الله له : رضيتَ بقدرى ، فالآن أعطيك على قَدْرى . لذلك تجد كل عظماء العالم وقادته بدأوا حياتهم فى فاقة وفقر مدقع[٢] وقد حدثونا عن تاريخ بعض هؤلاء ، وكيف أنهم جاءوا من قاع المجتمع .

ولما تتأمل مسألة تضييق الرزق على بعض الخَلْق تجد له حكمة اجتماعية ، هذا التفاوت يؤدى إلى نوع من التكامل بين عناصر المجتمع ، وتصور لو أن المجتمع كله أغنياء مبسوط لهم الرزقَ ، مَنْ سيقوم على خدمتهم ؟

مَنْ يصنع لهم ويزرع ويقضى المصالح الأدنى ؟ إذن : لا بدَّ من وجود طبقة الفقراء لتقوم بهذا الدور ، لا عن تفضُّل إنما عن حاجة يحتاج العامل أجره فيعمل ، ويحتاج الخادم أجره فيخدم ويمسح

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤٢٦/٧ طبعة دار الشعب المحققة) وعزاه لبعض الكتب الإلهية مختصراً ، وأورده إسماعيل حقى (ت١٧١٥م) فى تفسيره (روح البيان فى تفسير القرآن) (٥٩/٧) سورة النحل آية ٧١ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۝٧١﴾ [النحل] أورده بطوله .

(٢) الدقعاء : التراب الدقيق على وجه الأرض . والمدقع : الفقير الذى قد لصق بالتراب من الفقر . [لسان العرب مادة : دقع] .

ويكنس ، فالحاجة والمنفعة هى التى تربط عناصر المجتمع .

ومن العجيب أنك ترى الآن رجال الأعمال وأصحاب المصالح يشتكون من العمال ، يقول لك العامل ما دام معه فلوس وجيبه (مليان) لا يعمل إلى أن ينتهى ما معه من نقود فيعود إلى العمل ، وهكذا ..

وأذكر من نوادر أستاذنا الشيخ موسى شريف رحمه الله أنْ كان يقول ذات مرة : اللهم ارزق العلماء واغْنهم وافقر الصّناع ، فلما سألناه قال : لأن العالم إنْ لم يكُنْ غنياً ربما أذلته فتوى ، أما الصانع أو العامل فإنه لا يعمل إلا إذا كان محتاجاً للمال .

وسبق أنْ قلنا : إن الإنسان منا إذا اجتهد فى عمله وأخلص له مدة عشر سنين يعيش مرتاحاً باقى عمره ، وإن اجتهد عشرين سنة ارتاح وأراح أولاده من بعده ، وإن اجتهد ثلاثين سنة أراح أحفاده ، إذن : على قَدْر العمل يكون العطاء .

ثم ينبغى أن نظل على ذكر لتقلُّب الأحوال ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾[آل عمران] فالنعمة وبسطة الرزق عندك اليوم ، وقد تصبح عند غيرك أو تمسى .

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

هذه الآية هى المذكرة التفصيلية أو التفسيرية للآية الثالثة فى

أول السورة : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى] والتفصيل بعد الإجمال أسلوب من أساليب القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ .. ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى] يعنى : سَنَّ لكم وبيَّن ووضَّح ، ومن هذه المادة شَرَعَ شَرَّع وشريعة يعنى طريقة واضحة ، والإنسان فيه جانبان المادة والروح . فكما أن الحق سبحانه ضمن له بقاء حياة المادة بالماء والطعام والهواء ، كذلك جعل له حياة لروحه حياة بالقيم والأخلاق .

هذه القيم هى منهج الله الذى نزل على قلب رسوله ﷺ ، وبهذا المنهج تحيا القلوب والأرواح كما تحيا الأبدان بالطعام والشراب ، وهذا الشرع وهذه القيم ليست جديدة فى موكب الرسالات ، بل هى سنة الله فيمَنْ سبق كان لهم دين وشرع ، كل بما يناسبه .

لذلك قال بعدها : ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى] يعنى : ما أمر به نوحاً وألزمه من التكاليف ، واختار نوحاً لأنه كان أول رسول فى العموميات ، وقد قال بعض العلماء أن نوحاً أُرسل كذلك للناس كافة على اعتبار أن الناس فى زمنه كانوا هم ركاب السفينة ، فعموميته خاصة بالموجودين معه على السفينة ، أما عمومية رسالة محمد ﷺ فكانت عامة للناس فى كل مكان على وجه الأرض .

ثم تأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى] ما هنا اسم موصول بمعنى الذى ، وكان المنطق أن يقول بعدها : وما أوحينا إليك . باسم الموصول (ما) لكن هنا الكلام عن الوحى إلى رسول الله ﷺ ، فجاء بالذى وهى أم

الموصولات كلها ، ومع غيره جاءت (ما) وهى كما يقول النحويون اسم موصول بمعنى الذى ، ثم تلاحظ الفعل (وصى) هكذا بالمفرد ، إنما مع رسول الله قال : ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. (١٣) ﴾ [الشورى] بنون الجمع ويسمونها نون العظمة .

ثم بعد ذلك يعود السياق إلى استخدام (ما) مرة أخرى : ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى] وهذه تدل على خصوصية لسيدنا رسول الله من بين سائر الرسل عليهم جميعاً السلام .

قوله تعالى شرع ووصى ، بماذا ؟ تأتى بعده (أنْ) ويسمونها أن التفسيرية ، يعنى : تفسر لنا مدلولَ شرع ووصى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص] إذن : وصَّى الله هؤلاء الأنبياء بأن يقيموا الدين وبعدم التفرق فيه والاختلاف .

وإقامة الشيء أى جَعْله قائماً ، والقيام هو العمدة فى الدلالة على القوة والمقدرة ، فالإنسان لا يقوم إلا حال قوته ، فإن تعب من القيام قعد ، فإنْ تعب من القعود يضطجع ، فالحق يريد منا أنْ نجعل الدين قائماً يعنى : نقوم به لا نقعد ولا ننام ، فالقيام هنا كناية عن الاهتمام به والمحافظة عليه ﴿ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] نهى عن الاختلاف فيه .

كلمة التفرق هذه وردتْ فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، اقرأ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا

نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف] قوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف] دلَّتْ على أن الحسْن مُقدَّر حتى عند المسيء فالمعنى : ما جئناك إلا لأنك من المحسنين ، ودرجة الإحسان لا تأتى منحة من الله إنما تأتى بالعمل والاستقامة على المنهج .

وقد بيَّن لهم هذا المنهج الذى رفعه إلى درجة الإحسان فقال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

لذلك أراد سيدنا يوسف عليه السلام أن يُفهمنا أن الوصول إلى درجة الإحسان يسير ، وأن يشرح لهما الطريق أولاً ، فلم يُحدِّثهما أولاً عن تفسير الرؤيا إنما استغل الموقف لصالح دعوته ورسالته كداعية إلى الله ورآهما فى حاجة للتوجيه والوعظ والنصح .

ثم إن حاجتهم إليه لتفسير الرؤيا ستجعل الآذان مُصغية لكلامه ، لذلك دخل معهما فى هذا الحوار الإيمانى الدعوى : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف] ثم راح يُحدِّثهم فى العقيدة وتصفيتها من شوائب الشرك ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف]

وبعد أن أنهى مهمته كداعية ، أخذ يفسر لهما الرؤيا : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف]

ولو أن يوسف عليه السلام قدَّم تفسير الرؤيا على النصيحة ما كان أخذ من صاحبيه الاهتمام المطلوب ، لأن العادة أن يكون الإنسان رَهْن حاجته فإنْ قضاها انصرف عنك ، وهذه المسألة تعلمنا : إذا كان لك حاجة عند المحتاج إليك فابدأ بها لتجد الاهتمام المطلوب ، لأنه في مجيئه إليك شعور بأنك الأعلى .

إذن : قوله سبحانه :﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾[الشورى] لا تأخذوا أرباباً من دون الله ، أو لا تتفرقوا في الدين شيعاً وأحزاباً ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام] فساعة تتشتت الجماعة فِرَقاً اعلم أنهم جميعاً جانبوا الصواب ، لأن الحق واحد يجب أنْ نلتفَّ جميعاً حوله .

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. (١٣) ﴾[الشورى] كلمة كبُر بالضم يعني عَظُم عليهم وشَقَّ عليهم ، أما كبَر بالفتح فتُقال للسنِّ ، فالمشركون عَظُم عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى ، وشَقَّ عليهم أنْ ينطقوا بكلمة الشهادة لا إله إلا الله ، وهم يفهمون جيداً معناها ومقتضاها ، فهي عندهم ليستْ كلمة تقولها الألسنة إنما هي منهج حياة لها متطلبات ، وإلا لكانوا قالوها .

عَظُم في أنفسهم وشَقَّ عليهم أنْ يكون الناسُ سواسيةً كأسنان المشط لا فرقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وهم السادة أصحاب السلطة الزمنية من قديم ، فكيف يأتي الإسلام ويُسوِّي بين السادة والعبيد فكبُر عليهم ذلك ، وعَظُم في أنفسهم .

لذلك وقفوا في وجه رسول الله وعادوه وأخذوا منه موقفَ اللدد والخصومة ، لكن الحق سبحانه يُطمئن رسوله فيقول بعدها :

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وتعالى يطمئن رسوله ﷺ يقول له : لا تهتم بموقفهم العدائى لك ومصادمتهم لدعوتك ، فهذا أمر طبيعى فَوُقوُفُهُم فى وجهك شهادة لك أنك على حق ، لأنك ستأخذ منهم وتسلبهم السيادة التى كانت لهم ، وتمنع الفساد المنتشر فى مجتمعهم وهم منتفعون بهذا الفساد ، والناس مُستكينة لهم لأنهم مُسْتضعفون لا حيلةَ لهم .

إذن : عداؤهم لك أمر طبيعى ، فهم يسيرون وفق طبيعتهم وأنت تسير وفق طبيعتك ، يعنى من شيمتهم الاعتداء والعناد والمكابرة ، ومن شيمتك التحمُّل للأذى .

فكأنَّ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾[الشورى] إشارة إلى أن هؤلاء الصناديد المعاندين للدعوة سوف يكون منهم أنصار لها وأعلام فى سمائها ، فلا تعجل ولا تحزن ولا تهتم ، سوف نأخذهم إلى ساحة الإيمان واحداً تلو الآخر ، وبالفعل صدق الله فيما أخبر به رسوله ، فقد دخل فى الإسلام عمر وخالد وعمرو وعكرمة وغيرهم .

كلمة (يجتبى) بمعنى يختار ويصطفى من عباده مَنْ يشاء لنصرة دينه ، وهذا الاصطفاء كأنه مقدمة للهداية ، لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾ [الشورى] فيصطفيهم أولاً بأن يبعدهم عن عداوة الدعوة ، ويُحبِّب إليهم الإيمان كأنه يجهزهم لهذه المهمة .

قرأنا فى تاريخ الغزوات مثلاً أن أحد الصحابة يعود من الحرب

حزيناً لأنه أفلت منه خالد أو عمرو أو عكرمة ويقول : كنتُ على وشك أنْ أقتله لولا كذا وكذا ، وهو لا يدرى أن الله يدخره لنصرة دينه وإعلاء كلمته ، فالله تعالى كان يدخر هؤلاء وكان يُعدهم ويجتبيهم ، ثم بعد فترة هداهم للإسلام ، فكانوا هم حَمَلة رايته وقادة مسيرته .

وقبل أن نترك هذه الآية ينبغى أن نشير إلى الفتنة التى أثارها بعض المستشرقين حول قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى] يقولون : ما الضرورة إذن لمجىء الرسالة الآخرة ما دامت الوصية لجميع الرسل واحدة ، ثانياً : قالوا بوجود تعارض بين الآيات ، لأن الله تعالى قال فى موضع آخر : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

إذن : فلكل نبى شريعة ، وعند محمد أشياء غير ما وصى به .

وللرد على الشبهة الأولى نقول : إن الحق سبحانه وتعالى له أشياء ضرورية ، ألزم بها جميع الرسل فى موكب الرسالات ، فهم جميعاً متفقون فى هذه الأمور ، أولها التوحيد وعدم الشرك بالله ، ثم الإيمان بالكتب السماوية وبالرسل ، ثم الإيمان بالبعث .

فهذا قَدْر مشترك عند جميع الرسل لا يتغير ، لأنها ثوابت الدين وأعمدته ، وهى المرادة فى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

فالوصية هنا بالأشياء الضرورية والثابتة فى كل الأديان

السماوية ، فالتوحيد دعوة كل رسل الله ، والصلاة وجدناها فى كل الشرائع السابقة ، وكذلك الزكاة ، لذلك لا يمكن أبداً أنْ تخلو رسالة من الرسالات من هذين الأمرين .

ففى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع علَّل ذلك بقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] ويقول تعالى فى نفس القصة : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا[1] لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج]

وفى قصة سيدنا شعيب عليه السلام يقول له قومه : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧) ﴾ [هود]

وفى قصة سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. (٣٩) ﴾ [آل عمران]

والزكاة كذلك من الثوابت التى جاءت فى كل الأديان ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ[2] إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

---

(١) بوَّأنا : هيَّأنا له ومكنَّا منه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١) ﴾ [آل عمران] أى : تنزلهم وتمكنهم من مقاعد للقتال لا يفارقونها . [القاموس القويم ١/ ٨٨ - بتصرف] .

(٢) روى الآجرى من حديث أبى ذر قال قلت يا رسول ، فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالاً كلها .. أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ولو كانت من فم كافر » الحديث أورده القرطبى فى تفسيره (٢٠/ ٢٥) [سورة الأعلى ١٩] .

كذلك اتفقت كل الأديان السماوية فى تطهير النفس والجوارح من الآثام والمعاصى التى تضر بالنفس وبالمجتمع ، لأن التخلية من الآثام تسبق التحلية بالطاعات .

خذ الجوارح من أول القلب إلى القدم تجد كل الأديان السماوية تدعو إلى تطهيرها ، فالقلب وهو قائد الجوارح والأم بينها ، لذلك قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[(١)] .

ومطلوب للقلب عدة أشياء : أولاً : عدم الإشراك بالله ، ثم عدم الإصرار على المعصية ، ثم لا يأمن مكر الله ولا يقنط من رحمة الله . هذه كلها عقيدة ينبغى أن تستقر فى القلب .

كذلك اللسان وهو عمدة البيان والتبليغ يجب أنْ يتطهر من عدة أشياء : أولها : شهادة الزور ، ثم قَذْف المحصنات ، ثم اليمين الغموس[(٢)] وهو يمين ليس له كفارة ، ثم يتطهر اللسان من أنْ يقول الطلاسم التى يقولها السحرة .

تعالَ إلى البطن ينبغى أنْ تتطهر وتبرأ من عدة أشياء : شرب الخمر ، أكل الربا ، أكل مال اليتيم .

وكذلك اليدان تبرأ من السرقة ومن القتل . وكذلك العورات تبرأ

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) اليمين الغموس : أى التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار . وقيل : هى اليمين الكاذبة التى تُقتطع بها الحقوق . وقال ابن مسعود : أعظم الكبائر اليمين الغموس وهو أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب ليقتطع بها مال أخيه . [لسان العرب - مادة : غمس].

من الزنا وغيره مما حرَّمه الله عليها ، وكذلك الرِّجْلان تبرأ من التولى يوم الزحف ، ومن السعى إلى كل ما هو محرَّم .

ومن هذه الثوابت عقوق الوالدين ، فهو محرم فى كل الأديان كذلك وهو عام فى كل الجوارح ، وقد حرمه الحق سبحانه لأن بر الوالدين تدريب ورياضة لطاعة الله ، ذلك لأن الوالدين سبب الوجود المباشر ، والحق سبحانه وتعالى سبب الوجود غير المباشر .

فكأن طاعة الوالدين وبرَّهما باب ومدخل لطاعة الله . وهذا البر محفوظ لهما ، حتى وإنْ كانا مشركين : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

لذلك الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا بر الوالدين فى موكب الرسالات كلها ، ففى قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، ولأنه جاء من أم بلا أب ، وقد تكون هذه المسألة مدخلاً من مداخل الشيطان على سيدنا عيسى ، فيُوصيه ربه بأمه فقط :﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم] حتى يقطع على الشيطان مدخله .

أما فى قصة سيدنا يحيى عليه السلام فقال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾ [مريم] بوالديه يعنى : أباه وأمه ، ونلحظ فى القصتين أن سيدنا عيسى عليه السلام هو الذى يتكلم عن أمه ويقول ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي .. (٣٢) ﴾ [مريم] فهذا إقرار واعتراف منه .

أما فى قصة سيدنا يحيى ، فالحق سبحانه هو الذى يحكى عنه أنه كان براً بوالديه ، ونصَّ على البر فى قصة سيدنا يحيى ، لأن السببية فى والديه مفقودة ، فأبوه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأمه

كانت عاقراً ، إذن : كيف يأتى الولد وهذا أيضاً مدخل من مداخل الشيطان على سيدنا يحيى .

إذن : فالحق سبحانه يريد للجميع أنْ يكون نظيفاً طاهراً من كل هذه الآثام ، لذلك طهَّر الجوارح كلها وجعلها أداة بناء ومودة وتراحم ، وبنى المجتمع على أسس قويمة تكفل لأفراده الحياة السعيدة المطمئنة ، وهذا قاسم مشترك فى كل ديانات السماء ، وهذه الأمور هى المرادة بقوله سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. (١٣) ﴾ [الشورى]

أما قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة] فيُراد بها الشرائع والأحكام الخاصة بكل ديانة ، وهذه الشرائع تختلف باختلاف المجتمعات والبيئات والداءات الموجودة والآفات المنتشرة بين القوم ، فالشرائع تأتى لمعالجة الآفات فى مجتمعها ولذلك تختلف من دين لآخر .

فجماعة انتشرت بينهم الرذيلة والفاحشة ، وجماعة طففوا[1] المكيال والميزان ، وجماعة عبدوا الأصنام ، وآخرون عبدوا الكواكب أو الملائكة . وهكذا ، فلا بد إذن أنْ تختلف الشرائع فى هذه الأمور الاجتماعية .

من هذا نعلم أن اعتراض المستشرقين لا محلَّ له ، فلكل آية موضوعها .

---

(١) طفف الكيل : طوَّل أعلاه وجعل له طفاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه فيمنع الحَبَّ الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه فى إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . [القاموس القويم ١/٤٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا (١) بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

البيئة المكيَّة كان بها كفار مكة وهم وثنيون يعبدون الأوثان ، وكان فيها أهل كتاب يهود أو نصارى ، وكان الخلاف بينهما قائماً ومستمراً ، ومن غيظ أهل الكتاب من الكفار كانوا يقولون لهم : لقد أطلَّ زمانُ نبى منكم سيأتى ونتبعه ونقتلكم به قتْل عاد وإرم .

والحق سبحانه يخبر عن أهل الكتاب : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ أى : محمد ﴿ كَفَرُوا بِهِ.. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

نعم لقد بشرتْ الكتب السماوية بمجيء محمد وزمانه ومكانه ، وكان أهل الكتاب يعرفونه وعندهم أوصافه ، وقد اعترف منهم كثيرون بأن محمداً على الحق ، وأنه نبى مرسل ، ومن هؤلاء عبد الله ابن سلام .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٥٥) : « (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) أى : بغياً من بعضهم على بعض طلباً للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا » .

الحق سبحانه يقول عنهم وعن معرفتهم لرسول الله بأوصافه : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة] لذلك يقول أحدهم[1] : والله إني لأعرف محمداً كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد[2] ، ذلك لأن أوصافه مذكورة في كتبهم . ومع ذلك لما جاءهم بالحق كفروا به وعاندوه .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. (١٤) ﴾ [الشورى] أي : العلم به في كتبهم التي بشَّرتْ به وذكرتْ أوصافه ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .. (١٤) ﴾ [الشورى] وهي وعْده سبحانه بإمهالهم ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٤) ﴾ [الشورى] هو يوم القيامة ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. (١٤) ﴾ [الشورى] أي حُكِم بينهم بهلاك الكافرين واستئصالهم ونجاة المؤمنين ، والحق سبحانه لم يقْضِ بإهلاكهم واستئصالهم ، بل أخَّرهم لأنه سيكون منهم مَنْ يؤمن ويصير جندياً من جنود الحق .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) ﴾ [الشورى] قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ .. (١٤) ﴾ [الشورى] هم اليهود والنصارى المعاصرون للنبي ﷺ ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ .. (١٤) ﴾

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف ، صحابي أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله عبد الله وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفي عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلي ٤/٩٠) .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبي : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، أما ابني فإني لا أدري ما كان من أمه » .

[الشورى] أى من كتابهم ﴿ مُرِيبٍ ⑭ ﴾[الشورى] يدعو إلى الريبة والتردد والحيرة ، ذلك لأنهم أخذوا فى كتابهم مآخذ عدة أدت بهم إلى هذا الشك وإلى هذه الريبة .

أولاً : نَسُوا بعضه كما أخبر الحق عنهم : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ..⑭ ﴾ [المائدة] كما أخبر عن اليهود فى الآية التى قبلها : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. ⑬ ﴾ [المائدة]

والنسيان يعنى عدم الاهتمام بالمنسىِّ ، فلو كان مهماً لكانَ على بالهم دائماً وفى بؤرة اهتمامهم ، وما لم يُنْسَ من الكتاب تناولوه بالتحريف ، ولو كان لهم عذر فى النسيان ، فما عذرهم فى التحريف ؟

ثم بعد ذلك كتموا ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ⑱⑦ ﴾ [آل عمران]

ويا ليتهم وقفوا بمسخ كتابهم عند هذا الحد ، إنما تمادوا فى مسخه إلى أنْ يؤلفوا الكلام من عند أنفسهم ، ويقولون هو من عند الله ، قال تعالى فى حقهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ⑦⑨ ﴾ [البقرة]

﴿ فَلِذَٰلِكَ[1] فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾

الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ .. (١٥) ﴾ [الشورى] إشارة للكلام السابق ، فلأنهم تفرقوا واختلفوا وكتموا الكتاب وحرفوه ، ما داموا فعلوا ذلك ، فقُمْ أنت بمهمة الدعوة لتصلح ما أفسد هؤلاء ، وتقيم ميزان الحياة بالحق وبالعدل ، وترد هؤلاء عمَّا هم فيه .

ولاحظ هنا أن التعبير يجمع بين القول والعمل ﴿ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ .. (١٥) ﴾ [الشورى] يعنى : ليكُنْ قولك موافقاً لحركتك ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين ، فاستقم يعنى كُنْ على الجادة وعلى الطريق السَّوِىِّ ، وقد سمَّاه القرآن (الصراطَ المستقيم) وسمَّاه (سواء السبيل)[2] وهو الذى

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٥٥) فى قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] أى : إلى ذلك فادع . فاللام بمعنى إلى ، كقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة] أى : إليها .

(٢) وصفه بالصراط المستقيم كما فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] . وسماه (سواء السبيل) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ [البقرة] وسواء السبيل وسطه فكلمة سواء تدل على معنى التوسط ، أى وسط الطريق الموصِّل للخير .

يُوصِّلك إلى غايتك من أقرب طريق .

فكأن الحق سبحانه حينما يأمر نبيه محمداً ﷺ بذلك إنما يقول له : استقم ، لأن استقامتك على المنهج الذى جئتَ به أدْعَى إلى القبول وإلى تصديقك والاستماع لك .

ومعلومٌ أن التعليم والنصح بالعمل أجْدَى وأنفع من الكلام النظرى ؛ لذلك لما سأل أحد الصحابة رسول الله فقال : يا رسول الله ، قُلْ لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال له : « قُلْ آمنتُ بالله ثم استقم »[1] .

وهذا من جوامع كلمه ﷺ .

وبعد أنْ أمره ربُّه بالاستقامة على منهج الحق نهاه عن اتباع أهواء القوم : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ .. ⦗١٥⦘ ﴾ [الشورى] فالهوى سبيل الاختلاف والتفرق ، ومن هذه الأهواء قولهم لرسول الله : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[2] ، وفيها نزلت سورة الكافرون : ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ .. ⦗١٥⦘ ﴾ [الشورى] كتاب هنا نكرة أفادتْ الشمول ، يعنى : آمنتُ بكل كتاب أنزله الله من قبل .

وكأنها رسالة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى : لماذا آمنتم بالديانات السابقة عليكم ، ولم تؤمنوا برسالة محمد ، وهى ديانة كباقى

---

(١) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/٣٨٥) .

(٢) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة الكافرون أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ⦗١⦘ ﴾ [الكافرون] .

الديانات ، إذن : لكم سوابق فى الإيمان ، فلماذا وقفتم عند رسالتى وكذبتم ؟ كذَّبوا لأن عندهم مسائل يجادلون بها الضعاف من المسلمين .

مثلاً يقولون لهم : ديننا أقدم من دينكم ، وكتابنا أقدم من كتابكم ، ورسولنا أقدم من رسولكم ، وقرآنكم يشهد لنا ، ألم يقل القرآن : ﴿ يَـٰبَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [البقرة] فنحن إذن مُفضلون على العالمين بشهادة القرآن .

والأفضلية هنا ليستْ على إطلاقها ، بل هى مُقيدة بزمانهم . يعنى : فضلتكم على العالمين من أهل زمانكم ، وإلا كانوا أفضل من إبراهيم وإسحق ، وهم لا يقولون بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى] العدل أنْ تزن بميزان غير جائر ، فكل واحد منهم يأخذ حقه ، وأنْ يكون الجميع أمامك سواسية ، فمثلاً لا تَنْهَ واحداً وتترك الآخر ، ولا تفضل أحداً على أحد فى مرآك ولا فى مجلسك ولا فى نظرك .

لذلك كان ﷺ إذا جلس بين أصحابه يُوزِّع نظره عليهم جميعاً ، فلا يهتم بواحد دون الآخر .

فالجميع أمامه سواسية ، ولو اهتم بواحد بعينه لظنّ أن له أفضلية أو سلطة زمنية أو قوة مركزية ، أبداً كانوا جميعاً فى نظره سواء ، هذه كلها من عدالته ﷺ بين الناس .

وقوله : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : ليس ربنا وحدنا ، إنما هو ربكم أيضاً ، وما دام ربنا وربكم فلا بد أن تكون

التربية واحدة لنا جميعاً ، وقد أنزل لكم منهجاً له زمن ، وأنزل عليَّ منهجاً خاتماً .

ومن كمال التربية : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾[الشورى]فكلٌ مُجازَى بعمله ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى] لا حجاج ولا جدال ، لماذا ؟ لأن الجدل معهم يوصل إلى اللدد والعناد والخصومة ولا يُوصل إلى الحق ، والمعنى : أننا لن نلتقي فكلٌ منا له طريق .

والحق سبحانه قد تناول هذه المسألة في سورة (الكافرون) : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون]

إذن : لا مجالَ للجدال لأن المسألة منتهية ، الآن علَّمتنا السياسة أن الدول قد تختلف فتقطع العلاقات بينها وبين بعض ، ثم تضطرهم ظروف الحياة إلى إعادة العلاقات مرة أخرى وإلى التصالح ، أما في مسألة الإيمان والكفر فهما نقيضان لا يمكن أبداً أن يلتقيا .

لذلك لما تدقق في سورة (الكافرون) تجدها تنفي هذا الالتقاء في الحاضر الآن وفي المستقبل ، اقرأ : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾[الكافرون] أي : في الحاضر ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون] أي : في المستقبل .

وقوله : ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[الشورى] يعني : ما دُمْنا لم نجتمع على الحق في الدنيا فسوف يجمعنا الله جميعاً يوم

القيامة للحساب ، حيث يجازى كلاً بعمله ، ويعطى كل ذى حَقٍّ حقه ، وكوْنك تردُّ الأمر فى الحكومة إلى عادل ، فهذا دليل على أنك على الحق ، وكفى بالله حكماً ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ⑮﴾ [الشورى] المرجع والمآب .

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ(١) حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ(٢) عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ⑯﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ .. ⑯﴾ [الشورى] أى يجادلون فى دين الله ، يجادلون مَنْ ؟ يجادلون الذين استجابوا لدعوة الحق ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ .. ⑯﴾ [الشورى] يقولون لهم : ديننا أقدم من دينكم ، ورسولنا أقدم من رسولكم ، والقرآن يشهد لنا أننا الأفضل فى العالمين ، يريدون من ذلك الجدل أنْ يردوهم عن إيمانهم .

هؤلاء ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. ⑯﴾ [الشورى] يعنى : حجة باطلة لا تُقبل عند الله تعالى ، ولا يصح أنْ يُلتفت إليها أبداً

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٥٦) : « الهاء فى (له) يجوز أن يكون لله عز وجل ، أى من بعد ما وحَّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية ، ويجوز أن يكون للنبى ﷺ أى : من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين » . وقد جمع ابن كثير فى تفسيره (٤/١١٠) بين القولين فقال : (أى : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله) .

(٢) حجتهم داحضة : باطلة . ودحض الحجة : أبطلها [القاموس القويم ١/٢٢٢] ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٥٧] .

﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ .. (١٦) ﴾ [الشورى] أى : غضب من الله ، لماذا ؟ لأنهم لم يكتفوا بأنهم كافرون فى أنفسهم ، إنما أرادوا أنْ يأخذوا غيرهم إلى الكفر ، وبذلك يحملون أوزارهم وأوزار مَنْ أضلوهم ، فاستحقُّوا هذا المصير ، وهو غضب الله عليهم ، والغضب هو أول مراحل العذاب .

لذلك فى حديث قدسى بيَّن الحق سبحانه حال جماعة غضب الله عليهم ، ثم أمر بالحجاب عنهم ، ثم لعنهم ثم طردهم من رحمته تعالى ، ولتوضيح هذه المسألة نقول - ولله المثل الأعلى - مثل رجل عنده شركة فيها موظفون وفيها عمال ، فواحد منهم ارتكب خطأ أغضب صاحب الشركة فتغيَّر قلبه من ناحيته لكن تركه فى عمله ثم ارتكب خطأ آخر ، فقال له : ابتعد عنى لا تجعلنى أرى وجهك وكأنه ضرب بينه وبينه حجاباً حتى لا يراه ، ثم فى المرحلة الأخيرة قال : هذا الموظف لا بدَّ أنْ يُطرد من العمل .

كذلك الحق سبحانه غضب على هؤلاء ، ثم ضُرب دونهم حجابٌ ثم لعنهم ثم طردهم من رحمته تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) ﴾ [الشورى] أى : فى الآخرة .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِٱلْحَقِّ .. (١٧) ﴾ [الشورى] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق غالب لا محالة ، وإنْ علاَ عليه الباطل

في فترة من الفترات فإنما لحكمة ، هي أنْ يعض الباطل الناس ليشحنهم بالحمية للحق ويُشوقهم إليه ، فالعاقبة للحق مهما طال الباطل وصَالَ وجَالَ ، لذلك قلنا : إن الباطل جندي من جنود الحق .

واقرأ هذه الصورة التي رسمها الحق سبحانه يوضح لنا بها الحق والباطل ، يقول تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فالحق هو الباقي ، والباطل زائل زاهق .

لذلك نرى بعض أعداء القرآن يحاولون أنْ يعيبوا أسلوبه ، فيقولون مثلاً في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (٤٠) ﴾ [التوبة] أنه أسلوب غير سليم ، لأن القياس أن يقول : وكلمة الله العليا كما قال في الأولى : كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا الاعتراض نتيجة عدم الفهم عن الله وعدم وجود الملَكة التي تُمكِّنهم من فَهْم أساليب اللغة .

فكلمة الذين كفروا السفلى أي : جعلها الله سفلى فهي مفعول جعل ، أما كلمة الله هي العليا فليست جَعْلاً كالأولى ، بل هي في أصلها عليا ، يعني : لم تكُنْ سفلى وجعلها الله عليا ، بدليل أنها جاءتْ بالرفع على أنها خبر .

وقوله : (والميـزان) أتى بشىء حسىٍّ وهو الميـزان . والميزان هو أداة إقامـة الحق ، فالمـسألة ليـستْ هكذا (بالزوفة) إنمـا هناك ميزان حساس قائم على العدل والمساواة .

والميـزان يختلف باخـتلاف الموزون ، فـميزان القـمح أو البطاطا مثلاً غـير ميزان الذهب ، تجد الآن عنـد الصائغ ميزاناً حاسـاً يضعه فى صندوق من زجـاج ، لماذا ؟ ليـحـجز عنه الهـواء لأن الهواء قـد يتلاعب بالميزان ، فيُـخرجه عن الدقة المطلوبة فى الوزن ، وأقل ميل فى ميزان الذهب له ثمن بخلاف ميزان البطاطا مثلاً .

إذن : كلمـة المـيزان تعنى الضـوابط التى تضـبط مـا بين الحق والباطل[١] نقرأ فى سـورة الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] يعنى : بالعدل والحق ، إذن : جاء الميزان ليـعطى كل ذى حق حقه ، ويضبط الحقوق لأصحابها ، فلا يأخذ أحدٌ أكثر من حقه ، ولا يغتصب أحدٌ حقَّ الآخر ، ولا يطمع فيما ليس له .

---

(١) هذا هو المـعنى الجـامع فى معنـى هذه الكلمة فى هـذا السيـاق ، وقد ذكـر القـرطبى فى تفسيره (٦٠٥٨/٩) عدة أقوال :

- الميزان : العدل . قاله ابن عباس وأكثر المفسرين .
- الميزان : ما بُيِّن فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به .
- الميزان : العدل فيما أمر به ونهى عنه . قاله قتادة .

قال القرطبى : وهذه الأقوال متقاربة المعنى .

- الميزان : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .
- الميزان : هو المـيزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلَّم العـباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس . قاله مجاهد .
- وقيل : الميزان محمد ﷺ يقضى بينكم بكتاب الله » .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] لأنهم سبق أنْ طلبوا من الرسول أن يأتي بها ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنبياء] طلبوها على وجه الاستهزاء والسخرية والتكذيب بها . والفعل دَرَى يدرى أتى مرة بصيغة المضارع هنا ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] وأتى بصيغة الماضى فى قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾ [الحاقة]

معنى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحاقة] فى الماضى يعنى شيء قديم لم تعرفه من زمان ، لكن تعرفه الآن . أما ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : لا أحدَ يخبرك بها إلا نحن ﴿ لا يُجَلِّيهَا[1] لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف] ، أما صيغة المستقبل فلم تأتِ أبداً .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ[2] فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

---

(١) جلا فلان الأمر يجلوه : أظهره . وجلاَّه بالتضعيف للمبالغة : أظهره أيضاً ، قال تعالى : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف] أى : لا يظهر الساعة فى ميعادها إلا الله . [القاموس القويم ١/١٢٦] .

(٢) يمارون : يشكُّون ويخاصمون فى قيام الساعة . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٥٩] . وامترى فى الشيء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشيء : تشكك فيه [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

قوله تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا .. (١٨) ﴾ [الشورى] أى : بالساعة ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا .. (١٨) ﴾ [الشورى] ولأنهم لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ولا يعرفون ما يحصل فيها يطلبونها من رسول الله ، يقولون له : هَاتِ لنا هذه القيامة نريد أنْ نراها ، هذا على وجه الاستهزاء بها ، ولو علموا شيئاً عن أهوالها ما تجرَّأوا على طلبها وما تهكَّموا بها . هذا حال غير المصدِّقين بيوم القيامة .

أما المؤمنون بها فلهم شأن آخر ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا .. (١٨) ﴾ [الشورى] خائفون من أهوالها لما يعلمونه من صدقها ودقة الحساب فيها وشدة كربها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ .. (١٨) ﴾ [الشورى] ولم يُقلْ حق إنما قال (الحق) يعنى : هى الحق بعينه ، فلا مجالَ فيها للتكذيب ، ولا حتى للشكِّ فى أمرها .

لذلك وصف الذين يجادلون فيها مجرد جدال بأنهم فى ضلال بعيد ﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾ [الشورى] والمراء : هو الجدل العقيم الذى لا يوصل إلى الحقيقة .

ووصفهم بأنهم فى ضلال بعيد ، لأن مجرد النظر العقلى يثبت يوم القيامة وضرورته بالنسبة للحياة الدنيا ، فلو تأملوا واقع حياتهم لوجدوا أنهم فى أمور دنياهم يأخذون بمبدأ الثواب والعقاب ، فلا بدَّ لتستقيم الأمور من مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسيء على إساءته .

فى واقع حياتهم تعليم وتلاميذ فى المدارس يُجرون لهم اختبارات شهرية يُصوَّب فيها الخطأ بالأحمر ليعرف التلميذ خطأه ويُصححه ، أما فى امتحان آخر العام فلا تُصوَّب الأخطاء ، إنما

تُعطي عليهـا درجة يترتب عليـها نجاح أو رسوب ، هذا هو الحساب والجزاء .

فإذا كنتم تفـعلون ذلك فى أمور دنيـاكم ، فلِمَ تكذبون به مع الله عـز وجل ، وفى البـشر فى رحلـة الحيـاة المـؤمن والكافـر والطائع والعاصى والمجرم والمحسن ، كيف إذن يتساوى كُلٌّ هؤلاء ؟

الرجل الذى قال : لن يموت ظَلُومٌ حتى ينتقم الله منه ، لأن العقل يقول ذلك ولا يصـح أنْ يفلت بجرائمه دون عـقاب ، فلمـا رأى ظالماً مات سالماً لم يُصبْه شىء قال ماذا ؟ قال : لا بدّ أن وراء هذه الدنيا حياةً أخرى يُـعاقب الظالم على ظلمه ، لا بدَّ وإلا فقد فاز الـمجرمون الظالمـون وأفلتوا بجرائـمهم ، وضـاع حَقُّ المـظلومين والضـعاف فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ ﴾[1]

معنى ﴿ لَطِيفٌ .. ١٩ ﴾ [الشورى] أى رفيق فى معـاملة العباد ،

---

(١) ذكر القرطبى فى معنى (اللطيف) اقـوالاً كثيرة ذات معانٍ قلبية طيـبة ، فمنها أنه : البارّ بعباده ، الرفـيق بهم ، اللطيف بالبر والفاجر حـيث لم يقتلهم جوعاً بمعـاصيهم . هو الذى يجبر الكسـير وييسر العسـير . وهو الذى لا يعاجل من عصـاه ولا يخيب من رجاه . وهو الذى لا يرد سـائله ولا يوئس آمله . وهو الذى يعـفـو عمـن يهفـو . [تفـسيـر القـرطبى ٩/٦٠٦٠] .

يعفو عن الكثير ولا يُؤاخذ عبده بأول جريمة ؛ لذلك لما جاءوا بامرأة سرقتْ فى عهد عمر . قالت له : والله ما سرقت قبل ذلك وهذه أول مرة ، فقال لها : كذبت ما كان الله ليفضحك من أول جريمة[1] .

ويقول عز وجل : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : عن كثير من سيئاتكم ولا يؤاخذكم إلا على البادى منها .

ومن معانى اللطيف أنه الدقيق الذى يتغلغل فى الأشياء ، وسبق أنْ قلنا فى الماديات : إن الشىء كلما دَقَّ وصَغُر عَنُف وصَعُب التحصُّن منه ، ومثَّلنا لذلك بمَنْ بنى بيتاً فى الخلاء ووضع على الشبابيك شبكةً من الحديد تمنع الذئاب والوحوش ، ثم وجد فى البيئة ذباباً وناموساً فجاء بشبكة أخرى أدق وأضيق .

وهكذا ، فمن صفاته تعالى أنه لطيف يعنى : لا يحتجب دونه شىء ، ولا يخفى عليه شىء مهما دَقَّ ومهما صَغُر ، ونحن نقول للإنسان المهذَّب صاحب الخُلُق : فلان لطيف يعنى ليِّن فى التعامل .

فمن لطفه سبحانه بنا أنْ جعل لنا توبةً مقبولة ، وجعل لنا مواسم للعبادة تُضَاعف فيها الحسنات وتُمحى السيئات ، وكأنها (أوكازيونات) للطاعة وتحصيل الحسنات ، من لطفه تعالى بنا أنْ

---

(١) أخرج البيهقى فى السنن الكبرى (٨/٢٧٦) من حديث أنس أن عمر أتى بسارق فقال : والله ما سرقت قط قبلها . فقال : كذبت ما كان الله ليسلم عبداً عند أول ذنب . فقطعه . وأخرجه كذا أبو داود فى الزهد (١/٥٨) وكذا المتقى الهندى فى كنز العمال مسند عمر (حديث ١٣٩٤٩) قال ابن حجر فى أطرافه : « رواه ابن وهب فى جامعه وهو موقوف حكمه الرفع لنبيه لصحة سنده » .

جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فواحدة[1] .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾[الشورى] يرزق لأنه الخالق ، وهو سبحانه الذى استدعى هذا الخلق لذلك تكفل له برزقه ، وهو سبحانه القوى لأن اللطف لا يكون إلا من قوة ، وهو سبحانه العزيز الغالب الذى لا يمتنع عنه شىء ولا يغلبه شىء .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

المعنى السطحى لكلمة الحرث هى حرث الأرض بالمحراث وإثارتها لبذر النبات فيها ، ذلك لأن النبتةَ الصغيرة لا تَقْوى على شَقِّ التربة الجامدة فنشق لها التربة ليسهل عليها النمو ، ثم هى فى حاجة إلى الهواء ، والحرث يُقلِّب التربة ، ويجعل الهواء يتغلغل فيها .

ولما كان الحرث هو سبب الثمرة سُمِّى بها ، فالحرث معناه الثمرة المرجوة من الزرع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٦٨٩٨ ، ٨٩٥٧ ، ١٠٠٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كُتبت عليه سيئة واحدة » .

نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨)﴾ [الأنبياء] أي : في الزرع .

فمعنى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ..(٢٠)﴾ [الشورى] يعني : ثوابها الدائم ونعيمها الخالد في جنات عدن ، فالحق سبحانه يوضح لنا الأمور الدينية بصور من واقع حياتنا ليُقرِّبها للأذهان ، اقرأ مثلاً : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون] أفلح مَن أفلح الأرض إذا حرثها وأعدَّها للزراعة ، فهو يوشك أنْ يجني الثمرة ، كذلك المؤمن فاز بالثواب الدائم والنعيم المقيم .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ.. (٢٠)﴾ [الشورى] يعني : يجده في الآخرة أزيد مما كان ينتظر ، وأيضاً لا يُحرم من ثمرتها في الدنيا ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا .. (٢٠)﴾ [الشورى] أي : من ثمرات الدنيا ، فالإنسان لا يُحرم ثمرةَ جهده وتعبه في الدنيا ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف]

فمَنْ عمل للدنيا لا يُحرم مُتعتها ولذَّتها ، لكن حين تُعجَّل له الطيبات في الدنيا يُحرَم منها في الآخرة ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى] أي لا حظَّ له في ثواب الآخرة ، لأنه عمل في دنياه للجاه وللشهرة أو للغنى والثروة ، فطالما أخذ بأسباب الشيء يناله حتى لو كان كافراً بالله ، والمؤمن إنْ تكاسل وقعد عن السعي يُحرم لأنه لم يأخذ بالأسباب .

---

(١) نفشت : انتشرت في المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] .

والحق سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، ومَنْ كان يريد حرث الدنيا لم يكُنْ الله أبداً فى باله ، لذلك كثيراً ما يسأل الناس عن العلماء والمخترعين الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، ما مصيرهم ؟ نقول : مصيرهم النار لأنهم عملوا للبشرية لا لله ، عملوا للشهرة وقد أخذوها فى الدنيا .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يعنى : لماذا كذَّبوا محمداً ولم يؤمنوا بما جاء به ؟ ألهم شركاء وضعوا لهم شرعاً ومنهجاً يتبعونه ، وديناً يدينون به ويتركون دين محمد ؟ والشركاء أى : الأشياء التى عبدوها من دون الله ، منهم مَنْ عبد الشمس ، ومنهم من عبد القمر أو الشجر أو الحجر أو الملائكة ، فهل هذه الآلهة المدَّعاة لها شرع ؟ هل قالت لهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ؟

إذن : آلهة بلا منهج وبلا تكاليف فعبادتها باطلة ، وهم ما عبدوها إلا لذلك ، لأنها بلا منهج وبلا تكاليف ، فقط تُرضى ما فى نفوسهم من الرغبة فى التديُّن ، وما أسهلَ أن يكونَ للإنسانِ دينٌ بلا تكاليف . والعبادة ما هى إلا طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، ثم ماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمن أطاعها ، وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟

إذن : هذه جمادات لم تقُلْ لكم شيئاً ، ولم تأمركم بشيء ، ولم تشرع لكم ديناً ، بل أنتم شرَّعتم لأنفسكم واتبعتم أهواءكم لإرضاء عاطفة في نفوسكم ، آلهتكم من صُنْع أيديكم أو أفكاركم السقيمة الضالة .

لذلك يقول تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة]

نعم هؤلاء قوم يفترون على الله الكذب ، ويختلقون من عند أنفسهم أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، فمن أين أتوا بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ؟ هذه أشياء اخترعوها من عندهم افتراءً على الله وكذباً .

فالبَحيرة هي الناقة التي ولدتْ خمس مرات ، فهي عندهم أدَّتْ ما عليها ، فيشقون أذنها ويتركونها سائبة لا تُركب ولا يُشرب لبنها ، ولا تُدفع عن الماء ولا عن المرعى ، وهذه أمور ما شرعها الله ، وقد أحلَّ الله لهم حتى الانتفاع بلحمها .

كذلك السائبة : كانوا إذا اشتكى الواحد منهم من وجع أو نزلتْ به نازلة قال : إذا حصل كذا وذهب المشكو منه أجعل ناقتي هذه سائبة لا تُركب ولا يُشرب لبنها ، ولا تُرد عن الماء ولا عن المرعى .

والوصيلة هي الشاة كانت إذا ولدتْ ذكراً جعلوه للآلهة وذبحوه للخدم والسَّدنة ، وإذا ولدت أنثى أخذوها لهم لتُنجب عندهم ، أما إذا ولدتْ ذكراً وأنثى احتفظوا بهما لأن الأنثى وصلتْ أخاها ، فلم يُؤخذ للآلهة بل يظل معها .

والحام : هو البعير حمى ظهره من أنْ يركب إذا أنتج عشرة أبطن فيقولون : إنه أدى ما عليه ، فلا يُركب ولا يُردّ عن الماء ولا عن المرعى .

هذه كلها أمور أحلَّها الله لهم وحرَّموها على أنفسهم ، لذلك قال سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يقول لهم : أخبروني مَنْ حرَّم هذه الأشياء ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا .. (١٤٤) ﴾ [الانعام] أي : بهذا التحريم الذي شرَّعتموه من عندكم افتراءً على الله ، إذن : أنتم جعلتم المشرِّع له مُشرِّعاً ، شرع لنفسه بدل أنْ يتلقى التشريع من الله .

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ .. (٢١) ﴾ [الشورى] أي : الحكم بعدم إهلاكهم وتأخير عذابهم إلى الآخرة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ.. (٢١) ﴾ [الشورى] يعني : حُكِم عليهم بالعذاب العاجل .

حين ننظر في الأشياء التي أحلَّها الله والأشياء التي حرَّمها نجدها تعتمد على مراعاة المنفعة ودفع المضرة عن الإنسان ، فالحلال فيه نفع والحرام فيه ضرر ، لذلك نجد بعض المستشرقين يعترضون على أشياء حرَّمها الحق سبحانه على بني إسرائيل مثلاً وهي غير ضارَّة ، وغيرهم يأكلها ولا تضره .

نعم حرَّم الله على بنى إسرائيل كُلَّ ذى ظفر من البقر والإبل ، وغير مشقوقة الأصابع مثل : البط والأوز والنعام ، وحرَّم عليهم الدهون ﴿إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا[1] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .. (١٤٦)﴾ [الأنعام] وهذه كلها أشياء حلال لغير بنى إسرائيل وليس فيها ضرر ، إنما حُرِّمت عليهم عقاباً لهم وتأديباً فليستْ العلة فى التحريم الضرر .

قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. (١٦٠)﴾ [النساء] فلما ظلموا أدَّبهم الله بأنْ حرّم عليهم ما أحلَّ لغيرهم .

ثم نلحظ على الآية أنها عبَّرتْ عن باطلهم الذى جاءوا به من عند أنفسهم بأنه دين ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ .. (٢١)﴾ [الشورى] فسمى الباطل ديناً تجاوزاً ، لأنهم مؤمنون به ويعتبرونه ديناً ، كما قال تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون] على اعتقادهم ، والدين ما يدين به الإنسان .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ [الشورى] الظالم إما يظلم غيره ، وإما يظلم نفسه ، وهذا أشنع أنواع الظلم ، فقد يعقل أن يظلم الإنسان عدوه ، إنما يظلم نفسه التى بين جنبيه ؟! فكيف يكون ظلم الإنسان لنفسه ؟ يظلمها حين يُعرِّضها للعقوبة ، ويحرمها من الثواب والنعيم ، وأشد أنواع ظلم الإنسان لنفسه أنْ يظلمها فى مسألة العقيدة والإيمان بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

---

(١) الحوايا : الأمعاء ، وهى مشتقة من حوى يحوى لأنها تحتوى على الطعام . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٢٢) ﴾

كلمة ﴿ ترى .. (٢٢) ﴾ [الشورى] تدل على كل ما يتأتى منه الرؤيا ﴿ مُشْفِقِينَ .. (٢٢) ﴾ [الشورى] خائفين مرعوبين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا .. (٢٢) ﴾ [الشورى] مما فعلوا من السيئات ، قلنا : إن الفعل كسب يكسب من الزيادة على رأس المال أى الربح ، وأنها دائماً تأتى فى كسْب الخير ، أما اكتسب فهى على وزن افتعل فيها افتعال ومحاولة وتأتى فى الشر ، لكن هنا استخدم كسب للسيئات .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. (٨١) ﴾ [البقرة] قالوا : استخدم كسب هنا لأن السيئة أصبحتْ عنده عادةً وأمراً طبيعياً يشبه فعل الخير عند أهل الخير ، فهو يفعل السيئة فلا تتعبه لأنه ألفها .

قوله : ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا .. (٢٢) ﴾ [الشورى] تصوير لموقفهم يوم القيامة ، لأنهم فى الدنيا ما خافوا وما عملوا لهذا اليوم حساباً ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ .. (٢٢) ﴾ [الشورى] يعنى : لا محالة فى ذلك لأنه وَعْد الله وحكمه الذى أخبر به .

أو خائفين وهم ما يزالون فى سعة الدنيا ، وفى هذا دليل على وجود الضمير والنفس اللوامة فى الإنسان ، فهو يعرف السيئة

ويعرف جُرْمه ، ويعرف أنه محاسب عليه ، لذلك يخاف منه ويؤنبه ضميره .

وفي المقابل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾ [الشورى] هذا إخبار من الله تعالى وهو حق ، فعاقبة الإيمان والعمل الصالح روضات الجنات يعني ملاذها وأطيب أماكنها يجدونها يوم القيامة ، ويجدونها حتى في الدنيا بالتخيل لها والشوق إليها .

فالشهيد الذي يجود بنفسه في سبيل الله لم يُقدم على ذلك إلا لثقته في هذا النعيم ، وأنه إذا قُتِل في سبيل الله سيذهب إلى خير من هذه الحياة .

وقد ذكرنا قصة الصحابي الذي سمع من رسول الله جزاء الشهداء ، فقال : يا رسول الله أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فأُقتل ؟ قال ﷺ : بلى . فألقى الصحابي تمرة كانت في فمه وبادر إلى الشهادة ، ولم ينتظر حتى يمضغ التمرة التي كانت في فمه[1] ، لماذا ؟ لأنه واثق من صدق الجزاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

نعم الشهداء أحياء ، وأحياء عند مَنْ ؟ عند ربهم ، وهذه قمة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (حديث ٢٧٤٠) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قُتِل . وكذا أخرجه النسائي في سننه (حديث ٣١٠٣) وأحمد في مسنده (حديث ١٢٧٩٤) .

الشرف والعز والنعيم ، وهى خصوصية لم ينلْهَا غيرهم ، فالشهادة نقلتهم من حياة لحياة ، فلا يموتون بعد ذلك ، ويُبعثون مع الناس وهم أحياء .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى حين قال فى سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب عم رسول الله :

أحَمْزَةُ عَمّ المصْطفى أنتَ سَيِّدٌ   علَى شُهَداء الأرض أجمعِهمْ طُرّا
وحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عِصْمَةٌ   مِنَ الموت فى وصْلِ الحياتين بالأُخْرى

وقوله : ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ .. (٢٢)﴾ [الشورى] روضات جمع روضة ، وهى الحديقة أو البستان المليء بالخضرة والنضرة والأزهار والثمار ، بحيث إذا دخلتها تنفحك بأريج عطرها ، وفى خلال ذلك أنهار تجرى بالماء العذب .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات يعنى : فى أفضل أماكنها وأطيبها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٢٢)﴾ [الشورى] فهذه العندية أشرف وأعظم من أىِّ نعيم آخر ، فهم فى نعيم الجنات وملاذِّها ، يفوق ذلك كله أنهم عند ربهم ، لذلك ختم الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾ [الشورى] أى : تفضُّلاً من الله وتكرُّماً عليهم .

والإنسان منا حين يتأمل هذا النعيم الدائم المقيم الذى أعده الحق سبحانه لعباده المؤمنين تهون عليه كلُّ مشاق الطاعات والعبادات ،

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

ويرى أنها يسيرة إذا ما قُورنت بالجزاء عليها .

فالإنسان يتعب فى الدنيا ويجتهد فى طلب العلم عشرات السنين ، أو فى تعلُّم صنعة أو مهنة ويتحمل مصاعبها وأخطارها ، كلّ ذلك ليوفر لنفسه مجرد ضروريات الحياة ، فإن اجتهد أكثر وعرق وبذل الجهد ، ربما يصل إلى مرحلة الرفاهية ، فيكون له خادم يخدمه أو طباخ مثلاً يُعد له الطعام ، وهؤلاء يعملون عنده بأجر وربما قصَّروا فى أعمالهم ، وربما أغضبوك وتمردوا عليك .

لكن حين تعمل للآخرة تجد الأمر مختلفاً تماماً ، فالعبادة أمرها يسير ، لا تحتاج منك إلى كل هذا الجهد وهذا العرق وسهر الليل وعمل النهار وانشغال البال والذهن ، ومع يُسْرها وسهولتها فالجزاء عليها عظيم لا تحدُّه حدود ولا يخطر على بال .

قلنا : إن قصارى ما توصَّل إليه البشر فى التقدم العلمى فى مجالات الخدمة الفندقية مثلاً أنْ تضغط على زر فى ماكينة ينزل لك منها الشاى أو القهوة ، وهذه آلة يمكن أنْ تتعطل وخلفها عامل يُعدُّ لك الشاى أو القهوة ، أمَّا فى الجنة فالنعيم هناك صَافٍ لا يُنغِّصه شيء ودائم لا ينقطع ، لا يحتاج منك إلى طلب ولا ضغط على زر ولا مناداة على خادم ، مجرد أن يخطر الشيء ببالك تجده بين يديك ، وصدق رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

واقرأ مثلاً فى سورة البقرة : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الصَّالحَات أَنَّ لَهُمْ جَنَّات تَجْرِى من تَحْتهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا منْهَا من ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا من قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ[1] وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

ففى الجنة إنْ شاء الله سنجد أشياء كنا نأكلها فى الدنيا ، فنتصور أنها مثل نعيم الدنيا ، لكن حين نتذوقها نجدها شيئاً آخر ﴿ قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا من قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] ذلك لأن كمالات الحق سبحانه لا تتناهى ، فلا تظل على حالة واحدة رتيبة ، إنما فيها ارتقاء فى النعمة .

إذن : نحن أمام نعيم دائم يهون فى سبيله كلُّ تعب وكلُّ مشقة ، ووالله لو لم يكُنْ للطاعة جزاء إلا سلامة الإنسان وسعادته فى الدنيا لكانتْ كافية ، يكفينا من الطاعة راحة البال وهدوء النفس والطمأنينة ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال[2] :

قَالَ المنجِّمُ وَالطَّبيبُ كلاَهُمَا ... لاَ تُبعَثُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُما فَلَستُ بخاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلى فَالخَسَارُ عليكُمَا[3]

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (١/٣٩٥) : « قوله (مطهرة) أنهن طُهرن من كل أذىً وقذى وريبة ، مما يكون فى نساء أهل الدنيا من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق والمنى وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره » .

(٢) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف ولد فى معرة النعمان عام (٣٦٣هـ/٩٧٣م) ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة رحل إلى بغداد عام ٣٩٨ ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . كان يحرم أكل اللحم . له (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) (ضوء السقط) . توفى عام (٤٤٩ هـ / ١٠٥٧هـ) .

(٣) هذان البيتان من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٧ أبيات .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يصف لنا الجنة لم يصف الجنة ذاتها إنما مثلاً لها ، لأن الجنة وما فيها فوق تصور البشر ، وإذا كان فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف إذن تُوصَف لنا على حقيقتها ؟ لأن الإنسان لا يضع اللفظ إلا لمسمى معلوم عنده ، أما الشيء الذى لا نعرفه فلا نعرف بالتالى اللفظ الدالّ عليه ، فليس فى لغتنا ألفاظ تصف هذا النعيم ، لذلك اقرأ : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥) ﴾ [الرعد] فيها كذا وكذا .

ثم إن هذا النعيم المقيم جزاء لمن ؟ لمن آمن وقرن الإيمان بالعمل الصالح ، ودائماً يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٢٣) ﴾ [الشورى] إشارة إلى نعيم الجنة ﴿ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٣) ﴾ [الشورى] والبشارة هى الإخبار بالخير قبل أوانه ، ثم ينتقل السياق إلى قضية

أخرى متعلقة برسول الله ﷺ وأمر الدعوة ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : قل لهم يا محمد : إننى لا أريد منكم أجراً على الدعوة والمهمة التى أقوم بها من أجلكم ، وأنت لا تقول هذه الكلمة إلا إذا كنت قد عملتَ عملاً تستحق عليه أجراً بالفعل .

فالمعنى كأنه يقول : إن العمل الذى أقوم به من أجلكم كان يجب أن يكون لى عليه أجر ، لأننى أنصحكم وأدلكم على ما ينفعكم ، ومع ذلك لا أريد منكم أجراً .

وكل رسل الله قالوا هذه الكلمة ، لأن الإنسان عادة يجازى مَنْ أسدى إليه جميلاً أو دلَّه على خير أو أشار عليه مشورة تريحه ، لذلك فى كثير من مواكب الرسالات نقرأ : ﴿وَيَـٰقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [هود] نعم على الله ، لماذا ؟ لأنه عمل عظيم نفيس وشريف ، لا يمكن لبشر أنْ يُقدره قدره ، أو يعطى عليه ما يستحق من أجر ، إذن : لا يعطينى أجرى إلا الله الذى بعثنى .

قلنا : كل الرسل قالوا هذه الكلمة إلا سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟ قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا دعا أباه آزر ، فكيف يطلب منه أجراً ؟ كذلك سيدنا موسى أول ما دعا دعا فرعون ، وكان له عليه فضل التربية .

إذن : لا أريد منكم أجراً على مهمة الدعوة التى أقوم بها ، فأجرى فيها على الله الذى بعثنى ، وهو الذى يُقدِّرها قدرها ، شىء واحد أريده منكم ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : مودتكم لقرابتى . والمودة : ميل القلب إلى مَنْ تواده ثم معاملته بما يستحق من تكريم وتقدير .

فكأن رسول الله ﷺ يقول لهم : لقد أُرسلْتُ إلى الناس كافة ، وقد قابلتمونى بالإيذاء وجابهتمونى بالعداء واضطهدتم أصحابى ، وألجأتمونى إلى غيركم مرة إلى الطائف ، ومرة إلى القبائل الأخرى ، وألجأتم أصحابى إلى أن يتركوا بلادهم وديارهم ، وأنا لى فى كل بطن من بطون قريش قرابة حتى فى المدينة حيث أخوالى من بنى النجار ، فلا أقلَّ من أنْ تعطونى حقى فى قرابتى ، وحق القرابة ألاَّ تؤذونى ، فأنا لا أجبركم على الإسلام ولا أفعل ما يدعو إلى الإيذاء ، كذلك من حق القرابة ألاَّ تُسْلمونى لعدوى ، فهذا حقى عليكم .

أو يكون المعنى ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : أقاربى وأهل بيتى ، ذلك لأن أقارب رسول الله ﷺ حرموا من مُعين على العيش ، فليسوا كباقى المسلمين ، حيث حُرِّمتْ عليهم أموال الزكاة التى يستحقها الفقير من غيرهم ، فلا أقلَّ من أن تعاملوهم بالحسنى وبالمعروف ، وتراعوا منزلتهم منى .

لذلك نجد لهم أحاديث كثيرة فى إكرام أهل البيت يقولون أن غيرهم قالها ، من ذلك : مَنْ مات على حب آل بيت رسول الله مات شهيداً ، مات مغفوراً له ، مات وتُحيِّيه الملائكة فى قبره ، مات وفى قبره باب يؤدى به إلى الجنة ، ومن أبغض آل محمد فهو آيس من رحمة الله[1] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (سورة الشورى آية ٢٣) بلفظ : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوار قبره الملائكة والرحمة ، ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنة ، ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى » . وأورده الزمخشرى مطولاً فى تفسيره (الكشاف) (٩٩٢) وذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٩٢٠) وقال : « باطل موضوع » .

قالوا هذا لأن النبى ﷺ قـال كلاماً مثل هذا ، قال : « أحـبوا الله لما يغذوكم من النعم وأحبونى بحبِّ الله ، وأحـبوا أهل بيتى لحبى »[1] وهذا معنى آخر من معانى ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

أو يُراد بهـا مـعنى ثالث ﴿ إِلاَّ الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُـرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشـورى] قرباكم أنتم يعنى كل منكم يودُّ قريبه ويعطيه ويرعى حَقَّ قرابته ، ولو أن كل إنسان واجـد عنده سعةٌ من الرزق يعطى قـرابته ويكفيهم ويسـاعدهم على المعيشة الكريمة ما وُجد بيننا فقير ولا محتاج ، والمجتمع عبارة عن دوائر متداخلة ، فلو فعلنا ذلك لَعمَّ خير الله جميع خَلْق الله .

ثم إن الأقارب لهم حَقّ فى مالك غيـر الزكاة ، لذلك قال أحد الأغنياء : أنا أعطى أخى الفقير من مـال الزكاة ، فقلنا له : والله لو يعلم أنك تعطيه من مال الزكاة ما قـبلها ، إذن أعطه من نسبة ٩٧,٥٪ لا من ٢,٥٪ اترك هذه النسبة اليسيرة للفقراء الأباعد عنك .

وآخر يقول : أضع مـال الزكاة فى بناء مدرسة ، وآخـر يقول : فى بناء مستشفى أو مسجـد ، سبحان الله وهل نسبة ٢,٥٪ تكفى كل هذا ؟ اجعلوها لأصحـابها كما فرضـها الله ليـستقيم حال المجتمع ، ثم لو فعلنا كل هذا من مال الزكاة ماذا سنفعل فى نسبة ٩٧,٥٪ .

إن وضـع مال الزكـاة فى موضعه كـما علَّمنا الحق سبحـانه يحمى المجتـمع ويستر عوراته ، فلا تجـد فيه عارياً ولا جائعـاً ولا مريضاً لا يجد ثمن العـلاج ، لكن لما عطلنا أحكام الشرع فى هذه المـسألة ظهرت عورات المجتمع المسلم كما نرى ونشاهد .

---

(١) أخرجـه الترمذى فى سـننه (٣٧٢٢) والحاكم فى مسـتدركه (٤٦٩٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٧٣ ، ١٠٥١٦) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٤٢٧ ، ١٣٦٨) كلهم من حديث ابن عباس رضى الله عنه ، كلهم من طريق يحى بن مـعين بسنده إلى ابن عباس . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى وزَّع خَيْرَهُ على كل خَلْقه و (هندس) اقتصاد المجتمع ، بحيث لو نُفِّذت تعاليمه فى هذه المسألة لعاشَ الفقير فى نفس مستوى معيشة الغنى .

ومن هذه العدالة فى توزيع الخير على الناس تجد مثلاً رجلاً غنياً فى بلدة ما هى موطنه منذ مولده ، ومع ذلك يحنُّ إلى موطن آخر فيذهب إليه ويعمر فيه ويفيض من خيره على أهله ، قالوا : إذا رأيتَ مثل هذا الرجل فاعلم أن وجوده فائضٌ عن حاجة أهل بلده ، فنقله الله إلى مكان آخر محتاج إليه .

وإذا كنا نفعل هذا مع أقاربنا ، فرسول الله أوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فقرب رسول الله أوْلى ، لأن رسول الله علم أنه سوف تأتى عهود يُضطهد فيها أهل بيته ، والتاريخ شاهد على ذلك ، وقد رأيتم آل البيت وقد تشتتوا فى سائر البلاد ، بل وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وتعلمون مدى حبِّ شعب مصر لآل بيت رسول الله ﷺ ، كذلك تحب أبا بكر وعمر ، وليس بيننا شيعى واحد .

والمودَّة والقربى أول ما تكون تكون لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وإذا كانت المودة ميل القلب لمن تهواه ، فهذا الميْل له تبعات ، فلا تراه محتاجاً وأنت واجد ، ولا تراه جاهلاً وأنت متعلم ، وهكذا .

ومن المودة فى القربى بر الوالدين . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل بر الوالدين دُرْبة ورياضة للإيمان بالله ، لأنهما سبب الوجود المباشر ، وهو سبحانه سبب الوجود الأعلى ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت] وفى آية أخرى ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

حتى فى حالة عصيانهما فى أعلى منطقة وهى منطقة العقيدة والتوحيد أمَرَ ببرهما ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] وأعطى الاهتمام الأكبر للأم فى قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (٨)﴾ [العنكبوت] أى : الاثنين ولم يذكر حيثية للأب ، إنما ذكر حيثية الأم فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لأن دور الأم كان فى حال الصِّغر وعدم التعقُّل لما تفعل ، فدورها غائب عنك ، سابق لوعيك وإدراكك للأمور ، فلما كبرت عرفت دور الأب ، لذلك ذكَّرك الحق سبحانه بدور الأم الذى غاب عنك .

ثم نجد القرآن يحتاط فيراعى حقَّ التربية ، حتى إنْ ربَّى غير الوالدين فيقول : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فمَنْ ربَّى كان فى منزلة الوالدين واستحقَّ البر مثلهما تماماً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ[1] حَسَنَةً .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : يفعل طاعة لله ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا .. (٢٣)﴾ [الشورى] فالأمر لا يقف عند حد المودة ، إنما أيضاً ترعاهم فيما يحتاجون إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾[الشورى] غفور وشكور صيغة مبالغة من غافر وشاكر ، فالحق سبحانه واسع المغفرة كثير الشكر ، يغفر لمن تاب إليه ويشكر مَنْ أطاعه ، والشكر يكون بالزيادة كما قال سبحانه : ﴿لَئِن

---

(١) يقترف : أى يكتسب . والاقتراف : الاكتساب . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٦٧] واقترف الذنب : أتاه وفعله . واقترف الحسنة : فعلها . ومثله قوله تعالى : ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾ [الانعام] أى : وليرتكبوا ما يشاؤون من الآثام . [القاموس القويم ٢/١١٤] .

شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) ﴾

الكلام هنا عن كفار مكة الذين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه كذب القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ .. (٢٤) ﴾ [الشورى] أى الكفار ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. (٢٤) ﴾ [الشورى] يعنى : جاء بالقرآن من عنده . والافتراء منهم هم ، فهم أهل الكلام وأصحاب القصائد والخطب ، وما عرفوا عن محمد - وقد عاش بينهم - أنَّ له ريادة فى هذا المجال .

إذن : أنتم أصحاب هذا الفن ولسانكم طويل ، فلماذا لم تأتوا بمثل ما جاء به ؟ ولو حتى بسورة واحدة ؟ فلو أن الافتراء وارد فى حق محمد فأنتم أوْلَى ، فلماذا تحداكم القرآن ولم تأتوا بشيء ؟ لا بعشر سور ولا بسورة واحدة .

وفى موضع آخر يرد القرآن عليهم بالمنطق وبالحسنى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

لذلك ينتقل سياق الآية من الحديث عن الكافرين وافترائهم على رسول الله إلى مخاطبة الرسول ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (٢٤) ﴾ [الشورى] يعنى : إنْ حدث منك أن افتريت القرآن وجئتَ به

من عند نفسك ، فالله قادر أنْ يختم علـى قلبك يا محمد فتنسى الذى تحـفظـه ، وهل حـدث ذلك لرسـول الله ﷺ ؟ لا بل ظـل القـرآنُ فى صدره يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ويُعلِّمه للناس .

إذن : محمد لم يكذب القرآن ، ولم يفـتر على الله بل أنتم المفترون . والقـرآن فى مواضـع كثـيـرة يكشف افتـراءهم ويردُّ عليـهم بالعـقل وبالمنطق وبالتى هى أحسن ، فيحكى كيف يتمحكون فى هذه المسألة : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فقد اتهموا رسول الله أنه يخـتلف إلى رجل أعجـمى يُعلِّمه القـرآن ، فيرد عـليهم الحق سبحانه ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

فالرجل الذى تقـولون إن محمداً يتـردد عليه ليُعلمـه القرآن رجل أعجمى والقرآن بلسان عربى واضح ، فأين عقولكم ، وإنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكُوراً حتى لا ينكشفَ زيفُك وباطلك .

ويحكى القـرآن عنهم لوناً آخـر من التـعنت والعناد : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

نعم جاء مـحمد بالقـرآن بعد الأربعين ، وهو بين أظهـرهم ، وما رأوه خطيباً ولا شاعراً ، ولم يُعرف عنه شىء من ذلك .

فلما يئـسوا قالوا : القـرآن لا بأس به ، لكن يعيـبه أنه نزل على

محمد بالذات : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

ثم يفضح الحق سبحانه موقفهم ويُبيِّن غباءهم ولَدَدهم فى الباطل ، وأن هذه الخصومة ما هى إلا عناد وتكبُّر عن قبول الحق ، فيقول : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[الأنفال] ، فهل هذا كلام عقلاء ، أم هو الحقد على محمد بذاته ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى] الفعل يمحو وحُذفت الواو تخفيفاً ، والذى يُمحَى هو الباطل الذى قالوه ، والافتراء الذى كذبوه على رسول الله ، هذا يمحوه الله وفى المقابل ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى] يثبته ويُقويه ﴿بِكَلِمَاتِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى] أى المنزلة على قلب سيدنا رسول الله ﷺ فى القرآن الكريم .

أو يُراد بالكلمات كلمة كُنْ فيكون ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى] يعنى : عليم بخفاياها والذى لا يستطيع الإنسان التعبير عنه باللسان فيكتمه فى نيته وفى نفسه ، كما قال سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]

---

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى مكان اتصلت به الأبنية . والمقصود بالقريتين هنا : مكة والطائف . [القاموس القويم ٢/١١٥] . وقد ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . وعن ابن عباس أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

إذن : ظلَّ هؤلاء القـوم يعـاندون رسـول الله ويحـقـدون عليـه ويصـادمون دعـوته ويتهـمونـه ، إلى أن كشف الله باطلهم وأزهقـه ، وانتهى أمرهم إما بالإسلام أو الهزيمة أو شملهم عفو رسول الله يوم فتح مكة يوم أنْ قال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم » قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »(١) .

إذن : جاء نصر الله والفـتح ، وزهق الباطل ، وثبت الحق ، وعلا وانتصـر ، وهل يُعقل أنْ يرسل الله رسولاً لهـداية الخلق ، ثم يُسلمه لأعدائه أو يخذله فى مواجهته للباطل ؟

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وأخـيـراً نلحظ على هذه الآية أن البـعض ظنَّ أن الفـعل يمـحـو معطوف على (يشأ) وأنه مـجزوم مثله بعد إنْ الشرطيـة وهذا غير صحيح ، لأن (الفعل يمحو) جاء كـلاماً جديداً مستقلاً بدليل تكرار لفظ الجلالة ورفع (ويحقُّ) ، فهو فعل مرفـوع وحُذف الواو تخفيفاً أو لالتقاء ساكنين .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾

من لُطْف الله بعباده ورحمته بهم أنْ شرع لهم التوبة وجعل بابها

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقـال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعـده ونصر عبده وهزم الأحـزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خـيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . [السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤] .

مفتوحاً لا يُغلق ، والتوبة أمل يتعلق به المسيء ويجد فيه حبل النجاة فيعود وتحسن سيرته ويتقوَّم سلوكه وينتفع به مجتمعه ، أما إنْ أغلقنا باب التوبة في وجهه وألجأناه إلى اليأس تمادى في عصيانه فشَقِي وشَقِي به مجتمعه .

والتوبة تعني رجوع المسيء إلى الله ، ولها مراحل : شرع الله التوبة ومجرد مشروعيتها فضل من الله ، ثم إذا تاب العبد قبلَ الله منه توبته ، لذلك قال تعالى ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (١١٨) ﴾ [التوبة] تاب عليهم . يعني : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل توبتهم .

والتوبة ليست كلمة تقال : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه ، إنما التوبة منهج متكامل ، وقد بيَّنها لنا الإمام علي رضي الله عنه عندما أقيمت الصلاة فسمع رجلاً في الصف يقول : أستغفر الله العظيم ، الله أكبر ، فلما انتهى من الصلاة قال له : لقد استعجلتَ في التوبة فتوبتك تحتاج توبة[1] .

إذن : ليست مجرد كلمة ، إنما منهج وبرنامج تستعرض فيه أولاً ما فاتك من سيئات وما حدث منك من تفريط ، فتندم أولاً على ما بدر منك ، وقد ورد في الحديث : « الندم توبة »[2] .

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٣٤) تفسير آية ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] روى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبَّر ، فلما فرغ من صلاته قال له علي بن أبي طالب : يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج إلى توبة » .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٤٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٨٧ ، ٣٨٠٩ ، ٣٨١١ ، ٣٩١٤) والبيهقي في سننه (١٠/ ١٥٤) والحاكم في مستدركه (٧٧٢٠) والبيهقي في شُعب الإيمان (٦٧٧٠ ، ٦٧٧١) كلهم من حديث عبد الله بن مسعود .

وفى قصة ابنى آدم : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة] فعندما هدأتْ عنده سَوْرة الشر والخصومة عاد إلى الصواب فندم على ما فعل ، ثم تتذكر ما فاتك من فروض الصلاة فتقضيها أو تجبرها بصلاة النوافل .

ثم ترد المظالم إلى أهلها . فهذه شروط ينبغى توافرها ، ثم زدْ على ذلك أن تذوب فى الحسنة كما ذُبْتَ فى السيئة ، وأنْ تذوق مرارة مشقة الطاعة كما ذقتَ حلاوة المعصية .

والقياس فى اللغة أن نقول : يقبل التوبة من عباده ، لكن الحق يقول ﴿عَنْ عِبَادِهِ .. ۝٢٥﴾ [الشورى] فكأن الحق سبحانه يرد عنهم ذنوبهم حين يقبل منهم التوبة ، فتكون النتيجة مغفرة الذنوب التى ارتكبوها لكن الذنوب التى ارتكبوها لها صفات من الحق تطلب حقَّها فيه .

فحين يفعل العبد الذنب تأتى صفة القهار والجبار والمنتقم وهى صفات الجلال ، وهذه الصفات تقتضى العقاب ، ثم تأتى صفات الجمال من الحق سبحانه صفة الغفور الرحيم التواب .. الخ .

لذلك قال فى حديث آخر رمضان : « شفع المؤمنون ، وشفع النبيُّون ، وشفعتْ الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين »[1] .

فإذا كان المؤمنون والنبيون والملائكة سيشفعون عند الله تعالى فعند مَنْ يشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : لأن لله صفات جلال وصفات

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩) وأحمد فى مسنده (١١٤٦٣) عن أبى سعيد الخدرى أن الله قال : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة » الحديث بطوله .

جمال ، فإذا أخذتْ صفات الجلال حقَّها من المذنب العاصى تأتى صفات الجمال لتشفع له عند صفات الجلال فى نَفْى مستحقاتها عنده .

إذن ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] عبَّر بـ (عَنْ) مع أن التوبة منهم ، فقال عنهم ليحملها عنهم . لذلك تجد دقة فى استخدام هذه الحروف فى القرآن الكريم ، ولكل منها معنى لا يؤديه غيره ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعلوم أن الصَّلْب يكون على الجذوع ، لذلك قال بعض المفسرين أى : على جذوع النخل ، لكن لماذا عدل القرآن عن (على) إلى (فى) لابدَّ أنَّ لها معنى لا تؤديه (على) . إذن : المراد لأصلبنكم تصليباً شديداً مُحكماً ، بحيث تدخل بعض أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه ، لذلك قال ﴿ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

كذلك فى قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] بعضهم قال : يعنى مع الكبر . كيف و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان . فلا بدَّ أن لها معنى لا تؤديه مع ، ما هو ؟

قالوا : (على) تفيد الاستعلاء ، فالكبر كان مانعاً من الإنجاب ، لكن قدرة الله وإرادته علَتْ وغلبتْ هذا المانع . ومثلها تماماً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فكأن المعصية التى فعلوها كانت تستوجب العقوبة ، لكن عفو الله ومغفرته ورحمته بعباده علَتْ على العقوبة .

وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] أى : يمحوها

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾ [الشورى] لأن علمه تعالى محيط شامل لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فإذا كنتَ قد اقترفت سيئة ولا يعلم بها أحد فالله يعلمها ولا بدَّ أنْ تتوب عنها ، حتى خواطرك التى تجول فى نفسك ولم تظهر على جوارحك يجب أنْ تتوب عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ﴾

أي : ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات . والفعل ﴿ وَيَسْتَجِيبُ .. (٢٦) ﴾ [الشورى] دل على سرعة الاستجابة ، لذلك لم يَقُلْ يجيب ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٦) ﴾ [الشورى] تدل أيضاً على أن الاستجابة من الله لهم ، وفى المقابل ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ﴾ [الشورى] والعذاب الشديد للكافرين هو نهاية المطاف ، لأن أول ما يُقابلون به : الغضب من الله ، ثم الحجاب ، ثم اللعنة والإبعاد من رحمته ، ثم العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه(١) :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : نزلت فى قوم من أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الدنيا والغنى . قال خباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أنَّا نظرنا إلى أموال قريظة والنضير فتمنيناها . فأنزل الله هذه الآية [أسباب النزول - الواحدى النيسابورى ص ٢١٣ - طبعة المكتبة الثقافية - بيروت] .

هذه الآية تقرر طبيعة في النفس الإنسانية ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾[العلق] لأن الرزق عندما يكون مبسوطاً ميسَّراً لا يشغل المرء به ولا بالحركة من أجله ، فلا يكد ولا يتعب ويتفرغ لأمور أخرى تشغله ومنها البغى .

لذلك لما تحدَّث القرآن عن قارون ، وهو أوضح مثال للغنَى الطاغى ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ۝ ﴾ [القصص] إذن : النعمة والثراء قد يدعوان الإنسان إلى الطغيان والبغى بغير الحق ، وبسطة الرزق تعنى سعته وتيسير سُبُله ، وهى فى هذه الحالة نوع من الابتلاء .

وقوله : ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [الشورى] أى : يسوق الرزق بقدر معين وبحساب على مقتضى علمه سبحانه وحكمته فى تدبير شئون خلقه ، فيعطيهم بحساب بحيث لا يصل العبد إلى مرحلة الطغيان والبغى ، وهو سبحانه أعلم بطباع عباده وأعلم بما يصلحهم ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « إن من عبادى مَنْ إذا أغنيته لفسد حاله ، ومنهم إذا أفقرته لصلح حاله »[1] .

وقد اهتم الإسلام بالجانب الاقتصادى فى حركة الحياة وفرضَ الزكاة من أجل استطراق الخير فى المجتمع ، وعلَّمنا أن نُفرِّق بين الفقر عن عجز واحتياج ، والفقر عن حرفة وخداع ، فمَنْ يتخذ الفقر حرفة ليس له نصيب ، ولا يصح أنْ تعينه على التكاسل والقعود عن العمل .

---

(١) أورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢٥٦/٤) وقال : أخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (ص ١٢١ – مصر) والبغوى فى شرح السنة (١٤٢/١) وأبو بكر الكلاباذى فى مفتاح المعانى (١٩٠) وقال : ضعيف جداً ، وأوله : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث بطوله .

أما العاجز فمستحق ، لأنه غير قادر على الكسب ، لذلك جعل الله له جزءاً في مال القادر يصل إليه ، وهو مُعزَّز لا يريق ماء وجهه للقمة العيش ، بل يحفظ له الحقُّ سبحانه كرامته ، ويجعلك أنت أيها الغني القادر تذهب إليه وتطرق عليه بابه وتعطيه ليعلم أن الله حين سلبه قدرته سَخَّر له قدرات الآخرين .

كذلك مثلاً في فريضة الحج ترى غير المستطيع حزيناً لأنه لم يحج ، والواقع أنه أحظُّ عند الله من المستطيع الذي يحج ؛ لأن المستطيع قد يؤدي ولا يقبل منه ، أما غير المستطيع فقد سقط عنه الفرض أصلاً . ويقولون : إن نسبة تسعين بالمائة من الناس لم يروا البيت يعني لم يطوفوا به ، فهل يعني هذا أن الله يحرمهم رؤيته ؟ لا بل لهم منه نصيب كما قيل : « من الناس مَنْ يطوف بالبيت ، ومن الناس مَنْ يطوف بهم البيت »[1] .

ثم إن حالة الفقر هذه أو العجز لا تدوم لأنها مداولة بين الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا[2] بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ بيَّنا أن الفقر في المجتمع له حكمة ، لأن حركة المجتمع ومصالح الناس لا يمكن أنْ تقوم على التفضُّل ، إنما تقوم على الحاجة ، فحين تُلجئك الحاجة تعمل ولا تستنكف من العمل

---

(١) وقفت على بيت شعر لعبد القادر الجيلاني المتصوف (ت ٥٦١هـ/١١٦٦م) :

كل قطب يطوف بالبيت سبعاً وأنا البيت طائف بخيامي

(٢) دالت الايام : تحولت من قوم إلى قوم آخرين . والدُّولة : الشيء المتداول بين القوم . وقد قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾ [آل عمران] أي : نصرفها بينهم فيجعل الله تعالى النصر فيها لهؤلاء مرة ولغيرهم مرة أخرى . [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

الشاق أو الحقير ، وإلا فمَنْ سيقوم بهذه الأعمال .

ورأينا العامل حين يرضى بقدر الله فيه ويخلص فى عمله يقول الله له : رضيتَ بقدرى فسأعطيك على قدرى . فتراه بعد فترة أصبح صاحب عمل بعد أنْ كان أجيراً ، لأنه أخلص لصاحب العمل ولم يحقد عليه ، ولم يكره النعمة عنده .

إذن : الحق سبحانه لا يضيق الرزق ولا يعطى بقدر إلا فى مظنة الضرر ، فمَنْ علم الله منه أنَّ بسطة الرزق تفسده يُضيِّق عليه منافذ الرزق ليصلحه بالفقر . فالأصل أنه تعالى جواد كريم يبسط رزقه لعباده ، لذلك يقول فى الآية بعدها :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ[1] مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ الْغَيْثَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] المطر ينزل بعد انقطاع وجفاف ، فيغيث الناس وينقذهم من الجفاف والجوع والقحط الذى هم فيه ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] يئسوا من نزوله .

﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] يبسطها لعباده جميعاً ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] المتولى أمور عباده المحسن إليهم ﴿ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] أى : المحمود على

---

(١) الغيث : المطر . وسُمى الغيث غيثاً لأنه يغيث الخلق .. والغيث ما كان نافعاً فى وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وضاراً فى وقته وغير وقته . قاله الماوردى . [تفسير القرطبى ٦٠٧٢/٩] .

نعمه التى أسداها إلى الناس وتفضَّل بها عليهم ، لأنه أنعم عليك قبل أن يوجدك فخلق لك السماء والأرض والكون كله سخَّره فى خدمتك ، فطرأتَ على كونٍ مُعَدٍّ وجاهز لاستقبالك ، فيه كُلُّ مقومات حياتك .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

كلمة ﴿ آيَاته .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] مفردها آية ، وهى الشئ العجيب الذى يدعوك إلى التأمل ، كما نقول : فلان آية فى الأدب أو فى العلم . وقلنا : إن الآيات فى القرآن الكريم وردتْ بمعانٍ ثلاثة : آيات كونية تدل على قدرته تعالى وبديع صُنْعه كالشمس والقمر والليل والنهار ، وآيات معجزات تدل على صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن الكريم .

الحق سبحانه وتعالى هنا يُحدِّثنا عن بعض آياته الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَـٰوَات وَالأَرْضِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] فهما شئ عجيب فى الخَلْق دلَّ على قدرة الله وحكمته وطلاقة قدرته ، وفى موضع آخر قال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

نعم أكبر ، لأن الإنسان يُولد ويموت ، يموت طفلاً ويموت شاباً ، بل ويموت فى بطن أمه ، وحتى لو عاش مائة عام سيموت ، فأين هو إذن مَنْ خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات كونية تعمر ما يشاء الله ؟

إذن : على الإنسان أنْ يتذكر هذه الحقائق ويقول لنفسه : هل يُعقل أن تكون هذه الآيات أطول عمراً منى وهى مُسخَّرة فى خدمتى ؟ إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب منزلتى ، وما فضَّلنى الله به على هذه المخلوقات ، إذن : لى حياة أخرى أبقى فيها وأخلد حين تفنى كل هذه المخلوقات .

وقوله : ﴿السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٩)﴾ [الشورى] يعنى : وما فيهما لأنهما ظرف مظروف فيه مخلوقات كثيرة ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٢٨٤)﴾ [البقرة]

ومعنى ﴿وَمَا بَثَّ .. (٢٩)﴾ [الشورى] أى نشر ﴿فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. (٢٩)﴾ [الشورى] أى : فى السموات وفى الأرض ، فما يدب فى الأرض أى : ما يمشى عليها من إنسان وحيوان وطير ، وما يدبّ فى السماء يقصد به الملائكة .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ .. (٢٩)﴾ [الشورى] يعنى : يوم القيامة ﴿قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى] أى : قادر ، كما قال : ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٧)﴾[الشورى]

بعض العلماء ذهب إلى وجود مخلوقات أخرى فى العلو ، وهم أمثالنا مكلَّفون ، ففى المجموعة الشمسية عوالم أخرى غير الأرض مثل عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وغيرها . والعظمة فى جمع كل هؤلاء .

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾

كلمة أصاب مأخوذة من إصابة السهم للهدف ، فإذا كان الرامى حاذقاً أصاب الهدف دون انحراف ، فكأن المصائب فى الدنيا سهام أُطلقتْ بالفعل ، وهى لا بدَّ صائبة أصحابها . لذلك يقولون : إن المصيبة ليست ناشئة حال وقوعها ، إنما هى مُقدَّرة أزلاً ، وسهم أُطلق بالفعل ، فوقتها هو مسافة سفر السهم إليك ، كما سبق أنْ قُلْنا فى مصيبة الموت .

فهو إذن مسألة مفروغ منها وأمر مُسجَّل ومكتوب عليك أزلاً ليس حادثاً ، فالكون كله له (ماكيت) مُسجَّل ومُوضَّح به كل شىء . لذلك قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا[1] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد] إذن : لا مفرَّ أبداً من المصيبة ولا مهربَ منها ، ولا يمكن أبداً أنْ نحتاطَ لها ، لأن السهم الذى أُطلِق لا يُرد .

والمصائب التى تصيب الإنسان على نوعين : نوع لك فيه دَخْل ويد ، ونوع لا دخلَ لك فيه ، فمثلاً التلميذ الذى يرسب آخر العام لأنه أهمل دروسه ولم يجتهد لا شكَّ أن له دخلاً فى هذه المصيبة التى حلَّت به آخر العام ، فإذا كنت لا تريد أن تصيبك هذه المصيبة فخُذْ بأسباب النجاح واحذر أسباب الفشل وسوف تجد النجاح .

الأخرى : مصيبة لا دخْلَ لك فيها ، كالتلميذ يذاكر ويجتهد ويحفظ دروسه لكن يصيبه دوار ساعة الامتحان أو مرض مفاجىء

---

(١) برأ الله النسمة وخلق السماوات والأرض . قال ابن سيده : برأ الله الخلق : خلقهم . [لسان العرب – مادة : برأ] .

فلا يستطيع إكمال الامتحـان فيرسب ، هذا حدث بقدر الله والذى أجرى عليه القـدر ربه عز وجل ، ولا بُدَّ أنَّ له فيه حكمـة ، لذلك يجب الرضا بهذه المصيبـة على أنها قضاء الله وقدره ، والمصيبة تهـون مهما كانت عظيمة حينما يؤمن المصاب بها أنها من الله لا من أحد سواه .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من الواقع . قلنا : هَبْ أنك جالس فدخل عليك ابـنك الصغير ووجهـه يسيل منه الدم ، إن أول ما يتبـادر إلى ذهنك أن تسأله : مَنْ فـعل بك هذا ؟ إذن : لم تحكم على الحدث إنـما سألتَ عـن صاحبـه ؛ لأن الحدث فى ذاته لا يُـحزن ولا يُفرح إلا بمصاحبة الفاعل .

فإنْ قال لـك الولد : عمِّى فلان ضربنى تهـدأ . وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب ، أما إنْ قال لك : ضربنى فلان جارنا تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : الحدث إنْ كان من مُحبٍّ قبلناه ، وعلمنا أن وراءه مصلحة ورضينا به ، وإنْ كان من عدو فلا مصلحةَ فيه واعترضنا عليه .

فالحق سبـحانه يريد أنْ يُعلِّمـنا كيـفية استـقبـال المـصائب وأنَّ كلَّ مصـيبـة تأتى لها سـبب ، فـإنْ عرفـناه كان بـها ، وإنْ جهلنـاه قلنا لابدَّ أن لله فيه حكمـة ودخلنا من باب الرضـا والتسليم بـدل أنْ ندخل من باب السخط والاعتراض .

فالطالب الذى أصابه دوار ولم يُؤدِّ الامتحان يقـول فى نفسه : لعلّنى كنت مغروراً ، فأراد الله أنْ يقضى على غرورى ، أو لعلّنى كنت سأحصل على مجموع أقل مما أريد ، أو لعلَّ الله دفع عنى بذلك عيون الحاسدين .

ألم يقل الحق سبحانه فى حق نبيه ﷺ : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ [1] بِأَبْصَارِهِمْ .. (٥١)﴾ [القلم]

والحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف يعطينا مثالاً ونموذجاً يُعلِّمنا كيف نستقبل الأحداث ؟ وكيف نتقبل المصائب ؟ فما دام أنه لا دخْلَ لك فيها فلا بدَّ أن لله فيها حكمة ، تقرأون قصة العبد الصالح [2] مع سيدنا موسى عليهما السلام ، فالعبد الصالح لم يكُنْ نبياً ومع ذلك تعلَّم منه النبى وطلب مصاحبته ، فالعبد حينما يرتقى فى علاقته بربه يفتح الله عليه فتوحات من عنده ويعلمه علماً لا يعطيه إلا لخاصته .

العبد الصالح كان يعبد الله على منهج سيدنا موسى ، ومع ذلك تبعه موسى ليتعلم منه ، لأن مهمة الرسول أن يصل المرسل إليه بربه ، فإذا ما وصله بربه تركه وشأنه مع الله ، وعندها يكون كل عبد (وشطارته) فى علاقته بالله تعالى ، فهذا العبد الصالح تقرَّب إلى الله ودخل معه سبحانه فى وُدٍّ ، فكان له معه شأن خاص .

انظر سيدنا موسى يقول للعبد الصالح : ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

---

(١) أزلقه : جعله يزلق كان أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ١/٢٨٩] قال أبو إسحاق : مذهب أهل اللغة فى مثل هذا أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البغضاء أن يصرعوك . [لسان العرب - مادة : زلق] .

(٢) العبد الصالح هو الخضر عليه السلام ، تُنسج حوله القصص والروايات والأساطير وأنه حى موجود وليس هناك دليل قط على هذا ، والأظهر أنه نبى لقوله تعالى : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢)﴾ [الكهف] ولا يصح عنه إلا ما ذكره القرآن .

(٦٧) ﴾ [الكهف] ذلك لأنك سترى أموراً لا تعجبك وأفعالاً لا تدرك أنت حكمتها ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف]

ثم تبدأ الرحلة وينطلق موسى فى صحبة العبد الصالح ، وأول حدث بينهما كانت السفينة ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا[1] (٧١) ﴾ [الكهف]

هذا أول اعتراض من موسى ، لأن الفعل فى ظاهره غريب يستحق الاعتراض .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾ [الكهف] يعنى : منكراً .

نعم موسى لم يستطع أن يصبر وهو يرى هذا الفعل العجيب المنكر فى نظره ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف]

وكانت هذه هى الثالثة ، وتحقق الشرط الذى قطعه موسى على

---

(١) الإمْر (بكسر الهمزة) : الأمر المنكر والخطأ الجسيم والأمر العظيم . [القاموس القويم ٣١/١] . قال أبو إسحاق : أى جئت شيئاً عظيماً من المنكر . وقيل : الأمر الشنيع . وقيل : العجيب . [لسان العرب - مادة : أمر] .

نفسه ، فقرر العبد الصالح مفارقته ، لكن قبل أنْ يفترقا قال له : تعالَ أوضح لك ما لم يحتمله صبرك في هذه الأحداث :

﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] أي : يأخذ كل سفينة صالحة .

ولا شكَّ أن خرق السفينة مصيبة لأصحابها في ظاهر الأمر ، لكن لله تعالى فيها حكمة ، حيث كان وراء هؤلاء المساكين ملك ظالم يأخذ كل سفينة جيدة ويغتصبها ، فأردتُ أنْ أُحدثَ بها عيباً حتى لا يأخذها .

إذن : فنحن هنا لا نقارن بين سفينة مخروقة وسفينة صالحة ، إنما بين سفينة مخروقة وعدم وجود سفينة أصلاً ، فخرْق السفينة أهونُ بالنسبة لأصحابها من أخذها كلية ، ثم بإمكانهم أنْ يُصلحوها بعد ذلك ، المهم أنْ تسلم لهم من هذا الملك .

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف] ففي علم الله تعالى أنه سيكون ولداً عاقاً يُحدث فتنة لأبويه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] فكان في القضاء عليه حكمة .

فإنْ قلت : فما ذنبُ الغلام يُقتل وهو صغير ؟ قالوا : لا ذنب له لكنه لم يخْلُ من مصلحة وخير يلحقه هو أيضاً حيث أُخِذ وهو صغير ،

فقد اختصرنا له الحياة فلم يُعانِ فيها ، ولم يقترف شيئاً من سيئاتها ، ومات قبل سنِّ التكليف فلن يُحاسب على شيء ، ثم سيكون فى عداد الشهداء ، ومسكنه فى الجنة يتجول فيها حيث أراد ويدخل منها أىَّ مكان حتى على رسول الله ، فهو من (دعاميص)[1] الجنة ، إذن : فقتله جاء رحمة به .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]

أولاً عرفنا أن هذه القرية فيها ناس لئآم لا خير فيهم ، بدليل أنهم منعوهما الطعام ومَنْع الطعام فيه لُؤْم وخِسَّة ، لأن الذى يسأل الطعام غير الذى يسأل المال ، الذى يسألك مالاً ربما ليكنزه ، أمَّا سؤال الطعام فلا يكون إلا عن حاجة .

لذلك قالوا : أصدق سؤال مَنْ يسألكم طعاماً ، فلما منعوهما الطعام كان أمراً عجيباً أنْ يبنى لهم العبد الصالح الجدار ، فما قصته ؟ كان الجدار لغلامين يتيمين فى المدينة ، وتصوَّر حال اليتيمين بين هؤلاء اللئام ، كيف لو ظهر لهم هذا الكنز ؟

---

(١) الدعاميص جمع دعموص ، والدعموص : دويبة صغيرة فى مستنقع الماء . قيل : والدعموص الدخَّال فى الأمور أى أنهم سيَّاحون فى الجنة دخَّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . وقد جاء فى الحديث : « عن أبى حسان قال قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان فما أنت مُحدِّثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا . قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بثوبه فلا ينتهى حتى يدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٧٦٩) .

وقد فهمنا من هذه المسألة أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وأن الغلامين كانا توأماً ، بدليل قوله تعالى ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢)﴾ [الكهف] فلو كان أحدهما أكبر من الآخر ربما أخذه لنفسه ، وأن العبد الصالح بنى الجدار بناء موقوتاً ، بحيث يعيش فقط حتى سِنّ البلوغ لهذين الغلامين ، ثم ينهار فيجدا الكنز ويستطيعا حمايته من هؤلاء اللئام ، ثم فى بناء الجدار عقاب لهؤلاء البخلاء وقصاص منهم على بخلهم ، حيث منعهم من أخذ أموال هذا الكنز .

وأخيراً لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُبيِّن لسيدنا موسى أنَّ ما فعله لم يكُنْ من عنده ، إنما بأمر من الله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢)﴾ [الكهف] إنما عن أمر الله ، إذن : حين تنزل المصيبة وليس لك فيها دَخْل فابحث عن الحكمة منها ، ولا بدَّ أنك ستجدها وتهتدى إليها .

والخطاب فى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. (٣٠)﴾ [الشورى] خطاب للعموم يشمل المؤمنين والكفار ، الكافر لأنه دخل المعركة فهُزم فإنْ أخذ ماله أو قتل فبكفره ، أما المؤمن فقد يكون ارتكب مخالفات ومعاصىَ تستوجب أنْ يعاقب كما فى حدّ الزنا ، وحدّ شرب الخمر مثلاً ، أو أن يُعزَّر .

والحق سبحانه وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ أنْ يُنبِّه أمته ، وأنْ يُعلِّمها كيف تستقبل المصائب ، فقال ﷺ : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا [١] وصب حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه » [٢] .

---

(١) النَّصَب : التعب والإعياء والمرض والداء والبلاء والشر . أما الوصب فهو : الوجع والمرض . وشدة التعب مع دوام واستمرار [لسان العرب – مادتا : نصب ، وصب . بتصرف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢١٠) ، وأحمد فى مسنده (٧٦٨٤ ، ٨٠٧٠ ، ١٠٧١٤ ، ١١٠٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك يقول أحد العارفين : إنِّي لأعرف مقامي عند ربي من خُلُق دابتي ، يعني : حين تحرَن منه دابته أو تتعثَّر يسأل نفسه : ماذا فعلتُ حتى تحرنَ الدابة ؟ وسيدتنا أسماء[1] بنت سيدنا أبي بكر كان يلازمها شيء من الصداع ، فكانت تمسك برأسها وتقول : بذنبي ويعفو الله عن كثير .

ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان وحدَّد مهمته في الحياة ، ووضع له منهجاً يحميه ويُنظم حركته فيها ، فإنْ خالف هذا المنهج لا بدَّ أنْ يحدث له عطب ، مثل الآلة يصنعها الإنسان ، ويضع لها (كتالوجاً) يوضح كيفية استخدامها ، فإنْ خالفت هذه التعليمات تعطلتْ الآلة .

فالحق سبحانه يريد منَّا أنْ نعيَ هذه القضية ، ليطمئن المؤمن حين تصيبه مصيبة أو تنزل به نازلة ، فيصبر ولا يجزع ولا يتسخط ، بل يبحث عن الحكمة أو ينظر في نفسه : ماذا فعلتُ لتنزل بي هذه المصيبة ، فهي ولابدَّ تغسل عني شيئاً اقترفتُه وذنباً ارتكبته .

هذا حال المؤمن الناصح أنْ يعود لنفسه وأنْ يحاسبها ؛ لأنه يعلم مما علَّمه الله أن الدنيا دارُ عمل لا دار جزاء ، الجزاء في الآخرة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. ⑰ ﴾[غافر] إذن : ما يقع لي

---

(١) هي : أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ولدت عام ٢٧ قبل الهجرة : أمها قتيلة بنت عبد العزى ، أسلمت قديماً بمكة وكان إسلامها بعد سبعة عشر شخصاً وكان عمرها ١٥ سنة ، كان لها دور كبير في حادث الهجرة إلى المدينة وسميت ذات النطاقين . تزوجت الزبير بن العوام ، روت عن النبي ﷺ ٥٨ حديثاً . توفيت عام ٧٣ هجرية بعد قتل الحجاج لابنها عبد الله بن الزبير .

في الدنيـا من ابتلاءات ومـصائب ليس جـزاءً ، إنما لفْتُ نظر للعـمل الصالح ، ولأتعلم مـن مادية الأشيـاء أنَّ المخالفـة لا بدَّ أنْ يكون لها عقاب .

ثم نحن نشاهد المصائب تحلُّ بالـصديق وبالزنديق وتعمُّ الجميع حتى الأنبـياء ، لذلك ورد في حـديث سيدنا رسـول الله ﷺ : « أشدُّ الناس بلاءً : الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل »(١) .

فالابتـلاءات للأنبيـاء ليستْ لذنـوب ارتكبوها ، إنمـا امتـحان في التكليف وأُسْوة للغيـر ، أُسْوة تصلح حال القوم وتُعلِّمـهم الصبر عند المصيـبة ، فحين تنزل بنا المصـائب نتذكر مصائب الأنبـياء ، وكيف أنهم صبروا فنصبر مثلهم ، ونُصحِّح من سلوكنا مع الله .

وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝٣٠ ﴾ [الشورى] يعني : كثـير من ذنوبنا وخطايانا ، ولولا عفوه تعالى ورحمته بخَلْقه ما نجا أحد .

لذلك نقـول لمن تصيـبه مصـيبـة (كفارة إنْ شـاء الله) يعني : جعلها الله كـفارةً لذنوبك ، وقد ورد في الحديث الـقدسي : « وعِزَّتي وجلالي لا أُخرِج عبـدي من الدنيا وقد أردتُ به الخير حـتى أُوفيه ما عمله من السيـئات ، من مرض في جسمه ، أو خـسارة في ماله ، أو فَقْد ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثَقَّلْتُ عليه سكرات الموت حتى يأتي كما ولدتْه أمه . وعزتي وجلالـي لا أُخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ

---

(١) اخرجه أحمد في مـسنده (١/١٧٢) والترمذي في سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سـعد بن أبي وقاص . قـال الترمذي : حديث حـسن صحيح . وتمـام الحديث : « ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ليس عليه خطيئة » .

به الشر حتى أُوفّيه ما عمله من الحسنات : من صحة في جسمه ، وكثرة في ماله ، وسلامة في ولده حتى يأتي يوم القيامة ، وليس له عندي حسنة ، لأنني قلت : لا أضيع أجر من أحسن عملاً »[1] . نعم يغدق الله عليه الخير في دار الفناء لأنه لا حظّ له في دار البقاء .

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يخاطب القوم الذين عاندوا رسول الله ﷺ ، وصادموا دعوته وجادلوه ، يقول لهم : لن تُفلتوا من عدالة السماء ، ومَنْ أفلت من عقاب الدنيا منكم لن يفلت من عقاب الآخرة ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

وهنا يقول لهم ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ .. (٣١) ﴾ [الشورى] المُعْجز هو الذي ينسبني للعجز ، ويُعجزني يعني : يأتي بأمر لا أقدر أنا عليه ، فالحق يقول لهم : لن تعجزونا ولن تهربوا منا أبداً ، فأينما كُنتم سنأتي بكم .

لذلك اتضح لنا ذكاء الجن ، حينما قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) ﴾ [الجن] فالجن وهم أقدر على

(١) أورده الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب : عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : إن الرب سبحانه وتعالى يقول : وعزتي وجلالي لا أخرج أحداً من الدنيا أريد أغفر له حتى أستوفي كل خطيئة في عنقه بسقم في بدنه وإقتار في رزقه » ذكره رزين ولم أره قاله المنذري ولم يذكر الألباني درجة ضعفه .

الهرب من الإنس ، ومع ذلك يعترفون أنه لن يستطيع أحد منهم أنْ يهرب أو يفر من الله عز وجل .

لذلك مدح سيدنا رسول الله المؤمنين من الجن لما قرأ سورة الرحمن على بعض صحابته ، ثم قال لهم : « لقد قرأتُ هذه السورة على الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا كلما سمعوا ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشيء من نعمائك ربنا نُكذِّب فلك الحمد »[1] .

ثم إن الحق سبحانه يُملي للظالم ويُمهله ، حتى إذا أخذه لم يُفْلته ، فكوْن الحق سبحانه يُملي لهؤلاء لا يعني أنه عاجز عن أَخْذهم ، لأنه سبحانه قوي قادر وله طلاقة القدرة ، بحيث يأتي بهم متى شاء ، أما الضعيف فإنه يستغل أول فرصة للانتقام ولا يُفوِّتها ، لأنه يعرف أنها لن تعود ، كما قال الشاعر[2] :

وَضَعيفَة فإذا أصَابَتْ فُرصَةً ... قَتلَتْ كذلك قدرة الضُّعَفاء[3]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ [الشورى] الولي : القريب أو الصديق المقرَّب منك دائماً ،

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذي وابن المنذر وأبي الشيخ الأصفهاني في العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقي في دلائل النبوة عن جابر بن عبدالله.

(٢) الشاعر هو أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسوريا عام (١٨٨هـ/٨٠٣ م) في شعره قوة وجزالة ، له تصانيف منها : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة . نزل مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بالموصل عام (٢٣١م/٨٤٥م) عن ٤٤ عاماً .

(٣) البيت من قصيدة لأبي تمام من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٣٠ بيتاً .

والمفروض فيه أن يدفع عنك المصيبة قبل أن تقع ، والنصير : المعين الذى ينصرك ويُعينك إذا وقعتْ بك المصيبة . فالحق سبحانه يُعلمنا أنْ يستقيم فينا أمر التكليف ، وأنْ تكون صلتنا بالله مباشرة ، وألاَّ نعتقد أننا نَفوت منه سبحانه ، وألاَّ نعتقد فى أحد من خَلْقه أن يكون ولياً لنا أو نصيراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾

الجوار فى البحر صفة لشىء معروف هى السفن ، فهى التى تجرى على صفحة الماء ، والآن نرى سفناً عملاقة وبواخرَ ذات أوزان عالية يحملها الماء بإذن الله ، كما نجد سيارات النقل والحاويات ذات الأوزان العالية تُحمل على الهواء فى العجلات ، وهذه من آيات الله أنْ يحمل الخفيف الثقيل .

ومعنى ﴿ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى] الأعلام : مفردها علَم ، وهو الجبل ، سُمِّى علماً لعُلُوِّه وظهوره ، لذلك قالت الخنساء[1] فى رثاء أخيها صخر :

كَأنهُ علَمٌ فِى رأْسِه نَارُ[2]

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الحارث ، من بنى سُليم ، أشهر شواعر العرب من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى العهد الجاهلى ، وأدركت الإسلام فأسلمت ، لها ديوان شعر وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية واستشهدوا جميعاً . توفيت عام (٢٤هـ/٦٤٤م) .

(٢) البيت من قصيدة للخنساء من بحر البسيط عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وتمامه فى الموسوعة الشعرية :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علَم فى رأسه نار

فقوْل الخنساء عن أخيها : كَأنه علَم فى رأْسه نَارٌ . كناية عن أنه مشهور معروف للجميع ، ولما سمع سيدنا رسول الله ﷺ هذا البيت قال : « قاتلها اللهُ ، ما اقتنعت تجعله كالجبل فجعلتْ فوقه ناراً »[1] .

وفى هذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز وآية للنبى ﷺ ، فلو سألنا رجال الاقتصاد والصناعة : متى وُجدت السفن العملاقة المكوَّنة من عدة أدوار والتى تشبه جبلاً يتحرك على صفحة الماء ؟ قالوا : فى القرن الثامن عشر ، إذن : محمد لم يَرَ مثل هذه السفن ، فمَنْ أخبره بهذا التطور ؟ ومَنْ قال له أنها ستكون كالأعلام ؟ إنه الله الذى يعطينا الآيات الدالة على صدق نبيه ﷺ .

ثم إن الجَوارِى[2] التى تجرى فى البحر تحتاج إلى طاقة تُجريها ، فمن أين هذه الطاقة ؟ لما بدأتْ السفن كانت تجرى بقوة الهواء أو بقوة دَفْع الماء لها ، فإنْ كانت تسير فى نفس اتجاه التيار أجراها التيار معه ، وإنْ كانت تسير ضد اتجاه التيار استخدموا الهواء فى دَفْعها باستخدام القِلْع ، فإنْ سكن الريح يظللن رواكد على ظهره .

إذن : هى تجرى بأمر الله وتسكن بأمر الله ، وإن كانت تسير فى نهر وتسبح ضد تيار الماء جاءوا بالعمال وبالحبال ليشدُّوا السفينة وهم على الشاطئ ويسيرون بها :

---

(١) أورد هذا الخبر الألوسى فى تفسير هذه الآية (١٨/ ٢٨٠) : « قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً » . وكذا الرازى فى مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٤٠) .

(٢) الجوارى : جمع جارية ، وهى السفن الجارية فى البحر ، سُميت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : المرأة الشابة ، سُميت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب [تفسير القرطبى ٩/ ٦٠٧٦] .

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴾

معنى ﴿ فَيَظْلَلْنَ .. (٣٣) ﴾ [الشورى] أى السفن ﴿ رَوَاكِدَ .. (٣٣) ﴾ [الشورى] ثوابت ساكنة لا تتحرك ، قد يُحرِّكها الموج فى مكانها لكنها ثابتة لا تسير ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. (٣٣) ﴾ [الشورى] صبار فعَّال وهذه صيغة مبالغة من صابر لأن جريان السفن يحتاج إلى مجهود وإلى مشقة ، فلا بدَّ له من الصبر الطويل .

وكذلك ﴿ شَكُورٍ (٣٣) ﴾ [الشورى] على وزن فعُول ، وهى أيضاً صيغة مبالغة من شاكر ، فجريان السفن من آيات الله التى تستوجب شكره عليها .

ثم إن هذه الآية جاءتْ بعد قوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. (٣٠) ﴾ [الشورى] فالمصائب أيضاً تحتاج إلى الصبَّار الشكور ؛ لأن المصيبة حين تنزل بالمرء لا تصيب كلَّ الأعضاء ولا تأتى عليه كله ، فالله يصيبك فى شىء ويُعافيك فى أشياء ، فالمصاب يحتاج إلى صبر والمعافى يحتاج إلى شكر .

لذلك رُوِى أن سيدنا عبد الله بن جعفر[1] لما ذهب إلى الشام

---

(١) هو : عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، صحابى ، ولد بأرض الحبشة عام ١ هجرية لما هاجر أبواه إلى الحبشة ، وهو أول من وُلد بها من المسلمين وأتى البصرة والكوفة والشام ، كان أحد الأمراء فى جيش على يوم « صفين » ومات بالمدينة عام (٨٠هـ/ ٧٠٠م) [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] .

جُرحَتْ رِجْله وهو فى الطريق ، ولم يجد مَنْ يعالجه لطول المسافة ، فقاحتْ وحدث بها تلوث وأصابتها الغرغرينة ، فلما بلغ دمشق ونزل فى ضيافة الخليفة أتوا له بالأطباء . فقرروا بترها والتمسوا له (مُرقِّد) وهو مثل البنج الآن كى لا يُحس بالألم ، لكنه رفض ذلك وقال : والله ما أحبُّ أنْ أغفل عن ربى طرفة عين ، وفعلاً قطعوا رِجْله دون تخدير ، لأن الذى يتمتع بهذه المعية ويشعر بهذا الشعور حَقيقٌ ألاَّ يشعر بألم وهو فى معية الله .

هذه المعية التى احتمى بها سيدنا رسول الله وصاحبه فى الغار حين قال له : لا تحزن إن الله معنا ، أبو بكر يقول : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول له ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[1] ذلك لأنهما فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، وكذلك من كان فى معية الله منحه الله شيئاً من هذه الصفة .

فلما قال سيدنا عبد الله بن جعفر : ما أحبُّ أن أغفل عن ربى طرفة عين قطعوا رِجْله وهو فى هذه الحالة فلم يشعر بألمها ، فلما أرادوا أنْ يدفنوها أمسك بها وقال : اللهم إنْ كنتَ ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ أعضاء . إذن : هذا مثال للعبد الصبار الشكور ، صبار على المصيبة شكور على النعمة .

وفى قوله سبحانه : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] لون آخر من الإعجاز القرآنى ، لأن السفينة قديماً كانت لا تسير إلا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

بالهواء ، فكيف وهى الآن تسير بقوة الوقود أو بالكهرباء ولا تحتاج إلى الريح ، فهل يعنى استغناء السفن عن الريح أن الآية لم يَعُدْ لها مجال الآن ؟ قالوا : لا بل هى خالدة باقية لها معنى يُعتبر إلى قيام الساعة ، لأن من معانى كلمة الريح أى القوة أياً كانت .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] أى : قوتكم ، فإن استغنيتم عن الريح بقى معنى القوة ، سواء أكانت بالبخار او غيره

وقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)﴾ [الشورى] بعد ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى] إشارة لأصحاب السفن وركابها ، أنها إذا توقفت عن السير بسبب سكون الريح فلا تحزن ، واستقبل هذه المسألة بشىء من الصبر ، واشكر الله أنْ جاءت الشدة على هذه الصورة ، ولم تكُنْ أكثر من ذلك كأن يصيبها عطب أو إعصار أو غير ذلك من المصائب ، يعنى : اصبر على ما فاتك واشكر على ما بقى لك .

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ[1] عَن كَثِيرٍ (٣٤)﴾

معنى ﴿يُوبِقْهُنَّ .. (٣٤)﴾ [الشورى] يعنى إما أن يظللن رواكد على

---

(١) فعل يعفو هنا مجزوم أى محذوف منه حرف العلة . وهى القراءة الفاشية كما قال القشيرى . وبسبب هذا الجزم قد يفهم البعض أن معنى الآية هى تعليق العفو بالمشيئة وكأن يعف معطوفة على (إن يشأ) . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٧٧) : « وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم (ويعفو) بالرفع وهى جيدة فى المعنى » .

ظهره أو يُغرقهن ﴿ بِمَا كَسَبُوا .. (٣٤) ﴾ [الشورى] بما فعلوا من المعاصي كشرب الخمر ولعب القمار وغيره ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) ﴾ [الشورى] أي : يعفو عن كثير من ذنوبهم فلا يؤاخذهم بها .

وفي موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣) ﴾ [يونس]

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾ (1)

يعني : ما لهم من ملجأ ولا مهرب من عذاب الله ، فالذين يجادلون رسول الله في آيات الله ويكذبونه يعلمون قدرة الله عليهم ، وأنه سبحانه إنْ شاء أخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

و « حاص » في المكان . أي : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ، ونجد في تعبيرنا العامي ما يُصور ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أي : لا يجد مكاناً يرتاح فيه . ولا يعرف إلى أين يذهب ، فلا مهربَ ولا مَنْجى .

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾

---

(1) ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾ [الشورى] أي : لا مفر لهم ولا ملجأ . والمحيص : المهرب . [القاموس القويم ١/١٨١] .

قوله : ﴿ مِّن شَيْءٍ .. (٣٦) ﴾ [الشورى] يعنى : كل ما يقال له شيء من مُتَع الحياة ، كالمال والأولاد والزوجات والمناصب والصحة والجاه .... إلخ . كل هذا متاع الحياة الدنيا فحسب تتمتع به فى الدنيا ، والدنيا بالنسبة لك ليست هى الفترة من آدم إلى قيام الساعة ، بل هى مدة بقائك أنت فيها لا دَخْلَ لك بمدة حياة الآخرين ، فأنت لا تمر على الدنيا إنما الدنيا هى التى تمر عليك .

إذن : مهما كان متاعك فهو موقوت بعمرك فى الدنيا وينتهى ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾ [الشورى] لأنك فى الدنيا تتمتع على قدر جهدك فيها وعلى قدر إمكانياتك ، أما فى الآخرة فالمتعة على قدْر الحق سبحانه ، وإنْ كان متاع الدنيا يزول فمتاع الآخرة باقٍ دائم خالد .

إذن : عندما تقيس مستوى النعمة التى تعيشها فى الدنيا بمستوى النعمة فى الآخرة تعلم أن ما عند الله خيرٌ وأبقى ، وحين تعلم هذه الحقيقة ينبغى عليك أنْ تعمل لها ، لأن هذه الخيرية ، وهذا البقاء موقوفٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فهنا عقيدة وعمل بالأسباب .

وفَرْق بين مَنْ يتوكل على الله بأن يأخذ أولاً بالأسباب ثم يتوكل على الله ، ومن يتواكل أى يقول توكلت على الله ويترك السَّعْى والأخْذ بالأسباب . إذن : المؤمن يتوكل بقلبه ويعمل بجوارحه .

وقد نزلتْ هذه الآية ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٦) ﴾ [الشورى] فى جماعة من صناديد قريش وعلى رأسهم الوليد ابن المغيرة ، لما حسدوا رسول الله وحقدوا عليه لما اصطفاه الله للرسالة فقالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] يعنى : عنده كذا وكذا ، فردَّ الله عليهم أن هذا كله متاع دنيوى زائل ،

وما عند الله خير منه وأبقى .

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿ يَجْتَنِبُونَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] أى : يبتعدون عن الأسباب المؤدية إلى ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] الكبائر هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد اللهُ فاعلها وجعل لها عقوبة . والفواحش كل ما عظُم فُحْشه وقُبْحه ، وهذه كلها ذنوب تُوجب إقامة الحدِّ على فاعلها .

وسبق أنْ قلنا : إن مواكب الرسل المختلفة اتفقتْ فى تحريم هذه الكبائر ، وحثَّتْ الجوارح النفسية أنْ تتبرأ من عيوبها ، فالقلب يتبرأ من الشرك ومن الإصرار على المعصية ، وألاَّ يأمن مكر الله ، وألاَّ ييأس من رحمة الله .

واللسان يبرأ من شهادة الزور وقوْل الزور وقَذْف المحصنات واليمين الغمُوس الذى يُغمس صاحبه فى النار ، وهو الحلف كذباً على شىء حصل فى الماضى ، وهذا اليمين ليس له كفارة ، لكن إنْ حلف على شىء فى المستقبل ، وظهر له ما هو أفضل يسمح الله له أنْ يأتى الأفضل ويُكفِّر عن يمينه .

كذلك البطن تبرأ من شرب الخمر وأكْل مال اليتيم وأكْل الربا . والفَرْج يبرأ من كل اتصال لا يحلّ ، واليد تبرأ من السرقة والقتل ، والرِّجْل تبرأ من التولِّى يوم الزحف . وفوق هذا كله تبرأ كلُّ هذه الجوارح من عقوق الوالدين .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى]
الغضب فوران الغريزة الغضبية من شيء أغضبك أو أتعبك ، وهذا الشيء حدث من شخص ما فتتولد لديك رغبة الانتقام أو مشاعر الحقد والحسد نحوه .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا كيف نغفر ونعفو ونصفح ، وإذا كنتَ تحب أن يغفر لك فاغفر لمَنْ أساء إليك ، وإذا تأملنا أحوال الناس نلاحظ أن عاقبة الصفح والغفران حميدة ، وعاقبة البطش والانتقام وخيمة .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن نأخذ جانب العفو ، ونحذر سَوْرة الغضب ، وألاَّ ننساق معها ، وألاَّ نتجاوز الحدود حين تأخذنا هذه السَّوْرة حتى في مسألة القصاص : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

فبعد أنْ يُشرع لنا القصاص يُذكِّرنا بما هو أَوْلَى بنا وأرشد وهو العفو ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة] فشرع القصاص ليحفظ الحق لصاحبه ، ثم فتح باب العفو .

لذلك نجد الدين يمنع أى شخص أنْ يشفع فى حَدّ من حدود الله إلا القتل تجوز فيه الشفاعة ، لأن وليَّ المقتول حين يعفو عن القاتل يُفشى الودَّ فى المجتمع ، ويصير القاتل مُداناً له لأنه يعلم أن روحه رَهْن بهذا العفو .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت]

هذه حقيقة يقررها الخالق سبحانه وهو أعلم بعباده ، لذلك نجد البعض فى هذه المسألة يقول لك : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن

دون فائدة ، نقول له : عليك أنْ تراجع نفسك ومدى صدْقك فى تصرفاتك ، فأنت تظن أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، فأنت تجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ لصدقتْ الآية معك . وصدق القائل(١) :

يا مَنْ تُضَايِقُكَ الفعَـ ـالُ مِنَ التى وَمِنَ الذِى
ادْفَع فَدَيْتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذِى

ثم تأمل لماذا أكَّدتْ الآية الفاعل فى ﴿ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى] بذكر الضمير المنفصل (هم) ؟ فقال تعالى(٢) : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى] قال : هم ليؤكد أنهم أصحاب القرار ، فالغفران منهم هم ، ليس مجاملة لأحد ، ولا إجباراً من أحد ، لأنك قد ترسل لصاحب الحق مَنْ يشفع لك عنده ، فحين يغفر صاحب الحق يكون الجميل للشافع ، فلماذا إذن تحرم نفسك الثواب ، لماذا لا تجعلها لك خالصة ؟

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (٣٨) ﴾ [الشورى] أى :

---

(١) من شعر الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله .

(٢) نقل القرطبى فى تفسيره (٦٠٧٩/٩) أقوالاً أن هذه الآية نزلت فى كبار الصحابة ، قال : نزلت فى عمر حين شُتم بمكة . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئاً فنزلت الآية . وعن على قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة فتصدق به كله فى سبيل الخير فلامه المسلمون وخطَّأه الكافرون فنزلت الآيات : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ (٣٦) ﴾ [الشورى] إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى]

بالإيمان وهذه تمثل العقيدة ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ [الشورى] تمثل العمل والتطبيق .

هذه آية من آيات كثيرة قرنتْ بين الصلاة والزكاة ، لأن بهما يستقيم حال المجتمع المؤمن ، الزكاة تنازلٌ عن بعض مالك للمحتاجين فأنت إذن تضحى فيها بالمال ، كذلك فى الصلاة زكاةٌ أبلغ من زكاة المال ، لأنك فى الصلاة تُضحِّى بالوقت الذى هو مجال العمل وسبب كسب المال .

الجديد فى هذه الآية فى مسألة الجمع بين الصلاة والزكاة ذكْر مسألة الشورى بينهما ، والمتحدِّث بهذا هو الحق سبحانه ، فلا بدَّ لنا أنْ نقف هنا ونتلمَّس الحكمة : لماذا جعل الشورى بين هذين الأمرين اللذين اجتمعا دائماً فى آيات الذكر الحكيم ؟

نقول : معنى (أقاموا الصلاة) يعنى : أدَّوْهَا على أكمل وجه ، وهذا يكون فى جماعة المسجد ، فكأنه ينتهز فرصة الاجتماع هذه ويأمرهم بأنْ يكون أمرهم شورى بينهم ، والشورى لا تكون فى أمر وصَّانا الله به ، ولا فى أمر وصَّانا به رسوله ﷺ ، إنما تكون فى الأمور الخلافية التى لم يأت فيها نصٌّ ، فيكون الحكم فيها شورى بين أهل الاختصاص كما نرى فى مسألة الفتوى [1] .

لذلك ندعو إلى أن تكون الفتوى جماعية لا فردية ، فلما تتناقش

(١) من جميل مواقف الشورى مشاورة عمر رضى الله عنه للهرمزان حين وفد عليه مسلماً ، فشاوره فى أمر المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان ، فإنْ كُسر أحد الجناحين نهضت الرِّجْلان بجناح والرأس ، وإنْ كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإنْ شُدخ الرأس ذهب الرِّجْلان والجناحان . والرأس كسرى والجناحان واحد قيصر والآخر فارس ، فَمُرِ المسلمين فلينفروا إلى كسرى . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٨١] .

الجماعة لا بدَّ أنْ يصلوا إلى الصواب ، ولا مانع أن تدافع عن رأى الجماعة حتى لو كان لك رأى مخالف .

ثم تأمل ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ.. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولم يقل : تشاور . فعبّرَ بالمصدر ليؤكد أن أمرهم هو نفسه الشورى ، كما تقول : رجل عادل ورجل عَدْل ، فجعلته العدل ذاته ، وقد ورد أن الإمام علياً رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ترد علينا أمور لا نَرَى لله فيها حكماً ، ولا نرى لسنة نبيه فيها حكماً ، فماذا نصنع ؟ قال ﷺ : اجمعوا العباد ، واجعلوها شورى ولا تقتدوا برأى واحد[1] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾

معنى ﴿ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ (٣٩) ﴾ [الشورى] لحقهم ظلم واعتداء والبغى : مجاوزة الحد فى الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [الشورى] أى : ينتقمون من الظالم بنفس القدر دون زيادة ، وهذه الآية تُقرِّر حكماً لله عز وجل هو جواز الانتقام من الظالم[2] ، لكن لا تنتهى المسألة عند هذا الحكم ، إنما يُتبِعه الحق سبحانه بحكم آخر لتكتمل

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (حديث ١١٨٧٤) من حديث ابن عباس أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله أرأيتَ إن عرض لنا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم يخصص فيه سنة منك ؟ قال : « تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين ولا تقضونه برأى خاصة » . وعزاه السيوطى له فى الدر المنثور فى تفسير ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر] قال الهيثمى : فيه عبد الله بن كيسان . قال البخارى : منكر الحديث .

(٢) هناك حالتان للظالم أو الباغى قالهما القاضى أبو بكر بن العربى ونقلهما القرطبى فى تفسيره (٦٠٨٢/٩) : **الأولى** : أن يكون الباغى معلناً بالفجور وقحاً فى الجمهور مؤذياً للصغير والكبير فيكون الانتقام منه أفضل . **الثانية** : أن يكون ظلمه فلتة أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة . فالعفو ها هنا أفضل .

الصورة ، فيقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى رحيم بعباده لطيف بهم ، وحينما أجاز لهم الرد بالمثل فى القصاص وفى المظالم أراد سبحانه أنْ يُرضى مواجيد المظلوم وعواطفه ، وأنْ يريحه بالانتقام من ظالمه ، لكن ضيَّق هذا الباب فى حين أوسع باب العفو ورغّب فيه ، ضيَّق عليك باب الانتقام حينما قال : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه حينما قال ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] إنما ليريح قلبك ويُنهى العداوة والبغضاء بين الطرفين ، لكن أتضمن حين تنتقم أنْ ترد بالمثل ؟ إن المثلية هنا أمر شاقّ جداً لا يقدر أحد عليه ، ففى أبسط الأمور لو شخص ضرب الآخر ضربة ، أو لطمه لطمة على وجهه ، أيستطيع أنْ يردَّ بمثلها دون زيادة ؟ ولو زاد عليها لكان هو الآخر ظالماً . إذن : فى العفو سَعة ومخرج من هذا الحرج ومن هذا التضييق .

لذلك يُحكى أنه كان فى إيطاليا رجل مُراب[1] أقرض شخصاً لأجَل ، لكن اشترط عليه إذا لم يُؤدّ فى الموعد المحدد بينهما أنْ يقطع رطلاً من لحمه مقابل هذا الدَّيْن ، فلما جاء الموعد ولم يدفع المدين ما عليه

---

(١) هو رجل يهودى اسمه شايلوك ، والقصة كلها مسرحية لشكسبير الكاتب الإنجليزى (تاجر البندقية) - دار الشروق - ترجمة حسين أحمد أمين - ١٩٩٤م .

رفع الدائنُ أمره إلـى القاضـى ، فأقـره القاضـى على شـرطه وقال له من حقك أنْ تأخذ رطلاً من لحمـه لكن تذكَّر إنْ زاد أخذنا الزيادة من لحمك أنت ، وإنْ نقص أكملناه من لـحمك أنت ، فلم يملك المرابى إلا التراجع عن شرطه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] وكأن الانتقام لا بدَّ وأنْ يجـر صاحبه إلى منطقة الظلم .

وعن الإمـام على رضـى الله عنه قـال رسول الله ﷺ : « إذا كـان يومُ القيـامة نادى مُنادٍ يقـول : مَنْ كان أجره على الله فليـقُم للجنة ، فلم يرد أحـد ، فقـال : من كان أجـره على الله فليـقم للجنة - يعنى بغير حساب - فقالوا : ومَنْ الذى أجره على الله ؟ قال : العافى عَمَّنْ أساء إليه »[1] .

ورُوى أن سـيدنا رســول الله ﷺ كـان ذات يوم بين أصـحـابه فضـحك فسأله عمر رضـى الله عنه : ما أضحكك يا رسـول الله ؟ قال : رأيتُ ربى يفصل فى خصومة بين اثنين . فقال أحدهما : ربِّ إن هذا أساء إلىَّ فخُذْ من حسناته وأعطنـى بقدر إساءته ، فقال له : ليس له حسناتٌ ، لكن انظر ، فنظر فإذا بقصور وأشيـاء عجيبة ، فقال : لمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن عفـا عن أخيه . فقال : عفـوت عنه ، فقال :

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعـجم الأوسط (٢٠٧٢) عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ... ثم نادى مناد : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة . ثم نادى الثانية : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قال : ومن ذا الذى أجره على الله ؟ قال : العافين عن الناس ... » وأورده القرطبى فى تفسيره الآية ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ذكره الماوردى .

فخُذْ بيد أخيك وادخُلا الجنة[1] .

ولك أنْ تتأمل كيف يصلح الخالق الخلْق بهذه القيم ، وما علينا إلا أنْ نُخرجها من المجال النظرى إلى التطبيق والعمل .

والسيئة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠) ﴾ [الشورى] يعنى : عمل فيه إساءة لك بقول أو فعل ، وليست سيئة الذنوب والمعاصى فى حَقِّ الله تعالى .

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه .. (٤١) ﴾ [الشورى] يعنى : انتقم من ظالمه ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) ﴾ [الشورى] يعنى : لا مؤاخذة عليهم لأنهم ما تعدَّوْا حدود الانتصار للنفس والانتقام لها

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (حديث ٨٨٦٩) عن أنس بن مالك قال :« بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه . فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : رجلان من امتى جثيا بين يدى رب العزة . فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من أخى ، فقال الله تبارك وتعالى للطالب : فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال : يا رب فليحمل من أوزارى . قال : وفاضت عينا رسول الله بالبكاء . ثم قال : إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم . فقال الله تعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه . فقال : يا رب أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صدِّيق هذا أو لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومَنْ يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه . قال : بماذا ؟ قال ؟ بعفوك عن أخيك . قال : يا رب فإنى قد عفوت عنه . قال الله : فخذ بيد أخيك فادخله الجنة » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (أى البخارى ومسلم) .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى] أى : سبيل المؤاخذة ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى]

ثم يأخذ الحق سبحانه بأيدى العباد إلى طريق أسلم من الانتقام وأحمد فى العاقبة ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] هكذا دون توكيد باللام التى هنا ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

صحيح أن المعنى العام واحد وهو الدعوة إلى الصبر ، لكن فرْق بين الصبر على مصيبة ليس لك فيها غريم ، والصبر على مصيبة لك فيها غريم ، فوجود الغريم يحتاج إلى قوة فى الصبر وتحمُّل ، لأنك كلما رأيتَ غريمك هاجتْ عندك دواعى الانتقام ، فلقمان يوصى ولده بالصبر على مصيبة ليس فيها غريم ، فلم يحتج إلى توكيد .

أمَّا هنا فالكلام عن الصبر حينما يكون لك غريم تفكر فى الانتقام منه وردّ السيئة بمثلها ، فأنت فى حاجة إلى قوة تُعينك على الصبر وطاقة تأخذك من مجال الانتصار للنفس إلى مجال العفو والصفح ، لذلك أكَّد الكلام باللام مرتين فى الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : أننا أمام مرحلتين : الصبر على الإساءة ثم غفران الإساءة ، فكثير من الناس يصبر على مَنْ أساء إليه لكنه لا يغفر له إساءته ، لأن مرحلة الغفران تحتاج إلى قوة إيمان وقوة عزيمة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ

الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

يعنى : الأمور المهمة التى تحتاج منك إلى عزيمة وثبات وقوة تطفىء بها نار الحقد والثأر والانتقام ، وقوة أخرى تستمد منها طاقة للمغفرة ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن الواثق بأن ما عند الله خيرٌ وأبْقى ، وأنه سينال بالعفو ما لم يَنَلْهُ بالانتقام .

إذن : الحق سبحانه أباح لك أنْ تنتقم لنفسك ، ثم دعاك إلى العفو ورغَّبك فيه ، فمتى يكون الانتقام ؟ ومتى يكون العفو ؟ قالوا : العفو أوْلَى من الانتقام والانتصار للنفس ، إلا إذا كان المسىء الظالم من الجاهلين الذين لا يزيدهم العفو إلا تمادياً فى الظلم ، ولا يزيده حِلْمك عليه إلا طمعاً فيك ، فهذا لا بدَّ له من المعاملة بالمثل ليرتدع ولا يتمادى فى ظلم الناس .

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة كثير من الشعراء العرب القدماء ، يقول المتنبى[1] :

مِنَ الحِلْم أنْ تستَعْمِلَ الجهْلَ دُونَه إذَا اتَّسَعَتْ فى الحِلْم طُرقُ المظَالِمِ[2]

وقال أيضاً :

إذَا أنْتَ أكْرمْتَ الكَريمَ ملَكْتَهُ وإنْ أنتَ أكْرمْتَ اللئِيمَ تَمرَّدا

---

(١) المتنبى هو : أحمد بن الحسين أبو الطيب شاعر حكيم ولد (٣٠٣هـ / ٩١٥م) بالكوفة فى كندة وإليها نسبته ، ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً وتنبأ فى بادية السماوة ، وسُجن حتى تاب ورجع عن دعواه . قتل فيما بعد على يد فاتك بن أبى جهل الأسدى عام (٣٥٤هـ / ٩٦٥م) .

(٢) البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

وَوَضعُ النَّدى في مَوْضعِ السَّيْفِ بالعُلا مُضِرٌ كوضْعِ السَّيْفِ في موْضعِ النَّدى[1]

وقال آخر[2] :

ولاَ خَيْر فى حِلْم إذَا لم تكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحمْيِ صَفْوَهُ أنْ يُكدَّرا[3]

وفى تاريخ قبائل العرب ما يؤكد ذلك ، فبعض القبائل كانت شرسة وقوية لا تقبل الضيم مثل بنى مازن ، كانت حجة فى الانتصار لنفسها ، فصار الناس يرهبونها ، ولا يجرؤ أحد على التعدى عليها ، ومن القبائل التى كانت تجهل وتغتر بعفو مَنْ عفا عنها قبيلة بنى اللقيطة من بنى ذهل .

أما طيء فكانت قبيلة مسالمة تعفو وتصفح وتقابل السيئة بالإحسان ، لذلك طمع فيها بنو ذهل وتمادوا فى التعدى عليها حتى فاض بشاعرهم بعد أنْ استباحوا أرضه وأخذوا إبله ، فضاق بما عليه قبيلته من العفو عمَّنْ لا يستحق العفو ، فقال فى وصفهم :

كَأنَّ ربَّكَ لَمْ يخلُقْ لخَشْيته سِواهُمُ مِنْ جَميعِ النَّاسِ إنْسَانَا

---

(١) البيتان من قصيدة للمتنبى من بحر الطويل أيضاً ، عدد أبياتها ٤٢ بيتاً ، وهما البيتان (٢٩ ، ٣٠) من القصيدة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) الشاعر هو النابغة الجعدى ، قيس بن عبد الله أبو ليلى العامرى ، ولد ٥٤ قبل الهجرة وتوفى ٥٠ بعد الهجرة ، عاش ١٠٤ عاماً ، سُمى النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله ، كان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل الإسلام ، وفد على النبى ﷺ فأسلم .

(٣) البيت للنابغة الجعدى من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٨٥ بيتاً : هو البيت (٨٠) فيها . [الموسوعة الشعرية] .

وَيَجْزُونَ من ظُلْمِ أهْلِ الظلْمِ مَغْفرةً وَمِنْ إساءةِ أهْلِ السُّوءِ إحْسَانَا[1]

ثم قال[2] قصيدته المشهورة فى الأدب العربى :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ[3] وَقُلْنَا القَـوْمُ إخْـوَانُ

عَسَى الأيَّامُ أنْ يرجعْنَ قَـوْماً كَـالذى كَـانُوا

فلمَّـا صَـرَّحَ الشـرُّ وَأمْسَى وَهْـو عُرْيَـانُ

مَشَيْنَا مشْـيةَ الليْـثِ غَـدَا وَالليْـثُ غَضْبَانُ

بِضَرْبٍ فيـهِ تَوْهِيـنٌ وَإضْعَـافٌ وإقْـرَانُ

وَطَعْـنٍ كَفَـمِ الـزِّقِّ[4] غَـدَا وَالـزِّقُّ مَـلآنُ

---

(١) هذان البيتان :

- ذكرهما ابن داود الأصفهانى فى (الزهرة) وعزاهما لرجل من بني العنبر ، من قصيدة أولها : لو كنت من مازن لم تسبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ولكنه خلف ترتيب البيتين . ونحوه عند العبيدى فى (التذكرة السعدية) وذكر اسمه (قريط ابن أنيف) .

- وذكر الجاحظ فى (الحيوان) البيت الأول فقط وقال : قال آخر حين اعتل عليه قومه فى القتال بالورع .

- وذكرهما ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد كما هو فى النقطة الأولى وقال : قال رجل من العرب يذم قومه وأغارت بنو شيبان على إبله فاستنجدهم فلم ينجدوه وكان فيهم ضعف ، فقال ما قاله . وكذا عبد القادر البغدادى فى (خزانة الأدب) .

- وذكرهما ابن قتيبة الدينورى فى عيون الأخبار تحت فصل : شعر لرجل من بني العنبر يمدح بنى مازن ويهجو قومه يُعيرهم بجنبهم .

(٢) القائل هو : الفند الزمانى واسمه سهل بن شيبان بن ربيعة ، من بكر بن وائل ، شاعر جاهلى كان سيد بكر فى زمانه وفارسها وقائدها ، شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المائة ، سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بفند الجبل وهو القطعة منه . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) ذُهْل : قبيلة . وذهل : حى من بكر وهما ذهلان كلاهما من ربيعة . أحدهما ذهل بن شيبان ، والآخر ذهل بن ثعلبة . [لسان العرب - مادة : ذهل] .

(٤) الزق : السقاء . والزق من الأهُب (الجلود) : كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وقال أبو حنيفة : الزق هو الذى يُنقل فيه . [لسان العرب - مادة : زقق] .

وَبَعْضُ الحِلْمِ عِنْدَ الجهْلِ للذِّلَة إذْعَانُ
وَفِى الشَّرِّ نجاةٌ حينَ لاَ يُنجيكَ إحْسَانُ[(١)]

وما أجمل قول الإمام على رضى الله عنه :

لَئِنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْم إنّنى إلَى الجَهْـل فى بَعْضِ الأحَايين أحْوَجُ
وَلى فَرَسٌ للحِلْم بِالحِلْم مُلْجَم ولـى فَرَسٌ لِلْجهْـل بالجهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رامَ تَقْويمى فإنِّى مُقَـوَّم وَمَنْ رامَ تَعْويجِى فَإنِّى مُعْوَجُ[(٢)]

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : يحكم الله عليه بالضلال ، لأن الهدى هدى الله ، وهو سبحانه قد بيَّن للناس طريق الخير وطريق الشر بالدلالة على الخير والنهى عن الشر .

وهذه الهداية التى نسميها هداية الدلالة والإرشاد جعلها الحق سبحانه للمؤمن وللكافر ، فالله دلَّ الجميع ، المؤمن أخذ هذه الهداية

---

(١) الأبيات من قصيدة للفند الزمانى ، من بحر مجزوء الوافر ، عدد أبياتها ٢٦ بيتاً ، مع اختلاف كبير فى ألفاظ الأبيات عما أورده الشيخ الشعراوى رحمه الله ، ففى بعضها (صفحنا عن بنى ذهل) وفى بعضها (كففنا عن بنى هند) .

(٢) هذه الأبيات وردت فى الموسوعة الشعرية منسوبة لاثنين من الشعراء :
- محمد بن حازم الباهلى بصرى سكن بغداد ومات فيها عام ٢١٥ هـ
- محمد بن وهيب الحميرى ، بصرى عاش ببغداد توفى عام ٢٢٥ هـ ولكنى أظنهما شخصاً واحداً .

فعمل بما فيها وسار على نهجها فى الأمر وفى النهى ، فزاده الله هدى .

أمـا الكافـر فتـجـاهل هذه الهـداية ولم يعمل بـها فـزاده اللهُ من الضلال الذى اختاره لنفسه ، فالذى يريد شيئاً ويعشقه يزيده الله منه سـواء المؤمن أو الـكافر ، لذلك قـال عن المـؤمن : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] أما الكافر فقد ختم على قلبه حتى لا يخرج منه كفره ولا يدخله نور الإيمان .

وقـوله : ﴿ فَـمَـا لَهُ مِن وَلِيٍّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشـورى] أى : يُواليـه وينصـره ﴿ مِّنْ بَعْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشـورى] أى : من بَعْـد الله تعـالى ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَـرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى] هل من طريق للرجوع إلى الدنيا مـرة أخرى لنتوب ونعمل العـمل الصالح ؟ اسـتفـهام العـاجـز الذى لا حيلة له ، ومـا حيلتـهم للرجوع وقد عاينوا العذاب الذى طالما كذَّبوه وكفروا به فى الدنيا .

والحق سـبحـانه يُكذِّبهم فـى هذا الزعم ، ففـى آية أخرى يقـول سبـحانه : والخطاب لسيـدنا رسول الله :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وفى مـوضـع آخر قـال سبـحانه فى الرد عليـهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَتَرَاهُمْ (٤٥) ﴾ أى الكفار ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا (٤٥) ﴾ على النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ (٤٥) ﴾ أى : خاضعين أذلاء من شدة الخوف ، لذلك ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥) ﴾ [الشورى] يعنى : يختلسون النظرة ولا يستطيعون المواجهة بأعينهم ، فما هم فيه من خزى يكسر أعينهم .

لذلك تقول لخصمك الذى يفترى عليك كذباً (هات عينى فى عينك) لماذا ؟ لأن المواجهة بالأعين تُظهر الحق ، فصاحب الحق عينه قوية جريئة ، تستمد قوتها من قوة الحق الذى يُدافع عنه ، أما عين المبطل فمُنكسرة ذليلة تتوارى من شعاع الحق الذى يكشف زيفها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) ﴾ [الشورى] هذه المقولة يُردِّدها المؤمن الذى نجا من العذاب وفاز بالجنة ، يقول : إن الخسارة الحقيقية هى ما فيه هؤلاء ، لأنهم خسروا كل شىء ﴿ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) ﴾ [الشورى] يعنى : دائم لا ينقطع .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾

الكلام هنا عن يوم القيامة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ (٤٦) ﴾ [الشورى] أى : يدفعون عنهم العذاب الذى حَلّ بهم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾ [الشورى] يعنى : ما له من طريق للهداية لأن الله تعالى هو الذى يهدى ، يضع نموذجاً للهداية .

وسبق أنْ بيّنا أن الهداية على ضربين : هداية الدلالة والإرشاد ، وهداية التوفيق والمعونة ، لذلك رأينا بعض المستشرقين يقفون أمام بعض الآيات يتهمون القرآن بالتعارض بين آياته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (٥٦) ﴾ [القصص] وفى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

فأثبت الهداية مرة ونفاها مرة أخرى ، والخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ ، واعتراض هؤلاء على أسلوب القرآن ناتج عن عدم فهمهم لكلام الله ، فالنفى والإثبات هنا لأن الجهة مُنفكة ، فمتعلق إثبات الهداية له معنى ، ومتعلق نَفْيها له معنى آخر .

وسبق أنْ أوضحنا أن الهداية نوعان : هداية إرشاد وهداية معونة وتوفيق ، فرسول الله يملك هداية الإرشاد والدلالة ، ولا يملك هداية التوفيق والمعونة ، هذه بيد الله وحده يهدى إليه مَنْ يشاء .

فقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (٥٦) ﴾ [القصص] نفى عنه هداية التوفيق والمعونة لأنها لله تعالى ، وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] أثبت له هداية الإرشاد والدلالة . إذن : الجهة منفكة وليس هناك تعارض بين الموضعين .

واقرأ مثلاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال] فى الفعل وأثبته فى موضع واحد ، لأن الجهة أيضاً منفكة ، ولكل فعل منهما معنى .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم] يعنى : لا يعلمون حقائق الأشياء إنما يعلمون ظاهرها .

وفى واقعنا اليومى نستخدم هذا الأسلوب فى نفى الفعل وإثباته فى موضع واحد ، فلما ترى ولدك يفتح الكتاب وينظر فى سطوره وهو منشغل عنه ، أو تسأله بعد المذاكرة فلا يجيب فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ، يعنى : ذاكرتَ شكلاً ولم تذاكر موضوعاً أو مضموناً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

هنا أمر بالاستجابة لأمر من ؟ لأمر الرب ﴿ لِرَبِّكُم ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى] والرب هو الذى خلقك من عدم وأمدَّك من عُدْم ، وتولَّى تربيتك ورعايتك وتفضَّل عليك ، وهو سبحانه صاحب المنهج ومالك الجزاء وقادر عليه ، فإليه وحده المرجع والمآب . إذن : فهو حقيق بالاستجابة إذا أمر وأَوْلَى بالطاعة ، فالعاقل هو الذى يسارع بالاستجابة لله تعالى .

ونلاحظ هنا أن القرآن عبَّر بالاستجابة ، بدل الإجابة ، لأن الاستجابة فرع الطلب ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٢٦) ﴾ [الشورى] أي : يستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فالحق سبحانه حينما يناديك ويدعوك للصلاة مثلاً يجب أنْ تجيب النداء ، لأنه دعاك لمصلحتك أنت ، دعاك ليعطيك شحنة إيمانية لوجودك في معية الله ، فنداء الله أكبر يعني : تعال حَيَّ على الصلاة ، حَيَّ على الفلاح ، تعالَ قابلني .

فالرب سبحانه هو الذي يدعوك للمقابلة ، ويرحب بك في بيته وفي معيته ليصلحهم ، فإذا لم يجيبوا كانوا آثمين مذنبين عاصين يستحقون العذاب ، والحق سبحانه لا يستفيد من ذلك بشيء .

ولو عقدنا مقارنة بين لقاء الحق سبحانه ولقاء رئيس أو مسئول لكان الفرق واضحاً ، فأنت الذي تطلب المقابلة ، ولو أُتيحت لك حدَّد لك الموعد وموضوع الحديث ومكان اللقاء ونهاية اللقاء ، فأنت لا تملك من عناصره شيئاً .

أما لقاؤك بربك عز وجل فهو الذي يدعوك لحضرته لا مرة بل خمس مرات في اليوم والليلة ، ويفتح لك الباب لأنْ تقول كل ما تريد ، وتُنهِي اللقاء متى تحب .

وفي اللقاء يمنحك شحنة إيمانية تُعينك على أمر دينك ودنياك وتصلح ما فسد في نفسك أو خواطرك ، وتغفر ما كان منك من صغائر الذنوب وتشرح صدرك ويطمئن بها قلبك .

وقد يسأل سائل : وكيف يحدث لي هذا كله ؟

نقول : الله سبحانه غيب ، فحين يصلحك يصلحك بغيبه ، وحين يعطيك يعطيك بغيبه من حيث لا تشعر ومن حيث لا تحتسب . لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة [١]

وكان ﷺ يقول عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » [٢] وعليك أن تقتدى به ، فإذا ضاقت بك الأسباب ، وإذا ألمَّ بك هَمّ أو غَمّ فاهرع إلى الصلاة .

وطبيعى أن تكون الاستجابة لأمره تعالى موقوتة بالحياة الدنيا فهى مجال العمل ، لذلك قال ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ (٤٧) ﴾ [الشورى] أى : يوم القيامة الذى لا يرده أحد ، ولا يُؤخره عن وقته .

﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ (٤٧) ﴾ [الشورى] أى : تلجئون إليه ويحميكم من العذاب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) ﴾ [الشورى] ينكر عذابكم أو يعارضه ويستنكره .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١١٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٢٢١٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠٢١ ، ٣٠٢٢) وأبو عوانة فى مستخرجه (٥٥٠٥) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٢١٦) من حديث حذيفة بن اليمان .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٣٣) وأحمد فى مسنده (٢٢٠٠٩) وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٢١٢٠) والطبرانى فى الكبير (٦٠٩١) عن رجل من أسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ..(٤٨) ﴾ [الشورى] أى : عن كل هذه المسائل وتركوك وانصرفوا عن المنهج الذى جئتهم به ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ (٨٣) ﴾ [الإسراء] فإن انصرفوا عنك يا محمد ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى]

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ﷺ ، لأنه كان دائماً حريصاً على هداية القوم يحزنه إعراضهم وانصرافهم عن الهدى الذى جاء به ، وقد كان يشق على نفسه فى هذه المسألة حتى يكاد أن يهلكها ، لذلك خاطبه ربه فى أكثر من موضع يُسلِّيه ويُخفِّف عنه وينهاه أنْ يُحمِّل نفسه فوق طاقتها .

قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء] وقال فى الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وهنا يقول له : ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .. (٤٨) ﴾ [الشورى] يعنى : مراقباً لهم مَنْ آمن وَمَنْ كفر ، فمهمتك يا محمد هى مجرد البلاغ ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..(٤٨) ﴾ [الشورى] وليس لك أنْ تجبر أحداً على الإيمان .

ثم يُقرر الحق سبحانه حقيقة طبع عليها الإنسان ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا .. (٤٨) ﴾ [الشورى] هذا أمر منطقى أنْ يفرح الإنسانُ بالرحمة وبالخير يُساق إليه ، والفرح هنا بمعنى البطر ، والإنسان هنا اسمُ جنس يفيد العموم .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾

[الشورى] لاحظ أن الرحمة لم تُنسب إلى الإنسان لأنها ليستْ من عمل يده ، إنما نُسبت إليه السيئة لأنها نتيجة سَعْيه وجنى يديه .

إذن : لا تُنسب السيئة إلى الله لأنها بعملك أنت ، فإنْ نسبتَها لله فقد كفرتَ به ﴿ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ [الشورى] كفور لنعمة الله عليه ، ومن كفران النعمة أنْ تنسب الأسباب لغير المسبب .

وكفران النعمة وجحودها طَبْع في الإنسان إلا مَنْ رحم الله ، فمثلاً يأتيك رجل يطرق بابك لتتوسط له في مصلحة فتقف إلى جواره وتساعده حتى يقضي مصلحته ، الحقيقة أن الله هو الذي يقضي ويُيسِّر ، وما أنت إلا سبب ، وقد صادف تدخلك فيها وقت قضائها . يعني : كانت ستُقضى بدون واسطة .

إذن : شفاعتك لم تأتِ بالمصلحة للغير إنما صادفتْ القبول ، العجيب بعد ذلك أنْ تجد الإنسان مُتغطرساً لا يعترف بالجميل لصاحبه وينسبها لنفسه : أنا عملتُ كذا وكنتُ على استعداد لكذا وكذا ، لماذا ؟ لأن الجميلَ إحسانٌ ، والإحسانُ يجعلك ذليلاً لمن أحسن إليك .

أحسِنْ إلَى النّاسِ تستعبِد قُلُوبَهُم   فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ[(١)]

فمَنْ ينكر الجميل يريد أنْ يتحرر من هذه الذِّلة ، وما أشبه مُنكر الجميل بقارون الذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي.. (٧٨) ﴾

(١) قائل البيت هو أبو الفتح البستي علي بن محمد ولد في بُست قرب سجستان له ديوان شعر صغير فيه بعض شعره ، توفي عام ٤٠٠ هجرية . والبيت من قصيدة شهيرة له مطلعها : زيادة المرء في دنياه نقصان وهي من بحر البسيط عدد أبياتها ٦٤ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

[القصص] وقديماً قالوا : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنك تُذكِّره بحال ضعفه وحاجته للمساعدة .

إذن : ﴿ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ [الشورى] أى : للنعمة يحب أنْ ينسبها لنفسه ، وفى ذات الوقت يُبعد عنها الشر والسيئة ، وكلاهما كُفرانٌ لنعمة الله .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن نعمته يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] أولاً : استخدام (إنْ) التى تفيد الشك ، لأن نعَم الله من الكثرة بحيث لا تُعَدّ ، ولا يُقدم أحد على عَدِّها لأنك لا تقبل على العَد إلا لشيء مظنة الإحصاء ، فلا أحدَ يقول مثلاً : أعد حبَّات الرمال .

كذلك نِعَم الله فوق إمكان العَدِّ والإحصاء ، ثم جاء بلفظ ﴿ نِعْمَتَ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] بصيغة المفرد ولم يقل نِعَم ، فالنعمة الواحدة لا تُعدُّ ، فما بالك بالنِّعَم ؟

وهذه الآية ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] جاءت بهذا اللفظ فى موضعين من كتاب الله ، واحدة خُتمتْ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] والأخرى بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

فاختلاف تذييل الآيتين له معنى ، لأن أمر النعمة له عناصر ، مُنعم وهو الله عز وجل ، ومُنعَم عليه وهو العبد ، ثم النعمة وهى التى لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

فصفة المنعِم سبحانه أنه كريم يعطى عبده ويتفضَّل عليه حتى

وإنْ جحد النعمة أو كفر بها ، لذلك قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل] والمنعَم عليه من صفته أنْ يجحد النعمة ، وأنْ يكفرَ بها ظلماً وعدواناً ، لذلك قال في الأخرى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

الحق سبحانه يتكلم هنا عن ملكيته تعالى للسماوات وللأرض كظرف للأشياء ، وفي أول السورة تكلم عن ملكيته تعالى لما في السماوات وما في الأرض ، فقال : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) ﴾ [الشورى]

إذن : لله تعالى مُلْك السموات والأرض وما فيهما من شيء ، وهذا الأسلوب ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] و﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٩) ﴾ [الشورى] يُسمى أسلوب قَصْر ، حيث قدّم الجار والمجرور على المبتدأ لإفادة القصر ، فالمعنى : لله وحده ما في السموات وما في الأرض مقصور عليه ، ولله وحده مُلْك السماوات والأرض ، فالملكية هنا ليس لها شريكٌ ولا منازعٌ .

ومادة (م ل ك) تُنطق فيها الميم على وجوه ثلاثة : الفتح والضم والكسر ، كلمة ملك بالكسر هو كل ما في حوزتك وتتصرَّف فيه ، وبالضم وهو التصرّف في ملك مَنْ يملك ، وهو المعروف في

نظام المملكة ، وبالفتح مثل قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] يعنى : غصباً عنا وبغير إرادتنا .

أما اللام فى ملك فتأتى أيضاً بالكسر ملك ، وهو مَنْ يُملَّك فى غيره فى تصرفه وفى إرادته ، وبالفتح ملك وهو المخلوق الأعلى من الملائكة . وملاَك الأمر . يعنى : جوهره وحقيقته .

وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٩)﴾ [الشورى] يعنى : هو صاحبها وهو خالقها ومُبدعها ، لأنك قد تملك ما لا تعمل .

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ (٤٩)﴾ [الشورى] يعنى : خلقه وفق إرادته ومشيئته هو ، وله طلاقة القدرة فى مسألة الخلق لا يعجزه فيها شىء ولا يستعصى عليه أمر .

لذلك يعطينا الدليل على ذلك من واقع حياتنا المشاهد فى المجتمع وكلنا يعرفه ، اقرأ : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى] أولاً لاحظ أن هذه المسألة هبة من الله الخالق سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ (٤٩)﴾ [الشورى] يعنى : ليستْ حقاً لأحد ، وليست حقاً لكل مَنْ ملَك أسبابها ، فقد تتوافر الحياة الزوجية ولا يأتى لها ثمرة إنجاب ويُبتلَى الزوجان بالعقم وهو أيضاً هبة من الله .

والذى يرضى بهذه الهبة ويؤمن أنها من الله يُعوِّضه الله ويرى من أولاد الآخرين من البر ما لا يراه الآباء ، ويتمتع بهذا البر دون تعب ودون مشقة فى تربية هؤلاء الأولاد ، وفى واقع حياتنا قد يأتى الابن ويكون عاقاً لوالديه .

ثم تلاحظ أن الحق سبحانه قدّم الإناث على الذكور ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأن الإناث كان النوعَ المبغوض غير المرغوب فيه فى الجاهلية ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

ولم ينته الأمر عند حَدِّ الكراهية للبنات ، بل تعدَّاه إلى قتلهن ووأدهن كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير] ذلك لأن البنت ضعيفة لا تَقْوى على العمل ولا تشارك قومها فى حروبهم المستمرة ، وهى عِرْض ينبغى المحافظة عليه .

فلما جاء الإسلام غيَّر هذه الصورة تماماً ، ورفع من شأن الأنثى ، وجعل النساء شقائق الرجال ؛ لذلك قدَّم هنا الإناث على الذكور ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الشورى] ورقَّق قلوب هؤلاء الغلاظ نحو الأنثى ، وحبّبهم فيها وعلّمهم أنها وعاؤكم الذى خرجتم منه ، فهى صاحبة فضل على كل ذكَر .

علَّمهم أن الأنثى لا يستقيم أمرها فى مجتمعها إلا حين تُرْعى ويحافظ عليها ويهتم بها وليُّها ؛ لأن كراهية الأنثى تحملها على الاعوجاج وتُرغمها على التخلِّى عن دورها ، فالبنت حين يحبها أهلها ويكرمونها ويحنُّون عليها تتعود على الكرامة وعزة النفس ولا تقبل الإهانة من أحد ، لأنها شبَّت على أنها غالية عند أهلها عزيزة لديهم ، فلا يجرؤ أحد على التعدِّى عليها ولو بكلمة .

على خلاف البنت التى هانت على أهلها ، وشبَّت بينهم على

---

(١) كظيم : مكظوم . من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقَّ عليه . [القاموس القويم ٢/١٦٣] . ورجل مكظوم وكظيم : مكروب قد أخذ الغم بكظمه فهو يتجرع الغيظ ويحتمل سببه ويصبر عليه . [لسان العرب – مادة : كظم] .

مـشاعـر الكراهية والاحـتـقار ، فنراها تهـون على نفسـهـا ، ونراها رخيصة تفرط فى كرامتها وتستميلها ولو بكلمة .

ثم يُرقِّى الحق سبحانه عطاءه للعـبد ، فيقول ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا .. ۝٥٠﴾ [الشـورى] يعنى : يزاوج بيـن النوعـين ، فـيـهب لك الذكور ويهب لك الإناث .

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۝٥٠﴾ [الشورى] يعنى : يحرم هذه الهبة لحكمة أرادها الله .

وحتى لا يفخـر أحد على أحد ، ولا يتعالى أحـد على أحد يُعلِّمنا ربنا عـز وجل أن مَسألة الإنجـاب هذه أو عدم الإنجـاب لا تؤثر على منازل العـباد عند الله تعـالى ، فحين أهَب الـذكور أو الإناث أو أزاوج بينهـما لا يعنى هذا رضـاى عن عبدى ، وحـين أحرمـه لا يعنى هذا سخـطى على عبـدى ، إنما هى سنتى فى خَلْقى أنْ أهبَ الـذكور وأنْ أهبَ الإناث ، وأنْ أجعل مَنْ أشاء عقيماً .

لذلك تجـدون هذه السُّنة نافـذة حتى فى الرسل الذين هم أكـرم الخَلْق على الله ، فـسيـدنا لوط وسيـدنا شعـيب وهبهـما اللهُ الإناثَ ، وسيـدنا إبراهيم وهبه الله الذكـور ، وسيدنا مـحمد وهبـه الله الذكور والإناث ، فكان له عبد الله والقاسم وإبراهيم وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

إذن : لكم فى رسول الله أسْـوة حسنة . والذين يستقـبلون أقدار الله فى هذه المســألة بالرضا ، ويرتفع عندهم مقام الإيمـان والتسليم ، ويؤمنون أن هذه هبـة من الله حـتى العـقم يعـتـبـرونه هبـة ، هؤلاء يُعـوِّضـهـم الله ، فحين تـرضى مـثـلاً بالبنـات وتُربِّيهن أحسن تربية ، وتُحـسن إليهنَّ يـجعل الله لك من أزواجـهن مَنْ يُعـوِّضك عن الولد ، وربما كانوا أبرَّ بك من الأبناء بآبائهم .

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الشورى] والعليم يهب على قَدْر علمه بالأمور ، وبما يصلح عبده وما لا يُصلحه ، فهو وحده سبحانه الذى يعلم أن هذا يصلح هنا ، وهذا يصلح هنا ، ثم هو سبحانه ﴿ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الشورى] له القدرة المطلقة فى مسألة الخَلْق ، لا يعجزه شىء ولا تقيده الأسباب .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ ﴾

نعم . هذه وسائل ثلاث لا بدَّ من وجود واحدة منها ليتمَّ اتصال الحق سبحانه بالبشر ، ذلك لأن للبشر طبيعة تكوينية لا تَقوَى على مباشرة الأعلى سبحانه ، فلله صفات الجلال والكمال المطلق ، ولا يمكن أنْ يلتقى الأعلى بالأدنى دون وسائط ، منها الإلهام مثل الزبور الذى نزل على سيدنا داود ، فلم ينزل عليه بوحى من الله بواسطة رسول كما نزل القرآن ، إنما جاء إلهاماً قذفه الله فى روع سيدنا داود .

يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ

---

(١) سبب نزول الآية : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢١٤) أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلم الله موسى ونظر إليه ؟ فإنَّا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك . فقال : لم ينظر موسى إلى الله . وأنزلت الآية . وذكره أيضاً القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٩٧) وقال : « ذكره النقاش والواحدى والثعلبى » .

حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى] كما كلم سيدنا موسى ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى] يعنى : يرسله بالوحى ، والرسول هنا من الملائكة ، كما أرسل الله جبريل بالقرآن ، وإنْ نزل فى صورة بشر ليكون أقربَ إليهم وآنسَ لهم .

فقوله : ﴿ إِلاَّ وَحْيًا ..(٥١) ﴾ [الشورى] أى : إلهاماً يقذفه الله فى قلب مَنْ يشاء ، فإنْ قلتَ : فكيف نعرف الإلهام من وسوسة الشيطان ؟ قالوا : الإلهام من الله لا يناقضه مخالفة ، بل يدخل عليك مُسلَّمة لا جدالَ فيها ، وقلنا : إن وارد الرحمن لا يزاحمه وارد الشيطان أبداً .

ومثَّلنا لذلك بقوله تعالى فى قصة سيدنا موسى وأمه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

هذا وحى من الله بطريق الإلهام ، لذلك لم تناقشه أم موسى ولم تجادل فيه ، بل أقبلتْ على تنفيذه راضية مطمئنة ، وإلاَّ فأىُّ قياس عقلى يقول للأم ، إذا خِفْتِ على ولدك فألقيه فى اليمِّ .

ونذكر هنا وقفة للمستشرقين حاولوا فيها أنْ يجدوا على القرآن مأخذاً ، فقالوا بتكرارها ، لأن الحق سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

والمتأمل فى الموضعين يجد الآية الأولى كانت تمهيداً للحدث بدليل ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ..(٧) ﴾[القصص] فإذا للمستقبل ، أما قوله تعالى : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾[طه] فكان وقت التنفيذ .

وقوله ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١)﴾ [الشورى] قلنا : كما كلَّم الله سيدنا موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الشورى] الوحى هنا ليس إلهاماً كالأول ، إنما وحى مباشر بواسطة رسول من الملائكة ، كما حدث فى نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا رسول الله بواسطة أمين الوحى جبريل ، وكان يأتى رسول الله مباشرة ويعطيه ما شاء الله من القرآن .

إلا أن الله تعالى أراد أنْ يُثبِّت هذه المسألة عندهم ، فمرة يأتيهم جبريل فى صورة رجل حسن المنظر لا يُرى عليه أثر السفر ، كما ورد فى الحديث ، ويسأل رسول الله ويُصدِّقه ليتعلّم الناسُ منه أمور الدين ، فلما انصرف قال سيدنا رسول الله « إنه جبريل أتاكم يُعلِّمكم أمور دينكم »[(١)] .

وهذه المسألة نرد بها على الذين طلبوا أنْ يكونَ الرسولُ من الملائكة ، لأن الرسول لو جاء ملَكاً لجاءهم فى صورة رجل ليتمكنوا من التلقِّى منه ، ثم إن الرسول أسْوة وقدوة سلوك ، والقدوة لا تتم بالملائكة لأنه إنْ قال لى افعل كذا وكذا لى أن أقول له لا أقدر على ذلك ، فأنت ملَك وأنا بشر لى قدرة محدودة .

إذن : نقول إن القرآن لم يأت إلهاماً ولا نَفْثاً فى الرَّوع ، ولم يأتِ من وراء حجاب ، إنما جاء بالوحى المباشر بواسطة الملَك ، وقد رأى سيدنا رسول الله جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨ ، ٤٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (١٠ ، ١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وكذا أحمد فى مسنده (٩١٢٧) ، وورد عند أحمد من حديث ابن عمر (٣٥٢) .

أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] ومسألة الوحى والتَّلقى عن الحق سبحانه تقوم كلها على الاصطفاء ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ (٧٥)﴾ [الحج]

فليستْ كل الملائكة تتلقَّى عن الله ، بل مَن اصطفاه الله لذلك ، ثم يصطفى من الناس رسلاً تتلقَّى عن الملَك ، فالمصطفى من الملائكة ومعه المصطفى من البشر يُمكنهما التلقّى عن الله ، وتذكرون أننا مثَّلنا لذلك بـ (الترانس) أى المحول الذى يعطى الجهاز الكهرباء على قدْر حاجته وإمكانياته ، ولو ارتفع التيارُ لاحترق الجهاز ، كذلك البشر لا يمكن أنْ يتلقوا عن الله مباشرة .

لذلك خُتمَتْ الآيةُ بقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ [الشورى] يعنى : أعلى من أن يخاطب البشر مباشرة ، فالله أعلى من ذلك ﴿حَكِيمٌ (٥١)﴾[الشورى] فى اختياره فيمن يصطفيه للتلقّى عنه سبحانه .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ ..(٥٢)﴾ [الشورى] إشارة إلى ما سبق بيانه فى الآية السابقة من وسائل الوحى الثلاثة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (٥٢)﴾ [الشورى] يا محمد ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢)﴾ [الشورى]

الروح هنا : هو جبريل عليه السلام أمين الوحى فسمَّى الله جبريل روحاً كما سمى القرآن نفسه روحاً ، فشبَّهه بالروح التى يلقيها الحق سبحانه فى الإنسان فتدبّ فيه الحياة والحركة بعد أنْ كان قطعة لحم لا حِرَاكَ فيها ولا حياة .

تعرفون أن الإنسان خلقه اللهُ من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، وحين يتكوَّن الجنين فى بطن أمه يرسل الله له ملكاً ينفخ فيه من روحه تعالى بعد ١٢٠ يوماً من حمله ، فتسرى فيه الحياة ، وتعمل الجوارح ، وتتحرك الأعضاء .

فكما كانت الروحُ حياةً للأبدان كان القرآنُ حياةً للقلوب وللقيم ، من هنا سمَّى اللهُ جبريلَ روحاً ، وسمَّى القرآنَ روحاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فالحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء حياةَ البدن والمادة ، إذن : الحياة هنا حياة الروح ، والقلب ، حياة القيم والمبادىء ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليعطى عبده روحاً تُحرِّك مادته وتُسيِّر جوارحه ، ثم يترك قيامه بدون منهج وبدون قيم وبدون أخلاق .

ومن كرامة الإنسان على الله تعالى أن يمنحه هذه الروح التى يحيا بها قلبه وقيمه وأخلاقه ؛ لأن حياة البدن والمادة حياة موقوتة فانية تفنى بفناء البدن .

أما حياة القيم والمنهج فحياة باقية دائمة تصل حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهذه هى الحياة المقصودة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] أي : لا تعرف شيئاً عن القرآن أو لا تعرف الكتابة ، ولا تعرف الإيمان يعنى الشرائع التفصيلية ، وقلنا : إن الأمية شرف فى حق رسول الله ، وشرف فى حَقِّ أمته ، فالأمية مذمومة إلا فى رسول الله وفى أمة رسول الله .

ولو كان محمد متعلماً يقرأ ويكتب لقالوا إنه جاء بالقرآن من عند نفسه ، ولو كانت أمته أمةَ تعليم وحضارة لَقالُوا عن الإسلام قفزة حضارية يريدون أنْ يسودوا بها العالم .

فمن عظمة محمد أنْ يقول له ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ (٥٢) ﴾ [الشورى] ويُرْوى أن الخليفة المأمون[١] قال لرجل يريد الذم : أنت أمى ، فقال الرجل : إن رسول الله أمى ، فقال له المأمون : الأمية فى رسول الله شرف ، وفيك تلف[٢] .

لذلك أمر الحق سبحانه نبيه فى موضع آخر أنْ يقول : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا

---

(١) المأمون : هو عبد الله بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين في العراق ، أحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه . ولد ١٧٠ هجرية وتوفى ٢١٨هـ عن ٤٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/١٤٢] .

(٢) أورد ابن الأبار فى (إعتاب الكتاب) أنه قيل للمأمون : إن من أعظم آيات النبى أنه أدى عن الله رسالته ، وحفظ عنه وحيه وهو أمى لا يعرف من فنون الخط فناً ، ولا يقرأ من سائره حرفاً فبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يشرفون بالشبه الكريم فى نقص الخط كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإن أمير المؤمنين أخص الناس برسول الله والوارث موضعه والمتقلد لأمره ونهيه ، فعلقت به المشابهة الجليلة وتناهت إليه الفضيلة فقال المأمون : يا محمد لقد تركتنى لا آسى على الكتابة ولو كنت أمياً .

تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ [يونس]

نعم أين عقولكم ، فلقد لبث محمد بين أظهركم عمراً قبل الرسالة ، وأنتم أدْرَى الناس به ، وتعلمون أنه أُمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم تَرَوْهُ من قَبْلَ خطيباً ولا شاعراً ، لذلك كان من غبائهم وعنادهم أن اتهموا رسول الله أنه يختلف إلى رجل أعجمي يعلمه القرآن ، فكشف القرآن زيفهم وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]

إذن : ما نزل على محمد شيء جديد ليس من صنع بشر ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] كلمة ﴿جَعَلْنَاهُ ..﴿٥٢﴾﴾[الشورى] أي : القرآن ﴿نُورًا .. ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] ضياءً يزيح ظلام الجهل والكفر ، وهذا النور هو الذي يهدي مَنْ يشاء الله له الهداية فيسير في الأرض على هدى وعلى بصيرة بحيث لا يصطدم بشيء .

والتصادم يعني الخسارة والهلاك فإنِ اصطدمتَ بما هو أقوى منك حطَّمك ، وإن اصطدمتَ بما هو أضعف منك حطمته ، لذلك قلنا : إننا في واقع حياتنا لا بدّ أنْ نحتفظ بشيء من الضوء ، حتى حال النوم نترك (ونَّاسة) خافتة لنهتدي بها في ظلمة الليل حتى لا نتخبط إذا قُمْنا بالليل .

ومن نور المادة نرتقي إلى نور الروح والقلب ، وإلى المنهج الذي يُنير حياتنا المعنوية ، هذا النور الذي قال الله عنه : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور]

قلنا : والإنسان ينير مجال حركته في الحياة على قدره ، فواحد يُنوِّر حياته بشمعة ، وآخر بلمبة جاز ، وآخر بالكهرباء وهكذا ، لكن

إذا سطعتْ الشـمس غطى نـورها على كل الأنوار كـأنهـا تقـول لنا : أطفئـوا أنواركم فقـد جاءكم نور الله ، وحين نرتقى مـن النور المادى إلى النور القيـمى نقول : إذا جـاءكم نور المنهج من الله فأوقـفوا كل مناهجكم .

وإذا جـاءكم الحكـم من الله فـأوقـفـوا كلَّ أحكامـكم وكل آرائكم ومقـترحـاتكم ، ففى شـرع الله ما يغنيكم عن كلِّ هذا ، فكـما أنك لا تحتاج إلى ضوء مصباحك أثناء النهار ، كذلك لا تحتاج إلى أىِّ منهج آخر مع منهج الحق سبحانه فاستغنوا به عن غيره .

فإذا ما قـارنت نور الله بنور البشـر ظهر لك الفـرقُ واضحاً ، فى النـور المادى أو المـعنوى ، فأنت تأتى بالشـمعة مـثلاً وتضـع فيـها فتيلاً ، وتأتى بالكبريت لتشعلها ، ومع ذلك لو هبَّتْ عليها ريح تُطفئها ، واللمبـة الكهرباء تحتـاج إلى أدوات لصناعتهـا وإلى (ترانس) ينظم الكهربـاء وخلافه وبعـد شـهـر تحتاج غـياراً ، ولو زاد عليـها التـيار تحترق وهكذا .

أما الشمس فتضىء العـالم كله ، لا تحتاج منك إلى مزاولة شىء ولا إلى قطعة غيار ولا صيانة ، ثم إن ضوءك يعمر بقدر عمرك ، أما ضوء الشـمس فبـاقٍ دائم دوامَ الكون وبقاء الدنيـا من قبل آدم وإلى قيام الساعة .

كذلك الفرق واضح فى النور المعنوى ، فأنتم ترونْ مناهج البشر وقـوانينهم لا تخلو من أخطاء ومن سلبيـات ، فإنْ ناسـبتْ جـماعـة تعـارضتْ مع جمـاعـة أخرى ، لذلك نراهم يلجـأون إلى تغـييـر هذه القوانين من حين لآخر ، فهى مناهج قاصرة قصور البشر .

أمـا مناهج السـمـاء فـهى كـاملة خـالية مـن الأخطاء تراعى كل الظروف ، وتصلح لكل زمـان ولكل مكان ، لأنهـا جـاءتْ من الله العليم بحال خَلْقه ، الخبير بما يُصلحهم ، وبما يقيم حياتهم .

إذن : الحق سبحانه مَا كـان ليمنحنا النور المادى ويحرمنا النور المـعنوى لأنه أهمُّ وأقوى فى حـياتنا من النور المـادى ، ألاَ ترى أن الأعْمى يستـطيع أنْ يتحسَّس طريقه ، ويسـتطيع أنْ يأتى بمَنْ يقوده ويُوصِّله إلى غايته .

أما مَنْ فقد النـور المعنوى فتراه يتخبط فى مـتاهات الحياة دون هدى ، وينتـهى به الحال لا مـحالة إلى الضـياع ، ثم إن نور الـمادة مرتبط بهـا ويفنى بفنائها ، أمـا نور القيم فبَـاقٍ ممتـدٌ من الدنيا إلى الآخرة ، وهو أصل الخلافة فى الأرض .

لذلك الحق سـبحـانه يشرح لنا هذه المـسألة فى سـورة النور ، فيقول سـبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

فمعنى ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥) ﴾ [النور] يعنى : نور الهـداية والقيم على نور المادة لتسيـر فى دنياك على هدى وعلى بصيـرة ، وتسـلم من الانحـراف والضـلال فى الـدنيـا ، ثم يُوصِّـلك هـذا الـنـور إلـى سلامة الآخرة والفوز فيها ، وهذا مثل ﴿ وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الأَمْثَـالَ لِلنَّـاسِ (٣٥) ﴾ [النور] ليوضح لهم ما خَفِى عليهم ، فالنور المادى دليل على المعنوى ، والمؤمن يرتقى من النور المادى إلى النور المعنوى .

ثم يُبيِّن لنا الحق سبحـانه مصدر هذا النور فى الآية التى بعدها : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَـرَ فِـيهَا اسْـمُـهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِـيهَـا بِالْغُدُوِّ

وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] يعنى : يا مَنْ أردتَ هذا النور المعنوى فالتمسْه فى بيوت الله فهى مصدر إشعاعه ، التمسْه فى الصلاة وفى ذكر الله وفى تنفيذ المنهج الذى جاءك من الله .

فالقرآن إذن نور عام حين نُوظِّفه يعطينا نوراً آخر هو نور الطاعات والعبادات ، وأسْمَى مصدر لهذا النور هو المسجد .

لذلك العلماء لمَّا بحثوا فى متعلق الجار والمجرور فى ﴿ فِي بُيُوتٍ .. (٣٦) ﴾ [النور] قالوا هو مُتعلِّق بقوله ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥) ﴾ [النور] كأنك تقول : نور على نور فى بُيوت أذن الله أن تُرفع وهى المساجد . وهذه البيوت متصل فيها تسبيح الصباح بتسبيح المساء ، وعُمَّار هذه المساجد يُوصفون بأنهم ﴿ رِجَالٌ (٣٧) ﴾ [النور] نعم ومَنِ الرجال إذا لم يكن هؤلاء ؟

إذن : الحق سبحانه يعطينا النور المعنوى المتمثل فى منهجه تعالى بافعل ولا تفعل ، وبهذا المنهج تستقيم بالبشر أمور الحياة ، لكن سرعان ما يحدث منهم غفلة أو نسيان أو انفلات من هذا المنهج فيقعون فى المعصية ، وتطرأ عليهم أقضية جديدة ومشاكل بقدر انفلاتهم وما يُحدثون من الفجور ومخالفة المنهج .

لذلك رأينا الرسل جاء الواحد بعد الآخر بمناهج مُترقِّية ، كل منهج منها يناسب القوم ويُصلح العلل الموجودة فى هذا الوقت ، مع أن هذه الشرائع اتحدتْ جميعها فى أمور العقائد والأخلاق ، وفى ثوابت الدين مثل الصلاة والزكاة ، ثم بعد ذلك يأتى الرسول بأحكام خاصة تناسب حال قومه وتعالج أدواءهم .

والمتأمل فى موكب الرسالات يجد أنها تتطور بتطوُّر حركة

الحياة وما يستجد فى حياة الناس من أقضية ، نحن مثلاً فى الريف نجعل بين الحقول سكة ضيقة تسع مثلاً مرور شخص واحد ، أو حماراً محملاً ويُسمُّونها (مدقّ) غرضه أنْ نصل من خلاله إلى حقولنا لكن إنْ أردنا طريقاً بين قريتين نُوسعه بعض الشيء ليسع سيارة مثلاً ، فإن كان بين مدينتين كان أوسع .

وهكذا رأينا تطوراً كبيراً فى إنشاء الطرق تطوراً يناسب حركة الحياة التى تطورتْ ، انظر مثلاً طريق مصر الإسكندرية الصحراوى تجده طريقاً متسعاً واسعاً ليسع حركة المرور عليه ، وهو اتجاهان ذهاب وإياب ، به استراحات فيها كل ما تحتاجه لأنه طريق طويل .

الحق سبحانه حدَّثنا عن هذه المسألة فقال : ﴿ **الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] وسيدنا عمر لما أرادوا أنْ يُخططوا مدينة البصرة[1] قال لهم : اجعلوا الطريق متسعاً لجملين محملين متقابلين ، وهذا هو ما نفعله فى العصر الحديث .

وفى سورة سبأ قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ]

القرى الظاهرة هى المحطات فى الطريق الطويل والاستراحات التى تجد فيها حاجتك وترتاح فيها ، فالطريق الطويل لا بدَّ أنْ يُقسَّم إلى مراحل ليكون السفر مريحاً غير شاق ، وكلما ارتقتْ حركة الحياة ترتقى معها هذه الوسائل ، حتى أننا نرى فى بعض الاستراحات أماكن للراحة وللنوم .

لذلك الحق سبحانه يحكى عن الذين تعدَّوْا وظلموا أنفسهم من

---

(١) البصرة : مدينة عراقية تقع فى أقصى الجنوب الشرقى على رأس الخليج العربى يتجاوز سكانها ٢,٦ مليون نسمة ، هى المنفذ البحرى الوحيد للعراق على العالم ، بها أعراق وديانات كثيرة بين مسيحيين وسريان وأشوريين وصابئة والمسلمين . [موسوعة ويكيبيديا] .

الأعيان وأصحاب المراكب الفارهة حتى قالوا : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩) ﴾ [سبأ] لماذا مع أن السفر وبُعْد السفر مشقة ؟ قالوا : لأنهم أصحاب غِنى ومراكب لا تتوافر لغيرهم ، فأرادوا بذلك ألاَّ يقدر على السفر غيرهم ، ولا يسلُك هذه الطرق للتجارة إلا الأغنياء .

هذا مثل للارتقاء أيضاً فى التشريع ، فكلما جَدَّ جديد وكلما وجد أقضية جديدة ارتقى التشريعُ من رسول لآخر ليعالج هذه الأقضية ، إلى أنْ جاء التشريع الخاتم الصالح لكل زمان ومكان ، والذى قال الله عنه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] الكلام هنا عن القرآن ، جعله الله نوراً يهدى الله به مَنْ يشاء من عباده ، فأثبت أن الهداية لله بهذا النور المنزَّل فى الكتاب المحكم .

ثم أثبت أيضاً الهداية لرسول الله وفوَّضه فى أنْ يُشرِّع للناس بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فهداية الحق سبحانه فى الأصول والثوابت وهى ما ورد فى آيات الذكر الحكيم ، ثم هداية الرسول فى الفروع ، وفى بيان هذه الأصول وشرحها ، فإنْ جَدَّ فى حياتكم جديد ، وطرأ عليها من المسائل ما لم يأت بشأنه نَصٌّ ، لا من الكتاب ولا من السنة فأجمعوا أمركم وليكون الرأى شورى بينكم ، ولا تقضوا فى هذه المسائل برأى الفرد ، إنما برأى الجماعة .

لذلك ورد في الحديث : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[1]

وما أجمل ما قاله شوقي[2] رحمه الله :

رأيُ الجماعة لا تشقى البلادُ به ... رَغْم الخلاف ورأيُ الفَرْد يُشْقيها[3]

لذلك جعلوا الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي .

فهذه الآية أثبتت الهداية لله تعالى بالقرآن ﴿ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..(٥٢)﴾ [الشورى] وهذه خاصة بالأصول وثوابت الدين التي ورد بها نص في كتاب الله .

ثم أثبتت هداية أيضاً لرسول الله في الفروع ، وفي توضيح ما أُجملَ في كتاب الله ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] وأعطتْ سيدنا رسول الله الحق وفوّضته في التشريع للناس ، لذلك كانت سنته ﷺ هي المصدر الثاني للتشريع .

وقلنا : إن هداية الحق سبحانه للعبد هدايةُ بيان وإرشاد ودلالة ،

---

(١) أخرج أبو داود في سننه (٣٧١١) قال رسول الله : « إن الله أجاركم من ثلاث خلال : أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً ، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وأن لا تجتمعوا على ضلالة » عن أبي مالك الأشعري . وأخرج ابن ماجة في سننه (٣٩٤٠) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن أمتي لا تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٢) هذا البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقي . وحافظ وُلد (١٨٧١م) وتوفي عام ١٩٣٢م . نشأ يتيماً ونظم الشعر في أثناء الدراسة ، تخرج في المدرسة الحربية عام ١٨٩٢م . لقب بشاعر النيل .

(٣) البيت من قصيدة من بحر البسيط ، عدد أبياتها ٨ أبيات ، أولها :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيراً عن مُحبيها

فإنْ أطاع استحقَّ هداية التوفيق والمعونة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد] وهداية رسول الله هداية إرشاد وبيان فقط ، وقد أوضحنا هذه المسألة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] أى : ترشد وتدل ، والصراط المستقيم هو الطريق السَّوى المستقيم الذى يُوصِّلك إلى غايتك فى أسرع وقت وبأقل مجهود ودون عناء ، لأن الطريق كلما اعوج ازداد زمنه ومشقته ، ثم إن هذا الطريق صراط يعنى محدد مثل الشعرة ، وهذا يعنى أنك لا بدّ أنْ تسير عليه بانضباط ، لا تنحرف عنه يميناً ولا شمالاً ، لذلك قال فى موضع آخر ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة] يعنى : وسطه .

والمراد بالصراط المستقيم المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ، هذا المنهج الذى يصحبك فى الدنيا لتستقيم به أمور حياتك ، ثم يعطيك الجزاء فى الآخرة ، لذلك الحق سبحانه علّمنا أنْ ندعو ونقول : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .. ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]

ثم يوضح الحق سبحانه طبيعة هذا الصراط :

﴿صِرَٰطِ[(١)] ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿صِرَاطِ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى] أضاف الصراط

---

(١) صراط الله . قال على بن أبى طالب : هو القرآن . وقيل : هو الإسلام . ورواه النواس بن سمعان عن النبى ﷺ . (ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٠٤) .

إليه سبحانه ، فهو صاحبه وواضعه ليس من إنشائكم . يعنى : لا دَخْلَ للعبد فيه ، وطالما أنه من الله فينبغى عليكم اتباعه والحذر من الانحراف عنه .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بهذه الصفة ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (٥٣) ﴾ [الشورى] يعنى : صاحب هذا الصراط له ملْك ما فى السماوات وما فى الأرض ، يعنى فى الدنيا ، ثم تصير الأمور إليه وحده فى الآخرة .

﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى] وهذا أسلوب قصر يعنى : إلى الله وحده لا إلى أحد غيره .

إذن : هذا الصراط وهذا المنهج وضعه لكم الذى يملك الدنيا ويملك الآخرة ، فمَنْ سار على منهجه فى الدنيا لم يُحرم الجزاء فى الآخرة .

فالدنيا كلها (من) بداية صائرة إلى غاية هى الآخرة ، والغاية هذه إلى الله وحده ، فما بين (من) و (إلى) أحسنوا أموركم فيها لأنكم صائرون منها إلى الله ، وتذكّروا أن دار العمل موقوتة ، وأن دار الجزاء خالدة باقية ، هذه دار شَقاء وعَنَت ، وهذه دار نعيم ، فيها ما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، ومَنْ يخطب الحسناء يُغْلها المهر .

وتأمل كيف خُتمتْ هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى] (ألاَ) أداة تنبيه . والتنبيه لا يكون إلا لأمر مهم ينبغى الاهتمام به ولا نغفل عنه ، قلنا : لأن المتكلم هو الذى يعى كلامه ووقته ولا يغفل عنه ، أما المخاطب فقد يغفل عما يُقال

فيحتاج إلى تنبيه فى الأمور المهمة .

هذا الأمر المهم ما هو ؟ هو ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى] هذه برقية موجزة فى ختام السورة فى طياتها كلام كثير ، حتى فى البشر حينما يوصى الإنسان أولاده مثلاً قبل موته لا يُوصيهم بكل تفاصيل حركة الحياة ، إنما بالأمور المهمة .

فقوله سبحانه ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : تنبهوا أنّ المسألة كلها من الله وإلى الله ، من الله منهج ، وإلى الله مرجع ومصير .

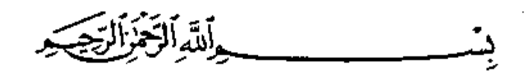
فانظر فى حركتك واجعلها موافقة لهذا المنهج ، واعلم أنك راجع إليه ، وأمرك صائر إليه وحده ، لأنه سبحانه لم يخلقنا عبثاً ، ولن يتركنا سُدى . هذه حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب أبداً عن عقولنا .

• • •


سورة الزخرف



سورة الزخرف(١)



﴿ حمٓ ① ﴾

سبق أنْ تحدثنا عن الحروف المقطعة فى بدايات بعض سور القرآن ، وأن لها حكمة مرادة من الحق سبحانه نحوم حولها ، ثم نقول : والله أعلم بمراده(٢) .

(١) سورة الزخرف هى السورة رقم ٤٣ ، عدد آياتها ٨٩ آية ، وهى مكية بإجماع كما قال القرطبى فى تفسيره . والزخرف : الزينة . وقال ابن سيده : الزخرف الذهب هذا الأصل ثم سُمِّى كل زينة زخرفاً ثم شبه كل مُموه مزوَّر به .

(٢) اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور :

- فمنهم من قال : هى مما استأثر الله بعلمه . فردوا علمها إلى الله ولم يفسرها . حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود . وقاله عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره أبو حاتم بن حبان .
- ومنهم من فسَّرها ، واختلف هؤلاء فى معناها :
- فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، إنما هى أسماء السور .
- وقيل : هى اسم من أسماء الله .

قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٧) : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى (أ ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن) يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر .

﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾

الواو هنا للعطف ، يعنى ﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الزخرف] هما شىء واحد ، وهما قرآن يُقسم الله به ، لكن فصل بينهما بالعطف ، لأن ﴿ حمٓ ۝١ ﴾ [الزخرف] نقرؤها ونؤمن بها ولا نعرف معناها ، بل نردها إلى المتكلم بها سبحانه ، أما ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الزخرف] أى : الواضح البيِّن المظهر للأشياء ، لذلك نفهمه ونعرف معانيه

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾

هذا هو المقسَم عليه ، فالحق سبحانه يقسم بهذه الحروف العربية ، وبالكتاب المكوّن من هذه الحروف أنه جعله ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾ [الزخرف] سماه كتاباً لأنه مكتوب فى السطور ، وسماه قرآناً لأنه مقروء ، ووصفه بأنه عربى ليؤكد على أنه نزل بلسان القوم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ۝٤ ﴾ [إبراهيم]

إذن : لابدَّ أنْ يكون الرسول بلسان قومه ليفهموا عنه ولتتم عملية البلاغ . فإنْ قلتَ : فكيف إذن أُرسِل محمد ﷺ إلى الناس كافة على اختلاف لغاتهم ؟

نقول : أُرسِل بلسان قومه الذين عاصروه وباشروا تلقِّى توجيهاته الأولى ، فلما فهموها واقتنعوا وآمنوا بصدقها حملوها إلى

غيرهم من الأمم ، وساحوا بها فى أنحاء الأرض حركةً وعملاً وسلوكًا وتطبيقاً .

هذا معنى الرسالة إلى الناس كافّة ، فالإعجاز فيها فى السلوك العملى والتطبيق ، لذلك يقول لنا التاريخ : إن الإسلام انتشر فى البلاد بالسلوك القويم الذى بهر الناس جميعاً فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، واقرأ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ [فصلت]

ويقول سبحانه عن هذه الأمة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]
وهكذا كلف الخلفاء جميعاً بحمل هذه الرسالة ، فالرسول يشهد أنه بلَّغنا ، والأمم الأخرى تشهد أننا بلَّغناهم .

إذن : باللغة فهمتْ هذه الأمة وترجمتْ هذا المنهج إلى عمل ، فتحوَّلَتْ من أمة أمية جاهلة لا نظام لها ولا قانون إلى أمة راقية جذبتْ إليها أرقى أمم الأرض مثل فارس فى الشرق ، والروم فى الغرب ، لقد زلزلوا هاتين الحضارتين حينما طبَّقوا تعاليم المنهج الذى جاءهم به محمد ﷺ ، هذا هو الذى لفتَ الأنظار إلى الإسلام .

لذلك لما نتأمل فى سورة سيدنا يوسف عليه السلام نجد هذا النموذج العملى التطبيقى للإيمان ، اقرأ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

لقد نال يوسف هذه المنزلة وصار مقصداً للسائلين ، لماذا ؟ لأنه وصل

إلى درجة الإحسان ، وهى القمة فى التطبيق العملى للمنهج الذى جاء به ، ثم يُوضح هو هذا المسلك العملى الذى أوصله إلى منزلة التأويل ، فيقول :

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

يعنى : لو فعلتم مثلى لأصبحتم قادرين على فهم الرؤيا وتأويلها مثلى تماماً .

هذا المسلك العملى هو نفسه الذى جعل سيدنا يوسف عليه السلام يستغل الفرصة ليؤدى مهمته الدعوية ، فقبل أن يعطى السائلَيْن ما أرادا أعطاهما ما أراد هو أولاً من الدعوة إلى الله ، وهما فى وقت الحاجة إليه ، والاستماع لكل كلمة يقولها .

لذلك نراه يسرع بهذا الملخص الإيمانى العقدى فيقول : ﴿ يَٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف] ثم بعد ذلك يفسر لهما الرؤيا .

إذن : سلوك يوسف هو الذى لفت إليه الأنظار ، وكذلك السلوك الحق المستقيم فى كل زمان ومكان هو الذى يلفت إليك الأنظار ، ويجذب إليك القلوب .

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أى : الكتاب المبين الذى سبق وَصْفه ، وهو القرآن الكريم ﴿ فِى أُمِّ الْكِتَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أم الكتاب يعنى : الكتاب الأصل أو اللوح المحفوظ الذى أخذتْ منه كل رسالات السماء ، وسجِّل فيه كل الأحداث ﴿ لَدَيْنَا ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] عندنا : عند الله . يعنى : لم يُعطِه لأحد ، وهذا يعنى أنه مَصُون محفوظ .

﴿ لَعَلِىٌّ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أى : فى ذاته ، والعلو الارتقاء ، لأنه هو الكتاب الخاتم لجميع الرسالات قبله والمهيمن عليها .

وهيمنة القرآن على الكتب السابقة أنه اتفق معها فى الثوابت العقدية والأعمال العبادية والأخلاق ، ثم نسخ من الرسالات مثله ما لا يناسب العصر ، ونفض عنها الفساد الذى لحق بها من تبديل وتغيير أو تحريف .

فالقرآن حكى عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، وما لم ينسوه كتموه ، وما لم يكتموه حرَّفوه ، بل زادوا على ذلك كله ولم يقفوا عند حَدِّ التحريف ، إنما جاءوا بكلام من عندهم وقالوا : هو من عند الله ، واقرأ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة]

هذه هى هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب وعُلُوّه عليها .

وقوله ﴿ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] الحكيم هو الذى يضع الشىء

فى موضعه من حيث زمنه ومكانه الذى يناسبه ، فترى كل شىء فيه منضبطاً ، والقرآن هو الكتاب الذى خُتمتْ به الكتب السماوية ، ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل جميعاً .

فإنْ قلتَ : فلماذا يحفظ الحق سبحانه كلامه فى أم الكتاب ، وهو سبحانه لا يضل ولا ينسى ، ويحيط علمه بكل شىء ولا تَخْفى عليه خافية ؟

قالوا : حفظ الله تعالى كلامه فى أم الكتاب من أجل الملائكة ، فحينما يروْنَ اللوح المحفوظ يجدون فيه كلاماً قديماً تُصدِّقه الأحداث ومواقف الناس فى الكون ، ويأتى الواقع وفْقَ ما أخبر الحق فى كلامه ، فيزدادوا حباً فى الله وعنايةٌ به ، ويحكموا بأن الله هو العليم الحكيم .

هذا سرُّ الكتابة ؛ لأنهم أى الملائكة سبق أنْ قالوا فى مسألة خَلْق الإنسان : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ[1] فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

بعضهم قال فى ﴿ أُمِّ الْكِتَابِ (٤) ﴾ [الزخرف] ليس هو اللوح المحفوظ لقوله تعالى عن القرآن : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. (٧) ﴾ [آل عمران] فأم الكتاب هنا أى : الآيات

---

(١) بعض غير المسلمين الذين يستهويهم الطعن فى القرآن يقولون : كيف يخاطب الملائكة الله بهذا الاستفهام يستنكرون به أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة فى الأرض ؟ وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم ، وقد وصفهم الله بأنهم لا يسبقونه بالقول أى : لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه ، وإنما سؤالهم سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك . [عادل أبو المعاطى] .

المحكمات . فقد يكون فى هذا المعنى تنبيه لنا بأن هذه السورة (الزخرف) من الآيات المحكمات ، ليس فيها آية واحدة من المتشابهات .

وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ حُكْم المحكم والمتشابه ، فقال : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما لم تعرفوا فآمنوا به »[1] .

قال تعالى فى المتشابه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ.. (٧) ﴾ [آل عمران] ونقف ، ثم ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ (٧) ﴾ [آل عمران] إذن : نعمل بالمحكم ونؤمن بالمتشابه .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) ﴾

الهمزة هنا تحمل معنى الاستفهام الإنكارى ، ومعنى ﴿ أَفَنَضْرِبُ (٥) ﴾ [الزخرف] أى : نترك . نقول : ضربتُ عن العمل وأضربتُ عن العمل أى : تركتُه وامتنعتُ عنه . ومنه : أضرب العمال عن العمل .

فالحق يقول لهم : أنترك تذكيركم ، ونُعرض عنكم ونترككم هكذا هَمَلاً ، لأنكم أسرفتُم على أنفسكم وكذَّبتم بالذِّكْر وكفرتم به ؟

لا بل سنُوالى لكم التذكير والبيان ، ونلزمكم الحجة والبرهان ،

---

(١) أخرج الحارث فى البغية (١٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « يا قوم لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم ، إن القرآن لم ينزل ليُكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به » . وكذا فى الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم (٧٤٩) .

فإنْ لم تؤمنوا بالحجة ولم تُصدِّقوا جاء دور الغزو والفتح والنصر عليكم حتى تؤمنوا . وهذه رحمة من الله بهم لأنهم عباده وصنعته ويريد لهم النجاة ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها حتى وهم كافرون به .

فلو تركهم وما أرادوا لتمادوا فى فسادهم ، واستحقوا الهلاك والعذاب ، والكافر حينما يؤمن يرحمه الله بالإيمان ، ويرحم المجتمع من شرِّه وفساده إنْ ظلَّ على كفره ، فالذكْر والمراد به هنا الوحى رحمةٌ من الله وخير يُقدِّمه لعباده رحمة بهم .

لذلك قالوا : إنْ كان لك عدو فلا تَدْعُ عليه بالهلاك ، إنما ادْعُ له بالهداية لأنك لا تنتفع بهلاكه ، إنما تنتفع بسلوكه ويعود عليك خيره إن اهتدى ، فثمار الخير تفيد المجتمع كله ، ومن هذا المنطلق نهانا الإسلام عن كَتْم العلم لأنك حين تكتم علماً تحرم مجتمعك من خيره ، فحين تُعلِّم غيرك تنتفع بخيره وتأمن شرَّه .

إذن : من رحمة الله بهم أنْ يُوالى لهم نزول القرآن رغم عنادهم وكفرهم وتماديهم فى الضلال ، وفعلاً مع مرور الوقت وتتابع نزول الوحى أسلم صناديد الكفر واحداً بعد الآخر ، أسلم عمر ، وأسلم عمرو وخالد وعكرمة وغيرهم كثير .

ثم يقول لهم الحق سبحانه : أنتم فى حاجة إلى قراءة التاريخ وأخْذ العبرة من موكب الرسالات لتروْا عاقبة المكذِّبين للرسل ، فتاريخ الرسالات يؤكد انتصار رسل الله على المكذِّبين لهم ، لأن هذه سنةُ الله فى الرسل أنْ ينصرهم الله فى النهاية ، وأنْ تكون العاقبة لهم على مُكذِّبيهم ، يأخذهم الله على قدر تكذيبهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت]

وقد خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً نظرياً ، إنما واقع مُعَاش ومُشَاهد عليكم أنْ تعقلوه ، وأنْ تتعلموا منه الدرس حتى لا ينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بهم .

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) ﴾

كم هنا تفيد الكثرة[1] ﴿ فِي الأَوَّلِينَ (٦) ﴾ [الزخرف] فى الأمم السابقة الذين كانوا يُكذِّبون الرسل ويستهزئون بهم .

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) ﴾

يعنى : يا كفار قريش خذوا عبرة من الأمم السابقة ، وممن أهلكهم الله وكانوا أشد منكم قوة فلم تمنعهم قوتهم ، ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ (٨) ﴾ [الزخرف] يعنى : قصتهم وما حَلَّ بهم ؛ لأن هذا وعد الله للرسل .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] فلابدَّ أن تجدوا عاقبة هذا التكذيب : إما أنْ تُهزموا فى الدنيا ، وإما أنْ يُدَّخر لكم العذاب فى الآخرة .

---

(١) كم : تأتى على وجهين : خبرية بمعنى كثير . واستفهامية بمعنى أى عدد . وهى هنا خبرية تفيد الكثرة . ويقول تعالى فى سورة النساء ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. (١٦٤) ﴾ [النساء] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا(١) وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) ﴾

الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لهم أنهم يُكذِّبون رسول الله ، ويُصادمون دعوته استكباراً وعناداً ، ولا يعتمدون فى ذلك على منطق العقل والحكمة ، ويأخذ هذه الحقيقة ويُثبتها من لسانهم هم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف] فهذه حقيقة لا ينكرونها ويعترفون بها ، لأن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعِها أحدٌ لنفسه ولم يقُمْ لها منازع .

أولاً عجيبٌ منهم أنْ يؤمنوا بأن الله هو الخالق ، وأنه عزيز وعليم ، ومع ذلك يقفون من رسول الله هذا الموقف المعاند ، ثم لماذا لم يقولوا مثلاً خلقهنَّ الله لأنه ليس له منازع ، ووصفوا الحق سبحانه بالعزيز العليم ؟ قالوا : لأنهم اتبعوا مناهج آبائهم وظنوا أنها الأحسن ، فقالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة] فصدَّهم هذا عن اتباع الحق .

---

(١) مهد الشيء مهْداً : وطَّأه وجعله سهلاً ليناً . [القاموس القويم ٢٤٢/٢] وقال القرطبي (٦١٠٨/٩) : مهداً فراشاً وبساطاً . وقال ابن كثير في تفسيره (١٢٣/٤) : « أي فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتتصرفون مع أنها مخلوقة على تيار الماء لكنه أرساها بالجبال » .

ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ [الزخرف] أى : الغالب الذى لا يُغلب ، فهم إذن ردُّوا على أنفسهم ، فهم مهما عملوا فلابدَّ أنْ يُغلبوا .

وقولهم فى وَصْف الحق سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف] من باب أن المتكلم يمكن أنْ يزيد من عنده ما لم يُلْقَ إليه ، كما لو أنك أرسلتَ شخصاً برسالة وقلتَ له : اذهب إلى فلان . هكذا بدون ألقاب وبدون أوصاف – وقُلْ له كذا وكذا .

فحين يذهب الرسول يقول : والله فلان قال لى اذهب إلى الشيخ فلان ، أو الأستاذ فلان ، وقُلْ له كذا وكذا فيزيد الوصف من عند نفسه ، كذلك هؤلاء يقولون ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف] لأنهم يعلمون أن الله تعالى عزيز وعليم .

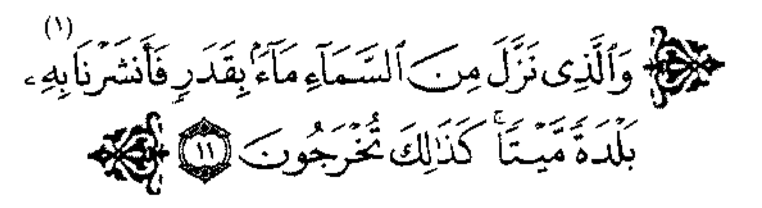
ثم أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لهم قدرته وعلمه ، فقال : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. ۝١٠﴾ [الزخرف] والمهد فى الأصل هو الفراش الممهَّد الذى يستريح فيه الطفل جُلُوساً أو نوماً ، ومنه نقول طريق مُمهَّد يعنى : مُعد ومُسوًّى بحيث يريح مَنْ يمشى عليه .

فالحق يُشبِّهنا بالأطفال ، والطفل لا يستطيع أنْ يُمهِّد لنفسه ، فلولا أن الله مهَّد لنا الأرض ما قدرنا نحن على تمهيدها .

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ۝١٠﴾ [الزخرف] يعنى : طرقاً تسلكونها وتنتقلون عليها من مكان لآخر ، لأن مصالح الخَلْق تقتضى الانتقال من مكان إقامتهم إلى أماكن مصالحهم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ [الزخرف] أى : فى سيركم إلى مصالحكم وأغراضكم .

الحق سبحانه حين يمتنُّ عليهم ببعض نِعَمه عليهم إنما ليُرقِّق

قلوبهم ويستميلهم إلى ساحته ، لعلهم يهتدون إليه ويؤمنون به ويُصدِّقون برسوله .



قوله ﴿ مِنَ السَّمَاءِ .. ⑪ ﴾ [الزخرف] أي : من جهة السماء ﴿ بِقَدَرٍ .. ⑪ ﴾ [الزخرف] بحساب معين ومقدار محدَّد حسب ما تقتضيه حكمة الله ، بحيث ننتفع بهذا الماء ونُحيي به الأرض دون مُنغِّصات ، لأن الماء قد يكون وسيلة إهلاك ودمار كما رأينا في قصة سيدنا نوح .

لذلك قيَّد نزول الماء هنا بقوله ﴿ بِقَدَرٍ .. ⑪ ﴾ [الزخرف] يعني : على قدْر حاجتكم وعلى قدر ما يُصلحكم ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول عند نزول المطر . « اللهم حوالينا لا علينا ، اللهم على الآكام[٢] والجبال والآجام والظراب والأودية ومنابت الشجر »[٣] .

---

(١) فأنشرنا به بلدة ميتة : أي أحييناها بماء المطر لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

(٢) الآكام : جمع أكمة ، وهي التل دون الجبل ، وهو الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله . [لسان العرب مادة : أكم] . والآجام : منابت الشجر الملتف . [مادة أجم] . والظراب جمع ظرب : وهو الجبل المنبسط الصغير وقيل الروابي الصغار . [مادة ظرب] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٦٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٩٣) من حديث أنس بن مالك .

ومعنى ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. (١١)﴾ [الزخرف] أى : أحييناها بالنبات ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

فالأرض الميتة التى لا نباتَ فيها ، لذلك فى الفقه تجد باب إحياء الموات ، وفى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أحيا أرضاً مَوَاتاً فهى له »[1] .

وهذه قاعدة لو أخذتْ بها دول العالم لَقضيْنا على الفقر ولعَمَّ الخير كُلَّ بقاع الأرض ، ولمَا وجدنا شبراً واحداً صحراء .

وعندنا فى مصر مثال واضح : لما ضيَّقتْ الحكومة على الناس ومنعت انتشارهم فى الصحراء ازدحم الناس فى الوادى والدلتا وحدثتْ الفاقة ، ولم نستطع أنْ نُوفر الاكتفاء الذاتى من المحاصيل الزراعية .

ولما سمحتْ الدولة بزراعة الصحراء وشجعتْ الناس عليها ماذا حدث ؟ رأينا الصحراء تخضر وتُخرِج لنا مَا لَذَّ وطابَ من الخضر والفاكهة ، ومَنْ يسير فى الطريق الصحراوى يرى ذلك .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن الماء ينزل من السماء فينتفع الناسُ به فى زراعة الأرض ومـا زاد عن حاجتهم تمتصُّه الأرض حتى يتكوَّن بداخلها أنهار تحت سطح الأرض ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٧٢) عن عروة قال : أشهد أن النبى ﷺ قضى أن الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، ومن أحيا مواتاً فهو أحق به ، جاءنا بهذا عن النبى ﷺ الذين جاءوا بالصلوات عنه . وأخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (١٥٢١٧) من حديث فضالة بن عبيد قال : قال ﷺ : « الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، من أحيا مواتاً فهى له » .

كلمة (ميتاً) ميْت بالسكون . يعنى : ما جرى عليه الموت بالفعل ، أما ميِّت بالتشديد فهو ما يُحكم عليه بالموت وإنْ كان على قيد الحياة .

وتسألنى تفسير ميْت وميِّت فدونك قد فسرت إن كنت تَعْقِلُ
فمن كان ذا روح فذلك ميِّتٌ وما الميْت إلا من إلى القبْر يُحملُ

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ﴾ [الزمر]

وقال الشاعر[1] فى مدح سيدنا رسول الله :

أَخُوكَ عِيسَى دَعَا مَيْتاً فَقَامَ لَهُ وأنْتَ أحييْتَ أَجْيَالاً مِنَ العَدَمِ[2]

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ ﴾ [الزخرف] كذلك يعنى : مثلما نُحيى الأرض الميتة نحييكم ونخرجكم من قبوركم فخذوا مما تشاهدونه فى الأرض دليلاً على ما غاب عنكم من أمور البعث وإحياء الموتى ، فحين نقول لكم أن الله يُحييكم بعد موتكم فصدِّقوا .

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ ﴾

كلمة ﴿ الأَزْوَاجَ .. ۝١٢ ﴾ [الزخرف] جمع : زوج . والزوج كما قلنا هو المفرد الذى معه مثله ، والزوجان كل متقابلين مثل : أبيض وأسود ، حُلو وحامض ، فوق وتحت ، يمين وشمال .

---

(١) الشاعر هنا هو أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر الحديث أمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م) نشأ فى ظل البيت المالك فى مصر ، أُرسل إلى فرنسا عام ١٨٨٧ م لمتابعة دراسة الحقوق ، مارس أكثر فنون الشعر مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً .

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقى ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها ، ١٩٠ بيتاً وهو البيت رقم (١١٦) فيها . أولها : ريم على القاع بين البان والعلم .

والزوجية كما أخبر الحق سبحانه موجودة فى كل شىء ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] ومنها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه ؛ لذلك قال هنا ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (١٢) ﴾ [الزخرف] كلمة ﴿ كُلَّهَا ﴾ أى : مما نعلمه كالذكر والأنثى ومما لا نعلمه .

وأهل الفكر والتدبُّر يقفون عند هذه الآية يلتمسون ما فيها من حكمة ، فالحق سبحانه يمتنُّ بأنْ خلق الأزواج كلها ليُثبتَ لنا أنه سبحانه فرْد لا زوجَ معه ، فقانون الاستقصاء العلمى يقول : إن الزوج يعنى الاثنين ، أو ما يقبل القسمة على اثنين .

فحين نأخذ الترتيب من أوله نقول : إن الواحد الذى ليس له ثانٍ ، واثنان يعنى واحداً انضمَّ له واحد آخر .

إذن : الاثنان كرقم يحتاج إلى الواحد ، أما الواحد فلا يحتاج إلى شىء ، إذن : المفرد الحق هو الذى لا يحتاج لشىء ، وهذه لا تكون إلا لله عز وجل .

إذن : الزوج يحتاج إلى الفرد ، والفرد لا يحتاج إلى الزوج .

وما دام أنه سبحانه خالق الأزواج كلها . إذن : هو فرد لا مثيلَ له ، والمتأمل يجد أنَّ الزوجين مختلفان فى الصفات مثل الذكر والأنثى ، لكل منهما صفاته مع وجود صفات مشتركة بينهما .

فالصفات المشتركة تعنى أن لكل زوج منهما مثلاً ، والصفات المختلفة تعنى أن كلاً منهما فيه نقص عن الآخر ، والله سبحانه وتعالى فرد لا مثْلَ له ، وكامل لا نقصَ فيه ، فكأن الآية تثبت أن الله تعالى فرد خالقَ لا يحتاج إلى شىء ، ويحتاج إليه كلُّ شىء .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف]

الفلك . أى : السُّفن . ومن الأنعام التى تُركب مثل الإبل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. (٧) ﴾ [النحل]

فالمعنى : خلق لكم من الفلك والأنعام ما تركبونه ، لكنه قال ﴿ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف] ولم يقل ما تركبونها ليطمر الفلك فى الأنعام ، والسفن لا نركبها إنما نركب فيها ، لذلك سماها ﴿ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ .. (٢٢) ﴾ [يونس]

إذن : نحن نركب على الأنعام ونستوى على ظهورها ، ونركب فى السفن ، حتى السفن القديمة كان لها جدران وبداخلها مقاعد ، فما بالُكَ بالسفن المكوّنة من أدوار مثل البيوت والتى وصفها القرآن بأنها كالأعلام[1] .

لكن لماذا غلَّب الأنعام وطمر فيها السفن ؟ لابدَّ أنَّ هنا حكمة ، لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك تجد كل لفظة فى موضعها بدقة تعبيرية ، فغلَّب الأنعام وقال ﴿ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف] لأننا نركب على الأنعام ، أما السفن ففى السفن .

ثم لأن الأنعام خَلْقُ الله المباشر ، والفلك خَلْق الإنسان ، كما أن الحق سبحانه يخاطب بهذه الآية العرب فى المقام الأول ، والعرب لم يكُنْ عندهم دراية بالسفن ولا يركبونها ، إنما كانت وسائلهم فى الانتقال والحمل هى الأنعام ، فهى معهودة لهم .

---

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل : فالأعلام الجبال . قال تعالى فى وصف السفن الضخمة الحجم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى] ، وقال : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] فهى تمخر البحر كأنها جبل يسير على صفحة الماء .

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف] الاستواء هنا يدل على الراحة ، فبعد أنْ كنتَ تسير وتتحمَّل مشقة السير ركبت على دابة مُذللة لك ، لذلك طلب منك أنْ تتذكر أنها نعمة من الله عليك تستوجب شكره وذكره ، والحذر من الغفلة عن تذكُّر النعم وشكْر المنعم ، والدابة تسير بك على أربعة قوائم تجعلها مُمهَّدة لك سهلة السير .

والسفن تحتاج فى سَيْرها إلى ثلاثة عناصر : السفينة ، والبحر الذى تسير فيه ، والهواء الذى يُحركها ، فساعة تسير بك تتذكر كلّ هذه النعم التى اجتمعتْ لك لتسير بك حيث تريد .

ثم يُعلِّمنا ربنا عز وجل كيفية الذكْر المناسب لهذه النعمة ، وهو أن نقول كما جاء فى القرآن : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف]

والنبى ﷺ علَّمنا دعاء السفر[1] والركوب ، وعلَّمنا أن نذكر الله كلما باشرنا عملاً جديداً ، لذلك قال سبحانه فى قصة السفينة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود] وذكر الله هو الطاقة التى

---

(١) كان رسول الله ﷺ إذا وضع رِجْله فى الغرز وهو يريد السفر يقول : باسم الله اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم ازْوِ لنا الأرض وهوِّن علينا السفر ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، ومن سوء المنظر فى المال والأهل . [أخرجه مالك فى الموطأ بلاغاً] .

نستمد منها العون ، القوة على السفر أو على أداء العمل .

وأنت حين تدعو بدعاء الركوب وتقول « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »[1] إنما تنفى عن نفسك الغرور ، وتعترف أنك تركب هذا المركب لا بقدرتك عليه ، إنما بقدرة الله الذى سهَّله لك وسخَّره لخدمتك ، ولولا أن الله سخّره ما استطعتَ السيطرة عليه ولا اعتلاء ظهره .

فالسفينة ربما تغرق بمَنْ فيها ، والدابة ربما تَنْفَق منك فى وسط الطريق ، إذن : تذكَّر دائماً قدرة الله فى هذه المسألة ، وبادر بذكر الله عند الركوب .

هذه الدوابّ التى تركبها وتحمل عليها ، ألَكَ فَضْلٌ فيها ؟ حتى السفن التى هى صناعة يدك لولا أن الله علَّم نوحاً صناعة السفن ما كان الإنسان عرفها ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[2] (١٣) ﴾ [القمر] وقال : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود] فالفكرة الأولى فيها من الله عز وجل .

تذكر أن الحصان الذى تركبه ، والجمل الذى تحمل عليه أقوى منك ، وإذا حَرَنَ[3] لا تستطيع السيطرة عليه ؛ لذلك قال تعالى فى هذه الدواب ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٩٢) وأبو داود فى سننه (٢٢٣٢) والترمذى فى سننه (٣٣٦٩) وأحمد فى مسنده (٦٠٢٩ ، ٦٠٨٦) كلهم من حديث ابن عمر .

(٢) الدسُر : جمع دِسار وهو المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٣) حرنت الدابة وهى حرون : وهى التى إذا استُدرَّ جريُها وقفت . وإنما ذلك فى ذوات الحوافر خاصة . ونظيره فى الإبل اللجان والخلاء . [لسان العرب - مادة : حرن] .

مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس] فلولا أن الله ذلَّلها ما ذللناها .

وسبق أنْ قلنا : إن الطفل الصغير يقود الجمل ويركبه ويُنيخه ، والجمل يطاوعه فى يُسْر وسهولة ، صحيح منظر يدعوك إلى التأمل فى قدرة الله الذى سخَّر هذا المخلوق الضخم لخدمة هذا الطفل الصغير الذى لا يقدر على شئ .

وفى المقابل ، تجد البرغوث مثلاً يقُضّ مضجعك ويُقلقك طوال الليل ، ولا تستطيع أن تفعل له شيئاً ، لماذا ؟ لأن الخالق سبحانه سخَّر لك هذا ولم يُسخِّر لك ذاك ، فتأمل ولا تظن أنك تركب هذه المراكب بقوتك ولا بقدرتك عليها .

ومعنى ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف] أى : مطيقين أو غالبين ، يعنى : ليس لنا قدرة عليه ولا سيطرة ولا تحكّم إلا بتسخير الله له ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف] أى : راجعون وآيبون .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. (١٥) ﴾ [الزخرف] إشارة إلى الذين نسبوا إلى الله تعالى الولد ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، ذلك لأن الولد جزء من أبيه ، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « فاطمة بضعة منى »[1] يعنى : قطعة منى .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٧ ، ٣٤٥٠ ، ٣٤٨٣ ، ٤٨٢٩) ومسلم أيضاً فى صحيحه (٤٤٨٢ ، ٤٤٨٣) وقد ورد الحديث بألفاظ كثيرة : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » « إن فاطمة بضعة منى وإنى أكره أن يسوءها » « فإنما هى بضعة منى ، يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها » .

ولما نسبوا لله تعالى الولد مرة سمَّوْهُ ابن الله ، ومرة قالوا : الله ، ومرة قالوا : ثالث ثلاثة . والعجيب أنهم وقعوا فى هذا الخطأ مع مَنْ ؟ مع النبى الذى أرسله الله إليهم ، فجعلوا النبى ذاته وسيلة للشرك .

الأمر الثانى : أن الجزء المنفصل عن الأبوين إما ذكر وإما أنثى ، ومعلوم أن الذكر عندهم أشرف من الأنثى ومُقدَّم عليها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

وهؤلاء لما نسبوا لله تعالى الولد نسبوا له الأنثى ، وهى مذمومة عندهم ، تعلمون قصة أبى حمزة لما تزوج من امرأة لا تلد ذكراً ، فهجرها إلى غيرها ، فقالت تُنفِّس عن نفسها[1] :

مَا لأَبِى حَمْزَةَ لاَ يأْتِينَا ... يَظَلُّ فِى البَيْتِ الذى يَلِينَا
غَضْبَانَ ألاَّ نَلدَ البَنِينَا ... تَاللَّه مَا ذَلِكَ فِى أَيْدِينَا
فنَحنُ كالأَرْضِ لغَارسِينَا ... نُعطِى الذى غَرَسُوه فِينَا[2]

وهكذا أخبرتْ المرأة العربية قديماً ما أثبته العلم الحديث من أن

(١) هى زوجة أبى حمزة الضبى ، شاعرة عباسية ، هجرها زوجها عندما ولدت له بنتاً ، ومر يوماً بخبائها فسمع منها أبياتاً من الشعر فرقّ لها وصالحها .

(٢) هذا البيت جاء فى الموسوعة الشعرية هكذا :

وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزراعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

والأبيات من بحر الرجز ، عدد أبياتها أربعة أبيات .

المرأة غير مسئولة عن الذكورة أو الأنوثة في الولد ، فهى مُتلقية وحاضنة فقط ، والرجل هو المسئول عن هذه المسألة .

والقرآن يقول : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] والنطفة هى ماء الرجل الذى يُلقح البويضة ، ويتحكم فى الذكورة والأنوثة .

ولأن نسبة الولد إلى الله تعالى أمرٌ عظيم وفادح ذُيِّلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] تأمل دقة التعبير هنا الذى يناسب فداحة الاتهام ، فـ﴿ إِنَّ .. (١٥) ﴾ للتوكيد و ﴿ لَكَفُورٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] صيغة مبالغة من كافر . و﴿ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] يعنى : بيِّن وواضح الكفر ، فكفره لا يَخْفَى على أحد .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ (١٦) ﴾[1]

الحق سبحانه يرد عليهم بهذا الاستفهام الذى يفيد التعجب ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) ﴾ [الزخرف] يعنى : أيُعقل وهو سبحانه الخالق أنْ يصطفيكم بالبنين وهم الجنس الأعلى ويختصُّ نفسه بالبنات وهُنَّ الجنس الأدنى ؟

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ

---

(١) اصفاكم : اختصكم وأخلصكم بالبنين . يقال : أصفيته الود أخلصته له . وصافيته وتصافينا : تخالصنا . [القرطبى ٩/ ٦١١٤] .

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ[1] أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ [النحل]

ثم يعطينا الحق سبحانه الدليل على كذبهم وافترائهم عليه :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً .. (١٧) ﴾ [الزخرف] كناية عن البنات اللاتى نسبوها إلى الله وجعلوها مثيلاً له سبحانه ؛ لأن الولد كما قلنا مثيلٌ لأبيه وجُزْءٌ منه ، وهم فى حين ينسبون لله البنات يكرههن ويسودّ وجه الرجل منهم إذا بُشِّر بالبنت .

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) ﴾ [الزخرف] يعنى : يملؤه الغيظ والنكد والغم .

إذن : كيف تنسبون لله ما لا تقبلونه لأنفسكم ، لذلك عبَّر القرآن عن هذه المسألة بأنها قسْمة جائرة ظالمة ، فقال تعالى فى سورة النجم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم]

واختار هذا اللفظ الغريب الذى لم يأت فى القرآن إلا مرة واحدة ليدلّ بغرابة اللفظ على غرابة القول الذى قالوه .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ[2] فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾

---

(١) لا جرم : أى لا محالة ولابُدَّ ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا حقاً . [القاموس القويم ١/ ١٢١] .

(٢) يُنشَّأ : يُربَّى ويشب . والنشوء : التربية . يقال : نشأت فى بنى فلان نشوءاً إذا شببت فيهم . والمعنى يُربَّى ويكبر فى الحلية . [القرطبى ٩/ ٦١١٦] .

الهمزة هنا أيضاً للاستفهام ، يقول سبحانه : أتستوى عندكم البنت التى تُنشَّأ فى الحلية بالولد . ومعنى ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : تُربَّى فى الزينة والرفاهية ، فالبنت عندنا مثلاً نهتم بها وبملبسها ومظهرها ، نُلبسها الحلَق والأسْورة والثياب الجميلة على خلاف الولد .

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ .. (١٨)﴾ [الزخرف] أى : فى مواقف الجدل والدفاع ﴿غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : ليس له قوة فى إظهار الحجة .

إذن : البنت التى نسبوها لله تُربَّى على الرفاهية والنعمة ، ولبس الحرير والذهب والزينة ، لأنها خُلقَتْ للاستمالة ، ونحن نحرص على مظهر البنت وشكلها ونُزيِّنها أولاً وأخيراً لتتزوج .

وفى الغالب نلجأ للزينة وللجمال الصناعى حينما لا يتوفر للبنت الجمال الطبيعى ، بدليل أن العرب كانت تسمى المرأة الجميلة غانية . يعنى : استغنت بجمالها الطبيعى عن أىِّ زينة .

أما الذكر فعلى خلاف ذلك ، الذكر مع أبيه فى الحقل وفى المصنع ، وفى الخصام والجدال ، وفى كل عمل شاقّ ، فهل يستويان ؟

وهذا لا يعنى أن هذه قاعدة عامة فى الجنس كله ، فقد نجد فى النساء صاحبة الرأى السديد والحجة القوية التى فاقتْ الرجال . تذكرون لما مُنع الرسول ﷺ وصحابته من دخول مكة للعمرة وهم على مشارفها ، واضطرّ رسول الله لأنْ يبرم معاهدة الحديبية مع كفار مكة على أنْ يعودَ هذا العام ويحجّ فى العام الذى يليه .

عندها غضب الصحابة وثاروا وعزَّ عليهم أنْ يُمنعوا من البيت

وهم على مشارف مكة ، حتى أن سيدنا عمر ثار وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ نعطى الدَّنية[1] فى ديننا ؟

وكان القوم يخرجون عن طاعة رسول الله ويعصون أوامره ، حتى دخل خباءه على السيدة أم سلمة وهو مُغْضَب ، فقالت له : ما لى أراك مُغْضباً يا رسول الله ؟ فقال : هلك القوم ، أمرتُهم فلم يمتثلوا .

فقالت : يا رسول الله ، اعذرهم فهم قوم مكروبون ، وقد جاءوا من المدينة على شوق للبيت ، ويشقّ عليهم أنْ يُمْنَعوه وهم على مشارف مكة ، فاذهب يا رسول الله إلى ما أمرك الله ، فافعله أمامهم ، فلو رأوْكَ تفعل علموا أن الأمر عزيمة لا جدالَ فيه ، فلما فعل الرسول أمامهم فعلوا مثله ، وانتهت المشكلة وعادوا إلى المدينة[2] .

ورحمةً بغيرة المسلمين على دينهم نزل الوحى على سيدنا رسول الله وهو فى الطريق وقبل أنْ يصلوا المدينة يوضح لهم الحكمة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩ ، ٢٩٤٥ ، ٤٤٦٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٣٢٨) وأحمد فى مسنده (١٥٤٠٨) من حديث سهل بن حنيف . والدنية : أى الخصلة المذمومة بمعنى الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة : دنا] .

(٢) لفظ البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩) أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت أم سلمة : يا نبى الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً » .

الإلهية من عودتهم هذا العام ، فقال تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[1] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحكمة من العودة هذا العام أن مكة كان بها كثير من المسلمين الذين أخفوا إسلامهم ، فلو دخلتم مكة عُنْوة ، وحدث بينكم وبين الكفار قتال فسوف يصيب إخوانكم المسلمين ، وسوف تُلحقون بهم الضرر دون علم منكم . وهكذا علموا صواب رأى رسول الله ، وأنه ﷺ على الحق .

هذا مثال لسداد الرأى في النساء ، والتاريخ ملىء بنماذج من نساء تفوقن على الرجال في الجدل وقوة وسداد الرأى لأن الخالق سبحانه لا يخلق بطريقة ميكانيكية ، إنما بقدرة وحكمة فليس شرطاً أن يكون الرجال جميعاً عندهم قوة في الجدال ، والنساء جميعاً عندهُنَّ ضعف في الرأى وعدم قدرة على الجدال ، فالقاعدة لابدَّ أنْ يكون لها شواذ .

فإذا كانت القاعدةُ في النساء ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] فطلاقة القدرة لله عز وجل تجعل من هذا الضعف قوة تتفوق على قوة الرجال ، فنرى من النساء مَنْ كانت ملكة على قومها ، مثل ملكة سبأ مثلاً التى قصَّ القرآنُ قصَّتها مع سيدنا سليمان .

---

(١) معكوفا : محبوسا عن أن يبلغ محله (الطبرى ٢٢/٢٣٩) . أى : محصراً ممنوعاً من الوصول إلى البيت العتيق (القرطبى ٢/٣٧٩) .

فهل وصلت للمُلْك لعدم وجود الرجال ؟ أبداً ، بل تفوقتْ بذكائها وقوة رأيها حتى سلّم لها الرجال وقدَّموها عليهم .

وحين نقرأ قصتها في سورة النمل نجد ما يدل على هذا الذكاء وهذه الفطنة والسياسة والقدرة على الجدل ، فلما وصفها الهدهد قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ[1] وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

ولما وصلها كتاب سليمان لم تستأثر بالرأي ، إنما شاورت أهل الرأي : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] وأخذت بمبدأ الشورى ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾ [النمل]

ثم تحاول حَلَّ المسألة بطريقة ودية بعيدة عن العنف وإراقة الدماء لأنها تعلم طبيعة الملوك : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل]

وتأمل لباقتها وسياستها في الرد لما نكّروا[2] لها عرشها

---

(١) تملكهم : أي تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد ، وهي بلقيس بنت شراحيل . [الألوسي في تفسيره روح المعاني] .

(٢) نكِّروا لها عرشها : التنكير هنا التغيير يقول : غيِّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته . [فتح القدير للشوكاني] وقال ابن الجوزي في زاد المسير : للمفسرين في كيفية تغييره ستة أقوال :

أحدها : أنه زيدَ فيه ونقص منه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنهم جعلوا صفائح الذهب التي كانت عليه مكان صفائح الفضة .

والثالث : أنهم نزعوا ما عليه من فصوصه وجواهره .

الأقوال الثلاثة السابقة قالها ابن عباس .

الرابع : أنهم جعلوا ما كان منه أحمر أخضر ، وما كان أخضر أحمر . قاله مجاهد .

الخامس : أنهم جعلوا أسفله أعلاه ومُقدَّمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا منه . قاله قتادة .

السادس : أنهم جعلوا فيه تماثيل السمك . قاله أبو صالح .

وسألوها : ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ ..(٤٢)﴾ [النمل] ؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢)﴾ [النمل] ولما انتهى الأمر بإسلامها قالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فهى لم تُسلم خوفاً من سليمان ، ولا إرضاء له ، إنما أسلمتْ معه لله ، فأنا وهو سواء فى إسلام الوجه لله تعالى .

وعندنا فى مصر (شجر الدر)[١] ، وكان لها رأى سديد وحنكة سياسية مكنَّتها من تجاوز الأزمة لمَّا مات زوجها فأخفتْ نبأ موته ، وأدارت هى دفّة الحكم حتى لا تفُتّ فى عَضُد الجيش الذى كان خارج البلاد فى مهمة حربية (شجر الدر) هى التى أوصلتنا بالكعبة وهى التى كستْهَا ، وهى امرأة .

وهذه الأمثلة ليستْ فى تاريخ الإسلام فحسب ، إنما أيضاً فى الجاهلية وجدنا نساء بارزات لهُنَّ رأى وحكمة تفوق الرجال .

ويُروَى أن أُمامة[٢] بنت الحارث بن عمر تزوجتْ من عوف بن مُحلِّم الشيبانى[٣] وأنجبتْ له بنتاً اسمها أم أُناس ، وكانت جميلة ،

---

(١) هى أم خليل الملقبة بعصمة الدين ملكة مصر ، أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها فى أيام أبيه وحظيت عنده وولدت له ابنه خليلاً فأعتقها وتزوجها . كانت معه فى الشام مدة طويلة ، ثم لما انتقل إلى مصر ، كانت تدير أحياناً أمور الدولة ، كانت ذات عقل وحزم كاتبة قارئة ، أخفت وفاته وتوفيت عام ٦٥٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ١٥٨/٣) .

(٢) هى : أمامة بنت الحارث الشيبانية ، فصيحة نبيلة جاهلية ، كانت زوجة عوف بن محلِّم الشيبانى (الأعلام للزركلى ١١/٢) .

(٣) من أشراف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعاً فى قومه قوياً فى عصبيته وكانت تُضرب له قبة فى سوق عكاظ . توفى عام (٤٥ هـ / ٥٨٠م) (الأعلام للزركلى ٩٦/٥) . وكانت قبته لا يدخلها جائع إلا شبع ولا خائف إلا أمن . (كتاب المحبَّر)

تسامع العرب بجمالها وفصاحتها ، فأراد أنْ يتزوجها عمرو بن حُجْر أمير كندة ، وكان سيِّداً من سادات العرب .

فقال عمرو لصاحبه ابن سنان : أرأيتَ يا بن سنان لو أنِّى خطبتُ من أىِّ حَىٍّ من العرب أيردُّوننى ؟ قال : نعم ، أعرف مَنْ يردك ، قال : مَنْ ؟ قال : عوف بن مُحلِّم ، قال : فهيا نذهب إليه .

فلما ذهبا ودخلا عليه قال : مرحباً بك يا عمرو ، ماذا جاء بك ؟ قال : أتيتُكَ خاطباً ، قال له : ولكنك لستَ هنالك - يعنى : لستَ كُفؤاً لأنْ تتزوج ابنتى . سمعت امرأة عوف هذا الحوار فقالت له : يا عوف ما رجلٌ جاء إليك راكباً فلم يُطِلْ معك الكلام ؟

فقال : إنه عمرو بن حجر سيد من سادات العرب ، فقالت : ولماذا لم تستنزله ؟ يعنى : تستضيفه وتكرمه - قال : لأنه استهجننى ، قالت : بماذا ؟ قال : أتانى خاطباً ، قالت : إنْ كان سيداً من سادات العرب وجاءك خاطباً ، فمَنْ تُزوِّج بناتك إنْ لم تُزوِّجهن سادات العرب ؟ الحق به واسترضه .

لحق عوفٌ بعمرو وصاحبه ابن سنان وناداه : يا عمرو اربع علىَّ ولك عندى ما تحب ، فرجع عمرو وصاحبه ، فقال عوف : أتيتنى وأنا مُغْضَبٌ وقلتُ لك ما قلتُ ، ولكن راجعتُ نفسى ، وأخذه إلى البيت .

وكان عند عوف ثلاث بنات : كبرى ووسطى وصغرى . فجاء إلى الكبرى . وقال لها : يا ابنتى إن عمرو بن حُجْر جاء يخطبك ، فقالت : لا يا أبى ، قال : لم ؟ قالت : إنِّى امرأة فىَّ ردة - يعنى فى وجهى شىء يردُّ الناظر إليها - وفى خُلُقى شدة ، والحارث ليس بجار لك

ولا أنا بنت عمه ، وأخشى إنْ حدث شيء منى أنْ يطلقنى فيصبح ذلك سُبَّة لى ، قال : قُومى بارك الله فيك .

ثم ذهب إلى الوسطى فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا يا أبى إنِّى امرأة لستُ جميلة ولا صَنَاع[1] وأخشى أنْ يُطلِّقنى فيصبح ذلك سُبَّة لى .

فقال لها : قومى بارك الله فيك .

ثم جاء بالصغرى وقال لها مثل ما قال لأختيْها ، فقالت له : نعم يا أبى ، فأنا الحسنة خُلُقاً ، والجميلة خَلْقاً ، والصَّنَاع يداً ، فإنْ طلَّقنى فلا باركَ الله له ولا أخلف عليه .

فخرج عوف وقال لعمرو : زوَّجتُكَ ابنتى الصغرى بهيسة ، ثم أعدَّ له خباءً فى بيته ليدخل فيه على عروسه ، فلما دخل عليها قالت له : لقد كنتُ أحببتُك واحترمتُك ، لكنى الآن زهدتُ فيك ، قال : لم ؟ قالت : أيكون هذا عند أبى وبين إخوتى ، والله لا يكون أبداً .

فقال : إذن نرحل إلى ديارنا .

وأمر صاحبه ابن سنان أنْ يسير مع الركْب ، وتخلَّف هو فى جانب الطريق ودخل عليها ، فقالت : أهكذا كما يُفعل بالسَّبية الأخيذة ، والله لا يكون أبداً إلا حين تذهب إلى حَيِّكَ وتنحر وتذبح وتُطعم الناس ، وتصنع ما يصنع مثلُك لمثلى .

فلما وصل إلى حيِّه ذبح الذبائح وأطعم الناس ، ثم أراد أنْ يدخل

---

(١) المرأة الصَّناع : أى الحاذقة الماهرة بعمل اليدين . وقال ابن السكيت : امرأة صناع إذا كانت رقيقة اليدين تُسوى الأشافى المثاقب وتخرز الدلاء وتفريها . [لسان العرب مادة : صنع] .

عليها ، فقالت : يا عمرو أترغب فى النساء وفى العرب حَيَّانِ يقتتلان ، اذهب فأصلح بينهما أولاً ، ثم لا يفوتك من أهلك شيء .

خرج عمرو وأصلح بين الحيَّيْن ودفع دِيَة القتلى من الجانبين ثلاثة آلاف بعير من ماله ، ثم عاد إلى زوجته فلما علمتْ بما فعل قالت له : الآن يا حارث[1] . هذه أمثلة من النساء اللاتى كان لهُنَّ عقل راجح ورأى سديد وقدرة على الجدل .

ولما أراد عمر خطبة أم أُناس[2] بنت عوف دعا امرأة من كندة اسمها عصام ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى عِلْمَ ابنة عوف ، فذهبتْ إلى بيت عوف وقابلتْها أمامة ، وعرفتْ منها سبب مجيئها ، جعلتْ أُمامة لبنتها خيمة وقالت : اجلسى فيها وستدخل عليك عصام فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخَلْق ، وناطقيها فيما استنطقتك به ، لأنها جاءت لكذا وكذا .

دخلتْ عصام على أم أُناس فوجدتها كما أرادتْ ، لم تُخْفِ عنها شيئاً . فقالت : تَرَكَ الخداع من كَشَفَ القناع[3] ، فصارت مثلاً عند العرب حتى الآن .

---

(١) ذكر هذه القصة بكاملها أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب (الأغانى) ، وابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب الثالث فى الشرف والرياسة .

(٢) أم أُناس بنت عوف ، كان أبوها قد أراد أن يئدها ثم قال : دعها لعلها أن تلد أناساً فسُمِّيت أم أناس .

(٣) هذا المثل ذكره ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) والزمخشرى فى (المستقصى فى أمثال العرب) ، وأبو حاتم السجستانى فى (المعمرون والوصايا) وأبو هلال العسكرى فى (جمهرة الأمثال) ، والميدانى فى (مجمع الأمثال) .

فلما انتهت إلى عمرو قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : أبدى المخض عن الزبد - يعنى : الرحلة جاءتْ بالنتيجة المرضية - فقال لها : ناطقينى ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً ، ثم أخذتْ تصف له أم أُناس (من ساسها لرأسها) ونكتفى هنا بوصف ما لا يحرم .

قالت : رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة ، يُزينها شعر كأذناب الخيل المضفورة ، إن مشطته خلْتَه السلاسل ، وإنْ أرسلتْهُ قلتَ : عناقيد كَرْم جَلاَها الوابل(١) ، تحتَه حاجبان مُتقوِّسان كأنما خُطَّا بقلم أو سُوِّدا بحمم ، قد تقوَّسا على عينى الظبية العبهرة(٢) التى لم يرعها قانص(٣) ، ولم يُفزعها قسورة(٤) .

بينهما أنف كحدِّ السيف المصقول لم يخنس به قِصَر ، ولم يُمعن به طول ، حلَّقت به وجنتان كالأرجوان فى بياض مَحض كالجُمان ، فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، ذو ثنايا غُرّ ، وفيه لسان مُلىء بياناً ، يزينه شفتان حمراوان كأنهما الورد ، يجلبان ريقاً كالشهد ، وتحته عنق كإبريق الفضة اتصل به عضدان ممتلئان .. إلى آخر ما قالتْ عصام فى الوصف(٥) .

---

(١) عناقيد كرم جلاها الوابل : أى عناقيد عنب قد جلاها ماء المطر .

(٢) العبهرة : الممتلئة الجسم وجمعت الحسن والجسم والخلق . [لسان العرب - مادة : عبهر] . والعبهرة : المرأة الحسناء . (خزانة الأدب) لعبد القادر البغدادى .

(٣) القانص : الصائد . ولم يرعها قانص : أى لم يفزعها ، فعين الغزالة التى لم يفزعها صائد تجدها واسعة حالمة من الهدوء والدعة والراحة ، كذلك هذه المرأة .

(٤) القسورة : الأسد . وقيل : هم الرماة من الصيادين . وفى القرآن الكريم ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر] .

(٥) أورده ابن عبد ربه الأندلسى فى (العقد الفريد) فصل : صفات النساء وأخلاقهن . والمحب الدمشقى (ت ١٦٩٩ م) فى كتابه (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) والميدانى فى مجمع الأمثال (مثل ما وراءك يا عصام) والنويرى فى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) حرف الميم : قولهم ما وراءك يا عصام .

وقبل أنْ تغادر أم أُناس بيت أبيها إلى بيت زوجها لم يَفُتْ أمامة بنت الحارث أنْ توصي ابنتها هذه الوصية الغالية التي تضمن لها السعادة الزوجية ، إنْ هي التزمت بها ، واسمع أمامة تقول[1] :

أيْ بُنيَّة .. إن الوصية لو تُركَتْ لفضل أدب تُركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغنَى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ، ولهُنَّ خُلِق الرجال .

أي بنية .. إنك مفارقة الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العُشَّ الذي فيه درجْتِ ، إلى وكْر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحفظي له خصالاً عشراً يكُنْ لك ذُخراً :

أما الأولى والثانية : فالرضا له بالقناعة ، وحُسْن السمع له والطاعة . وأما الثالثة والرابعة : فالتفقُّد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينُه منك على قبيح ، ولا يشُمّ أنفه منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإنَّ تواتُرَ الجوع ملْهبة ، وتنغيص النوم مَغْضبة . وأما السابعة والثامنة : فالإحراز لماله ، والإرعاء على حَشمه وعياله ، ومِلاك الأمر في المال حُسْن التدبير وفي العيال حُسْن التقدير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تَعصينَّ له أمراً ، ولا تُفشينَّ له سراً ، فإنك إنْ خالفت أمره أوغرتِ صدره ، وإن أفشيتِ سرَّه لم تأمني غدره .

---

(١) ذكر هذه الوصية الأبشيهي في كتابه (المستطرف في كل فن مستظرف) باب : ذكر النساء وصفاتهن - الفصل الأول .

ثم إياك والفرح بين يديه إنْ كان مُهتماً ، والكآبة بين يديه إنْ كان فَرِحاً ..هذه نماذج من النساء صاحبات العقل الراجح والتفكير السديد . ولو أخذت الزوجاتُ بهذه النصيحة لكفَتْنَا شراً كثيراً من الخلافات الزوجية التى نعانى منها اليوم .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾

هذه دعوى أخرى من دعاواهم وافتراءاتهم على الله ، وتأتى هذه الآية بعد أنْ نسبوا إلى الله الولد ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ..(١٥) ﴾ [الزخرف] ثانياً نسبوا إلى الله البنات واستأثروا لأنفسهم بالبنين ، وقد أوضح الحق سبحانه فساد معتقداتهم وردَّ عليهم بالحجة وبالدليل من واقعهم المعاش .

وهنا يصفون الملائكة الذين هم عباد الرحمن بالأنوثة وهذا افتراء آخر ، يردّ الله عليهم ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ .. (١٩) ﴾ [الزخرف] يعنى : كيف يحكمون هذا الحكم على الملائكة ، أشهدوا خلق الملائكة وعلموا أنهم إناث ، ثم يهددهم ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف] ستُكتب وتُسجَّل عليهم ويُسألون عنها يوم القيامة ، ويُحاسبون على كل هذه الافتراءات .

وفى موضع آخر يقول سبحانه ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وجاء الواقع ليثبت صدق هذه الآية ، ورأينا المضلين فى كل زمان يُضلون الناس ويصرفونهم عن الحق ، بدايةً من الذين نسبوا لله الولد ، ونسبوا لله البنات ، ووصفوا الملائكة بأنهم إناثٌ إلى الذين

قالوا بأن الإنسان أصله قرد وتطور .

ونسأل كل هؤلاء : أشهدتُم خلق الله ؟ الله الخالق يقول : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١)﴾ [الكهف] إذن : لا تُصدِّقوا هؤلاء فهم كذابون ومُضلون ، وقد سخرهم الله تعالى لخدمة الحق ، وجعلهم دليلاً على صدق كلامه .

ومن هؤلاء المضلين قوم أنكروا سنة رسول الله ﷺ وقالوا : نأخذ بما في القرآن فقط ولا نعترف بالسنة ، وقد جاءت هذه الجماعة دليلاً على صدق سيدنا رسول الله الذى أخبر بمجيئهم قبل أربعة عشر قرناً ، فقال ﷺ :

« يوشك رجل منكم يتكيء على أريكته يقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألاَ وإنَّ ما قال رسول الله كما قال الله »[1] .

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ[2] مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾

هذه دعوى أخرى من دعاواهم وافتراءاتهم على الله ، لذلك يرد الله

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك الرجل يتكيء على أريكته يُحدَّث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما كان فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣٢) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطني (٤/٢٨٦) في سننهم ، واللفظ للدارقطني .

(٢) علَّقوا كفرهم وشركهم على أنه مشيئة الله وقدره ، ولو أراد الله ما عبدنا ما عبدنا . وهي دعوى باطلة صحيح أنه لا يحدث شيء في كونه إلا بعلمه ولكنه لا يريد لعباده الكفر ولا يرضاه لهم .

عليهم بأن هذا الكلام كذب وافتراء تقولونه دون وعى ودون علم ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ[1] (٢٠) ﴾ [الزخرف] يعنى : ما هم إلا يكذبون فى هذا الادعاء .

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) ﴾

لماذا يفعلون هذا ؟ هل جاءهم بذلك رسول يقول لهم هذا الكلام ، أو يجيز لهم أنْ يعبدوا الأصنام ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) ﴾ [الزخرف] يعنى : بقوة .

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾

إذن : القضية قضية تقليد أعمى دون تفكير أو تأويل ، فقالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : على دين أو على ملَّة أو طريقة مقصودة من الفعل (أمَّ) يعنى : قصد ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم (٢٢) ﴾ [الزخرف] على طريقتهم ﴿ مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : هذه الطريقة هى التى تدلنا وتهدينا .

والقرآن الكريم تناول هذه القضية بتفصيل فى مواضع أخرى ، ففى آية قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) يخرصون : يكذبون . والخرَّاص : الكذاب . [القاموس القويم ١/١٩١] . والخرْص : الحزْر والحدْس والتخمين بما لا علم لهم به .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة]

وتأمل دقة الأداء القرآنى فى هاتين الآيتين ، وكيف خُتمت كل آية بما يناسبها ، أولاً تجد أن المعنى العام للآيتين واحد ، لكنهم فى الأولى قالوا : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى الأخرى قالوا : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٠٤)﴾ [المائدة]

فاستخدموا أسلوب القصر والحصر ، وقصروا عبادتهم على ما وجدوا عليه الآباء ، فالإعراض فى هذه أقوى من الأولى ، لذلك جاء ذيل الآية بما يناسب إعراضهم .

ففى الأولى قال تعالى رداً عليهم بهذا الاستفهام التعجبى ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة] وقال فى الأخرى : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة] فما الفرق بين ﴿لا يَعْقِلُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة] و ﴿لا يَعْلَمُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة] ؟ يعقلون يعنى : هو الذى يستنبط المسائل بنفسه وبعقله ، أمَّا يعلمون . أى : لا يقدر على الاستنباط إنما يعلم من استنباط غيره .

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا[1] إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾

(١) الترف : التنعُّم . والمترفون : المتنعمون المتمادون فى الترف فادى إلى طغيانهم وبطرهم .
[القاموس القويم ١/٩٩ بتصرف] .

قوله تعالى : ﴿مَن نَّذِيرٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] يعنى : من رسول ، فما من رسول أُرسل إلا وُوجِه بهذا التكذيب وبهذا العناد ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا (٢٣)﴾ [الزخرف] المترفون هم المنعَّمون المنغَمسون فى الشهوات ، فهم دائماً قادة الكفر وقادة التكذيب للرسل ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] على ملَّة أو على طريقة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] يعنى : سائرون وسالكون نفس طريقتهم .

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٤)﴾

هذا يدل على تصميمهم على الإعراض وتمسكهم بالضلال الذى هم عليه وآباؤهم .

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾

لأن هذه سُنة الله فى الرسل وفى كل مُكذِّب للرسل ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ثم يأتى الحق سبحانه بما يفسد عملية التقليد هذه ويبطلها ويُبيِّن كذبهم فيها ، فيقول تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾

يريد الحق سبحانه أنْ يكشف زيفهم ويفضح كذبهم فى قولهم ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] ويسوق لهم الدليل الواقعى من واقع حياتهم ، فها هو سيدنا إبراهيم الخليل أبو الأنبياء ومحطّ أنظار العرب جميعاً يُقدِّسونه ويفتخرون بالانتساب إليه .

يقولون : نحن من نسل إبراهيم ، وإبراهيم لم يُقلِّد أباه فى عبادته للأصنام ، فلماذا تُقلدون أنتم آباءكم ولم تقلدوا إبراهيم ؟

فالحق سبحانه ينقض مسألة التقليد عملياً فى قصة سيدنا إبراهيم وينقضها فلسفياً أيضاً ، فلو تتبعتَ الوجود الأول لم نجد إلا آدم عليه السلام ، وآدم جاء بمنهج وسار عليه وسار عليه أولاده من بعده ، فكيف حدث الانحراف عن هذا المنهج ؟

إذن : لا بدَّ أنه جاء مع مرور الزمان أُنَاسٌ خرجوا على المنهج وقلبوا الحقائق لهوىً فى أنفسهم ، ومن هؤلاء جاء جيل يعبد الأصنام ، لأنهم غير محكومين بمنهج السماء ولا بقضية التكاليف : افعل ولا تفعل ، فناسبهم عبادة آلهة لا تكليفَ عندها ، لذلك عبدوا الأصنام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الزخرف] دار حولها جدلٌ واسع بين العلماء[1] : أهو أبوه الحقيقى أو هو عمه آزر ؟

---

(١) قال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) [الأنعام - ٧٤] : « أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن اسم أبى إبراهيم يازر واسم أمه مثلى . وإلى كون آزر ليس اسماً له ذهب مجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهما . واختلف الذاهبون إلى ذلك فمنهم من قال : إن آزر لقب لأبيه . ومنهم من قال : اسم جده . ومنهم من قال : اسم عمه والعم والجد يُسميان أباً مجازاً . ومنهم من قال : هو اسم صنم . ومنهم من قال : هو وصف فى لغتهم ومعناه المخطىء أو الأعوج أو الشيخ الهرم » .

المتتبع لكلمة (أبيه) فى القرآن يجد أنها وردت ثمانى مرات ، أولها فى سورة الأنعام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام] وآخرها فى سورة الممتحنة ، ولم تأت كلمة (لأبيه) بعد ذلك إلا مرة واحدة فى قصة سيدنا يوسف ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : لم تأت آزر إلا فى آية الأنعام فقط ، وهى أول الآيات الثمانية ، فكأن الحق سبحانه حسم الخلاف فى هذه المسألة ، فأراد أنْ يُبيِّن لنا أن آزر عمه ، بدليل أنه قال ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام] وفى باقى المواضع قال (لأبيه) أى : الذى عرفتموه أولاً . أى : فى سورة الأنعام .

وهذا أمر شائع فى لغتنا أن نقول للعم أب ، فحين يسأل رجل : أبوك موجود ؟ تفهم أنه يريد الأب الحقيقى ، إنما لو قال لك : أبوك محمد موجود ؟ فهو يقصد عمك لأنه حدَّده بالعلَم بعد الوصف .

والقرآن يُدخل العمَّ ضمن الآباء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة]

فكلمة ﴿ آبَائِكَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة] جمع يشمل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وإذا اجتمع جمع فى حكم جمع تكون القسمة مفردة ، فتأخذ أب هو إبراهيم ، وأب هو إسماعيل ، وأب هو إسحاق ، فهؤلاء الثلاثة آباء ليعقوب ، وإسماعيل أخو إسحاق ، وإنْ كان إسماعيل هو الأب إذن إسحاق ليس أباً ، بل هو عَمّ . إذن : سُمِّىَ العَمُّ أباً .

لذلك الحق سبحانه فى أول آية تتكلم عن سيدنا إبراهيم ذكر ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام] ليُبيِّن أن آزر الذى جادله إبراهيم وناقشه

فى مسألة التوحيد ليس أبا إبراهيم الحقيقى ، إنما هو عمه .

ونجد دليلاً على ذلك من سنة سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال فى الحديث عن أصله ﷺ : « ما زلتُ أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، فأنا خيارٌ من خيار »(١) .

وسلسلة النسب النبوى تصل إلى أبيه إبراهيم ، فلا يصح إذن أنْ يكون أبو إبراهيم كافراً عابداً للأصنام .

وقوله : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾ [الزخرف] براء بمعنى برىء ، والفرق بينهما أن براء تُقَال للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر والمؤنث ، أما برىء فتُثنَّى وتُجمع ، وتُذكَّر وتُؤنّث ، وفى موضع آخر وصفهم بالعدو : ﴿فَإِنَّهُمْ (٧٧)﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء] فما دام فى المسألة شِرْك أو كفر بالله فأنا أتبرأ منه .

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾

معنى : ﴿فَطَرَنِي (٢٧)﴾ [الزخرف] خلقنى وأبدعنى ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾ [الزخرف] دلَّتْ على أن المنهج لا بدَّ أن يكون من الذى خلق ، فهو الذى يضع المنهج ، وهو الذى يهدى ، ولا يصح أن الله يخلق والناس تضع المنهج .

كما قلنا فى مسألة الصانع الذى يضع (كتالوج) لصيانة

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ ذكرته معظم كتب التفسير ولم يذكروا له سنداً أو راوياً أو من أخرجه ولم يعزه أحد منهم إلى أى كتاب . ولكن ورد عند ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢٧٨/١) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة] بفتح الفاء وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح ».

صَنْعته لأنه الأدْرى بها الخبير بما يُصلحها .

هنا قال : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف] بالسين الدالة على الاستقبال ، وفي موضع آخر قال ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الزخرف] بالمضارع ، وهذا يدل على الهداية من الله متصلة في الحاضر والمستقبل .

ولأن الهداية والمنهج لا يكون إلا من الذي خلق ؛ استخدم أسلوب القصر : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف] وفي آية الشعراء ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فقدَّم الضمير المنفصل على الفعل ، ليدل على قَصْر الفعل على الله تعالى ، لأن هذه الأفعال بها شُبْهة المشاركة مع الله تعالى ، أما في الأفعال التي لله وحده لا شبهةَ للمشاركة فيها ، فتأتي بدون قَصْر : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾[1]

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَهَا (٢٨) ﴾ [الزخرف] أي سيدنا إبراهيم جعل كلمة البراءة من الشرك ، أو كلمة التوحيد التي وردتْ في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦١٢٢/٩) أن الضمير في (جعلها) عائد على قوله ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي .. (٢٧) ﴾ [الزخرف] . وضمير الفاعل في (جعلها) لله عز وجل ، أي : وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية في عقبه وهم ولده وولد ولده ، أي : أنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله .

جعل هذه الكلمة ﴿ بَاقِيَةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف] سائرة ﴿ فِي عَقِبِهِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف] فى ذريته من بعده ، وما زالت هذه الكلمةُ باقيةً ودائرة على ألسنة الناس حتى يوم القيامة ، لأنها كلمةٌ طيبة ، والكلمة الطيبة ضَمِنَ الحق سبحانه لها البقاء فى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا [1] كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وسماها كلمة مع أنها كلام ، لأن الكلمة فى اللغة تُطلق على الكلام ، كما نقول : ألقى فلانٌ كلمة فى الحفل ، وابنُ مالك فى الألفية يقول :

وكِلمَةٌ بِهَا كَلاَمٌ قَدْ يُؤمّ .

يعنى : نقصد بالكلمة الكلام الكثير .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلنا : إن المنهج ينطمس وينصرف الناسُ عنه بمرور الزمن حتى تدعوَ الحاجةُ لنبى جديد يُعيد الناس إلى الجادَّة ، لأن الحق سبحانه خلق فى النفس البشرية مناعة طبيعية لأنه خليفة الله فى أرضه ، فهو الذى سيعمر هذه الأرض ، فلا بدَّ أن يُوفر له أسباب الاستقامة

---

(١) الأُكل : ما يُؤكل أو الثمر الصالح للأكل . [القاموس القويم ١/ ٢٣] والأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يُؤكل فهو أُكل . [لسان العرب مادة : أكل] .

والحركة الإيجابية التى يعمر بها الأرض .

لذلك نرى الإنسان السَّوى حينما يفعل المعصية حين غفلة منه عن منهج ربه يُسرع بالتوبة والندم ، لأن الاستقامة وبذرة الإيمان فى ذاته ، فإذا أصيب المرءُ فى ذاته وفقد هذه المناعة تأتى المناعة من المجتمع ، المجتمع الواعى المدرك لدوره الجماعى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا فقد المجتمع هو الآخر هذه المناعةَ لم يَبْق إلا أن تتدخَّل السماء برسول جديد ومنهج جديد .

إذن : حدث الانصرافُ عن المنهج بعد إبراهيم وإسماعيل ، فكانت رسالة محمد ﷺ ، فسيدنا إبراهيم جعل كلمة التوحيد باقية فى عقبه ﴿ لَعَلَّهُمْ (٢٨) ﴾ [الزخرف] أى : ذريته من بعده ﴿ يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [الزخرف] أى : إلى الله .

لكن لم يحدث ، فقال سبحانه : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰؤُلاءِ (٢٩) ﴾ [الزخرف] أى : كفار مكة ﴿ وَآبَاءَهُمْ (٢٩) ﴾ [الزخرف] بالجاه والسلطان والنعيم والأمن ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (٦٧) ﴾ [العنكبوت] وجعل لهم منزلة وقداسة بين العرب لمكانتهم من البيت ، وظلَّتْ لهم هذه المنزلة ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ (٢٩) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) ﴾ [الزخرف] أى : محمد ﷺ و ﴿ مُّبِينٌ (٢٩) ﴾ [الزخرف] يعنى : يظهر الحقَّ على يديه وفى كل شىء فيه .

لكن هل آمنوا بهذا الحق ، وصدَّقوا بهذا الرسول ؟ لا ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) ﴾ [الزخرف] أى : أن القرآن سحرٌ يَسحر مَن استمعه ، وفى موضع آخر قالوا عن الرسول أنه ساحر .

وقلنا : إن الرد على هذا الافتراء سهلٌ ، فلو كان القرآن سحراً ولو كان محمدًا ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، وتنتهى المسألة ؟ إذن : وجودكم على الكفر دليلُ صدق محمد ، وأنه نبى ليس بساحر .

ولما لم تفلح هذه الشبهة قالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل] أى : أن رسول الله يختلف إلى رجل فارسى[1] يُعلِّمه القرآن ، فرد الله عليهم ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]

فقالوا عنه ﷺ : مجنون ، فردَّ الله عليهم : ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] والمجنون لا يكون صاحب خُلُق عظيم ، لأن الخُلُقَ يضبط سلوك صاحبه .

فلما أبطل الحق سبحانه دعاواهم وافتراءاتهم وردّ عليهم بما يُظهر غباءهم قالوا :

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير آية ١٠٣ النحل) تسعة أقوال فيمن ادعوا أنه كان يُعلم رسول الله :
- غلام لبنى المغيرة يقال له « يعيش » يقرأ التوراة . ويقال : كان رومياً .
- فتى كان بمكة يسمى «بلعام» وكان نصرانياً أعجمياً .
- أنه نزلت فى كاتب كان يكتب لرسول الله .
- أنه غلام أعجمى لامرأة من قريش يقال له « جابر » وكان جابر يأتى رسول الله فيتعلم منه فقال المشركون : إنما يتعلم محمد من هذا .
- أنهم عنوا به سلمان الفارسى . وفيه بُعْد من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة وهذه الآية مكية.
- أنهم عنوا به رجلاً حداداً كان يقال له « بُحنَّس » النصرانى .
- أنهم عنوا به غلاماً لعامر بن الحضرمى وكان يهودياً أعجمياً واسمه يسار ويكنى أبو فكيهة.
- أنهم عنوا غلاماً أعجمياً اسمه « عايش » وكان مملوكاً لحويطب وكان قد أسلم . قاله الفراء والزجاج .
- أنهما رجلان يقال لأحدهما « يسار » وللآخر « جبر » وكانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن الإنجيل .

﴿ وَقَالُوا(١) لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وهذا إقرار منهم بأن القرآن حَقّ ولا اعتراضَ عليه ، إنما اعتراضهم على شخص رسول الله ، وأنه من أوسط الناس وليس عظيماً من عظمائهم ، ولا سيداً من ساداتهم في القريتين أي : مكة والطائف . وقد كان في الطائف عروة بن مسعود الثقفي ، وفي مكة الوليد بن المغيرة وغيرهم . فردَّ الله عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا(٢) بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يعني : إذا كنا قسمنا بينهم أبسط الأشياء وهي معايشهم في الدنيا أيريدون هم أنْ يقسموا رحمة الله وفضل الله حسْب أهوائهم ، ورحمة الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ، فهي في يده سبحانه لا دخْلَ لأحد في توزيعها .

---

(١) رُوي أن الوليد بن المغيرة - وكان يسمى ريحانة قريش - كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علىَّ أو على أبي مسعود (يقصد عروة بن مسعود الثقفي من الطائف) . [تفسير القرطبي ٩/٦١٢٨] .

(٢) قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مُقتَّر عليه . [ذكره القرطبي في تفسيره ٩/٦١٢٨] .

فقوله تعالى ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف] دلَّ على عجز الإنسان ، وأن حركة الحياة لا تنصلح إلا بمنهج الله الذى ينظمها .

ومن حكمة هذه القسمة أنْ جعل بعضَ الناس أغنياء وبعضهم فقراء ، بعضهم سادةٌ وبعضهم خَدَم ، ولولا هذه القسمة ما استقامتْ حركة المجتمع وما وجدنا مَنْ يقوم بالأعمال الشاقة أو الأعمال الحقيرة .

وسبق أنْ أوضحنا أن حركة المجتمع وتقدمه لا يقوم على التفضُّل ، إنما على الحاجة ، فحاجة الفقير هى التى تدفعه للعمل .

والرحمة المرادة هنا ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢) ﴾ [الزخرف] هى النبوة ، فهم يطمعون فى أنْ يجعلوها اختياراً يختارونه من ساداتهم وكبراء القوم فيهم ، فالحق سبحانه يُصحِّح لهم ويقول : كيف تطمعون فى ذلك وأنتم لا تقدرون على قسمة أبسط الأشياء ؟

ثم تلاحظ أن كلمة ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف] كلمة مبهمة تعنى أن الكلّ مرفوع ومرفوع عليه ، مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر .

وهكذا يتكامل الخَلق ، وتتم المصالح ، وتُقضى حاجات المجتمع كما قال الشاعر :

النَّاسُ للناسِ مِنْ بَدْوٍ وحَاضِرةٍ ... بَعْضٌ لبعْضٍ بمَا لاَ يعلموا خَدَمُ

فأنت مرفوع فيما تُحسنه من الأعمال ، ومرفوع عليك فيما لا تجيده ، هذا معنى قوله تعالى ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢) ﴾ [الزخرف]

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف] المراد برحمة ربك هنا الرسالة والمنهج الذى يهدى الخَلْق إلى طريق الحق ، هذه الرحمة فى الحقيقة خيرٌ من هذا المتاع الزائل الذى تتنافسون عليه فى الدنيا ، لأن الإنسان مهما وصل فى الدنيا إلى الرفاهية والترف والنعيم فسوف يموت ويتركه ولن يبقى له منه شىء .

أما منهج الله فيُورثك فوزاً باقياً تسعد به فى الدنيا وتفوز به فى الآخرة . إذن : هو خير وهو أبْقى ، وهو أنفع لك وأدوم ، هذا المنهج يضمن لك صلاحَ الدنيا وسلامة الآخرة ؛ لذلك كان هو ﴿ خَيْرٌ (٣٢) ﴾ [الزخرف] من كل ما تراه من بريق الدنيا .

ثم يتكلم الحق سبحانه عن الكافرين الذين ملكوا الدنيا ، وأخذوا كل مظاهر الزينة والترف والنعيم ، وتحكموا حتى فى قوت ومصائر المسلمين ، وبيَّن أن هذا الزخرف شكلٌ ظاهرى زائل ، والعاقبة لا بدَّ أنْ تكون لأهل الإيمان فى النهاية :

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾

---

(١) معارج : جمع معراج ، ومعنى ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى وقد تحقق ذلك بالمصاعد الكهربية فى البيوت العالية . [القاموس القويم ٢/١٣] .

معنى ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً (٣٣) ﴾ [الزخرف] يعنى : على دين واحد مجتمعين على الكفر ، ولولا أن الناس يروْنَ الكافرين مُنعَّمين فيفتنون بهم لجعلتُ لهم كلَّ هذا النعيم ، بحيث لا يكون أحدٌ أفضلَ منهم لأن هذا النعيم نعيم الدنيا ينتهى بنهايتها ولا يدوم ، وإنْ كانت الدنيا لحساب الكافرين فالآخرة للمتقين .

والقرآن هنا يخبر بارتقاءات البشر التى عرفوها بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن ، فالمعارج يعنى : المصاعد أو السلالم التى يُصعد عليها ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف] يعنى : يصعدون ويرتقون .

فكأن الحق سبحانه يُهوّن من أمر تنعُّم الكافرين ، حتى لا نغتر نحن بهم ، ولا نتمنى ما هم فيه من زخرف زائل .

وبعد ذلك يُبيِّن لنا أن المنعَّمين والمترفين يأتى عليهم وقت يحبون فيه الرجوع إلى الأصل الأول وإلى بساطة الطبيعة ، فتراهم مثلاً فى نهاية الأسبوع يخرجون إلى الخلاء ويرتمون فى أحضان الطبيعة يأكلون مما تنبت الأرض ويعيشون على الكفاف ، لماذا ؟ لأنهم ملُّوا حياة الرفاهية الزائدة ، ملُّوا حياة التحضر وما فيها من عيوب وسلبيات .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) ﴾

معنى : ﴿ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ (٣٦) ﴾ [الزخرف] يعنى : يُعرض

عنه أو يتعامى ويغفل عنه ، ولأنه غفل عن شيء هام لا ينبغي أن يغفل عنه أو يعرض يعاقبه الله ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا (٣٦) ﴾ [الزخرف] نعد له شيطاناً ونهيء له شيطاناً ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ [الزخرف] يعني : ملازم له يضله ويوسوس له .

قلنا : لأن الحق سبحانه الغني عن خَلْقه ، وهو ربّ المؤمن وربّ الكافر ، لذلك يُعين كلاً على ما يريد ، فمَنْ أراد الهداية أعانه عليها وزاده منها ، ومَنْ أراد الكفر ختم على قلبه بحيث لا يدخله إيمان ولا يخرج منه الكفر ، لذلك أتَى هنا بصفة (الرحمن) .

لذلك أكثر ما يجيء الشيطان للإنسان وقت الصلاة ليفسد عليه علاقته بربه ، قلنا : إنه يأتي المسجد ولا يأتي الخمارة ، لذلك قال كما حكى عنه القرآن : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

ذكرنا قصة الرجل الذي وضع مالاً في مكان ما ، ثم نسيه ، فقال له صديقه : اذهب إلى أبي حنيفة[1] فعنده مَخْرج لكل المسائل ، لأنني ذهبتُ إليه استفتيتُه في طلاق زوجتي لأنني قلت لها وهي على السُّلم : أنت طالق إنْ نزلتِ ، وطالق إنْ صعدت ، فقال له أبو حنيفة : قُلْ لها تُلقي بنفسها من على السُّلم .

المهم ذهب صاحبنا إلى أبي حنيفة وقال له : لقد وضعتُ مالاً في مكان كذا ، ونسيتُ موضعه ، فماذا أفعل ؟ قال أبو حنيفة : ليس

---

(١) أبو حنيفة إمام الحنفية هو النعمان بن ثابت فقيه مجتهد محقق ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، قيل : أصله من فارس ، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه ولد ٨٠ هجرية وتوفي ببغداد عام ١٥٠ هجرية عن ٧١ عاماً .

فى هذا علـم ، لكنّى سـأحتـال لك : إذا جـاء الليـل اذهب وصَلِّ لله ركعتين لأن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر يُهرع إلى الصلاة[1] .

وفعلاً ذهب الرجل ، وهو فى صلاته جاءه الشيطان يُوسوس إليه بمكان المـال حـتى ذكَّره به ، وفى الصـبـاح قابل الرجلُ أبا حنيفـة وقصَّ عليه ما حـدث ، فضحك أبو حنيفـة وقال : والله لقد علمتُ أنه لنْ يدعك تُتم ليلتك مع ربك ، فهـلا أتممتها شُكراً لله ؟ قـال : سأفعل إن شاء الله .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أى : هؤلاء القرناء قرناء السـوء ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : يصـرفـونهم ويمنعـونهم عن الحق وعـن الطريق المستقيم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف]

لذلك قـال فى موضـع آخـر : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان]

وقرناء السوء قرناء فى الدنيا فحسب ، أما فى الآخرة فسيكونون أعداء ، يلوم كُلٌّ منهم صـاحبه ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه . وحزبه الأمر يحـزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب : شديد . والمقصود إذا نزل به أمر شديد أو أصابه غم .

الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

كذلك الشيطان سيتبرأ من أتباعه ويخذلهم فى الآخرة : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقد علَّمنا ربنا سبحانه وتعالى كيف نتحصَّن من الشيطان ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ (٣٨) ﴾ [الزخرف] بُعْد المشرق من المغرب ، وهذا الأسلوب يُسمَّى فى اللغة (التغليب) ، لأن المشرق يقابله المغرب ، العرب فى المتقابلات تُغلب أحدهما على الآخر ، كما يقولون مثلاً فى الشيخين أبى بكر وعمر يقولون (العمرين).

وحينما نتامل فى المشرق والمغرب من الناحية الفلكية الجغرافية نجد أن المشرق مغرب آخرين ، والمغرب مشرق آخرين ، إذن : كلاهما مشرق ، وكلاهما مغرب .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾

لأن هذه بلوى عامة تشمل الجميع ، فالبلوى حينما تصيب رجلاً

واحداً من بين الناس يعز عليه ذلك ، ويشق عليه أن يحزن والآخرون سـعـداء ، لكن لمَّـا تعمُّ البَلْوى تهـون ويخفّ وَطْؤها على الـجمـاعـة لمشاعر المشاركة ، حتى ولو كانت المشاركة فى الحزن .

وهذا المعنى عبَّرتْ عنه الخنساء[1] فى رثائها لأخيهـا صخر حين قالت :

وَلَوْلاَ كَثْـرَةُ البَـاكِيـنَ حَـوْلى   عَلَى إخْـوانِهِمْ لَقَـتلْتُ نَـفْـسى
وَمَـا يَبْكُونَ مِـثْلَ أَخِى وَلَكِنْ   أُعَـزِّى النَّفْـسَ عَنْهُ بِالتَّـأسِّى[2]

وقال آخر :

وَهوَّنَ فجَعَـاتِ المصَـائب أنَّنى   وإنْ هَصَرَتْنِى لَسْتُ فى مُرِّهَا وَحْدِى

نعم ، إذا عـمَّتْ المصـائب هانتْ ، لكن هذا فى مـصـائب الدنيا ، أمـا مصيبة الآخـرة فلا تهون ولا تُخفَّف ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ (٣٩) ﴾ [الزخرف] أى : يوم القيامة ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾ [الزخرف]

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠) ﴾

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الحارث من بنى سليم من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى الجاهلية أدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية ، كان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (عام ١٦ هجرية) فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً فقالت : الحمد لله الذى شرَّفنى بقتلهم ، توفيت ٢٤ هجرية (الأعلام للزركلى) .

(٢) البيتان من قصيدة للخنساء من بحر الوافر عدد أبياتها ١٥ بيتاً . وهى قالت البيت الأول ثم تخيلت أن قائلاً قال لها : لقد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس ، فكيف أفرطت فى الجزع عليهم دونهم ؟ فاحترست من ذلك بقولها : وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى .

المعنى - والخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ - وفِّر نفسك يا محمد ، ولا تُجهدها ولا تُحملها مَا لا تُطيق فى سبيل هداية هؤلاء .

ووصفهم بالصمم وبالعمى مع أنهم فى واقع الأمر يُبصرون ويسمعون ، يسمعون الحق ولا يتبعونه ، ويرونَ الطريق المستقيم ولا يسلكونه ، فصار مثل الأصم الذى لا يسمع ، ومثل الأعمى الذى لا يرى .

لذلك قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] إذن : هم مُعرضون معاندون متكبِّرون عن قبول الحق .

وهذا هو معنى الضلال فى ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزخرف]

وهل هناك ضلال أبْيَن وأوضح من ضلال مَنْ يرى الحق ولا يتبعه؟

والحق سبحانه وتعالى لا يخاطب نبيه ﷺ هذا الخطاب إلا إن كان فعلاً يشقُّ على نفسه ، ويكاد أن يهلكها فى سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] وخطابه بقوله ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى] ذلك لأن رسول الله كان محباً لرسالته ، ومحباً لمنهجه ، محباً لأمته جميعاً يريد أنْ يُذيقهم ما ذاق من حلاوة الإيمان ، يريد أنْ يُطبِّق فى نفسه أنْ تحب لأخيك ما تحبّ لنفسك .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ[1] الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبى ﷺ من الفتن . [تفسير القرطبى ٩/٦١٣٩] .

يعنى : يا محمد اطمئن ، فإنْ متّ فسوف نُريك عذابهم وانتقامنا منهم فى الآخرة ، وإنْ كنتَ موجوداً على قيد الحياة سنُريك عذابهم المعجّل لهم فى الدنيا .

ومعنى ﴿ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ (٤٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف] مقتدرون : مبالغة من قادر ، يعنى : نحن مقتدرون عليهم متمكّنون من إنزال العذاب بهم ، ولن يُفلتوا منا .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ﴾

يعنى : تمسَّك بقوة بما يُلْقَى إليك من الوحى ، ولا يغرنك إعراضهم عن دين الله ، لأنك أنت على الحق وهم على الباطل ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ﴾ [الزخرف] طريق قويم معتدل .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن الكريم الذى أُرسلْتَ به يا محمد ، هذا الكتاب منهج حياة وهو معجزة باقية خالدة إلى قيام الساعة ، وهذا القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (٤٤) ﴾ [الزخرف] يعنى : شرف وعزّة وفَخْر لك ولقومك - أى العرب - لأنه نزلَ بالعربية ، وكم عزَّ أقوام بعزٍّ لغات .

فشرفٌ للعربية ، وشرفٌ لكلِّ عربى أنْ ينزل القرآن بها ، والإنسان فى طبْعه يحب الفخر ، ويحب الشهرة وذيوع الصيت ،

ولا يخفى على أحد الآن أن القرآن هو الذى أعطى العربية مكانتها بين لغات العالم .

ولولا القرآن لاندثرتْ العربية كما اندثر غيرها من اللغات ، ونجد الآن كثيرين من أمم أخرى يُقبلون على تعلُّم العربية وإجادتها ليتمكَّنوا من حفظ القرآن وتفسيره وفهْم معانيه .

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

هنا وقفة تأمل لنفهم الآية ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف] كيف يسألهم رسول الله وهم أموات ، لماذا يأمره ربه عزَّ وجل هذا الأمر ؟ وإذا أمر الحق سبحانه رسوله أمراً وجب عليه أن يطيع .

وقد هيَّأ الحق سبحانه هذه الفرصة لنبيه ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج حيث التقى فعلاً بإخوانه الأنبياء السابقين ، واجتمع بهم وصلى بهم إماماً فى بيت المقدس وهم أموات بقانون الموت وهو حَىٌّ بقانون الأحياء .

وثبت أنه خاطب بعضهم ، وتحدث معه كما تحدث مع سيدنا موسى عليه السلام ، وأنه راجعه فى أمر الصلوات الخمسين ، إلى أنْ جعلها الله خمساً[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : فرض الله على أمتى خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك .. إلى أن قال الله : هى خمس وهى خمسون لا يبدل القول لدىَّ . وهو أيضاً فى صحيح مسلم (حديث ٢٣٤) .

فإنْ قلتَ : كيف يجتمع الضِّدان (ميت) و (حى) ويكون بينهما كلامٌ وتفاهم ؟ نقول : يجوز ذلك لأنه فعل القدرة وطلاقة القدرة لله تعالى ، فطلاقة القدرة لا ترتبط بقوانين الحيِّ والميت .

وسبق أنْ قلنا : إنه ينبغى أنْ ننسب الفعل للفاعل لنستريح ، فهذه المسألة غَيْبٌ نؤمن به وننسب كلَّ عجيب فيها إلى مُنشىء هذا العجب .

تذكرون قصةَ سيدنا إبراهيم لما ألقوْهُ فى النار ، ماذا حدث ؟ القانون أن النار تحرق ، لكن ماذا إنْ أرادها الله بَرْداً وسلاماً وهى ما زالت ناراً مشتعلة ؟ لما أرادها الله كانت بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ، وتعطَّل فيها قانون الإحراق .

ولو شاء سبحانه لسخَّر لهذه النار سحابة تمطر عليها حتى تنطفىء ، ولو شاء ما تمكَّنوا من إبراهيم ولا أمسكوا به ، لكن لتتم المعجزة مكَّنهم الله من إبراهيم وألقوه بالفعل فى النار وهى تشتعل ، ومع ذلك لم تحرقه ، فهذه هى طلاقة القدرة .

كذلك رأينا طلاقة القدرة فى قصة عصا سيدنا موسى لما ضرب بها البحرَ فانفلقَ ، وتجمَّد فيه الماءُ حتى صار كل فِرْق كالطوْد العظيم ، وهى نفس العصا ضرب بها الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، فالحق يعطينا لقطاتٍ لطلاقة القدرة وخَرْق العادة والقوانين لنقيسَ عليها .

بعض المفسِّرين يستبعدون هذه المسألة . أى : اللقاء بين الحى والميت - ويُؤوِّلون المعنى بما يوافق ميولهم ، فيقولون : المراد

واسأل أتباع الرسل قبلك لأنهم أخذوا الدين عنهم . وأصحاب هذا الرأى يريدون أنْ يُفلتوا من مسألة التقاء الحيِّ بالميت ، ومن إثبات هذه المعجزة الخارقة للعادة ، لكن لا غرابةَ فى ذلك ولا عجبَ لأن الفاعل مَنْ ؟ الله .

أو : أن المراد بالسؤال فى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ (٤٥)﴾ [الزخرف] ليس السؤال فى ذاته ولا الجواب فى ذاته ، إنما المراد العظَة والاعتبار على حَدِّ قول الخطيب مثلاً فى خطبة الجمعة : سَل الأرض مَنْ أجرى فيها الأنهار ، ومَنْ أنبت فيها الأشجار ، سَل الروض مُزداناً ، سَل الماء جارياً .. الخ . إذن : ليس المراد أنْ نسأل الأرض ، إنما نسأل أنفسنا ونتفكر ونتأمل .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رُّسُلنَا (٤٥)﴾ [الزخرف]

لكن أسألَ رسولُ الله مَنْ قبله من الرسل عن هذه المسألة[1] ﴿أَجَعَلْنَا من دُون الرَّحْمَـٰن آلهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف] ؟ الواقع أنه لم يسأل ، لماذا ؟ لأن عنده من اليقين ما يجعله فى غنىً عن هذا السؤال ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٤٢) : (اختلف أهل التأويل فى سؤال النبى للأنبياء من قبله على قولين :

أحدهما : أنه سألهم فقال الرسول : بُعثنا بالتوحيد . قاله الواقدى .

الثانى : أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل . وقد قال ابن عباس وابن زيد أن رسول الله لما فرغ من الصلاة بالأنبياء فى مسجد بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج قال له جبريل : (سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون) فقال رسول الله : « لا أسأل قد اكتفيت ») . وذكره ابن الجوزى فى زاد المسير وقال : رواه عطاء عن ابن عباس . وهذا قول سعيد بن جبير والزهرى وابن زيد .

فرسولُ الله ليس فى حاجة لمَنْ يؤكد له أنه ليس مع الله آلهةٌ تُعبد .

لذلك ورد عن الإمام على كرَّم الله وجهه أنه قال : لو كُشفَ عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . يعنى : أنا مؤمن بالغيبيات إيماناً راسخاً مستقراً ، وكأنى أطلع عليه وأراه ، ولو كُشف لى ما زاد فى يقينى شيء ، لأن إخبار الله لرسوله بالشيء أصدقُ من رؤيتنا له .

اقرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ومعلوم أن الرسول وُلد عام الفيل ، يعنى لم يَرَه ، لكن أخبره الله ﴿ أَلَمْ تَرَ (١) ﴾ [الفيل] يعنى : ألم تعلم ، تعلم بأى وسيلة ؟ تعلم بحواسك ، أو تعلم بخبر خالق هذه الحواس . إذن : إخبار الحق آكد وأصدق من رؤية العين .

والاستفهام فى ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ [الزخرف] يُراد منه النفى والإنكار ، فعبادةُ غير الله أمر غير وارد من الرسل ، إذن : هو من صُنْع البشر ، استحدثوه لإرضاء أهوائهم فى أنْ يكونَ لهم معبود ، لكن معبودٌ على هواهم ، معبود لا يُقيد شهواتهم ورغباتهم بمنهج (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) .

ومن هنا عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس والقمر والكواكب وغيرها ، وكلها معبوداتٌ بزعمهم هم - ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا شرَّعها فى أىٍّ شريعة من الشرائع .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) ﴾

قلنا : الآيات هى المعجزات الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وسيدنا موسى عليه السلام كان من أكثر الرسل حيازةً للمعجزات وخوارق العادات ، وهذا يعنى أن قومه كانوا أكثر خَلْق الله عناداً وإعراضاً عن المنهج ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (١٠١) ﴾ [الإسراء]

ما مناسبة أنْ يأتى القرآنُ بلقطة من قصة سيدنا موسى فى هذا الموضع ؟ قالوا : لأن كفار مكة كانوا قد اجتمعوا ووقفوا فى وجه الدعوة ، واعترضوا على أنْ تأتى الدعوة على يد محمد بالذات ، فقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

يقصدون مكة وكان فيها الوليد بن المغيرة ، والطائف وكان بها عروة بن مسعود الثقفى ، وغيرهما من سادة القوم أصحاب المال والجاه والهيبة فى القوم .

إذن : لم يكُنْ الاعتراض على القرآن ، إنما الاعتراض على مَنْ جاء القرآنُ على يديه .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يعطيهم مثلاً من موكب الرسالات ، فهذا موسى - عليه السلام - لم يكُنْ صاحبَ مال ، ولا صاحبَ جاه ولا سلطان ، وأرسله الله إلى مَنْ هو أشدّ كفراً من أهل مكة وصناديدها ، أرسله إلى فرعون الذى لم يكُنْ يعارض الدعوة إلى الله فقط ، إنما كان يقول : أنا إله .

إذن : لا عجبَ فى إرسال محمد ، وهو من عامة القوم وفقرائهم إلى السادة الأغنياء ، وهل الوليد وعروة وغيرهما من رؤوس الكفر كانوا أشدَّ من فرعون .

فالرسـالة إذن لا يُطلب فيـها أنْ يكون الرسولُ صـاحبَ مال ولا صاحبَ جـاه ولا سلطان ، ثم هذه رحمـة الله يقسمـها كـيف يشاء ، ويختار لها مَنْ يشاء ، ويصطفى من عباده .

والمتـأمل فى رسالتَىْ مـوسى ومحمـد يجد أن حيـاة موسى فى مجتمعه أقل من حياة محـمد فى مجتمعه ، لأن موسى تربَّى فى بيت فرعون إلى أنْ شبَّ وحدَثَتْ حادثة القتل التى قَـتلَ فيها موسى واحداً من القوم ، ثم جـاء رجل من أقصى المـدينة ، وقال ﴿ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص]

بعد ذلك وصل إلى مديْنَ وهناك وجد : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ[1] وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[2] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

أولاً : نقـول إن هذه الأيام تعطينا منهجـاً ودستـوراً للتعـامل مع المرأة المـسلمة ، وكيف ومـتى تخرج من بيـتها ، فـالعلة فى خروج هاتين المـرأتين أن أباهما شـيخ كبـير ، ولا يوجـد مَنْ يقضى لهـما حاجتهما .

---

(١) مدين مدينة وتسمى أيضاً بايلة وهى مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية وكان أهلها يعملون بالتجارة ، وقد بعث الله فيهم نبيه شعيباً عليه السلام لكى يحضهم على المتاجرة الشريفة .

(٢) الرعاء : جـمع راعٍ ، ومثله : الرعاة والرعـيان . وهو مـأخوذ من الرعاية والحـفظ وإحاطة الراعى بما يرعاه من دواب . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

إذن : لا تخرج المرأة من بيتها إلا لضرورة ، وإذا خرجتْ تحشَّمتْ وتحجبتْ ولم تخالط الرجال ، ثم مهمة المجتمع الإيمانى أنْ يراعى حَقَّ المرأة وأنْ يأخذ بيدها فيما تريده من عمل ، لأنه مجتمع الرحمة والقربى بين المسلمين جميعاً .

وأذكر أننا أول مرة سافرنا مكة سنة ١٩٥٠ كنا نسكن فى بيت رجل مُوسر ، كان يتطوع ويُوصِّلنا إلى العمل بسيارته الخاصة ، وفى مرة ونحن نسير وجد أمام أحد البيوت لوحاً من الخشب الذى يُوضع عليه العجين ، وكان بابُ البيت مغلقاً فنزل وأخذ اللوح فى سيارته وذهب .

فلما سألتهُ عن ذلك قال : والله عندنا عادة لما نرى البابَ مُغلقاً ، وأمامه شىء مثل هذا ، نعرف أن صاحبَ البيت غائبٌ وأهلُ البيت يحتاجون شيئاً فنقضيه لهم ، المهم أخذ الرجل لوحَ العجين وملأه بالخبز ، وبما قدَّره الله عليه ، وأعاده إلى أصحابه .

وهذا هو المعنى الذى تعلّمناه من قصة سيدنا موسى ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] ونعود إلى القصة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] يعنى : موسى كان رجلاً فقيراً ، لا يملك من الدنيا سوَى قوته البدنية ، فهذا الذى يجلس تحت ظل شجرة ليس له مأوى ، أبعد ذلك مسكنة وضعف ؟

هذا يدل على أنه كان رجلاً (غلبان) لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولو قارنّا بينه وبين محمد نجد محمداً أطولَ إقامة فى قومه ، فقد نشأ بينهم منذ مولده ، وكان يرعى الغنم لأهله بأجرة ، ولما كبر اشتغل بالتجارة ، وكان كما نقول (مدير أعمال) السيدة خديجة ،

وكان يكسب ومعه مالٌ .

ومع ذلك أرسل اللهُ موسى الذى هو أضعف من محمد إلى فرعون الذى هو أقوى وأشدّ من الوليد وعروة وغيرهم . وبهذا نفهم لماذا أتى ذكْرُ سيدنا موسى فى هذا الموضع : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه (٤٦) ﴾ [الزخرف]

ثم هناك نقطة ضَعْف أخرى فى رسالة سيدنا موسى أنه أُرسلَ إلى فرعون الذى تربّى فى بيته ، لذلك الحق سبحانه يُعلِّمه كيفية الدخول إليه فى أمر الدعوة لأنه كان يمتنُّ عليه .

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء] فعلَّمه الله أن يقول له القول اللين ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه]

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا (٤٦) ﴾ [الزخرف] أى : بالمعجزات الظاهرات التى صاحبتْ دعوة سيدنا موسى لتؤيده وتُثبت للقوم صدْقه فى البلاغ عن الله ، وقلنا : إنه يُشترط فى المعجزة أنْ تكون موضعاً للتحدى ، بحيث لا يقدر أحدٌ على الإتيان بمثلها ، وأنْ تكونَ من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدى له معنى ، وإلا كيف أتحدَّاك بشىء لا تعرفه أنت ولا تجيده ؟

ولأن قوْم موسى نبغوا فى السحر كانت معجزةُ العصا من المعجزات التى أعطاها الله تعالى لسيدنا موسى ، وقد درَّبه ربُّه عز وجل على استخدام هذه العصا وعرَّفه ما فيها من أسرار قبل لقائه بفرعون .

واقرأ : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ⑲ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳﴾ [طه]

كان هذا الموقف تدريباً لموسى على استخدام معجزته أمام فرعون ، وعندها علم موسى أنه إذا كانت مآربه من عصاته أنْ يتوكأ عليها ويهشَّ بها على غنمه ، فلله تعالى مآربُ أخرى غير هذه المآرب الظاهرة .

لذلك رأينا بعض المستشرقين يقولون : إن القرآن كرَّر قصة عصا موسى هذه فى أكثر من موضع ، والواقع أن القصة لا تكرارَ فيها ، بل هى مواقف مختلفة للعصا مع موسى ، فالمرة الأولى كما قلنا كانت تدريباً لموسى حتى لا يُفاجأ بما تفعله العصا إذا ألقاها أمام فرعون .

وكانت المرة الثانية أمام فرعون ، والثالثة لما جمع فرعونُ السَّحرةَ .

إذن : ليس فى المسألة تكرار ، إنما هى مواقفُ مختلفة لشىء واحد ، والقرآن حينما عرض لنا هذه القصة علَّمنا الفرق بين السحر والمعجزة ، السحر : تخييل وخداع للنظر إنما المعجزة حقيقة واقعة .

لذلك قال عن العصا : ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳﴾ [طه] يعنى : على وجه الحقيقة ، ولما تكلَّم عن حبال السحرة قال : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⑯⑯﴾ [طه] والدليل على ذلك أن السَّحرة وأهل التمرُّس والخبرة فى هذا المجال لما رأوا العصا ساعة انقلبت حيَّة

(١) هش الشجر : ضربه بعصا ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، فكان موسى يضرب الشجر بعصاه فتسقط أوراقها على غنمه فتأكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

خرُّوا سُجّداً وآمنوا بموسى وبما جاء به ، لأنهم أدْرى القوم بهذه المسألة ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه]

والحق سبحانه فى موضع آخر يقول ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ[1] ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] معنى : سحروا أعين الناس أن الأمر فى السحر موقوف عند العين وعند النظر ، فهو تخييل فى مرأى العين فحسب .

وواقع حياتنا أيضاً يشهد بذلك ، فأذكر أننى كنتُ رئيس بعثة الأزهر فى الجزائر ، وهناك تعرفتُ على سفير السعودية بالجزائر الشيخ رياض الخطيب بن فؤاد الخطيب[2] الشاعر العظيم ، وحدث بينى وبينه مودة ، وصادف أنه نُقلَ من الجزائر إلى باكستان ، وبعدها سافرتُ أنا إلى باكستان ونزلتُ على الشيخ رياض .

وفى يوم تحدَّثنا عن السحر فقال : سأريك مسألة غريبة ، هنا ساحر هندى يفعل كذا وكذا . فقلت : والله فرصة نرى ماذا يفعل ، وفى الصباح ذهبنا إلى قرية وأتوْا بالساحر الهندى ، فقعد وعمل (نصبة) وأتى بقطن جعله على هيئة حبل ولَواه هكذا ، وكان معه ولد صغير ، أشار إليه أنْ يصعد على هذا الحبل حتى رأى جميعُ

---

(١) أرهبه ورهَّبه واسترهبه : أخافه وفزَّعه . واسترهبه : استدعى رهبته حتى رهبه الناس . وبذلك فسّر قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] . أى أرهبوهم . [لسان العرب - مادة : رهب] .

(٢) هو فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب ، شاعر نقى الديباجة محكم المعانى من أعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق ، ولد ١٨٧٩ م ، ولد قرب بيروت ، استكمل دراسته فى الجامعة الأمريكية عام ١٩٠٤ م ، لقب بشاعر ثورة الحجاز ، توفى ببلدته شحيم عام ١٩٥٧ م . [سيرته بالتفصيل فى الأعلام للزركلى ٥/ ١٦٠] .

الجالسين الولد فعلاً طالعاً على الحبل .

في اليوم التالي وبعد أنْ راجعتُ آيات السحر في كتاب الله أخذتُ معي كاميرا فوتوغرافيا وأحببتُ أنْ أُصوِّر هذا المشهد ، وفعلاً صوَّرته ، في اليوم التالي وجدت الصورة بعد تحميضها بيضاء ليس بها شيء أبداً .

فقال لي صاحبي : إذن بمَ تفسِّر هذا التخييل الذي رأيناه ؟ قلت : والله من حديث القرآن عن الجن نعلم أنه يتشكل بكل الصور ، ولا مانعَ أبداً أن الساحر يستعين بالجن ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن]

إذن : لا مانع عقلاً أنْ يُسخِّر الساحر من الجن مَنْ يساعده في هذه المسألة ، ويتشكل له كما يريد .

والقرآن الكريم نصَّ على أن الآيات والمعجزات التي أُرسلَ بها سيدنا موسى كانت تسع آيات : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء]

وقال في موضع آخر : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف] وهذا يعني أنها كانت آيات كثيرة واضحة ظاهرة بينة .

وقوله سبحانه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزخرف] الملأ : هم القوم ، خاصةُ الوجهاء منهم ، وأصحاب المنزلة من قولنا : فلان ملءَ العين . وفي آية أخرى قال : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦)﴾ [الزخرف] ملخص لرسالته وموجز لما جاء به .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾

فى آية العنكبوت السابقة بينت رد فعلهم وهو الاستكبار ، والاستكبار هنا يعنى أنهم علموا أن موسى على الحق ، وأنه صاحب معجزات ومع ذلك استكبروا على أنْ يؤمنوا به ، وهنا بينتْ الآيةُ وجهاً آخر للاستكبار .

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾ [الزخرف] يضحكون إما إعجاباً بالمعجزة وللآية التى رأوها ، وأنها خارقة للعادة وخلاف كل ما رأوْهُ من السحرة ، أو يضحكون سُخرية واستخفافاً .

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾

معنى ﴿ آيَةٍ (٤٨)﴾ [الزخرف] يعنى : معجزة ﴿إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا (٤٨)﴾ [الزخرف] يعنى : كل معجزة أعظم وأوضح من سابقتها ، وهذا يعنى أن الإعجاز واضح فى جميع الآيات على كثرتها ، فكل آية كبيرة من جهة ما ؛ لأن المقصود من الآيات الإعجاز وإثبات شىء ليس فى مقدور البشر ولا طاقتهم ، وما دام أن كل آية تؤدى هذا الغرض فهى آية كبيرة .

وقوله :﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ (٤٨)﴾ [الزخرف] أى : عاقبناهم على تكذيبهم بالعذاب ، وقد أوضح الحق سبحانه هذا العذاب فى موضع

آخر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[1] وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ﴾ [الأعراف]

وتأمل تذييل هاتين الآيتين ، مرة : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) ﴾ [الزخرف] ومرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه لا يُعذِّب خَلْقه لأنه يحب أن يعذبهم إنما يعذبهم ليعودوا إليه ، فحتى العذاب هنا رحمة بهم .

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً عَلَى مَنْ يرْحَمُ[2]

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) ﴾ [الزخرف] أى : عن المكابرة والجدال والعناد ، لكن هل رجعوا ؟ أبداً ظَلُّوا على كفرهم وجحودهم ، حتى بعد أنْ أخذهم اللهُ بالسنين يعنى : القحط وجَدْب الأرض وجفافها ، فنتج عن ذلك نقص الثمرات وضيق العيش .

ثم بعد ذلك كله . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ[3]

---

(١) السِّنون : بالقحط والجدوب عاماً بعد عام . قاله الفراء . وقال قتادة : أما السنون فكانت فى بواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم وقراهم . قال ابن الجوزى فى زاد المسير « إنما أخذهم بالضراء لأن أحوال الشدة ترق القلوب وتُرغِّب فيما عند الله وفى الرجوع إليه » .

(٢) البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٦٠ بيتاً هو البيت ٣٩ منها . وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ولد بسورية عام ١٨٨ هـ ، فى شعره قوة وجزالة له كتب : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة ، ونقائض جرير والأخطل . توفى عام ٢٣١ هجرية . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (الأعراف ١٣٣) فى القمَّل ٧ أقوال :

- أنه السوس . - أنه الدَّبى قاله مجاهد وعطاء وابن عباس . والدبى هو أولاد الجراد
- دواب سود صغار - أنه الجعلان .
- أنه القمل . - أنه البراغيث - أنه الحمنان وهو نوع من القردان . قاله أبو عبيدة .

وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف] يعنى : آيات واضحة الدلالة بيِّنة ، فأصبحوا في ضيق وهُزَال مشغولين بلقمة العيش ، فذهبوا إلى موسى عليه السلام بعد أنْ يئسوا وقالوا :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

كلمة الساحر هنا لا تعنى اعترافهم بتفوقه فى مجال السحر فحسب ، إنما تعنى الرجل الماهر فى كل شيء ، المتفوق عليهم فى السحر وفى العلم وفى الإحاطة بأمور الحياة ، يعنى لا مثيل له .

وهذا يُذكِّرنا بموقف من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ حيث وفد عليه الزبرقان بن بدر[1] وعمرو بن الأهتم[2] وهما من سادة العرب ، فقال النبى ﷺ لعمرو بن الأهتم : ما تقول فى الزبرقان بن بدر ؟ فقال : يا رسول الله مطاع فى ناديه شديد العارضة[3] ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : يا رسول الله والله إنه ليعلم منى أكثر مما وصفنى به ولكنه حسدنى .

فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه زَمِرُ[4] المروءة ضيق العطن[5] لئيم الخال أحمق الموالد ؛ فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم : وما

---

(١) الزبرقان بن بدر التميمى السعدى صحابى من رؤساء قومه ، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر وكفَّ بصره فى آخر عمره وتوفى فى أيام معاوية عام ٤٥ هجرية ، كان فصيحاً شاعراً فيه جفاء الأعراب . [الأعلام للزركلى ٣/٤١] .

(٢) عمرو بن الأهتم هو عمرو بن سنان التميمى المنقرى أبو ربعى : أحد السادات الشعراء الخطباء فى الجاهلية والإسلام من أهل نجد ، وفد على النبى ﷺ فأسلم ، شعره جيد . توفى عام ٥٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٥/٧٨] .

(٣) ذو جلَد وقدرة وبديهة ورأى جيد .

(٤) قليلها .

(٥) قليل الصبر والحيلة عند الشدة .

حملك على أنْ تقولَ ما قُلْتَ ؟ فقال : يا رسـول الله رضـيت . فقلت أحسن ما أعلم ، وغضبتُ فقلتُ أسوأ ما أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ منَ البيَانِ لسحْراً »[1] .

الشاهد هنا أن السحر يأتى بمعنى التفوق عامة فى أىِّ ناحية من نواحى الحياة . إذن : لمـا رأوا تصرُّفات موسى خضـعوا له وسلَّموا له بالتفـوق عليهم ، وإنْ كـانوا لم يؤمنوا به ، ولكن لأنهم مقـتنعون بتفوقه بل وبصدق دعـوته ذهبوا إليه وطلبوا منه أنْ يدعو لهم ، وأنْ يُفرِّج عنهم ما هم فيه من ضَنْك العيش .

فـقـالوا ﴿ يَـٰأَيُّهَـا السَّاحِـرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (٤٩) ﴾ [الزخـرف] إذن : يعتـرفون بصلـته بربه ، لكن ربه هو لا ربهم أيضـاً بدليل ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (٤٩) ﴾ [الزخرف] ولم يقولوا مثلاً : ربنا .

﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ (٤٩) ﴾ [الزخرف] لأن ربك يطاوعك ويفعل لك ما تريد ، ووعدك بكشـف العـذاب عمَّـنْ آمـن بـك ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) ﴾ [الزخرف] يعنى : لو كشفتَ عنَّا ما نحن فيه فسوف نهتدى ونؤمن بك .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾

إذن : قولهم ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) ﴾ [الزخرف] كانت مجـرد كلمة تُقال نفاقاً من طرف اللسان ، ليس لها رصيد من صدق الواقع ؛ لأن الحق سبـحانه كـشف عنهم العذاب فـعادوا لمـا كانوا عليـه ، ومعنى

---

(١) أخـرجه الحـاكم فى مستـدركه (٦٦٤٥ ، ٦٦٤٦) من حـديث ابن عـباس ومن حـديث أبى بكرة الأنصارى وعنده أن رسـول الله قال : « إن من البيـان لسحراً ، وإن من الشـعر لحكمة » . وأخـرجه أيضاً الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٢٠) (قطعة من المفقود) وكذا فى المعجم الصغير (٧٨٨٦) .

﴿ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزخرف] يرجعون إلى ما كانوا عليه ، وينقضون العهد الذى قطعوه على أنفسهم بأنْ يهتدوا .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ(١) تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

هنا يشعر فرعون بالخطر ، وتهتز مكانته أمام قومه ، يشعر أن موسى يسحب البساط من تحت قدميه حيث تتجه إليه الأنظار خاصة بعد حادثة السحرة الذين آمنوا بربِّ هارون وموسى ولم ينتظروا إذناً من فرعون .

وبعد أنْ نزل بهم القحط ، وأصابهم الجدْب حتى يئسوا فتوجَّهوا إلى موسى وطلبوا منه كشْف ما هم فيه ، لذلك نرى فرعون يحاول أنْ يعيد مكانته ويُحسِّن صورته أمام قومه .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] بماذا نادى مُناديه ؟

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : انتبهوا إلى مكانتى ومُلْكى وقدرتى عليكم ولا تهتموا بأمر موسى ، فأنا لا أزال ملك مصر ، والأنهار تجرى من تحتى . يعنى : لا أزال ولىَّ نعمتكم .

---

(١) ورد فى معنى كلمة الأنهار هنا أقوال كثيرة ، منها :
- أنها فروع أربعة للنيل : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس .
- أنها القواد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى . قاله الضحاك .
- أنها الأموال وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . [تفسير القرطبى ٩/٦١٤٥] .
وللشيخ الشعراوى رحمه الله كلام قيم فى هذه الآية يأتى قريباً .

﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] لكن نلاحظ فى ندائه هذا أنه لم يقُلْ شيئاً عن ألوهيته . ولم يقُلْ : أنا ربكم الأعلى فقد تنازل عن هذه الشعارات التى لم يَعُدْ لها موضع بعد ما حدث مع موسى .

ثم تأمل صيغة النداء ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] بهذا الاستفهام التقريرى ، يعنى : قُولوا لى ألم أزل ملكاً عليكم ، ولم يأت مثلاً بأسلوب الخبر : أنا ملك مصر .

إذن : يتحدثُ فرعون الآن من موقف الضعف ، نعم لأنه كان يقول ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات] والآن يقول : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف]

كلمة ﴿ مُلْكُ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] مادتها م ل ك ، نلاحظ أن الميم تأتى مرة بالكسر ، ومرة بالفتح ، ومرة بالضم ، فالميم المكسورة مِلك . يعنى : كل ما تمتلكه ولو حتى اللباس الذى تلبسه يسمى مِلك .

ومُلْك بالضم تعنى الإدارة والسيطرة على مَنْ له مِلك . يعنى : يملك مَنْ يملك ، ومَلك بالفتح يعنى الإرادة والاختيار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] أى : بإرادتنا .

وفى اسم الفاعل نقول ملك ومالك ، مالك تقال لكل منا يُسمَّى مالك ، حتى لو كان يملك مجرد ملابسه . أما ملك فلا تُقال إلا لمَنْ يملك ويتحكم فى المالك .

لكن حين نقرأ مثلاً فى سورة الفاتحة : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة] ولم يقُلْ ملِك ، صحيح هى فى إحدى

القـراءات[1] ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لكن الأشـهر (مَالِك) ، فما الحكمة أنْ يعدل عن اللفظ الأقوى إلى الأقل منه ؟

قالوا : اخـتار الحق سبـحانه لفظ مالك ليقـول أنه سبحـانه مالكٌ ليوم القيامة ، وغيره يملك الأرض وما عليها ، فقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④﴾ [الفاتـحة] يعنى : غيـره لا يملك هذا اليوم ، فـهى لله وحده ، لذلك قال : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯﴾ [غافر]

هكذا بالقـصر عليه سـبحـانه دون غيره . إذن : لفظـة مالك هى المطلوبـة هنا ، وهى التى تؤدى المـعنى المـراد ، فـــهى الأدلُّ على المعنى وإنْ كانت أدْنى من ملك .

كـما قلنا مـثلاً فى كلمـة (كبـير) و (أكـبر) ، أكـبر : أفـعل تفضيل من كـبير فهى أقوى ، ومع ذلـك فى نداء الصلاة نقول : الله أكبـر وليس فى أسمـاء الله أكبر ، بل من أسـمائه سبـحانه الكبـير ، فلماذا عدل عن الكبير إلى أكبر ؟

قالوا : قال الله أكبـر لحكمة ، هى أنَّ الأقلّ هنا له موضـع ؛ لأنك حين تدعو الناس إلى الـصلاة تُخرجهم من عمل وسَـعْى مشروع هو قوام حـياة الناس ومعايشـهم ومصـالح الناس وأعـمالهم ليس بالشىء

(١) هذه الكلمة (مالك) قرئت فى سورة الفاتحة بعدة قراءات :
- مالك : قرأها عاصم والكسائى وخلف ويعقوب : مالك بألف .
- مالكَ : قرأها ابن السميقع وابن أبى عبلة كذلك إلا أنهما نصبا الكاف .
- ملْك : قرأها أبو هريرة وعاصم الجحدرى بإسكان اللام من غير الألف مع كسر الكاف .
- مَلِك : قرأها أبو عثمان النهدى والشعبى بكسر اللام ونصب الكاف من غير الف .
- مَلِكُ : قرأها سعد بن أبى وقاص وعائشة ومورِّق العجلى إلا أنهم رفعوا الكاف .
- مليك : قرأها أبو رجاء العطاردى . [زاد المسير لابن الجوزى - سورة الفاتحة] .

التافه الذى لا قيمةَ له فى دين الله ، إنما هو من الأمور المطلوبة للشرع .

فهو إذن مهم وكبير ، لكن إذا جاء وقت الصلاة فاعلم أن الله أكبر . يعنى : أكبر من العمل ومن السَّعْى .

وهذه المسألة بيَّنها لنا الحق سبحانه فى سورة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة] ثم بعد انقضاء الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

إذن : أخذك للصلاة من العمل ، ثم أعادك إليه مرة أخرى ، لأن به يتم إعمار الأرض وقضاء مصالح الخَلْق . إذن : أكبر هى الأنسب فى أداء المعنى المراد .

قوله : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] فرعون لم يُناد هو ، إنما أمر مَنْ ينادى فى القوم بهذا النداء ، فلما كان النداء بأمره نسب إليه ، وقوله ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : القطر كله لا العاصمة ، كما نقول نحن اليوم (مصر) على القاهرة ، فمصر التى ملكها فرعون كانت من الأسكندرية إلى أسوان .

ومصر علَم على هذه البقعة ، وهى مُكوَّنة من ثلاثة أحرف . أولها : كسرة ، ووسطها ساكن والسكون يعطى خفَّةً فى النطق ، فهى اسم سهل فى النطق ، وجاء على أقلِّ صيغ تكوين الاسم فى اللغة ، لأن الاسم فى العربية أقلُّه ثلاثة أحرف ، وأكثره خمسة إذا كان مُجرداً من أحرف الزيادة .

والمتأمل يجد أن مكةَ وهى بلدُ الله الحرام ومحلُّ بيته المقدس

ذُكِرَتْ في كتابه الكريم مرتين : ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ (٢٤) ﴾ [الفتح]

وجاءتْ بلفظ بكة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾ [آل عمران]

أما مصر فذكرها الحق سبحانه في كتابه خمس مرات : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف] وفى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ (٢١) ﴾ [يوسف] وفى ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] وفى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا (٨٧) ﴾ [يونس] وفى ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ (٦١) ﴾ [البقرة]

وجاءت مصر في الآية الأخيرة هكذا بتنوين الفتح . وقال المفسرون : يعنى أيَّ مصر من الأمصار يكون فيه ما تريدون ، ولو اعتمدنا هذا التفسير فمصر في هذه الحالة داخلة فيه لأنها مصرٌ من الأمصار .

وقوله : ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى (٥١) ﴾ [الزخرف] كلمة ﴿ مِن تَحْتِى (٥١) ﴾ [الزخرف] تدل على التمكُّن والسيطرة ، وبالفعل كانت قصوره على النهر مباشرة وكأن النهر يمرُّ من تحتها .

وجَمَع الأنهار ، مع أننا نعرف أن في مصر نهراً واحداً هو نهر النيل ، وأنه يتفرع إلى فرعين دمياط ورشيد ، فلماذا قال ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ (٥١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) تبوأت المنزل : اتخذته سكناً . ومعنى قوله ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] أى : انزلا واتخذا منها بيوتاً أى مساكن . [القاموس القويم ١/٨٨] .

قالوا : كانت على أيام الفراعنة خمسة أنهار ، أى : أنهم فرَّعوا من النهر خمسة فروع ليزيدوا من الشواطىء ، وبهذا كان لديهم عشرة شواطىء تُبنى عليها قصورهم .

وأذكر فى هذا المقام أنه كان لنا شيخٌ فاضل اسمه الشيخ عمر العمروسى من طنطا الجزيرة ، وكنت أجلس إليه وأستفيد من علمه ، ومعى الشيخ سيد شرف والدكتور ياسين عبد الغفار[1] .

وفى يوم من الأيام سألنى ، وهو يعرف أننى فى الأزهر فقال لى : يا شعراوى ، ماذا فعلتُم فى مسألة : ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي (٥١)﴾ [الزخرف]

قلتُ له : فى قراءة التاريخ وجدنا أن مصر فى أيام الفراعنة كان بها خمسة أنهار ، نهر اسمه الملك لأن على شاطئه قصر الملك ، ونهر اسمه دمياط ، ونهر اسمه تنِّيس[2] والعجيب أن منها نهراً يسمى طولون ، ونحن نعرف أحمد بن طولون[3] وكان فى القرن التاسع

---

(١) الدكتور ياسين عبد الغفار هو مؤسس معهد الكبد (١٩٩٠م) وهو من أبناء محافظة المنوفية ، مواليد ٢٦ يناير ١٩١٧م ، توفى مايو ١٩٩٩ م عن ٨٢ عاماً ، حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة ١٩٤٠ م وعضوية الكلية الملكية بلندن ١٩٤٤ ، الدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٤٥م ، والدكتوراه الفخرية من اسكوتلاندا ١٩٩١ ، تولى عدة مناصب ونال العديد من الأوسمة .

(٢) تنيس : مدينة قديمة وهى كلمة هيروغليفية تعنى صناعة الحرير ، وهى الآن مدينة المنزلة أحد مراكز محافظة الدقهلية فى الشمال الشرقى لمصر .

(٣) أحمد بن طولون أبو العباس الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور تركى مستعرب ولد ٢٢٠ هجرية ، كان شجاعاً حسن السيرة موصوفاً بالشدة على خصومه ، بنى الجامع المعروف بالقاهرة وقلعة يافا بفلسطين . يؤخذ عليه أنه كان حاد الخلق . توفى بمصر بعد مرضه عام ٢٧٠ هجرية عن ٥١ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/ ١٤٠] .

الميلادى فكيف سُمِّى باسمه ، وبعد البحث عرفنا أن ابن طولون هو الذى ردم هذا الفرع من النهر فسُمِّى باسمه .

والنهر الخامس كان يسمى الخليج. إذن : زادوا من تفريعات النهر الرئيسى لتزداد فُرَص البناء المطلّ على النهر ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على ترف الحياة حين ذاك .

أما الشيخ عمر فكان له فى تفسير الأنهار رأىٌ آخر ، قال : اسمع يا ابنى أنت وهو ، الفراعنة جعلوا مصر على هيئة نموذج للجنة ، فجعلوا بها أربعة أنهار . واقرأوا القرآن : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥)﴾ [محمد]

لكن من أين عرف الفراعنةُ هذه الصورة عن الجنة فحاكوها على أرض مصر ؟ قالوا : لأنهم كانوا يسيرون فى أمور حياتهم وفى سياستهم خلف الكهنة ، والكهنة كانوا على علم ، وقرأوا الكتب السماوية السابقة .

حتى أنهم قالوا : إن العلوم التى عرفها الفراعنة وبنوا بها الأهرامات وأبا الهول والمعابد الموجودة الآن والتى لم نصل بعد تطور العلوم إلى أسرار بنائها ، وعملية تحنيط الموتى وغيرها من الأسرار عرفوه من الكهنة .

وما دامت من الكهنة فمصدرها وَحْى السماء ، بدليل أنه لما انتهى عصر الكهنة ولم يَعُدْ لهم وجود لم نجد لهذه العلوم أثراً حتى الآن .

وأذكـر أننـى فى أثناء تولِّى المـهندس حـسب الله الـكفـراوى[1] اقترحتُ عليـه إعادة حفر هذه الأنهار ، بحيث تلـتقى كلها عند القناطر الخيـرية ، ونزيد مساحة الشـاطىء عندنا ، واقترحتُ عليـه لحلِّ أزمة البناء ، وبـدلاً من البناء على الأرض الـزراعـيـة أن نـبنى المسـاكن والمرافق الحكومية فوق فروع التُّرَع والرياحات ، لأنها تحتل مساحات واسعة .

ومعظمـها عليـه طرق من اليمـين ومن الشمال ، ويمـكن أنْ نقيمَ أعمدة مسلَّحة على هذه الرياحات ، ونبنى فـوقها كُلَّ مؤسسات الدولة بدل التكدُّس فى العاصـمة ، فوعدنـى بدراسة هذه المقتـرحات لكن لم يُنفذ منها شىء .

المفسرون يقولـون فى ﴿ وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِـى (٥١) ﴾ [الزخرف] أن الأنهار كـانت تجرى من تحت قصوره بالفـعل ، قالوا : حـتى أنه جـعـل من تحت سـريره الذى يـنـام عليـه مـجرى مـائيـاً كالنهر[2] .

---

(١) من مدينة كفـر سليمان مركز كفر سـعد محافظة دمياط بمـصر ، حاصل على بكالوريوس الهندسة قـسم مدنى جامـعة الإسكندرية عام ١٩٥٠م ، وهو وزير إسكان أسـبق ولمدة ١٦ عاماً من ١٩٧٧ إلى ١٩٩٣ عين محـافظاً لدمياط عام ١٩٧٦م وهيئة المجتمـعات العمرانية عام ١٩٨٠م ، ونقيباً للمهندسين عام ١٩٩١م .

(٢) ذكره الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) قـال : قال غير واحد : كانت أنهار تخرج من النيل وتجـرى من تحت قصـره وهو مشـرف عليهـا . وقيل : كـان له سرير عظيم مـرتفع تجرى من تحته أنهار أخرجها من النيل .

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ[1] مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ[2] وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ ﴾

فرعون يُجرى هذه المفاضلة بينه وبين موسى فيقول : أنا خير من هذا يقصد موسى ، واكتفى بالإشارة إليه امتهاناً به (مَهين) يعنى : ضعيف حقير ، حيث لا قوةَ تحميه ، وليس له جند يُدافعون عنه .

﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ ﴾ [الزخرف] أى : يُبيـن عن نفسه ويفصح عنها . والمعنى : لا يستطيع الكلام بإبانة وطلاقة ، ذلك لأن موسى عليه السلام كان به لثغة فى لسانه .

لذلك قالوا أنه طلب من ربه عز وجل أنْ يُعينه على هذه المسألة بأن يرسل معه أخاه هارون ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ[3] رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ ﴾ [القصص]

---

(١) فى كلمة (أم) هنا قولان :

الأول : أنها بمعنى بل . أى : بل أنا خير من موسى الذى هو مهين . قاله السدى وبعض نحاة البصرة .

الثانى : أنها للاستفهام . تبعاً للاستفهام فى الآية قبلها .

قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٣٠) : وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون بذلك انه خير من موسى وقد كذب فى قوله .

(٢) وصفه لموسى بأنه (مهين) يقصد به انه حقير قاله سفيان . وقال قتادة والسدى يعنى ضعيف . وقال ابن جرير : يعنى لا ملك له ولا سلطان ولا مال . وذهب القرطبى إلى معنى هو مقتضى هذه الأقوال فقال : أى لا عز له فهو يمتهن نفسه فى حاجاته لحقارته وضعفه . وهو يلمس طبيعة النظرة الفرعونية إلى الناس والبشر .

(٣) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/٢٦٠] وأرداه : أعانه وترادأ القوم : تعاونوا . وفلان رده لفلان أى ينصره ويشد ظهره . [لسان العرب - مادة : ردأ] .

ويُروى أن سبب هذه اللثغة فى لسانه أنه وهو صغير قال كلمة فيها جرأة على فرعون حتى شكَّ فى أمره وتخوَّف منه ، فقالوا له : إنه صغير لا يعرف شيئاً . وليثبتوا لفرعون ذلك أتوا لموسى بتمرة وجمرة ، فأخذ الجمرة فلسعتْه فى لسانه ، وأحدثتْ به هذه اللثغة[1] .

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه هى الصورة المادية التى يتصوَّرها فرعونُ للرسول أنْ يأتى يرتدى الأسْورة من الذهب ، وهى دلالةٌ على القوة والسيطرة والعظمة ، أو يأتى ومعه ملائكة مصاحبون له يُؤيدونه ويشهدون بصدقه .

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الاستخفاف يعنى العجلة والطيش وعدم التدبّر فى المسائل ، أى : استخفهم فرعونُ بهذا الكلام فأطاعوه على الضلال الذى هو فيه ووافقوه على الفساد ، ولا يوافق على الفساد إلا المنتفع به ، أو وجدهم أهلَ طيش ورعونة وعدم تفكّر فى الأمور ، فضحك عليهم بهذا الكلام .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف] قال : كانت بموسى لثغة في لسانه . ذكره الشوكانى فى فتح القدير والسيوطى فى الدر المنثور .

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

معنى ﴿آسَفُونَا ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف] أغضبونا فكانت النتيجة ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف] كيف ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف] وبالغرق جعلهم الله (سَلَفاً) السلف مَنْ تقدَّم . أى : جعلهم الله قدوة وعبرةً لمنْ يأتى بعدهم ﴿وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف] عبرةً لغيرهم من الكافرين .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا الفعل (ضُرِب) مبنى لما لم يُسَمَّ فاعله ، فمَن الذى ضرب ابن مريم مثلاً ؟ الحق سبحانه وتعالى هو الذى جعل ابنَ مريم مثلاً ، لأنه وُلِد لأم بلا أب ، وجاء من نفخة الحق سبحانه فى مريم ، فنسبوه إلى الله ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، فردَّ الله عليهم بأن عيسى فى الخَلْق مثل آدم .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران] فإذا كان عيسى بلا أب ، فآدم بلا أب وبلا أم ، والذى يقدر على الأعلى يقدر على الأدنى من باب أَوْلَى ، فلا تُفتنوا فيه .

وبعد أن نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] تبيَّن أنه الضّال بعبادة غير الله هو ومعبوده فى جهنم معاً ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : وقودها .

وجاء رجل اسمه عبد الله بن الزبعرى[2] قبل أنْ يسلم إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد أهذه الآية لنا أم لجميع الخلْق ؟ قال ﷺ : لجميع الخلْق ، فقال له : كيف وعيسى عُبد من دون الله ، والعُزير عُبد من دون الله ، والملائكة عُبدوا من دون الله ، أيذهب هؤلاء مع عابديهم إلى النار[3] ؟

فلم يُجبْه رسولُ الله إلى أنْ نزل قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَـٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء]

ولما بلغتْ هذه المسألة سيدنا علياً رضى الله عنه قال : (ما)

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعَّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] والحصب : الحجارة والحصى . [لسان العرب - مادة : حصب] .

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمى القرشى أبو سعد ، شاعر قريش فى الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران فقال فيه حسان أبياتاً ، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبى ﷺ توفى عام ١٥ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٣) ذكر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » فى تفسير سورة الأنبياء (٢١) : « أن عبد الله ابن الزبعرى أقبل فرأى مشركى قريش يتهامسون فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه ، فقال ابن الزبعرى : أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة . ثم روى فى ذلك روايتان : إحداهما أن رسول الله سكت ولم يُجبْ فضحك القوم . والثانية أنه أجاب وقال : بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك » .

هنا لغير العاقل ، فلا يدخل فى هذا الحكم عيسى ولا العُزير ولا الملائكة ، وهذه من حكمة الإمام على الذى تربَّى فى حضن النبى وتعلَّم فى مدرسته منذ صغَره ، وجاءت ثقافته من نور النبوة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف قوله ﷺ : « أنا مدينة العلم ، وعلىٌّ بابها »[(١)] .

وكان من الفقهاء أصحاب الاستنباط الواعى حتى أمام كبار الصحابة ، حتى إن عمر بن الخطاب الذى كان ينزل القرآن وفْق رأيه يقف فى مسألة لا يحلُّها إلا على ، حيث عُرضَتْ عليه مسألَة المرأة التى ولدتْ لستة أشهر فقال بإقامة الحدِّ عليها ، لأن المشهور فى أشهر الحمل تسعة أشهر .

فقال : يا أمير المؤمنين لا شىء عليها لأن الله يقول : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[(٢)] ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥) ﴾ [الأحقاف] ويقول : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ (٢٣٣) ﴾ [البقرة] إذن : مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر[(٣)] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٦١٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٨٩٨) والطبرى فى تهذيب الآثار (١٤١٥) . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتمام الحديث : « فمن أراد المدينة فليأت الباب » . وفى لفظ : « فمن أراد العلم فليأته من بابه».

(٢) الفصال : الفطام لأن الطفل ينفصل به عن أمه . [القاموس القويم ٢/٨٣] فمجموع الحمل والفطام ثلاثون شهراً ، لذلك قال ابن عباس : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) : « أقل مدة للحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ووافق علياً عليه عثمان وجماعة من الصحابة » .

ومرة دخل على سيدنا عمر ومعه درّة ، يريد أن يضرب بها سيدنا حذيفة فقال له : ما لى أراكَ مُغضباً يا أمير المؤمنين ؟ قال : سألتُ حذيفة كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبحتُ أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . فقال على : صدق والله يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : أتقولها يا أبا الحسن ؟ قال : أما الفتنة فقال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال] والحق الذى يكرهه هو الموت ، ويصلى على النبى ﷺ بغير وضوء ، وله فى الأرض زوجة وولد وليس لله زوجة ولا ولد .

عندها قال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[(١)] .

ومن لطائف ما رُوى عنه رضى الله عنه أنه مرّ بجماعة اختلفوا فى أىّ مخلوقات الله أشد وأكثر قوة ، فسألوه : ما أشدّ جنود الله يا أبا الحسن ؟ فكانه كان على علم مُسْبق بهذه المسألة ، وأنه سيُسأل عنها ، لذلك قال - وحصر العدد قبل المعدود : وأشار بيده أنها عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح يحمل السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب ويمضى إلى حاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهم يغلب النوم ، فأشدُّ جنود الله الهَمُّ .

---

(١) أورده إسماعيل حقى فى تفسيره قال : حُكى أن رجلاً اتى عمر فقال : إنى أحب الفتنة واكره الحق وأشهد بما لم اره فحبسه عمر فبلغت قصته عليا فقال على ما ساقه هنا ، حتى أن عمر بن الخطاب قال : « لولا على لهلك عمر » .

وفى بعض أحاديثنا مع الإخوان طلبوا منى أنْ أذكر لهم خطبة الإمام على التى قالها لما ماتتْ فاطمة بنت محمد ، وكنتُ كلما ذكرتها لهم قالوا أعِدْ مرة أخرى ، قلتُ : لما ماتت فاطمة دُفنَتْ بجوار رسول الله والصحابة .

وبعد أنْ دُفنَت قالوا له : يا على لو أننا أبحنا لكل أولاد الرسول أنْ يُدفنوا إلى جواره لضاقَ المسجد بالناس ، فقال : ضعوها نهارنا وسوف أنقلها ليلاً كى لا تحدث فتنة ، وبالليل نقلها إلى البقيع .

وكان مما قاله الإمام على وهو يدفن فاطمة إلى جوار أبيها ، قال : السلام عليك يا رسول الله ، منى ومن ابنتك النازلة فى جوارك السريعة اللحاق بك ، قَلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورَقَّ عنها تجلُّدى[1] ، إلا أن لى فى التعزِّى بمصيبتك موضعَ سلْوى[2] .

فقد وسَّدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضتْ بين سَحْرى ونحرى نفسُك ، أما ليلى فمسهَّد[3] ، وأما حزنى فسَرْمد[4] إلى أنْ يختار الله لى داره التى أنت فيها مقيم ، وستخبرك ابنتك عن حال أُمتك فأَصْفِهَا السؤال ، واستخبرها الحال - هذا ولم يطل منك العهد، ولَم يخل منك الذكر .

---

(١) الجلد : القوة والشدة والصلابة والجلادة . والتجلُّد : إظهار الجلد وقوة التحمل وشدة الصبر . [لسان العرب - مادة : جلد بتصرف] فرغم محاولة على رضى الله عنه إظهار الجلد والتحمل إلا أنه لم يستطع .

(٢) السلوى : التصبر والتسلى عن المصيبة بما يصرفنا عنها .

(٣) سَهِد يسْهد : لم ينم . ورجل سهد : قليل النوم . والسُّهاد : الأرق . وقد سهَّده الهم والوجع . [لسان العرب - مادة : سهد] .

(٤) السرمد : الأبدى الدائم الذى لا ينقطع . وقد قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا (٧٢)﴾ [القصص] .

فلما أراد أنْ ينصــرف قال : والسَّلام عليكما سـلامَ مُودّع لا قالٍ ولا سَئم ، فـإنْ أنصرف فـلا عن ملالة ، وإنْ نُقِم فـلا عن سوء ظنٍ بما وعد الله به عباده الصابرين .

ومـعنى ﴿يَصِدُّونَ (٥٧)﴾ [الزخرف] أى : يرفـعـون أصـواتهم بالضحك والسخرية من رسول الله .

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)﴾

يعنى : كان هدفـهم من الحديث عن عـيسى والعُـزَير والملائكة ، وسـؤالهم : أيدخلون النار مع عـابديهم ، مـجـرد جدل ، وهذا جـدل مذموم ، لأنهم يريدون أنْ يُبرروا باطلهم . إذن : جدل باطل ممنوع ، أما الجدل المحمود الذى شرعه الشارع فهو الجدل البنَّاء الموصِّل إلى الحق .

لذلك قال الحق عنهم : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)﴾ [الزخرف] معنى (خصم) يعنى : مـبالغة فى الخصومـة ، وهى الجدل بالباطل ، واللَّدد والعناد . نقـول : خاصمـنى فـلان فـخصَمْـتُه يعنى : انتـصرتُ عليه .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩)﴾

﴿إِنْ هُوَ (٥٩)﴾ [الزخرف] هنا تفـيـد النفى يعنـى : مـا هو أى سيدنا عيسى ﴿إِلاَّ عَبْدٌ (٥٩)﴾ [الزخرف] عبد لله كسائر الخلْق يعنى ليس إلهاً كما يدَّعُون ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾

[الزخرف] مثلاً يعنى عبرة أو عجيبة من عجائب الخَلْق تظل باقية أبد الدهر ، أليس عجيباً أن يتكلم عيسى فى المهد ؟

فلما سُئِلَتْ عنه أمه لم تشأ أنْ تتكلم ، لأن كلامها لن ينفى عنها تهمة القوم ، فأشارت إليه ، عندها تعجبوا ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) ﴾ [مريم] فنطق عيسى وهو فى مهده : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ (٣٠) ﴾ [مريم]

فكان أول كلامه أنْ أثبت عبوديته لله ، وهذه المسألة يُخفيها بعض النصارى ، لأنها تتعارض ومعتقداتهم فى المسيح .

وعجيب أنْ يقول بعد ذلك ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) ﴾ [مريم] هكذا بصيغة الماضى وهو ما يزال فى مهده ، كيف ؟ لقد آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نبياً بعد أنْ كبر وبلغ مبلغَ التكليف وحمل الرسالة ، إذن : ما يريده الله سوف يحدث لا محالة ، وقد أخبره الله بذلك وهو فى مهده .

وكلمة ﴿ عَبْدٌ (٥٩) ﴾ [الزخرف] محل العطاء الأوفى من الله ، ما دُمْتَ تخلص العبودية لله . هذا الإخلاص الذى رفع العبد الصالح إلى أنْ يسير موسى عليه السلام فى ركابه ويتعلم منه ، وقال الله عنه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

وفى الإسراء قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١) ﴾ [الإسراء] فكأن العبودية هى محلُّ العطاء ، عطاء الرسالة وما هو فوق الرسالة .

وهنا أيضاً كانت عبودية المسيح هى محلُّ ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ (٥٩) ﴾

[الزخرف] بماذا ؟ أنعمنا عليه بالاصطفاء للرسالة ، وخلقناه على غير مثال سابق في الخلق ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۝٥٠ ﴾ [المؤمنون] أى : معجزة عجيبة دالة على طلاقة القدرة .

وقال هنا ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ ﴾ [الزخرف] لأنهم قوم ماديون لا يؤمنون بالغيبيات ، ودائماً يطلبون الشيء المادى الذى تقع عليه حواسّهم .

ألم يقولوا لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ۝١٥٣ ﴾ [النساء] وهو سبحانه غَيْب ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ۝١٠٣ ﴾ [الأنعام]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وهو من أجود الطعام وأحسنه قالوا : ﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۝٦١ ﴾ [البقرة]

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ ﴾

يعنى : لو أراد الحق سبحانه لجعل بدلاً منهم - أى : بنى إسرائيل - ملائكة يخلفونهم فى عمارة الأرض ، ولا يكون ذلك إلا بهلاكهم وإبادتهم ، فهذا الأمر ليس بعسير على قدرة الله ، وفى الآية دليلٌ على طلاقة القدرة ، وأنه سبحانه يفعل ما يريد ، فلو شاء لَفعلَ .

---

(١) فى الفوم ثلاثة أقوال :
- أنه الحنطة . قاله ابن عباس والسدى عن أشياخه .
- أنه الثوم . وهو قراءة عبد الله وأبيّ . واختاره الفراء .
- أنه الحبوب . ذكره ابن قتيبة والزجاج . [زاد المسير لابن الجوزى] .

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

﴿ وَإِنَّهُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف] أي : عيسى عليه السلام ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : علامة من علاماتها يدلُّ على قرب وقوعها ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف] لا تشكُّون فيها ولا تجادلون فى وقوعها لأنها حق لا مرية فيه .

﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف] كونوا تابعين لى مقتنعين بكلامى مُقلِّدين لى ، لأنى أسْوة لكم فى حركة الحياة وفى العبادة ﴿ هَٰذَا ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف] أى : ما جئتكم به ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف]

والحق سبحانه وتعالى جعل للساعة علامات واضحة تدل عليها ، لأنها من الغيب الذى لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله ولا يعرفها أحد ، وكلُّ ما نعرفه عن الساعة علاماتها الدالة عليها .

والذى نعتقده فى سيدنا عيسى أنه حَىٌّ فى السماء ، وأنه سينزل

---

(١) الضمير فى (وإنه) يعود على :

- القرآن . قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير . لأن القرآن يدل على قرب مجىء الساعة . أو به تُعلم الساعة وأهوالها وأحوالها .
- خروج عيسى عليه السلام . قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضاً . وذلك من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة .
- محمد . قاله القرطبى [٦١٥٤/٩] قال : [ويحتمل أن يكون المعنى (وإنه) وإن محمداً ﷺ لعلم للساعة بدليل قوله عليه السلام : « بُعثت أنا والساعة كهاتين » . وقال الحسن : أول أشراطها محمد] .

إلى الأرض .

وفى حديث الإسـراء أنه نزل وصلَّى خلف رسول الله ، وهو وإنْ كان حياً فى السماء إلا أنه سينزل إلى الأرض ويموت ويُدفن .

ونقـول لمن يعارض هـذه المسـألة ، وكـيف أن عيـسى حَىٌّ فى السماء : لقد أُسرى برسول الله ﷺ وعُرِج به إلى السماء ، وظل هناك فـترة من الزمـنَ طالتْ أم قصـرتْ ، فـحين نقـول : إن عـيـسى فى السماء ، فـالخلاف فقط فى مسألة الفتـرة ، والذى يمكث فى السماء ساعة أو ساعتين يمكث أكثر .

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

يعنى : لا يمنعكم ولا يصـرفكم عن الحق والهدى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : واضح العداوة ، وعـداوته لكم راسخة وقديمة منذ أبيكم آدم ، فلا تعـطوه الفرصة لأنْ يصدكم عن الحق أو يفتح لكم أبواب الشبـهة ، لأنه يتصيَّد مواطن الخـلاف ويحوم حولها حتى يُوقعكم فى الضلال .

فـهو القائل : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] أى : فى أمـاكن الطاعة ليـفـسدها عليـهم ، والحق سـبـحـانه يُعلِّـمنا كـيف نتحصَّن منه ﴿ وَإِمَّا يَـنزَغَـنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّـهِ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف] فاسـم الله هو الذى يطرد عنك وساوسَ الشـيطان ونزغاته ، لأن وارد الشيطان لا بقاء له أبداً مع وارد الرحمن .

قلنا : لو أن لصـاً يحوم حـول بيتك فـسمـعك تقول إحم ، فـإنه يتراجع وينصـرف ولو قلتها حـتى مصادفة ، فـأىُّ نزغ من الشيطان

ساعةَ تشعر بأنه يحوم حولك ، مـا عليك إلا أنْ تذكر الله وتستعيذ به من وساوسه .

تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم تقـولها بصوت عَالٍ ، وقد اعترف الشيطان نفسه بأنه لا سلطانَ له على الذين آمنوا وأخلصوا لله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) ﴾

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ (٦٣) ﴾ [الزخرف] الآيات والمعجزات ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ (٦٣) ﴾ [الزخرف] يعنى : الإنجيل وما فيه من أحكام ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (٦٣) ﴾ [الزخرف] والذى اختلفوا فيه قبل عيسى أو بعد أن انتقل عـيسى ، فقالوا عنه : ابن الله . وقالوا : ثالث ثلاثة . واليهود قالوا أكثر من هذا .

الحق سـبحـانه يقـول : أنا أعطيتُـه الحكمـة يعنى : الإنجـيل . والحكمة تعنى : وضع الشىء فى موضعه ، وعيسى عليه السلام جاء بعد اليهودية ، وكانت اليهودية مسرفة فى المادية ومنها ينطلقون فى كل شىء .

وقلنا : إن هـذه المـادية هى الـتى دعـتـهم إلى أنْ يطلبـوا من رسولهم رؤية الله ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣) ﴾ [النساء] فلا مجالَ للغيبيات فى حياتهم ، حـتى فى طعامهم وشرابهم لما أنزل الله عليهم

المنّ والسَّلْوى لم يقتنعوا به ، وأرادوا طعاماً يصنعونه بأيديهم ، فقال لهم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك حينما تقرأ التوراة لا تجد فيها ذكراً لليوم الآخر وكذلك التلمود ، مع أن اليوم الآخر والإيمان به ركن من أركان الإيمان ، لكنهم لماديتهم لا يُصدقون به ؛ لذلك لما جاءت رسالة عيسى عليه السلام جاءت كلها روحانيات لتَجْبُرَ النقص الروحى فى اليهودية ولتستوى كفّة الاعتدال فى الخَلْق .

لذلك لا نجد فى الإنجيل شيئاً عن تقنينات المجتمع ، فإنْ أرادوا شيئاً من ذلك أخذوه من التوراة ، وقد اضطروا - مع ما بينهم من عداء - إلى أنْ يجمعوا التوراة والإنجيل فى كتاب واحد وأسْموه العهد القديم ؛ لأن عيسى عليه السلام سُئِلَ مرة عن الميراث فقال : أنا لم أُبعث مُورِّثاً .

إذن : لما طغَتْ المادية قابلها بروحانية ، ليحدثَ الاعتدالُ فى حركة الحياة لأن الروحانيةَ هى التى تدفع الحركة المادية ؛ لذلك جاءت رسالة عيسى تُربِّى المواجيد الدينية وترتفع بالروحانيات .

فالحياة تحتاج للجانبين معاً الحركة المادية التى تتفاعل مع الكون والطبيعة ، ففى الكون أشياء تعطيك دون أنْ تتفاعل معها كالشمس والقمر والنجوم والماء والهواء ، فأنت فقط مُستقبل ، وأشياء أخرى

---

(١) (اهبطوا مصراً) بالتنوين ، فيه قولان :

- أنه اسم لمصر من الأمصار غير معين . قاله ابن مسعود وابن عباس . وإنما أُمروا بالمصر لأن الذى طلبوه فى الأمصار .

- أنه أراد البلد المسمى مصر . وهذا قول أبى العالية والضحاك . [زاد المسير لابن الجوزى] .

لا تعطيك إلا حين تتفاعل معها ، كالأرض تزرعها وتحرثها وترعاها فتعطيك الزرع .

ولأن اليهودية بالغتْ في المادية بالغتْ كذلك المسيحية في الروحانية ، ومن أقوال السيد المسيح عليه السلام أنه لما رآهم يرجمون امرأة قال[1] : « مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليرجمها » ، وقال[2] : من ضربك على خَدِّك الأيمن أعطه خدك الأيسر .

وهذه رهبانية لم يكتبها الله عليهم ، إنما تطوعوا بها ، وآفة ذلك أنهم ما رعوْهَا حَقَّ رعايتها ، يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد]

إذن : الذى أُخذ عليهم ليس الرهبانية ، إنما أُخذ عليهم أنهم ما رَعوْهَا حَقَّ رعايتها ، وما دامت اليهودية بالغتْ في المادية ، وجاءت المسيحية روحانية صِرْفة ليس فيها شيء من قوانين تنظيم المجتمع ، كان لابدَّ من إصلاح الحالتين ، واحتاجت حركة الحياة لدين جديد ورسالة جديدة تراعى الجانبين الروحانى والمادى ، فكانت هى رسالة الإسلام .

---

(١) جاء هذا فى إنجيل يوحنا ونصه (يوحنا ٨ : ٧) : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر » .

(٢) وذلك فى إنجيل متى أصحاح ٥٥ عدد ٣٩ ونصه : « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً » .

وتأمل كيف ضرب القرآن مثلاً لمحمد وأمته ، مرة فى التوراة ، ومرة فى الإنجيل :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ[1] فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح]

هكذا جمعتْ أمة الإسلام بين الروح والمادة ، فالمسلم لم يُطبع على الشدة ، ولم يُطبع على الرحمة ، بل يُشكِّله الموقف ، لكن أشداء على مَنْ ؟ ورحماءُ لمَنْ ؟

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى إعطاء مَثَل لأمة الإسلام فى التوراة وفى الإنجيل ، فلأن اليهود كانوا قوماً ماديين أعطاهم الجانب الروحى فى الإسلام : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩) ﴾ [الفتح]

أما فى الإنجيل فذكر الجانب المادى فى الإسلام : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح]

فكأن الإسلام بجمعه بين المادية والروحية هو المنهج المناسب

---

(١) شطء الزرع : ما خرج وتفرع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ٣٤٨/١] . (فآزره) أى : قوَّاه . والأزْر : القوة . [القاموس القويم ١٨/١] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٠٤/٤) : « فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع » .

الصالح لقيادة حركة الحياة ، فالروحية لا تستقيمُ أبداً بدون المادية ، فالعابد مثلاً لا يقيم عبادته إلا برغيف يقيم أوْده وثوب يستر عورته ، فمن أين يأتى بالرغيف ؟ ومن أين يأتى بالثوب ؟ الرغيف يحتاج إلى فلاح يزرع ويحصد ، ويحتاج إلى مطحن ، وإلى مخبز وعمال .. إلخ وكذلك الثوب وكلها حركة مادية .

لذلك جعل الحق سبحانه القرآن مهيمناً على الكتب السابقة ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أى : يعلو على كُلِّ الكتب السماوية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزخرف] مثل الأشياء المحرمة على اليهود ، والتى أحلَّها الله لهم مثل الإبل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا[1] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

نلاحظ هنا استخدام الضمير المنفصل ﴿ هُوَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الزخرف] الذى يفيد القصر ، فالله هو ربى ، ليس غيره رباً لى ولا لكم ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴿٦٤﴾ ﴾[الزخرف] لأنه حق ﴿ هَٰذَا ﴿٦٤﴾ ﴾[الزخرف] أى : ما أدعوكم إليه ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزخرف] طريق سوىّ لا عِوجَ فيه .

---

(١) الحوايا : الأمعاء وهى مشتقة من حوى يحوى لأنها تحتوى على الطعام [القاموس القويم ١/١٧٩] .

وقلنا : إن الصراط المستقيم هو الطريق (العدل) الذى يُوصِّلك للغاية من أقرب مسافة وبأقل مشقَّة ، وإذا كان الطريق يوصلك من إلى ، فالطريق إلى الله يُوصِّلك من الله إلى الله ، من الله تكليفاً ، وإلى الله ثمرة وأجْراً ، حيث الرجوع إليه وحده .

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ[(1)] مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ الأَحْزَابُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف] جمع : حزب وهم الجماعة من الناس يجمعهم فكرٌ واحد واعتقاد واحد ، واختلاف الأحزاب يدل على أنها على خطأ وأنها أحزابُ الشيطان ، لأن حزبَ الله واحد يأخذ فكره ومعتقداته من كتاب الله : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف] ويل يعنى : هلاك ، هلاك ممَّنْ ؟ من الله والفعل كما قلنا يُقاس بقوة الفاعل ، فما بالك إنْ كان العذابُ والهلاكُ من الله ؟

وقالوا : ويْلٌ واد فى جهنم ﴿ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف] أى : ظلموا أنفسهم بالشّهوات وبالمعاصى ، أو ظلموا غيرهم من الناس

---

(١) المقصود بالأحزاب هنا أحد قولين ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٥٦) :
– أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضاً . قاله مجاهد والسدى .
– أنهم فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة (أى : الكاثوليك والأورثوذكس والبروتستانت بتعبير العصر الحديث) الذين اختلفوا فى عيسى فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله . قاله الكلبى ومقاتل.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾ [الزخرف] فما بالك بالعذاب نفسه ، إذا كان اليوم الذى يحدث فيه العذاب يوماً مؤلماً ، فكيف يكون العذاب ؟

والعذاب يُوصف بأنه أليم يعنى : مؤلم للحسن . ويُوصف بأنه مقيم يعنى : دائم لا ينقطع . ويُوصف بأنه عظيم وشديد ، ويُوصف بأنه مُهين لمَنْ أراد الله إهانته وإذلاله فوق العذاب ، إذن : لكل مُجَرِّمٍ ما يناسبه من العذاب .

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾

أى : لا ينتظرون إلا الساعة أى القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً (٦٦)﴾ [الزخرف] أى : فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾ [الزخرف] فإذا علم أنها تأتى فجأة وجب الاستعدادُ لها ، حيث لا أحَد يعرف موعدها ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ (١٨٧)﴾ [الأعراف]

وقلنا : إبهام القيامة وإبهام الموت هو عين البيان وغاية التوضيح ، فالإبهام الزمنى يُوسع العظة فتستعد وتنتظره فى كلِّ وقت ، كذلك إبهام السبب وإبهام المكان . ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٣٤)﴾ [لقمان] والموت من دون أسباب هو السبب .

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾

الكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث تنقلب موازين الإخاء والخُلَّة ، قوله تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ (٦٧) ﴾ [الزخرف] جمع : خليل ، وهو الصاحب الذى تودّه وتحبه حتى كأنك تداخلتَ فى أعضائه واختلط بلحمه ودمه ، كما قال الشاعر[1] :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ   خَليليْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعتَابَا

كَأَنَّ خَليلاً فِى خِلالِ خَليلِهِ   تسرَّب أَثْنَاءَ العنَاقِ وَغَاباَ[2]

والخُلَّة إمَّا أنْ تكونَ فى الخير ، وإما أنْ تكون فى الشر ، خُلَّة الخير هى التى تُعينك على منهج الله ، والخليل الحق هو الذى إنْ رآك على الخير أعانك ، وإنْ رآك على غير ذلك نصحك وأخذ بيدك .

يقول تعالى فى وصف الذين آمنوا : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

وهذان هما الخلان اللذان عَنَاهُمَا رسول الله فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ومنهم : ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه »[3] وهذه خُلة الحق وخُلَّة

---

(١) هو إسماعيل صبرى باشا من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، ولد ١٨٥٤ م ، درس الحقوق فى فرنسا ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، توفى بالقاهرة عام ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان لإسماعيل صبرى وهما قصيدة من بحر الطويل ، وفي لفظهما فى الموسوعة الشعرية اختلاف بسيط ، ففيها (شجيين فاضا) بدل (خليلين ذابا) وكذلك (كأن حبيباً في خلال حبيبه) بدل (كأن خليلاً فى خلال خليله) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأول السبعة : إمام عادل . وكذا أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٥٠١) ، والبخارى فى صحيحه (٦٢٠ ، ١٣٣٤ ، ٦٢٠٨) .

الصدق التى تدوم فى الدنيا وتتصل مودَّتها إلى يوم القيامة ، فهُم أخلاء فى الدنيا ، أخلاَّء فى الآخرة .

أما الأخلاَّء فى الشَّر الذين يجتمعون على الشهوات وعلى انتهاك حُرمات الله ، فهؤلاء تنقلب خُلَّتهم فى الآخرة إلى عداوة وبغضاء ، حيث يلوم كلٌّ منهم صاحبه ، فالشر الذى اجتمعوا عليه فى الدنيا أهلكهم فى الآخرة ، والمعاصى التى تحابُّوا من أجلها هى التى ألقتْهم فى العذاب المقيم .

فكلٌّ واحد منهم يرى فى الآخر عدواً له لأنه لم يزجره ولم ينهه . ومن هنا اهتمَّ الإسلام باختيار الصديق والصاحب ، وعلَّمنا كيف نختار الجليس الصالح والرفيق الصالح .

إذن : ساعة الجزاء ينكشف زَيْفُ العلاقات ، ولا تبقى إلا وشائج الخير التى تربط الأخ بأخيه ، والقرآن الكريم فى أكثر من موضع يُصوِّر لنا ما يدور بين هؤلاء الأخلاء فى الدنيا الأعداء فى الآخرة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (٦٨) ﴾

كلمة عبد تُجمع على : عبيد وعباد ولكل منهما معنى ، عبيد تشمل كل الناس المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، لأنهم جميعاً عبيد بمعنى خاضعين لله فى قَهْريات لا يمكنهم أبداً الفكاك عنها كالمرض والموت وغيره ، كلنا مشتركون فيها ، وكلنا عبيد بهذا المعنى .

أما العباد فَهُم الخاصَّة الذين اختاروا الله ، وأخلصوا له العبادة ، وتنازلوا عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده فاستحقوا هذه المنزلة .

﴿ يَـٰعِبَادِ (٦٨) ﴾ [الزخرف] فنسبهم الله إليه وأضافهم إلى ذاته تعالى ، ولم يأت لفظ عباد خلاف هذا المعنى إلا في موضع واحد في معرض الحديث عن يوم القيامة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ (١٧) ﴾ [الفرقان] فسمَّاهم عباداً مع أنهم ضالون . قالوا : لأن الكلام هنا عن يوم القيامة حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار في أنْ يؤمن أو يكفر ، فالجميع هنا طائع لا اختيارَ له فسمَّاهم عباداً .

فالحق سبحانه يكرمنا بهذا النداء ﴿ يَـٰعِبَادِ (٦٨) ﴾ [الزخرف] ويشرفنا بالانتساب إليه سبحانه على حَدِّ قول الشاعر[1] :

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفاً وَعِزاً ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخولِي تحتَ قوْلكَ يا عَبادِي ... وَأَنْ صَيَّرتَ أحمدَ لِي نبيّا[2]

وقوله : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾ [الزخرف] نعم فأيُّ خوف ونحن عباد الله ؟ أيُّ خوف يصيبنا بعد أن التحمنا به تعالى ، ألسنا في الدنيا نقول : لا كرب ، وأنت ربّ ؟ إذن : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾ [الزخرف] أي : على ما فاتكم من نعيم الدنيا لأنكم مُقبلون على ما هو خير وأبقى من نعيم الدنيا .

---

(١) هو : محمد الهلالي الحموي ، شاعر من شعراء العصر الحديث ، له المنظومات الهلالية . ولد ١٨٢٠ م وتوفي ١٨٩٤ م عن ٧٥ عاماً . له ٣٠٨ قصيدة ، عدد أبياتها جميعاً ٦٠٥٩ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٦ أبيات . [الموسوعة الشعرية] .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

هذه الآية تبين أن هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام ، الإيمان عمل القلب ، والإسلام عمل الجوارح التى تنفذ المنهج الذى أمرك به الله ، لذلك رأينا المنافقين هم أسبقُ الناس إلى الصلاة ، مع أن قلوبهم ليست كذلك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات] لذلك كانوا يقفون فى الصف الأول لينفوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، ومن العجيب أن يظهر النفاق فى المدينة وهى بلد الأنصار ومنطلق الإسلام ، ولم يظهر فى مكة معقل الكفر والأصنام ، وأشد البلاد عداءً للإسلام .

ولما تأملنا هذه الظاهرة قلنا : إن النفاق لا يظهر إلا أمام قوة ترهب فيظهر مَنْ ينافقها ، وقد أصبح رسول الله فى المدينة قوة ترهب ، وله شوكة وأنصار وجيش ، أما فى مكة فكان فى موقف ضعف واضطهاد ، فعلامَ يُنَافَق ؟

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزخرف] أى : اقتنعتْ قلوبهم بها ، والاقتناع له مراتب : علم اليقين حين يخبرك مَنْ تثق فى صدقه ، وعين اليقين حين تشاهد الشيء بعينك ، وحق اليقين حين تباشره وتُجرِّبه بحواسِّك أنت .

أذكر أننى سافرت مرة إلى أندونيسيا ، ورأيت هناك أصابع الموز الأصبع الواحد نصف متر ، فتعجبتُ وأخذت منها معى حين عودتى

إلى مصــر ليراها أولادى ، فلما عدت قلتُ لهم تصــوَّروا لقد رأيت فى إندونيسيا كذا وكذا ، طبعاً تعـجبوا وهـم يعرفون أنِّى لا أكذب عليهم ، هذا يُسمَّى علم اليقين .

ثم قلتُ لهم : افتحوا هذه الحقيبـة ، ففتحوها ووجدوا بها أصابع الموز كما أخبرتهم ، هذا يسمى عـين اليقين ، فلما أخرجوها وتذوَّقوا طعمها وباشروا ملمسها ولونها أصبح الأمرُ حق اليقين ، وهكذا .

فالذى يؤمن علـمَ اليقين هل يُنفـذ ما آمن به ، الذى يعـمل وينفذ مسلم ، والذى لا ينفذ منافق ، لأنه آمن باللسان ولم يعمل بما آمن به .

والأعراب لمـا سمـعوا هذه الآية اطمـأنوا إلى أنهم سيـؤمنون فى المسـتقـبل ، لأنهم يعرفون مـعنى (لما) ، فـهى تفيد نـفى الماضى والحاضر دون المستقبل .

فـقوله تعـالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (١٤) ﴾ [الحجرات] إذن : سيدخل فيما بعد .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ[1] (٧٠) ﴾

(١) وردت عـدة أقوال فى مـعنى قـوله تعـالى ﴿ تحـبرون ﴾ ذكـرها القـرطبى فى تفـسيـره (٩/٦١٥٩) :
- تُكرمون . قاله ابن عباس . والكرامة فى المنزلة .
- تفرحون . قاله الحسن . والفرح فى القلب .
- تُنعمون . قاله قتادة . والنعيم فى البدن .
- تُسرون . قاله مجاهد . والسرور فى العين
- تعجبون . قاله ابن أبى نجيح . والعجب هاهنا دَرْك ما يُستطرف .
- هو التلذذ بالسماع . قاله يحى بن أبى كثير .
قلت : هى حالة من الفرح والسرور تجمع كل هذه المعانى التى ذكرها المفسرون تلازم المؤمن فى الجنة فهو تنعُّم يشمل كل حواسه وجوارحه وقلبه [عادل أبو المعاطى] .

هذا هو الجزاء ، جزاء الذين آمنوا وكانوا مسلمين ، يقول الله لهم أى يوم القيامة : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف] وخصَّ الأزواج لأن كلَّ متعة يتمتعها الإنسان ويُسَرُّ بها تدبُّ فيه غرائز المراهقة ، ويميل إلى أنْ تكونَ له زوجة تشاركه متعته وسروره ، وهى كذلك .

فالزوج إذن - سواء الزوج أو الزوجة - هو المرافق المشتهى أولاً ، والمعين ثانياً سكناً ومودَّة ورحمة ، السكن والمودة معروفة بين الزوجين ، أما الرحمة فمتى تكون ؟

الرحمة نراها بين الزوجين فى فترة الكِبَر والشيخوخة حينما يكون كلٌّ منهما فى حاجة إلى الرحمة من الآخر ، الرحمة قبل أىِّ مشاعر أخرى .

ومعنى ﴿ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف] الحبور : شدة السُّرور ، وهو شىء من الصفاء والوضاءة والبهاء تعلو وجه الإنسان حينما يفرح فرحاً لا يُنغِّصه شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين]

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

الحديث هنا عن نعيم الجنة ، والصحاف : جمع صحفة وهى (الطبق) الواسع الذى تأكل فيه الأسرة كلها ، والأكبر منها قصعة ، والأكبر من القصعة جفنة ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول

الله أخبر عن ابن جدعان[1] أنه كان له جَفْنة كبيرة حتى أنه كان يُستظلُّ بظلها من حَرِّ الشمس[2] .

وفى قصة سيدنا سليمان والجن الذى سخَّره الله لخدمته ، قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[3] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [سبأ]

كذلك فى الجنة صحاف لكن من ذهب .

﴿ وَأَكْوَابٍ (٧١) ﴾ [الزخرف] جمع كوب ، وهو إناء يُشرب فيه ليستْ له عُرْوة ، وهناك الأباريق جمع إبريق ، وهو إناء يُشرب فيه له عروة وفتحة من أعلى ، وهناك الكأس وهى الكوب إذا كان ملآناً بالشراب .

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف] هذا وَصْف مُوجز للمتعدِّد الذى يطول المقام بذكر تفاصيله ، فالذى يُقدَّم فى هذه الصحاف وفى هذه الأكواب مما تشتهيه الأنفسُ من الطعام والشراب ، هذا من حيث الطعم .

﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف] يعنى : لونه رائقٌ لك جميل فى

---

(١) عبد الله بن جدعان التيمى القرشى ، أحد الأجواد المشهورين فى الجاهلية أدرك النبى قبل النبوة ، له أخبار كثيرة أورد الأصفهانى وغيره بعضها وسماه اليعقوبى بين حكام العرب فى الجاهلية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] .

(٢) قال إسماعيل حقى فى تفسيره : « كان لعبد الله بن جدعان من رؤساء قريش وهو ابن عم عائشة رضى الله عنها جفنة يُستظل بظلها ويصل إليها المتناول من ظهر البعير ووقع فيها صبى فغرق ، وكان يطعم الفقراء كل يوم من تلك الجفنة » .

(٣) الجفان جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة ، والجوابى جمع جابية وهى الحوض الكبير يُجْبى فيه الماء . [زاد المسير لابن الجوزى] .

عينك ، مجرد النظر إليه فيه لذة ، فما بالك بطعمه ومذاقه ، لذلك حينما تستضيف مثلاً عزيزاً لديك تقول له : ماذا تحب أن تأكل ، لماذا ؟ لتصنع له ما يشتهيه وما تميل إليه نفسه .

يعنى : المسألة ليست (حشو بطن) فحسب . وتلحظ أنه ذكر الصِّحاف أولاً ، ثم الأكواب ، لأن الإنسانَ عادة يأكل ثم يشرب ، ففيها ترتيب للأهمية .

وذكر لذة الأعين بالطعام ، لأنك تجد بالنظر إليه متعة ربما تفوق متعةَ الأكل ، لذلك قال تعالى فى موضع آخر ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] (٩٩)﴾ [الأنعام] فجمع إلى لذة الطعام لذة النظر إليه .

وقوله : ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف] لأن هذه دارُ بقاء وخلود ، ليس فيها موت ، وليس فيها انقطاعٌ للنعمة فلا تفوتك النعمة ولا تفوتها ، يعنى : لذة صافية لا يُنغِّصها شىء ، كما قال تعالى : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] لأنها عطاء الله ، وعطاءُ الله دائمٌ لا ينقطع .

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾

قوله ﴿أُورِثْتُمُوهَا (٧٢)﴾ [الزخرف] أخذتموها إرثاً ، والإرث يكون بعد موت صاحبه كالميت يموت ويترك ملكه وتركته لمن بعده من أولاده وأقاربه ، إذن : هؤلاء يملكون التركةَ بدون عقد وبدون ثمن ، لكن ورثوا مَنْ ؟

---

(١) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . والوصف منه يانع أى ناضج قال تعالى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ (٩٩)﴾ [الأنعام] أى : ونضجه واختلاف طعمه بعد نضجه . [القاموس القويم ٢ /٣٧٣] .

يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخَلْق أحصاه عدداً وكتب فى الميقات الأزلى كل شيء ، وقد صحَّ أن القلم قد جَفَّ على ذلك(١) .

ولما سُئِل المأمون : ما شُغل ربك الآن وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويخفض آخرين(٢) .

قالوا فى مسألة الإرث هذه أن المؤمنين فى الجنة ورثوا الكافرين وأخذوا أماكنهم فى الجنة ، لأن الحق سبحانه جعل لكل إنسان مكاناً فى الجنة ومكاناً فى النار ، حتى إنْ جاء كُلُّ الخَلْق مؤمنين طائعين كانت لهم أماكن تكفيهم فى الجنة ، وكذلك إنْ كفروا جميعاً وُجدتْ لهم أماكن فى النار .

فساعة يدخل أهلُ النار النارَ تخلُو أماكنهم فى الجنة فيجعلها الحق سبحانه من حَقِّ المؤمنين ويُورثهم إياها تفضّلاً منه وتكَرُّماً أولاً ، ثم جزاء تفوقهم فى الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٢٥٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله » . قال الترمذى : حديث حسن . وكذا أحمد فى مسنده (٦٣٥٦ ، ٦٥٥٩)

(٢) أورده الشوكانى فى فيض القدير (٢/٢٩٢) أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان سأل المأمون الحسين بن الفضل عن قوله تعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] فقال : هى شئون يبديها ولا يبتديها ، فقام إليه وقبَّل رأسه . وذكره الزمخشرى فى الكشاف ، وكذلك [الفواكه الدوانى على رسالة ابن أبى زيد القيروانى ١ / ١٥٦] .

لذلك قال : ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف] فالعمل الصالح إذن هو المعوّل الأساس فى دخول الجنة ، وفى إرث أماكن أهل النار .

ونلاحظ فى مسألة الإرث أنه ينقل ملكية الشىء من المورِّث إلى وارثه ، ويكون هذا الإرث حلالاً للوارث بصرف النظر عن مصدره من أين ، من حلال أو من حرام ، فلو أن رجلاً كسب مالاً من حرام فيتحمَّل هو وزره وحده ويُطوَّق به يوم القيامة .

فإن انتقل إلى الوارث كان بالنسبة له حلالاً لا شىء عليه فيه ، لأن المسئولية هنا لا تتعدى ، وقد حسم سيدنا رسول الله ﷺ هذه المسألة لما قال : « شرّكم مَنْ ماتَ بشرٍّ ، وتركَ عياله بخير »[1] .

لذلك الوارث ليس له أنْ يسأل عن مصدر هذا المال الذى ورثه ، فهو مثل الزوجة لا تسأل زوجها عن مصدر النفقة التى يدفعها لها ، ومثل الولد دون البلوغ ليس له أنْ يسألَ والده من أين يأتى بالمال الذى ينفقه عليه .

لكن للولد ذلك لما يبلغ ويصبح قادراً على الكسب ، فله أنْ يسأل لأنه أصبح قادراً على الكسب من الحلال بنفسه .

ذلك قياساً على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور] فبعد البلوغ لم يبْق له حَقٌّ على أبيه ، بل انتقل الحقُّ منه لأبيه إلا أنْ يتفضل الأب .

وقلنا : إن قضية تفضُّل الأب عندنا أثَّرتْ بالسلب على

---

(١) أخرجه القضاعى فى مسنده (الشهاب) (٢/ ٢٤) (٣٠٤) من حديث ابن عمر بلفظ : «الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشرٍّ » . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء للديلمى (ح ٢٩٧٧) . وقد حكم الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (١٥٧/٤) بوضعه .

اقتصادياتنا ، لأن حنانَ الآباء الزائد وتدليلَ الأولاد جعل فترة الطفولة تمتدُّ فى شبابنا إلى سنِّ الخامسة والعشرين بل والثلاثين ، والولد فيها عَالةٌ على أبيه يريد منه كل شيء ، حتى الشقة والجهاز والزواج ، ركن الشباب عندنا إلى الراحة وألقوْا بالمسئولية على الآباء ، وهذا يضيع علينا طاقات كثيرة لا تُستغل .

لذلك تفوَّق علينا الغرب فى هذه المسألة ، ففى مثل هذه السِّنِّ يخرج الشابُّ عندهم إلى الحياة وإلى ساحة العمل ، ويتحمَّل مسئوليته بنفسه ، ويستقل كليةً عن الأسرة ، صحيح أنهم وقعوا فى خطأ فى هذا الموضوع أنهم سَوَّوْا بين الفتى والفتاة ، لأن الفتاة لها وَضْع آخر ، لذلك هنا نحتضنها إلى أنْ تتزوج ، فلا تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) ﴾

سبق أنْ ذكر الحق سبحانه الطعام والشراب فى الجنة وأنها فى صحَاف وفى أكواب وهذه معروفة للعرب ، وهنا يذكر أن من نعَم الجَنة الفاكهة ، والعرب لم تكُنْ تعهد الفاكهة ولا تعرف الكثير منها ، لذلك خَصَّ الفاكهة بعد ذكر الطعام والشراب ، والفاكهة بعد الطعام والشراب دليل على الرفاهية والمتعة التامة ، والفاكهة من التفكّه . يعنى : ليست من الضروريات بل من الرفاهية (فنطظية يعنى) .

الحق سبحانه وتعالى أعطانا ضروريات الحياة من المأكل والمشرب والملبس ، ثم زادنا ما نُرفِّه به حياتنا ، اقرأ مثلاً : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] فاللباس الذى يُوارى السوءة من الضروريات ورياش للزينة والترفّه ، ثم نبَّه إلى ما هو أهمّ من اللباس المادى ،

إنه اللباس المعنوى الذى يسترك فى دنياك وأُخْراك ، إنه لباسُ التقوى .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة موجزة لأهل الجنة وبعض ما فيها من نعيم ليعطينا المقابل لتتضح الصورة أكثر ، وهذه سمةَ من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن النفسَ حين تذكر لها ما تنبسط له ، ثم تذكر ما تنقبض له يظهر لها الفرق ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) ﴾

الحق سبحانه يقرر لنا حقائق ثلاث عن المجرمين : أنهم خالدون فى العذاب فهو عذاب ممتدٌّ لا نهاية له ، ثم ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ .. (٧٥) ﴾ [الزخرف] يعنى : لا يُخفف عنهم ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) ﴾ [الزخرف] يعنى : متحسِّرون يائسون من النجاة ، يائسون من الخير لا أملَ عندهم فى الخروج منها ، وهكذا جمع عليهم كلَّ جوانب الألم الحسرة واليأس وقَطْع الرجاء .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾

لأن ما صاروا إليه من العذاب جزاءَ عملهم ليس ظُلْماً لهم ، لأننا هديناهم وبينَّا لهم الخير والشر ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)[1] ﴾ [البلد]

---

(١) النجدان : أى طريق الخير وطريق الشر . كذا فى معظم المعاجم اللغوية . وقال الزجاج : أى الطريقين الواضحين . قال فى تهذيب اللغة : فالمعنى ألم نُعرفه طريق الخير وطريق الشر بيِّنين كبيان الطريقين العاليين .

وقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ ﴾ [الشمس] ومع ذلك ظلموا أنفسهم حين تعجَّلوا لها الشهوات ، وأخذوها فى الحرام فحرمهم الله من المتعة الحلال الأبدية فى الآخرة ، وشَرُّ الظلم أنْ يظلمَ الإنسانُ نفسه ، وظُلم النفس حُمْق وتَعدٍّ .

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٨ ﴾

الكلام هنا عن أهل النار والعياذ بالله ينادون مالكَ خازن النار ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. ۝٧٧ ﴾ [الزخرف] يعنى : بالموت لنستريحَ ممَّا نحن فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى ، لأن الحق سبحانه يقول ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ۝٥٦ ﴾ [النساء]

وقلنا : إن العلوم الحديثة أثبتتْ أن الجلد هو موضع الإحساس ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً لا تشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، وقد سبق القرآن كل العلوم فى بيان هذه الحقيقة ، لذلك يطلب أهل النار الموتَ لينقذهم من هذا العذاب .

لكن نلحظ أن الفعل ﴿ لِيَقْضِ .. ۝٧٧ ﴾ [الزخرف] جاء بصيغة الأمر ، واقترنَ أيضاً بلام الأمر ، فهل الحق سبحانه وتعالى يُؤمر وخاصةً من أهل النار ؟ قلنا : إن الطلب إنْ كان من الأعلى للأدنى فهو أمر ، وإنْ كان من المساوى لك فهو التماس ، وإنْ كان من الأدنى للأعلى فهو دعاء ، فنحن إذن لا نأمر الله إنما ندعوه .

(قال) أى مالك ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝٧٧ ﴾ [الزخرف] باقون فى النار خالدون فيها ، لأنه لا عذرَ لكم ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ .. ۝٧٨ ﴾ [الزخرف] أى : الدين الحق والمنهج الحق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٨ ﴾ [الزخرف]

وهذا معنى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾ [الزخرف]

ثم يُوجه السياقُ الحديثَ إلى سيدنا رسول الله ، وكثيراً ما يخاطبه ربه ليُسلِّيه ويُخفِّف عنه لأنه لاقى من عَنَت قومه وعنادهم الكثير ، وآذوه في نفسه وذاته حينما أغروا به سفهاءهم ورَمَوْه بالحجارة حتى أدْموا قدميه[1] ، وألقوا سقط البعير والقاذورات على ظهره وهو يصلي[2] .

وآذوه في معنوياته فقالوا عنه : ساحر وكاهن وكذاب وشاعر ومجنون ، فالحق سبحانه يُبيِّن له أنه جاء على فترة من الرسل بعد أنْ فسدَ الخَلْق وانتشر الشرُّ ، ووراء هذا الفساد قومٌ يستفيدون منه ويدافعون عنه ، وطبيعي أنْ يصادموك وأنْ يقفوا في وجه دعوتك ، لأنهم يريدون الإبقاء على مكانتهم وانتفاعهم بهذا الفساد .

وقد وصل كُرْه هؤلاء لرسول الله أنْ بيَّتوا للقضاء عليه والخلاص من دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[3] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

---

(١) أورده ابن القيم في كتابه زاد المعاد (٣ / ٢٨) فصل الخروج إلى الطائف ، قال : « فخرج رسول الله إلى الطائف رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه .... ولكنهم أغروا به سفهاءهم فوقفوا له سماطين (أي صفين على الجانبين) وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه » .

(٢) أورده صاحب (سبل الهدى والرشاد) في كتابه (٤٣٦/٢) وعزاه للشيخين والبزار والطبراني عن ابن مسعود أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد ، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس وسلا جزور نحرت بالأمس قريباً ، فقال أبو جهل : من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفي محمد إذا سجد فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط فجاء به فقذفه على ظهره فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض والنبي ﷺ ما يرفع رأسه وجاءت فاطمة فطرحته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك .

(٣) قوله (ليثبتوك) للمفسرين فيه قولان (زاد المسير لابن الجوزي) :
الأول : ليثبتوك في الوثاق ، قاله ابن عباس والحسن .
والثاني : ليثبتوك في الحبس . قاله عطاء والسدي وآخرون .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ[1] :

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يعني : أحكموا كيداً لك يا محمد وبيَّتوه واتفقوا عليه ، فلا تهتمَّ لأننا لهم بالمرصاد ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : نحكم كيداً كما أحكموا كيداً . ونحن نعلم ما يُبيِّتونه ولا يخفى علينا ، وهم لا يعلمون ما نُبيِّته لهم ، إذن : أيُّ الفريقين أقوى ؟

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أيظنون أنَّا لا نسمع ما يُبرمونه وما يُحكمون تخطيطه لإيذاء رسول الله ، ولا نسمع سرهم ، والسر هو الحديث تُسرُّ به إلى آخر ، أو السرُّ إذا سمعتَ شيئاً وبقى سراً في صدرك لا يطلع أحدٌ عليه .

والنجوى هي الحديث الخافت بين اثنين بحيث لا يسمعهما ثالث لكن الله يسمع سرَّهم ويسمع نجواهم ، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم ، بل وأكثر من ذلك ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : نسمعهم ونُحصي عليه ما قالوا ، فلنَا رسل وملائكة تكتب

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٩/٦١٦٦) فيما نقله عن مقاتل قال : نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبي ﷺ في دار الندوة حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر .

وتسجل ما يقولون وما يفعلون .

فلو قلتَ : إذا كان الحق سبحانه يعلم ويسمع ولا يخفى عليه شىء من أمرهم ، فما فائدة التسجيل عليهم وكتابة سرِّهم ونجواهم ؟

قلنا : الكتابة تفيد الملائكة فهى من أجلهم ، حتى إذا ما رأوا الأحداث تحدث كما سُجِّلتْ فى اللوح المحفوظ يعلمون أن الله عليم حكيم فيزدادوا يقيناً فوق يقينهم ، وإيماناً على إيمانهم .

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ (قُلْ) يا محمد لمنْ يدَّعى أن للرحمن ولداً ﴿ قُلْ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] أى على سبيل الفرض ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] وعلى اعتبار (إنْ) شرطية فالمعنى[1] إنْ كان للرحمن ولد وهو سبحانه الذى يخبرنى بهذه الحقيقة فأنا أولُ العابدين له ، لأننى آخذ ثقافتى وآخذ أوامرى من ربى لا منكم .

وبعضهم[2] قال (إنْ) هنا نافية ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] فالمعنى : قُلْ ما كان للرحمن ولد فأنا أول مَنْ ينفى ذلك لأننى أول العابدين ، وأول

(١) هذا معنى افتراضى للحوار معهم فقط ، فإنه يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إذ ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغة فى الاستبعاد ، أى : لا سبيل إلى اعتقاده .

(٢) منهم ابن عباس والحسن والسدى . أى : قل ما كان للرحمن ولد . فيكون الكلام على هذا تماماً ثم تبتدئ (فأنا أول العابدين) أى : الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .

المؤمنين بوحدانية الله تعالى .

الحق تعالى وصف نفسه سبحانه بوصفين ، البعض يظن أنهما بمعنى واحد ، لكن طالما هما لفظان مختلفان فلا بدَّ أن لكل منهما معنىً خاصاً لا يؤديه الوصفُ الآخر ، الحق وصف نفسه بأنه واحد أحد .

قلنا : واحد يعنى فرد لا ثانيَ له فهى تنفى التعددية ، أما أحد أى واحد فى ذاته ليس له أجزاء ، لأن الشيء المكوَّن من أجزاء يكون كل جزء فيه محتاجاً إلى الأجزاء الأخرى .

وطالما أنه تعالى أحد فى ذاته إذن ليس له ولد لأن الولد جزء من أبيه ، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « فاطمة بضعة منى »[1] يعنى : جزء منى .

وإذا أخذنا بهذا المبدأ وسلْسَلْنا نسب كلٍّ منا لا بدَّ أنْ نصلَ إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعرفنا أن كلاً منَّا فيه بضعة أو ذرة من أبيه آدم ، هذه الذرة هى التى شهدت العهد الأول الذى أخذه الله تعالى على بنى آدم وهم فى مرحلة الذَّرِّ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٧ ، ٢٤٥٠ ، ٢٤٨٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٤٨٣) من حديث المسور بن مخرمة ، ولفظ مسلم : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » .

وهذه الذرّة هى بذرة الخير وموضع الإيمان فى الإنسان ، ومنها تنطلق حركةُ الخير ، ألا تراه يندم على الذنب ويعزم على التوبة ؟ إنه عملُ هذه الذرة وأثرها فى النفس الإنسانية لأنها أول مَنْ سمع نداء الله وبلاغٌ عن الله .

والقرآن الكريم أفاد أن الجنَّ أوعى من الإنس فى هذه المسألة ، فإذا كان الإنسانُ قد تجرأ على الحق سبحانه وتعالى ونسب له الولدَ ؛ فالجنُّ نفتْ ذلك ونزَّهتْ الله عن الولد وعن الصاحبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن]

يعنى من عظمته تعالى أنه لم يتخذ لا صاحبة – يعنى زوجة – ولا ولداً ، والمتأمل يجد أن الصاحبة والولد من أسباب الفساد فى الكون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن]

ونحن نقول مثلاً فى أعراف البشر : تزوج مبكراً لتنجبَ ولداً يعولك فى شيخوختك ، وهل الحق سبحانه يتخذ الولد لأنه فى حاجة إليه كما نحتاجه نحن ؟ ثم الذين قالوا إن عيسى ابنُ الله ما قولهم فى الزمن قبل عيسى ألم يكُنْ لله فيه ولد ؟ وما بعد عيسى أين الولد الذى اتخذه الله ؟ إذن : هذا كله افتراءٌ على الله .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) الجدُّ : العظمة والمجد . ومعنى الآية أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى أى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

من المناسب أنْ تبدأ هذه الآية بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف] بعد الحديث فى الآية السابقة عن نَفْى الولد عن الله تعالى ، كلمة (سُبْحان) يعنى : تنزيهاً لله تعالى عن كلّ ما يدور بخاطرك .

لذلك لا تأتى كلمة سبحان الله إلا مقترنة بشىء عجيب فوق تصوّر العقل البشرى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس] . ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴿١﴾﴾ [الإسراء]

يعنى : حينما تقف عقولكم عند هذه المسائل قولوا سبحان الله ، ونزِّهوا الله عن مشابهة الخَلْق ، ولا تقيسوا قوته بقوتكم ، ولا فعله بفعلكم ، ولا قدرته بقدرتكم ، نزِّهوا الله فى أسمائه وفى صفاته وفى أفعاله .

ثم تأمل كيف يأتى الحق سبحانه فى هذه الآية بالصفات التى تناسب نَفْى الولد عنه سبحانه ، فيقول ﴿رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف] وهل مالك السموات والأرض ومَنْ فيهن بحاجة إلى الولد ؟ وفى آية أخرى يقول : ﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

وأعظم من السموات والأرض العرش (رب العرش) إذن : هو سبحانه فى غنىً عن اتخاذ الولد . وقوله : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف] عمَّا يكذبون فيه ، أو عمّا يصفون اللهَ به من اتخاذ الولد .

وقلنا : إن تسبيح الله دائرٌ فى الزمن كله وثابتٌ لله تعالى قبل الزمن ، فالله مُنزَّه وهى صفة ذاتية فيه سبحانه قبل أنْ يخلقَ مَنْ يُسبِّح ، فكلمة (سبحان) ذاتية لله قبل أنْ يخلق الخَلْق . فلما أوجد

هــذا الكـون سبَّح الكونُ لله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ۝١ ﴾ [الحشر]

وهذا التسبـيح مستمـر فى الحاضر والمسـتقبل ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ۝٢٤ ﴾ [الحشر] وطالما أن الكونَ منظومة واحدة مُسـبِّحة لله تعالى فـلا تشذ أيها الإنســان عن هذه المنظومة وكُنْ أنت أيضاً مُسبِّحاً : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى]

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسـول الله ﷺ ﴿ فَذَرْهُمْ ۝٨٣ ﴾ [الزخرف] اتركهم يا محمد وما يخوضـون فيه من هذا الحديث الكاذب ، وكلمة﴿ يَخُوضُوا ۝٨٣ ﴾ [الزخرف] من الخـوض . وأصـلها خَـوْض الإنسان فى لُجـة الماء الكـثير ، ثم اسـتُعـملَتْ مجـازاً فـيمَنْ يخوض فـى الحديث دون دراية .

وأكثر اسـتعمالهـا فى الحديث الباطل ، والخوض توحى بالـتخبط والمـشى فى أماكن مـجهـولة لا تدرى مـا يقابلك فـيهـا من أخطار ، فـتكون أنت الجـانى على نفـسك . إذن : لا بدَّ أن تتـحـسَّس قـبل أنْ تخوضَ ، واحذر الخوض فى الباطل .

وقوله :﴿ وَيَلْعَبُوا ۝٨٣ ﴾ [الزخرف] لأنى أمرتهـم أنْ يجدُّوا فى الحياة ، فإذا هم يلعبون فيها.، فالجدّ يقابله اللهو واللعب ، والفرْق بين اللهو واللعب أن اللعب أنْ تعمل شيئـاً لا فائدةَ منه إلا التسلية ، وهذا قبل

أوان التكليف ، فإذا كان مُكلَّفاً وفعل ما لا فائدةَ منه فهو لهو .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة] إذن : اللهو أنْ تنشغلَ بلعب لا يفيد عن واجب طُلبَ منك .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : أوعدهم الله بهذا اليوم ولم يتركهم هملاً ولم يخلقهم عبثاً ، بل بيَّن لهم الحق والباطل ، ووعدهم الجزاء كلٌّ بما يستحق ، فالفعل ﴿ يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الزخرف] من أوعد من الوعيد ، وهو الإنذار بالشر قبل أوانه لتتجنبه .

وهناك وَعَد من الوعْد ، والوعد لا يكون إلا بالخير .

إذن : الذين يدخلون النار لم يظلمهم اللهُ ولم يأخذهم على غرَّة ، بل أوعدهم وحذرهم من هذا المصير . والقرآن مليء بالوعد والوعيد ، واقرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ[1] ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل]

فالحق سبحانه وتعالى قدَّم لعبده الخير في وعده وفي وعيده ، نعم حتى الوعيد فيه خير لأن الذي يحذرك من الشر قبل أنْ تقع فيه يُسدي لك جميلاً يستحق عليه الشكر .

وفي ضوء ذلك فهمنا قوله تعالى وهو يُعدِّد نعمه علينا في سورة الرحمن ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾

---

(١) استغنى هنا بمعنى أنه إذا رأى نفسه غنياً فإنه يغتر ويطغى ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق] . [القاموس القويم ٢/٦٢] .

(٢) الشُّواظ (بضم الشين وكسرها) : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن] فهل النار والشواظ والنحاس يمكن أن يكون فى عداد نعم الله ؟ نعم هى نعمة من الله لأنه يحذرك من أسباب الوقوع فيها ويبعدك عنها .

فالآية إذن ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣)﴾ [الزخرف] دعوة لرسول الله أنْ يُهوِّن الأمر على نفسه ولا يشقّ عليها بسبب عناد قومه وتماديهم فى ضلالهم .

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ويُخفف عنه ، كما خاطبه فى آيات كثيرة بهذا المعنى مثل قوله سبحانه : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤)﴾

البعض يظن أن الله تعالى فى السماء ، فإذا دعاه دعاه بصوت عَالٍ ليسمعه . والله سبحانه فى كل مكان وفى كل زمان ، ليس له مكانٌ يَسَعه ولا زمانٌ يحتويه ، لأنه سبحانه خالق الزمان وخالق المكان ، والمخلوق لا يسع الخالق .

لذلك لا نستعمل أين ولا متى مع الله ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَـٰهٌ (٨٤)﴾ [الزخرف] إذن : فهو فى كل مكان ، وهذه الصفة (إله) ذاتية فيه سبحانه ، وهى صفة كمال لا تفارقه ولا تنفكّ عنه ، لا فى السماء ولا فى الأرض .

وكان للمستشرقين وقفة عند هذه الآية بسبب تكرار النكرة ﴿وَهُوَ

الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف] فكلمة (إله) نكرة كُرِّرَتْ ، والقاعدة اللغوية أن النكرة إذا كررتْ كانت الثانية غير الأولى كما لو قلتَ : لقيتُ رجلاً ، وأكرمتُ رجلاً ، فرجل الثانية غير الأولى .

أما المعرفة إذا كُررتْ كانت الثانية هي عَيْن الأولى كما لو قُلت : لقيتُ الرجل فأكرمتُ الرجل ، إذن : هو هو . وهذه القاعدة وضعتْنا في إشكال مع هذه الآية ، ومَنْ يقول بإله في السماء وإله آخر في الأرض ؟!

وفي حديث سيدنا رسول الله ﷺ ما يُؤكِّد هذه القاعدة ، لأنه حين قرأ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح] قال : « ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ »[1] فالعُسْر جاءت معرفة ، واليُسْر جاءتْ نكرة .

وهذه الآية لها معنا قصة مع الناس الدراويش في المسجد الأحمدي بطنطا ، ففي يوم من الأيام جاءنا الشيخ محمود شلتوت[2]

---

(١) أخرج الحاكم في مستدركه (حديث ٣٩١٠) من حديث الحسن البصري مرسلاً قال : خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول « لن يغلب عسر يُسْرين ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح] » وكذا أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٦٥٧) .

(٢) الشيخ محمود شلتوت ، فقيه مفسر مصري ، ولد في منية بني منصور بالبحيرة عام ١٨٩٣ م ، وتخرج بالأزهر (١٩١٨م) وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة (١٩٢٧) وكان داعية إصلاح نير الفكرة يقول بفتح باب الاجتهاد ، اعيد إلى الأزهر (١٩٣٥) حتى أصبح شيخاً للأزهر (١٩٥٨) إلى وفاته (١٩٦٣ م) . له ٢٦ كتاباً مطبوعاً منها التفسير . (الاعلام للزركلي ١٧٣/٧) .

وكان شيخاً للأزهر ليزور مدينة طنطا ، وجاء المسجد الأحمدى ليصلى ، وبعد الصلاة سأله الشيخ أبو العينين وكان أستاذاً للتفسير وقال له : الحمد لله يا مولانا أننى وجدتك هنا لأننى فى درس التفسير أمس وقفتُ أمام الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف] والقاعدة أن النكرة إذا كُرِّرتْ كانت الثانية غير الأولى ؟

وبمجرد أنْ بدأ الشيخ شلتوت فى الجواب وقال : والله العلماء قالوا إن القاعدة أغلبية ، وعندها دخل رجل لا نعرفه قبل ذلك ولا عرفناه بعدها ، وكان عارىَ الرأس وفى يده عصا ، وقال : يا علماء أنتم نسيتم اسم الموصول ﴿ وَهُوَ الَّذِى ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف] اسم الموصول معرفة وما بعده صلته ، إذن : الكلمة المكررة صلةٌ لموصول واحد ، يعنى هو هو ، ثم انصرف الرجلُ وجلسنا نحن لم يتكلم منا أحدٌ لمدة نصف ساعة .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف] الحكيم : الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة ، والعليم بما يصلح خَلْقه وبما يُعينهم على معايشهم وعلى معَادهم ، فما كان سبحانه ليُعطيهم مُقوِّمات المادة بالطعام والشراب والهواء ثم يتركهم دون منهج ودون قيم تُغذِّى أرواحهم كما غذَّى أبدانهم .

لذلك سمَّى هذ المنهج روحاً ، فهو للقلوب مثل الروح للأبدان ، والفرق بين الروحين أن الروح التى فى البدن لها موعد تفارق فيه البدنَ بالموت ، أما روح القيم والمنهج فهى باقية خالدة تلازمه فى الدنيا ، وتصاحبه إلى الآخرة .

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

كلمة ﴿ وَتَبَارَكَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الزخرف] كلمة جامدة لا اشتقاقَ فيها ، تعنى : تعالى قَدْره وكَثُر عطاؤه . وتبارك من البركة يعنى : كثرة الخير حيث يُعطيك القليلُ الكثيرَ الذى ما كنتَ تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الزخرف] وفى آية أخرى قال : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الحج] يعنى : له الظرف والمظروف .

وفى سورة طه قال سبحانه : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

وهكذا استوعبتْ الآياتُ الكونَ كله ، وجعلته ملكاً لله تعالى ، الكون كله بسمائه وأرضه ، ما فى السماء وما فى الأرض ، وما بين السماء والأرض وما تحت الأرض كله ملْك الله .

وأخيراً عرفنا أن الخير كلَّه مطمورٌ تحت الثرى يُطلع اللهُ عباده عليه إذا شاء حَسْب تطور حياتهم ورُقيها ، ففى باطن الأرض الآن الماء والبترول والمعادن والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة .

وكأن الحق سبحانه ينبهنا بقوله ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه] إلى الاهتمام بباطن الأرض وحَفْرها ، والتنقيب فيها لاستخراج خيراتها .

لذلك نرى علماء الجيولوجيا وعلماء الحفريات والبترول يجوبون

البلاد من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن هذه الخيرات حتى في البحار ، لأنها تدخل في هذا المعنى ، فهي من الأرض وإنْ كانتْ تمثل ثلاثةَ أرباع الأرض .

ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) ﴾ [الزخرف] هكذا بأسلوب القصر في الموضعين ، حيث قدَّم الجار والمجرور ليفيد قصر علم الساعة على الله وحده دون سواه .

كذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) ﴾ [الزخرف] إليه هو دون سواه ، لا ترجعون إلا إليه ، وكأنها رسالة موجزة إلى الإنسان أنْ تذكّر نهايتك وآخرتك ، وتذكَّر الجزاء على العمل ، ولا تغرنّك النعمة فبعدها حسابٌ وجزاء .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾ [العلق] فكلٌّ شيء من الله وإلى الله : من الله خَلْقاً وإمداداً وتربيةً ، وإلى الله مرجعاً ومآباً .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾

أيَ : الذين يدعونهم من دون الله كالشمس والقمر والنجوم والأصنام ، هذه المعبودات معبودات باطلة ، بدليل أنهم لا يملكون الشفاعة ولا يملكون دَفْع الضّر عنهم ، وهم لا يملكون الشفاعة لأن الشفاعة عند مَنْ ؟ عنَد الله .

وكيف يقبل اللهُ شفاعتهم ، وهم السبب في ضلال هؤلاء ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ [الزخرف] هذا استثناء يعني : لا يشفع

عند الله إلا مَنْ شهد بالحق[1] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذن : هؤلاء يؤمنون ويعترفون بأن الله هو خالقهم ، وفى آية أخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت] وعجيب منهم بعد هذا الاعتراف ألا يؤمنوا بالله ولا يصدقوا رسوله .

لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] كيف يُصرفون عن هذا الحق وهم يعترفون به ويشهدون لله بأنه خالقهم وخالق السموات والأرض .

لذلك يتعجب الحق سبحانه فى سورة البقرة من كفرهم ، الذى لا مبرر له ولا حيثيات ، يقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

كلمة (قيله) مصدر لقال ، نقول : قال قولاً ومقالاً وقيلاً ، فمعنى (قيله) يعنى قوله ، قول مَنْ ؟ قول سيدنا رسول الله

---

(١) يقول رسول الله ﷺ : « إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدَعْ » وفى لفظ « على مثلها فاشهد أو فدع » أخرجه البيهقى فى شُعَب الإيمان (حديث ١٠٥٣٩) من حديث ابن عباس أن رسول الله سُئل عن الشهادة فقال : هل ترى الشمس : قال : نعم .

يخاطب ربه ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ (٨٨)﴾ [الزخرف] كفار مكة ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

لاحظ أنه ﷺ أوذى من هؤلاء القوم فى نفسه إيذاءً وفى معنوياته برميه بما ليس فيه من السحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وفى أهله ، ولاقى منهم الأمرَّيْن ، ومع ذلك لم يذكر شيئاً عن هذا كله ، وكل ما اهتم به هو مسألة إيمان القوم ، فلم يقُلْ : يا رب إن قومى آذونى وفعلوا كذا وكذا ، إنما قال ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

هذا الذى حَزَّ فى نفسه وأغضبه ﷺ ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه ﷺ ما انتقم لنفسه قطّ ولا غضب لنفسه قط ، إنما كانت غَيْرته وغضبه لله وللحق الذى جاء به ودعا الناس إليه .

هذا المعنى الذى عبَّر عنه أحمد شوقى فى قوله[1] :

فَإِذَا غَضِبْتَ فَإنما هِىَ غَضْبَةٌ   لِلحَقِّ لاَ ضِغْنَ ولاَ شَحْنَاء

ومعنى الواو فى أول الآية (وَقِيله) هذه الواو بمعنى القسم ، فكأن الحق سبحانه يقسم بقول رسول الله ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف] يقول : وبحق هذا القول .

وجواب القسم هنا محذوف للعلم به ، أى : لأُعذبنهم عذاباً يشفى صدرك منهم ، فلا تهتم بعدم إيمانهم ولو شئت لأرغمتهم على الإيمان ولخلقتهم على هيئة الملائكة ، وكُلُّ ما عليك يا محمد أنْ تصفح عنهم .

---

(١) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

وإذا غضبت فإنما هى غضبة   فى الحق لا ضغن ولا بغضاء

وهو من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، وهو من قصيدة نهج البردة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٣١ بيتاً ، والبيت الذى معنا هو البيت رقم (٣٣) .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ (٨٩) [الزخرف] لأن الصفح عنهم سيجذبهم إلى ساحة الإيمان بك ، وسوف يكون من هؤلاء جند من جنود الإسلام ، وبالفعل رأينا خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وغيرهم من صناديد الكفر يصيرون قادةً فى صفوف المسلمين .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٨٥) [الحجر] لأنك قد تصفح عَمَّنْ أساء إليك ، لكن يبقى عندك شىء من الغيظ والغضب أو الحقد عليه ، أما الصفح الجميل فهو الصفح الذى يصاحبه تسامح يقتلع كلَّ جذور الغضب والغيظ والحقد .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اصفح عنهم صَفْحاً جميلاً ولا تغضب ، لأن غضبك يؤثر فيك ويؤثر فى تكوينك ووراءك رَبٌّ يغضب لك فلا تغضب أنت ، وهذا أدب عَالٍ يُعلِّمنا إياه الإسلام .

معلوم أن الشارع الحكيم لا يحاسبك على خواطر نفسك وخلجات صدرك طالما لم تُترجم إلى عمل ونزوع ، وبعد ذلك يسمو بك فيدعوك إلى التخلّص من مجرد هذه الخواطر إنْ كانت خواطر شَرٍّ تجاه الآخرين .

وهذه مراحل تعلّمناها من قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤) [آل عمران] فالمرحلة الأولى كظم الغيظ ، والثانية العفو ، وفى هذه المرحلة تتخلص من كلِّ خواطر الشر فى نفسك ، بحيث تراها صافية ليس فيها بقايا من غيظ أو كُرْه أو حقد .

ثم المرحلة الأخيرة وهى أنْ تُحسن لمَنْ أساء إليك ، وهذه مرحلة

الخواصّ الذين عـرفوا سماحـة الشرع ونظروا إلى ما عند الله . كثـير من الناس يتعـجَّبون من مـسألة أنْ تُحسن إلى مَنْ أسـاء إليك ، كيف يلزمنا بها الشرع ؟

نقول : هَبْ أن أحد أولادك ضرب الآخـر ، وجاء المضروب يبكى ويشـتكى ، فإلى مَـنْ تحِنُّ وعلى مَنْ تعطف ؟ على الضـارب أم على المضروب ، كذلك الحـق سبحانه يكون فى جانب الضعـيف المتسامح الذى يُحسن إلى مَنْ أساء إليه .

والحسن البصرى رضى الله عنه بلغه أن رجلاً شتمه فأرسل إليه هدية طبـقـاً من الرُّطَب ، فـلمـا سُئِل عن ذلك قـال : لأنه أهدى إلىَّ حسناته[1] .

وقوله : ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف] والتقدير : قُلْ لهم سلام عليكم . ونفـهم من هـذا أن كلمـة (سلام) هـكذا بدون (عليك) وحدها تُقال لمَـنْ كان بينك وبينه خصومة وتريـد أنْ تفارقه ، ونحن نقولها فى واقع حـياتنا حينما تختلف مع شخص آخـر ولا تصل معه إلى حَلٍّ تقول له سـلام ، لذلك سيدنا إبراهيم فى جداله مع أبـيه قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] أى : سلام وَدَاع ومفارقة لا سلامَ تحية .

وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : لما تفعل هذا سوف يعلمـون عاقـبةَ ما قُلتـه ، وسوف يعلمون كـيف أُعاقـبهم على تكذيبهم لك .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيـاء علوم الدين (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغـتابك فبـعث إليه رطبـاً على طبق ، وقال : قـد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حـسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .


سورة الدخان



سورة الدخان[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾

سورة الدخان من سور الحواميم . أي : التي تبدأ بالحروف المقطَّعة (حَم) وقد تحدَّثنا في هذه الحروف بما يُغنى عن الإعادة هنا ، وهذه الحروف تقف العقول عند حدِّ النطق بها كما هي ، وكما نطق بها رسول الله ، ولا نسأل أنفسنا عن معانيها ، ولا حَجْرَ على العقول أنْ تحوم حولها محاولةً استنباطَ بعض المعاني ، ولو لنقنعَ أنفسنا بشيء من الصواب حول معانيها ثم نقول والله أعلم بمراده منها .

ذلك لأن الدين منه أمور تتصل بالعقيدة ، وأمور تتصل بالأحكام ، وأمور تتصل بالقرآن المعبِّر عن العقيدة والأحكام .

---

(١) سورة الدخان سورة مكية باتفاق إلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً .. ۝١٥ ﴾ [الدخان] وهي سبع وخمسون آية . وهي السورة رقم (٤٤) في ترتيب المصحف الشريف . وقد ورد في فضلها عن أبي رافع قال : « من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له ، وزُوِّج من الحور العين » أخرجه الدارمي في مسنده .

وفى كل واحدة من هذه الثلاثة غَيْبٌ ومَشْهد ، الغيب ويُوكل العلم به إلى الله تعالى حتى يظلّ الإنسانُ عاجـزاً أمام علم الله وأمام مسائل لا يفهـمها ، ولكن يؤمن بهـا لمجرد أن الله أخـبر بها فى كـتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وهو لا ينطق عن الهوى .

ففى العقائد مثلاً مـسألة الإيمان بإله واحد ، هذا غيْب لكن يمكن للعقـل أنْ يُدلِّلَ عليهـا لأنه لو كان فيـهمـا آلهةٌ إلا الله لفـسدتا ، ولو كانت آلهـةً متعـددةً يختصُّ كلّ واحد منهـا بشىء من الخلْق لكانَ كل واحد منها محتاجاً إلى الآخرين ولا يصلح لأن يكون إلهاً .

إذن : يمكن بالـعـقل أنْ نثـبتَ أن الله إله واحـد . لـكن هناك فى العقائد أمـور غيبية لا يمكن للعقـلِ التدخّل فيها ، ويقف فيـها عند ما سمعه مثل أمور : القبر والبرزخ والحساب والآخرة .

وكذلك فى الأحكام غيْبٌ ومشهـد ، فالصلاة فى ظاهرها المشَاهد أنها تُحدث استطراقاً عبودياً فى الكون ، فساعة نسمع الله أكبر نذهب إلى المساجد ، ونُقيم أنفسنا بين يدى ربنا رُكـعاً وسُجَّداً يستوى فى ذلك الرئيس والمـرؤوس ، الغنى والفقـير ، القـوى والضعـيف ، الكل ضارع لله .

هذا جانب مُشـاهَد فى الصلاة ، وفيها أيضـاً غَيْب لا دخْلَ للعقل فيه ، فالصلاة من حيث عدد ركعاتها غيْب لا نعرف له تفسيراً ، لماذا كان الصبح ركعتين ، والظهـر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ؟ لذلك فالسؤال الذى يدور حول عدد الركعات سؤال باطل .

كذلك الحال فى القرآن ، فيه غَـيْبٌ لا مجالَ للعقل فيه ، وهو هذه الحروف المقطَّعة التى نَكلُ العلم فيها إلى قائلها سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الدخان] أى : الظاهر الواضح المحيط بكل شيء ، وهذا يُمثِّل المشهد أى الذى نعرفه ويتدخَّل فيه العقل . إذن : جمع الحق سبحانه في صدر هذه السورة بين الغيب فى (حم) والمشهد فى ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الدخان] كلاهما من الله ؛ فلا قسم على هذا .

أو أن الأسلوبَ هنا أسلوبُ قسم ، أقسم بحم ، وأقسم بالكتاب المبين الظاهر الذى تفهمه العقول ، وهما الاثنان من الله . والمقسم عليه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ(١) إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ(٢) كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) ﴾

مسألة الإنزال تعني إنزال شيء من أعلى إلى أسفل ، وتقتضى : مُنزِل ، ومُنزَل ، ومُنزَل إليه ، فالذى أنزل هو الله ، وما دام أن المنزِلَ هو الله فالإنزال من جهة العلو بصرف النظر عن المكانية ، لأنه قال عن

---

(١) الليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة فى سماء الدنيا. وقال عكرمة : الليلة المباركة هنا هى ليلة النصف من شعبان . قال القرطبى (٩/٦١٧٥) : الأول أصح أنها ليلة القدر . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : جمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان . [نقله القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٧٦] .

(٢) يُفرق أى : يُفصل ويُحدَّد ويُميَّز . وقيل : يكتب . والقرآن أمر حكيم أنزل فيها ومُيِّز من غيره . [القاموس القويم ٢/٧٩] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٣٧) : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) ﴾ [الدخان] أى : فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها » .

الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد] والحديد فى باطن الأرض ، والإنزال يُشْعِر بعُلوّ المنزل .

ثم الشيء المنزَل هو القرآن الكريم ﴿ أَنزَلْنَاهُ (٣) ﴾ [الدخان] إلى مَنْ أنزل إلى الناس ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ (٣) ﴾ [الدخان] هى ليلة القدر يعنى : زمنَ النزول العام للقرآن .

وقال ﴿ فِي لَيْلَةٍ (٣) ﴾ [الدخان] لأن الليل محل السكون والهدوء ، حيث لا لَغَطَ ولا ضوضاء ولا صَخَب يُمكن أنْ يُشوّش على المنزَل ، كذلك يكون الإنسان ساكناً غيرَ منشغل الجوارح بشيء .

إذن : فى الليل يتوفر للعقل كُلُّ مُقوِّمات الانتباه والاستيعاب وصفاء النفس ، لذلك اقرأ فى أول سورة المزمل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ[1] اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) ﴾ [المزمل]

إذن : نزل القرآن ليلاً لأنه أنسبُ وقت لنزوله ، ونزل على قلب رسول الله بمكة ، فهى ليلة مكة لا غيرها ، ومكة وسط العالم[2] ومركزه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا

---

(١) ناشئة الليل هى النفس الناهضة فيه للعبادة ، أو هى العبادة الناشئة الحادثة فى الليل . [القاموس القويم ٢/٢٦٥] . وقال الزجاج : ناشئة الليل ساعات الليل كلها ، ما نشأ منه أى ما حدث فهو ناشئة . [لسان العرب - مادة : نشأ] .

(٢) توصل الدكتور حسين كمال الدين أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكروى بجامعة الملك سعود إلى أن مكة المكرمة تتمركز فى قلب دائرة تمر بأطراف كل القارات السبع التى تكوّن اليابسة . وقد ثبت بعد الدراسات أن أقصى أطراف الأرض فى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، كل الأطراف . تقع على مسافة ٨ آلاف كيلو متر من مكة .

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (١٤٣) ﴾ [البقرة]

البعض قال عن هذه الليلة : هى ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] وآخرون قالوا : بل هى ليلة النصف من شعبان ، والمسألة هذه تحتاج منا إلى تمحيص لأنه نزل فى واحدة منها .

نقول : القرآن قبل أنْ ينزل ويباشر مهمته فى الوجود كان فى أيِّ مكان ؟ كان في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [الزخرف]

فالنزول الأول للقرآن كان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، لكن هل نزل ما سُجِّل فى اللوح المحفوظ أو نسخة منه ؟ قالوا : بل نسخة منه بعد استنساخه .

ثم بعد ذلك نزل مُنجَّماً حسْب الأحوال والأحداث ، نزل به الملَكُ جبريل على قلب سيدنا رسول الله ، كل نَجمْ منه فى مناسبة .

إذن : عندنا مراحل ثلاث لنزول القرآن : الأولى استنساخه من اللوح المحفوظ ، وهذا له زمن ، ثم نزوله جملةً واحدة إلى سماء الدنيا وله زمن ، ثم نزوله مُنجماً حسْب الأحوال ، وهذا النزول له زمن ممتدّ على مدى الأحداث استغرق عدة سنوات .

ومن الممكن أنْ نجد فى هذه المراحل الثلاث مخرجاً من إشكال : أهو فى ليلة القدر أم فى النصف من شعبان ؟ ولا مانع من اشتراك الليلتين فى هذا الفضل فى أيِّ مرحلة من مراحله .

ثم إن ليلة النصف من شعبان لها شرفها وكرامتها الخاصة بها ،

وهى مسـألة تحويل القبلة التى هى مـتجه المسـلمين جميـعاً فى كلِّ بقـاع الأرض ، ثم إن الاتجـاه إلـى بيت المـقـدس كـان له زمن وله حكمة ، ثم التحول إلى الكعبة كان أيضاً له زمن وله حكمة .

فليستْ المـقـارنة هنا بين حَقٍّ وباطل ، بل الفـرق بين أمـرين حكيمين ، لكن هذا له زمن وهذا له زمن ، لذلك الحق سبحانه لم يشأ أنْ يجـعل تحويل القـبلة في فـرض من أوله ، إنما فى أثناء الفـرض قسمه الأمر بالتحـويل قسمين ، فصلى نصف الصلاة الأولى إلى بيت المقدس ، ونصفها الآخر إلى الكعبة[1] .

وهذا إنْ دَلَّ فإنمـا يدلّ على أن بيتَ المقدس داخلٌ فى مقـدسات المسلمين كالكعبة تماماً ، وحادثة الإسراء من بيت المقدس تؤكد ذلك .

إذن : شـاء الله تعـالى أنْ يكون مـتـجـه الصـلاة مـرة إلى بيت المقدس ، ومرة إلى الكعبة لحكمة فى كليهما . الأولى : أنْ يكون بيتُ المقدس من مـقدَّسـات المسلمين . الثانيـة : أن رسول الله ﷺ كان له أُلْفة بقبلة إبراهيم عليه السلام .

لذلك قال تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤)﴾ [البقرة]

والصلاة فُرضَتْ على رسول الله بعد معراجه إلى السماء من بيت المقدس ، والصلاة هذه بها متجه القبلة ، فالقبلة لابدّ أنْ تأخذَ الاثنين

---

(١) عن ابن عـمر رضى الله عنهـما قـال : بينما الناس فى صـلاة الصبح بـقباء إذ جـاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة وقد أُمر أن يستـقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . أخرجـه مسلم فى صحيحه (٨٢٠) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢/٢) .

مبدأ التشريعى ومبدأ الاستبقائى ، وهذا جعله الله فتنةً[1] للمسلمين ولغير المسلمين ، لأن القِبْلَةَ لما كانت إلى بيت المقدس قالوا : ما الذى حوَّله عن قبلة إبراهيم إلى قبلة داود وسليمان ، وقلنا : لكى تدخل فى مقدسات الإسلام ولا يستبدوا بها .

واليهود التقطوا هذه المسألة وجعلوها شبهة وقالوا : إذا كان محمد رافضاً لديننا فكيف يتبع قبلتنا ؟ إذن : كانت فتنةً للطرفين لكى يلتزم الإنسانُ التوجيهات الإلهية بدون تدخّل للعقل فيها .

وقالوا فى الليلة المباركة : إنها ليلة البراءة وليلة الصّك وليلة الرحمة ، ليلة البراءة مأخوذة من البراءة التى كان يُعطيها العامل على الزكاة للمموِّل حين يعطيه حَقَّ الله فى المال وهو الزكاة ، فيعطيه العامل صك البراءة الذى يدلّ على أدائه للزكاة وبراءة ذمته منها ، والصَّك بنفس المعنى .

وليلة الرحمة ، قالوا : رحمة برسول الله ﷺ أولاً ، لأن نفسه كانت تتُوق للتوجُّه نحو قِبْلة إبراهيم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ ﴾ [الدخان] بعد أنْ ذكر الإنزال ذكر الإنذار ، فالإنزال للإنذار ، لأن القاعدةَ الشرعية أنَّ درْءَ المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة[2] فذكر (منذرين) قبل مبشِّرين .

---

(١) جعله الله فتنة أى : امتحاناً وابتلاء واختباراً .

(٢) من أدلة الفقه وأصوله قول الفقهاء (درء المفاسد أولى من جلب المصالح ودفع أعلاها) يعنى أن الأمر إذا دار بين درء مفسدة وجلب مصلحة كان درء المفسدة أولى من جلب المصلحة ، وإذا دار الأمر أيضاً بين درء إحدى المفسدتين وكانت إحداهما أكثر فساداً من الأخرى ، فدرء العليا منهما أولى من درء غيرها .

وسبق أنْ قلنا : هَبْ أن واحداً يرمي لك تفاحة ، وفي ذات الوقت آخر يرميك بحجر ، فبأيِّهما تنشغل ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على دَفْع الحجر عنك وتُقدِّمه على استقبال التفاحة .

كذلك الحال في هذا الأسلوب القرآني ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان] كلمة (كُنَّا) دلتْ على الماضي مع أن الإنذار مستمر ولا يزال ، لأن الحق سبحانه لا يحكمه زمن معين ، لأنه سبحانه خالق الزمن ، وما دام الزمن من خَلْق الله فالمخلوق لا يتحكم في الخالق .

فالماضي والحاضر والمستقبل في حقنا نحن البشر ، أمَّا في حَقِّ الله تعالى فالزمن كله سواء ، فحين تقرأ مثلاً ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] تقول : كان ولا يزال وسيكون في المستقبل ، لأنه ما دام كان في الأزل ، وهو سبحانه لا يعتريه تغيير فهو من الأزل إلى الأبد غفور رحيم .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الدخان] أي : في هذه الليلة ﴿ يُفْرَقُ ﴿٤﴾ ﴾ [الدخان] بمعنى يُوضَّح ويُفصَّل ويُبيَّن ، والفرق هنا ليس بين حق وباطل ، إنما بين أمرين كلاهما حق ، وله حكمة في زمنه .

وتأمل وصف الأمر ذاته بأنه (حكيم) لأنه أمر الله ﴿ أَمْراً[1] مِّنْ عِندِنَا ﴿٥﴾ ﴾ [الدخان] يعني : ليس هناك حكمة ترتقي إلى هذا الأمر

---

(١) كلمة (أمراً) هنا ذكر فيها القرطبي (٩/٦١٧٧) معنيين :

الأول : هو القرآن أنزله الله من عنده . قاله النقاش .

الثاني : هو ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده . قاله ابن عيسى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/١٣٨) : ﴿ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الدخان] أي : جميع ما يكون ويُقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه .

الذى يأتى من قِبَل الحق سبحانه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ ﴾ [الدخان] يعنى : لم نترك خَلْقنا هملاً إنما خلقناهم وأرسلنا لهم مَنْ يأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم ويدلُّهم على الهدى ويُبيِّن لهم .

فالحقّ أول ما خلق الخَلْق أرسل الرسل لهدايتهم ، لذلك كان آدم عليه السلام وهو أول البشر رسولاً ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ ، لماذا ؟

لأنه خلقه لعمارة الأرض ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ۝ ﴾ [هود] يعنى : طلب منكم عمارتها ، والعمارة تقتضى الصلاح وتمنع الفساد ولا أقلَّ من أنْ نترك الصالح على صلاحه إذا لم نَزِد فى الصلاح .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالبئر فى الصحراء . وقلنا : إذا لم تَرْتَق به بأنْ تبنى حوله سوراً وحافَّة تحميه من زَحْف التراب عليه ، أو تجعل عليه آلة لرفْع الماء ، فلا أقلَّ من أنْ تتركه على حاله ولا تهدمه .

كذلك حالُ الإنسان فى عمارة الأرض عليه أنْ يُعملَ عقله فى البدهيات ليصل منها إلى نظريات ترتقى بها حياته ، عندنا مثلاً الصوف والوبر والشعر ، لكلٍّ منها صفاته الخاصة وما يصلح له ، لذلك قال القرآن ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا [1] وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ ﴾ [النحل]

ومعلوم أن الوبر للجمال ، والصوف للغنم ، والشعر للماعز ، ولكل نوع منها خصائصُ يستخدمه الإنسان فى ثيابه ومسكنه ، وهذا

---

(١) الأثاث هو المال وقيل المتاع وقيل الثياب . والصحيح أعم من هذا كله فإنه يُتخذ من الأثاث البُسُط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالاً وتجارة . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨٠).

من عمارة الأرض ، حتى لو نظرنا إلى القواعد الهندسية والنظريات نجدها تعتمد في بدايتها على أمر بديهي موجود في الكون .

إذن : كلُّ ارتقاء في الكون أتى من أمر بديهي موهوب من الله ، وعمل العقول في البدهيات من عمارة الأرض .

لذلك عندما تتأمل أسلوبَ القرآن في مخاطبة الناس تجده يبدأ بأمور بسيطة بعيدة عن التعقيد الفكرى ، فيُحدِّثهم أولاً عن أصل المنهج وما به تستقيم حياتهم وتنسجم حركاتهم في الحياة ، ويُحدِّث العقول بما يناسب ارتقاءها الفكرى .

فإذا ما نضج الفكر الإنسانى وتمكّن المنهج في الناس سلوكاً وتطبيقاً بدأ يُحدِّثهم عن نظريات عقلية ويقول لهم : إن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس لأن العقول أصبح عندها استعداد للبحث والتقصِّى .

انظر مثلاً إلى الطرق ، وكيف كانت بدائية ، مجرد مدقّ في الصحراء يسع البعير الواحد ؟ وكيف تطورتْ الآن وما توفّر لها من أسباب الراحة والأمان والسرعة والسلامة وغيرها ، إنه العقل حينما يعمل ليرتقى .

ألم يتعلّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى ؟ ألم نتعلم من الكلاب ونستخدمها الآن رغم التطور العلمى في تقصِّى الأثر والتعرف على المجرمين باستخدام حاسة الشم ؟ إذن : أخذنا الأمور الفطرية التى وهبها الله لنا وبنيْنَا عليها ، وطوَّرناها لعمارة الأرض .

وعمارة الأرض لا تقوم إلا إذا استقام المنهجُ أولاً ، فهو أساس

الارتقاء وأساس الإصلاح ، لأن الخالق سبحانه لما خلق الخَلْق جعل له منهجاً يحكمه ويُنظم حركته فى الحياة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فإن استقام على منهج ربه وخالقه استقامتْ حياته ، وإنْ شذَّ وانحرف ظهرتْ عورة المجتمع وبدَتْ مظاهر الفساد تدبُّ فى أوصاله .

وسبق أنْ مثَّلنا ذلك (بالكتالوج) الذى يضعه الصانع لحماية صنعته وصيانتها ، كذلك أنت إنْ سرْتَ على منهج خالقك لا يصيبك عَطَبٌ أبداً . ومن هنا كانت مهمة الرسل ، للبيان وللتذكير بالمنهج (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، حتى سيدنا آدم ماذا حدث له لما خالف المنهج ؟ ربنا قال له : كل من الجنة كما شئت إلا هذه الشجرة فأكلا منها[1] ، ماذا حدث ؟

لما خالف حدث له العطب ، وظهرت عورته لمَّا أكل من الشجرة واضطر لما لم يعهده من قبل من خروج الريح والغائط واضطراب البطن ، وهذه أمور لم يكن يشعر بها قبل المخالفة .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾ [الدخان] يعنى : مرسلين رسلاً إلى مَن استخلفناه فى الأرض حتى تسلَم حركةُ الحياة من العطب ، وحتى يسلَمَ المجتمعُ من الشرور ، ويتساند ولا يتعارض .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٣٥ ﴾ [البقرة] .

أى : أن الإرسال رحمة من الله بالعباد ، لأنه أمر لنا أنا وأنت من أعلى منا ، لا نجد غضاضة فى ذلك ، فلا أحدٌ منَّا يتعالى على الآخر ، لأننا نتلقى أوامرنا من الله ، ولذلك الناس البسطاء فى الفلاحين يقولون (الأصبع الذى يجرحه الشرع ميخرش دم) لأن الكل يُذعن لأمر الله ويخضع لحكمه ويرضى به .

إذن : تستقيم بنا الحياةُ حين نسير على المنهج ، لذلك سماه (الصراط المستقيم) وسماه (سواء السبيل) يعنى : فى الوسط لا يميل هنا ولا هنا ، لأنه يريد أنْ يُوفر عليك المجهود ويوفر الوقت ، كل هذا ثمرة المنهج والسير على الصراط المستقيم .

وهذه رحمة من الله بنا ، نعم رحمة بنا ألاَّ يتركنا للتجربة يموج بعضُنا فى بعض حتى نصلَ إلى الصواب وإلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، من رحمته بنا ألاَّ يتركنا نتعاند ونتصادم بعضُنا ببعض ، بل جعل لنا قوانين ، وجعل لنا منهجاً نسير عليه من بداية الطريق .

وفرْق بين أمر يُلجئك إلى أنْ تُعدِّل مسارك وبين أمر معتدل من البداية ، من رحمة الله بنا أنْ يجعلنا نسير فى اتجاه واحد بحيث تكون كُلُّ الحركات فى اتجاه البناء ، وكل المجهودات إلى غاية واحدة ، يتعاون فيها كل الأفراد ، ويتساند فيها كل الأفراد .

وإلاَّ لو كانتْ الحركاتُ متصادمة فهى تهدم وتدمر ، وما فائدة أنْ تبنى وغيرُك يهدم ، على حَدِّ قول الشاعر[1] :

---

(١) الشاعر هو : بشار بن بُرْد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها أعتقته من الرق ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هجرية عن ٧٢ عاماً . (الموسوعة الشعرية) .

مَتَى يبلُغ البُنْيَانُ يَوْماً تَمامَهُ   إذَا كُنْتَ تَبْنِيه وَغَيْرك يَهْدِمُ[1]

وتأمل لفظ القرآن ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ⟨٦⟩ ﴾ [الدخان] ولم يقُلْ رحمة من الله ، لأن الربّ هو مُتولِّى التربية والرعاية ، وسبق أنْ قلنا إن الألوهية تكليف والربوبية عطاء ، فهذه الرحمة رحمة الرب الراعى الرحيم كالأم تربى طفلها الصغير وتحنو عليه وتُقوِّيه .

وما دام هو سبحانه ربكم ومُربِّيكم وخالقكم كان يجب عليكم أنْ تطيعوه وألاَّ تخرجوا عن منهجه ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⟨٦⟩ ﴾ [الدخان] السميع لكل آلام الناس وشكاواهم إنْ جهروا بها ، وهو (العليم) بأحوالهم وما يختلج فى صدورهم إنْ كتموها فى أنفسهم ، وإنْ كان الخطاب هنا بصيغة المفرد ومُوجهاً إلى سيدنا رسول الله .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ⟨٦⟩ ﴾ [الدخان] أى : يا محمد . وهذه عناية خاصة من الله برسوله وبيان لمنزلته ﷺ من الله ، فعيْنُ الله تحرسه ، وعزيزٌ عليه أنْ يصيبه أذىً أو ألم من قومه ، فهو أغلى البشر عنده ، لذلك ربَّاه التربيةَ التى تجعله لا مهدياً فى نفسه فحسب ، إنما وهادياً للناس .

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⟨٧⟩ ﴾

بعد أنْ قال سبحانه ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ⟨٦⟩ ﴾ [الدخان] أكَّدها بقوله ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⟨٧⟩ ﴾ [الدخان] ثم ردَّ الأمر إلى يقينهم ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⟨٧⟩ ﴾ [الدخان] كأنه واثقٌ أنهم عندما

(١) البيت وحده قصيدة لبشار بن برد من بحر الطويل . وهو عند صالح بن عبد القدوس (توفى ١٦٠ هـ) بتمامه ضمن قصيدة له من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٨ أبيات .

يُسألون لن يقولوا إلا هذا ، فما دُمتم موقنين بأن الله هو خالق السموات والأرض وما بينهما ، فلماذا كذَّبتم رسوله ؟!!

إن الآيات الكونية واضحة الدلالة على خالقها عز وجل ، هذه السماء التى تُظلكم ، وهذه الأرض التى تُقلكم[1] وما بينهما من خيرات وأسرار ، بل وما تحت الثرى من ثروات كلها تدل على الله . وإذا كان هذا الذى نراه فى الأرض والسماء عالم الملك ، فما بالك بعالم الملكوت ؟

عالم الملك تستطيع أن تقف عليه بحواسِّك ، أما عالم الملكوت فغيْبٌ لا نعرف منه إلا ما أخبرنا الله به ، كما قال تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم :
﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) ﴾ [الدخان] اليقين استقبال القضية بدون شك علماً أو عَيْناً أو حقيقة ، كما سبق أنْ أوضحنا علم اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حقيقة اليقين ، فاليقين هو الاعتقاد الثابت الذى لا يتغيَّر بالحكم عليه فى الوجود علماً وعَيناً وحقيقة .

وهذه المراحل الثلاث ذُكِرَتْ فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وقال فى سورة الواقعة : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ[2] جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)

---

(١) تُقلكم : تحملكم . وأقلَّ الشىء واستقلَّه : حمله ورفعه . [لسان العرب - مادة : قلل] .

(٢) صلاَّه الله النار تصلية : أدخله إياها . فتصلية جحيم أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] وقد أعطى ابن كثير (٤/٣٠١) المعنى زيادة فقال : « وتصلية جحيم أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته » . فليس الأمر أمر إدخال فقط .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن أكان هؤلاء القوم فعلاً موقنين بأن الله ربُّ السموات والأرض وما بينهما ؟ القرآن يقول لهم : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) ﴾ [الدخان] وإنْ هنا أفادت الشكَّ فى يقينهم ، لأنهم لو كانوا موقنين لآمنوا برسول الله وصدَّقوه ، فهم يعترفون بأن الله خالقهم وخالق الكون كله ، ومع ذلك صادموا دين الله ، لماذا ؟

لأن الدين يُقيِّد حركتهم ويحرمهم من الشهوات ومن الاستفادة بالفساد الموجود فى مجتمعهم الدين الحق يحرمهم من السيادة ، ويُسوِّى بينهم بين السادة والعبيد ، إذن : كرهوا الدين الحق للمنهج الذى جاء به ، ومالوا لدين باطل لأنه خَالٍ من المنهج ، ليس فيه أوامر ولا نَواهٍ .

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أنْ تنسحب مقولتنا على أفعالنا ، كلمة ﴿ لا إِلَٰهَ (٨) ﴾ [الدخان] الإله هو المعبود الحق ، لأنهم لما عبدوا الأصنام سمَّوْها آلهة ، نعم آلهة بزعمهم وفى تصورهم هم ، لكنها آلهة باطلة وتسمية باطلة ، لأن الإله هو المعبود بحقٍّ والذى له منهج ويقوم على ذلك الدليل .

أما دعواهم فدعوى ليس لها دليل ، اللهم إلا أنها عبادةٌ تُرضى ما فى نفوسهم من ميْل للتدين حتى لو كان المعبودُ صنماً لا تكاليفَ له ولا منهجَ عنده .

فالتدين كما قلنا فطرة فى الإنسان ، والواقع والتجربة تُثبت ذلك ، فلما تضيق الأسباب بالإنسان حتى الكافر يقول : يا رب ويلجأ إلى المعبود الحق ولا يخدع نفسه ، لأن الشدة التى نزلت به يعرف أنها لا كاشفَ لها إلا الله .

لذلك لم يقُلْ أحدٌ يا لات ولا يا عزى ، لكن للأسف حين يكشف الله عنهم ويُفرج كربهم يعودون إلى ما كانوا عليه ، وكثيراً ما تحدَّث القرآن حول هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

ويغيب عن أذهان الناس أن الدين عندما يُقيد حركتك فيما لا يجوز وأنت فرد يُقيد حركة الناس جميعاً من أجلك . فقال لك : لا تسرق من الناس . وقال للناس جميعاً أن لا يسرقوا منك . إذن : أنت المستفيد الأول من تطبيق منهج الله .

وبعد أن قال : ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (٨) ﴾ [الدخان] أتى بالدليل عليها ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. (٨) ﴾ [الدخان] لأن مسألة الإحياء والإماتة لله وحده لا منازع له فيها ، والذين يتمتعون بالحياة لا يعكر عليهم صفو هذه المتعة إلا أنهم يروْنَ الموت حولهم يحوم ويوشك أنْ يصيبهم .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى هنا فى الشىء الذى يحبه ، فالذى يملك حياتك ويملك موتك هو الله ، فلا يليق بك أنْ تغفلَ عنه ، أو أنْ تنصرفَ عن منهجه وسبيله إلى سبيل غيره .

وقوله ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ⁽٨⁾ ﴾ [الدخان] واقع بالفعل على الغير وإنْ كان من صفاته أنه حَيٌّ قيوم ، كما فى آية الكرسى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .. ⁽٢٥٥⁾ ﴾ [البقرة] والبعض يقول : الحى اسم الله الأعظم لأنه أصلٌ ، وكل صفة أخرى أو اسم آخر فرع منه .

قالوا : الحى هو الاسم الأعظم فى العطاء ، والله الاسم الأعظم فى العبودية ، لأن معنى كلمة الله المعبود المطاع فى كُلِّ أوامره .

وما دام مطاعاً فى كل أوامره . إذن : أنت عندما تسأل الله تقول : بسم الله ، يعنى : بسم الله أقبل على هذا العمل ، لأن العمل يحتاج إلى طاقة ، ويحتاج إلى عقل يفكر قبل أنْ تشرعَ فى العمل ، ويحتاج إلى حكمة .

وهذه الأشياء ممَّن تستمدها ؟ من الله ، لأنه وحده الذى يجمع كلَّ صفات الكمال ويفيض عليك من صفاته فوجبَ الاستعانة به والتوكل عليه ، فالذى قال : إن الاسم الأعظم (الحى) نظر إلى العطاء ، والذى قال (الله) نظر إلى التكليف .

وقوله سبحانه : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ⁽٨⁾ ﴾ [الدخان] أراد سبحانه أنْ يجادل الكفار المعاصرين للرسول ﷺ لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ [1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ⁽٢٣⁾ ﴾ [الزخرف] فأراد

---

(١) على أمة : أى على طريقة ومذهب . قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة (على إمة) بكسر الألف . وقال قتادة وعطية (على أمة) أى على دين . قاله القرطبى فى تفسيره (٦١١٩/٤) ورجح ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٤) المعنى الأخير .

أنْ يُبيِّن كذبهم فى هذه المقولة ، فلو أنهم مقتدون فعلاً بالآباء لسَاروا على منهج آدم عليه السلام ، لكنهم شذُّوا عنه وانحرفوا عن هديه حتى تغيَّر منطق الدين ، وتعددتْ رسلُ الله لهدايتهم .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا جمع لهم وصفين : أنهم فى شَكٍّ من دين الله ، وأنهم يلعبون يعنى : غير جادين فى هذه المسألة ، ولو كان وصف واحد منهما لكان كافياً لإبعادهم عن ساحة الإيمان .

﴿ هُمْ فِي شَكٍّ .. ۝٩ ﴾ [الدخان] لنعرف معنى الشك نقول : إن النسب العقلية فى القضايا ستٌّ نسب . منها : **العلم** : وهو أن تعتقد قضية يُؤيدها الواقع . **والجهل** : أنْ تعتقد قضية مخالفة للواقع . **والتقليد** : وهو أنْ تعتقد قضية ولا تستطيع التدليلَ عليها كالطفل يُقلِّد أباه فيقول : الله أحد لكنه لا يقيم الدليل عليها . ثم **الشك** وهو أنْ يستوى عندك أمران لا ترجح أحدهما على الآخر ، فإنْ رجحت أحدهما فالراجح ظنّ ، والمرجوح وَهْم .

فالشك إذن أنْ يستوىَ عندهم الكفر والإيمان ، وليتهم فى شَكٍّ فقط ، إنما أيضاً ﴿ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾ [الدخان] فلو كانوا فى شَكٍّ وجادِّين فى البحث والتأمل لوصلوا إلى الحق ، لكنهم هازلون لاعبون ، لا حرصَ عندهم للوصول إلى الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ[1] ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يُبيِّن أنه لن يترك هؤلاء الشاكِّين المكذِّبين لرسوله ، اللاهين اللاعبين وأن لهم يوماً يقتصّ فيه منهم ، فيقول ﷺ ﴿ فَارْتَقِبْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان] انتظر ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان] أى : دخان ظاهر وكثيف .

والدخان : غازات تتداخل وتملأ الجو مثل الشبورة التى نراها فى الصباح ، ولكثافتها تؤدى إلى حَجْب الرؤية ، لأن تداخلَ الذرات يسُد الفجوات التى ينفذ منها البصر ، ثم تُسبب ضيقاً فى الهواء وفى التنفس ، فإذا جمعتَ عدم الرؤية مع ضيق التنفس تجد أن الكرْبَ عظيم لا يتحمله الإنسان .

قالوا : إن الدخانَ هنا دلالةٌ على الجدب الذى أصابهم والقحط الذى نزل بهم ، لأنهم لما بالغوا فى تكذيب رسول الله واشتدُّوا فى إيذائه وإيذاء أصحابه دعا عليهم وقال « اللهم اشْدُدْ وطأتَكَ على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسِنى يوسف »[2] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦١٧٩) : « فى الدخان ثلاثة أقوال :
١ - أنه من أشراط الساعة لم يجىء بعد ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة . قاله على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وغيرهم كثير .
٢ - أنه ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبى ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً . قاله ابن مسعود .
٣ - أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة . قاله عبد الرحمن الأعرج .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٦٢ ، ٩٥١ ، ٢٧١٥ ، ٣١٢٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٨٢ ، ١٠٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فأصابهم القحط والجدب حتى أكلوا الجِيَف والكلاب الميتة ، حتى أكلوا العلهز وهو الصوف أو الوبر المخلوط بالدم الجاف . إلى أنْ ضجُّوا وذهبوا إلى رسول الله يطلبون منه أنْ يدعوَ الله لهم أنْ يكشف عنهم ما نزل بهم .

وقد بيَّنَ الله لرسوله كذبهم ، فلو كشفنا عنهم العذابَ فلسوف يعودون إلى ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب .

ومعنى ﴿ يَغْشَى النَّاسَ (١١) ﴾ [الدخان] يعنى : يحيط بهم ويُغطيهم ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) ﴾ [الدخان] لأنه يمنع عنهم الرؤية ويُضيق التنفس فيجأرون ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) ﴾ [الدخان] والله يعلم أنهم كاذبون فى هذه المقولة .

لذلك يقول بعدها :

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) ﴾

قوله : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ (١٣) ﴾ [الدخان] من أين لهم التذكُّر والاتعاظ ؟ ومن أين لهم الإيمان الذى يدَّعونه وقد جاءهم ﴿ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ﴾ [الدخان] بأكبر من هذا الدخان : بينات معجزات قائمة ، كتاب حكيم معجز ، حكمة تسيِّر الكون على نظام بديع ، يسعد الفرد والمجتمع واضح الحجة ، واضح البيان ، كثير الخيرات ، محيط بكل وجوه الخير التى تعود عليهم ، فما كان منهم إلا الإعراض والتكذيب .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ (١٤) ﴾ [الدخان] أعرضوا ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) ﴾ [الدخان] يعنى لم يُعرضوا عنه ويتركوه فى حاله ، إنما

تعدَّوْا عليه بالقول والاتهام الكاذب ﴿ مُعَلَّمٌ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الدخان] أى : يعلمه غيره .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] فيردّ الله عليهم ويُبطل اتهامهم ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

وقد قالوا أنه ﷺ يختلف إلى رجل فارسى يُعلّمه القرآن ، وردّ عليهم فى قولهم (مجنون) فقال سبحانه ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التكوير] . وقال : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

وما دام على خُلُق عظيم فهو لا يتعدى مقاييس الفضيلة ، ولا تصدر عنه الأفعال إلا عن تدبّر وتعقّل وأدب ، وما أبعد هذا عن الجنون !!.

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

أى : عذاب الدنيا الذى نزل بهم ، والذى سمَّاه القرآن العذاب الأدنى ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة] سنكشف عنهم عذاب الدخان والقحط والجوع الذى اضطرهم لأنْ يأكلوا الميتة ، سنكشفه عنكم قليلاً لنثبتَ لكم أنكم كاذبون ولو أمام أنفسكم لتقتنعوا بهذه الحقيقة ؛ لأن المؤمنين بى يعرفونها ويشهدون بها ، أما أنتم فتنكرونها .

---

(١) يلحدون هنا بمعنى : يميلون إليه ويشيرون . [القاموس القويم ٢/١٨٩] وهم فى هذا يميلون عن القصد والصواب أى ينحرفون عنه .

أو يكشف كذبهم أمام الناشئة ، منهم الذين لم يتمكن منهم الكفر فيحدث خلخلة في صفوفهم ، ويظهر الكافرون على حقيقتهم فلا يُقلدهم أبناؤهم الذين يتابعون هذه المواقف ، ويشاهدون كذبَ الآباء والأجداد .

وفعلاً رأينا من أبناء الكافرين مَنْ أسلم وأبلى في الإسلام بلاءً حسناً أمثال عكرمة بن أبي جهل وغيره ، ممَّنْ عاينوا كذب الآباء وعدم وفائهم مع الله .

من هؤلاء مصعب بن عمير فتى قريش المدلّل ، وأغنى أغنيائها ، وكان يتقلَّب في ألوان النعيم لما رأى ما عليه القوم من التناقض ، ترك الكفر إلى الإسلام ، وتركَ كلَّ مظاهر النعيم ورَضي بعيش التقشُّف .

وقد رآه سيدنا رسول الله ﷺ في المدينة بعد أنْ هاجر يرتدي جلد شاة على كتفه ، فتعجَّب وقال : انظروا إلى صاحبكم ، كيف فعل الإيمان به[1] ؟ ولما مات مصعب لم يجدوا ما يكفنونه به[2] . هؤلاء شبابٌ اختطفهم الإيمان من براثن الكفر .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑮ ﴾ [الدخان] يعني : راجعون مرة أخرى إلى كفركم وعنادكم وتكذيبكم لرسول الله .

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تمنطق به فقال ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/١٠٨) قال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) : إسناده حسن .

(٢) قُتل مصعب بن عمير يوم أُحُد ، ولم يترك إلا نمرة ، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : « غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر » أخرجه الترمذي في سننه (٣٧٨٨) وأحمد في مسنده (٢٠١٦٥ ، ٢٥٩٥٦) والبيهقي في سننه (٤/٧) ومشكل الآثار للطحاوي (٣٤١٩) .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]

يعني : اذكروا هذا اليوم ولا تغفلوا عنه ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان] البطش : الأخْذ بقوة والضربة القوية التى تستوعب كلَّ جوارح الجسم ولا تبالى على أىِّ عضو وقعتْ ، نقول : فلان بطش بفلان يعنى : ضربه بقسوة وعنف دون أنْ يراعى على أىِّ عضو وقع الضرب ، وبعد هذا الوصف سماها (الكبرى) تأكيداً على قسوتها وشدَّتها على الكافرين .

﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان] والانتقام يدل على التكافؤ ، فالبطشة ليستْ اعتداءً منا ، بل جزاءَ ما قدّمتم من تكذيب وإيذاء لرسول الله .

فالبطشة إذن جزاءٌ من جنس العمل ، ولولا هذه البطشة لم تتحقق عدالة السماء بين المؤمنين والكافرين ، ولكانتْ مساواة بين المؤمنين الذين تحمَّلوا الإيذاء والعَنَت والاضطهاد ، وبين الكافرين الظالمين المعتدين .

كان لا بدَّ أنْ تحدثَ هذه البطشةُ بالكافرين ليرى المؤمنون ثمرةَ إيمانهم ، وكيف أن الله نجَّاهم بالإيمان فيفرحون ، ويرى الكافرون ثمرةَ كفرهم وعنادهم فيتحسَّرون ويندمون ويتألمون .

---

(١) فى المقصود بالبطشة الكبرى عدة أقوال :
- أنها يوم بدر . قاله ابن مسعود وابن عباس وأبىّ بن كعب .
- أنها عذاب جهنم يوم القيامة . قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً واختاره الزجاج .
- أنها دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع وقحط يقع قبل يوم القيامة .
- أنها قيام الساعة . قاله الماوردى لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . [تفسير القرطبى ٦١٨٣/٩] .

وفى أكثر من موضع حكى لنا القرآن الكريم حواراً بين أهل الجنة وأهل النار يُوضِّح فرح المؤمنين وندم الكافرين وتحسُّرهم : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

فقوله تعالى ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾ [الدخان] إشارة إلى عدالة السماء وكأن الله تعالى يقول لهم : لا تلومونا على أنْ أخذناكم هذه الأخْذةَ ، فأنتم صنَعْتنا ، ونحن أرأفُ بكم من الوالدة بولدها ، لكن لا بدَّ من الانتقام لتستوى الكفة ، وحتى لا تكون فتنةٌ .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) ﴾

كأنه يقول لهم : لسْتم بدعاً فى ذلك ، فقد سبقكم أمم كذَّبوا الرسول فنزل بهم مثلُ ما نزل بكم ، كلمة ﴿ فَتَنَّا (١٧) ﴾ [الدخان] يعنى : ابتلينا واختبرنا ، والفتنة لا تُذمُّ لذاتها ، وإنما تُذم لنتيجتها مثل الامتحان لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، إنما حسْب ما يترتب وما ينتج عنه .

وتعرفون قصة قوم فرعون ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) ﴾ [الدخان] هو سيدنا موسى عليه السلام ، فهو كريم على الله الذى أرسله ، ومن كرامته جعله كليماً يُكلِّمه من وراء حجاب ، ذلك لأنه سيتعرَّض لا لفساد خُلُقى ولا لفساد اجتماعى ، إنما لفساد عَقَدىّ .

وكأنَّ الله تعالى يُعد للقائه مع رأس الكفر ، وهو فرعون الذى وصل به الضلال إلى أنْ يدَّعى الألوهية ، ويقول للناس : أنا ربكم الأعلى .

ومن هنا كانت مهمة موسى عليه السلام مهمة صعبة وشاقة ، لذلك درَّبه ربه عز وجل على استخدام الآيات والمعجزات قبل أنْ يُظهرها أمام فرعون .

اقرأ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

فالحق سبحانه عرَّف موسى مهمة العصا في المعركة العقدية التى سيخوضها مع فرعون ودربه على التعامل معها ، حتى إذا واجه فرعون واجهه بثقة وثبات واطمئنان إلى نصر الله وتأييده له ، لذلك قلنا : إن المستشرقين تصيّدوا هذه القصة ، واتهموا القرآن بالتكرار .

وهذا يدل على عدم فهمهم للآيات فى سياقها ، فقصة العصا فعلاً وردتْ ثلاث مرات ، مرة بين موسى وربه عز وجل كتدريب ومران على هذه المسألة ، والمرة الثانية كانت أمام فرعون ، والمرَّة الثالثة كانت أمام سحرة فرعون .

إذن : كان لكلٍّ مرحلة حكمة ، والمسألة ليستْ فيها تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة ، كلٌّ فى موعدها .

وقوله سبحانه :﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ (١٨) ﴾ [الدخان] ساعة تسمع ﴿ أَدُّوا إِلَيَّ (١٨) ﴾ [الدخان] تعرف أن هناك أمانة يجب تأديتها ، فما الأمانة التى يطلب موسى من قومه أنْ يؤدوها إليه ؟

قالوا : الحق الذى طالب به موسى قوم فرعون هو أنْ يأخذ بنى إسرائيل ، وأنْ يخرجهم من العذاب المهين الذى يُلاقونه من قوم فرعون وهذه هى مهمة موسى الأولى ، أما دعوته لفرعون فكانت

على هامش المهمة الأساسية ، وكلامه مع فرعون زائد على مهمته وعن التشريع الذى أتى به بنى إسرائيل .

وسبب اضطهاد قوم فرعون لبنى إسرائيل أن الهكسوس[1] لما دخلوا مصر عاثوا فيها فساداً ، وكان بنو إسرائيل يعاونون الهكسوس ويساعدونهم ، فلما خرج الهكسوس من مصر لم يَعُدْ لهم عدو إلا بنى إسرائيل لذلك اضطهدوهم .

وكما حكى القرآن : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة] فجاء سيدنا موسى أصلاً لإنقاذ بنى إسرائيل من العذاب وليُخرجهم من مصر .

فالحق سبحانه وتعالى لطف ببنى إسرائيل لأنهم كانوا هم المؤمنين فى هذا الوقت وكان الآخرون وثنيين .

إذن معنى : ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان] يعنى : اعطونى بنى إسرائيل الذين تُعذِّبونهم واتركُونى وشأنى .

ومن إعجاز القرآن أنه لما تكلَّم عن حاكم مصر سمَّاه فرعون ، إلا فى فترة سيدنا يوسف عليه السلام سماه الملك : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف]

وقد ثبت أن الهكسوس أثناء وجودهم فى مصر غيَّروا اسم الفرعون وقالوا (الملك) وكان وجودهم فى مصر أيام سيدنا

---

(١) الهكسوس هم قوم ينحدرون من الأموريين نزحوا من العراق إلى مصر قبل حوالى ١٧٨٩ سنة قبل الميلاد ، وقد حكموا مصر ما بين ١٦٤٨ إلى ١٥٤٠ ق. م أى أنهم حكموا مصر ١٠٨ سنة . عُرفوا باسم الملوك الرعاة شكلوا حكام الأسرتين ١٥ ، ١٦ . اتخذ الهكسوس عاصمة لهم فى شرق الدلتا أطلقوا عليها اسم (أواريس) . وهم أصحاب بشرة بيضاء ساميون . [موسوعة ويكيبيديا] .

يوسف عليه السلام .

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : مؤتمن على رسالتى من الله أؤديها كما يجب أن يكون الأداء .

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الدخان] أرجع الأمر إلى مصدره الأول ، فلم يقُلْ أنْ لا تعلوا علىَّ إنما على الله ، يعنى : افهموا أن المعركة ليست بينى وبينكم ، بل بينكم وبين الله الذى أرسلنى ، فحين تعلون وتعاندون لا تعلون علىَّ ، إنما على الله الذى كلّفنى وأرسلنى إليكم .

﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : بحجة واضحة وآية بينة وهى العصا ، والعصا آية من جنس السحر الذى نبغ فيه قومُ فرعون ، ولكنها ليستْ من نوعه ؛ لأن السحر فى حقيقته تخييلٌ للأعين كما قال سبحانه : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

لذلك لما رأى السَّحرةُ عصا موسى تلقَفُ ما صنعوا خرُّوا ساجدين لا لموسى ، بل لربه دون أن ينتظروا إذناً من فرعون ؛ لماذا ؟

لأنهم رأوا شيئاً غير السِّحْر ليس تخييلاً للأعين ، إنما حقيقة واقعة ، وهم أدرى الناس بماهية السحر .

وقوله ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : لا أتكلم من عند نفسى إنما بأمر السماء ، وفيه إشارةٌ أيضاً إلى إبطال ألوهيتهم

المدّعاة ، يعنى : أنتم بينكم وبين أنفسكم تعلمون أنكم لستم آلهة ، وأن هذا ادعاء كاذب ، لذلك خوَّفهم بالإله الحق .

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : لجأتُ إليه وتحصَّنتُ به من أذاكم ، وتأمل ساعة قالها موسى وكيف أنه استعاذ بمعاذ ، ولجأ إلى ركن شديد لا يُضام مَن التجأ إليه .

ماذا حدث بعد أن استعاذ بالله ؟ سخَّر الله له رجلاً من قوم فرعون يُصدق موسى ويدافع عنه .

وهذه الاستعاذة أيضاً ستنفعه فى المستقبل فى قضية انفلاق البحر ، لما أدركه فرعون وجنوده عند شاطئ البحر ، حتى قال أصحاب موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] حيث لا أمل فى النجاة .

أما موسى فلديه رصيدٌ من الثقة بربه ، فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] قالها وهو واثق بها لأنه جرَّبها قبل ذلك وأفلح بها .

إذن : لمَّا حزبه الأمر وضاقتْ به أسبابه لجأ إلى الله لجوءَ الواثق المطمئن فأوحى الله إليه ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] لم يُكذِّب موسى الأمر ولم يتردد فيه مع أنها كانت شيئاً عجيباً يفوق تخيُّل العقل ، لكنّ صدْقَ الله معه فى الأولى ، شجَّعه أنْ يطيع الأمر وألاَّ يتردد فيه .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] فكانت المعجزة أن انفلق البحرُ ، فكان كل فرْق كالطوْد العظيم ، ونجَّى الله موسى ومَنْ معه ، وأهلك فرعون وجنوده ، وهذا من طلاقة القدرة أنْ يهلك ، وأنْ ينجى بالشيء الواحد ، لأن الأشياء لا تنفعل لذاتها ، إنما لإرادة الله .

وقوله ﴿أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [الدخان] دلَّ على أن الرجم كان موجوداً في الأمم السابقة التي كانت تكذِّب رسولها .

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يعنى : إنْ لم تُصدِّقونى فيما أقول ؛ فلا أقلَّ من أن تعتزلونى وتتركونى وشأنى فلا تؤذوننى .

وقوله ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الدخان] فيه إشارة إلى يأسه من صلاحهم حتى شكاهم إلى الله ، وطلب الخلاصَ منهم .

﴿فَأَسْرِ(١) بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا(٢) إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يقى أولياءه ويعطيهم الحصانة اللازمة ، فالأمر لموسى أنْ يخرج ببنى إسرائيل ليلاً ، ويخبره بما سيحدث من فرعون وقومه ، وأنهم سيتبعونهم فلم يتركه للمفاجأة بل أعطاه حقنة وقاية بالعلم بالشىء ، وهذه من أسباب النصرة والتأييد .

---

(١) أسْرِ (بهمزة قطع) هو قراءة الجمهور من أسرى . وقرأ أهل الحجاز (فاسر) بوصل الألف وكذلك ابن كثير من (سرى) . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٨٥) .

(٢) رهواً : أى اترك البحر ساكن الأمواج ليغتروا وينزلوا فيه . أو أن تكون أنت يا موسى هادىء النفس مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩] . ولـ (رهواً) معنى ثالث هو : الفرجة بين الشيئين . يقال : رها ما بين الرِّجْلَيْن أى فرج . فقوله (رهواً) أى منفرجاً . [القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٨٧] .

وهذا هو الذى شجَّعه أنْ يقول (كلا) لن يدركونا ولن ينتصروا علينا ، ونحن مُؤيَّدون من الله ، والذى أمرنى أنْ أسرى بعباده ، وأخبرنى ما سيكون من عدوى لن يخذلنى .

إذن : كل لقطة فى هذه القصة دلَّتْ على طلاقة القدرة التى تعمل فى الأشياء كلها ، وتنقل الشىء إلى ضده . وقوله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] هذا الأمر جاء بعد الأمر بضرب البحر بالعصا فى موضع آخر .

إذن : هى لقطات متفرقة بين الآيات تتكامل لتخدم فكرة واحدة ، وتكون نسيجاً واحداً للقصة ، فهناك قال له ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) ﴾ [الشعراء] وهنا أمره ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] كلمة (رَهْواً) مصدر من رها يرهو رهواً . مثل : عدا يعدو عدواً . عدا يعنى : جاوز المكان جرياً . وضده رها يعنى : سكن فى مكانه .

فموسى حين ضرب البحر تجمَّد الماء وسكن فى مكانه على شكل جبلين كبيرين بينهما يابس ، ورأى موسى هذا اليابس طريقاً مُمهداً فعبره إلى الجانب الآخر .

وطبيعى وحسْب تفكير العقل أنْ يفكر أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، ويمنع فرعون وجنوده من اللحاق به ، لكن لله تعالى فى الأمر تدبير آخر ، فقال له : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] أى : على سكونه .

موسى يفكر ببشريته ، والحق سبحانه يأمر بحكمته ، وهذه ليس فيها غضاضة على موسى ، لأن الذى يُصوِّب له هو ربُّه عز وجل ، وهذا شرف لموسى وعظمة .

وسيدنا رسول الله ﷺ الذى نقل لنا هذا التصويب حين يُخطئ الرسل فى أمر لم يردْ فيه نصّ ، كذلك صوَّب الله له فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۝١ ﴾ [التحريم] وعاتبه ربه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ۝٤٣ ﴾ [التوبة] فمَن الذى أخبرنا بهذا التصويب وبهذا العتاب ؟ إنه رسول الله الصادق فى البلاغ عن ربه .

إذن : الحق سبحانه صوَّب لنبيه موسى عليه السلام وقال له ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۝٢٤ ﴾ [الدخان] لأنِّى أريد أنْ أُهلك فرعون وجنوده بنفس الشىء الذى نجيَّتك به ، وهذه من طلاقة قدرة الله ، ففرعون لا بدّ أنْ يغترّ بهذا الطريق اليابس الذى يراه وسوف يعبره خلفك .

وفعلاً ما أنْ وصل موسى إلى الناحية الأخرى من البحر حتى كان فرعونُ فى وسطه ، وعندها أمر الله الماء أنْ يعود إلى استطراقه وسيولته ، وأغرق فرعونَ وجنوده ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ ﴾ [الدخان] ؛ فبطلاقة القدرة أنجى الله سبحانه وأهلك بالشىء الواحد .

ثم يُبيِّن لنا الحق سبحانه ما كان فيه هؤلاء من النعمة ، وما آلوا إليه من النقمة والعذاب :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦
وَنَعْمَةٍ(١) كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ ﴾

---

(١) النَّعمة (بفتح النون) : التنعيم والتقلب فى حُسْن النَّعمة وغضارتها . أما النِّعمة فهى اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنَّة وما أنعم به عليك . [لسان العرب - مادة : نعم] بتصرف . وقال ابن عمر : المراد بالنعمة نيل مصر . وقال ابن لهيعة : المقصود بها الفيوم . وقال ابن زياد : أرض مصر عامة لكثرة خيرها . [تفسير القرطبى ٩/٦١٨٨] .

يعنى : بعد أنْ أغرقهم الله تركوا هذا النعيم ، (كَمْ) خبرية تفيد الكثرة ﴿ مِن جنَّاتٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الدخان] حدائق وبساتين نضرة ﴿ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : عيون الماء العذب الذى يجرى خلال هذه البساتين .

﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الدخان] مَقام بفتح الميم اسم مكان القيام إذا كنت جالساً ، قمت ، واسم مكان الإقامة مُقام بضم الميم لموضع الإقامة ، والمُقام لا يُوصف بأنه كريم إلا إذا توفرتْ لمن يقيم فيه سُبل الراحة والرفاهية ، فالمقام نفسه فيه كرم . يعنى : يجمع لصاحبه كلَّ وسائل الخير حين يقوم وحين يجلس .

وكأن الخير تابع له مطيع لأوامره ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان له تابعون وهو متبوع ، وهؤلاء التابعون يؤدون له أوامره فى قيامه وفى قعوده .

والإنسان حينما يكون قاعداً أو نائماً أو مضطجعاً ما الذى يجعله يقوم ؟ أمر جَدَّ عليه فأقامه ، وهذا الأمر نوعان : إما خير يُفرحه ويهشّ إليه فيقوم له مثل حبيب أو صديق غائب وهو يعود ، أو أمر يُحزنه ويفزعه فيقوم له .

كما وردتْ كلمة (مُقام) بضم الميم ، وهى بمعنى مكان الإقامة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان] ، وفى قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الدخان] كلمة (نعمة) أيضاً وردتْ بفتح النون مرتين كما هنا ، ووردت بكسر النون مثل ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة] فى ٣٤ موضعاً إما مُفردةً وإما مُضافةً إلى الله ، ووردتْ نعمتى ونعمتك ونعمته للغائب .

والفـرق بينهـما أن نعـمـة بالكسـر تعنى : مـا يتنعَّم به ، ولكن يلاحظ أن المتنـعم به أشياء خـارجة عن الذات ، فمـرة توجد النِّعـمة وتُوجد القدرة على التنـعُّم بها ، ومرة توجد النِّعمـة ولا توجد القدرة على التنعّم بهـا . أما النَّعـمة بالفتح فـتعنى وجـود النِّعمـة ، ووجود القدرة على التنعُّم بها .

وقوله ﴿ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) ﴾ [الدخان] من التفكُّه والتلذُّذ ، مأخوذة من الفـاكهة وهى تدلُّ على الرفاهية ، لأن الطعـام منه أشياء ضرورية أساسيـة ، وهى التى بها قِوَام الحياة واسـتبقاؤها ، وطعام آخر للترف والمتعة كالفاكهة تُؤكل بعد الطعام .

وهذه الأشيـاء التى تؤكل للترف والمـتعـة يمكن الاستغـناء عنها لأنها ليـستْ من الضروريات ، بدليل أن كـثيراً من الناس لا يعـرفون أكل الفاكهـة وهم أحياء يُرزقون . إذن : كانوا فى رفـاهية من العيش وفى متعة فضلاً عن الضروريات .

﴿ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾

﴿ كَـذَٰلِكَ (٢٨) ﴾ [الدخـان] يعنى : مـثل هذا ، سلبـهـا الله منهم وأعطاها لغـيـرهم ، ولو سُلِبَتْ منهم فـقط لكانتْ أخفَّ عليـهم ، إنمـا سُلِبَتْ منهم وأُعطيَتْ لغيرهم فهذا أنكى .

لذلك الذى جعل الحسد مذموماً أن الحاسد يتمنى زوال النعمة عن الغيـر ولو لم تأتِ إليه ، المـهم أنْ تذهبَ عن فلان لأنه يكره النعـمة عنده ، وحين يكره النعمة تكرهه ولا تأتيه .

ومقابل الحسد الغبطة ، وهى أنْ تحبَّ النعمة عند الغير ، وتتمنَّى

مثلها لنفسك ، وحين تحب النعمة تحبك وتأتيك ساعة تقول : « اللهم بارك له فيها ، وأنعِمْ عليَّ بمثلها » .

لكن مَنْ هم القوم الآخرون الذين ورثوا النعمة بعد قوم فرعون ؟ هم بنو إسرائيل القوم الذين عُذِّبوا ، الذين ذبحتم أبناءهم واستحييْتُم نساءهم ، ومطلق التذبيح فيه إذلال وإهانة ، وافظع منها ما يُفعل بالنساء بعد موت الرجال ؛ لذلك كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم كيْلا يتركُوهنّ للأعداء لو نزلتْ بهم الهزيمة .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تثبت هذه الآية أن للجمادات عاطفةً ، وأنها تحب وتكره ، وتبكى وتفرح ، فالعاطفة إذن موجودة في كُلِّ المخلوقات على قدْر الحاجة ، فالعاطفة فى الإنسان باقية ، فتراه مثلاً يحب ولده ، حتى لو كان الولد غبياً أو مشاغباً ، ويستمر معه هذا الحب ، وربما يعطف عليه أكثر من السَّوِيِّ .

لذلك لما سألوا الأعرابي[١] : منْ أحبّ بنيك إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى[٢] .

أما الحيوان فعاطفته على قدْر الحاجة ، فترى الحيوان يعطف على ولده الصغير ويدافع عنه ، فإذا ما كبر تركه وكأنه لا يعرف عنه شيئاً ، ولو ذُبح أمامه ما شعر نحوه بشىء ، لأن عاطفته بقدر حاجة الصغير للتربية .

---

(١) هو غيلان بن سلمة الثقفى (ذكره الأصفهانى فى الأغانى) ، وهو هوذة بن على الحنفى (عند الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد) .

(٢) أورد هذا القول الأصفهانى فى الأغانى (٤٧٧/٣) أخبار غيلان .

كذلك الجماد ، الحق سبحانه يرتقى به ويجعل له عاطفة ، ومن هذه العاطفة أن السماء والأرض ما بكتْ على هؤلاء المهلكين لأنهم خالفوا منهج الله .

لذلك خاطب اللهُ الجمادات ، وجعلها فى منزلة أُولى الألباب المستنيرين الذين يفهمون ويعقلون ، بدليل أن الله تعالى خَيَّر السماوات والأرض والجبال فى مسألة حَمْل الأمانة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فدلَّ ذلك على أن لها اختياراً وتعقلاً ، وبعضهم قال : إن السماء والأرض مُسخَّران ومقهوران على العبادة ، قلت : لا بل كل شىء فى الوجود عدا الله خُيِّر ، فمنها مَنْ تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وعن مراده لمراد خالقه ، ومنها من اختار أنْ يكون مختاراً وهو الإنسان .

وقلنا : فَرْق بين وقت التحمل ووقت الأداء ، فأنت تضمن وقت التحمل وتثق به ، لكنك لا تضمن وقت الأداء ، إذن : كانت الجمادات أكثر موضوعيةً من الإنسان فى هذه المسألة لأنها اختارتْ بداية أنْ تكون مقهورةً لربها ، أما الإنسانُ فاختار أنْ يكون مُخيَّراً ، وعند الأداء منهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر ، منهم مَنْ أطاع ، ومنهم مَنْ عصى .

فإنْ قلتَ : فبأىِّ لغة تتكلم الأرض والسماء ؟ وكيف تفهم ؟ نقول : يخاطبها ويفهم منها خَالقها سبحانه ، فهو الذى يعلم لغتها ؛ لذلك يعطينا الحق سبحانه أمثلةً لكلام هذه المخلوقات وتسبيحها لله تعالى ، فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وفى قصة سيدنا سليمان عليه السلام تكلَّم الهدهد كلاماً دلَّ على علمه وفَهْمه لقضية التوحيد كأحسن ما يكون الفهم ، وتكلَّمت نملة ووجدنا عندها مقاييس الحق والعدالة .

ووالله إن الإنسان ليتعجب حينما يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

فكلُّ الكائنات تُسبِّح على إطلاقها ودون استثناء ، إلا الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يشذ عن هذه المنظومة المسبِّحة .

لذلك قلنا : إن المخلوقات الأخرى غير الإنسان كانتْ أكثر فهماً منه حين رفضتْ التخيير وتنازلتْ عن مرادها لمراد ربها . إذن : لا تغترّ أيها الإنسان ، واعلم أن المخلوقات من حولك لها دور ولها منزلة عند الله ، وقد خُلِق فيها مثل ما خُلِق فيك من الفهم والعاطفة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح عن سيدنا رسول الله ﷺ ما يُؤيد هذه المسألة ، فقال عن أُحُد : « أُحُد جبل يُحبنا ونُحبه »[1] .

وثبت أن الجبل اهتزّ به هو وصحابته ، فقال له « اثبُتْ أُحُد ، فإنما عليك نبىٌّ وصدِّيق وشهيدان »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٨٧) حديث أبى حميد الساعدى ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٦٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢٠٢٠) . ولفظه أن أبا حميد قال : أقبلنا مع النبى ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال هذه طابة وهذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٩ ، ٣٤١٠) وأبو داود فى سننه (٤٠٣٢) والترمذى فى سننه (٣٦٣٠) وقال : حديث حسن صحيح . « أن النبى ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فإنما عليك نبى وصدِّيق وشهيدان » أما النبى فهو رسول الله ، وأما الصدِّيق فهو أبو بكر ، وأما الشهيدان فهما عمر وعثمان .

وقال : « والله إنِّي لأعرف حجراً كان يُسلِّم عليَّ بمكة قبل البعثة »[1] .

وثبت أيضاً في الحديث أن الأرض تبكي لموت المؤمن وتفرح لموت الكافر[2] . والعرب تقول (نبَتْ به الدار) يعني : كرهته .

وما هذا إلا لأن هذه الجمادات لها فَهْم وتعقّل على كيفية ما ، وأنها مُنسجمة تماماً مع منهج الله ، فهي طائعة مُسبِّحة ، لذلك تحب مَنْ كان على شاكلتها من البشر وتكره مَنْ شذَّ منهم عن منهج الله وقضية التوحيد .

لذلك سيدنا الإمام علي لما سُئِلَ : أتبكي السماء والأرض ؟ قال : نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في الأرض وموضع في السماء . أما موضعه في الأرض فموضعُ سجوده أو مُصلاَّه ، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله[3] » فكأن هناك صحبة بين المكان والمكين فيه ، بين المكان والإنسان المؤمن .

وبهذا نفهم ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] وكيف تبكي السماء على هلاك عدو الله فرعون بعد أنْ بارز الحق سبحانه وادَّعى أنه إله من دون الله ؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٢٢٢) ، وأحمد في مسنده (١٩٩١٢ ، ١٩٩٨٨) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٧٤ ، ١٩٢٨ ، ٢٠٨٧) من حديث جابر بن سمرة .

(٢) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان : باب ينزل منه رزقه ، وباب يدخل منه كلامه وعمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه ، ثم تلا ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] أخرجه الترمذي في سننه (٣١٧٨) وقال : هذا حديث غريب .

(٣) أورده السمرقندي في تفسيره بحر العلوم (٤/١٢٣) من قول ابن عباس أنه سُئل : أتبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله تعالى فيها ويصلي وبكى عليه بابه الذي كان يُرفع فيه عمله . وأورده السيوطي في الدر المنثور (سورة الدخان) من عدة طرق عن عدة من الصحابة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] يعنى : مُؤخَّرين ومُؤجَّلين عن موعدهم الذى جعله الله نهاية لهم ، لأن أجل الله إذا جاء لا يُؤخَّر .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ[1] (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) ﴾ [الدخان] العذاب هو المؤلم للمادة ويكون بالنار وبغيرها ، كقَطْع جزء من الجسم أو الجلد مثلاً ، وقد يُضاف إلى العذاب الحسىِّ عذابٌ آخر معنوى وهو الإهانة والإذلال ، وبعض الناس يتحمل العذاب الحسىَّ ، ولا يتحمل أنْ تُهينه بكلمة ربما كانتْ أشدَّ عليه من العذاب .

وبنو إسرائيل كانوا يعانون العذاب بتذبيح الأبناء ، ويعانون الإهانة باستحياء[2] النساء ، والنساء نقطة ضعف عند الرجل ، وعِرْض ينبغى المحافظة عليه ، لذلك كان التعدِّى على نساء الرجل أعظمُ إهانةَ له .

وقد تدارك الحق سبحانه برحمته بنى إسرائيل ونجَّاهم من العذاب المهين ﴿ مِن فِرْعَوْنَ (٣١) ﴾ [الدخان] فهو سببُ هذا العذاب .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا (٣١) ﴾ [الدخان] يعنى : مُتكبراً على الناس مُسْتعلياً عليهم ﴿ مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الدخان] أى : المسرفين على أنفسهم ،

(١) أى : نجينا بنى إسرائيل من العذاب الذى كان يُنزله بهم الأقباط - أى المصريون - بأمر من فرعون من قتل الأبناء وترك النساء أحياء واستخدامهم واستعبادهم إياهم وتكليفهم بالأعمال الشاقة . [القرطبى ٩/٦١٩١ بتصرف] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، فهم كانوا يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

والمسرف هو الذى يتجاوز الحدَّ الذى وضعه الله فيه إلى غيره ، ففرعون كان مُستكبراً ومسرفاً فى استكباره ، ويكفيه إسرافاً أنْ يدَّعى الألوهية ، ويقول للناس : أنا ربكم الأعلى ، وأنْ يخدع قومه ويُغرر بهم .

وقلنا : فرْقٌ بين أنْ يكونَ الإنسان ضالاً فى نفسه ، وأنْ يكون ضالاً ومُضلاً للآخرين . وفرعون ضَلَّ وأضلَّ أمة بأكملها واستعبدها ، وصدق القائل[1] : متى استعبدتم الناس وقد ولدتْهم أمهاتُهم أحراراً ؟

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الكلام هنا عن بنى إسرائيل ، وهم يتمسكون بهذه الآية ويبنون عليها أنهم شعب الله المختار ، فيقولون : إن الله الذى خلقكم وبعث إليكم رسولاً هو الذى اختارنا على العالمين .

وهذا ادعاء باطل لأن معنى ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان] أى : العالمين فى زمانهم والمعاصرين لهم من قوم فرعون وغيرهم ، وهؤلاء كانوا فى الغالب وثنيين ، ففضَّل الله بنى إسرائيل عليهم لأنهم يؤمنون بالله وكانوا فى هذا الوقت خيرة خَلْق الله جميعاً .

لكنهم أرادوا أنْ يسحبوا هذا الحكم على الناس جميعاً ، وعلى العالمين فى كل زمان ومكان ، وهذا لا يجوز ، بدليل أنهم لما خالفوا منهج الله قطَّعهم فى الأرض أمماً ، وبعثرهم فى كل مكان عقاباً لهم .

حتى أنك تجد فى كل بلد من البلاد حارة باسمهم تسمى

---

(١) هو من قول عمر بن الخطاب ، ذكره صاحب كتاب (الولاية على البلدان) وذلك أن ابناً لعمرو بن العاص ضرب غلاماً قبطياً اعتماداً على سلطان أبيه ، فكتب أمير المؤمنين عمر لعمرو أن يحضر صحبة ابنه والقبطى ، فناول عمر القبطى سوطاً وأمره أن يقتص لنفسه من ابن عمرو ، ثم التفت إلى عمرو وقال قولته .

(حارة اليهود) ، تراهم مجتمعين ومنغلقين على أنفسهم لا ينسجمون ولا يذوبون فى المجتمع من حولهم .

حتى أن القرآن عبَّر عن هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا (١٦٨) ﴾ [الاعراف] فكل جماعة منهم فى مكان تمثل أمة بذاتها ، لأنهم لا يذوبون فى غيرهم من الأمم .

والذى ينفى ادعاءهم هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ[1] رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١٦٧) ﴾ [الاعراف] وهذا هو الذى يحدث بالفعل ، فمن حين لآخر يُسلِّط الله عليهم مَنْ يسومهم سوء العذاب .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾ [الدخان] الآيات هى : المعجزات التى صاحبتْ دعوة سيدنا موسى ، وبهذه الآيات نجَّاهم الله من الغرق ، ونجَّاهم من قوم فرعون .

والعجيب أنهم بمجرد أنْ نجَّاهم الله من الغرق ومن فرعون ، وبمجرد خروجهم سالمين رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم ، فقالوا لموسى عليه السلام ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ [الأعراف] فأشركوا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلة من عبور البحر .

وفى فترة التيه أكرمهم الله ، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وهما

---

(١) تأذنَّ ليفعلن كذا . أى : أعلم على وجه التأكيد المؤيِّد بالقسم . [القاموس القويم ١/١٦] .

من أرْقى ما يكون الطعام ، وألذّ مـا يُؤكل ينزل عليهم دون تعب ودون مجهود ، لكنهم لماديتهم اعترضوا على المنِّ والسَّلْوى .

وقالوا لموسى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. (٦١) ﴾ [البقرة] يريدون الشيء المادى الذى يباشرونه بأنفسهم ويعلمون مصدره ، بل بلغتْ بهم المادية إلى أنْ قال لنبى الله موسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣) ﴾ [النساء]

البعض قال : إن موسى عليه السلام هو الذى فتح لهم هذا الباب حينما قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

وكلمة ﴿ وَبَلاءٌ (٣٣) ﴾ [الدخان] يعنى : امتحان واختبار لنعلم ردود أفعالهم ، بعد أنْ رأوا الآيات أو بعد أنْ رأوا النعم ، وقلنا : الابتلاء والامتحان لا يُذم ولا يُمدح لذاته ، إنما حسب النتائج المترتبة عليه .

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ[1] (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) ﴾

الإشارة فى ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) ﴾ [الدخان] قد يُراد بها بنى إسرائيل ، لأنك لو نظرتَ إلى التوراة أو التلمود لا تجد فيه شيئاً عن اليوم الآخر ، مع أنه عنصر أساسى من عناصر الإيمان ، لكنهم قوم لا يؤمنون بهذا اليوم .

---

(١) ذكر الألوسى فى روح المعانى فى تفسير (الدخان ٣٤) : المقصود بهم كفار قريش لأن الكلام فيهم . وكذا قاله الطبرى فى تفسيره .

والمسألة عندهم كما حكى القرآن قولهم : ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ (٢٤)﴾ [آل عمران] يعني : ثم تنطفيء عنَّا وتنتهي المسألة . وقالوا في آية أخرى : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (١٨)﴾ [المائدة]

أو يُراد بهؤلاء منكرو البعث عموماً ، سواء بنو إسرائيل أو غيرهم ، وقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ (٣٥)﴾ [الدخان] يريدون بالموتة الأولى العدم الذى سبق الخَلْق ، فيعتبرون العدم موتة ، ثم خلق الله آدم ومنه جاء سائر الخلق .

كما قال تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : لن نموت إلا هذه الموتة ، وليس هناك موتة أخرى بعدها بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥)﴾ [الدخان] يعنى : مبعوثين أحياء بعد الموت .

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾

قلنا : إن الإيمان يعتمد على آيات الغيب فتؤمن بوجود الله وبالجنة والنار دون أنْ تراها ، هذا موطن الإيمان ، أما الآيات المشاهدة فلا إيمانَ فيها ، لا تقول : أؤمن بأن الشمس طالعة ، لكن هؤلاء للمادية التى تحكمهم يريدون آية الغيب مشاهدة ، فيقولون ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾ [الدخان] وليس مع العين أين .

هم لا يُصدِّقون إلا بالأمر الحسيِّ ، لذلك يريدون إعادة آبائهم من بعد الموت ليؤمنوا بأن البعث حقٌّ ، ونقول لهم : إنْ كنتم تريدون ذلك فعندكم كتب التاريخ والرسالات السماوية تحكى لكم مثل هذا الذى تريدونه مثل قصة العُزير :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ [١] وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ [٢] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا [٣] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

كذلك فى قصة أهل الكهف ، يقول تعالى الذين أحياهم الله بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، أيضاً ساعة قاموا من نومهم أو موتهم قالوا ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (١١٣) ﴾ [المؤمنون] لأن هذه هى الفترة المعتادة لنوم الإنسان .

وهذه وغيرها وقائع حدثتْ فى فترات رسل سابقين ، هم يعرفونهم ويؤمنون بهم ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ (٢٤٣) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين أحياهم الله بعد الموت لا يعيشون إلا بقدر المعجزة

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣١٤) : « المشهور أن القرية هى بيت المقدس » . ثم اختلف فى المارِّ عليها فقال على : هو عزير . وهذا القول هو المشهور . وقيل : هو أرميا ابن حلقيا . قاله وهب بن منبه . وقيل : هو حزقيل بن بوار . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بنى إسرائيل (دون تحديد) .

(٢) لم يتسنَّه : أى لم يتغير بعد مُضىّ زمن عليه . وتسنَّه الطعام : تغيَّر . [القاموس القويم ١/٣٣٢] .

(٣) نُنشزها : نرفع بعضها إلى بعض . فالإنشاز تركيب العظام بعضها على بعض . [لسان العرب - مادة نشز] ، وذكر ابن كثير فى تفسيره (١/٣١٤) عن السدى قوله : « تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركَّب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها (أى هيكل عظمى) ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً. وذلك بمرأى من العزير . فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة] .

ثم يموتون . إذن : لا حجةَ لهؤلاء فى طلب إحياء آبائهم ، بدليل أن الله أحيا الموتى وبلَّغهم ذلك على لسان الرسل ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، ولو أحيا الله لهم الآباء أيضاً لم يؤمنوا .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[1] وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقارن بين هؤلاء وبين مَنْ سبقهم من الأمم المُكذِّبة ، ويقول لهم : لستُم بدْعاً فى ذلك ولستم بمنجىً عن هذا المصير الذى حاقَ بمَنْ كذَّب قبلكم .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ .. (٣٧) ﴾ [الدخان] يعنى : بنو إسرائيل ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ (٣٧) ﴾ [الدخان] تبع الحميرى من ملوك اليمن ، واليمن قديماً كانت تُسمى الأرض الخضراء أو اليمن السعيد لكثرة خيراته .

وكان تُبع رجلاً صالحاً لكن خالفه قومه وكذَّبوه ، فأخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر بعد أنْ دمَّر السد الذى كان يُوفِّر لهم الماء للزراعة فبتدمير السدِّ دُمرت حياتهم كلها .

وهذه القصة ذكَّرتنى بأيام كنا فى الجزائر ، وهناك بنوْا سداً يحجز ماء المطر ، وسمَّوه سدّ مأرب ، ولما ذهبنا مع الرئيس لافتتاحه قام أحدهم خطيباً ، وقال فيما قال : والآن بُنى السد ، وسوف تروون

---

(١) هو تُبع الحميرى ، سار بالجيوش حتى حير الحيرة ثم أتى سمرقند فهدمها وذُكر أن كعباً كان يقول : نُعت نعت الرجل الصالح ذم الله قومه ولم يذمه . وكانت عائشة تقول : لا تسبوا تُبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً . وقال الألوسى فى تفسيره (الدخان ٣٧) : هو تُبع الأكبر الحميرى واسمه أسعد بهمزة ، وفى بعض الكتب سعد بدونها وكنيته أبو كرب ، وكان رجلاً صالحاً .

أرضكم وزراعاتكم ، أمطرتْ السماء أم لم تمطر .

فاستوقفنى هذا الكلام ورأيتُ فيه مخالفةً ، لا للدين فحسْب بل للعقل والمنطق ، فقلت لوزير خارجيتهم : قُلْ للسيد الخطيب : لو لم تمطر السماء ماذا يحجز هو أو السد ؟

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان] كلمة مجرم لا تُقال إلا لمَنْ بالغ فى المعصية وارتكاب الآثام مبالغة عظيمة . ومجرم يعنى : يأتى بالجُرْم الفاحش . هنا جاء بكلام على وجه العموم ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان]

وفى موضع آخر فصَّل الكلام فى هذا الإهلاك ، فقال : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

وفى سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر]

هذه كلها أمم كان لها حضارات ، لكن لم تُمكِّنهم حضاراتهم أنْ يحتفظوا بها ، وأن يمنعوها من الزوال بحيث تنتهى كأنْ لم تكن . الحق سبحانه وتعالى كان يأخذ الأمم المكذِّبة أخْذَ عزيز مقتدر ، لأن الرسل

---

(١) أربعة عذابات مختلفة :

١ - إرسال الحاصب وهى ريح شديدة عاصفة تحمل حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض ثم تنكسهم على أم رؤوسهم ، وهم قوم عاد .

٢ - الأخذ بالصيحة ، فهى صرخة أخمدت الأصوات منهم والحركات . وهؤلاء قوم ثمود قاتلى ناقة صالح .

٣ - الخسف : وهذا كان من نصيب قارون الذى طغى وبغى فخسف الله به وبداره الأرض .

٤ - الإغراق بالماء : وهذا قد لحق فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أُغرقوا فى صبيحة واحدة .

السابقين لم يُطلَب منهم القتال ، فقط تبليغ رسالات الله .

وكانت السماء هى التى تتولَّى تأديب المكذِّبين والانتقام منهم ، ولم يُؤذَن فى القتال إلا لنبينا محمد ﷺ ، لأنه هو المأمون على أنْ يسود البشر برأيه المشْبع بمنهج الله ، لذلك لم يأت بعده رسول ، وكونه لم يأتِ بعده رسول دليلٌ على شهادة الخير لأمته ، وسيظل فيها هذا الخير إلى قيام الساعة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أنْ يلفت الأنظار إلى قضية كونية تستوعب الزمن كله فى الماضى وفى الحاضر ، هذه القضية هى صفة الثبات فى خَلْق السماوات والأرض ، فهى منذ خلقها الله تعالى تسير على نظام مُحكم لا يتخلَّف ولا يتبدَّل ولا يتغير .

هذا الثبات يعنى أنها خُلقَتْ على الحق وبالحق ، فالحق هو الثابت أما الباطل فيتغير ، لذلك قلنا : لو نظرتَ إلى شاهد الزور أمام القاضى لا بدَّ أنْ تتضاربَ أقواله ، ويظلّ المحقق يحاوره حتى يُوقعه فى تناقض ويكشف الزُّور الذى يحاول أنْ يلبسه ثوب الحق .

ويأتى التناقض فى أقواله لأنه يستوحى باطلاً من نسج خياله ، أما الذى يستوحى الحق وينطق به ، فإنَّ أقواله لا تتغير ما دام متمسكاً بالحق ، فالحق ثابت وهو الواقع ، فيمن أين يأتى التناقض ؟

وللمحققين طرق وأساليب يكشفون بها الزور ، ويصلون بها إلى الحق ، لذلك قالوا : إنْ كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً . لكن لا بدَّ فى مرة من المرات أنْ

تخونك الذاكرة ، ولا بدَّ أنْ ينتصر لسانُ الحق على لسان الباطل .

وأذكر عندنا في دقادوس[1] أحد المزارعين وكان رجلاً (فشاراً) ، وفى مرة كنَّا عائدين من البندر (ميت غمر) وكان صاحبنا هذا يحكى بعض قصصه ، فقال : حدث هذا فى ليلة العيد الصغير والدنيا قمر ضهر .

سبحان الله ، كيف يكون القمر ظهراً فى ليلة العيد الصغير ؟ وحتى الناس العامة يقولون فى أمثالهم : (الكذب ملوش رجلين) ، نعم .

الحق هنا يقول : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨)﴾ [الدخان] إذن : خلقناهما بالجد لا باللعب ، وبالحق لا بالباطل ، وفى آية بعدها قال : ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ (٣٩)﴾ [الدخان] وهذا الثبات دلَّ على الدقة فى الخَلْق ، وأنها خُلقت بعناية وهندسة دقيقة محكمة ، وبقوانين لا تتعارض منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة .

تأمل مثلاً الشمس في مشرقها وفى مغربها ، وفى حركتها وسرعتها بالنسبة للأرض ، تأمل القمر وما يحدث من ظاهرتى الكسوف ، كل هذه الآيات تحدث بدقة متناهية وموازينَ لا تتخلَّف أبداً ولا تتعارض ، وهاتِ لى أىَّ آلة بشرية تعمل وتظل على هذه الدقة طوال الوقت .

والذى خلق السماوات والأرض على نظام دقيق لا يتعارض خَلْقها لغاية ، هذه الغاية هى هى منذ آدم عليه السلام وإلى آخر الدنيا .

قلنا ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٣٩)﴾ [الدخان] الحق : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، ويقول سبحانه : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا

---

(١) قرية دقادوس تابعة لمركز ميت غمر محافظة الدقهلية بمصر ، ودقادوس فى الجهة الشمالية الغربية يُطلق عليها (حى ثانى ميت غمر) نظراً لارتباطها الشديد بالمدينة ، يوجد فيها مستشفى ميت غمر العام ومنزل الإمام محمد متولى الشعراوى وضريحه (موسوعة ويكيبيديا) .

فِي الْمِيـزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

فى هذه الآية إشارة لطيـفة من الحق سبحـانه . يقول : انظروا إلى السماء وما فيها من كـواكب وأجرام ، هل رأيتم فيها خللاً أو تعارضاً ؟ أبداً لأنها مخلوقـة بالحق وبالميزان وبالدقَّة كـذلك ، إنْ أردتم أنْ تعتدل أمور حياتكم وتسـتقيم ، فخذوا بميـزان الحق فى كلِّ حياتكم ، وعندها لن تجدوا فى المجتمع تناقضاً ولا تصادماً .

ولأن الحق هو الثابت فـهو الباقى وهو الأعـلى ؛ لذلك قالوا : الحق أبلج والباطل لجلج ، والحق لا ينطمس أبداً وإنْ علا الباطل عليه فلحين ، فـالحق سـبحـانه يجـعل للبـاطل جـولة يعلو فـيهـا حـتى يعضّ الناس ويُشعرهم بأهمية الحق .

فكأن الباطل نفسه جنديّ من جنود الحق ، والكفر جندى من جنود الإيمان ، ولو لم يذُقْ الناسُ بطشَ الباطل وقسـوته ما عرفوا لذة الحق ، لذلك لما جاء الإيمان ما أسرع إليه إلا أشدّ الناس معاناة من الكفر .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الدخان] لا يعلمون هذه الحقـائق لأنهم مُعرضـون عن آيات الله فى الكون ، مُعـرضون عن التأمل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾

[يوسف]

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢) ﴾

فإنْ كانوا مُعرضين عن آياتنا فى الدنيا فسوف يُعرضون علينا فى الآخرة فى يوم الفصل ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدخان] يوم القيامة هو موعدهم حيث يجمعهم الله جميعاً ، التابع والمتبوع ، المؤمن والكافر ، الطائع والعاصى ، المكذِّبين والمصدِّقين بالرسل .

الكل سيجتمع ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى ۝٤١﴾ [الدخان] لا ينفع صديقٌ صديقه ﴿عَن مَّوْلًى شَيْئًا ۝٤١﴾ [الدخان] ولا يدفع قريبٌ عن قريبه .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف] المتقون فقط هم الذين تبقى أُخوّتهم وخُلّتهم ، أما الأخلاء على حطام الدنيا ومصالحها فسوف يكونون أعداء يوم القيامة ، يُلْقى كلٌّ منهم بالتبعة على صاحبه لأنه رآه فى يوم ما على معصية فلم يزجره عنها ولم ينصح له .

﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١﴾ [الدخان] لا يجدون مَنْ ينصرهم من دون الله ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۝٤٢﴾ [الدخان] رحمه أولاً فى الدنيا بأنْ أنقذه من الكفر ، وجعله مؤمناً به مُصدِّقاً برسوله ، رحمه بأنْ جعله على منهجه وعلى صراطه المستقيم حتى يلقاه ، وهذه الرحمة تمهيد للرحمة الكبرى يوم القيامة .

وكلمة (مَوْلَى) تتسع لتشمل الأولاد والأقارب والأصدقاء والخلاَّن ، وبعض الناس يتخذ العبيد والخدم ، ويدخل فيها كلُّ تابع لك ، وكل هؤلاء ﴿لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا .. ۝٤١﴾ [الدخان] يعنى : لا يدفع عنه ضُراً ، ولا يتحمل عنه وزراً ، لأن كلَّ واحد مشغول بنفسه ، ينوء بحمله هو ، هذا فى البشر ، وكذلك فى الأصنام لن تنفع عابديها . وفى كلِّ معبود سِوَى الله تعالى .

لذلك قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود] يعني : يسبقهم إلى النار .

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ[1] يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا يعطينا صورةً لطعام أهل النار والعياذ بالله ، وفي موضع آخر يعطينا صورة لشرابهم ، لأن الطعام والشراب هما قِوَام الحياة ، فطعامهم الزقوم ، وهو شجرة صغيرة مُنتنة الرائحة ، وطعمها مُرٌّ .

أما شكلها ، فقال عنه سبحانه في آية أخرى : ﴿ طَلْعُهَا[2] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] وهو تشبيه يؤدِّي المراد منه بدقة ، فالمراد إظهار بشاعتها وقُبح منظرها .

لذلك وجدنا بعض المستشرقين يعترضون على هذا التشبيه يقولون : كيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول لأن أحداً لم ير رؤوس الشياطين ، والأصل في التشبيه أنْ تُشبه مجهولاً بمعلوم ليتم الإيضاح .

يقولون هذا لأنهم لا يعرفون شيئاً عن إعجاز القرآن وطريقة أدائه للمعنى ، فلو أننا أجرينا مسابقة بين رسامي الكاريكاتير في العالم وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان ، فكلٌّ واحد سيرسمها من

---

(١) المهل بضم الميم : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلي والقيح . [القاموس القويم ٢/٢٤٢] .

(٢) طلع النخلة : هو نَوْرُها الذي هو أصل ثمارها ، ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً، ومن طلعها يخرج القنوان المملوءة بالبلح . [القاموس القويم ١/٤٠٥] .

تخيُّله للقُبْح في نظره هو .

وهكذا سيكون عندنا صور متعددة ، كلها قبيح مع أنها مختلفة ، لأن القُبْح له ألوان مختلفة ، والشيء البشع عند البعض قد لا يكون كذلك عند آخرين ، مثل مقاييس الجمال نجدها نسبية بين الناس ، فمثلاً البعض يرى الجمال في الشفاه الرقيقة ، وآخر يراه في الشِّفاه الغليظة .

وهكذا تختلف مقاييس القُبْح في الذِّهْن الإنساني ، والصورة التي تُفزع شخصاً قد لا تفزع الآخر ، فأراد الحق سبحانه بهذه الصورة أنْ يشيع قبحها وبشاعتها ، وأنْ يُقبِّحها قُبْحاً عاماً يستوعب كل نواحي القبح والبشاعة عند مختلف الناس .

إذن : الإبهام هنا أفضل ، لأنه يجعلك تذهب في تصوُّر القبح كلَّ مذهب ، لذلك نستطيع أن نقول : إن الإبهام هنا هو غاية الإيضاح وعَيْن البيان .

إذن : هي شجرة كريهة في شكلها وفي طعمها وفي رائحتها ، ثم يزيد على ذلك فيُشبِّه طعمها بأنه ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥)﴾ [الدخان] المُهْل هو : المعدن المذاب الذي بلغ الغايةَ في الحرارة ، أو هو الزيت المغلي .

فمثلاً نرى صانع (الطعمية) يغلي الزيت لفترات طويلة ، حتى يتحوَّل إلى مواد سامة سوداء اللون يُسمُّونها الدُّرْدي ، هذا الذي يسمونه المهل إذا كان من أصول ليِّنة ، وقد يكون من أصول صلبة كالمعادن مثل : الذهب والحديد والنحاس .

ومعنى ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥)﴾ [الدخان] أن درجة حرارته - والعياذ بالله - لا تنخفض بشُرْبه ، فنحن مثلاً حين نشرب الشاي

ساخناً نشعر بلسْعة الحرارة فى الفم أثناء تناوله ، لكن حين ينزل إلى المعدة تنخفض هذه الدرجة .

أما الزَّقوم والعياذ بالله فيظلُّ يغلى حتى فى بطونهم ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

مثل غليان الماء الذى بلغ أقصى درجة ، وتناهتْ حرارته .

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ(١) إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩)﴾

لو تأملتَ فعل الأمر هذا ﴿خُذُوهُ .. (٤٧)﴾ [الدخان] والآمر هو الحق سبحانه وتعالى تجده مُخيفاً مرعباً ، ووالله لو قالها ضابط شرطة لمجرم لكانتْ مخيفة ، فما بالكم لو قال الحق سبحانه ﴿فَاعْتِلُوهُ .. (٤٧)﴾ [الدخان] ؟ يعنى : جُرُّوه بشدة وغِلْظة ودون رحمة أو هوادة ، إلى أين ؟

﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)﴾ [الدخان] ولم يقلْ إلى الجحيم ، فسواء الجحيم يعنى : وسطها لأنه لو كان متطرفاً هنا أو هناك ربما أعطاه أملاً فى الخروج منها ، أو جاءه نسمة هواء تُخفِّف عنه ، إنما فى وسطها بحيث تكون الجحيم حوله من كل ناحية مُطبقة عليه .

ليس هذا وفقط ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨)﴾ [الدخان] فالغليان فى جوفه وفوق رأسه ، وبعد هذا العذاب الحسىّ

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢١٤) : قال قتادة : نزلت هذه الآية فى أبى جهل وذلك أنه قال : أيوعدنى محمد ، والله لأنا أعز من بين جبليها . وقال عكرمة (مرسلاً) . لقى النبى ﷺ أبا جهل . فقال أبو جهل : لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم . قال : فقتله الله يوم بدر وأذلَّه وعيَّره بكلمته ونزل فيه ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان].

يأتى العذاب المعنوى والسخرية والاستهزاء .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] لأن الذَّوق يستوعب جميع أعضاء الجسم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] أى : فى الدنيا وظننتُ أنك ستكون كذلك فى الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] على سبيل التهكُّم به والسخرية منه .

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾

﴿ هَٰذَا .. (٥٠) ﴾ [الدخان] أى : العذاب الذى نزل بهم ﴿ مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [الدخان] يعنى : تشكُّون فيه وتُكذِّبونه أصبح حقيقة واقعة .

ثم يذكر الحق سبحانه الصنف المقابل ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ[1] مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾

الجمع بين المتقابلات من أساليب الأداء القرآنى ، لأن التقابل يُزيد الصورة وضوحاً .

---

(١) السندس : رقيق الديباج وهو الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] . والإستبرق : هو الديباج الخشن الغليظ ، فارسى معرَّب . [لسان العرب - مادة : برق] .

وقد فَطِن الشاعر العربى إلى هذا المعنى فقال[1]:

فَـالوَجْــهُ مِـثْلُ الصُّـــبْحِ مُـبْــيَضٌ   وَالشَّـعْــر مِــثْل الليْل مُــسْــودّ
ضِـــدّانِ لمـَّا استـجْـمَـعَـا حَسُـنَـــا   وَالضِّدُّ يظهرُ حُـسْنَهُ الضدّ[2]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار] وعليك أنت أنْ تعقد مقارنة وأنْ تختار ، لذلك الحق سبحــانه بعد أنْ حدثنا عن مصـير المجرميـن وما أعدَّه لهم من ألوان العذاب يذكر سبحانه مصير المتقين وما أعدَّه لهم من النعيم .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان] والمتقى هو الذى يجعل بينه وبين صـفات جـلال الله وقايـةَ صفـات الجلال ، مـثل : القهـار الجبـار المنتقم ذى البطـش الشديد ، فاجـعل أيها المـؤمن بينك وبين هذه الصفات من الله وقايةً ، لأنك لا تحتمل صفات الجلال من الله .

لذلك قال تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البـقرة] لأنها جندى من جنود صفات القهر والجلال . إذن : هما يُؤدِّيان نفس المعنى .

---

(١) عزَتْ الموسوعة الشعرية هذيـن البـيتـين إلـى ثـلاثة مـن الشعراء : أبو الشيص الخـزاعى (توفى ١٩٦ هجرية) من أهل الكوفة - والثــانى هـو علـى بن جبـلة - العكـوك عـراقى (توفى عام ٢١٣ هجـرية) - والثالثة هو دوقلة المنبـجى تنسب إليه القـصيدة المشـهورة باليتيـمة التى منها هذان البيتان ثم غلب عـليها اثنان هما أبو الشيص والعكوك العـباسيان ، وتنسب فى بعض المصادر إلى ذى الرمة .

(٢) قصـيدة أبى الشـيص ٦٦ بيتـاً من بحر أحـذ الكامل (الـ ١٥ ، ١٦ منها) ، أمـا قصـيدة العكوك فهى ٦٥ بيـتاً من نفس البحر (الـ ١٥ ، ١٦ منهـا) ، أما قصيـدة دوقلة فهى ٦٠ بيتاً من نفس البحر (الـ ١٥ ، ١٦ منها) .

وقوله ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان] المقام هو مكان الإقامة أو المسكن الذى تسكن فيه وله أجزاء ، تقعد فى جزء وتنام فى جزء وهكذا ، لكن من أهم مُقوِّمات المسكن أنْ يكون آمناً تأمن فيه على نفسك ومالك .

لذلك حينما نفكر فى إقامة مدينة سكنية لا بدَّ أنْ نوفر لها أولاً مقوِّمات الأمان لساكنيها ، وأول هذه المقوِّمات أنْ تكونَ بعيدةً عن مراتع الوحوش والحيوانات المفترسة ، كذلك آمناً من السرقة أو الخائن ، وهو البشر الذى يتغلغل فيك فى بيتك ، ويزعجك بحيث إذا كنت نائماً أو قاعداً قمتَ ووقفتَ له .

فالمكان الأمين أو المقام الأمين هو الذى تأمن فيه من كل شىء إذن : الأمن فى المَقام ، فوق الأمن فى المُقام بالضم . لذلك سيدنا إبراهيم دعا ربه ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : أمناً عاماً كما يشترط فى أىِّ بلد .

فلما أعطاه هذه دعا بالأمن الخاص ، فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] ثم أعطاه الحق سبحانه أمناً فوق هذا كله ، وهو حرمة البيت الحرام فقال : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] حتى أن الرجل كان يَلْقى فيه قاتلَ أبيه فلا يتعرَّض له لحرمة البيت .

لذلك لما حدثتْ أحداثُ البيت الحرام ، وأُطلقَ فيه النار وفُزِّع فيه الآمنون ، خرج علينا من الملاحدة مَن انتهز هذه الفرصة وأخذ يُشكِّك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] لأن ما حدث يتعارض مع هذه الآية .

وينبغى هنا أنْ نُفرِّق بين أسلوبين من أساليب الأداء القرآنى ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] لا يعنى الإخبار

بأن مَنْ دخله كان آمناً ، إنما المراد منه : أطلب منكم أنْ تُؤمِّنوا مَنْ دخله ، فهو أمر شرعى يحتمل أنْ نُطيعه فنُؤمِّن مَنْ دخله ، ويحتمل ألاَّ نطيع فنُروِّع مَنْ دخله .

إذن : الآية فيها إنشاء طلبى ، وليستْ خبراً ، ومعلوم أن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أما الإنشاء فلا يحتمل الصدق ولا يحتمل الكذب .

ومن ذلك قوله تعالي : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** .. (٢٦) ﴾ [النور] البعض يفهم الآية على أن فيها إخباراً من الله تعالى بأن الخبيثات من النساء لابدّ أنْ يكُنَّ للخبيثين من الرجال ، ثم يرى فى واقع المجتمع خلافَ ذلك فيشكّ فى صدق الآية .

لكن المعنى غير ذلك ، المعنى تشريعي : أعطوا الخبيثات للخبيثين ، وأعطوا الطيبات للطيبين ، فهذا أمر شرعىّ قد يُطاع من البعض ، وقد يُعصَى من آخرين .

والحكمة والصواب فى اتباع أوامر الله ليحصلَ التكافؤ بين الاثنين ، وتعتدل كفَّة الحياة الزوجية ، فلو تصوَّرنا رجلاً طيباً يتزوج بامرأة خبيثة ماذا يحدث ؟ يحدث خلاف وعدم توافق ثم يُعيِّرها الزوج بماضيها ويُذلها بسيئاتها السابقة ، أما إنْ أخذ الخبيثُ الخبيثةَ حدث التوافق ، وإنْ قال لها : أنت كنتِ ، قالت له : وأنت كنتَ .

إذن : الحق سبحانه فرض أشياءَ كونيةً لا تختلف أبداً ، ولا يعارضها واقعُ الحياة ، وفرْض أشياء شرعية متروكة لاختيار المكلّف يعمل بها أو لا يعمل ، فهذه الآية وأمثالها ليستْ أمراً كونياً ، إنما هى أمر شرعى ، كأن الله يقول : يا مَنْ تؤمن بأمر شرعى نفِّذ هذا الكلام .

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) ﴾ [الدخان] الجنات هى البساتين والحدائق ، وهى عند العرب شىء جميل ونعمة كبرى ، فإنْ كان الأمن من الضروريات فالجنات والعيون من الترف وزيادة النعمة .

وقال ﴿ وَعُيُونٍ (٥٢) ﴾ [الدخان] لأن الجنات لابدَّ لها من عيون تروى زرعها ، وتُغذِّى ثمارها ، وبعد أنْ ضمن لهم الأمن وترف الحياة يضمن لهم الملبس الحسن ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) ﴾ [الدخان]

السندس هو الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك الغليظ ، وهذا يدل أيضاً على الرفاهية والرِّياش الدَّال على الفخفخة ؛ لأن اللباسَ منه الضرورىّ الذى يستر العورة ، ومنه الرياش ، لأنهم كانوا يُزينون اللباس بريش النعام ، لذلك يقولون حتى الآن (فلان متريش) يعنى : عنده رفاهية فى عيشه .

قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : هذه ثلاثة أنواع من اللباس : لباس ضرورى يُوارى العورة ، ولباس الترف والزينة ، ولباس التقوى ، وهو أفضلها وخيرها ، لأن قُصارى ما تأخذه من اللباس هو ستْر عورتك فى الدنيا وإظهارك بمظهر حسن بين الناس ، فهو لباس موقوت بعمرك فى الدنيا ، وربما يموت الإنسان بعد أنْ ينزل من بطن أمه مباشرة ، فلا يكون له نصيب من هذا اللباس ، ولا يكون له عورة تُستر .

أما لباس التقوى فهو زينةٌ لك فى الدنيا ونجاةٌ لك فى الآخرة دار البقاء ودار الخلود ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف]

نلاحظ أن الحق سبحانه بعد أنْ ذكر ما أعدَّه للكافرين من عقاب ذكر ما أعدَّه للمؤمنين به المُصدِّقين برسله ، وجعل يوم القيامة يوماً للفصل بينهما ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الدخان]

والفصل يكون بين شيئين اتحدوا في أمر واختلفا في آخر ، فالمؤمنون والكافرون اتحدوا في الوجود وفي عطاء الربوبية والتمتُّع بنعم الله تعالى في الدنيا ، فالله تعالى جعل مُقوِّمات الحياة للجميع : الماء والهواء والطعام .

فهم فيه سواء لأنه ربُّهم جميعاً وخالقهم ، وهو الذي استدعاهم للوجود ، فلابدَّ أنْ يضمنَ لهم مُقوِّمات حياتهم ، لكن جعل هذه المقومات على مراتب ، فلما تكلَّم عن اللباس قال : ﴿ يَـٰبَنِي آدَمَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] ولم يخُصَّ المؤمنين ، لأن هذا العطاء عطاء ألوهية .

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] إذن : هما شركاء في اللباس الضروري الذي يُواري العورة ، وفي الرياش الدال على الأُبَّهة والزينة الزائدة عن الضرورة ، وهذه كلها من مُتع الحياة الدنيا ، أما لباس التقوى ففصله عن سابقيه ، لأنه لباسٌ خاصّ بأهل الإيمان .

إذن : بعد أنْ سوَّى الله بيننا جميعاً في عطاء الربوبية لأن الجميع عباده جاء يوم الفَصْل ، حيث يأخذ كلٌّ منا ما يستحقه ، فالأمر في الآخرة مختلف ، فللكافرين شجرة الزقوم التي تغلي في البطون كغَلْي الحميم ، أما المتقون ففي جنات وعيون في مقام أمين .

كلمة (سُنْدس) و (إستبرق) من أصل فارسي دخلتْ العربية ، واستعملها القرآن الكريم على أنها كلمة عربية سارتْ على ألسنة العرب ؛ لذلك وقف المستشرقون عند هذه الكلمات ومثلها القسطاس وغيرها ، ولا غضاضةَ أنْ تستخدم اللغةُ ألفاظ لغة أخرى .

وما دامتْ هذه الكلمات دخلتْ على العربى ، واستخدمها وفهم معناها حتى أصبحتْ جزءاً من لغته التى يتفاهم بها ، فما المانع من استخدامها ككلمات عربية ؟ ونحن الآن مثلاً نستخدم كلمة (بنك) وهى غير عربية ، وربما نجدها أخفَّ وأرقّ من كلمة مصرف العربية .

وقوله تعالى : ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الدخان] فى وَصْف أهل الجنة وكيفية إقامتهم فيها ، والتقابل يدلُّ على الأُنْس حين تكون الوجوه متقابلة متواصلة متقاربة ، وضدها متدابرة ، والتدابر لا يكون إلا فى الخصام ، فكلمة ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الدخان] تدل على أُنْس أهل الجنة بعضهم ببعض ، ومحبتهم وتآلفهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ ..﴿٥٤﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : مثل هذا النعيم وزيادة عليه ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الدخان] الفعل زوَّج يتعدَّى بنفسه ويتعدَّى بالباء ، تقول : زوَّجته فلانة يعنى : جعلتُها زوجة له ، وهو الزواج الشرعى المعروف بين الذكر والأنثى .

أما زوَّجته بكذا يعنى : أضفتُ إليه فرداً مثله يُكوِّن معه زوجاً ، وليس من الضرورى أن يكون أنثى ، فقوله تعالى ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الدخان] تعدَّتْ بالباء .

فالمعنى انتقل من مسألة الزوجية التى نعرفها إلى الأُنْس بالجمال الذى هو قمة ما نعرف من اللذات ، وليس بالضرورى العملية إياها[1] ؛ لأننا فى الآخرة سنُخلق خَلْقاً جديداً غير هذا الخَلْق الذى نعيشه ، بدليل أنك تأكل فى الجنة ولا تتغوَّط .

---

(١) هذه النقطة ترد على الذين يطعنون فى الإسلام من غير المسلمين ومن يتبعهم ويصورون الأمر على أن جنة المسلمين كلها جنس ومعاشرة وليس فيها سمو روحى ولا ارتقاء ، فقول الشيخ الشعراوى رحمه الله هنا قاطع فى أن الأمر أُنْسٌ ومصاحبة ، ثم إن الباء هنا تفيد المصاحبة والمزاوجة وليس مقصوداً بها فعل الجنس [عادل أبو المعاطى] .

وعليه فالمعنى المزاوجة بين اثنين ، بصرف النظر عن الذكَر والأنثى ؛ لأن المتعة هناك متعة النظر ، ومتعة الكلام ، ومتعة الأُنْس بقيم أخرى غير التى نعرفها الآن .

وقوله ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الدخان] حور : جمع حوراء وهى من نساء الجنة ، والحَوَر صفة فى العين تعنى : شدة البياض وشدة السواد فى العين (وعِين) جمع عَيْناء ، وهى الواسعة العينين مع جمالهما .

إنك إذا نظرتَ إلى فمها لوجدتَ أنه أصغر من عينها مرتين ، لذلك يصفون جمال الفم بأنه مثل خاتم سليمان ، ولك أنْ تتخيَّل هذا المنظر .

ولما كان زواجُ الرجل بالمرأة من أعظم مُتَع الدنيا ، ويحرص عليه كلٌّ من الرجل والمرأة حينما يبلغان الرشد جعله الله من مُتع الآخرة ، لكن على صورة أخرى أنقى ، جعله الله من متع الآخرة بصرف النظر عن العملية الجنسية إياها ، فالمسألة إيناسٌ بما كنتم تعتبرونه نعمةً فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمقاييس أخرى ، فى الآخرة أنقى لكم الأشياء من مُنغِّصاتها التى كانت فى الدنيا .

أرأيتم مثلاً ما فى الدنيا من خمر وعسل ولبن ، لكم منها فى الآخرة ، لكن بعدَ أنْ نُصفِّيها لكم مما يُنغِّصها ، فجعل خمر الآخرة لذةً للشاربين ، وخمر الدنيا لا لذةَ فيه ، وجعل اللبن لا يتغيَّر طعمه ، وجعل الماء غير آسن .

كذلك جعل الزواج نقياً من شوائبه فى الدنيا ومُنغِّصاته ، حتى أزواج الدنيا حينما يجمعهم الله فى مُستقر رحمته فى الجنة يجد الزوجُ زوجته فى الدنيا على هيئة أخرى ؛ لأن الله تعالى طهَّرها له ونقَّاها من عيوبها التى كان يأخذها عليها فى الدنيا .

فلو كانتْ مثلاً غير جميلة وجدها على أجمل ما تكون النساء ، ولو كانت في الدنيا طويلة اللسان وجدها على أحسن ما يكون ، لأن الله سيُنشئهنَّ نشأةً جديدة : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[1] أَتْرَابًا[2] (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ﴾ [الواقعة] وقال ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .. (١٥) ﴾ [آل عمران]

إذن : قوله سبحانه : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] هذه الباء نفهم منها أنه زواجٌ غير الذى نعرفه فى الدنيا بين الرجل والمرأة ، وأنه بعيد عن المسألة إياها ، لأن الحياة الأخرى لها نعيمٌ آخر ومقاييس أخرى غير ما نعرفه فى الدنيا .

وكلمة (حور عين) تلفت الأذهان إلى متعة النظر والتلذذ به ، كما ينظر الإنسان إلى صديق يحبه ، فإذا اقتنع واكتفى بهذه النعمة فأهلاً وسهلاً ، وإذا لم يقنعه النظر ، ففى الجنة ما تشتهيه الأنفسُ ويلذّ الأعين .

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) ﴾

معنى ﴿ يَدْعُونَ .. (٥٥) ﴾ [الدخان] يطلبون ﴿ فِيهَا .. (٥٥) ﴾ [الدخان] أى : فى الجنة ، فإنْ قلتَ : فلماذا يطلبونها وفى الجنة يأتيك

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ٢/١٣] وقال ابن عباس : العُرُب : العواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٢) .

(٢) الأتراب جمع ترب وهو المساوى فى السِّن للذكر والأنثى . قال ابن عباس : يعنى فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . (ابن كثير فى تفسيره ٤/٢٩٢) .

الشيء بمجرد أنْ تريده ، قالوا : المسألة أنه أكل الأكل الطبيعي أو الضروري ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الواقعة]

وبعد أنْ أكل يريد التفكه ، وما دام تشتهيها نفسك تأتيك حتى لو كانت ﴿ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الدخان] يعني : من كلِّ الأنواع ومن كلِّ الأشكال ، فالواحد منا مهما بلغ من نعيم الدنيا يأكل بعد وجبته الأساسية نوعاً أو نوعين من الفاكهة ، أما في الجنة فيدعون بكل فاكهة يعني يا رب هَات لنا بكلِّ الفواكه .

وهنا نسأل : ما البطن التي تتحمل وتتسع لكلِّ هذا ؟ وما هي النفس التي تستقبل كلَّ هذه الأشياء المتماثلة ؟ والله لو كنا في الدنيا لحدثتْ لنا مشاكل في المعدة وفي الأمعاء وغيرها ، أما في الجنة فالأمر مختلف .

وانظر إلى ذيل الآية ﴿ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الدخان] فجاءت كلمة آمنين لتزيل كل استغراب وتعجُّب ، فهناك كُل كُلَّ ما تحب ، وكُلْ ما تشتهيه نفسُك .

إنه أكْل آمنٌ من معاطب الطعام التي عرفتها في الدنيا ، أكْلٌ أعدَّه لك ربُّك عز وجلَ ونقَّاه من كُلِّ ما يُنغِّصه ، ومن كُلِّ عيوب الطعام التي عرفتها في الدنيا ، ويكفي في نقائه أنك تأكل منه ما شئتَ ولا تتغوَّط . إذن : نعمة الجنة مُصفاة وخالصة من الشوائب ومن المتاعب .

وقوله سبحانه : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الدخان] أي : في الجنة أيضاً ، فالجنة ظرف وليس في الجنة موت ، إذن : كيف يستثني فيها ﴿ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الدخان] إذن : المعنى أنهم لا يذوقون في الجنة الموت ، فالموتُ بالنسبة لهم انتهى بالموتة الأولى التي حدثت لهم في الدنيا ، أما في الجنة فلا موت .

وكلمة ﴿يَذُوقُونَ .. (٥٦)﴾ [الدخان] جعلتْ حـاسَّة الذوْق التى تقتصر على اللسان والمنطقة التى حوله المسئولة عن تذوُّق الأشياء ، جعل هذه الحاسة عامة فى كُلِّ الجسم تستوعب كلَّ الحواس الأخرى .

كما قال سبحانه فى عذاب أهل النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان] فهو يذوق العذاب لا بلسانه ، ولكن بكلِّ عضو فيه ، وقال سبحانه فى آية أخرى : ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل] فجعل حاسَّة التذوُّق هنا كاللباس الذى يستوعب الجسم كله ، فكأن كلَّ جزء من جسمه يذوق طَعْم العذاب .

وقوله : ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)﴾ [الدخان] أى : أولاً وقبل هذا النعيم وقاهم عـذابَ الجحيم ، فالوقاية من العذاب سـابقة لدخولهم الجنة ومقـدمة عليـه ، لأن القاعدة كـما قلنا : التـخلية قـبل التحليـة ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)﴾

أى : أن الجنة وما فيها من النعيم وقبل ذلك الوقاية من العذاب ، كل هذا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ .. (٥٧)﴾ [الدخـان] أى : تفـضُّـلاً منه سبحانه علينا وتكرُّماً منه على خَلْقه ليس بأعمالهم .

وهذه المسألة موضع خلاف بين العلماء ، لأن الحق سبحانه قال فى آية أخرى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] وقال أيضاً : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

إذن : عندنا آيات تقول بفضـل الله ، وآيات تقول بالعمل ، ولا بدَّ

أنْ يتصيَّد خصوم الإسلام مثل هذه المسائل ، ويحاولوا أنْ يُشكِّكوا في كلام رب العالمين ، وأنْ يتهموه بالتناقض ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلواً كبيراً .

ولبيان هذه المسألة نقول : أنت حين تهتم بولدك وتنفق عليه وتعطيه دروساً ليتفوق ، تفعل ذلك لصالحه أم لصالحك أنت ؟ وحين يتفوَّق تأتى له بجائزة تحفزه على الاستمرار فى النجاح . إذن : أنت كلفتَ نفسك بأشياء ونفقات لا تعودُ عليك ، إنما تعود على ابنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يتعامل مع خَلْقه ، فالله خلقنا وخلق لنا مُقوِّمات حياتنا ، ثم أعطانا المنهج وأثابنا عليه فانتفعنا بالاستقامة عليه فى الدنيا وبالثواب عليه فى الآخرة .

والحق سبحانه يفعل ذلك وهو الغنىُّ عنَّا ، فله سبحانه كلُّ صفات الكمال قبل أنْ يخلق هذا الخَلْق ، إذن : لا تنفعه طاعة ، ولا تضرُّه معصية .

وإياك أنْ تظنَّ أنك بطاعتك لله وعبادتك له سبحانه أنك تسند عرشه جَلَّ وعلا أو تزيد فى خلقه ، فأنت المستفيد أولاً وأخيراً بمنهج الله ، وشرفٌ أنْ تنتسبَ إلى هذا المنهج ، وأنْ تكونَ عبداً لله تعالى .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قَلْب رجل واحد منكم ما نقصَ ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد وسألنى كلٌّ واحد مسألته فقضيتُها له ما نقصَ ذلك فى

ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدخلَ البحر ، ذلك أنِّى جواد ماجدٌ واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقول له كُنْ فيكون »[(١)] .

إذن : التكليف الذى يأتينا من الله تعالى لا ينتفع الله منه بشىء ، إنما يعود نفعه علينا ، ولو أخذنا المسألة بالعقل لقُلْنا أنه كان علينا أنْ ندفع الثمن ، فالثواب على الطاعة إذن محْضٌ فضل من الله ، بل مجرد التشريع والمنهج الذى كلَّفك الله به محض فضل منه سبحانه .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الدخان] الفوز العظيم أننى حين أسير على وفْق منهج الله أنتفع به فى الدنيا وأُثاب عليه فى الآخرة .

أما قوله سبحانه : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل] قالوا : يعنى بسبب أعمالكم الصالحة ، فالعمل الصالح ليس ثمناً للجنة ولكنه سببٌ لدخولها ، وقد أوضح سيدنا رسول الله ﷺ هذه المسألة حين قال : « لا يدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى الله برحمته »[(٢)] .

وفى ضوء هذا الحديث نفهم قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٩) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٤٧) وأحمد بن حنبل فى مسنده (٢٠٤٠٥ ، ٢٠٥٦٠) كلهم من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤١) ومسلم فى صحيحه (٥٠٣٧ ، ٥٠٣٨ ، ٥٠٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الحق سبحانه يعود هنا لمخاطبة نبيه ﷺ وبيان نعمته عليه ، ومن هذه النعم أنه سبحانه يسَّر له القرآن يقرؤه بلسان عربى مبين ، فالضمير فى ﴿ يَسَّرْنَاهُ .. (٥٨) ﴾ [الدخان] يعود على القرآن بدليل قوله ﴿ بِلِسَانِكَ .. (٥٨) ﴾ [الدخان] فهذا إمداد لغوى ؛ حيث جعله الله بلسان ولغة عربية وهو لسان الرسول ﷺ ولغته التى ينطق بها .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ [الدخان] دل على أنه بلسانك وبلسان قومك ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ (٤) ﴾ [إبراهيم] فهو بلسانك تبليغاً وبلسانهم تلقياً واستقبالاً ، ثم بلاغاً أيضاً لأنهم هم الذين سيقومون بمهمة البلاغ بعد رسول الله .

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾

﴿ فَارْتَقِبْ .. (٥٩) ﴾ [الدخان] يعنى : انتظر ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾ [الدخان] منتظرون ، فماذا ينتظر رسول الله ؟ وماذا ينتظر الكافرون ؟ رسول الله صاحبُ دعوة وهدى ، جاء بنور يهدى به هؤلاء القوم ، وهم مناهضون لدعوته يُناصبونه العداء ، ويريدون أنْ يُطفئوا هذا النور ، هو حريصٌ عليهم مُحب لهدايتهم رغم إيذائهم له وسخريتهم منه ، حتى إنه ليكاد أنْ يهلك نفسه فى سبيل دعوته .

لذلك كثيراً ما خاطبه ربه مُسلِّياً له مُخفِّفاً عنه ، يخبره ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى] ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : لا تحزن

يا محمد لما يقولونه عنك ، لأنهم يحبونك ، ويُقدِّرونك ويعلمون صدْقك ومكانتك ، فأنت عندهم أعلى من أنْ تكذبَ عليهم ، ولكن المَسألة أنهم يجحدون بآياتي ، فالمسألة عندي أنا .

كلمة ﴿ فَارْتَقِبْ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الدخان] جاءت في هذه السورة مرتين هنا ، وفي قوله سبحانه : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان] لما دعا رسول الله عليهم وقال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف »(١) .

فنزل بهم من القحط والجدب ما نزل حتى أكلوا الجيف والعلْهز(٢) وضجّوا يدعون الله أنْ يكشف عنهم ، والله يعلم أنه لو كشف عنهم لَعادوا لما كانوا عليه من التكذيب لرسوله .

لذلك خاطب الله رسوله بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

فمعنى ﴿ فَارْتَقِبْ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الدخان] أي : انتظر ما يحلُّ بهم من العذاب لأنهم يرتقبون ما يُريحهم منك ويُخلِّصهم من دعوتك ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله كيف يجادلهم ، فيقول لهم : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة]

يعني : قلْ لهم يا محمد : أنتم تتربصون بنا إحدى الحسنيين ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٦٢ ، ٩٥١ ، ٢٧١٥ ، ٣١٣٤) وكذا مسلم في صحيحه (١٠٨٢ ، ١٠٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) العلهز : وبر يُخلط بدماء الحَلَم كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجدب . قال ابن الأثير : هو شيء يتخذونه في سني المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه . [لسان العرب مادة : علهز] .

إما النصــر عليكم ، وإما أنْ نمـوت شهداء ، فـإن انتصرنـا عليكم علَا منهجُ الله وساد ، وإنْ متْنَا كنا شهداء أحياء عند ربنا نُرزق .

ونَحن نتــربَّص بكم أنْ يُصيــبكم الله بعـذاب من عنده أو بأيدينا ، إذن : نحن تربَّصنا بكم بشرٍّ لكم ، وأنتم تربصتم بنا بخير لنا .


سورة الجاثية



سورة الجاثية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



هذه السورة أيضاً من الحواميم ، وهى السور التى افتُتحت بقوله تعالى (حم) ، وسبق الكلام فيها ، لكن ما دام أن الحق كرَّرها فلا بدَّ لنا أنْ نتعرَّض لها بما يفتح الله به ولا يُعد هذا تكراراً .

فإذا نظرنا إلى الحياة التى نراها وجدنا فيها مُلكاً مشاهداً ، وملكوتاً غير مشاهد ، وكل ما غاب عن حواسِّك فهو غَيْبٌ لا يعلمه إلا الله ، خُذْ مثلاً العقائد والعبادات تجد أنها تقوم على هذين الجانبين

---

(١) سورة الجاثية هى السورة رقم ٤٥ فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية هى ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. (١٤)﴾ [الجاثية] نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب ذكره الماوردى . ولكن قال المهدوى والنحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة أن رجلاً شتم عمر قبل الهجرة فأراد أن يبطش به فأنزل الله الآية . وهى سبع وثلاثون آية . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦٢٠٦/٩) وترتيب نزولها هو نفس ترتيب وجودها فى المصحف نزلت بعد الدخان وقبل الأحقاف ، وهى السورة رقم ٦٤ فى ترتيب النزول .

الغيب والمشهد .

فأنت تستطيع بالعقل أنْ تبرهن على وحدانية الله ، وعلى وجوده سبحانه ، وأنه خالق هذا الكون كله ، فالإنسان طرأ على هذا الكون ووجده كما هو الآن ، الشمس والقمر والنجوم ، السماء والأرض ، الماء والهواء .

لذلك لم يدَّع أحدٌ أنه خلقه ، قال سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

هذا مشهد ، وفى العقائد أمور أخرى غَيْبٌ نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، كأمور الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار ، خُذْ مثلاً من العبادات الصلاة نستطيع أنْ نفهم لها عللاً عقلية ، فنقول : إن الله فرضها علينا خمْس مرات فى اليوم والليلة ليتردد العبدُ على خالقه ، وليستمدَّ منه القوة والعوْن ، وليأنس بلقائه ، وليأخذ من فيض عطائه وإشراقاته .

والصلاة كذلك تُسوِّى بين العباد الغنى والفقير ، الرئيس والمرؤوس الكل ساجد لله ، هذا استطراقٌ عبودىّ فى الكون ، هذا كله مشهد ، لكن بالله قُلْ لى : لماذا كان الصبحُ ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ؟ هذه غيْبٌ نؤمن به كما هو ، وكما أخبرنا به رسول الله المؤتمن على شرع الله .

كذلك فى القرآن الكريم غيب ومشهد ، غيب فى هذه الحروف المقطَّعة التى استأثر اللهُ بعلم معناها ، وباقى القرآن بعد ذلك مشهدٌ لأنه بيِّن واضح المعنى ظاهرُ المقصد ، لأن الحق سبحانه يريد أنْ يتعبَّدنا بالغيب كما تعبَّدنا بالمشهد .

والغيب هو محلُّ الإيمان ، أما المشهد فليس مجالاً للإيمان أو الكفر ، فلا تقول مثلاً : أومن بأن الشمسَ طالعةٌ ، لكن أقول : أومن باليوم الآخر .

فقوله تعالى هنا (حَم) يعنى : حروف مُقطَّعة فى بداية بعض سور القرآن هى غيب نؤمن به ونترك معناه لمنْزله سبحانه ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الجاثية] هذا هو المشهد ، وفى السورة قبلها (حم) غَيْب ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الدخان] مشهد .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..(٣) ﴾ [الدخان] يعنى : الاثنان الغيب والمشهد مُنزّل من عند الله ، فهما سواء فى التعبد لله تعالى ، فكما تعبَّدك بالواضح المفهوم تعبَّدك بالغيب الذى لا تفهمه ، وكُل ما هنالك أننا نحوم حولها ، نحاول أنْ نستشفّ بعض أسرارها .

لذلك نقول : إن القرآن كله مبنيٌّ على الوَصْل فى الآيات وفى السور ، حتى أن آخر كلمة فى سورة الناس موصولة بأول كلمة فى الفاتحة ، فنقول : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهكذا .

لذلك نُسمِّى قارئَ القرآن (الحالّ المرتحل) يعنى : ما يكاد ينتهى من القرآن حتى يبدأ من أوله .

أما الحروف المقطّعة فى أوائل السور فمبنيةٌ على الوقْف تقول : حا ، ميم ، ألف لام ميم ، فى حين أنك لا تقف على نفس الحروف فى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) ﴾ [الشرح]

إذن : لكل نطق علَّة وله أسرار ، فهو أشبه بأسنان المفتاح الذى يفتح لك ، فمفتاح يفتح لك بسنٍّ واحد ، ومفتاح يفتح لك بسنَّيْن ، ومفتاح يفتح لك بثلاثة .

وقوله :﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② ﴾ [الجاثية] اختار هنا اسم العزيز ، لأن القرآن سينزل وسوف تجد من القوم مَنْ يكذِّبه ، فلا تهتم لذلك ولا يغرنَّك تكذيبهم ، فالله مُنزل هذا الكتاب عزيز لا يُغلب ، وهذه العزة ليستْ بقهر ، إنما عزة بحكمة ﴿ الْحَكِيمِ ② ﴾ [الجاثية] والحكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه المناسب .

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ③ ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ③ ﴾ [الجاثية] جعل السموات والأرض ظرفاً فلا تنظر إلى السموات والأرض فى ذاتها ، بل انظر لما فيهما من الآيات والأسرار ، فهى مليئةٌ بالآيات التى يجلِّيها الله لوقتها ، وكلما تفتحتْ العقول وتطوَّرتْ العلوم ظهر لنا آية من آيات الله فى السماوات والأرض .

انظر مثلاً إلى الثورة فى مجال الاتصالات ، وما فى الهواء من ذبذبات وبثٍّ (للتليفزيون) ، ومع ذلك لا تختلط ولا تتداخل ، انظر إلى الفضاء الواسع وما توصَّل إليه الإنسان من غزو الفضاء وإطلاق سفن وصواريخ تصل إلى كواكب أخرى وتستقرّ عليها وترسل لنا صُوراً منها ، كلُّ هذه آياتٌ من آيات الله يُجلِّيها سبحانه لنا فى وقتها المناسب .

إذن : آياتُ الله كثيرة فى السماوات والأرض بل وتحت الأرض ، لذلك يمتنُّ الله بنعمه علينا ، فيقول : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝ ﴾ [طه]

لذلك سيدنا عبدالله بن مسعود يقول[1] : أثيروا القرآن . يعنى (هيجوه) مثل الأرض حينما نحرثها لنأخذ ما فيها من خيرات ، كذلك كل شىء منسوب إلى الله تعالى فيه ما لا يُحصَى من كنوز الخير .

وإذا كانت السمواتُ والأرض ظرفاً فلنا أنْ نسأل : أيهما أثمن الظرف أم المظروف فيه ؟ فالخطاب أو الرسالة أثمن أم الظرف الذى تُوضَع فيه ؟ الخزينة أو ما يوضع فيها أنفس .

كذلك السماوات والأرض مع عظمهما وقُوتهما ، فما فيهما من آيات وعجائب أعظم منهما وأنفس ، لذلك تذكرون أننا حرَّمنا أنْ نضع شيئاً بين أوراق المصحف ، لماذا ؟ حتى لا يكون كتاب الله تعالى ظرفاً لشىء ، مهما كان غالياً وثميناً عندك ، لأن القرآن أثمن وأغلى من أى شىء آخر ، فلا تجعله ظرفاً لشىء .

وقوله : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الجاثية] آيات جمع آية ، وهى الشىء البالغ فى الحُسْن مَبْلَغاً كما نقول : فلان آيةٌ فى الحسن أو فى البلاغة ، أو فى الكرم ، إذن : آية تعنى الشىء العجيب فى بابه .

وبيَّنا أن كلمة آية تُطلق على معَانٍ ثلاثة : آيات كونية تثبت قدرة

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (١/٤٥٣) حديث : أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين . وفى رواية أخرى : من أراد العلم فليثوِّر القرآن . ومثله فى تفسير اللباب لابن عادل (١/٣٧٥) [تفسير آية ٧١ البقرة] وذكره معزواً لابن مسعود ابنُ منظور فى لسان العرب مادة ثور . وصاحب تاج العروس وكذلك ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الأثر » .

الخالق سبحانه وحكمته ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

فإنْ كان هذا الشيء مُتفرداً بشيء عجيب دالٍّ على القدرة سُمِّى آية وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء] فكلٌّ منهما آية وحده .

وقال فى عيسى بن مريم عليه السلام وأمه مريم : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فهما آية واحدة ، لأن وجه العجب فيهما واحد ، والجامع بينهما فى الإعجاز أمر واحد ، فكانا آية واحدة.

ثم بعد ذلك آيات معجزات تأتى مصاحبة للرسل لتؤيدهم وتُثبت صدقهم فى البلاغ عن الله مثل : عصا موسى ، وناقة صالح .

ثم النوع الثالث من الآيات هى آيات الذكر الحكيم فى القرآن الكريم ، ويُسمُّونها حاملة الأحكام .

فمعنى : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الجاثية] يعنى : أيها المؤمنون بى تنبهوا لهذه الآيات لتُقنعوا بها غيركم ممَّنْ لم يؤمن من الكافرين والملاحدة ، لذلك نقعد (نبادى) فيهم ونقول لهم : انظروا كذا وانظروا كذا ، تأملوا قدرة الله فى كذا وكذا .

هذه رسالتنا أنْ ندعو الناسَ ، وأنْ ندلَّهم على الله بماذا ؟ بآياته فى الكون ، لذلك ربنا سبحانه يُعلِّمنا كيف ندلُّ الناسَ بالآيات فيقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

يعنى : لا تغرنكم عظمة هذه الآيات ؛ فخالقها أعظم ، وأحلى من

الحُسْن مَنْ خلق الحسن ، فإيَّاكم أنْ تنصرفوا بإعجابكم بالليل والنهار والشمس والقمر عن خالقها ، فهو المستحق للعبادة وليس هى ، وهذا يعنى أن الخالق سبحانه حريصٌ على صَنْعته ، حريصٌ على هداية الناس ونجاتهم مما يهلكهم .

فكأن هذه الآية تقول للمؤمنين بالله إنَّ هذه الآيات الكونية جعلها اللهُ لتقنعكم أولاً ، ثم تقنعون بها غيركم .

لذلك لو نظرنا إلى علماء الدين وعلماء الطبيعة فى مجالات الإنسان والحيوان والنبات والجمادات وجدنا علماءَ الطبيعة أسبقَ لأن علماء الدين يُبيِّنون للناس الحلال والحرام ، إنما ينطلقون أولاً من الإيمان بالله ، فبيان الأحكام فرعُ الإيمان ، فكأن النظر فى الآيات الكونية والاستدلال بها على خالقها عز وجل أهمّ .

ومن عجائب صُنْع الله فى خلقه أنهم فى أواخر العشرينيات قالوا عن السموات السبع أنها الكواكب السبع التى تدور حول الشمس ، وفى العام الذى يليه اكتشفوا كوكباً آخر إلى أنْ وصل عددهم إلى عشرة ، ثم اكتشفوا كوكب الزُّهرة ، وهكذا تغيرتْ كلّ النظريات القديمة .

ومن عجائب الخَلْق فى هذه الكواكب أننا نعرف أن اليوم أقلُّ فى الزمن من السنة ، لأن اليوم $\frac{١}{٣٦٥}$ من السنة ، وبعد أنْ عرفنا علم الهندسة الفراغية وجدنا الزهرة وهو ثانى نجم بعد الشمس ، وقبله عطارد ..

ومن العجيب أنهم وجدوا أن يوم الزهرة أطولُ من عام الزهرة ، فاليوم عندنا هو دورة الأرض حول نفسها ، والسنة دورتها حول الشمس ، فلما لاحظوا يوم الزهرة قياساً على يوم الأرض وجدوا أن

اليوم أطولُ من السنة ، فيوم الزهرة ٢٤٤ من أيام الأرض ، والسنة ٢٢٥ من أيام الأرض .

وهذا صحيح لأن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ نجم حركته ، وهذه الحركة قد تكون سريعة في دورانه حول نفسه ، وبطيئة في دورانه حول الشمس أو العكس ، ومن هنا يأتي الاختلاف ولا مانعَ أنْ يكونَ اليومُ أطولَ من السنة ، وآخر هذه الكواكب بلوتو وجدوا أن يومه يساوي ٦,٥ يوم من أيام الأرض ، وسنته ٢٦٨ يوماً من أيام الأرض .

نفهم من هذا قدرة الخالق سبحانه ، وأن هذا الكون خُلقَ بدقّة وإحكام ليس مصادفةً ، وليس مجرد نظام رتيب مثل القوالب الجامدة ، إنما طلاقة قدرة وقيومية تحرك هذا الكون وتديره بكلّ دقّة وإحكام .

ثم لو نظر الإنسانُ في نفسه لوجد عالماً آخر مليئاً بالآيات ، انظر إلى الناس واختلاف لغاتهم ولهجاتهم وتكوينهم وبصماتهم :
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم]

ولو شاء سبحانه لَجعلَنا على لون واحد ، ولسان واحد ، لكن من حكمته تعالى في الخَلْق أنْ يجمعك بغيرك في شيء متفق ، ثم يُميِّزك عنه بشيء آخر مختلف تماماً .

كنا نعرف في التمييز بين الناس بصمة الإصبع ، الآن وجدوا بصمة للصوت ، وبصمة للفكّ ، وبصمة للرائحة ، كل هذه البصمات تميز الإنسان ، بمعنى أنها لا تتكرر في شخص آخر على كثرة العدد ، أليس هذا إعجازاً في الخَلْق يدعونا إلى الإيمان بالخالق جلّ وعلا ؟

قلنا : من عجائب الخَلْق فى جسم الإنسان أنه لا يحدث فيه استطراقٌ حرارىٌّ كما يحدث فى باقى الأجسام ، فحرارة الجسم العادية ٣٧° تجدها فى الإنسان عند خَطِّ الاستواء وفى الإنسان فى القطب المتجمد ، لأن الجسم يحتفظ فى داخله بهذه الدرجة ، ثم تجد لكل عضو من أعضاء الجسم حرارته المناسبة له كى يؤدى مهمته .

فتتعجب حين تعلم أن العين لا تزيد حرارتها عن ٩° ، فى حين أن الكبد لا تقلّ درجة حرارته عن ٤٠° ، وهما فى جسم واحد متصل ، ومع ذلك لا يحدث فيه استطراقٌ حرارىٌّ فتتعدَّى حرارة الكبد إلى حرارة العين مثلاً .

لذلك كما اهتمَّ الإسلام بتشريع الحلال والحرام وبيانه للناس اهتمَّ بدرجة أكبر ببيان آيات الله الكونية فى كُلِّ أنواع المخلوقات إنسان وحيوان ونبات وجماد .

واقرأ إن شئت : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

هل هنا حكم شرعى فى الصلاة أو الحج أو الصيام ؟ كلها دعوة للنظر وللتأمل فى الكون ، والعلماء هنا هم علماء الكونيات لا علماء الدين ، فهم أعرفُ الناس بآيات الله ، وهم أعرفُ الناس بالله وهم أكثرُ الناس لله خشيةً ، لماذا ؟

---

(١) الجدد : أجزاء وقطع ذات ألوان مختلفة . والجدَّة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

لأنهم وقفوا على آياته بأنفسهم ، فهم أعرفُ الناس بها ، لذلك لم يهمل الدين علماً من العلوم أبداً ، لأن العلم يخدم قضية الإيمان وقضية التوحيد .

الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى القرآن كلَّ هذه الأمثال لنأخذ منها الدليل على وجوده تعالى ، ونأخذ منها صفات القهر والحكمة والعزة والرحمة .. الخ بل نأخذ من الآيات الكونيةَ ما تستقيم به حياتنا وما نُصحِّح به مفاهيمنا عن الأشياء .

فمثلاً خُذْ علاقة الرجل بالمرأة ، البعض يرى أن الرجل ضد المرأة ؛ وأنهما على طرفى نقيض ، فنسمع أنصارَ المرأة ويقابلهم أنصار الرجل وكأنها معركة ، فى حين أننا نقرأ القرآن فنجد قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ [الليل]

فالمخلوقات المتقابلة لا تعنى أنها متضادة ، وإياك أنْ تظنَّ أن الليل ضدُّ النهار ، نعم هو يقابله فى طبيعة الأشياء لكن لا يضاده ، فالليل يساند النهار ويساعده ، والنهار يساند الليل ويساعده فهما متكاملان ، الليل للراحة والنهار للعمل ، وكلاهما مُهم للآخر ، وكلاهما له مهمة فى الحياة ودَوْرٌ .

كذلك الحال فى الذكر والأنثى . إذن : هذه الآية الكونية تُعلِّمنا درساً فى حياتنا الاجتماعية ، وأنه لا داعىَ لكلِّ هذه الضجة حول علاقة الرجل بالمرأة ، وعودوا إلى القرآن ففيه الشفاء ، وفيه حلول كل مشاكلنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾

السيـاق القرآنى هنا ينقلنا من النظر فى آيات السـموات والأرض إلى النظر فى ذات أنفـسنا ، كما قـال سبـحانه : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فالدليل على الوجود الأعلى لا يقـتصـر على آيات السمـاوات والأرض ، فالإعجـاز فى الذرَّة كما هو فى المـجرَّة ، وفى جسم الإنسـان وأعضـائه آيات وعجائب .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن ذلك حين قال :

وَتحسَبُ أنَّكَ جرْمٌ صَغيرٌ وَفيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأكبر[2]

وكلمة ﴿خَلْقِكُمْ .. (٤)﴾ [الجاثية] ساعة تسمع كلمة الخَلْق تفهم منها الإيجادَ من العدم ، كان الشـىء مـعدوماً فأوجده الله ، والخَلْق لا يُطلق على الحدث إنما يُطلق على المخلوق ؛ لذلك قال تعالى : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] فمعنى خَلْق هنا يعنى مخلوق . وبمـعنى الحدث فى ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان]

فقوله : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ .. (٤)﴾ [الجاثية] أى : من الآيات الكونية خلقكم أى البشـر . عملية الخَلْق لهـا مراحل هى التى مَرَّ بها سـيدنا آدم حيث لم يكُنْ مـوجوداً فأوجده الله من العدم ، فكان طـيناً فسوَّاه

---

(١) هو الإمام عـلى بن أبى طالب رضى الله عنه ابن عم رسول الله وزوج ابنـته فاطمـة ورابع الخلفاء الراشدين .

(٢) نص أبياته فى الموسوعة الشعرية من قصيدة من بحر المتقارب من أربعة أبيات

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهو فيها أيضاً من قـول المفتى فتح الله من قصيدة من ٦ أبيات من بحـر المتقارب أيضاً .

وقد توفى المفتى فتح الله عام ١٢٦٠ هجرية .

ونفخ فيه الروح فـدبَّتْ فيه الحياة وصـار إنساناً ، ثم جعل نسله من بعده بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

إذن : فى خَلْقنا مرحلتان مرحلة الخَلْق الأول لأبينا آدم ، ومرحلة البَثِّ والنشْـر عن طريق التكاثر ، لذلك قال سـبحانـه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء]

إذن : لنا خَلْـق من عـدم وبَثٌّ أى نشر ، وانتشـار من التناسل ، أما الدواب فلم يذكر فيها إلا مرحلة البث ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ .. (٤) ﴾ [الجاثية] أى : ينشر ، فأين مرحلة خَلْقها ؟

أولاً : الدابة هى كلُّ مـا يدبّ على الأرض غـيـر الإنسـان ، وفى اللغـة لونٌ من الأسلوب يُسمُّـونه (الاحتـباك)[1] وهو باب من أبواب البلاغة يعرفه المتخصصون فيها .

والاحتباك أن يكون فى الكلام شيئان يُوضح أحدهما الآخرَ ، ويغنى عنه ، وأوضح مثال على ذلك فى القـرآن قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. (١٣) ﴾ [آل عمران]

فقـوله ﴿ وَأُخْـرَىٰ كَافِـرَةٌ (١٣) ﴾ [آل عمـران] دلَّ علـى أن الأولى مـؤمنة ، أى : فئة مـؤمنة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرىٰ كـافرة تقاتل فى سبيل الشيطان ، فدلَّ المذكور على المحذوف بالمقابلة .

---

(١) نقل السـيوطى فى الإتقـان فى علوم القرآن (١/٢٩٩) فى الإيجـاز والإطناب قـال : قال الأندلسى فى شـرح البديعيـة : من أنواع البديع الاحـتباك وهو نوع عـزيز وهو أن يحـذف مـن الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ (١٧١) ﴾ [البقـرة] وتقديرها : ومثل الأنبـياء والكفار كـمثل الذى ينعق والذى يُنعق به .

فالمعنى في قوله تعالى : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ (٤) ﴾ [الجاثية] أتى بالخَلْق في الأولى وترك البث ، وأتى بالبثِّ في الثانية وترك الخَلْق ، وعليه يكون المعنى : وفي خلقكم وما بثَّ منكم ، وفي خلق الدواب وما بثَّ منها .

﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [الجاثية] فالحق سبحانه عرَّفنا كيفية الخَلْق الأول من العدم بخلقه لآدم ، وأخبرنا بمراحل هذا الخَلْق حتى استوى آدمُ إنساناً كاملاً يتحرَّك ويسعى في الأرض ولم يذكر تفاصيل خَلْق غيره لنقيسَ نحن على ما عرفناه .

فلما تكلَّم عن حواء قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١) ﴾ [النساء] يعني : على طريقتها ، كذلك لم يتكلم في خَلْق الدواب لأنها تُقاس على خَلْق آدم .

ولا شكَّ أن المتأمل في خَلْق الإنسان والدوابِّ يجد الكثير من الآيات والمعجزات الدالَّة على طلاقة القدرة للخالق سبحانه ، ففي الخَلْق الأول طلاقةُ قدرة حيث خلق من العدم وعلى غير مثال سابق ، فأوجد آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق منه حواء فكانت من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب ، وخلق عامة الخَلْق من أب وأم .

إذن : طلاقة القدرة استوعبتْ كُلَّ احتمالات المسألة عقلياً ، حتى ولو مرة واحدة ليحدثَ بها الدليلُ والإعجاز وليثبت الحقّ لنفسه سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

والذي يملك العطاء يملك المنع ، فقد تتوافر دواعي الخَلْق والإنجاب لكن لا يحدث ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور

(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

وتعرفون من قصة سيدنا زكريا عليه السلام كيف أنه لم يُنجب حتى بلغ من الكِبر عِتياً ، وكانت امرأته عاقراً حتى إنه يئس من هذه المسألة ، فلما أراد الله أنْ ينجب طَوَّع له الأسباب وبشَّره بولد وأيضاً سمَّاه له .

هذه كلها آياتٌ من آياتِ الخلْق ، وهي كثيرة وممتدة ، ففي كل مرحلة من مراحلها إعجازٌ وقدرة ، بدايةً من اللقاء بين الزوج والزوجة والتقاء الحيوان المنوى الذكرى بالبويضة الأنثوية ، فإنْ تمَّ تخصيب البويضة حدث الحمل وتحوَّل الدم في غذاء للجنين فهو رزقه حتى يُولد ، وإن لم يحدث الحمل نزل هذا الدم في فترة الحيْض .

وهذا يعني أن الخالق سبحانه حين يخلق الإنسانَ يخلق معه رزقه ، فالجنينُ لا يتغذَّى بغذاء أمه إنما بغذائه الخاص ، بدليل أن الأم لا تستفيد بهذا الدم إنْ لم يحدث حمل .

وقوله سبحانه : ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [الجاثية] من اليقين وهو الإيمان والعقيدة الراسخة التي استقرتْ في القلب ، بحيث لا يتطرق إليها شك ، وبحيث لا تطفو إلى العقل ليناقشها مرة أخرى ، فهي عقيدة يعني القلب معقود عليها .

وسبق أنْ بيَّنا هذه المسألة بأن الحواسَّ تنقل المحسَّات والقضايا إلى العقل الذي يُفاضل بينها ويُغربلها ، فما اقتنع به استقرَّ في القلب عقيدةً ومبدأ يسير عليه ويؤمن به بحيث لا يطفو للعقل مرة أخرى .

هذا اليقين درجاتٌ أولها علم اليقين ، وعين اليقين ، ثم حَقُّ

اليقين ، فعلم اليقين حين يُخبرك بالخبر صادقٌ لا تشكّ فى صدْقه ، وعين اليقين حين تراه بعينك ، وحَقُّ اليقين هو أنْ تباشره بنفسك .

وقلتُ : أننا ذهبنا مرة إلى إندونيسيا ، ورأينا هناك أصبع الموز قرابة نصف المتر ، فلما عُدْتُ أخبرتُ أولادى بذلك ، فصار عندهم علم بذلك لأنهم يثقون بى ويعرفون أنِّى لا أكذب .

فلما رأيتُهم مندهشين من الخبر فتحت (الشنطة) وأخرجتُ منها أصابع الموز ، فلما رأوْها صار عندهم عَيْنُ اليقين بهذه القضية ، لكن لعله شيء آخر غير الموز أو نموذج من مادة أخرى ، فأخذنا الموز وقطَّعناه وأكلنا منه فتحوَّلت المسألة إلى حق اليقين .

وهذه المراحل الثلاث ذُكرَتْ فى القرآن الكريم فى سورة التكاثر : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾ [التكاثر] وفى سورة الواقعة : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٩٦ ﴾ [الواقعة]

﴿ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ[1] ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ ﴾

---

(١) تصريف الرياح : تحويلها من جهة إلى جهة . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة صرف] : تصريف الرياح جعلها جنوباً وشمالاً وصَباً ودبوراً فجعلها أنواعاً وضروباً فى أجناسها .

أى : من آياته الكونية الدالة على قدرته تعالى اختلافُ الليل والنهار ، وفى آيات أخرى عرفنا أن الليل وحده آية والنهار وحده آية ، والكلام هنا عن اختلاف الليل والنهار ، ومجرد اختلافهما آية من آيات الله .

فالليل والنهار مختلفان من عدَّة وجوه : مختلفان فى ظلمة الليل ونور النهار ، ومختلفان طولاً وقصَراً ، وكذلك مختلفان فى المهمة ، وهما ظرفان لزمن الأحداث ، وقد يطول الليل ويقصر النهار ، أو يطول النهار ويقصر الليل ، ثم يتساويان فى المدة .

فمثلاً نجد الليلَ يطولُ فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، وهذا لحكمة ، فنحن نعمل طوال يوم الشتاء حيثُ اعتدال الجو الذى يساعد على العمل ؛ لذلك نحتاج إلى فترة أطول للراحة ، فنجد ذلك فى ليل الشتاء الطويل .

ثم لو نظرتَ إلى الليل والنهار بصورة أوسع تشمل الكرةَ الأرضية كلها وجدتَ أنهما مُتداخلان ، فالنهار عندك ليلٌ عند غيرك ، والليل عندك نهارٌ عند غيرك ، فهما موجودان معاً ، لكن فى أماكن متباعدة من الأرض .

وهكذا تجد كلَّ لحظة من لحظات الزمن يبدأ فيها ليلٌ وينتهى نهار ، أو يبدأ فيها نهارٌ وينتهى ليل ، إذن : هى حركة دائرة لا تنتهى ، ومواقيت مختلفة فى الزمن كله .

فلو أخذنا مثلاً الأذان لوجدناه يدور فى كلِّ لحظة من لحظات الزمن بكلِّ لفظ من ألفاظه ، ففى اللحظة التى تقول فيها (الله أكبر) غيرك يقول (أشهد ألا إله إلا الله) وغيرك يقول (أشهد أن محمداً

رسول الله) وهكذا .

والأمر كذلك فى الصلاة ، فحين تُصلى الظهر ، غيرُك يصلى العصر ، وغيرُك يصلى المغرب ، وآخر يُصلى العشاء فى اللحظة ذاتها . إذن : نستطيع أنْ نقول بوجود كلِّ الأوقات فى كلِّ الأوقات ، وأن الحق سبحانه يُعبد فى كلِّ لحظة بكلِّ أنواع العبادات ، وأن ألفاظ الأذان دائرةٌ فى سَمْع الدنيا كلها ، تستوعب كلَّ الزمان وكلَّ المكان .

وهذا كلُّه من اختلاف الليل والنهار طُولاً وقِصَراً ، والطول والقِصَر ناتج عن حركة الشمس ، وهذه مسألة أخرى تحتاج إلى دقّة فى الملاحظة ، فالشمس حين تشرق عندك تغيب عند غيرك ، فكلٌّ مشرق عند قوم مغربٌ عند آخرين .

وهذه تفسر لنا قوله تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن] فقال مشرقين ومغربين ، لأن المشرق عندك مغرب عند غيرك فى نفس الوقت .

فإذا نظرتَ إلى امتداد الزمان فى جزئياته الدقيقة بالثانية وجدتَ مشارق ومغارب ، كما قال سبحانه : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. ۝٤٠﴾ [المعارج] فإذا نظرتَ إلى المكان الواحد وجدتَ مشرقاً ومغرباً ، وقد قال سبحانه ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. ۝٩﴾ [المزمل] إذن : فهو صادق فى كُلِّ ما أخبرنا به سبحانه .

ومن آيات الليل والنهار أيضاً أن الله جعلهما خِلْفة ، يعنى : الليل يخلُف النهارَ والنهارُ يخلُف الليلَ ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان]

وقد فهمنا من هذه الآية أن الأرض كُروية ، فهذه النظرية العلمية الحديثة أثبتها القرآنُ وسبق بها ، فمعنى أن الليلَ والنهار خلفةٌ أن الأرض مثل الكرة بحيث فى الخلْق الأول خُلقت الأرض مواجهةً فى ناحية منها للشمس .

فكانت هذه الناحية النهار والمقابلة لها الليل ، إذن : خُلقَ الليل والنهار معاً ، ووُلدا معاً ، ثم لما دارتْ الأرضُ خلفَ الليلُ النهارَ ، وخلفَ النهارُ الليلَ ، ولو لم تكن الأرض مُكوَّرَة ما حدث هذا .

وهذه الحقيقة أكَّدها الحق سبحانه بصورة أوضح فى قوله تعالى : ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] لأن العرب كانوا يعتقدون أن الليل أسبقُ من النهار ، لذلك كانوا يُؤرِّخون للمناسك بدورة القمر ، فالشمس نعرف منها اليوم ، والقمر نعرف منه الشهر ، ومن الشهر تكون السنة .

كذلك رمضان يثبتُ بليله لا بنهاره ، لأنه يعتمد على ظهور الهلال ؛ لذلك اعتقدوا أن الليلَ أسبقُ من النهار فصوَّب لهم القرآن هذا الاعتقاد فقال : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [يس] فوافقهم فى أن النهار لا يسبق الليل وعدَّل لهم ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

إذن : خُلقا فى وقت واحد ، وهذا لا يكون أبداً إلا إذا كانتْ الأرضُ مكوَّرةَ . فلا سبْقَ لأحدهما على الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴿٥﴾﴾ [الجاثية] أنزل الله من السماء آيات كثيرة منها المادى ومنها المعنوى ، المعنوى هو الكتاب الذى أنزله على رسول الله

لهداية الخلق ، والمادى مثل المطر وسماه رزقاً لأنه سببُ الرزق حين ينزل على الأرض فيُحييها بالنبات والثمار .

وكل رزق جاء من جهة العلو الخالقة فهو مُنزَّل ، حتى لو كان فى باطن الأرض ؛ لذلك قال سبحانه عن الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] لذلك جعله اللهُ أداةً لإثبات قدرته تعالى للمعاندين للدين ، فقال فى ختام الآية : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ .. (٥) ﴾ [الجاثية] معلوم أن السماء ليستْ محلاً للماء ، الماء فى السحاب وهو كما قلنا ضاحية من ضواحى الأرض وتابعٌ لها ، أما السماء فشىء آخر أبعد من أنْ يتصوَّره العقل ، والمراد : من جهة السماء .

والمتأمل فى دورة الماء فى الطبيعة يجد أنه فى الأرض حيث ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماء ، وغالبه الماء المالح ، وهذا لحكمة أنَّ نسبة الملح فى الماء تحفظه من التغيُّر والعطن ، وبالبخر تتكوَّن السُّحُب وينزل المطر يحمل الماء العَذْب الصالح للشرب وللزراعة وغيرها .

ومن آيات الله فى الماء أنْ تتسعَ رقعة الماء المالح لتتسع رقعة البخر ، وبالتالى تزيد مساحة تبخُّر الماء العَذْب الذى يكفى بعد ذلك لحياة الأحياء على الأرض ، ثم تجد مُلوحة الماء فى البحار والمحيطات بالقدر المناسب الذى يحفظ الماء من الفساد ويسمح بمعيشة الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى .

ولو زادتْ الملوحة عن هذا الحد لماتتْ فيها الثروة السمكية ، كما نجد مثلاً فى البحر الميت ، حيث تزيد فيه نسبة الملوحة لأنه مُغلَق

ولا يأتيه مَددٌ من روافد أخرى تُقلِّل من ملوحته .

ولنعرف قدرة الله في إنزال الماء العذب من السحاب هذا الماء الذي يكفي للشرب ولزراعة الأرض ، انظر كم تتكلَّف زجاجة الماء المقطر حين تُعدُّها في المعمل ، هذا الماء ينزل لك من السماء عَذْباً صافياً زلالاً[1] دون مجهود منك ودون نفقات .

هذا الماء في حَدِّ ذاته آية من آيات الله ، لأن به تكون الحياة ، لذلك سمَّاه القرآن رزقاً ، البعض قال : يعني سبب في الرزق والبعض قال : لا بل هو نفسه رزق ، هو سبب في الرزق حينما نروي به الزرع ، لكن هو رزقٌ حينما نشربه أو نُدخله في الطعام .

وقوله : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ..(٥)﴾ [الجاثية] وهذه آية أخرى ، والأرض الميتة هي الجرداء القاحلة التي لا نبْتَ فيها ، فالله يُحييها بالنبات كما قال في آية أخرى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[2] .. (٥)﴾ [الحج]

ثم ينتقل إلى آية أخرى ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (٥)﴾ [الجاثية]

تصريف الرياح يعني : تغيير اتجاهها من هنا إلى هناك ، أو تغيير أحوالها ، فهي مرة نسيم لطيف ، ومرة ريح عاصف ، ومرة تكون حارة ، ومرة باردة ، مرة مُعمِّرة ومرة مدمرة . هذه كلها أحوال للرياح يُصرِّفها خالقها عز وجلّ كيف يشاء ، ولا يُصرِّفها غيره .

---

(١) الماء الزلال السريع النزول والمرّ في الحلق . وماء زلال : بارد . وقيل : عذب . وقيل : صاف خالص . وقيل : الزلال الصافي من كل شيء . [لسان العرب - مادة : زلل] .

(٢) اهتزت وربت : شبَّه الله الأرض التي تهيأت لإنبات الزرع بالإنسان الحي يهتز وينشط ويتحرك حركة الحياة والعمل لإنتاج الخير أو بذل المعروف .

وحين تُدقِّق وتتأمل فى عملية تصريف الرياح تجد فيها مظهراً من مظاهر الإعجاز للخالق سبحانه ، انظر إلى هذه الأبراج وناطحات السحاب ، واسأل نفسك مَنْ يقيم هذه الأبنية العملاقة ؟ ومَنْ يسندها فلا تميل رغم هبوب العواصف عليها ؟

الذى يسندها هو الهواء الذى يحيط بها من كُلِّ ناحية ، ولو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب الفارغ من الهواء .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ توازنها ، لذلك ساعة تجد القرآن يستعمل كلمة (الريح) بصيغة الجمع فاعلم أنها للعَمَار وللخير ، وساعة تكون مفردة فهى للدمار وللخراب .

الريح الواحدة تُدمر ، والرياح تسند وتُعمر ، لأن هذه تأتى من ناحية واحدة ، وهذه تأتى من جميع النواحى فتحدث التوازن المطلوب .

واقرأ هنا فى سياق الحديث عن آيات الله وتعداد نعمه : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. ۝٥ ﴾ [الجاثية] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ۝٢٥ ﴾ [الأحقاف] وقال : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ[1] الْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ ﴾ [الجاثية] لأن العقل هو الذى يستقبل الأحداث ويناقشها ويُفاضل بين القضايا ، ويستخلص منها الحقَّ ، ويُلقيه إلى القلب فيصير عقيدةً راسخة لا تقبل الشَّكَّ .

---

(١) الريح العقيم : الريح التى لا خير فيها بل هى تهلك وتدمر [القاموس القويم ٢ /٣١] وقال فى لسان العرب : هى ريح لا تلقح الشجر ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً . [مادة عقم] .

ورحم الله الفخر الرازى[1] الذى أجرى مقارنة علمية دقيقة بين هذه الآيات فى الجاثية بداية من قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الجاثية] إلى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)﴾ [الجاثية] وبين الآية ١٦٤ من سورة البقرة :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة]

أولاً وجد الاختلافَ الأول بين الموضعين أن الجاثية فيها ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(٣)﴾ [الجاثية] أما البقرة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٦٤)﴾ [البقرة] وهما بمعنى واحد ، لأن الخَلْق حدثُ الإيجاد ، فالحدث نفسه يسمى خَلْقاً ، ويطلق أيضاً على المخلوق بدليل قوله تعالى : ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ (١١)﴾ [لقمان] أى : مخلوقه .

إذن : المعنى فى الموضعين واحد .

ثانياً : عدَّ الآيات الكونية المذكورة فى الجاثية فوجدها ست آيات ، وفى البقرة ثمانى آيات ، فلما بحث الزيادة فى البقرة وجدها فى قوله تعالى : ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ.. (١٦٤)﴾

---

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، إمام مفسر ، قرشي النسب ، ولد ٥٤٤ هجرية ، أصله من طبرستان ومولده فى الرى (هى طهران الآن) توفى فى هراة عام ٦٠٦ هجرية ، له تفسيره (مفاتيح الغيب) و (معالم أصول الدين) و (محصل أفكار المتقدمين) .

[البقرة] ﴿ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

فقال : هاتان الآيتان فى الفلك وفى السحاب أغنى عنهما قوله تعالى فى الجاثية ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ (٥) ﴾ [الجاثية] لأنهما يجريان بحركة الرياح .

الاختلاف الأخير بين الموضعين أن آية البقرة خُتمتْ بمقطع واحد هو ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة] أما آيات الجاثية ففيها ثلاثة مقاطع هى : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الجاثية] ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [الجاثية] ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ [الجاثية]

المؤمن ساعة يسمع من الله يُصدِّق ويؤمن بما أخبر الله به ، واليقين يكون لدى طالب الحقيقة الذى يبحث عنها فى قضية علمية يريد أن يصل إلى اليقين من خلالها .

والإنسان إذا لم يكُنْ مؤمناً واثقاً ولا طالباً للحقيقة فلا أقلَّ من قَدْر من العقل يُميِّز به بين الأشياء ، ويعرف به ماذا يأكل ؟ وماذا يشرب ؟ وماذا يأخذ ؟ وماذا يدع .

إذن : هذه المقاطع الثلاثة تمثل مراحلَ الإدراك السليم . والتعقُّل هو أدْنى مرتبة ، لذلك خُتمَتْ بها آية البقرة[1] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

---

(١) قال الرازى بعد عقد المقارنة : انه تعالى ذكر فى سورة الجاثية ثلاثة مقاطع أولها (يؤمنون) وثانيها (يوقنون) وثالثها (يعقلون) وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل .

﴿ تِلْكَ .. ⑥ ﴾ [الجاثية] إشارةٌ إلى آيات القرآن ، أو إلى الآيات الكونية التى سبقتْ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. ⑥ ﴾ [الجاثية] والحق كما قلنا هو الشيء الثابت الذى لا يتغيَّر ويقابله الباطل ، الحق هو الحكم بقضية مطابقة للواقع ، والباطل الحكم بقضية مخالفة للواقع .

لذلك قلنا : إن شاهد الحق لا تتغيَّر أقواله مهما أعدْتَ عليه السؤال ، أما شاهد الزور فهو لا بدَّ أنْ يُغيِّر فى أقواله ، ذلك لأن شاهد الحق يُصوِّر واقعاً فيأتى واحداً لا يتغير ، وشاهد الزور يُصوِّر أوهاماً وتخيُّلات فلا بدَّ أنْ تتغيَّر .

لذلك الحق سبحانه يريد منَّا أنْ نأخذَ بالحقِّ ، وأن نجعله مقياساً للأشياء كلها كما نتخذ المتر مثلاً وحدةً للقياس ولا نخرج عنها .

يريد منا أنْ نحكم بالحقِّ وأنْ نجعله أساساً فى بناء الأشياء ، فالساعة لا تضبط لك التوقيت إلا إذا كانتْ هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك قال تعالى فى آيتى الشمس والقمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ ﴾ [الرحمن] يعنى : مخلوقان بحساب دقيق ، ولأنهما خُلقا بحسبان جعلهما الله تعالى آلةً لحساب الزمن ، فالشيء الذى تعتبره مقياساً لا بدَّ أنْ تقيسه أولاً على الحق وتُقيمه على الحق .

لذلك أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض بالحقِّ ، فهى تسير بميزان دقيق محكم لا يتخلف أبداً منذ خلق اللهُ هذا الكونَ وإلى قيام الساعة .

وقلنا : لأن الحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغيَّر فهو الباقى ، وهو المنتصر ، وهو الذى يعلو فى نهاية الصراع ، وإنْ علاَ الباطل فلحين وليعطىَ فرصةً للباطل حتى يعضَّ الناس ويَشْقى به المجتمع فيعود الناسُ إلى ساحة الحق .

لذلك نقول : إن الباطل جندىٌّ من جنود الحق ، وإذا كان الإسلامُ قد عَلاَ فى جزيرة العرب لإعجاز القرآن ، فكيف علاَ وانتشر فى بلاد فارس والروم .

قالوا : لأنهم كانوا فى ذلك الوقت مقهورين بالباطل ، فلما رأوا عدل الإسلام وسماحته أسرعوا إليه ؛ لذلك فتح الإسلامُ نصف الدنيا فى نصف قرن من الزمان ، لأن الناسَ كانت مُتشوِّقة إلى مثل هذا الدين الحق .

والحق سبحانه يريد أنْ يعطينا صورة محسوسة تُصوِّر الحق وتصور الباطل فى لوحة واحدة ، فيقول عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وقوله سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية] يعنى : إذا لم تقنعهم كلُّ هذه الآيات الكونية وكلُّ هذا

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ٢٨٣/١] .

(٢) فيذهب جفاء : أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . [تفسير ابن كثير ٥٠٨/٢] .

الإعجاز ، وإذا لم يقنعهم كلام الله فبأىٍّ شىء يؤمنون بعد ذلك . إذن : المسألة بالنسبة لهم عناد ولَدد ، فإذا لم يُقنعهم حديثُ الله فأىُّ حديث بعده يقنعهم .

ونسألهم : أهناك حديث أصدق من حديث الله ؟ أو إخبار أصدق من إخباره ؟ إنه سبحانه يتودَّد إليكم ببيان آياته فى كونه لتؤمنوا وليأخذ بأيديكم إلى ساحة الإيمان وهو الغنى عنكم ، فقط يحرص عليكم لأنكم عباده وصَنْعته ويريدكم فى أحسن حال .

لذلك أرسل لكم الرسل ، وانزل لكم الكتب ، وبيَّن لكم الحلال والحرام والحق والباطل فَلِمَ اللدد ؟ ولِمَ العناد فى الإيمان ؟

مع أن الإيمان بالله شَرَفٌ ، والعبودية له سبحانه عزة ، كلمة عبودية كلمة ممقوتة تدل على الذلة والانكسار ، أما مع الله فهى شرف وكرامة وعزة .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ ﴾

كلمة (ويل) قالوا : وَاد فى جهنم ، أو هلاك لا مفرَّ منه ولا نجاة ، وكلمة الويل تختلف حَسب قائلها المنذِر بها ، فحين يقول لك واحد مثلك : ويلٌ لك . تتوقع أن يكون الويل على قدره ، ويتناسب مع قدرته عليك ، وتمكّنه من تنفيذ ما هدَّدك به من بطشه وفتكه .

فإذا كان المتكلم بذلك التهديد هو الحق سبحانه فهمنا أنه هلاكٌ مُحتَّم لا قِبَلَ لأحد به ، وويل كبير لا يُردُّ ولا يُدفع .

فلمَن هذا التهديد ؟ ﴿ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ .. ۝٧ ﴾ [الجاثية] الأفَّاك من الإفك ، وهو قَلْب الشيء على وجهه أو قلْب الحقائق عَمْداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ ﴾ [النجم] وهي القرى التي قَلَبها الله تعالى رأساً على عقب وجعل أعلاها سافلها .

ومن ذلك أيضاً قصة الإفك في حَقِّ السيدة عائشة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ .. ۝١١ ﴾ [النور] إذن : الإفك هو أفظع أنواع الكذب ؛ لأنه كذب متعمد يصرف الناسَ عن الحق إلى الباطل .

وهو لا يضر واحداً ، إنما يقع ضرره على جَمْع من الناس فشرُّه يتعدَّى ويلزمه عقوبة تناسب هذا التعدِّي على الخَلْق ، لذلك ساعة تسمع كلة (ويل) فاعلم أنها لذنب كبير .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ .. ۝٧ ﴾ [الجاثية] صيغة مبالغة على وزن فعَّال ، ولو كذب مرة واحدة لكان (آفِك) إنما تكرر منه هذا الذنب حتى بالغ فيه ومثله في المبالغة ﴿ أَثِيمٍ ۝٧ ﴾ [الجاثية] يعني : كثير الإثم . فهي صيغة مبالغة أيضاً على وزن فعيل . أي : مُبالغ في الآثام . تقول : آثم وأثيم . مثل : عالم وعليم .

فالمرء لو فهم علماً من العلوم سُمِّي عالم ، أما عليم فيعني العلم في ذاته ، لذلك لا تُقال إلا لله تعالى ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [يوسف] فكأن هذا الآثِم قد تمرَّس في الإثم حتى صار طبعاً له وديدناً .

ثم يصف الحق سبحانه هذا الأفاك الأثيم ، فيقول : ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا .. ⑧ ﴾ [الجاثية] كأن الحق سبحانه يريد أنْ يُعرفنا الإفك على حقيقته ، فالكذاب يكذب على مثله ، أو يكذب على أسرة أو جماعة ، لكن هذا يكذب على الدنيا كلها حين يُزوِّر الحقائق ويقلبها وهو متعمد .

وهذا معنى ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا .. ⑧ ﴾ [الجاثية] ولذلك فى القانون يقولون مع سَبْق الإصرار والترصُّد ﴿ مُسْتَكْبِرًا .. ⑧ ﴾ [الجاثية] أى : متعالياً على الحق .

وفى الحديث الشريف « الكبر بَطر الحقِّ ، وغَمْط الناس[1] » فهو يتكبَّر لأنها تأتى له أى الآيات بواسطة من كان يعتقد أنه دونه ، وبذلك اعتدى على الحق واعتدى على مُحقٍّ ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ㉛ ﴾[الزخرف]

إذن : المشكلة عندهم ليستْ فى القرآن ، لأنهم أهل فصاحة وبلاغة ويعلمون إعجاز القرآن وصدْقه لكن يحسدون الرجل الذى جاء القرآنُ على يديه ، يقيسونه بمقاييس الجاه والثراء عندهم .

فالرسالة فى نظرهم ينبغى أنْ تأتىَ على يد رجل غنى من عظماء القوم وأهل السيادة ، وهذا عجيبٌ منهم لأن رسول الله ﷺ كان له مكانة عظيمة بينهم قبل البعثة ، وكانوا يتحدثون بصدقه وأمانته ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) باب تحريم الكبر من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ (غمط الناس) وعند أبى عوانة (حديث ٦٨) (غمص الناس) وفى مسند الشاميين (حديث ٧٢٨) (غمض الناس) بالضاد . والغمص إذا لم يشكر النعمة واستصغر الشيء واحتقره ولم يره شيئاً ، ومثله غمط . [الصحاح فى اللغة] .

بدليل أنهم حكَّموه[١] فى أمر الحجر الأسود حينما أرادوا وضعه فى مكانه واختلفوا عليه ، فالتناقض فى مواقفهم نحوه ظاهر ، كانوا يقولون عنه ساحر وكاهن وكذاب وشاعر ، فلما فَتَر عنه الوحى قالوا : إن رب محمد قلاه[٢] .

وقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية] معلوم أن البشارة إخبارٌ بخير قبل أوانه ، وسمَّاها بشارة لأنها تُظهر البِشْر والسعادة على الوجوه ساعة تسمع خبراً يسرُّك ، فاستخدام البشارة فى العذاب تكون على سبيل التهكُّم والسخرية وهى لَوْنٌ من ألوان العذاب والإهانة ، مثل رجل كان يحثُّ ولده على المذاكرة والجد ، ولكن الولد خالف أوامر أبيه ، فلما ظهرتْ النتيجة وجد ولده راسباً فقال له : أبشر لقد رسبت ، يريد أنْ يتهكَّم به ويعاقبه على إهماله .

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

لأنه بعد أنْ أصرَّ على الإعراض عن آيات الله ، وبعد أنِ استكبر عليها لا بدّ أنْ يعود فى لحظة ما إلى نفسه ويُعمل عقله فيما يسمع

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٢٧٣/١) قالوا : نُحكِّم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم .

(٢) ذكره الطبرى فى تفسيره من قول قتادة فى قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد قلاه ربه وودَّعه . وكذا ذكره عن الضحاك .

فيصله بعض العلم عن آيات الله ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ..(٩) ﴾ [الجاثية] جعلها مجالاً للسخرية والاستهزاء ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) ﴾ [الجاثية] وقبل ذلك بشَّره رب العزة بأن له عذاباً أليماً .

وهذه ألوان مختلفة من العذاب والعياذ بالله ، فالعذاب الأليم الذى يُؤلم الحواسَّ ويُوجع وتتألم له المادة والأعضاء ، وهذا غير العذاب المهين ، فالجهة كما يقولون مُنفكَّة ، والعذاب المهين هو عذاب النفس حيث يُهينها ويُذلّها ويهدم كرامتها ، لأن بعض الناس قد لا يُؤلمه الضرب الحسِّى ولكن يُؤلمه أنْ تجرح كرامته ولو بكلمة .

وهناك فى آيات أخرى (عذابٍ عظيم) يعنى : مبالغ فيه ، وهكذا جمع عليهم الحق سبحانه كلَّ ألوان العذاب جزاء استكبارهم ولددهم وعنادهم فى آيات الله ، وهى أوضح من أنْ ينكرها منكر .

وهنا استخدم المصدر ﴿ هُزُوًا (٩) ﴾ [الجاثية] ليدل على المبالغ ، وأن الاستهزاء أصبح صفةً لازمة له لاصقة فيه كما نقول : فلان عادل ، وفلان عدل كأنك جعلْتَه هو والعدل شيئاً واحداً .

وفى الآية دليلٌ على أن الإنسان إذا تجرَّد للحق وأخْلى فكره ثم فكَّر بعقله فى الأشياء بموضوعية لا بدَّ أنْ يصلَ إلى الخيط الذى يُوصِّله إلى الحق ، فالعودة الصادقة إلى النفس تُؤدى إلى الحق .

لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الناس كيفية التفكير السليم وكيفية البحث عن الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..(٤٦) ﴾ [سبأ] يعنى : اتركوا

تفكير الجماهير وتعصُّبهم لأنه غير مُنظم ، يؤدى إلى فوضى يتوه فيها الحق .

والفكر عمل العقل ، والعقل هو السلطان الذى يعصمك من الآراء الضالة ويُرشدك ويأخذ بيدك إلى الحق ، والعقل حتى فى اسمه من العقال الذى يعقل الدابة حتى لا تشرد من صاحبها ، كذلك العقل يعقل صاحبه .

إذن : هؤلاء لما عادوا إلى أنفسهم واستعملوا عقولهم عقلوا ووصلوا إلى شىء من الحق ، لكن كبرياءهم وعنادهم منعهم من اتباعه ، وأدلُّ شىء على ذلك قول بعضهم لبعض : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

ولولا أنهم واثقون من صدق القرآن وتأثيره فى النفوس ما قالوا هذا الكلام ، لكن أسلوب القرآن أسَرهم وتغلغل فى أعماقهم ، ولو تركوا أنفسهم على طبيعتها لآمنوا ، لكنهم استقبلوا القرآن بنفوس تملؤها نوازع الشر وحُب الانفلات من قيود المنهج الحق الذى أتى به هذا القرآن .

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ﴾

كلمة (وراء) فى اللغة لها معان متعددة ، أوضحها فى المعنى قوله ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. (١٨٧) ﴾ [آل عمران] يعنى : خلف ظهورهم . وهذا هو المعنى المشهور لكلمة وراء .

لكن تأتى بمعنى الشىء الذى سيأتيك فى المستقبل كما فى هذه

الآية ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ .. ⑩ ﴾ [الجاثية] فهى تنتظرهم فى المستقبـل .

وتأتى (وراء) بمعنى أمام[1] كما في قوله تعالى فى آية الكهف : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ⑦⑨ ﴾ [الكهف] فأحداث القصـة تقول أن الملك كان ينتظرهـم على الشاطئ ليسـتولى على كل سفينة صالحة فهو أمامهم لا وراءهم .

والوراء هو الشيء الذى يـوجـد دونه مـا يُواريه ، والذى يُوارى العلم إما حجـاب الزمان وإما حجاب المكان ، فـنحن مثلاً نجلس الآن فى مكان واحد ، ويرى كلٌّ منا الآخـر لكنَّا لا نرى مَنْ هو خارج هذا المكان ، فالذى يواريه عنا إذن حجاب المكان .

ولما أحـدثك عن المستقـبل تجد الزمن المستـقبل أيضاً محـجوباً عنك بحجـاب الزمن المستقـبل ، كذلك فى الزمن الماضـى حجـبه عنك حجاب الزمن الماضـى .

وعِلْم الحق سبـحانه يخرق كلَّ هذه الحـجُب ، والزمن عنده سواء الماضـى أو الحـاضـر أو المـستقـبل ، لذلك يأتى بالماضـى ، ويتـحدث عنه كأنه حاضـر ، ويقول سبحانه مـخاطباً نبيه مـحمداً ﷺ : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[2] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ④④ ﴾ [آل عمران]

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير [الكهف ٧٩] : فيه قولان :
أحدهما : امامهم . قاله ابن عباس وقتادة وأبو عبيدة وابن قتيبة .
الثـانى : خلفهم . قـال الزجاج : وهو أجـود الوجـهين . فـيجـوز أن يكون رجوعـهم فى طريقهم كان عليه ولم يعلموا بخبره فأعلم الله تعالى الخضر خبره .

(٢) الأقلام : سهام الاقتراع . وهو جمع قلم : سهم أو خـشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقداره يُعطى لمن يخرج باسمه . [القاموس القويم ٢/١٣٢] .

لذلك يخرق حجاب الزمن المستقبل كما فى قوله سبحانه فى الصراع بين فارس والروم : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ..﴿٤﴾ ﴾ [الروم] لأن المسلمين حزنوا لانتصار فارس على الروم .

فالفرس كانوا مجوساً ليس لهم علاقة بالسماء ، أما الروم فكانوا أهلَ كتاب ، ويؤمنون بالرسل ، فكان حَظُّ الإسلام أنْ ينتصر الرومُ فبشَّرهم الله بذلك الانتصار قبل أنْ يحدث ببضع سنين ، والبضع فى اللغة من ثلاث إلى تسع سنين .

فالحق يخبر نبيه بأحداث المستقبل فى قرآن يُتلَى ويُتعبَّد به فى كلِّ صلاة ، فكيف يُعلن الرسولُ هذه البشارة ويسمعها الناسُ فى فارس وفى الروم ؟ إذن : يعلنها وهو واثق أنها حَقٌّ وصدق ، ولا بدَّ أنْ تتحقق .

هذا خَرْق لحجاب المستقبل ، وفعلاً بعد بضع سنين انتصر الروم على فارس ، وصادف ذلك انتصارَ المسلمين على الكافرين فى بدر ، فقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ..﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

فقوله سبحانه : ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : تنتظرهم فى المستقبل ، فهى أمامهم وهذا من خَرْق حجاب الزمن المستقبل .

﴿ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا ..﴿١٠﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : لا يدفع عنهم شر ما هم فيه بسبب ما اكتسبوه فى الماضى من عبادة الأصنام وتأليه لخَلْق الله ، وهل يغنى الصنم عن عابده وهو الذى صنعه ؟ وهو الذى يقيمه إذا قلبه الهواء وأطاح به ؟ كذلك مَنْ

عبدوهم من البشر سوف يسبقونهم إلى جهنم . إذن : لا ناصرَ لهم ولا دافعَ عنهم .

واستخدم هنا الفعل المجرد (كسب) فى الشر ، ولم يقل اكتسبوا . وسبق أنْ بينَّا أنَّ كسب للخير واكتسب للشر ، لأن الخير والطاعة تأتى طبيعية لا افتعال فيها ، على عكس المعصية فهى تحتاج إلى افتعال واحتيال .

ولا تُستخدم (كسب) فى الشر إلا إذا أصبح الشرُّ عادة وأخذ عند صاحبه حكم الكسب ، فلم يَعُد يأنف منه وهَانَ عليه أنْ يقع فيه مرة بعد مرة حتى أصبح الشر عادته .

فقال ﴿مَّا كَسَبُوا .. ﴿١٠﴾﴾ [الجاثية] أى : من الشر ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الجاثية] أى : الآلهة التى عبدوها من دون الله ، كذلك هى لا تُغنى عنهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الجاثية] فالأمر لا ينتهى عند خذلانهم وعدم الدفاع عنهم ، بل ولهم عذاب عظيم . يعنى : شديد ومُبالغ فى الإيلام .

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿هَٰذَا .. ﴿١١﴾﴾ [الجاثية] إشارة إلى الهدى ، وهو المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ﷺ فى هذا القرآن ، والهدى هو الذى يهديك يعنى يدلُّك على الطريق الموصِّل للغاية من أقرب الطرق وأسهلها وأكثرها أمناً دون مشقة على النفس .

وفى أول سورة البقرة ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ۝٥﴾ [البقرة] فكأن الهدى مَركب يحملك إلى غايتك ، ودابة تسير بك حتى تنجيك .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ۝١١﴾ [الجاثية] قال (ربهم) مع أنهم كافرون به ، لأنه تعالى رَبٌّ يتودَّد إليهم حتى مع كفرهم وجحودهم ، وهذا كما قلنا عطاء الربوبية الذى لا يُفرِّق بين مؤمن وكافر فيعطى الكل ويتحنَّن إلى الجميع ، فهم جميعاً عباده وصَنْعته .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ [الجاثية] مرة يقول : عذاب أليم ، ومرة ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ [الجاثية] والرجز هو أشد ألوان العذاب ، والعذاب إيلام الحىِّ .

وكلمة (العذاب) هذه حلَّتْ كثيراً من الإشكالات بين العلماء ، حيث قال البعض : إنه لا يوجد رَجْم فى القرآن إنما يوجد الجَلْد ، واستدلوا بقوله تعالى فى الأمة : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ۝٢٥﴾ [النساء]

الكلام هنا على الحد يُقام على الحرَّة وعلى الأمَة ، معنى المحصنات يعنى : الحرائر ، فقالوا : إن الرجم لا يُنصَّف والذى يُنصَّف هو الجَلْد ، تُجلد هذه مائة ، وهذه خمسين ، وما دام الرجم لا يُنصَّف . إذن : فى الآية كلام .

ونقول : قد يكون كلامكم صحيحاً إذا قال تعالى ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. ۝٢٥﴾ [النساء] وسكت ولكنه قال بعدها ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. ۝٢٥﴾ [النساء] والعذاب إيلامُ الحىِّ ولكن الرجم إماتة . إذن : إيلامُ الحىِّ فى أنْ يُجلد ، إنما الرجم يذهب بالحياة فلا تتعذب .

بدليل أن الحق سبحانه لما تكلم عن هدهد سيدنا سليمان - عليه السلام - قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح .

ومعنى ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١١) ﴾ [الجاثية] يعنى : ستروها وجحدوها ، إذن : هى موجودة لكنهم أخفوْها ، ومثله كفروا بالله يعنى : ستروا وجوده سبحانه ، فالسَّتْر لا يكون إلا لموجود أولاً ثم يُستر ، فكأن الإيمانَ موجودٌ وأصله فى النفس ، ثم يأتى الكفر فيستره .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

التسخير يعنى التذليل وأن يكون المسخّر رَهْنًا لخدمة المسخّر له ، وزمان كان فى مصر نظام السُّخرة ، وهو أنْ يعملَ العمال بدون أجر ، فالحق سبحانه سخَّر لنا البحر وذلّله لخدمتنا ، ولولا ذلك ما استطعنا أبداً ركوبه ، ولا السير فيه ولا الانتفاع به .

ومن تسخير البحر ما عرفناه من قصة سيدنا موسى لما ألقتْه أمه فى البحر تنفيذاً لأمر الله ، قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

إذن : صدرت الأوامر إلى البحر أن يلقيه بالساحل ، وألاَّ يأخذه إلى الداخل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

فالحق سبحانه كما يأمر العاقل يأمر الجمادات فتأتمر وتطيع ،

لذلك قال عن السماء : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] ۝ ﴾ [الانشقاق]

والتسخير تكليف الشيء تكليفاً قهرياً أنْ يكونَ في خدمة الخليفة وهو الإنسان ، فالكون كله مُسخَّر له . يعني : يطيعه ويأتمر بأمره ، ومن هذا التسخير سخَّر للإنسان جوارحه تُطيع مراده وتنفعل لإرادته انفعالاً تلقائياً سهلاً لا تكُّلفَ فيه

فاللسان ينطق بلا إله إلا الله لمجرد أنْ أردت ذلك وينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله أيضاً لمجرد الإرادة ، اليد والعَيْن والرِّجْل ، وكلُّ جوارحك لا تعصى لك أمراً ، تنفعل لك من حيث لا تدرى لأن خالقها سخَّرها لك وذلَّلها لخدمتك .

وقال لها : أطيعى عبدى ، لأننى أريد أنْ أحاسبه بعد أنْ أعطيه الاختيار في أنْ يفعلَ أو لا يفعل ، ولو كان الإيمانُ قهراً لقهرتُه عليه كما قهرتُ الملائكة ، لكننى لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما أريد قلوباً تخشع ، أريدك أنْ تأتى إلىَّ طواعية وأنت قادر على الإعراض والانفلات .

لذلك قلنا : إن السيف في الإسلام لا ليفرض على الناس عقيدة ، إنما ليحميَ اختيارهم لعقائدهم ، وبعد ذلك يتشدَّقون بأن الإسلام فُرِضَ بحدِّ السيف ، وهذا غير صحيح بدليل بقاء كثيرين على دينهم بعد الفتح الإسلامى .

والحق سبحانه حينما سخَّر كل شيء في الوجود لخدمة الإنسان

---

(١) أذنت لربها وحقت : أى استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١/١٦] . وحقت : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

قال سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[1] يعنى : لا تنظر إلى عبيدك بل انظر أنت عبد لمن ومَنْ سيدك .

وهذا التسخير للجوارح موقوتٌ بالحياة الدنيا ، أما فى الآخرة فسوف تنطلق الجوارح من هذه القيود وتنفك من هذا القهر وهذا التسخير ، لأنه كان مرتبطاً بإرادة العبد ، وحيث لا إرادة له فى الآخرة .

وأصبحت الإرادة للمريد الأعلى سبحانه ، فلا طاعةَ له ولا خضوعَ لأوامره ، فالأمرُ كله يومئذ لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯﴾ [غافر]

لذلك تتحول الأعضاء والجوارح إلى شهود ، يشهدون بالحق أمام الواحد الأحد ، فاللسان يقول : قُلْتُ . واليد تقول : بطشْتُ . والرِّجْل تقول : مشيتُ . والعينُ : رأيت ، وهكذا .

وقد شبَّهنا هذه المسألة بقائد الكتيبة يأمر الجنود ، فيطيعون حتى لو كان الأمر خطأ ، ثم حين يعودون للقائد الأعلى يقولون حدث من قائدنا كذا وكذا ، ولم نخالف أوامره لأننا مأمورون بطاعة الأوامر ولو خطأ .

والحق سبحانه حينما يُسخِّر لنا جوارحنا وأعضاءنا إنما ليعطينا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣٥٨/٢) عن أبى هريرة رفعه : قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسُد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » . وقد أورده صاحب (إيقاظ الهمم) (٢٤٧/١) وهو بعض الآثار المروية عن الله . وأورده ابن عربى فى الفتوحات المكية بلفظ « أنزل الله فى التوراة : يابن آدم خلقت الاشياء من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تهتك ما خلقت من أجلى فيما خلقت من أجلك » .

مثالاً ونموذجاً لقيوميته تعالى على كل شيء ، وأنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون ، فيقول للمكابر : قُلْ لى بالله ما هى العضلات التى تُحركها لتتكلم أو تقوم أو تقعد ؟ ما هى الحركة التى تحدث بداخلك لتفعل ؟ ما الأعصاب التى تشارك فى هذه الحركات ؟

أنت لا تعرف شيئاً عنها ولا تأمرها ، بل مجرد أن تريدَ تنفعل لإرادتك وتطيع ، فإذا كان هذا عطاء الله لك ، ونعمة من نعمه عليك ، فكيف تستبعده فى حَقِّ الله عز وجل ؟ وكيف تنكر أنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون ؟

وأول مظاهر تسخير البحر أنْ جعله الله صالحاً لسيْر السفن على ظهره ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ .. (١٤) ﴾ [النحل] وأول سفينة فى الكون هى سفينةُ سيدنا نوح عليه السلام صنعها بأمر الله ووَحْيه إليه ، حيث علَّمه كيفية صناعتها من ألواح ودُسر : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر]

والسفينة لا تسير على صفحة الماء إلا إذا توفرتْ لها بعض القوانين ، وهذا هو التسخير . أولاً : لا بدَّ أنْ يكون الماء سائلاً ليسمحَ بجريان السفينة حين يُحرِّكها الهواء ويدفعها ، ولو كان جامداً ما حصل السير .

ثانياً : يكون الماء خالياً من اللزوجة . ثالثاً : تكون كثافة الماء أقلَّ من كثافة السفينة ، فلو أخذتَ مثلاً قطعة من المعدن ورميتَ بها فى الماء فإنها تغرق فيه ، إنما لو طرقتَ هذه القطعة وجعلتَها مفلطحة ووسَّعتَ مساحتها فإنها تعوم .

فمن تسخير الله للبحر أنْ جعله صالحاً لسير السفن ﴿ الَّذِى سَخَّرَ

لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية] كما قال فى موضع آخر : ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾﴾ [هود]

ومن تسخير الله للبحر أنْ جعله مصدراً لكثير من المأكولات والأرزاق ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية]

ففضلُ الله فى البحر كثيرٌ ، فيه القوت اللازم لاستبقاء الحياة ، وفيه الترف والزينة مثل اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من الأشياء الثمينة حتى قالوا : إن الثروات فى أعماق البحار أكثر من الثروات فوق سطح الأرض .

ثم على سطح الماء تسير بكم السفن إلى مواطن الأرزاق فى أى مكان .

وفى آيات أخرى فصَّل الحق سبحانه قوله : ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية] فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. ﴿١٤﴾﴾ [النحل] وهو أنواع الأسماك والحيوانات البحرية التى تُؤكل : ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾﴾ [النحل]

والمراد اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة التى تُستخرج من أعماق البحار ؛ لذلك قال العلماء : إن حلية البحر غير مُحرَّمة مع أنها أغلى من الذهب ، لكن لم يأتِ النصٌّ بتحريمها على الرجال كما فعل فى الذهب[1] ، لماذا ؟

لأن الذهب نَقْد يتعامل الناسُ به على شكل عملات وجنيهات نقدية ، فغرضه أساساً التعامل بين الناس فى البيع والشراء ، وهو واسطة

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٣٥) والنسائى فى سننه (٥٠٥٣) وابن ماجه فى سننه (٣٥٨٥) وأحمد فى مسنده (٧١١ ، ٨٩١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

بين الإنتاج والاستهلاك ، وليست حلية البحر كذلك .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الجاثية] أمر بالشكر على النعمة ، فكلما رأيتَ مظهراً من مظاهر نعمة الله قُل الحمد لله واعترف لله بالفضل ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ دعاءَ الركوب للسُّفن أو غيرها ، ومن هذا الدعاء : « سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون »[1] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا من تسخير البحر إلى تسخير السموات والأرض ، فهى مسخَّرة للإنسان منذ خلقها الله ، لكن لم يعلم الإنسان وجوه هذا التسخير مرة واحدة ، إنما يعلمها بمرور الزمن وتطوُّر العلوم .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

فأنت مثلاً حين تقرأ قوله تعالى فى الفُلْك ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] لا بد أنْ تُعملَ العقل وتسأل كما سألنا : متى عرف الناس السفن ذات الأدوار ؟ فكلمة المنشآت تدل

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٤٤ ، ١٥٠) .

على البناء ، وكالأعلام يعنى : عالية ومرتفعة كالجبال ، قالوا : عرف الإنسانُ السفنَ ذات الأدوار فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت قبل ذلك عبارةً عن سطح لا شئَ عليه .

فمَنْ أخبر سيدنا رسول الله بأن السفن سيكون منها منشآت كالأعلام ، كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

والمعارج جمع معراج ، وهو بلغة اليوم (الأسنسير) والحضارة الحديثة لم تعرف (الأسنسير) إلا فى أواخر القرن العشرين ، إذن : هذه مظاهر لإعجاز القرآن وصِدْقه وصِدْق المبلِّغ للقرآن ، فصدق اللهُ وصدق رسوله .

وهذا يدلُّ على أن هذه المستحدثات موجودة فى علمه تعالى ولها (ماكيت) قبل أنْ يصل إليها فكر البشر ، والله يظهرها لعباده حسْبَ حاجتهم ومع مرور الزمن وتطور العلوم ، وهذا معنى ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] قلنا : كلٌّ من السموات والأرض ظَرْف لأشياء كثيرة ، منها ما نعلمه ، ومنها ما لم نتوصل إليه حتى الآن ، فالسماء ننظر إليها من جهة العلو ، ولا نرى من مخلوقات الله فيها إلا الشمس والقمر والنجوم والسحاب ، وهذا كله فى السماء الدنيا .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢) ﴾ [فصلت] أما السموات السبع فشيء آخر لا نعرف عنه شيئاً ، ويكفى أنْ تعرف

أن بينك وبين الشمس ثمانىَ دقائق ضوئية ، وهناك مخلوقات بينك وبينها مائة سنة ضوئية اضربها فى ٣٦٥ يوماً فى ٢٤ ساعة فى ٦٠ دقيقة فى سرعة الضوء .

إذن : فوقك عالم آخر فوق ما يتصوَّره عقلك ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات] بأيد : أى بقوة .

فيكفى أنْ تتأمل فى مجال تسخير الكون لك أنْ تنظر إلى الشمس ، وكيف سخَّرها الخالق لك فتعطيك النور والدفء والطاقة والأشعة المختلفة دون أنْ تبذل فى سبيل ذلك شيئاً ، ودون صيانة ، ودون وقود ، ودون أنْ تصلَ إليها أصلاً .

فهى تعمل فى خدمتك منذ خلقها الله وإلى أنْ تقوم الساعة لا تحتاج منك إلى شىء ، فقط عليك أنْ تستفيد منها ، وأنْ تفكر فى طبيعتها وكيفية استغلالها فيما ينفعك . ومثلها القمر يعطيك النور الحالم الهادىء ، وبه نهتدى فى ظلمة الليل : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

والشمس والقمر خلقهما الله على هيئة الحركة ، فهما متحركان منذ خلقهما الله وإلى قيام الساعة ، يتحركان دون وقود وبلا طاقة بقانون العطالة كما قلنا ، وهو أنْ يظلَّ المتحركُ متحركاً ما لم تُسكنه ، ويظل الساكن ساكناً ما لم تحركه . وهذه الحركة قلنا بحساب دقيق محكم ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن]

والأرض كذلك ظرف لأشياء كثيرة وأجناس متعددة ، ففيها الجماد وهو أدنى الأجناس ، فإذا أضيفَ إليه النمو كان النبات ، فإذا أضيف إليه الإحساسُ كان الحيوان ، فإذا أضيف إليه العقل كان

الإنسان وهو أعلى هذه الأجناس وأكرمها على الله .

لذلك سخَّر الله له كلّ هذه الأجناس وجعلها فى خدمته ، وجعله سيداً عليها وخليفة له فى أرضه .

والحق سبحانه عندما تكلم عن الجماد قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر] فقدَّم الثمار وهى من النبات قدَّمها على الجماد ، لأننا لا نأكل الجماد وإنما نأكل النبات والثمار هى محصلته وما يهمنى منه ، وهى من مُقوِّمات الحياة .

ثم تكلم عن الجبال وهى مصدر الخيرات والثروات والمعادن والأحجار الكريمة ؛ لذلك قال عنها فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] أى : فى الجبال .

وسبق أنْ بيَّنا أن الجبال هى مصادر القوت ومخازنه فى الأرض ، ذلك لأنها مصدر التربة الغنية الخصْبة التى تنساب مع ماء المطر ، وتنتشر فى أنحاء الأرض فتزيد من خصوبتها : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر]

فأجناس الخلق كلها فيها آيات ، فالجماد انظر مثلاً إلى الجبال وما فيها من خيرات وألوان شتَّى فيها الرخام والجرانيت والمرمر وغيرها ، والنبات ويمثل المصدر الأساسى للقوت ، انظر مثلاً إلى النخلة العربية وقارنها بالنخلة الأفرنجى ، فالنخلة عندنا مصدرٌ للقوت ونتفع بكل شىء فيها بحيث لا يُرمى منها شىء أبداً .

لذلك تجد لهـا درجاً يمكنك من الصعـود عليها لتـقليم جريدها أو جمع ثمارهـا ، أما النخلة الأفرنجي فـهى للزينة ، لذلك تجـدها ملساء يصعب الـصعود عليـها ، هذا من حكمـة الخلق ودقتـه ، فتـبارك الله أحسن الخالقين .

تأمل جريدة النخيل تجدها عريضة من أصلهـا ونحيفة رفيعة من طرفها ، والورق فيها عـلى عكس ذلك فهو مسطَّح منبسط من أعلى ، ثم يأخذ (ينبـرم) إلى أنْ يصيرَ شوكاً عند أصل الـجريدة ، القريب من الثـمر ، وذلك لأن هذه الأشـواك تحمـى الثمـار من الفئـران ، ثم تأمل أن هذه الأشـواك تـنتـهى عند أصل الجـريـدة ، ولا تمـتـد إلى الشماريخ التى تحمل الثمار .

ثم تأمل الســاق فهى فى الـنخلة طويلة مســتـقيـمة على خـلاف الأشجار الأخرى تجدها قـصيرة ومتفرعة ، لأن الثمار عليـها صغيرة يسهل حملُها على الفروع ، أما ثمرة البطيخ مثلاً فهى على ساق رفيع لولبيٍّ يتمدد على الأرض ، لأن الثمرة ثقيلة .

إذن : المســألة قدرة ليست (ميكانيكا) ، وفى الأكل تأكـل مثلاً قشرة المشـمش وتترك اللبّ بعكـس اللوز فتأكل اللب وتترك القشرة ، هذه طلاقة قـدرة وحكمة عالية للخـالق عز وجل ، ثمرة التـين تأكلها كلها فليس لها قشرة ، أما البـرتقال أو اليوسفى فله قشرة ، ثم تأمل اختلاف الألوان والطعوم فى النبـاتات وهى تُسْقى بماء واحد . وقُلْ : سبحان الخالق .

تأمل الأشجار تجد منها أشجاراً خضراء ليس لها ثمار وتظن أنها لا فائدة منها ، لـكن لا بدَّ أن يكون لها فائدة إما لك وإمـا لغيرك من

المخلوقات ، ويكفى أنها زينة وجمال ومصدر للأكسوجين وربما كانت لها فوائد أنت لا تعرفها ، تجد مثلاً من هذه الأشجار لها أزهار مختلفة الأشكال والألوان والروائح .

وهذا عالم آخر من الإبداع الجمالى فى الطبيعة ، ولهذه الألوان والروائح المختلفة حكمة لأنها تجذب الفراشات والحشرات التى تقوم بعملية التلقيح للمزروعات ، ولكل فراشة أو حشرة مزاج فى اللون وفى الرائحة .

لذلك لما انتشرت المبيدت الحشرية قلَّتْ هذه الظاهرة ولم نعُد نرى الأزهار فى الحقول لماذا ؟ لأن المبيدات قتلتْ الفراشات التى تقوم بمهمة التلقيح .

وحين تتأمل عملية التلقيح ذاتها تجد فيها آية من آيات الخَلْق وبديع صُنْع الله تعالى ، فمن المزروعات ما نعرف كيفية تلقيحه كالنخيل مثلاً ، ونعرف أن منه الذكر ومنه الأنثى ، وهذا واضح فى شكل الشجرة لكن شجرة المانجو مثلاً لا نعرف كيف تتم فيها عملية التلقيح ؟

وحين ترى كل هذا الجمال فى الخَلْق ، عليك أنْ تذكر الخالق وتقول : تبارك الله أحسن الخالقين . وأجمل من الحُسْن مَنْ خلق الحُسْن .

وكلمة ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ .. (١٣)﴾ [الجاثية] كلمة جميع من كلمات التوكيد ، فهى تعنى كل ما فى السموات وما فى الأرض من الله بلا استثناء ، فكل صغيرة وكل كبيرة من الذرَّة إلى المجرَّة من فضل الله ، ما تعرفه وما لم يُحط به علمك .

وكلمة (منْهُ) قرأها بعضهم[1] (منة) والمعنى لم يبعد عن المراد فهى من الله ، وهى منة من الله .

وأنتم تعرفون أن القرآن أول ما جُمع جُمعَ بدون نقط وبدون تشكيل اعتماداً على الملكة العربية فى فهم المعانى واستنباطها ، ويُروى أن حماداً الراوية كان لا يحفظ القرآن ، فلما جاءوا له بالمصحف قرأ : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] وبالسين يظل المعنى صحيحاً ، لكن لفظ القرآن (أشاء) .

وقرأ : صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة . فنطق الغين عيناً وهى نفس المعنى .

إذن : عطاء القرآن عطاء ممتد ، ويستطيع المتذوّق للعربية أنْ يصلَ إلى معانيه وحكمه . لكن لما فسدتْ الملكات اضطروا للنَّقْط والتشكيل ليتضح المعنى ، مع أنهم كانوا زمان يعتبرون تشكيلَ الكتاب سُوءَ ظنٍّ بالمكتوب له ، لأن فى ذلك اتهاماً له بعدم الفهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] أى : فى هذه المخلوقات المسخَّرة لكم ﴿ لَآيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] عجائب ودلائل ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية]

إذن : هذه دعوة للإيمان ، فالحق سبحانه يعرض علينا صنعته وإبداعه فى الكون ، ويدعونا أنْ نتأمل فيه ، وأنْ نُعملَ فيه عقولنا ، والصانع لا يفعل هذا بصنعته إلا إذا كان واثقاً من جودتها .

---

(١) المقصود ببعضهم هنا : عبد الله بن عمرو وابن عباس وأبو مجلز وابن السميقع وابن محيصن والجحدرى . وقرأها سعيد بن جبير (مَنُّهُ) . ولكن القراءة الأشهر : (جميعاً منه) أى : ذلك التسخير منه لا من غيره فهو من فضله . [زاد المسير لابن الجوزى] .

قلنا : لو أنك ذهبتَ إلى بائع القماش تشترى منه مثلاً بدلة صوف فتراه يعرض عليك أثوابَ القماش ، ويُبيِّن لك جودتها ، ثم يأخذ منها (فتلة) ويشعل فيها النار أمامك ليظهر لك حقيقة هذه الجودة ، وهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته .

أما الآخر صاحب البضاعة الفاسدة المغشوشة (فيُدوِّك) عليك ويُوهمك بالكلام والتدليس والزور ، ولا يجرؤ أنْ يبينَ لك حقيقة ما عنده .

إذن : حينما يخاطبك ربك : اعقل ، تدبَّرْ ، تذكَّرْ ، فهذا يعنى أنك لو أعملتَ الفكر فى هذه الآية لأوصلتْكَ إلى الحق وإلى مراده منك ، لذلك يحذر الحق عباده من الإعراض عن الآيات ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس فى رواية عطاء : يريد عمر بن الخطاب خاصة ، وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبى . وذلك أنهم نزلوا فى غزاة بنى المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على قف البئر ، فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى وقرب أبى بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمِّن كلبك يأكلك . فبلغ قوله عمر رضى الله عنه ، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . أسباب النزول للواحدى (ص ٢١٥) .

كلمة (قُلْ) دلَّتْ على دقَّة رسول الله فى البلاغ عن الله ، وأنه ﷺ لا يأتى بشيء من عند نفسه ولا يبلغ كلام الله بالمعنى إنما بالحرف ، وإلا فقد كان بإمكانه فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] أنْ يقول للناس : الله أحد .

وأنت مثلاً حين ترسل ولدك إلى عمه وتقول له : قُلْ لعمِّك : أبى يريدك ، فالولد يذهب ويقول لعمه : أبى يريدك ، فالمعنى وصل بهذا الفظ وتم التعبير عنه بدون قُلْ .

أما رسول الله فينطق بما نطق الله به ، ولا يتدخل فى نصٍّ ما ألقى إليه ، كأنه يقول لنا : هذا الكلام ليس من عندى إنما هو كلام الله يبلغه كما سمعه .

والعجيب أنْ نسمع مَنْ ينادى بحذف هذه الكلمة من المصحف ويدَّعى أنها لا تضيف شيئاً للمعنى ، ونقول له : يكفى أن الله نطق بها ونطق بها رسوله ﷺ ، ثم إن لها مهمةً كما بيَّنا .

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا .. ⑭﴾ [الجاثية] أى : يصفحوا ويتجاوزوا ولا يؤاخذوهم على التفاهات ما دام أنها لا تتجاوز القول إلى الفعل .

﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ⑭﴾ [الجاثية] أى : الذين لا يخافون أيام الله ولا يعتبرون بها ولا يعملون لها حساباً ، والرجاء نوع من الطلب ، وفيه معنى تمنٍّ والطمع فى حصول ما ترجوه ، فالرجاء طلب الشيء المتوقَّع الحدوث .

والممكن على خلاف التمنِّى ، وهو طلب المحال البعيد المنال ،

كما قال الشاعر[1] :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبرُه بمَا فَعَلَ المشيبُ[2]

أما الرجاء فهو مظنة أنْ يتحقق ، تقول : أرجو أنْ أُوفق أو أسافر .

ومعنى ﴿ أَيَّامَ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [الجاثية] كما نقول مثلاً أيام العرب يعنى : وقائعهم والأحداث الكبار التى مرَّتْ بهم ، فأيام الله يعنى وقائعه بأعدائه ، فأيام الله على المؤمنين نَصْره لهم وعلى الكافرين هزيمتهم ، فهم لا يقفون عند هذه الأحداث ولا يتأملونها ولا يأخذون منها عبرةً ويمرُّون عليها مَرَّ الكرام أو مرورَ الغافل عن حكم الأشياء ، وهؤلاء هم المنافقون .

ولهذه الآية قصة ، ففى غزوة بنى المصطلق[3] كان هناك بئر يشربون منه اسمه المريسيع ، وعلى هذا البئر اجتمع غلامٌ لعمر بن الخطاب وغلام لعبد الله بن أُبىٍّ رأس المنافقين ، فغلام عمر منع الآخر ، وقال : لا حتى أسقى لرسول الله أولاً ، فقال الآخر : أفرغتَ ؟ قال : لا ، لا يزال دَلْو أبى بكر ، ثم دَلْو عمر ، قال : هذا لعلمه أنه منافق .

فأبطأ العبد على عبد الله بن أُبىٍّ فقال : ما أبطأك ؟ قال : مولىً لعمر بن الخطاب فعل كذا وكذا ، فهزّ رأسه هزَّة المنافق وقال : إنّا وإياهم كما قال القائل : سَمِّنْ كلبك يأكلك ، قال هذه الكلمة ليشفى بها

(١) الشاعر هو أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم ولد قرب الكوفة (١٣٠ هجرية) وسكن بغداد ، كان يجيد القول فى الزهد والمديح ، كان يبيع الجرار ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم ، توفى ببغداد عام (٢١١ هجرية) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، ونصُّه فى الموسوعة الشعرية :

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما صنع المشيب

(٣) أورد هذه القصة الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول [سورة الجاثية آية ١٤] ، وأشار إليها فى نواسخ القرآن (١/٢٢٥) وقال : رواه عطاء عن ابن عباس .

ما فى صـدره ، ووصلتْ هذه الكلمة إلى عمـر فأخذ سيـفه وأراد أنْ يقتله فأنزل الله هذه الآية : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [الجاثية]

نعم يغـفرون لهم ويتـجاوزون عن هذه الهـفوات لأنهـا فى حَـيِّز القول ولم تصل إلى مستوى الأفعال ، فإذا وصلتْ إلى الفعل كان لها شأنٌ آخـر كما حدث فى مـسألة المرأة المـسلمة فى بنى قَيْنُقَـاع لما رفع واحـد منهم ذيْلَ ثوبها إلى أعلى ، فلمـا قامت انكـشفتْ عورتـها فكان لا بدَّ من قول يؤدبهم [1] .

أمـا الكلام فـلا بأسَ من التـسامح فـيـه مع هؤلاء المنافـقـين ، وحسبك فى المنافق أنه يذل نفسـه بالنفاق لأنه يفعل ما لا يعـتقده ولا يؤمن به . ثم إن النفـاق فى حَدِّ ذاته دليلٌ على قـوة الإيمان ، حـيث أصبح الإيمان قوةً تُنافَق ، وهذه من عزة الإيمان وذلة النفاق .

ولذلك حكى القرآن قولهم : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَـا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافـقون] فـصدَّق الله على قـولهم أنْ يُخـرج الأعز الأذل ، لكن مَن الأعز ومَن الأذل ؟ فقـال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

---

(١) أخرجـه الواقدى فـى المغـازى (١/٦٥) فصل (غـزوة قينقـاع) قال : « جـاءت امرأة نزيعة من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بنـى قينقاع فجلست عند صائغ فى حلى لها ، فـجاء رجل من يهود قينقـاع فجلس من ورائها ولا تشـعر فادخل درعهـا إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها فضـحكوا منها ، فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله فاجتمعت بنو قينقاع وتحايشوا فقتلوا الرجل ونبذوا عهد رسول الله » .

يكفى أن هؤلاء المنافقين كـانوا يقفون فى الصلاة فى الصف الأول ليَسـتـروا بذلك نفاقـهم ، ففى داخلـهم تناقض وتردد ، وهذه ذلة أمـام أنفســهم أولاً .

ورُوى أن فنحاص[1] اليهـودى لما نزل قـوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ضحك وقال : افتقر رب محـمد ويطلب منا السلف ، وهى كلمة شفى بها ما فى صدره من غلٍّ ، ومع ذلك كانوا فى كل معركة وفى كل صلاة فى الصف الأول .

فالـحق سبـحانه وتعـالى حين أمـر المؤمنين أنْ يغـفروا لـهؤلاء المنافقين إنما ليُذلَّ المنافق أمام نفسه ، لذلك أثار المستشرقون ضجة حول قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] فكيف يقول بعدها ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

ذلك لأن هناك فرقاً بيـن القول ومقول القول ، فـهم صادقون فى مـقول القـول ، وهو ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافـقون] لكنهم كاذبون فى القول لأنهم منافقون .

فالـحق سبـحانه لم يُكذِّبهم فى إنك رســول الله . إنما كـذَّبهم فى قولهم ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافقون] لأن الشـهادة تعنى موافقة القلب للسـان ، والمنافق قلبه فى وَادٍ ولسانه فى وادٍ آخر .

---

(١) كان فنحـاص من علماء يهـود وأحبـارهم ، وقد قـال له أبو بكر رضى الله عنه : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتـوباً عندكم فى التوراة والإنجـيل . قال فنحاص : والله يا أبـا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنَّا عنه لأغنياء ، ولو كان عنَّا غنياً ما استـقرض منا كما يزعم صاحبكم ، يشـير إلى قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] [راجع تفسير الطبرى] .

إذن : معنى ﴿ أَيَّامَ اللَّهِ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [الجاثية] الأحداث المشهورة مثل يوم بدر وأُحُد والحديبية ، وهذه الأيام فيها نصْر للمسلمين يُفرحهم ويُثلج صدورهم ، وفيها هزيمة للكافرين تحزنهم وتكدر حياتهم ، ومثلها الوقائع التى حدثت فى الأمم المكذِّبة للرسل .

وهؤلاء المنافقون لا يخافون هذه الوقائع بمعنى لا يعتبرون بها ، لذلك لم تصرفهم عن اللدد والجدال والعناد ، وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [العنكبوت]

وقوله سبحانه : ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⦗١٤⦘ ﴾ [الجاثية] فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : اتركهم لى . إذن : الأمر بالمغفرة لهؤلاء ليس إكراماً لهم ولا رحمةً بهم إنما ليُوقع بهم عذاباً أكبر وأشدّ ، وليتولى الحق سبحانه تأديبهم بقوته سبحانه.

إذن : خلوا ساحتهم لانتقام الله منهم ، لأنهم فى واقع الأمر لا يقفون ضدكم ، إنما يقفون ضد الحق سبحانه .

ثم إن المغفرة لها أصولٌ ولها حدودٌ ؛ فأنت تغفر لمن أساء وتغفر وتغفر ، ولا تجد فى المقابل إلا اللدد والجحود ، وعندها لا بدَّ أنْ تتحول من الحلم إلى الجهل فهو أنفع وأنسب فى هذا الموقف .

وقد فطن الشاعر[1] العربى إلى هذا المعنى ، فقال :

---

(١) الشاعر هو : أحمد بن الحسين ابو الطيب المتنبى ، ولد ٣٠٣ هجرية ، شاعر حكيم وأحد مفاخر الأدب العربى ، له أمثال سائرة ، ولد فى محلة تسمى كندة وإليها نسبته ونشأ بالشام ثم تنقَّل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . تنبأ فى بادية السماوة ، توفى ٣٥٤ هجرية .

مِنَ الحِلْم أنْ تستعملَ الجَهْل دُونَهُ   إذَا اتسَعتْ فى الحِلْم طُرْقُ المظالم[1]

وقال الآخر[2] .

صَفَحْنا عَنْ بَنى ذُهْـلٍ   وقُلْنَا القَوْمُ إخْـوانُ

عَسَى الأيامُ أنْ يرجعْنَ   قوْماً كالـذى كَانُـوا

فلمّـا صـرّح الشـرّ   وأمسَى وهْوَ عرْيـانُ

مشيْنا مِشْـيةَ الليْـث   غَدَا وَالليْثُ غضبانُ

بضـربٍ فيـه توْهِـينٌ   وإضعـافٌ وإقـرانُ[3]

وطعْـنٍ كفـم الـزِّقّ[4]   غَـدَا والـزِّقُّ مَـلآنُ

وبعْـضُ الحِلْـم عِنْـدَ   الجَهْل للذلَّة إذْعَـانُ

وفى الشرِّ نجاةٌ حينَ   لا يُنجِـيكَ إحسَانُ [5]

وقوله تـعالى ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الجاثية] سبق أنْ أوضحنا أن كسب تُقال فى الخـير واكتسب للشر ، لأن فيهـا افتعالاً ،

---

(١) البيت من قصيدة للمتنبى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ بيتاً . والبيت هو التاسع فى القصيدة .

(٢) هو الفند الزمانى واسمه شهل بن شيبان شـاعر جاهلى ، من أهل اليمامة سُمى الفند لعظم خلْقته تشـبيهاً بفند الجبل وهو القطعة منه ، توفى نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى] .

(٣) الإقران : قوة الرجل على الرجل . وقد ورد هذا البيت فى بعض المصادر :

بضرب فيه توهين   وتخضيع وإقران

والتخضيع هو تقطيع اللحم .

(٤) الزق ، السقاء : وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه ، وتزقيقه سلخه من قبل رأسه . [لسان العرب - مادة : زقق] والسلخ : الكشط .

(٥) أورد أبو على القالى هذه الأبيات فى أماليه (١/٣٠٩ ، ٣١٠) .

فالخير يأتى من فاعله طبيعياً لا تكلّف فيه والكسب فى اللغة هو الزيادة فى ثمن البيع عن ثمن الشراء ، وهذا أمر محمود .

لكن قد يتعود المرء المعصية ويألفها ، ولا يأنف من ارتكابها ، وربما تباهى بها فتصير فى حقه كسباً فيفعل المعصية كما تفعل أنت الطاعة ، يعنى لا يندم على فعلها ولا تُؤنبه نفسه عليها ، فكأن هؤلاء يعتبرون المعصية كسباً يفرحون به ، لذلك قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [الجاثية] ولم يقُل : يكتسبون .

إذن : أمر الحق سبحانه المؤمنين أنْ يغفروا الزَّلَّة الخفيفة دفعاً بالتى هى أحسن لعل المقابل يرتدع ، قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

فالشارع الحكيم يحرص كل الحرص على الإبقاء على الروابط بين الناس ، حتى فى أعنف معارك العداوة وهى القتل تراه يبيح القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

وفى ذات الوقت يدعو إلى العفو : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة] تأمل كلمة (أخيه) هنا ، فرغم العداوة هم إخوة : ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وكثيراً ما نسمع مَنْ يقول : دفعتُ بالتى هى أحسن ولم أجد النتيجة التى أخبر الله بها ، نقول له : أنت فى الواقع لم تدفع بالتى هى أحسن لأنك لو فعلتَ لوجدتَ الجواب كما أخبر الله ، لكنك تخيلت أنك دفعتَ بالتى هى أحسن وجعلتها تجربة مع الله ، والتجربة مع الله شكّ.

ثم يرتقى الحق سبحانه بالنفس الإنسانية إلى مرتبة أعلى من الغفر ، لأنك قد تغفر لمن أساء إليك ، لكن يبقى فى نفسك منه شىء

فيدعوك إلى أنْ تتخلص من آثار الإساءة ثم ينقلك إلى مرتبة أعلى ، وهي أنْ تحسن لمن أساء إليك : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وقد سُئل الحسن البصرى[1] فقال : لأن الذى يسيىء إليك يجعل ربك في جانبك ، والذى يجعل ربى فى جانبى يستحق أنْ يُكافأ ، ثم هو بعد ذلك نقل إلىَّ حسناته .

لذلك الرجل الصوفى لمَّا بلغه أن رجلاً سبّه فى مجلس أرسل إليه هدية طبقاً من الرطب وقال لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُل له : سيدى يُهديك هذا لأنك أهديتَ إليه حسناتك بالأمس .

ونحن نرى فى واقع حياتنا العملية حينما يضرب أحدُ الأولاد أخاه تجد الوالد يعطف على المضروب و(يطبطب) عليه وينهر الضارب ويُؤنِّبه ، فكأن الضرب جاء فى مصلحة المضروب .

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن الخلق بعضهم على بعض ، ومعنى ذلك أن الحياة تُبنى على المودة والمحبة لا على البغضاء والشحناء ، تُبنى على التساند لا على التعاند .

لذلك العلماء لما عالجوا هذه المسألة جعلوا المصيبة التى تصيب المرء على قسمين : مصيبة تصيبك ولك فيها خصمٌ ، ومصيبة ليس لك فيها خصم ، الأولى يتسبّب فيها شخص فتأخذه خصماً لك ، وهذه تكون أشد على النفس لأنها تدعوك إلى الانتقام .

والأخرى هى التى تكون من الله لا دخلَ لإنسان فيها ، وهذه

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد ، تابعى كان إمام أهل البصرة وحبْر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النُّساك ، ولد بالمدينة المنورة عام ٢١ هجرية وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب. توفى ١١٠ هجرية عن ٩٠ عاماً .

أهون وأخفّ على النفس حيث لا خصم فيها ، فالخصم من شأنه أنْ يحرِّك فى نفسك نوازع الانتقام كلما رأيته .

لذلك جاء فى وصية لقمان لولده : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] والمراد هنا المصيبة تصيبك من الله ، لذلك لم يأت أمر بالمغفرة والتسامح ، وحينما يتكلم عن المصيبة تصيبك من البشر يقول ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣) ﴾ [الشورى] أى : غفر للخصم .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] فزاد هنا التأكيد باللام فى ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] لأن الصبر فى هذه الحالة أشقّ ، ويحتاج إلى مجهود ومجاهدة أكثر من الأولى .

وقوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [الجاثية] دلَّ على عدالة الجزاء ، وأنه من جنس العمل ، وقد أوضح الحق سبحانه هذه المسألة فى الآية بعدها :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾

فتأمل ﴿ فَلِنَفْسِهِ ..(١٥) ﴾ [الجاثية] فى العمل الصالح وعليها فى الإساءة ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾ [الجاثية] فكأن الجزاء السابق له وعليه قبل الرجوع إلى الله فى الآخرة .

نعم هذا فى الدنيا ليعتدلَ ميزانُ حركة الحياة ، لأن الجزاء كله لو أُخِّر إلى الآخرة لاستسهل الناسُ الذنبَ ، وهان عليهم الوقوع فيه

فاستشرى الباطل وزاد الشر .

لذلك لا بدّ من حدوث شيء من العقاب الدنيوى لتستقيم الأمور ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ..(٤٧)﴾ [الطور]

وقال عن عذاب أهل النار : ﴿ولَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ ..(٢١)﴾ [السجدة] يعنى : القريب فى الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة] أى : فى الآخرة .

وهذا المبدأ واضح في سورة الكهف في قول ذى القرنين : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا[1] نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦)﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ﷺ فى وقت عانى فيه أشد المعاناة من المعاصرين له من صناديد الكفر عناداً وجحوداً واستكباراً وإيذاءً بالقول وبالفعل وبالمكر والتآمر ، فلم يتركوا شيئاً يؤذى رسول الله إلا فعلوه .

لذلك يُسلِّيه ربه يقول له : لستَ بدْعاً فى ذلك ، فقد واجه إخوانك الأنبياء السابقون مثل هذا العنت والتكذيب ، فخُذْ من تاريخ الدعوة قبلك سلْوى ، لأنك جئتهم بالحق وهم يريدون الباطل ، فلا بدَّ أنْ يصادموك .

---

(١) كان عذاب ذى القرنين لمن ظلم بشركه أن يقتله . قاله قتادة . وعن السدى : كان عذابه أن يجعلهم فى قِدْر من صفر (نحاس) ثم توقد تحتهم النار حتى يتقطعوا فيها . فكان عذاباً منكراً . (انظر الدر المنثور للسيوطى) فى تفسير سورة الكهف – آية ٨٧ .

يقول تعالى : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] أى : التوراة كما أنزلنا عليك القرآن ﴿ وَالْحُكْمَ ..(١٦) ﴾ [الجاثية] أى : مقاييس العدل التى بها تستقيم أمور الخلق .

والحكم فى بنى إسرائيل مثل السُّنة عندنا مثلاً ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه نساء النبى بقوله : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ..(٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : القرآن ﴿ والحِكْمَة ﴾ أى : أحاديث رسول الله .

﴿ وَالنُّبُوَّةَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] حيث جعل الحق سبحانه النبوة فى بنى إسرائيل أكثر من أىِّ أمة أخرى ، حتى إنهم ليفتخرون على باقى الأمم بهذه المسألة ، والواقع أنها ليستْ مجالاً للفخر بل دلتْ على عيب فيهم ومأخذ يُؤخذ عليهم ، لأن كثرة الأنبياء تدل على فساد الخلق ، فالأمة لا تحتاج إلى رسول جديد إلا إذا استشرى فيها الفساد .

إذن : كثرة الأنبياء دلتْ على كثرة الفساد فيهم . إذن : كثرة الأنبياء فيهم ليست شهادة لهم ، بل عليهم ، لذلك وجدناهم يكثرون من قتْل الأنبياء بما لم يحدث فى أى أمة أخرى ، لذلك وجدناهم يتآمرون لقتل محمد هو الآخر لكن هيهات .

الحق سبحانه وتعالى بيَّن لهم أن هذه المسألة خاصة بكم أنتم ومقتصرة على أنبيائكم فقط فحبسها عليهم ، فقال تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١) ﴾ [البقرة] يعنى : هذا الكلام كان زمان ، أما الآن فلا ولن تتمكنوا منه أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ..(١٦) ﴾ [الجاثية] ومن هذه الطيبات المنّ والسّلْوى التى أنزلها الله عليهم فى فترة التيه ، حيث لا استقرار ولا أرض تُزرع ، فأنزل الله عليهم المنّ وهو سائلٌ

يشبه العسل ينزل على أوراق الشجر حبيبات شفافة تتساقط فى الصباح ، طعمه حلو كأنه خليط من العسل والقشدة .

أما السلوى فهو طائر مهاجر مثل السمان ويتوافر فيه البروتين ، إذن : من المن والسلوى أعطاهم الغذاء الكامل ، ومع ذلك غلبت عليهم ماديتهم ، وأرادوا أنْ يأكلوا مما تحت أيديهم مما تُخرج الأرض ، يقولون : إن هذا الطعام الجاهز قد لا يأتى ، فقد لا ينزل المنّ ولا يأتيهم السلوى .

لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا [1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا .. (٦١) ﴾ [البقرة]

بل وصلتْ بهم ماديّتهم إلى أنْ طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الحق سبحانه فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الجاثية] قالوا : عالَمِى زمانهم ، ليست على إطلاقها ، لأن بنى إسرائيل عاشوا فى زمن ساد فيه الكفر والوثنية ، وكانوا هم أهلَ كتاب يؤمنون بالله ، فكانوا هم أفضلَ ممَّنْ عاصرهم .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ﴾

---

(١) الفوم : الثوم . وفى قراءة عبد الله : وثومها . ويرجح أنه الثوم ذِكْر البصل بعده ، وهما من مُشهّيات الطعام . [القاموس القويم ٢/٩٢] .

قد يسأل سائل : ما مناسبة هذا الحديث عن اليهود هنا ؟

قالوا : يريد الحق سبحانه أنْ يقول : اذكر يا محمد أن أمتك قريش وغيرها عندهم شيء من طباع اليهود ، وفعلوا كثيراً من أفعالهم ، فأنزلَ الله بهم مثل ما أنزل بسابقيهم .

قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت]

فكان أيّ واحد يخرج فقط عن مكة يخطفونه ويغتالونه ويأخذون ماله ومتاعه ، لكن أهل مكة لم يجرؤوا على هذا لمكانتهم من البيت ، وحرصاً على سلامة قوافلهم التجارية التى تسافر بين اليمن والشام وتمر بمعظم القبائل .

ثم إن خدمة قريش للبيت وزواره أمَّنت تجارتهم وحمتْ قوافلهم ، ولم لا وهم يستقبلون عندهم فى مكة ضيوفَ الرحمن ويقومون على خدمتهم .

لذلك نجد أن هذه المسألة هى الرابط بين سورة الفيل وسورة قريش ، اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[1] (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل]

فلو قلت : لماذا ردّ الله أصحابَ الفيل وجعلهم كعصف مأكول نجد الجواب فى أول سورة قريش : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ

(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .
(٢) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾ [قريش] فلو هُدم البيت لهدمتْ معه مكانة قريش ، ولضاعت مهابتها من قلوب أهل الجزيرة العربية ، فلم يتمكّنوا من رحلة الشتاء والصيف .

فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : أنا عملتُ مع هؤلاء كذا وكذا ، ودافعتُ عنهم ، وجعلتُ لهم مكانة ومنزلة ، ومع ذلك يقفون من دعوتك موقفَ العداء ، لأنك ستسلبهم السيادة المتجبرة والسيادة الطاغية التى اعتادوا عليها .

فقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] أى : دلائل وعلامات فى صفة النبى ﷺ ، فما ذهب اليهود إلى مدينة رسول الله إلا لعلمهم بقدومه ، وعلمهم بصفاته وبزمن بعثته ، وكانوا يفتخرون بقدومه ويستفتحون به على الكفار والوثنيين .

يقولون : لقد أظلَّ زمانُ نبيٍّ من العرب ، سنتبعه ونقتلكم به قتلَ عاد وإرم[(١)] ، فلما بُعث رسول الله صادموه وكفروا بدعوته ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

وقال تعالى عن معرفتهم لرسول الله : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٤٥٩) (٢/٣٠٢) .

لذلك رأينا عبد الله بن سلام[1] وهو أحد أحبار اليهود ، يقول : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد[2] ، ومع هذه المعرفة أنكروا رسالته وكفروا به ، وأغفلوا ما عندهم من علاماته ودلائل نبوته .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ⑭ ﴾ [النمل]

لذلك لما هدى اللهُ عبد الله بن سلام للإسلام ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله لقد شرح الله صدرى للإسلام لكنى أخشى إنْ أسلمت أنْ يذمنى اليهود ويتهمونى عندما يعلمون ذلك ؛ فاسألهم عني يا رسول الله قبل أنْ يعلموا بإسلامى .

وفعلاً سألهم رسول الله : ماذا تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : هو سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وعندها نطق عبد الله بن سلام بالشهادتين وقال : أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقالوا : بل هو كذا وكذا وأخذوا يسبُّونه ويشتمونه ، فقال عبد الله : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟[3] .

ومن العجيب أن كفار مكة حين سألوا اليهود : أنحن أهدى أم

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف صحابى . قيل : إنه من نسل يوسف بن يعقوب ، أسلم عند قدوم النبى وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله (عبدالله) ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٩٠] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/٣٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٢ ، ٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

محمد ؟ قالوا : بل أنتم أهدى من محمد[1] ، كل هذا لأن لهم سلطة زمنية يريدون الاحتفاظ بها ، وقبل أنْ يدخل رسول الله ﷺ المدينة كانوا يُعدون ابن أبيّ ليكون ملكاً عليهم ، وقد جهزوا له تاج المُلْك[2] ، لكن سبقه رسول الله ، وما إنْ وصل إلى قباء واستقبله أهل المدينة لم يجدوا مجالاً لذلك ، وظل ابن أبيّ يكظمها في قلبه إلى أنْ مات .

وقوله : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا .. (١٧) ﴾ [الجاثية] أى : فى رسول الله ﴿ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (١٧) ﴾ [الجاثية] برسول الله ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. (١٧) ﴾ [الجاثية] لأن بعضهم صدَّق برسول الله وأسلم ، وبعضهم كذَّبه وأنكره .

وكان منهم مَنْ أثنى عليه رسول الله ، فقال : نِعْمَ اليهود (مخيريق)[3] وهو رجل شرح الله صدره للإسلام ، وصادف ذلك

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٩٧٩١) عن مجاهد قال : نزلت فى كعب بن الأشرف وكفار قريش قال : كفار قريش أهدى من محمد . وقال ابن جريج : قدم كعب بن الأشرف فجاءته قريش فسألته عن محمد فصغَّر أمره ويسَّره وأخبرهم أنه ضال . ثم قالوا له : ننشدك الله نحن أهدى أم هو ؟ فإنك قد علمت أننا ننحر الكوم ونسقى الحجيج ونعمر البيت ونطعم ما هبَّت الريح ؟ قال : أنتم أهدى . ومثله فى تفسير ابن أبى حاتم (٥٤٩٧) .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٥٨٤) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم فجاءهم الله تعالى برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاق وضغن » .

(٣) مُخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضير ، أسلم واستشهد فى أُحد وكان عالماً ، وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/٧٣) وسيرة النبى (٣/٨٨) ولفظ الحديث : مُخيريق سابق يهود . وفى رواية : مُخيريق خير يهود ، دلائل النبوة لأبى نعيم (حديث ٣٩) والمتقى الهندى فى كنز العمال (٤٦١٥٤) .

خروج الرسول لغزوة من الغزوات فخرج مع رسول الله ، ووهب له كلَّ ما يملك دون أنْ يعلن عن ذلك ، وفى هذه الغزوة قُتل (مخيريق) دون أنْ يصلى لله ركعة[1].

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧ ﴾ [الجاثية] أى : فى قضية الإيمان برسول الله ﷺ

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ[2] مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ ﴾

أى : جعلناك يا محمد على الطريق المستقيم ، والشريعة هى الطريق الموصل إلى الماء الذى هو أصل الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ۝٣٠ ﴾ [الأنبياء] فسمَّى الدين شريعة .

فكما أن الماءَ حياةُ الأبدان ، فالدين حياةُ الأرواح والقلوب ، وهو الذى يمنحهم الحياة الأخرى الباقية ، حيث لا يفوتهم النعيم ولا يفوتونه ، وهذه هى الحياة الحقيقية التى قال الله عنها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ۝٢٤ ﴾ [الأنفال] فلا شك أنه يخاطبهم وهم أحياء فى حياتهم الدنيا ، إذن : معنى يحييكم ، أى : الحياة الآخرة الباقية .

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٣/٧٢) .

(٢) الشريعة فى اللغة : المذهب والملة . والشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، وقال ابن عباس : (على شريعة) أى : على هدى من الأمر . وقال قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض . وقال مقاتل : البينة لأنها طريق إلى الحق . [تفسير القرطبى ٩/٦٢١٤] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : دعْكَ مما يفعل هؤلاء من التكذيب والعناد ، فهذا أمر معروف منهم ، وله سوابق فى مواكب الرسل قبلك ، فتحمَّل أنت ما يعترض طريقك من الإيذاء .

لذلك فى أول بعثته ﷺ لما ذهبتْ به السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل[1] وقصَّتْ عليه ما حدث لسيدنا رسول الله ، فقال : إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى . وقال لرسول الله : إنك نبىٌّ هذه الأمة ، وإنْ يدركنى يومك أنصرْك نصراً مؤزراً ، وليتنى أكون حياً يوم يخرجونك .

فقال ﷺ : أو مُخرجىَّ هم ؟ قال : نعم ، ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا أخرجه قومه[2] .

إذن : فالهجرة كانت موجودة منذ الخطوات الأولى للبعثة ، لأنها تمامٌ لإشراق الإسلام فى مكة .

وقوله : ﴿ فَاتَّبِعْهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية] أى : اتبع هذا الطريق المستقيم وهذه الشريعة ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية] أهواء الكافرين لأنهم اقترحوا على رسول الله وقالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فنهاه الله عن اتباعهم ، وفى هذه

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى قريشى ، حكيم جاهلى ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة ، ابن عم خديجة ، توفى نحو ١٢ قبل الهجرة ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى . [الأعلام للزركلى ٨/١١٤ ، ١١٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣١) ، وأحمد فى مسنده (٢٤٦٨١) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وأبو عوانة فى مستخرجه (حديث ٢٤٥) ولفظ مسلم : لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن أدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

المسألة نزلتْ سورة الكافرون[1] .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى : كفار مكة لأنهم ذهبوا إلى عمه أبى طالب وقالوا : لو كان ابن أخيك يريد المال جمعنا له من أموالنا حتى يصير أغنانا ، وإنْ كان يريد الملْك ملّكناه علينا ، فقال سيدنا رسول الله قولته المشهورة : « والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[2] .

﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يعين بعضهم بعضاً ويساند بعضهم بعضاً ، فقد جمعهم الظلم ووحّد أهدافهم ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية] أى : فى المقابل الله ، هو ولىُّ المتقين يُعينهم ويُؤيّدهم وينصرهم ، فهذه من المقابلات التى تزيد المعنى وضوحاً .

---

(١) أورده السيوطى فى تفسيره (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) سورة (الكافرون) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس أنهم قالوا لرسول الله : إنّا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) أوردته كتب السيرة ، فقد أورده صاحب (عيون الأثر) (١/ ١٣٢) وكذا ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٤٧٤) والسهيلى فى (الروض الأنف) (٢/ ٦) كلهم من طريق محمد بن إسحاق .

﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾

كلمة ﴿ بَصَائِرُ .. (٢٠) ﴾ [الجاثية] جمع بصيرة ، وهي ما يُوجد في وجدان الإنسان من نور الحق ، فالبصر يرى الماديات ، والبصيرة ترى المعنويات والقيم وتميزها .

إذن : محلها القلب ، فهي نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده ، نقول : فلان عنده بصيرة . يعني : نظر ثاقب للأمور ، ويمكنه أنْ يتنبأ بالشيء فيأتي وفْقَ تنبؤه .

والهدى أو الهداية أنْ تصلَ إلى الحق من أقرب طريق وأيسره عليك ، فليس في الهدى مشقَّة ؛ لذلك وصف اللهُ المؤمنين بقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥) ﴾ [البقرة] فهم على الهدى كأنه دابةٌ تحملهم إلى غايتهم ، وإلى مراد الحق منهم .

﴿ وَرَحْمَةٌ .. (٢٠) ﴾ [الجاثية] هذه كلها أوصاف للقرآن الكريم ، فهو بصائر للناس وهو هدى وهو رحمة ، وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

وقلنا : هناك فَرْق بين الشفاء والرحمة ، فالشفاء يعني وجودَ داء يعالجه القرآن أو اعوجاج يُقوّمه القرآن ويُصحِّح مساره ، فالقرآنَ يجبر ما فينا من نقص ، ومن تقصير ، ومن غفلة ، ومن انحراف ويُعدل مسارنا إلى الطريق الصحيح وإلى الحركة البناءة .

مثل التلميذ حين ينصــرف عن دروسه ، فإنه يرسب ويفشل فإن عاد إلى الصــواب وذاكر ينجح كذلك ، فنحن إنْ غفلنا عن كـتاب ربنا وعن منهـجه أصــابتنا الأمراض فـإنْ عُدْنا إليـه شفـانا . أما الرحـمة فتعنى ألاَّ يأتى الداءُ أصلاً .

وقوله سبـحانه : ﴿ هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾ [الجـاثيـة] أى : أن هذا الأثر للـقـرآن لا يكون إلا للمــوقنين المـؤمنين بـه وبصــدقـه ، وأنه هو المنهج الحـق الذى يحـوى النور والهداية والشفاء والرحمة .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا[1] السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾

الفعل ﴿ حَسِبَ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] بكسر الســين يعنى : ظنَّ ، وهناك حسب بالفتح من الحـساب والعَدِّ . ومعنى ﴿ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] يعنى : فعلوها واكـتسبوها لذلك نُســمِّى الجوارح من الطيـور (الكاسبـات) لأنها تُسـتخـدم للصيـد ، فهى كـواسب . والسيئة هى كل ما يسوء صاحبه ، يسوءه عقاباً أو ذماً .

وفى الآية استفهامٌ يفيد الإنكار والتعجب من هذا الظن ، فكيف نُسوِّى بين الكافرين والمـؤمنين ، أو بين الطائعين والعـاصين ، فالذين انصــرفوا عن دعوتك يا محمد ، وظنوا أنْ نُسوِّيهم بالذين آمنوا ظنهم خاطىء .

---

(١) اجترحوا السيئات : عملوها . [القاموس القويم ١/١٢٠] وأصله استخدام جوارح الإنسان من يد ورِجْل وغيره .

فشتَّان بين هذا وذاك ، ولن نعاملهم كما نعاملكم ، بل نعاملهم فى الدنيا بالهزيمة ، ونعاملكم بالنصْرة والتمكين ، ونعاملهم فى الآخرة بالعذاب ، ونعاملكم بالنعيم والثواب .

﴿ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] يعنى : لا نُسوِّى بينكم وبينهم ، لا فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية] فمَنْ يحكم بالمساواة هنا ساء حكمه وبطل ، لأنه حُكْم جائر مُنَافٍ للحق وللعدل .

فكأن ظنهم هذا هو الذى أرداهم وأغراهم بعدم الإيمان بك ، وإلا لو أيقنوا أن الغاية مختلفة ، وأن الجزاء مختلف لآمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه أن الظن الجائر والخاطىء من الكافرين ، وهو أنْ نُسوِّيهم بالذين آمنوا .

وبعد أنْ بيَّن سبحانه وجه الظلم فى هذا الظن يُحدِّثنا هنا عن عدله سبحانه ، وعن ميزان الحق الذى به قامتْ السموات والأرض بداية ، وقبل أنْ يخلقَ الإنسان ، وقبل أنْ يوجد المؤمن والكافر .

فبالحق خلق الله السماوات والأرض ، وأنشأهما بحساب دقيق وعدل مطلق ، فعدالة السماء لا تقتصر على جزاء الآخرة كُلٌّ بعمله ، إنما هى عدالة أزلية بها قامتْ عملية الخلق .

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

وهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [الجاثية] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، ونحن نرى آيات الله فى الكون سمائه وأرضه نجدها آيات ثابتة تسير بنظام محكم دقيق لا يتخلف أبداً ولا يتبدل ، لأنها بُنيت بدايةً على الحق .

وكأن الله تعالى يعطينا إشارة ويلفت أنظارنا إلى أن حركة حياتنا فى هذه الدنيا لن تستقيم ولن تسير فى سلام إلا إذا قامتْ على الحق وبُنيت بميزان الحق ، الذى به قامتْ السموات والأرض .

اقرأ مثلاً : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : خُلقَتْ بحساب دقيق ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

وتأمل ختام الآية : ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [الجاثية] فما دام الأمر قائماً على الحق ، فلا بدَّ أنْ تتحقق العدالة فى الجزاء ، وأنْ ينتفى الظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : حكى ابن جريج أنها نزلت فى الحارث بن قيس وحكى النقاش أنها نزلت فى الحارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبى ﷺ ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق . فقال له : مه . وما دلَّك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن . والله إنى لأعلم أنه لصادق . قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجله كسرة ، واللات والعزى إن اتبعته أبداً . فنزلت ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ .. (٢٣) ﴾ [الجاثية]

الإله هو المعبود الذى تكرِّس كلّ حياتك لخدمة مراده منك ، وكلمة المعبود كلمة عامة تُطلق على المعبود بحق ، وهو الله تعالى الخالق الرازق المبدع لهذا الكون وتُطلق على المعبودات بالباطل كالذين عبدوا الأصنام أو الشمس أو القمر .

هذه وغيرها معبودات باطلة لا تضر ولا تنفع ، وما عبدها الجهلاء إلا لإرضاء عاطفة التدين عندهم ، فهم يريدون ديناً بلا تكاليف ، وإلهاً بلا أوامر ولا نَواهٍ .

ومن هذه الآلهة الباطلة الهوى ، فمن الناس مَنْ يتخذ إلهه هواه ، والهوى فى حدِّ ذاته مذموم ، لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى .

ولما مدح الحق سبحانه رسول الله قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ [النجم] حتى وإنْ عدَّل له ربه تعالى بعض الأحكام لأنها ساعة الحكم الأول لم تصدر منه عن هوى فى نفسه ، لذلك قال عن نفسه ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه أن الذى اتخذ إلهه هواه إنسانٌ ضال﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ۝٢٣ ﴾ [الجاثية] أى :حكم بضلاله لأنه جعله مختاراً ، فاختار هواه ، ولو جعله مقهوراً كالسماء والأرض ما استطاع المخالفة ، وقلنا : إن الله يريد منا القلب لا القالب ، يريدنا أنْ نذهب إليه طواعية .

---

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس]
إذن : لما اختار الضلال ووجده الله تعالى ضالاً حكم عليه أزلاً بأنه ضالّ ، وجاء الواقع كما حكم الحق سبحانه ، وكما علم الله منه . لذلك قلنا : إن الملائكة تظلّ تتعجَّب حينما يروْنَ واقع الحياة وفْق ما كتب فى اللوح المحفوظ فيقولون : نِعْم الرب .

معنى ﴿ أَفَرَأَيْتَ .. (٢٣) ﴾ [الجاثية] يعنى : أعلمتَ سَواء أكنتَ رأيت بعينك أو لم تَرَ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ، لأن رسول الله وُلد فى هذا العام ولم يَرَ حادثة الفيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً (٢٣) ﴾ [الجاثية] معنى ختم يعنى : ضرب وطمس ، وهنا جمع كل وسائل الإدراك فى النفس الإنسانية ، الأذن التى تسمع آيات الله تسمع بلاغة كلام الله ووعده ووعيده ، والبصر الذى يرى الآيات الكونية ويتأملها ويستدل بها على خالقها ومُبدعها ، والقلب محل الاعتقاد .

وما ختم الله على كل هذه الوسائل إلا لأن صاحبها أحبَّ الكفر وارتاح إلى الضلال ، فأعانه الله على ا يحب ، وختم على هذه الجوارح حتى لا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، وكيف يؤمن مَنْ لا يسمع كلام الله ولا يرى آياته فى الكون ولا يميل قلبُه إلى لذة الإيمان بالله .

لذلك قال فى ختام الآية : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ (٢٣) ﴾ [الجاثية] لا أحد يملك هدايته كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر]

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

هذا إنكار منهم لليوم الآخر ، ولكن الحق لا بدّ وأنْ يظهر فى (فلتات) الألسنة ، فوصفهم للحياة التى يعيشونها بأنها دنيا دليل واعتراف منهم بأن هناك حياة أخرى أشرف وأعلى من هذه .

كما جاء فى قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فيعترفون أنه ﷺ رسول الله مع أنهم مُعادون له كافرون بدعوته .

وقولهم : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا.. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية] يقصدون نموت نحن ويحيا أبناؤنا من بعدنا ، وهذا لأنهم لا يؤمنون بالحياة بعد الموت ، فالحياة التى يقصدونها هى امتداد أبنائهم من بعدهم .

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية] أى : الزمن هو الذى يميتنا ، ومعلوم أن الزمن ظرف للأحداث ، وهو مخلوق لله تعالى لا يميت ، إنما الذى يميتُ هو الله ، وفى الحديث القدسى : « لا تسبُّوا الدهر فأنا الدهر[1] » أى : خالقه ومالكه .

﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية] وما دام

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبى هريرة (حديث ٥٠١٤) أنه قال : « لا تسبوا الدهر . قال الله عز وجل : أنا الدهر الأيام والليالى أجددها وأبليها وآتى بملوك بعد ملوك » . وقد أخرجه مسلم (حديث ٤١٦٩) من حديث أبى هريرة « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » .

ليس لهم علم بذلك ، فلماذا يُعاقبهم الله ؟ قالوا : يعاقبهم لأنهم ردُّوا العلم الذى جاءهم من ربهم على ألسنة الرسل ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية] ما هم إلا يظنون أى فى قولهم : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ(١) إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

لم تستقم للكافرين حجة واحدة ، بل كانت لهم حجج كثيرة يسوقونها للتملص من الإيمان بالله ورسوله وقرآنه ، لذلك نجدهم عندما تُتلى عليهم آيات الله أى : آيات القرآن نجد لهم حججاً كثيرة متنوعة .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال]

وفى آية أخرى يقول : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. ﴿١٥﴾﴾ [يونس]

فهم يطلبون طلبين . الطلب الأول : يريدون قرآناً غير الذى أنزله الله . والطلب الثانى : أنهم يريدون تبديل آية مكان آية . وهم قد طلبوا

---

(١) قال الزمخشرى : « فإن قلت لم سمَّى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يُدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها فسمُيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله : تحية بينهم ضرب وجيع .
كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجة البتة » [نقله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٢٢٣)] .

حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير .

وكما طعنوا فى القرآن وأرادوا تبديله وتغييره طعنوا فى رسول الله الذى أُنزل عليه هذا القرآن ، فقالوا : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ]

حجج تتلوها حجج ، ومقصدهم أن لا يؤمنوا ، و هم يعلمون أن كل حججهم ساقطة لا أساس لها ، وقد يسأل سائل : إذا كان الله يسوق حججهم فى عدة آيات من قرآنه ، فلماذا يقول فى آية سورة الجاثية ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية]

فلماذا حصر حجتهم هنا بـ (ما كان) و (إلا) ؟

ولو تأملنا كل الحجج السابقة سنجدها مجرد (تلاكيك) لأنْ لا يؤمنوا ، ولكن حجتهم الرئيسية التى كانت أصيلة فيهم وفى تفكيرهم هى أنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث بعد الموت .

لذلك قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية]

وقد قال الحق سبحانه ﴿إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان]

وكان منهم من أمسك عظاماً بالية فى يده وفركها حتى أصبحت

رماداً ويتطاير ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

لقد كانوا يستبعدون البعث بعد الموت ، لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان ، ولو أحصينا تعداد العالم لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقل فى الماضى ، وهكذا إلى أن نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بد أن يفكروا فيها .

ولقد رد عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه هو وحده القادر على ذلك ، فكيف تقلبون الحقائق لأنكم تعرفون الواقع وتُكذِّبونه كذباً متعمداً ؟

هؤلاء ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا .. (٢٥) ﴾ [الجاثية] أى : إذا تُتْلى عليهم آيات القرآن (بينات) واضحات الدلالة .

﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الجاثية] يعنى : لم يجدوا حجة يحتجون بها على عنادهم وإنكارهم ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥) ﴾ [الجاثية] أى : الذين ماتوا إن كنتم صادقين .

وهذا طلب يدل على إفلاسهم وعنادهم ، فليس عندهم منطق ولا حجة تبرر هذا العناد .

لذلك ردَّ الله عليهم بقوله :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى : قُلْ لهم يا محمد ﴿ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية] أى : فى الدنيا ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية] بعد البعث والنشور ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية] لا شكَّ فيه ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية] فنفى عنهم العلم .

إن علمهم قاصر عن أنْ يدرك حقائق الأمور ، فكما أن الخلق آية من آيات الله فكذلك الموت آية من آيات الله نراها ونلمسها كل يوم ، وما دُمْت تصدق بآية الخلق وآية الموت وتراهما ولا تشك فيهما .

فحين نقول لك إن بعد هذه الحياة حياة أخرى فصدِّق ، لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أن تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يعطى المحى ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها ، والإحياء الأول فى آدم حين خلقه ربه وسوَّاه ونفخ فيه من روحه ثم أوجدنا نحن من ذريته .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

فكفركم لا حجةَ لكم فيه ولا منطق ، فقضية الإحياء من عدم والخلق قضية لا تحتمل الجدل ، فأين كان آدم قبل أن يخلقه الله ،

وأين كنتم ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

فقضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها ، فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم ، ولم يدَّعِ أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .

وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ... (٢٦) ﴾ [الجاثية] فإن أحداً لا يشك فى أنه سيموت ، فالموت مُقدَّر على الناس جميعاً ، والخَلْق من العدم واقع بالدليل ، والموت واقع بالحسِّ والمشاهدة .

ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه قرَّبها لنا بشىء مشاهد .. كيف ؟ فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة فى الخلق لم نشهدها ، ولكن الموت شىء مشهود لنا جميعاً .

وما دام الموت مشهوداً لنا ، فالحق سبحانه يأتى به كدليل على مراحل الخلق التى لم نشهدها ، فالموت نقض للحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] فالجمع هنا أى بعد البعث والإعادة والإحياء من الموت ، إنه يوم الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ..(٧) ﴾ [الشورى]

أى : تُخوفهم من هذا اليوم وهو يوم القيامة ، والجمع فى هذا اليوم يكون من عدة وجوه : البعث حيث يجمع بين الجسم والروح ، ويجمع الملائكة فى الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ

فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

هنا أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، أفاد قصر ملكية السموات والأرض على الله وحده لا شريك له : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجاثية] تقوم القيامة كأنها كانت نائمة وقامتْ ، وأبهم الساعة لننتظرها في أيٍّ لحظة .

فالإبهام هنا كما قُلْنا عَيْن البيان ، لأنه يجعلنا دائماً على استعداد لها ، كما أبهم الله تعالى أجل الإنسان ليستحضره دائماً فى أىٍّ وقت ولا يغفل عنه ، ومَنْ لا يملك لنفسه البقاء طرفة عيْن جدير ألاَّ يغفل عن آخرته ويحذر أنْ يأتى أجله وهو على معصية الله .

فمَنْ مات على شىء بُعث عليه[1] خاصة إذا كان الموت لا ينتظر أسباباً ، فالموت من دون أسباب هو السبب ، مات لأنه يموت وقد حان أجله ، وقد تنبه الشعراء لهذا المعنى فقال أحدهم[2] :

فِى المـوْتِ مَا أعيـاَ وَفِى أسْبَابِهِ   كُـلُّ امـرىءٍ رهـْنٌ بطَـىِّ كِتَـابِـهِ

(١) أخرجه الحارث فى (البُغية) باب : من مات على شىء بُعث عليه (١٢) حديث (٣٢) عن فضالة بن عبيد الأنصارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من مات على مرتبة من هذه المراتب بعثه الله عليها يوم القيامة » .

(٢) الشاعر هو أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، ولد ١٨٦٨ م وتوفى ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً .

أسَـد لَعَـمـرِكَ مَنْ يمـوتُ بظُفْـرِه عندَ اللقَـاء كَـمَنْ يمـوتُ بنَابه
إنْ نــامَ عنْـكَ فأيُّ طَلَـب نافــعٌ أوْ لم ينَمْ فالطـبُّ من أذْنابه[1]

نعم يدخل غرفة العمليات فـلا يخرج منها ويكون الطب هو سبب موته . إذن : الحق سبحانه يبهم لـحكمة وهدف . ومن رحمته تعالى بخَلْقـه أنه لما أبهم السـاعة جـعل لها عـلامات تنبّـه الغافل حـتى لا تُفاجئ الناس .

من رحمته بنا أن جعل لها علامات صغرى وعلامات كبرى ، هذا حنان من الله على خَلْقه : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) ﴾ [الجاثية] أى : المستمرون فى الباطل ، وكلمـة (يخسر) من الخـسارة التى يقـابلها المكسب ، وهذه مسـألة يعرفهـا التجار ، فكل تاجـر يريد المكسب أى : الزيادة على رأس المال .

إذن : كل عـمل من الأعمـال يجب أنْ يُحـسبَ من حـيث المكسب والخسارة ، فـالكافر فى الدنيا يظن أن عمله يعـود عليه بالمكسب فى الدنيا ، لكن سيُفاجأ يوم القيـامة حيث انتهى وقت العمل أنَّ عمله عاد عليه بالخسـران .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا .. (٣٠) ﴾ [آل عمران]

ومعنـى الخسارة هنـا ان يجد أن كل أعمـاله ذهبتْ هباء مـنثوراً

(١) الأبيات من قصيدة لأحمد شوقى ، عدد أبياتها ٥٥ بيتاً من بحر الكامل .

دون فائدة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

لذلك لما سُئلنا عن أصحاب الاختراعات والابتكارات التى خدمت البشرية ويسَّرتْ على الناس حركة الحياة ، وخفَّفتْ آلام المتألمين : كيف بعد هذا كله يدخلون النار ؟

قلت : نعم ، لأنهم عملوا هذه الأعمال لخدمة الإنسانية ولم يكُنْ الله فى بالهم ، لذلك أخذوا أجورهم من البشرية تكريماً وتخليداً لذكراهم وتمجيداً لهم ، فعملوا لهم التماثيل وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، ولو عملوا لله لوجدوا الأجر عند الله ، لأن الأجير لا يطلب أجره إلا ممنْ عمل له .

لذلك سيُفاجأ الكافر بهذه الحقيقة ، هذه المفاجأة نفهمها من قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] فُوجىء بإله لم يكُنْ فى باله ، أو كان مُنكراً له كافراً به .

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾

أى : يوم القيامة ترى كل أمة جاثية ، من الفعل جثا جثواً أى : برك على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه ، وهذا وضْع الخائف الخاضع الذليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم]

وقريب منه الفعل جثم جثوماً أى : لزم مكانه أو لصق بالأرض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود]

إذن : فالموقف موقف عصيب ، موقف رعب وهَوْل وهلع بحيث لا يتمكن الناسُ من القعود على مقاعدهم فيقعدون على رُكَبهم ، فإنْ اشتدَّ الهول وقفوا على أطراف أصابعهم ، وهى وقفة مَنْ ينتظر الخطر والهول ، أما القعود الطبيعى فيُمكِّن الإنسان مقعدته من الأرض ويكون فى حال الاطمئنان .

وفرْقٌ بين القعود والجلوس وإن كانت المحصلة واحدة ، إلا أن القعود يكون بعد الوقوف . نقول : كان قائماً فقعد ، أما الجلوس فيكون من حال الاضطجاع . كان مضطجعاً فجلس .

إذن : هنا مسألة فلسفية : القعود يكون من وضع أعلى وهو القيام ، والجلوس من وضع أدْنى وهو الاضطجاع ، والجلوس أو القعود يضمن للإنسان الراحة حيث يكون معظم جسمه على الأرض فيرتاح على خلاف القائم مثلاً فتحمله قدماه .

لذلك إذا وقفتَ مدة طويلة تتعب وتبادل بين قدميك فى الوقوف ، ثم يزيد الحمْل على القدمين إنْ أضفت إلى القيام المشى ، ثم يزيد إذا أضفتَ على المشى شيئاً تحمله ، وهكذا .

فإذا تعب الإنسانُ فأول شىء يضع الحملَ الذى يحمله ليخفَّ الحمل على القدمين ، ثم يتوقف عن المشى ليقلّل المجهود ، ثم يقعد، وبعد ذلك يضطجع فيلقى بكل جسمه على الأرض ، وهذا الوضع يضمن منتهى الراحة للبدن .

لكن هذا التصوير القرآنى فى جاثية أو جاثمة لا يدل على الراحة، إنما يدل على الخضوع والذلّة والانكسار وشدة الخوف الذى يجعل الإنسان والعياذ بالله يلتصق بالأرض ، أو يجثو على ركبتيه من شدة الخوف .

فالحق سبحانه يُصوِّر هذا الموقف تصويراً لفظياً يُشعرك بفظاعة الموقف وشدة كربه ، ولك أنت أنْ تتخيل الموقف ، وأنْ تأخذه تجربة مررت بها بالفعل فى موقف رهيب ينشغل فيه كل امرىء بنفسه .

فالقيامة قامت ، قامت يعنى : لن تقعد والأمة جاثية ، الكل المؤمن والكافر ، الكل جَاث ينتظر ما سيحدث ، لا أحدَ هنا فوق القانون (مفيش جستنة) فالفزع والهول يَغشى الجميع ، والكل ينتظر كلمة الحق .

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ[1] كِتَابِهَا .. ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية] فنسب الكتاب إلى الأمة ، لذلك وقف المستشرقون عند هذه الآية يعترضون ، لأن الحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية]

فمرة أسند الكتاب إلى الأمة ، ومرة أسنده إليه سبحانه ، ولو

---

(١) كلمة (كتابها) هنا تعنى معانى عدة ، منها :
- تُدعى إلى حسابها . قاله يحى بن سلام .
- تُدعى إلى كتابها الذى كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر . قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد .
- تُدعى إلى كتابها المنزّل عليها لينظر : هل عملوا بما فيها ؟
- تُدعى إلى الكتاب وهو هنا اللوح المحفوظ . [ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٩/ ٦٢٢٤) .

فهموا عن الله ما وجدوا فى ذلك وجهاً للاعتراض .

فمعنى (كتابنا) أى : الذى طلبنا من الحفظة أنْ يكتبوه ليكون حجةً على صاحبه يوم القيامة ، فنقول له : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ⑭﴾ [الإسراء]

وهو أيضاً كتابهم أى الذى كُتِب عليهم فيه ، وسجّل فيه أعمالهم ، إذن : لكل لفظ معناه ودلالته ، ومعلوم فى أسلوب القرآن أنه يستعمل اللفظ هنا بمعنى وهناك بمعنى آخر .

والقرآن مُجمله يحتاج فى فهمه إلى تأمل وتدبّر وعلم بأسباب النزول وملابسات الآيات : اقرأ مثلاً قوله الله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ⑤﴾ [النساء] السّفيه : هو الذى لا يحسن التصرف فى ماله ، لذلك لم يجعل له الشارع مالاً ، إنما المال فى حال السَّفه مِلْك لوليه .

لذلك قال ﴿أَمْوَالَكُمُ .. ⑤﴾ [النساء] مع أنها من حَقِّ هذا السَّفيه ، لأن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم[1] .

إذن : نأخذ مال السفيه ونحافظ له عليه حتى نأنس منه رُشداً فندفع إليه ماله ليتصرف هو فيه ، لذلك قال تعالى فى إعادته : ﴿فَإِنْ آنَسْتُم[2] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ⑥﴾ [النساء] ونسبها

---

(١) رواه عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » الحديث (٢٣٧١) سنن أبى داود ، والنسائى (حديث ٤٦٥٤ ، ٤٦٦٤ ، ٤٦٦٥) ولكن من حديث على بن أبى طالب .

(٢) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمه وفكره . فقوله : ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ..⑥﴾ [النساء] أى : علمتم وأدركتم إدراكاً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

إليهم لأنها صارتْ ملكاً لهم ، ولهم حرية التصرف فيها .

وقوله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ .. (٢٨) ﴾ [الجاثية] أى : يوم القيامة ﴿ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ [الجاثية] فالجزاء من جنس العمل .

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ[1] مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾

قوله : ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا .. (٢٩) ﴾ [الجاثية] أى : كتاب الأعمال ﴿ ينطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ .. (٢٩) ﴾ [الجاثية] معلوم أن النطق يكون باللسان لأنه وسيلة البيان الأولى ، واللسان هنا لسان الحال مع أن الكتاب فى الواقع يُقرأ ولا يَنْطِق ، لكن هذا الكتاب لشدة إظهاره للحق كأنه ينطق ويشهد على صاحبه .

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ [الجاثية] معنى نستنسخ نثبت ، أو نأخذ منه نسخة أخرى نعطيها لصاحب الكتاب ليقرأها وليطلع على ما قدّم فى دنياه .

كما نقول مثلاً : أصل وصورة ، فنعطيه صورة من كتابه ومن أعماله لتكونَ حجة عليه .

ومن معانى النسخ الإثبات الذى لا يترك شيئاً ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(١) كنا نستنسخ : أى نكتبه ونكلف الملائكة أن يكتبوه لنحاسبكم به بدقة بغير زيادة ولا نقص . [القاموس القويم ٢/٢٦٢] .

عَملَتْ مِنْ خَيرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَملَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وبينهُ أَمَدًا بَعِيدًا .. (٣٠) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ (٣٠)﴾

ما دمنا بصدد الحديث عن كتاب الأعمال الذى يقرأه الإنسان ، فهذه الآية تتحدث عن النوع الأول وهو المؤمن الذى عمل صالحاً ، فأخذ كتابه بيمينه ووجده على أحسن صورة ففرح به وتباهى .

فهذه الآية أوضحها الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

وتأمل هنا كلمة ﴿فِي رَحْمَتِهِ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] فكأن الرحمة ظرف لهم يُدخلهم فيه ويعمُّهم به ، فالرحمة تغمرهم وتحيط بهم من كلِّ جانب ، فليس لهم هنا إلا الرحمة لأنهم شَقُوا فى الدنيا وتحمَّلوا أعباء العبادة والعمل الصالح وتقلَّبوا بين نعمة وشقاء ، ومكسب وخسارة ، وصحة ومرض ، أما هنا فلن يجدوا إلا رحمة الله تعمُّهم وتشملهم .

وكلمة ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] دلتْ على أن الإيمان القلبى وحده لا يكفى ، بل لا بدَّ له من ثمرة ، وثمرة الإيمان

وفائدته أنْ توظفه لخدمة من آمنتَ به .

لذلك دائماً يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] لأن الإيمان بالله وبالبعث والحساب والقضاء والقدر يجعل الإنسان على يقين من أنه محاسبٌ مسئول عن كلِّ تقصير .

وما دام أنك ستُسأل فلا بدَّ أنْ تكون يقظاً لا تستهين بالذنب مهما كان صغيراً ، ولا تزهد فى الخير مهما كان يسيراً ، فمَنْ كانت نهايته الحساب كان جديراً ألاَّ تُفلتَ منه هذه المسائل إلا سَهْواً أو نسياناً ، فالسهو والنسيان يجبرهما الاستغفار والتوبة .

وقلنا : من رحمة الحق بالخلْق أنْ شرع لهم التوبة مجرد مشروعية التوبة ، وفَتْح بابها للناس رحمة ، رحمةٌ بالمقصِّر المذنب ، ورحمة بالمجتمع الذى يَشْقى بذنوب المذنبين .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] إشارة إلى دخول أهل الإيمان والعمل الصالح فى رحمته ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) ﴾ [الجاثية] الواضح المحيط بالنفع الكامل ، بحيث لا يتسرب إليه شىء يناقض الحق فى الرحمة . ثم فى المقابل :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) ﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا ، وهؤلاء يأخذون كتابهم بشمالهم ،

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) ﴾ [الحاقة]

إذن : جزاء هؤلاء النار ، لكن قبل أنْ يدخلوها لا بدّ أنْ يُعاتبهم أو يُؤنِّبهم هذا التأنيب ، ويُبيِّن لهم أنه لا عذرَ لهم في عدم الإيمان ، فقد جاءتْهم الآيات البينات وجاءتهم الرسل فما قصّرنا في حقِّهم ، وما تركناهم هَملاً ، ولم نأخذهم على غِرَّة ، وطالما دعوناهم وتحنَّنا إليهم .

ونلاحظ أن هؤلاء جمعوا بين الاستكبار عن الحق وبين الإجرام ، فالاستكبار يعني ردّ الحق وعدم قبوله من صاحبه الذي جاء به وهو الرسول ، ولَيْتَهم وقفوا عند هذا الحد وتركوا الناس في حالهم إنما تجاوزوا ذلك إلى الإجرام ، وهو أن تهزأ بمَنْ آمن وتسخر منه .

وهذه المسألة شُرحَتْ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين] أي : سُخريةً واستهزاء .

ثم ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) ﴾ [المطففين] وهذا يدل على أنه وأهله في الإجرام سواء ، وأن الفساد يعمُّ الجميع .

ونحن نرى هذا الصنف من البشر في كلِّ زمان نراهم يسخرون ممَّنْ يصلي أو ممَّنْ يتشبَّه بسيدنا رسول الله ، ونسمع منهم كلمات السخرية مع أنهم يقرأون معنا هذه الآية .

---

(١) فكهين : الفكه الكثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، فكانوا يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/٨٨] .

لكن الحق سبحانه يُطمئن أهل الإيمان ويقول لهم : لا تهتموا بهذا الذى ينالكم منهم فى الدنيا ، وانتظروا ما يحدث فى الآخرة : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] نقول : نعم يارب لقد جازيتهم بما يستحقون .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾

هؤلاء نوع آخر من المكذِّبين بالبعث ، فالنوع الأول متيقن ومُصدِّق أنه لا يوجد بعْث ولا حساب ، وهؤلاء لم يصلوا إلى مرحلة اليقين ، إنما هم يظنون أن هناك بعثاً ، والظن أنْ ترجح شيئاً على شىء .

وسبق أن أوضحنا : أن النِّسَب خمسة : علم ، وجهل ، وشكٌّ ، وظنٌّ ، ووهم . الظن أنْ تغلب الشىء الذى تظنه . والوهم : أن تغلب الباطل .

فهناك شىء أنت تجزم به ، وشىء لا تجزم به ، وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به وهو غير واقع ، فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل على

عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ، لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم ، فالظن هو ترجيح النِّسب على بعضها ، والشك هو تساوى الكفتين .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يعنى : ظهر لهم عملهم السيء فى الدنيا ﴿ وَحَاقَ بِهِم .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : أحاط بهم فلا يجدون منه مفراً ولا مهرباً ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الجاثية]

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

هنا تأمل لطف الله ورحمته حتى بأعدائه والكافرين به ، فالفعل ﴿ وَقِيلَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية] مبنى للمجهول فلم يقُلْ قال الله ، فمن رحمته بهم ألاَّ يُواجههم بهذه الحقيقة ﴿ الْيَوْمَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يوم القيامة ﴿ نَنسَاكُمْ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية]

الحق سبحانه وتعالى لا ينسى ، فالمعنى نترككم فى العذاب مُهملين ، ولا نلتفت إليكم بالرحمة ، كما يترك الناس الأمر فلا يخطر ببالهم ، لأنه لو خطر بباله ربما أخذتْه الرحمة بهم .

ثم يُبين الحق سبحانه علة هذا النسيان ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : ننساكم فى العذاب كما نسيتم هذا

اليوم وكما تركتم العمل له ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ .. (٣٤) ﴾ [الجاثية] المأوى : هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ليرتاح من التعب ، أو يأمن من الخوف ، فما بالك إنْ كان مأوى هؤلاء النار ومُستقرهم ونهايتهم ، ماذا يكون حالهم ؟

وفوق هذا كله ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ﴾ [الجاثية] هذا قَطْعٌ للأمل فى النجاة ، وتيئيس لهم ، فهُمْ فى هذا المأوى لن يجدوا مَنْ يُخلِّصهم منه أو يعطف عليهم ويخفف عنهم العذاب ، بل بالعكس سيتبرأون منكم ويتركونكم فى العذاب ، بل ويسبقونكم إليه ، كما قال فى فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾[هود]

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾

﴿ ذَٰلِكُم .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : الذى نزل بكم وحاق بكم من العذاب ، سببه أعمالكم السيئة فى الدنيا ، فهو جزاء وفاقٌ ولم نظلمهم مثقال ذرة ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : مهزوءاً بها ، فهم أنكروها وكذَّبوا بها وسخروا منها .

وكلمة ﴿ هُزُواً .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] مبالغة فى الاستهزاء كما تقول: فلان عادل وفلان عدل . يعنى : هو العدل نفسه .

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : خدعتكم بزخرفها وبهجتها وبهرجها فعملتم لها ونسيتم العمل للآخرة ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : من النار .

﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الجاثية] من الفعل عتب ، والعتاب لا يكون إلا بين الأحبَّة ، لذلك قالوا : ويبقى الود ما بقى العتاب ، فإذا أسأتَ مثلاً إلى صديق لك فيأتى هو إليك ويُعاتبك ، ويريد أنْ يسمع منك اعتذاراً أو عذراً ليستديم مودتك ، لأنه لا يريد القطيعة بينكما .

فيُقال : استعتب فلان فأعتبه . يعنى : أزال سبب عتابه ، وهذه الهمزة تسمى همزة الإزالة ، قال الشاعر :

أمَّا العتَابُ فَبالأحبَّةِ أخْلَقُ والحُبُّ يصلُح بالعتَاب ويصْدُقُ(1)

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ عندما عاد من الطائف بعد أنْ آذاه أهلها جلس يناجى ربه : إنْ لم يكُنْ بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكنه تذكر فقال : لكن عافيتك هى أوسع لى ، لك العتبى حتى ترضى(2) .

يعنى : لك عندى يا رب ما أزيل به عتابك ، يعنى : لام على شىء ظنه تقصيراً .

إذن : أعتبه أزال عتابه ، مثل : أعجم الحرف يعنى أزال عُجْمته ، وتعرفون أن الحروف العربية كانت تُكتب أولاً بدون نقط اعتماداً على الملَكة العربية الصافية التى تستطيع أنْ تستشفّ الحرف المراد ، فلما ضعُفَتْ هذه الملَكة عند الناس احتاجوا إلى النقْط لفهم المعنى المراد .

فالحق سبحانه يقول عن هؤلاء ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الجاثية] لا يُقبل منهم عتاب ، ولا يُقبل لهم عذرٌ ، ولا يُقبل فيهم شفاعة ، فإنْ

---

(1) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل .

(2) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/١٥٠) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/٢٣١) وابن القيم فى زاد المعاد (٢/٢٨) وابن هشام فى السيرة النبوية (١/٤٢٠) وهو مُسَاق فى خروج رسول الله إلى الطائف .

طلبوا إرضاء الله تعالى بأىِّ وسيلة تُرد ولا تُقبل ، حتى التوبة لأنها لا تفيد فى هذا اليوم .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أولاً : كلمة (لله الحمد) جملة من مبتدأ وخبر قُدِّم فيها الخبر لإفادة قصر الحمد على الله وحده ، فالحمد واجب لله تعالى قبل كل شىء ، واجب لله على أنه خلَق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وهدى الناس بآياته البينات إلى سبيل الحق .

الحمد واجب لله على قيومته ، وعلى المنهج الذى هدانا به ، وعلى دار الجزاء التى يثيب فيها المؤمن ويعاقب فيها الكافر ، الحمد واجب لله على أنْ أحيانا بروح منه أحيت مادتنا فى الدنيا ، وروح منه أحيَتْ قيمنا فى الآخرة .

لذلك خاطبنا ونحن أحياء فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] فالمراد بالحياة هنا حياة القيم التى تمنحك الحياة الباقية الخالدة فى الآخرة .

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]
يعنى : الحياة الحقيقية التى تستحق أن نعمل لها .

ومن نعَمه تعالى التى تستوجب الحمد أنْ علَّمنا كيف نحمده سبحانه بهذه الكلمة الخفيفة على اللسان التى يستوى فى نُطْقها العالِم والأمى . الكل يقول : الحمد لله . الكل يثنى على الله بلفظ واحد ، ولو لم تكُنْ هذه المساواة لَفَاز المتعلمون والبُلغاء وأصحاب الفصاحة

والبيان وخسر الأمـى الذى لا يحسن الكلام والعيى الذى لا يقدر على التعبير .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ نبَّهنا إلـى هذه المسألة ، حين قال فى الثناء على الله تعـالى : « سـبحـانك لا نحصى ثـناء عليك ، أنت كمـا أثنيتَ على نفسك »[1]

ومعنى ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ .. (٣٦)﴾ [الجاثية] أن الحمد حقٌّ لله دائم لا ينقطع ولا ينتهى ، لا من الحامد ولا من المحمود عليه .

ثم يأتى الحق سبـحانه بالحيـثية على الحـمد لله ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦)﴾ [الجاثية] والرب هو المُربِّـى والمالك والمعطى ، فكيف لا يُحمد ؟

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧)﴾

وهذه حيثيـة أخرى لوجوب الحمد لله ، أنْ يتصف سبـحانه بصفة الكبرياء ، والكبرياء هو العظمة والجـلال والقهر ، وأيضاً الأسلوب هنا أسلوب قَـصْر ﴿وَلَهُ الْكِبْـرِيَاءُ .. (٣٧)﴾ [الجاثية] يعنى : له وحده ، وهذه من أعظم نِعَم الله علينا حتى لا نكون عبيداً لغيره .

فـالله ما جـعلك عبـداً له إلا ليكفـيك العبـودية لغيـره ، ولولا هذا

(١) أخرجه الإمـام مالك فى موطئه (حـديث ٤٤٨) أن عائشة أم المؤمنين قـالت : كنت نائمة إلى جنب رسـول الله ﷺ ففقـدته من الليل فلمسـته بيـدى فوضـعت يدى على قدمـيه وهو ساجـد يقول : أعوذ برضـاك من سخطك ، وبمعـافاتك من عقـوبتك ، وبك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثـنيتَ على نفسك » . وكذا مسلم فى صحـيحه (٧٥١) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٥) ، والترمذى فى سننه (٣٤١٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الكبرياء لله تعالى لكنّا عبيداً لكل ذى قوة ولكل مَنْ نحتاج إليه ، حتى الحداد والنجار الذى يقضى لك مصلحة يمكن أنْ يستعبدك .

إذن : معنى ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٧) ﴾ [الجاثية] كأنه يقول لك : اطمئن يا عبدى فلن تكون عبداً لغيرى ، فالعظمة والجلال والكبرياء لى وحدى وأنا لكم جميعاً ، والخلق كلهم عيالى ، وأحبُّهم إلىَّ أرأفهم بعيالى [1].

ألسْنا فى المثل الشعبى نقول : اللى ملوش كبير يشترى له كبير ، كذلك الحق سبحانه مع المؤمنين به ، الذين يعبدونه وحده يكون فى جانبهم يُيسِّر لهم أمورهم ، ويقضى لهم حوائجهم ، يستعينون به فُيعينهم ، ويلجأون إليه فيحميهم ويؤيدهم . إذن : هذه الصفة لله تعالى تُعدُّ من أعظم نِعَمه على عباده .

والحديث القدسى يؤكد هذه الصفة لله تعالى وحده ، فقال سبحانه فى الحديث القدسى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمَنْ نازعنى واحداً منهما قذفتُه فى النار » [2].

لماذا ؟ لأنه لم يخلق هذا الخلْق ولا يُؤتمن عليه ، لذلك الإنسان لا يتكبَّر على الخَلْق إلا إذا حُجبت نفسه عن استحضار كبرياء الحق سبحانه ، إنما الذى يستحضر فى نفسه دائماً كبرياء الله يستحى أنْ

---

(١) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٣٧/٤) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٥١٩/٢) وضعَّفه ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٤٥٧/١) .

(٢) حديث قدسى ، أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٦٧) وكذا ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٧٠٧٨ ، ٨٥٣٩ ، ٨٩٩١ ، ٩١٤٣ ، ٩٣٢٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يتكبَّر ، وأنْ ينازع ربَّه فى هذه الصفة .

والكبرياء مادتها كبر تـقال بفتح الباء للدلالة على الكبر والزيادة فى المادة ، وبـالضـم تدل على العظَم ، ومنه قوله تـعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] فى حادثة الإفك .

والحق سبحانه أخبرنا أن من أسمائه تعالى الكبير ولم يَقُلْ الأكبر ، مع أن الأكبر تعطى ميزة على الكبيـر ، لكن جعلها الله تعالى صفة له فى شعار الصـلاة ، فنقول : الله أكبر . لأنها تـعنى أن الصلاة تخرج من الكبيـر إلى الأكـبر ، وكـأنه تعالى يريد أنْ يقـول لنا : إن أعـمال الحياة وحركتها شىء مهم وهو كبير لكن الله أكبر .

ولأهمـية العـمل والسـعى فى حركـة الحـياة ترى أنه فى سـورة الجـمعـة أخرجك من العـمل لتـؤدى الصلاة ، ثم بعـد الصلاة أمـرك بالعودة إلى السـعى والعمل : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

فأخـذنا من قمة العمل وهو البـيع ليعطينا الشحنة الإيمـانية التى تُعيننا على الاستمرار فى مسيرة الحياة ، فلما انقضتْ الصلاة قال لنا : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

إذن : لا نحـقـر العـمل لأنه عند الله كـبـير ، وبه قـوام الحـيـاة واستمرارها ، لكن إذا ما قُورن العمل والسعى بالصلاة فالصلاة أكبر وأهمّ وأعظم ، فإذا عُدْنا إلى التسمية نجد أن الله اختار لنفسه سبحانه الكبيـر لا الأكبـر ، لأن الأكبر مـا دونه كبـير ، أما الكبـير فـما دونه صغير ، فكلٌّ شىء دون الله صغير .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والحكيم هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، فصفة الكبرياء لله تعالى لا تعنى القهر والجبروت والفتونة بلا ضابط ، بل هو أيضاً سبحانه حكيم يُصرِّف الأمور وفق حكمة مطلقة .

والمتأمل فى سورة الجاثية يجد أنها بدأتْ بقول الله تعالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [الجاثية] وختمتْ أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية]

وكأن السورة وُضعتْ بين قوسين من العزة والحكمة لله تعالى والكبرياء والحمد لله سبحانه ، ومن العجيب أن الأحقاف بعدها بدأتْ أيضاً بقول الله تعالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [الجاثية]

فكأن الله تعالى يؤكد على هذه الصفات ويُرسِّخها فى نفوس المؤمنين ليزيدهم اطمئناناً به سبحانه وبمنهجه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : اطمئنوا ، فالذى أنعم عليكم قديماً بأنْ أوجدكم من عدم وأحيا مادتكم بروح منه ، ثم أمدَّكم بمقوِّمات الحياة واستبقائها وهداكم إليه بآياته التى تُحيى قلوبكم وتعطيكم الحياة الباقية يوم القيامة .

فهو سبحانه كما ضمن لكم الماضى يضمن لكم المستقبل ، فنعَمه لا تُسلب ، وعطاؤه لا ينفد ، لأن له الكبرياء فى السموات والأرض ، فلا تُوجد قوة غيره سبحانه تنقض هذا الخير أو تمنعه عنكم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يجمع بين صفتى العزة والحكمة إنما ليقول لنا : انتبهوا إذا أصابتكم أحداثٌ تناقض هذه العزة فى مشوار الدعوة ، فاعلموا أنها ما حدثتْ إلا لحكمة .

فقد يقول قائل مثلاً : إذا كان الله عزيزاً لا يغلب ، فلماذا ترك رسوله لأهل الطائف يؤذونه ويسبُّونه ويقذفونه بالحجارة حتى أدمواْ قدميه الشريفتين .

نقول : ابحثوا عن الحكمة ، فمن الحكمة المرادة لله تعالى حين يعلو الشر أنْ يُمحص أهل الخير ، وأنْ يُصفى قاعدة الإسلام بحيث لا يثبت عليه إلا الأشداء فى العقيدة الثابتون على الحق ، فلا يحيدون عنه ، فعلى أكتاف هؤلاء سيُحمل الدين وتنتشر الدعوة ، فلا بدَّ من التمحيص وتمييز المؤمنين من المنافقين .

تذكرون قصة الحديبية عندما ردَّ الكفارُ رسول الله والمؤمنين الذين جاءوا معه لزيارة البيت الحرام ومنعوهم من دخول مكة وهم على مَقْربة منها ، وقد وافق رسول الله ﷺ على العودة دون أنْ يدخل مكة ، ودون أنْ يعتمروا وعقد معهم صلح الحديبية .

لذلك غضب المسلمون وكادوا أنْ يخالفوا أمر رسول الله ﷺ بالعودة إلى المدينة ، حتى إن عمر بن الخطاب يجادل رسول الله يقول له : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ يقول رسول الله : بلى ، يقول : أليسوا على الباطل ؟ يقول : بلى . يقول : فلم نعطى الدَّنية فى ديننا ، فيقول له الصِّديق : الزم غرزك يا عمر ، إنه رسول الله .[1] يعنى :

---

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

الزم حدودك واعرف مركزك .

ذلك لأن المسلمين كانوا على شوق للبيت وتحمَّلوا مشقة السفر إليه حتى كانوا على بُعْد عشرين كيلو متراً من مكة ، وساقوا معهم هَدْيهم واستعدوا للعمرة فشقَّ عليهم أنْ يُمنعوا منها ، لذلك تململوا من قرار الرجوع .

حتى إن سيدنا رسول الله يقول لزوجته السيدة أم سلمة[1] رضى الله عنها : هلك الناس يا أم سلمة . فتقول : ولِمَ ؟ قال : أمرتُهم فلم يطيعوا ، قالت : يا رسول الله اعذرهم فقد جاءوا على شوْق للبيت، لكن اذهب يا رسول الله وافعل ما أمرك الله به ، فإذا رأوْك تفعل عرفوا أن الأمر عزيمة وفعلوا مثلك ، فطابت نفسُ رسول الله وذهب ففعل[2] .

فلما رآه القوم فعلوا مثله وهدأتْ نفوسهم إلى قرار رسول الله ، وعادوا إلى المدينة دون عُمرة ، وقبل أنْ يصلوا إلى المدينة نزل الوحى على سيدنا رسول الله يُبيِّن لهم الحكمة التى غابتْ عنهم ويُعطيهم الدرس فى أن العزة مقرونةٌ بالحكمة .

---

(١) أم سلمة : هى هند بنت سهيل القرشية المخزومية ، تزوجها رسول الله فى السنة الرابعة للهجرة ، ولدت عام ٢٨ قبل الهجرة (أى كان عندها ٣٢ سنة عند زواجها برسول الله) وتُوفيت ٦٢ هجرية عن ٩٠ عاماً . من أكمل النساء عقلاً وخلقاً . [الأعلام للزركلى ٩٧/٨] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨١٥٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى ذكر صلح الحديبية ، وفيه أنه ﷺ قال لأم سلمة : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيتَ فلا تكلمنَّ منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون .

قال تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[١] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[٢] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

فالحكمة إذن في منعهم من دخول مكة هذا العام ، لأن فيها إخواناً لهم آمنوا سراً وستروا إيمانهم ، فلو دخلوا معهم فى معركة لالتقى المؤمنون وجهاً لوجه ، ولقتلتُم إخوانكم وأصابتكم معرّة بسبب ذلك . يعنى : إثم أو سُبَّة وعار .

---

(١) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . وعكفه : منعه وحبسه وكفَّه عن قضاء حاجاته . ومنه الاعتكاف أى ملازمة المسجد وحَبْس نفسه عليه للعبادة .

(٢) تزيَّل القوم : تفرقوا وزالوا عن مكانهم . ومعنى الآية : أى لو تفرق المؤمنون الذين يعيشون في مكة ولو فارقوا أهلها لعذَّب الله أهل مكة بهزيمتهم أمامكم . [القاموس القويم ١/٢٩٤] .



سُورَةُ الأَحْقَافِ



سورة الأحقاف(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ① تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ②﴾

هذه واحدة من الحواميم السبع ، وهى السور التى بدأتْ بقوله تعالى (حم) ، وهى سبع سور مُتصلة فى القرآن الكريم أولها غافر : ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ②﴾ [غافر] أى : العليم بما يصلحكم ، ولا تَخْفى عليه منكم خافية .

ثم فصِّلت : ﴿حمٓ ① تنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ②﴾ [فصلت] ثم الشورى : ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③﴾ [الشورى] ثم الزخرف : ﴿حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ [الزخرف] ثم الدخان : ﴿حمٓ ① وَالْكِتَابِ

---

(١) سورة الأحقاف سورة مكية ، عدد آياتها ٣٥ آية . روى العوفى وابن أبى طلحة عن ابن عباس أنها مكية . وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والجمهور . وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : فيها آية مدنية وهى قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ⑩﴾ [الأحقاف] [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] .

الْمُبِينِ ② ﴾ [الدخان] ثم الجاثية : ﴿ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② ﴾ [الجاثية] ثم الأحقاف : ﴿ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② ﴾ [الأحقاف] . وهى آخر الحَواميم .

ونلاحظ أن هذه السُّور تسير فى بدايتها على نظام واحد يؤكد على أن (حم) وغيرها من الحروف المقطَّعة مُنزَّلة من عند الله ، وهى وحْى يعلم الله مراده ، وهى فى التنزيل مثل باقى القرآن وباقى الآيات الواضحات ، لذلك مرة يقول ﴿ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② ﴾ [فصلت] أى : هى ذاتها مُنزلة .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② ﴾[الزخرف] يعنى : حم والقرآن الظاهر الواضح المعنى ، كلاهما تنزيل مُنزَّل من عند الله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ③ ﴾ [الدخان]

ونحن نؤمن بأن كل هذه الآيات من عند الله الذى نعرف معناه والذى لا نعرف معناه . قلنا : لأن الله تعالى يريد أنْ يحرس كلَّ إيمان بمشهد ، فالإيمان لا يكون إلا فى الغيبيات ، ولا يكون الإيمانُ فى المُشاهد لنا .

فمثلاً لا يصح أنْ نقول : نحن نؤمن بأننا نجلس الآن مع الإخوان فى مسجد الفردوس ونُلقى درساً ، لكن نقول : نؤمن بأن الله موجود ، بأن الجنة حَقّ ، ومن رحمة الله ولُطفه بنا أنْ يحرس الإيمان الغيبى بأمر مُشاهد لنأخذ من المشاهد لنا دليلاً على صدقه فيما غاب عنا .

إذن : هذه الحروف المقطَّعة التى لا نعرف معناها نزلتْ هكذا لحكمة .

خُذْ مثلاً رحلة الإسراء والمعراج تجد فيها غيباً يحرسه مشهد ، كيف ؟ تعرفون أن سيدنا رسول الله ﷺ تعرّض لكثير من الأذى وضُيّق عليه وعلى دعوته وعلى المؤمنين به ، وكان آخر ذلك فى الطائف حيث آذاه أهلها حتى شقَّ عليه ما يلاقى . وقلنا : إنه جلس يناجى ربه ويشتكى إليه قسوة هؤلاء ويطلب منه النُّصْرة .

بعدها جاء حادث الإسراء والمعراج ، وكأنه رحلة تخفِّف عن رسول الله ورسالة تقول له : يا محمد إنْ جفاك أهل الأرض فسوف أحتفل بك فى أهل السماء وأذهب بك إلى مكان لم يذهب إليه أحدٌ قبلك ، وأريك من آياتى ما لم يره أحد قبلك .

والمتأمل فى سَيْر هذه الرحلة يجد أن الحق سبحانه مهَّد بالإسراء للمعراج ، فجعل رحلة الإسراء آية أرضية وهى آية مشاهدة معروفة أبعادها وتفاصيلها ، وكثيرٌ من أهل مكة يذهبون فى هذه الرحلة من مكة إلى بيت المقدس ، ويمكن أن يقام عليها دليل عقلى لمن لا يؤمن بها ؟

لذلك لما كذَّبه قومه وقالوا : أتزعم أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً [1] ؟ ثم طلبوا من رسول الله أنْ يصف لهم بيت المقدس ، وأنْ يعطيهم علامات فى الطريق ، ولو كانوا على يقين من هذه الرحلة ما سألوا رسول الله ذلك .

فهم إذن يريدون تعجيز رسول الله ، لكن الله أيَّد رسوله وعرض أمامه صورة تفصيلية لبيت المقدس فأخذ رسول الله يصفه لهم ، ثم

---

(١) أورده البقاعى فى نظم الدرر [تفسير سورة الإسراء آية ١] ، وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٠٤) وعزاه لأبى يعلى وابن عساكر عن أم هانئ رضى الله عنها .

أخبـرهم بالعـير[1] التى لهم فى طـريق التـجارة ، وأنهـا بمكان كذا ، وفيـها كـذا كذا ، ولما وصلتْ قـوافلهم التجـارية وجـدوها كمـا أخـبر رســول الله .

إذن : أمكن إقامة الدليل على صــدقه ﷺ فى رحلة الإسراء لتكونَ مقـدمة للمعراج ، وهو رحلة ســماوية لا يطلع عليهـا أحد ، ولا يمكن إقامة الدليل العقلى عليها ، لكن الذى خرق القوانين الكونية لمحمد فى رحلة الإسراء يمكن أنْ يخرق له القوانين فى رحلة المعراج .

إذن : جعل الغيب الذى يُقام عليه دليلٌ مقدمة للغيب الذى لا دليلَ عليه .

ثم إن كلمتهم التى اعترضوا بــها على رسول الله لمَّا قالوا : كيف ونحن نضرب إليــها أكبـاد الإبل شهراً ، هذه الـكلمة نفعـتنا فيمـا بعد ونردّ بها على دعاة التنوير والفلسفة الفارغة الذين يقولون إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد .

فنقول لهم : لو كان الإسراء بالروح مـا قال كفار مكة هذه الكلمة ، وما قالوها إلا لعلمــهم أنه كان حقيقة بالروح وبالـجسد ، وأن رسـول

---

(١) أورده البيهـقى فى (دلائل النبوة) (٢/٣٥٦) أن رســول الله قال : « ثم انصــرف بى فمررنا بعير لقـريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فـلان فسلَّمت عليهم فقال بعضهم : هذا صوت مـحمد ثم أتيت أصحابى قبل الصـبح بمكة ... إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعـير لكم بمكان كـذا وكذا قد أضلوا بعـيراً لهم فـجمعـه فلان ، وإن مســيرهم ينزلون بكذا وكـذا ويأتونكم يوم كذا وكـذا يقدمــهم جمل آدم عليـه مسح أسـود وغرارتان سوداوان . فلمـا كان ذلك اليـوم أشرف الناس ينظرون حـتى كان قريب من نـصف النهار حتى أقـبلت العير يقـدمهم ذلك الجـمل الذى وصفه رسـول الله . قال البيـهقى : هذا إسناد صـحيح .

الله ذهب إليها وقطع المسافات على وجه الحقيقة .

فالله تعالى يُنطق ألسنتهم بما يُؤيِّد الحق دون أنْ يشعروا ، وبما يثبت عنادهم وتغفيلهم كما فعل اليهود فى حادثة تحويل القبلة ، علم الله ما سيقولونه وأخبر به نبيه ﷺ : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وأعلن محمد ﷺ هذه الآية وتلاها على الملأ وتداولتها الألسنة ومع ذلك قالوها ، ولو كان عندهم قليلٌ من التعقل الدينى لا الدنيوى لتوقَّفوا عن قولها .

ومن ذلك أيضاً قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فالحق ينطلق من ألسنتهم دون أنْ يشعروا به .

كذلك الحال فى آيات القرآن الكريم فيها مشهد وغيب ، فنأخذ المشهد دليلاً على صدْق الغيب ، نأخذ الآيات الواضحة المعنى دليلاً على الآيات ذات الحروف المقطَّعة التى لا نعرف معناها ونقف عندها ونقول : الله أعلم بمراده منها ، لكن هى حَقٌّ وهى من عند الله نزلتْ كما نزلت باقى الآيات لكن معناها غير واضح .

لذلك الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى هذه المسألة إشارة تفرق بين (حم) ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] حم الآيات الغامضة التى لا تعرفون لها معنى ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] البيِّن الواضح المعنى .

فجعل الآيات الواضحات المعنى مبنية كلها على الوصل من أول بسم الله الرحمن الرحيم فى الفاتحة إلى ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

فالقرآن فى مُجْمله مبنيٌّ على الوَصْل إلا هذه الحروف المقطَّعة

الأربعة عشر فهي مبنية على الوقف ، فتقرأ : (ألف لام ميم) (حاميم) وكأن هذا الوقفَ إشارة من الحق سبحانه أنْ لا تأخذوا هذه الحروف على نفس نسَق القرآن في النطق لأنها شيء آخر له خصوصية .

صحيح أنها جميعاً من معين واحد ، وكلها من عند الله لكن قفُوا عند هذه الحروف وأرجعوا معناها إلى مُنزلها سبحانه ، فقد استأثر بها لنفسه ليستديم إيماننا بالغيب ، وليصلنا دائماً به إيماناً وإسلاماً .

وسيدنا رسول الله ﷺ يشرح لنا هذه المسألة فيقول : « ولا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف[1] » فكأن هذا الحرف وحده قائم بذاته له مدلول وله معنى يحسُن السكوت عليه ، وإلا لما بُنيتْ هذه الحروف على الوقف .

وطالما أنها مختلفة عن باقي آيات القرآن في النطق ، فلا بدَّ أن لها خصوصية ، وأنَّ فيها أسراراً وكلّ ما بأيدينا أن نحوم حولها .

ونلاحظ أيضاً أن الحروف في اللغة تنقسم إلى حروف مبنى وحروف معنى ، فالكاف مثلاً حرف مبنى يعنى يدخل في بناء الكلمة ، ولا معنى له في (كتب) لكنه حين ينضم إلى غيره يعطى معنى كتب .

أما الكاف في ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى] فالكاف هنا حرف معنى يفيد التشبيه ، كذلك الباء حرف مبنى في (كتب)

---

(١) أخرجه الترمذى في سننه (٢٨٣٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود . وكذا البيهقى في شُعَب الإيمان (١٩٢٨) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٠١٢) .

وحرف معنى فى (بالله) لأنه يفيد القسم ، كذلك فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور هى حروف مبنى فى شكل نطقها ، لكنها حروف معنى عند قائلها الذى يعلم معناها .

وقد يُطلِع بعض عباده على هذه المعانى أو شىء منها فيفهمون منها معانى ، لذلك نقول فى تفسيرها : والله أعلم بمراده ، لأن حديثنا عنها مجرد اجتهاد ومحاولة للفهم .

وقلنا : إن هذه الحروف أربعة عشر حرفاً من حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، يعنى أخذ نصف حروف المعجم ، ولكن أخذها بنظام محكم لا يمكن أن يأتى عَفْواً ، فأخذ من التسعة أحرف الأولى الألف والحاء وأخذ من التسعة الأخيرة سبعة وترك اثنين على عكس التسعة الأولى ، فلم يترك منها إلا الواو والفاء .

إذن : ليس لها نسق معين ، لكن هندسة مقصودة لغاية مقصودة ، ثم العشرة الباقية فى الوسط أخذ منها غير المنقوط ، وترك المنقوط ، فأخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

فإنْ قال قائل : كيف وإعجام الحروف أى نقطها لم يأتِ إلا فى عصر الدولة الأُموية .

نقول : ربُّها وقائلها الناطق بها يعلم ما تصير إليه ، فكلها داخلة فى العلم الأعلى ، لذلك نقف عندها ونأخذها بالكمال الذى وضعه قائلها فيها ، فهى كما قلنا مثل أسنان المفتاح التى تفتح لك ، فإذا تغيَّر المفتاح لا يفتح .

إذن : كل شيء في القرآن وُضع بحكمة ، حتى في القراءة سواء المتعلم الذي يعرف المعنى أو الأمي الذي لا يعرف تجد القراءة على نوعين قراءة تأمل وتعبد وقراءة استنباط ، وهذه ينبغي أنْ تُعملَ فيها عقلك .

وإنْ قرأت للتعبد فإياك أنْ تُعملَ عقلك ، وخذ الكلمة أو الحرف بمراد قائله منه ، وأنت حين تأتي بالمعنى الذي على قدرك سوف تحدد كمال الله وكمالاته التي لا تتناهى .

لذلك وجدنا أسرع الناس حفْظاً للقرآن هم الذين يقرأونه دون توقُّف عند معناه ، بل يقرأونه كما هو بفَهْم أو بغير فهم .

وقوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ .. (٢) ﴾ [الأحقاف] أي : الذي نزّل حم نزّل ﴿ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الأحقاف] أي : القرآن ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الأحقاف] وتأمل هنا الوصف بالحكمة ، فكل شيء نزل بحكمة حتى في هذه الحروف التي لا نعرف لها معنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إلاَّ بِالْحَقِّ .. (٣) ﴾ [الأحقاف] يعني : ما خلقتُ عبثاً ، إنما خلقتُ بنظام دقيق محكم لا يتغير ، وقلنا : (الحق) هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، كذلك خلقتُ لغاية ، لذلك انظر إلى السماء مثلاً ، خلقها الله من غير عَمَد .

وهي كذلك منذ خلقها الله ، وسوف تظل إلى قيام الساعة على هذا

الاستقرار ، وعلى هذا الثبات ، وعلى هذا الحق الذى خلقتْ به .

كذلك الشمس هى الشمس ما احتاجت إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ولم يُصبها عطل ولا عطب ، لماذا ؟ لأنها خُلقتْ بالحق وبالعدل الذى لا يتغير أبداً ، لأنه بُنى من أساسه على الحكمة ، ولو بُنى هذا الكون منذ نشأته على غير الحكمة لأصابه العطب والخلل .

إذن : خلقتُ السموات والأرض من البداية على الحق ، حَقٌّ مطلق لم يسبقه باطل ولم يسبقه خَلْق آخر تم تعديله ، بل هو منذ نشأته الأولى كذلك ، كما سبق أنْ قُلْنا فى قوله تعالى وهو يحاور أعداء الإسلام ، فقال : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة]

فالأولى جعل ، جعلها الله سفلى ، أما الأخرى فهى بطبيعة الحال ومنذ البداية هى العليا ، لذلك لم يقُلْ : وجعل كلمة الله هى العليا ، لأنها لم تكُنْ أبداً دنيا فجعلها الله عُلْيا .

إذن : الباطل جعل ، والحق هو الحق ثابت منذ خلقه الله .

وقوله : ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٣﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : وقت معلوم هو يوم القيامة ، فهذا الخَلْق لم يخلقه الله ويتركه هملاً ، إنما لأجل محدود هو القيامة ، يوم يتغيَّر هذا الكون الثابت ، ويهدم كل ما فيه وينقض بناءه لبنةً لبنةً .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] يوم تكوَّر الشمس ويضيع القمر ، وتهدم كل أسباب العيش على الأرض .

أما فـى الآخرة : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] فليس هناك شمس ولا قـمر ، فأنت فى الدنيـا تعيش بالأسبـاب ، أما فى الآخرة فتعيش بالمسبِّب سبحانه .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) ﴾[الأحقاف] أى : منصرفون ، وقُلْنا الإنذار : التخويف من الشر قبل أوانه ، وهو مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده ولطفه بهم وحرصه على نجاتهم .

فالذى يحذرك من الشر قبل أنْ تقع فيه محسن إليك . إذن : من رحمـة الله بالناس أنْ أرسل إليهم الـرسل مُبشِّـرين ومنذرين ، وأنزل إليهم الكتب وبيَّن لهم العاقبة ، لكن ماذا تفعل فيمَنْ أعرض وانصرف عن هذا الإنذار ولم يلتفتْ له ؟

لذلك فى سـورة الرحـمن جـعل الحق سـبحـانه وتعـالى الإنذار والتخويف نعـمة من نعَم الله التى تستوجب الشكر ، فقال سـبحانه : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ [١] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فالتخـويف بهذه الألوان من العذاب نعمـة ، لأنك حين تخاف من العاقـبة لا ترتكب الفـعل الذى يؤدى إليهـا ، كما يقـولون فى الطب : الوقاية خيـر من العلاج ، كذلك البُعْد عن المـعصية خير من مـقاساة العقاب عليها .

---

(١) شواظ : الشواظ القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [لسان العرب ، مادة : شوظ] .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ(١) مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يثبت أن الذين اتخذوا من دون الله أولياء اتخذوهم بلا سابقة كمال أو سابقة نفْع ، فاتخذوا الأصنام آلهةً يعبدونها من دون الله وهم صانعوها بأيديهم .

لذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام قال لقومه : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ أَرَأَيْتُم .. ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف] أخبروني ، إنْ كنتم رأيتم فأخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا ..﴿٤﴾﴾[الأحقاف] أي : هذه الآلهة المدَّعاة ﴿ مِنَ الأَرْضِ .. ﴿٤﴾﴾[الأحقاف] وأتى بالأرض أولاً لأنها محلُّ إقامتهم ومسرح حركتهم ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ .. ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف] أي : مشاركة مع الله في عملية الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى هو الذي أعلن : أنا خالق السموات والأرض ، وهذا الإعلان سمعه هؤلاء المعاندون فهل عارضه أحد ؟ هل ادَّعى أحد أنه خلق هذا الكون ؟

إذن : لو كان لله شريك في الخَلْق لأعلن عن نفسه ، والعقل يقول

---

(١) أثارة من علم : بقية من علم تُحفظ وتُروى . [القاموس القويم ١ / ٦] وأثرة العلم وأثارته : بقية منه تُؤثر أي تُروى وتُذكر . [لسان العرب - مادة : أثر] .

إن الدعوى تثبت لصاحبها ما لمْ يقُم لها معارض .

الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، ولا خالقَ غيرى ولم نسمع مَنْ يعارض هذه المقولة ، إذن : هى لله وحده لا شريك له ولا منازع .

ولو تأملتَ الخَلْق وما فيه من حكَم ودقائق لعرفتَ أنه خَلْق الله وحده ، ولا يقدر غيره على هذا الإبداع ، فالخالق سبحانه خلق الصغير وخلق الكبير ، خلق الضخم وخلق النحيف ومع ذلك تجد فى الصغير كلَّ خواصّ الكبير ، فالفيل يأكل ويتحرك ، والبعوضة تأكل وتتحرك .

بل ربما قدرتَ على الفيل ، ولم تقدر على البعوضة ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] نعم هل تستطيع أنْ تسترد ما أخذتْه الذبابة من طعامك ؟ ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ومن مظاهر العظمة فى الخَلْق أن الله خلق لنا هذه المخلوقات وذللها لخدمتنا ، ولولا أن الله ذلَّلها لنا ما قدرنا عليها ، تتعجب حينما ترى الطفل الصغير يقود الجمل ويحمل عليه الأشياء ، والجمل يطاوعه ، فى حين أنك لا تقدر على البرغوث ولا تسيطر عليه ، وقد يُؤلمك ويقضّ مضجعك طوال الليل ، لماذا ؟

لأن الخالق سبحانه ذلَّل لك هذا ولم يُذلل لك ذاك . إذن : العظمة فى الخلق التذليل ، لذلك قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وأنت حين تتأمل خَلْق الله تجد العظمة فى كل شىء فى الكبير والصغير ، لذلك كان المعارضون ينتقدون الحق سبحانه فى أنه يتكلم عن البعوض والذباب والعنكبوت .

فردَّ الله عليهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] قالوا : ما فوقها فى الصغر لا فى الكبَر ، يعنى : الميكروبات والفيروسات ودقائق المخلوقات التى لا تُرى بالعين المجردة .

لذلك نجد الحق سبحانه يتحداهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ.. (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَا .. (٤)﴾ [الأحقاف] أى : من قبل القرآن أخبركم بهذا ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ .. (٤)﴾ [الأحقاف] يعنى : بقية من العلم الذى يُؤثر عن السابقين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾ [الأحقاف] فى دعواكم أنهم آلهة ، وأنهم شاركوا الحق سبحانه فى مسألة الخلْق .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾

معنى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥)﴾ [الأحقاف] استفهام غرضه النفى . يعنى : لا أحدَ أشدُّ ضلالاً من هذا الذى يدعو من دون الله مَنْ لا يستجيب له ، لا الآن ولا فى المستقبل ولا يوم القيامة خاصة ، وهو يعلم أن إلهه الذى يدعوه لا يستجيب له .

الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحقٍّ ، وهو الكبير المتعال ، لذلك الكافر حين يصيبه خير لا يلجأ إلى آلهته الباطلة ، فلا ينادى يا هُبل أبداً . لا يقولها فى وقت الشدة ، لأنه يعلم أن هُبل لا يسمعه ولن يجيبه ، وهو لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها فى هذه الحالة ، فتراه يلجأ إلى الله ويدعوه رغم أنه كافر به .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] نعم ساعة الضيق يبحث عن الإله الحق الذى يملك له النفع ويملك له الضر ، فيقول : يا رب لكن ساعةَ يكشف الله عنه ضُرّه يعود إلى كفره وعناده .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

لماذا ؟ لأن الدين أصبح عند هؤلاء (فنطظية) آمنوا بإله لا منهجَ له ولا تكاليف ، لم يقُل لهم : افعل ولا تفعل ، لذلك كانت آلهة باطلة حتى فى التسمية ، لأن الإله هو المعبود المُطاع فى أمره ونهيه ، إذن : هذا كله كذب وضلال .

الحق سبحانه حين يُوضّح لنا هذه المسألة أتى بها فى صورة هذه السؤال لنُجيب نحن ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥) ﴾ [الأحقاف] فنقول : لا أحدَ أضلّ من هذا ، فيكون إقراراً منا وشهادة بهذا .

وقوله ﴿ وَهُمْ .. (٥) ﴾ [الأحقاف] أى : الآلهة المدَّعاة ﴿ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) ﴾ [الأحقاف] لا يدرون بمن يدعوهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦ ﴾

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ .. ۝٦ ﴾ [الأحقاف] أي : يوم القيامة ﴿ كَانُوا .. ۝٦ ﴾ [الأحقاف] أي : الآلهة ﴿ لَهُمْ أَعْدَاءً .. ۝٦ ﴾ [الأحقاف] نعم في هذا الموقف تظهر العداوة بين هؤلاء جميعاً ويتبرأ كل منهم من الآخر ، ويلعن بعضهم بعضاً ، قال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝٦٧ ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ ﴾ [الصافات]

هذا تصوير للحوار الذي يدور بين هؤلاء الظالمين وما يدور بينهم من لوم وعتاب ، حيث يلقي كُلٌّ منهم التبعة على الآخر ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ

(١) قال ابن الجوزي في تفسير (زاد المسير) [سورة الصافات ٢٢] : في أزواجهم أربعة أقوال :
أحدها : أمثالهم وأشباههم وهو قول عمر وابن عباس ومجاهد .
الثاني : أن أزواجهم المشركات . قاله الحسن .
والثالث : أشياعهم . قاله قتادة .
والرابع : قرناؤهم من الشياطين الذين أضلوهم . قاله مقاتل .

الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وهذه هى حجة الشيطان يوم القيامة . يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقلنا : معنى ﴿ سُلْطَانٍ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : حجة ، وهى نوعان : إما حجة تقنعك بأنْ تفعل ، أو قوة تُرغمك على أنْ تفعل ، وأنا ليس عندى لا هذه ولا هذه ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] من أصرخ . يعنى : نادى واستغاث . وأصرخه يعنى : أغاثه .

إذن : يوم القيامة العداوة واضحة بين الظالمين والكافرين بين العابد والمعبود ، ومأواهم جميعاً فى النار : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

البعض يُعلِّق على هذه الآية ، فيقول : كيف ومنهم مَنْ عبد عيسى عليه السلام من دون الله ، فكيف يكون عيسى حصبَ جهنم ؟ وهؤلاء غفلوا عن (ما) وهى لغير العاقل ، ولم يقُل : مَنْ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾

معنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. (٧) ﴾ [الأحقاف] يعنى : واضحات ظاهرات ، ومع ذلك ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ .. (٧) ﴾ [الأحقاف]

قالوا عن الحق ، فاللام هنا بمعنى (عن) ، أو أنهم بالغوا فبدلَ أنْ يواجهوا مَنْ آمن بالحق واجهوا الحقّ ذاته ، فقالوا : ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ [الأحقاف]

وإبطال هذا الادعاء سهلٌ ميسور ، وهو أنْ نقول لهم : لو صدّقناكم في أنه سحر ، وأن محمداً سَحر به مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم كما سحرهم ، وتنتهي المسألة ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨ ﴾

بعد أنْ قالوا عن القرآن أنه سِحْر سَحَر به محمد أصحابه فآمنوا به . قالوا : إنه افتراء افتراه محمد ، والافتراء هو الكذب المتعمد ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ .. ۝٨ ﴾ [الأحقاف] قل لهم يا محمد ﴿ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ۝٨ ﴾ [الأحقاف]

يعني : لا تدفعون عني عذابَ الله إن افتريت عليه وكذبت في البلاغ عنه ، لذلك يقول سبحانه في آية أخرى تُوضح هذه المسألة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(1) ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧ ﴾ [الحاقة]

فكيف يكذب رسول الله على الله بعد هذه الكلمة ، وسيدنا رسول الله ﷺ

---

(1) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . وقال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقي العروق كلها الدم ويسقي اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب مادة : وتن] وهو ما يُعرف بالشريان الأورطي .

حتى قبل بعثته عُرِف بين قومه بالصادق ، لأنهم لم يُجرِّبوا عليه كذباً قط .

تعرفون قصة الصحابى الجليل خزيمة بن ثابت[1] مع رسول الله عنددما اشترى رسول الله فرساً من يهودى اشتراه نسيء[2] الثمن ، وفي يوم لقيه رسول الله وأعطاه الثمن دون أنْ يكون بينهما شاهد على السداد ، فاستغل اليهودى هذه الفرصة وادعى على رسول الله أنه لم يُعطه ثمن الفرس .

فلما كلَّمه رسول الله قال : هَات لى شاهداً ، فقام خزيمة ، وقال : أنا أشهد يا رسول الله أنك أعطيتَهُ ثمن الفرس ، فبُهت اليهودى وظنَّ أن خزيمة كان موجوداً لكن لم يره .

بعدها استدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة ، ما حملكَ على أنْ قلتَ ما قلتَ ولم تكُنْ موجوداً ، ولم تشهد هذه المسألة ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أُصدِّقك فى خبر السماء وأكذِّبك فى عدة دراهم ؟ فتبسَّم رسول الله وأعطاه (نيشاناً) غالياً ، فقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحسبه »[3] ومن يومها وشهادة خزيمة تعدل شهادةَ رجلين .

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ومن شُجعانهم ، كان مدنياً حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة . عاش إلى خلافة على بن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً . توفى عام ٣٧ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/٣٠٥] .

(٢) ما وجدته فى هذا أنه أعرابى من بنى محارب وليس يهودياً والله أعلم . فهو سواء بن الحارث المحاربى وفد سنة عشر للهجرة ضمن وفد بنى محارب المكوّن من عشرة أنفس فأسلموا [الإصابة فى معرفة الصحابة ١/٤٧٦] وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : له صحبة .

(٣) أخرج هذا الحديث البيهقى فى السنن الكبرى (الجزء ١٠) بلفظ : « من شهد له خزيمة أو شهد عليه فهو حَسْبُه » . وكذا ابن أبى عاصم فى (الآحاد والمثانى) (حديث ١٨٣٨) وكذا الحاكم فى مستدركه (٢١٤٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٦٤٢) وعندهم أن اسم الرجل هو سواء بن الحارث المحاربى .

وهذا (النيشــان) انتفع به المسلمــون فى مسألة جَـمْع القرآن ، حيث كان جـامعو القرآن لا يكتبون الآية إلا إذا وجـدوها مُسجَّلة فى الرِّقاع ، وشـهد على صحتـها اثنان من العدول ، حتى جاءوا فى آخر سورة التـوبة ، فوجدوا آيـة مكتوبة[1] وليس لها إلا شــاهد واحد هو خزيمة ، فأخذوا بشهادته وحده ، لأن شهادته تعدل شهادة رجلين .

وتأمل أدب الحـوار حتى مع المـخـالفين لرســول الله ومع الذين يتــهمـونـه بالكــذب اتهـاماً صــريحاً ، يقـول لهم : ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ .. ⑧﴾ [الأحقاف] وإنْ تفيد الشك ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.. ⑧﴾ [الأحقاف] يعنـى : لا تدفعـون عنى عذاب الله ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ.. ⑧﴾ [الأحقاف] بما تكثـرون فيه الكلام والاتهـام ، وادعاء أن القرآن مكذوب .

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑧﴾ [الأحقاف] يرجع الأمر إلى الله ويُفوّض أمره إليـه ، ويرضـى بشهادته بينه وبين خصومه ، وشهادة الله هى شهادة الحق وشهادة الصدق .

لذلك شهد الله بهـا لنفسه سبحـانه شهادةَ الذات للذات : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⑱﴾ [آل عمـران] وشهـدتْ بها المـلائكة ، شهـادةَ مشهـد ، وشهد بهـا أولو العلم شهادةَ اسـتدلال ﴿وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ⑱﴾ [آل عمران]

إذن : فى هذه القضية رسول الله لا يستطيع أنْ يأتى بشاهد على

(١) هى آية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. ㉓﴾ [الاحزاب] قـال أبان بن سعـيد : استـعرضت المهـاجرين أسالـهم عنها فلم أجدها عند أحـد منهم ، ثم استـعرضت الأنصار أسالهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم حتى وجـدتها عند خزيمة بن ثابت فكتبتها . أورده الطبرى فى تفسيره (١/ ٦٠) وابن كثير فى مقدمة تفسيره (١/ ٢٨) .

صدقه فى تبليغ القرآن عن الله ، فيكتفى بأنْ يجعل الله شاهداً بينه وبينهم .

وهذا من أدب الحوار الذى تأدَّب به سيدنا رسول الله ، فهم يتهمونه بتعمُّد الكذب وهو يتودد إليهم ، وفى موضع آخر يرد عليهم فيقول الحق سبحانه على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

وقوله فى ختام الآية ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) ﴾ [الأحقاف] كأنه يتحنن إليهم ، ويستميل قلوبهم ، فرغم هذا الادعاء الكاذب فما يزال باب المغفرة والرحمة مفتوحاً أمامكم .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٥) سبب نزول هذه الآية فقال : (قال الثعلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصَّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين .

ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا : يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التى رأيتَ ، فسكت رسول الله فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا أدرى أخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أو لا ، ثم قال : إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحى إلىَّ) .

﴿ قُلْ .. ⑨ ﴾ [الاحقاف] أى : قُلْ لهم يا محمد ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. ⑨ ﴾ [الأحقاف] البدع هو الشيء الجديد المستحدث الذى لم يسبق له مثال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑩١ ﴾ [الانعام] أى : خالقهما على غير مثال سابق ، نقول : فلان مبدع يعنى : جاء بشيء لم يسبقه أحد إليه .

والمعنى : ما جئتُ على سنة غير التى جاء عليها مَنْ سبقنى من الرسل ، أو ما كنتُ مبتدعاً ما أدعوكم إليه ، لستُ أول رسول يُقابَل بالتكذيب ويُواجَه بالكفر والعناد والاضطهاد ، بل سبقنى إلى ذلك كلّ الرسل السابقين ، أُوذوا وكُذبوا وصبروا حتى نصرهم الله ، كما قال تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. ④٠ ﴾ [العنكبوت]

فكانت سنة الله فى الرسل السابقين أنْ تتولى السماءُ تأديب المكذِّبين للرسل المعارضين لدعوة الحق ، أما فى رسالة محمد ﷺ فقد أمَّن الله محمداً وأمَّن أمته على أنْ يتولوا هم تأديب المكذِّبين للدعوة المصادمين لها ، وأن ينصروا الحق ، وأنْ يكونَ أهلاً له إلى قيام الساعة .

لذلك قال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1]

---

(١) أورده السخاوى فى (المقاصد الحسنة) ، وقال : قال شيخنا (أى ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ولكن معناه صحيح . وكذا ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (١/ ١٠) وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١٢٦٧) وقال : قال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ . قلت : هو مما اشتهر على ألسنة الناس .

والمراد الخير فىَّ حصراً وفى أمتى نثراً ، بحيث يأخذ كل جيل أو كل واحد منهم جزءاً من هذه الخيرية .

وقوله :﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ .. ⑨ ﴾ [الأحقاف] أى : الآن لا أدرى لكن لعله يدرى فى المستقبل بما يُوحيه الله إليه ، كما حدث فى مسألة محاربة الكفار والجهر بالدعوة ، حين طلب بعض مَنْ أسلم مع رسول الله محاربة الكفار ، فكان يقول لهم ﷺ : ما أُمرت ، ما أُمرت .

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة وافقهم على القتال . إذن : جهر بدين الله فى مكة ولم يحارب إلا فى المدينة ، وهنا حكمة ، فمكة كانت موطن قريش ومحلّ سيادتها ، وقريش كانت موضعَ اهتمام واحترام من كل قبائل العرب لمكانتها من بيت الله الحرام وخدمتها لحجاجه .

ولتوسط مكة طريقَ التجارة بين اليمن والشام فى رحلة الشتاء والصيف ، فكان لا بدَّ من مراعاة هذه المكانة لقريش ، وعدم إعلان الحرب عليها فى هذا الوقت .

وحين نقرأ مثلاً سورة الفيل : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[1] ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[2] ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[3] ⑤ ﴾ [الفيل]

---

(١) أبابيل : جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها . [القاموس القويم ١ / ٤] ولكن قال ابن منظور فى اللسان (مادة أبل) واحدها إبِّيل وإبَّوْل . وقال الزجاج : أى جماعات من هنا وجماعات من هنا . وقيل : طير أبابيل يتبع بعضها بعضاً إبيلاً . إبيلاً أى : قطيعاً خلف قطيع . [لسان العرب] .

(٢) السِّجيل : الطين المتحجر الصلب الشديد . [لسان العرب ، مادة : سجل] والبعض أخذه من التسجيل والكتابة بأنها حجارة مما كتب الله أنه يعذبهم بها . وقال الجوهرى : حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم . فجمع بين الأقوال كلها .

(٣) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٢] .

لو قلت : لماذا ؟ تجيبك سورة قريش : ﴿ لِإِيلَافِ[1] قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

يعنى : فعل الله هذا لمصلحة قريش ، ولتظلّ لهم المكانة والمهابة بين قبائل العرب ، ولتظلّ آمنة مطمئنة فى رحلة تجارتها بين اليمن والشام .

لذلك قال بعدها : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

والمعنى فى ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ..(٩) ﴾ [الأحقاف] يعنى: ما أدرى أيأمرنا الله أنْ نقاتلَ هؤلاء ؟ أم يأمرنا بترك مكة إلى مكان آخر نلتمس فيه نُصْرته ، لذلك بعدها أمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة ، وقال : « إنَّ فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد »[2] .

وكأن سيدنا رسول الله كانت عنده خريطة للعالم من حوله ، وفعلاً لما ذهبوا إلى الحبشة أكرمهم النجاشى ، ومنعهم حينما أرسلت قريش عَمْراً فى طلبهم ، فردَّ عَمْراً وردَّ هدايا قريش ، وآمن بمحمد ودعوته ، لذلك وكله رسول الله فى أنْ يُزوِّجه من أم حبيبة[3] ، ولما

---

(١) إيلافهم : اعتيادهم وتجهيزهم وتهيئتهم الذهاب فى رحلتى الشتاء والصيف . شتاء إلى اليمن وصيفاً إلى الشام .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٤) والسهيلى فى الروض الأُنف (٢/٨٩) وابن هشام فى السيرة (١/٣٢١) من طريق محمد بن إسحاق أن رسول الله قال : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً » .

(٣) أم حبيبة هى رملة بنت أبى سفيان بن أمية صحابية من أزواج النبى ﷺ وهى أخت معاوية كانت من فصيحات قريش ومن ذوات الرأى والحصافة ، ولدت ٢٥ قبل الهجرة . زوَّجه إياها النجاشى ملك الحبشة وأصدقها من عنده أربع مئة دينار سنة ٧ هجرية (كان عمرها ٣٢ عاماً) توفيت ٤٤ هجرية عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣/٣٣] .

مات النجاشي صلى عليه رسولُ الله .[1]

والهجرة إلى الحبشة كانت مرحلة انتقالية يحتمي فيها المضطهدون من المسلمين عند هذا الرجل الذى لا يُظلم أحد عنده ، وحتى يأذن الله لرسوله فى الهجرة إلى المدينة ، حيث تأتى نُصْرة الإسلام وإعلاء كلمته هناك .

والحكمة أن الصيحة الأولى للدعوة كانت فى مكة ، أما نُصْرة الدين وتأييده فكانت فى المدينة ، ذلك لأن قريشاً كانوا سادةَ العرب وأصحاب السيطرة فى الجزيرة العربية .

ولو أن النُّصْرة جاءتْ فى مكة لَقالوا إنها بسبب سيادة قريش وسُلطتها التى تعدَّت الجزيرة إلى العالم من حولها ، فكانت الحكمة أن تكون الصيحة الأولى للإسلام فى أذن هؤلاء السادة تهزُّهم وتُقبِّح أفعالهم ، وتُبطل ما هم عليه من عبادة الأصنام .

لكن النُّصرة تُؤجل إلى المدينة لينتصر الدين بالمهاجرين والأنصار ، حتى لا يظن ظانٌّ أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، بل إن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد .

وقوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾ [الأحقاف] انظر هنا إلى العظمة فى شخصية رسول الله ﷺ ، فهو يتكلم بما عنده كأنه يقول : « يرد عليّ فأقول : أنا لستُ كأحدكم ،

(١) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلوا عليه . فقال : فقمنا فصففنا عليه كما يُصف على الميت ، وصلينا عليه كما يُصلى على الميت » . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠)

ويُؤخذ منى فاقول ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : سيدنا رسول الله لم يأتِ بشيء من عنده إلا في المسألة التي لم يرد فيها حكم ، فإن اجتهد في مسألة لم يردْ فيها حكم وأخطأ قبل أنْ يُعدِّل الله له ، وأنْ يُصحِّح له ولا يأنف من ذلك ، وهو الذي يخبرنا بهذا التعديل ، كما في قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

معنى ﴿أَرَأَيْتُمْ .. ﴿١٠﴾﴾ [الاحقاف] أخبروني أنتم إن كنتم شاهدتم ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [الاحقاف] الجواب تقديره : ماذا يحدث لكم ؟ والجواب معلوم : إنْ كان هذا القرآن من عند الله ومع ذلك كفرتُم به فلن تنالوا إلا غضبَ الله في الدنيا وعقابه في الآخرة .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [الاحقاف] الشاهد الذي شهد على صدق القرآن ، وأنه من عند الله هو عبد الله بن سلام ، وهو أحد أحبار اليهود وأسلم وشهد لمحمد وللقرآن .

﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ .. ⑩ ﴾ [الأحقاف] على مثل القرآن من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، فهو مثلها من عند الله يدعو إلى ما دعتْ إليه من عبادة الله وتوحيده ، فكما نزلت التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى نزل القرآنُ على محمد ﷺ ، وصفته ثابتة عندهم في التوراة .

لذلك كان يقول عن رسول الله : والله لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لولدي ومعرفتي لمحمد أشد [1] . نعم عرفه من العلامات التي وردت في كتبهم .

يقول تعالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ .. ⑧⑨ ﴾ [البقرة] أي : القرآن ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ .. ⑧⑨ ﴾ [البقرة] أي : من قبل نزول القرآن ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ⑧⑨ ﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنه سيسحب بساط السيادة والسلطة من تحت أقدامهم .

وقال أيضاً فيهم : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. ⑬ ﴾ [المائدة] وإنْ كان لهم عذر في النسيان فليس لهم عذر في كتمان الكتاب وتحريفه ، بل كان منهم صنف ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ⑦⑨ ﴾ [البقرة]

إذن : اليهود نسُوا وكتموا وحرّفوا وبدّلوا ، لكن الحق سبحانه وتعالى لا بُدَّ أنْ يُوقعهم في أشياء تدل على فعلهم وتكون منافذ للحق ،

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩٤) : « قال القرطبي : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه » .

فمثلاً في مسألة الذبيح عارضوا وقالوا : الذبيح إسحق لا إسماعيل .

والرد على هذا الادعاء أنْ نقول لهم : إنْ كان الذبيح إسحاق ، فلمَ شُرعتْ مناسك الفداء ورَمْى الجمرات هنا ، ولم تُشرع في موطن إسحق .

وارجعوا إلى كتبكم أنتم ، ففي التوراة في الأصحاح الرابع والعشرين قال الله لإبراهيم : يا إبراهيم اصعد بابنك الوحيد جبل المرية وقدِّمه قرباناً لله ، وهل كان إسحق وحيداً ؟

وفي الأصحاح الذي بعده مباشرة يقول : لقد وُلد إسحق وعُمْر إسماعيل أربعة عشر عاماً . إذن : كلامهم متناقض تماماً مع ما في كتبهم ، وهذه منافذ للحق يُقيم بها الحجة عليهم .

وقوله : ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحقاف] أي : آمن هذا الشاهد في حين استكبرتم أنتم على قبول الحق ، وسبق أن ذكرنا قصة إسلام عبد الله بن سلام ، وأنه أتى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله لقد أُشربَ قلبي حُب الإسلام ، ولكن اليهودَ قومٌ بُهْت[1] ، فإذا علموا ذلك قالوا : فيَّ ما ليس فيَّ ، فاسألهم عني قبل أنْ أسلم .

فلما اجتمعوا عند رسول الله سألهم : ماذا تقولون في ابن سلام ؟ فقالوا : هو سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وابن حَبْرنا ومدحوه . عندها قال : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل كذاب وكذا وكذا ، فضحك ابنُ سلام وقال : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟[2]

---

(١) البهت والبهتان : الباطل والكذب . وبهت الرجل فهو بهَّات أي : قال عليه ما لم يفعله . [لسان العرب بتصرف - مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٨٢ ، ٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وأحمد في مسنده (١١٦١٥ ، ١٢٣٦٥) والنسائي في سننه (٨٢٥٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩ ﴾ [الأحقاف] هذه الكلمة حلَّتْ لنا إشكالاً وبيَّنتْ معنى الهداية ، لأن البعض يقول : إذا كان الله قد حكم على الكافر بالكفر ولم يهْد القوم الظالمين فلِمَ يُعذِّبهم ؟

وهذه مغالطة ، ولو كان السؤال منطقياً لأكمل الصورة ، فقال : ولِمَ يثيب الطائع وقد كتب له الطاعة ؟

وسبق أنْ أوضحنا في هذه المسألة أن الله تعالى هدى الجميع هدايةَ دلالة وإرشاد ، وهذا القسم يشمل المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فقد دلّ الله الجميع وبيَّن لهم الطريق المستقيم ، فمن أخذ بهذه الهداية وسار على نورها استحقَّ من الله المزيد .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰ ﴾ [محمد] وهذا النوع هو النوع الثانى من الهداية ، وهى هداية المعونة والتوفيق .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩ ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا يهديهم هدايةَ معونة ، لذلك قال عن ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ⑰ ﴾ [فصلت] أى : هديناهم هدايةَ دلالة وإرشاد فاستحبُّوا العمي والضلال وفضّلوه على الهدى فأعانهم الله عليهم ، كما أعان أهل الهدى على هداهم .

وتذكرون المثل الذى ضربناه سابقاً لتوضيح هذه القضية قلنا : لو أنك سألتَ رجل المرور مثلاً عن الطريق فدلَّك عليه فأخذتَ بقوله وشكرتَه فإنه يزيدك إرشاداً ، وربما ذهب معك حتى يُوصلِّك إلى غايتك .

إذن : الحق سبحانه لا يهدى القوم الظالمين بسبب ظلمهم ، ولا يهدى القوم الفاسقين بسبب فسْقهم ، ولا يهدى القوم الكافرين بسبب كفرهم .

وقبل أن نتجاوز هذه الآية ينبغى أنْ نذكر هنا أن عبد الله بن سلام قبل أنْ يعلن إسلامه سأل رسول الله عن أشياء ثلاثة ، أراد بها أنْ يستوثق من صدق رسول الله ، فقال له : ما شرط الساعة أو علامتها ؟ قال : نار تخرج من قِبَل المشرق فتحشرهم إلى المغرب .

قال : ما أول ما يأكل أهل الجنة ؟ قال : زيادة كبد الحوت ، قال : متى ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومتى ينزِع إلى أمه ؟ أو : متى يأتى الولد ومتى تأتى الأنثى ؟ قال ﷺ : إذا سبق ماءُ الرجل نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماءُ المرأة نزع الولد إلى أمه[1].

وهذه المسألة الأخيرة أثبتها العلم الحديث وأثبتتها الأبحاث ، ودلَّتْ على الإعجاز فى الحديث النبوى الشريف وعلى صدقه ﷺ ، ذلك لأن الرجل والمرأة شركة فى عملية الإنجاب .

البعض يتصور أن العملية الجنسية هى التى تأتى بالولد ، لا فما هى إلا إثارة تُمكِّن الرجل من إخراج الميكروب المنوى ، أما ماء المرأة فلا دخْلَ له فى الإنجاب ، كيف ؟

لأن البويضة التى تحتضن الميكروب ، لها مواعيد تنزل فيها بصرف النظر عن العملية الجنسية ، فهى موجودة إذن بطبيعة الحال ، فإنْ صادفت وجودها عملية جنسية تسابق ماءُ الرجل إليها وهى فى مكانها . إذن : لا دخْلَ للبويضة فى تحديد النوع كما أثبت العلم الحديث .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث ١٣٣٦٥) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام قال لرسول الله أول هجرته إلى المدينة : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى ، فسأله عن الشبه وعن أول شىء يأكله أهل الجنة ، وعن أول شىء يحشر الناس . وكذا أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٧٥٤٦) .

وإذا فهمنا المعنى اللغوى لكلمة (سبق) تأكدنا من موافقة الحديث النبوى للعلم ، فالسبق يعنى انطلاق المتسابقين من مكان واحد ، فنقطة الاندفاع واحدة إذن .

نفهم من هذا أن التسابق بين الحيوان المنوى الذى يُمثّل الذكورة والحيوان المنوى الذى يُمثّل الأنوثة ، فأيهما سبق كان النوع له ، وعليه فدوْر المرأة أنها حاضنة لما يُلقيه الرجل .

صحيح أن القرآن جاء كتابَ عقائد ومنهج وتشريع ، وهو أيضاً كتابُ إعجاز يمسّ الكونيات بقدر ما تتسع له العقول ، وخصوصاً أنه نزل فى أمة أمية ، وهل بالله كان من الممكن أنْ يُقال فى هذه الأمة إن الأرض كروية ، لو قلنا هذا فى هذا الوقت لقالوا : كذب .

لذلك يأتى القرآن بهذه الحقائق الكونية يُغلفها ليُؤجل فهمها إلى أنْ تنضج العقول وتستطيع إدراك هذه الحقائق ، ويترك للزمن وأحداثه أنْ يشرح هذه الآيات ، فإذا ما توصّلنا إليها وجدنا لها دليلاً ونصاً من كلام الله .

وهل فهم العرب الذين استقبلوا القرآن معنى قوله تعالى :﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً[1] وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل] ؟ الجبال نراها فى الواقع ثابتة مستقرة ، فمعنى مرورها أنها تدور بدوران الأرض.

ونقرأ : ﴿ يُكَوِّرُ[2] اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ .. (٥) ﴾

---

(١) تحسبها جامدة . أى : قائمة ساكنة . وهى تمر مر السحاب . أى : وهى تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التى تُسيِّرها الرياح . قال القتيبى : وذلك أن الجبال تجمع وتسير وهى فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير .

(٢) يكور الليل على النهار : أى يُدخل هذا على هذا ، وأصله من تكوير العمامة وهو لفُّها وجمعها، وكورت الشمس جُمع ضوؤها ولُفَّ كما تُلفّ العمامة . [لسان العرب – مادة : كور] .

[الزمر] إذن : الأرض شبه كرة تدور . أعطانا الحق سبحانه هذه المعانى مغلقة حتى لا تفاجىء الناس فينصرفوا عن القرآن .

فهذا الكون كله بآياته الكونية هو الذى يشرح لنا معنى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] والسين كما تعلمون تدل على الاستقبال .

وهذا يعنى أن هذه الآية سيظلّ معناها قائماً وله مددٌ من الآيات إلى قيام الساعة ، بحيث تتجلى الآيات وفقَ ما يتناسب وعقول الناس وتطوّر علومهم وإمكاناتهم .

وقد شرح القرآن الكريم مسألة خلْق الإنسان ، وشرح معنى كلمة الرسول ﷺ « إذا سبق ماءُ الرجل .. » واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القيامة]

والنطفة هى الميكروب الذى يحمل الذكورة أو الأنوثة ، والمنىُّ هو السائل الذى يعيش فيه هذا الميكروب ، والمنى من الرجل لا من المرأة . وهذا ما أثبته العلم ، لذلك سماه العلماء X Y ، X يعنى : الاثنان من الرجل .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٢٣٨/٩) : اختُلف فى سبب نزولها على ستة أقوال ، منها :
- أن أبا ذر الغفارى دعاه النبى ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا فبلغ ذلك قريشاً فقالوا : غفار الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سبقونا إليه ، فنزلت هذه الآية . قاله أبو المتوكل .
- أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه : لو كان دين محمد حقاً ما سبقونا إليه . قاله أكثر المفسرين . حكاه الثعلبى . وقال مسروق : إن الكفار قالوا : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود . فنزلت هذه الآية .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

القائل هنا الذين كفروا . قالوا لمن ؟ للذين آمنوا ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف] أي : الإسلام ﴿ مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف] وللعلماء ملحظ في هذه الآية يتوقف على معنى كلمة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف]

فمَنْ أخذها بمعنى اللام اعتبر هذا القول مواجهة من الكافرين للمؤمنين ، فقالوا لهم وهم حضور : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه هكذا بتاء الخطاب ، ومن اعتبر اللام بمعنى (عن) المؤمنين يعنى : وهم غائبون عن مجلس القول : لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

فكأن السياق عدلَ عن الحرف (عن) إلى (اللام) ليعطينا المعنيين : معنى الإيذاء في المواجهة ، والإيذاء في الغَيْبة ، ويجمعهما في نصٍّ واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف] الإفك : هو أقبح الكذب ﴿ قَدِيمٌ ﴾ يعنى : معروف ومعهود منذ القدم . أى : عند الأولين .

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ .. (١٢)﴾[الأحقاف] من قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ .. (١٢)﴾ [الأحقاف] التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً .. (١٢)﴾ [الأحقاف] يعنى : فى زمنه وحال كونه إماماً وقدوة يهتدون به ويؤدى إلى رحمة مَنْ تمسَّك به .

﴿وَهَٰذَا .. (١٢) ﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ ..(١٢)﴾ [الأحقاف] أى : للكتب السابقة كما جاءتْ من عند الله ، وقبل أنْ تُحرَّف أو تُبدَّل ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه أن القرآن جاء مُصدِّقاً لهذه الكتب ومهيمناً عليها جميعاً ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا .. (١٢) ﴾ [الأحقاف] بلسان عربى ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (١٢) ﴾ [الأحقاف] يُخوِّفهم عاقبة ظلمهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾ [الأحقاف] والبشرى : الإخبار بالخير قبل أوانه .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾

هذه الآية لها نظير فى سورة فُصّلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

نعم ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾[الأحقاف] فأىُّ خوف يُصيبهم ، وأىّ حزن ينزل بهم وقد قالوا هذه الكلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ .. (١٣)﴾[الأحقاف] وهى لُبُّ العقيدة ثم لم يقولوها كلمةً جوفاء ، إنما قرنوها بالعمل بمقتضى هذا الإيمان .

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ⦗١٣⦘﴾ [الأحقاف] أى : على أوامر العقيدة ونواهيها ، ومعنى الاستقامة : السير على الطريق المستقيم الذى رسمه لك مَنْ آمنتَ به .

وهذه الاستقامة تُصلح لك حركة حياتك وحركة الآخرين معك ، والاستقامة بمفهوم الهندسة هى أقصر الطرق التى تُوصِّلك إلى غايتك .

لذلك قلنا : إن الهدى مطيَّة تحملك وتُوصِّلك ، الهدى ليس عبئاً على صاحبه بل أنت حِمْل عليه ، يقول تعالى : ﴿أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ⦗٥⦘﴾ [لقمان] فهم يعتلون الهدى وهو يحملهم .

إذن : مَنْ نطق بهذه الكلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ .. ⦗١٣⦘﴾[الأحقاف] ثم استقام عليها فى حركة حياته ضمن الله له عدم الخوف وعدم الحزن ، ولم يُؤجله إلى الآخرة ، بل جعله بُشْرى تُبشِّرهم بها الملائكة فى آية فُصِّلت : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ⦗٣٠⦘﴾ [فصلت]

أى : تتنزَّل عليهم ساعة الموت تُبشرهم وتُطمئنهم ، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، الخوف توقُّع أمر يُؤذى ويضرّ ، والحزن الفجيعة والألم لفقد شىء محبوب ، فهم فى أمن من هذا وذاك . وما دام الأمر كذلك فلا تخافوا من أعدائكم فلن ينالوا منكم شيئاً أبداً .

لذلك كان عندهم قضية يقولونها لأعدائهم بشجاعة : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ⦗٥٢⦘﴾ [التوبة]

يعنى : إنْ تواجهنا فى قتال فنحن ننتظر أحد أمرين ، إما أنْ

ننتصر عليكم ونكسر شوكتكم ونُذلكم ، وإما أنْ نُقتل فنظفر بالشهادة، فنحن رابحون على أيٍّ حـال ، أما أنتم فننتظر أنْ يُصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، لذلك دخل المسلمون على هذه المسألة بثقة ويقين لا يخالطه شكٌّ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الاحقاف] إشارة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فالحق يُحدِّثنا عن جزائهم وعاقبة إيمانهم واستقامتهم ، فهم ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الاحقاف] أصحابها إما مالكوها ، وإما أنها مصاحبة لهم وهم مصاحبون لها ، يعنى : بينهما علاقة وُدٌّ وتفاهم وميْل ، كلٌّ منهم يميل إلى الآخر ويشتاق إليه .

والصاحب هو مَنْ تصطفيه من خلق الله ممَّنْ توافق أخلاقه أخلاقك ، وطباعه طباعك ، وسلوكه سلوكك . فهؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اختاروا الجنة واختارتهم واتخذتهم أصحاباً وأصفياء .

وقد ورد أن الجنة تشتاق إلى أهلها وتنتظرهم وتسأل عنهم[(١)] ، كما أن النار تشتاق إلى أهلها وتنتظرهم . ولا غرابةَ فى ذلك ، فكلٌّ مخلوق له لغته التى يعبر بها ، حتى الجمادات .

وقال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] فكلّ يُسبِّح بلغته هو أنت لا تفهمها لأنه لا يتحدث بلغتك ، إنما الذى خلقها أعطاها لغة خاصة تتفاهم بها مع جنسها .

---

(١) مما ورد فى هذا حديث رسول الله الذى أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٣٢) عن أنس بن مالك « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان » .

والقرآن يُخبرنا أن النملة تكلمتْ مع بنى جنسها وتفاهمتْ معهم ، وسمع سليمان كلامها وشكر الله أنْ أعطاه نعمة الفهم عن هذه المخلوقات ، لذلك صوَّبنا مقولة : إن الحصى سبَّح فى يد رسول الله .

فهذه ليستْ ميزة لأن الحصى مُسبّح بطبيعة الحال ، فهو يُسبِّح حتى فى يد أبى جهل ، لكن الصواب أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده .

﴿ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف] لأن نعيم الجنة باقٍ خالد لا ينتهى ولا يُنغصه ما يُنغص نعمة الدنيا ، فلا يفوتك ولا تفوته ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف] قالوا : هذا الجزاء أهو حَقٌّ للعبد ؟ أم هو تفضل من الله ؟

قالوا : الجنة تفضل من الله ، والعمل ما هو إلا سببٌ لا ثمنٌ لدخولها ، لأن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع لنا الشرائع إنما شرعها لمصلحتنا ولسلامتنا واستقامة أمور حياتنا على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .

فنحن نجنى ثمرة العمل الصالح ونسعد به فى دنيانا ، ومع ذلك يثيبنا الله عليه بثواب الآخرة دون أنْ يعود منه شيء على الله تعالى ، ودونَ أنْ ينتفع منه بشيء . إذن : دخول الجنة زيادة وتفضّل من الله .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف] فيه لفتة : ما هو العمل ؟ العمل انفعال الجارحة لمهمتها ، فاليد تتحرك واللسان ينطق والعين ترى وهكذا ، لكن لو تأملتَ العمل تجده على قسمين : قول وفعل ، فأخذ اللسانُ وحده شطر العمل ، وأخذتْ باقى الجوارح الشطر الآخر ؛ ولذلك : يقولون ، ويفعلون ؛ ولأن بالقول بلاغ المنهج الذى تنفعل له الجوارح طاعة أو معصية .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ[1] ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أمرناه بذلك وألزمناه به ، والوصية أن تطلب ممَّنْ توصيه عملاً خيِّراً يفيده فى حياته وآخرته ، ويعينه على آداء مهمته ، لذلك تجد معظم الوصايا بالأمور المهمة تأتى فى أخريات العمر ، وكأنه يقول لأهله ولمن يوصيه : الحقوا خذوا منى نتيجة تجاربى فى الحياة .

وهذه المادة أتت فى القرآن بلفظ : وصَّى وأوصى . وصى تفيد تكرار الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] وفى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ .. (١٣٢) ﴾ [البقرة]

أما أوصى فهى للتعدية ، كما فى قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾ [مريم] فهى مثل أنزل ونزَّل ، أنزل أى مرة واحدة ، ونزَّل يعنى تباعاً .

---

(١) الفصال : الفطام لأن الطفل به ينفصل عن أمه . [القاموس القويم ٢/٨٣] . ومعنى أن حمله وفصاله ثلاثون شهراً ، أى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً . [لسان العرب – مادة : فصل] .

وكلمة ﴿ الإنسَانَ .. ⑮ ﴾ [الأحقاف] وهو الموصَّى تفيد الإطلاق والعموم أى الإنسان على إطلاقه من آدم إلى قيام الساعة فى اسم جنس تقابل فى الخلق المختار كلمة الجن ، نقول : الإنس والجن ، الإنس يعنى الإنسان من الأُنس . يعنى : يأنس بعضنا إلى بعض .

أما الجن فلا أنْسَ بيننا وبينه ، لأننا لا نراهم ولا نتفق معهم فى الطبيعة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ㉗ ﴾ [الأعراف]

إذن : هذه الوصية مُوجَّهة من الحق سبحانه للناس كافة وللإنسان عموماً ، فتشمل المؤمن والكافر ، والكبير المكلف والطفل دون التكليف ، فإنْ فعل بالوصية يُثاب عليها ، وإنْ تركها لا يُعاقب .

يمكن أنْ نقيس هذه المسألة على الصلاة ، ففى الحديث الشريف قال ﷺ : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] .

إذن : الأمر منكم وكذلك العقوبة منكم أيضاً ، لأنه ما يزال دون سنِّ التكليف الشرعى .

والصلاة فى هذه السنِّ تدريب له وتعوّد ليرتاد ويألف الصلاة منذ صغَره فيشب عليها ، حتى إذا بلغ التكليف كانت سهلة عليه ومعتادة عنده .

وكلمة (الوالدين) أى : الأب والأم ، وهما السبب المباشر للوجود ، لأن هناك سبباً غير مباشر ، وهو الوجود الأعلى الذى أوجد

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤١٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع » .

آدم وحواء ، وهذا الوجود كان عن عدم ، أما وجودنا نحن بالتناسل ، فكان عن سبب وهو (الوالدان) .

ولبقاء النوع وعمارة الأرض ربط الله تعالى - ولحكمة عملية - الإنجابَ بأقوى غرائز الإنسان وأقوى لذة عنده ، كيف ؟ قالوا : أنت حين تنظر إلى منظر جميل تستمتع به عينُك أو تشمّ رائحة طيبة يستمتع بها أنفُك . كذلك حين تأكل أكلة مُحبّبة إليك .

إذن : كلّ جارحة من جوارحك لها متعة خاصة ، أما العملية الجنسية فتُحدث لذة ومتعة تستوعب الجوارح كلها ، وتشارك فيها الجوارح كلها ، لذلك شرع الله الغُسْلَ بعدها لاشتراك جميع الجوارح فى هذه العملية ، وأيضاً لأنك تغفل فى هذه الأثناء عن الله فاستوجب ذلك الغسل .

وأيضاً لأن الحق سبحانه وتعالى علم أن الأولاد يُمثلون عبئاً على الأهل ومشقة فى التربية والإنفاق والسعى عليهم ، لذلك أقسم الله بهذه المسألة فقال : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ ﴾ [البلد]

ولولا أن الله ربط الإنجاب بهذه اللذة لربما زهد فيها كثير من الناس ، ترونَ المرأة كم تعانى من آلام الحمل والولادة ، حتى أنها تقول توبة لن أعود ، ثم تنسى آلامَها ومقاساتَها وتحنّ من جديد للحمل .

إذن : ربط الإنجاب بهذه اللذة لحكمة ، لكن العجيب أن الناس تسرف فيها وتبالغ وتخرجها عن حدِّها فتجعل اللذة هى الأصل .

ونحن نرى الحيوانات مثلاً تمارسها لبقاء النوع فقط ، لذلك ساعة يأتى الفحل للأنثى يشمّها أولاً ، فإنْ وجدها حاملاً لا يقربها ، وهى

أيضاً لا تُمكّنه من نفسها ، والعجيب أننا نعيب الحيوانات ونقول : شهوة بهيمية .. سبحان الله !!

ثم إننا نلاحظ في هذه المسألة أن طفولة الإنسان هي تقريباً أطول فترة طفولة إذا ما قُورنت بباقي المخلوقات ، فالحيوان مثلاً يلد ثم تُرضع الأم ولدها ، وبعد فترة الرضاعة لا تعرفه ولا تهتم به .

أما في الإنسان فهو طفل حتى سنِّ البلوغ ، اقرأ : ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ**[1] .. (٥٩) ﴾ [النور] ذلك لأن الإنسان مرتبطٌ ومكلّف تكليفاً أعلى من الحق سبحانه ومطلوب منه أنْ يأتمر بأمره ، وأنْ ينتهي عن نَهْيه .

إذن : طبيعة الإنسان وتكريمه بصلته بالله جعلتْ فترة تربيته طويلة تناسب مهمته في الحياة . انظر مثلاً إلى البقرة تلد فينزل ولدها يتحرك وينفض عن نفسه البلل ، ثم يقف بعد دقائق ثم ينهض واقفاً ، ثم يجري حولها كل هذا في ساعة من الزمن .

أما الولد عندنا فيستطيع الجلوس مثلاً بعد عدة أشهر ثم يحبو ثم يقف ثم يمشي بعد سنة أو أكثر ، بل وعندنا مَنْ يمد فترة الطفولة لأبنائه إلى سن ٢٥ سنة ، وهو في حكم الطفل يعوله وينفق عليه ولا يُحمِّله المسئولية .

والتوصية بالوالدين وردتْ في القرآن في أربعة مواضع مقرونة بعبادة الله : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ..** (٣٦) ﴾ [النساء] وقال : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ**

---

(١) حلم الصبي يحلم حُلماً : أي بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١ / ١٦٩] . أي : بلغ أن يحتلم والاحتلام الجماع ونحوه في النوم . والمحتلم : البالغ المدرك . [لسان العرب – مادة : حلم] .

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣) ﴾ [البقرة]

وفى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وفى سورة الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

هذه أربعة مواضع يأمر فيها الحق سبحانه الأولاد بالإحسان إلى الوالدين ، ويقرن هذا لأهميته بعبادة الله وكأنهما فى الميزان سواء ؛ لأن الوالدين كما ذكرنا هما سببُ الوجود المباشر ، وبرّهما والإحسان إليهما تمهيد وتدريب يُذكِّرك بالسبب الأعلى لوجودك ، وهو الخالق سبحانه وتعالى .

وهذه الوصية يلزمنا الله بها حتى إنْ كان الوالدان كافريْن كما قلنا فى وصية عامة ، يقول تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] فإذا كان الله تعالى يُوصينا بالوالدين حتى إنْ كانا مشركين لأنهما سبب الوجود المباشر ، فما بالك بسبب الوجود الأعلى سبحانه ؟

وقد اعترض بعض المستشرقين هنا وقالوا : القرآن يقول :

﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

فرأى تعارضاً بين الآيتين ، وهذا ناتج عن عدم فهم اللغة وعدم الإلمام بأساليبها وأسرارها ، فهناك فرْق بين الود والمعروف . الود منشؤه الحب والعاطفة القلبية ، أما المعروف فجميلٌ تصنعه مع مَنْ تحب ومع مَنْ تكره .

والحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما ليعطينا دُرْبة ورياضة على أن تبرَّ مَنْ خلقك وخلقهم ، وهو الموجِد الأعلى سبحانه .

وكلمة (إحساناً) مصدر أحسن . والإحسان فى الشرع أنْ تصنع من الخير والمعروف فوق ما فرض عليك ومن جنس ما فُرض عليك ، وهذا المعنى شرحه لنا الحق سبحانه في سورة الذاريات :
﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

ثم يصفهم ويعطينا حيثيات الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١) (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

وواضح أن هذه المسائل الثلاثة المذكورة ليست فرضاً على المسلم ، بل هى زيادة من جنس ما فرض عليه ، ألاَ تراه يقول فى الأموال : ﴿ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] لكن عندما يتحدَّث عن فريضة الزكاة يقول ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

فالحق المعلوم هو الزكاة الواجبة ، لكن (حق) هكذا مطلقة ، فهى للصدقات التى تخرج زيادة على الفريضة ، ومَنْ يقدم هذه الزيادة فى

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب – مادة : هجع] .

الطاعة تدخله فى دائرة الإحسان التى هى أعلى مراتب العبادة .

كذلك الحق سبحانه يأمرنا ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما ، لأن لهما فضلاً علينا فى الإيجاد وفى التربية وفى الإنفاق ، فيجب أنْ نعطيهم أكثر مما يستحقون ، وحين تعطى أكثر مما يجب عليك فأنت مُحسن إليهما .

إذن : الأمر فى بر الوالدين لا يتوقف عند الواجب الضرورى إنما يتعداه إلى مرتبة الإحسان .

لذلك الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن حَقِّ الوالدين يقول : ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا (٢٣) ﴾ [الإسراء] وأف : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر ، وهى تدلّ على الضيق .

فاحذر أنْ تقول لهما هذه الكلمة أو تتأفف منهما خاصة حال كبرهما عندما يُردَّان إلى أرذل العمر ويكونان فى أمسِّ الحاجة للحنان والرعاية .

ففى هذه السنِّ يعود الإنسان إلى الطفولة مرة أخرى ، فيحتاج مَنْ يحمله ويُقعده ويؤكله ، وربما حدث منه ما يدعو إلى التأذِّى ، فإياك أنْ تتأذى منه فى هذه الحالة .

ربما ارتعشتْ به قدماه فوقع على الأرض أو كسر (فازة) مثلاً ، فاحذر أنْ تظهر له ما يؤذيه ، واعلم أنك مُثابٌ على هذا ، وأنه مُدَّخر لك ودَيْن سيُؤدَّى ، ومَنْ برَّ والديه برَّه أبناؤه .

ويكفى أنك حين تبره وتتحمل أذاه تفعل ذلك وأنت تتمنى موته ، وقد فعل معك أكثر من هذا وكان يتمنى لك طول العمر .

وفى ضوء هذه العلاقة بين الآباء والأبناء نفهم حديث سيدنا

رســول الله ﷺ : « يا معشـر الشـباب ، مَنْ اسـتطاع منكم البـاءة[1] فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج[2] » .

فالزواج المـبكر فوق أنه عـصمةٌ لصـاحبه هـو أيضاً ، كمـا قال العربى : أقرب طريق لإنجاب أب يرعاك فى طفولة شيخوختك ، حيث يصير الولد فى هذه الحالة فى منزلة الأب الذى يرعى ولده .

وفى موضع آخـر قال الحق سبـحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ⑧﴾ [العنكبوت] وفرْق بين حُسن وإحسان ، فالإحسان أن تفعل معهما فعلاً حسناً ، أما الحُسن فهو مصدر هذا الفعل واسم هذه العملية التي تقوم بها ، كمـا تقول فلان عادل ، وفلان عدل . يعني : بلغ الغاية في تحقيق العدل حتى جعلته هو والعدل شيئاً واحداً .

إذن : الحُسن أبلغ من الإحسان ، وردُّ الإحسان بأحسن منه مبدأ إسلامى ، لذلك قال تعالى : ﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا.. ⑧⑥﴾ [النساء]

والحق سبحانه لم يأت بحـيثية : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ⑧﴾ [العنكبوت]

وإنما قال بعدها : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ⑧﴾ [العنكبوت] يعنى : حتى فى وضع المخالفة العقدية حفظ لهما هذا الحق وأكدّ ووصّى على برِّهما على أحـسن ما يكـون

(١) الأصل فى البـاءة المـنزل ثم قـيل لعـقـد الزواج باءة لأن من تـزوج امـرأة بوَّأها منزلاً ، والباءة : النكاح والتزويج . [لسان العرب – مادة بوأ] .

(٢) حديث صحيح مـتفق عليه . أخرجه البخارى فى صحـيحه (٤٦٧٧ ، ٤٦٧٨) ومسلم فى صحيحه (٢٤٨٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

البـر : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ [العنكبوت]
وفى الآيـة الأخـرى قال : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ۝١٥ ﴾ [لقمان]

قـالوا : لأن الآباء على قسـمـين : أب يكون فى حاجـة إلى ولده ليـعيش ، وأب لا يحـتاج لولده يعنـى : غنى بنفسـه ، فمَنْ كـان فى حاجة فعليك أنْ تصـاحبه بالمعروف يعنى : تُعينه وتقيم حـياته إقامة كريمة ، ومَنْ كان غنياً بنفسه فهو وشأنه ، ومردُّ الجميع إلى الله .

وهنا فى الآية التى مـعنا لم يـقل حُسْنـاً ولا إحسـاناً ، بل ذكـر حيثية الـوصية فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ۝١٥ ﴾ [الأحقاف] فحدَّد هنا مُدة الحـمل مع الرضاعة جملة واحدة ، وفى آية أخرى قال عن الرضاعة وحدها : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. ۝١٤ ﴾ [لقمان]

إذن : كلّ آية أخـذتْ لقطة ، وبجمع الآيتـين أمكننا أنْ نحلَّ بعض الإشكالات فى مسألة مدة الحمل ومدة الرضاعة .

فقـد رُوى أن سيـدنا علياً رضى الله عنه دخل على سـيدنا عـمر وعنده امـرأة يريد أنْ يقيم عليـها حـد الزنا لأنها ولدت لسـتة أشـهر وهـى فى بيت زوجها ، والمشـهور عندهم أن مدة الحمل تسـعة أشهر .

فقال على : على رسْلك يا ابنَ الـخطاب ، ثم قرأ عليه هذه الآية : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ۝١٥ ﴾ [الأحقـاف] وقال فـى الآية الأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. ۝١٤ ﴾ [لقمان]

وبطرح العامين من الثلاثين شهراً يكون من الجائز أنْ تكون فترة الحمل ستة أشهر ، وهى أقل فترة ممكنة للحمل .

لذلك قال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[١] ، نعم لأن علياً رضى الله عنه اشتُهر بالعلم والفتوى ، لأنه دخل الإسلام وهو صبىّ ، وشرب من معين النبوة منذ صغره ، فكانت ثقافته من بدايتها ثقافة إسلامية ، فكأن الخميرة الثقافية عنده منذ صغَره إسلامية ، فى حين كان غيره أصحاب ثقافة جاهلية .

ومن فقه الإمام على وإلمامه بمسائل الشرع لما انتقل سيدنا رسول الله إلى ربه عز وجل ، اجتمع المهاجرون والأنصار فى السقيفة ، ودارت بينهما مناقشات كُلٌّ يريد أنْ تكون له الخلافة بعد رسول الله ، وتطلَّع الأنصار إلى ذلك ، ثم قالوا : منا أمير ومنكم أمير .

فلما بلغ ذلك سيدنا علياً قال : لم تُحسنوا حجاجهم . قولوا لهم أى للأنصار : ألم تسمعوا قول رسول الله « إذا ملكتم فاستوصوا بالأنصار خيراً[٢] » إذن : لو كانت الإمارة فيهم لم تكُنْ الوصية بهم .

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (١/٤٥٧) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : « إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . وذلك بعد أن قال له علي : بل إنه يضر وينفع ، ألبس يشهد يوم القيامة لمن قبَّله ؟

(٢) ما وجدته فى هذا أن أبا بكر الصديق خاطبهم فى السقيفة فقال : قال النبى ﷺ : « أوصيكم بالأنصار خيراً » ولو كان لكم من الأمر شىء ما أوصى بكم » . [أحكام القرآن لابن العربى ٢/٤٠٤] و [٤/١٤٦] قال « لو كان لكم فى الأمر شىء ما رأيتم أثرة ولا وصًى بكم » .

ومن المسائل الطريفة التي كانت بين على وعمر أن علياً دخل عليه فوجده مُغْضباً ، فقال : ما أغضبكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : سألتُ حذيفة : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال : أصبحتُ أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

فضحك علىّ وقال : صدق يا أمير المؤمنين ، فقال : أتقولها يا أبا الحسن ؟ قال : نعم ، هو يعنى : أصبح يحب ماله وولده ، وقرأ : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]

ويكره الحق ، يعنى : الموت ، ومَنْ منَّا يُحبه يا أمير المؤمنين ، ويصلى بغير وضوء . يعنى : يصلى على النبى ﷺ .

وله فى الأرض ما ليس لله فى السماء . أى : له زوجة وولد[1] . والعجيب أنْ نسمع فى زماننا مَنْ يُقلل من شأن هؤلاء ، بل ويريد أنْ يلغى شخصيات أبى بكر وعمر وعلى من تاريخنا .

ثم نلاحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه قال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : كارهة أو على مشقة ، وفى الآية الأخرى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

والوهَن أى الضعف نتيجة الحمل والولادة ، أما الكراهية لهذه المسألة فتأتى من أن النساء لها طبائع مختلفة ، فمنهن مَنْ تحب هذه

---

(١) أورده صاحب « التحرير والتنوير » (١٥ / ١٣٢) قال : ذكر ابن عطية أن عمر قال لحذيفة : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق ، فقال عمر : ما هذا ؟ فقال : أحب ولدى وأكره الموت ، ومثله جاء فى المحرر الوجيز (٦/٣٦٦) .

العملية ، ومنهن مَنْ تكرهها لكن تطيع زوجها وهى كارهة ثم تتحمّل بعد ذلك مشاقّ الحمل والوحم ثم آلام الوضع ، وبعد الولادة تنشغل بالمولود وتحنو عليه .

فى حين ينشغل الوالد بالسَّعى وطلب الرزق ، لذلك يغلب على الرجل العقلانية وعلى المرأة العاطفة كلّ حسب مهمته فى الحياة .

لذلك يخطىء البعض فى فهم حديث النبى ﷺ عن المرأة وأنها خُلِقَتْ من ضلع أعوج ، وأعوج ما فى الضلع أعلاه فإنْ رُحْتَ تقيمه كسرته ، وكسْرها طلاقها[1] .

وحين نتأمل هذا الحديث نجد اعوجاج الضلع لحكمة ، لأن الضلوع خُلِقَتْ لتصون أثمن وأهم جهازين فى الجسم هما القلب والرئتان ، ولو كان الضلع معتدلاً ما أدَّى هذه المهمة .

وهل نقول مثلاً عن الخطاف أنه أعوج ، أو أن اعوجاجه عَيْب فيه ؟ أبداً لأن طبيعة عمله ومهمته تقتضى أنْ يكون على هذا الشكل ، إذن : شبّه رسول الله ﷺ المرأة بالضلع ، لأن مهمتها العطف والحنان .

الحق سبحانه لمَّا وصانا بالوالدين أتى بحيثيات الوصية بالأم ، ولم يذكر شيئاً من حيثيات الوصية بالأب ، قالوا : لأن دور الأم جاء فى زمن ليس للطفل فيه إدراك يدرك به دور أمه وفضلها فى مرحلة الحمل والولادة والرضاعة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٠٨٤ ، ٤٧٨٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٧٠ ، ٢٦٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » .

أمــا دور الأب من الإنفاق والرعــاية فــيأتى فى زمــن الطفلُ فيــه مدركٌ لجميل والده ، فاهم لدوره فى تربيــته والقيام على أمره ، لذلك احتــاج الولد أنْ نُذكِّره بدور أمه وفضــلها ، لأنه غير مــدرك له ، أما دور الوالد فهو يعرفه .

وما دُمْنا بصــدد الحديث عن دور الوالــدين فى التــربيــة فــلا بدَّ أنْ نذكـر قــوْلَ الحــق ســبـحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء] فهــذه الآية تعــطينا منهج التربيــة العام لكل الأطفال .

فالوالدان استحقا هذه الوصية لأمرين أنهما سببُ الوجود المباشر الذى يُذكِّرك بسبب الوجــود الأعلى ، وهما يقومان بالتربية فــيُذكِّرانك بالمربِّى الأعلى سبحانه .

فالله ربّ ومُربٍّ ، خلقنا من عدم وأمدَّنا من عُدْم ، فهو الذى ربّانا وأمدنا بأسباب التربيــة . إذن : الوصية بالإحسان إلى الوالدين تُعطينا دُرْبة على الإحسان فى علاقتنا بالله خالقنا ومُربِّينا .

ثم نفــهم من هذه الآية أيضاً أن التــربية وحــدها سببٌ وحــيثــيةٌ للإحسان ، فــقد يُربِّى الطفل غير والديه فيكــون لمَنْ ربَّاه فضل عليه يستوجب الإحسان لأنه قام بشطر العملية .

فالوالد والوالدة لهما فضل الإيجاد ، والمربِّى له فضل التربية وله نصف الثــواب ، وهذه المســألة تُشجِّع على كــفالة الأيتــام وتربيتــهم ابتغاء وجه الله .

فمَنْ مات أبوه فــالمجتمع كله أبوه ، لذلــك قال ﷺ : « أنا وكافل

اليتيم كهاتين فى الجنة »[1]

لأن الأب لو مات وترك أولاداً إذا لم يجدوا من المجتمع مَنْ يرعاهم ويكون لهم والدا بدلاً عن والدهم ، إذا لم يجدوا هذا نشأ عندهم حقدٌ على باقى الأولاد وحقد على المجتمع كله ، وربما تعدَّى ذلك إلى التمرد على الله الذى كتب عليهم اليُتْم .

وكلمة ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء] تعنى أن التربية لها وقت هو وقت الصِّغَر ، لذلك أذكر أننى دُعيت لإلقاء محاضرة بعنوان : تربية الشباب ، وكانت فى إحدى جامعاتنا لكن قبل أنْ أبدأ المحاضرة قُلت : أستأذن السيد مدير الجامعة فى تغيير عنوان المحاضرة لأن الشباب لا يُربَّى ، الشباب طاقة تُستغل فى حركة الحياة ، الشباب تربَّى بالفعل .

فلو قُلْنا تربية الشباب كان هذا العنوان غير صحيح ، بل تربية الطفولة أو النشء ، لأن الطفولة هى العجينة التى تقبل التشكيل دون أنْ تعترض ، أما الشباب فقد تم تشكيلهم ، لذلك يعترضون ولهم (تتنيحة) حين تُوجه له نقداً أو توجيهاً .

لكن الشباب الموجودين بالجامعة قالوا : نحن رُبِّينا خطأ فاستأنفوا تربيتنا من جديد . فقلت لهم : إذن فاستأنفوا معنا طفولتكم

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة ، وتمام الحديث : وقال بأصبعيه السبابة والوسطى . ومعنى السبابة : لأنه يسب بها الشيطان حينئذ وفى رواية (السبَّاحة) لأنها يُسبَّح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

وتقبَّلوا التوجيه والنقد دون أن تعترضوا ، كونوا مثل المريض بين يدى الطبيب يقبل ما يقول دون مناقشة .

ومن أخطائنا فى التربية أننا نطيل فترة الطفولة عند أولادنا ، فالأسرة تظل تحتضن الابن وتُنفق عليه حتى سنِّ العشرين والخامسة والعشرين . لذلك فاقنا الغرب فى هذه المسألة ، فالولد عندهم حين يصل سنِّ البلوغ يستقل عن أسرته وينفق على نفسه حتى لو كان أبوه مليونيراً .

وبذلك كثُرتْ الأيدى العاملة ، وقلَّتْ البطالة ، وزاد الإنتاج ، وهذه كلها وسائل للتقدم نفتقدها نحن ، ولم نتمكن حتى الآن من استغلال طاقات الشباب .

إنك لو ذهبتَ إلى عاصمة من عواصم الغرب فلن ترى هناك الشباب يملأ الشوارع والنواصى ، ولن تجد (قهاوى) تمتلىء بالعاطلين ، لكن تراهم فى وقت الراحة يخرجون كالجراد لتناول الغداء ، لكن الخطأ الذى وقعوا فيه أنهم عمَّموا هذا الحكم على الفتى والفتاة .

وكلمة ﴿ رَبَّيَانِي .. (٢٤) ﴾ [الإسراء] للمثنى يعنى : الوالد والوالدة، فلكلٍّ منهما دوره فى التربية ، فالأب يجلب ، والمرأة تدبر وتقوم على شئون بيتها .

فهما إذن شركاء فى هذه المسألة ، ووجود المرأة بصفة عامة فى البيت يجعل تأثيرها أقوى من تأثير الرجل فى عملية التربية ، لذلك حينما نهتم بالتربية النوعية نعطى الولد ما يناسبه ، ونعطى البنت ما يناسبها .

لذلك يجمل بنا الآن أنْ نذكر وصية الأم العربية لابنتها ، وهى تُجهِّزها للانتقال إلى بيت الزوجية ، فتقول لها : أىْ بُنية إن الوصية لو تُركت لفضل أدب لتركت لذلك منك ، ولكنها تنبيه للغافل ومعونة للعاقل .

أىْ بُنية ، إنك غداً تفارقين البيت الذى فيه نشأت والعش الذى فيه درجتِ[1] إلى بيت لم تألفيه ، وقرين لم تعرفيه ، فكونى له أمَة يكُنْ لك عبداً .

أىْ بُنية ، لو أن المرأة استغنتْ عن الرجل لغنَى أبويها وعدم حاجتها إلى غيرهما لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلقْن ، ولَهُنَّ خُلِق الرجال .

أىْ بُنية احفظى عنى عَشْر خصال تكُنْ لك ذخراً : أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالقناعة وحُسْن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإنَّ تواتر الجوع ملْهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحتراس لماله والإرعاء على حَشَمه وعياله .

وملاك الأمر فى المال حُسْن التقدير ، وفى العيال حُسْن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصِنَّ له أمراً ولا تُفشِنَّ له سراً ، فإنك إن خالفتِ أمره أوغرتِ صدره ، وإنْ أفشيتِ سِره لم تأمنى غدره .

---

(١) درجتِ : مشيت مشياً ضعيفاً ودبًّا . [لسان العرب - مادة : درج] .

ثم إياك والفَرح بين يديه إذا كان مُهتماً[1] أو الكآبة بين يديه إذا كان فَرِحاً .

هذه وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم أُناس[2] بنت عوف بن مُحلِّم الشيبانى ، وهذه الوصية كانت قبل الإسلام ، ومع ذلك فيها من الآداب والنصائح ما إنْ أخذت به الزوجة فى عصرنا الحاضر لحُلَّتْ معظم المشاكل الأسرية التى تمتلىء بها المحاكم اليوم .

ولو ربّتْ كلُّ أم ابنتها على هذه الآداب لانصلح حالنا ، لكن الواقع أننا تركنا هذه النصائح وغفلنا عن العمل بها فى بيوتنا ، بل وتركنا البيوت للخادمات ، وتركنا التربية لغير أهلها حتى صِرْنا إلى ما نحن فيه .

وقوله سبحانه :﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[3] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ⑮ ﴾ [الأحقاف] هذا طور آخر من أطوار الحياة هو طور البلوغ ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ..⑮ ﴾ [الأحقاف] أى : بلغ الغاية فى اكتمال الجسم والقوة والعقل .

ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ

---

(١) مُهتماً : أى أصابه الهمّ والغم والاستياء . وقد يكون بمعنى الاهتمام بالأمر وجعله شغله الشاغل .

(٢) هى امرأة الحارث بن عمرو . أراد أبوها أن يئدها (يدفنها حية) ثم قال : دعها لعلها أن تلد أناساً فسميت أم أناس . (الإكمال) وهى أم الحارث بن حجر وهند بنت حجر . (الأغانى للأصفهانى ٤/٣٦٤) .

(٣) أوزعنى : أى رغّبنى ووفّقنى من أوزعته بكذا أى : جعلته مولعاً به راغباً فى تحصيله . الألوسى فى روح المعانى (فى تفسير الآية) وقال ابن عباس : أى ألهمنى .

حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف] وقال في سيدنا موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

إذن : بلوغ الأشُدّ والاستواء واكتمال البدن والجسم والقوة واكتمال العقل هو بداية إلقاء الحكمة وهو بداية التكليف ، فلو كلّف قبل البلوغ ثم طرأ عليه البلوغ ومرحلة المراهقة وما تفعله من تغيرات بالجسم ربما يقول العبد : لقد طرأ عليَّ تغيرات لم تكُنْ في بالي عند الإيمان بك ؛ لذلك أجّل العملية كلها حتى سنّ البلوغ ، وهو منتهى النضج .

ومنتهى النضج في الإنسان أنْ يصيرَ قادراً على إنجاب مثله ، كذلك الحال في الثمار مثلاً ، قلنا : إن البطيخة لا تحلو للأكل إلا إذا استوى لُبُّها واسودّ بحيث إذا زرعْتَه يعطيك نباتاً جديداً ، فإذا أكلتَ هذه ضمنت لك وجود غيرها .

لكن إذا حلت ولبُّها غير مُستو أكلتها ثم تزرع اللب فلا ينبت ، إذاً هنا حكمة لبقاء النوع .

لذلك يقول تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] كلمة (ينعه) أنك تضمن أنْ تأتي بشجرة جديدة . كما أنك تلاحظ في الشجر المثمر أنك إذا لم تقطف الثمار تقع هي بطبيعتها .

ومن حكمة الخالق سبحانه وعجائب الخلق أنك في مرحلة النمو وقبل سِنِّ البلوغ تجد أن عملية النمو تتم بحساب وإعجاز محكم ، فأشياء في الجسم تنمو ومثيلاتها في الجسم لا تنمو .

خذ مثلاً الشعر ينمو ونقصه مـن حين لآخر ، أما شعر الحاجبين مثلاً والرمـوش فلا ينمو ، كذلك العظام تنمـو بنمو الطفل إلى أنْ يبلغ الأشُدّ ، في حـين أن الأسنان وهى أيضاً عظام تقف عند شكل مـعين ولا تنمو ، ولو كانت تنمو كنمو باقى العظام لصارتْ مثل ناب الفيل .

إذن : المسألة ليـستْ كما قلنا (ميكانيكا) إنـما هى (هندسة) من مبدع هذا الكون سبحانه .

﴿ وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحـقـاف] لأن سنَّ الأربعـين هـى السنّ التى ينبغى أنْ يقف الإنسان عندها ويحاسب نفسه ويُصحِّح مساره .

سنّ الأربعين هو قـمة النضج العقلى ، وهى أيضـاً بداية الانحدار نحـو النهاية ، لـذلك يلفت الحق سـبحـانه نظرنا إلى الأربعـين بالذات لنقف ونتدارك ما كان .

كلمة ﴿ أَوْزِعْنِي .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ألهمنى وأعنِّى وقوِّنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] بداية من نعمة الإيجاد ، ونعمـة السلامة والعافيـة ، ونعمة الإسلام ، ونعمـة التوفيق للطاعة ، ونعمة أن جعلت لى أباً وأماً قاما على تربيتى .

ثم يُعدّى الشكر إلى الوالدين ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقـاف] لأن النعـمـة عند الوالد نعـمـة عند ولده ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : وفِّقنى وأعنّى على العمل الصالح .

والعمل الصـالح هو الاستقـامة بتنفيذ الأمـر واجتناب النهى فيما ورد فيه نصّ ، أما ما لم يرد فيه نصّ فلَك الحرية تفعل أو لا تفعل .

﴿ تَرْضَاهُ .. (١٥) ﴾ [الاحقاف] يعنى : بأنْ يكون هذا العمل وفق المنهج الذى شرعتَ ، أو ترضاه فتقبله ، أو تثيبنى عليه .

﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي .. (١٥) ﴾ [الاحقاف] دعاء بأنْ يجعل صلاحه ممتداً فى ذريته ، أو أننى يا رب أسرفتُ على نفسى وقصّرْتُ ، ولا أريد ذلك لذريتى ، أريد لها الصلاح الذى لم يتحقق لى .

وهذا مبدأ معروف أن الأب يحب أنْ يتدارك ما فاته فى حياته يُحقِّقه فى حياة أولاده ، وذريته من بعده ، يريد أنْ يحقق فيهم الكمال الذى لم يصل هو إليه ، لذلك يكون الإنسان سعيداً لو تفوّق ولده عليه .

وتأمل الفعل ﴿ وَأَصْلِحْ .. (١٥) ﴾ [الاحقاف] تجده يتعدّى بنفسه ، فلماذا ذكر (فى) فقال ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] ولم يقل : وأصلح لى ذريتى ؟ ما الضرورة لذلك ؟ الأسلوب هنا كأنه جعل الذرية ظرفاً للإصلاح ، وظرفُ الإنسان قَلْبه .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مُضغة إذا صلُحَتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] إذن : عدّاها بـ (فى) ليجعلها ظرفاً ومظروفاً .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ... » الحديث .

وقـوله : ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُـسْلِمِـينَ ⁽١٥⁾ ﴾ [الاحـقـاف] التوبة باب مـفتـوح إلى آخر العمـر ، لكن ينبغى ألاّ تُؤخـر وألاّ نغفل عنهـا إذا كنا أسـرفنا على أنـفسنـا ، لكن البـعض منا تأخـذه الدنيـا وتنسيه نفسه فيؤخر التوبة والتصالح مع ربه إلى هذه السن .

لذلك ورد فى الأثر : « إن الله يجـرى يده على وجـه العـبد بعـد الأربعين إنْ لم يتب فيقول : أمَا آنَ لهذا الوجه أنْ يستحى » .

وفى معنى حديث آخر يقـول : « مَنْ بلغ الأربعين ولم يكُنْ خيره أكثر من شرِّه ، فليجهز نفسه - والعياذ بالله - لجهنم »[1] .

لماذا ؟ لأنك أخـــذتَ راحتـك فى شبـابك ، وأشبعـتَ رغبتك مـمّا تريد ، لكن إذا وافيتَ الأربعـين فاستح أنْ تعصى الله بعـدها ، واستحِ أن تؤجل التوبة وأنت لا تضمن عمرك بعدها .

وكلمة ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُـسْلِمِـينَ ⁽١٥⁾ ﴾ [الاحقـاف] تعنى : أن العطل أو التقصير لم يكُنْ فى العقيدة ، إنما فى تنفيذ مطلوب العقيدة فى الأحكام .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ⁽١٦⁾ ﴾

---

(١) اخرج ابو الفتح الأزدى من طريق جـويبر عن الضحاك عن ابن عباس مـرفوعاً : « من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتـجهز إلى النار » [ذكره الألوسى فى تفسيره الأحـقـاف ١٥] . وكـذا ذكـره السـيـوطى فى الدر المنثـور . قـال ابن الجـوزى فى [الموضـوعات] (١٧٨/١) : هذا حـديث لا يصح عن رسول الله . وذكره العـجلونى فى كشف الخفاء (٢٣٤٤) .

وكلمة ﴿أُولَـٰئِكَ .. ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف] إشارة لمن سبق ذكرهم وأوصافهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف] المشهور عن الفعل تقبل أنه يتعدَّى بمَنْ ، كما جاء فى قول سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ..﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى]

إذن : يتعدى مرة بـ (من) ومرة بـ (عن) ولكلٍّ معنى ، فقوله تعالى ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا..﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف] يعنى : أن التوبة تحمل عنك عبءَ المعاصى وثقلها ، لأنها تزحزحها عنك .

لذلك قال ﴿عَنْهُمْ ..﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف] لأن مجىء حرف مكان حرف لا بدَّ أن له حكمة ، وأنه يضيف معنى لا يعطيه الحرف الآخر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى قول الحق سبحانه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم] ورأينا كلَّ المفسرين يقولون : (على) هنا بمعنى : مع الكِبَر .

وبتأمل الآية نجد (مع) حرفان و (على) ثلاثة أحرف ، فلماذا عدل القرآن عن (مع) وجاء بـ (على) ؟ كيف يترك السهل فى حرفين إلى الثلاثة ؟

ولما نتأمل مسألة كِبَر سيدنا إبراهيم نجد أن المعيّة التى تفيدها (مع) لا تكفى ، فالمراد حرف يعطى المعية المتغلّب عليها ، فالكبَر موجود مع سيدنا إبراهيم ومصاحب له ، لكنه كِبَر مُتغلَّب عليه بقدرة الله .

فكأن طلاقة القدرة علَتْ على قانون الكبر ، وخرقتْ الناموس فجاء إسماعيل على هذا الكبر ، وهذا المعنى لا يقوم باستخدام (مع) بل (على) .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⑥ ﴾ [الرعد] فكأن الذنب يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله علَتْ على العقوبة وتغلّبت عليها . إذن : حينما يستخدم حرفاً مكان حرف فلا بدَّ أنه يضيف معنىً لا يضيفه الحرف الأول .

إذن : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. ⑯ ﴾ [الأحقاف] حملنا عنهم عبء ما كان قبل التوبة ، وفي موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذا المعنى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] حتى قال أحدهم : والله لقد أسفتُ أنّي لم ارتكب الكبائر ، لأن الله كان سيُبدلها حسنات ، وهذا خطأ ، فمَنْ يدريك أنك ستعيش حتى تتوب ؟

وقوله : ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ .. ⑯ ﴾ [الأحقاف] أى : نعفو عنها ونتسامح ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .. ⑯ ﴾ [الأحقاف] سبق أنْ قلنا : أصحاب الجنة يعنى بينهم وبينها مصاحبة أو صداقة ، أو أصحابها يعنى المالكين لها .

لكن هنا يقول ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .. ⑯ ﴾[الأحقاف] فكأن هؤلاء الذين نتحدث عنهم فى وسط الجنة ، وأهل الجنة محيطون بهم ، فهم فى المركز ، هذا الفهم جاء من معنى (فى) هنا ، لكن لماذا استحقّ هؤلاء أنْ يكونوا فى الوسط وفى المركز وأهل الجنة حولهم ؟

قالوا : لأن الذى ألِفَ المعصية ثم يذهب إلى الطاعة تشقّ على نفسه بعد أن استهوى المعصية وارتاضَ عليها ، فهو يجاهد نفسه للاستمرار على الطاعة ، على خلاف مَنْ لم يُجرب المعصية ، فالطاعة عنده طبيعية لا تحتاج إلى مجاهدة كالأول ، لذلك يعاملهم الله بهذا التساهل وهذا الفضل فيُبدِّل سيئاتهم حسنات ، وهذا منتهى الكرم .

ثم يُطمئنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الاحقاف] فكأنهم لا يُصدِّقون أن الله يعاملهم بكلِّ هذا الفضل ، فيُذكِّرهم أن هذا وعد الله ، ووَعْد الله وعد صدق لا يُخلَف أبداً ، ولا يوجد مَنْ ينقضه أو يفسخ هذا الوعد .

والحق سبحانه يعطى عباده كلّ هذه التسهيلات والإغراءات ، فيقبل توبة التائبين ويعفو عن المسيئين ، ويُبدِّل سيئاتهم حسنات ، لا لنجاة التائب وحده ، وإنما لنجاة المجتمع كله ، فلو لم تشرع التوبة لشَقِىَ المجتمع بكلِّ عاصٍ سُدّ فى وجهه بابها ، ولاستشرى الشر وساد .

﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

القرآن الكريم أعطانا عدة لقطات للوالدين مع الأولاد ، وهذه اللقطات تختلف باختلاف الأحوال ، ولأهمية هذه العلاقة بين الوالد

والولد قرنَ اللهُ الوصية بالوالدين بعبادته سبحانه ، وأعطاها نفس الأهمية والقداسة .

فقال سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء] لأن الوالد والولد هما الخلية الأساسية لبناء المجتمع ، فإذا صلحتْ صلُح المجتمع ، وإذا فسدتْ فسد المجتمع ، وصلاح هذه الخلية يقتضى منا أن نعلم منزلة الوالدين ، وأنهما السبب المباشر فى الوجود فلهما حَقُّ السَّببية فى الإيجاد ، يعنى : لولاهما ما وجد الولد .

وحين نبرهما ونحترمهما تكون دُرْبة لنا على تعظيم واحترام المُوجِد الأول سبحانه والأصل الأصيل فى المسألة .

لذلك جاءت هذه الوصية عامة ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، فالحق يُوصى بالوالدين حتى إنْ كانا كافريْن ، لأنه تعالى ربٌّ الجميع يتكفل بالجميع حياة ورزقاً وإقامة ، لأنه عبده وصَنْعته .

وقُلْنا : يجب أنْ نلحظ الفرق بين الألوهية والربوبية : فالربوبية عطاء وتربية ، والألوهية تكليف وتعبُّد بطاعة الأمر واجتناب النهى .

فهو أيضاً عطاء ، لكن عطاء تكليفى بافعل ولا تفعل ، عطاء لأن فائدته تعود على العبد ولا ينتفع الله منها بشىء ، ولا تزيده طاعة الطائعين صفةً لم تكُنْ له سبحانه ، ولا تسلبه معصية العاصين صفةً ثابتة له سبحانه .

فالله له صفات الكمال المطلق قبل أنْ يُوجد هذا الخلق ، لذلك نرى الإنسان حين يحزبه أمر لا يقدر عليه من أمور حياته يقول : يا رب ، فيدعو بصفة الربوبية يعنى يا رب ، يا من تتولى رعايتى وتربيتى خُذْ بيدى وأعنِّى .

لكن إذا أراد أنْ يستعين على أمر تكليفى لله تعالى يقول : يا الله ، يعنى يا إلهى ، يا مَنْ كلَّفتنى أعنِّى على طاعتك فيما كلَّفتنى .

إذن : الحكمة من التكليف لا تعود على الله إنما تعود على المكلَّف ، والحق سبحانه يريد مجتمعاً مؤمناً صالحاً يبنى ويُعمر ، ويكون على أحسن حال ، كما تحثّ ولدك الصغير على المذاكرة وتقول له : إنْ نجحت سأشترى لك عجلة أو بدلة ، فأنت تريد له الخير ولن تنتفع أنت بما ستشتريه له .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميّتكم ، وإنسكم وجنّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم .. اجتمعوا فى صعيد[1] واحد ،

---

(١) الصعيد هى الأرض المستوية . وقال الشافعى : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذى غبار فأما البطحاء الغليظة والرقيقة والكثيب الغليظ فلا يقع عليه اسم صعيد وإن خالطه تراب أو صعيد . [لسان العرب] .

فسألنى كلٌّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخلَ البحر .

ذلك أنِّى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له : كُنْ فيكون »[1] إذن : حظ التكليف صلاح المكلف .

وقد أوضحنا هذه المسألة فى بيان معنى قوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ۝٥﴾ [البقرة] فكأن الهدى دابة ومطيّة تحمل المهتدى وتُوصِّله إلى غايته التى يسعى إليها ، فالهدى ليس حِمْلاً وليس ثِقَلاً على صاحبه إنما مُعين له .

والآية التى معنا ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. ۝١٧﴾[الأحقاف] تعطينا لقطة للوالدين حينما يكونان مؤمنَين والولد غير مؤمن ، وتصور لنا حرص الوالدين على نجاة الولد ، كما رأينا مثلاً فى قصة سيدنا نوح وولده .

وهذه الآية نزلتْ فى عبد الرحمن بن أبى بكر[2] وكان أبواه قد أسلما ، وأبَى هو أنْ يسلم ، فكانا يدعوانه إلى الإيمان بالله والإيمان

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٤٧) وأحمد فى مسنده (٢٠٤٠٥ ، ٢٠٥٦٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) يُكنى أبا عبد الله . وقيل : يكنى أبا محمد ، وهو شقيق عائشة زوجة النبى فأمه هى أم رومان بنت الحارث . شهد بدراً وأحداً مع قومه كافراً . صحب النبى فى هدنة الحديبية . قال أهل السيرة : كان اسمه عبد الكعبة فغيَّر رسول الله اسمه وسماه عبد الرحمن . [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢٤٨/١] .

بالبعث ، فيقول لهما : أين فلان ؟ وأين فلان ؟ ممّن ماتوا فى السابقين[1] .

ثم أسلم عبد الرحمن بعد ذلك وحَسُن إسلامه . وإنْ كانت هناك روايات عن السيدة عائشة أنها نفَتْ ذلك ، وقالت : إنما نزلت الآية فى شخص آخر وذكرتْ اسمه[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ.. (١٧) ﴾ [الاحقاف] أى : اذكر الذى قال لوالديه ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا ..(١٧) ﴾ [الاحقاف] و (أفّ) اسم فعل

---

(١) قول أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . قاله ابن عباس والسدى وأبو العالية ومجاهد . وقيل : بل هو عبد الله بن أبى بكر . نقله القرطبى فى تفسيره (٦٢٤٦/٩) قال ابن كثير فى تفسيره (١٥٨/٤) : « من زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسُن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه » .

وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول بعدها : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ .. (١٨) ﴾ [الاحقاف] أى العذاب ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ، فالصحيح أنها نزلت فى عبد كافر عاق لوالديه .

(٢) قال عبد الله بن المدينى : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين (يقصد معاوية) فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده وأحد من أهل بيته ولا جعلها فى معاوية إلا رحمة وكرامة لولده . فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك . وسمعتهما عائشة رضى الله عنها فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبتَ ما فيه نزلت ولكن نزلت فى فلان بن فلان (وفى رواية : ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسمّيته) . ثم انتحب مروان ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١٥٩/٤] .

مضـارع بمعنى أتضجـر ، يقولون : فلان يتـأفف . يعنى : يقول أف ويُظهر الضيق والضجر من شىء قذر أو مُنتن أو فعل لا يعجبك .

وقوله ﴿ لَّكُمَا ﴾ دلَّ على غضبه منهما لأنها يُلحان عليه .

فقال ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا .. ⑰ ﴾ [الأحقاف] أنتما ليس بعيداً عنكما .

لكن لماذا يتأفف ؟ قالوا : لأن الوالدين يُلحان عليه أنْ يؤمن وهو لا يريد الإيمان ، فلما أكـثرا عليه تأفّف ، وقال : ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ .. ⑰ ﴾ [الأحقاف] يعنى : أُبعث بعد الموت ، والهمـزة هنا استفهام للتعجب أو الإنكار فهو ينكر البعث .

ثم يأتى بالدليل الذى يـؤيد وجهـة نظره ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي .. ⑰ ﴾ [الأحقـاف] أى : مضتْ القـرون ومات كـثيـرون ممَّنْ سبق ، ولم أرَ أحداً منهم قام من قبره .

لكن من قال أن البـعث سيكون فى الدنيا ، البعث مـوعده الآخرة بعد أنْ يموت الجميع ولا يبقى إلا الله .

لكن الوالدين بعد أنْ سمعا هذا الكلام ، ولمـسَا هذا التصميم على الكفر لم يجدا مُنقذاً سوى الله فتوجها إليه : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ ..⑰ ﴾ [الأحقاف]

وهذا تصوير لطبيـعة الوالدين وشدة حرصـهـما على نجاة الابن ، فـهمـا يتضـرعان ويُلحـان على الابـن أن يؤمن ، وأنْ يذوق حـلاوة الإيمان التى ذاقاها .

وكلمة ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ .. ⑰ ﴾[الأحقاف] حَثٌّ له على أنْ يؤمن ، أو الويل لك إنْ لم تؤمن ، ونلاحظ هنا أن الفعـل يستغيث يتعـدى بالباء

فيقول : يستغيث فلان بالله ، فلماذا حذف الباء وعدَّى الفعل بنفسه فقال : ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ..(١٧) ﴾ [الأحقاف]

قالوا : هذا يدل على أنهما أمام أمر صعب ، وأمام قلب قاس متحجر معاند ، لا يقبل الدعوة ولا يستجيب لنداء الوالدين ، ولا يُقدِّر مشاعرهما .

لذا توجَّها إلى الله مباشرة أنْ يهدى هذا الولد ، وأنْ يشرح صدره ، وأن يلين هذا الطبع القاسى ، ليسمع ويطيع وينجو ، لذلك قلنا : لا تجد إنساناً يحب لك الخير كما يحبه لك والدك ، يحب أنْ تكون أحسن حالاً منه ، وهذه لا تتوافر إلا فى الوالد والولد .

إذن : أمام هذا العناد ليس أمام الوالدين إلا التوجّه إلى الله مُقلِّب القلوب ومُسبِّب الأسباب ، فما ضاقتْ به أسباب الخَلْق دَعْهُ للخالق سبحانه ، فالقلوب بين أصبعين من أصابعه سبحانه يُقلِّبها كيف يشاء .

وسبق أن قلنا ذلك فى قصة أم موسى لما قال الله لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. (٧) ﴾ [القصص] بالله أتقبل أم تخاف على ولدها أنْ تلقيه فى البحر ؟

تقبل أنْ تنجيه من موت مظنون بموت مُحقَّق ؟ لكنها آمنَتْ وصدقتْ ونفذت ، لأن الله قَلَب قلبها ، ووارد الرحمن لا يعارضه ولا يعطله وارد الشيطان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وهذه المسألة حدثتْ مع فرعون ، فحال اللهُ بينه وبين قلبه وما

يريد ، فهو يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، ومع ذلك جاءه طفل في صندوق مُلقى في البحر ، وعلى هيئة مريبة تدعو إلى الشك ، ومع ذلك استقبله واحتضنه وربَّاه وصدَّق امرأته لما قالتْ عن الولد ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ⑨﴾ [القصص]

إذن : هذا غباء ، ممَّنْ ؟ من فرعون الذى ادَّعى الألوهية وقال للناس : أنا ربكم الأعلى .

ثم لما نتأمل القصة نجد دلالات أخرى لغباء هذا الرجل ، فقد قال له السحرة : إن زوال مُلْكك سيكون على يد طفل يُولَد من بنى إسرائيل ، فما دُمْت قد صدَّقت بهذه النبوءة ، فلماذا تقتل الأطفال ؟

إذن : أقدار الله لا بدَّ أنْ تتحقق ، وأنْ يُهيء لها أسبابها ، وهذا هو معنى ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ .. ⑰﴾[الأحقاف] يقولان : يارب أنت قادر على كل شيء وأنت فوق الأسباب ، وليس لنا حيلة مع هذا الولد ويعز علينا أنْ نتركه على كفره فيهلك .

وقد علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نلجأ إلي الله ، فكان إذا حزبه أمر يعني : غلبه وضاقتْ عنه أسبابه قام إلى الصلاة[1] ليقف بين يدى ربه ، فيحلّ له كل شاَقٍّ ويُهوِّن كلَّ عسير .

وكلمة ﴿ آمِنْ ﴾ يعنى : انطق بالشهادة واعترف بأن الله إله واحد . ومادة (أمن) لها فى القرآن معانٍ متعددة ، تقول : آمنتُ بالله . وهذا الفعل مُتعدٍّ بالباء يعنى : شهدتُ وصدّقتُ ، وآمنتُ له :

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود في سننه (١٣١٩) وحزبه أمر : أصابه . أى نزل به هم أو أصابه غم واشتد عليه .

صدقته كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا .. (١٧) ﴾ [يوسف] يعنى : مُصدِّق ، وأمنته يعنى أعطيته الأمان .

وقولهما : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] يؤكدان له هذه الحقيقة ، وما دام حقاً فسوف يحدث ولا مفرَّ منه ، لأن الله إله واحد لا شريك له ، ولا أحدَ ينقض هذا الوعد أو يعارضه ، وهو سبحانه القادر القوى الذى يملك إنفاذ ما وعد به .

لذلك قال تعالي في شأن الساعة : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴾ [النحل] هكذا بالفعل الماضى ، لأن وَعْد الله يستوى فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، فهو سبحانه خالق الزمن ومالكه والمتصرِّف فيه ، فيعبر عن المستقبل بالماضى لأنه يعلم أنه لا توجد قوة تعارضه .

إذن : فالقيامة التى ستأتى فى المستقبل أتتْ بالفعل وهى حادثة لا شكَّ فيها ، لذلك يتصرف فى الكون بشهادته سبحانه لنفسه ، فأول مَنْ آمن آمنَ اللهُ بذاته سبحانه ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فقد شهد الله لذاته قبل أنْ يشهد بذلك أحدٌ من خلقه ، وكأنه سبحانه بهذه الشهادة يقبل على كل شىء يريده وهو يعلم أنه لن يتخلف ، وما هى إلا كُنْ فيكون .

كذلك سيدنا رسول الله يشهد لنفسه بالرسالة قبل أنْ يشهد بها أحد ، ففى رواية أن سيدنا جابر بن عبد الله كان عليه دَيْن لرجل يهودى ، ووعده حين يثمر النخل أنْ يجز نخله ويقضيه دَيْنه ، فلما جاء أوان الثمر (خاب) ولم يُعط الثمر المرجو منه ، وعجز جابر عن السداد .

فذهب بعض إخوان جابر وحكوا القصة لرسول الله ﷺ ، فبعث لليهودى وقال له : أنظِرْ جابراً حتى يقضى ما عليه . فقال : لا يا أبا القاسم ، فأعاد الرسول عليه : أنظِرْ جابراً . فقال : لا يا أبا القاسم .

فتركه رسول الله وذهب إلى بستان جابر ومرَّ خلاله ، ثم قال : أين عريشك[1] يا جابر ؟ فأخذ جابر رسول الله وأجلسه في عريشه ، فقال : دَعْنى هنا يا جابر واذهب فجُذَّ واقضِ ما عليك ، فذهب جابر إلى نخله فجذَّ منه حتى قضى ما عليه وبقى له ما يكفيه ، فجاء بطبق من الرطب إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله قضيتُ ما علىَّ وبقى لى ما لم يكُنْ يبقى فى أىّ عام سابق ، عندها ضحك سيدنا رسول الله وقال : أشهد أنى رسول الله[2].

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ⑰ ﴾[الأحقاف] يعنى : صادق لا يتخلف ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، لأن الله هو الذى قضاه وحكم به ، فلا أحدَ يُغيره ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ㉓ ﴾ [الفتح]

وقوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ⑰ ﴾[الأحقاف]

أى : يقول هذا الولد المعاند لوالديه ، وهما يدعوانه للإيمان بالبعث والنشور : إن ما تقولانه ما هو إلا أساطير الأولين ، وهى

---

(١) العريش : ما يُعرَّش من الكروم وغير ذلك . يقال : عروشها أبنيتها ، وقال فى لسان العرب : العريش شبه الهودج تقعد فيه المرأة على بعير وليس به .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٢٣) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أشهد أنِّى رسول الله » .

أكاذيبهم وقصصهم التى جاءتْ فى كتبهم ، يعنى : ما تدعوانى إليه كذب أشبه بالأساطير والخرافات .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

نلاحظ أن الكلام كان فى الآية السابقة عن مفرد ، وهو الذى قال لوالديه (أفٍّ لكما) لكن هنا يشير إليه الحق سبحانه بصيغة الجمع ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الاحقاف] فيأتى بالقرار ويخبر عنه ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف]

كأن (الذى) لا يفهم منها المفرد إنما يفهم منها الجمع ، كما فى قوله تعالى :﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فاستثنى الجمع من المفرد .

وقالوا فى هذه الآية ما قالوا فى الآية السابقة . أى : أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهذا القول لا يستقيم مع معنى الآية لأن سيدنا عبد الرحمن أسلم وحسُن إسلامه ، وهذه الآية تتحدث عمَّنْ حَقَّ عليهم العذاب . إذن : نزلت فى شخص آخر غير عبد الرحمن .

وقد ورد لهذه المسألة قصة فى كتب التاريخ ، فالذى قال أنها نزلت فى عبد الرحمن هو مروان بن الحكم ، وكان أميراً على المدينة .

فلما بايع معاوية ابنه يزيد بالخلافة طلب من مروان أنْ يأخذ البيعة ليزيد ، فاعترض على ذلك عبد الرحمن بن أبى بكر .

وقال : أجعلتموها هرقلية ؟ يعنى : ملكية يخلف الولدُ والده ؟ فقال : اسكت يا هذا ، ثم قال : أتعلمون من هذا ؟ هذا الذى قال الله فيه ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. ⑰ ﴾ [الأحقاف]

وبلغتْ هذه المقولة السيدة عائشة رضى الله عنها فقالت : والله ما هو ، ولو شئتُ أنْ أُسمِّى الذى قيلتْ فيه لقُلْته ، ولكن قولوا لمروان : إن الله قد لعنك فى ظهر أبيك .

ذلك لأن الحكمَ بنَ العاص كان يوماً يُقلِّد رسول الله فى مشيته استهزاءً به ، فالتفت النبى ﷺ فرآه[1] ، فأشار إليه بيده فنُفِى إلى الطائف ، وبعد العزِّ الذى كان فيه فى المدينة صار يرعى الغنم ، إلى أنْ جاء سيدنا عثمان وتشفَّع له عند رسول الله فأذن له .

ولكن الصحابة قالوا : لم نسمع من الرسول ، فقال عثمان : أنا سمعته .

ومعنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ⑱ ﴾ [الأحقاف] يعنى : وجب وثبت لهم العذاب الذى حذرناهم منه ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم .. ⑱ ﴾ [الأحقاف] يعنى : مضتْ وذهبت ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ⑱ ﴾ [الأحقاف] لأن الله قال عن المؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① ﴾ [المؤمنون]

---

(١) ذكره الرازى فى تفسير (مفاتيح الغيب) فى تفسير آية ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ﴾ [الهمزة] وذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين أن الحكم بن العاص حكى مشية رسول الله مستهزئاً به فقال : كذلك كُنْ . فلم يزل يرتعش حتى مات » . قال الحافظ العراقى : « أخرجه البيهقى فى الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد ، وللحاكم فى المستدرك من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال : صحيح الإسناد » .

ففى المقابل ، وخسر الكافرون المكذبون .

وهذه الآية تدل على أن الجن أيضاً مكلّف ، ومنهم الطائع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، لذلك قال فى سورة الجن : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[1] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن] إذن : سيُعذّبون بما يناسب طبيعتهم .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف] لكلّ من الصنفين : المؤمنين الذى سبق ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] والكافرين الذين قال الله عنهم : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف]

فلكُلٍّ من المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، كُلٌّ له جزاء على قدر درجته ومنزلته ﴿ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف]

ومعلوم أن الجنة درجات ، وأن النار - والعياذ بالله - دركات ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء] لكن هنا جعلها درجات للمؤمنين وللكافرين ، فكيف ؟

قالوا : هذا نوع من السخرية والاستهزاء بهم والتأنيب لهم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الانشقاق]

---

(١) قسط : ظلم أو عدل ، من الأضداد وتُفهم بالقرائن والسياق ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم وجار فى قوله ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن] . [القاموس القويم ١١٦/٢] .

ومعلوم أن العذاب لا يُبشَّر به ، البشارة لا تكون إلا بشيء سارّ مفرح . إذن : هذا تهكُّم كما في ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] وهو في هذا الموقف مُهان مُعذَّب مُحتقر ، أو : أنه يسميها (درجات) لإغاظتهم ليزدادوا تحسُّراً وألماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف] من الوفاء ، وهو أنْ تعطى الجزاء كاملاً غير منقوص كما تقول : وفيت فلاناً دينه . يعنى : أعطيتُه كاملاً ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا ينقصون من أجورهم شيئاً .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التقدير هنا : واذكر يا محمد يوم يُعرض الذين كفروا على النار ، فساعة ترى الظرف فابحث عن الحدث الذى فيه ، لأن الزمن لا يُمدح ولا يُذمُّ لذاته ، إنما بحسب الفعل الذى يحدث فيه .

والحدث هنا أنْ يُعرض الذين كفروا على النار ، لكن مَنْ يُعرض على مَنْ ؟ النار غير عاقل والكافرون عُقلاء ، فالنار تُعرض عليهم كما تقول : عرضتُ القماش على المشترى ، لكن يوم القيامة سيتبين لهم أن النار عاقلة وهم الذين سيُعرضون عليها .

واقرا :﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[ق]

وثبت فى الحديث الشريف أنها تشتاق لأهلها من الكافرين والعاصين وأنها ستتكلم وتنطق [1].

والحق سبحانه يخاطب ما شاء بما شاء . إذن : لا نفهم هذه الآية بقوانين البشر ، لأن لله قوانين أخرى مع الأشياء ، لذلك لو علّمها الله لأحد من خَلْقه لعلمها وتعامل بها ، كما رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

فكان يفهم لغة الحيوان والطير ، لذلك لما سمع النملة وفهم منها تبسَّم ضاحكاً من قولها ، وشكر المنعم عليه بهذه النعمة .

ومنهم من قال : إن فى الآية قلباً كما تقول : عرضتُ الحوض على الناقة ، والواقع أنك تعرض الناقة على الحوض لتشرب منه .

وقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] أى : يقال لهم هذا الكلام فى الآخرة بعد أنْ تقوم الساعة ، لكن هناك آية أخرى يظن البعض أنها تتعارض مع هذه .

وهى قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] ففهموا منها أن العرض يكون فى الدنيا لأنه عطف عليها بقوله ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٤٦) ﴾ [غافر]

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة تشتاق إليهم الجنة : على وعمار وسلمان » . أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٧١٦ ، ٢٧١٧) وكذا أبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٥) .

لكن المتأمل فى هذه الآية يجد أن هذا العرض ليس فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إنما فى مرحلة البرزخ ، كيف ؟ لأن الغدو والعشى ناشىء من حركة الشمس ووجود الليل والنهار ، والآخرة ليس فيها شىء من هذا .

فالآخرة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] فنحن فى الدنيا نعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فنعيش بالمسبِّب سبحانه الشمس تُنير لنا فى الدنيا ، أما الآخرة ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : العرض هنا فى البرزخ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] فالعرض ليس فى الآخرة بل الدخول ، فالعرض فى الأولى غير العرض فى الثانية ، وما يدريك أنهم قبل أنْ يدخلوا النار يُعرضون عليها ، لأن الصراط مضروب على متن جهنم ، فيُعرضون على النار قبل أنْ يدخلوها .

وقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف] هذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً ، حيث نرى أهل الكفر والإلحاد أكثر منا مالاً وزينة فى الدنيا ، والبعض يسأل عن المخترعين والمكتشفين من غير المسلمين الذين خدموا البشرية بعلومهم ، هل لهم جزاء على ذلك ؟

الجواب هنا ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف] ولم يبق لهم نصيب فى الآخرة ، فهذه سنة الله التى لا تتبدل ، فالله

تعالى أعطى الأسباب للمؤمنين وللكافرين .

فمَنْ أحسن فى الأسباب لم يُحرم ثمرة إحسانه . حتى لو كان كافراً ، ومَنْ قعد وتخاذل حُرم ولو كان مؤمناً ، لأن هذا عطاء الربوبية .

والذين قدَّموا للبشرية هذا العطاء وخدموها هذه الخدمة ، أكان فى بالهم الله ؟ أبداً كان فى بالهم الحضارة والتقدم وخدمة التاريخ والإنسانية ، وقد أخذوا منها جزاءهم سمعة وصيتاً وتخليداً لذكراهم ، أقاموا لهم التماثيل وألَّفوا فيهم الكتب .

إذن : أخذوا أجورهم ممَّنْ عملوا لهم وانتهت المسألة .

لذلك يقول تعالى فى وصف حال هؤلاء : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فوجىء بإلهٍ يحاسبه لم يكُنْ فى باله ساعة العمل ، هذا حال الكافر ، أما المؤمن فيعمل العمل فى الدنيا وعَيْنه على الآخرة .

يُروى أن سيدنا رسول الله مرّ على أهل الصُّفَّة[1] فوجدهم يلبسون الملابس المخرَّقة ولا يجدون ما يُرقِّعونها به ، فقال لهم : أىُّ أيامكم خير ؟ أهذا اليوم أو يوم يُغدى عليكم بجفَانٍ[2] ويُراح عليكم بجفان ، وتغدون فى حلة وتروحون فى حُلة أخرى ، وعلى أبوابكم

(١) الصُّفَّة : موضع مظلل فى مسجد المدينة كان يأوى إليه المساكين . والصُّفة : الظلّة . [لسان العرب - مادة : صفف] . وكان من أهل الصفة : أبو هريرة .

(٢) الجفان : جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة جداً . [القاموس القويم مادة : جفن] .

ستائر مثل ستائر الكعبة[١] .

وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان قبل الخلافة مشهوراً بأنه الفتى المدلَّل الذى يتقلب فى النعيم ليل نهار ، حتى إنه كان يلبس الحرير ، وكان الخدم الذين يغسلون له ملابسه يأخذون من الناس رشوة ليغسلوا ملابسهم فى الماء الذى غسل فيه ثياب عمر لكثرة ما بها من العطر والطيب .

فلما تولى الخلافة زهد فى هذا النعيم وعاش حياة الزهد والتقشف ، وارتدى الثياب الخشنة ، فلما سألوه عن ذلك قال : والله لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً وأحسنكم ثياباً ، لكنى أستبقى طيباتى للآخرة[٢] ، وإن لى نفساً توَّاقة - يعنى : عندها طموح للأحسن -

---

(١) أخرجه بنحوه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٠٨٦) عن طلحة بن عمرو قال : كان الرجل إذا قدم على رسول الله ﷺ فلم يكن له بالمدينة عريف ينزل عليه نزل مع أصحاب الصُّفة وكان لى بها قرناء وكان يجرى علينا من رسول الله كل يوم بين اثنين مدان من تمر ، فبينما رسول الله فى بعض الصلوات إذ ناداه مناد من أصحابه : يا رسول الله أحرق التمر بطوننا وتحرقت عنا الحتف ، فلما قضى رسول الله قام فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ما لقى من قومه من الشدة . فكنت أنا وصاحبى بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إلا البرير حتى قدمنا على إخواننا من الأنصار فواسونا فى طعامهم وعظيم طعامهم التمر والذى لا إله إلا هو لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكموه وإنه لعله أن تدركوا زماناً أو من أدركه منكم يلبسون فيه مثل ستار الكعبة يغدى عليكم ويُراح بالجفان » وانظر أيضاً كنز العمال (٦٢٢٦ - ٦٢٣٦) .

(٢) هذا القول مذكور فى المصادر والمراجع منسوباً لعمر بن الخطاب وليس ابن عبد العزيز . نسبه إليه الطبرى والقرطبى والرازى والنسفى والنيسابورى والزمخشرى والسيوطى وأبو بكر الجزائرى والجصاص كلهم فى تفاسيرهم .

تاقتْ للإمارة ، فلما نلْتها تاقتْ للخلافة ، فلما نلتها تاقت للجنة[١] .

لذلك رُوىَ عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالتْ : كان يمرُّ الهلال ثم يمر الهلال ، ثم يمر الهلال . يعنى : ثلاثة أشهر ما يُوقد فى بيت محمد نار . قيل : فما طعامكم ؟ قالت : الأسودان الماء والتمر[٢] .

إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا . إذن : كان بيت سيدنا رسول الله نموذجاً ومثالاً وأُسْوة للفقراء .

وقوله ﴿ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. ⁽٢٠⁾ ﴾ [الأحقاف] بالله ساعة تفكر فى معنى كلمة الدنيا ، هل تجد لها وصفا أدنى وأقل من هذا ؟ وساعة تسمع الدنيا لا بد أنْ تتذكر المقابل ، وأن هناك حياة مقابلة تُوصف بأنها العليا ، وهى التى فيها الجزاء .

﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ .. ⁽٢٠⁾ ﴾ [الأحقاف] أى : يوم القيامة تُجزون على أعمالكم عذاب الهون . يعنى : الهوان والذلة ، لأنكم استكبرتم فى الدنيا عن قبول الحق .

ومن الهُون هذه أُخِذتْ كلمة (الهون) ، وهو الآلة التى ندقُّ فيها

---

(١) ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) أن عمر بن عبد العزيز قال لدُكيْن : إن نفسى لم تنل شيئاً قط إلا تاقت لما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا فنفسى تتوق إلى الآخرة ، والله ما رزأت من أموال الناس شيئاً ولا عندى إلا ألف درهم فخذ نصفها . وكذلك ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية ، وابن قتيبة الدينورى فى (الشعر والشعراء) فى فصل (دكين الراجز) .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٧٩ ، ٥٩٧٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

الأشياء في المطبخ ، فهو آلة الطحن والدقّ وسحق المادة التي تُوضع فيه .

فكأن العذاب الذي سيلاقونه سيسحق كبرياءهم ويجعلهم أذلة مُهانين ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف] يعني : بسبب استكباركم وتعاليكم عن قبول الحق ﴿ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف] دل على أن هناك استكباراً بالحق ، وهو أنْ تتكبَّر على المتكبر ؛ لذلك قيل : الكبر على أهل الكبر صدقة[1] .

لذلك كان سيدنا حمزة في الحرب يرتدي عصابةَ الموت ، وهي عصابة حمراء ويرفع سيفه ، ثم يسير بين الصفوف يتبختر مزْهُواً بنفسه ، فنظر إليه سيدنا رسول الله ﷺ وقال : هذه مِشْية يبغضها الله إلا في هذا الموقف[2] . وقال : رحم الله امرءاً أبدى لهم من نفسه قوة[3] .

---

(١) مما ذكره ابن شرف القيرواني في (رسائل الانتقاد ١/٩) : « فعامل هذا الصنف بعطفك عنهم للعطف ورفعك عليهم الأنف وأعرض عنهم بالفكر والذكر ، كبراً وإن لم تكن من أهل الكبر » . أما من يأخذه على أنه حديث فليس بصحيح .

(٢) ما وجدته في هذا أن رسول الله ﷺ قال هذه العبارة في حق أبي دجانة وليس حمزة ، فإن أبا دجانة أعلم رأسه بعصابة حمراء يوم أُحُد فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو مختال في مشيته بين الصفين فقال : « إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع » [أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ٦٣٨٨] وكذا أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٢٢٠) .

(٣) قوله ﷺ هذا كان في أول عمرة اعتمرها رسول الله هو وأصحابه بعد أن صُدّ عن مكة العام الذي قبله وكان صلح الحديبية . قال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عبد الله بن عباس قال : صفوا (أي المشركين) له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » ثم استلم الركن ثم خرج يهرول ويهرول أصحابه معه . [السيرة النبوية لابن كثير ٤/٤٣٠] وفي سبل الهدى والرشاد (٥/١٩٢) والسهيلي في الروض الأُنُف (٤/١١٣) .

ونفهم من آيات القرآن الكريم أن المؤمن منْ وصفه في القرآن أنه غير مطبوع على طبع واحد ولا قالب واحد ، إنما الموقف الذى يعيشه هو الذى يملى عليه الطبع المناسب للموقف .

واقرأ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

إذن : هو عزيز فى موقف ، وذليل فى موقف آخر ، شديد فى موقف ، ورحيم فى موقف آخر ، فهو يجمع بين المتناقضيْن لأن المقام مختلف .

وقوله : ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ [الأحقاف] إذن : هناك استكبار وهناك فسق ، الاستكبار : التعالى عن قبول الحق ، والفسق : من فسقَتْ الرُّطبة يعنى : خرجت عن قشرتها .

والبلح له فى استوائه أعمار ، فلما يكتمل الحجم يبدأ اللون أحمر أو أصفر ثم يرطب وتكون له قشرة ، فإذا كان فى بيئة جافة جَمُدَ وجَفَّ ولصقتْ القشرة فى لحم البلحة ، وهذا أجود أنواع التمر .

فمعنى الفسق هنا يعنى الخروج عن وعاء الطاعة ، ولما تتأمل الاستكبار والفسق تجد أنهما يجمعان بين عمل القلب وعمل الجوارح .

فالإنسان له قلبٌ وقالب ، القلب محلُّ الأسرار والغيبيات ، ومحل الإخلاص أو الرياء ، ومحلُّ التواضع أو التعالى ، فالاستكبار من أعمال القلب ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

أما الفسق فهو الخروج عن الطاعة التى هى عمل الجوارح .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ(١) إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ(٢) وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. (٢١) ﴾ [الأحقاف] أى : اذكر يا محمد ، كأن هذا الذكر جاء لتذكير رسول الله بمواقف إخوانه من الرسل فى موكب الإيمان ، يعنى : انظر لمَنْ سبقك منهم ولما تحمّل فى سبيل دعوته ، فأنت لستَ بدعاً فى الرسل .

نعم تحمّلوا المشقة والأذى ، لكن صدق اللهُ وعده بنُصْرتهم فى النهاية ، لذلك تلاحظ على أسلوب القرآن تعدُّد القصة الواحدة بتعدُّد الأحداث التى تمرُّ بالرسول ، يقول تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

فكلّما حدث لرسول الله أمر مع قومه يُذكّره الله بموقف من مواقف الرسل السابقين ليُطمئنه وليُثبِّت فؤاده على الحق ، وإذا كان كل رسول يتعرض للأذى على قدر مهمته فلا شكَّ أنك ستكون أشدَّ

(١) أخا عاد : هو هود عليه السلام بعثه الله إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٦٢٥١/٩) : « هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين » .

(٢) الأحقاف جمع حِقف وهو الجبل من الرمال . قاله ابن زيد . وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار . وقال على بن أبى طالب : الأحقاف واد بحضرموت . وقال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر . [تفسير ابن كثير ١٦٠/٤] .

الرسل إيذاء لأنك الرسول الخاتم .

وقوله : ﴿ أَخَا عَادٍ .. (٢١) ﴾ [الاحقاف] المراد سيدنا هود ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الاعراف] كلمة أخ تُجمع على إخوة وإخوان ، إخوة تعنى أخوة النسب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ .. (٥٨) ﴾ [يوسف]

أما إخوان فيُراد بها أخوة المنهج والدين والقيم كما فى قوله تعالى : ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر] فقوله ﴿ أَخَا عَادٍ .. (٢١) ﴾ [الأحقاف] أخاهم فى النسب ، وعاد هى القبيلة أو الأمة التى أُرسِلَ فيها سيدنا هود عليه السلام .

والإضافة فى ﴿ أَخَا عَادٍ .. (٢١) ﴾ [الاحقاف] تحنينٌ لهم وإثارة لمشاعر الرحمة والدم الواحد ، فالذى جاءهم ليس غريباً عنهم ، إنما هو أخ لهم ، وإنْ جاءهم منهج مخالف لما هُمْ عليه وأراد أنْ يُخرجهم عمَّا ألِفُوه من الضلال والفساد ، والأخ لا يغشّ أخاه سواء أكانتْ أخوتهم له للنسب ، أم للدين والمنهج والقيم .

إذن : عليهم أنْ يستقبلوا دعوته بالحنان الذى تقتضيه الأخوة .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ .. (٢١) ﴾ [الاحقاف] عاد كانت جماعة من العرب البائدة ، وكانت تسكن الأحقاف فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، والأحقاف جمع حقف : وهو الرمل المستطيل الذى يعلو وينخفض ويتحرك يميناً وشمالاً ، وهنا وهنا .

والرمل لنعومته تُحركه الرياح والأعاصير بسهولة ، حتى إن الهبَّة الواحدة من الإعصار فى هذا المكان كانت تطمر قافلة وتغطيها فى

هذا الوادى ، لذلك لم تظهر آثار قوم عاد حتى الآن لأنها مطمورةٌ على مسافات بعيدة تحت الرمال .

كذلك الآثار القديمة فى كل مكان لا توجد إلا تحت الأرض فى حفريات ، لأن عوامل التعرية تطمرها . لذلك ترى الواحد منا إذا سافر مثلاً وترك بيته لعدة شهور مثلاً يعود فيجده مُغطى بطبقة من التراب ، مع أنه مغلق بإحكام ، فما بالك فى الخلاء مع هبوب الرياح والأعاصير ؟

وفى سورة الفجر ، الحق سبحانه يعطينا طرفاً من تاريخ هذه الأمم وما حلَّ بها من العذاب : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ[2] (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

ونحن حتى الآن لا نعرف أين ديارهم ، ولا نعرف آثارهم إلا ما أخبرنا الله به ، ذلك لأنها تحت مسافات فى باطن الأرض .

---

(١) جابه يجوبه : قطعه . أى : قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) الأوتاد : جمع وتد وهو قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تُثبَّت فى الأرض ثم يُشدَ بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . و ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يثبتون مُلْكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس . ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] فهو ليس أول الرسل إليهم ولا هو آخرهم ، فقد مضتْ الرسل ﴿مِنْ بيْنِ يدَيْهِ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : من بعده .

والنُّذر جمع نذير ، وهو الذى يُخوّفك ويُحذِّرك من الشر قبل حلوله ، وفائدة الإنذار أنه ينبهك من الخطر قبل أنْ تقعَ فيه فتتجنبه ، ويجب أنْ يكون الإنذار قبل حدوث الشر بمدة كافية تمكِّنك من تدارك الأمر وتجنب الوقوع فيه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : هذه القضية اتفق عليها جميع الرسل من قبل هود ومن بعده ، فكل الديانات ما جاءتْ إلا لخدمة هذه القضية ودعوة الناس إليها .

والعبادة كما بينّا طاعة العابد لأوامر المعبود ونواهيه ، وهذا المعنى ينقض ويبطل عبادة غير الله ، فكلها آلهة باطلة وعبادتها باطلة لأنها آلهة بلا منهج وبلا أمر ولا نهى .

فالشمس ، ماذا قالت لمَنْ عبدها ؟ بمَ أمرته وعمَّ نهَتْ ؟ ماذا أعدتْ لمن عبدها من الجزاء ؟ وماذا أعدّت لمَنْ كفر بها ؟ فإنْ سألتَ لماذا عبدها الناس وعبدوا غيرها من الأشياء ؟

نقول : لأن التديّن غريزة فى الإنسان منذ خلقه الله ومنذ كان فى عالم الذر ، لكن التدين الحق له مطالب ومسئوليات تكبح جماح النفس وتُقيد شهواتها .

لذلك لجأ البعض إلى عبادة تُرضى عندهم غريزة التدين وتُعفيهم

من مطالب الدين الحق ، فراحوا إلى الآلهة الباطلة وعبدوها ، لأنها لا تلزمهم بشيء ولا تكلفهم شيئاً ، وتُطلق العنان لشهواتهم .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الأحقاف] هذا الخوف هو مقتضى الأخوة ، فالأخ حريص على مصلحة أخيه ، حريص على نجاته ، لذلك قال تعالى في سيدنا رسول الله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وهنا وصف يوم العذاب بأنه يوم عظيم ، أنتم في دنياكم تصفون بعض الأشياء بأنها عظيمة ، وهذه العظمة في وجودكم المادى مردودة إلى الفناء مهما طال أجلها ، كذلك كل نعيم فى الدنيا يُنغِّصه على صاحبه أمران : أنْ يفوته النعيم ، أو يفوت هو النعيم ويتركه بالموت . فوصف هذا اليوم بأنه عظيم لأنه دائم لا يزول ، ولا يموت صاحبه فيستريح منه .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢) ﴾

الكلام هنا عن قوم هود ، فلما دعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى المدَّعاة . والإفك : قَلْب الشيء على وجهه ، وصرف الحق إلى الباطل ، والصدق إلى الكذب .

---

(١) العنت : المشقة . ما عنتم : أى ما شقَّ عليكم . [القاموس القويم ٢/٣٨] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها اللهُ رأساً على عقب ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى : من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] والعذاب الذى يعدهم به لا يأتيهم فى الحال إنما يوم القيامة لكنهم يستعجلونه .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ﴾ [يونس] ، وقال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾ [الذاريات]

فهم يستعجلون العذاب لأنهم لا يؤمنون به ويُكذِّبونه ، ولو أنهم يؤمنون به ما استعجلوه .

ثم يرد عليهم بالجواب الطبيعى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾

أى : علم الساعة عند الله ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف] وما أنا إلا رسول أبلغكم ما أُرسلْتُ به من ربى ﴿ وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأحقاف]

وهذه خلاصة الأمر أنكم تجهلون . يعنى : عندكم جَهْل بالأمور ، والجهل هو المشكلة الكبرى التى تقابل الرسل ، البعض يفهم أن الجهلَ عدمُ العلم ، لكن الجهل علمٌ يناقض الحق .

لذلك قلنا : إن الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً وليستْ لديه قضية أهون من الجاهل ، لأنه فارغ الذِّهْن فتلقى إليه بالمعلومة فيقبلها ، أما الجاهل فعنده قضية مُناقضة للحق فيحتاج إلى إخراجها أولاً ، فتكون دعوتُه للحقِّ أصعبَ .

وقوله : ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : أننى ما جئتُ من تلقاء نفسى ، إنما جيء بى لأدعوكم إلى الله فلا بدّ أنْ يُنسب الفعلُ إلى فاعله . ﴿ أُرْسِلْتُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : من الله ، كما قلنا فى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فمحمد ﷺ لم يقل سريتُ إنما قال : أُسْرِى بى .

وهذا يعنى أنهم كذابون فى قولهم ﴿ أَجِئْتَنَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف] لأنه لم يأت من عند نفسه ، إنما أرسله الله للبلاغ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت] فأنا مرسل فقط للبلاغ ، ولا أعرف متى يأتى العذاب ، إنما يعرفه الذى يقدر عليه .

﴿ وَلَـٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : تجهلون أن الرسول جاء مُبلِّغاً ، ولا عِلْمَ عنده بحلول العذاب بمَنْ كذَّبه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

يعنى : بعد أن استعجلوا العذاب ، وقالوا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف] فجاءهم العذاب فى صورة سحاب

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] يعنى : سحاباً يعترض فى جو السماء ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] مقبلاً عليهم ﴿ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ظنوه سحاباً عادياً سيمطر على أوديتهم ويأتيهم بالخير .

إذن : الهاء فى ﴿ رَأَوْهُ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] تعود على السحاب ، لأنه هو المعلوم فى الكلام بدليل قولهم (ممطرنا) ولا يمطر إلا السحاب ، فالقرينة دلّتْ على أنه السحاب .

وكثيراً ما يعتمد القرآن فى أسلوبه على القرائن التى تبين مرجع الضمير اعتماداً على أن العقلَ يدرك بذاته المسألة .

اقرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [فاطر] والمراد : ظهر الأرض مع أنها لم تُذكر فى السياق ، لكن هى التى تأتى فى الذهن ، ولا يُفهم من الكلام إلا هذا .

فالقاعدة أن الضمير لا بدَّ أنْ يكون له مرجع ، ولا يوجد ضمير غائب ليس له مرجع إلا شىء واحد هو إذا كان الضمير الغيبى للغيب المطلق وهو الحق سبحانه وتعالى ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] هو من ؟ الله لأنها لا تنصرف إلا إليه سبحانه .

تقول : جاء زيد فأكرمته – أى زيداً ، وجاءت فاطمة فأكرمتُها . الهاء تعود على فاطمة وهكذا ، ومرجع الضمير يكون لذات الشىء كما لو قلت : جاءنى رجل فأكرمته – أى : أكرمتُ الرجل ، وقد يعود على غير ذات الشىء كما لو قلت : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه ، فالهاء فى نصفه لا تعود على الدرهم المذكور إنما على درهم مثله ، أى على نصف درهم مثله .

لكن ، لماذا ظنُّوا السحاب المعترض ممطراً ؟ قالوا : لأنهم كانوا في جَدْب وقحط ينتظرون الماء ، فرأوا سحاباً يعترض أفق السماء رأوه داكناً بطيئاً في سيره وهذه علامات السحاب الممطر ، لأن أبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحب مشْياً أحفلها ، فبُطء السحاب دلالة على أنه مُحمَّل بالماء وهم مُستشرفون للمطر ، فظنوْه مطراً .

إذن : أعطاهم الأمل في نزول المطر ، فكلُّ العلامات تدل عليه ، وفجأة تقطع عنهم هذا الأمل ، وبين بسْط النفس بالأمل وقمْعها بقطع الأمل نوعٌ من النكاية والحسرة ، يُسمُّونه (يأس بعد طمع) .

وهذا نوع من التعذيب في حَدِّ ذاته يستعمله مثلاً القائمون على التعذيب في السجون ، فيمنعون الماء عن المسجون حتى يشتدَّ به العطش ويتوسَّل إليه ليشرب ، فيأتيه العسكرى بكوب ويُقرِّبه منه حتى يكون على شفتيه فيرميه على الأرض ، وهذا إيلام وتعذيب ، فليْته ما جاء بالماء أصلاً ، لأن مجيء الماء أمامه بلاء فوق بلاء العطش .

كذلك الحال في هؤلاء ، استشرفوا للمطر وقالوا : يخلّصنا مما نحن فيه من الجدب ، فإذا به يُنزل عليهم العذاب بدلاً من الماء ، إذا به العذاب الذى سبق لهم أنْ كذّبوا به واستعجلوه ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أى : من العذاب جاء متمثلاً في صورة ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

قلنا : إن كلمة الريح إذا جاءت هكذا مفردة دلَّتْ على أنها تحمل العذاب والشر ، فقوله (ريح) أى : عذاب مُجمَل ثم يُفصِّله ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أما إذا جمعتْ (رياح) فإنها تدل على الخير ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (٥) ﴾ [الجاثية] لأن تصريفها يسوق السحاب ويُجرى السفن ويلقح الزهر .. الخ .

لذلك ورد في الحديث الشريف في دعاء هبوب الريح : « اللهم اجعلها رياحاً ، ولا تجعلها ريحاً »[1] .

وسبق أنْ بيَّنا أن الرياحَ طاقةٌ وقوة تصلح وتنفع إذا جاءتْ من جميع الجهات ، وتدمر إذا جاءتْ من جهة واحدة ، وتفريغ الهواء الآن علْم له قواعدُ يستخدمونه في التدمير .

ثم إن الهواء نفسه مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة وبدونه لا توجد حياة ، لذلك جعله الله عاماً شائعاً في الكون لا يملكه أحد كما يملكون الطعام مثلاً ، لأن مالك الهواء لو منعه عنك لحظة تموت ، على خلاف الماء والطعام مثلاً .

ثم بعد ذلك يُفصِّل القول في كلمة ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الاحقاف] فيقول :

﴿ تُدَمِّرُ[2] كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾

---

(١) عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا هاجت ريح استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه ومدَّ بيديه وقال : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » [أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١٣٦٨] .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٤٤٥٤) عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : ما رأيت رسول الله ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم . قالت : وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه . قالت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عُذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » .

كلمة ﴿ تُدَمِّرُ .. ㉕ ﴾ [الأحقاف] تهلك ﴿ كُلَّ شَيْءٍ .. ㉕ ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تُبقى لهم شيئاً ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ㉕ ﴾ [الأحقاف] خالقها ومُجريها ، فهى لا تُهلك بطبيعتها إنما بأمر الله لها ، فبدل أنْ تأتيهم بالخير أتتهم بالشر ، فتحتاج هنا إلى أمر زائد من الله بأنْ تتحول إلى الشر ، وتُهلك بدل أنْ تعمِّر .

ولا يملك هذا الأمر إلا الله ، ولا يُخرجها عن طبيعتها إلا خالقها سبحانه ، كما أخرج النار عن طبيعتها فى قصة سيدنا إبراهيم ، فقال لها : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ㊾ ﴾ [الأنبياء]

إذن : استجابتْ الريحُ لأمر ربها ، وأهلكتهم هلاكاً لم يُبْق لهم شيئاً من متاعهم إلا بقايا بيوتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ .. ㉕ ﴾ [الأحقاف] ولماذا أبقتْ على مساكنهم ؟

قالوا : لتكون عبرة لغيرهم ، وأثراً من آثارهم الدَّالة عليهم وعلى نزول العذاب بهم ، وإنْ كانت هذه القرى مطمورة تحت الأرض ، لأنهم كما قلنا : كانوا فى وادٍ من الرمال هو (الأحقاف) ، وهذه الرمال هى التى طمرتهم .

قالوا : لما أراد اللهُ إهلاكهم وسلَّط عليهم الريح العاصف ، فأوَّل مَنْ رأى العذاب امرأةٌ منهم ، رأتْ بيتها يطير فى الهواء مثل الطير .

ولما فاجأهم العذاب دخلوا البيوت يحتمون بها من شدة العواصف ، فدخلتْ الريح وراءهم البيوت ، ودخلت عليهم الرمال حتى دفنتهم فيها ، ونفس الريح التى طمرتهم هى التى كشفتْ عنهم وأظهرتْ جيَفهم ليعتبر الناسُ بها ثم أُلقُوا فى البحر .

﴿ كَذَٰلِكَ .. (٢٥) ﴾ [الاحقاف] أى : بمثل هذا ﴿ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] فالجزاء ليس ظلماً ولا عدواناً ، إنما جزاء من جنس العمل ، فما استحقوا هذا العذاب إلا لأنهم مجرمون .

أما الذين آمنوا بسيدنا هود وصدَّقوا دعوته فقد حصَّنهم من العذاب بأنْ خَطَّ حول مساكنهم خطاً ، وكأن لسانَ حاله يقول : يا ربِّ هؤلاء هم المؤمنون بدعوتى ، فنجِّهم واحرسهم فنجّاهم الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الاحقاف] إنذار وتحذير لكفار قريش ، يعنى : يا كفار قريش خُذُوا عبرة ممَّنْ كذَّب الرسل قبلكم ، فهذا جزاء كلِّ كافر مخالف لمنهج الله مكذِّب لرسله ، وهذه هى الصورة أمامكم .

ثم يُوجِّه الخطاب إليهم :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) ﴾

هذا خطاب لقريش ولَفْتٌ لهم أن هؤلاء المعذّبين من قوم عاد كانوا أقوى منكم وأحسن أثاثاً ورئياً ، وأكثر منكم أموالاً ، وأثاروا الأرض وعمروها ، ولهم حضارة من أعظم حضارات الدنيا.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ ﴾ [الفجر]

ومع ذلك كان هذا مصيرهم فلم تُغْن عنهم قوتهم ، ولم تدفع عنهم الحضارة شيئاً من عذاب الله وأنتم لستُم أقوى منهم ، فاحذروا ما وقعوا فيه من تكذيب الرسول ، واحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ .. ۝ ﴾ [الأحقاف] يعنى : مكنَّا قوم عاد . والتمكين يعنى : أعطيناهم القوة والاستطاعة ، وبسْطنا لهم فى أسباب الدنيا حتى عملوا ما لم يعمله غيرهم من الأمم .

﴿ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ .. ۝ ﴾ [الأحقاف] إن هنا نافية كما فى قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. ۝ ﴾ [المجادلة] ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنَهم ، وهنا مكنَّا لهم ما لم نُمكِّن لكم ، وبسطنا لهم ما لم نبسط لكم من الأسباب .

ثم ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ .. ۝ ﴾ [الأحقاف]

السمع والأبصار والأفئدة هى وسائل الإدراك الرئيسية فى الإنسان ، وقد وردتْ فى كُلِّ مواضعها فى القرآن بهذه الصيغة : السمع مفرد ، والأبصار والأفئدة جمع .

وهذه من دقائق التعبير فى القرآن ، فالسمع لا تُجمع لأن الصوت يسمعه الجميع كأننا فى السماع واحد ، ترى مصدر الصوت أو لا

تراه لكن تسمعه .

أما البصر فيختلف من شخص لآخر ، فواحد يرى والآخر لا يرى ، واحد نظره حَادٌّ ، وآخر نظره كليل ، وآخر أعور . إذن : الأبصار مختلفة ، كذلك تختلف الأفئدة فى استقبال الأشياء .

وقد ثبت فى علم وظائف الأعضاء أن الأذن هى أول جهاز يعمل فى الطفل بعد ولادته مباشرة ، أما العين فترى بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، ثم بعد ذلك تعمل الأفئدة .

إذن : هذا هو الترتيب الطبيعى لعمل الجوارح التى هى وسائل الإدراك ، ولأهمية السمع جعله اللهُ أول هذه الجوارح عملاً ، فهو أول ما يستقبل من مُدركات بعد الولادة ، وهو الحاسَّة التى لا تنتهى مهمتها حتى فى النوم .

فالعين مثلاً لا ترى أثناء النوم ، أما الأذن فتسمع لأنها وسيلةُ الاستدعاء للنائم ، فلا بدّ أنْ تكون مستعدة دائماً للتلقِّى والسماع .

وهذه المسألة رأيناها فى قصة أهل الكهف فى قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف] لأن الكهف فى صحراء يكثر بها الأصوات المزعجة ليلاً بالإضافة إلى أصوات الرعد والبرق والريح ، فلو كانت الأذنُ على طبيعتها لأزعجتْهم هذه الأصواتُ ، لكن ضرب الله عليها حتى لا تسمع .

ولأن السمع هو وسيلة التلقِّى واستقبال البلاغ عن الله جعلها الله سبحانه أول هذه المدارك عملاً ، لذلك سَنَّ لنا سيدنا رسول الله ﷺ

أنْ نُؤذِّن فى أذن الطفل بمجرد أنْ يُولد[1] .

ولو كانت الأذن لا تعمل فى هذا الوقت كان التكليف عبثاً ، فإذا قلت مثلاً : وهل يفهم الطفل هذا ؟ نقول : نعم يفهم بما فيه من العهد الذى أُخذ على آدم ونحن فى مرحلة الذر .

إذن : أول ما يجب أنْ يُعنى به الوالدان أنْ يُسمعا الطفل هذا النداء : الله أكبر الله أكبر من كل شىء آخر ، وهذه هى الخميرة الإيمانية التى تدور حولها كل خمائر الإيمان .

ما زلتم تذكرون حديثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] فماذا يشغل هذين الوالدين فى هذه المرحلة من عمر الابن ؟ لم ينشغلا بالقبول ثم الثانوية ثم الجامعة ، أبداً إنما بالأمر الأحق والأهم ، وهو مسألة الدين والعقيدة ، فهذه أوْلى بالاهتمام فى الصِّغَر حتى يشبّ عليها .

لذلك نستقبل المولود بألفاظ الأذان لنغرسها فيه وفى تكوينه وهو صافى الذهن نقى القلب ، فترسخ عنده ، وتتمكن منه ولا تفارقه ، على حَدِّ قول القائل[2] :

---

(١) روى احمد وابو داود والترمذى وصححه عن أبى رافع قال : رأيت النبى ﷺ أذَّن بالصلاة فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة رضى الله عنهم . وروى ابن السنى عن الحسن ابن على ان النبى ﷺ قال : « من وُلد له ولدٌ فأذَّن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى لم تضره أم الصبيان » ذكرهما الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (٣/٣٢٩) .

(٢) الشاعر هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامرى ، شاعر غزل من أهل نجد يلقب بـ (مجنون ليلى) لهيامه فى حب ليلى بنت سعد الأخيلية وحجبها أبوها عنه حتى وُجد مُلْقى بين أحجار وهو ميت فحُمِل إلى أهله عام ٦٨ هجرية . [الموسوعة الشعرية] .

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أعرفَ الهَـوَى   فَصَادفَ قَلْباً خَالِياً فَتمكنَّا[1]

قلنا : إن السـمع مُـقـدّم على البصـر ، هذا فى الدنيـا ، أمـا فى الآخرة قالوا : ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] فقـدَّم البصـر على السمع ؛ لأنه حـين تقوم القيـامة يُفاجـأ الإنسان بمنظر رهيب ، فيرى قبل أن يسمع .

ثم يقول تعالى فى وصف قوم عاد : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] إذن : سـمعـوا وكأنهم مـا سمعوا ، وأبـصروا وكأنهم ما أبصـروا لم يستفـيدوا من هذا ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[2] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٤٦)﴾ [الإسراء]

وبالتـالـى أصـبحـت أفئـدتهم خـالـيـة ، كمـا قـال سـبحـانه : ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا[3] لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف]

لكن ، ما العلاقـة بين السمع والبصر والفـؤاد أى القلب ؟ ولماذا

(١) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها بيتان ، البيت الأول منها يقول :

برغمى أطيل الصد عنها إذا نأت   أحاذر أسماعاً عليها وأعينا

(٢) أكنة : جمع كنان . وكنان الشيء : غشـاؤه الذى يستره ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. (٤٦)﴾ [الإسراء] . أى : أغلفة تحجبها . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

(٣) ذرأ الله الخلق وخلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

جمع بينهم ؟ قالوا : لأن السمع يدرك المسموع ، والبصر يدرك المرئى ، ومن هذه الإدراكات يُكوِّن الإنسان الفكر ثم يعرضه على العقل ليختار منه ويفاضل بين مكوِّناته ، فيأخذ الطيب ويترك الخبيث ، يأخذ الصواب ويترك الخطأ ، يأخذ ما وافق الشرع ويترك ما خالفه .

فإذا استقر على أمر ألقاه إلى القلب ليثبت فيه ، ويكون عقيدة راسخة لا تتزحزح ، وإيمان لا يتذبذب ولا يطفو إلى العقل ليُناقش مرة أخرى ، فالقلب إذن هو محلٌّ العقائد .

لذلك قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

لأنه الوعاء الذى حمل سائل الحياة ويضخه لجميع أجزاء الجسم ، وحين يمتلئ بالإيمان يضخ هذا الإيمان مع الدم إلى جميع أجزاء الجسم ، فتأتى التصرفات والأفعال على وفق هذا الإيمان ، وتؤدى كل حاسة مهمتها بدقة .

وهكذا تجد أن واهب الحياة لك لا يعطيك ما يُعوِّقك عنه ، ولا ما يعطل عندك أداء منهجه . لذلك اقرأ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وابن ماجة فى سننه (٢٩٧٤) كلهم من حديث النعمان بن بشير وأوله « الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث .

الْجَاهِلِيــنَ (٥٥) ﴾ [القصص]

وقال : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

إذن : إذا تمكَّن الإيمان من قلب العبد لا يصدر منه إلا ما يوافق مقتضيات الإيمان قولاً وعملاً ، وانطبعت كُلُّ حركاته في الحياة بهذا الطابع . أما قوم عاد الذين نتحدث عنهم فلم ينتفعوا بما سمعوا من رسولهم ، ولا بما رأوا من آيات الكون ، ولم يذوقوا إذن طعم الإيمان بالله .

﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. (٢٦) ﴾ [الأحقاف] وينكرونها وينصرفون عنها ، ولو آمنوا لشرح اللهُ صدورهم ، لكن ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم ، لأنهم اختاروا الكفر وأحبُّوه فأعانهم الله عليه ، لأنه رَبٌّ يعطي عبده ما يريد .

لذلك قلنا للمرأة التي تبالغ في الحزن على فَقْد عزيز عليها : احذري من ذلك ، واخرجي من دائرة الحزن ولا تألفيه ، وانظري لا إلى ما أُخذ بل إلى ما أبقى ، وإلا أدام الله عليك الحزن وأخذ منك الباقي .

وهنا درس مهم ، وهو إذا أصابك مكروه في شيء عزيز عليك فلا تنظر إلى ما أخذتْ المصيبة ، لكن انظر فيما أبقتْ لك ، حتى تهون وحتى لا تدخل من باب الجزع واليأس ، وسوف تجد أن ما بقي أكثر ، وأن مصيبتك أهون من غيرك .

لذلك حكيم الصين لما جاءه الناس يشكُون إليه متاعب الحياة

وهمومها ، قال لهم : فليكتب كلٌّ واحد منكم همومه ومتاعبه فى ورقة ، ثم يلقى بها فى هذا الصندوق وليأتنى بعد أسبوع ، وبعد أسبوع جاء الشاكون فقال للأول : مدّ يدك وخُذْ ورقة مما فى الصندوق فأخذ ورقة .

ولما نظر فيها قال : لا أريد ورقتى ، لماذا ؟ لأنه وجد مصيبته أهونَ من مصيبة غيره . وقد ترجم العامة هذا المعنى فقالوا (اللى يشوف بلاوى الناس تهون عليه بلوته) .

ويُرْوَى أن سيدنا عروة بن الزبير[1] سافر إلى الخليفة الأموى[2] فى الشام ، وفى الطريق جُرحت رجْله ولم يجد مَنْ يداويها حتى وصل إلى دمشق فوجدوها قد قاحتْ ولم يجدوا حلاً إلا قطعها ، فبحثوا له عن مُرقِّد يعنى (بنج) قال : لا فأنا لا أحب أنْ أغفلَ عن ربى طرفة عين ، لكن اتركونى حتى أدخل فى الصلاة .

فلما دخل فى صلاته قطعوا رِجْله فلم يشعر بها ، ثم أخذوها وكفَّنوها فقال لهم : أعطونى إياها ، فأمسك بها وقال : اللهم إنْ كنتَ قد ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ فى أعضاء[3] .

---

(١) هو : عروة بن الزبير بن العوام القرشى الفقيه ، أحد الفقهاء السبعة ، وهو ابن أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ولد عام ٢٤ هجرية وتوفى عام ٩٤ هجرية عن ٧٠ عاماً . [الوافى بالوفيات ٦/٣٥٩] .

(٢) أما الخليفة الأموى الذى وفد عليه عروة ، فهو الوليد بن عبد الملك .

(٣) وقعت فى رجله قرحة فأشاروا عليه فى مجلس الوليد بأن يقطعها وإلا أفسدت جميع جسدك فدعى الجزار ليقطعها وقالوا : نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً . فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجوه من عافيته ، فقالوا : نسقيك مرقداً . فقال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء؟ قالوا : يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر . فقال : دعونى أصلى فإنه كان إذا صلى اشتغل عن نفسه بالصلاة . فقُطعت وهو يصلى . [الوافى بالوفيات ٦/٣٥٩] .

نعم ، وهل الذى يغيب فى معيَّة الله يشعر بألم ، ويجب أنْ نصدق بهذه الأخبار ولا نستبعدها ، لأنه من أسرار الأذن أنك إذا أحكمتَ سدَّها لا تشعر بالألم ، فإن حاولتَ وشعرت بشىء من الألم فاعلم أنك لم تُحكِم سدَّها تماماً .

ونداء الله أكبر هو الذى يُخرجك من عمل الدنيا ويُوقفك بين يدى الله ، وهو تكبيرة الإحرام للدخول فى الصلاة ، سبق أنْ بيَّنا أن معنى الله أكبر أن العمل والسعى يعتبر كبيراً ، لكن الله أكبر ، فلا يُستهان أبداً بعمل الدنيا والسَّعى فيها واستنباط خيراتها ، فالدنيا أهم من أنْ تُنسى ، ولكنها أحقر من أنْ تكون غاية .

والمتتبع لقصة قوم عاد يجد أنها وردتْ فى عدة سُور ، وردت هنا على وجه الإجمال والإيجاز ، وجاء تفصيل هذه القصة فى سورة هود ، وفى سورة الحاقة فصَّل لقطة العذاب التى جاءت هنا ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[2] فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة]

فالريح التى أهلكتهم ريح صرصر . يعنى : شديدة لها صوتٌ مزعج تأتيهم من أعلى فى سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، والحسوم

(١) الريح الصرصر : هى الشديدة البرد ، مأخوذ من الصر وهو البرد . وقيل : هى الشديدة الصوت . وقال مجاهد : الشديدة السموم . [فتح القدير للشوكانى تفسير آية ٦ الحاقة] .

(٢) حسمه يحسمه : قطعه واستأصله . وقوله تعالى : ﴿ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة] أى : مهلكات مستأصلات . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

جمع حاسم فهى حاسمة يعنى : حسمتْ الموقف وأنهتْ المسألة ، فلم تُبْق لهم على شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا قال ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾﴾ [الحاقة] مع أن العادة فى التشريع أن الليالى تسبق الأيام ، والزمن يدخل بليله لا بنهاره ، بدليل أننا فى رمضان نثبت دخوله بليله ، فقبل أنْ نصوم نصلى القيام .

لذلك جعلوها لغزاً فقهياً : ما السّنة التى تسبق الفرض ؟ ويبدو أن العذاب نزل بهم فى الصبح فاستقبل النهار وانتهى عند المغرب ، وبذلك استمر سبع ليالٍ وثمانية أيام .

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يعترضون على طريقة القرآن فى تأنيث العدد مع المذكر ، وتذكيره مع المؤنث ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾﴾ [الحاقة] وقالوا : متى يلبس الذُّكران قلائد النسوان ؟ ومتى تبرز ربَّات الحجال فى عمائم الرجال ؟

والقاعدة فى علم النحو أن تأتى الأعداد من الثلاثة إلى التسعة على خلاف المعدود من حيث التذكير والتأنيث ، ولهذا علة ، فالأصل فى الكلمة التذكير تقول (كاتب) ، أما المؤنث فيحتاج إلى علامة تميزه فوضعوا له تاء التأنيث نقول (كاتبة) .

فالتأنيث فرع التذكير ، لذلك احتاج إلى ما يُميزه ، أما ألفاظ الأعداد من الثلاثة إلى التسعة فهى أصلاً موضوعة على التأنيث نقول : ثلاثة أربعة خمسة .

فلما جاء مع المذكر جاء على أصله ، ومع المؤنث احتاج إلى

علامة ، فبدل أنْ يأتوا بعلامة أخرى قالوا بحذف العلامة الموجودة فى المؤنث .

وهكذا أتى العدد مُخالفاً للمعدود فى التذكير والتأنيث ، فقال تعالى : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. ⑦ ﴾ [الحاقة]

ثم إن اليوم عند الفلكيين يُحسب من الوقت إلى مثله من اليوم التالى ، لذلك نراهم عند الساعة الواحدة بعد الظهر يقولون : الواحدة مساءً . ونحن ما نزال فى وسط النهار ، وكذلك فى الواحدة بعد منتصف الليل يقولون : الواحدة صباحاً ونحن ما نزال فى الليل . أما اليوم فى التشريع ، فمن طلوع الشمس إلى غروبها ، والليل من غروب الشمس إلى طلوعها .

نلاحظ أن هذه السورة جاءت ببعض اللقطات من القصة ، لكن لها تفصيل فى سورة سُمِّيتْ باسمه ، هى سورة (هود) تعرضتْ لكثير من اللقطات التى لم ترد هنا .

ففى هذه السورة ركز السياق على ثلاث لقطات أو مسائل ، هى : الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ثم التحذير من عبادة غيره ، لأنهم إنْ عبدوا غير الله عرَّضُوا أنفسهم للعقاب ، وهو أخوهم وحريص على نجاتهم ، ثم ردُّوا عليه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ㉒ ﴾ [الأحقاف]

أما سورة (هود) فقد زادتْ على ذلك لقطات أخرى ، فقال تعالى هناك : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ㊿ ﴾ [هود] وهذه متفقة مع التى معنا ، وقال هنا :

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ [الأعراف] وهناك قال : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾ [هود] والافتراء ينشأ عنه العذاب العظيم .

إذن : تكلَّم هنا عن المسبِّب وهناك عن السبب ، فالعذاب العظيم سببه أنكم افتريتم على الله بأن اتخذتم له شركاء .

ثم ذكر زيادة أخرى فى هود هى قوله تعالى : ﴿يَـٰقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾ [هود]

فكأن المسألة فى العقل وبقانون المبادلات أننى أستحق أجراً على دعوتى لكم ، لكن أنا لا أريد منكم أجراً فأنتم لا تقدرون عليه لأنه عظيم وفوق قدرتكم ، لذلك لا أطلبه إلا من الله الذى أرسلنى وانتدبنى لهذا الأمر .

وقوله :﴿الَّذِى فَطَرَنِي .. (٥١)﴾[هود] أى : خلقنى وأنشأنى ، ولم يقل الذى أرسلنى ، فالمراد أنه تعالى خلقنى لأكونَ رسولاً وأصلح لأنْ أحمل دعوته سبحانه ، وأكون سفيراً له إلى خَلْقه .

حتى اسمه جاء موافقاً لهذه المهمة ، فكلمة (هود) من هَادَ يعنى : رجع وتاب وأناب إلى ربه ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. (١٥٦)﴾ [الأعراف] يعنى : تُبْنا ورجعنا إلى الله .

ثم فى (هود) يأمرهم بالاستغفار والتوبة : ﴿وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٥٢)﴾ [هود] والاستغفار للذنب الذى مضى ، أما التوبة فهى عدم الرجوع إلى الذنب مرة أخرى فهى للمستقبل ، ثم

يُبيِّن لهم ثمرة ذلك : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا[1] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾ [هود] وهذه لم تأت فى الأحقاف .

ومن التفاصيل التى وردت فى (هود) ولم تأت هنا قولهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

وهنا نلاحظ أنه لم يرد الدعوى عن نفسه ، إنما ردها عن الله فيتبرأ من هذا القول ، ثم يقول لهم : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

فيظهر فى حديثه هنا ثقة المؤمن بربه ، فيقول متحدياً لهم : افعلوا ما شئتم فما جئتكم من نفسى ولا أواجهكم بجاهى ولا قوتى ولا عزوتى ، إنما أواجهكم بالله الذى أرسلنى وعليه توكلتُ فى دعوتى .

وهنا درس عقدى مهم إذا نزل بك بلاءٌ فلا تيأس ولا تغضب وعُدْ إلى رصيد الإيمان فى نفسك ، فإنْ توقفتْ قوانينك فقوانينُ الله لا تتوقف ، وإنْ خذلتْكَ الأسبابُ فالمسبِّب موجود فارجع إليه .

وفى (هود) يعطينا لقطة لنجاة المؤمنين به لم تُذكر هنا ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [هود] هذه آية كونية خرقتْ النواميس كلها ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٥٨) ﴾ [هود] أى : بهلاكهم وبالعذاب الذى كانوا يستعجلونه نجَّينا هوداً والذين آمنوا معه ، بماذا ؟

﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .. (٥٨) ﴾ [هود] فقط رحمة الله هى التى تداركتهم ،

---

(١) مدراراً : صيغة مبالغة أى كثير غزير متتابع . ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا .. (٦) ﴾ [الأنعام] أى : تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم ١/٢٢٦] .

لأن ما حدث كان ثورة طبيعية وغضبة للطبيعة على المخالفين لخالق هذه الطبيعة ، الريح هى الريح عاصفة مدمرة مزعجة صرصر عاتية ، ومع ذلك خالفتْ كُلَّ نواميس التكوين البيئى ، فأهلكت هؤلاء وتركت هؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾

الخطاب هنا لقريش يريد أنْ يلفت أنظارهم إلى مصير الأمم المكذبة حولهم ﴿ مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الاحقاف] يعنى : حول مكة .

وقد خاطبهم في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] نعم يمرون على مدائن صالح وعلى قوم نوح ، وعلى الأحقاف على عاد وثمود ، ويشاهدون آثارهم وما لحقهم من عقاب الله .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد]

يعنى : يا قريش تنبهوا ولا تغتروا بما لكم من سيادة على العرب وسيطرة على قبائل شبه الجزيرة ، وأنَّ لكم منزلة فى قلوب الناس ، لأن قوة الإيمان التى تتغلغل فى قلوب الناس سوف تسحب بساط السيادة من تحت أقدامكم .

وها أنتم ترون كل يوم زيادة أرض الإيمان وتراجع مساحة الكفر

فخذوا عبرة من ذلك ، وهذه المســألة هى سببُ إيمان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[1] وغيرهم مـن قادة وزعماء الكفـر ، حين رأوا أمر محمد فى ازدياد فقالوا : لقد ظهر أمـر محمد واستقام ، وأصبحت له قوة لا يقف فى وجهها أحد ، وفعلاً آمنوا بدعوته .

وقوله سبـحانه : ﴿ **وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ** .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحقاف] حولناها وقلَّبنا لهم البراهين على كُلّ وجه وبأســاليب مختلفة ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحـقـاف] يعنى : عن كــبـريائهم وغطرســتــهم وعنادهم ، يرجعون عن كفرهم وجحودهم لنِعَم الله ، فبعد أنْ أخذوا النعمة كفروا بالمنعم وجعلوا له شـركاء .

لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يعنــى : هذه الآلهــة التى اتخذوها من دون الله ﴿ **فَلَوْلا** .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقـاف] يعنى : هلا ، وهى تفـيد الحضّ ، وفى المـعنى تهكّم بهم

---

(١) أسلم خالد وعمرو فى وقت واحـد ، وقد عزم خالد على الإسلام فتوجـه إلى المدينة فوجد عمـراً فى طريقه ، فـقال له عمـرو : إلى اين مسـيرك ؟ قلت : وما أخـرجك ؟ فقـال : وما أخرجك ؟ قلت : الدخول فى الإسلام واتباع محمـد . فقال عمرو : وذاك الذى أقدمنى . وقد كان هذا عام ٧ هجرية اى بعد بدر وأُحُد والخندق وغزوات كثيرة وقبل فتح مكة . وقد قال عمرو صراحـة : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق قلت لأصحابى : إنى أرى أمـر محمد يعلو علواً منكراً .

أى : هلاً نصروهم ووقفوا إلى جوارهم فى مصائبهم ، ومعنى ﴿ قُرْبَانًا .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تقربهم إلى الله ، وهذا كله لم يحدث لماذا ؟ لأنها آلهة باطلة مُدَّعاة ، لا تضر ولا تنفع .

بل هى من صُنْع أيديهم ، وباشروا صناعتها بأنفسهم فأقاموا الحجر وجعلوا له ذراعين ورِجْلَيْن وأنف وأذن ، وإذا وقع رفعوه ، وإذا كُسر ذراعه أصلحوه ، بالله هل هذه عقول ؟

وقولهم ﴿ قُرْبَانًا .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] كما قالوا فى موضع آخر : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

وعجيبٌ منهم هذا الكلام وهم أمة الفصاحة والبيان ، ويعلمون جيداً معنى العبادة ، فلو قالوا ما نحترمهم إلا ليُقرِّبونا إلى الله لكانَ معقولاً ، لكن ﴿ نَعْبُدُهُمْ .. (٣) ﴾ [الزمر] وأنتم تعرفون أن العبادة طاعة أمر المعبود فى أمره ونهيه ، وهل للآلهة هذه أوامر أو نواهٍ ؟

لذلك يردُّ اللهُ عليهم ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تاهوا وغابوا عنهم ، من قولنا : ضلّ فلان الطريق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأن المسألة هلاك .

والإنسان لا يخدع نفسه ، ففى وقت الشدة يترك الآلهة المدعاة ، ويلجأ إلى الإله الحق الذى يملك النفع ويملك الضر ، ففى هذا الموقف لا يقول أبداً : يا هُبل ، لأنه يعلم أن (هبل) لن ينقذه لكن يقول : يا الله .

﴿ وَذَٰلِكَ ..(٢٨) ﴾ [الأحقاف] إشارة إلى اتخاذهم آلهةً من دون

الله ﴿ إِفْكُهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الاحقاف] الإفك هو الكذب المتعمَّد ، وهو أشد أنواع الكذب ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ [الاحقاف] يختلقون من الكذب من قولهم أن هذه آلهة ، فكأن المعنى العام للآية : أن عدم النصرة نتيجة الإفك والافتراء على الله باتخاذ آلهة من دونه .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ(١) يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ(٢) مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) ﴾

ينتقل السياق بنا إلى مجال آخر من مجالات الدعوة ، فبعد أنْ حدَّثنا عن موقف الإنس وما كان منهم من تصديق لرسول الله أو تكذيب يُحدِّثنا عن الجن ، وهم الجنس المقابل للإنس فى الدعوة .

---

(١) هم نفر من أشراف جن نصيبين على الأرجح ، وكان رسول الله قد خرج إلى الطائف بعدما يئس من أهل مكة . فخرج يدعو أهل الطائف إلى الإسلام ، فلما صده أهل الطائف وانصرف عائداً إلى مكة وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به الجن فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو سبب حراسة السماء عن أن يتسمع الجن وحى السماء [الرازى فى مفاتيح الغيب بتصرف فى تفسير الآية] . وقيل : أنهم كانوا سبعة . وقيل : تسعة .

(٢) قالوا : (من بعد موسى) لأنهم كانوا يهوداً فأسلموا . قاله عطاء . وقال ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام . [تفسير أبى السعود] وقال ابن كثير فى تفسيره للآية : « لم يذكروا عيسى لأنه أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم » .

حيث أُرسل سيدنا رسول الله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن ، إذن : الجن جنس مكلّف مثلنا ، لكنه غيب عنا فلا نراه ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

والجن له خِفَّة فى الحركة وتغلغل فى الأشياء لطبيعته النارية ، لذلك لو أشعلت النار خلف هذا الجدار بعد لحظات تُحس بها هنا . إذن : صدِّق أنه من نار ، وأنه يتغلغل خلال الأشياء ، وأن له طبيعة غير طبيعة الآدمى .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا أن الجن وإنْ كان غائباً عنَّا إلا أنه مثلنا فى التكليف وأنه مثلنا مُخاطب بالقرآن ، ومنه المؤمن والكافر والطائع والعاصى .

ونحن نعلم قصة الصراع بين الجن والإنسان ، منذ خلق آدم عليه السلام وأمر إبليس بالسجود له فأبى واستكبر ، وكانت حجته أنه خُلق من نار ، وآدم خُلق من طين ، فكيف يسجد له وهو أفضل منه على حَدِّ قوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

صحيح أن آدم هو أيضاً وقع فى المعصية ، لكن فرْقٌ كبير بين معصية آدم ومعصية إبليس ، آدم عصى ربه حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، عصى عن غفلة وتغلب النفس ووسوسة الشيطان .

ثم لما عرف معصيته اعترف بها وتاب عنها واعترف بأنه أخطأ فى حَقِّ ربه وظلم نفسه ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف] وقال فى البقرة : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ

مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة]

إذن : قُبلت توبة آدم لأنه لم يرد حكم الله ، أما إبليس فردّ الحكم ولم يخضع له فطُرد من رحمة الله وأُبْعد ، وفرْق بين أنْ تعصى الحكم وأنت معترف به ، مُصدِّق بأنه من الله ، وبين أنْ ترده .

لذلك نقول هذا الكلام لمن يجادل مثلاً فى مسائل من الدين الحكم فيها واضح ، كالربا مثلاً أو إطلاق اللحية فيقول : التعامل بالربا الآن حلال ، نقول لهذا : أنت بهذا القول ترد حكم الله فى الربا ، والأسلم لك أن تقول أنه حرام لكن ظروفى تجبرنى عليه مثلاً .

ثم لك أنْ تقتدى بأبيك آدم فتتوب ، تستغفر لعل الله يغفر لك ، بدل أنْ تعاند ربك فى حكمه ، وهذه لا تقدر عليها ، وتذكَّر قول الشيطان ﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ .. (١١٩) ﴾ [النساء]

فاحذر هذه المسألة ، وأنت تعلم أن إبليس كان فى يوم من الأيام (طاووس الملائكة)[1] فلما عاند واستكبر وردَّ حكم الله جعله ملعوناً مطروداً من رحمة الله .

ولنا ملحظ هام فى أمر الله لآدم بعدم الأكل من الشجرة ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فالنهى عن مجرد قربها ، وهكذا كل أمر فى ما حرَّمه الله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أما ما أحلَّ الله لك فقال فيه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تعتدوها ..

---

(١) ذكر الألوسى فى تفسيره (١/٢٧٢) عن أبى العالية فى معنى (من الكافرين) ثم الظاهر أن كفره كان عن جهل بأن استرد سبحانه منه ما أعاره من العلم الذى كان مرتدياً به حين كان طاووس الملائكة .

(٢٢٩)﴾ [البقرة] يعنى : لا تتعدوا ما أحلَّ الله ، أما الحرام فلا تقربوه لأن مَنْ حام حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه[1] .

وذرية إبليس تسير على نهجه فى إغواء بنى آدم ، ونحن لا نراهم كما لا نرى الملائكة ، مع الفارق بينهما ، فالملائكة من نور ، والشياطين من نار .

وهنا ينقل الحديث فى شأن رسالة محمد ﷺ من الإنس إلى الجن ، والإخبار بأن الجن مُكلف ، وبأنه يستمع القرآن لم يأتِ به محمد ﷺ من عند نفسه ، إنما يحكى لنا ما أخبره الله به من أن الجن يستمعون القرآن .

فقال فى سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. (٢) ﴾ [الجن]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد : أنا لم أبعثك لتذهب إلى الجن وتخاطبهم لأنك لا تراهم ، لذلك صرفتهم إليك ، وأتيتُ بهم إليك ليستمعوا القرآن وأنت لا تشعر بهم ، ولولا إخبارى لك بذلك ما كنت تعلمه .

وهنا يقول : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .. (٢٩) ﴾ [الأحقاف] فأنت تقرأ وهم حولك يستمعون .

وقولهم فى سورة الجن ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ .. (٢) ﴾ [الجن]

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وابن ماجة فى سننه (٣٩٧٤) كلهم من حديث النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يُواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه » الحديث .

وهنا قالوا ﴿كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٣٠)﴾ [الأحقاف] دلّ على أن للجن صلة بالأنبياء السابقين ، وأنهم مكلفون مثلنا .

وفى سورة الرحمن : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١)﴾ [الرحمن] يعنى : نفرغ لحسابكم ، فبعد أنْ تركناكم على راحتكم تفعلون ما تريدون ، لا تظنوا أن هذه غفلة منا عنكم ، إنما أمهلناكم لنؤكد أمر الاختيار الذى خلقناه فيكم ومنحناكم إيّاه .

فالثقلان : الجن والإنس سواء فى الحساب ، كما هم سواء فى التكليف .

رُوى عن سيدنا أنس رضى الله عنه أنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى جبل من جبال مكة ، فإذا رجل عجوز يُقبل علينا معه عكاز يتكىء عليه ، فلما رآه رسول الله عرفه . وقال : كأنها مِشْية جِنِّى ونظمته ، فقال الرجل : نعم أنا من الجن ، فقال له رسول الله : من أنت ؟ قال : أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس ، فقال له : بينك وبين أبيك إبليس أبوان اثنان ؟ قال : نعم ، ولقد أدركتُ من الزمن أكثره وبقى أقلُّه ، ولقد شاهدتُ قابيل وهو يقتل هابيل[1] .

فهذه الرواية دليلٌ على طول أعمارهم ، وأنهم يتشكلون بأشكال

(١) ذكره فخر الدين الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) فى تفسير هذه الآية وفيه « وكنت وقت قتل قابيل هابيل أمشى بين الآكام » . وأخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (حديث ١٨٠٩) وفيه طول وغرابة ونكارة .

قال العقيلى : فيه محمد بن عبد الله الانصارى أبو سلمة منكر الحديث .

قال ابن الجوزى فى كتاب (الموضوعات) : « هذا حديث موضوع لا يُشك فيه . وله طريقان : الأول : من طريق إسحاق بن بشر وكان كذاباً يضع الحديث . والآخر : فيه محمد ابن عبد الله الانصارى منكر الحديث » .

مختلفة ، كما يتشكل الملك ، فنحن لا نرى الملك على حقيقته ، ولا نرى الجنى على حقيقته ، إلا إذا تشكّل فى صورة إنسى .

وأنتم تعرفون حديث جبريل الطويل لما جاء مجلس النبى ﷺ فى صورة رجل غريب ، لكن لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه من الجالسين أحد ، حتى جلس بجوار رسول الله ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والرسول يجيب ، ثم انصرف فلما سأل الصحابة عنه قال رسول الله ﷺ : إنه جبريل ، جاء يُعلّمكم أمور دينكم[1] .

لذلك رأينا بعض أعداء الدعوة المحمدية يثيرون حولها بعض الإشكالات ، ومنها قولهم أنْ يكون الرسول ملكاً وهذا إشكال مردود ، فلو جاء الرسول ملكاً لجاءهم فى صورة رجل ، وإلا كيف يُبلّغهم وكيف يكون التلقى عنه ؟

إذن : سيظل الإشكال قائماً ، ثم إن الملك لا تصح الأسوة به ، لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فكيف يكون أُسوةً لمَنْ فى طبيعته الخطأ والغفلة والنسيان ؟

إذن : شرط فى النبى الرسول أنْ يكون من جنس مَنْ أُرسل إليهم لتقوم به الأُسوة .

والحق سبحانه أعطانا صورة تفصيلية لحال الجن ، وأن منهم المؤمن والكافر ، فقال حكايةً عنهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) وفيه أن رسول الله قال : « هذا جبريل جاء يُعلِّم الناس دينهم » . وعند مسلم قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ [الجن]

لذلك النبى ﷺ قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أشدَّ استجابة منكم ، كانوا إذا سمعوا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] ينطقون فى نَفَس واحد : لا بشىء من نَعْمائك ربنا نكذب[1] ، فلك الحمد ، يكررونها بتكرار الآية .

واسمعهم يقولون : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[2] رَبِّنَا .. ﴿٣﴾﴾ [الجن] يعنى : تعالتْ عظمته ، ولهذه العظمة ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن] إذن : الجن يعلمون قضايا الإيمان وقضايا التوحيد ، وربما كانوا أدقَّ منا فى التعبير عنها ، ويكفى أنهم حكموا على إبليس بالسَّفَه ، فقالوا : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ [الجن]

نعود إلى ما كنا بصدده من قوله تعالى : ﴿إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف] النفر : هم الجماعة من الثلاثة إلى الأربعين ، صرفناهم إليك يعنى : أتينا بهم إليك بدل أنْ تذهبَ أنتَ إليهم .

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف] حضروا القراءة ﴿قَالُوا أَنصِتُوا

---

(١) أخرج البيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/١٠٧) (حديث ٥٣٢) عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : « للجن كانوا أحسن جواباً منكم ، لما قرأت عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]. قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب » .

(٢) الجدُّ : العظمة والمجد . (جد ربنا) اى : أنه تعالت عظمة ربنا ، وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

.. ﴿٢٩﴾ [الاحقاف] استمعوا باهتمام وتدبُّر يعنى : وصَّى بعضهم بعضاً بالإنصات ﴿فَلَمَّا قُضِيَ .. ﴿٢٩﴾ [الاحقاف] انتهتْ القراءة ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ [الأحقاف] ذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويُبلِّغونهم ما سمعوه .

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ..﴿٣٠﴾ [الاحقاف] أى : القرآن ، وقولهم ﴿مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ..﴿٣٠﴾ [الأحقاف] يدل على أنهم كانوا على صلة بالرسل السابقين ، وأنهم كانوا مؤمنين بسيدنا موسى يعنى : كانوا من اليهود .

وذكروا موسى دون عيسى - عليهما السلام - لأن كتاب موسى هو المنهج الذى ينظم حركة الحياة وفيه شرائع وأحكام ، أما كتاب عيسى فكان مجرد وجدانيات ووصايا ، لذلك تنبهوا لهذه المسألة وجمعوا بين الإنجيل والتوراة فى كتاب واحد مع وجود عصبية بينهما ، وأسمَوْهُ الكتاب المقدس .

ومعنى ﴿مُصَدِّقًا .. ﴿٣٠﴾ [الاحقاف] أى : القرآن مُصدِّق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴿٣٠﴾ [الاحقاف] لما قبله من الكتب السماوية ، وما دام مُصدِّقاً لها إذن جاء بما جاءتْ به ولكن يزيد عليها أنه ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ [الاحقاف] بما يناسب عالمية التدين .

فكلّ رسول قبل محمد كان يأتى ليعالج أمراض مجتمعه فى زمن محدود ومكان محدود ، وقد يتعاصر الرسولان ، كما رأينا فى سيدنا إبراهيم ، عاصره سيدنا لوط ، وسيدنا موسى عاصر سيدنا شعيب .

فالعالم فى هذا الوقت كان فى انعزال ووحدة ، لم يكُنْ هناك

الالتقاء الموجود الآن ، والذى يجعل العالم كله كقرية صغيرة ، فهذه الحياة المنعزلة تجعل كلَّ مجتمع لا يدرى بغيره .

لذلك كان لهم مفاسد خاصة تحتاج كلٌّ منها إلى رسول ليُصلحها ويأخذ بأيدى قومه إلى الله ، فقوم عبدوا الأصنام من دون الله ، وآخرون طفَّفوا المكيال والميزان ، وآخرون انحرفوا جنسياً عن الطبيعة التى خلقها الله ، وكل جماعة من هؤلاء تحتاج إلى رسول .

لكن لما التقى العالم ، ووُجدتْ بينه وسائل انتقال كان لا بُدَّ من رسول واحد ، لأن المفاسد والآفاق ستتحد ، لا بد من رسول واحد يصلح لكلِّ زمان ومكان ، لذلك شرف كل زمان ومكان بالجامع للخير فى كل زمان ومكان محمد بن عبد الله ﷺ .

إذن : من الجن جماعة سمعوا وتحمَّلوا مهمة البلاغ ، لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع »[(١)] .

نعم ومن يدريك لعل المبلَّغ يكون أحرصَ على التطبيق من السامع ، وقد فطن الشاعر العربى إلى هذا المعنى فقال[(٢)] :

فَخُذْ بعلْمى وَلاَ تَنْظُرْ إلَى عَمَلى   وَاجْنِ الثِّمارَ وَخَلِّ العُودَ للنار[(٣)]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣١٧٥) والترمذى فى سننه (٢٥٨٠ ، ٢٥٨١) وحسَّن الأول وقال عن الثانى (حديث ابن مسعود) : حسن صحيح . وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، وأخرجه أيضاً من حديث أنس بن مالك (حديث ٢٣٢) .

(٢) هو الشيخ الفقيه الإمام خلف بن أبى القاسم محمد الأزدى القيروانى البراذعى ، وقيل : البرادعى . لم يعرف تحديداً سنة ولادته وكذلك وفاته [تهذيب المدونة ١/ ٢] .

(٣) هذا البيت قاله لطلبته عن نفسه . والمقصود أخذ العلم عنه ولا تحفل بناقله ، فلتأكل الثمار اليانعة ولتلقى بعيدان الحطب فى النار .

ثم يستمر هؤلاء الجماعة من الجن فى تبليغ قومهم وإنذارهم بما سمعوه :

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

معنى ﴿دَاعِيَ اللَّهِ ..(٣١)﴾ [الأحقاف] الأصل فيه رسول الله ثم المبلِّغ عنه منهج الله للقوم ﴿وَآمِنُوا بِهِ .. (٣١)﴾ [الأحقاف] أى : بما جاء به ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف] قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ .. (٣١)﴾ [الأحقاف] فأفادت (من) التبعيض . يعنى : يغفر لكم بعض الذنوب ، وهذه المغفرة ثمرة الإيمان .

ولم يقل كل الذنوب ، لأن الحق سبحانه يغفر بعضها ويترك بعضها للتوبة والإنابة إليه ، فمثلاً من الذنوب ما تغفرها الصلاة إلى الصلاة ، أو الجمعة إلى الجمعة ، أو رمضان إلى رمضان[1] .

لكن هناك ذنوب لا بُدَّ لها من توبة ، ويكون لمغفرتها شروط أخرى كما لو كانت فى حَقِّ العباد ، وهناك مظالم ومتعلقات لا بُدَّ أنْ تُردَّ إلى أصحابها ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف] إذن :

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦٨٣٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التى بعدها كفارة لما بينهما . قال : والجمعة إلى الجمعة ، والشهر إلى الشهر . يعنى : رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما » .

الذنوب ينشأ عنها العقاب فى النار ، وإذا غفر الذنوب أجار صاحبها من النار ، وهذه قاعدة التخلية قبل التحلية كما ذكرنا .

لكن لم يقُلْ هنا أنهم يدخلون الجنة ، وهذا يفرض علينا سؤالاً : هل يدخل الجنُّ المؤمن الجنة ؟ البعض يرى أنهم بعد الحساب سيتحوَّلون إلى تراب وتنتهى المسألة ، بدليل أنه لم يقُلْ هنا أنهم يدخلون الجنة بعد أنْ يُجيرهم من النار .

لكن ما داموا مكلّفين مثلنا ، ومنهم المؤمن والكافر ، إذن : لا بُدَّ من الجزاء بالجنة أو بالنار ، فإنْ وقفت عند مسألة أنهم خُلقوا من النار ، فكيف يُعذَّبون بها ؟ هذا أمر بعيد فى أذهاننا نحن ، لكنه يسير على الخالق سبحانه ، فله قوانين أخرى .

وسبق أنْ قلنا : أنت مخلوق من طين ، فهل معنى ذلك أنك إذا نزلتَ البحر مثلاً (تبوش) ثم اقرأ إنْ شئتَ : ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ** (٦٤) ﴾ [الصافات] فكيف تنبت شجرة فى أصل الجحيم ؟ إذن : لا تتكلم فى هذه المسألة والله أعلم بخلقه .

وقوله سبحانه : ﴿ **وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ** .. (٣٢) ﴾ [الأحقاف] معجز يعنى : يُعجز غيره . والعجز ضعف لا يُمكنك من الفعل تقول : أعجز فلانٌ فلاناً يعنى : سبَّب له ما يعجز عنه ، ومنه قولنا : القرآن مُعجز يعنى : أعجز العربَ عن الإتيان بمثله .

فؤلاء الذين عصوْا الداعى إلى الله وكفروا به لن يُعجزونا ، ولن يجدوا لهم مهرباً من عقابنا ولا مفراً منه .

﴿ **وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ** .. (٣٢) ﴾ [الأحقاف] من دون الله ﴿ **أَوْلِيَاءُ** ..

(٣٢) ﴾ [الأحقاف] يعنى : يتولونهم ويدافعون عنهم أو يشفعون لهم ، ولا قوة تمنع عنهم عذاب الله ﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ [الأحقاف] يعنى : هؤلاء الأولياء ضلُّوا عنهم ، تاهوا فلا وجود لهم .

﴿ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ [الأحقاف] محيط ، كما يفعل التائه الذى ضلَّ طريقه ، فيذهب إلى هنا ويذهب إلى هناك ، فلا يهتدى للغاية التى يريدها .

ثم يعود السياق ويلفتهم إلى الآيات الكونية لعلهم يتدبرونها ، لأنهم جحدوا وأنكروا ولم يستفيدوا بما خلقه اللهُ فيهم من وسائل الإدراك من سمع وبصر وتعقُّل ، والحديث مرة أخرى عن الآيات الكونية وإظهارها لهم من باب تلوين العظات .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ[1] بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾

الحق سبحانه هنا ذكر آية من أعظم آيات الخَلْق ، وهى ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣٣) ﴾ [الأحقاف] لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فأتى بخَلْق السموات والأرض ولم يذكر خَلْق الإنسان لأنها الآية الأكبر ، وأين عمر الإنسان الذى يعيش عدة سنوات ، أو حتى مائة

(١) عيَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [الأحقاف] أى : لم يعجز . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

سنة من عمر السماوات والأرض .

﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [الاحقاف] لم يتعب تعالى اللهُ عن ذلك ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ[1] (٣٨) ﴾ [ق] فمَنْ كانت هذه صفاته ، وهذه آيات خلْقه ، أليس بقادر على أنْ يُحيى الموتى ؟

ويأتى الجواب (بلى) يعنى : نعم قادر ، وجاءت (بلى) هنا لإفادة الإثبات ، لأن السؤال سؤالٌ منفىّ ، والقاعدة أن نفىَ النفى إثباتٌ ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾ [الاحقاف] تذييل يؤكد قدرة الله لا على إحياء الموتى فحسب ، إنما قدرته تعالى على كل شىء .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾

هذه لقطة أخرى لمسألة العرض على النار والعياذ بالله ، فقبل هذه قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الاحقاف] فذكر لهم علة عَرْضهم على النار ، وهى استنفاد الطيبات كلها فى الدنيا ، بحيث لم يبق لهم شىء فى الآخرة .

لذلك قلنا : إن النعمة التى تشغل صاحبها عن المنعم هى فى

---

(١) اللغوب : التعب والإعياء . لغب يلغُب : أعيا أشد الإعياء . [لسان العرب – مادة : لغب] .

الحقيقـة نقمة عليه ووبال ، والنعمة حقيـقة هى التى تُذكِّرك بالمنعم ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله حينمـا نرى نعمة عندنا أو عند غيرنا أن نقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله[١] .

فتـرد الفضل إلى صـاحبـه وتبرىء نفـسك من الغرور ، ونسـبة النعمة إلى نفسك ، وأنها جاءت بفضل مهارتك وشطارتك ، كما حصل من قارون فقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

فكانت النتـيجـة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] وكـأن الحق سـبـحـانه يقـول له : مـا دُمْتَ أوتيـته عـلى علم عندك فاحرسه بعلم من عندك أيضاً .

يُرْوى أن سيدنا عمـر رضـى الله عنه دخل على سيدنا رسول الله ﷺ ، فوجده ينام على حصير قد أثَّر فى جنبه ، ولم يجد عنده شيئاً يلفت نظره من متاع الدنيا ، فتألم لحال رسول الله ولم يستطع إخفاءَ ما فى نفسه .

فقال : يا رسول الله ادع الله أنْ يُوسِّع علـى أمتك كما وسّع على فـارس والروم ، فنظر إليه رسـول الله وقـال : « أفى شكٍّ أنت يا بن الخطاب ؟ هؤلاء قوم عجلتْ لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا »[٢] .

---

(١) أخرج الطبرانى فى معـجمه الكبير (١٤٢٧٥) عن عقبة بن عـامر قال قال ﷺ « من أنعم الله عليه بنعـمة فأراد بقـاءها فليكثر من قـول لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قـرأ رسول الله ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف] .

(٢) أخرجـه البخـارى فى صحيـحه (٢٢٨٨) وكـذا مسلم فى صحـيحـه (٢٧٠٧) فى حديث طويل عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب رفع رأسـه فى بيت رسول الله وقال : فوالله ما رأيت فيـه شيئاً يرد البـصر إلا أهباً ثلاثة . فـقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فـقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعـبدون الله فاسـتوى جالسـاً ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا . فقلت : استغفر لى يا رسول الله .

وذكرنا قول عمر بن عبد العزيز : والله لو شئتُ أنْ أكون أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً لفعلتُ ، ولكنى أستبقى[1] ، لذلك قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

إذن : من ذكر الجزاء واستحضر نعيم الآخرة هانتْ عليه مشقةُ الطاعة فى الدنيا ، كالتلميذ الذى يذاكر ويسهر ويحرم نفسه لذة الراحة شَوْقاً إلى لذَّة أعظم هى لذة النجاح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] الخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و(يوم) ظرف زمان يعنى : اذكر يوم يُعرض الذين كفروا على النار وذكِّرهم به . وقُلْ لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ..(٣٤) ﴾ [الأحقاف] أى : الحق الذى كنتم تُكذبُّونه ها هو أصبح واقعاً .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلم ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فالإخبار عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب علم يقين ، ثم حين نرى هذا الجزاء يصير عين اليقين ، ثم حين نباشره ويدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النار يصير حقّ اليقين .

وهذه المراحل ذُكرتْ فى موضعين فى قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

---

(١) هذا القول هو لعمر بن الخطاب وليس ابن عبد العزيز ، أورده القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] وكذا الرازى فى تفسيره ، والنسفى فى تفسيره ، والسيوطى فى الدر المنثور .

أما حق اليقين فذُكر في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ[1] جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة]

وقوله : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ..﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحقاف] هذا جوابهم على السؤال ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحقاف] والجواب بـ (بلَى) هنا يعني نعم ، لأن نفي النفي إثبات ، نعم هذا هو الحق الذي كُنَّا نكذبه ولا يكفيهم الإقرارُ به ، بل ويُقسمون أيضاً لتأكيد المسألة .

﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ..﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحقاف] لأنهم عاينوه وباشروه ، ثم يأتي الحكم النهائي ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحقاف] أي : بسبب كفركم .

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، الحق سبحانه يُسلِّيه ويثبته ليتحمل الإيذاء من الكافرين ، فليس هو بدعاً في ذلك ، فقد سبقه كثير من إخوانه الرسل ، فليصبر محمد كما صبروا .

تعرفون أن سيدنا رسول الله تعرَّض لكثير من أذى قومه ، آذوه

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر] أي : سأدخله النار . وقوله ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحاقة] أي : أدخلوه . وقال : ﴿ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة] أي : إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

بالقول فقالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكذاب . ثم تعدّى الإيذاء إلى الإيذاء بالفعل ، فاعتدوا عليه فى الطائف حتى أدموا قدميْه ، وكُسرت رباعيته[1] فى أُحد ، ورموا على ظهره سلى البعير وهو يصلى[2] .

آذوه فى نفسه ، وآذوه فى أهله وفيمن آمن معه ، بل تآمروا على قتله ، وضيَّقوا عليه حتى اضطروه لترك مكة والهجرة إلى المدينة ، والنبى ﷺ يتحمل ذلك كله لكنه بشر ويشقّ عليه ذلك .

فأراد الحق سبحانه أنْ يضع أمامه أسوة ونموذجاً لمَنْ صبر من الرسل السابقين ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ..(٣٥) ﴾ [الأحقاف]

فسيدنا إبراهيم عليه السلام وصل الأمر به إلى أنْ أُلقيَ فى النار ، ومع ذلك لم يُفقده الموقف ثقته بربه ، بدليل أن جبريل عليه السلام لما عرض عليه أنْ يطفيء هذه النار قال له : أما إليك فلا[3] فجاء الأمر من

---

(١) الرباعية : إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدَّم الفك تلى الثنايا بين الثنية والناب . والجمع رباعيات . [لسان العرب - مادة : ربع] .

(٢) ذكره الطحاوى فى مشكل الآثار (حديث ٣٣٢٧) عن عبد الله بن مسعود قال : بينما رسول الله يصلي وقريش قعود وسلى جزور قريب منه فلما سجد قالوا : من يأخذ هذا السلى فيلقيه على ظهره فكأنهم هابوه . فقال عقبة بن أبى معيط : أنا . فقام فألقاه على ظهره وهو ساجد فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة وهى جارية فألقته عن ظهره . قال عبد الله : فما سمعت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يومئذ . قال : « اللهم عليك بالملأ من قريش ، اللهم عليك بأبى جهل ، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة ، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة ، اللهم عليك بعقبة بن أبى معيط ، اللهم عليك بأمية بن خلف . قال ابن مسعود : لقد رأيتهم قُلبوا يوم بدر جميعاً ، ثم سحبوا حتى ألقوا فى القليب غير أبى جهل أو أمية ، فإنه كان رجلاً بديناً فتقطع » .

(٣) أخرج ابن جرير الطبرى عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يُوثق ليلقى فى النار قال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦٤١/٥] .

السماء ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

فـى صـغَـره ابتُلى فى نـفسـه ، وفى كـبره ابـتُلى بذبح ولده الوحيد ، وصـبر على الابتلاء ففدى الله الذبيح إسـماعيل ، وزاده على ذلك بولد آخر هو سـيدنا إسـحاق ومن بعده سـيدنا يعـقوب ، وكلهم كانوا أنبياء .

وجاء هذا العطاء نتيجة التسليم لله فى قضائه وقدره والرضا به . ولنا فى أبى الأنبـياء أُسـوة فى الرضا بالقـضاء ، وأنْ نربى أجيـالنا على ذلك ، لأن التسليم والرضا بقضـاء الله أول أسباب رفع القضـاء ، فلا يُرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، وإلا ظلَّ البلاء نازلاً به .

والذين يطول عليـهم قضـاء الله هم سـبب ذلك ، لأنهم فى الواقع معترضون ، ولو رضُوا لرفعه الله عنهم ، مثل الأب الذى يضـرب ولده على خطأ ارتكبه ، فإنْ خضـع وانصـاع لوالده تركه ، بل ويحنو عليه ويرضيه . فإن اعترض زاده ضرباً .

إذن : الله تعـالى يريد أنْ يُربـى عـبـده بالابتـلاء ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « مَنْ رضى بقدرى أعطيته على قَدْرى »[1] .

كذلك من أولى العـزم سيدنا نوح عليـه السـلام وظل يدعو قـومه ألف سنة إلا خـمسين عـاماً ، ومع ذلك مـا آمن معه إلا قلـيل وكانوا يضربونه حتى يُغمى عليه .

(١) أخرج الترمـذى فى سننه (٢٣٢٠) وابن ماجة فى سننه (٤٠٢١) والبيـهقى فى شُعب الإيمان (٩٤٤٤) والقـضاعى فى مسنـد الشهاب (١٠٤١) عن أنس بن مـالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن عظم الجـزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحب قومـاً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

انظر إلى الابتلاءات التى مر بها سيدنا يوسف ، ففى صغَره أُلقىَ فى الجُبِّ ، وبيع رقيقاً ، وفى كبره ابتُلىَ بامرأة العزيز وألقى فى السجن ، لكنه صبر فمكَّن الله له ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

وسبق أنْ بيَّنا أن الأقدار لا تخلو من حكمة ، وأن الحدث لا ينفصل عن فاعله ، فقبل أنْ تعترض انظر من الفاعل . والنبى ﷺ حين يتأمل مواكب إخوانه من الرسل السابقين وما تعرضوا له يهون عليه إيذاء قومه ، ويكون ذلك تسلية له .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ..(٣٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تستعجل عذابهم ، خاصة وأنهم كانوا يستعجلون العذاب جهلاً وعناداً منهم ، لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] يعنى : إنْ مُت يا محمد قبل أنْ ترى انتقام الله منهم فموعدهم الآخرة .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ..(٣٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : يوم القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ..(٣٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تمر مرحلة البرزخ كأنها ساعة من نهار ، فمنذ مات سيدنا آدم وإلى أنْ تقوم الساعة وهو لا يشعر بهذا الوقت ، وما هو بالنسبة له إلا ساعة من نهار ، لأن الوقت كما قلنا فرعُ الحدث ، فإذا لم يوجد الحدث لا يوجد الوقت ، كما عند النائم مثلاً .

وهذا رأيناه فى قصة أهل الكهف ، فقد ألقى اللهُ عليهم النوم فناموا ﴿ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف] ومع ذلك لمَّا قاموا قالوا : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١٩) ﴾ [الكهف] لماذا لانعدام

الأحداث التي تشعر بالزمن ، إذن : لا تستعجل لهم العذاب لأنها مجردُ ساعة مهما طال الزمنُ .

وتعرفون قصة العُزير ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا[1] قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

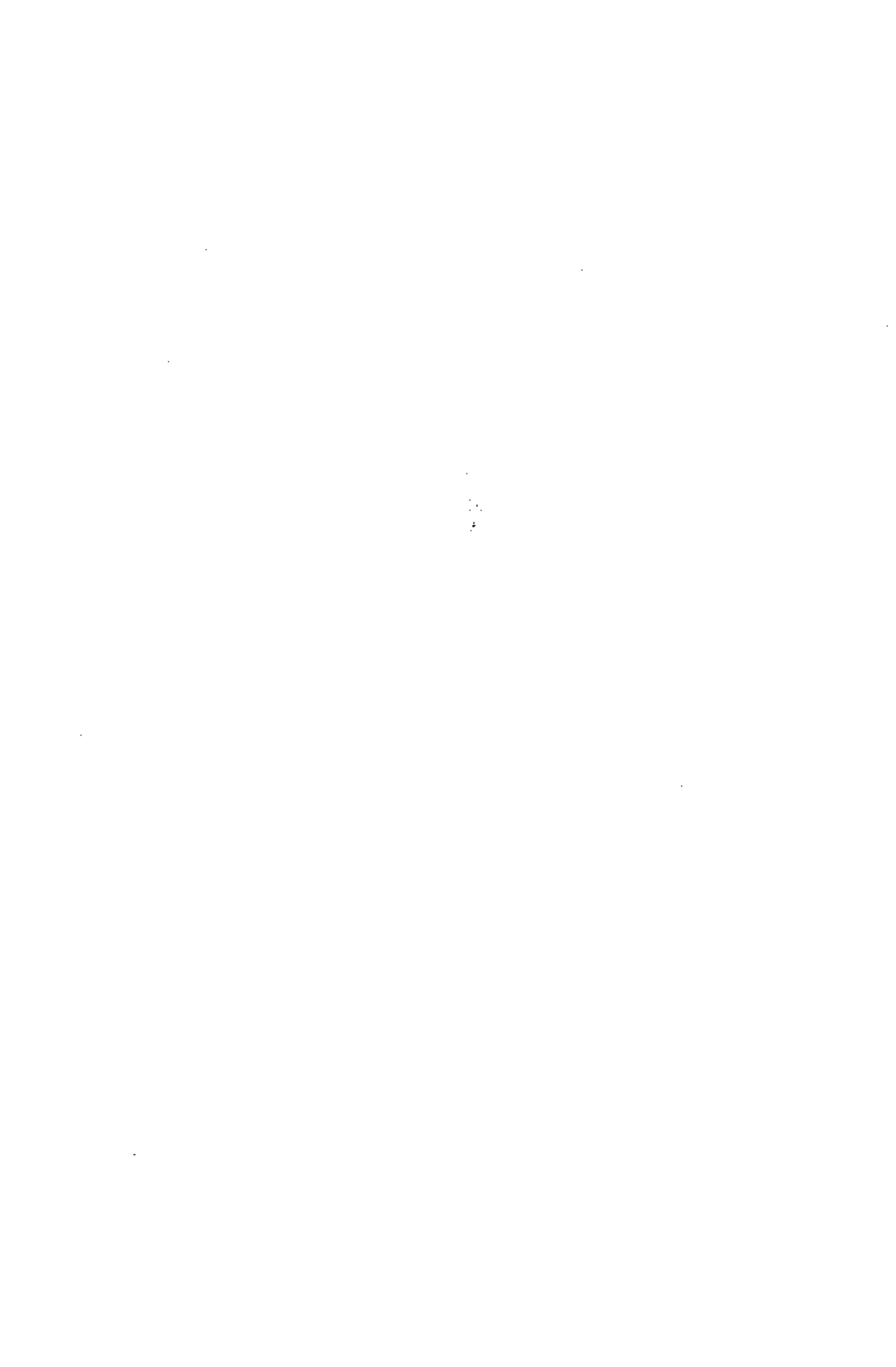
وقوله سبحانه : ﴿ بَلَاغٌ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] البلاغ : هو الوصول للغاية يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم] يعني : نهاية ما يمكن أن أعظكم به .

وما دام قال سبحانه (هذا) إذن : لا بد أن يحدث ولا يمنعه شيء لأنه إله واحد لا شريك له ولا معارض ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

الفسق : الخروج عن الطاعة ، وهو سبب الهلاك في الآخرة أو حتى في الدنيا .

---

(١) وهي خاوية على عروشها : « أي سقوفها » . [القاموس القويم ٢/ ١٤] . وقال في لسان العرب [مادة : عرش] : يعني : سقط بعضه على بعض ، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها . قال : وهذه الصفة في خراب المنازل من أبلغ ما يوصف .




سورة محمد





سورة محمد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① ﴾

تأمل هنا ما أحسن التقاء وتناسب نهاية السورة مع بداية الأخرى ، ففى نهاية الأحقاف ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف] وهنا ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) ﴾ [محمد] فكأن الفاسقين هم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله .

عرَّفنا الكفر أنه الستر ستْر الحقيقة ، أو ستر آثار الحقيقة ، فكلمة (كفر) تقتضى بمدلولها وجود مستور ، والكفر ماذا يستر ؟ يستر نقيضه وهو الإيمان ، إذن : وُجد الإيمان أولاً ، ثم جاء الكفر ليَستره .

فكلمة الكفر أول دليل من أدلة الإيمان ، لأن الإيمان أمر فطرىّ ،

---

(١) سورة محمد هى السورة رقم (٤٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٣٨ آية . وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة الحديد ، وقبل سورة الرعد فهى السورة رقم (٩٤) فى ترتيب النزول . وتسمى أيضاً بسورة القتال . [الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧)] ، وسميت سورة القتال لأجل آية (٤) منها والآية (٢٠) .

وغريزة فى النفس البشرية وهى ما تزال فى عالم الذر لما أخذ الله عليها العهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقد لا يستر الكفر الشيء ، إنما يستر آثاره ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً(١) مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

إذن : كفرت بالله شيء ، وكفرت بأنعم الله شيء آخر .

والكفر بالنعمة يكون من عدة وجوه ، فمن كُفر النعمة الغفلة عنها وعدم البحث عن أسبابها ، وعدم استنباطها فى الكون بما فيه من أسباب : الماء والهواء والأرض .

اقرأ مثلاً : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

إذن : ربنا أعطانا الأسباب وأمرنا بالبحث فيها واستنباطها ، وعدم التكاسل عن استخراج ما فى الطبيعة من خيرات ، فبعد أنْ أعطاك الله أسباب النعمة فلا تتهاون فى شأنها وتعيش شحاذاً عالة على غيرك .

وقد يبحث الإنسان عن النعمة ويستنبطها لكن يسترها عن مستحقيها ويكنزها عنهم ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا

---

(١) رغد العيش : اتسع وطاب . ورغداً : أى أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

إذن : الكفر إما كفر بالله بإنكار وجوده سبحانه ، أو كفر بنعمه وآلائه .

وقوله تعالى ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (١) ﴾ [محمد] يعنى : منعوا الناس أنْ يؤمنوا بالله ، أو منعوا آذانهم أنْ تسمع إنذار الدعوة إلى الله ، وصدُّوا أبصارهم ومنعوها أنْ ترى آيات الله فى الكون وأنْ تتخذ منها دليلاً على الخالق سبحانه ، وصدُّوا قلوبهم عن الإيمان بالله وقبول اليقين .

فهذه كلها مفعولات لصدُّوا ، إذن هؤلاء كفروا ولم يقتنعوا بكفر أنفسهم ، بل حاولوا أنْ يجرُّوا غيرهم إلى ساحتهم .

لذلك وقف المستشرقون عند هذه المسألة يقولون : أنتم تقولون آيات محكمة ، ثم بعد ذلك نجد فيها شبهة التناقض ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (٧) ﴾ [الزمر]

ويقول فى موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل] الواقع أنه لا تناقضَ بين الآيتين ، لأن الحدث مختلف ، لأنهم لما ضلوا فى أنفسهم حملوا أوزارهم ، ولما أضلوا غيرهم حملوا وزر ضلالهم ، ووزر إضلالهم للغير .

ومعنى ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) ﴾ [محمد] أبطلها وجعلها غير ذات فائدة ، لأن معنى الضلال عدم الاهتداء إلى الطريق الموصِّل للغاية

وهؤلاء عملوا أعمالاً لا تعود عليهم بالنفع ، وما النفع فى الكفر وصدّ الناس عن الإيمان ؟

حتى الذين يفعلون الخير وهم خارج ساحة الإيمان لا يُقبل منهم ولا يشفع لهم هذا الخير فى الآخرة ، لأنهم ما فعلوه من منطلق الإيمان ، إنما فعلوه من منطلق الشهرة والسمعة والحضارة وخدمة البشرية إلى آخر هذه الشعارات .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فهؤلاء هم الذين يُقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف]

وفى المقابل يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾

قلنا : إن المتقابلات يُظهر بعضها بعضاً ، وذكر المتقابلات من أسلوب القرآن ؛ ليحدث مقارنة بين الأمرين فتتضح الصورة كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا يقول فى مقابل الذين كفروا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا.. (٢) ﴾ [محمد] ولم يقل آمنوا بِمَنْ ، لأن الإيمان أمر فطرى ، وساعة يُطلق ينصرف إلى الإيمان بالله ، لأنه هو الإيمان الأول .

والفعل آمن يتعدى بالباء تقول آمن به يعنى : اعتقد وجوده ، ويتعدَّى باللام ، تقول آمن له : يعنى صدَّقه ، وقد يتعدَّى بلا حرف كما فى ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] وكلها تؤدى معنى الأمان والاطمئنان والسلام .

وقوله : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢) ﴾ [محمد] دائماً ما يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن الإيمان عمل القلب ، أما العمل الصالح فعمل القالب والجوارح ، فمن القلب والقالب يكون الامتثال إيمان قلب للعقيدة ، وإيمان قالب لطاعة الأمر ممن يعتقد به .

وسيد الجوارح كلها فى الإنسان هو القلب ، لأنه الآلة التى تضخ الدم وهو سائل الحياة إلى جميع أجزاء الجسم ، فإذا عَمُر القلب بالإيمان ضخَّه إلى كل الأعضاء فاستقامتْ .

لذلك قال ﷺ : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

عمل القلب أنْ يؤمن بالله وبما يخبر الله به من الغيبيات : يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم يأتى عمل الجوارح ، فالعين لا تمدها إلى محارم غيرك ، واللسان

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير ، وهو ضمن حديث « إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث .

لا تشهد به زوراً ، ولا تغتب به الناس ، ولا تقذف به المحصنات ، ولا تحلف به يميناً كاذبة .

والبطن لا تملؤها إلا من الحلال ، واليد لا تسرق بها ، ولا تقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، والرِّجْل لا تسعى بها إلى محرم .

إذن : كل جارحة لها عمل صالح ، ويجب أنْ تجنبها الحرام ، وهناك من العمل الصالح ما يشمل كل الجوارح وهو بر الوالدين . لذلك قرنه الله بعبادته فقال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء]

وفي سورة العصر بيان لأهمية العمل الصالح بعد الإيمان بالله ، فقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر]

وقوله تعالى : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد] قوله تعالى : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ .. (٢) ﴾ [محمد] بعد ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢) ﴾ [محمد] دل على وجوب الإيمان بالرسل السابقين .

لذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

ذلك لأن أصل الدين واحد وهو عبادة الله وحده ، فقضية الإيمان واحدة عند كل رسل الله ، ومن الإيمان بالله يتفرع الإيمان بالكتب وبالرسل وبالآخرة والحساب ، لأنك آمنتَ بالله .

لكن هل يخاطبك اللهُ وحدك ويقول لك : افعل كذا ولا تفعل كذا ؟ لا إنما يختار للبلاغ عنه مَنْ يصطفيه من الرسل ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

اصطفى من الملائكة جبريل ليكون أمين وحيه ، واصطفى من الناس الرسل والأنبياء ، ففرع الإيمان بالله أنْ نؤمن برسل الله كلهم ، وأنْ نُسوِّيَ بينهم في التعظيم .

وأذكر أن أحد المستشرقين سألني في سان فرانسيسكو : كيف تبيحون للمسلم أنْ يتزوج كتابية ، ولا تبيحون للكتابي أنْ يتزوج بمسلمة ؟ لماذا لم تجعلوها كالطعام والشراب[1] ؟ قلت لهم : لأن المسلم مؤمن برسول الكتابية ، أما الكتابيّ فهو غير مؤمن برسول من يريد أن يتزوجها (المسلمة) .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢)﴾ [محمد] أي : ما نزل على محمد هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغيّر ولا يتبدَّل ، ثم تأتي ثمرة الإيمان ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)﴾ [محمد]

من رحمة الله بعباده أنْ شرعَ لهم التوبة ، وفتح لهم باب الاستغفار ، فهو سبحانه خالقهم وأعلم بهم وبما يصلحهم ، يعلم أن الإنسان من طبيعته الغفلة .

لذلك قال : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة] وشرع لنا الكفارات ، فالصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى

---

(١) قال تعالى في حل طعام أهل الكتاب : ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ..(٥)﴾ [المائدة] .

رمضان ، كلها مُكفِّرات للذنوب وكأنها (أوكازيونات) للمغفرة حتى لا نيأس من رحمة الله ، ولا نتمادى في المعصية .

فالمغفرة للذنوب رحمة يرحم اللهُ بها عباده حتى لا يدخلوا من باب اليأس وتنتشر المعصية وتستشرى بين الناس .

وقوله : ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ [محمد] كل المفسرين[1] يقولون يعنى : أصلح حالهم كله النفسيّ والمعنوى والمادى ، لكن فَرْق بين بال وحال : البال هو في الواقع الخاطر الذى يخطر فى العقل ، تقول : هذا الشيء فى بالى يعنى : فى عقلى لا يفارقنى ، والإنسان عادة ما يشغل باله بالحالة التى هو فيها ، فالطالب مثلاً : يشغل باله بالنجاح والرسوب والكلية والعمل بعد التخرج ، فمَنْ أصلح الله باله انصلح حاله .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. ۝٣ ﴾ [محمد] إشارة إلى الجزاء الذى تقدم جزاء الكافرين الذين أضل أعمالهم ، وجزاء المؤمنين الذين كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، هنا يُبيِّن علة ذلك وسببه ، فالكافرون

---

(١) للمفسرين أقوال فى معنى ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ [محمد] :
- أى : أصلح شأنهم . قاله مجاهد وغيره .
- أى : أصلح حالهم . قاله قتادة .
- أى : أصلح أمورهم . قاله ابن عباس .

قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٢٧٥) : « والثلاثة متقاربة وهى متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى : أصلح نياتهم . وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم » .

اتبعوا الباطل ، والمؤمنون اتبعوا الحق ، الباطل معدوم والحق ظاهر وثابت ، فمَن اتبع المعدوم ينعدم عنده كُلُّ خير ، ومن اتبع الحق الثابت الموجود يُوجد عنده كل خير .

لكن لماذا اتبع أهلُ الباطل الباطلَ ؟ اتبعوه لأنه ليس له تكاليف تُقيد شهواتهم ، وليس عنده محاذير ينبغى الوقوف عندها ، الباطل يطلق للنفس العنان لتخوض فى شهواتها وملذاتها ورغباتها .

بالباطل يسرق ويعيش على عرق بل دماء الآخرين ، بالباطل يحقد على غيره ويحسده ويقتله ، أما الحق فيمنعك من هذا كله ويُقيِّد عندك كل حركة منافية لمقتضيات الإيمان .

وإلا لماذا عُبدت الأصنام ، وعُبدتْ الشمس والقمر والنجوم ؟ نعم هم يعلمون أنها لا تضر ولا تنفع ، لكن ليس لها تكاليف تقيدهم ، لذلك عبدوها .

وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③﴾ [محمد] ضَرْب الأمثال لَوْنٌ من ألوان البيان لتوضيح المعنى فى القرآن الكريم ، ففى المسائل التى تقف فيها الأفهام يُوضحها الحق سبحانه للناس بالمثل ليُقربها للأذهان .

كما ضرب لنا مثلاً للذين يتخذون الشركاء مع الله ، فقال سبحانه : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً.. ㉙﴾ [الزمر]

وأنت حين تقرأ هذا المثل يتضح لك مغبة الشرك وسلامة التوحيد ، فهما نقيضان لا يستويان ، كما لا يستوى عبد لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما مختلفون فيما بينهم ، بحيث لا يستطيع إرضاء أحد منهم، وآخر عبدٌ لسيد واحد .

وكما ضرب اللهُ لنا مثلاً لنوره أو لتنويره للكون فى سورة النور :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

ومن الأمثال التوضيحية : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت]

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ(١) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً(٢) حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا(٣) ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) ﴾

---

(١) أثخنتوهم : أعجزتموهم عن الحركة أو عن القتال بسبب جراحهم التى أصبتموهم بها .

(٢) اختلف العلماء فى نسخ وإحكام هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول : أنها منسوخة . وهى فى أهل الأوثان لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم . قاله قتادة والضحاك والسدى وابن جريج والعوفى عن ابن عباس .

الثانى : أنها فى الكفار جميعاً وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر منهم قتادة ومجاهد .

الثالث : أنها ناسخة . قاله الضحاك وغيره . ناسخة لقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ..(٥) ﴾ [التوبة] .

الرابع : قول سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف . فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

الخامس : أن الآية محكمة والإمام مخير فى كل حال . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم وهو الاختيار لأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك. [تفسير القرطبى ٩/ ٦٢٧٩] .

(٣) وضعت الحرب أوزارها أى أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره . وقيل : يعنى تضع أثقال=

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ④﴾ [محمد] أى : فى ساحة القتال ، ودارتْ بينكما رحَى الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ .. ④﴾ [محمد] المصدر ضرب بمعنى : اضربوا رقابهم .

والمراد : القتل سواء بضرب الرقاب أو غيره ، لكن ذكر ضرب الرقاب لأنه الآكد فى القتل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ .. ④﴾ [محمد] يعنى : أذهبتم حركتهم وأضعفتموهم عن المقاومة ، ومادة ثخن هى نفسها تخن ، أى : تماسك وصار ثقيلاً لا يتحرك .

نفهم هذا المعنى حينما نتأمل مثلاً ربة البيت وهى تطبخ أرزاً باللبن أو بصارة أو تغلى العسل لتصنع منه المربى ، فمع الغليان يتبخر الماء وتبقى مادة تخينة ثقيلة ، لذلك لا تتحرك مع الغليان ، وتكون حرارتها شديدة ، نقول : ثخن الشىء أو تخن .

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ④﴾ [محمد] يعنى : قيِّدوهم واربطوهم بالسلاسل والحبال ، وأحكموا قيدهم ليكونوا أسرى فى أيديكم ولا يفروا . وهذا يعنى أنك إذا تمكنتَ منه لا تتركه ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. ④﴾ [محمد]

إما أنْ تُطلقوهم وتُسرحوهم (منّاً) بلا مقابل أو (فداءً) أى : تأخذون منهم الفدية . لكن متى ؟ تطلقون سراحهم بلا مقابل فى

= الشهداء لأنه عز وجل يمحصهم من الذنوب . وقال الفراء : أوزارها آثامها حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم . أى : انقضى أمر الحرب وخفت أثقالها فلم يبق قتال . [لسان العرب - مادة : وزر] .

حالة ما إذا تركوا أسرانا عندهم بلا مقابل ، وتأخذون الفدية إذا طلبوا هم أخْذ فدية لأسرانا عندهم .

وهذه يسمونها المعاملة بالمثل ، وهى ما انتهتْ إليه الأمم المتحدة الآن فى مثل هذا الموقف .

وقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ..﴿٤﴾ ﴾ [محمد] الحرب هنا مجاز عن أصحابها وأهلها المشتركين فيها ، فالمعنى : افعلوا ذلك حتى تقف رَحَى الحرب ، ومعنى ﴿ أَوْزَارَهَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [محمد] أى : يضعوا أثقال الحرب ، فالحرب ثقَل على أهلها ومشقة .

لذلك قال الله فيها : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة] نعم فأنت فى الحرب مُعرَّض لأنْ تفقد مالك ، ولأنْ تفقد أهلك ، ولأن تفقد حياتك كلها إلى جانب ما فيها من متاعب ومشاق الكَرِّ والفَرِّ والضَّرْب والجَرْح .. إلخ .

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [محمد] غلبهم وانتقم منهم بقدرته ودون قتال منكم ، فهذا أمر هيِّن على الله ، كما وقع للأمم السابقة أهلكهم الله بعذاب من عنده وببأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين ، فهذه ليستْ عجيبة ، بل واقع يشهد به التاريخ .

واقرأ : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : لماذا شُرع القتال وهو مكروه وفيه مشقة ؟ قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

فشرع القتال لإظهار قوة المؤمنين ، ثم لاختبار إيمانهم وثباتهم على الحق ، وتمييز المؤمنين من المنافقين ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ..(٤) ﴾ [محمد]

أى : يبلو المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين ، ليمحص إيمان المؤمن لأنه صاحبُ رسالة وصاحبُ منهج ، وسيحمل مسئولية الدعوة يسيح بها فى كل أنحاء الأرض ، فكان لابُدَّ من تمحيصه ليظهر الغَثّ والثمين .

مَنْ سيصبر على آلام الحرب ويصمد ولا يفر ، مَنْ سيضحى بماله ونفسه ، والله حين يختبر يختبر ، لا ليعرف هو سبحانه ، فهو يعلم كل شىء لكن لنعرف نحن ، لتظهر ميْزة هذه الأمة وميْزة هذه الرسالة ، وعظمة هذا النبى الخاتم الذى بُعِثَ للناس كافّة فى كل زمان وفى كل مكان .

ولا بد أنْ يكون أتباعه على مستوى هذه المسئولية وأهلاً لتحمُّل أعباء الرسالة بعد سيدنا رسول الله ﷺ .

ولذلك رُوى أن سيدنا مصعب بن عمير[1] كان فتى قريش المدلل ،

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من بنى عبد الدار صحابى من السابقين إلى الإسلام ، أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله فأوثقوه وحبسوه ، هاجر إلى المدينة فكان أول من جمع الجمعة فيها أسلم على يده أسيد بن حضير . وسعد بن معاذ . كان فى الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالاً ونعمة ، كان يلقب [مصعب الخير] توفى عام ٣ هـ [الأعلام للزركلى ٧/٢٤٨] .

وكان يغدو ويروح عدة مرات ، كلَّ مـرة بثوب جديد تفوح منه رائحة العطر ألواناً ، فلما أسلم تـغيَّر حاله ، وأرسله رسـول الله إلى المدينة ليعلم الناس ، فارتدى الثياب الخشنة ، وزهد فيما كـان فيه من نعيم الدنيا .

فلما علمـتْ أمه بحاله حـزنتْ عليه وأضربتْ عن الطعام وجلست في حَـرِّ الشـمس لتثنـى ابنها عـمـا هو فـيه وتعـيـده إلى دين الآباء والأجداد ، فلما علِمَ مصعبٌ بصنيع أمه قال لهم قولوا لأمى : والله لو كان لـها مـائة نفس خرجتْ نفسـاً نفسـاً على أنْ أترك هذا الديـن ما تركـته ، ودعـوها فإنْ عـضَّهـا الجوع أكلتْ ، وإن أحـرقتـها حـرارة الشمس استظلت[1] .

وأقام مصـعب بالمدينة حتى جاء رسـول الله ﷺ فرآه يلبس جلد كبش ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بصاحبكم » .

إذن : الحرب فى الإسـلام لحكمة ، فهى مثل النار التى تنفى خبث الذهب والحديد فيصير صلباً . لذلك أعدَّ الله هذه الأمة لتكون أمة قتال وشجاعة حتى قبل بعثته ﷺ .

فلما اضطر سيدنا رســول الله للحرب لم يدرب جنوداً ، ولم يفتح كليـة حربيـة ، إنما وجـد رجالاً مـتـمرسـين فى فنون القتـال ، لأن

---

(١) ذكره الشامى فى سـبل الهدى والرشـاد (٣١٥/١١) والذهبى فى (سير أعلام النبلاء) (١٠٩/١) وابن عسـاكر فـى تاريخ دمـشـق (٣٣١/٢٠) وابن الأثير فى أسـد الغـابة (٤٣٩/١) وابن كثير فى البداية والنهاية (٨١/٨) ولكن فى حق سعد بن مالك بن أبى وقاص وليس مصـعب بن عمير .

الحروب التي كانت تنشب بين القبائل وتستمر زمناً يصل إلى أربعين سنة[1] جعلتْ من هذه الأمة جيشاً على أُهْبة الاستعداد ، فكانوا كلما سمعوا هيعة طاروا إليها .

ثم إنها كانت أمة بدوية تعيش على الترحال ، بيوتهم على ظهور الجمال يتبعون مساقط الأمطار ومنابت العُشْب ، وكأن الله تعالى كان يُعدهم لحمل هذه الرسالة .

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ ﴾ [محمد]

الذين قُتلوا في سبيل الله هم الشهداء ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ ﴾ [محمد] لن يبطلها بل يُوفيهم أجورهم ويُثيبهم عليها ، لأن الشهيد وهب حياته لله وضحى بأغلى ما يملك في سبيل الله ، لذلك يجازيه بما لا يخطر على باله من الإكرام والتفضيل .

يجازيه بقاعدة ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا .. ۝٨٦ ﴾ [النساء] فلأنه جاد بنفسه في سبيل الله يُبرئه الله من الموت مرة أخرى إذن : حياته موصولة بحياة الآخرة ، فالشهيد بعد أنْ يقتل في الدنيا يصير حياً عند الله إلى أنْ يُبعث بهذه الحياة في الآخرة .

وهذا المعنى تنبه إليه الشاعر العربي وهو يمدح حمزة سيد الشهداء فقال :[2]

أَحْمَزَةَ عَمّ المصْطَفى وسَيّد ... الشُّهَداء أجْمعهم طُرّا
وَحَسْبُكَ مِنْ تِلكَ الشَّهادةِ عصْمةٌ ... مِنَ الموت في وَصْل الحياتَيْنِ بالأُخْرى

---

(١) مثل هذه الحروب حرب داحس والغبراء وكانت قبل الإسلام بخمسين عاماً ، وقد كانت بين قبيلتي عبس وفزارة .
(٢) من شعر الشيخ رضي الله عنه .

لذلك الذين يعترضون على حياة الشهيد ويقولون : هل لو فتحنا القبر على شهيد سنجده حياً ؟ لا ستجده ميتاً ، لكن هذه نظرة ضيقة لمسألة الحياة والموت ، ولتريح نفسك اقرأ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]

وتأمل كلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ .. ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران] ولم يقل عندكم : إنما عند ربهم أحياء بحياة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، فهذه من الغيبيات التى يجب التسليم بها ، فهو حَيٌّ عند ربه وإنْ كان ميتاً عندكم .

ثم فى قوله ﴿يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران] دليل آخر على حياته ، لأن الرزق من أسباب استبقاء الحياة .

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

كيف سيهديهم وهم مهتدون ؟! وما نالوا الشهادة إلا وهم مهتدون ، فالهداية هنا من باب ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾﴾ [محمد] يهديهم إلى الجنة أو إلى الاعتراف بفضله وشكره على نعمته .

لذلك حكى عن أهل الجنة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر] وقال عن أهل النار والعياذ بالله : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات]

فهؤلاء يهدون إلى النعيم وهؤلاء يهدون إلى الجحيم .

ومن هذه الهداية يعرف الشهيد قصره فى الجنة بدون عنوان ، فهو يعرفه لا يدله أحدٌ عليه[1] لذلك قال سبحانه بعدها : ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا[2] لَهُمْ ۝٦ ﴾ [محمد] ومعنى ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ ﴾ [محمد] أى : يصلح حالهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

هذه قضية معاركية قتالية بالنسبة للمسلمين ، وهى قضية واقعة ومبدأ لا يتخلف ، وسنة من سنن الله لا تتبدّل ما دام شرط الجندية قائماً لله ولنصرة دين الله .

لذلك قلنا : إذا رأيتَ انهزام المسلمين فى معركة فاعلم أنهم لم يحققوا شرط الجندية لله ، وابحث فيهم هم عن سبب الهزيمة ، لأن سنة الله فى نصرة الفئة المؤمنة سنة ثابتة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقضى لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » [أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٤) وأحمد فى مسنده (١٠٦٧٣، ١١١٢٣ ، ١١١٧٥، ١١٢٨١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٥٠) وعبد بن حميد فى مسنده (٩٣٨)] . وقال القرطبى (٦٢٨١/٩) : « أى : إذا دخلوها يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم » . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين .

(٢) (عرَّفها لهم) أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها ، وقال ابن عباس : (عرفها لهم) أى : طيَّبها لهم بأنواع الملاذ . مأخوذ من العرف وهو الرائحة الطيبة ، وطعام مُعرَّف أى مُطيَّب . [القرطبى ٦٢٨٢/٩] .

﴿الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] لذلك رأينا ما حدث فى غزوة أحد عندما خالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ وخرجوا عن شرط الجندية[1] .

كذلك الحال يوم حنين الذى قال الله فيه : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾ [التوبة]

حتى إن الصِّديق نفسه لم يسْلَم من مشاعر الإعجاب بالعدو ، فقال : لن نُهزم اليوم عن قلة ، فلما داخلهم الغرور بالعدد والإعجاب بالكثرة حلَّتْ بهم الهزيمة فى أول الأمر .

لكن تداركتهم رحمة الله ، فانتصروا فى نهاية المعركة ، وكأنه كان تأديباً من الله لعباده المؤمنين ودرساً عملياً حتى يدخلوا الحرب ، وليس فى بالهم إلا الله ، ونُصْرة دين الله .

وقوله : ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ [محمد] تثبيت الأقدام كنايةٌ عن الثبات فى المعركة ، وكناية عن القوة ، لأن الأقدام هى أداة الفرار من الحرب ، فإذا ثبَّتها الله ثبتت ولم تفر ، لذلك أمانة القدم ألاّ تفرَّ يوم الزحف .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله وقال : « لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله : عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً » الحديث بتمامه . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٣٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣) ، (١٧٨٥٩) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾

هذا هو المقابل ، فبعد أنْ ذكر المؤمنين ووعدهم بالنصرة ذكر الكافرين وما يحل بهم من التعس ، والتعس هو الانكباب على الوجه[1] الذى هو أشرف ما فى الإنسان ، لذلك فى التعبير عن الذلة والانكسار يقولون : مرَّغ أنفه فى التراب .

إذن : ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [محمد] يعنى : ذلة أو هلاكاً لهم . وإهانة الوجه هى أشد ما يمكن أن يُهانَ به المرء ، لذلك قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾ [محمد] أحبطها وأبطلها بحيث لا فائدة منها ، لأنهم ما عملوها لله .

والمراد أن أعمالهم الطيبة تذهب هَبَاء لا يستفيدون منها بشىء : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾[النور]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [محمد] إشارة إلى ما تقدم من جزاء الكافرين من التعس وإحباط الأعمال ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [محمد] هذا سبب إحباط الأعمال . لكن لماذا كرهوا ما أنزل الله ؟

---

(١) قاله ابن السكيت : التعس أنْ يخر على وجهه . والنكس أن يخر على رأسه . وقد أورد القرطبى فى تفسيره (٦٢٨٣/٩) عشرة أقوال فى معنى قوله ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [محمد] وكلها أقوال متقاربة المعنى تدور حول الهلاك والشقاء والخيبة .

كرهوا ما أنزل الله ، لأن منهج الله سيسحب بساط السيادة والجبروت من تحت أقدامهم ، سيُسوِّى بينهم وبين عبيدهم بعد أنْ ألفوا السيادة والمكانة بل والتسلط على الخَلْق ، لذلك كرهوا الحق لما جاءهم به رسول الله .

ولما ذهب سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كانوا يجهزون عبد الله بن أُبى ليتوِّجوه ملكاً على المدينة[1] فلما وصل رسول الله انفضَّ عنه القوم وشُغلوا بمقدم رسول الله ، وظلت هذه فى نفس عبد الله واستمر فى عدائه للرسول حتى بعد أنْ أعلن إسلامه لم يخلص فيه وكان منافقاً مشهوراً نفاقه .

ومع ذلك له ابن أسلم وحَسُن إسلامه وصحب رسول الله ، فلما علم أن رسول الله أمر بقتل هذا المنافق جاء لرسول الله ، وطلب منه أنْ يأذن له فى قتله حتى لا يقتله رجلٌ آخر من الصحابة ، فيجد فى نفسه شيئاً منه ، فلما قال هذا أبى رسول الله إلا أنْ يرحمه ، وأنْ يُعفيه من هذا فقال : لا تقتلوه وأرجئوه إلى الله[2] .

---

(١) ذكره السهيلى فى (الروض الأنف) (٣/١٨) أن الأنصار كانوا قد نظموا الخرز لعبد الله بن أبى بن سلول ليتوجوه ويملكوه عليهم .

(٢) ذكره ابن كثير فى (البداية والنهاية) (٤/١٨١) قال قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبدالله بن أبىّ بن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبى فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمر لى به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل ابر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فاقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وقوله : ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد] قلنا : أبطلها ، إما أعمالهم وتدبيرهم وكيدهم للمسلمين بأن انتصر المسلمون عليهم وجعل الله كيدهم فى نحورهم . أو : أحبط أعمالهم الصالحة لأنهم ما ابتغوا بها وجه الله .

ومعلوم أنه كان من هؤلاء مَن له أعمال صالحة لها وزنها فى مجتمعهم ، فيُروى أن ابن جدعان والمطعم بن عدى كانت لهما قدور للطعام يمكن أنْ يستظل الرجل بظلها ، فكانت لهم مآثر فى الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وغير ذلك ، لكن ما فعلوا هذا لله فذهب هباءً .

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ۝١٠﴾ [محمد] استفهام غرضه التعجب من صنيع الكافرين ، كيف يكفرون بالله وهم أمة ترحال وأسفار ، ويمرون فى أسفارهم على بقايا ديار الأمم المكذّبة ، ويرون ما نزل بها من العذاب وكيف أخذها الله ، أفلم يأخذوا منها عبرة !!؟

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات] وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ

أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : خذوا عبرة من واقع الحياة ، أرأيتم رسولاً انهزم أمام خصومه ؟

إذن : فليأخذوا عبرة من الأمم السابقة ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠)﴾ [محمد] ماذا فعل الله بهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٠)﴾ [محمد] دمرهم الله لها معنى . يعنى : أهلكهم فى أنفسهم ، إنما دمَّر عليهم يعنى : خرب عليهم وأطبق عليهم العذاب ، فدمَّرهم ودمَّر أموالهم ودمَّر أهلهم ولم يُبْقِ لهم على شىء .

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)﴾ [محمد] يعنى : هذا المصير ليس ببعيد عنكم يا كفار مكة فاحذروا ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ .. (١١)﴾ [محمد] أى : ما حدث من انتقام الله من الكافرين ونجاة المؤمنين ونُصْرتهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا .. (١١)﴾ [محمد] مولاهم يعنى : الذى ينصرهم ويلى أمورهم ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾ [محمد]

(١) قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبى ﷺ فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبى ﷺ : « لا قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٢٨٥] .

لا ناصر ولا معينَ ، لأنهم عبدوا آلهة لا تضرّ ولا تنفع .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ(١) وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يحدثنا هنا عن عمل أهل الإيمان وعاقبته ، وعمل أهل الكفر وعاقبته ، فالمؤمن عمر قلبه بالإيمان ، وعَمُرت جوارحه بالعمل الصالح ، فكان العاقبة ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] حيث النعيم الدائم الذى لا ينفد أبداً .

ومعنى ﴿ مِن تَحْتِهَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] أن ماءها ذاتى فيها متوفر لها لا يأتيها من بعيد ولا يخشى انقطاعه .

أما الكافرون فيأكلون ويتمتعون بالطعام والشراب يملأون به بطونهم وقوالبهم ، أما القلوب فهى خاوية خراب من المعانى ومن الإيمان .

إذن : فهم يعيشون عيشة أشبه ما تكون بعيشة الحيوانات والبهائم ، فعندهم تخمة فى المادة ، وعندهم فقر فى المعانى والقيم ، هذا حالهم فى الدنيا ، ثم تأتى العاقبة والجزاء الطبيعى ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] يعنى : مآلهم ومرجعهم ومستقرهم ومصيرهم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) النَّعم : كل ما يؤكل لحمه ويُشرب لبنه وجمعه أنعام . [القاموس القويم ٢/٢٧٥] .

قوله تعالي : ﴿ وَكَأَيِّن .. (١٣) ﴾ [محمد] يعنى : كثير من القرى ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] المراد هنا مكة ، فهى التى أخرجتْ رسول الله ﷺ ، وأين هى من القرى التى أهلكها الله وكانت أشد منها وأكثر عدداً وحضارة وعمارة .

كما قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا .. (٩) ﴾ [الروم]

أين هم من عاد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، أين هم من هؤلاء المهلكين ؟ ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] فلا مدافع عنهم يردٌ عنهم العذاب .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم (١٤) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقرر هذه الحقيقة ، لكن يأتى بالقضية على صورة سؤال : هل يستوى هذا وذاك ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٤) ﴾ [محمد] يعنى : على هُدى وعلى حجة ونور من ربه .

والرب هو الخالق وهو المربِّى ، وما بالك بالتربية إنْ كانت من الله ، لذلك قال ﷺ فى سياق بيان فضل ربه عليه : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

---

(١) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/ ١٦) وعزاه للعسكرى فى الأمثال . وقال : سنده ضعيف جداً وإن اقتصر شيخنا [يقصد ابن حجر العسقلانى] على الحكم عليه بالغرابة فى بعض فتاويه ولكن معناه صحيح . وقال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت . وذكره ابن الجوزى فى الأحاديث الواهية من حديث على وقال : لا يصح .

ومعنى ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ .. (١٤) ﴾ [محمد] على أمر واضح ، ويقين ثابت ، ومنهج مستقيم ، يضمن له الخير فى الدنيا والسلامة فى الآخرة . هل يستوى هذا مع مَنْ زُيِّن له سوء عمله واتبع الشهوات والأهواء ؟ لا بد أنك ستقول : لا يستويان .

ومن أشدّ الفتن التى يقع فيها الإنسان أنْ يُزين له هواه سوء عمله فيراه حَسَناً ، والهوى هو الميل والرغبة التى تميل بك عن الطريق المستقيم ، لذلك قالوا[1] : آفة الرأى الهوى ، لذلك مدح الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [النجم]

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى ضرب الأمثال ، فيقول سبحانه :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ[2] وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا[3] فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥) ﴾

كلمة ﴿ مَثَلُ .. (١٥) ﴾ [محمد] تقال بكسر الميم ، حينما تُشبِّه مفرداً بمفرد . تقول : هذا مِثل هذا ، وبالفتح حينما تُشبِّه صورة لها

---

(١) قاله أكثم بن صيفى ضمن خطبة له فى وفوده على كسرى ، ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١/٩٧) .

(٢) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/٢٠] .

(٣) حمَّ الماء : اشتدت حرارته فهو حميم أى ساخن شديد الحرارة . [القاموس القويم ١/١٧٣] .

أجزاء بصـورة أخرى لها أجزاء ، لذلك هنا يقـول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد] بفتح الميـم ، لأنها تمثل جمعاً وصورة كلية لها عناصر وأجزاء متعددة .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥) ﴾ [الكهف] أى : بما فيها من الميلاد إلى الموت ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

والمثل تشبيه تلحق فيه مجهولاً لك بمعلوم عندك ، لذلك سيدنا رسول الله لما سُئِلَ عن أوصاف سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام شبَّههما بما هو معلوم للصحابة ، فقال : أما موسى فرجل طوال كأنه من رجال أزد شنوءة [1] ، وهى معروفة عندهم ، وأما عيسى فكثير خيلان الوجه - يعنى فى وجهه حسنات كثيرة - يقطر وجهه ماءً كأنما خرج من ديماس [2] يعنى : من حمام ، وأشبهه من أصحابى عروة بن مسعود الثقفى ، إذن : شبَّه المجهول بما هو معلوم .

كذلك ضرب رسول الله لنا الأمثال ليوضح لنا أمور الدين ، فقال فى حديثه : « إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب

---

(١) أزد شنوءة : هم أبناء كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وهم حالياً قبائل غامد وأبناء عمومتهم من زهران . وشنوءة بالهمز من الشنآن وهو التباغض . قال ابن دريد : وبه سمى أبو هذا الحى من الأزد . وقال الخفاجى : سموا بهذا لعلو نسبهم وحسن أفعالهم . من قولهم : رجل شنوءة أى طاهر النسب ذو مروءة . أصلهم من اليمن .

(٢) الديماس : الحمَّام . وبهذا جاء الحديث فى وصف المسيح عليه السلام أنه سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس ، يعنى : فى نضرته وكثرة ماء وجهه . وقال فى وصفه : كأن رأسه يقطر ماء .

والفراش يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدى »[1] .

وكلمة ﴿ الْجَنَّةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] فى أصلها تعنى الشىء المستور ومنها الجن ، وجنَّ الليل ، حتى جنة الدنيا تحمل هذا المعنى ، لأنها قطعة الأرض المليئة بالأشجار متشابكة الأغصان بحيث تستر وتُخفى ما فيها ، أو تجنّ صاحبها يعنى تستره وتمنعه من الخروج منها حيث توفر له كلَّ متطلبات حياته .

والحق سبحانه ضرب المثل بها : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ[2] فَطَلٌّ .. ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف]

والفرق بين الجنتين أن جنة الدنيا من صُنع البشر ومباشرة الأسباب فى الحرث والزرع ، أما جنة الآخرة التى وعدها الله المتقين فهى قائمة بلا أسباب ، قائمة بقدرة المسبِّب ، لذلك حدث اختلاف فى الجنة التى دخلها سيدنا آدم عليه السلام : أهى جنة الدنيا ، أم جنة الآخرة ؟

حينما نقرأ هذه القصة فى كتاب الله نعلم أنها جنةُ الله جنة الآخرة ، بدليل أنه لم يحرث فيها ولم يزرع ، ولم يباشر أسباباً ، إنما أكل مما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٢٣٤ ، ٤٢٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأخرجه مسلم (٤٢٣٦) والترمذى فى سننه (٢٧٩٩) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) الوابل : المطر الغزير . إذا كثر وعظم قطره . [القاموس القويم ٢/٣١٧] .

أعده اللهُ له ، وكان فى أمـان ذاتى مدة إقامتـه على طاعة أمر الله فى الأكل .

فلما أغواه الشيطان أنْ يأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها حدث له تغيُّر فى الوضع الطبـيعى الذى كان فيه ، ورأى من نفســه مسألة الإخـراج التى لم يألفهـا من قبـل ، وتنبه إلى عـورته وراح يستـرها بورق الأشجار هو وزوجه .

وكانت هذه المسألة عمليـة تدريب لآدم على احترام المنهج وعدم الخروج عليه ، ونحن نفهم أيضاً كذلك أنه لا تظهر عورة فى المجتمع المسـلم إلا حين يحـدث انحراف عـن المنهج ، وآدم عليه السـلام لم يكُنْ رجـلاً عادياً ، إنما كـان نبيـاً رسولاً ، فـأراد الحق سبـحانه أنْ يعلمه الدرس بصورة عملية .

وقوله تعالى : ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] أى : وعدهم الله بها ووَعْـد الله حَقٌّ نافذ ، لأنه إله واحد ليس مـعه شريك يعـارضه ، ولا توجد قوة تـحول بينه سبحانـه وبين إنفاذ ما وعد ، كـما يحدث مثلاً فى وعد البـشر بعضـهم لبعض ، لأن البشر يطرأ عليهم الـتغيير ويلحق بهم الموت .

أما الحق سبحانه فهو الدائم الباقى وهو الحق .

والجنة وَعْد الله لا يعـد بها غيره ، يعـد مَنْ ؟ يعد بها المتـقين ، والمتـقى هو الذى يسير وفق منهج الله ، وأنْ يَجـعل بينه وبين عذاب الله وقـاية ، ولا يكون ذلك إلا باتبـاع المنهج وعـدم اتبـاع الشـيطان والهوى .

قال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

ووَعْد الله وعد الصدق ووعد الحق قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ [النساء]

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ .. (١٥) ﴾ [محمد] يعنى : أن هذا الوصف ليس وَصْفاً للجنة ، لكن مثل يُقربها للأذهان ، لأنه لو أراد أنْ يعطينا وصفاً للجنة على حقيقتها لن يصل إلى ذلك إلا من خلال الألفاظ التى تعبر عن المعانى .

ومعلوم فى اللغة أن المعنى يُوجد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدال عليه ، والنبى ﷺ لما وصف لنا الجنة قال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »(١) .

أولاً : تأمل فى الحديث هذا الترقى فى الحواس والإدراكات ، فالعين ترى ما كان فى مجال الرؤية ، أما الأذن فتسمع ما تراه أنت وما يراه غيرك ، وأوسع من هذا كله ما يخطر بالبال أو القلب .

فإذا كنا لا نصل بإدراكاتنا إلى ما فى الجنة ، ولا حتى يخطر لنا على بال ، فكيف نصفه ؟ وكيف نضع له الألفاظ المعبِّرة عنه ؟

إذن : هذا ليس وصفاً لحقيقة الجنة ، إنما مجرد مثل يقربها من أفهامنا ، لذلك قال تعالى عن الجنة : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٦٩٤٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إذن : فيها أشياء لا نعرفها ، فكيف نضع لها أسماء ؟ لذلك نقربها بمثل مما نعرفه فى الدنيا .

ففيها كما فى الدنيا ماء ولبن وخمر وعسل ، لكنه مُشذَّب ، ومُصفًّى من كل ما يشوبه ، فلا يشبه نعيم الدنيا إلا فى الأسماء ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥)﴾ [محمد]

فماء الدنيا يأسن ويعطن وتتغير رائحته ، أما ماء الجنة فماء غير آسن ، وبدأ بالماء لأنه الأصل فى الارتواء من العطش ، وبه ينضج الطعام ، وبه تتم نظافة الإنسان ، بل هو عنصر أساسى فى خلق كل كائن حى ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ..(٣٠)﴾ [الأنبياء]

وإذا كنا نعرف أن مصدر الماء العذب فى الدنيا هو البحار ، وبعملية البخر وتكوّن السحب يُنقّى من الملوحة فيصير عذباً صالحاً ، فماء الجنة لا نعرف مصدره .

قال الله عنه ﴿مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان] لا تشوبه شائبة ، ولا تلحق به مُلوِّثات تفسده ، إذن : نعمة لا يُنغِّصها شىء ولا تشوبها شائبة ، لأنك فى الدنيا تعيش بأسبابك التى خلقها الله لك .

ومنا مَنْ يعكر صفو هذه الأسباب ، أما فى الآخرة فأنت تعيش بالمسبِّب سبحانه مباشرة ، أنت تستضىء فى الدنيا بالشمس نهاراً ، وبالقمر والنجوم ليلاً ، أما فى الآخرة فلا شمسَ ولا قمر ولا نجوم ، إنما تعيش بنور الله ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ..(٦٩)﴾[الزمر] يعنى : بلا أسباب .

كذلك الماء تأخذه فى الدنيا بالأسباب ، وفى الجنة بلا أسباب ،

واقرأ قوله تعالى عن الماء فى الدنيا : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[1] فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقال عن ماء الجنة : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان]

وفرْق فى المعنى بين (أسقى) و(سقى) : أسقى : أوجد الماء الذى نستقى منه إنْ أردنا السُّقْيا . فينزل الماء من السحاب فنحجزه وراء السدود حتى نحتاج إليه ، لكن (سقى) باشر السُّقيا بالفعل .

ومن العجيب فى أنهار الجنة أنها ليس لها شُطآن ، وأنها متداخلة دون أنْ يختلط بعضُها ببعض ، ولا تسأل هنا عن كيفية ذلك ، لأن هذا النعيم لا يقوم بالأسباب التى نعرفها ، بل بالمسبِّب سبحانه ، فلا يحكم عليها حكمك على مثلها فى الدنيا . وقوله : ﴿ فِيهَا .. (١٥) ﴾ [محمد] أى : أنها ظرف لهذه الأنهار .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. (١٥) ﴾ [محمد] ولبن الدنيا يتغير طعمه بمرور الوقت ويفسد ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] نعم أنهار من خمر مُعدَّة وجاهزة ، ليس هناك عنب يُعصر ، إنما بكُنْ فيكون .

وإذا كانت خمر الدنيا مُحرَّمة ، وتذهب بالعقل ولها رائحة كريهة ، فخمر الآخرة لها لذة عند شربها ولا تذهب بالعقل ، فليس لها من خمر الدنيا إلا اسمها .

وليس فى الدنيا أنهار من خمر لأن خمر الدنيا بالأسباب ، فهو كميات قليلة بمقدار ما يُعصر من العنب أو غيره ، والحق سبحانه لما

---

(١) أرسلنا الرياح لواقح : حوامل ، مفردها لاقح ، فهى تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرِّفه . [لسان العرب – مادة : لقح] .

تكلم عن خمر الدنيا قال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

فالمنافع لا قيمة لها إذا ما قورنت بالمضار والحرمة ، صحيح هى تُشعرك بشىء من النشوة أو السعادة ، وتضحك وتفرح وتنسى همومك ، لكنها بعد ذلك تغتال عقلك وتسلبك وقارك .

فإذا أضفتَ إلى ذلك أنها محرمة ، وأنها من أكبر الكبائر بان لك ضررها . صحيح فيها ربح لمَنْ يتاجر فيها ، لكنه ربح حرام ، لذلك جعل الله خمر الدنيا قليلة ، أما خمر الآخرة فأنهارٌ لأنها فى الآخرة لذة للشاربين .

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] يعنى : لا تغتال العقل ، ولا ينتج عن شُرْبها أضرار ، والنزف هو إخراج شىء من شيء كمن يقيىء مثلاً بعد شربها ، أو يصيبه دوار أو صداع .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] إذن : ذكر الماء أولاً لأهميته بالدرجة الأولى ثم اللبن ، لأنه يُحمل محمل الماء حتى يوجد الماء ، وهو عنصر أساسى فى الغذاء ، ثم ذكر الخمر ، لأن الإنسان بعد أنْ يأكل ويشرب يحتاج فى كمال السعادة كأساً من هذه الخمر .

أما العسل فيأتى فى آخر هذه القائمة لأن الله تعالى قال فيه : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ (٦٩) ﴾ [النحل] إذن : الميزة التى تُميّز العسل ليست فى طعمه وحلاوته ، بل فى كونه شفاء ، والجنة لا مرض فيها . إذن : يشرب فى الجنة للذته وجمال طعمه .

ومعنى ﴿ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] ليفرِّق بينه وبين عسل الدنيا

الذى لا يخلو من شوائب ، لأن الإنسان يجمعه من الجبال ، فهى أول مسارح النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

والعالم الأمريكى الباحث فى حياة النحل وجد أن نحل الجبال هو أقدم أنواع النحل ، وما دام من الجبال فلا يخلو من شوائب ، أما عسل الجنة فمصفًّى بقدرة الذى أعدَّه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] بعد أنْ ذكر الحق سبحانه ما فى الجنة من السوائل يذكر ما فيها من الثمرات دون أنْ يسميها لأننا لا نعرفها .

لذلك قال فى آية أخرى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ..﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : ثمار متشابهة ، لكن مختلفة المذاق ، حتى لما أعطانا مثالاً بالعنب والعموميات ، فهى فى الجنة غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وإذا كانت الثمار عندنا لها بيئات تجود فيها ولها مواسم ، فثمار الجنة موجودة فى كلِّ الأوقات ، فالبيئات فى الدنيا من الأسباب ، أما الآخرة فبالمسبِّب سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] بعد أنْ أعطانا ربنا سبحانه لذة المادة والقالب فى الجنة يعطينا لذة أعلى هى لذة نَيْل المغفرة من الله كرماً وتفضلاً ، لأنهم ما دخلوا الجنة إلا بالمغفرة ، لكن قد يذكر أحدهم ذنبه فيقول له : أنت مغفور لك .

وقد ورد فى الحديث القدسى أنه بعد أنْ يدخل أهل الجنة الجنة يسألهم ربُّ العزة سبحانه : أرضيتم يا عبادى ؟ فيقولون : وما لنا لا

نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا كذا وكذا فيقول : الآن أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1] .

ثم يضعنا الحق سبحانه أمام هذه المقارنة بين أهل الجنة وأهل النار ، فيقول : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا[2] فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] يعنى : أيهما أفضل ، واحكم أنت وسنرتضى حكمك .

هذه هى الجنة أو مثل لها : أتستوى مع مقابلها وهو الخالد فى النار ؟ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] فكما ذكر الماء أولاً فى الجنة ذكره أيضاً أولاً فى النار والعياذ بالله .

وكلمة ﴿ سُقُوا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] ولم يقُلْ شربوا لأن الشرب طواعية واختيار ، إنما ﴿ سُقُوا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] يعنى : رغماً عنهم ودون إرادتهم ، مثل ما تعطى الولد الصغير الدواء فتسقيه له على كُرْه منه .

﴿ مَاءً حَمِيمًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] الماء معروف أنه يُشرب للارتواء ويُشرب بارداً ، أما ماء جهنم والعياذ بالله فهو حميم يعنى : تناهتْ حرارته ، فكيف بهم وهم فى النار ويريدون أنْ يُبردوا حرارة أجوافهم فيسقوْن الحميم الذى يزيدهم حرارة فوق حرارة النار .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧) ، (٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظه عند مسلم أن النبى ﷺ قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

(٢) حَمَّ الماء : اشتدت حرارته فهو حميم أى : ساخن شديد الحرارة [القاموس القويم ١/١٧٣] .

يَشْوِي الْوُجُوهَ ..(٢٩)﴾ [الكهف]

ثم يبين أثر هذا الماء الحميم ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾ [محمد] وليتها قطعتْ وانتهت المسألة ، إنما هم فى عذاب مقيم دائم لا يُفتَّر عنهم .

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ.. (٥٦)﴾ [النساء] والأمعاء جمع معى بكسر الميم ، وقد ورد فى الحديث الشريف قول سيدنا رسول الله : « المؤمن يأكل فى معىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] يعنى : المؤمن يأكل على قدر حاجته أو فى أكله وفى طعامه بركة ، أما الكافر فيأكل حتى تمتلىء بطنه .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ (١٦)﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم .. (١٦)﴾ [محمد] ممَّنْ ؟ ستعرف بعد أن تقرأ أوصافهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦)﴾ [محمد] يستمع إلى رسول الله وهو يقرأ القرآن ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ .. (١٦)﴾ [محمد] يا محمد ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (١٦)﴾ [محمد] أمثال ابن مسعود وابن عباس ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦)﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد فيما قاله محمد ، كأنهم يحتقرون ما سمعوه من رسول الله .

---

(١) حديث صحيح . أخرجه مالك فى موطئه (١٤٤٢) والبخارى فى صحيحه (٤٩٧٧ ، ٤٩٧٨) وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٢٤٧) وأحمد فى مسنده (٧١٨٤ ، ٩٠٠٨ ، ٩٢٤٨ ، ٩٤٩٦) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى الباب عن ابن عمر وأبى موسى الأشعرى .

هذه إذن ليست صفات الكافرين ، لأن الكافرين لم يكونوا يستمعون للقرآن ، إنما هى صفات المنافقين الذين كانوا يشاركون المسلمين صلاتهم ومجالسهم ويذوبون فيهم بخبث ودهاء ، لكن كان القرآن ينزل على رسول الله فيكشفهم .

لذلك كان النفاق أسوأ وأضرَّ على المسلمين من الكفر ، فالكافر معلوم أنه عدو ظاهر العداوة ، ويمكن أنْ تحتاط له ، أمَّا المنافق فواحد من الجماعة المسلمة يعلن الإسلام ويبطن الكفر ، فعداوته غير ظاهرة وخطره أعظم .

والذى يتتبع تاريخ النفاق فى الإسلام يجده لم يظهر فى مكة إنما ظهر فى المدينة ، فرغم العداء الشديد بين الإسلام والكفار فى مكة إلا أنه كان عداءً ظاهراً مُعلناً يمكن مواجهته ، فلم يوجد فيها نفاق ، لم يظهر إلا فى المدينة ، لماذا ؟

لأن النفاق لا يكون إلا مع القوى ، فالضعيف لا يُنافق الضعيف ، تعلن العداء في وجهه ، أما القوى فتنافقه لتتغلب عليه .

إذن ما الداعى للنفاق فى مكة والمسلمون فيها قلَّة مستضعفة ، هذا يعنى أن النفاق ظاهرة تدل على قوة الإيمان ، وأنه أصبح له شوكة تُنَافَق ، وهذا حدث فى المدينة .

لذلك قال سبحانه وتعالى فى حقهم : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ..(١٠١)﴾ [التوبة]

كلمة ﴿يَسْتَمِعُ .. (١٦)﴾ [محمد] وردتْ هذه المادة فى القرآن بلفظ : سمع واستمع وتسمَّع ، سمع أى : دون إرادة منه للسماع،

واستمع لمن يحب أنْ يسمع شيئاً محبوباً لديه ، أما تسمع ففيها تفعُّل وتكلُّف للسماع ومحاولة .

إذن : قال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦) ﴾ [محمد] يعنى : برغبته وإرادته وهو محب لأنْ يسمع ، وهكذا كان حال المنافقين يجلسون فى الصفوف الأولى ويُبدون من الاهتمام ما لا يُبديه غيرهم ، فلا تفوتهم كلمة ولا تفوتهم صلاة ليحبكوا خطتهم ويُخْفوا نفاقهم .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٦) ﴾ [محمد] لأنهم سمعوا الكلام ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بمقتضاه ، فكان الجزاء أنْ ختم الله على قلوبهم وطبع عليها ، وكأن الله يقول لهم : ما دُمتم أحببتم النفاق فسوف أزيدكم منه وأختم على قلوبكم حتى لا يخرج منها النفاق ولا يدخلها الإيمان .

﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد] الهوى أنْ يميل قلبك إلى شىء تعتقد أنه سارّ ومُفرح لك ، فرح عاجل ولذة وقتية دون النظر فى العواقب بعد هذه اللذة .

إذن : اجعل لهواك ضوابط ، واختر الهوى الأبقى أثراً والأدوم نفعاً ، اجعلْ هواك فيما ينفعك لا فيما يضرك ، كالذى يأكل (شطة) مثلاً ، لأنها تجعل للأكل لذة وطعماً هو يرغب فيه الآن حين يأكل ، لكنه غفل عن مسألة إخراج هذا الطعام ، وأنه سيجُر عليه ألماً يفوق لذة الأكل .

إذن : على العاقل أنْ يتدبر عواقب هواه ، ويحذر أنْ يميل به الهوى ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ ..(٧١) ﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه أتى لنا بالمنهج ليحمينا من الهوى ، لأن أهواء النفوس متضاربة ومتعارضة ، فهى أداة اختلاف وتنافر ، والله يريد لنا أن نتفق ، وأنْ نتساند لا أنْ نتعاند .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به »[1] .

البعض يقف عند قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٦) ﴾ [محمد] فيقول ما دام أن الله طبع على قلوبهم وأراد لهم الضلال ، فلماذا يعذبهم ؟ نقول : الله يهدى العباد لا يضلهم ، وهم الذين يختارون الضلال ولا يهتدون بالإيمان .

لذلك نقرأ : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] و﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة] و ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فالضلال إذن وعدم الهداية ناشىء عنهم هم ونتيجة مسلكهم غير المستقيم ، فالله لم يهدهم لأنهم إما كافرون أو فاسقون أو ظالمون .

وإلا فالحق سبحانه فى واقع الأمر هدى الجميع ، المؤمن والكافر ، لأنه نادى الجميع فى قوله سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ (٢١) ﴾ [البقرة] فدلَّ الجميع وأرشدهم إلى منهجه وعاقبة السَّيْر على هذا المنهج ، وأنذرهم عاقبة الخروج عنه .

---

(١) أخرجه ابن بطة فى كتابه (الإبانة الكبرى) (٢٩١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٠٨) وعزاه للأصبهانى فى الترغيب بلفظ « لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به » . وأخرجه الفسوى فى الاربعين (٨) وابن ابى عاصم فى السنة (١٤) .

وبيَّن لهم أن المنهج ما وُضع إلا لمصلحتهم باستقامة أمورهم فى الدنيا وسلامتهم فى الآخرة ، وأنه سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، فهو سبحانه غنى عنهم مُستغن عن عبادتهم ، لأن له صفات الكمال قبل أنْ يخلقهم ، يقول لعبده : يا عبدى أقبل علىَّ أعْطكَ خيرى .

واقرأ قوله تعالى فى قوم ثمود : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ..(١٧)﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم وأرشدناهم إلى طريق الخير ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ..(١٧)﴾ [فصلت] فلما استحبُّوا العمى أعماهم الله .

ثم إن الذين يقولون : لماذا يعذبهم الله وهو أضلهم ؟ لماذا لا يذكرون المقابل فيقولون : ما دام كتب عليهم الطاعة ، فلماذا يثيبهم عليها ؟ .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : قالت السماء : يا رب إئذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، فقال الله لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب[1] .

وسبق أنْ مثَّلنا مسألة الهداية - ولله المثل الأعلى - برجل المرور

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً فيقول الله للأرض والسماء : كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

حين تذهب إليه فتسأله عن الطريق ، فيقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ أطعته زادك وقال لك : إن فى الطريق عقبة فى المكان الفلانى فانتبه لها ، أو يأخذك بنفسه حتى تبلغ ما تريد .

وهكذا الحق سبحانه دلَّ الجميع وأرشد الجميع ، فمنْ سمع وأطاع زاده هداية ، ومَنْ أعرض وتمرد زاده ضلالاً بأنْ ختم على قلبه .

لذلك قسَّم العلماء الهداية إلى نوعين : هداية الدلالة وهى للمؤمن وللكافر ، وهداية التوفيق والمعونة ، وهى خاصة بالمؤمن ، لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ(1) (١٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد] أى : بالتوفيق وبالمعونة على الطاعة ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] فكأن التقوى هى التى تأتى إليهم لا يذهبون هم إليها ، يسَّرها لهم وحبَّبها إليهم ، فى حين أن البعض يظن أن التكليف مشقة على النفس وقيْد يقيدها لكن أبداً .

المتأمل يجد فى التكليف راحة وطمأنينة للنفس والبال ، التكليف

---

(١) آتاهم تقواهم : أى ألهمهم إياها . وفى معناه ستة أقوال :
- آتاهم الخشية قاله الربيع .
- آتاهم ثواب تقواهم فى الآخرة . قاله السدى .
- وفقهم للعمل الذى فرض عليهم . قاله مقاتل .
- بيَّن لهم ما يتقون . قاله ابن زياد والسدى أيضاً .
- أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ . قاله عطية .
- أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٢٩٠) .

عصمة للنفس ووقاية لها من المعاطب ، لذلك اقرأ مثلاً : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ۝٥﴾ [البقرة]

ومعنى ﴿عَلَىٰ هُدًى .. ۝٥﴾ [البقرة] أن الهدى مطيَّتهم إلى الغاية التي يقصدونها ، فهو ليس عبئاً على العبد لأن الخالق سبحانه لم يكلفنا أبداً ما لا نطيق ، وما استعبدنا إلا لمصلحتنا نحن فى استقامة الدنيا وسلامة الآخرة .

لذلك قلنا : إن العبودية لغير الله ذل وهوان ، والعبودية لله عزّ وشرف ، فالعبودية للبشر تعطى السيد خير عبده لكن العبودية لله تعطيك خير الله .

وحين يفهم العبدُ العبادةَ بهذا المعنى يحبها ويتشوَّق إليها ويجد فيها لذة لا تُدانيها لذة ، لذلك يقول النبى ﷺ لبلال مؤذنه : « أرحنا بها يا بلال »[1] أى : بالصلاة ، فكم هى سهلة خفيفة على قلب المؤمن ، وكم هى ثقيلة على قلب المنافق .

إذن : من الهدى أنْ تصلى كما يصلى عامة الناس ، ومن زيادة الهدى أنْ تتشوق للصلاة وتنتظرها وتجد فيها راحتك ، لأنك فى حضرة ربك عز وجل ، والله غيْب ويصلح عبده أيضاً بالغيب ، فالصلاة تصلحك وتصلح حالك من حيث لا تدرى .

ومن ثمرات التقوى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة ، وذلك أن رجلاً (من خزاعة) قال : ليتنى صليت فاسترحت فكأنهم عابوا عليه ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها » .

يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا[1] وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الأنفال]

فمنْ يتقى الله بموجب الفرقان الذى جاءه من الله وهو القرآن يزيده ، بأنْ يجعل له هو فرقاناً آخر خاصاً به ، فرقاناً يهديه وينير له الطريق ويُميز به بين الأشياء .

إذن : ما عليك فى مسألة التقوى إلا أنْ تسير إليها تقصدها لتفعل وتطيع ، ثم ستجدها هى التى تسعى إليك وتطلبك .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾

الحديث هنا عن الكافرين الذين لا يلتفتون إلى أدلة وجود الله فى الكون ، ولا إلى معجزات الرسل فيؤمنون بهم ويصدقونهم ، ولا إلى أحكام الله فيعملون بها ، هؤلاء القوم ماذا ينتظرون ؟

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ .. (١٨) ﴾ [محمد] أى : ينتظرون ﴿ إِلاَّ السَّاعَةَ .. (١٨) ﴾ [محمد] الساعة بالنسبة لهم يعنى الموت ، لأن الزمن ينتهى بالنسبة للإنسان بالموت ، فمَنْ مات قامت قيامته ، والمرء لا يعرف أجله ولا متى يموت ، لأن الله أخفاه واحتفظ به لنفسه سبحانه ، فلا يطلع عليه أحد .

---

(١) الفرقان : الفرق والفصل بين أمرين واستعير للحجة الفاصلة والبرهان القاطع ، وقوله ﴿ إن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] أى : حجة وبرهاناً . [القاموس القويم ٢/٧٨] .

إذن : طول العمر وقصـره نحن لا دخْلَ لنا به ، ولا نتحكم فيه ، لأنه متروك لمن بيده الأعمار والآجال ، لكن بيدك عرضه بأنْ تشغل عمرك بعمل الخير ، وتوسِّع دائرة الخير في حياتك وتنفع الآخرين ، كما يمكنك أنْ تضيف لحياتك بُعداً آخر ، بأنْ تفعل من الخير ما يبقى ذكراً لك بعد موتك ، وذُخْراً لك عند ربك .

فإذا علمتَ أن العمر نفسٌ يدخل ولا يخرج ، أو طرفة عين لا تعود كنت على حذر من أنْ تموت على معصية الله ، على حذر من أنْ تؤخر التوبة أو تسوِّف فيها ، لأنك لا تضمن متى يداهمك الموت .

فحين تسمع نداء الصلاة قُمْ ولبِّ النداء ، ولا تقل الوقت طويل ، وسوف أصلى ، معك مال وتقدر أنْ تحج لا تقل أحج العام القادم ، لأنك إذا كنتَ لا تضمن عمرك لحظة ، فكيف تضمنه بعد عام ؟ صحيح ليس فى تأخير هذه الأعمال عقوبة لكن يفوتك بالتأخير فضل الصلاة لوقتها وفضل الجماعة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »[(1)] .

البعض فهم من الحديث « اعمل لدنياك » أى : ما يكفيك طوال العمر ، لكن المراد بالعمل هنا : اعمل للدنيا على رسلك ولا تستغرق فيها ، وما فاتك منها اليوم تدركه غداً . يعنى على مهل ولا تأخذ المسألة من أول صفقة .

---

(١) ليس بحديث وإن اشتهر على الألسنة ، ولكنه منسوب إلى بعض الصحابة مثل عمرو بن العاص (ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ١/٢٦١) والجاحظ فى البخلاء ، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة : لا أصل له .

والذى يُعاب فى السَّعى من أجل الدنيا أنْ تستحوذ الدنيا على كلِّ اهتمامك وتأخذ كل وقتك وتريدها على عجل . والأخطر من ذلك أنْ نستعين بالنعمة وبالمال على المعصية أو نروج السلعة بشيء محرم شرعاً ، فتنقلب النعمة فى أيدينا إلى نقمة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا .. (٢٨) ﴾ [إبراهيم] ككثيرات من بناتنا الآن نراهن كاسيات عاريات يُظهرنَ ما حباهن الله من جمال ، وبدل أنْ تشكر النعمة بصيانتها تَكْفُرها بتبرجها .

وياليت الضال يضل فى نفسه ، إنما الأدهى من ضلاله أنْ يكون مثالاً لغيره فتشيع الفتنة فى المجتمع ، لذلك يقول تعالى فى تتمة الآية : ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم] ما هى دار البوار ؟ ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

فهذه الفتن تعصف بالشباب خاصة فى مراحل المراهقة وعدم وجود فرصة عمل وهم ما يزالون عالة على أهاليهم ، لذلك نقول لبناتنا : اتقين الله فالشباب معذور غلبان كفاه أنْ يدافع سُعار المراهقة ، فلا تُهيجنَّ فيه سعاراً جديداً بما تفعلْنَ من التبرج والسُّفور وعدم التحشم .

وأذكر مرة أنهم أرادوا أنْ يكرموا أحد رجالهم البارزين فأقاموا له حفلاً وأحضروا فيه الراقصات وما إلى ذلك ، فقلت : سبحان الله أهكذا يكون تكريم البارزين عندنا ، ثم أمسكت بصاحبنا وقلت له (يا سلام الرقص الليلة كان حلواً ، فالبنت كانت (تتشخلع) بورع وتتثنَّى بتقوى) !! إيه حكايتكم بالضبط ؟

نعم :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً .. ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد] يعنى : فجأة ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد] أى : علاماتها وسماتها المميزة لها المنذرة بقربها ، وقد ذكر لنا سيدنا رسول الله ﷺ طرفاً من هذه العلامات ، فقال : « نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة[1] البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[2] .

صحيح ، فالرأس على شكل (مش عارف إيه والشفايف حمَّروها) ، والحواجب دقَّقوها .. إلخ يُغيِّرنَ خَلْق الله ويستعنَّ بنعمة الله على معصية الله ، وهذه من علامات الساعة .

لذلك نسأل الله الهداية لبناتنا ، وأنْ تحفظ كُلٌّ منهن جمالها ، وأنْ تجعل حمد الله على النعمة طاعةً له سبحانه ، وألاَّ تجعل نعمة الله عليها مُسمَّمة بمعصيته وأقول لأولياء الأمور : اتقوا الله فى البنات ولا تضطروهن للعمل فى الإعلانات الخليعة لأنها محرمة ، ومَنْ يأكل منها إنما يأكل سُحْتاً من حرام .

كذلك من أشراط الساعة التى أخبر بها سيدنا رسول الله ﷺ « إذا رأيت شُحاً مطاعاً ، وهَوى مُتبعاً ، وإعجابَ كل ذى رأى برأيه

---

(١) سنام البعير والناقة : أعلى ظهرها . والبخت : جمع بُختىّ وهى أنثى الجمال وهى جمال طوال الأعناق . [لسان العرب - بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٩٧١ ، ٥٠٩٨) والإمام مالك فى موطئه (١٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٨٢١١ ، ٩٣٠٣) .

فانتظر الساعة »[١] .

وقال : « إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة »[٢] وغير ذلك من العلامات .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد] يعنى : كيف أو من أين لهم التذكُّر وقد فات أوانه وباغتتهم القيامة ، أنّى لهم التذكر ، وأنّى لهم أنْ يستأنفوا عملاً صالحاً .

ثم يختمها بقضية القضايا التى إنْ صلُحَتْ صلُح للإنسان كلُّ شىء ، فيقول :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

معنى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد] لا تطلب بأى

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٧٧٨) من حديث أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله ﷺ قال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياماً الصبر فيها مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » . وكذا الترمذى فى سننه (٢٩٨٤) وابن ماجه فى سننه (٤٠٠٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله يحدث فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال . وقال بعضهم : بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه . قال : أين أراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله . قال : فإذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

شىء سبباً غير الله ، ولا يجوز لك أنْ تلجأ لغير الله ، فاللجوء لغير الله لا يفيد ، وقوله ﴿فَاعْلَمْ .. (١٩)﴾ [محمد] العلم إما علم يقين إذا أخبرك به مَنْ تثق فى صدقه ، وعَيْن يقين حينما تراه بعينك وترى أثره ، وحَقّ اليقين حينما تباشره بنفسك .

والحق سبحانه حينما يقول لنبيه ﷺ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ .. (١٩)﴾ [محمد] هل يعنى هذا أنه لا يعلمها ؟ لا بل المراد داوم عليها ، وكما علمتها فى الماضى فاجعلها فى الحاضر وفى المستقبل . وهذا من باب قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا.. (١٣٦)﴾ [النساء] فيأمرهم بالإيمان وقد ناداهم به .

قالوا : إذا أمر الله أمراً وهو موجود بالفعل فى المأمور فالمراد داوم عليه ، فأنت مؤمن لكن مطلوب منك أنْ تداوم على إيمانك فى المستقبل .

والحق سبحانه حينما يأمر نبيه هذا الأمر إنما ليُطمئنه على أنه إنْ جُحد وعُودِىَ وأُوذِىَ بشتَّى أنواع الإيذاء والاستهزاء لا يحزن ولا يهتم ، لأن الله بجواره ينصره ويؤيده ، ومهما فعل البشر فلن يمنعوه من إنفاذ دعوته .

فسُنة الله فى الرسل أنْ ينصرهم : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيتَ جندياً منتسباً للإسلام وغُلِب ، فاعلم أن شروط الجندية اختلَّتْ عنده وإلاَّ ما هُزم .

وأخذنا مثالاً على ذلك بما حدث للمسلمين يوم أُحُد من مخالفة أمر رسول الله فهُزموا وهو بينهم ، وهذه سنة الله ولن تجد لسنةِ الله

تبديلاً ، ولو انتصروا بعد أنْ خالفوا أمر الرسول لهان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا فى أنفسهم : لقد خالفناه وانتصرنا .

إذن : جاءت الهزيمة لتردهم إلى الصواب وتوقظ غفلتهم فى مسألة طاعة أمر رسول الله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (١٩) ﴾ [محمد] فهل يعنى هذا أن للرسول ذنباً يجب الاستغفار منه ؟ هذه من المسائل التى دار حولها جدل كثير ، والمعنى هنا : إذا سَهتْ نفسك فأذنبتَ فاستغفر لا أنه أذنب بالفعل ، يقول له ربه : إذا حصل منك ذنب فاستغفر له ، وكذلك استغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] فذكر الذنب فى حق الرسول رغم أنه معصوم . والعلماء حينما بحثوا مثل هذه الآيات قالوا : هى من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] .

ومعلوم أن المقربين درجة من درجات الطاعة والامتثال لله أعلى من درجة الأبرار ، لأن الأبرار هم الذين يطيعون الله ويفعلون الخيرات وينفذون الأوامر .

أما المقربون فهم الذين يزيدون على ذلك تقرباً إلى الله ، حتى فى عُرْف الناس المقرَّب منك هو الصديق الملازم لك الذى لا يفارقك

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره فى عدة مواضع (١/٣٠٩) (١١ / ٢٥٥) وعزاه للجنيد رحمه الله . وذكر السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٠٣) أنه من كلام أبى سعيد الخراز وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته ، وذكر العجلونى فى كشف الخفاء مثل هذا (١١٣٧) ومثله الفتنى فى تذكرة الموضوعات (١/١٨٨) .

ويحبك ويخاف عليك .

كذلك المقرب من الله ، له قانون آخر في التعامل غير قانون الأبرار ، ومقياس آخر للحسنات والسيئات يناسب درجة قُربه من ربه عز وجل .

ترى لو أنك مثلاً مرضت لا قدر الله وجاءك أحد معارفك وزارك في مرضك ولو مرة واحدة ماذا تفعل ؟ تشكره وترى أنه أدى الواجب .

أما صديقك المقرب لو زارك مرة واحدة مثله ماذا تفعل ؟ تعاتبه وتلومه لأنك كنت تنتظر منه أكثر من زيارة ، هذا هو معنى : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

إذن : الحسنة من الإنسان العادى قد تُعدُّ سيئة بالنسبة للنبى ، فالنبى مقرب وللمقرب حساب آخر ، ولهذه القربى ثمن ، وكأن الله يقول لك : حافظ على هذه الدرجة من القرب منى ، وإياك أنْ يحدث منك ولو شىء بسيط بالنسبة لغيرك .

أو أن سيدنا رسول الله كما قال : « رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] فقوله (عن أمتى) يعنى : أنه غير داخل فى هذا الحكم ، فلا يجوز منه النسيان الذى يجوز من غيره والنسيان فى حقه إذن يُعدُّ ذنباً .

لذلك لما صلَّى النبى ﷺ صلاة رباعية وسلَّم منها بعد ركعتين

---

(١) لفظ الحديث هو : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٣٣ حديث أبى ذر الغفارى) ، (٢٠٣٥ حديث ابن عباس) ، وقد أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٦/ ٨٤) من حديث ابن عمر بلفظ (وضع عن أمتى) الحديث .

قال له أحد الصحابة وهو ذو اليدين : أقصرتْ الصلاة أم نسيتَ يا رسول الله ؟ قال : كل ذلك لم يكُن ، قال : بل بعض ذلك كان[1] . انظر عظمة الصحابى فى السؤال ، وعظمة رسول الله فى الرد ، وعظمة الإيمان الذى ربَّى هؤلاء .

إذن : من الممكن أنْ ينسى رسول الله ويُعد نسيانه ذنباً لماذا ؟ لأنه رسولٌ وصاحبُ رسالة مكلَّف بتبليغها وإشراقات النبوة لا تفارقه فكيف ينسى ؟ لذلك لما سأل أحد العامة العالم العابد المنقطع لله وقال له : ما حكم مَنْ سها فى الصلاة ؟ قال له : عندنا أم عندكم ؟ قال : بل عندنا . قال : يسجد للسهو ، قال : وعندكم ؟ قال : نقتله .

ولماذا نذهب بعيداً وقصة معصية سيدنا آدم معروفة للجميع ، قال تعالى - فى حق آدم ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] فسمى نسيان آدم معصية ، لماذا ؟

قالوا : لأن آدم خلقه الله بالمباشرة ، خلقه الله بنفسه ونفخ فيه من روحه ، فله ميزة فى الخَلْق ليستْ لغيره ، ولم يكلف إلا تكليفاً واحداً هو عدم الأكل من الشجرة ، فأىّ شىء ينساه وأى شىء يذكره وهو أمر واحد .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (١٩٦ ، ١٩٧) ، وأبو داود فى سننه (٨٥٨) والنسائى فى سننه (١٢١١) وعبد الرزاق فى مصنفه (٣٤٤٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر فسلم فى ركعتين فقام ذو اليدين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ فقال رسول الله ﷺ : كل ذلك لم يكن . فقال : قد كان بعض ذلك يا رسول الله . فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : أصدق ذو اليدين فقالوا : نعم فقام رسول الله فأتم ما بقى من الصلاة ثم سجد سجدتين بعد التسليم وهو جالس .

لذلك كان النسيان فى حقه معصية ، لأنه نبى رسول وهو أبو البشر ، لذلك معصية آدم جاءت لحكمة لأنه أبو البشر ، والبشر على قسمين : معصوم وغير معصوم ، المعصوم هم الرسل . وغير المعصوم هم بقية الخلق فلا بدّ أنْ يتمثل فى آدم القسمان .

فحينما يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ويقول له : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .. (١٩) ﴾ [محمد] أى : من النسيان الذى تجاوزتُ عنه لأمتك استغفر أنت منه لأنه لا يغفر لك كما يغفر لأمتك .

ثم تعال وانظر فى المواضع التى عاتب الله فيها نبيه محمداً ، اقرأ مثلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[1] تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] مجرد أن واحدة من زوجاتك غضبت من شىء تحرمه على نفسك وقد أحله الله لك ، فعدّ هذا ذنباً .

كذلك لما أذن لبعض الصحابة فى التخلف عن القتال عاتبه ربّه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) ﴾ [التوبة] إذن : عاتبه على ذلك ، لكن بدأه بالعفو عنه .

---

(١) اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة فقيل : نزلت فى شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرَّمها على نفسه ، وأخرج ابن جرير الطبرى أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه (فى رواية : أنها بيت حفصة) فقالت : أى رسول الله فى بيتى وعلى فراشى ؟ فجعلها عليه حراماً ، قالت : أى رسول الله كيف يحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٧/٤) : « الصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة رضى الله عنهما أن قالا له : أكلت مغافير (أى عسلاً) فقال : لن أعود له » نزلت الآية .

ثم إن الرسول فيه جانبان جانب البشرية وجانب الرسالة ، فآدم عليه السلام عصى ببشريته بدليل قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] إذن : ما جاءته الرسالة إلا بعد أنْ خاض هذه التجربة ، وكان منه ما يكون من البشر ، ثم اجتباه ربه بالرسالة .

وحين نتأمل القضايا التي عاتب الله فيها نبيه محمداً نجدها مسائل عامة ليس فيها نصّ ولا حكم شرعي خالفه رسول الله ، فكان يجتهد فيها برأيه كبشر وكما يمليه الموقف .

فمثلاً في قصة عبد الله بن أم مكتوم[1] الذي عاتب الله رسوله من أجله ، فقال : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس] تجد هذا العتاب ليس اعتراضاً على ما فعله رسول الله إنما رحمة به وشفقة عليه .

لأنه ترك عبد الله وهو مؤمن جاء ليسأله عن حكم من أحكام الشرع ، وأعرض عنه ليتفرغ لبعض صناديد الكفر ، فهو ﷺ بتفكيره البشري حريص على هداية هؤلاء ، أما عبد الله فهو مؤمن بطبيعة الحال .

إذن : رسول الله يشقّ على نفسه في سبيل دعوته ، ثم اقرأ إلى نهاية القصة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا

---

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم صحابي شجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة مع بلال وكان النبي يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته ، حضر حرب القادسية فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ (الأعلام للزركلي ٥ / ٨٣) .

مَن اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس]

فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : يا محمد ليست مهمتك أنْ يؤمن الناس ، مهمتك أنْ تدلهم وأنْ ترشدهم فقط ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران] وخاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : ما عليك إلا أن تُبلغ ، أما مسألة الإيمان فأريدهم مؤمنين قلباً لا قالباً ، طواعية لا إجباراً .

وقاال تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أجبرناهم على الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد] معنى ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد] ذهابكم إلى أعمالكم وسعيكم فى أنحاء الأرض الواسعة طلباً للرزق . و ﴿وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد] مرجعكم إلى بيوتكم ومأواكم إلى مضاجعكم بالليل .

والمعنى : أنه سبحانه يعلم كل أحوالكم ولا يخفى عليه شىء من أموركم . وسبق أنْ تحدَّثنا عن فَضل السعى فى مناكب الأرض واستنباط خيراتها ، لأنك فى بيئتك ستأخذ خيرات هذه البيئة وحدها ، أمَّا حين تتنقل فى شتى نواحى الأرض فإنك تجد ألواناً أخرى من الخيرات .

الخالق سبحانه وزَّع خيره على جميع أرضه ، فكل أرض ولها

عطاء ، الصحــراء لها عطاء ، والأرض الزراعيــة لها عطاء ، ليس هناك أرض فقــيرة وأخــرى غنية ، بحيــث لو أخذتَ قطاعاً طوليــاً من الكرة الأرضية لوجدتَ فيه من الخيرات مثل ما فى القطاعات الأخرى .

وقد كنا نظن أن الــصـحـراء الجــرداء لا خير فــيها ، والآن هى مــصـدر الرزق الوفير لأصحابها الذين صبروا على شظف العيش فيها أعماراً طويلة .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩)﴾ [النمل] وقــال : ﴿قُلْ سِــيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الانعــام] أى : تأملوا ما فيها من آيات وعبر ، والإنسـان يسافر ويتنقل إما للسياحة ، وإما لطلب الــرزق ، وفى كلتا الحالتــين ينبغى ألاَّ يغــفل عن الاعتــبار والنظر فى آيات الكون .

وفى موضــع آخر قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء] فالتقلُّب هو الخروج من المكان الذى تستوطنه إلى مكان لا تستوطنه ، وهذا يحتاج إلى قدرة مــالية وصحبة وقوة ، لذلك قال سبحانه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦)﴾[النحل]

فالتقلُّب إذن دليل القوة ، فـالرجل الغنى هو الذى يسافر كل يوم إلى مكان يتقلب فى أنحاء الأرض ، أما الفقير فيلزم مكانه لا يبرحه .

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠)﴾

كلمة ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ .. (٢٠)﴾ [محمد] ساعة تسمع كلمة (لو) كأنها تمنٍّ للشيء أنْ يحدث ، فهم يتمنون أن تنزل على رسول الله سورة تأمرهم بالقتال ، والسورة نزلت بالفعل لكن نزلتْ تأمرهم بالصبر وتحمّل المشاق وعدم التعرض لأعدائهم .

لكن كل شيء له أوانه ، وهذا يعني أن حركة المؤمن أصبحت منضبطة بأوامر الحق ، وعناد الكفار ووقوفهم في وجه الدعوة لا يعني أن نهجم عليهم ونقاتلهم من تلقاء أنفسنا إنما ننتظر الأوامر .

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ .. (٢٠)﴾ [محمد] الذي تريدونه ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .. (٢٠)﴾ [محمد] أي : المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠)﴾ [محمد] هذا تشبيه كنظر المغشي عليه من الموت . يعني : المغمي عليه خوفاً وهلعاً .

والمنافق سهل عليه أنْ يذهب ويصلي مع الجماعة في المسجد ، بل ويقف في الصف الأول ، لكن إذا وصلتْ المسألة للقتال اختلف الأمر وانكشف المستور من النفاق .

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ .. (٢٠)﴾ [محمد] واضحة الدلالة على المعنى المراد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠)﴾ [محمد] يقال : جاءك الموت يا تارك الصلاة ، هل أذهب للقتال وأضيع نفسي ؟!

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠)﴾ [محمد] أي : الأوْلى أنهم يطيعون الأمر ويخرجون للقتال ، والعلماء فسروا هذه الآية وقالوا ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠)﴾ [محمد] يعني : الهلاك لهم ، وهذا تهديد إنْ لم يرجعوا عن نفاقهم .

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] بعد ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [محمد] تجعلنا نصرف نظرنا عن إثبات الهلاك لهم ونقول : طاعة منهم لأمر الله ، وقول معروف أوْلَى من موقفهم وأوْلَى من نفاقهم .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] يعنى : صمم وجنّد عزيمته للعمل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] لكن هل الأمر هو الذى يعزم أم صاحبه ؟

إذن : هنا مبالغة جعلتْ من الأمر المعنى شخصاً يعزم ويصمم ويعقد العزم على العمل ، ذلك لأن الحديث هنا عن القتال ، والقتال هو أشقّ ما يمكن أنْ يتحمله المرء ، لأنه يعنى إما الشهادة وإما النصر على العدو .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة]

إذن : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] أبلغ فى التعبير عن المعنى من : عزمت أنت على الأمر ، فكأن الأمر نفسه هو الذى يُلح عليك ، ولا يلح عليك الأمر إلا إذا كان فيه خير كثير لك ، وهل هناك أفضل من الشهادة فى سبيل الله ؟

وقصة مخيريق[1] اليهودي مشهورة ، فبعد أنْ أعلن إسلامه نُودى للقتال فخرج وقاتل حتى قُتل ودخل الجنة وهو لم يُصَلِّ لله ركعة واحدة .

لذلك قال عنه الرسول ﷺ : « مُخيريق خير يهود »[2] . صحيح احرص على الموت توهب لك الحياة ، الحياة الباقية مع الله في الجنة .

وقوله : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١)﴾ [محمد] أي : صدّقوه في أوامره ومنهجه لكان خيراً لهم ، والخير هنا هو البراءة من الموت بعد ذلك ؛ لأنه جاد بنفسه طواعية في سبيل الله ؛ فوهبه الله الحياة عنده .

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ[3] أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾

---

(١) هو : مخيريق النضري من بني النضير صحابي كان من علماء اليهود وأغنيائهم ، أسلم وأوصى بأمواله للنبي ﷺ واستشهد بأحد توفي عام (٣ هـ) . [الأعلام للزركلي ٧/١٩٤] وقد قال : « إن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله » . وقد كانت سبعة بساتين في بني النضير وكانت أول وقف في الإسلام .

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٦١٥٤) وأن رسول الله ﷺ قالها بعد استشهاد مخيريق في غزوة أحد . وكذا السهيلي في الروض الأنف (٢/٣٧٥) وابن هشام في السيرة النبوية (٢/٨٨) وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٥٠١) وابن كثير في البداية والنهاية (٣/٢٩١) زاد المسير .

(٣) ذكر ابن الجوزي قولين في معنى (إن توليتم) :
أحدهما : أنه بمعنى الإعراض : فالمعنى : إن أعرضتم عن الإسلام ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (٢٢)﴾ [محمد] بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً ويغير بعضكم على بعض . ذكره جماعة من المفسرين .
الثاني : أنه من الولاية لأمور الناس . قاله القرظي . فعلى هذا يكون معنى ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ.. (٢٢)﴾ [محمد] بالجور والظلم . [زاد المسير ٥/٣٧٨] .

هذا استفهام من الله بهل ، ورجاء من الله بعسى ، والله لايستفهم ليعلم إنما يستفهم ليقرر حقيقة واقعة .

كلمة (عسى) فعل يدل على الرجاء وبعدها الشيء المرجو ، والرجاء يكون لأمر محبوب متوقع الحدوث وممكن الحدوث ، على خلاف التمنى فهو لشيء محبوب ، لكن مستحيل أنْ يتحقق كقول الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبِرهُ بمَا فعَلَ المشِيبُ

أما الرجاء فتقول : عسى إنْ ذاكرتَ أنْ تنجح ، لكن يختلف الرجاء باختلاف القائل والمقول له ، فعندما أقول لك : اذهب إلى فلان عسى أن يقضى حاجتك ، أو عسانى أفعل لك شيئاً فالرجاء هنا فى بشر ، فإذا كان الرجاء فى الله كان أقوى كأنْ تقول : عسى الله أن يغفر لى .

فقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] لعلكم يحدث منكم هذا ويتوقع منكم ، إذن : ظلوا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة ولا تدخلوا من باب الذنوب والمعاصى .

﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ .. (٢٢) ﴾ [محمد] أى : أعرضتم عن الإيمان ، أو توليتم بعض المناصب كالرئاسة مثلاً تأتى لك بالمصيبة إليك .

﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. (٢٢) ﴾ [محمد] يعنى : مع الخلْق جميعاً ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] رقَّى المسألة إلى الأقارب والأرحام يعنى : يتعدى فسادكم الناس جميعاً إلى الأقارب والأرحام .

أو نقول : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ .. (٢٢) ﴾ [محمد] ما الذى صرفكم عن الحق الذى جاء به محمد ، ولماذا تضعون فى طريقه العقبات ؟ ، وأولها أنْ تسخروا منه ، وأنْ تصفوه بما ليس فيه من قولكم : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، وكذاب .

ثم آذيتموه فى نفسه بالسب وفى بدنه وفى أهله وفى أصحابه ، بل بيَّتم له لتقتلوه ، ما الذى جعلكم تفعلون ذلك ؟ هل ظننتم ورجوتم أنكم إذا فعلتُم ذلك تصبحون على حَقٍّ شعوركم للإفساد فى الأرض وقطع الأرحام .

والحق سبحانه يريد أنْ يُعلمنا أن الرسل لا تتدخل ولا تأتى السماء بمنهج جديد إلا إذا عَمَّ الفسادُ المجتمع كله ، لأن الفساد له مراحل : أولها : فساد النفس وهذا له رادع من النفس اللوّامة ، وهى مناعة فى النفس الإنسانية تعود بها إلى الجادة وتُقوِّم سلوكياتها .

فإذا فسدتْ النفس وتلاشى دور النفس اللوامة جاء دور الرَّدْع من المجتمع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا لم يكُنْ رادع من المجتمع وعَمَّ الفساد الجميع هنا تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة ليقنع الناس ليؤمنوا بما جاءهم به .

فأنتم حين توليتم عن الدعوة وأعرضتم عنها ووضعتم فى طريقها العراقيل تنتظرون أنْ تظلوا على الفساد الذى نشأتم عليه فى الأرض عموماً أو فى تقطيع الأرحام ، لا فأنتم تجنون على أنفسكم ، ألم تنظروا إلى مَنْ سبقكم من الآباء والأجداد أين ذهبوا ، إن مصيركم كمصيرهم ، فاحذروا ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) ﴾ [الزخرف]

وقال : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّـٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً[1] فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [الزمر] إذن : لماذا لا تعملون حساباً لهذا اليوم ؟

والذين استشروا فى الفساد ظنوا أنه ينفعهم ، لكن الفساد فى الكون يضر الجميع ، فالذين ينهبون أموال الناس سيأتى مَنْ هو أقوى منهم وينهب أموالهم ، فأنت إذن لست بمنجى عن أنْ يطولك الفساد وتكتوى بناره ، لأن المجتمع مركب واحد يضم الجميع .

ثم إن القيم ثابتة لا اختلاف عليها ، فالخير خير حتى عند أهل الشر ، والدليل على ذلك لو أن هناك صحبة من الأشرار ، وأراد واحد منهم أنْ يتزوج أخت الآخر ، فقال له : لا لا أزوجك أختى (أنا ملقتش غيرك أنت يا حرامى) إذن : القيم هى القيم . فالكذاب يحترم الصادق ، والمنحرف يحترم المستقيم ، وهكذا .

إذن : الحق سبحانه يقول لهم لا تفسدوا فى الأرض ، واحرصوا على إنهاء الإفساد فى مجتمعكم ، فإنْ كانت لكم الآن قوة تفرضون بها الفساد على الناس فسوف يأتى مَنْ هو أقوى منكم ، ويفرض عليكم مثله وأكثر .

وكلمة ﴿تَوَلَّيْتُمْ .. (٢٢)﴾ [محمد] أى : أعرضتم تدل على أنهم سمعوا كلاماً لا يعجبهم ، فلو أعجبهم لَسمعوا وما أعرضوا عنه ، لكن كيف وهم يريدون الفساد الذى يحقق لهم شهواتهم ، فالفساد سبقه تولٍّ وإعراض .

---

(١) لو أن لى كرَّة : أى عودة ورجوعاً إلى الحياة الدنيا . [القاموس القويم ٢/١٥٨] .

لذلك يقـول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ ﴾ [العلق] كذب لأن الكلام لا يوافق هواه ، لا أنه لا يوافق الواقع ، إذن : أنت مخطئ فى هذه المسألة ومخطئ فى تكذيبك .

ثم نشأ عـن هذا الخطأ خطأ آخر بأنْ توليت وظننتَ وتـوقعت أنْ تظل على حالك فى الإفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام .

والإفســاد فى الأرض أنْ تجـعل الصالح فـيها غير صــالح ، لأن الخالق ســبحانه خلق الكون على هـيئة الصلاح المـطلق قبل أنْ يخلق الإنسان ، إذن : عليـك أنْ تزيد فى صلاح الكون بما لـديك من طموح للأفـضل وللأرقى ، أو أنْ تيـسِّـر الصـلاح لـلناس ، وإذا لم تزد فى صلاح الكون فلا أقلَّ من أنْ تتركه على صلاحه لا تفسده .

لذلك رأينا أن عورات المـجتمع ظهرت بظهـور الفسـاد في الأرض والملوِّثات في البـيئـة التي أفسدتْ الـماء والهواء والطعـام وكل شـيء ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. ㊶ ﴾ [الروم]

والحق سبحانه وتعالى حينما يحذرنا من الإفساد فى الأرض إنما يريد منا أنْ يستطرق الخير فى المجتمع كله ويعمّ الجميع .

وقال بعدها : ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ㉒ ﴾ [محمد] لأن الإفساد فى الأرض يكون عـاماً لكل الناس أقـارب وغيـر أقارب ، فخـصّ الأقارب لأنهم الأوْلى بالمعروف والإحسان لا بالقطيـعة والهجر ، والأقارب إما ذكور وإما إنــاث ، الذكور لهم قوة تحمل ، أمـا النساء ففيـهم ضعف وحاجة .

لذلك كانت قطيعتهم أشدّ وأعظم عند الله .

لذلك يصل المجتمع إلى قمة الفساد حين يصل الفساد إلى هذه المرحلة ، مرحلة إهانة المرأة أو قطيعتها وهى من رحمك .

وإذا رأيتَ المرأة فى مجتمع مهيضة الجناح ، أو وقع عليها ظلم أو تُركتْ لكسب العيش والسعى على المعيشة ، فاعلم أن هناك خللاً فى الأسرة ، وأن الرجل فيها لا يقوم بدوره ، أو قُلْ ليس عنده شهامة ولا نخوة ، فترك زوجته للشقاء ولم يكْفها مؤنة لقمة العيش ، لكن متى تخرج المرأة للعمل ؟ وكيف تخرج ؟

نجد الجواب فى قصة سيدنا موسى مع ابنتىْ سيدنا شعيب عليهما السلام ، اقرأ : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ[1] وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[2] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ[3] الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

إذن : علة الخروج أن أباهما سيدنا شعيب شيخ كبير لا يقدر على القيام بهذه المهمة ، ثم لما اضطرتهما الظروف للخروج لم يتخليا عن الوقار والحشمة ولم يختلطا بالرجال ﴿ لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] يعنى : حين ينصرف الرجال .

ثم يأتى دور المهمة الإيمانية فى المجتمع ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤) ﴾ [القصص] لابد أن يوجد هذا النموذج الشهم فى المجتمع ، وأن يكون

---

(١) مدين : اسم قرية على بحر القلزم [البحر الأحمر] أو هو اسم قبيلة فى هذا المكان أرسل إليهم النبى شعيب عليه السلام [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

(٢) تذودان : تسوقان أغنامهما أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . ذاده يذوده : ساقه وطرده ودفعه . [القاموس القويم ١/٢٤٧] .

(٣) الصَّدَر : الرجوع والانصراف . يقال : ورد إلى البئر ثم صدر عنها أى رجع . وصدر دوابه : أرجعها بعد ورودها . وأصدرها : أرجعها . [القاموس القويم ١/٣٧٠] .

للرجولة دور ، ذكرت لكم زمان لما سافرتُ للسعودية سنة خمسين ، وفى يوم ركبتُ السيارة للذهاب إلى الكلية ، وفجأة نزل السائق وأخذ طاولة عليها عجين من أمام أحد البيوت ، فسألته : لماذا أخذته والباب مغلق ؟ فقال : هذا العجين يعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وعلى مَنْ يراه أنْ يأخذه ويخبزه ويعيده إلى مكانه .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. (٢٣) ﴾ [محمد] أى : الذين ارتضوا التولِّى والإعراض عن دعوة الحق وتكذيب الداعى ؛ ليفسدوا فى الأرض ويقطعوا الأرحام .

﴿ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٢٣) ﴾ [محمد] يعنى : طردهم من رحمته وأبعدهم عن رضوانه ، والذين يلعنهم الله تلعنهم كذلك الملائكة ، ويلعنهم اللاعنون فى كل زمان ومكان ، ويلعنهم كل مَنْ شقى بفسادهم .

﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾ [محمد] هذه نتيجة طبيعية لمنْ لعنه الله أنْ يصم آذانهم عن سماع الحق ويُعمى أبصارهم عن رؤية الآيات فلا يتدبرونها .

إذن : هم يسمعون ويبصرون ، لكن لا يسمعون إلا الشر ، ولا يرون إلا الباطل ، فقد حجبهم الله عن كل خير ، وفتح عليهم باب كل شرٍّ جزاء وفاقاً ، لأنهم أغلقوا قلوبهم عن الحق وأحبوا الباطل فأعانهم الله عليه ويسَّر سُبله لهم .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلا .. (٢٤) ﴾ [محمد] استفهام يفيد الحض والحث على التدبر ﴿ يَتَدَبَّرُونَ .. (٢٤) ﴾ [محمد] يتأملون معانيه وينظرون فى آياته ومعجزاته ويتبصرونها ﴿ الْقُرْآنَ .. (٢٤) ﴾ [محمد] هو كلام الله المنزل على قلب رسوله والذى يحمل منهجه إلى الناس ، وهو معجزة تدل على صدق رسول الله ﷺ .

وتدبره يعنى تأمله ، بحيث لا نقف عند ظاهر الآيات وسطحيتها ، بل نغوص فى أعماقها ونتأمل معطياتها ، ونتلمس أسرارها ، ففى القرآن كنوز نكتشف منها كل يوم جديداً .

بَيِّنٌ فيه كل شىء ومنه   آخذ قدر ذهنه كل تالى

وقوله : ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] يعنى : لا يتدبرون القرآن بل على قلوبهم أقفال فلا تفهم ولا تتأمل ، على قلوبهم مغاليق تحول بينهم وبين التفاعل مع كلام الله . والله غنى عن إيمان المؤمنين ، وغنىّ عن طاعة الطائعين ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، وله صفات الكمال المطلق قبل أنْ يخلق هذا الخلق .

فبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ، وبصفات الكمال فيه ربى ورزق ، وبقيوميته أبقى نعمه على خَلْقه حتى الكافر منهم .

تذكرون قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حينما جاءه ضيف يطرق بابه يريد حاجة ، فخرج له سيدنا إبراهيم وسأله بداية عن دينه ، فقال : أنا مجوسى فأغلق الباب فى وجهه .

ولما انصرف الرجل عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم فى هذا الرجل ، وقال له : أمن أجل بيتوتة ليلة تريد منه أنْ يغير دينه وأنا أسعه

طوال عمره وهو كافر بى ، فخرج سيدنا إبراهيم فى أثر الرجل حتى لحق به وقال له : تعال فقد عاتبنى ربى فيك ، فقال : نعم الرب الذى يعاتب أنبياءه فى أعدائه وشهد ألا إله إلا الله .

إذن : الحق سبحانه وسع كلّ الخلْق بعطاء الربوبية ، أما عطاء الألوهية فقد خصَّ به المؤمنين به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

الحديث هنا عن المنافقين ، وقد بيَّنا أن النفاق لم يظهر فى مكة رغم عدائها للدين ، لكنه ظهر فى المدينة التى احتضنته ، ومنها انطلق للعالم كله ، والسبب فى ذلك أن الضعيف لا يُنَافق إنما يُنَافَق القوى ، فلما قوى المسلمون فى المدينة وُجد بينهم النفاق .

يقول تعالى عنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَا هِم .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] يعنى : كانوا مؤمنين باللسان إنما قلوبهم ليستْ مؤمنة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] ظهر لهم الحق والرشاد والصراط المستقيم الذى جاء به محمد .

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ.. ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] سول لهم يعنى : هيأ لهم وزيَّن لهم وحسن فى نظرهم هذا المسلك المنحرف عن الحق فسوَّل بمعنى وسوس ، كما قال تعالى حكاية عنه : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى

لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

ثم يلزم حدوده فيقول ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطان لى عليهم ولا مدخل لى إليهم .

والعجيب أن يكشف إبليس عن خططه فى الإغواء ، فيقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] يعنى : فى طريق الطاعة ليفسدها عليك ، لذلك قلنا : الشيطان يأتى المسجد ولا يأتى الخمارة .

وقال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] من كل ناحية ، وبأىّ شكل ومن أىّ باب يجد فيه ضعفاً منك يأتيك من باب المال وحب التملك ، أو من باب النساء ، أو من باب الشهرة وحب الظهور .. إلخ فلكل واحد من الناس مفتاح يدخل إليه من خلاله .

ومن رحمة الله بنا أن علَّمنا كيف نتحصّن منه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] لأنك لا تقدر على ردِّه بنفسك فاستعن عليه بمَنْ خلقه ، فإذا استعذت بالله منه خنس وتضاءل ، لذلك سماه الوسواس الخناس .

أما إنْ حاولت ردّه عنك بنفسك فإن المعركة بينكما ستطول ، لأنه أقوى منك وصاحب خبرة فى الغواية والإضلال يُلوّن لك الوسائل ويلف حولك الحبال من حيث لا تدرى حتى يُوقعك فى مصائده .

ومن غباء الشيطان أنْ يكشف لنا خططه فى الإغواء ، فالذى يدبر

لك خطة ليوقعك بها لا يكشف عنها ، لكنه أراد من ذلك أنْ يقيم الحجة على كل مَنْ طاوعه وسمع كلامه ، لذلك سيقول بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان يستطيع أن يعرف مصدر الوسوسة ، أهى من نفسه أم من الشيطان ؟ فالشيطان يريدك عاصياً على أىّ لون وبأىٍّ طريقة ، فإذا لم يفلح معك من باب المال جاءك من باب الشهرة ، فإنْ لم يفلح جاءك من باب النساء ، وهكذا حتى يوقعك .

أما النفس فلها شهوة بعينها تقف بك عندها وتلح عليك .

ثم تلاحظ أن الشيطان - كما قال - يأتيك من كل اتجاه إلا من جهتين ، هما أعلى وأسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأنهما يمثلان العلاقة بين العبد وربه ، حيث سمو الألوهية حين يتجه بنظره إلى أعلى وذل العبودية حين يسجد واضعاً جبهته على الأرض اعترافاً لربه بالعبودية ، لذلك لا يأتى من ناحيتهما الشيطان .

وقوله : ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ﴾ [محمد] أمهلهم وأمد لهم الأمانى ليستمروا فى ضلالهم ويتمادوا فى شهواتهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ .. (٢٦) ﴾ [محمد] هم اليهود : بنو النضير وبنو قريظة ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ .. (٢٦) ﴾ [محمد] أى : نؤيدكم ونساندكم فى بعض الأمور التى تعرقل مسيرة دعوة محمد .

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذى يزيل سبب الصريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/ ٣٧٣] .

وفى آية أخرى بيَّن الحق سبحانه ما أبهمه فى كلمة (بعض الأمر) حيث قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾ [الحشر]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) ﴾ [محمد] أى : ما يُسرون وما يُخْفُون من الكيد للإسلام ، وما دام أن الله يعلم ذلك فسوف يبطله .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ﴾

يعنى : ما حالهم وهم يفعلون ذلك ؟ وكيف بهم إذا جاءتهم الملائكة يتوفونهم ويضربون وجوههم وأدبارهم ؟ كيف بهم عند ذلك ؟ أيستطيعون أنْ يدفعوا عن أنفسهم ؟ إذن : لماذا يعاندون ؟ ولماذا يقفون فى وجه الدعوة ويتآمرون عليها ؟ وكان أوْلَى بهم أنْ يساندوها .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [محمد] إشارة إلى سوء عاقبتهم وما يكون من ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، لماذا ؟ ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ .. (٢٨) ﴾ [محمد] اتبعوا الباطل الذى أسخط الله عليهم وأكثر من ذلك ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ .. (٢٨) ﴾ [محمد] كرهوا الحق الذى يؤدى إلى رضوان الله ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) ﴾ [محمد] أبطلها وجعلها بلا فائدة .

فهل كان لهم أعمال تستحق الثواب فأبطلها الله ؟ قالوا : نعم كانوا يُكرمون الضيف ويُغيثون الملهوف وأمثال ذلك من خصال الخير ، لكن فعلوا الخير وليس فى بالهم الله ، فعلوه للشهرة والسمعة وحديث الناس إذن ، فليأخذوا أجورهم ممَّنْ فعلوا له ، حيث لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة .

قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) ﴾

يعنى : أظن هؤلاء الذين فى قلوبهم ﴿ مَّرَضٌ .. (٢٩) ﴾ [محمد] نفاق ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) ﴾ [محمد] أى : يُظهر أحقادهم

ويكشف خباياهم ، بل هو قادر سبحانه على ذلك ، وقد كشفهم لرسوله وبيّنهم له ، وعرّى أحقادهم الدفينة ، لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ[1] ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

والأعمال تشمل الأقوال والأفعال .

فلا يخفى على العاقل أن يعرف المنافق من سيما وجهه وملامحه ، فالكذاب له سيما تدل عليه ، والصادق فى وجهه من التألق ما يدل على صدقه وهكذا .

وقوله ﴿ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد] أى : فى زلة اللسان أو فى ليِّه بالألفاظ والتلاعب بها كما قال اليهود له ﷺ : السام عليك يا محمد ، وقد فطنتْ لها السيدة عائشة فردَّتْ عليهم بما يستحقون[2] ، لذلك قال الشاعر الجاهلى :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعلَمِ

---

(١) لحن القول : أى أنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه ، أى ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان . وأصل المعنى : كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية أو تعريض أو إشارة خفية . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٥٦٥) أن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : وعليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ : قد قلت وعليكم . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٠٢٧) .

وقد فضحهم الله تعالى فى قوله : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التوبة]

قولهم عن رسول الله ﴿ هُوَ أُذُنٌ .. (٦١) ﴾ [التوبة] كما نقول نحن : فلان ودنى يعنى : كثير السماع ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .. (٦١) ﴾ [التوبة] نعم هو أذن ، لكن أذن خير يسمع الخير ويدلكم عليه .

قوله : ﴿ بِسِيمَاهُمْ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أى : بعلاماتهم الواضحة على وجوههم ﴿ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] صرفهم للألفاظ عن معانيها المتعارف عليها .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾

الكلام هنا للمؤمنين الذين آمنوا بالله وصدَّقوا برسول الله ، يقول الله لهم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ .. (٣١) ﴾ [محمد] نختبركم ونمتحنكم بالشدائد والمشاق .

﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾[محمد] لنعرف مَنْ يثبت مع البلاء ممنْ هو فى شكٍّ وتردد ، يريد الله أنْ يمحص المؤمنين ، وأنْ يختبر قوة إيمانهم وصبرهم وتحملهم للمشاق ، فعلى أكتاف هؤلاء ستقوم الدعوة وهى دعوة عالمية لا يصمد لها إلا

راسخُ الإيمان ثابت العقيدة لا يتزعزع على حد قول القائل :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقتَلُ مُسْلِماً   عَلَى أىِّ جَنْبٍ كَانَ فِى اللهِ مَصْرَعِى

هؤلاء الذين حرصوا على الموت حرْصَ غيرهم على الحياة ، فأعطاهم الله منزلة الشهادة وبرّأهم من الموت بعد أنْ ضحوا بأرواحهم في سبيله ، ووصل حياتهم فى الدنيا بحياتهم فى الآخرة .

وقوله : ﴿وَالصَّابِرِينَ .. (٣١)﴾ [محمد] أى : على المشاق مشاق الدعوة ومشاق التكليف ، وحين تتأمل حال هذه الأمة قبل الإسلام تجد كأن الله تعالى يُعدها لحمل رسالة الإسلام ، فهى أمة حرب وقتال ، تعلم فنونه وتجيد الكرّ والفر ، وهى أمة بدوية لا تستقر فى مكان ، بل بيوتهم على ظهور الدواب ، وهى أمة أمية ليس لها نظام ولا قانون ولا منهج حياة .

كل هذا أهّلها لأن تحمل دعوة الحق إلى الدنيا كلها ، تحارب الباطل وتفقه الناس فى دين الله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ .. (١٢٢)﴾ [التوبة]

إذن : الإسلام فى صراعه مع أعدائه يحتاج إلى قوتين للجهاد : قوة تجاهد لحفظ الكلمة ، وقوة تجاهد لإثبات صدق الكلمة ، لذلك كان الاختبار والابتلاء ضرورة . والاختبار ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ .. (٣١)﴾ [محمد] لا يُمدح ولا يُذم لذاته إنما بحسب نتيجته ، فالذى يدخل الاختبار وينجح نمدحه والذى يفشل نذمه .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ .. (٣١)﴾ [محمد] الله يقول ذلك وهو يعلم ،

إذن : المراد نعلم علم الواقع بالفعل ليكون الواقع حجة على صاحبه ، حتى لا يقول لو دخلت الاختبار لنجحت .

وكلمة ﴿ وَالصَّابِرِينَ .. (٣١) ﴾ [محمد] دلتْ على أن فى التكاليف مشقة وتضييقاً على النفس ، لذلك بعض الناس يتحملها ويصبر ، وبعضهم يضيق بها ويجزع .

قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (١٢٧) ﴾ [النحل] فالله هو الذى يعينك على الصبر بأن يبين لك عاقبته الحميدة .

وقال سبحانه : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] تواصوا يعنى يُوصى كلٌّ منكم الآخر به ، لأن الإنسان مرة يصبر ويتحمل ، ومرة يضعف ويجزع ، فمرة توصينى ومرة أوصيك ، وكلمة الوصية بلفظها لا تكون إلا فى الشىء الغالى الثمين الذى يستحق الاهتمام ، ويستحق أنْ نحرص عليه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ (٣٢) ﴾

إذن هؤلاء لم يكتفوا بأنْ كفروا فى أنفسهم ، بل تعدَّوْا ذلك ﴿ وَصَدُّوا عن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٢) ﴾ [محمد] منعوا الناس أنْ يؤمنوا بالله ووقفوا فى وجه الدعوة وحاربوها .

ثم ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [محمد] يعنى : خالفوه وعادوه ، بحيث كانوا فى شق وهو فى شق ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدىٰ .. (٣٢) ﴾ [محمد] أى : الحق الواضح . والنتيجة ﴿ لن

يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا .. (٣٢) ﴾ [محمد]

فهذه كلها محاولات فاشلة لن تغنى عنهم شيئاً ، ولن تؤثر فى مسيرة الدعوة ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه ما كان ليبعث رسولاً إلى الخلق ثم يُسلمه إليهم ليقتلوه ، هذه سنة من سنن الله فى الكون لم يقتل رسول .

نعم أخبرنا الحق سبحانه عن بنى إسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، ولم يُقلْ الرسل : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾ [البقرة] وتأمل هنا كلمة ﴿ من قبل ﴾ فليس لأحد من اليهود أو حتى من المسلمين أنْ يقول أنه من الممكن أن اليهود يقتلون رسول الله كما قتلوا أنبياءهم ، لأن هذا القتل كان قبل محمد .

إذن : اطمئنوا لن ينالوا من رسول الله شيئاً ، فهذه الآية أحدثتْ اطمئناناً عند المسلمين ويأساً عند الكافرين من هذه المسألة ، وهم بالفعل قد حاولوا لكن هيهات لهم ذلك .

ثم إن كفره فى نفسه له جزاء ، وصده لغيره عن الإيمان له جزاء آخر ، لأنه ضَلَّ وأضل ، ونفهم من كلمة ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٢) ﴾ [محمد] أن سبيل الله طريقٌ معتدل مستقيم يجذب الناس إليه بالمنطق المعتدل ، وبحلو الكلام ، وبالأسلوب الجميل الشيق الذى تلين له القلوب رغم غلظتها .

فطبيعى من الكافرين أنْ يقفوا على هذه الطريق يمنعون الناس عن الإيمان وعن سماع القرآن ، لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت] فهم على يقين من أن سماع القرآن سيؤثر فيهم ويعطف قلوبهم إليه .

ولم يكتفوا بعدم السماع ، إنما ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت] شوَّشوا عليه حتى لا يصل إلى أسماع الآخرين ، ذلك لأنهم أهل لغة وأهل فصاحة يتذوّقون الألفاظ والأساليب وينفعلون لها .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ﴾ [محمد] يعنى : يبطلها ويجعلها غير ذات جدوى ، ومعنى (أعمالهم) أى : أعمالهم فى الصدّ عن سبيل الله ، أو أعمالهم الخيّرة التى فعلوها فى الدنيا ، ومن أعمالهم أنهم كانوا ينفقون الأموال ؛ ليصدُّوا الناسَ بها عن الحق .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ .. (٣٦) ﴾ [الأنفال]

فقد أنفقوا أموالهم دون فائدة أخذها الناسُ منهم وضحكوا عليهم ، كما يحدث عندنا مثلاً فى الانتخابات ، يشترون الأصوات بالأموال ، فيأخذ الناسُ الأموالَ ولا يعطونهم أصواتهم لأنهم لا يستحقونها .

القسم الثانى من أعمالهم بعد المال هو القتال ، والقتال له واقع فى صراعهم مع الحق ، والله يدعوهم : يا مَنْ تحملون السلاح لتشاقّوا الرسول ، اعتبروا من الواقع الذى أمامكم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] ألم يروا أنَّ أرض الإسلام كلّ يوم فى ازدياد ، وأرض الكفر كل يوم فى انحسار ونقصان .

وفى بدر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ .. (٧) ﴾ [الأنفال] طائفة العير التى تحمل البضائع والأموال وكان حُراسها قليلين ، وطائفة النفير التى خرجتْ لحماية القافلة والتى كان يقودها أبو سفيان .

فكان المسلمون يريدون طائفة العير التى فيها الأموال ، لكن لله تعالى شأن آخر ، هم يريدون المال ، والله يريد إحقاقَ الحق وإعلاء كلمته ودحر الكفر ، وحتى لا تكون هناك شبهة تُؤخذ على المسلمين ، وأنهم ما خرجوا إلا للمال والغنائم التى تُعوِّض خسارتهم فى مكة .

يقول تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال] أى العير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال]

نعم لجأ الرسول ﷺ إلى ربه واستغاثه : « اللهم نصْرك الذى وعدتنى ، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض »[1] وسيدنا أبو بكر يقول للرسول : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك .

وكان ﷺ يتطلع إلى النصر على طائفة النفير ذات الشوكة لأنه لا يريد المال ، إنما يريد أنْ يُحقَّ الحق ويُزهقَ الباطل ، وعلى مقدار الصبر يكون المدد من الله ، فإنْ أردتَ أنْ تكبِّر المدد فكبِّر الصبر وكبِّر الرضى وكبِّر العزيمة .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٠٩) وكذا الترمذى فى سننه (٣٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢٠٣ ، ٢١٦) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكذا أخرجه عبد بن حميد فى مسنده (٣١) ولفظ مسلم أن رسول الله جعل يهتف يوم بدر : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » .

الله تعالى لو شاء لانتصر منهم بدون قتال ، لكن أراد أنْ تُقاتلوهم لتُظهروا قوتكم وتفوّقكم عليهم ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة] ولو هزمهم بآية كونية من عنده سبحانه لقالوا : ظاهرة طبيعية كونية ، لا قدرة لنا عليها .

كذلك فى يوم حنين ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة]

فلما اغتر المسلمون بكثرة العدد لقَّنهم درساً يُؤدِّبهم به ، وتفوق عليهم أعداؤهم ، ثم تداركهم برحمته ، وكتب لهم النصر فى نهاية المعركة ، ففى نفس اللقاء أدَّب المؤمنين برسول الله ، وأدَّب الذين شاقوا رسول الله .

وهذا يُعلِّمنا درساً هو أن الهزيمة للمؤمنين ، ليست لهوانهم على الله ، إنما تربية لهم ليُصحِّحوا المفاهيم ويُعدِّلوا المسيرة ، وهذا الدرس واضح فى غزوة أُحُد كما تعلمون .

فلما خالفوا أوامر القائد هُزموا ، ولو انتصروا فى هذه الغزوة لَهانَ عليهم بعد ذلك أمر رسول الله . ولقالوا : خالفنا أوامره فى أُحُد وانتصرنا .

لذلك يقولون فى هذه الغزوة : هُزِم المسلمون وانتصر الإسلام .
إذن : أحبط اللهُ أعمالهم فى الجانبين : جانب المال ، وجانب القتال .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾

النداء هنا للذين آمنوا ، فالإيمان هو حيثية الأمر فى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد] وفى النهى ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد] فالمؤمن هو الذى يسمع النداء ويطيع الأوامر ، لأنه يعلم أنها من رب حكيم هو الخالق والرازق والقيوم .

الخير فى طاعته ، والخسران فى مخالفة أمره ، لذلك المؤمن حين ينزل به بلاء أو شدة يعود إلى نفسه . ويقول : ماذا فعلت ؟ لا بدّ أننى خالفتُ منهج ربى فيُصحح ما كان منه .

ونقف هنا عند تكرار فعل الأمر ﴿أَطِيعُوا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد] مرة معه الله ، ومرة مع رسول الله ، لابد أن لها ملحظاً ، نعم قالوا : لأن الله يُشرِّع المبدأ العام على سبيل الإجمال ، والرسول يُشرِّع ما يُبيِّن وما يُفصِّل هذا الإجمال كما فى الصلاة مثلاً ؛ فالله فرضها إجمالاً والرسول بيَّن لنا أوقاتها وعدد ركعاتها ، وكلَّ ما يتعلّق بها .

إذن : لله تعالى طاعة فى المبدأ المجمل ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فإذا لم يكرر الفعل كما فى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران] فالأمر واحد توارد عليه كلامُ الله وكلامُ رسول الله .

ويأتى الأمر بصورة أخرى : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ، لكن جعل طاعتهم من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، فلا طاعةَ لهم خاصة ، ولا طاعةَ لهم منفصلة عن طاعة الله وطاعة رسول الله ، لأنه كما تعلمون لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق ، وهذه قاعدة شرعية .

وقوله : ﴿ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) ﴾ [محمد] لأنكم تعملون أعمالاً حسنة وأفعالاً طيبة ، فحافظوا عليها ولا تبطلوها بفعل السيئات ، على حَدِّ قوْل الشاعر :

وَلَمْ أَرَ فِي عيوب النَّاسِ عَيْباً كَعَجْزِ القَادِرِينَ عَلَى التمَامِ

والإمام الشافعى[1] يقول :

إذَا كنتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإنَّ المَعَاصِى تُزِيلُ النِّعَم

فمن العيب أنْ ينتكس المسلم ويفعل السيئة بعد أنْ وُفِّق للحسنة ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

وفى الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها »[2]

فمن رحمة الله بنا أن الحسنة تمحو السيئة ، لكن السيئة لا تمحو الحسنة لكن يلزمها الاستغفار . ومن أخطر الأمراض التى تبطل العمل الصالح أنْ يداخله رياءٌ أو سُمعة أو نفاق أو شبه شرك ، والعياذ بالله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ (٣٤) ﴾

---

(١) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي توفى ٢٠٤ هجرية ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد في غزة عام (١٥٠ هجرية) زار بغداد مرتين وقصد مصر سنة (١٩٩ هجرية) فتوفى بها ، كان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٠٣٩٢ ، ٢٠٤٣٥ ، ٢٠٥١٢، ٢٠٥٥٦) والحاكم فى مستدركه (١٦٥) والبيهقى فى شُعَب الإيمان (٧٧٩٥) والقضاعى فى الشهاب (٦١١) كلهم عن أبى ذر الغفارى، وفى الباب عن معاذ بن جبل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ .. (٣٤) ﴾ [محمد] يعنى : ماتوا على الكفر ولم يستدركوا الأمر بالتوبة قبل أنْ يداهمهم الموت ﴿ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) ﴾ [محمد] هذا يعنى أنهم لو تابوا قبل الغرغرة وفى فسحة الدنيا لغفر لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] والموت على الكفر بعد أنْ بان الهدى وظهر للناس دليلٌ على الإصرار ، فكيف تناله رحمة الله ؟!

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ[1] أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾

معنى ﴿ فَلا تَهِنُوا .. (٣٥) ﴾ [محمد] لا تضعفوا فى مواجهة الأعداء لأنكم أمامهم فى معركة ، ولو لمسوا فيكم بوادر الضعف لتجرأوا عليكم وطمعوا فيكم ، ومن مظاهر الضعف أن تدعوهم إلى المسالمة والموادعة ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ .. (٣٥) ﴾ [محمد] فتصرفوا من هذا المنطلق ، ومن هذا الاعتقاد أنكم الأعلونَ عليهم .

ولم لا ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. (٣٥) ﴾ [محمد] يُقوِّيكم ويحمى ظهوركم ، وهو سبحانه الركن الشديد الذى لا يخذل أبداً مَنْ لجأ إليه ، وهو صاحب هذا المنهج الذى تقاتلون من أجله ، فكيف يتخلى عنكم أو يُسلمكم لأعدائكم ؟!

إذن : إذا حمىَ الوطيس واشتدَّتْ الحرب فاثبتوا ، ولا ترهبكم

---

(١) وتره حقه : نقصه حقه . قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] أى : لن ينقصكم ثوابها بل سيوفيكم أجور أعمالكم كاملة . [القاموس القويم ٢/٣١٨] .

منهم عدة ولا عدد ولا حيلة ولا مكر ، لأن الله معكم .

لذلك في قصة سيدنا موسى عليه السلام لما كاد فرعون أنْ يلحقه هو وجنوده ، حتى كان البحر من أمامه وجنود فرعون من خلفه ، وقال أحد جنود موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] ماذا قال موسى ؟ ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] قالها بملءِ فيه وهو واثق من نصر الله .

ونفهم من قوله تعالى ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ .. (٣٥) ﴾ [محمد] نهى عن أن نطلب نحن السلام ولا نرفع نحن الراية البيضاء ، بل نتركهم يطلبون هم ، لذلك يقول سبحانه في الآية الأخرى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا .. (٦١) ﴾ [الأنفال] ذلك لأنهم يفهمون أن السلام من طرفكم ضعفٌ واستسلام ، وأيضاً لا تطلبون السلام لأنكم الأعلون والأعز والأقوى .

﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. (٣٥) ﴾ [محمد] ومَنْ كان في معية الله يخلع الله عليه من صفاته ، أرأيتم في قصة الغار كيف وقفوا على فتحة الغار ، حتى قال الصِّديق : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له النبي ﷺ : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

وما دام الله ثالثهما ، فهم في معيته تعالى ، وما دام الله لا تدركه الأبصار ، فكذلك مَنْ كان في معيته لا تدركه الأبصار .

ومعنى ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] وتر الشيء يعني : فقده ، والمعنى : لن ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً ، بل سيُوفِّيكم إياها وزيادة .

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٩٥) وكذا مسلم في صحيحه (٤٣٨٩) وكذا أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٢١) وأحمد في مسنده (١١) كلهم من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

القرآن الكريم أعطانا صوراً متعددة للحياة الدنيا تدل في مجملها على أنها حياة قصيرة هيِّنة تغرُّ الناس وتخدعهم ، من هذه الصور قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف]

وهنا : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [محمد] وهذا أسلوب قصر يؤكد أن الدنيا ما هي إلا كذلك لعب ولهو ، فليحذرها العاقلُ ولا يغترُّ بها .

اللعب أنْ تنشغل بشيء لا يضر لكنه لا ينفع ، لذلك أخذتْ بعض المجتمعات المتقدمة تُرشِّد لعب الأطفال ، بحيث تؤدي الغرض في تسلية الطفل ، وأيضاً تعلمه شيئاً للمستقبل .

لذلك قال النبي ﷺ : « علِّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل »[2] .

---

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطَّم . وهشم الخبز : كسره وفتَّه . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] وتذروه الرياح : تطيره وتبدده .

(٢) عن بكر بن عبد الله بن ربيع الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : « علِّموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعْم لهو المؤمنة في بيتها المغزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك » أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (باب مَنْ اسمه بسر) . وأورده المتقي الهندي في كنز العمال (٤٥٣٤٣) وعزاه لابن منده في المعرفة وأبو موسى في الذيل والديلمي في الفردوس ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٨٧٦) وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة أن في سنده سليم بن عمرو الأنصاري، قال الذهبي في الميزان : روى عنه علي بن عياش خبراً باطلاً وساق هذا الحديث .

واللعب بالنسبة للطفل يكون قبل التكليف ، أما اللهو فهو الانشغال بعمل لا يفيد ولا ينفع ويلهيك عن عمل مفيد نافع ، كالذى يجلس على القهوة مثلاً يلعب الشطرنج ، ويؤذن للظهر فلا يقوم للصلاة .

وفي سورة الجمعة : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والمتتبع لآيات القرآن يجدها تصف الدنيا في أكثر من موضع بهذا الوصف، لعب ولهو بهذا الترتيب الوجودى ، لأن اللعب للأطفال واللهو للكبار إلا فى سورة العنكبوت ، فيقول : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا عن الفتن التى تضرُّ بالآخرة وتبعدك عن ثوابها ، فذكر اللهو قبل اللعب .

ثم يكفى فى تحقير الدنيا وهوان شأنها اسمها ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٦) ﴾ [محمد] فلا أقل من هذا الوصف ، وأنت حين تقول (الدنيا) تتذكر المقابل لها وهى (الآخرة) ، فإنْ كانت هذه دنيا فهذه عُلْيا ، وإنْ كانت هذه فانية فهذه باقية .

ومع ذلك لا تُذمُّ الدنيا عموماً ، وإنما تُذمُّ إنْ حدث فيها ما يُذم ، وتُمدح إنْ حدث فيها ما يُمدح ، وهى مزرعة الآخرة ولا تدخل الجنة إلا بعمل الدنيا ، فالدنيا موضوع الدين أما الآخرة فجزاء ، والجزاء على الشيء ليس هو الشيء .

وسبق أنْ قلنا : إن الدنيا فى نظر المؤمن أهم من أنْ تُنسى لأنها تُوصِّلك للآخرة ، ولكنها أتفه من أنْ تكون غاية لأن غاية الشيء نهايته والدنيا ليست نهايتك ، إنما وراءك غاية أهم منها هى الآخرة ، هى الغاية الحقيقية التى ليس بعدها بعد .

وقولـه سبحـانه : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا .. (٣٦) ﴾ [محمد] أى : تؤمنوا بالله وتُطبقوا منهجه فى افعل ولا تفعل ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد] يعنى : يعطيكم أجور الأعمال كاملة دون نقصان ، ولا يأخذ منك الأموال التى تفضل بها عليكم .

بدليل أنه سبحانه حين يأمرك بأنْ تتصدَّق يعتبر هذه الصدقة قرضاً يرده إليك مع الزيادة ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) ﴾ [محمد] الحق سبحانه لا يسألنا أموالنا ، لأن الإنسان جُبل على حب المال ويشق عليه أن يؤخذ منه ، فالله يقول : لو سألتكم الأموال سيحتاج السؤال إلى إلحاح .

﴿ فَيُحْفِكُمْ .. (٣٧) ﴾ [محمد] يلح عليكم فى السؤال وأنتم تكرهون ذلك ؛ لأنه يُظهر ما عندكم من البخل ، ويُظهر ما فى نفوسكم من ضغائن وأحقاد .

وحين تظهر أضغان النفوس تفسد العلاقات بين أفراد المجتمع وقد رأيتم ذلك مثلاً فى مسألة التأميم التى حدثتْ ؛ لأن المال عادة تكسبه بتعب وعرق فيعزّ عليك أنْ يؤخذ منك ويُعطى لغيرك ، وهنا يظهر الضغن .

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ .. (٣٧) ﴾ [محمد] كما فى قوله سبحانه : ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وقالوا فى ﴿ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد] أنها تفيد عموم السلب لا سلب العموم ، كيف ؟ كما نقول مثلاً : لم ينجح كل الطلاب ، هذا يعنى أن البعض نجح ، فالسلب هنا للعموم على خلاف لو قلت :

كل الطلاب لم ينجحوا . هذا عموم السلب حيث لم ينجح منهم أحد .

كذلك ﴿لا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝٣٦﴾ [محمد] أى : كلها ، فالمعنى أنه يسألكم بعضها كما يحدث فى الزكاة والصدقات والفدية والكفارات .

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلاءِ .. ۝٣٨﴾ [محمد] (ها) أداة تنبيه لجذب الانتباه ، و(أنتم) ضمير للخطاب، و(هؤلاء) إشارة لهذا المخاطب أنتم ، فالمخاطب هو عَيْن المشار إليه ، إذن : جمعتْ الآية بين أدوات ثلاث لتأكيد التنبيه ولمزيد الاهتمام .

جاء بـ هاء التنبيه لأن المتكلم حر يتكلم فى الوقت الذى يريده فهو يملك زمام الأمر ، أما المخاطب فلا يملك ذلك ولا يدرى متى تتكلم ليسمع ، لذلك نأتى بأداة التنبيه ليستعد ولا يفوته شىء من الكلام .

فالحق سبحانه وتعالى يخاطبهم بكل هذه الأدوات ليؤكد نداءه لهم ودعوته لهم لينفقوا ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝٣٨﴾ [محمد] مَنْ الذى يدعو ؟ الله يدعوهم لينفقوا .

تأمل هنا كيف أن الحق سبحانه يحترم ويُقدِّر مجهودات البشر ؟ فرغم أنه هو سبحانه الخالق الرازق مُسبِّب الأسباب منحك القوة التى تعمل بها ، والعقل الذى تفكر به ، والمادة التى تستعملها ، ومع ذلك

احتـرم دورك فى أنْ تُوجِّه الطاقـة المخلوقـة لله فى شىء نافع مفـيد وقال لك : أنفق كأن المالَ مالك وهو يقترضـه منك قرضاً حسناً .

كما أنك تعطى ابنك مـصروفه اليومى فيدخره مـثلاً فى حصالة ، ثم يطرأ عليك ظروف تحتـاج فيها مـا فى حصالة الولد . فتـقول له : أعطنى ما فى الحصالة سلف وسوف أرده إليك لما أقبض .

يقـول تعـالى : ﴿مَن ذَا الَّـذِى يُقْـرِضُ اللَّهَ قَـرْضًـا حَسَنًا فَـيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥)﴾ [البـقرة] فالحق سـبحـانه حرَّم الربا فى التـعامل بين البـشر ، لكن أحله لنـفسـه تعالى حـين يقـترض منهم ، وهذا فـضل وتكرُّم من الله على الخَلْق فى الأولى وفى الآخرة .

وقوله : ﴿لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [محمد] فى كل الوجوه التى يحبها الله فى الإنفاق من خَلْقه لخلقه ، وهو سبحانه قادر أنْ يغنى الجمـيع فلا يحـتاج أحد لأحـد ، إنما أراد سـبحانه أنْ تتـواصل القلوب وتتشابك المـصالح ويترابط الخَلْق بمشاعـر الإيمان ، حيث يعطف الغنى على الفقير ، ولا يحقد الفقير على الغنى ، وحيث يرحم القوى الضعيف .

لكـن لمـا دعـاهـم الله للإنفـاق كـان منهم قسـم يبخل ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ .. (٣٨)﴾ [محمد] وهؤلاء هم الذين لا يفـهـمون فـلسفـة التجـارة مع الله ولا عاقبة الإنفـاق ، لا يعرفون أن النفقـة بهذا الشكل تزيد المال ولا تنقـصه ، واقرأ : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾[البقرة]

الإنفاق فى سبيل الله مثل رجل حـصد القمح وأدخل المخزن عنده عشرة أرادب مثلاً عندما يأخذ أردباً منها ليزرع به الأرض من جديد ، هل يقول أن القمح نقص أردباً ؟ لا لأنه سيأخذه مضاعفاً .

إذن : لا تنظر إلى ما يخرج لكن انظر أيضاً إلى ما سيأتى لتكتمل الصورة ويكون الحساب صحيحاً ، حتى الربا فى تعاملات الناس يعطيك بزيادة خمسة أو عشرة في المائة .

أما ربك عز وجل فيعطيك سبعين أو سبعمائة أو أضعاف ذلك ، واقرأ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

لذلك وقف المستشرقون عند حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « مكتوب على باب الجنة أن الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] وقالوا : هذا مناقض للقرآن الذى يقرر أن الحسنة بعشر أمثالها ، والواقع أنه لا يوجد بينهما تناقض أبداً ، لأننى حين أُخرج الدرهم قرضاً يعطينى عشرة منها الدرهم الذى دفعته . إذن : أعطانى تسعة فحين تُضاعف تكون ثمانية عشر .

والحق سبحانه وتعالى لما حثَّنا على القرض علَّمنا كيف نتعامل مع المقترض ، فقال : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[2] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٥٣٨٢) وعزاه للطبرانى فى الكبير والحكيم فى نوادر الأصول عن أبى أمامة : « رأيت على باب الجنة مكتوباً : القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر » ، وأخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط من حديث أنس قال قال رسول الله : رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، قلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال :« إن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

(٢) النظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . وانظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٢] .

فالمـرحلة الأولى أنْ تنظره لحين يتـيسر له السـداد ، ثم لك بعد ذلك أن تكمل إحسانك وتتسامح فى هذا القـرض أو بعضه على سبيل الصدقة ، وهذا هو الخير لمن تتوق نفسه إلى معالى الأمور .

ثم فى قوله تعالى : ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ..(٣٨)﴾ [محمد] إنصاف لأمة محمد ﷺ وبيان لشرفـها ، فالكثرة تنفق والقلَّة تبخل ، فى الأمة مَنْ أنفق كل ماله فى سبيل الله ، ومَنْ أنفق شطر ماله فى سبيل الله .

وقد بلغ البذل والعطاء فى هذه الأمة مبلغاً لا مثيل له فى التاريخ ، حيث كـان الأنصارى يقـول لأخيه المـهاجر : انظر إلى نـسائى أيّهن أعجـبتْك أطلقـها لتتـزوجهـا أنت ، مع ما هو معلوم من مـكانة المرأة خاصة عند الرجل ، لكنها السماحة والتضـحية .

وفى المـقابل تجـد هذا الصحـابى المـهاجـر ، وهو سيـدنا عبـد الرحمن بن عوف[1] رضى الله عنه يرفض هذا العرض السخى ويدعو لأخيه[2] ويقول له : لا يا أخى ، بارك الله لك فـى نسائك ، لكن دُلّنى على السوق[3] .

وذهب عبد الرحـمن إلى السوق وتاجر ، حتى كـان أغنى صحابة

(١) هو : عبد الرحـمن بن عوف أبو محمد الزهرى القـرشى صحابى ، أحد العشرة المـبشرين بالجنة ، وأحد الســتة أصحاب الشـورى الذين جعل عمر الخـلافة فيهم وأحد الســابقين إلى الإسلام ، ولد عـام (٤٤ ق . هـ) وتوفى عام ٣٢ هجـرياً ، عن ٧٦ عامـاً ، كان يحـترف التجارة والبيع . [الأعلام للزركلى ٣/٣٢١] .

(٢) المقـصود بأخيه هنا هو سـعد بن الربيع الخزرجى الأنصـارى وليس أخاه حقيـقة ، ولكن رسول الله آخى بينهما بعد الهجرة إلى المدينة [انظر سيرة ابن هشام ١/٥٠٤] .

(٣) ذكره ابن كثيـر فى السيرة النبوية (٢/٣٢٧) عن أنس قال : قدم عـبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فـعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق . فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن .

رسول الله ، حتى قالوا : إنه لو تاجر فى التراب لربح فيه[1] .

وكان عنده ألفُ عبد ، وجاء رجل يسأل أحدهم : ما حال ابن عوف فيكم ؟ فقال : والله لو أقبلت علينا وهو معنا لا تعرفه من بيننا لأنه يُلبسنا مما يلبس ، ويُطعمنا مما يأكل .

فرغم ما ركز فى النفس الإنسانية من حب المال وحب التملك إلا أنه يوجد من الناس من جبل على الجود والكرم ، يعطى بلا حدود ، يعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، انظر مثلاً إلى كرم حاتم الطائى[2] وهو يقول لغلامه :

أَوْقِدْ فَإنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرّ
وَالرِّيحُ يَا غُلامُ رِيح صُر
عَلَّ يَرَى نَارَك مَنْ يمُرّ
إنْ جلبتَ ضَيْفاً فَأنتَ حُر

ويُروى أنه جلس جماعة من القوم فى ساحة مكة يتحدثون عن

---

(١) هذه العبارة وردت فى كل المصادر التى رجعت إليها فى حق عروة بن الجعد البارقى أن النبى ﷺ أعطاه ديناراً يشترى له به شاة فاشترى له به شاتين ، فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة ، فدعا له بالبركة فى بيعه ، وكان لو اشترى التراب لربح فيه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٧٠) وابن ماجه فى سننه (٢٣٩٣) وأحمد فى مسنده (١٨٥٤٩) والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/١١٢) والحميدى فى مسنده (٨٨٢) . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) حاتم الطائى هو : حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى القحطانى أبو عدى ، فارس شاعر جواد جاهلى . يُضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ومات فى عوارض (جبل فى بلاد طيء) شعره كثير ضاع معظمه بقى منه ديوان صغير مطبوع . توفى عام ٤٦ هجرية . [الاعلام للزركلى ٢/١٥١] .

أجود أهل زمانهم ، واختلفوا فى ذلك ، واحد قال : أجودهم سعيد بن سعد بن عُبادة . وآخر قال : بل عبد الله بن جعفر . وآخر قال : عرابة الأوسى[1] فى المدينة أجود منهما . وكادوا يقتتلون ، فقال رجل عاقل منهم : ابعثوا إلى كل واحد من هؤلاء رجلاً يدخل عليه على أنه عابر سبيل وله حاجة ، وانظروا كيف يقابله .

فبعثوا رجلاً إلى عبد الله بن جعفر ، فوجده يركب للصيد ، وقد وضع رِجْلاً فى الركاب والأخرى على الأرض ، فقال له : يا ابن بنت رسول الله ، عابر سبيل وطالب حاجة فأنزل رجْله من الركاب ، وقال له : اركب وهذه حقيبة فيها أربعة آلاف دينار وفيها كسوة كذا وكذا ، وفيها سيف على بن أبى طالب فاحرص عليه .

وذهب آخر لسعيد بن سعد بن عُبادة وطرق الباب فردَّتْ الخادمة : مَنْ ؟ قال : عابر سبيل ، وطالب حاجة . فقالت : إن صاحب البيت نائم ، فماذا تريد ؟ فقال : طالب حاجة ، فقالت : حاجتُكَ أهون من أنْ أوقظه ، والله ما عنده إلا سبعمائة دينار خُذها واذهب إلى معاقل الإبل ، واختر لك راحلة وخادماً يخدمها ، فلما استيقظ سعيد قالت له : حدث كذا وكذا ، فقال : أفعلتِ ذلك ؟ قالت : نعم ، قال : فأنتِ حرة .

ثم تلاحظ أن الأمر بالنفقة هنا لمن ؟ للذين آمنوا خاصة الذين ناداهم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٣٣) ﴾ [محمد] ذلك لشرف الإنفاق ومنزلته وثوابه المضاعف يريد ألاَّ يحرم المؤمن نفسه من هذا الخير .

---

(١) عرابة الأوسى : هو عرابة بن أوس بن قيظى الأوسى الحارثى الأنصارى ، من سادات المدينة الأجواد المشهورين ، أدرك حياة النبى ﷺ وأسلم صغيراً . وفد الشام فى أيام معاوية وله أخبار معه ، توفى بالمدينة عام ٦٠ هجرية [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٢] .

حتى كلمة (نفقة) مأخوذة من سوق نافقة . يعنى : رائجة رابحة لأنها تجارة مع الله ، فلا تظن أنها تجارة كاسدة خاسرة ، نعم سوق أقامها الحق سبحانه بين عباده لحكمة أرادها ، فجعل منهم الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، واختبر كلاً منهما بالآخر ليحدث هذه الحركة التكاملية فى مجتمع الإيمان .

لذلك قلنا : إن الله تعالى يريد من المؤمن أنْ يعمل على قدر طاقته لا على قدر حاجته ، لأنه لو عمل على قدر حاجته وحاجة مَنْ يعول لن يبقى شيء للضعيف الذى لا يقدر على العمل ، ثم إن الأيام دُوَل ، وقد يصير القوى إلى حال الضعف فيحتاج ، أو يصير الغنى إلى حال الفقر ، عندها يجد مَنْ يعطيه ، والإنسان ابن أغيار .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الإنفاق الذى أمرنا الله به يمثل التأمين لمستقبل المؤمن ، فلا يخاف على نفسه ولا على أولاده من بعده إنْ ألجأته الظروف إلى الحاجة ، ويكون على ثقة بأن المجتمع المؤمن سيمدُّ له يد العون .

والعجيب فى أمر النفقة أن الحق سبحانه لم يعف منها أحداً ، فمَنْ لا يقدر على نفقة المال تلزمه نفقة المقال ، اقرأ قول الله تعالى :
﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة]

فمَنْ كان واجداً وبخل على غير الواجد أنْ ينصحه وأنْ يوقظ غفلته ، فإذا لم يفعل كان آثماً ، فإذا لم يكُنْ لديه هذا ولا ذاك ،

شرحها الحق سبحانه في قوله : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ[1] قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] ماذا يصنعون ؟ ﴿ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

فهذا الذى لا يملك شيئاً إلا البكاء والعواطف الجيَّاشة التى تعبر عن شوقه إلى الإنفاق ورغبته فيه ، لكنه لا يملك فيكفيه هذه العواطف ، وتُحسب له الأعمال بالنيات ، وقد يشجعه هذا الموقف على أنْ يسعى ليفعل شيئاً ليعطى أىَّ شىء .

وليحذر الغنى أنْ يكون فتنة للفقير حين يمنعه حقه فيتذمر ويعترض على قضاء الله الذى حكم عليه بالفقر وعلى غيره بالغنى ، لا تجمع عليه الفقر وعدم الرضا بالقضاء .

واقرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

والعاقل مَنْ خفف حمله يوم تثقل الأحمال على أصحابها ، فلا يحملها عنهم أحد ، ومن أراد أنْ يُخفِّف عن نفسه فلا أقلَّ من أنْ يعطى الزائد عن حاجته لمَنْ يستحق .

كلمة ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ .. (٣٨) ﴾ [محمد] البخل هو قَبْض اليد عن الإنفاق ، وهو عملية حركية تنشأ نتيجة مواجيد راسخة فى

(١) نزلت هذه الآية فى البكائين وهم ستة : عبد الله بن مغفل وصخر بن سلمان وعبدالله بن كعب الأنصارى وعلبة بن زيد الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن عتمة أتوا رسول الله ليحملهم ويجهزهم للغزو فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فانصرفوا باكين . وقد كانوا يريدون أحد ثلاثة أشياء : دواب أو زاد أو نعال . [زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير سورة التوبة - آية ٩] .

النفس الإنسانية هى مشاعر الشح التى تدعو صاحبها لعدم الإنفاق .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨﴾ [الحشر] أى : يتغلب على هذه الطبيعة فيه ، ويكبت جماح نفسه حتى تطاوعه فينفق .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه عاقبة البخل : ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. ㊳﴾ [محمد] يعنى : بخله ناشىء من شُحِّ نفسه ، أو يبخل عن نفسه يحرمها ثواب الصدقة والإنفاق ويحرمها مضاعفة الأجر .

إذن : قوله (عن) أعطتنا معنيين : إما بيان مصدر البخل وهو شح النفس ، أو بيان عاقبة البخل ، وهى حرمان النفس من الثواب لا حرمان أحد آخر .

وقد فهم العلماء العارفون هذا المعنى ، فالإمام على رضى الله عنه لما سُئل : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ، قال للسائل : الجواب عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : إذا دخل عليك شخصٌ بهدية وآخر يطلب عطية ، فلأيِّهما تبَشُّ وبأيهما تفرح ؟

إن كنتَ تفرح بحامل الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تفرح بطالب العطية فأنتَ من أهل الآخرة .

لذلك كان بعض الصالحين إذا دخل عليه سائل يقف له ويُرحِّب به ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ .. ㊳﴾ [محمد] لأن اليهود قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، لأنه يقترض منا ، فالله يرد عليهم بل الغنى لله ، غنى فى ذاته عن خَلْقه ، ويفيض من غناه فيغنى الخلق بأنْ يزرع بينهم المودة والرحمة ويُحببهم فى النفقة ، فلا يتكبر الغنىُّ بغناه ، ولا يحقد الفقير على الغنى بسبب فقره ، فالكل راضٍ

يقول : الحمد لله ، فكأن الغنى كله مصدره الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا .. (٣٨)﴾ [محمد] أى : تعرضوا وتمتنعوا عن الإنفاق الذى أمركم الله به ، ولا تُصدقوا ما وعدكم الله به من الزيادة ، فاعلموا أن الله لن يترك الضعيف والفقير والعاجز عن الكسب ، إنما سيستبدلكم بمَنْ هو خير منكم فيستجيبوا لأمر الله وينفقوا على خَلْق الله .

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد] لا يكونوا أمثالكم فى البخل والشح وقَبْض اليد عن العطاء ، لأنك عبدى وموظف عندى ، فإنْ خالفتنى آتى بغيرك يكون أفضل منك ، فإذا لم تجد الخير فى قوم ستجده فى آخرين ، وإذا لم تجده فى بلد ستجده فى بلد أخرى .

ومعلوم أنه لما انتشر الإسلام فى المشارق والمغارب كثر أهل الجود فى شتى بلاد الإسلام ، ولهم فى جودهم قصص وحكايات .